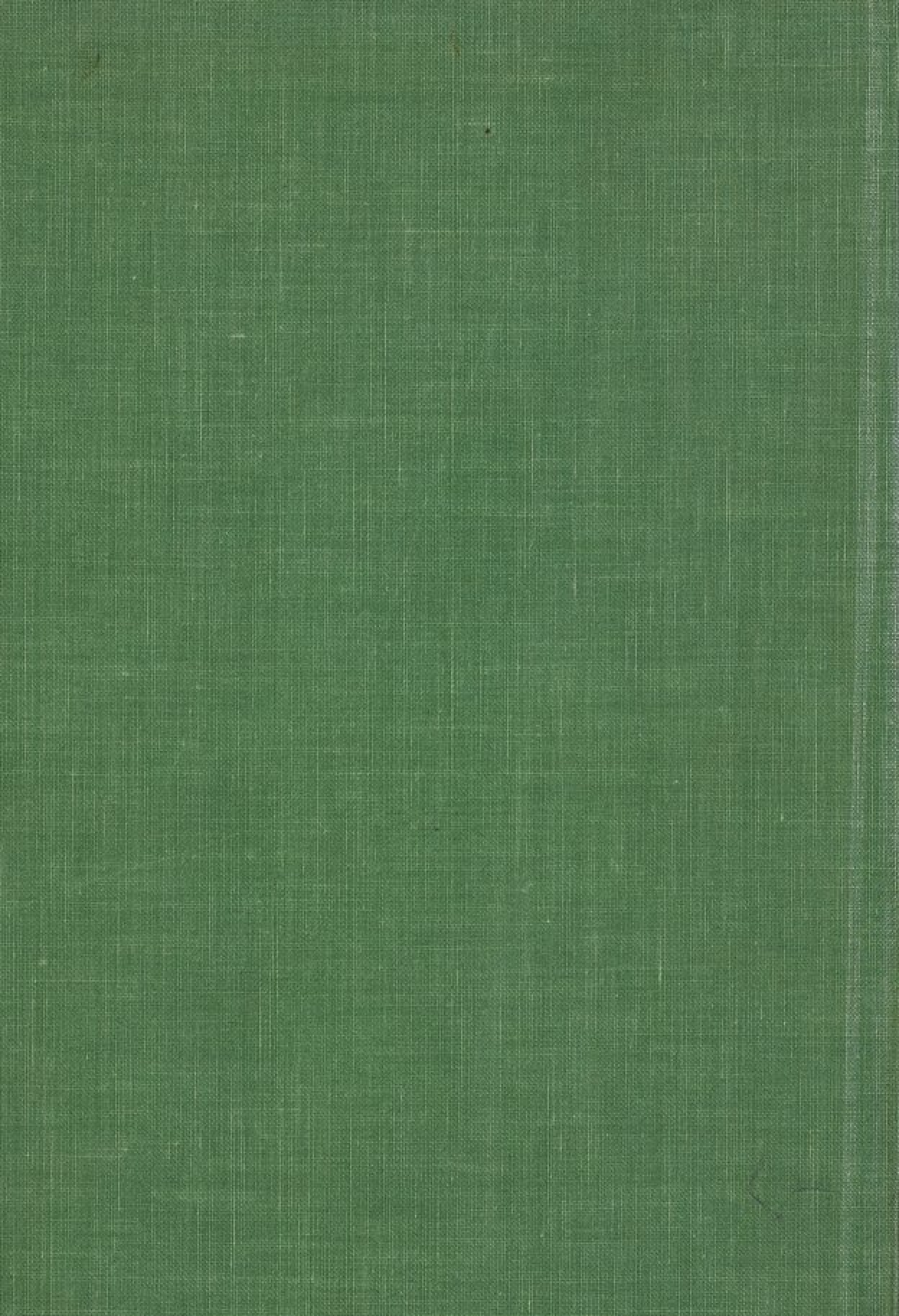
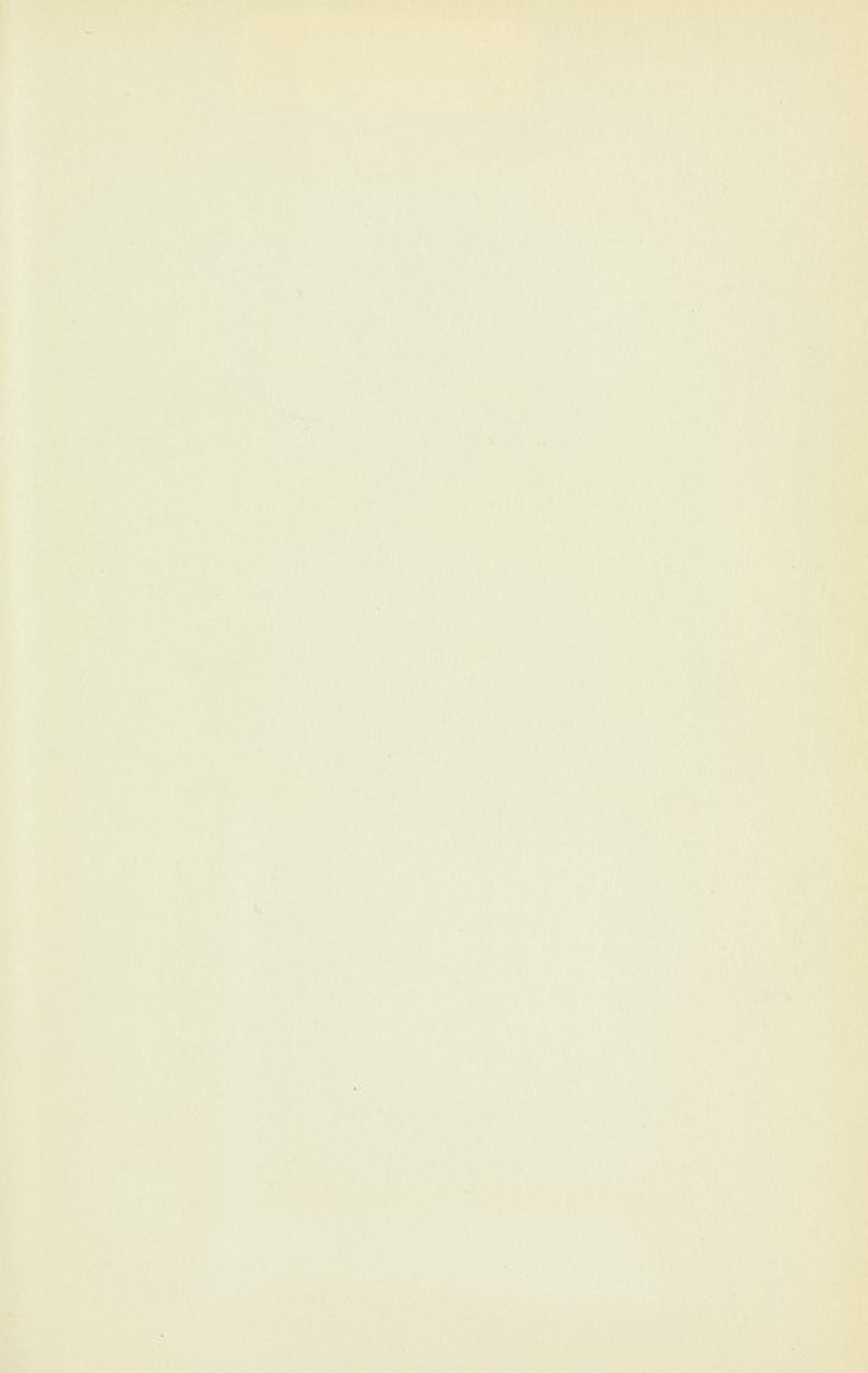
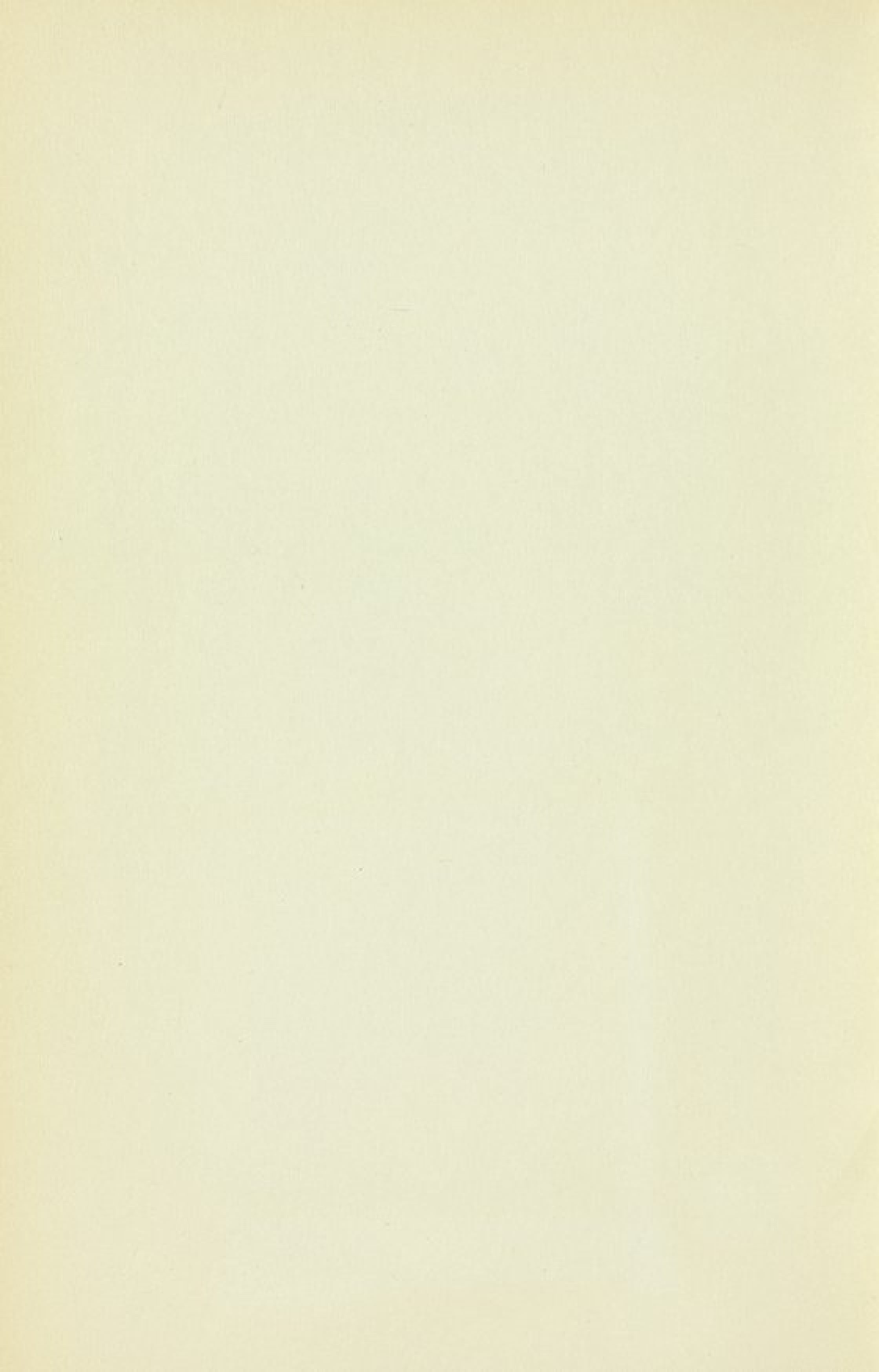
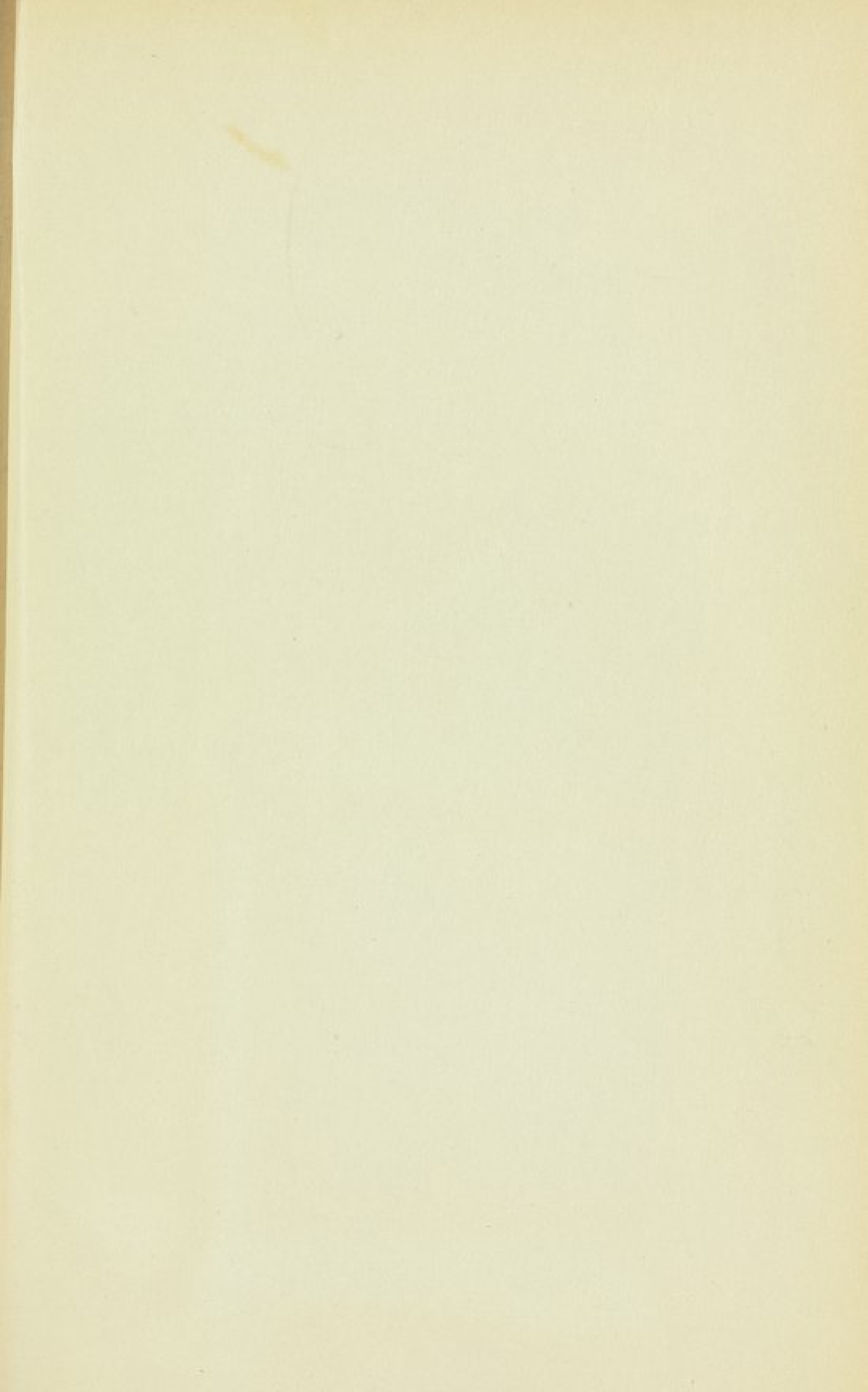



Princeton University Library
32101 072235219







جماعة الأزهر للنشر والتأليف

عبد الله جاك منو

وخروج الفرنسيين من مصر

تأليف

دكتور محمد فؤاد شكري

B. A. (Hons), M. A, Ph D.

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب

بجامعة فؤاد الأول

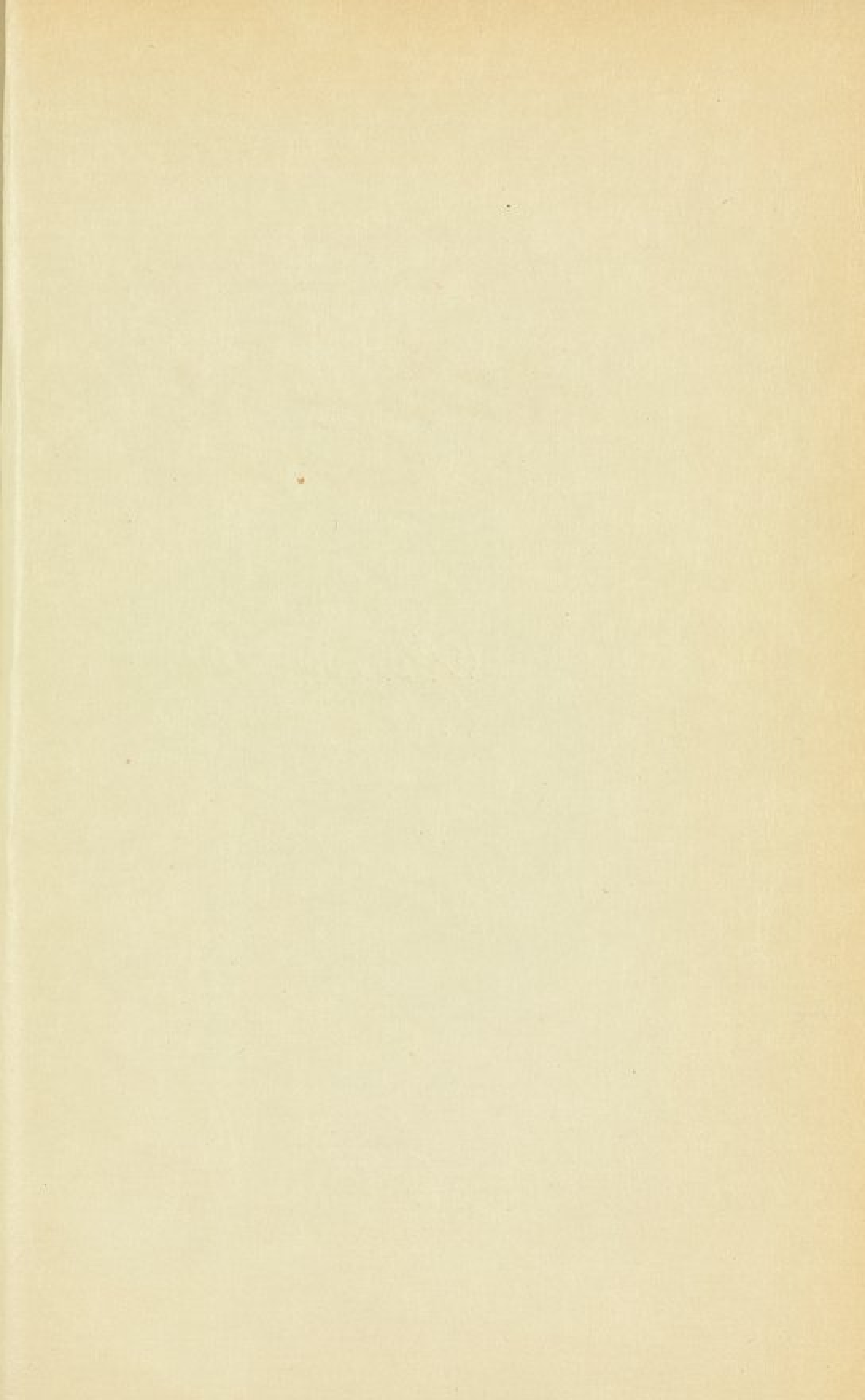
١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م

يطلب من : مكتبة الخانجى بمصر والمثنى ببغداد

مطابع

دار الكتاب العربي بمصر

محمد حلمي المنياوي



جماعة الأزهر للنشر والتأليف

عبد الله جاك منو

وخروج الفرنسيين من مصر

تأليف

دكتور محمد فؤاد شكري

B. A· (Hons), M. A, Ph D.

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب

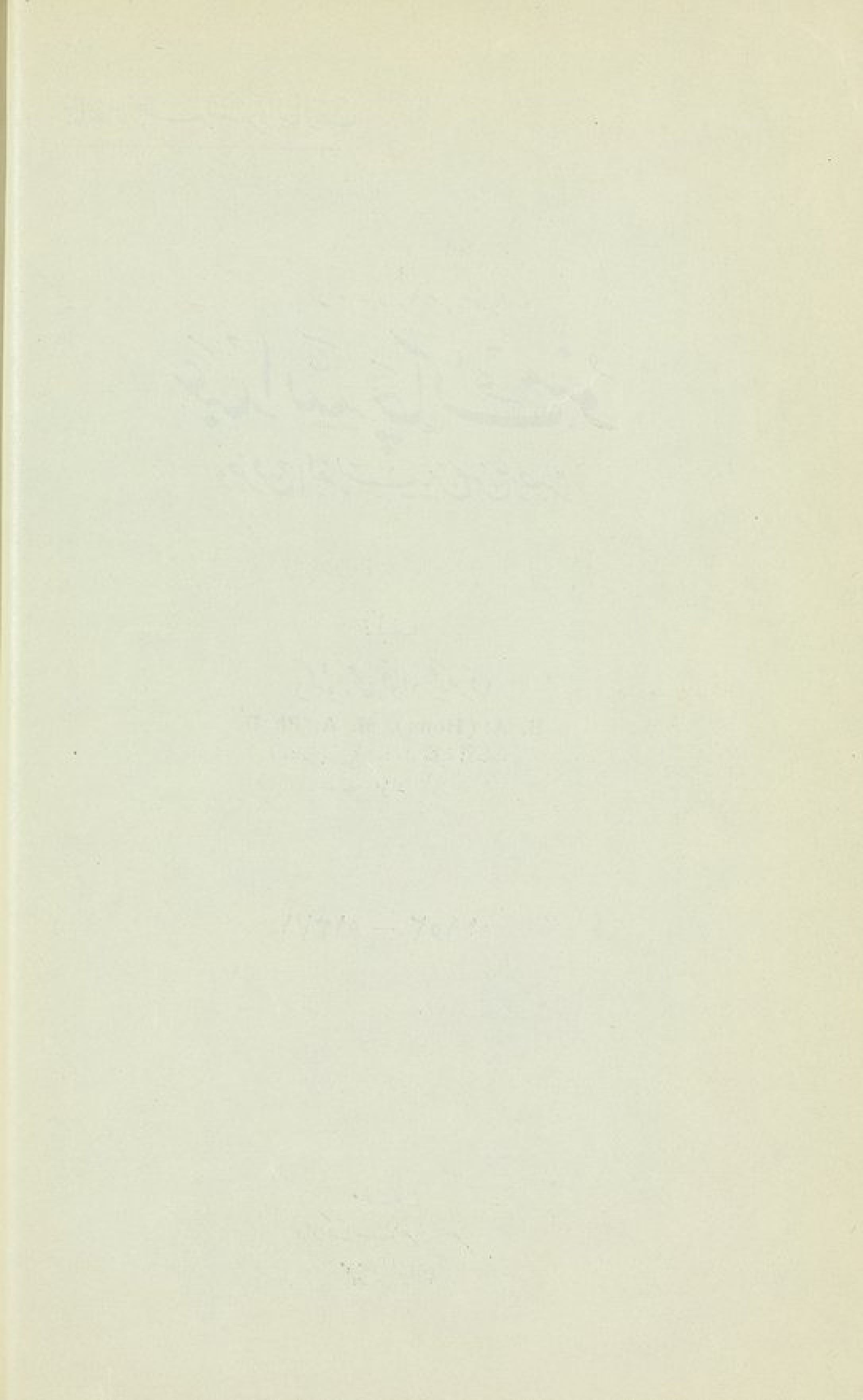
بجامعة فؤاد الأول

١٣٧١هـ – ١٩٥٢م

مطابع

دار الكتاب العربي بمصر

محمد حلمي المنياوي



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين . وبعد فقد كتب كثيرون فى موضوع الحملة الفرنسية ، وتحدثوا عن عبد الله جاك منو فى سياق حديثهم عن الحملة . ولكن ما نشر عن الحملة الفرنسية أو عن منو ، سواء بالعربية أو باللغات الأجنبية ، وجدناه لا يروى ظمأ ولا يشفى غليلا لأسباب منها أن اهتمام الكتاب كان منصرفا إما لبيان العلاقة بين مجىء الفرنسيين إلى هذه البلاد ثم خروجهم منها ، وبين تقلبات الموقف السياسى فى أوروبا ؛ وإما لإبراز ناحية المقاومة الأهلية للحكم الأجنبى ، على اعتبار أن ظهور حركة قومية كبيرة فى مصر آنئذ كان مبعث هذه المقاومة المجيدة ؛ وإما لتدوين وقائع الحملة وسرد قصتها فحسب .

وقد فات جمهرة الكتاب ، أنه وإن أفضى الموقف السياسى فى أوروبا إلى مجىء الحملة ، فإن مغامرة جسيمة كهذه ، ما كان يتسنى حدوثها ، لولا أنه كانت قد رسخت فى أذهان الفرنسيين فكرة إنشاء مستعمرات جديدة ، فى ميادين جديدة ، ووفق مبادىء جديدة ، كى تعوض عليهم ما فقدوه من مستعمراتهم القديمة . فكانت الحملة الفرنسية أول تجربة استعمارية من نوعها قامت على أسس مغايرة لتلك التى شيدت عليها الدول الاستعمارية فى المائتى سنة السابقة مستعمراتها . وفضلا عن ذلك فقد كانت أول تجربة للحكم الأجنبى ، صادفتها مصر فى القرن التاسع عشر .

وترتب على إغفال هذه الاعتبارات ، أن أحداً من الكتاب لم يعن باستقصاء الحقائق المتصلة بأصول هذه المغامرة الاستعمارية الجديدة ؛ أو التعمق فى بحث الانطباع الذى تخلف عنها فى ذهن الشعب المصرى نفسه ؛ أو استجلاء نشاط منو الذى آلت إليه مقاليد الأمور فى المستعمرة ، وصح عزمه على المضى فى هذه التجربة الاستعمارية إلى غايتها ، بعد أن وضع بونابرت أصولها .

ولذلك فقد عنينا بإبراز شخصية منو ، الذى اكتملت فى عهده المشاريع والنظم الاستعمارية الجديدة ، وإن كانت لم تتح الفرصة لتنفيذها لأسباب داخلية ومحلية ، كان منو نفسه وسائر قواد الحملة مسئولين عنها ؛ ولأخرى خارجية ودولية عجلت بخروج الفرنسيين ، وأنقذت الوطن من براثن الأجنبى الغاصب .

ولقد انفرد — فيما نعلم — أحد الكتاب الفرنسيين ، جورج ريجو ، بالكلام عن حكومة منو ومشاريعه فى مصر . ولكن ريجو لم يتعرض بقليل أو كثير لموقف المصريين من جهود الفرنسيين لإنشاء مستعمرتهم الجديدة . فحرصنا على إظهار هذه الناحية ، وأوضحنا مدى رد الفعل الذى حدث بين المصريين نتيجة لأساليب الحياة الجديدة التى شهدوها .

ثم إنه لما كان البحث العلمى ، لمعرفة طبيعة البلاد ، وموارد ثروتها ، وعادات أهلها ، وتاريخها ، وكل ما يتصل بحياة المجتمع المصرى ، من مقتضيات هذه التجربة الاستعمارية الجديدة ، فقد استأثرت جهود العلماء الذين صحبوا الحملة بنصيب وافر من هذه الدراسة .

ولعلنا نكون قد وفقنا فيما ابتغيناه . فإذا بدا منا تقصير ، فالميدان لاشك فسيح لجهابذة المؤرخين ، وأعلام الناشرين ، ليفعلوا ما نكون نحن قد عجزنا عن فعله .

وختاماً لا يسعنى إلا أن أذكر بالشكر والتقدير معاونة الأصدقاء الكرام : الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى والأستاذ الدكتور عبد الحليم النجار بجامعة فؤاد الأول ، والأستاذ عبد الحميد حسنى بمكتبة سراى عابدين ، والأستاذ محمد المعتصم سيد بمكتبة جامعة فؤاد الأول ، والأستاذ عبد الحليم محمد عبد القوى المدرس بوزارة المعارف . فإلى معاونة حضراتهم الصادقة يرجع الفضل فى ظهور هذا الكتاب ، والله ولى التوفيق ؟

العباسية : ٥ ذى القعدة ١٣٧١ هـ
٢٧ يوليو ١٩٥٢ م

المؤلف

فهـــرس

٤ — خريطة الاسكندرية (١٨٠١) .

مأخوذة من مصور التاريخ العلمى والعسكرى للحملة الفرنسية فى مصر طبع باريس ١٨٣٠ — ١٨٣١ . المجلد الثانى لوحة رقم ٢٦٥ .

مع ملاحظة أن المكان المذكور باسم برج (Hâche) صحته برج الكاشف (Kâchef)

٥ — خريطة معركة النيل أو أبى قير البحرية فى أول أغسطس ١٧٩٨ .

مأخوذة من نفس المصور السابق . المجلد الأول لوحة رقم ١٥١ .

ملحوظة : توضح هذه الخريطة كذلك معركة أبى قير البرية فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩ لحرف (A) يرمز لموقع الجيش التركى ؛ (B) لمتاريس من الرمال ؛ (C) لزحف الجيش الفرنسى ؛ (D) لزوارق مدفعية لحماية الجيش التركى ؛ (E) لبطارية لمجاوبة زوارق المدفعية .

تصويب

صفحة	سطر	اقرأ
٢	١٨	Jeanne de Péan
٩	٢١	La Vendée
١١	٢٥	Tallien
١٢	١٦	Saint-Pierre de Chemille
١٣	٢٥	براس — (وكذلك فى الصفحات التالية)
١٧	٩	١٧٨٩
١٩	٥	Toussiant
٢٠	١	« جنرال المخادع » بالكسر
٢٠	هامش (١)	Carnet
٢١	س ٥	تاليران
٣١	٢	لوفرتير
٣٤	١٤	ذريعة لفتح
٣٧	هامش (٢)	pp. ccc — ccci
٣٩	هامش (٢)	320 - 3
٣٢	س ٢٢	Saint — Priest
٦٣	١٨	تبو صاحب سلطان ميسور
٦٩	٢٥	وجهود
٧٨	٢٢	دوجا
٩١	٦	ضعفت
٩٥	٢٥	أعدائه
٩٦	٩	أدام
٣٢٠	١٣	للحكومة
٣٨٢	٢١	واضحا
٤٠٦	٢٢	أوكس Oakes
٦١٦	٤	نوروى
٦٢٤	٨	دينون
٦٢٩	السطر الأخير	ليففر
٦٤٩	٢٣	فى جزء

الفصل الأول

سيرة منو

فاتحة القول :

منذ حوالى قرن ونصف من الزمان جاء الفرنسيون إلى هذه البلاد وهم ينتوون تشييد صرح مستعمرة « جميلة » تعوضهم عن خسائر الحروب الاستعمارية الطويلة التى نشبت فى القرن الثامن عشر ، فأفقدتهم كندا ولوزيانا وغيرها فى أمريكا الشمالية كما انتهت بضياع معظم ممتلكاتهم فى الهند ، ولم يبق فى حوزتهم إلا قليل من جزر الأنتيل فى الهند الغربية ، وبعض المراكز التجارية على ساحل الملبار ، وعدد ضئيل من الجزر فى المحيط الهندى أهمها : بوربون وموريتيوس (أو إيل دى فرانس) . وقد عزا الفرنسيون انحلال امبراطوريتهم الاستعمارية القديمة إلى أسباب عدة مالبث الفلاسفة والمفكرون الذين أفضى ذيوع آرائهم إلى قيام الثورة الفرنسية الكبرى ، أن كشفوا النقاب عن حقيقتها ، وشرعوا يبحثون الوسائل التى تمكن مواطنيهم من الاحتفاظ بما بقى فى حوزتهم من المستعمرات القديمة من جهة ، وتعينهم من جهة أخرى على اختيار ميدان جديد لإنشاء إمبراطورية استعمارية جديدة، تقوم على أسس غير تلك الأسس التى اعتمد عليها نظام الحكم فى أملاكهم السابقة ؛ وقد اتفقت كلمة أكثر هؤلاء الفلاسفة والمفكرين على أن يكون « الشرق » ذلك الميدان الجديد ، وأن تكون مصر المستعمرة الناشئة الجديدة . وفى سنة ١٧٩٨ أخذت حكومة بلادهم بهذه الآراء ، وتضافرت عوامل سياسية عدة — أهمها الاقتصاص من الإنجليز الذين ظلوا يناصبون فرنسا العداء فى أوربا — على إقناع هذه الحكومة بإرسال بونابرت على رأس جيش الشرق إلى مصر لوضع نواة الإمبراطورية الاستعمارية الجديدة . ومن ثم كانت الحملة الفرنسية على مصر .

بدأت تجربة الاستعمار الفرنسى الحديث على يد بونابرت ، فوضع هذا قواعد الحكم التى اعتقد أنها خليقة بأن تضمن النجاح لهذه التجربة ؛ وعندما ساء الموقف فى أوربا ؛ وحلت الهزيمة بالجيوش الفرنسية ، واضطر بونابرت إلى مغادرة هذه البلاد فى صيف

عام ١٧٩٩ ، عهد بقيادة الحملة العامة إلى الجنرال كليبر ، وكان بونابرت يرجو أن يستطيع القائد العام الجديد إتمام مابدأه هو ، وأن يحفظ المستعمرة من الضياع ، أوأن يتيح لحكومة الجمهورية فى باريس الفرصة حتى تعقد مع أعدائها صلحاً مشرفاً تستطيع بفضله الحصول على مستعمرات أخرى غير مصر ، إذا وجدت لزاماً عليها أن تعيد هذه البلاد إلى السلطان العثمانى صاحب السيادة الشرعية عليها من قديم الزمان .
ولكن كليبر كان يتعجل الرحيل وإخلاء هذه المستعمرة الجميلة ، ومع أن مساعيه الأولى فى سبيل إخلائها ما لبثت أن فشلت ، فقد ظل يعتقد حتى وقت اغتياله أن البقاء فى مصر أمر لا جدوى منه ولا طائل تحته . ولا يدرى أحد ماذا كانت تؤدى إليه سياسة كليبر لو طالت حياته وحدث ما يسّر استئناف المفاوضات مع العثمانيين والإنجليز ، وسنحت الفرصة مرة أخرى لإهمال التعليمات التى تركها بونابرت له عند ذهابه إلى فرنسا . وقد كانت هذه التعليمات تنص على التمسك بهذه البلاد حتى يحين موعد عقد الصلح العام فى أوربا إلا إذا حالت دون ذلك ظروف قاهرة — فصّلها بونابرت فى تعليماته —

على أن اختفاء كليبر من مسرح السياسة ما لبث أن أسلم مقاليد الإدارة والحكم فى مصر إلى رجل كان يؤمن بمزايا التجربة الاستعمارية الجديدة ، ويعتقد اعتقادا راسخاً أن التمسك بهذه البلاد إلى النهاية يعود على الوطن بأعظم الفوائد ، فما ينبغى أن يرغمه على الجلاء عنها سوى هزيمة ساحقة ماحقة ، أو ظروف سياسية تنتهى بخروج الفرنسيين من مصر ، لقاء إبرام صلح مشرف يعوض على فرنسا خسارة مستعمراتها الجديدة فى جهات أخرى ، وينشر ألوية السلام العام فى أوربا . ولم يكن هذا الرجل سوى جاك فرانسوا دى منو Jacques - François de Menou الذى أخذ على عاتقه منذ حضوره إلى مصر بذل قصارى جهده لتأييد سياسة بونابرت ، فكان زعيم « الاستعماريين » الذين أقض مضاجعهم قبول كليبر و « الكليبريين » المفاوضة بصدد الجلاء ؛ ولهذا حرص منو ، بعد أن دانت له السلطة وتولى قيادة الحملة العامة بعد اغتيال كليبر ، على تنفيذ سياسة بونابرت ، فنافح عن « المستعمرة » ما شاء له جهده أن ينافح عنها ، بأساليب ، وإن لم يكن أكثرها مطبوعا بطابع الحكمة أومتسما بأصالة الرأى ، فقد كانت كافية لأن تنهض دليلا على أن صاحبها قد وطد العزم على تنفيذ سياسة بونابرت ، وعدم التفريط فى المستعمرة ؛ حتى إن بونابرت الذى اضطر إلى التعجيل بإبرام الصلح مع انجلترا ، عند ما تبين له حرج الموقف فى مصر ، لم يسعه

سوى إغداق الثناء على ذلك الرجل الذى أرغم إرغاماً على تسليم « تلك البلاد المصرية الجميلة » ، وحرمان الجمهورية مستعمرتها الناشئة[١] .

ولم يكن إيمان منو العميق بنجاح تجربة الاستعمار الفرنسى فى مصر صادرا عن هوى ، أو نتيجة ميول ورغبات طارئة ، بل تضافرت عوامل عدة على إشعال هذه الجذوة فى نفسه وبقائها موقدة ، فقد شب منو وترعرع فى أحضان أسرة عريقة عرفت بالنبل وبالإخلاص لعرش الملك ، وكانت تملك أرضا واسعة لا فى فرنسا وحدها ، بل فى « المستعمرات » البعيدة كذلك . ومالبث منو أن انغمر فى تيار الحياة العامة فى وقت كانت فيه آراء فلاسفة الثورة ومفكريها تتجاوب أصداؤها فى أنحاء فرنسا ، فآمن بهذه الآراء الحرة الجديدة واعتنق مبادىء « الثورة » من سياسية واقتصادية ، وتقلب فى عدة مناصب أيام الجمعية الأهلية التأسيسية والمؤتمر الوطنى . وقد ترك هذا كله أثراً لا يمحى فى مزاجه الخاص وخلقه الشخصى .

ينتمى جاك فرنسوا دى منو إلى أسرة نبيلة نشأ مؤسسها : جان دى منو فى إقليم پرش Perche بين مقاطعتى مين Maine فى الشمال وأنجو Angou فى الجنوب ، ثم وفد إلى تورين Touraine فاستقر بها ، ولم يمض زمن طويل حتى أصبح فى عام ١٠٥٥ فارسا ، وامتدت أملاك الأسرة على جانبى أحد فروع نهر اللوار فى بلاد لوش Loches الغنية . وفى القرن الثالث عشر استطاعت أسرة منو النبيلة أن تصهر إلى أسرتى برتانى Bretagne وأنجو المنتميتين إلى البيت المالك فى فرنسا . وفى عام ١٣٣٨ تزوج نيقولا دى منو من جين دى بيان Jeanue de Péan ، فأضاف هذا الزواج إلى أملاك أسرة منو أراضى وقصر بوساى Boussay ، فظلت (بوساى) من ذلك الحين فى حوزة فرع أسرة منو الأكبر إلى أواسط القرن الثامن عشر . حتى إذا تزوجت شارلوت دى منو — ابنة رينيه شارل الوحيدة — من ابن عمها رينيه فرنسوا دى منو فى بدء عام ١٧٤٦ انتقلت هذه الأراضى إلى فرع الأسرة الأصغر . وفى قصر بوساى ولد ابنهما جاك فرنسوا دى منو فى ٣ سبتمبر ١٧٥٠ ، وكان أصغر أبنائهما الأربعة . وشب جاك فرنسوا فى قصر بوساى وقضى السنوات الخمس عشرة الأولى من عمره فى أرض تورين الجميلة ، مسقط رأس آبائه وأجداده الذين خدموا ملوك كابيه ، وفالوا ، والبربون ، بإخلاص وأمانة ، حتى لقد سقط من أبناء الأسرة فى معركة (ملبلاكية) وحدها فى عام ١٧٠٩ واحد وعشرون من بيت منو بين قتيل

---

(١) Correspon. Napoléon No. 5887

وجرح ، فى أثناء حروب الوراثة الأسبانية المعروفة فى عهد ملك فرنسا لويس الرابع عشر .

وكان فى نوفمبر من هذا العام نفسه أن التحق رينيه فرنسوا دى منو (والد جاك فرنسوا) فى خدمة جيش الملك ، وقد استمر فى خدمة لويس الرابع عشر ، وحفيده لويس الخامس عشر ، حتى اعتزل الخدمة فى عام ١٧٤٨ ، بعد أن ارتقى أعلى المناصب ، ثم توفى فى عام ١٧٦٥ تاركا لأرملته العناية بأولادهما .

فما زالت السيدة حتى التحق أبناؤها الثلاثة الكبار بخدمة الملك ؛ أما الابن الرابع — جاك فرنسوا — فقد تطوع فى جيش الكونت دى بروفنس Provence ، حفيد الملك ، فى يناير ١٧٦٦ ؛ وتدرج فى سلك الجندية حتى رقى ملازماً ثانياً بعد عامين ، ثم انتقل إلى سلاح الفرسان فى عام ١٧٧٣ ، ورقى فى العام التالى يوزباشا بآلاى اللورين وفى عام ١٧٧٥ سنحت الفرصة لفرنسا لتنتقم من غريمتها انجلترة ، التى كانت قد أرغمتها فى صلح باريس ١٧٦٣ على التخلى نهائيا عن مستعمراتها فى أمريكا الشمالية . ذلك أن الولايات الثلاث عشرة مالبثت حتى قامت بالثورة على انجلترة ، ونشبت حرب الاستقلال فى إبريل ١٧٧٥ ، وكان من المنتظر أن تجند فرنسا جيوشها وتعد أساطيلها لتأييد « الأمريكيين » فى نضالهم .

وواقع الأمر أن فرنسا أيدت أهل الولايات منذ إعلانهم الثورة على الإنجليز ، فتدفقت الأموال على الثائرين ، وتطوع كثيرون من الفرنسيين للخدمة فى الجيوش الأمريكية ، وراقبت الحكومة الفرنسية تطور النضال بعين الحذر والقلق ، حتى إذا أصدر الأمريكيون (إعلان الاستقلال) المشهور فى ٤ يولية ١٧٧٦ ثم أحرزوا أول انتصاراتهم الباهرة فى ساراتوجا فى العام التالى (١٧ اكتوبر ١٧٧٧) ، ووصلت أخبار هزيمة الإنجليز إلى باريس فى بدء ديسمبر من العام نفسه ، بادر فرجن Vergennes بإبلاغ المندوبين الأمريكيين الذين كانوا قد حضروا يطلبون محالفة فرنسا الرسمية ، أن حكومة الملك على استعداد لعقد هذه المحالفة ، وأبرمت معاهدة التحالف الفرنسى الأمريكى فعلا فى بداية فبراير عام ١٧٧٨ ، على أساس تنازل فرنسا نهائيا عن كندا ، لتضم الولايات الأمريكية إليها كل ما يمكن الاستيلاء عليه فى أثناء النضال من أرض هذه المستعمرة الفرنسية القديمة ؛ وذلك لقاء أن تحصل فرنسا على كل ما تستطيع قواتها الاستحواذ عليه من جزر الهند الغربية .

وجهزت فرنسا أسطولين أحدهما للعمل فى المياه الأمريكية بقيادة داستان D' Estaing ، والآخر لإرغام الأسطول الإنجليزى على البقاء محصوراً فى المياه الإنجليزية بقيادة دورفيلييه D' Orvilliers فأبحر داستان إلى أمريكا والهند الغربية ، واشتبك (دور فيلييه) مع الأسطول الإنجليزى فى موقعة (أوشانت) Ushant البحرية ، وكانت معركة غير حاسمة . وعظمت صعوبات الإنجليز عند ما أعلنت أسبانيا البربونية وحليفة فرنسا الحرب على انجلترا فى عام ١٧٨٠ ، رغبة منها فى انتزاع جبل طارق من قبضة الإنجليز . ووصل (جيشن) Guichen أمير البحر الفرنسى إلى جزر الهند الغربية ليخلف (داستان) فى القيادة ، ثم أعلنت هولندة الحرب على انجلترا فى العام نفسه ؛ وأرسلت الحكومة الفرنسية نجدات جديدة إلى المياه الأمريكية بقيادة (دى جراس) De Grasse ، واستطاع الأمريكيون بقيادة واشنطن هزيمة الإنجليز فى (يورك تاون) York town فى ١٩ أكتوبر ١٧٨١ ، وكانت من المعارك الفاصلة التى أرغمت الإنجليز على الاعتراف باستقلال الولايات الأمريكية بعد فترة قصيرة من الزمن . ومع ذلك فقد لازم التوفيق الإنجليز فى عملياتهم البحرية ضد الفرنسيين فانتصر رودنى Rodney أمير أسطولهم على (دى جراس) فى مياه الهند الغربية فى معركة حاسمة فى ١٢ إبريل ١٧٨٢ ، ووقع (دى جراس) فى أسره . ومع أن الفرنسيين كانوا يحاولون غزو الشواطىء الإنجليزية بعد أن اطمأنوا إلى تفوقهم البحرى بمؤازرة حلفائهم ضد أساطيل العدو فى المياه الإنجليزية ، فقد تجنب أسطولهم دائماً الاشتباك مع الإنجليز فى معارك كبيرة حاسمة ، ولم تسفر هذه المحاولات عن شىء . وما إن عقد الإنجليز مع الأمريكيين مقدمات الصلح فى ٣٠ نوفمبر ١٧٨٢ ، حتى أبرمت فرنسا وأسبانيا مقدمات الصلح مع الإنجليز كذلك فى فبراير ١٧٨٣ ، فوضعت الحرب أوزارها ، وتم عقد الصلح نهائياً بين الدول الثلاث فى معاهدة فرساى فى سبتمبر من العام نفسه .

ذلك كان مدى اشتراك فرنسا فى حرب الاستقلال الأمريكية ، ويقول منو إنه ، ككثيرين غيره من مواطنيه ، قد أسهم فى هذه الحرب ؛ ويؤكد اشتراكه فى ست حملات عسكرية قبل انفجار بركان الثورة الفرنسية (فى عام ١٧٨٩) ، ومن الثابت قطعا — كما جاء فى سجل خدمته العسكرية — أنه كان ملتحقاً بالجيش الرابض بشاطىء فرنسا الغربى فى مقاطعات (أونى) Aunis ، و (بواتو) Poitou ، و (سانتونج) Saintonge ، بين أول مايو ١٧٧٨ و ١٣ يونية ١٧٨٣ ؛ وعلى ذلك

فمن المحتمل على ما يظهر أن منو كان بين هيئة أركان الحرب فى الجيش المعد لغزو انجلترا ، ولم تتح له فرصة الذهاب إلى أمريكا أو إلى جزر الهند الغربية [١] .

على أن عدم اشتراك منو فى أية عمليات عسكرية برية أو بحرية فى العالم الجديد لم يكن معناه أنه ما كان يُعنى عناية فائقة بتتبع كل ما يجرى من حوادث فى أمريكا ، ثم فى جزر الأنتيل على وجه الخصوص ، ذلك أن العاطفة الجامحة التى دفعت الفرنسيين دفعاً إلى مؤازرة الأمريكيين فى نضالهم ضد الإنجليز الذين هدموا إمبراطورية فرنسا الاستعمارية الأولى (أو القديمة) ؛ ثم جعلت الفرنسيين يُقبلون بشغف عظيم على اعتناق تلك المبادىء السياسية والاقتصادية الجديدة التى تمخضت عنها حركة الاستقلال الأمريكية ؛ ما كان يمكن أن ينجو منو من أثرها ، شأنه فى ذلك شأن سائر مواطنيه . بل إن منو كان فضلا عن ذلك صاحب مصلحة ظاهرة فى تتبع حوادث هذا النضال باهتمام وعناية ، وخصوصاً فى جزر الهند الغربية . ذلك أن أسرة منو كانت تمتلك إلى جانب أراضيها الغنية فى إقليم تورين مزارع واسعة فى جزيرة سان دومنجو ، وثلاثة مصانع كبيرة لتكرير السكر . وعلاوة على ذلك فقد تزوج أخ له فى عام ١٧٨٢ من سيدة ذات ثراء تملك فى هذه الجزيرة مصانع عدة للبن وحلج القطن وعمل النيلة ، وبلغت ثروتها العقارية ثلاثة ملايين من الفرنكات تقريباً [٢] .

ومنذ انتهاء حرب الاستقلال الأمريكية ، وجد البارون جاك فرنسوا دى منو ، متسعا من الوقت للانغماس فى تلك الحياة الاجتماعية البراقة ، التى مكنه مركز أسرته النبيلة من المشاركة فيها بقسط وافر ، ففتحت له (الصالونات) أبوابها ، وتعرف إلى كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه ؛ وناقش مع غيره آراء الفلاسفة والمفكرين ، وكلفته هذه الحياة نفقات طائلة لم يكن فى وسعه أن يقوم بسدادها ، لانتقال كل أملاك الأسرة فى مقاطعة تورين إلى أخيه الأكبر : الماركيز رينيه لويس شارل منذ عام ١٧٧٧ . فلجأ منو إلى الاستدانة ، وظل من ذلك الحين يقترض الأموال دون حساب ، كما ظل ينفق دون حساب .

وكان من السهل على (البارون منو) وقد ألِف عيشة البذخ والترف ، وقضاء

---

(١) Rigault 33

(٢) Lokke et Debien 347

أوقات فراغه مترددا على الصالونات والأندية ، التى انتشرت فى أنحاء العاصمة وأكثر المدن فى السنوات التى سبقت اندلاع لهيب الثورة ، أن يجتمع ببعض كبار القوم من أصحاب التجارب السياسية الواسعة ، فيكسب من مخالطتهم معرفة وخبرة ، كما كان من السهل عليه أن يناقش فى حرية وتسامح عظيمين تلك الآراء التى نادى بها فلاسفة الثورة ومفكروها الاقتصاديون خاصة ؛ ومن ثم انعقدت أواصر الصداقة بين منو وشوازيل جوفيه Choiseul - Gouffier ، الذى خلف سانت بريست Saint - Priest فى سفارة القسطنطينية منذ ديسمبر ١٧٨٤ ، وكانت له آراء معروفة عن الوسائل التى يجب اتخاذها إذا أرادت فرنسا المحافظة على سلامة تركيا ، بدلا من مشاركة النمسا وروسيا وراثة إمبراطوريتها .

وقد أشرف على المفاوضات التى قام بها الوكلاء والمندوبون الفرنسيون فى مصر ، لعقد اتفاقات تجارية مع البكوات المماليك ، تمنع الأذى عن التجار الفرنسيين ، وتساعد على دعم العلاقات التجارية بين فرنسا ومصر وأقطار الليفانت وشواطىء البحر الأحمر [١] ؛ تلك المفاوضات التى أسفرت عن نجاح شارل مجالون أحد التجار الفرنسيين القدامى فى مصر ، ثم ترجويه Truguet مندوب شوازيل جوفيه ، فى عقد معاهدة تجارية مع مراد بك فى عام ١٧٨٥ على نحو ما سيأتى ذكره فى موضعه .

وليس من شك فى أن منو استطاع أن يقف من صديقه شوازيل جوفيه على حقيقة ذلك الضعف الذى هدد بزوال الإمبراطورية العثمانية ، كما عرف منه الشىء الكثير عما كان يجرى داخل أملاك هذه الإمبراطورية ، وخاصة فى اليونان — وكان شوازيل جوفيه قد زار هذه البلاد ونشر كتابا عن رحلته فيها — ثم عن رحلته فى مصر ، وقد استطاع شوازيل جوفيه بحكم منصبه فى سفارة القسطنطينية أن يقدم لصديقه منو صورة واضحة عن اضطراب الأحوال فى الديار المصرية والفوضى المنتشرة فى أنحائها وما تلاقيه التجارة الفرنسية من عنت وإرهاق على أيدى بكواتها . ولم يكن عبثا ادعاء منو فيما بعد فى خطاب له إلى روبل Rewbelle ، عضو حكومة الإدارة فى ٥ أكتوبر ١٧٩٨ ، أنه قد بدأ من زمن طويل يعنى بشئون السياسة ويهتم بدراسة مسائلها [٢] .

وفضلا عن ذلك فقد راقب منو عن كثب تطور الحوادث فى داخل فرنسا ذاتها ، فقد ساعد اشتراك حكومتها فى حرب الاستقلال الأمريكى على إقفار خزانتها من المال ،

---

(١) Sharles - Roux. Les Origines 111–112; 147 et Sqq

(٢) Rigault. 33, et Note 7

وأفضى هذا الارتباك إلى زيادة سوء الأحوال الاقتصادية بالبلاد ، وذاق الشعب الفرنسى مرارة الضنك وبؤس العيش ، وأفضى ذلك كله إلى ذيوع آراء الفلاسفة والمصلحين الاقتصاديين الأحرار الذين عرفوا باسم (الفيزيوكرات Physiocrats ؛ وهم الذين نادوا بإلغاء الضرائب الكثيرة والإتاوات المرهقة ، والاستعاضة عنها بضريبة واحدة هى ضريبة الأرض ، على اعتبار أن الأرض مصدر الثروة الطبيعية .

آمن منو بهذه الآراء الاقتصادية ، كما آمن بآراء المصلحين السياسيين الذين رغبوا فى تقييد سلطة الملكية المطلقة ؛ وسهل عليه بعد ذلك ، عندما اشتد ارتباك الملكية ، واضطرت إلى دعوة مجلس طبقات الأمة للانعقاد فى فرساى فى ٥ مايو ١٧٨٩ ، أن يظفر بتمثيل « نبلاء » تورين ، موطن أسرة دى منو بوصفه عضواً من أعضاء طبقة الأشراف فى هذا المجلس ، ثم ما لبث أن انضم إلى جانب من انضم من الأشراف ورجال الدين إلى « طبقة العامة » ممثلى الشعب الذين قرروا الانفصال عن الطبقتين الأخريين ، وتأسيس «الجمعية الأهلية» فى ١٧ يونيه ، ثم شرعوا على الفور ينظرون فى وضع نظام للحكومة وإصلاح المساوىء التى ضجت البلاد منها . ولم يقنع منو فى حياته « الثورية » الجديدة بالوقوف موقف المتفرج ، بل أزمع أن يسهم بنصيب وافر فى هذه الحركة « الاصلاحية » العظيمة ، وانحاز إلى المتطرفين من اليعاقبة الذين تاقت نفوسهم إلى إقامة الجمهورية ، فانضم إلى غلاة المتطرفين من أعضاء نادى بريتون Breton الثورى وكان على رأس هؤلاء ثلاثة من الرجال الذين عرفوا بالعنف والشدة هم بارناف Barnave ، وديبورت Duport ، ولاميث Lameth . ووجد منو فرصة مواتية لإظهار « مواهبه » وعرض آرائه الإصلاحية التى استمدها من خبرته السابقة أيام حرب الاستقلال الأمريكى واختلاطه برجال السياسة والقلم ، عند ما شرعت الجمعية الأهلية (التأسيسية) تبحث حقوق الإنسان وتضع دستوراً للحكم الجديد . وفى ٢٧ أغسطس صدر (إعلان حقوق الإنسان) وصحب منو الوفد الذى ذهب بعد ذلك لمقابلة الملك لويس السادس عشر فى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ ، يطلب منه الموافقة على إعلان هذه الحقوق . وظهر كأنما استطاع منو أن يكسب ثقة الجمعية الأهلية التأسيسية ، فانتخبه الأعضاء سكرتيراً لها فى ٥ ديسمبر من العام نفسه .

وعند ما قررت الجمعية بيع أملاك الكنيسة بعد أسبوعين من ذلك التاريخ انتخب منو مندوبا للاشراف على هذه العملية فى ٢٧ مارس ١٧٩٠ . وفى اليوم التالى انتخب رئيساً للجمعية الأهلية ، واتسعت دائرة نشاطه فصار فى ٢٧ إبريل من العام نفسه

مفتشا لحسابات اللجان المختلفة التى شكلتها الجمعية . وفضلا عن ذلك فقد كانت له اقتراحات معينة بشأن التجنيد العام ، بوصفه أحد أعضاء اللجنة الحربية ؛ ثم عهد إليه باعتباره عضوا فى اللجنة السياسية بأن يبحث مع زميله ميرابو Mirabeau عضو هذه اللجنة كذلك ، مسألة (أفينيون) Avignon . وقد كانت هذه المدينة تخضع مع أراضى فنيسيان Venaissan المجاورة لها لسلطان البـــابا منذ القرن الرابع عشر ، وحكمها البابوات من رومة البعيدة حكما صالحاً طيباً ، ولـكن الاضطرابات التى حدثت فى فرنسا قبل انعقاد مجلس طبقات الأمة ما لبثت حتى شملت أفينيون كذلك فى مارس عام ١٧٨٩ ؛ ومن ثم بدأ (الحزب الفرنسى) بافينيون وهو الحزب الذى كان يبغى الاتحاد مع فرنسا يعمل لتحريك الثورة الجامحة . وفى ١٢ يونيه ١٧٩٠ أعلن أهل أفينيون رغبتهم فى الاندماج مع فرنسا وأبلغوا الجمعية (الأهلية) التأسيسية هذه الرغبة واضطرت الجمعية التأسيسية بعد حوادث دامية إلى إرسال لجنة إلى أفينيون لدراسـة هذه المسألة ، وكان بناء على تقرير منو وميرابو أن قررت الجمعية التأسيسية فى ١٣ سبتمبر ١٧٩١ ضم أفينيون وفنيسان إلى فرنسا . وهكذا كان منو أيام هذه الجمعية التأسيسية من أعظم أعضائها نشاطا ، يلمع اسمه بين جماعة « الدستوريين » فى الجمعية الذين وإن تمسكوا بمظهر الملكية وصورتها ، فقد أرادوا تأسيس الدولة الجديدة على قواعد تـكفل سيادة الشعب والمساواة بين أفراده .

ولم تـكد الجمعية الأهلية التأسيسية تنحل وتقوم على أنقاضها الجمعية التشريعية منذ أول أكتوبر ١٧٩١ حتى استأنف منو حياته العسكرية فتولى قيـــادة أحد الآلايات الفرسان فى ٢١ أكتوبر ، ثم رقى فى ٨ مايو من العام التالى أمير لواء ؛ وفى أثناء ذلك كانت حكومة الجمعية التشريعية قد أعلنت الحرب على النمسا منذ ابريل ١٧٩٢ ، واشتد الهياج ضـد الملك ، وبدأت الاضطرابات فى لافنديه La Vendée وغيرها من المقاطعات التى عرف أهلها بشـدة ولائهم للملكية والـكنيسة ، وانحازت بروسيا إلى جانب النمسا ، فأصدر الدوق برنزويك قائد جيوشها بلاغه المعروف يهدد باريس بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا لحق أى أذى بالملك (٢٧ يوليه ١٧٩٢) . وهاجم الشعب الهائج بتحريض من اليعاقبة المتطرفين قصر التويلرى ، ثم كرروا الهجوم على القصر مرة ثانية فى ١٠ أغسطس المشهور فى تاريخ الثورة الفرنسية ؛ واعتمد المتطرفون على منو وقواته ، وكان مكلفاً مع جنده « بالدفاع » عن هذا القسم من باريس الذى جرت فيه حوادث ١٠ أغسطس ، ولـكن منو على ما يبدو لم يظهر

نشاطاً كافياً فى هذا اليوم فاتهم بالولاء للملكية . ومع أنه استطاع أن يدفع عن نفسه هذه التهمة ، فقد ظل موضع شك لدى المتطرفين . وعلى ذلك فقد عمد هؤلاء عند اجتماع المؤتمر الوطنى الذى شكل عند انحلال الجمعية التشريعية فى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ إلى تعطيل مساعى منو ، الذى رغب فى ملء منصب وزير الحربية ، بل وبقى منو بعد ذلك مدة متعطلا حتى اضطر إلى كتابة خطاب إلى المواطن باش Pache وزير الحربية الجديد ، يذكر فيه مابذل من تضحيات أمام الطغيان والاستبداد السابق ويعدد خدماته الجلى فى عهد الجمعية الأهلية التأسيسية إذ كان دائماً يؤيد مصالح الشعب ، ويعمل على تقويض دعائم الارستقراطية ، كما أفضت جهوده إلىضم أفينيون إلى أرض الوطن ، ثم اختتم هذه الرسالة قائلا : « إن جاك منو الذى قضى سبعاً وعشرين سنة فى الخدمة العسكرية والذى بدأ حياته جندياً صغيراً ، ثم ترقى فى السلك العسكرى حتى بلغ رتبة أمير لواء بحكم الأقدمية ، يطلب الآن استخدامه فى أحد جيوش الدولة ، وهو إذ يتقدم بهذا الطلب إنما يعرض على الوطن حياته ، أى كل مابقى له وصار يملكه بعد أن ضحى فى سبيل الحرية بكل شىء : الأسرة والثروة والأصدقاء ! » . وكان منو يطلب إلحاقه بجيش من الجيوش التى كان أحد أشقائه لايزال يحارب فى صفوفها لنضال العدو الزاحف على الحدود الفرنسية[١] .

ولما كانت أسرة منو قد بقيت فى (بوساى) دون أن يخرج أحد من أفرادها مع أولئك « المهاجرين » الذين غادروا البلاد عند نشوب الثورة ، وصاروا يؤلبون الدول ضد الوطن ، فقد استجاب وزير الحربية لندائه ، ولكن بدلا من إرساله إلى ميدان القتال على الحدود الفرنسية ألحق بالجيش العامل فى شواطىء لاروشيل ، أى فى تلك الأقاليم الغربية التى سبق لمنو الخدمة فى الجيش المرابط بها قبل اشتعال الثورة . وفى هذه المرة أرسل منو لإخماد الاضطرابات العنيفة التى أثارها (الملكيون) فى إقليم لافنديه بنوع خاص . وكان فى هذا الميدان « الداخلى » أن رقى منو إلى رتبة (فريق) (General de Division) فى ١٥ مايو ١٧٩٣ .

غير أن منو الذى لم يعرف عنه أنه اشترك فى أية معركة من المعارك الكبرى وكان قد رقى إلى رتبة أمير اللواء (بحكم الأقدمية) على حد قوله هو نفسه ، سرعان ماظهر عجزه ، ووضحت قلة درايته بفنون الحرب والقتال عندما فشل فى إخماد ثورة لافنديه ، وألحق الثوار (الملكيون) بجيشه هزائم فادحة .

---

(١) Rigault 35

ذلك أن الاضطرابات التى كانت قد انتشرت فى « الغرب » من شهور سابقة مالبثت أن اشتدت وطأتها منذ استيلاء ثوار لافنديه على مدينة طوار Thouars المحصنة ، وانفتح الطريق إلى بلدة سومير Saumur الواقعة على نهر اللوار وعلى حدود إقليم تورين مسقط رأس أسرة منو .

ثم أحرز الثوار نصراً آخر فى الجنوب عندما هزموا جيش « الجمهوريين » فى فونتناى Fontenay أهم مدن لافنديه «وعاصمتها» وسقطت المدينة بأيديهم واستطاعوا بعد ذلك أن يحولوا كل نشاطهم لاستئناف العمليات العسكرية فى الشمال بالزحف صوب اللوار ، وشن الهجوم على سومير .

وفى ١٠ يونيه سنة ١٧٩٣ — أى بعد أقل من شهر من ترقية منو الأخيرة — هوجمت سومير هجوماً دل على المهارة فى فنون الحرب والقتال ، وفتحت المدينة أبوابها للثوار ، وكان هذا النجاح الذى مكن الثوار من الانتشار على ضفاف نهر اللوار ذا آثار خطيرة ، ذلك أن هؤلاء سرعان ما قرروا تحريك الثورة فى أقاليم بريتانى ونورماندى ومين Maine ، وهى أقاليم كانت قد بدأت تظهر فيها القلاقل والاضطرابات ، حتى إذا نشبت الثورة الجامحة بها زحف ثوار لافنديه على باريس ذاتها ، واستطاعوا القضاء على الجمهورية . . وكان هذا مشروعا خطيراً ، وكاد الثوار ينجحون فى تحقيق أغراضهم .

على أن أخبار هزيمة سومير لم تكد تصل إلى باريس حتى بادر المؤتمر الوطنى باستدعاء منو ، وطلب إليه الحضور إلى باريس فى التو والساعة ، وما كان يشك إنسان فى أن هذا القرار كان بمثابة إصدار حكم الإعدام على قائد سومير المتخاذل . ولكن التوفيق لازم منو فى هذه المرة ، وهب لنجدته فريق من أولئك الأصدقاء والزملاء القدماء ، الذين وطد منو معهم أواصر الصداقة أيام الجمعية (الأهلية) التأسيسية وبعدها ، عندما كان من أهم صفات منو أنه رجل (الصالونات) فى العهد القديم ، ورجل الأندية (والقهاوى) فى عهد الثورة ، يعرف كيف يدير الحديث بلباقة تستميل إليه قلوب سامعيه وتجذب انتباههم . فانبرى الآن كثيرون من هؤلاء الأصدقاء يدافعون عنه ، فأكد له (تاليان) Tallian فى ٢١ يونيه أنه لن يدخر وسعاً فى الدفاع عنه وتبرئة ساحته ، وكان (تاليان) من رجال القانون ، وأحد أولئك الذين عملوا على التخلص من روبسبيير وتقديمه إلى المقصلة والقضاء على عهد الإرهاب فى فرنسا . وفضلا عن ذلك فقد جاء تاليان مع الحملة الفرنسية إلى مصر فيما بعد ، ثم مالبث أن أصبح من

أخطر المعارضين لمنو نفسه ، عندما تولى قيادة الحملة العامة بعد مقتل كليبر . وانبرى — عدا تاليان — آخرون يدافعون عن منو عندما دعى لتفسير أسباب هزيمته ، ودفع تهمة تواطئه مع العدو ، وبخاصة عندما كان المؤتمر الوطنى مازال يذكر تلك الشبهات التى حامت حول منو بسبب تقصيره فى تأييد ثوار باريس ، أثناء حوادث يوم ١٠ أغسطس . فتضافر بودان Bodin وبوربورت Bourbotte ورويل Ruelle مع تاليان فى الدفاع عن منو ؛ وشهد فى ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٣ نخبة من أعضاء المؤتمر الوطنى الآخرين ، هم شوديو Choudieu ، ريشارد Richard ، جوبيللو دى فونتناى Goupilleau de Fontenay ، داندينيه Dandenai (الصغير) ، بأن منو وإن كان قد انهزم فى موقعة سومير ؛ فقد كفر عن أخطائه بفضل مابذله من نشاط عظيم قبل ذلك فى خدمة الوطن ؛ ولا شك فى أن تلك « الجروح التى أصابته فى ميدان الشرف والفخار » من شأنها أن تمحو كل وصمة قد يلحقها به انتسابه إلى أسرة من الأسر النبيلة القديمة . وأما إذا ترك الجيش فإنه سوف يشيع بالاحترام العميق وهو حائز لثقتهم . وأخيراً شهد (تالو) Talot نائب إقليم (ماين ولوار) فى المجلس بأن منو كان يظهر فى كل المناسبات ضروباً من المهارة العسكرية التى تدل على القدرة العظيمة ، وشجاعة تفوق كل وصف ، بل إن منو قد دافع ببسالة مابعدها بسالة فى معارك (سنت بير دى شميل) Saint - Pierrdc Chamille (سومير) ، وإن كان قد خانه الحظ وأدركته الهزيمة فى المعركة الأخيرة .

وأمام هذا الدفاع الحار الذى تبرع به أصدقاؤه لم يجد المؤتمر الوطنى مناصا من تبرئة منو ؛ ثم طلب منو أن يؤذن له بالانسحاب إلى (بوساى) حتى يعيش كما قال إلى جانب أخيه « يحرث الأرض ويفلحها ويبارك مالمتد به الأجل تلك (الثورة) المجيدة التى نشرت لواء الحراية على أرض الوطن » ولكنه لم يجب إلى طلبه ؛ ذلك أن (بوساى) كانت قريبة من ميدن العمليات العسكرية ضد ثورة لافنديه ؛ وانتهى الأمر بإخراج منو من خدمة الجيش العامل فى ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٤ . ومع ذلك فإنه ماانقضت شهور قليلة حتى كان قد خرج من عزلته وأعيد إلى الخدمة فى الجيش مرة أخرى . ذلك أن التخلص من روبسبيير ، والقضاء على عهد الإرهاب ، سرعان ماأفسح الطريق أمام أصدقاء منو ، وعلى رأسهم تاليان ، لتولى زمام السلطة فى المؤتمر الوطنى بفضل ماحدث من رد فعل شديد بعد انتهاء عهد الإرهاب ، وفوز دعاة الأمن والنظام على الثوريين المتطرفين من أنصار روبسبيير وسياسته . ووجد منو فى تاليان وأصدقائه القدماء خير من يعاونونه على استئناف نشاطه فى خدمة المصلحة العامة ، فألحق فى بادىء الأمر

بجيش الألب ثم أرسل للخدمة فى أميان ، وبعدها فى ليون ؛ وحرص منو فى أثناء ذلك كله على إظهار إخلاصه لأصحاب السيطرة فى المؤتمر الوطنى ؛ ثم أتيحت لمنو الفرصة للدفاع عن الذين لم ترضهم « رجعية » المؤتمر أو إجراءاته التى اتخذها فى سبيل المحافظة على الأمن والنظام والقضاء على أعداء الجمهورية فى داخل فرنسا ذاتها ، فحركوا الثورة فى باريس ضد المؤتمر الوطنى ؛ وتدفقت الجماهير تقتحم داره تارة ، وتضرب عليها نطاقا من الحصار تارة أخرى ، يطلبون الخبز والملك ، أو الخبز ودستور ١٧٩٣ ؛ كما طلب الثوار طرد الحكومة ، ولم يجد المؤتمر الوطنى مناصا من الالتجاء إلى القوة لإخماد الثورة . ولكن ألكسيس ديبوا Alexis Dubois ، و من بعده الجنرال كيلمين Kilmaine اللذين عهد إليهما المؤتمر بتفريق الثوار ، سرعان مافشلا فى مهمتهما . وعندئذ عهد المؤتمر إلى الجنرال منو بالدفاع عنه . وفى ٢١ مايو سنة ١٧٩٥ نجح منو فى تشتيت الثوار وإنقاذ المؤتمر . فكوفىء على ماأظهره من شجاعة بتعيينه قائداً أعلى للجيش الداخلى(١) . واعتقد المؤتمر أنه فى وسعه الاعتماد على جيش منو لمنع كل اضطراب قد يحدث بعد ذلك . ولكن الحظ الذى حالف منو فى حوادث ٢١ مايو لم يلبث أن تخلى عنه عندما استؤنفت الثورة وتجدد هجوم الجماهير على المؤتمر .

وكان السبب فى هذه الثورة الجديدة ذلك الدستور ، الذى فرغ المؤتمر من وضعه لتأسيس نظام الحكم على نحو يكفل تعيين ثلثى أعضاء المؤتمر فى هيئات الحكومة الجديدة — التى عرفت باسم حكومة الإدارة — فأثار هذا العمل حفيظة المعارضين ، سواء أكانوا من الملكيين أم من الإرهابيين ، واشتعلت الثورة فى باريس يوم ٤ أكتوبر ١٧٩٥ ، فاحتشدت جموع الجماهير الصاخبة تبغى الهجوم على المؤتمر ، ولقيت تأييداً ومؤازرة من جانب (الحرس الوطنى) ، الذى انضم منه ثلاثون ألفا تقريبا إلى صفوف الثوار ؛ فعهد المؤتمر بمهمة الدفاع عنه إلى الجنرال منو ، غير أنها كانت دون ريب مهمة جسيمة ، لم يجد منو فى نفسه الشجاعة الكافية لمواجهتها . وعلى ذلك فإنه بدلا من مقابلة الثوار بالرصاص والمدافع ، فضل أن يتخذ خطة الإقناع والجدل معهم . وتعرض المؤتمر لأخطار شديدة ، فأسرع بعزل منو فى مساء اليوم نفسه ، وعين بدلا منه لجنة من خمسة أعضاء ، كان (برّاً) Barras واحداً منهم ، للمحافظة على الأمن والنظام . ووجد باراس أن خير من يقوم بهذه المهمة ضابط شاب ، كانت قد حامت حوله الظنون والشبهات بسبب صلاته بزعيم الإرهاب روبسبيير ، وحرمته وزارة الحرب

(١) Aulard 526 — 8

وظيفته ، ولكنه ظل منتميا إلى جماعة باراس فى العاصمة ، وحائزاً ثقته ؛ ذلك الضابط الشاب هو نابليون بونابرت الذى طلب منه برّا الآن أن ينقذ المؤتمر . وكان بونابرت قد أبدى اهتماما عظيما بمراقبة ما حدث من وقائع فى اليوم السابق ، منذ أن خرج منو على رأس جيشه لإخماد الثورة ، فتبع قوات منو . وصار ينتقل معها من مكان إلى آخر ، يشهد عجز القائد وضعفه ، ثم خوفه من الاشتباك مع حشود الجماهير الغفيرة ، وقوات الحرس الوطنى ، ثم اضطراره إلى الانسحاب بعد أن فشل فى « مفاوضاته » مع زعماء الثورة ، ثم سمع بونابرت صيحات النصر التى تجاوبت أصداؤها فى كل شوارع باريس عندما اعتقد الثوار والحرس الوطنى أن القضاء على المؤتمر قد بات أمراً مؤكدا ، فهرع بونابرت إلى قصر التويلرى وشهد جلسة المؤتمر التى تقرر فيها عزل منو ، وتأليف لجنة برا التى سبق ذكرها ، وكان بونابرت لا يزال فى شرفة المجلس يشهد ما يدور من مناقشات عندما وقف بارا — وقد تذكر الآن أن فى وسعه أن يعهد بهذه المهمة إلى بونابرت الذى عرفه فى طولون عندما قضى على أعداء اليعاقبة — وخلص المدينة من قبضتهم (ديسمبر ١٧٩٣) فعرض على المؤتمر تكليف بونابرت إخماد الثورة فوافق المؤتمر .

وقضى بونابرت ليل ٤ — ٥ أكتوبر ينظم الدفاع عن التويلرى ، وكان أول ما اتجه إليه إحضار تلك المدافع التى تركها (الحرس الأهلى) فى مخازنه ودون أن يفطن إلى ضرورة استخدامها إذا شاء أن يكون النصر فى جانبه ، فأحضر (مورا) Murat هذه المدافع إلى باريس من مخازنها فى (سابلون) sablons التى كانت تبعد عن باريس مسافة خمسة أميال تقريباً ، فى صبيحة اليوم التالى (٥ أكتوبر) ، ونظم بونابرت خطة الدفاع عن المؤتمر بصورة مكنته من رد هجوم الثوار على قصر التويلرى مقر اجتماع المؤتمر عند ما بدأ هؤلاء غارتهم بعد ظهر اليوم نفسه ، فأطلق بونابرت مدافعه عليهم فلم تمض ساعة واحدة حتى كان قد تشتت شملهم ، ثم بعث بجنده إلى الشوارع والأزقة يجمعون السلاح من الأهالى ويفرقون أية جموع قد تحتشد من جديد فى أنحاء العاصمة ، وهكذا أنقذ بونابرت المؤتمر .

وكان من الطبيعى أن يحنق المؤتمر على منو ، ويقدمه للمحاكمة لتقصيره «وخيانته» فاتهمه (بوليتيه) Poultier فى قاعة المجلس بعد يومين بأنه أظهر ضعفاً وجبنا ، ولجأ إلى المناقشة «وتبادل الرأى» بدلا من أن يسلط نيران مدافعه على الثوار ، واستمرت الاتهامات توجه إلى منو فى الأيام التالية ، ووقف (برّا) فى المجلس (فى ٢٢ أكتوبر) يهزأ بمنو ويبسط للأعضاء ما حدث قبل أن ينجح بونابرت فى إخماد الثورة فقال :

« لقد استدعت اللجنة الخماسية قائد الجيش الداخلى الأعلى ، فحضر يتبعه عدد من هيئة أركان حربه ، وأجاب على سؤال اللجنة بلهجة تنم عن الصلف الذى يميز الضباط الذين خدموا الملكية ، ولقد علمت أن أسلحة تعطى لكل قطاع الطرق لتسليحهم ، هكذا أيها السادة يصف هؤلاء الطغاة جماهير الجمهوريين وأنصار الجمهورية ، بل إن منو مالبث حتى أعلن أنه لا يريد أن يرى تحت إمرته أو فى صفوف جيشه شراذم من الأشقياء الفجرة ، والأشرار القتلة ، الذين انتظمتهم الفرق الوطنية فى عام ١٧٨٩ » .

وقد أسفرت هذه الاتهامات عن تقديم منو للمحاكمة ، وتوقع كثيرون أن تطيح المقصلة برأسه .

ولكن حدث فى هذا الوقت العصيب أن تقدم بونابرت رجل ٥ أكتوبر يطلب الصفح عن منو ، وكان من أقوال بونابرت : أنه ما دام قد قضى على الثورة فلا داعى الآن لإنزال العقوبة بأحد ، وأن من الحكمة إسدال ستار من النسيان على كل هذه الحوادث . وما كان فى استطاعة المؤتمر الوطنى أن يرفض رجاء تقدم به الرجل الذى أنقذه ، وعلى ذلك فقد برئت ساحة منو ؛ وحفظ منو هذا الجميل لبونابرت طيلة حياته . وكان هذا الحادث سبباً فى عقد أواصر الصداقة بين الرجلين ، فقد استطاع منو بفضل لباقته وما اتصف به من حسن المعاشرة أن يستميل بونابرت إليه ويكسب وده ، غير أنه كان من أثر هذه الحوادث كذلك أن ظل منو متعطلا مدة طويلة من وقت تبرئته فى ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٥ إلى وقت استدعاء بونابرت له لينضم إلى الجيش المحتشد على شواطىء البحر الأبيض فى ٦ مايو سنة ١٧٩٨ . . وقد قضى منو كل هذه المدة يبحث عن عمل دون جدوى .

صحيح أن منو كان قد وفق إلى استصدار أمر من حكومة الإدارة التى قامت على أنقاض المؤتمر الوطنى منذ ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، بأن يعهد إليه بقيادة القسم الثالث عشر من جيش الجمهورية فى شهر يوليو سنة ١٧٩٧ ، ولكن هذا الأمر سرعان ما ألغى بعد أسابيع قليلة . وكان سبب الإلغاء أن منو أخفق فى هذه المرة كذلك ، فى المهمة التى كلف بالقيام بها يوم انقلاب ١٨ فركتيدور المشهور ، فقط رغب ثلاثة من أعضاء حكومة الإدارة هم : روبل ، وبارا ، لاريفلير ليبو La Réveillière Lepeau أن يحدثوا انقلاباً يمكنهم من الاستئثار بكل سلطة دون زميليهم الآخرين بارثليمى Barthélemy وكارنو Carnot ، ويكفل لهم التخلص من معارضيهم فى مجلس الشيوخ والخمسمائة ، وطلبوا إلى بونابرت تنفيذ هذه الخطة التى حددوا لها يوم ٤ سبتمبر ١٧٩٧

(١٨ فركتيدور من السنة الخامسة الجمهورية) ، غير أن بونابرت ، الذى رفض أن يشترك فى حوادث هذا اليوم ، ما لبث أن أرسل الجنرال أوجيرو Augereau ليتولى القيادة فى باريس ، واعتمد (أوجيرو) على معاونة سائر القواد لجمع جيش كبير يحاصر به قصر التويلرى .

وكان منو أحد الذين عهد إليهم بضم قواته إلى هذا القائد ، ولكن منو — جريا على عادته — لم يشأ الاشتراك فى هذه الحوادث العصيبة ، فلم يظهر فى ذلك اليوم إلا حوالى الساعة الحادية عشرة ، وكانت دعواه التى برر بها هذا التلكؤ أنه لم يعرف شيئاً عن حوادث ذلك اليوم إلا فى التاسعة صباحا ، ولما كان يقطن فى مكان بعيد فإنه لم يستطع الوصول إلى المكان الذى كان به الجنرال أوجيرو إلا بعد ساعة ونصف . وكان من أثر ذلك أنه لم يكد يستتب الأمر لروبل وصاحبيه حتى بادرت حكومة الإدارة بإلغاء تعيين منو السابق فى الجيش فى ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٧ [١] . فعاد إلى التعطل مرة أخرى .

وفى الشهور التالية لقى منو كل عنت وإرهاق ، فإنه لما كان قد اعتاد الإسراف والتبذير ، ولم يغير تعطله شيئاً من أسلوب حياته « الصاخبة » ، بل ظل يتردد على المجتمعات والأندية ، ويعقد أواصر الصداقة مع الشابات الجميلات ، فقد اضطر إلى الاستدانة تارة ، وإلى بيع ما تبقى له من بعض الممتلكات أو المقتنيات التى ورثها تارة أخرى ، وفضلا عن ذلك فقد كان مما أزعجه ولا شك فى غير أوقات « نشاطه الاجتماعى » « ومجونه » أن أعداءه صاروا يوجهون إليه اتهامات كثيرة ، بسبب مواقفه « فى أيام الثورة » المعروفة ، سواء فى يوم ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ ، أو فى يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، أو فى يوم ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧ .. وزيادة على ذلك فقد وجد أعداؤه سببا آخر لإثارة الشكوك حول إخلاصه للجمهورية ، والطعن فى كفاءته العسكرية ، إذ كان معروفا أن منو لم يشترك فى تلك المعارك الدامية التى خاضت جيوش الثورة غمارها لدفع العدو عن حدود الوطن ، وأنه قضى الوقت بدلا من ذلك فى إخماد ثورة « الفلاحين » فى لافنديه ، ولم ينس الناس هزيمته فى (سومير) بل ظلوا يعيرونه بها .

على أن منو سرعان ما وجد ما يشغله ، عند ما اضطر إلى التفكير فى شئون الأسرة ، ذلك بأن الاضطرابات كانت قد بدأت فى جزيرة سان دومنجو حيث كان

---

(١) Rigault 38

للأسرة — على نحو ما تقدم القول — ممتلكات كثيرة ، أصبحت الآن مهددة بالدمار ، بسبب قيام العبيد أو الرقيق الأسود بالثورة ضد « البيض » أصحاب الأراضى الواسعة والذين تتألف منهم فئة الحكام فى هذه الجزيرة ؛ فقد كان سوء الأحوال فى هذه المستعمرة ينذر بقيام الثورة بها من مدة طويلة ، ذلك بأن الحكام فى جزر الهند الغربية الفرنسية عموما كانوا يحقدون على المراقبين أو المديرين المكلفين بالإشراف على الشئون المالية . وعاش التجار وأصحاب الأراضى الواسعة عيشة الترف والبذخ ، شأنهم فى ذلك شأن النبلاء والطبقة المتوسطة (البورجوازى) فى فرنسا ذاتها ، بينما كان العبيد يؤلفون الطبقة المتذمرة ؛ وكان عدد العبيد يربو كثيرا على عدد «البيض» الأحرار فى جزيرة سان دومنجو ، وقد حدث عند انعقاد الجمعية الأهلية فى عام ١٧٩٨ أن حضر إلى فرنسا ممثلون لأصحاب المزارع ، واحتلوا أماكنهم بوصفهم أعضاء فى الجمعية الأهلية ؛ وحذا « المستعمرون » حذو مواطنيهم فى فرنسا ، فأنشأوا «البلديات» فى سان دومنجو ، كما ألفوا (حرساً وطنيا) ؛ بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، فادعوا أن من حق الجزيرة أن تصدر قانوناً خاصاً بها ، فلما قضى حاكم الجزيرة على هذه الحركة ، فر زعماؤها إلى فرنسا فى أغسطس ١٧٩٠ ، وعندئذ سرح الحرس الوطنى وألقى أعضاء (اللجنة الاستعمارية) فى بور أوبرانس Port-Au-Prince عاصمة الجزيرة فى السجن ؛ وشجعت هذه الحوادث العبيد فقاموا بالثورة يطالبون بالحصول على حقوق المواطن التى يتمتع بها « أسيادهم » البيض . ولكن البيض سرعان ما قضوا على هذه الثورة وأعدم زعيمها ، وأقام البيض حكما استبداديا فى الجزيرة عندما وصلت إليها قوات جديدة من فرنسا فى الشهور الأولى من عام ١٧٩١ ، ولكن هذه الحوادث سرعان ما أثارت غضب الجمعية الأهلية فى باريس ؛ فعمد أعضاؤها إلى إصدار قرار بإلغاء الرق ومنح الحقوق المدنية لكل سكان المستعمرات فى مايو ١٧٩١ ؛ وذلك دون أن يفكر أحد من أعضاء الجمعية فى اتخاذ ما كان يقضى به الموقف من إجراءات لاغنى عنها للمحافظة على الأمن والنظام فى الجزيرة ، وعلى ذلك فقد قام العبيد بحركة عصيان واسعة عند ما خيل إليهم أن فى استطاعتهم وقد أصبحوا أحراراً طليقين وعلى قدم المساواة مع «البيض» أن ينتزعوا من هؤلاء كل سلطة وأن يستولوا على أملاكهم قسرا . فاضطرت الجمعية الأهلية إلى إصدار قرار آخر فى سبتمبر من العام نفسه يهدد بإلغاء (قرار التحرير) إذا استمرت الاضطرابات فى جزر الهند الغربية ، فكان هذا القرار سبباً فى زيادة الاضطراب شدة على شدة ، حتى إن الثورة ما لبثت أن امتدت

لا إلى جزيرتى مارتنيك وجوادلوب فى الهند الغربية فحسب، بل وإلى جزيرتى بربون وإيل دى فرانس (أوموريتيوس) فى المحيط الهندى كذلك . وكان واضحاً أن الواجب يقتضى من الجمعية الأهلية إرسال نجدات إلى الجزر وإلى سان دومنجو على وجه الخصوص لإخماد الثورة ولكن المعارضين فى داخل الجمعية ، الذين شجعوا الثورة ورغبوا فى استمرارها لاتخاذها أداة لعرقلة أعمال الحكومة ، سرعان ما تدخلوا لمنع إرسال الجنود إلى سان دومنجو[1] . فكان من أثر اشتعال الثورة فى الجزيرة أن أحرق العبيد مصانع البن والقطن والنيلة التى تمتلكها أسرة منو فى سبتمبر ١٧٩١ ، ثم عمدوا إلى أراضى الأسرة الواسعة فصادروها واستولوا عليها بدعوى غياب أصحابها عنها . وأصيبت الأسرة بخسائر جسيمة ؛ وصار كل ما يشغل أعضاءها هو التفكير فى الوسائل التى تمكنهم من استرداد ممتلكاتهم وتعوضهم شيئاً عن خسائرهم .

ولما كانت الاضطرابات قد استمرت طوال العام التالى ، وأحرق الثوار مصانع السكر فى أماكن عدة ، وأجبر بولفيريل Polverel قوميسير الحكومة فى الغرب فى أغسطس ١٧٩٣ على مصادرة أراضى الملاك المتغيبين من المهاجرين ، أو المنفيين سواء أكان الأولون قد هاجروا إلى بلد محايد أو حليف (لفرنسا) ؛ وتبع ذلك تحرير سائر العبيد فى جهات الجزيرة الشمالية ، فقد وجد كثيرون من المستعمرين « البيض » فى عامى ١٧٩٢ ، ١٧٩٣ أن السبيل إلى إنقاذهم من هذه الشرور واسترداد ممتلكاتهم إنما يكون بالالتجاء إلى انجلترة والتحالف معها ؛ وكان فريق من هؤلاء قد بدأ يفاتح الحكومة الإنجليزية فى هذا الأمر منذ أن اشتدت الاضطرابات فى عام ١٧٩١ ؛ ولم تشأ حكومة لندن وقتئذ أن تجيب ملتمسهم لأنهم كانوا ما يزالون « أقلية » ؛ فظلت ممتنعة عن إرسال أية قوات إلى سان دومنجو ، حتى إذا تكونت المحالفة الدولية الأولى ضد فرنسا وأعلنت الحرب فى فبراير ١٧٩٣ ، استمع بت Pitt إلى رغائب جماعة « المهاجرين » من التجار وأصحاب المزارع الذين حضروا إلى لندن ، يرفعون شكواهم إلى الحكومة الإنجليزية ويطلبون نجدتها ، فأرسل أسطولا نزل فى الجزيرة فى سبتمبر من العام نفسه ، واحتل الإنجليز ميناء بور أوبرانس Port au Prince فى يونية ١٧٩٤ ، وتمكنوا من إقامة عهد من الهدوء والسكينة فى سان دومنجو استمر عاما ونصف عام . وكان اثنان من أعضاء أسرة منو من بين هذه الجماعة التى طلبت مساعدة

---

(١) Macdonald. Ibid (C. M. H. Vol VIII. 193 — 4) Montague 216 — 7

الإنجليز (١) ؛ بيد أن هؤلاء سرعان ما رحلوا عن الجزيرة فى أكتوبر ١٧٩٤ عندما هاجمهم العبيد فى ريجو Rigaud وانتصروا عليهم . وما إن أخلى الإنجليز الجزيرة حتى انقض الثوار على « المستعمرين » الفرنسيين يقتلونهم ويحرقون ما بقى من مصانع أو مزارع فى أيديهم . واستمر الاضطراب خلال الأعوام التالية (٢)؛ وحمل لواء الثورة توسيان لوفرتير Toussian Louverture أحد الأهالى السود وساءت الأحوال فى سان دومنجو حتى خرجت هذه الجزيرة بين عامى ١٧٩٤ ، ١٨٠٢ من سيطرة فرنسا الفعلية تماما .

وعند ما رادت الحال سوءاً فى سان دومنجو ، كان منو فى باريس متعطلا تقض مضجعه تلك الإهانات التى استمر أعداؤه يوجهونها إليه دون شفقة أو رحمة ، وفضلا عن ذلك فقد سبب ضياع ممتلكات الأسرة فى سان دومنجو ، وما ترتب على ذلك من آثار كان أهمها عجز منو عن الاستعانة بأعضاء الأسرة فى معاونته ، أن أمعن منو فى عقد القروض كى يتمكن من العيش ، حتى غرق فى الدين لأذنيه . وكان سبب هذه الديون — ولا شك — تلك الحياة التى فضل منو أن يحياها لا فى أيام البطالة وحدها ، بل فى جميع الأوقات سواء أكان شابا أم رجلا أم كهلا . ذلك أن منو كان يحب الحياة الصاخبة ولياليها المليئة بمغامرات الحب والهوى ، ولا يأنف من مخالطة الراقصات والمغنيات ومن إليهن ، يغشى القهاوى والمنتديات مع صواحبه وهن كثيرات ؛ وقد يستبد به الطيش أو المغالاة فى المجون فيعتزم الزواج من إحداهن ، حتى إذا « ثاب إلى رشده » اختص غيرها بعاطفته المشبوبة وهكذا دواليك ، دون أن يعتوره سأم أو ملل . فعل ذلك فى باريس ، كما فعل ذلك فيما بعد فى مصر حين أتاح له الزواج من سيدة شرقية الاستمتاع بعدد من الجوارى الجركسيات والجورجيات الحسان فى « قصره » فى رشيد . بل وكما فعل أيضاً فى إيطاليا عند ما سلمه الامبراطور نابليون مقاليد الحكم فى تورين وفلورنسه ثم البندقية ، وقد قضى منو فى باريس سنوات دون عمل بعد خروجه من الجيش ، وظلت تنهال عليه اتهامات أعدائه له بالجبن وخور العزيمة وخيانة حكومة الجمهورية ، وتطارده أشباح تلك « الأيام المشئومة » — يوم ١٠ أغسطس ، ويوم هزيمة سومير ، ويوم ٥ أكتوبر — كما كشر الفقر عن أنيابه لافتراس أسرة دى منو ، بعد أن خربت أملاكها فى سان دومنجو ، وثقلت ديون منو

---

(١) Lokke et Debien 347. Note 1

(٢) Debien 118—121; lokke et Debien, loc. Cit. Une Plantation...

نفسه حتى ناء بها كاهله ، ولكن « الجنرال المخادع » استطاع على الرغم من هذا كله أن يجد متسعاً من الوقت ليرتاد أماكن اللهو والتسلية مع « لابوجون » الجميلة La Beaujon التى اختارها قلبه من بين سيدات المسارح ، وقد شغف منو بهذه السيدة شغفاً عظيماً حتى إنه صار يصطحبها ويقدمها إلى أصدقائه فى كل مكان يذهب إليه وصارت تحتل مكان الصدارة فى بيته ، بل لقد اعتزم منو أن يتزوج منها ، واشتهرت فى مجتمعات باريس وأنديتها باسم « المواطنة منو » ويبدو أن « المواطنة منو » أخلصت الود لصاحبها حتى آخر أيامه فى باريس ، حتى إذا وقع عليه اختيار بونابرت بعد ذلك للذهاب معه إلى مصر ، تجشمت متاعب السفر من باريس إلى ليون ، لتلحق برجلها فتتمكن من توديعه قبل مغادرته الشواطىء الفرنسية (١) .

ولا جدال فى أن هذه العشرة الطويلة قد كلفت منو ما لا يطيق من مال ، فكانت إلى جانب ما عرف عنه من تبذير وإسراف ، السبب الذى دعاه إلى الاستزادة من عقد القروض ، ثم الشعور فى أوقات صحوه القليلة بثقل وطأة ذلك الضنك الذى عكر عليه صفوه ، نتيجة لانتشار الثورات فى سان دومنجو ، وضياع ممتلكات الأسرة فى هذه المستعمرة البعيدة .

ومع ذلك فلم يكن منو وحده الرجل الذى شعر بالضيق من جراء قيام الثورات بهذه المستعمرة ، فقد نجم عن تخريب المزارع وإحراق المصانع فى سان دومنجو وغيرها أن امتنع ورود السكر والبن والقطن من جزر الأنتيل إلى فرنسا ، فشعرت فرنسا بالضيق ، وذاقت باريس على وجه الخصوص ألم الحرمان ، واشتدت المطالبة فى قاعة الجمعية الأهلية والمؤتمر الوطنى بأن تبادر الحكومة باتخاذ الإجراءات الحاسمة لتنظيم شئون الاستهلاك الداخلى ، بتسعير هذه السلع تسعيراً رسمياً من جهة ، والعمل على إعادة الأمن إلى نصابه فى الجزر من جهة أخرى ؛ ثم كان لهذه الثورات أثر آخر ، ذلك أن نزول القوات الانجليزية سان دومنجو بعد نشوب الحرب بين فرنسا وأعدائها لم يلبث أن حرك مخاوف الفرنسيين من أن تؤدى القلاقل والاضطرابات فى جزر الأنتيل إلى ضياع هذه المستعمرات التى بقيت لفرنسا بعد حروب الاستعمار الطويلة الماضية .

وواقع الأمر أن التفكير فى بناء امبراطورية استعمارية جديدة كان — على نحو ما تقدم — قد بدأ يستأثر باهتمام القادة والمفكرين فى السنوات التى سبقت انفجار بركان (الثورة الكبرى) ؛ فبحث المفكرون « والفلاسفة » فى الأسس التى يجب أن يقوم عليها بناء هذه الإمبراطورية الجديدة ، كما دفع الخوف من ضياع جزر الأنتيل نهائيا هؤلاء

(١) Thurman 3; Marmottan 81. Cornet de la Sabretache. XII. 1903.

المفكرين إلى البحث عن ميادين أخرى تتسع لذلك النشاط الاستعمارى .

صحيح أن الفرنسيين قابلوا أخبار نزول الإنجليز فى سان دومنجو بشىء كثير من الفتور والسأم ، ولكن أسبابا عدة — سوف يأتى ذكرها فى حينه — مالبثت أن أحيت رغبتهم فى الاستعمار عموما . ومنذ عام ١٧٩٧ استأثرت (مسألة الاستعمار) بقسط كبير من اهتمام حكومة الإدارة ، حتى أن تلليران وزير خارجيتها مالبث أن ألقى بحثا أمام هيئة (المجمع العلمى الفرنسى) فى يوليو من السنة نفسها ، عن الفوائد التى يمكن أن تجنيها فرنسا من امتلاك مستعمرات جديدة .

ولم يفت منو ملاحظة هذا النشاط الجديد ، وكان من المنتظر ، وهو الذى سئم حياة البطالة وكثر دائنوه ، وبرم بذلك الضيق الذى نزل به ، وبتلك الإهانات التى ألحقها به أعداؤه ، أن يفكر فى وسيلة للخلاص من ذلك كله ؛ بمحاولة إقناع الحكومة حتى ترسله مندوبا عنها إلى سان دو منجو ، مسرح الفتن والاضطرابات التى خربت ممتلكات الأسرة ، والتى بات من المتوقع أن تفضى إلى ضياع هذه « المستعمرة » من حوزة الجمهورية ، وعلى ذلك فقد بعث منو إلى روبل Rewbell عضو حكومة الادارة برسالة فى ٦ اكتوبر ١٧٩٧ يشكو من عنف أعدائه معه ، وما يوجهونه إليه من اتهامات ويطلب أن تهىء له الحكومة « ملجأ » يقيه شر هؤلاء الأعداء ؛ وقال منو فى مذكرة سابقة إن فى استطاعته أن يؤدى للحكومة خدمات تعود عليها بفائدة محققة ، لو أنه أرسل إلى المستعمرات ، يعمل كمفتش لجيش الجمهورية ، أوعهدت إليه حكومة الإدارة بمهمة « سياسية » (١) . وكان هذا آخر سهم فى جعبة منو ولم يكن يدرى ماذا يحل به إذا طاش ذلك السهم ولم يصب هدفه .

غير أن الظروف السياسية مالبثت أن هيأت الفرصة لمنو حتى « يخدم » الجمهورية ويقيم الدليل على كفاءته « السياسية » أو مهارته الإدارية بوصفه مفتشا للجيش ، أو حاكم مستعمرة ، عندما صدر قرار حكومة الإدارة فى ١٢ إبريل ١٧٩٨ ، بإرسال (جيش الشرق) إلى مصر بقيادة بونابرت صديق منو القديم من أيام حادث ٥ أكتوبر ، فقد طلب إليه قائد الحملة بناء على رغبته فى ٦ مايو ١٧٩٨ أن يلحق بذلك الجيش المحتشد على شواطىء فرنسا الجنوبية . لقد طلب منو العمل فى المستعمرات ، وكان يرجو الذهاب إلى سان دومنجو ، فواتته الفرصة للعمل ، ولكن فى مستعمرة جديدة وفى ميدان آخر غير جزر الأنتيل والهند الغربية ! ميدان « الشرق » الجديد الذى اتفق مفكرو « الثورة » وفلاسفتها منذ أمد طويل على أنه خير مكان تستطيع فرنسا أن تبدأ فيه تجربتها الاستعمارية .

(١) Rigault 38

الفصل الثانى

فرنســا والشرق

تمهيـد :

يذكر كثيرون أسبابا عدة لإرسال الحملة الفرنسية على مصر ؛ فهناك من يقول إن حكومة الإدارة ، وقد صارت تخشى نفوذ بونابرت بعد انتصاراته الباهرة فى إيطاليا ، أرادت أن تتخلص منه بإبعاده عن باريس ؛ وهناك من يقول إن بونابرت نفسه قد بات لايرضى ، بعد ماأحرزه من مجد وفخار فى حملة إيطاليا ، بأن يظل أداة لغيره من أعضاء حكومة الإدارة يستخدمها (برّا) Barras ، أو (كارنو) Carnot أو سواهما من رجال هذه الحكومة ، الذين كان أكثرهم من « فئة المحامين » لتهيئة سبل المجد والعظمة لأنفسهم ؛ فصار بونابرت يهدف الآن إلى إحراز السيطرة فى فرنسا . ولما كان دستور السنة الثالثة (١٧٩٥) يمنع الرجال دون الأربعين من أن يصبحوا أعضاء فى تلك الحكومة ، فقد تحتم الانتظار على بونابرت حتى يبلغ هذه السن . وفضلا عن ذلك فقد رأى بونابرت بثاقب فكره أن اختلال الأمور بفرنسا لم يبلغ من السوء حدا يسوغ خرق الدستور وتسليمه مقاليد الحكم ، فقرر التريث حتى « تنضج الكمثرى » فيطلبه الشعب نفسه لتولى قيادته ، بل ولا يحجم عن تأييده إذا هو أقدم على إحداث ذلك «الانقلاب» الذى يمكنه من الوصول إلى الحكم ، والتمتع بالسيطرة التى ينشدها . ومع ذلك فقد أدرك بونابرت أن الشعوب سريعة النسيان ، وأن يد الزمن لاتلبث أن تسدل ستاراً كثيفا على أعمال بطولته السابقة إذا هو رضى بالخمول ، ولم يجدد ذكريات انتصاراته الإيطالية فى ميدان آخر يفضل ميدان إيطاليا ، ويفتح النشاط فيه آفاقا جديدة أمام الشعب الفرنسى ، فى وقت كانت قد أنهكت قوى الشعب تلك الحروب التى ظلت مستعرة طوال القرن تقريبا ، وخسر الفرنسيون من جرائها إمبراطوريتهم الاستعمارية القديمة ، بل وكانت — بسبب ما كبدته الشعب من خسائر فادحة — من عوامل ذلك الضنك والاضطراب الاقتصادى والاجتماعى ، الذى أفضى إلى اشتعال «الثورة الكبرى» وإنشاء الجمهورية .

ولا شك فى أن هـذا كله أو بعضه صحيح ، ولـكنه لاجدال كذلك فى أن انتظار «نضوج الـكمثرى» كان نوعا من أنواع «الفلسفة» التى اعتمد عليها كثيرون فى تفسير ماشهدوه من وقائع بعد حدوثها . ولـكن رغبة التخلص من بونابرت ، أو التريث حتى يتم نضوج الـكمثرى ، أو مسعى بونابرت لـكسب أكاليل جديدة من المجد والفخار تعيد إلى الأذهان مجد الإسكندر المقدونى ، أو قد يتضاءل مجد الإسكندر بجانبها ، ما كانت كلها مجتمعة تكفى لإقناع حكومة الجمهورية بأن من الخير المجازفة بإخراج جيش كبير إلى الشرق ، يضم صفوة قواد فرنسا ونخبة علمائها ، فتتعرض هذه « العمارة » العظيمة لأخطار العبور فى البحر الأبيض المتوسط ، عندما كانت الأساطيل الإنجليزية مرابطة على منافذ هذا البحر ومتجولة فى أنحائه ؛ ولم يكن فى استطاعة الفرنسيين ، على الرغم مما أحرزوه من انتصارات حاسمة فى أرض القارة الأوربية حتى أرغموا أعداءهم على التسليم وقبول ما أملوه عليهم من شروط قاسية أن ينالوا شيئاً من قوة إنجلترة ، أو أن يكسبوا نصراً بحريا . ولذلك فقد كانت هناك أسباب أبعد غورا مما اعتاد الـكتاب والمؤرخون أن يفسروا به مجىء الحملة الفرنسية إلى هذه البلاد .

أما هذه الأسباب فـكانت ترتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الاستعمار الفرنسى نفسه ، واتجاه الرغبة قبل خروج الحملة بزمن طويل نحو إحياء المستعمرات الفرنسية القديمة ، أو بناء إمبراطورية استعمارية جديدة ، إذا كان ذلك الإحياء متعذرا ، حتى إذا عجز الفرنسيون عن عقد الصلح مع انجلترة التى ناصبتهم العداء منذ إعدام الملك لويس السادس عشر ، وألبت عليهم الدول ، ونجح بت Pitt وزيرها فى تكوين المحالفة الدولية الأولى ضد فرنسا (١٧٩٣) ، صمم الفرنسيون على الانتقام من انجلترة ، سواء بغزو الإنجليز فى بلادهم ، أو بغزوهم فى الهند أهم مستعمراتهم ، فـكان فتح ميدان الاستعمار الجديد فى « الشرق » من الوسائل التى لجأ إليها الفرنسيون للاقتصاص من خصومهم .

الإمبراطورية الاستعمارية القديمة :

لقد أسفرت حروب فرنسا الطويلة فى أوربا والمستعمرات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبعد صلحى أوترخت فى عام ١٧١٣ ، وباريس فى عام ١٧٦٣ ، عن فقد أكثر مستعمراتها فى العالمين القديم والجديد ؛ فلم يعد لها فى الهند سوى مراكز تجارية قليلة فى شندر ناجور ، وبوندى شيرى ، وكاريكال ، ويناون Yanaon ، وماهى ، بينما ضاع منها فى أمريكا أقاليم كثيرة : نيوفوندلاند ما عـدا جزءاً من شواطئها الشمالية الشرقية للصيد ، وجزيرتين صغيرتين جنوبها ؛ ثم جهات خليج

الهدسون ؛ وأكاديا ، وكندا ، ولوزيانا . ولذلك فقد اعتبر المؤرخون أن عهد الإمبراطورية الفرنسية الأولى قد انتهى بحرب السنين السبع (وصلح باريس ١٧٦٣) ؛ واعتقد كثيرون أن « الإمبراطورية الاستعمارية » لن تقوم لها قائمة بعد ذلك . وفات هؤلاء « المتشائمين » أن فرنسا على الرغم من خسائرها الجسيمة فى المستعمرات ، كانت ما تزال محتفظة بعدد من الجزر ذات الغلات الهامة فى الهند الغربية ، أهمها سان دومنجو ؛ والمارتينيك ، وسان لوسيا ، وهى جزر الأنتيل ، التى عرفت باسم « جزر السكر » ، وذلك ما عدا جزيرتى بربون ، وموريتيوس أو إيل دى فرانس فى المحيط الهندى . وليس من شك فى أن فرنسا ما كانت تفيد من كندا قدر ما كانت تجنيه من جزر الهند الغربية خاصة ، ذلك أن هذه الجزر أمدت فرنسا بالسكر والبن والقطن وغير ذلك من السلع ، التى ظلت حاجة الفرنسيين إليها عظيمة . أضف إلى ذلك أن بقاء بربون وموريتيوس فى حوزة فرنسا يجعل هاتين الجزيرتين مراكز تستطيع منها فرنسا بدء محاولة أخرى لبناء إمبراطورية استعمارية جديدة فى « الشرق » الغنى . وهكذا ظهر جماعة من « المتفائلين » الذين اعتقدوا أن فى استطاعة بلادهم إحياء الإمبراطورية القديمة ، ثم إعادة التوازن الدولى إلى الحالة التى كان عليها قبل معاهدة باريس ، لو أنهم عملوا على إصلاح شئون الجزر ، أو تلك المستعمرات التى بقيت فى حوزتهم ، وذلك باستثمار موارد جزر الأنتيل استثماراً مفيداً والاستيلاء على ممتلكات جديدة . وكان فى طليعة هؤلاء المتفائلين الدوق دى شوازيل Choiseul وزير خارجية فرنسا منذ عام ١٧٥٧ ، والرجل الذى تم على يديه عقد صلح باريس فى ١٠ فبراير ١٧٦٣ .

فقد طفق شوازيل يعمل على إزالة ما ترتب على هذا الصلح من آثار أساءت إلى مصلحة بلاده ، ووجد أن خير ما يحقق هذه الغاية تدخله فى « المسألة الشرقية » ، إلى جانب حلفاء فرنسا القدماء كالسويد وبولندا وتركيا ، يبغى من ذلك أن يعيد إلى فرنسا شيئاً من تفوقها السابق فى ميدان السياسة الدولية ؛ وأدرك أن وجود البحرية القوية ، وبناء الإمبراطورية الاستعمارية ، عاملان لا غنى عنهما للنجاح فى المضمار الدولى . فبذل جهوداً كبيرة لإحياء البحرية ، وكان صاحب الفضل فى إثارة عدد من مشروعات الاستعمار الفرنسى الجديدة ، كالتوطن فى جوايانا الفرنسية والاستقرار بها ، وخصوصاً فى منطقة نهر (كورو) ، وتأسيس مركز فرنسى جديد فى جزيرة مدغشقر ، على يد موداف Maudave ، وتشجيع (بوجنفيل) Bougainville

على الملاحة حول الكرة الأرضية بين عامى ١٧٦٦ — ١٧٦٩ ، ثم كان من أهم مشروعات شوازيل الاستعمارية تأييد مصالح الفرنسيين فى مصر ، واستخدام كل مهارته السياسية فى محاولة الاستيلاء على مصر ذاتها ، حتى يجد مواطنوه فى منتجات هذه البلاد وغلاتها ما يعوضهم عن تلك الخسارة التى نزلت بهم بسبب ضياع مستعمراتهم الأمريكية .

غير أن شوازيل لم يكن موفقا فى مشروعاته الاستعمارية ، فأخفق مشروع التوطن فى حوض نهر (كورو) ، وفتكت الأمراض والحميات بأولئك الفرنسيين الذين غامروا بالهجرة إلى هذه البقاع الموبوءة (١٧٦٣ — ١٧٦٧) ، ثم أخفقت محاولة أخرى من أجل إنشاء مستعمرة جديدة على ضفاف نهر (ابرواج) فى جوايانا كذلك فى العام التالى (١٧٦٨) . ومع أن جمهورية جنوة ما لبثت أن باعت لفرنسا جزيرة كورسيكا فى العام نفسه على أمل إعادة التوازن فى البحر الأبيض المتوسط بعد أن استولى الإنجليز على جزيرة مينورقة الأسبانية (منذ عام ١٧١٣) ، فقد أخفقت جهود الفرنسيين فى مدغشقر ، وطلب موداف النجدات من فرنسا ، ثم انتهى الأمر باستدعائه فى ديسمبر ١٧٧٠ ؛ وفى نفس هذا الشهر خرج شوازيل من الوزارة بعد أن ذاع الاعتقاد بأن الفرنسيين تعوزهم القدرة على الاستعمار .

على أن خروج شوازيل من الوزارة ، وفشل مشروعاته الاستعمارية ، لم يكن معناه أنه قد قضى على « الفكرة الاستعمارية » فى فرنسا قضاء مبرما لا قيامة لها بعده . ذلك أن مشروع استعمار مدغشقر ما لبث أن عرض على بساط البحث ثانية على يد بنيوسكى Benyowski المغامر البولندى بين عامى ١٧٧٢ — ١٧٧٤ . صحيح أن الحكومة الفرنسية رفضت فى آخر الأمر معاضدة بنيوسكى ، حين اضطر هذا المغامر إلى مغادرة باريس والارتحال إلى أمريكا ، غير أن ولاية ماريلاند أمدته بالمساعدات المطلوبة ، واستطاع النزول فى مدغشقر ثم قتل فى مايو ١٧٨٦ ، عند اشتباكه مع القوات الفرنسية التى أرسلت من جزيرة إيل دى فرانس للقبض عليه .

إلا أنه كان من أثر هذا الحادث من جهة ، وبسبب استياء الفرنسيين من فقد امبراطوريتهم الاستعمارية القديمة من جهة أخرى ، أن ظلت الفكرة الاستعمارية باقية بل لقيت تأييداً كبيراً من وقت لآخر ، من جانب أولئك الفرنسيين الذين ظلوا متشبثين بضرورة إحياء مجدهم الاستعمارى القديم ، سواء أكان ذلك عن طريق إصلاح شئون تلك المستعمرات التى بقيت فى حوزتهم ، أم بالاستيلاء على أرض جديدة . وآية

ذلك أن الفرنسيين فى السنوات التى سبقت انفجار بركان الثورة الكبرى (فى عام ١٧٨٩) صاروا يبحثون الأسباب التى اعتبرها المعاصرون مسئولة عن ضياع مستعمراتهم فى جزر الهند الغربية بنوع خاص ، وتوفر فلاسفة الثورة ومفكروها ، إلى جانب الوزراء وغيرهم من رجال الدولة والحكومة ، على دراسة هذه الأسباب ، التى تناولت بحث القواعد التى قامت عليها الإمبراطورية الاستعمارية القديمة ، وبيان جوانب الضعف فيها ، والمبادىء التى يجب أن يهتدى بها بناة الامبراطورية الاستعمارية الجديدة ، والأسس التى يجب أن يشيدوا عليها صرح بنائهم .

ولما كانت الإمبراطورية الاستعمارية القديمة قد قامت على أساس «الحق الاحتكارى» و « استخدام الرقيق » ، فقد بحث فلاسفة الثورة والانسيكلوبيديون هاتين القاعدتين ، فأخذ ديدرو Diderot (١٧١٣ — ١٧٨٤) على وجه الخصوص ، يفسر الاحتكار التجارى وينقده ، فقال إنه لما كانت المستعمرات قد أنشئت فيما وراء البحار لخدمة مصالح الوطن أو الدولة المستعمرة ، فقد وقعت هذه المستعمرات تحت حماية الدولة المستعمرة ؛ كما أنها كانت تعتمد فى بقائها على ما تمدها به هذه من نجدات ، وتسديه إليها من خدمات ، لتنمية مواردها ، واستثمارها ، حتى بات مؤسسو هذه المستعمرات أصحاب الحق وحدهم فى الاتجار معها ، ونقل متاجرها ومنتجاتها على ظهور سفنهم ، وهذا ما يعرف باسم (الاحتكار التجارى) Exclusif ، وهو نظام معمول به من أيام كولبير Colbert وزير الملك لويس الرابع عشر . وقد عاد هذا النظام بفائدة محققة على الشركات التجارية الفرنسية التى نقلت المتاجر من (جزر السكر) وإليها ، واحتلت جزيرة سان دومنجو خاصة فى هذا النظام مكانا ملحوظا ، حتى غدت محور ذلك النشاط الاستعمارى بأجمعه . ومع ذلك فإن الاحتكار التجارى ما كان يخلو من مساوىء عدة ، لعل أهمها تحريم دخول موانىء المستعمرات على السفن الأجنبية ، فقد تعذر على البحرية الفرنسية بمرور الزمن وازدياد النشاط الاقتصادى فى المستعمرات ، أن تسد حاجة هذه الممتلكات الفرنسية ، مما دعا إلى ارتباك الأحوال فى الجزر ، ولم يكن ثم مناص من تدبير الوسائل التى تكفل إعادة الاستقرار إلى الحياة الاقتصادية فى جز الهند الغربية.

وواقع الأمر أن الأحوال الاقتصادية فى الجزر ما لبثت أن ازدادت سوءاً على سوئها أيام النضال الاستعمارى المعروف بين انجلترة وفرنسا خلال حرب السنين السبع حتى إن الأهالى فى الهند الغربية سرعان ما علا صياحهم يطالبون بتخفيف قيود الاحتكار فى عام ١٧٦١ ، وأدركت الحكومة حرج الموقف فى الجزر فى السنوات

التالية ، فاضطرت بعد ثلاث سنوات تحسب من عقد صلح باريس ، إلى فتح موانى سان لوسيا وسان دومنجو فى وجه السفن الأجنبية فى عام ١٧٦٧ ؛ كما أنها ما لبثت أن اضطرت فى عام ١٧٦٩ إلى إلغاء حق شركة الهند الغربية فى احتكار التجارة ، وكانت هذه الشركة قد تأسست من أيام كولبير ؛ ثم وافقت على دخول السفن الأجنبية إلى عدة موانىء أخرى فى جزر الهند الغربية فى أغسطس ١٧٨٤ ؛ بل وأجازت بعد عامين اثنين حرية التجارة مع كابين Cayenne « عاصمة » جوايانا ، بل ومع سائر بلدان هذه المستعمرة مدة استمرت حتى عام ١٧٩٢ .

أما مسألة جلب الرقيق الأسود إلى المستعمرات الفرنسية فقد كانت ترتد فى أصولها إلى (قانون) صدر فى عام ١٦٨٥ بتأثير (مدام دى منتنون) Mme de Maintenon ذات السيطرة المعروفة على لويس الرابع عشر ، وكانت هذه السيدة تهدف إلى تحسين أحوال السود المستخدمين فى المستعمرات ، وذلك لتهيئة السبل لهم لاعتناق الكاثوليكية ثم الإشراف على تدبير ما يلزمهم من أغذية ولباس ، وإمدادهم بالأدوية والعناية بمرضاهم . على أن هذا القانون الذى عرف باسم (قانون السود) Code Noir ، كان ينص كذلك على توقيع العقوبات الشديدة على الأرقاء الذين يثبت إهمالهم ، أو يسرقون « أسيادهم » ؛ أو يسلكون مسلكا شائناً .

فلما كثر « الطلب » من أوربا على منتجات جزر الهند الغربية ، أغفلت نواحى الخير فى هذا القانون . إذ اضطر الأسياد إزاء ازدياد الطلب إلى مضاعفة الإنتاج ، فأنشأوا المزارع الواسعة التى اعتمدوا على الرقيق فى فلاحتها واستثمارها ، وعظم عدد ما جلبوه من الرقيق حتى بلغ فى جزيرة سان دومنجو وحدها فى عام ١٧٨٩ نصف مليون تقريبا ، فى حين أنه لم يكن يزيد قبل ذلك بعشر سنوات على ربع مليون ، ولم يكن عدد البيض فى هذه الجزيرة يربو على بضعة آلاف قليلة . وإزاء هذه الزيادة المطردة فى عدد الرقيق رأى البيض لضمان سيطرتهم فى الجزر أن يعملوا لتعديل (القانون الأسود) على نحو يمكنهم من تحقيق أغراضهم ، فأهملت العناية بأمر إطعام السود أو السهر على راحتهم ؛ واشتد الأسياد فى معاملة أرقائهم ، فضربوهم بالسياط وبالغوا فى إيذائهم ، حتى أعادوا بقسوتهم هذه إلى الأذهان ذكرى قدماء الفاتحين الأسبان فى العصور السابقة ، وكما ظهر فى تلك الأيام الحوالى من دافع عن السود ، فقد انبرى الآن للدفاع عنهم (غليوم رينال) Raynal (١٧١٣ — ١٧٩٦) من رجال الدين وأعلام الفكر فى فرنسا فى القرن الثامن عشر .

الاستعمار بين البقاء والزوال :

وكان لكتابات رينال ، كما كان لكتابات غيره من فلاسفة الثورة ومفكريها ، أكبر الأثر فى إضعاف تلك الرغبة التى ظهرت أيام (شوازيل) فى إحياء الإمبراطورية الاستعمارية القديمة ، كما كان من شأن حملتهم على الاحتكار التجارى واستخدام الرقيق أن انصرف الفرنسيون عامة عن الاستعمار فى السنوات التى سبقت اشتعال ثورتهم الكبرى . فقد نجم عن إخفاق تجربة شوازيل فى جوايانا أن صار الفرنسيون ينفرون من أية محاولة استعمارية جديدة ؛ ثم زاد نفورهم عندما تصدى الفلاسفة وأصحاب الفكر الجديد لإظهار مساوىء القواعد التى قام عليها صرح الإمبراطورية الاستعمارية القديمة . وكان المسئولون عن ذلك : روسو ، ومابلى Mably ، ومنتسكيو ، وفولتير ، إلى جانب رينال ، ثم برناردان دى سانت بيير . Bernardin de st. Pierre ، وأخيراً بيير بوافر Pierre Poivre . فقد حمل كل هؤلاء على الرق حملة شديدة ، وصوروا مساوىء الاستعمار الفرنسى بصورة بشعة مزرية ، وأظهروا أن من خطل الرأى أن تناضل فرنسا من أجل امتلاك المستعمرات ، بينا هى ما تزال فى حاجة إلى استصلاح أراضيها فى داخل بلادها ذاتها ، والعمل على استثمارها استثماراً طيباً نافعاً .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن هؤلاء الفلاسفة لم يكونوا جميعاً ضد الاستعمار ، ولم يطلبوا إلى فرنسا أن تتخلى عن مستعمراتها ، بل إن فريقا منهم كان لا يرى غضاضة فى بقاء (الاحتكار التجارى) أحد أسس الاستعمار الفرنسى القديم ، كما فعل منتسكيو الذى وافق كذلك على امتلاك الجزر فى البحر الكاريبى ؛ أو بقاء ذلك النظام الاجتماعى القائم فى المستعمرات ، بما فى ذلك استخدام الرقيق ، كما فعل فولتير الذى نقد الرق باعتباره عملا شائنا فى نظر الإنسانية . بل إن فولتير — وكان من أصدقاء شوازيل — وافق الوزير على ضرورة الاستيلاء على كورسيكا وحبذ استعمار لويزيانا . أما بيير بوافر فقد طلب إلى مواطنيه أن يبحثوا عن ميادين جديدة ، لينشئوا بها مستعمرات ، غير تلك التى ضاعت منهم ، أو كانت مهددة بالزوال بسبب مساوىء الأنظمة القائمة بها ، وكان « الشرق » ذلك الميدان الجديد الذى دعا (بوافر) مواطنيه إلى محاولة استعماره وفق قواعد وأساليب جديدة .

غير أن تلك الصورة القاتمة التى رسمها (بوافر) وزملاؤه عن الاستعمار الفرنسى بقواعده القديمة المعروفة ، ما لبثت أن طغت على غيرها من صور أو آراء ؛ وفضلا عن ذلك فقد حالت ظروف عدة وقتئذ دون أن يفكر الفرنسيون فى ابتكار أنظمة

أخرى ، أو يقوموا بتجربة استعمارية جديدة فى « الشرق » أو فى غيره من الميادين .
فقد اشتعلت فى عام ١٧٧٤ حرب الاستقلال الأمريكى ، ولما كانت فرنسا تريد الانتقام من الإنجليز الذين سلبوها أكثر مستعمراتها القديمة ، وتبغى إعادة التوازن الدولى إلى نصابه بهدم سيطرة الإنجليز ، فقد تحالفت مع الأمريكيين فى عام ١٧٧٨ ، وخاضت إلى جانبهم غمار هذه الحرب التى استمرت حتى عام ١٧٨٣ ، وذلك دون تفكير فى العواقب ودون أن تحسب حسابا لما قد يترتب على استقلال الولايات المتحدة الأمريكية من آثار سوف تنال من مركز فرنسا ذاتها فى جزر الهند الغربية . ذلك أن فرنسا تكلفت بسبب اشتراكها فى هذه الحرب أموالا طائلة زادت ضائقتها المالية شدة حتى أضحت عاجزة عن الاحتفاظ (بالنظام القديم) فى المستعمرات ، ناهيك بمحاولة التوسع الاستعمارى فى ميادين أخرى جديدة ، وفضلا عن ذلك فقد لجأ الأمريكيون المستقلون إلى التهريب ، لإنشاء الصلات التجارية الواسعة مع الجزر ، وذلك عندما كانت تمنعهم القوانين الفرنسية — وقانون السود خاصة — من الدخول إلى موانى هذه الجزر ، فكان ذلك من أكبر الأسباب التى أرغمت فرنسا على إلغاء إحدى قاعدتى « الاحتكار التجارى » وفتحت هذه الموانى للسفن الأجنبية فى أغسطس ١٧٨٤ على ماسبق ذكره ؛ كما اضطرت فى ديسمبر من العام نفسه إلى تعديل (قانون السود) ، وكان اتخاذ هذين القرارين إشارة واضحة إلى أن فرنسا لم تعد ترغب فى التمسك بالنظام الإستعمارى القديم ، بل إن هذا النظام قد انحل نهائياً فى جزر الهند الغربية .

وكان من أسباب انهيار النظام الاستعمارى القديم تلك الخطة التى تمسك بها السياسيون ورجال الحكم من وزراء لويس السادس عشر ، عندما قصر فرجن Vergennes جهوده على المحافظة على مابقى فى حوزة الفرنسيين من ممتلكات ، دون محاولة ضم مستعمرات جديدة كان الوزير يعتقد أنه من المتعذر على فرنسا الدفاع عنها ، أو المحافظة عليها إطلاقاً . وعارض ترجو Turgot (الحق الاحتكارى) ، وصمم على عدم إرسال أية نجدات إلى جزر الأنتيل ، لما يتكلفه إرسال هذه الحملات من أموال طائلة ، ولبعد الجزر عن فرنسا ، ولم يقنعه توقع الحرب مع انجلترة بأن من حسن السياسة وأصالة الرأى تعزيز الدفاع عن هذه الجزر ، بل إن (ترجو) كان يدعو إلى اعتبار المستعمرات بمثابة دول منفصلة ، لا يربطها بأرض الوطن سوى بقائها تحت حماية الدول التى تستعمرها . .
ثم انبرى (نكر) Necker يندد بمساوىء الرق ، ولو أنه أحجم عن تشجيع تحرير الرقيق إلا إذا أجمعت الدول الأخرى على إلغاء الرق إلغاء تاما . ومع ذلك فإنه لم يكن

فى وسع هؤلاء السياسيين أن ينبذوا فكرة الاستعمار ظهريا ، فى وقت كانت ما تزال الرغبة فى الانتقـام من انجلترة مسيطرة على الأذهان فى فرنسا . . فقد أيد (ترجو) امتلاك جزر بربون وإيل دى فرانس ، لإمكان استخدام هذه الجزر — على حد قوله — قواعد تستطيع فرنسا أن ترسل منها الحملات إلى الهند ، عندما يحين الوقت الملائم للاقتصاص من الإنجليز ، وطردهم من أهم مستعمراتهم فى الشرق . ودافع (نكر) عن شركة الهند الشرقية الفرنسية ، وأقر الحق الاحتكارى ، وأثنى على كولبير ونظام حماية التجارة .

وقد ترتب على هذا التناقض الظاهر فى أقوال الفلاسفة والمفكرين ورجال الحكم والسياسة ، أن برزت فكرتان هامتان كانتا تطغيان على سواهما من الآراء والأفكار : هما ضرورة الاستمساك بالمستعمرات ، بل والعمل على توسيع رقعتها إذا أمكن ؛ ثم إزالة المساوىء التى أوجدها النظام الاستعمارى القديم . ولما كان من المتعذر على كل حال أن يطلب إلى الفرنسيين أن يتخلوا عن مجدهم الاستعمارى الغابر ، فقد نجم عن محاولة التوفيق بين هاتين الفكرتين أن اتجهت الرغبة فى فرنسا إلى البحث عن ميادين جديدة ، يستطيع الفرنسيون أن ينشئوا بها مستعمرات جديدة ، على أسس جديدة ، غير تلك الأسس التى أفضت إلى ظهور كل هذه المساوىء التى جعلتهم ينفرون من الاستعمار بوضعه القديم ؛ وسهل على أنصار الاستعمار الجديد أن يجدوا فى كتابات وبحوث الفلاسفة والمفكرين ضالتهم المنشودة .

ولما كان (بيير بوافر) قد بسط فى كتاب « أسفاره » المزايا التى تعود على فرنسا من اختيار (الشرق) ميدانا لنشاطها الاستعمارى الجديد ، فقـد أضحى (الشرق) قبلة أنظار مؤيدى الاستعمار فى فرنسا . وكان (بوافر) يشير على مواطنيه باستعمار جزيرة مدغشقر لأسباب عدة ، لعل أهمها أن هذه المستعمرة الجديدة سوف تستطيع عند نجاحها أن تمد بالمساعدة مستعمرة الفرنسيين فى (إيل دى فرانس) فلا تظل هذه معتمدة فى حياتها على الإمدادات التى يأتيها بها الهولنديون عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولما كان (ترجو) قد تمسك بجزر إيل دى فرانس وبربون ، لاستخدامها فيما بعد مراكز لإرسال الحملات منها إلى الهند لطرد الإنجليز ، فقد اتجهت الرغبة نحو اتخاذ (الشرق) ميدانا للتجربة الاستعمارية الجديدة ؛ وفضلا عن ذلك فقد قويت هذه الرغبة بعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية للأسباب التى ذكرناها ، ولأن الاضطرابات التى سرعان ما انتشرت فى جزر الهند الغربية نتيجة لاندلاع لهيب

الثورة الفرنسية الكبرى ، وقيام الخلاسيين والسود يطالبون بالحقوق التى نادت بها الجمعية الأهلية (التأسيسية) فى فرنسا ، ثم انتشار الاضطرابات على يد توسيان لوفدتير على نحو ما سبق ذكره ، ما لبثت أن أقنعت الفرنسيين بأن مستعمراتهم فى جزر الهند الغربية إنما تسير فى طريق الانهيار بخطى حثيثة ، وأن من الخير أن يحاولوا « تجربة استعمارية » جديدة فى ميادين أخرى ، قد تعوضهم شيئا عن خسائرهم فى جزر الأنتيل .

وعلى ذلك فإنه لم يكد يصح عزم دعاة الاستعمار الجديد على إنشاء المستعمرات التى يمكن أن تأتيهم بمثل المنتجات والغلات التى كانت تأتيهم من جزر الهند الغربية ، حتى شرعوا يفكرون فى اختيار أصلح الميادين الملائمة لإجراء تجربتهم الاستعمارية الجديدة ؛ وهداهم التفكير إلى أن مصر أحد أقاليم الامبراطورية العثمانية هى أصلح ميادين « الشرق » قاطبة لإنشاء المستعمرة الجديدة . وكان لهذا الاتجاه صوب مصر أسباب عدة ؛ منها ذيوع الاعتقاد وقتئذ بأن الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار ، وتوقع تقسيم أملاكها بين الدول ، والخوف من استيلاء إحدى هذه الدول على مصر من جهة ، ولأن الفرنسيين — وقد ظلت تربطهم بمصر صلات تجارية قديمة ؛ كما أنهم يجدون فيها منفذا إلى الشرق لتعزيز مستعمراتهم الباقية فى المحيط الهندى والانتقام من إنجلترة خصمهم القديم — ما لبثوا أن وجدوا كذلك أن الخطر بات يهدد البقية الباقية من مصالحهم فى هـذه البلاد ، على الرغم من كل محاولاتهم التى بذلوها لإنقاذ بيوتهم التجارية فى مصر ، وذلك بسبب الفوضى التى انتشرت فى البلاد على أيدى البكوات المماليك ، الذين استبدوا بكل سلطة فيها ، وقضوا على كل نفوذ للسلطان العثمانى صاحب السيادة الشرعية عليها . فكانت الرغبة فى إجراء هذه التجربة الاستعمارية، ثم إنقاذ مصالحهم السياسية والتجارية فى وقت هددت فيه الدول بابتلاع ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ، من العوامل التى تضافرت مع غيرها على جعل الفرنسيين يحولون اهتمامهم إلى مصر ، حتى إذا دنت ساعة الانتقام من انجلترة ، وتصفية حساب الفرنسيين القديم مع هذا الخصم العنيد ، الذى قوض أركان إمبراطوريتهم الاستعمارية القديمة ، كان إرسال الحملة الفرنسية على مصر قد بات أمرا مفروغا منه ، ولا سبيل إلى التراجع عنه .

مصر والمصالح الفرنسية :

لقد خضعت مصر لسلطان العثمانيين منذ أن فتحها السلطان سليم الأول فى عام ١٥١٧ ، ووضع لحكومتها تلك الأنظمة ، التى أتمها سليمان القانونى من بعده ، وأسفرت

بعد مضى زمن قليل عن استئثار البكوات المماليك بكل نفوذ وسلطة فى البلاد ، ذلك أن العثمانيين أقاموا إلى جانب الباشا — الحاكم العثمانى — ديوانين يضمان رؤساء الفرق العسكرية أو الأوجاقات ، وكبار الموظفين والعلماء ورجال الإدارة ، وجعلوا رؤساء الفرق العسكرية أصحاب الكلمة المسموعة فى الحكومة المركزية ، ثم تركوا شئون الحكم فى الثغور الهامة والأقاليم فى أيدى الصناجق — أو حكام المديريات . وكان أكثر هؤلاء ووكلائهم ، الذين عرفوا باسم الكشاف ، من البكوات المماليك الذين كانوا أوثق صلة بأهل البلاد من غيرهم . وقد قوى شأن البكوات رويدا رويدا بعد ذلك ، بسبب انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حتى إن نفوذهم سرعان ما صار يطغى على كل سلطة للباشا ، وأصبح لزعيمهم الذى عرف باسم « شيخ البلد » من السلطان ما جعله يعزل الباشا ، ويقدم على حبسه فى القلعة ، بل إن البكوات المماليك ما لبثوا أن طمعوا فى الانفراد بأسباب الحكم وبكل سلطة ، وحاولوا طرد العثمانيين من البلاد وقطع صلاتهم بتركيا .

على أن زوال نفوذ الباشا العثمانى ، ثم تشاحن الهيئات الحكومية المختلفة من أجل الهيمنة على شئون البلاد ، ما لبث أن ألقى بهذه البلاد فى أحضان الفوضى ؛ وقد زاد من شرور هذه الفوضى أن البكوات صاروا يتنافسون فيما بينهم الآن على منصب شيخ البلد ، رمز الزعامة والسلطة المطلقة ، فاستعر النضال بين القاسمية وذى الفقارية وكانا من بيوت المماليك صاحبة السطوة والنفوذ وقتئذ ، يحتكر بكواتهما منصب المشيخة ، ويثيرون فى البلاد حروبا أهلية ، رغبة فى الحصول على هذا المنصب أو تولى إمارة الحج ؛ وكان الباشا العثمانى فى أثناء ذلك كله قليل الحيلة محدود النفوذ ، وكان من أسباب ضعف هؤلاء الباشوات ، الذين يمثلون السلطان العثمانى فى البلاد ، تلك الخطة التى جرت عليها تركيا وعادت بالوبال عليها ، عندما أكثرت من تعيين الباشوات وعزلهم ، دون أن تسمح باستقرار أحد منهم فى الحكم مدة طويلة ، خوفا من طمعه فى الانفراد بالسلطة فى مصر ، وانتهاز فرصة ضعف الامبراطورية العثمانية لمحاولة الانفصال عنها بإعلان الاستقلال .

غير أن السياسة التى أملت على سليم وسليمان خطة توزيع القوى فى مصر بين هيئات حكومية منوعة ، لا يربط بينها رابط غير اشتراكها جميعاً فى التبعية للسلطان العثمانى ، أدت إلى انفراد البكوات بالسلطة فى البلاد ، وكانت من عوامل انتشار الفوضى والاضطراب فى مصر ، وما لبثت أن أسفرت فى نهاية الأمر عن قيام أحد هؤلاء البكوات المماليك بالثورة الجامحة على السلطان العثمانى ، والاستقلال بشئون الحكم ، والانفصال عن تركيا ؛

فقد عرف على بك الكبير صاحب هذه الثورة كيف يفيد من ذلك الضعف الذى ألم بدولة العثمانيين نتيجة لحروبهم الطويلة مع روسيا القيصرية فى القرن الثامن عشر ، حتى ضؤل شأن حكامها وعمالها فى العراق والشام ، واستفحل أمر الشيخ ظاهر العمر الزيدانى فى عكا وفلسطين ، وانزوى الباشا العثمانى فى الحجاز ، بينما صار الشريفيون يتنازعون على الإمارة فى مكة ، واستطاع على بك نفسه أن يعلن استقلاله فى مصر .

فقد استطاع على بك الوصول إلى المشيخة فى عام ١٧٦٣ ، ولم يكد يستمتع بهذا المنصب قليلا حتى اضطره أعداؤه ومنافسوه إلى الفرار مرتين من مصر خلال ثلاث سنوات ، فأقام فى الحجاز تارة ، وفى فلسطين فى ضيافة الشيخ ظاهر العمر تارة أخرى ، حتى أتيحت له فرصة العودة إلى القاهرة فى عام ١٧٦٦ ، فانتقم من أعدائه ، وأنزل العقاب الصارم بمحركى الفتن والاضطراب ، واستخدم فى ذلك أحد مماليكه الذى اشتهر فيما بعد باسم أحمد (الجزار) ، بسبب ما أظهره من قسوة وبطش عند إخماده ثورة عربان البحيرة ، وهو أحمد باشا الجزار الذى دانت له فيما بعد باشوية عكا . وحكم على بك البلاد ، ولكن اختلف فى وصفه المعاصرون ، فقال سافارى Savary الرحالة الفرنسى الذى زار مصر بعد وفاته بزمن قصير إنه أنشأ نوعا من الحكومة العادلة سعد به المصريون حتى إن عهد على بك ليعتبر بحق « العصر الذهبى » فى تاريخ هذه البلاد التى عرف أهلها البؤس والضنك أجيالا طويلة [1] .

أما جيمس بروس James Bruce ، وهو رحالة انجليزى زار مصر فى عامى ١٧٦٨ و ١٧٧٣ ، فكان من أشد الناقمين على تلك الحكومة التى أقامها على بك وعلى البكوات ، وعلى المماليك عامة ، ولم يكن يعتقد أن على ظهر البسيطة حكومة أشد قسوة وطغيانا من « حكومة أولئك الأشرار » ، الذين يستأثرون بالسلطة فى القاهرة [2] . قد يكون (سافارى) مغاليا فى إعجابه ، وبروس متطرفا فى كراهيته ، ولكنه يبدو على كل حال أن على بك استطاع أن يقيم نوعا من العدالة التى فهمها أهل البلاد وقتئذ ، وكانت ترضى بها معاييرهم التى درجوا على أن يقيسوا بها نجاح الحكومة وعدالتها [3] .

وانتهز على بك فرصة نشوب الحرب بين تركيا وروسيا فى عام ١٧٦٨ ، وانحياز الباب العالى إلى جانب أعدائه وتصديق وشاياتهم ، فطرد الباشا العثمانى ، وامتنع عن دفع الجزية ، وضرب النقود باسمه ، ووطد نفوذه فى الصعيد . ثم طمع فى نشر سلطانه

---

(١) Savary II. 221

(٢) Bruce I. 202

(٣) الجبرتي ١ : ٣٨٤ — ٣٨٥

على بلاد العرب أملا فى أن يتخذ من جدة مقراً لتجارة الهند ، حتى تتحول تجارة الشرق إلى البحر الأحمر وبرزخ السويس ، بدلا من ذهابها إلى أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح (١) ، متأثراً فى ذلك ولا شك بآراء صديقه كارلو روستى Carlo Rossetti التاجر البندقى (٢) ، ولو أن كثيرين فى ذلك الوقت ما كانوا يرون فى تجريدة على بك إلى بلاد العرب والاستيلاء على الحرمين الشريفين إلا وسيلة لإشباع «طمعه فى الاستيلاء على الممالك» فحسب (٣) .

وقد ظفر على بك بعد نجاح حملته فى الحجاز فى عام ١٨٧٠ ، بلقب « سلطان مصر وخاقان البحرين »(٤) ، وشجعه هذا الانتصار على إرسال حملة أخرى إلى الشام ، وكان على بك قد وعد بنجدة حليفه الشيخ ظاهر ، فاعتقد الآن أن بوسعه أن يخضع الشام لسلطانه ، حتى إذا تم له ذلك غزا تركيا ذاتها وفتحها ، وعقد على بك آمالا عظيمة على إمكان التعاون مع روسيا خصم العثمانيين العنيد لتحقيق مآربه ؛ واتخذ من تذمر أهل الشام من « عثمان بك بن العظم » ، الوالى الذى أساء الحكم فى سوريا ، كما اتخذ من إقبال هذا الوالى على تشجيع أعداء على بك والترحيب بهم عند خروجهم إلى دمشق ، ذريعة ا[illegible] الديار الشامية ، فاستطاع محمد بك أبو الذهب أحد مماليك على بك إحراز انتصارات عدة ، وعاونه الشيخ ظاهر معاونة صادقة ، فسقطت فى يده ويد حليفه غزة ونابلس ويافا والرملة واللد وصيدا وغيرها ، وسقطت دمشق ذاتها فى ابريل ١٧٧١.

وكان على بك فى أثناء هذه الغزوة يعمل جاهداً لعقد محالفات مع روسيا والبندقية . ومع أنه أخفق فى هذا المسعى فقد لقى تأييدا من ألكسيس أرلوف Alexis Orlow قائد الأسطول الروسى فى البحر الأبيض ، وقد وعد (أرلوف) بحمل مقترحات البك ، بصدد المحالفة مع دولته ، إلى كاترين قيصرة الروسيا . على أن خيانة محمد بك أبى الذهب سرعان ما قضت على كل آماله ، ولم تفد معاونة الشيخ ظاهر أو الكونت ألكسيس أرلوف فى التخلص من منافسه ، واستطاع أبو الذهب أن يؤلب ضده البكوات ، فكان تارة يصفه بالكفر والإلحاد ، وتارة أخرى يتهمه بالعمل على إخضاع هذه البلاد حتى « يقضى على دين الرسول الكريم ، ويرغم أهلها على اعتناق

---

(١) Volney I. 98
(٢) Bruce I. 105
(٣) الجبرتى ١ : ٢٥٣
(٤) Savary II. 231

المسيحية » ، [١] وبالقرب من الصالحية دارت رحى تلك المعارك الحاسمة التى جرح على بك فى أثنائها ، ووقع فى أسر أبى الذهب ، ثم ما لبث أن مات بعد ذلك بأيام معدودة ، فى ٨ مايو ١٧٧٣ [٢] ، فقضى بموته على أول محاولة حدثت فى تاريخ مصر الحديثة للتحرر من سلطان الدولة العثمانية . ويرى المعاصرون أن المسئول الأكبر عن إخفاق على بك كان أولئك الروس الذين فوتوا على أنفسهم بسبب ترددهم وإحجامهم عن وضع ثقتهم فى هذا « المملوك المصرى » ، فرصة الاستفادة من حركة على بك ، التى كان يهدف صاحبها إلى الاستئثار بالحكم فى مصر والشام ؛ ذلك أن نجاح هذا المملوك كان من شأنه ، على حد قول هؤلاء المعاصرين ، « نقل تجارة العرب والهند إلى أيدى حلفائه الروس » [٣] .

ومع أن محمد بك أبا الذهب كان يرغب فى الاستئثار بكل سلطة ونفوذ فى مصر ، بل يطمع فى امتلاك الشام كذلك ، فقد اختلفت أساليبه عن أساليب « أستاذه » على بك ؛ ذلك أن أبا الذهب وقد شق عصا الطاعة على سيده ، كان يرى خلاصه واستقامة الأمور له فى مصر فى إرجاع سيادة العثمانيين على البلاد . وفضلا عن ذلك فقد اعتمد أبو الذهب على تأييد العثمانيين له فى الانتقام من الشيخ ظاهر العمر ، غريمه القديم وصديق على بك ، ونال أبو الذهب معاضدة الباب العالى ، فاشتبك مع الشيخ ظاهر فى معارك حامية انتصر فيها ، ولكنه ما لبث أن توفى فجأة فى ٨ يونية ١٧٧٥ ، بعد أن دانت له عكا .

ولم تفد البلاد شيئا من أطماع على بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب ، بل عمت بها الاضطرابات بسبب منازعاتهما وحروبهما ، ثم ما لبثت الحال أن ازدادت سوءاً بعد وفاة أبى الذهب ، عندما انقسم مماليك على بك ومحمد بك أبى الذهب شيعا وطوائف تتنازع فيما بينها ، للحصول على المشيخة ، والاستبداد بحكومة البلاد [٤] . وفى مايو ١٧٨٦ أرسل الباب العالى حملة عثمانية ، بقيادة القبطان حسن باشا ، لردع البكوات وإخضاع البلاد للسيطرة العثمانية ، وتخليصها من شرور إبراهيم بك ومراد بك ، اللذين اقتسما السلطة فيما بينهما منذ عام ١٧٧٩ ، وامتنعا بعد ذلك بأربع سنوات عن إرسال الجزية إلى تركيا [٥] . وكاد النصر يتم لتركيا عندما انهزم مراد ودخل

---

(١) Savary II. 248 — 9

(٢) Lusignan 145 — 153

(٣) Bruce I. 104 — 5; Savary II. 248 — 9

(٤) Delaporte 355 — 63; Savary II. 258 — 76

(٥) الجبرتى ٢ : ١١٢ — ١١٣ ؛ ١١٦ — ١١٧

العثمانيون القاهرة فى أوائل أغسطس ١٧٨٦ ، وفر المماليك إلى الصعيد ؛ ولكن القبطان حسن باشا لم يستطع إخضاع الصعيد ، وفضلا عن ذلك فقد بادرت تركيا باستدعائه عند ما نشبت الحرب بينها وبين روسيا فى سبتمبر من العام التالى . فاستعاد البكوات سلطانهم فى القاهرة ، وحاول الباشوات العثمانيون أن يصلوا إلى اتفاق مع إبراهيم ومراد بعد ذلك بصدد إرسال الجزية وصرة الحرمين ، ورفع المظالم عن أهل البلاد ، « وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة » ، ولكن دون نتيجة . بل ظلت الأحوال تسير من سىء إلى أسوأ ، وقد كتب الشيخ الجبرتى [1] عن سنة تسع ومائتين وألف هجرية (١٧٩٤ — ١٧٩٥ م) أنه « لم يقع بها شىء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم » ؛ ثم عن سنة ١٢١٠ هجرية (١٧٩٥ — ١٧٩٦ م) أنه « لم يقع بها شىء من الحوادث التى يعتنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » ؛ وعن سنتى ١٢١١ ، ١٢١٢ هجرية (١٧٩٧ — ١٧٩٨) أنه « لم يقع فيهما من الحوادث التى تتشوف إليها النفوس أو تشتاق إليها الخواطر فتقيد فى بطون الطروس سوى ما تقدمت إليه الإشارة من أسباب نزول النوازل وموجبات ترادف البلاء المتراسل » [2] .

وغنى عن البيان أن هؤلاء البكوات المماليك ما كانت تعنيهم شئون مصر إلا بقدر ما يبتزونه من أموال أهلها بشتى الأساليب والطرق ، فلم يعنوا بتدبير أمور هذه الباشوية التى سيطروا على حكومتها ، فاختلت الأمور ، وارتبك اقتصاد البلاد ، وانتشرت بها المجاعات والأوبئة والأمراض ، وساعد على انتشار الضنك انخفاض النيل مرات عدة ، وانصراف الفلاح عن العناية بأرضه وزراعته ، عند ما ظلت غلات هذه الأرض نهباً للبكوات ؛ ولما كان البكوات لا يفقهون شيئاً من شئون الرى ، ولم يكن يعنيهم مصير هذه البلاد التى تسلموا زمامها ، فقد أهملوا الترع والقنوات ، وطغت رمال الصحراء عليها ، فهدمت أكثرها ، كما أتلفت قسما كبيراً من الأرض الصالحة للزراعة ، واضمحلت الصناعة ، وركدت التجارة ، وأصيب التجار الإنجليز والفرنسيون وغيرهم بخسائر فادحة ، من جراء تهديد الأمن وانتشار الفوضى فى البلاد .
وكان الإنجليز والفرنسيون فى طليعة التجار الأجانب الذين أنشأوا بيوتاً تجارية هامة فى مصر ، وبذلوا ما وسعهم من جهد وحيلة ، لصون مصالحهم التجارية فى هذه

---

(١) الجبرتى ٢ : ٢٧٤ — ٢٧٥
(٢) الجبرتى ٢ : ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣

البلاد ، يبغون تأمين تجارتهم فى القاهرة والاسكندرية ، والسويس بصفة خاصة ، ومنع اعتداءات العربان وغيرهم على القوافل التى تحمل تجارتهم ، التى كانوا يجلبونها من أوربا عبر برزخ السويس، فى طريقها إلى الأسواق الشرقية ، أو التى كانوا يجلبونها من الهند والشرق عامة إلى الأسواق الأوربية ، وكان الإنجليز أسبق من فكر فى إحياء طريق مصر البرى القديم ، عند ما توطدت أقدامهم فى مستعمراتهم الجديدة فى الهند على وجه الخصوص ، وخيل إلى (وارن هيستنجز Warren Hastings) حاكم البنغال أن فى استطاعته أن يعتمد على ما أبداه على بك الكبير من رغبة فى إحياء تجارة جدة وفتح طريق التجارة بين الموانى الهندية وميناء السويس ، فقرر (هيستنجز) أن يعقد معه معاهدة تجارية ، تعيد الطريق البرى إلى سابق عهده ، وتؤمن التجارة الإنجليزية من الاعتداء عليها فى أثناء نقلها عبر البرزخ من السويس إلى الإسكندرية .

ولكنه لم يكد يحضر مندوبو حاكم البنغال إلى القاهرة ، حتى كان محمد بك أبو الذهب قد تخلص من على بك فى الظروف التى سبق ذكرها ، فعقد معه المندوبون معاهدة تجارية فى ٧ مارس ١٧٧٥ (٤ محرم ١١٨٩) ، خفضت بمقتضاها الضرائب المحصلة على البضائع الآتية من الموانى الهندية ، كما أجازت للانجليز تصدير المنتجات المصرية دون تحصيل ضرائب عليها ، وفتحت الأسواق الهندية والمصرية لمواطنى الطرفين المتعاقدين على السواء ، وتعهد أبو الذهب عن نفسه وعن خلفائه فى الحكومة بالمحافظة على المتاجر المصدرة إلى الخارج حين نقلها من الطور أو السويس إلى القاهرة [١] . وكان محمد بك أبو الذهب قبل ذلك بعامين قد أظهر رغبته فى فتح هذا الطريق البرى عند ما نجح (جيمس بروس) فى استصدار « فرمان منه إلى شركة الهند الشرقية التجارية » يتضمن هذه المزايا التى اشتملت عليها معاهدة هيستنجز — أبى الذهب التجارية [٢] .

ومع أن جورج بلدوين Baldwin التاجر الإنجليزى الذى كلف الإشراف على مصالح شركتى الليفانت والهند الشرقية التجارية الإنجليزيتين فى هذه البلاد ، كان من أكبر مؤيدى فتح هذا الطريق البرى ، فقد تضافرت عوامل عدة لإبطال مفعول هذه المعاهدة ؛ بسبب معارضة تركيا الشديدة لملاحة السفن الإنجليزية فى البحر الأحمر شمالى جدة ودخولها ميناء السويس ، خوفا من أن يؤدى النشاط التجارى المنتظر إلى اجتماع

---

(١) Testa II. 17 — 73.

(٢) Bruce I. Appen. XXVII No. 17. Translation of firman... PP. ٢٢٢ i — ٢٢٢

الثروة فى أيدى البكوات المماليك ، وزيادة قوتهم تبعاً لذلك ؛ أضف إلى هذا أن الحكومة الإنجليزية ذاتها كانت تعتقد أن فتح هذا الطريق من شأنه أن يلحق الأذى بتجارة شركة الهند الشرقية ؛ وفضلا عن ذلك فقد توفى أبو الذهب بعد عقد المعاهدة بشهور قليلة ، وكان من أثر الفوضى التى اشتدت وطأتها فى البلاد عقب وفاته أن تعطل كل نشاط تجارى(١٧) .

على أن هذا النجاح الذى أدركه بروس ثم هيستنجز وأسفر عن عقد المعاهدة الإنجليزية — المصرية فى عام ١٧٧٥ ، ثم رغبة الفرنسيين فى تأمين متاجرهم وصيانة مصالحهم فى هذه البلاد ، سرعان ماأفضى ذلك كله إلى محاولة هؤلاء أن يعقدوا مع البكوات المماليك معاهدة تجارية على غرار معاهدة هيستنجز — أبى الذهب ؛ فقد شكا التجار الفرنسيون كثيراً من المغارم والإتاوات التى فرضها البكوات عليهم ، وتعرض تجارتهم للنهب والمصادرة فى الأعوام التالية ، حتى اضطروا إلى نقل مركز تجارتهم وقنصليتهم من القاهرة إلى الإسكندرية ، بعيدين عن مسرح الاضطرابات والفتن ، كما عينوا نائب قنصل فى دمياط ، إحدى موانى التجارة الهامة وقتئذ . ثم مالبثت مصالحهم أن تعرضت لخطر منافسة أجنبية جديدة عندما رغبت الإمبراطورية النمسوية حوالى عام ١٧٨٢ فى السيطرة على تجارة الشرق ، وتحويل هذه التجارة إلى الطريق البرى عبر مصر ، واعتمدت فى ذلك على التاجر البندقى القديم (كارلو روسق) الذى عينته قنصلا لحكومتها فى هذه البلاد .

ولما كان فرجن Vergenne الوزير الفرنسى قد عول على التمسك بمصالح دولته التجارية ، سواء أكان ذلك فى مختلف أسواق العالم أم فى ممتلكات فرنسا الباقية فى حوزتها ، وفضل هذه الخطة على محاولة الاستحواذ على مستعمرات جديدة ، فقد بادر الآن يطلب من شوازيل — جوفيه Choiseul-Gouffier ، سفيره بالقسطنطينية أن يسعى لدى الباب العالى من أجل فتح الطريق البرى للتجارة الفرنسية عبر برزخ السويس ، وأوفد شوازيل جوفيه بدوره إلى مصر فى عام ١٧٨٤ الضابط تروجويه Truguet لكى يصل إلى اتفاق مع مراد بك فى مصلحة التجارة الفرنسية . واستعان تروجويه لدى وصوله إلى القاهرة فى بدء العام التالى بوساطة شارل مجالون Magallon على تحقيق أغراضه . وكان مجالون تاجراً فرنسيا أقام فى البلاد من مدة طويلة ، وعهدت إليه حكومته عند انتقال قنصليتها من القاهرة إلى الإسكندرية فى عام ١٧٧٧

---

(١) Charles-Roux-Autour 68; Charles-Roux-L'Isthme I. 419 — 20

بالإشراف على مصالح الفرنسيين فى القاهرة ، واستطاع مجالون أن يكسب ثقة مراد ، كما نشأت صداقة وثيقة العرى بين زوجتى الرجلين . فأفلح مجالون فى وساطته ، وعقد تروجويه مع مراد بك ومع يوسف كساب ، ملتزم الجمارك العام ، ومع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ العربان ، ثلاث معاهدات فى يناير ١٧٨٥ ، لتحديد قيمة الضريبة المحصلة على البضائع الفرنسية المصدرة من الهند إلى فرنسا فى أثناء نقلها عبر برزخ السويس ، ولتأمين هذه البضائع من اعتداءات العربان عليها فى الطريق بين السويس والقاهرة[١٨] .

غير أن الفرنسيين لم يفيدوا شيئاً من عقد هذه المعاهدة لاستمرار الاضطرابات والفتن فى البلاد ، بل سرعان مارفعوا عقيرتهم بالشكوى من فداحة المغارم والإتاوات التى ألزمهم مراد وإبراهيم ، كما ألزما سائر التجار الأجانب بدفعها ، ومع أن جورج بلدوين كان ما يزال عظيم الثقة فى إمكان فتح الطريق البرى لمصلحة التجارة الإنجليزية ، فقد أدركت حكومته أن من العبث الاحتفاظ بقنصليتها فى هذه البلاد ، فأغلقتها فى فبراير سنة ١٧٩٣ ، وأقالت بلدوين نفسه من منصبه .

ثم مالبثت أن قابلت بفتور ظاهر أنباء تلك المعاهدة التى عقدها بلدوين بعد ذلك فى ٢٨ فبراير ١٧٩٤ ، وكانت على غرار معاهدة (تروجويه — مراد) السابقة[١] ؛ وهكذا ساءت الأحوال فى مصر وظل البكوات المماليك لا يرعوون عن غيهم على الرغم من جهود جورج بلدوين ومساعى شارل مجالون الذى عينته حكومة المؤتمر الوطنى الفرنسية قنصلا عاماً لها فى مصر منذ أوائل العام السابق . فقد أرغم إبراهيم بك التجار على دفع أربعة عشر ألف ريال أسبانى (أبو طاقة) فى ابريل ١٧٩٤ ، واستولى مراد بك على قدر كبير من البضائع ، وتعرضت مخازن التجار من ذلك الحين للنهب والسلب . حتى اضطر التجار الفرنسيون فى يوليه من العام نفسه إلى إغلاق بيوتهم التجارية فى القاهرة ، والانسحاب إلى الاسكندرية ، واستطاع خمسة منهم حزم أمتعتهم والخروج إلى رشيد ، ولكن « مراداً » مالبث أن قبض عليهم وأرغمهم على العودة إلى القاهرة ، فظل التجار بالقاهرة تحت رقابة مراد وإبراهيم الصارمة مدة ثلاثة أشهر حتى أذن لهم البكوات بالذهاب فى آخر الأمر إلى الاسكندرية ، فبلغوها فى ابريل ١٧٩٥ ، وكان على رأس هؤلاء المنسحبين شارل مجالون نفسه .

---

(١) Testa II. 76 — 82; Charles-Roux-Autour 172; Charle-sRoux-L'Isthme I. An. 6,7

(٢) Charles-Roux-Autour 390 — 23

واضطرت حكومة الجمهورية إلى إرســال بعثة إلى مصر لتسوية مشكلات التجار الفرنسيين مع البكوات المماليك ، فوقع الاختيار على (ديبوا — ثانفيل) Dubois — Thainville فى يوليه من العام نفسه للذهاب إلى القاهرة . وكانت (لجنة الخلاص) قد أوفدت ثانفيل إلى القسطنطينية لمراقبة مندوبى الحكومة الفرنسية فى العاصمة العثمانية .

على أن السبب فى إرسال ثانفيل لم يكن تـكرر شكاوى مجالون وحدها ، فقد كانت فرنسا تريد إبطال مشروعات الإنجليز ، وبخاصة بعد أن نجح بلدوين فى عقد معاهدته الأخيرة مع البكوات المماليك . فقد وطد الإنجليز أقدامهم فى جزيرتى رودس وكريت ، وطفقوا يعملون لتعطيل التجارة الفرنسية فى البحر الأبيض ، ثم تطايرت الشائعات القوية عن رغبتهم كذلك فى ربط تجارة البحر الأبيض بتجارة الهنـد عبر طريق مصر البرى لخدمة المصالح الإنجليزية . ولـكن ثانفيل الذى وصل إلى الإسكندرية فى أكتوبر ١٧٩٥ ، مالبث أن فشل فى مهمته ، فلم ينل التجار الفرنسيون أية تعويضات عن خسائرهم ، ولم يظفر ثانفيل من إبراهيم ومراد بأية ضمانات لتأمين التجارة الفرنسية فى المستقبل[١] .

وعلى ذلك فقد ظل شــارل مجالون يرسل شكاواه إلى حكومة الجمهورية ، وكان مجالون قبل وصول ديبوا — ثانفيل إلى مصر ، قد بدأ يدعو فى رسائله إلى فـكرة الاستيلاء على هذه البلاد ، إذ أن فى ذلك وحده خير ضمان للمصالح التجارية ، فضلا عن صيانة المصالح السياسية الفرنسية . فقد كتب مجالون فى ١٧ يونيه ١٧٩٥ إلى فرنيناك Verninac ، المندوب الفرنسى فى القسطنطينية : « إنه من العبث أن يعتمد إنسان على الفرمانات أو ما يصدره الباب العالى من أوامر إلى القاهرة ، فى إدخال تغيير من شأنه إصلاح مركز الفرنسيين فى مصر ، ولا يفيد إصدار هذه الفرمانات فى ذلك شيئاً مهما بلغت قوة لهجتها ، بل إن استصدار هذه الفرمانات سوف يسىء إلى الفرنسيين ويزيد من حرج مركزهم فى هذه البلاد .

ولذلك فإما أن يعمل الباب العالى بصورة جدية للانتقام مما لحق بالفرنسيين من أذى على أيدى البكوات المماليك . وإما أن يعلن فرنيناك إلى الباب العالى أن الحـكومة الجمهورية لها من القوة ما يمكنها من تأديب جماعة من الأفراد لا يعرفون سوى العجرفة والـكبرياء ، ولا يقدرون على شىء فى واقع الأمر » . ثم استمر مجالون

---

(١) Charles-Roux-Origines 259 — 70

يقول : « وأما إذا شاءت حكومة الجمهورية أن تولى شئون التجارة اهتماماً جدياً ، وأرادت أن تجنى من هذه التجارة كل فائدة ممكنة ، فلا مناص فى هذه الحالة من أن تمتلك مصر ، ومصر كلها ، فلا تكتفى بالاستيلاء على ميناء الإسكندرية ، بل يجب الاستحواذ كذلك على رشيد ودمياط والقاهرة والسويس ، كما يجب أن يكون لها عندما يحين الوقت مراكز تجارية تمتد فى طول البلاد وعرضها حتى الشلال الأول » . وفضلا عن ذلك فإن من شأن الاستيلاء على السويس والسيطرة على البحر الأحمر التمهيد لطرد الإنجليز من الهند ، وإبطال استخدام طريق رأس الرجاء الصالح للتجارة الشرقية فى النهاية .

وقد بعث مجالون بصورة من رسالته هذه إلى (لجنة العلاقات الخارجية) بباريس . وفى أول أكتوبر من العام نفسه كتب مجالون إلى كولشن Colchën ، قومسيير هذه اللجنة ، أن الحكومة الملكية السابقة فى فرنسا كانت تفكر فى الاستيلاء على مصر ، لما كانت تنتظره هذه الحكومة من فوائد تجارية عدة إذا هى أقدمت على فتح هذه البلاد وامتلاكها ، وعالج مجالون فى رسالته هذه كذلك مزايا الاستيلاء على ميناء السويس وبسط سيطرة الفرنسيين على البحر الأحمر . وقد كتب مجالون فى هذا المعنى إلى (لجنة الخلاص) فى باريس بعد يومين فقط من رسالته الأخيرة [١] . ثم إن مجالون ما لبث أن طلب فى ديسمبر ١٧٩٥ أن تأذن له حكومته بالحضور إلى باريس حتى يبسط أمامها مبلغ الأضرار التى لحقت بالتجارة الفرنسية فى مصر ، وما كان يتوقعه من إهدار كل مصلحة سياسية وتجارية لبلاده فى هذه الأقطار ، ما دامت حكومته ممتنعة عن اتخاذ إجراء حاسم لصيانة مصالحها ، محجمة بسبب ترددها عن التفكير جدياً فى فتح مصر والاستيلاء عليها .

غير أنه لم يكد يصح عزم مجالون على المجىء إلى باريس حتى كانت قد انتهت حوادث الثورة الدامية ، وانقضى زمانها ، وبدأ عهد من الاستقرار والتنظيم الجديد ، واستطاع رجال حكومة الإدارة التى تشكلت منذ أكتوبر ١٧٩٥ أن يتفرغوا لبحث المشكلات والموضوعات التى ما كانت تحتمل تأجيلاً أو تأخيراً ، كضرورة الذود عن أرض الوطن ، وبحث المسألة الاستعمارية ؛ وقد تضافرت وقتئذ عوامل عدة لتعزيز رغبة الفرنسيين فى إحياء إمبراطوريتهم الاستعمارية ، وإجراء تجربة الاستعمار الجديدة فى مصر وهى أحد ميادين ذلك (الشرق) الذى اختاره كتابهم وفلاسفتهم وسياسيوهم

(١) Charles-Roux-Origines 271 — 78

بوصفه خير مكان يصلح لتشييد صرح الإمبراطورية الاستعمارية الجديدة ، فقد نجم عن شكايات مجالون والتجار الفرنسيين فى مصر أن أعيد مرة أخرى بحث العلاقات بين فرنسا وتركيا صديقتها القديمة ، وكان السياسيون قد عنوا بدرس هذه المسألة فى السنوات التى سبقت اندلاع لهيب الثورة الفرنسية . وانقسم الباحثون فى مصير الإمبراطورية العثمانية وقتذاك فريقين ، أحدهما يتوقع انهيار هذه الإمبراطورية سريعاً ، بينا يستبعد الفريق الآخر زوالها ؛ فاستؤنف البحث الآن فى هذا الموضوع ، على ضوء ما وقع من حوادث أظهرت بوضوح وجلاء أن الدولة العثمانية ، وإن كان ما يزال مقدراً لها البقاء ، فقد انتشرت الفوضى على الأقل فى مصر ، إحدى ولاياتها التى كانت تربط فرنسا بها صلات وثيقة ، وحدث ذلك بصورة تنذر فى آخر الأمر بالقضاء على مصالح فرنسا التجارية والسياسية فى البحر الأبيض وفى الشرق عامة ، حتى إن الرحالين الذى زاروا مصر فى ذلك الحين حرصوا جميعاً على رسم صورة صادقة لهذه الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد ، فقضت على حياتها الاقتصادية ، وعرضت للتلف والبوار أرضها الخصبة الغنية ذات الغلات الوفيرة ، ثم أنهكت قوى البلاد حتى جعلتها عاجزة عن رد غارات المعتدين عليها إذا شاءت الدول اقتسام ممتلكات دولة آل عثمان .

الاتجاه نحو مصر :

وكان لتقارير وكتابات رجال السياسة الفرنسيين ، الذين خدموا فى القسطنطينية أو القاهرة ، ثم أولئك الرحالين الذين زاروا مصر ، أكبر الأثر فى كشف القناع عن حالة الإمبراطورية العثمانية من جهة ، وتوجيه أنظار مواطنيهم إلى مصر إحدى ولايات هذه الامبراطورية من جهة أخرى ، وقد أقبل القوم على دراسة هذه التقارير وقراءة هذه الكتب بشغف عظيم عند ما تجددت الرغبة فى الاستعمار .

وكانت تقارير (سانت بريست) saint Priest سفير فرنسا فى القسطنطينية (١٧٦٨ — ١٧٨٤) ، و (جان بابتيست مور) Jean Bapteste Mure قنصلها فى مصر وقتئذ ، ثم كتابات الرحالين الثلاثة البارون دى توت Tott ، وسفارى Savary ، وفولنى Volney ، الذين ظهرت كتبهم « وأسفارهم » بين عامى (١٧٨٤ — ١٧٨٨) أهم ما عنى الفرنسيون بدراسته فى السنوات القليلة التى سبقت مباشرة مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر .

وقد شهد سانت بريست الحرب الروسية التركية التى انتهت بمعاهدة قينارجة فى عام ١٧٧٤ ، واعتقد أن انحلال تركيا بات أمراً لا مفر من الاعتراف به ، ومع أنه كان ينبغى أن تبذل فرنسا قصارى جهدها للمحافظة على كيان تركيا ، وهى الدولة التى توطدت أواصر الصداقة بينها وبين فرنسا من أزمان طويلة ، فقد كان من رأيه أنه إذا تعذر إقناع كل من روسيا والنمسا بالعدول عن مناصبة الدولة العداء طمعاً فى ممتلكاتها ، فإن الواجب يقتضى فرنسا محافظة على مصالحها أن تشترك مع هاتين الدولتين فى اقتسام ممتلكات تركيا ، حتى إذا تقرر ذلك كانت مصر نصيب فرنسا من التركة العثمانية . وقد بنى سانت بريست اختياره هذه البلاد على اعتبارات عدة ، أهمها أن مصر « أخصب بقاع الأرض كلها » تنمو بها المحصولات التى تنمو بالمستعمرات الفرنسية فى أمريكا (جزر الهند الغربية) ، وذلك دون مشقة أو تعب ، كما أنه من الممكن أن يجلب العبيد لفلاحة أرضها وزرعها بنفقات تقل كثيراً عما يحدث فى تلك المستعمرات الأمريكية . وعلاوة على ذلك فمصر بلد صحى المناخ ، لا يبعد عن شواطىء فرنسا الجنوبية إلا بنحو ثلاثة آلاف فرسخ ، ولا تستطيع دولة أوربية أن تنازع فرنسا فى امتلاكه ، ولما كان من السهل أن تصبح مصر مركزاً لتجارة العالم أجمع ، فإن ذلك سوف يؤدى إذا تم إلى إضعاف شوكة انجلترة وهدم سيطرتها على الهند .

واعتقد سانت بريست أن فرنسا لن تلقى صعوبة ما إذا هى حاولت الاستيلاء على هذه البلاد ، لأن الاسكندرية مدينة « مفتوحة » ، ولا وسائل للدفاع عنها ، كما أن حكومة مصر لا قدرة لها على الدفاع بسبب ضعفها والفوضى المنتشرة بها ، وفضلا عن ذلك فإن البكوات المماليك الذين يؤلفون هذه الحكومة من الرقيق « الأجانب » الذين يكرههم المصريون كراهية شديدة . وعلى ذلك فإن الاستيلاء على مصر أمر لا مفر منه لخدمة المصالح الفرنسية إذا بات مقرراً انهيار الامبراطورية العثمانية[1] » .

وكان (مور) القنصل الفرنسى فى مصر يشاطر (سانت بريست) الاعتقاد بقرب انهيار الامبراطورية العثمانية ، ويتوقع أن تقتسم الروسيا والنمسا ممتلكاتها فيما بينهما ، ولا يريد أن تدع فرنسا الفرصة تمر دون أن تأخذ مصر نصيبا لها من هذه التركة العثمانية . بل إن مور كان يخشى أن تبادر النمسا إلى امتلاك مصر ذاتها ، حتى إذا تم لها ما أرادت استطاعت أن تسد حاجتها من تلك المنتجات التى كانت تستوردها من الأسواق الأمريكية ، بل وصار فى وسعها كذلك أن تصدر مايفيض عن حاجتها من هذه المنتجات نفسها إلى أوروبا . أضف إلى هذا أن وجود النمسا فى مصر سوف يمكنها

(١) شكرى ٦٨ — ٧٠

من المشاركة فى تجارة الهند ويجعلها قادرة ، إذا هى أنشأت أسطولا صغيراً فى ميناء السويس ، على الاستئثار بكل سيطرة فى البحر الأحمر ، ولاشك فى أن ذلك كله سوف يضمن لهذه الدولة الاستعلاء على غيرها من الدول ، والتفوق فى حلبة السياسة الأوربية ولن يسهل إخراجها وقتئذ من مصر . ولذلك فإن خير ضمان لمصلحة فرنسا أن تأخذ للامر عدته من الآن، حتى اذا انهارت الدولة العثمانية سهل على فرنسا احتلال مصر[1] .

وأوضح (مور) مقدار ماتجنيه فرنسا من فوائد محققة إذا هى أقدمت على ضم مصر إليها فقال ، ان استغلال موارد البلاد سوف يفيد التجارة والصناعة الفرنسية فائدة كبيرة . وكان أهم ماوجه (مور) إليه أنظار سانت بريست — نفس السفير الفرنسى فى القسطنطينية الذى بعث اليه (مور) بالمذكرة التى بسط فيها هذه الآراء (فى عام ١٧٨٣ — أن الاستيلاء على مصر سوف يكون من نتائجه إحياء طريق التجارة البرى القديم عبر برزخ السويس واستخدامه فى نقل تجارة الهند خاصة . وسوف يوفر فتح هذا الطريق القصير بلا ريب نفقات طائلة ومتاعب عظيمة ، وذلك إلى جانب الاقتصاد فى الوقت الذى يضيع سدى عند نقل التجارة وما إليها بطريق رأس الرجاء الصالح حول إفريقية . ولم يحل دون استخدام طريق السويس البرى سوى سوء الحكم العثمانى ، ولاريب فى أن مجىء الفرنسيين إلى هذه البلاد سوف يزيل كل عقبة عطلت فى الماضى نقل تجارة الهند عبر هذا الطريق .

على أنه مما تجدر ملاحظته كذلك أن (مور) كان يبغى احتلال القطر المصرى بأجمعه من شواطىء الدلتا شمالا إلى الشلالات جنوبا ، كما كان يرى الاحتفاظ بهذه البلاد سهلا ميسوراً إذا أنشئت قلعتان قويتان عند الشلال الأول لمنع اعتداءات شعوب النوبة على الحدود الجنوبية ، ووضعت حاميات قليلة العدد فى أنحاء القطر بين أسوان والقاهرة على أن تظل بالقاهرة حامية كبيرة ، وتحتل قوة من الجند إقليم الفيوم ، وتستقر حامية كبيرة فى دمنهور ، للدفاع عن إقليم البحيرة ضد عربان الصحراء الغربية ، ثم يجرى تأسيس عدد من المراكز فى الشواطىء الشمالية بين الإسكندرية وطرابلس ، وقد اشتملت خطة الدفاع عن مصر على إنشاء نظام من التحصينات القوية للدفاع عن الإسكندرية ذاتها ، وتعزيز الدفاع عن أبى قير ورشيد ودمياط ومدخل بحيرة البرلس ، وإقامة خط من التحصينات على طول المسافة بين السويس وبحيرة المنزلة أى فى المنطقة التى استمرت تأتى منها حملات الغزو من « أزمنة قديمة » ؛ بل إن (مور) ما لبث أن أشار بضرورة إنشاء علاقات الود والصداقة مع أحمد باشا الجزار صاحب عكا ،

(١) Mure-Memoire 646 — 50

الذى كاد يصبح مستقلا عن تركيا ، وعظمت أطماعه فى الاستيلاء على الشام بأجمعها ؛ وكان غرض (مور) من ذلك تأمين حدود مصر الشرقية من أية اعتداءات عليها من هذه الناحية(١) .

وعمد (مور) فى أجزاء التقرير التالية إلى بيان الخطة التى يجب على فرنسا اتباعها فى حكومة هذه البلاد بصورة تكفل استغلال مواردها على خير وجه ، من ذلك أن تستولى الحكومة الفرنسية على الشطر الأكبر من الأراضى المصرية ، فتعيد توزيعها وتبيعها لمن يرغبون فيها ، حتى يتسنى لها مواجهة نفقات الفتح ؛ وواجب فرنسا كذلك أن تجلب إلى مصر المستعمرين الفرنسيين الذين سوف يستميلهم خصب الأرض إلى الوفود بكثرة عظيمة إلى هذه البلاد ؛ فتحفر الحكومة الترع والقنوات ، وتعنى بوسائل الرى التى عملت فى العهد العثمانى ، ويكفى فرنسا لتغطية نفقات الإدارة أن تفرض نوعين فحسب من الضرائب : « ضريبة العشر » ، وهى ضريبة الأرض التى تجبى عينا من المحصول عند جمعه ، وفى وسع الحكومة أن تلجأ إلى طريقة الالتزام ، إذا شاءت التخلص من متاعب جباية هذه الضريبة ، فيلتزم بها القادرون على دفع الضريبة فى أوقاتها إلى الحكومة ، على أن يقوموا هم بتحصيلها ؛ ثم « ضريبة الكماليات » وهذه تجبيها الحكومة من الأغنياء ، ولكن على شريطة ألا يؤثر ذلك فى كمية ما يستهلك من المصنوعات والسلع الفرنسية ، ولما كانت الضرائب الجمركية هى مورد إيرادات الحكومة الثالث ، فقد تناول (مور) فى تقريره هذه المسألة بشىء من الإسهاب ، فقد كان يبغى أن تصبح تجارة الصادر من أهم وسائل اتساع نطاق التجارة الفرنسية فى مصر ، وزيادة ما يستهلك من المصنوعات والسلع الفرنسية فى الأسواق المحلية ، ولذلك فقد أشار إلى ضرورة اعتدال الرسوم الجمركية ، كما طلب منع دخول الأقمشة الحريرية والقطنية والصوفية إلى مصر ، ما دامت لا تصنع فى فرنسا ، أو لا تحملها سفن فرنسية من موانى الهند . غير أنه كانت هناك ولا شك موارد أخرى تعود بالنفع على الحكومة ، كاحتكار تجارة التبغ والملح والنطرون والسنا . وقدر (مور) ما تستطيع الحكومة أن تجنيه من ضريبة الأرض ومن الجمارك والاحتكارات بحوالى مائة وعشرين مليوناً من الجنيهات سنويا (٢) .

ومع أنه كان فى وسع فرنسا أن تستولى على جزيرتى قبرص وكريت من العثمانيين عند انحلال إمبراطوريتهم ، فقد رفض (مور) أن تستعيض فرنسا بهاتين الجزيرتين

(١) Mure-Memoire 650 — 58

(٢) Ibid 715 — 18; — 721 — 32

عن مصر ، لا لما فى ذلك من خسارة محققة إذا أضاعت فرنسا فرصة الاستيلاء على مصر للاسباب التى سبق ذكرها ، بل ولأن امتلاك قبرص وكريت سوف ينجم عنه لامحالة إثارة متاعب ومشكلات عدة بين فرنسا والدول الأوربية الأخرى الطامعة فى املاك الدولة العثمانية .

وقد اختتم (مور) هذا التقرير الهام بقوله : إنه إذا كان من المتعذر أن تنجح المفاوضات السياسية فى منع الاعتداء على تركيا وغزوها ، فالواجب يقتضى فرنسا أن تبادر فى هذه الحالة بالاستيلاء على مصر ، إذ بفضل ذلك وحده تستطيع فرنسا أن تحرز مكانة عالية ، تضمن لها السيطرة والتفوق بين الدول التجارية والبحرية ، بل ويصبح فى مقدورها أن تؤكد هذه السيطرة وتعمل على تعزيزها[١] .

وواضح مما تقدم إذن أن السفير الفرنسى فى القسطنطينية والقنصل الفرنسى فى القاهرة كانا يعتقدان أن انحلال الامبراطورية العثمانية بات قريبا ، كما أشارا على حكومتهما بضرورة امتلاك مصر . غير أن الحكومة الفرنسية لم تأخذ بهذه الآراء لأن وزير خارجيتها وقتئذ كان الكونت فرجن Vergennes ، ولم يشاطر الوزير سفيره وقنصله رأيهما فى تركيا ، بل اعتقد أن الامبراطورية العثمانية مازالت بعيدة عن الانهيار ، ورأى فى قدرة تركيا على البقاء — على الرغم من تلك الحروب الطويلة التى خاضت غمارها — خير دليل على حيويتها وعدم انحلالها ، وتمسك فى سياسته الشرقية بمبدأ ثابت ، هو المحافظة على كيان تركيا ، إذ كان يرى أنه يكفى لمنع الدول من الإقدام على تقسيم ممتلكات الإمبراطورية العثمانية أن تعلن فرنسا جهرة إصرارها على عدم الاشتراك فى أية مشروعات تهدف إلى ذلك . وعلى ذلك فقد استدعى سانت بريست من القسطنطينية .

واطمأن فرجن إلى صواب سياسته عندما سويت الخلافات القائمة وقتئذ بين كل من الروسيا والنمسا من جانب وبين تركيا من جانب آخر[٢] . وفى أبريل ١٧٨٤ وصل شوازيل جوفييه السفير الفرنسى الجديد إلى القسطنطينية ، ومعه عدد من الضباط والمهندسين والصناع المهرة ، لتنظيم الجيش والأسطول العثمانيين ، وإصلاح الموانى والقلاع ، وتقوية المدفعية .

على أن تمسك الحكومة الفرنسية بسياسة المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية ، لم يكن معناه أن الفرنسيين قد تخلوا نهائيا عن فكرة الاستعاضة عما فقدوه

---

(١) Ibid 732 — 35

(٢) Noradounghian I. 351 — 73; 377 — 86

من أملاكهم فى « الغرب » بإنشاء مستعمرات جديدة فى « الشرق » عامة و مصر خاصة . فقد ظل الكتاب والمفكرون والرحالة الذين درسوا المسألة الاستعمارية ، أو زاروا مصر فى السنوات التى سبقت انفجار بركان الثورة الفرنسية ، يوضحون الأخطار العظيمة ، التى ظلت تهدد بزوال البقية الباقية من المستعمرات الفرنسية القليلة فى جزر الهند الغربية من جهة ، ويشيرون إلى مصر ، على أنها الميدان الذى تستطيع فرنسا أن تجد فيه حاجاتها التى كانت تستمدها من جزر الأنتيل ، كالقطن وقصب السكر والنيلة ، بفضل خصوبة الأرض فى مصر ، وذلك إلى جانب ما يعود على فرنسا من فوائد أخرى إذا هى احتلت هذه البلاد ، إذ أنه من شأن ذلك الاحتلال أن — يجعل التجارة بين فرنسا وبين الهند وبلاد العرب وفارس وإفريقية سهلة ميسرة . وعلاوة على ذلك فقد كان لكتابات الرحالين الذين زاروا مصر ، ونشرت « أسفارهم » وقتئذ ، أكبر الأثر فى توجيه أنظار مواطنيهم نحو الشرق عامة ، ومصر خاصة باعتبارها خير ميدان يصلح لتشييد إمبراطورية فرنسا الاستعمارية الجديدة .

وكان البارون دى توت Tott من بين أولئك الرحالين ، الذين زاروا فى مهمات رسمية تركيا ومالطة وكريت ومصر ، إلى غير ذلك من الأقطار والبلدان ، وقدم تقارير عدة إلى حكومته ، وقد نشرت فى عام ١٧٨٤ «مذكراته» التى دونها فى أثناء رحلاته . واعتقد دى توت — كما اعتقد سانت بريست والقنصل مور — أن الدولة العثمانية آيلة إلى السقوط لامحالة وفى وقت قريب ، كما كان يرى أن الواجب يقتضى فرنسا أن تحتل مصر ، إذا هى شاءت الاستئثار بتجارة الليفانت أو حوض البحر الأبيض الشرقى ؛ بل إن فى استطاعة فرنسا أن تسيطر على تجارة الهند كذلك إذا هى أنشأت قناة تصل بين البحر الأحمر والنيل عند فرع دمياط ، أو عملت لإحياء الطريق البرى بين السويس والقاهرة ؛ وسوف يسهل على فرنسا إذا تقرر فتح مصر أن تتذرع بما كان يلحقه البكوات المماليك من أذى بالتجارة الفرنسية للاقدام على غزو هذه البلاد ، وسواء أرغبت فرنسا فى العمل منفردة أم استعانت بالنمسا لقاء تأييد أطماعها فى القسطنطينية ، فإن الغزو سوف يكون سهلا ميسرا بسبب فوضى حكومة المماليك فى مصر ، وضعف التحصينات المقامة على الشواطىء المصرية الشمالية فى الأسكندرية وأبى قير ورشيد ودمياط خاصة .

واعتقد دى توت أن احتلال مصر يكفى لتعويض فرنسا عن كل خسارة قد تصاب بها إذا قدر لها أن تفقد جميع مراكز تجارتها فى الليفانت . وعقد (دى توت) موازنة بين مزايا امتلاك كريت والاستيلاء على مصر ، فخلص من هذه الموازنة إلى أن مصر « مستعمرة مثالية » لخصوبة أرضها وصلاح مناخها لإقامة المستعمرين الفرنسيين ،

وقربها من فرنسا ، وقلة النفقات اللازمة لإنشاء الصلات الوثيقة بينها وبين أرض الوطن ، وسهولة الدفاع عنها ، وبفضل مايهيئه لها موقعها الجغرافى من إمكان تركيز النشاط التجارى بها ، فلا توزع فرنسا قواتها فى أماكن بعيدة متفرقة بل يصبح فى استطاعتها آنئذ أن تشرف من مصر ذاتها على بيوت تجارتها فى الليفانت وبلدان وجاقات الغرب المعروفة (طرابلس وتونس والجزائر) .

وفضلا عن ذلك فإن فرنسا لن تلقى مقاومة من جانب تركيا أو الدول الأخرى ، ذلك أن تركيا مشغولة بنضالها المستمر مع روسيا ، وهو نضال أنهك قواها حتى باتت عاجزة عن الدخول فى حروب أخرى جديدة ؛ ولن يقدم الإنجليز على مناوأة فرنسا بسبب ماتكبدوه من خسائر فى أثناء نزاعهم الطويل مع الولايات الأمريكية ، ولما كان الإنجليز يبغون دائما انتزاع المستعمرات الفرنسية من أصحابها ، فإن امتلاك مصر سوف يعوض فرنسا كذلك عن أية خسائر قد تلحق بها على أيدى الإنجليز فى مستعمراتها الباقية ، أضف إلى هذا أن الاستيلاء على مصر سوف يفوت على روسيا من جهة أخرى فرصة الاستئثار بتجارة الجنوب ، ويحد من أطماعها ، إذ أن استقرار الفرنسيين بهذه البلاد من شأنه أن يصرف روسيا عن محاولة التوسع ، ومد نفوذها إلى البحر الأبيض ، بعد محاولة الاستيلاء على القسطنطينية وبحر الأرخبيل (١) .

وفى عام ١٧٨٦ نشر (سافارى) Savary « رسائله » المشهورة عن مصر . وقد ذكر صاحبها الشىء الكثير عن تاريخ البلاد فى عهد سيطرة البكوات المماليك ، أيام على بك الكبير ، ومحمد بك أبى الذهب ، ووصف تلك الفوضى التى انتشرت فى البلاد بعد وفاة أبى الذهب . على أن أهم ما يسترعى النظر فى هذه « الرسائل » أنها كانت تتضمن وصفاً شائقاً لخصوبة أرض مصر ، وأرض الدلتا والفيوم بوجه خاص ؛ ووفرة غلاتها الزراعية ، من القنب وقصب السكر وغير ذلك ، كما أنه وصف أهل البلاد وعاداتهم وأخلاقهم وأساليب معيشتهم ، ودون كثيراً من أخبار حملة (القديس لويس) على مصر ، وواقعة المنصورة ، ووصف آثار البلاد القديمة .

وبعد عام واحد من نشر هذه (الرسائل) ظهرت رحلة فولنى Volney فى مصر وسوريا . ويختلف فولنى عن سافارى فى أن هذا الأخير نظر بعين المتفائل إلى حالة مصر على الرغم من الفوضى التى أضرت بالبلاد ، على حين كان (فولنى) « متشائماً » إذ عمد — فى ذلك الجزء اليسير الذى خصصه من فصول كتابه الطويلة لدراسة جغرافية هذه البلاد وشئون حكومتها وتجارتها ووصف سكانها ، والأمراض المنتشرة

(١) Tott 113 — 76; Charles-Roux-Origines 83 — 90

بها ، وما إلى ذلك — إلى إظهار ما كان عليه الفلاح من بؤس وشقاء بسبب حدوث المجاعات ، وفتك الأوبئة به ، وخرج (فولنى) من مشاهداته « بأنه ليس من السهل أن يبدى كل إنسان رأيه فى حال أهل هذه البلاد ، إذا عرف أنهم أجناس مختلفة وشيع متعددة ، وأدرك ماعليه حكومتهم ، التى لم تكن تدرى شيئاً عن تلك المبادىء ، التى تقر حقوق الملكية ، وتحترمها ، أو تنادى بضرورة تأمين الأفراد على حياتهم وأموالهم وحرياتهم ، ووجد جماعة من الجنود الذين عرفوا بالطغيان ، واشتهروا بالتبذل ، يستأثرون بكل سلطة مطلقة ؛ كما أنه من الميسور أن يعرف المرء مدى ماتستمتع به حكومة البلاد من قوة وبأس ، إذا وقف على مقدار استعدادها الحربى ، وخبر حال جنودها . ذلك أنه لاتوجد بالبلاد جميعها ، وعلى حدودها بوجه خاص ، أية قلاع أو حصون أو مدافع أو مهندسين ، هـذا بينما يتألف أسطولها فى ميناء السويس من حوالى ثمان وعشرين سفينة ذات سلاح ضعيف المفعول ، تحمل ملاحين لا يعرفون كيف يستخدمون هذا السلاح » .

والواقع أن مصر فى نظر (فولنى) لم تكن من الناحية العسكرية بالبلد الذى يؤبه له ، لخلوها من التحصينات المنيعة عامة ، ولضعف حامية الإسكندرية خاصة ، وكانت هذه الحامية تتألف من الجنود الإنكشارية الذين نقص عددهم إلى النصف تقريباً ، وكانوا يمضون الوقت فى التدخين ، ولا دراية لهم بفنون الحرب والقتال [١] .

وكان من رأى (فولنى) أنه لابد لإصلاح هذه الأحوال ، وإزالة المساوىء التى رزح الفلاحون تحت كلكلها ، أن تتحرر مصر من سيادة العثمانيين ، حتى تتولى تدبير شئونها دولة أخرى تشعر بالعطف على المصريين ، وتحمل لهم وداً وصـداقة ، على شريطة أن تكون كذلك دولة متحضرة ذات نهضة أدبية علمية فنية ، حتى يمكنها أن تهتم بتراث المصريين القديم ، وتعنى بالبحث عن آثارهم المدفونة فى الدلتا والصعيد ، وتكشف عن رموز الكتابة الهيروغليفية [٢] .

وقد ذاع الاعتقاد بعد نشر هذه الرحلة أن صاحبها إنما كان يقصد فرنسا عند ما تحدث عن تلك « الدولة المتحضرة والمتمدينة » التى يجب أن تحتل مصر ، حتى تنتشل الفلاحين والمصريين من حياة البؤس والشقاء التى ذاقوا مرها فى ظل السيادة العثمانية . وقد صادف ذيوع هذا الاعتقاد ولا شك هوى فى نفوس أولئك

---

(١) Volney I. 7 — 8; 235

(٢) Ibid 256 — 7

الفرنسيين الذين كانوا يتوقعون انحلال الإمبراطورية العثمانية القريب ، ويريدون الاستحواذ على مصر باعتبارها نصيبهم من تركة هذه الإمبراطورية المنحلة .

ولما كان معنى ذلك أن تنبذ فرنسا ظهرياً سياستها التقليدية نحو تركيا ، وتقدم على الاشتراك مع غيرها من الدول فى تقسيم ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ، فقد بادر فولنى فى عامى ١٧٨٨ — ١٧٨٩ بنشر « آرائه عن حرب الروس والأتراك »(١) ليدحض المزاعم ويقيم الحجة على أن روسيا وحدها هى الدولة التى يجب أن تترك لها فرصة التصرف كما تريد مع السلطان العثمانى ، وذلك لاعتقاده أن كاترين الثانية قيصرة الروسيا هى التى كان فى وسعها أن تنقذ تركيا من الفوضى المنتشرة بها ، حتى إذا فعلت ذلك جنت التجارة الفرنسية فى الليفانت فوائد كثيرة .

وقال (فولنى) يهدم دعاوى الراغبين فى امتلاك مصر : « لا جدال فى أن مصر تنتج المحصولات التى تحتاج إليها فرنسا كالشعير والأرز والقطن والقنب والنيلة وقصب السكر وغير ذلك ؛ وصحيح أنها قريبة من فرنسا ، والدفاع عنها ضعيف سيء ، وفى وسع الفرنسيين أن يعبروا برزخ السويس فيصلوا بطريق مصر إلى تجارة الهند ، ويعطلوا طريق التجارة حول رأس الرجاء الصالح ؛ ولا شك فى أن احتلال مصر سوف يمكن الفرنسيين من الحصول على السلع المجلوبة من إفريقية كالعاج والتبر والمطاط والرقيق ؛ وفى إمكانهم كذلك أن يجمعوا بها العمال الذين تستخدمهم فرنسا الآن فى جزر السكر كسان دومنجو وغيرها من جزر الهند الغربية ، وذلك إذا استطاعت فرنسا الاحتفاظ بهذه الجزر فى النهاية ؛ وعلى الرغم من كل هذه المزايا فإن صعوبات عدة سوف تواجه الفرنسيين ، ولا مناص من أن يتغلبوا عليها أولاً قبل احتلال مصر واستعمارها . ذلك أن فرنسا سوف تجد نفسها مرغمة على خوض غمار حروب ثلاثة : مع الأتراك والإنجليز وأهل البلاد أنفسهم ، ومن المتوقع أن يعظم إقبال الوطنيين على محاربة الفرنسيين دون أى تردد ، لاختلاف الفرنسيين عنهم فى الدين والمذهب وفضلا عن ذلك فإن انتصار الفرنسيين فى هذه الحروب كلها ليس معناه — إذا قدر لهم النصر — أن فى وسعهم أن ينجحوا كذلك فى استعمار مصر ، لاختلاف الدين والعادات والأخلاق » . ثم تساءل : وكيف يرجو الفرنسيون النجاح وهم الذين أخفقوا فى الهند ومدغشقر وجوايانا وحوض المسيسبى ، ثم فشلوا كذلك فى سان دومنجو . لأن الفضل فى استعمار هذه الجزيرة إنما يرجع إلى المغامرين الأوائل ، دون أى تدخل

---

(١) Ibid 345 — 445

من جانب الحكومة الفرنسية ، وكان من رأى فولنى أن تقصر فرنسا جهودها على تحسين الإنتاج فى داخل بلادها عندما كان حوالى سدس أرضها الصالحة للزراعة بوراً ولا يلقى عناية ، وذلك بدلاً من التفكير فى التوسع الخارجى .

على أن انصراف الفرنسيين عن استعمار مصر — كما طلب فولنى — كان معناه أن يرضى الفرنسيون عن طيب خاطر بالنزول عن ذلك المركز الذى أرادوا أن تشغله بلادهم بوصفها دولة كبرى لا غنى لها عن امتلاك إمبراطورية استعمارية كبيرة . وقد رفض الفرنسيون أن يفعلوا ذلك ، فى وقت كان العداء فيه مستحكماً بينهم وبين الإنجليز الذين استولوا فى الحروب الماضية على أكثر مستعمراتهم القديمة ، ونجح استعمارهم نجاحاً ملحوظاً ، على الرغم من فقد الولايات الأمريكية . وعلاوة على ذلك فقد كان من المتعذر على الفرنسيين أن ينبذوا ظهرياً فكرة الإمبراطورية الاستعمارية عند ما كانت ممتلكاتهم الباقية فى جزر الهند الغربية مهددة بالضياع ، لانهيار نظام استعمارهم القديم بهذه الجزر ، ولم يصرف الفرنسيين عن الاستعمار فى السنوات التالية إلا اشتعال الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ ، وما ترتب على ذلك من حوادث كان أهمها تألب الدول ضد الثورة منذ عام ١٧٩١ ، ثم تكوّن التحالف الدولى الأول ضد فرنسا عقب إعدام الملك (١٧٩٣) ؛ وقيام الاضطرابات والثورات التى سبق وصفها فى جزيرة سان دومنجو ، واحتلال الإنجليز لأهم موانيها فى العام التالى ، ففتر عزم الفرنسيين ، وشغلوا عن التفكير فى إحياء إمبراطوريتهم القديمة ، أو إنشاء أخرى جديدة ، حتى وقع من الحوادث بعد ذلك ما جعلهم يتحررون من ذلك الفتور الذى ثبط عزائمهم .

ذلك أنه حدث فى الهند الصينية حوالى هذا الوقت أن قامت الثورة فى (كوشين صين) ، وأرغم (نجون أنه Nguen-Anh) ملكها على الهرب إلى بوند شيرى يطلب مساعدة الفرنسيين ومعاونتهم له فى استرجاع عرشه ، فأجاب التجار الفرنسيون فى بوند شيرى رغبته ، واستطاع الملك العودة إلى بلاده ظافراً منصوراً فى عام ١٧٩٠ ، وعرف للفرنسيين صنيعهم فأخلص لهم الود ، وأحكم أواصر صداقته مع فرنسا من ذلك الوقت حتى وفاته بعد ثلاثين سنة ، فمهدت هذه الحوادث لبدء الاستعمار الفرنسى فى الهند الصينية ، كما دلت على أن الفرنسيين لا يزالون على الرغم من كل ما ألم بهم يطمحون إلى امتلاك إمبراطورية استعمارية كبيرة ، بل ويودون من صميم قلوبهم أن تتسع رقعة هذه الإمبراطورية كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

وقد أتيحت الفرصة لتوجيه أنظار الفرنسيين إلى الاستعمار بصورة جدية فى أثناء المفاوضات التى بدأت بين بونابرت وحكومة الإدارة من جانب ، وبين النمسا من جانب آخر بعد انتصارات بونابرت الباهرة فى أثناء حملته الإيطالية ، وقد أسفر الاهتمام بالمسألة الاستعمارية وقتئذ ، كما أسفرت الرغبة فى الانتقام من انجلترة التى صممت على النضال بمفردها ضد الجمهورية بعد انحلال المحالفة الدولية وإرغام النمسا على طلب الصلح ، عن تقرير إرسـال بونابرت على رأس جيش كبير لغزو مصر ، ووضع أسس تلك الإمبراطورية الاستعمارية العظيمة ، التى شاء الفرنسيون الآن أن ينشئوها فى ميدان (الشرق الجديد) .

الانتقام من انجلترة :

كان أهم ما عنيت به حكومة الإدارة ، منذ أن خلص لها الأمر فى أكتوبر ١٧٩٥ ، الاقتصاص من النمسا وانجلترة اللتين صممتا بالاشتراك مع بيدمنت على الاستمرار فى النضال ضد الجمهورية ، على الرغم من تحطيم المحالفة الدولية الأولى ، وخروج هولندة وبروسيا وأسبانيا وتسكانيا وهس كاسل من الحرب ، فأعد كارنو Carnot ، عضو حكومة الإدارة خطة عسكرية لتدبير هجوم واسع النطاق على النمسا عن طريق ألمانيا والدانوب ، ثم عن طريق إيطاليا الشمالية . وفى مارس ١٧٩٦ تسلم بونابرت قيادة الحملة المعدة لغزو إيطاليا ، فوصل إلى نيس فى اليوم السادس والعشرين من الشهر نفسه ، فلم يمر شهر واحد حتى كان القائد الشاب قد هزم جيوش بيدمنت فى (مونت نوت) Montenotte و (ديجو) Dego ، وأرغم ملكها أمدوس الثالث Amadeus على عقد الهدنة فى تورين ؛ وقد استطاع بونابرت بعد ذلك مطاردة النمساويين ، فعبر جسر لودى Lodi ، وأنزل بهم خسائر فادحة (٩ مايو) ، ودخل ميلان ، ثم انتصر على جيوشهم فى مواقع عدة ، أهمها أركولا Arcola ، ثم ريفولى Rivoli (١٥ يناير ١٧٩٧) ، وسقطت منتوا Mantua فى ٢ فبراير ، وبسقوطها أصبحت إيطاليا بأسرها تحت رحمة بونابرت ، واضطر البابا إلى عقد الصلح ، وزحف بونابرت على النمسا ، وانتصر على جيوشها ، وفى ٧ أبريل وصل إلى لوبن Leoben على مسافة ثمانين ميلاً من فينا نفسها ، وعندئذ طلب النمساويون الصلح ، فعقد بونابرت معهم هدنة لوبن فى ١٨ أبريل ١٧٩٧ ، تمهيداً لعقد الصلح النهائى .

وقد قضى هذا الانتصار السريع على المحالفة الدولية ، ووقع عبء النضال الآن ضد فرنسا على كاهل انجلترة وحدها ، ولذلك فقد رغبت حكومتها فى عقد الصلح

مع الجمهورية . وأرسل (بت) Pitt رئيس وزارتها ، اللورد ملمسبرى Malmesbury، إلى (ليل) للمفاوضة فى شروط الصلح مع انجلترة ، ولكن هذه المفاوضات التى استمرت أربعة شهور تقريباً ، من يونيو إلى سبتمبر ١٧٩٧ ، سرعان ما أخفقت ، لإصرار فرنسا على ضرورة نزول الإنجليز عن مستعمرة الكاب الهولندية فى جنوب إفريقية ، وكان الإنجليز قد استولوا عليها منذ أن خرجت هولنده من المحالفة (١٧٩٥)، وخشى هؤلاء استيلاء الفرنسيين على هذه المستعمرة الأفريقية ، وفضلا عن ذلك فقد احتل الإنجليز جزيرة سيلان الهولندية ، كما أخذوا ملقا وغيرها . وقد وافق الإنجليز فى أثناء هذه المفاوضات على التنازل عن المستعمرات التى أخذوها من هولنده ، ولكنهم تمسكوا بمستعمرة الكاب . فأثاروا بتمسكهم هذا حفيظة الفرنسيين ، الذين أغضبهم أن يروا هولنده تفقد مستعمراتها ، وكان الفرنسيون منذ انتصارهم على هولنده. قبل ذلك بثلاثة أعوام ، قد أحالوها إلى جمهورية (جمهورية بتافيا) وأدخلوها تحت سيطرتهم ، وباتوا الآن يعلقون أهمية كبيرة على احتفاظ هذه الجمهورية بمستعمراتها ، فى الوقت الذى عجز فيه الفرنسيون أنفسهم عن امتلاك مستعمرات جديدة ، وكانت مستعمراتهم فى جزر الهند الغربية مهددة بالانهيار التام . بل إن أحد الكتاب الفرنسيين (بواسيرول) Boiserolle ما لبث أن بادر فنشر بحثا فى أثناء هذه المفاوضات ، يحذر فيه حكومة الإدارة مغبة التفريط فى ممتلكات « حليفتها » هولنده ويطلب إليها أن تبذل ما وسعها من جهد وحيلة ، حتى تستبق لهولنده كل مستعمراتها فى الهند الشرقية ، على اعتبار أن « المحالفة » القائمة بين هولنده وفرنسا تجعل من حق هذه الدولة الأخيرة أن تعد ممتلكات هولنده من المستعمرات الفرنسية . وعلى ذلك فقد غادر (ملمسبرى) أرض فرنسا وبات من واجب حكومة الإدارة أن تعقد الصلح سريعا مع النمسا ، حتى يتيسر لها التفرغ لمنازلة انجلترة والاقتصاص منها . ومنذ أن شغل (تاليران) Talleyrand منصب وزير الخارجية فى حكومة الإدارة ، فى ١٦ يوليه ١٧٩٧ ، تعاون مع بونابرت فى وضع القواعد التى قام عليها الصلح النهائى مع النمسا .

وكان شارل موريس دى تاليران — بريجور De Talleyrand Périgord (١٧٥٤ — ١٨٣٨) من بين أولئك الفرنسيين الذين اضطروا إلى الهجرة من فرنسا فى أثناء ثورتها الكبرى ؛ فأقام فى انجلترة مدة ، شاهد فى أثنائها كبار المزارعين والتجار من سان دومنجو يقصدون لندن (سبتمبر ١٧٩٢) لطلب مساعدة الإنجليز ، فأثار نشاطهم اهتمامه (بالمسألة الاستعمارية) ؛ وكان من رأيه أن

فرنسا فى وسعها أن تجد ما تستعيض به عن تلك المستعمرات التى خسرتها فى حروبها الماضية ، إذا هى أقدمت مع انجلترة على اقتسام أمبراطورية أسبانيا الاستعمارية ، ولكن هذه الآمال سرعان ما تبددت عندما دخلت انجلترة فى حربها الطويلة مع فرنسا فى العام التالى ، وطلبت إلى تاليران مغادرة بلادها . وعندئذ فضل تاليران الإقامة فى الولايات الأمريكية . وقد أتاح له وجوده بالولايات فرصة الوقوف على حقيقة الاستعمار الفرنسى بأسسه القديمة التى قام عليها : الحق الاحتكارى ، واستخدام الرقيق ، فقد شهد « اللاجئين » من سان دومنجو يفدون إلى المدن الأمريكية للسكنى بها ، فرارا من تلك الثورات التى نشبت فى جزر الهند الغربية (منذ عام ١٧٩٠ تقريبا) ، وقتل عدد عظيم من المستعمرين « البيض » فى أثنائها :

وعنى تاليران بجمع طائفة من المعلومات الوثيقة عن تاريخ الاستعمار الفرنسى فى أمريكا ، حتى إذا غادر الولايات إلى فرنسا أخيرا فى يونيو ١٧٩٦ ، كان قد أصبح يعتقد اعتقاداً راسخا أن الواجب يقتضى فرنسا أن تبذل كل جهد فى سبيل إعادة الرخاء إلى جزر الهند الغربية ، بل وعليها أن تعمل للاستيلاء من جديد على (لويزيانا) ذاتها ، حتى يتسنى عودة هذا الرخاء إلى الهند الغربية بفضل ما سوف ينشأ من تعاون بين لويزيانا والجزر . وأما إذا رفضت فرنسا العودة إلى نظامها الاستعمارى القديم فى أمريكا ، فإنه لاغنى لها عن أن تبحث عن مستعمرات أخرى جديدة ، وفى ميادين غير تلك التى شهدت اخفاقها .

وفى الفترة التى سبقت اختياره لوزارة الخارجية ، كرس تاليران وقته لبحث المسألة الاستعمارية ، ووجد الفرصة سانحة لبسط آرائه عند انضمامه إلى هيئة المجمع العلمى الفرنسى ، فأعد بحثا تلاه على أعضاء هذه الهيئة فى ٤ أبريل ١٧٩٧ ، تحدث فيه عن العلاقات التجارية التى نشأت بين انجلترة والولايات المتحدة الأميريكية ؛ على الرغم من الحرب الاستقلالية الأميريكية ، وأشار إلى أنه بات واجبا على فرنسا أن تقطع هذه العلاقات ، كما أقام الحجة على أن ذلك سهل ميسور إذا أنشأت فرنسا « مركزاً هاما » أو مستعمرة جديدة لها فى أمريكا ، وكان غرض تاليران أن تكون (لويزيانا) هذه المستعمرة الجديدة .

غير أن الظروف وقتئذ لم تكن مواتية لاستمالة الرأى العام الفرنسى إلى الاستعمار فى أمريكا ، لوصول أخبار الاضطرابات التى حدثت فى سان دومنجو إلى باريس ، فى هذه الآونة ، ولأن فرنسا لم تكن لديها بحرية قوية تساعدها على تنفيذ هذا المشروع

الاستعمارى الجديد . ولذلك فقد قرر تاليران أن يضع جانبا مسألة استعمار لوزيانا البعيدة ، وأخذ يدعو بدلا من ذلك إلى الاستيلاء على مستعمرة تكون بسبب موقعها الجغرافى قريبة من فرنسا . وفى ٣ يوليو ١٧٩٧ ألقى تاليران بحثا آخر فى المجمع العلمى ، كان له أثر حاسم فى انتشال الفرنسيين انتشالا من ذلك التحول الذى صرفهم عن التفكير فى المستعمرات ، وجعلهم يقنعون بمطالبة الإنجليز بأن يعيدوا إلى هولندة مستعمراتها ؛ وصاروا الآن يشعرون شعورا عميقاً بأنه بات من الواجب عليهم أن يعملوا هم أيضا جاهدين من أجل الاستيلاء على مستعمرات جديدة(١) .

وكان عنوان البحث الذى ألقاه تاليران : «رسالة فى الفوائد التى تعود (على فرنسا) من امتلاك مستعمرات جديدة فى الظروف الحاضرة» . وقد ندد تاليران بقاعدتى الاستعمار القديم : حق الاحتكار ، واستخدام الرقيق الأسود . ثم تحدث عن اضطراب الأحوال فى جزر الهند الغربية ، حتى بات من المتوقع انهيار الاستعمار الفرنسى تماما فى هذه الجزر ، أو انفصالها فى آخر الأمر عن فرنسا ؛ وكان أهم ما دعا إليه أن تعنى بلاده بالبحث فى ميادين أخرى عن مستعمرات تنتج المحصولات التى تحتاجها فرنسا ، وكانت تأتيها من جزر الهند الغربية . وذكر تاليران أن هناك ميدانين فحسب : لإنشاء هذه المستعمرات الجديدة ، هما أفريقية الغربية ومصر . ولما كان الإنجليز ، الذين توقعوا أن تزداد الحال سوءاً فى جزر الهند الغربية ، قد سبقوا الفرنسيين فى استعمار أفريقية الغربية ، فأسسوا مراكز فى (سيراليون) ثم اعتزموا إنشاء غيرها فى (بولاما) ، فقد بات أمام الفرنسيين ميدان واحد هو مصر ، يستطيعون أن يشيدوا فيه صرح إمبراطوريتهم الاستعمارية الجديدة ، وفضلا عن ذلك فقد رغب (شوازيل) نفسه — فى عام ١٧٦٩ — فى الاستيلاء على مصر حتى يعوض بذلك على فرنسا ما فقدته من ممتلكات فى أثناء حروبها الاستعمارية السابقة .

ولم يكن تاليران الرجل الذى فكر وحده وقتئذ فى إمكان استعمار أفريقية الغربية ذلك أن الاستعمار فى أفريقية كان من الموضوعات التى شغلت أذهان الفرنسيين وكل أولئك الذين أشاروا على فرنسا بامتلاك المستعمرات الجديدة فى هذه القارة ، عند ما وضحت أهمية هذه المسألة ، عند تمسك الإنجليز بمستعمرة الكاب الهولندية ، فى أثناء مفاوضات (ليل) التى سبق ذكرها ، فقد بعث كارل برنار ودستروم Wadström — وهو رحالة سويدى اهتم اهتماما كبيرا بموضوع الاستعمار فى أفريقية

---

(١) Lokke-France... 174

الغربية — برسالة إلى تاليران ، بعد بحثه الأخير ببضعة شهور ، يدعو فيها الوزير الفرنسى إلى التفكير جديا فى ضرورة إقدام فرنسا على امتلاك مستعمرات جديدة ، ويقترح عليها أن تحتل الرأس الأخضر ، على اعتبار أن هذه المنطقة خير مكان يصلح للاستعمار الفرنسى فى أفريقية الغربية . بل إن (ودستروم) ما لبث أن نشر فى بداية العام التالى كتابا عن الاستعمار فى سيراليون وبولاما اشتمل كذلك على خطابه السابق إلى تاليران ، وأهدى منه نسخا كثيرة إلى مجلس الخمسمائة ، وشكل هذا المجلس لجنة لبحث مقترحات (ودستروم) . وعلى ذلك فقد بات أمام حكومة الإدارة أن تختار بين الاستعمار فى أفريقية الغربية . والاستعمار فى مصر ، ما دام قد رسخ الاعتقاد فى دوائر الحكومة بضرورة الاستيلاء على مستعمرات جديدة ، وأيد الرأى العام الفرنسى هذه الرغبة . وكان فى أثناء المفاوضات التى استمرت بعد توقيع الصلح فى لوبن فى أبريل ١٧٩٧ ، وأفضت إلى إبرام معاهـدة كامبو — فورميو Campo-Formio مع النمسا فى أكتوبر من العام نفسه ، أن اجتمعت الأسباب التى أقنعت حكومة الإدارة ، ووزير خارجيتها ، وقائدها المنتظر فى إيطاليا ، بأن الاستعمار فى (الشرق) خير من الاستعمار فى أفريقية الغربية ، وأن مصر أفضل أقطار (الشرق) التى تصلح ميدانا للتجربة الاستعمارية الجديدة .

وكان غرض بونابرت وحكومة الجمهورية أن يحقق الصلح النهائى مع النمسا ، إضعاف أعداء الأمس القريب ، بصورة تمنعهم من استئناف نضالهم ضد الجمهورية الفرنسية ، فلا تتعرض لأية أخطار من جانبهم ، كما أراد بونابرت وحكومة الإدارة أن يهيىء ، هذا الصلح ، بفضل ما يتضمنه من قواعد واشتراطات سياسية أو عسكرية ، الوسائل التى تمكن فرنسا من الاقتصاص من انجلترا ، وهزيمتها هزيمة ساحقة ، ترغمها إرغاماً على طلب الصلح ، وقبول كل شرط مهما كان قاسيا ، قد يتراءى لحكومة الجمهورية أن تفرضه عليها . وعلى ذلك فقد كتب بونابرت من ميلان إلى حكومة الإدارة ، ثم إلى تاليران وزير خارجيتها ، فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧[١] ، يعرض ما جال بخاطره من آراء بصدد شروط الصلح النهائى مع النمسا ، وحتى يمهد كذلك لقبول هذا الصلح من جانب حكومة الإدارة دون معارضة . فقال إنه لما كان يخشى أن تصبح النمسا دولة بحرية تهدد مصالح فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط ، فقد قرر الاستيلاء على أسطول جمهورية البندقية ، وعلى جزر الأيونيان ، وأهمها كورفو ، وسيفا لونيا ، وزانت .

(١) Jonquière I. 28 — 29; Corresp. Napoléon. No. 2103; No. 2106

وقد أرسل بونابرت فعلا خطابيه هذين عقب احتلال هذه الجزر . وكان السبب فى ذلك أن الصلح النهائى سوف يقوم على أساس تنازل النمسا عن ممتلكاتها فى بلجيكا ولمبارديا ، وعلى حدود نهر الرين ، لقاء أن ينال النمساويون تعويضا عن هذه الممتلكات فى استريا ودلماشيا على شاطىء الأدرياتيك الشرقى ، وكانت هذه من أملاك البندقية . وفضلا عن ذلك فقد كان من المنتظر أن تأخذ النمســا مقاطعات البندقية الواقعة بين نهرى أجليو Oglio وبو Po وشاطىء الإدرياتيك الشمالى ، وبذلك يصبح للنمسا منافذ بحرية هامة ، تمكنها إذا هى استطاعت أن تضم أسطولها إلى أسطول مملكة نابلى من إحراز السيطرة فى البحر الأبيض . ولذلك فإن حرمان النمسا من الاستيلاء على أسطول البندقية من جهة ، ثم إقدام بونابرت على احتلال جزر الأيونيان من جهة أخرى ، كان ضروريا لمنع هذا الخطر . ووضح بونابرت فى رسالتيه إلى الحكومة وتاليران أهمية جزر الأيونيان على وجه الخصوص ، فقال إن احتلالها يضمن الاحتفاظ للفرنسيين بالسيادة فى بحر الأدرياتيك وفى حوض البحر الأبيض الشرقى (الليفانت) ويساعد على إنعاش التجارة الفرنسية فى هذه الجهات . وفضلا عن ذلك فإنه لما كانت هذه الجزر قريبة من ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ، وخاصة فى ألبانيا ، التى كان يعمل باشواتها وعلى رأسهم (على باشا صاحب ينينا) على شق عصا الطاعة والانفصال عن تركيا ، فقد بات فى استطاعة حكومة الجمهورية أن تنشىء صلات وثيقة مع هؤلاء الباشوات ومع الألبانيين ، الذين عرف عنهم ، أنهم يميلون كثيرا إلى فرنسا . كما أن قرب الجزر من تركيا سوف يمكن فرنسا دون شك من أن تعمل بنجاح ، إما من أجل المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية ما دام ذلك ممكنا ، وإما من أجل الاستحواذ على نصيبها من ممتلكات العثمانيين عند انهيار إمبراطوريتهم . ولما كان بونابرت يعتقد أن انهيار هذه الإمبراطورية قد صار قريبا ، فقد أصبح لزاما على فرنسا فى نظره أن تفكر جديا ودون أى إبطاء فى خير الوسائل التى تمكنها من المحافظة على تجارتها فى الليفانت . وقال بونابرت إن فرنسا سوف تجد بعد وقت قصير أنه لا مندوحة عن الاستيلاء على مصر ذاتها — من أملاك العثمانيين — إذا هى شاءت أن تلحق بانجلترا هزيمة فادحة . وقد وافقت حكومة الادارة — على لسان تاليران وزير خارجيتها — فى ٢٣ أغسطس [١] على احتلال جزر الأيونيان ، كما وافقت على جميع الاعتبارات التى ذكرها بونابرت عند كلامه عن تركيا . فقال

(١) Jonquière I. 29 — 30

تاليران إن إنشاء العلاقات الوثيقة مع ألبانيا واليونان ومقدونيا ، بل ومع جميع أقطـار الامبراطورية العثمانية المطلة على البحر الأبيض ، مسألة ذات أهمية كبيرة ، ولا غنى على وجه الخصوص عن إنشاء هذه الصلات الحسنة بين فرنسا ومصر ، وذلك لما ينتظر أن تسديه مصر يوما من خدمات جليلة الشأن لفرنسا .

غير أنه لم يكن من السهل إقناع كل أعضاء حكومة الإدارة أو غيرهم ، من العناصر « المعتدلة » فى هيئات الحكومة الأخرى ، بأن من الحكمة وأصالة الرأى إعطاء النمسا بعض ممتلـكات البندقية على الصورة التى ارتآها بونابرت ، ووافق عليها تاليران ، لقاء ما أخذته فرنسا من أملاك النمـسا ذاتها ، وذلك حتى يتسنى عقد الصلح سريعا مع هذه الدولة ، لتفرغ لمنازلة انجلترة . وحمل هؤلاء المعارضون بشدة على مسلك بونابرت مع البندقية وجنوة . ولـكن هذه الصعوبات سرعان ما اختفت عندما أرسل بونابرت الجنرال (أوجرو) للاشتراك فى حوادث انقلاب ١٨ فركتيدور المشهور (٤ سبتمبر ١٧٩٧) ، وهو الانقلاب الذى سبق ذكره عند الحديث عن منو . وانتهى بتغلب روبل وبرّاس وريفلير ليبو على العناصر المعتدلة ، فى الحكومة ، فاستطاع بونابرت أن يسيطر على سير المفاوضة مع النمسا وفق رغائبه ، وحسب القواعد التى وضعها لها والمبادىء التى استرشد بها . وفى ١٣ سبتمبر ١٧٩٧ كتب بونابرت إلى تاليران من بساريانو[١] يبسط هـذه القواعد والمبادىء فى رسالة طويلة ، لها فى تاريخ الحوادث التالية أهمية كبيرة .

ذلك أن بونابرت بسط فى هذه الرسالة ، وللمرة الأولى ، تلك المشروعات التى كان هدفها الاستيلاء على مالطة وعلى مصر ، وقد ارتبطت هذه المشروعات بالموضوعات التى أثارتها مفاوضات الصلح ، وكانت ذات صلة وثيقة بالموقف السياسى فى أوروبا . فقد كان إحراز السيطرة الـكاملة فى البحر الأبيض أمراً لا مفر منه ، إذا شاءت فرنسا الاطمئنان على سلامتها من ناحية النمسا ، الأمر الذى دعا بونابرت إلى الاستيلاء على أسطول البندقية ، واحتلال جزر الأيونيان على نحو ما سبق ذكره . وكان لضمان هذه السيطرة البحرية أن طفق بونابرت يفـكر جديا فى ضرورة الاستيلاء على جزيرة مالطة ، وفضلا عن ذلك فإنه لما كان قد تبين أن انجلترة ما زالت مصممة على التمسك بمستعمرة الـكاب الهولندية ، وأفضى تمسكها بهذه المستعمرة إلى فشل مفاوضات الصلح معها فى (ليل) ، وبات اتخاذ العدة للاقتصاص من انجلترة أمراً لا مفر منه ، فقد دعا

(١) Jonquiere I. 31 — 32; Corresp. Napol. No. 2195

بونابرت إلى احتلال مصر نظير استيلاء انجلترة على مستعمرة الكاب . وكان مما دعاه إلى التفكير فى ذلك اعتقاده ثم اعتقاد تاليران أيضا أن انهيار الامبراطورية العثمانية بات وشيكا .

وقد تحدث بونابرت فى هذا الكتاب ، الذى بعث به إلى تاليران ، عن أهمية امتلاك جزر الأيونيان من الناحية التجارية ، وما سوف ينجم عن امتلاكها من آثار فى مجريات الحوادث فى أوروبا ذاتها ، ومن المنتظر أن يتم لفرنسا إحراز السيطرة التامة فى حوض البحر الأبيض ، إذا أقدمت على احتلال مالطة ، بعد أن احتلت جزر الأيونيان ، وبعد أن نزل ملك سردينيا عن جزيرة سنت بيير Saint - Pierre ، ونجاحه عندما كان معروفا عن تحصينات فالتا Valetta ، عاصمة مالطة أنها من الضعف بحيث يستطيع أسطول الأميرال (برويس) Brueys ، مع قوات قليلة ، احتلال الجزيرة . ثم استمر بونابرت يقول « أما إذا حدث أن وجدنا أنفسنا ، من أجل الوصول إلى الصلح مع انجلترة ، مرغمين على التسليم باستيلائها على رأس الرجاء الصالح — مستعمرة الكاب الهولندية — ، فإن الواجب يقتضينا حينئذ أن نستولى على مصر . ولم يسبق قط أن امتلكت إحدى الدول الأوروبية هذه البلاد . حقا لقد استطاع البنادقة أن يتمتعوا فى مصر بنوع من السيطرة ، ولكن ذلك حدث من عدة قرون مضت ، كما كانت سيطرتهم غير ثابتة الدعائم . وفضلا عن ذلك فإنه يكفى لفتح مصر إرسال حوالى خمسة وعشرين ألف جندى ، تحملهم ثمانى أو عشر سفن حربية ، وذلك لأن السلطان لا يملك هذه البلاد حقيقة » ، وليست له فيها سلطة فعلية كما أنه لا يستطيع الدفاع عنها وقد طلب بونابرت فى آخر رسالته أن يبعث إليه (تاليران) بكل ما تقع عليه يداه من معلومات توضح مدى الأثر الذى يحدثه إرسال حملة فرنسية على مصر فى دوائر الحكومة العثمانية .

وقد أجاب تاليران على رسالة بونابرت فى ٢٣ ، ٢٧ سبتمبر ١٧٩٧ [١] بصورة لا تدع محلا للشك فى أن الحكومة الفرنسية ، وإن كانت لا تزال ترى أن الوقت لم يحن بعد لغزو مصر ، فإنها توافق موافقة تامة على غزو مالطة . ومع ذلك فقد كان معنى تأييد الاستيلاء على مالطة أن حكومة الإدارة قد صارت تسير حثيثا نحو الاهتمام بأمر (الشرق) عامة ، ونحو الاستيلاء على مصر واستعمارها فى النهاية .

ووافقت حكومة الإدارة على احتلال مالطة لأسباب عدة . فقد كان فرسان القديس

---

(١) Jonquière I. 35 — 38

يوحنا ، أصحاب هذه الجزيرة ، يؤيدون النظم الملكية ، وأمدوا الملك لويس السادس عشر بمساعدات كثيرة ، لإعانته على اجتياز أزماته المالية ولمعاونته على تدبير فراره المعروف إلى (فارن) كما أقاموا عند إعدامه الصلوات على روحه ، واقتصت منهم حكومة الثورة بمصادرة أملاكهم ، وحل جماعتهم فى فرنسا ، وإلقاء كثير من الفرسان المقيمين بها فى غياهب السجون ، وإعدام عدد منهم . وأرسلت الجمهورية الجواسيس يبذرون بذور التفرقة والشقاق فى الجزيرة ، عندما كثر وفود المهاجرين إليها أيام (الإرهاب) العصيبة [١] . وساعد ذلك على انتشار الاضطراب فى مالطة ، وزيادة ضعف الفرسان الذين كان الانحلال قد بدأ يدب فى صفوفهم من مدة طويلة ، وفقدوا كل قدرة عسكرية وحاول البرنس دى روهان Rohan ، رئيس هذه الجماعة ، أن يبدأ عهدا من الإصلاح يعيد إلى الفرسان قوتهم السابقة ، فاستطاع ممثلوه أن يعقدوا فى بطرسبرج معاهدة مع بول الأول قيصر الروسيا ، فى ١٥ يناير ١٧٩٧ ، أعيدت بمقتضاها أملاك الفرسان التى استولت عليها الروسيا فى بولندة قبل ذلك بعامين ، كما أعطى الفرسان حق إنشاء دير كبير فى بولندة ، يأتيهم بإيرادات وفيرة [٢] .

غير أن الرسول الذى كلف بحمل هذه الأنباء إلى مالطة ما لبث أن وقع فى أسر بونابرت فى (أنكونا) فى فبراير من العام نفسه وهو لا يزال فى طريقه إلى الجزيرة [٣] . فأثار هذا الحادث اهتمام بونابرت بأمر مالطة ، ذلك أن بقاءها بأيدى أعداء الجمهورية من شأنه أن يفصل بين القواعد البحرية الجديدة التى ظفرت بها فى بحر الأدرياتيك ، وقواعدها فى إقليم بروفنس ، ويصبح خطرا يهدد تلك السيطرة ، التى كانت تبغيها فرنسا فى حوض البحر الأبيض . وأوجس بونابرت خيفة من علاقات الفرسان بقيصر الروسيا ، وعظم الخوف من وقوع مالطة فى يد دولة معادية لفرنسا عند وفاة (روهان) واختيار البارون فردنند هومبش Hompesch رئيسا للفرسان ، وكان (هومبش) جرمانيا ، عدّ اختياره انتصاراً للسياسة النمساوية [٤] ، ودليلا على تلك المؤامرات التى كانت النمسا تحيك خيوطها للاستيلاء على مالطة ، بوصفها جزءا من مشروع واسع تهدف من ورائه إلى تجزئة أملاك الإمبراطورية العثمانية بالاتفاق مع الروسيا ، فتنال هذه الدولة الأخيرة ما تبغيه من ممتلكات العثمانيين ، لقاء رضائها عن استيلاء النمسا

---

(١) Grenfell 11 — 12

(٢) Reybaud III 78 — 79 (Traité Définitif, 28 Nov. 1798)

(٣) Corresp. No. 2676

(٤) Reybaud III. 77; Corresp. No. 2676

على مالطة ، إلى جانب ما قد تناله من التركة العثمانية . ومع أن (هومبش) بادر بإظهار ميوله الودية نحو حكومة الإدارة ، فى رسالة بعث بها إلى باريس فى يوليو ١٧٩٧ ، فإن هذه الجهود لم تفد شيئا فى إزالة مخاوف الجمهورية من مساعى النمسا خاصة لإحراز السيطرة البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وعلى ذلك فقد رحبت حكومة الإدارة كما رحب تاليران باقتراح بونابرت . فقال تاليران فى خطابه إلى بونابرت فى ٢٣ سبتمبر [١] : « إن من مقتضيات صون مصالحنا أن نحول بكل وسيلة دون استيلاء النمسا على مالطة » ؛ ثم عاد تاليران فأكد فى رسالته الثانية إلى بونابرت ، فى ٢٧ سبتمبر [٢] ، موافقة حكومة الإدارة على اقتراح بونابرت الاستيلاء على مالطة ، لأن هذه الجزيرة — على حد قول تاليران — قد أصبحت وكراً للدسائس والمؤامرات التى يديرها النمساويون والروس والإنجليز ، ومن المتوقع سقوطها قريباً فى قبضة النمسا ، وذلك بناء على المعلومات التى استقتها حكومة الإدارة كذلك من مصادر أخرى وكتب تاليران : « إن استيلاء النمسا على هذه الجزيرة ، إلى جانب حصولها على استريا ، ودلماشيا ، من شأنه أن يتيح لها الفرصة حتى تصبح دولة بحرية ، فى وسعها أن تسبب تلفاً كبيرا لفرنسا فى جمهورية (ماوراء الألب) الإيطالية الشمالية (Gisalpin) . وفضلا عن ذلك فإن استيلاء النمسا على مالطة يمكنها من إلقاء العراقيل فى طريق الملاحة (الفرنسية) فى البحر الأبيض المتوسط بأجمعه ، وذلك بفضل ما لهذه الجزيرة من موقع جغرافى ممتاز ، فى حالة ما إذا وقعت مالطة فى قبضة انجلترة أو روسيا ، فإن هذه الأخطار سوف تزداد شدة على شدتها » . وعلى ذلك فقد أعطت حكومة الإدارة بونابرت كل سلطة لتنفيذ مشروع الاستيلاء على مالطة ، عندما يحين الوقت المناسب لإنجاز هذه الخطوة ، كما أنها أصدرت أوامرها فى هذا الشأن كذلك إلى (برويس) ، أمير البحر الفرنسى ، وإلى غيره من المختصين ، فى ٣ أكتوبر ثم فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٧ [٣] . وهكذا سارت الأمور وفق رغائب بونابرت فيما يتصل بمصير مالطة .

واقتنع تاليران كذلك بأن احتلال مصر سوف يعود على فرنسا بفوائد سياسية وتجارية عظيمة ، لعل أهمها إحباط دسائس الانجليز والروس فى تركيا ، ثم تمتع فرنسا بذلك المركز التجارى الكبير الذى تنشده ، وبخاصة « لأن مصر بوصفها مستعمرة ،

(١) Jonquière I. 35 — 7
(٢) Ibid I. 37 — 38
(٣) Ibid I. 39 — 41

سوف تعوض على فرنسا ما خسرته من منتجات جزر الأنتيل كما أنها ، بوصفها طريقاً للمواصلات ، سوف تهيء لها السبيل للاستحواذ على تجارة الهند » [١] . ومع ذلك فإنه كان واضحاً آنئذ أن الوقت لم يحن بعد لإخراج مشروع الحملة على مصر إلى حيز الوجود ، لعدة أسباب ، منها أن بونابرت الذى عقد مع النمسا معاهدة كامبو — فورميو ، فى ١٧ أكتوبر ١٧٩٧ ، ما لبث أن شغل بعد ذلك بإرسال هذه المعاهدة إلى باريس ، ومحاولته إقناع الرأى العام الفرنسى بقبول شروط الصلح ، التى نقدها أولئك الذين لمسوا فيها سخاء عظيما لا تبرره ظروف الموقف ، ولا يتفق ومصلحة فرنسا . وكان على بونابرت أن ينال تصديق حكومة الإدارة على المعاهدة .

وعلى ذلك فقد كتب إلى تاليران فى ١٨ أكتوبر [٢] ، يبسط من جديد المبادىء التى استرشد بها عند عقد الصلح مع النمسا ؛ ويدلى بالحجج التى سوغت فى نظره عقد الصلح وفق الشروط التى صار يرجو الآن إقناع الجميع بقبولها ، وتصديق حكومة الإدارة عليها ؛ وكان أهم ما جاء فى هذه الرسالة قول بونابرت إنه وقد انفرط عقد المحالفة الدولية ضد فرنسا ، بخروج النمسا نهائياً من هذه المحالفة ، فإن الواجب يقضى على الفرنسيين جميعاً أن يوحدوا جهودهم ، حتى يستطيعوا التفرغ لمنازلة انجلترة ، غريمة فرنسا وعدوتها الكبرى ، وأما إذا ظهر تهاون فى هذه المسألة الخطيرة من جانب الحكومة الفرنسية ، فإن انجلترة سوف تجد الفرصة سانحة للمضى فى نشاطها المعروف ، فتعمل على انتزاع المستعمرات الفرنسية ، ومستعمرات هولنده وأسبانيا ، وتعطل تجارة الجمهورية ، وتحول دون القيام بأى عمل لإصلاح البحرية الفرنسية وتقويتها زمناً طويلا . وفضلا عن ذلك فقد بات من الواجب على الحكومة أن تبذل قصارى جهدها للقضاء على الملكية الإنجليزية قضاء مبرما ، وذلك حتى تحول دون تدمير الجمهورية على أيدى هؤلاء الانجليز ، الذين دأبوا على تدبير المكائد ، وإشاعة الفساد فى فرنسا ، بغية الوصول إلى تنفيذ مآربهم . ولما كان بونابرت يعتقد أن « الوقت الحاضر هو أكثر الأوقات مناسبة » للقضاء على هذه الملكية ، فقد طلب أن تبذل حكومته كل ما وسعها من جهد وحيلة لإحياء البحرية الفرنسية ، وتعمل ناشطة فى سبيل القضاء على انجلترة ، « حتى إذا استطاعت ذلك وقعت أوروبا بأسرها تحت أقدام فرنسا » .

---

(١) Ibid I. 35 — 7

(٢) Corresp. No. 2307

الحملة الكبيرة :

وكان لهذه الآراء والحجج التى بسطها بونابرت فى رسائله أثر حاسم ، ولا شك ، فى إقناع حكومة الإدارة بقبول المعاهدة ، والمبادرة بالتصديق عليها . فقد وصل إلى باريس ، فى ليل ٢٥ — ٢٦ أكتوبر ١٧٩٧ ، كل من برتييه Berthier ومونج Monge يحملان معاهدة كمبو فورميو (١) وقابلا أعضاء حكومة الإدارة فى جلسة غير عادية ، فى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٦ أكتوبر ، فما انقضى ذلك اليوم حتى كانت الحكومة قد صدقت على المعاهدة (٢) كما اتخذت حكومة الإدارة فى اليوم نفسه عدة قرارات ، لتجنيد قوى الجمهورية من أجل النضال ضد انجلترة . ونص أحد هذه القرارات على حشد جيش عظيم ، دون أى إبطاء ، على شواطىء المحيط ، بقيادة نابليون بونابرت ، لهذه الغاية ، فبدأ على الفور تنظيم « جيش انجلترة » (٣) وأما بونابرت فقد غادر ميلان إلى رشتاد ، فى ١٧ نوفمبر ، كى يتبادل مع النمسا التصديق على المعاهدة ، ثم غادر رشتاد إلى باريس فى ٣ ديسمبر . وما أنه وصل إلى العاصمة الفرنسية حتى اجتمع برجال الحكومة لبحث موضوع الحملة المزمعة على انجلترا .

ولم يكن التصميم على إرسال هذه الحملة أول محاولة قامت بها حكومة الإدارة لغزو انجلترة فى عقر دارها ؛ ذلك أن هذه الحكومة كانت قد أعدت فى يونيه من العام السابق (١٧٩٦) مشروعا واسعاً لغزو انجلترة ، يقضى بإنزال جيش كبير فى (كونوت) Connaught ، إحدى مقاطعات إرلندة الغربية ، وإثارة حرب العصابات فى ويلز ، وكورنوول Cornwall ولم يفسد هذا المشروع سوى إصرار حكومة الإدارة فى الوقت نفسه على إرسال حملة إلى الهند ، لمساعدة تبو صاحب وسلطان ميسور (Mysore) ، فى نضاله ضد الانجليز ، فنشأ بسبب ذلك الخلاف بين (لازار هوش) Lazare Hoch قائد الحملة ، والأميرال فيلارى جوايوز Villaret-Joyeuse قائد الأسطول المعد لنقل الجيش إلى شواطىء إرلندة وانجلترة ، حتى اضطر هوش إلى اختيار قائد بحرى آخر هو مورار دى جال Morar de Galles ، وكان كبير السن تنقصه قوة الإرادة والعزيمة . وفضلا عن ذلك فقد كان الأسطول الفرنسى قد بلغ من الضعف درجة جعلت الأمل ضعيفاً فى نجاح عملياته ، وعجز القائد الجديد عن تجهيزه وإعداده . ولذلك فإن الأسطول لم يكد يخرج فى آخر الأمر من ميناء برست فى

---

(١) Corresp. No. 2306

(٢) Corresp. Inédite VII. 283 — 295; Corresp. Nos. 2303 — 2305

(٣) Jonquière I. 41

ديسمبر ، حتى كانت الفوضى ، على حد قول الجنرال هوش ، منتشرة فى الأسطول ، الذى لم تزد قطعه عن سبع عشرة بارجة وثلاث عشرة فرقاطة وخمس عشرة سفينة أخرى . وفى أثناء العمليات التالية عظم ارتباك الأسطول الفرنسى ، فانفصلت بارجة القيادة عن سائر قطع الأسطول ، واستطاعت سفن قليلة دخول خليج بانترى (Bantry Bay) فى طرف إيرلندة الجنوبى الغربى . ومع أن هوش ، ودى جال ظلا متغيبين ، فقد حاول الجنود النزول إلى البر ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك بسبب هبوب العواصف الشديدة . وأما هوش ودى جال فإنهما لم يتمكنا من الوصول إلى خليج بانترى ، وعلى ذلك فقد انسحبت الحملة من المياه الإيرلندية إلى برست فى يناير من العام التالى[1] .

على أن هذا الفشل لم يفت فى عضد الفرنسيين ، الذين ظلت تحدوهم الرغبة فى غزو الإنجليز فى بلادهم ، ويعقدون آمالا عظيمة على إمكان بذر بذور التفرقة بين الشعب وحكومته ، حتى إذا قيض لهم الانتصار على انجلترة ، أرغمت هذه على إخلاء ذلك المكان الذى ظلت تحتله من مدة طويلة ، باعتبارها أمة أوروبية عظيمة ، فتغدو دولة ذات أهمية ثانوية ، لا يسعها عندئذ إلا أن تفسح الطريق أمام فرنسا المنتصرة ، حتى تشيد صرح الإمبراطورية الكبيرة ، التى أرادت إنشاءها فى (الشرق) ، دون أن تعرقل منافسة الإنجليز نشاطها ؛ وكان بونابرت أحد أولئك الذين أخذوا بهذه الآراء ، واعتقدوا أنه من الميسور غزو الإنجليز فى بلادهم . ومع أن البحرية الفرنسية كانت قد تكبدت خسائر فادحة فى أثناء النضال مع الإنجليز بين يناير ١٧٩٣ وديسمبر ١٧٩٧ حتى بلغ مافقدته فرنسا فى أثناء هذه المدة نيفا ومائتى سفينة حربية ، بينما كانت خسارة الإنجليز لا تعدو سبعا وسبعين سفينة ، فقد اعتقد بونابرت واعتقدت معه حكومة الإدارة أن فى وسع فرنسا تدبير أمر حملة أخرى كبيرة ضد انجلترة ومنذ أن وصل بونابرت إلى باريس جرى الاستعداد بصفة جدية لتجهيز حملة انجلترة ، التى عرفت من ذلك الحين باسم (الحملة الكبيرة) La Grande Expédition .

ولم يكن الغرض من تجهيز هذه (الحملة الكبيرة) ، كما يتوهم كثيرون ، ذر الرماد فى العيون ، وحمل الإنجليز على ترك اهتمامهم بميدان (الشرق) ، وإهمال المراقبة فى البحر الأبيض ، حتى يتسنى للعمارة الفرنسية الخروج من الموانى الجنوبية ، وعبور البحر الأبيض ، والوصول بسلام إلى الشواطىء المصرية . بل إن مشروع هذه الحملة الكبيرة كان مشروعا جديا ، ولم يصرف بونابرت وحكومة الإدارة عن تنفيذه سوى اعتبارات

---

(١) Wilson-Cam. Mod. His. Vol. VIII. 473 — 75

قوية ، سوف يأتى ذكرها فى حينه ، وآية ذلك ماجرى من مراسلات عدة بين المسئولين عن إعداد الحملة ، وقواد الجيوش والأساطيل ، وصدور طائفة من الأوامر فى هذا الشأن ، كما أن بونابرت لم يلبث أن قام برحلة تفتيشية هامة فى شواطىء فرنسا وهولندة الشمالى ، بدأت فى أوائل فبراير ١٧٩٨ ، واستمرت إحق اليوم الحادى والعشرين من الشهر نفسه ؛ فقد زار بونابرت ايتابل Etaples ، وأمبلتوز Ambleteuse ، وبولونى وكاليه ، ودنكرك ، وفرنس Furnes ، ونيوبور Nieuport ، وأوستند ، وجزيرة فالشيرن Walcheren ؛ كما أنه زار فى أثناء عودته من هذه الرحلة التفتيشية أنفرس ، وبروكسل ، وليل ، وسان كنتان ، وفضلا عن ذلك فقد كلف عددا من ضباطه بالتفتيش على بعض المواقع الأخرى ؛ فزار (دزيه) Desiax برست . وكليبر Kléber الهافر ، وبقية الشاطىء الفرنسى ، وكافريللى Caffarelli دنكرك .[1]

ومما ينهض دليلا على أن مشروع هذه (الحملة الكبيرة) كان مشروعا جديا أن جميع ما أصدرته حكومة الإدارة من أوامر ، أو اتخذته من قرارات بشأن الاستعداد لهذه الحملة ، كان خاليا من أية إشارة إلى مالطة ، وذلك على الرغم من أن حكومة الإدارة كانت قد وافقت على غزو هذه الجزيرة واحتلالها منذ سبتمبر ١٧٩٧ ، وعلى الرغم من أن بونابرت نفسه كان قد أخذ يستعد لهذا الغزو ، فأرسل إلى كورفو (يوجين بوهارنيه) Eugène de Beauharnais ياوره (وابن زوجه جوزفين) ، لإخبار الأميرال (برويس) بعزمه ، وليحمل إليه التعليمات اللازمة ؛ كما قرر أن يوفد إلى مالطة ذاتها فى نوفمبر ١٧٩٧ [2] بوسيلج Poussielgue ، سكرتير السفارة الفرنسية فى جنوه ، وكان له أقرباء بمالطة تحت ستار التفتيش على مراكز التجارة الفرنسية : فالتا وأساكل الليفانت ، وذلك حتى يمهد الطريق لغزو الجزيرة واحتلالها . فبادر بونابرت بعد أن تقرر غزو انجلترة عقب عودته من رومة ، بمنع بوسيلج من الذهاب إلى مالطة ، وبأمره بالعودة إلى باريس فوراً . وواقع الأمر أن الاستعدادات لتجهيز (الحملة الكبيرة) على انجلترة استمرت قائمة على قدم وساق طوال الشهور الأولى من عام ١٧٩٨ ، لتدبير الأموال اللازمة لها ووضع الخطط الحربية .

غير أنه سرعان ما تبين لحكومة الإدارة ولبونابرت أنه كان يحول دون تنفيذ هذا المشروع الكبير صعوبات عدة ، أهمها : جسامة النفقات التى عجزت حكومة الإدارة

(١) Corresp. Nos. 2414,2415

(٢) Charles-Roux-Origines 307

عن تدبيرها ، وتعذر الحصول على العدد الكافى من السفن لنقل جيش الحملة وإمداده بالمؤن والعتاد الحربى ، ناهيك بضرورة اشتراك الأسطول فى العمليات البحرية والمعارك المنتظرة فى أثناء العبور إلى شواطىء العدو ، وعند محاولة النزول بأرضه . كما أظهر التفتيش على الثغور الشمالية أنه لا غنى عن القيام باستعدادات عاجلة ملحة فى هذه الثغور ، قبل الإقدام على إرسال الحملة ضد انجلترة . وعلى ذلك فإنه لم يمض يومان على عودة بونابرت من رحلته التفتيشية حتى قدم تقريرا إلى حكومة الإدارة فى ٢٣ فبراير ١٧٩٨ عن نتائجها ، استهله بقوله « إنه من المتعذر (على فرنسا) من الآن إلى سنوات عدة تالية ، أن تحرز أى تفوق بحرى مهما (بذلت) كثيرا من الجهود فى سبيل هذه الغاية » : وفضلا عن ذلك فإن الاستعدادات البحرية لم تقطع سوى شوط يسير منذ صدور الأمر بتجهيز الحملة على انجلترة . وكانت النغمة الظاهرة فى هذا التقرير أنه لا معدى عن تكبد أموال طائلة لإنجاز الاستعدادات اللازمة ، ولا مندوحة عن تنظيم البحرية الفرنسية ، وتجهيز عدد كبير من السفن وإعداد الموانى الشمالية ، واتخاذ غير ذلك من التدبيرات الملحة قبل الإقدام على الغزو المنتظر ، كجمع سفن المدفعية فى ميناءى دنكرك وأوستند قبل نهاية شهر مارس ، وإعداد خمس وعشرين بارجة من البوارج الثلاثين الراسية فى ميناء برست ، وتجهيز مثل هذا العدد من الفرقاطات وذلك فى خلال شهر واحد فحسب ، فضلا عن تدبير النفقات الاستثنائية اللازمة لجيش الغزو . حتى إذا تم ذلك كله كان من الميسور غزو انجلترة .

ثم اختتم بونابرت هذا التقرير بقوله : « فإذا تعذر تدبير الأموال اللازمة التى جاء ذكرها فى هذه المذكرة ، وصعب تنظيم البحرية الفرنسية بالسرعة المنشودة ، نظرا لضعف هذه البحرية البالغ فى الظروف القائمة ، فإن الواجب يقتضى حكومة الإدارة أن تتخلى عن مشروع غزو انجلترة ، وتكتفى بدلا من ذلك بالتظاهر بالمضى فى استعداداتها ، بينما توجه كل انتباهها ، وتجند كل ما لديها من وسائل ، لتنفيذ مشروعات أخرى ، إما بالزحف صوب الراين حتى تستولى من انجلترة على هانوفر وتنتزع هامبرج كذلك ، وإما بإرسال حملة إلى الليفانت حتى تعطل تجارة الهند ؛ فإذا اتضح أنه من المتعذر تنفيذ هذه المشروعات ، فالأفضل لفرنسا حينئذ أن تعقد الصلح مع انجلترة . »[١] وكان من الواضح أن بونابرت إنما يقصد من مشروع الليفانت إرسال الحملة إلى مصر لغزوها . كما كان من الواضح كذلك أن بونابرت بعد عودته

(١) Jonquière I. 172 — 6; Corresp. No. 2419

من رحلته التفتيشية بات يعتقد أنه من العبث محاولة غزو انجلترة فى عقر دارها ، وأن الواجب يقتضى فرنسا أن توجه أنظارها صوب (الشرق) ، وتسعى لغزو انجلترة بطريق غير مباشر ، هو تهديد مستعمراتها فى الهند ، وذلك بإرسال جيش كبير لفتح مصر والاستيلاء عليها[١] .

ومع ذلك فقد ظن كثيرون أن بونابرت إنما كان يبغى من تقديم تقريره السابق إلى حكومة الإدارة أن يستحث هذه الحكومة على إنجاز استعدادات (الحملة الكبيرة) بكل سرعة ، لأن بونابرت حتى ذلك الوقت ما كان يفكر فى التخلى عن مشروع غزو انجلترة[٢]. وعلى ذلك فإن تقرير كليبر ، عن زيارته لميناء الهافر والشاطىء الفرنسى ، لم يكد يرد حتى أصدرت حكومة الإدارة قراراتها فى جلستى ٢٤ و ٢٥ فبراير ١٧٩٨ بالعمل بمقترحات بونابرت من أجل إنجاز الاستعدادات اللازمة لغزو انجلترة[٣] ، غير أنه لم يمض أسبوع واحد على اتخاذ هذه الخطوة حتى كانت حكومة الإدارة قد بدأت تعدل بدورها عن مشروع الحملة الكبيرة ، وتفكر جدياً فى غزو مصر[٤] .

تقرير الحملة على مصر :

وقد تضافرت عوامل عدة لإقناع حكومة الإدارة بالعدول نهائياً عن الاقتصاص من انجلترا بغزوها فى بلادها ، وتوجيه جهودها نحو الشرق باعتباره خير ميدان ترسل إليه حملتها ، لا للانتقام من انجلترة فحسب ، بل ولإنشاء مستعمرة فتية فى مصر ، تصبح نواة لإمبراطورية استعمارية جديدة ، تعوض على فرنسا خسائرها الماضية فى الهند وأمريكا وجزر الهند الغربية . ذلك أن الرغبة فى غزو الإنجليز فى عقد دارهم ما كانت تطغى على اهتمام حكومة الإدارة بمسألة الاستعمار ، بل إن التفكير فى الاقتصاص من انجلترة كان يسير حثيثاً إلى جانب التفكير فى إحياء مجد الإمبراطورية الاستعمارية . ولم يكن القضاء على قوة الإنجليز وإرغامهم على قبول الصلح مع فرنسا ، وفق الشروط التى ترتئيها حكومة الإدارة ، ثم إحراز التفوق السياسى فى أوروبا ، سوى وسيلة لتحقيق أهداف فرنسا الاستعمارية[٥] ؛ وعلى ذلك فإنه بينما كان بونابرت يقوم برحلته التفتيشية فى الشواطىء الشمالية ؛ كانت حكومة الإدارة قد شرعت تدرس جدياً

(١) Marmont-Memoire I. 347
(٢) Jonquière I. 176
(٣) Jonquière I. 186; Corresp. No. 2421
(٤) Jonquière I. 184—5
(٥) Corresp. No. 2307

موضوع الاستعمار فى الشرق ، عند ما صارت تقدم إليها التقارير من كل جانب تدعوها إلى تقليب وجوه الرأى ، علها تصل سريعاً إلى قرار حاسم فى هذه المسألة الهامة .

وكان أول التقارير التى تلقتها حكومة الإدارة ذلك التقرير الذى قدمه شارل مجالون ، قنصلها القديم فى مصر . فقد تقدم كيف أن شارل مجالون كان قد طلب منذ ديسمبر ١٧٩٥ ، أن تأذن له حكومته بالحضور إلى باريس ، حتى يبسط لها مبلغ الأضرار التى لحقت بالتجارة الفرنسية على أيدى البكوات المماليك . فوافقت حكومة الإدارة على مجيئه إلى باريس فى ١٦ أغسطس ١٧٩٦ ، وغادر مجالون مصر فى منتصف العام التالى ، فبلغ باريس فى شهر أكتوبر ، أى فى الوقت الذى استلزم فيه عقد الصلح مع النمسا فى كمبو فورميو أن تتفرغ حكومة الإدارة لبحث موضوع الانتقام من انجلترا بحثاً جدياً . وفى ٩ فبراير ١٧٩٨ قدم مجالون تقريره المشهور إلى حكومة الإدارة (١) . وكان تقريراً طويلا تحدث فيه صاحبه بإسهاب عن نظام تلك الحكومة التى أنشأها السلطان سليم الأول فى مصر ، كما أخذ يعدد المساوىء التى شكا منها الفرنسيون فى عهد سيطرة البكوات المماليك من أيام على بك الكبير نفسه ؛ ويبين أهمية استيلاء بلاده على منتجات مصر وتجارتها ، ثم انتقل إلى إظهار الفوائد التى ينتظر أن تجنيها فرنسا من فتح مصر وامتلاكها ، وهى فوائد يمكن ايجازها فى احتمالين فإما أن يعمل الفرنسيون مباشرة من مصر على طرد الإنجليز من الهند عنوة وقسرا وإما أن يقنعوا بتعطيل تجارة الانجليز مع الهند ، ويستأثروا بهذه التجارة من دونهم . فإذا صح عزم الفرنسيين على طرد أعدائهم القدماء من الهند ، فالسبيل إلى ذلك سهل ميسور ، إذا أنشأ الفرنسيون عقب احتلالهم لهذه البلاد أسطولا صغيراً فى السويس يستطيع نقل الجند والإمدادات إلى شعوب المهراتا الثائرين على الانجليز ، وإلى تيو — صاحب سلطان ميسور ، فيشترك الفرنسيون فى النضال المستعر فى الهند ضد الإنجليز ، وينزلون باعدائهم هزائم بالغة حتى يقضوا على قوتهم نهائياً ، ويطردوهم من البنغال شر طردة . أما إذا قر رأى الفرنسيين على الاستئثار بتجارة الهند فحسب ، فالسبيل إلى ذلك أن تنشىء فرنسا ، عند استتباب الأمر لها فى مصر ، مراكز تجارية عدة فى القاهرة والاسكندرية ومرسيليا ، تكفل حرمان الانجليز بعد وقت قصير من تجارة الهند ، لأن الانجليز سوف يعجزون ولا شك عن مقاومة هذا النشاط التجارى الجديد بزعامة فرنسا .

---

(١) Magallon-Memoire 205 — 224

وبعد أيام قليلة من تقديم تقرير مجالون ، تلقت حكومة الإدارة تقريراً آخر من تاليران وزير خارجيتها عن مسألة « فتح مصر » ، أعده تاليران فى ١٣ فبراير ١٧٩٨ ، ثم طلب إلى حكومته عند ما عرضه عليها فى اليوم التالى أن تقطع برأى حاسم فى شأنه [١] . ويحتل هـذا التقرير مكانة كبيرة فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر ، نظراً لما بذله صاحبه من جهد ، عند ما أخذ على عاتقه أن يعرض العلاقات التى قامت من قديم الزمن بين فرنسا ومصر ، وأن يبسط الآراء التى نادى بها كثيرن ممن سبقوه فى الـكتابة فى أوقات مختلفة لإظهار مزايا امتلاك هـذه البلاد واستعمارها ؛ وذلك إلى جانب مسعى تاليران نفسه فى إقامة الحجة على أن الفرصة قد باتت سانحة لإرسال الحملة على مصر وفتحها . وفضلا عن ذلك فقد تضمن هذا التقرير ذكر كل تلك المبادىء التى استرشدت بها فرنسا فى سياستها الخارجية إزاء الباب العالى فى أثناء الغزو الفرنسى ، ثم عمل بونابرت نفسه ، ثم خلفاؤه من بعده ، على تنفيذها عند احتلال هذه البلاد ، وبدء التجربة الاستعمارية الجديدة ، أما تاليران ، فقد اعتمد عند إعداد هـذا التقرير على كل ما وقعت عليه يده من كتابة الرحالين الفرنسيين الذين زاروا مصر ، وخاصة (فولنى) كما اعتمد على تقارير شارل مجالون [٢] ؛ وليس من شك فى أن تاليران وحده كان صاحب هذا التقرير ، والمسئول عن كتابته ، على الرغم من ذيوع الاعتقاد بأنه كان لبونابرت يد فى إعداده [٣] .

وتحدث تاليران فى تقريره عن نظام الحـكم الذى أنشـأه العثمانيون فى مصر منذ عام ١٥١٧ ، وكان سبباً فى ضياع سلطتهم الفعلية واسـتبداد البـكوات بشئون البلاد ؛ ومسعى الباب العالى دون طائل لاسترداد سلطته المفقودة . وبسط تاليران القول فى شـكايات الفرنـسيين الذين أرهقهم البكوات المماليك ، وفى طليعتهم ابراهيم ومراد ، بمطالبهم المالية ، وفرض المغارم عليهم ، ومصادرة متاجرهم ونهبها ، وقد اشتط مراد وابراهيم فى إثقال كواهل الفرنسيين ، والتعسف فى معاملتهم ، منـذ نشوب الثورة الفرنسية الـكبرى — على حد قول تاليران — لنفور هذين الرجلين من (الثورة) ، وبسبب تحريض وكلاء الانجليز والامبراطورية (النمساوية) والبندقية ؛ ولم تفلح جهود الحـكومة الفرنسـية وجهود فرنيناك Verninac ، مندوبها فى القسطنطينية ، فى إزالة شىء من هذه المظالم . وخلص تاليران من ذلك كله إلى أنه قد بات من واجب

(١) Jonquière I. 154 — 168
(٢) Ibid I. 154
(٣) Rose-Cam. Mod. His. Vol. VIII. 596

حكومة الإدارة أن تأخذ على عاتقها تأديب البكوات المماليك بكل شدة (١) .

وقد ارتأى تاليران ، قبل أن يشير إلى الوسائل التى يجب اتخاذها لتأديب هؤلاء البكوات ، أن يتكلم عن « منتجات مصر وتجارتها » ، فذكر غلات البلاد الزراعية ، ووصف موقع مصر الجغرافى ، وبين أهمية هذا الموقع من الناحية التجارية ؛ إذ أنه أتاح لمصر أن تنشىء علاقات تجارية واسعة مع وسط إفريقية وشمالها وتركيا والشام وأرخبيل اليونان ؛ وكذلك مع أوروبا ، تلك القارة التى لا تبعد موانيها الهامة فى فرنسا وأسبانيا وإيطاليا عن مصر إلا بنحو ستمائة فرسخ . كما أنه كان باستطاعة مصر أن تنشىء بسهولة علاقات تجارية نافعة مع جدة واليمن والهند عن طريق البحر الأحمر . وما من شك فى أن انتقال الحكم من أيدى المماليك الطغاة إلى يد حكومة فرنسا الرشيدة ، سوف يعود بنفع عظيم على هذه البلاد ، إذ تتقرر حقوق الملكية ، ويطمئن الأفراد على أموالهم وأملاكهم ، والتجار على تجاراتهم ويسود الأمن والسلام ، ويعود استخدام الطريق البرى فى نقل تجارة الهند إلى سابق عهده ، ويهمل شأن طريق رأس الرجاء الصالح حول افريقية ، وهو طريق طويل يكلف استخدامه نفقات كثيرة ، فتجنى حكومة الجمهورية الفرنسية أرباحاً طائلة بفضل ما تجمعه من الضرائب الجمركية ، وما تحصله من بيع الأراضى ، لأن الحكومة هى وحدها صاحبة الأرض فى مصر .

وفضلا عن ذلك فإن احتلال مصر وإحياء طريق السويس البرى من شأنه أن يحدث انقلاباً فى تجارة أوروبا يلحق أضراراً عظيمة بانجلترة ، لأن هذه الدولة إنما تعتمد فى تأييد تفوقها السياسى فى أوروبا على تجارة الهند . وهى تجارة سوف تفقدها لامحالة عند إحياء الطريق البرى ، فى حين أن إحياء طريق السويس سوف يفيد حكومة الجمهورية دون سواها من الحكومات فائدة محققة ، بفضل احتلالها هذه البلاد وقربها منها ، ونشاط الفرنسيين وكفاءتهم المعروفة ، كما أن فرنسا حينذاك لن تهتم مطلقا بمصير طريق رأس الرجاء الصالح ، ولا يعنيها بقاء هذا الطريق ، وقد فقد أهميته فى حوزة الإنجليز أو حوزة غيرهم ، بل إن فرنسا سوف تجد من السهل عليها أن تضحى بطريق الرأس فى سبيل الوصول إلى عقد معاهدة الصلح مع انجلترة ، أضف إلى هذا أن الاستيلاء على مصر سوف يعوض على الجمهورية خسارتها فى أمريكا وفى جزر الهند الغربية (٢) .

---

(١) Jonquiére I. 154 — 8

(٢) Jonquiére I. 158 — 160

وتحت عنوان « شكاوى (الفرنسيين) ومسلك الباب العالى والدول المسيحية » تحدث تاليران عن الاعتراضات التى قد يثيرها المعارضون لمشروع غزو مصر وفتحها ؛ وأهمها ماسوف يلحق الفرنسيين أنفسهم من أذى فى تركيا إذا هم أقدموا على غزو أملاك الباب العالى ، كما أن احتلال مصر سوف يهدد بضياع تجارتهم فى بلاد المشرق (أو الليفانت) ، وقد لاتدع تركيا والدول الأوروبية الفرصة تمر دون إعلان الحرب على فرنسا . وانبرى تاليران يدحض هذه الحجج والدعاوى ، فقال إن تركيا وحدها المسئولة عن غزو مصر ، لأنها تركت الفرنسيين يتحملون أنواعاً من المظالم والمغارم الفادحة ، دون أن تحرك ساكنا ، ودون أن تعوضهم شيئاً عن تلك التجارات التى نهبت ، والأموال التى سلبت فى مصر خلال السنوات الخمس الماضية ؛ وفى هذا خرق ظاهر للقانون ، ومخالفة واضحة « لالتزامات الامتيازات » ودليل ناصع على أن العثمانيين باتوا لايبالون بتلك الحقوق التى فرضت الامتيازات عليهم احترامها فى أنحاء الامبراطورية العثمانية ؛ ولا ينبغى أن تخشى فرنسا ضياع تجارة الليفانت ، لأن هذه التجارة كانت قد أفلتت من يد فرنسا إلى أيدى الدول الأوروبية الأخرى ، منذ اشتعال الثورة الكبرى ، وانصراف الفرنسيين عن ميادين النشاط الخارجية . وفضلا عن ذلك فإن إقامة الحكومة الرشيدة المصلحة فى مصر سوف يضمن الثروة والرخاء للمصريين تحت الحكم الفرنسى ، فيزيد الاستهلاك المحلى تبعاً لذلك ، ويشتد الطلب على السلع الفرنسية على نحو يعوض على فرنسا ضياع تجارتها مع تركيا .

ولا شك فى أن تركيا سوف تتردد طويلا قبل إعلان الحرب على فرنسا ، لقرب ممتلكات الجمهورية من الولايات العثمانية فى المورة والبانيا ومقدونيا ، وهذه كلها جهات لايستمتع العثمانيون فيها بسلطان قوى ، بل تغلى فيها مراجل الغضب من الحكم التركى ، ويسود بين أهلها الاضطراب بسبب انتشار الآراء الجديدة ، ولا يشك تاليران فى أن تركيا سوف تفقد هذه الأقطار ، إذا هى أعلنت الحرب على فرنسا ، لرغبة اليونانيين الشديدة فى التحرر من نير العثمانيين والنضال فى سبيل الحرية . وعلاوة على ذلك فإن فرنسا ذاتها لاتريد بصورة من الصور أن تقطع علاقاتها مع تركيا ، بل على العكس من ذلك ، فإن الواجب يقتضى حكومة الجمهورية حين إرسال حملتها على مصر أن ترسل إلى القسطنطينية مفاوضاً لبقاً ماهرا يحفظ علاقات الود والصداقة مع تركيا ، واستبعد تاليران أن يؤلب العثمانيون الدول ضد فرنسا ، كما اعتقد أنه لايحق لفرنسا أن تخشى شيئاً من جانب انجلترة لأن الحرب القائمة بين الدولتين سوف تفيد فرنسا عند تقرير إرسال حملتها إلى مصر ، لأن انجلترة التى يقض مضجعها الخوف من نزول الفرنسيين

بأرضها ، إذا غزوها فى عقر دارها ، لن تجسر على إخلاء شواطئها من الجند ، والمجازفة بإرسال قواتها لتعقب « حملة » لايعرف أحد المكان الذى تقصده ، أو الوقت المحدد لقيامها من الشواطئ الفرنسية ، ذلك أن تاليران نصح بأن يظل مشروع هذه الحملة إذا استقر الرأى على إرسالها إلى مصر سراً مكتوما .

ولم يكن تاليران أيضاً يتوقع أن تظهر الروسيا وبروسيا والنمسا اهتماما كبيراً بمسألة غزو مصر ، ولما يمض طويل وقت على اشتراك هذه الدول الثلاث فى اقتسام بولنده فيما بينها نهائيا ؛ كما أنه لايحق لفرنسا أن تخشى شيئاً من جانب روسيا البعيدة ، أو من جانب بروسيا ، وهى دولة لامصلحة لها فى معارضة الغزو الفرنسى ، هذا إلى أن انشغال النمسا بعلاقاتها مع الأمراء فى ألمانيا ، وبإدارة شئون ممتلكاتها الجديدة على شواطئ الأدرياتيك ، سوف يصرفها عن التفكير فى امتشاق الحسام من جديد بعد حربها الأخيرة مع الجمهورية ؛ أضف إلى ذلك أن هذه الدول جميعها لن تقدم على إعلان الحرب ضد فرنسا ، خوفاً من ازدياد الارتباكات فى ممتلكاتها ، بسبب انتشار « روح الحرية » الجديدة بين الشعوب الخاضعة لها ، نتيجة لاشتعال الثورة الفرنسية الكبرى[١] .

وعلى ذلك فإنه لم يكن هناك مايدعو إلى خوف حكومة الإدارة من ظهور أية صعوبات ، أو حدوث مقاومة من جانب الدول ، قد تحول دون تنفيذ مشروع الغزو . وواجب هذه الحكومة الآن أن تتساءل عما إذا كان يحق لها أن تتوقع مقاومة جدية فى داخل مصر ذاتها . وللاجابة على ذلك أفرد تاليران جزءاً من تقريره لبحث « قوة المماليك العسكرية » ، وخلص من بحثه إلى أن « فتح هذه البلاد لن يكلف الفرنسيين نقطة دم واحدة » ، لأسباب عدة ، منها عداء المصريين الظاهر للبكوات المماليك ، حتى إنهم إذا أعطوا سلاحا لقتال الفرنسيين الغزاة استخدموا هذا السلاح فى قتال أولئك الذين طغوا فى حكمهم وبغوا عليهم . أما البكوات المماليك أنفسهم فكانوا ضعافا لايزيد عدد جيوشهم على سبعة أو ثمانية آلاف فارس . لايدرون شيئاً من أساليب الحرب وفنون القتال الحديثة ، وإن كانوا أصحاب فروسية وجسارة . فهم لايعرفون النظام ، ويجهلون استخدام المدفعية ، وسلاحهم قليل[٢] .

وقد تحدث تاليران بعد ذلك عن « وسائل تنفيذ » مشروع الغزو من حيث إعداد الرجال ، وتجهيز السفن اللازمة لحملهم إلى مصر ، وبيان الموانى التى تخرج هذه السفن منها ، ثم الجهات التى ينزل بها الجند فى الشواطئ المصرية . بل مالبث تاليران حتى

(١) Jonquière I. 160 — 162

(٢) Jonquière I. 162 — 163

فصل كذلك خطة الغزو العسكرية ، فأشار بضرورة الاستيلاء على رشيد بعد الإسكندرية لضمان السيطرة على مصب النيل ، ولإمكان نقل الجند والعتاد إليها بسهولة ، حتى إذا اجتمعت قوات الحملة فى رشيد انقسمت إلى فريقين ؛ يسير أحدهما فى النيل بينما يزحف الفريق الآخر براً بمحاذاة النيل صوب القاهرة ؛ ثم نصح تاليران بمطاردة المماليك عند التجائهم إلى الصعيد ، بعد هزيمتهم المنتظرة بالقرب من القاهرة ، وأشار بملاحقتهم حتى أسوان ، كى يتمكن الغزاة من فرض سيطرتهم على البلاد من الشواطئ الشمالية إلى أقصى الصعيد ، فيتسنى (للحملة) عندئذ أن ترسل الغلال وسائر المحصولات من الأقاليم المصرية إلى جنوب فرنسا وإلى جزر الأيونيان لتموينها ، ولما كان الاستعداد على الدوام ضرورياً للدفاع عن البلاد ، فقد طلب تاليران أن ينشئ الفرنسيون سلسلة من التحصينات على الحدود فى أبى قير والصالحية وأسوان[١] .

وفضلا عن ذلك فإن من مزايا احتلال مصر وتوطيد أقدام الفرنسيين فيها أن يستطيع هؤلاء تنفيذ رغبتهم القديمة بإرسال حملة من القاهرة والسويس لطرد الانجليز من الهند . واعتقد تاليران أن من السهل تحقيق ذلك لأن الانجليز لايملكون قوات كافية للدفاع عن أقطارهم الشاسعة فى هذه البلاد البعيدة ، حتى أنهم ليعجزون عن وقف هجوم الفرنسيين عليهم إذا أرسل هؤلاء حوالى خمسة عشر ألف جندى فحسب للانضمام إلى قوات تيبو صاحب سلطان ميسور . وأشار تاليران على حكومة الإدارة لضمان نجاح هذا المشروع بأن تسرع فى إرسال أسطول من السفن والنقالات إلى السويس ، تجلبها من الموانى الأوروبية ، أو من مستعمراتها فى جزيرتى (إيل دى فرانس) و (روينيون) كما أنه فى وسعها إذا خشيت ضياع الفرصة أن تستخدم السفن الآتية إلى السويس محملة بالبن من اليمن وجدة . وقد نصح تاليران كذلك بأن يبقى مشروع هذه الحملة سرا مكتوما ، حتى لايعمد الانجليز إلى تعطيله ، ومع ذلك فإنه مما يجدر ذكره أن تاليران لم يكن يهدف إلى استعمار الهند نفسها ، بل كان كل مايبغيه أن يتمكن مواطنوه من طرد أعدائهم منها . ذلك أنه إنما كان يهتم باحتلال مصر واستعمارها دون غيرها ، على اعتبار أن احتلال هذه البلاد يكفى وحده للسيطرة على تجارة الهند والشرق مادام قد تم إخلاء الهند من مستعمريها الانجليز . وقد اعتقد تاليران كذلك أن طرد الانجليز من الهند أمر لامفر منه فى النهاية إذا شاء الفرنسيون أن يظلوا مستمتعين بسيطرتهم على مصرذاتها ، بل ويكفى حينئذ للاحتفاظ بهذه السيطرة أن يظل

(١) Ibid I. 164 — 166

الزعماء الوطنيون من أهل مصر فى مناصبهم تحت رقابة الفرنسيين وسلطان حكومة الجمهورية (١)

واختتم تاليران هذا التقرير الهام بتدوين بعض « الملاحظات العامة » ، ولعل أهمها اقتراحه أن توضع لجنة مؤلفة من شخصين أو ثلاثة على رأس الحملة المرسلة لغزو مصر ، على شريطة أن يتميز أعضاء هذه اللجنة بالحكمة والحذر والإرادة القوية ، وأن يكونوا أصحاب معرفة — إن أمكن — بأحوال البلاد التى يذهبون لفتحها . ومع أن تاليران وضع فى أيدى أعضاء هذه اللجنة كل سلطة وسيطرة على الجيش ، فإنه لم يشأ أن يكونوا من القواد الماهرين ، لأن الفتح المنتظر لا يتطلب وجود العسكريين الأكفاء ، بل يجب أن يقود الحملة رجال أبرز صفاتهم الحكمة وأصالة الرأى ، وفى وسعهم أن يحملوا الفرنسيين قاطبة فى هذه البلاد على احترام تقاليد أهلها وعاداتهم وشعائرهم الدينية ، وكذلك موقفهم من المرأة ، فلا يصح أن يسلك الفاتحون مسلكا قد يجعل المصريين يعتقدون أنهم إنما استبدلوا ظلماً بظلم ، واستعاضوا عن شر بما هو شر منه ؛ أما السبيل السوى الى استمالة المصريين وكسب مودتهم فهو تبجيل علمائهم وشيوخهم واحترام أهل الرأى منهم لأن هؤلاء العلماء أصحاب سيطرة كبيرة على الشعب ، وتسلط عظيم على تفكيره ؛ وفضلا عن ذلك فإن الواجب يقتضى رجال الحملة أن يبذلوا قصارى جهدهم فى جذب الرؤساء القبط فى البلاد إليهم حتى يعرفوا منهم عدد القرى وتعداد السكان ومساحة الأراضى المزروعة ، وغير ذلك من الموضوعات المتصلة بالإدارة المالية ، وهى موضوعات لا شك فى أن القبط يجيدون معرفتها بسبب اضطلاعهم بتحصيل الإيرادات وجباية الضرائب وما إلى ذلك (٢)

وقد خلص تاليران من ذلك كله إلى تقرير حقائق أربع : أولها أن الإقدام على غزو مصر وفتحها وسيلة ظاهرة من وسائل الاقتصاص من الباب العالى الذى عبثت حكومته فى مصر بحقوق الفرنسيين ، وألحقت بهم أذى جسيما وإهانات بالغة ، وثانيها أن الفتح إذا تقرر سوف يكون سهلا ميسورا لا يعوقه خطأ ، ولا يخشى عليه أى عطل أو إخفاق ، وثالثها أن الفتح لن يتطلب نفقات باهظة ، ومن المنتظر أن تجد حكومة الجمهورية فى استغلال موارد البلاد ما يعوضها خيرا دون أى إمهال ، عن تلك النفقات التى تحملتها ، ورابعها أن فتح مصر سوف يعود بفوائد محققة لا حصر لها على جمهورية فرنسا (٣) .

(١) Ibid 165 — 166

(٢) Ibid 166 — 168

(٣) Ibid 168

هذا موجز تقرير تاليران المشهور ، ولا جدال فى أن التقرير إلى جانب ذلك العرض التاريخى البارع ، الذى مكن صاحبه من بسط أحوال البلاد منذ الفتح العثمانى إلى مجىء الحملة الفرنسية تقريباً ، قد رسم فى خطوط عريضة خطة العمليات العسكرية التى وجد بونابرت وقواده عند حضورهم إلى هذه البلاد أنه لا مناص من اتباعها ، إذا شاءوا دعم سيطرتهم فى مصر من شواطئها الشمالية إلى أقصى حدودها الجنوبية . كما أنه وضع قواعد تلك السياسة التى حاولت حكومته اتباعها فى علاقاتهم مع تركيا فى أثناء الغزو وبعده . وصحيح أن تاليران أخطأ عندما اعتقد أن مواطنيه لن يلقوا مقاومة من جانب المصريين، إذ قد ظل المصريون يناصبون الحملة العداء من وقت قدومها إلى وقت خروجها ، ولكنه استطاع من جهة أخرى أن يوضح معالم السياسة التى سار عليها بونابرت ورؤساء الحملة من بعده فى حكمهم البلاد ؛ تلك السياسة التى عرفت باسم السياسة الوطنية الإسلامية . ومع أن هذه السياسة الوطنية الإسلامية لم تفد شيئا فى استمالة المصريين إلى تأييد تجربة الفرنسيين الاستعمارية فى مصر ، فقد تضافرت عوامل عدة لتقويض أركان هذه السياسة ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يعد تاليران نفسه مسئولا عن إخفاقها .

وفضلاعن ذلك فقد دل هذا التقرير على أن صاحبه كان مايزال يعتقد كغيره وهم كثيرون أن فتح مصر لا يتطلب جهداً كبيرا ، وأنه سوف يفضى فى النهاية إلى هدم مركز الإنجليز فى الهند وطردهم منها ، وقد سبق أن قدم تاليران نفسه ثلاث « مذكرات » بهذا المعنى إلى حكومة الإدارة فى يوليو ١٧٩٧ ، أشار فيها إلى ضرورة التعاون مع أمراء الهند وسلاطينها ضد سيطرة الإنجليز فى بلادهم (١) ، كما تقدم غيره إلى حكومة الإدارة « بمذكرات » أخرى يشيرون على هذه الحكومة بأن تتخذ من التظاهر بإعداد حملة لغزو انجلترة ستاراً لإرسال أسطول يحمل جيشاً قوياً إلى الهند ، لطرد الإنجليز منها أو لفتحها(٢) على أن أهمية تقرير تاليران الأخير (١٣ فبراير ١٧٩٨) إنما تنحصر فى أن صاحبه استطاع أن يجمع فى بحث واحد بين الفكرتين معاً : فكرة فتح مصر ، وفكرة التدخل فى الهند ، فضلا عن أنه قد أبرز من ناحية أخرى تلك الفكرة التى ظل شارل مجالون يرددها فى تقاريره ، وهى اعتبار فتح مصر بمثابة خطوة ممهدة للتدخل فى الهند وطرد الانجليز منها ، والتمكن بفضل ذلك من القضاء على تجارتهم فى الشرق .

---

(١) Ibid 169

(٢) Charles-Roux. Origines 320 — 22

وكان من أثر اتفاق شارل مجالون وتاليران فى الرأى ، ومطالبتهما الحكومة بمحاولة فتح مصر باعتباره وسيلة ناجعة للاقتصاص من الانجليز بطردهم من الهند ، أن احتل موضوع غزو مصر مكانا من تفكير حكومة الإدارة ، على اعتبار أن إرسال حملة إلى هذه البلاد بات أمراً من المحتمل وقوعه ، إذ دلت الحوادث على أنه من المتعذر تنفيذ مشروعات حكومة الإدارة الأخرى ، التى سبق أن قطعت فيها هذه الحكومة برأى حاسم ، كالموافقة على إرسال حملة إلى مالطة (منذ أواخر سبتمبر من العام الماضى) ، وهى الحملة التى عرفت باسم (الحملة الصغيرة) La Petite Expédition [١] ، وكتدبير الانتقام من انجلترة ، وإرسال (الحملة الكبيرة) لغزو بلادها ، على أنه لم يكد يعود بونابرت من رحلته التفتيشية فى الشواطىء الشمالية ، ولم تكد توافق حكومة الإدارة على مقترحاته فى جلستى ٢٤ ، ٢٥ فبراير ١٧٩٨ ، حتى تبين لها بعد أيام قليلة أن الحملتين الصغيرة والكبيرة كلتيهما لا يمكن تنفيذهما . وكان مما قضى على مشروع الحملة الصغيرة وصول تقرير (بوسيلج) عن مالطة ، كما قضى تقرير (ديزيه) عن رحلته التفتيشية فى برست والشاطىء الشمالى على مشروع الحملة الكبيرة .

أما بوسيلج فقد استطاع الذهاب إلى مالطة على الرغم من تلك الأوامر التى بعث بها بونابرت إلى أخيه يوسف ، السفير الفرنسى فى رومه وقتئذ ، لمنع بوسيلج من القيام بهذه الرحلة[٢] ولكن هذه الأوامر وصلت متأخرة ، فبلغ بوسيلج (فالتا) فى ٢٤ ديسمبر ١٧٩٧ ، « وأخذ يمهد لاحتلال الجزيرة » ثم بعث عن نتائج مهمته تقريرا ضافيا إلى حكومة الإدارة من ميلان فى ٨ فبراير ١٧٩٨ ، فوصل التقرير بعد عودة بونابرت نفسه من رحلته التفتيشية إلى باريس بيومين أو ثلاثة أيام فحسب ، ومع أنه كان من رأى بوسيلج أن تسرع فرنسا باحتلال مالطة ، فقد وجد لزاما عليه أن يحذر حكومة الإدارة من الاعتماد على أية مساعدة داخلية من جانب الفرسان ، إذا هى قررت الاستيلاء على الجزيرة ، كما أن المالطيين أنفسهم سوف يلزمون خطة الحياد التام فى أثناء الفتح . ذلك أن الفرسان الفرنسيين ، ويبلغ عددهم نصف فرسان القديس يوحنا بالجزيرة ، ما كان فى وسعهم ، على الرغم من عطفهم الظاهر على فرنسا ، أن ينحازوا إلى جانب الجمهورية فى مشروع سوف يقضى عند نجاحه على جماعة الفرسان بأسرها ، ويسلبهم موارد رزقهم ، واقترح بوسيلج حلا

(١) Corresp. No. 2364

(٢) Jonquière I. 73

لهذه المشكلة أن تعمد الجمهورية إلى استخدام الأساليب الدبلوماسية ، كحمل البلاط الأسبانى فى مدريد على مصادرة أملاك الفرسان فى أسبانيا ، وإثارة الصعوبات فى وجه (هومبيش) رئيسهم ، أو إقناع البابا بحل جماعة الفرسان ، والاتفاق مع (هومبيش) نفسه حتى يتنازل عن مالطة لقاء إعطائه جزيرة صغيرة أخرى فى البحر الأبيض مدى الحياة . وفى خطاب بعث به إلى بونابرت طى تقريره وصف پوسيلج حال الأسطول الفرنسى الرابض فى مياه كرفو بقيادة الأميرال (برويس) ، وصفا لايدع مجالا للشك فى أنه لا يمكن الاعتماد على هذا الأسطول فى تنفيذ مشروع (الحملة الصغيرة) (١) .

وبعد أيام قليلة من وصول تقرير پوسيلج إلى باريس ، اجتمع بونابرت بقواده الذين أرسلهم إلى الشواطىء الشمالية ، وكان من أثر اجتماعه بالجنرال دزيه على وجه الخصوص (فى ٢٧ فبراير) أن زاد اقتناع بونابرت بأنه كان على حق عندما اعتقد أنه من المتعذر إرسال الحملة على انجلترة ، من غير أن يسبق ذلك اصلاحات واستعدادات واسعة فى الثغور الفرنسية . وهكذا أخفق مشروعا الحملة الصغيرة والحملة الكبيرة معاً وفى وقت واحد ، وتحتم على حكومة الإدارة أن تختار بين العمل ضد هانوفر وهامبورج ، أو إرسال حملة إلى الليفانت ، أو عقد السلام مع انجلترة على نحو مااقترح عليها بونابرت فى تقريره . وفى جلستى ١و٢ مارس ١٧٩٨ ناقشت حكومة الإدارة هذه المشروعات الثلاثة .

ومع أن معرفة مادار بهاتين الجلستين والجلسات التالية من مناقشات ما يزال متعذرا ، فالظاهر أن حكومة الإدارة مالبثت أن انتهت منذ يوم ٥ مارس إلى تقرير إرسال الحملة على مصر ، إذ من الثابت قطعا أن بونابرت قدم فى هذا اليوم نفسه إلى حكومة الإدارة مذكرة تحدث فيها بإسهاب عن وسائل تنفيذ مشروع « الاستيلاء على مالطة ومصر » فذكر أنه يكفى للاستيلاء عليهما إرسال حملة من خمسة وعشرين ألف جندى من المشاة ، وحوالى ألفين أو ثلاثة آلاف من الفرسان ، ينقلون إلى الشواطىء المصرية من موانى إيطاليا وفرنسا (٢) . وكان فى هذا اليوم نفسه أن صدر قرار حكومة الإدارة بإنجاز الاستعدادات العسكرية اللازمة وفق ما جاء فى مذكرة بونابرت عن « الاستيلاء على مالطة وعلى مصر (٣) » وقد كان لوصول

---

(١) Ibid 126 — 136

(٢) Jonquière I. 197 — 201; Corresp. No. 2426

(٣) Reybaud III 30 – 31; Ader 5 — 6

الأخبار إلى باريس وقتئذ بنجاح القوات الفرنسية (فى برن) (ورومة) أثر حاسم فى إقدام حكومة الإدارة على اتخاذ هذه الخطوة [١] .

ذلك أنه ما كان يتيسر تجهيز الحملة المزمع إرسالها إلى مصر دون إنفاق الأموال الطائلة ، وكانت حكومة الإدارة قد بدأت تشعر بالضائقة المالية خلال الحرب السابقة ، على الرغم من أن البلدان المقهورة ظلت تتحمل وقتذاك نفقات جيوش الجمهورية ، ولكن لم تكد الحرب تضع أوزارها وتتحطم المحالفة الدولية حتى زادت حدة الضائقة المالية . وظهرت هذه الصعوبات بصورة واضحة عند التفكير فى غزو انجلترة ، حتى إن الكثيرين من الفرنسيين ، الذين عقدوا العزم على الانتقام من انجلترة ، مالبثوا أن صاروا يجمعون التبرعات للحكومة ، وأصدرت الحكومة كذلك قرضا أهليا ، كما اتخذت قرارات عدة لمصادرة التجارة الانجليزية [٢] . غير أن ذلك كله لم يفد شيئاً فى انفراج الأزمة فلم يجمع من التبرعات مال كثير ، كما اكتتب القليلون فقط فى القرض الأهلى ، ولم تحصل الحكومة منه إلا ربع ما كانت تقدره ؛ كما تعذر تنفيذ بعض قرارات مصادرة التجارة الانجليزية . وكان إذن فى هذه الظروف أن أشار بونابرت بالتدخل فى شئون حكومتى برن السويسرية ورومة البابوية . ووافقت حكومة الإدارة ، على أمل أن تحصل على أموال طائلة من الناحيتين نتيجة لهذا التدخل . وقويت الرغبة فى التدخل خصوصا بعد انقلاب ١٨ فركتيدور (٤ سبتمبر) فاستطاع يوسف بونابرت ، السفير الفرنسى فى رومة ، أن يحرك فيها الاضطرابات ، ويستثير « الديموقراطيين » لمعارضة البابا بيوس السادس معارضة شديدة ، وفى ٢٧ ديسمبر ١٧٩٧ علا صياح الثوار مطالبين بالجمهورية ، وغادر السفير الفرنسى الفاتيكان ، وصدرت الأوامر إلى الجنرال برتييه Berthier بالزحف على رومه . وفى منتصف فبراير ١٧٩٨ أعلنت (الجمهورية الرومانية) ، واستولى الفرنسيون على نفائس الفاتيكان ، كما جردوا قصور النبلاء من نفائسها ، ولم ينج من هذا التجريد غير تلك القصور التى دفع أصحابها أموالا طائلة لإنقاذ مايملكون ، وسيطر الفرنسيون على مالية الحكومة البابوية ، وكان الغرض من ذلك كله — على نحو مايوضحه قول (برتييه) نفسه إلى بونابرت عند بدء الزحف على رومه — إعداد المال اللازم « لجيش انجلترة » [٣] .

وكما كان الغرض من الزحف على رومه الاستيلاء على النفائس وجمع الأموال ،

---

(١) Rose. Loc. Cit.

(٢) Jonquière I. 83 – 6

(٣) Rose-Ibid. 638

فقد كان الغرض من التدخل فى سويسرة الحصول على المال كذلك . فقد استطاع بونابرت منذ نوفمبر ١٧٩٧ أن يعمل على تحريك الثورة والاضطراب فى القاطعات السويسرية ، بالاتفاق مع الزعماء « الديموقراطيين » . وفى ٢٨ ديسمبر من العام نفسه قررت حكومة الإدارة التدخل فى سويسرة بصورة حاسمة . فدخل الفرنسيون البلاد فى أوائل العام التالى ؛ واحتل الجنرال برون Brune عاصمتها (برن) فى ٥ مارس عام ١٧٩٨ ، فانحل اتحاد سويسرة الكونفدرالى ، وأعلنت الجمهورية . وحصل الفرنسيون أموالا طائلة من القاطعات المختلفة ورجال الدين وأفراد الشعب السويسرى ، حتى بلغ ما جمعوه أكثر من ثلاثة وعشرين مليونا من الفرنكات ، عدا القدر العظيم من المؤن والذخائر وعتاد الحرب[١] . وعلى ذلك فقد أمكن بفضل هذه الأموال التى حصلتها حكومة الإدارة من رومة وسويسرة أن تقدم مطمئنة على تجهيز « جيش الشرق » المعد للنزول فى مصر . فقد أرسل الفرنسيون كل ما عثروا عليه وخاصة فى سويسرة من مؤن وذخائر وعتاد إلى طولون مباشرة ، وذلك لاستخدامه فى تموين (الحملة المصرية) .

وقد حدث فى أثناء ذلك كله أن آخر مشروعات الاستعمار ، التى كانت ما تزال تشغل أذهان أعضاء الإدارة وهيئات حكومتها الأخرى ، قد ظهر قصورها عن تحقيق أمانى الفرنسيين ورغباتهم . ذلك أنه تعذر على اللجنة التى كلفها مجلس الخمسمائة بحث مشروع ودستروم أن توافق على الاستعمار فى إفريقية الغربية ، بل إنها ما لبثت أن رفضت نهائياً هذا المشروع فى ١٢ ابريل ١٧٩٨ . وفى اليوم الذى وصلت فيه اللجنة إلى هذا القرار الحاسم كانت حكومة الإدارة من جانبها قد وصلت هى الأخرى إلى رأى قاطع بصدد الاستعمار فى مصر ؛ فأصدرت فى ١٢ ابريل ١٧٩٨ قرارها التاريخى بوضع « جيش الشرق » تحت قيادة بونابرت .

وكان هذا القرار يتألف من مقدمة وست مواد[٢] اشتملت المقدمة على الأسباب التى أقنعت حكومة الإدارة بارسال الحملة على مصر ، لعقاب البكوات المماليك أصحاب السيطرة على الحكومة فى مصر والذين أنشأوا صلات ودية وثيقة مع الانجليز . فأساءوا معاملة الفرنسيين ، ونهبوا أموالهم ، واعتدوا على أرواحهم ؛ كما أنه لما كان الانجليز قد استولوا بطريق الغدر والخيانة على رأس الرجاء الصالح ، وجعلوا استخدام هذا الطريق متعذرا على السفن الفرنسية ، فقد بات من واجب حكومة الجمهورية أن تبحث عن

---

(١) Jonquière I. 87; Rose-Ibid 639 — 40

(٢) Jonquière I. 343 — 44; Corresp. Nos. 2491,2495

طريق تجارى آخر . ونصت المادة الأولى على إعطاء بونابرت قيادة القوات البرية والبحرية اللازمة للاستيلاء على مصر ، ثم طلب إليه — فى (المادة الثانية) — أن يطرد الانجليز من ممتلكاتهم فى الشرق أو فى الجهات التى يستطيع الوصول إليها ، وأن يقضى على مراكزهم التجارية فى البحر الأحمر خاصة . كما طلب إلى بونابرت — فى (المادة الثالثة) أن — يشق قناة فى برزخ السويس ، وأن يبذل قصارى جهده حتى يبسط سلطان حكومة الجمهورية على البحر الأحمر . ونصت (المادة الرابعة) على أن يعمل قائد الحملة على تحسين أحوال أهل البلاد من المصريين وطلبت إليه الحكومة فى (المادة الخامسة) — أن يعمل على الاحتفاظ بعلاقات الود والصداقة مع السلطان العثمانى ورعاياه . ولما كانت حكومة الإدارة تريد أن يظل أمر هذه الحملة سراً مكتوما ، فقد نصت (المادة السادسة) والأخيرة من أوامرها على أن تظل هذه الأوامر غير مطبوعة .

وقد صدر قرار آخر فى نفس اليوم (١٢ إبريل) يتألف من مقدمة ومادتين [١] ؛ بسطت المقدمة الأسباب التى أقنعت حكومة الإدارة كذلك بالاستيلاء على مالطة ؛ وهى أسباب سبقت الإشارة إليها عند الكلام عن مسألة مالطة . ونصت مادتا هذا القرار على تكليف بونابرت بالقيام بمهمة احتلال الجزيرة ، وبقاء هذه الأوامر غير مطبوعة محافظة على سرية الحملة . على أنه مما يجدر ذكره أن حكومة الإدارة ما لبثت أن أصدرت فى اليوم نفسه كذلك قراراً أخيراً (فى ١٢ إبريل [٢]) ، تركت فيه للقائد العام أمر الفصل نهائيا فى مسألة احتلال مالطة ، وذلك لخوفها من أن يؤدى الاهتمام باحتلال مالطة الذى اعتبرته هذه الحكومة جزءاً من مشروع الحملة الرئيسى إلى تعطيل حركة الجيش ، ومنعه من تحقيق الغرض من إرساله ، وهو فتح مصر ذاتها والاستيلاء عليها .

غير أن صدور هذه القرارات لم يكن معناه وقتئذ أن بونابرت قد نبذ ظهريا فكرة غزو الانجليز فى بلادهم ، بل أنه كان ما يزال يعتقد ضرورة المضى فى الاستعدادات اللازمة لتجهيز الحملة ضد انجلترة ذاتها — (أى الحملة الكبيرة) — حتى إذا جاء الوقت الملائم استطاعت فرنسا أن تسير هذه الحملة عليها . بل إن هناك ما يثبت قطعاً أن بونابرت حين خروجه على رأس جيش الشرق إلى مصر كان يعتقد آمالا عظيمة على استطاعته العودة سريعا من هذه البلاد ، حتى يتولى قيادة الحملة ضد انجلترة ؛

(١) Jonquière I. 344 — 5; Corresp. No. 2496

(٢) Jonquière I. 355 (Not 1); Corresp. No. 2497

وآية ذلك تلك (المذكرات) التى بدأ يقدمها لحكومة الإدارة ، عقب صدور قرارها الأخير عن الحرب المزمعة ضد انجلترا [١] .

وكانت الاستعدادات قد بدأت لتجهيز الحملة المزمع إرسالها إلى مصر ، منذ أن وافقت حكومة الإدارة على مشروع بونابرت عن « الاستيلاء على مالطة وعلى مصر » فى ٥ مارس ؛ وقد سبق بيان كيف أرسلت الذخائر والمؤن وما إليها من عتاد الحرب الذى جمعه الفرنسيون فى سويسرة إلى طولون ، كما خصصت الأموال التى استولت عليها جيوشهم فى (برن) للانفاق على (الحملة المصرية) . وفضلا عن ذلك فقد عهد إلى بونابرت نفسه باختيار القواد والضباط والعلماء والمهندسين والجغرافيين ومن إليهم للذهاب معه فى هذه الحملة ، كما وضعت حكومة الإدارة الأميرال (برويس) وأسطوله تحت أوامره . وبذل بونابرت قصارى جهده لإنجاز استعداداته بسرعة . فألف لجنة كلفها بالتفتيش فى الموانى الإيطالية والفرنسية عن السفن الصالحة لنقل الجنود ، وبدأ الجيش يجتمع فى الشواطىء الجنوبية تحت اسم « الجناح الأيسر لجيش انجلترة » ، تضليلا للعدو . وطلب كثيرون من قواد جيش الرين الانضواء تحت لواء بونابرت فى هذه المغامرة الجديدة ، وإن كانوا قد ظلوا يجهلون المكان الذى تقصده الحملة . فكان من بين الذين عرضوا خدماتهم بليار وموررا ، وكفاريللى وغيرهم . ومع أن (برتييه) اعتذر فى أول الأمر عن قبول منصب رئيس هيئة أركان الحرب ، فقد بادر هو الآخر بالذهاب إلى طولون . وطلب منو أن ينضم إلى الجيش ، وأجابه بونابرت إلى رغبته على نحو ما سبق ذكره ؛ وظل الجنرال كليبر وحده لا يبدى اهتماما بما يحدث ، وينشد العزلة بعيدا عن هذا النشاط كله ، لعدم اطمئنانه من ناحية « المحامين » أعضاء حكومة الإدارة وحقده عليهم [٢] . حتى إذا حضر يوما لزيارة بونابرت ، ووثق من استطاعة بونابرت أن يمنع هؤلاء « المحامين » من تعطيل الحملة التى اعتقد كليبر أن الغرض منها لم يكن سوى النزول فى انجلترا لغزوها ، بادر بالموافقة على الذهاب معه .

واجتمعت السفن المعدة لنقل الجيش والمؤن والعتاد فى موانى طولون وجنوه وأجاكسيو . وسيفيتا فيكيا تحت إشراف ديزيه Desaix ودونزيلو Donzelot فى سفيتا فيكيا وبرجوى ديلييه Baraguey d'Hilliers فى جنوه ، وفوبوا Vaubois

(١) Jonquière I. 350 — 2; Corresp. No. 2502

(٢) Reybaud III. 33

فى أجاكسيو . واستطاع هؤلاء أن يجمعوا مدفعية كبيرة ونحو ألفين وخمسمائة فارس ، وإن كان عدد الخيول التى جهزت للابحار مع الحملة لم يزد على ثلثمائة على أمل أن يجد سائر الفرسان خيولا عربية فيما بعد فى مصر ذاتها .

أما بونابرت فقد ظل يشرف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة من مقره فى باريس ، وكان أهم ماعنى به تنظيم الخدمة الطبية ، فعين (ديجنت Desgenettes) رئيساً لأطباء الحملة ، و (لارى Larrey) رئيساً لجراحيها . وعهد إليهما بتنظيم الخدمة الطبية ، واختيار الأطباء اللازمين لمرافقة (جيش الشرق) وتجهيز الأدوات الطبية والعقاقير والآت الجراحة وما إليها ، وإعداد سفن المستشفيات . وفضلا عن ذلك فقد أشرف بونابرت بنفسه على تأليف لجنة من العلماء عرفت باسم لجنة العلوم والفنون ، سوف يأتى الكلام عنها فى حينه . فكلف بونابرت كلا من مونج وكفاريللى وبرتييه والجنرال أندريوسى Andréossy جمع العلماء والجغرافيين والفنانين والرسامين . كما كلف مارسيل Jean Joseph Marcel جمع كل ما يمكنه العثور عليه من حروف الطباعة العربية واليونانية فى باريس ، بل طلب إليه أيضا أن يذهب إلى رومة حتى يأتى بحروف مطبعة (البروبجاندا) الكاثوليكية — مقر الرسالات التبشيرية الأجنبية — وكان الباباوات قد أسسوا (البروبجاندا) فى القرن السابع عشر . غير أن بونابرت توفيراً للوقت مالبث أن كتب فى ٧ إبريل ١٧٩٨ إلى (مونج) فى رومة أن يقوم بهذه المهمة (١) . ونشط العمل فى باريس لصنع كل ما يحتاج إليه الرياضيون وعلماء الطبيعيات والكيمياء من أجهزة وأدوات .

وفى ٢٣ إبريل كان بونابرت على وشك مغادرة باريس إلى طولون ، عندما حدث فجأة أن وصلت الأخبار إلى باريس عن إهانة برنادوت Bernadotte السفير الفرنسى على يد بعض الجماهير الصاخبة فى فينا ، واضطراره إلى مغادرة العاصمة النمساوية ، فخشيت حكومة الإدارة أن يؤدى هذا الحادث إلى فصم علاقاتها مع النمسا ، فطلبت إلى بونابرت البقاء فى باريس ، كما أصدرت أوامرها بوقف إنزال الجنود إلى السفن فى طولون ، بل ورغبت فى أن يذهب بونابرت نفسه إلى (رشتاد) ليطلب من النمسا ترضية عن هذه الإهانة . ولكن بونابرت رفض الذهاب إلى (رشتاد) ونصح بالتريث والتأنى ، ثم بادرت النمسا بالاعتذار عن الحادث ، وهدأت الزوبعة وغادر بونابرت باريس إلى طولون فى ٣ مايو ١٧٩٨ ، فوصلها بعد ستة أيام ، تصحبه

---

(١) Corresp. No. 2479

جوزفين زوجه ، وفى معيته بوريين Bourienne سكرتيره [١] .

ومنذ أواخر إبريل كان سائر كبار قواد الحملة قد حضروا إلى مراكزهم ، فكان رينيه Reynier فى مرسيليا ، ودوجا Dugua فى طولون ، وكليبر Kléber فى (سين) Seine ، وهى بلدة صغيرة قريبة من طولون . ثم كتب بونابرت إلى ديزيه ، وبرجوى ديلييه ، وفوبوا ، لكى ينضموا بوحداتهم ، فى سيفيتا فيكيا وجنوه وأجاكسيو إلى أسطول الحملة الذى تسلم الكونتر أميرال برويس قيادته . وفى ١٩ مايو ١٧٩٨ خرجت الحملة من طولون ، وفى الأيام التالية انضمت إليها سائر السفن التى حملت القوات المجهزة فى جنوة وأجاكسيو ، ثم انتظرت الحملة عند كورسيكا قوات (ديزيه) الخارجة من سيفيتا فيكيا ، ولكن ديزيه خرج بقافلته رأسا إلى شواطىء صقلية ، ومنها إلى مالطة ، وانتظر فى مياهها وصول الحملة .

(١) Reybaud III 32 — 40 : 43

الفصل الثالث

غزو مصر

الاستيلاء على مالطة :

وصلت العمارة الفرنسية إلى شواطىء مالطة فى ٩ يونيه ١٧٩٨ ، فساد الرعب والارتباك أنحاء الجزيرة ، وطلب بونابرت إلى (هومبيش) رئيس الفرسان أن يأذن بدخول السفن إلى الميناء ، ولكن (هومبيش) رفض أن يسمح لأكثر من أربع سفن بالدخول ، اعتماداً على أن مالطة كانت فى سلام مع فرنسا ، وأن قوانين الحياد ما كانت تبيح له أن يفعل غير ذلك ؛ ثم عمد هومبيش فى الوقت نفسه إلى تهيئة سبل الدفاع عن الجزيرة . فاتخذ بونابرت من مسلك رئيس الفرسان ذريعة لغزو مالطة وإخضاعها ، فأعد انذاراً اتهم فيه جماعة فرسان القديس يوحنا الأورشليمى بأنهم يمالئون الانجليز أعداء الجمهورية ، ويمدونهم بالمؤن ، ويعمل ملاحوهم فى سفنهم ، بينما هم لا يقيمون وزنا لأوامر حكومة الجمهورية (١) . وبادر بونابرت بإنزال الجند إلى البر ، وكلف الجنرال (رينيه) Reynier بالاستيلاء على جزيرتى جوزو Gozo وكومينو Cumino ، كما كلف فوبوا ولان Lannes وديزيه ومارمون Marmont بغزو مالطة . فتقهقرت جموع المالطيين دون نظام إلى فالتا ، ولم يبد هومبيش أى اهتمام بالدفاع عن الجزيرة ، بل ظل معتزلا فى سرايه ، حتى طلب إليه أهل الجزيرة فى منتصف ليل ١٠ يونيه أن يسلم مالطة إلى الفرنسيين . وفى صبيحة اليوم التالى كان قد انقطع إطلاق المدافع من الحصون (٢) . وفى ١٢ يونيه سلم الفرسان مالطة إلى بونابرت وتنازلوا لفرنسا عن سيادتهم على الجزيرة ، كما تنازلوا عن جميع أملاكهم فى مالطة وجوزو وكومينو لقاء أن يتعهد الفرنسيون من جانبهم باستخدام نفوذهم فى مؤتمر رشتاد Rastadt الذى ظل منعقدا منذ نوفمبر من العام الماضى ، لتقرير السلام النهائى بين فرنسا والامبراطورية ، وذلك حتى ينال هومبيش إمارة فى ألمانيا

---

(١) Corresp. No. 2629

(٢) Reybaud III 84 — 95

تعويضا له عن فقد مالطة ، كما وعد الفرنسيون بتعويضه عن الأضرار التى لحقت بممتلكاته فى الجزيرة ، وبأن يدفعوا له معاشا سنويا كبيراً ، وسمحوا بعودة الفرسان الفرنسيين إلى الوطن أو أن يظلوا بالجزيرة إذا شاءوا البقاء بها على أن يتمتعوا بحقوق المواطنين الفرنسيين (١) . وفى نفس اليوم الذى أبرم فيه هذا الاتفاق نزل بونابرت فى مالطة ثم دخل عاصمتها فى اليوم التالى (٢) .

وأقام بونابرت بهذه الجزيرة خمسة أيام ، استطاع فى أثنائها أن يضع لها دستوراً جديداً ، وينظم حكومتها ، ويجرى ترتيبات إدارية ومالية عدة على أنقاض (النظام القديم) ، ووفق المبادىء والتعاليم التى نادت بها (الثورة الكبرى) . فأنقصت امتيازات الكنيسة ، وحولت أملاك الفرسان إلى أملاك أهلية ، وألغى الرق كما ألغيت محكمة التفتيش ، وأزيلت ألقاب النبل والشرف ، وأعيد تنظيم التعليم ، وأنشئت المستشفيات ، وأعلنت المساواة بين الأهالى أمام القانون (٣) . وأمر بونابرت هومبيش بمغادرة الجزيرة ، فأبحر إلى تريسته ، كما طلب إلى فوبوا أن يرسل إلى المنفى فى رومة كلا من قنصلى انجلترة وروسيا . وهكذا لم تمض أيام قلائل على نزول بونابرت فى مالطة حتى كانت قد انحلت جماعة الفرسان بالجزيرة ، واندمجت مالطة ذاتها فى فرنسا اندماجا كلياً (٤) .

الوصول إلى مصر :

وفى صبيحة يوم ١٩ يونيه غادرت الحملة مالطة فى طريقها إلى الشواطىء المصرية بعد أن ترك بونابرت (سانت جان دانجلى Saint Jean d'Angely) قوميسيراً فرنسيا عاما بالجزيرة ، وترك الجنرال (فوبوا) مع أربعة آلاف رجل لحماية (فالتا) عاصمتها (٥) ولما كان بونابرت يخشى أن يفاجىء الأسطول الانجليزى العمارة الفرنسية فى أثناء سيرها ، فقد عمد إلى تغيير اتجاهه ، وأبحر صوب كريت بدلا من الابحار مباشرة صوب الاسكندرية ؛ وفى مياه كريت علم بونابرت أن نلسن Nelson ، أمير

---

(١) Grenfell 28 — 29 (Convention of 12 June); Corresp. Nos. 2636,2637

(٢) Desvernois 100

(٣) Jonquière I. 621 — 50; Corresp. Nos. 2643 — 44 — 68 — 70 — 95 — 96 — 97 — 98

(٤) Corresp. Nos. 2651 — 67 — 68 — 2700; Corresp. Inédite I. 173

(٥) Desvernois 101; Reybaud III 104

البحر الانجليزى ، كان لا يزال يجد فى أثره ، فاستمرت العمارة فى سيرها بكل سرعة إلى الاسكندرية . وما إن قربت من الشواطىء المصرية حتى أرسل بونابرت الفرقاطه (جينون) Junon فى ٢٧ يونيه لتنقل إلى الفرنسيين بالاسكندرية أنباء وصول الحملة وحتى تأتى بالقنصل الفرنسى من الثغر ، فنجحت (جينون) فى مهمتها ، وأحضرت السيد مجالون الذى تولى أعمال القنصلية فى الثغر بدلا من شارل مجالون عمه . وأخبر مجالون بونابرت بأن أسطولا انجليزيا بقيادة نلسن زار الاسكندرية قبل ذلك بثلاثة أيام فقط ، ثم غادرها للبحث عن العمارة الفرنسية فى مياه أزمير ، كما وصف الأخطار التى يتعرض لها (الإفرنج) بالمدينة بسبب تعصب الأهلين ضد المسيحيين (١). وأزعجت هذه الأخبار بونابرت ، إذ خشى عودة نلسن إلى المياه المصرية ، فقرر النزول إلى الشاطىء وأذاع بين جنوده لأول مرة المكان الذى كانت تقصده الحملة ، فطبعت مطبعة مارسيل على ظهر بارجة القيادة (أوريان) L' Orient منشوراً من القائد العام إلى جيشه فى يوم ٣٠ يونيه عرف الجند منه على وجه التحقيق أن مصر هى هدفهم (٢).

وفى أول يوليه أمر بونابرت بأنزال الجند إلى البر . وكانت العمارة قد رابطت بالقرب من مرابط وبرج العرب . وانتقل بونابرت من البارجة أوريان إلى سفينة صغيرة ، حتى يشرف بنفسه على عملية نزول الجند . ولم يمنع الظلام الحالك وهبوب العواصف القوارب من نقل الجند إلى مرابط ، وكانت حماسة الجند عظيمة . وكان الجنرال منو أول من لمست قدماه أرض مرابط ، يتبعه القائدان بون Bon ، وكليبر ؛ وبعد جهاد عنيف استمر ست ساعات تمكن جنود منو وبون وكليبر ورينيه وديزيه — وهم رؤساء أقسام الجيش الخمسة — من النزول إلى البر ، وما إن علم بونابرت فى الساعة الواحدة من صباح اليوم التالى بأن الجيش المعد للزحف على الإسكندرية قد تم نقله إلى الشاطىء حتى نزل هو الآخر إلى البر ، ولما كان قد أنهكه التعب فقد تدثر بمعطفه ، ونام على الرمال مدة ساعتين ، وفى الساعة الثالثة صباحا استعرض الجيش ، وكان عدد الجنود الذين استطاعوا النزول حتى ذلك الوقت خمسة آلاف ، منهم ألف من جند (كليبر) وألف وخمسمائة من جند (بون) وألفان وخمسمائة من جند منو . تنقصهم المدفعية والخيول ومع ذلك فقد أصدر بونابرت أوامره بالزحف على الإسكندرية . فزحف الجيش بحذاء الشاطىء ، وكان منو يتولى قيادة الجناح الأيسر ، وبون الجناح الأيمن ، بينما تولى كليبر قيادة القلب ، وفاجأ البدو وجماعة من المماليك مقدمة الجيش الزاحف ، ولكنهم

---

(١) Reybaud III. 114 — 5; Dogureau 49

(٢) Reybaud III. 112 — 4

ما لبثوا أن ارتدوا سريعا ؛ وعند بزوغ الشمس كان الجيش قد بلغ الاسكندرية . وصمم حاكمها السيد محمد كريم على مقاومة الفرنسيين والدفاع عنها .

ورتب بونابرت جيشه استعدادا للهجوم على الإسكندرية ، فكلف الجنرال منو الهجوم عليها من الجهة الغربية ، بينما يقتحم الجنرال كليبر باب رشيد ويزحف الجنرال بون صوب عمود السوارى . وأبدى منو فى أثناء الهجوم شجاعة فائقة ، فكان فى طليعة جنده الذين حاولوا اقتحام أسوارها ، وأرغم ثلاث مرات على الارتداد عنها ، وأصيب بجراح عديدة ، ولكنه كان لايكاد يسقط من أعلى الأسوار حتى يعاود الكرة مرة أخرى وأخيراً نجح فى اقتحامها ، وأصيب الجنرال كليبر كذلك بجرح فى جبهته ، ولكن جنده سرعان ما اكتسحوا جموع الأهلين والانكشارية والعربان الذين حضروا للدفاع عن المدينة ، واستطاع بون ومارمون اقتحام باب رشيد[١] . ومع ذلك فإنه ما إن اقتحم الفرنسيون الأسوار حتى « رجع أهل الثغر إلى التترس فى البيوت والحيطان »[٢] وصاروا يطلقون النار على الفرنسيين من النوافذ ، وكاد بونابرت نفسه يصاب بطلق نارى فى أحد شوارع المدينة الضيقة عند دخوله الإسكندرية . غير أن هذه المقاومة لم تستمر سوى ساعات قليلة[٣] .

احتلال القاهرة :

ولما كان كليبر ومنو لا يزالان يشكوان من جراحهما ، فقد ترك بونابرت كليبر حاكما على الإسكندرية ، كما قرر أن يعهد إلى الجنرال منو بالحكم فى رشيد عند الاستيلاء عليها ، وانتقلت قيادة جيشه إلى الجنرال فيال Vial ، وفى مساء ٣ يوليو بدأ الزحف على القاهرة . فأرسل بونابرت دوجا للاستيلاء على رشيد ، وإعداد حملة نيلية تسير فى النيل حتى تلتقى عند الرحمانية بسائر الجيش الزاحف برا . كما أرسل (برى) Perrée ، مع أسطول صغير من المراكب الخفيفة ، إلى مصب النهر للدخول فى النيل عند استيلاء درجا على رشيد . وبدأ الجيش زحفه فى طريق الصحراء الشاق إلى القاهرة . فاجتمعت مختلف الفرق فى دمنهور يوم ٧ يوليو ، وفى هذا اليوم نفسه غادر بونابرت مع هيئة أركان حربه الإسكندرية ، ثم استأنف الجيش زحفه من دمنهور إلى الرحمانية ، ثم إلى شبراخيت وبالقرب من شبراخيت اشتبك الفرنسيون مع فرسان مراد بك فى معركة حامية (١٣ يوليو) لم يلبث أن انهزم فيها مراد

---

(١) Reybaud III 122 — 8
(٢) الجبرتى ٣ : ٣
(٣) Ader 25 — 30

واضطر إلى التقهقر صوب القاهرة . وكان فى هذه المعركة أن شكل بونابرت جيشه فى هيئة مربعات خمسة ، حتى يدفع عنه غائلة فرسان المماليك (١) . ثم واصل الجيش زحفه على القاهرة .

ولم يكن هذا الزحف « نزهة عسكرية » ، بل لقى الجند فى أثنائه شدائد وصعوبات كثيرة ، حتى سرت بينهم روح استياء خطيرة ، وكان أشد الناقمين أولئك الذين رسخ اعتقادهم من ذلك الحين بأن فولنى ، وسافارى وغيرهما ، من الرحالين الفرنسيين الذين زاروا هذه البلاد ، ووصفوا خصوبة أرضها ، ووفرة خيراتها ، واعتدال مناخها ، وما كان بها من مدن جميلة ، قد غرروا بمواطنيهم الذين صدقوا هذه الأكاذيب وآمنوا بها . فكان هذا الاستياء منشأ ذلك الانقسام ، الذى استفحل أمره فيما بعد بين أنصار الاستعمار فى مصر ، والراغبين فى الجلاء عنها . فأفصح كثيرون من ضباط الحملة عن هذا الاستياء ، خصوصاً فى تلك الخطابات التى بعثوا بها إلى ذويهم فى فرنسا ، ووقعت فى أيدى أمراء البحر الانجليز بعد ذلك . فكتب (بوابيه) Boyer فى ٢٨ يوليو: « أنه لا يكاد الإنسان يخرج من الاسكندرية لاعتلاء النهر حتى يلقى صحراء قاحلة تنبسط رحابها أمامه ، كما تنبسط كف اليد ، لايعثر فيها المرء إلا على بئر ملحة ، بعد أن يقطع كل مرة أربعة فراسخ أو خمسة ، ومن السهل إدراك ما يكون عليه حال جيش يرغم على اجتياز المساحات الواسعة من الأرض المقفرة ، دون أن يجد الجند مأوى يلجئون إليه فرارا من القيظ الشديد الذى لا يحتمله أحد . أما الجنود فكان كل فرد منهم يحمل من المؤن ما يكفيه خمسة أيام بتمامها ، إلى جانب جرابه وكسائه ، وكان الكساء رداء من الصوف الثقيل .

« ولهذا لم يكد يواصل الجنود سيرهم ساعة واحدة فقط حتى أنهكهم القيظ ، وشرعوا يتخلصون من أحمالهم الثقيلة ، بإلقاء مؤنهم ، لا يفكرون إلا فى يومهم فحسب ، ولا يأبهون لما قد يصيبهم فى غدهم . ثم استبد بهم الظمأ ، ونال منهم الجوع ، فلم يجدوا ماء يشربونه ، أو طعاماً يأكلونه ، وهكذا تميز هذا الزحف بوقوع الكوارث الكثيرة ، فسقط الجنود من الإعياء بسبب الحر والعطش ، وأطلق آخرون الرصاص على أدمغتهم ، يدفعهم إلى ذلك تأثرهم بما كانوا يشاهدونه من حال زملائهم ، وألقى فريق ثالث بأنفسهم ، وكل ما يحملون من عتاد وأسلحة فى النيل ، فماتوا غرقا ، وتكررت هذه المآسى كل يوم من أيام هذا الزحف .

« ومما يدعو للأسى حقاً أن الجند خلال زحف استمر سبعة عشر يوماً ما كانوا

---

(١) Reybaud III 197 — 182

يجدون خبزاً يأكلونه ، بل اعتمدوا فى غذائهم على الشمام والبطيخ ، وما كانوا يعثرون عليه من الدجاج وبعض الخضروات ، وشارك القواد الجنود هذا النوع من الطعام ، حتى إن بونابرت نفسه ما كان يستطيع فى أكثر الأوقات أن يحصل على غير وجبة واحدة كل ثمانى عشرة أو أربع وعشرين ساعة ، لأن الجنود كانوا يسبقونه فى الدخول إلى القرى ، ينهبون كل ما تصل إليه أيديهم ، فلا يجد القائد العام عند حضوره شيئاً ، ويضطر إلى الرضا بالقليل الذى يمكنه العثور عليه فى هذه القرى[1] » .

وشكا غير بوابيه كثيرون . وكان أهم ما أزعج هؤلاء على ما يبدو حرمانهم النبيذ ، إذ منعهم بونابرت من شربه تنفيذاً لتلك السياسة الإسلامية التى صح عزمه على اتباعها من اللحظة الأولى كما سيأتى ذكره . فاستبد بهم العطش ، وخدعهم سراب الصحراء ، فزاد فى إيلامهم ، وسقط كثيرون صرعى بفعل الشمس فى رءوسهم ، وجعل الهذيان فريقا من الجند ينشدون التخلص من الحياة بإطلاق الرصاص على أنفسهم ، وبذل الأطباء والجراحون ، وعلى رأس هؤلاء الأخيرين لارى Larrey قصارى جهدهم لإنقاذ هؤلاء البائسين ، وعظم يأس القواد حتى بلغ من عظيم غيظهم أن ألقى دوماس Dumas ولان Lannes وموراً Murat بقبعاتهم على الرمال ، وصاروا يعلنون سخطهم على حكومة الادارة دون حرج أو اكتراث ، ويتهمون جميعاً هذه الحكومة بأنها إنما أرسلتهم إلى مصر للتخلص منهم ، وينعون على بونابرت أنه قبل أن يقع فى حبالهم كما يفعل أى صبى صغير[2] .

واعترف بونابرت نفسه بمبلغ ما تكبده الجنود من مشقات عظيمة فى أثناء هذا الزحف المضنى ، حتى بات لايزيدهم وعد قائدهم بالوصول إلى القاهرة بعد قليل إلا حزنا وكآبة . وكان مما زاد فى صعوبات الجند الزاحفين أن العربان ظلوا يتعقبونهم ، يقتلون الجنود المتخلفين ، ويفاجئون الجيش بهجوم خاطف ، الأمر الذى جعل بونابرت يعمد إلى تقسيم جيشه إلى خمسة مربعات ، يتألف كل ضلع من ضلوعها من ستة صفوف ، فاتخذ العلماء والجرحى ومن إليهم مكانهم وسط هذه المربعات ، بينما وضعت المدفعية بينها . وقد احتفظ الجيش بهذا النظام حتى فى أوقات راحته . وأفاد نظام المربعات فى كسب موقعة شبراخيت .

وفى ١٩ يوليو وصل الفرنسيون إلى أم دينار ، على مسافة خمسة عشر ميلا من

---

(١) Simon 152 — 181; Larchey 39 — 43

(٢) Reybaud III. 165

بلدة الجيزة ، وفى ٢١ يوليو اشتبكوا ، مع قوات المماليك بقيادة مراد بك ، فى معركة امبابة أو الأهرام الفاصلة [١] . وحلت الهزيمة بمراد ، فانسحب بفلول جيشه إلى الصعيد . أما ابراهيم ، الذى وقف بجيشه على ضفة النيل اليمنى عند بولاق ، ولم يحرك ساكناً ، للاشتراك فى المعركة ، فقد حمل أمواله ونفائسه ، وقصد مع جماعته إلى بلبيس فى طريقه إلى الشام ، وقد صحبه أبو بكر باشا نائب السلطان فى حكم مصر ، ولما كان البكوات قد تركوا القاهرة دون اتخاذ أى إجراء للدفاع عنها ، فقد ساد الذعر وعم الاضطراب القاهرة ، وقرر المشايخ والعلماء تسليم المدينة ، فأرسلوا الرسل إلى بونابرت ، وكان لا يزال بالجيزة ، يستفسرون عن مقاصد الفرنسيين ، ويطلبون « أماناً » منهم لبعث الطمأنينة فى نفوس القاهريين ، وأجاب بونابرت رغبتهم ، فذهب المشايخ لمقابلته [٢] ، وفى ٢٤ يوليو دخل بونابرت القاهرة ، بعد أن احتل جزء من الجيش مصر القديمة وبولاق والقاهرة ذاتها . ووقف ديزيه على مسافة فرسخين من الجيزة فى طريق الصعيد ، وأرسلت القوات لحراسة طريق الشام [٣] ، وفى ٢ أغسطس بدأت مطاردة الفرنسيين لقوات ابراهيم بك ، وأرسل بونابرت الجنرال رينيه لتعزيز طلائع الجيش الزاحف فى الشرقية ، بقيادة الجنرال لكليرك Leclerc ، فاحتلوا الخانكة ، ثم قصد بونابرت نفسه إلى بلبيس ، فبلغها فى يوم ٩ أغسطس ، ولكنه لم يجد بها إبراهيم بك الذى غادرها إلى الصالحية . وفى ١١ أغسطس اشتبك الفرنسيون مع ابراهيم بك فى معركة بالقرب من الصالحية ، فأظهر فرسان المماليك براعة وجسارة فائقة ، حتى كاد النصر يفلت من بونابرت ، لولا أن وصلت إليه النجدات سريعا ، وقد ساعده انشغال ابراهيم برد اعتداء العربان على متاعه فى احراز نصر كلفه جهداً بالغاً . فانسحب ابراهيم إلى سينا ، وعاد بونابرت إلى القاهرة . وفى أثناء عودته إلى القاهرة بلغه فى ١٣ أغسطس نبأ تحطيم الأسطول الفرنسى فى واقعة أبى قير البحرية .

وكان (برويس) قد أبحر بأسطوله من مياه الإسكندرية إلى أبى قير فى ٧ يوليو ، وذلك بعد أن أصر بونابرت على استبقاء الأسطول فى الشواطىء المصرية ، ووجد برويس أنه من المتعذر على بوارجه دخول ميناء الأسكندرية القديم . وفى خليج

---

(١) Corresp. No. 2834; Langlois 12 — 25; Reybaud III. 195 — 205
ثم انظر تفاصيل هذه المعركة من الناحية العسكرية فى كتابنا « الحملة الفرنسية وظهور محمد على » صفحات ١٣٨ — ١٤٠

(٢) الجبرتى ٣ : ١٠ ؛ Reybaud III. 211 — 14

(٣) الجبرتى ٣ : ١١ ؛ Corresp. Nos. 2834,2835; Reybaud III. 216 — 7

أبى قير فاجأه نلسن ، أمير البحر الانجليزى ، الذى ظل يبحث عن العمارة الفرنسية فى البحر الأبيض ، بعد أن سبقها فى الدخول إلى الاسكندرية ، فى الظروف التى وصفها مجالون لبونابرت عند وصول الأسطول الفرنسى إلى الشواطىء المصرية ، فأنزل بالفرنسيين هزيمة بالغة يوم أول أغسطس ١٧٩٨[١] . وكان لهذه المعركة نتائج خطيرة .

ذلك أن تحطيم أسطول (برويس) فى أبى قير كبد البحرية الفرنسية خسارة جسيمة ، وقضى على كل أمل فى إمكان إحياء هذه البحرية ، التى كانت قد ضعفت ضعفاً كبيراً فى أثناء الحروب الأخيرة ، فى المياه الأوروبية ، وفى المياه الأمريكية ، وفى مياه الهند الغربية خاصة . فظل الإنجليز أصحاب السيطرة فى البحار ، وكان من أثر تأييد سلطانهم فى البحر الأبيض المتوسط ، بعد أن حطموا أسطول برويس ، أن فرضوا حصاراً شديداً على الشواطىء المصرية ، حتى بات من المتعذر تماما على فرنسا أن ترسل النجدات — العتاد الحربى أو أية إمدادات أخرى — إلى جيش الشرق فى مصر ولم يسع الفرنسيين حينئذ إلا أن يعتمدوا اعتماداً كلياً فى تدبير شئونهم ، وسد حاجات حملتهم فى هذه البلاد ، على موارد القطر الداخلية وحدها . وكان لذلك أكبر الأثر فى تلك السياسة الإسلامية الوطنية ، التى أرشد إليها تاليران فى تقريره إلى حكومة الإدارة (فى ١٣ فبراير ١٧٨٩) ووطد بونابرت العزم على اتباعها . وكان غرضها استمالة المصريين إلى تأييد الحكم الفرنسى ، وإقناعهم بأن الفرنسيين ماحضروا إلى بلادهم إلا ليعدلوا بينهم ، ويهيئوا لهم سبل العيش السعيد ، فلا يشعر المصريون أنهم إنما استبدلوا بحكم البكوات المماليك حكما لايقل عنه ظلما وعدوانا ، أو قد يفوقه فى شروره وآثامه . فأصبح غرض هذه السياسة الإسلامية الوطنية الآن ، توفير أسباب الحياة للفرنسيين أنفسهم ، وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم أجنبى عنهم ، لم يكن هناك مندوحة عن أن يسبب لهم إرهاقاً عظيما ، فثاروا ضده ، وتعسف الفرنسيون معهم تعسفاً شديدا ، وساءت العلاقات بين المصريين والفرنسيين ، حتى انعدم كل أمل فى حدوث أى « تفاهم » بين الفريقين ، أو إمكان تعاون أهل البلاد مع حكامهم الجدد على الرغم من كل تلك الأساليب التى ابتكرها بونابرت عند « تطبيق » سياسته الإسلامية الوطنية فى مصر .

واستندت سياسة بونابرت الإسلامية الوطنية إلى قواعد ثلاث : احترام الدين الإسلامى ، والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم الدينية ، وانتزاع المصريين من

---

(١) شكرى ١٤٢ — ١٦٢ « تفصيلات عن هذه المعركة »

أحضان الخلافة العثمانية ، يبذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين ، والقيام بدعاية واسعة بين الشعوب الإسلامية فى الأقطار المجاورة ، لإظهار مبلغ احترام الفرنسيين للدين الإسلامى والمسلمين ، ولإقناع كبار حكامهم بأن إنشاء صلات الود والصداقة مع الفرنسيين فى مصر ، واستئناف النشاط التجارى بين بلادهم وبين مصر ، سوف يعود بفوائد كبيرة على هؤلاء الحكام ، وأخيراً إنشاء حكومة وطنية لتكون أداة تمكنه من معرفة رغبات المصريين ، والوقوف على حقيقة نياتهم وآرائهم ، ويتخذ منها وسيلة لإذاعة أوامره وتحقيق مآربه بصورة تضمن استقرار الحكم الجديد ، وعدم انتقاض المصريين عليه . وقد كانت هذه ولاشك وسائل تدل على الحكمة وأصالة الرأى ، ولم يكن ثم مناص من نجاحها فى دعم أركان المستعمرة الجديدة ، لوأن بونابرت نفسه ، وقادة الحملة من بعده ، وسائر الفرنسيين ، عرفوا كيف يسلكون الطريق السوى فى علاقاتهم مع المصريين ، أو أن هؤلاء المصريين قد بلغوا من قصر النظر وقلة الدراية حداً يسدل ستاراً كثيفاً على أعينهم ، حتى يصدقوا دعاوى الفرنسيين العريضة ويؤمنوا بها .

وكان لبونابرت عند مجيئه إلى هذه البلاد آراء قاطعة فى « الإسلام » بوصفه دينا وعقيدة ، وقوة لها أثرها فى سير الحضارة ونموها . فقد اهتم قبل حضوره إلى مصر بدراسة كتاب الله الحكيم ، وسيرة نبيه الكريم ، وتاريخ العرب ، ومع أنه قد تحدث كثيراً عن احترامه للدين الاسلامى ، ثم حاول بطرق شتى أن يلقى فى روع المصريين أنه قد اتخذ الإسلام دينا ، فمن الثابت قطعا أن بونابرت لم يشهر إسلامه على نحو مافعل منو مثلا ، بل إنه ، وهو ابن الثورة الفرنسية الكبرى ، ماكان يؤمن بدين من الأديان ، ولم يبلغ فى يوم من الأيام تغلغل العقيدة الدينية فى نفسه — مهما كان نوع هذه العقيدة — درجة قد تحدث تأثيراً ظاهراً فى سياسته ، أو يمكن لإنسان أن يعزو إليها تلك السياسة الاسلامية الوطنية التى قرر اتباعها فى مصر ، بل إن بونابرت كان يسترشد فى سياسته الإسلامية هذه باعتبارات سياسة عملية فحسب[1] ، وآية ذلك أنه عندما انهدم كل أمل لديه فى إمكان الاتفاق مع العثمانيين ، وانحاز هؤلاء إلى جانب أعدائه فى الحرب ضده ، واضطر إلى تسيير حملته على الشام حتى يشن الغارة عليهم فى أقرب أقطارهم إلى مصر ، قبل أن يبدأوا هم بغزو هذه البلاد ، فكر بونابرت فى أن يتخذ من (إحياء الاسلام) وسيلة لانتزاع مصر وبلاد العرب من أحضان الخلافة

---

(١) أحمد حافظ عوض صفحات ٤١٩ — ٤٢٦ عن إسلام بونابرت

العثمانية ، حتى يعتمد فى ذلك على مركزين هامين من مراكز الاسلام ، هما القاهرة ومكة : القاهرة حيث يوجد بها الجامع الأزهر — أو جامعة السربون الأزهرية تشبيها بجامعة السربون فى باريس — فالقاهرة لذلك مركز علمى ودينى معا ، ومكة مقر العلوم الاسلامية الدينية البحتة . وعقد بونابرت آمالا كبيرة على استطاعة الاسلام أن يستمد من هذين المركزين قوة جديدة ، تكفل له الاصلاح على ضوء تلك العلوم الحديثة ، التى انتظر بونابرت أن يفضى نشاط علماء الحملة الفرنسية إلى ذيوعها ، نتيجة لانتشار ألوية الحضارة فى هذه البلاد من جهة ، ثم انضواء الأقطار المجاورة تحت ألوية هذه الحضارة من جهة أخرى[١] .

وقد بدأ بونابرت يتخذ العدة لتنفيذ سياسته الوطنية الاسلامية ، وهو لا يزال على ظهر (أوريان) بارجة القيادة ، فأصدر منشوراً إلى جنده فى ٢٢ يونيو ١٧٨٩[٢] يوضح لهم عقائد الشعوب التى سوف يعيشون بينها ، فقال إن المصريين شعب اسلامى ، ينطق بالشهادتين ، ويجب ألا يخطىء الفرنسيون عقائدهم ، بل عليهم أن يسلكوا معهم نفس الطريق التى سلكوها مع شعوب اليهود والطليان من قبل ، فيحترموا أئمة المسلمين وكبار علمائهم ، كما احترموا حاخامى اليهود وأساقفة المسيحيين . وأن يظهروا لهم جانب التسامح فى أعيادهم التى يذكرها كتابهم ، وأن يحترموا جوامعهم كما احترموا دور عبادة اليهود والمسيحيين .

وأظهر بونابرت لجنوده أن المصريين يسلكون مع المرأة مسلكا يختلف عما يفعله الفرنسيون ، وذكرهم بأن من يقدم على اغتصاب امرأة إنما هو سفاح زنيم ، لا فى نظر المصريين فحسب بل وفى نظر أهل بلاد العالم قاطبة . ثم نهاهم عن النهب والسلب ، ذلك أن قليلين قد يثرون بسببه ، بينما يفقد سائر الفرنسيين شرفهم ، وتسوء سمعتهم ، فيتخذهم المصريون أعداء لهم ، ويزول كل أمل فى استمالتهم ، فيلحق الأذى بمصلحة الفرنسيين ذاتها ، فضلا عما سوف يحدث نتيجة للنهب والسلب من القضاء على موارد البلاد ، وحرمان الفرنسيين الانتفاع بها .

وكما رسم بونابرت خطوط تلك السياسة الاسلامية الوطنية ، التى وطد العزم على اتباعها فى مصر ، فقد شرع يعد الخطة لتوضيح معالم تلك السياسة للمصريين أنفسهم ، رجاء استمالتهم إلى جانب حكومته . فأعد منشوراً طبعه (مارسيل) على ظهر البارجة

---

(١) Cherfils 52

(٢) Corresp. No. 2710

أوريان ، وأذاعه بونابرت عند دخوله الاسكندرية فى ٢ يوليو ١٧٩٨[١] ، تحدث فيه بونابرت عن سبب قدومه لغزو بلادهم ؛ وذلك حتى « يخلص أهالى مصر جميعهم » من طغيان البكوات المماليك « الذين يتسلطون فى البلاد المصرية ، يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى » ولما كان يريد أن يفصل بين المصريين والبكوات ، فقد أشار بونابرت فى منشوره إلى أن « زمرة المماليك (كانوا) مجلوبين من بلاد الأبازه والجراكسة » ومع ذلك فقد ظلوا « من زمان مديد ... يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن ، الذى لايوجد فى كرة الأرض كلها » مثيل له حتى ساد الفساد ، وأقفرت البلاد من تلك « المدن العظيمة » ، التى زينتها فى الأزمان الغابرة ، وانسدت الترع ، وانطمرت الخلجان الواسعة ، وكسدت التجارة ، وزال « المتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك » الذين نبذوا طاعة السلطان العثمانى ، بل إن هؤلاء لم يطيعوا السلطان « أصلا إلا لطمع أنفسهم » .

وقد كشف هذا المنشور عن مبلغ ما بذله بونابرت من عناية وجهد فى تفهم نفسية تلك الشعوب التى جاء لغزو بلادها وعقليتها ، كما أشار بجلاء ووضوح إلى القواعد العامة ، التى اعتزم بونابرت أن يبنى عليها صرح سياسته الإسلامية الوطنية . وعلى ذلك فقد حرص على إظهار إسلامه وإسلام جنده ، فبدأ منشوره بالشهادتين ، وأكد اعتناقه الدين الإسلامى ، فدفع عن نفسه ماقد يلصقه به أعداؤه من تهمة القدوم إلى هذه البلاد حتى يزيل دين أهلها بأنه « أكثر من المماليك (يعبد) الله سبحانه وتعالى (ويحترم) نبيه والقرآن العظيم » ؛ وشرع يسوق الأدلة والبراهين على صحة دعواه ، وعلى أن « الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون » فقال : « إنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى ، وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة ، وطردوا منها الكوالارية (فرسان القديس يوحنا الأورشليمى) الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين » .

وقد وجد بونابرت مبرراً لزوال ملك البكوات فى اعتقاد المسلمين أن الأمور مرهونة بأوقاتها ، وأن المولى سبحانه وتعالى قد قدر ما يصيب الإنسان فى الأزل ، وأن الناس عند الله تعالى سواسية لا يفضل بعضهم بعضاً إلا بالحكمة ، وحسن السريرة ، والتمسك بأهداب الدين ، وشعائره .

---

(١) Corresp. No. 2723 ؛ الجبرتى ٣ : ٤ — ٥

فقال يفسر زوال سلطان المماليك : « فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم .. فحضر الآن ساعة عقوبتهم » .

وقال يظهر فساد حكومتهم ، وافتقار هذه الحكومة إلى سند تعتمد عليه فى بقائها ، وفرض سيطرتها الغاشمة على المصريين : « إن جميع الناس متساوون عند الله ، وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة . فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم » .

ولما كان البكوات قد استأثروا بشئون البلاد ، وأبعدوا المصريين عن مناصب الحكم ، وحرموهم الاستمتاع بكل ما تضفيه هذه المناصب على شاغليها من مظاهر السيادة ، فقد رسم بونابرت صورة لتلك الحكومة الوطنية ، التى اعتزم إنشاءها فى مصر ، تضم بين أعضائها نخبة من كبار المصريين وأفاضلهم ، يعملون على إسعاد أهل البلاد قاطبة ، فقال : « ولكن بعونه تعالى ، من الآن فصاعداً ، لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها » .

على أن بونابرت الذى أدرك قيمة تلك الروابط التاريخية والدينية التى جمعت بين المصريين والعثمانيين تحت لواء الخلافة العامة ، ما كان يرضى أن يظهر فى غزوه هذه البلاد بمظهر المعتدى على حقوق السلطان العثمانى ، فبات يهمه إقناع المصريين بأن الفرنسيين أصدقاء للسلطان العثمانى ، وأنهم لا يفكرون قط فى مناصبة الباب العالى العداء . فقال : « ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه » .

وفضلا عن ذلك فقد كان تمسك بونابرت بصداقة الباب العالى ، من المبادىء التى قررها تاليران فى تقريره المعروف (١٣ فبراير ١٧٩٨) ، واسترشد بونابرت بها فى سياسته العامة نحو تركيا ، حتى يمنع هذه الدولة من إعلان الحرب عليه ، والانضمام إلى أعدائه . وقد اختتم بونابرت هذا المنشور بدعوة المصريين إلى الهدوء والسكينة ، كما حذرهم الانحياز إلى جانب المماليك فى النضال المنتظر ، أو مقاومة الفرنسيين .

ورغب بونابرت فى إزالة ما قد يجول فى أذهان المصريين أنه إنما جاء إلى هذه

البلاد وقد أعلن الحرب على السلطان العثمانى ، وبيت النية على الغدر به ، والاعتداء على حقوقه ، فطلب إلى « كل قرية (تطيع) العسكر الفرنساوى ، (وتنصب) علم الفرنساوية ، الذى هو أبيض وكحلى وأحمر ، (أن تنصب كذلك) صنجاق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه » .

ثم أوجز غرضه من إصـدار هذا المنشور عندما نص فى طلبه الأخير على أن : « الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أن يلازموا وظائفهم ، وعلى كل أحد من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنا ، وكذلك تـكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضـاء دولة المماليك ، قائلين بصوت عال أدم الله إجلال السلطان العثمانى ، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى ، لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية[1] » .

ومنذ أن دان له الحكم فى القاهرة ، حرص بونابرت على توصية قواده وضباطه ورجال المملـكة عموما فى القاهرة والأقاليم أن يظهروا على الدوام احترامهم العظيم لعقيدة أهل البلاد وشعائر دينهم وتقاليدهم . وفضلا عن ذلك فقد رأى بونابرت ، فى مناسبات عدة ، أن يظهر هذا الاحترام بصورة واضحة ؛ اعتقد واعتقد كثيرون غيره أن من شأنها إقناع المصريين بصدق دعاوى حكامهم الجدد . وواتت الفرص بونابرت بعد أسابيع قليلة من دخوله القاهرة ، للاشتراك مع المصريين فى احتفالاتهم « القومية » ، وأعيادهم الدينية . فترأس مهرجان قطع الخليج ، وأقام الاحتفال بالمولد النبوى[2] . وطلب إلى الجنرال مارمون Marmont فى (٢٢ أغسطس ١٧٩٨) أن يزور الشيخ المصرى لمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى ويبسط له القول عن اجتماعه بالعلماء والمشايخ فى القاهرة ، وعن اقتناعه العظيم بقدسية دين محمد صلوات الله عليه وطهره[3] . ونشرت (صحيفة لوكوريه دوليجبت) بأول أعدادها وصفا رائعاً لهذا الاحتفال ، وبعث بونابرت بهذه الصحيفة إلى كليبر حاكم الاسكندرية ، حتى يطبع من هذا الوصف بعد ترجمته نسخاً عدة يذيعها فى جميع بلاد المشرق[4] .

وواقع الأمر أن بونابرت كان يعتمد اعتماداً كبيرا على إذاعة أخبار احتفائه بهذه الأعياد الدينية لـكسب محبة المصريين ، واستمالتهم إلى تأييد حكومته ، حتى إنه ما لبث

---

(١) الجبرتى ٣ : ٤ — ٥ ؛ Reybaud III 150 — 153
(٢) الجبرتى ٣ : ١٥ — ١٦ ؛ نقولا الترکی ٤٢ — ٤٤
(٣) Corresp. No. 3147
(٤) Corresp. No. 3176

أن طلب إلى الحكام الفرنسيين من مختلف مديريات القطر أن يوزعوا منشورات عدة بين أهل البلاد تحمل إليهم أنباء احتفاله بالمولد النبوى فى عام ١٢١٤ هـ . «عندما استمع القائد العام لقصة المولد . ثم أقبل على الصلاة يحف به كبار المشايخ (١) » . واحتفل الفرنسيون بالموالد الأخرى ، وبأول أيام شهر الصوم ، وفى أول سبتمبر سنة ١٧٩٨ أقيم الاحتفال بتعيين أمير الحج .

على أن هذه الاحتفالات لم تحدث الأثر الذى انتظره الفرنسيون منها فى استمالة المصريين إليهم ، على نحو ما سنوضحه فى الفصول التالية . وكأنما قد تبين لبونابرت أنه لا يكفى أن يحتفل الفرنسيون بهذه الأعياد ، أو أن يقولوا إنهم مسلمون ، حتى يصدق الناس دعاواهم بل إن ترديد هذا القول ، من شأنه أن يجعل المصريين يسيئون الظن بهم ويشكون فى نياتهم ، ما دامت هذه المظاهر والأقوال مفتقرة إلى ما يؤيدها من واقع الدين وحقائقه ، وبخاصة عندما ظل الفرنسيون يشربون الخمر وقد حرم الإسلام شربه ، ويعرف أهل البلاد أنهم كسائر النصارى لم يختنهم أحد . ولذلك فقد بذل بونابرت قصارى جهده حتى يحمل علماء الأزهر على تفسير كتاب الله الكريم « بما يتفق ومصلحة جنده » ، وأن يصدروا فتوى تجيز للفرنسيين اعتناق الإسلام ، على الرغم من عقبتى الخمر والختان ، وتدعو الناس إلى أن يقسموا يمين الطاعة والولاء للقائد الفرنسى ، حتى يستند سلطانه بفضل ذلك على أساس شرعى فى مصر . ومع أن أئمة المذاهب الأربعة أصروا على تحريم الخمر ، فقد أفتوا بجواز إسلام الجند الفرنسيين على الرغم من أنهم لم يختتنوا ، وأعلن بونابرت ذلك فى الجوامع ، ثم ما لبثوا بعد ذلك أن جاءوا بفتوى أخرى تخفف شيئاً من قيود حرمة الخمر فى حالات خاصة ، وتجيز إسلام الفرنسيين .

وبادر بونابرت بإعلان هذه النتيجة السارة من أعلى المآذن (٢) . غير أن شيوخ الأزهر وسائر المصريين ظلوا على الرغم من هذه الفتوى لا يصدقون ادعاءات بونابرت ويعتقدون أن بونابرت وجيشه ليسوا سوى كفرة .

ومع ذلك فقد ثابر بونابرت على سياسته الإسلامية الوطنية ، وكان من وسائله محاولة فصم تلك العلاقات الدينية ، التى ظلت تربط بين المصريين والعثمانيين من أزمنة قديمة ، وبعث آمال المصريين فى نصرة الإسلام ، وإقناعهم بأن الإسلام فى وسعه أن

---

(١) Corresp. No. 4362

(٢) Charles-Roux-Bonaparte 79—83; Cherfils 116—7; Reybaud III 219—21

يكسب قوة جديدة ، إذا نهضت القاهرة نهوضاً يرقى بها إلى مصاف المراكز الدينية الهامة فى العالم الإسلامى ، فتشغل إلى جانب مكة المكرمة مكان الزعامة فى هذا العالم على أن يتم ذلك كله بالتعاون بينهم وبين الفرنسيين . وعلى ذلك فإنه ما إن ساءت علاقة بونابرت بالسلطان العثمانى ، وانضمت تركيا إلى جانب الانجليز والروس فى إعلان الحرب ضد فرنسا ، على أثر تحطيم أسطول برويس فى معركة أبى قير البحرية خاصة ، حتى شرع بونابرت يبذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين ، ويظهر السلطان العثمانى فى صورة من أصبح لا يهتم بمصلحة الإسلام ، ولا يحرص على الشريعة المحمدية . وكان من دعاواه فى ذلك أن السلطان ظل متمسكا بعلاقات الود والصداقة مع فرنسا ، طالما كانت هذه أمة عريقة فى مسيحيتها ، حتى إذا تبدلت الأحوال بها ، وأضحى الفرنسيون أكثر عطفا على الإسلام والمسلمين ، وأقرب ميلا إلى تفهم العقيدة الإسلامية ، نبذ السلطان صداقتهم ؛ فإذا كان ذلك مسلك الأتراك مع هذه الدولة الصديقة ، التى ظلت على ولائها لهم من قديم الزمن ، فإن هؤلاء ولا شك سوف يعجزون عن المحافظة على تراث الإسلام ، ولا مفر من أن تقتسم الدول المسيحية ، وفى مقدمتها روسيا وألمانيا ، أملاك العثمانيين الإسلامية فيما بينها [١] .

وتحدث بونابرت إلى العلماء والمشايخ (الذين تألف منهم ديوان القاهرة) عن عقائد هؤلاء الحلفاء الجدد ، الذين فضلهم السلطان على فرنسا ، فقال إن الروس يعتقدون بوجود آلهة ثلاثة ، بينما يؤمن الفرنسيون بوجود إله واحد فحسب ، هو إله المجد والنصر ، الذى بعث بيونابرت نفسه إلى هذه البلاد . ليقضى على الفوضى المنتشرة بها ، ويوطد فيها دعائم النظام والعدالة [٢] . وقد وضح بونابرت (فى كتاب له إلى الشيخ المصرى) أسس تلك الحكومة التى أراد إنشاءها فى مصر منفصلة عن الخلافة العثمانية ، فقال إنه يرجو أن يحين الوقت سريعاً للتشاور مع علماء المصريين ومشايخهم وأهل الذكر منهم ، فى سبيل إنشاء نظام حكومى موحد يستند فى أحكامه إلى القرآن الكريم ، ويسترشد بما جاء فى كتاب الله العزيز من مبادىء وأسباب تحقق سعادة البشر [٣] . ثم حرص بونابرت على إظهار نياته ورغبته الصادقة فى إحياء قوة الإسلام ، وما يكنه من محبة للمسلمين وعطف عليهم ، وابتعاده عن كل ما يؤذيهم فى عقائدهم ، فشرع يوفد الرسل ، ويكتب الكتب إلى أمراء المسلمين وحكامهم

---

(١) Corresp. No. 4364 (Au Grand Vizir)
(٢) Corresp. No. 4269 (Au Divan du Caire 21 Juillet 1799)
(٣) Corresp. No. 3148

فى الأقطار المجاورة لمصر ، وهى أقطار كانت ولا تزال منضوية تحت لواء الخلافة ، وتدخل فى صورة من الصور فى نطاق الامبراطورية العثمانية ؛ فطلب إلى المواطن (بوفوازان) Beauvoisins أن يذهب إلى يافا لمقابلة أحمد باشا الجزار ، صاحب عكا ، حتى يدفع ما كان يتهمه به أعداؤه ، من الرغبة فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وهدم دين الإسلام الحنيف ، فيؤكد للجزار باشا صداقة الفرنسيين ، وأنهم لايبغون استرقاق المسلمين ، بل يريدون على العكس من ذلك تحريرهم وخلاصهم (١) .

وكتب بونابرت إلى حاكم درنة ، وإلى حاكم طرابلس ، يطلب عقد أواصر المحبة والصداقة معهما (٢) ؛ وفعل مثل ذلك مع إمام مسقط (٣) ، وطلب إلى الإمام علاوة على ذلك أن يبعث بهذه الأخبار إلى تبو صاحب ، ثم كتب بونابرت إلى تبو صاحب يخبره بعزمه على طرد الانجليز من الهند (٤) ، وأرسل الكتب إلى شريف مكة (٥) لتوطيد العلاقات التجارية كذلك بين مصر وبلاد العرب والهند ، ثم إلى عبد الرحمن الرشيد ، سلطان دارفور ، يستميله إليه ، ويعده بتأمين القوافل القادمة من دارفور إلى مصر للتجارة ، ويطلب إليه إرسال ألفين من العبيد الأشداء (٦) ، وفضلا عن ذلك فقد استكتب أعضاء ديوان القاهرة رسالة إلى شريف مكة فى أول سبتمبر ١٧٩٨ ، تحدث فيها أعضاء الديوان عن الجهود التى بذلها بونابرت لتأمين طريق الحج ، وأثنوا على سياسته ، وذكروا اهتمامه البالغ بأعياد المصريين الإسلامية والقومية ، واشتراكه فى الاحتفالات والمهرجانات التى حرص على إقامتها فى مناسبات هذه الأعياد جميعها (٧) .

ولما كان السلطان العثمانى ، وهو خليفة المسلمين قد أصبح عاجزا عن الاضطلاع بأعباء مهام منصبه الدينية ، منذ انحيازه إلى جانب أعداء الفرنسيين ، ومغادرة نائبيه مصر ، فقد عمد بونابرت إلى نقل تلك الوظائف الدينية التى كان يقوم بها هؤلاء باسم السلطان (والخليفة) إلى العلماء والمشايخ المصريين ، كما اضطلع

---

(١) Corresp .No. 3077
(٢) Ibid. 3731;3732
(٣) Ibid. 3900
(٤) Ibid. 3801
(٥) Ibid. 4234
(٦) Ibid. 4235
(٧) Cherfils-Doc.XL. 87 — 89

هو الآخر بنصيب منها ؛ على غرار ما فعل عند ما ترأس الاحتفال بحلول شهر الصوم المبارك عام ١٢١٣ هجرية فكتب إلى حكومة الإدارة فى ١٠ فبراير ١٧٩٩ أنه قد احتفل بهذا اليوم احتفالا فخما « وقام بالوظائف التى كان يقوم بها الباشا العثمانى فى هذه المناسبة [١] » . وعند ما خرج القاضى العثمانى إلى الشام ، قرر بونابرت « أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضياً شرعيا من علماء مصر وعقلائهم ، لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين . . . على أن يكون لابساً من عندى ، وجالساً فى المحكمة ، (كما) كان يفعل الخلفاء فى العصر الأول ، باختيار جميع المؤمنين » .

وطلب إلى أعضاء الديوان أن يخبروا أهل مصر « أنه انقضت وفرغت دولة العثمانلى من أقاليم مصر ، وبطلت أحكامها منها ، (وأن يخبروهم) أن حكم العثمانلى (وهم أصحاب الخلافة) أشد تعباً من حكم الملوك المستبدين ، والذين لا تربطهم أواصر الخلافة بشعوبهم ، كسلاطين آل عثمان ، أو لا تقيدهم أحكام الدستور على غرار الجمهورية الفرنسية ذاتها ، بل كان العثمانيون أكثر ظلماً (من هؤلاء الملوك) ؛ والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للأحكام الشرعية ، يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم [٢] » .

وفى أمر أصدره بونابرت ، ينقل إلى الحكام الفرنسيين فى المديريات نبأ اختيار الشيخ العريشى ، الذى أجمعت كلمة العلماء على اختياره للقضاء فى مصر ، طلب إليهم أن يبينوا لأهل البلاد أن حكومة العثمانيين قد زالت أيامها من مصر ، وأن تعاليم القرآن الكريم لا تقر بحال أن يحضر (العثمانلى) من القسطنطينية ، ليقوموا بالقضاء فى بلد لا يفهمون لغة أهله ، وفضلا عن ذلك فإن (استانبول) ذاتها لم يدخل فيها الإسلام ويعتنق أهلها العقيدة المحمدية ، إلا بعد أن كان قد مضى على وفاة الرسول ثلاثة أو أربعة قرون . بل إنه لو عاد النبى الكريم نفسه إلى الأرض مرة ثانية لما ظهر بها ، ولما اتخذ مقامه بين أهلها ، ولنزل حتما بأرض القاهرة المقدسة وعلى ضفاف النيل ؛ أما زعيم العالم الإسلامى اليوم فهو شريف مكة صديق الفرنسيين ، ولا جدال فى أن علماء القاهرة قد أضحوا وحدهم أهل العلم دون سائر الناس ، ولا يعارض إنسان فى أنهم أكبر العلماء أطلاقا فى أقطار الامبراطورية العثمانية جميعها [٣] .

---

(١) Corresp. No. 3952

(٢) الجبرتى ٣ : ٣٨ — ٣٩ ؛ Corresp. No. 3785

(٣) Corresp. No. 4238

وحاول بونابرت اختيار أعضاء الديوان الذى أراد إنشاءه فى مصر من بين هؤلاء العلماء ، تحقيقا لأهم أغراض سياسته الإسلامية الوطنية ، وذلك بإقامة نوع من الحكم يشرك العناصر الوطنية إشراكا محدودا مفيداً فى إدارة شئون البلاد ، إلى جانب الحكام الفرنسيين ، وتحت إشراف هؤلاء الحكام وسيطرتهم التامة . وذلك لضمان استقرار الأمن والنظام فى مصر [١] ، بفضل استمالة الرؤساء الدينيين وانحيازهم إلى تأييد الحكم الفرنسى ، حتى يتسنى له الاستفادة مما كان يستمتع به هؤلاء من نفوذ واسع ، لإقناع المصريين بالرضا بحكومة الفرنسيين ، وحملهم على الخضوع لسلطانهم ، والاخلاد إلى السكينة ، والابتعاد عن المقاومة . فقد أراد بونابرت أن يستعين بنفوذ هؤلاء العلماء والمشايخ ، الذين قرر أن يشكل دواوينه منهم ، سواء فى القاهرة أم فى الأقاليم ، على تفهم آراء المصريين ومعرفة مطالبهم ورغباتهم ، كما أراد أن يتخذ من أعضاء الدواوين أداة تمكنه من إنجاز المشروعات التى صح عزم الفرنسيين على تنفيذها ، وذلك دون حدوث اصطدام بينهم وبين الأهالى .

وغنى عن البيان أن بونابرت كان يستهدف من وراء ذلك كله التفاهم مع المصريين ، واستمالتهم إليه من أجل توطيد سيطرة الفرنسيين فى مستعمرتهم الجديدة . ولو أن كثيرين يزعمون — اعتمادا على ما جاء فى بعض أقوال بونابرت نفسه — أن غرض قائد الحملة الأعلى كان إنشاء إدارة وطنية أهلية ، (وتمصير) أداة الحكومة بصورة تكفل تدريب المصريين على الاضطلاع بأعباء الحكم فى بلادهم ، فان هذه كانت مزاعم عريضة ، ولا يقرها الواقع على نحو ما سيأتى ذكره مفصلا فيما بعد ، وكما يدل تأليف ديوان القاهرة من جهة — وهو أهم هذه الدواوين — وكما يتضح من معرفة الأعمال التى اضطلع بها أعضاء هذا الديوان من جهة أخرى . فقد صدر أمر بونابرت بتأسيس ديوان القاهرة فى ٢٥ يوليو ١٧٩٨ [٢] وصار يتألف من عشرة أعضاء مصريين هم الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى بوصفهما نائبى رئيس ، والشيخ محمد المهدى سكرتيرا ، والشيخ سليمان الفيومى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى أعضاء . كما ضم الديوان إليه ممثلين عن جالية الافرنج فى هذه البلاد ثلاثة من الأوروبيين هم كاف Caffe وولمار Wolmar

---

(١) Ibid. 2857

(٢) Corresp. Inédite I. 323; Corresp. No. 2837

وبودوف Baudeuf وعين مونج Monge قومسيرا فرنسيا وكلف بالاشراف على أعمال الديوان . فلم يكن أعضاؤه من المصريين وحدهم .

ولما كان الغرض من تأليف هذا الديوان المعاونة على استقرار النظام واستتباب الأمن والهدوء فى القاهرة ، فقد بحث الديوان فى أولى جلساته الإجراءات التى يجب اتخاذها لتحقيق ذلك ، وأسفر البحث عن صدور قرار بوضع الأختام على بيوت المماليك ، كما قر الرأى على إعطاء الأمان لكبار القاهريين حتى يطمئنوا إلى الإقامة بالعاصمة[١] . وفضلاً عن ذلك فقد وافق الديوان على تعيين « محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة ، وحسن أغا محرم أمين احتساب » وظاهر من رواية الشيخ الجبرتى أن الفرنسيين أنفسهم هم الذين أشاروا بتعيينهم ، واضطر أعضاء الديوان إلى الإذعان بعد أن « كانوا ممتنعين عن تقليد المناصب لجنس المماليك ؛ (فعرفهم الفرنسيون) أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم ، وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة ، الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم ؛ (كما) قلدوا ذا الفقار كتخدا محمد بيك ، كتخدا بونابرته[٢] » . وكان المسئول عن اختيار هؤلاء الأربعة الذين تتألف منهم فى الحقيقة إدارة شئون الشرطة فى المدينة ، وملاحظة الأمن والنظام ، (فنتور) Venture كبير التراجمة ، ومجالون Magallon الذى قام بأعمال القنصلية الفرنسية نائباً عن عمه ؛ وقابل بونابرت فى عرض البحر قبل النزول إلى الشواطىء المصرية ، وبودوف Baudeuf أحد تجار مرسيليا وعضو الديوان[٣] . « وحضر ذلك المجلس أيضا مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضى » ، « ومن أرباب المشورة الخواجا موسى »

وفى ٢٧ يوليو ١٧٩٨ صدر أمر بونابرت بإنشاء دواوين فى الأقاليم على غرار ديوان القاهرة[٤] . فيكون لكل مديرية ديوان من سبعة أعضاء . وأوضح بونابرت الغرض من إنشاء دواوين الأقاليم ، فقال إن مهمة أعضائها السهر على مصالح أقاليمهم المختلفة ، فيعرضون على ديوانهم ما قد يصلهم من شكاوى الأهلين ، ويمنعون وقوع اعتداء القرى بعضها على بعض ، ويراقبون الأفراد من أصحاب السمعة السيئة ، ويوقعون عليهم ما قد يستحقونه من عقوبة ، مستعينين فى ذلك إذا لزم الأمر بالجنود الفرنسيين ، وطلب بونابرت كذلك تعيين أغا للانكشارية على رأس قوة من الأهالى

---

(١) Reybaud III 217 — 8

(٢) الجبرتى ٣ : ١١

(٣) Reybaud III 229

(٤) Corresp. No. 2858

مهمته المحافظة على الهدوء والسكينة ، والعمل على استتباب الأمن واستقرار النظام ، على أن يفصل فى كل ما يتصل بشئون وظائفه بمحاكم الإقليم الفرنسى ، وفضلاً عن ذلك فقد طلب بونابرت إلى أعضاء دواوين الأقاليم أن يقوموا بتبصير الأهالى بما يعود بالفائدة عليهم ، ويحفظ صوالحهم ، أى إرشادهم وبذل النصح لهم لتلبية مطالب الإدارة الفرنسية ، والابتعاد عن مقاومة الفرنسيين . أما هذه المطالب فكانت تأدية الضرائب ودفع الميرى .

وواقع الأمر أن أهم ما كان يعنى به بونابرت ، إلى جانب استقرار الهدوء والسكينة ، تنظيم مالية البلاد بصورة تضمن استغلال مواردها وتحصيل إيراداتها . فنص أمر تشكيل دواوين الأقاليم على تعيين « مباشر » فى كل مديرية من مديريات القطر لجباية الميرى ، وأموال الضرائب وإيرادات أملاك المماليك التى صادرتها حكومة الجمهورية الفرنسية ، وقد عين وكلاء فرنسيون إلى جانب هؤلاء المباشرين ، لمراقبة هذه الشئون جميعها ، ولم يكن تعويد المصريين حكم أنفسهم ما يهدف إليه بونابرت من هذا النظام الذى استنه لإدارة الحكومة الإقليمية .

واستقر رأى بونابرت على أن ينشىء فى القاهرة (ديواناً عاما) ، يجمع مندوبين عن ديوان القاهرة ودواوين الأقاليم ؛ وذلك حتى يستعين بهم فى تنظيم شئون القضاء ، وحقوق الملكية ، وطرق توريثها ، وتحديد الضرائب ، وجبايتها ، واستقرار الحكومة الإقليمية(1) ، كل ذلك على نحو يمنع الاصطدام مع تعاليم القوم الدينية وتقاليدهم وعاداتهم ، فيستخدم العلماء والأئمة وأصحاب المكانة من أعضاء هذا الديوان العام ، الذين حرص بونابرت على اختيارهم من بين الذين اشتهروا بالعلم والكفاءة ، وعرف عنهم حسن استقبالهم للفرنسيين ، فى تجنب كل ما قد يستثير شعور المصريين الدينى ، إذا هو اتخذ فى هذه المسائل الشائكة قراراً قد يتعارض مع عقائدهم وتقاليدهم ، دون موافقة أئمتهم وعلمائهم . يحمله على ذلك الاعتقاد أن المصريين لن يحركوا ساكناً ، أو يقوموا بالثورة ضد حكامهم الجدد ، إذا هم اطمأنوا إلى أن هؤلاء لا يبغون التعرض لعقائدهم الدينية وتقاليدهم وعاداتهم القديمة ، فيظفر بونابرت على الأقل بوقوفهم موقف الحياد والتسامح من حكومته ، وانصرافهم إلى شئونهم ، تاركين الأمور تجرى فى أعنتها ، لا يزعجهم انتقال مقاليد الحكم من يد جماعة إلى أخرى .

---

(1) Ibid. 3423

وعلى ذلك فقد صدر أمر بونابرت فى ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ باجتماع الديوان فى القاهرة[١] . وعندما حضر مندوبو دواوين الأقاليم إلى القاهرة صدر أمر بونابرت بتأسيس الديوان العام فى ٣ أكتوبر[٢] ، ثم كلف (مونج) و (برتوليه) Berthollet القومسيرين الفرنسيين فى هذا الديوان ، أن يسألا أعضاءه الرأى فى مسائل القضاء والملكية والإرث والضرائب ونظام تأليف دواوين الأقاليم . وعقد الديوان العام أولى جلساته يوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨ وعرض مونج وبرتوليه مشروعات الحكومة على أعضائه الذين كان من حقهم فقط إبداء الرأى والنصيحة فى هذه المسائل ، التى أراد بونابرت الاستنارة بآرائهم فيها . وقد استمر الديوان العام يعقد جلساته حتى يوم ٢٠ أكتوبر ، وقد وصل الأعضاء فى كل هذه المسائل إلى حلول أرضت السلطات الفرنسية ، ماعدا المسائل المالية فقد استلزمت مناقشات طويلة ، ولم يعط الديوان فرصة البت فيها . وكان الاختلاف على هذه المسائل أهم أسباب تلك الثورة التى فوجىء بها الفرنسيون فى القاهرة يوم ٢١ أكتوبر .

ذلك أن المصريين لم يصدقوا ادعاء بونابرت الإسلام ، ولم يفلح فى استمالة المصريين إلى تأييد حكومته ، على الرغم مما بذله من جهود كبيرة فى هذا السبيل . وفضلا عن ذلك فقد تضافرت عوامل عدة لتحريك هذه الثورة ، وسوف يأتى ذكرها مفصلا عند الكلام على آثار الحملة الاجتماعية والسياسية . وقد أوجزها المعلم نقولا الترکى فى قوله[٣] : « إنه بعد أن مكثت الفرنساوية فى المملكة المصرية مقدار ثلاثة أشهر ، كان المسلمون يظنون أن تورد لهم الأوامر من الدولة العثمانية بتقريرهم على المملكة ، حسبما كانوا يشيعون أنهم حضروا إلى مصر بإرادة السلطان سليم ، وكانوا يوعدونهم فى وزير إلى القلعة السلطانية من طرف الدولة العثمانية . وقد كان يخبّر أمير الجيوش بقدوم عبد الله باشا العظم من الشام إلى مصر ، وأعد له منزلا لينزل به ، وأمر بتدبيره وفرشه . وإذ مضت المدة المعينة ولم يحضر أحد ، فتسبب من قبل ذلك أسباب كثيرة للنفور وابداع الفتن والشرور ، من قتل السيد محمد كريم لأنه كان أحد الأشراف ، ومن ورود المكاتيب من الأمراء المصريين بالاستنهاض إلى أهل تلك الأقاليم ، وكتابات أحمد باشا الجزار إلى البلدان المصرية واستنهاضهم على الفرنساوية ، وإن قادم عليهم العساكر العثمانية ثم قيام أهالى بر دمياط ، والحوادث التى بدتها العرب

---

(١) Reybaud III 218

(٢) Corresp. No. 3415

(٣) نقولا الترکى ٦٤ — ٦٦

والفلاحين ، وعفو الفرنساوية عنهم وعدم القصاص لهم . وقد كان الفرنساوية يخرجون النساء والبنات المسلمات مكشوفات الوجوه فى الطرقات ، ثم اشتهار شرب الخمر وبيعه إلى العسكر ، ثم هدم جوامع ومنارات فى بركة الأزبكية لأجل توسيع الطرقات لمشى العربانات . وكان المسلمون يتنفسون الصعداء من صميم القلوب ، ويستعظمون هذه الخطوب ، وصاحوا : لقد آن أوان القيام على هؤلاء اللئام ، فهذا وقت الانتصار إلى الإسلام ، فشعر أمير الجيوش بما فى ضمائرهم وما اكتموه فى سرائرهم ، فأبرز أمراً لسائر حكام الخطوط بأن كلا منهم يأمر بخلع الأبواب المركبة فى الشوارع ، وفى يوم واحد خلعت تلك الأبواب العظام ، وبعضها أحرقت بالنيران. فركب أمير الجيوش وأخذ معه المهندسين ومنهم الجنرال كفرال (كفاريللى) الملقب أبو خشبة لأنه كانت رجله الواحدة مقطوعة من ساقه ، ومصطنع له رجل من خشب ، فهذا الجنرال كان أعظم المهندسين فى مملكة الفرنساوية . وبدأ أمير الجيوش يجول بهذا الجنرال على سائر الأماكين التى حول دائرة مصر ، وغرس على رأس كل مكان بيرقاً ، إشارة لبناية القلع ، فإذا شاهدت الإسلام هذا الاهتمام تحركت للقيام » .

على أن المعلم نيقولا التركى عندما عرض أسباب هذه الثورة ، أغفل أقوى البواعث الداعية إليها ، عندما أثقلت مطالب الفرنسيين المالية كاهل المصريين ، وتذرع بونابرت بشق الوسائل لجمع الأموال سواء أكان ذلك بفرض الغرامات ومصادرة الأملاك وتحصيل الضرائب ، أم نتيجة لتلك التنظيمات الإدارية المستحدثة ، التى لم يجد المصريون فى وجودها إلا وسيلة لابتزاز المال منهم ، وتجريدهم من مقتنياتهم وأملاكهم ، وتضييق سبيل الكسب والعيش فى وجوههم . وذلك بأن الفرنسيين ، الذين أرغموا إرغاما على الاعتماد فى تدبير شئونهم وسد مطالبهم على موارد البلاد وثروتها ، بعد تحطيم أسطولهم فى أبى قير ، وانعدام كل رجاء فى وصول الإمدادات إليهم من فرنسا ، مالبثوا أن وجدوا أنفسهم منساقين إلى ابتكار الوسائل التى تمكنهم من جمع المال بحسب دون تفكير فيما قد تؤدى إليه أساليبهم « المالية » من إثارة كوامن الحقد ضدهم ، وتأليب المصريين ودفعهم إلى الثورة عليهم . بل إن الفرنسيين كانوا قد بدأوا يجمعون المال منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر ، وقبل أن تنزل بهم كارثة أبى قير . فكلف بونابرت غداة وصوله الإسكندرية كلا من مجالون وبوسيلج أن يجمعا عشرين من تجار الأسكندرية الأثرياء ، حتى « يبيعا » لهم سبائك من الذهب والفضة كان بونابرت قد أحضرها معه لقاء ثلثمائة ألف فرنك [١] ذهبا ؛ وفى نفس اليوم (٦ يوليو) طلب

(١) Corresp. No. 2766

بونابرت من القائمين على شئون جمرك الإسكندرية أن يدفعوا مائة وخمسين ألف فرنك من حساب الجمارك[١] . وكان من الوسائل التي اعتمد عليها في الحصول على المال بكل سرعة أنه أعطى حق التزام جمرك القاهرة ، ومصادر الإيرادات القانونية إلى الأفراد عندما قدر مجالون أن هذا الالتزام سوف يأتي بأموال طائلة .

وفضلا عن ذلك فقد اتخذ بونابرت إجراءات سريعة لمصادرة أموال البكوات المماليك وأتباعهم في أنحاء البلاد ، فأصدر أمراً في ٧ يوليو بتشكيل لجنة في كل مديرية لوضع الأختام على أملاك المماليك وأملاك أعداء الفرنسيين[٢] كما كان من واجب هذه اللجنة السهر على تحصيل الضرائب من مباشرة وغير مباشرة بكل دقة[٣] ؛ ثم أصدر عقب دخوله القاهرة أوامره المشددة (في ٢٧ يوليو) إلى رشيد والإسكندرية والجيزة وقليوب لمصادرة أملاك المماليك ، والاستيلاء على مقتنياتهم[٤] ، وقد شهدنا ، عند صدور الأمر بتشكيل دواوين الأقاليم ، كيف أن بونابرت أمر كذلك بوجود مندوب فرنسي للاشراف على تحصيل الميرى وضرائب الأطيان ، وتحصيل جميع الإيرادات التي كانت من نصيب المماليك ثم صارت الآن من حق الجمهورية الفرنسية[٥] ثم حتم بونابرت في اليوم نفسه على جميع الأفراد الذين كانوا قد انتهزوا فرصة الاضطرابات التي حدثت في القاهرة عند هزيمة البكوات ودخول الفرنسيين القاهرة فنهبوا دور البكوات ، أن يقدموا كل ما كان بأيديهم من هذه المنهوبات إلى مخازن الحكومة[٦] . ثم شكل بونابرت لجنة لتحديد قيمة الضريبة التي طلب من كل سيدة من زوجات المماليك أن تدفعها لقاء السماح لها بالبقاء في القاهرة والاحتفاظ بمقتنيات زوجها[٧] .

وتوالى فرض الغرامات وتحصيل الأتاوات بعد ذلك . فأرغم بونابرت (في ٣٠ يوليو) كبار تجار الاسكندرية أن يدفعوا ثلثمائة ألف فرنك ذهبا ، بعد استنزال ثلاثين ألف فرنك كان كليبر قد أخذها منهم قبل ذلك ، وأمهلوا يوماً واحداً لسداد هذا

---

(١) Ibid. 2767
(٢) Ibid. 2788
(٣) Ibid. 2829
(٤) Ibid. 2857
(٥) Ibid. 2858
(٦) Ibid. 2859
(٧) Ibid. 2860

المبلغ[١] . وفى نفس اليوم طلب إلى السيد محمد كريم أن يدفع غرامة قدرها ثلثمائة ألف فرنك ، وأمهله خمسة أيام لسدادها وإلا « فصل رأسه » . ولما لم يدفع السيد محمد كريم هذه الغرامة اتهم بالخيانة ، وأمهل ثمانية أيام أخرى ، وأنقص المبلغ إلى ثلاثين ألفا ، ولكن كريم لم يدفع ، فأعدم فى ٥ سبتمبر ١٧٩٨[٢] . كذلك طلب إلى أهل رشيد أن يدفعوا غرامة قدرها مائة ألف فرنك ، وأمهلوا يومين لسدادها ، وقدم أهل دمياط مائة وخمسين ألفا[٣] . وفضلا عن ذلك فقد طلب بونابرت المال من التجار ، فحصل من تجار الحرير مبلغا كبيراً من الريالات النمساوية ، كما طلب إلى تجار خان الخليلى أن يدفعوا ثلاثة عشر ألف ريال . وأرغم الأقباط على دفع مبلغ كبير[٤] .

وما إن دخل بونابرت القاهرة حتى عمد إلى تنظيم « الضربخانه » ، أو دار سك النقود ، التى وجدها بها ، ثم كلف الكيمائى برثوليه بحث تحويل الريالات النمساوية المصنوعة من الفضة إلى عملة (الميدى) المصنوعة من المعدن الرخيص ، والتحقق من مقدار الربح الذى يمكن أن تجنيه الحكومة من هذه العملية . وكان قد بلغ بونابرت أن تحويل الريالات إلى هذه العملة الصغيرة يأتيه بما يبلغ ثلث قيمة الريالات المستبدلة ربحا صافيا ، ولما كان بونابرت قد أرغم تجار الاسكندرية — كما سبق القول — على « شراء » جزء من سبائك الذهب والفضة التى أحضرها معه ، فقد قرر الآن استرجاع هذه السبائك ممن ذهبت إلى أيديهم ، وتحويلها مع ما وجده من « عملة جيدة » بالقاهرة إلى عملة الميدى الرخيصة[٥] ، وطلب إلى كليبر حاكم الاسكندرية أن يجمع هذه السبائك التى سبق إعطاؤها إلى تجار الثغر فى نظير أن ينال هؤلاء ما يساوى قيمتها عينا من المحصولات والغلات الزراعية ، كالأرز والقمح[٦] .

ولما كان قد اجتمع لدى الفرنسيين بفضل هذه الإجراءات الصارمة كميات كبيرة من السبائك والحلى والنقود الذهبية والفضية ، إلى جانب الشىء الكثير من مقتنيات البكوات المماليك وأتباعهم « وأعداء الجمهورية » فقد عمد الفرنسيون إلى التخلص من الأمتعة والفرش والأثاث النفيس وما إلى ذلك ، فأنشأ بونابرت (شركة تجارية) لتصريف ذلك كله فى الأسواق المحلية (المصرية) وفى الأسواق الخارجية (الأوروبية)

---

(١) Ibid. 2883

(٢) Ibid. 2885,2925,2926,3247,3248

(٣) Ibid. 2884,2887,2890

(٤) Ibid. 2896,2897,2920,2949,2950,3208

(٥) Charles-Roux-Bonaparte 110

(٦) Corresp. No. 2853

— إذا استطاع ذلك — فازدحمت أسواق القاهرة والمدن الكبيرة بسن الفيل والحرير والجوهرات والحلى المصنوعة من الذهب والماس والساعات ذات الرقاص وغير ذلك من النفائس ، التى جمعها الفرنسيون من بيوت المماليك وكبار المصريين فى القاهرة وبولاق ومصر العتيقة بصفة خاصة ، وأرغموا الأهالى على تسليمها فى نظير «أذونات» يصرفونها من الضربخانة فى أجل معين لم يكن يقل عادة عن ثلاثة شهور [١] .

وقد أسفرت المناقشات التى دارت فى الديوان العام ، بصدد تنظيم شئون القضاء وحقوق الملكية ومسائل التوريث وتحديد الضرائب وجبايتها وما إلى ذلك ، عن صدور عدة أوامر فى هذه الموضوعات ، فصدر فى ١٠ سبتمبر ١٧٩٨ أمر بإنشاء محكمة تجارية فى هذه المدن ، بعد تزكية من مدير الشئون المالية ، على أن تقوم بأعمالها دون مقابل . وحددت الرسوم التى يدفعها أصحاب القضايا باثنين فى المائة من المبالغ المحكوم بها [٢] . وفى ١٦ سبتمبر ١٧٩٨ صدر أمر بإنشاء مكتب فى كل مديرية ، لتسجيل مستندات التمليك وجميع المستندات التى يحتمل أن تصبح موضع نزاع قضائى ، وذلك فى نظير تحصيل رسوم عليها بنسبة قيمتها . ونص هذا الأمر على أنه لا يمكن الاعتراف بممتلكات الأشخاص التى لم يسبق تسجيلها ، واعتبار كل ما كان غير مسجل من الممتلكات الأخرى ، أملاكا أهلية ، وأمهل أصحاب هذه الممتلكات شهراً واحدا لتسجيلها فى مدينة القاهرة ، وشهرين فى مديريات القطر ، فإذا لم يسجلها أصحابها فى بحر هذه المدة أصبحت من نصيب الجمهورية الفرنسية . وقد نص هذا الأمر كذلك على ضرورة تسجيل الوصايا وعقود التخارج والقسمة بين الورثة فى مدة عشرة أيام من تاريخ تحريرها ، واشتمل هذا الأمر على تفصيلات وافية عن « تعريفة التسجيل » ، فتراوحت الرسوم بين ٢ ٪ و ٥ ٪ هذا عدا تحديد فيات معينة من الرسوم المحصلة على شهادات الميلاد والعرائض وتنفيذ الأحكام والحجز وقسائم الطلاق وما إلى ذلك [٣] . ثم صدر فى اليوم نفسه أمر آخر ألزم كل فرد من أصحاب المهن أو الأعمال ، مهما كان نوعها ، بأن يحصل على ترخيص من إدارة التسجيلات حتى يتسنى له تأدية عمله ، وعليه أن يجدد هذا الترخيص سنويا . ويشتمل هذا الأمر على فئات الرسوم التى تدفع لقاء الحصول على هذه « التراخيص » ، سواء أكان طالبوها

---

(١) Charles-Roux-Bonaparte 112 — 113

(٢) Corresp. No. 3268

(٣) Ibid. 3320

من التجار أم الصناع أم النساج أم البنائين وغيرهم . وقد تراوحت هذه الرسوم بين عشرة ريالات ومائتين وخمسين ريالا [١] .

وعند ما عجز كثيرون من تجار الحرير والبن ، ومن الأقباط وكذلك نساء المماليك وزوجة مراد بيك خصوصاً عن دفع الغرامات المطلوبة فى أوقاتها ، عاد بونابرت فأصدر أمره إلى بوسيلج (مدير الشئون المالية) فى ٢١ سبتمبر مشددا عليه بضرورة ملاحظة سداد هذه الأموال بكل سرعة ، بسبب الحاجة الملحة إليها [٢] و « بسبب هذه الحاجة الملحة » إلى المال أصدر بونابرت عدة أوامر فى المدة التالية لتشكيل اللجان ، وتنظيم الإدارة المالية عموما ، واتخاذ ما يكفل جمع الضرائب والأموال بسرعة ، وذلك كى يتسنى لخزانة الحملة أن تحصل على الموارد التى تستطيع بها أن تسد حاجات الجيش ، ونفقات الإدارة [٣] . من ذلك أن بونابرت أصدر أمراً فى ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ لتحديد الضريبة المحصلة على المبانى ، كالوكايل والحمامات ومعاصر الزيت والسمسم وطواحين الغلال والأحواش والحوانيت والقهاوى والجباسات والبيوت والغرف . فقسمت هذه المبانى درجات أولى وثانية وثالثة ورابعة ، وتراوح ما فرض عليها بين ثمانية عشر ريالا على الوكايل التى من الدرجة الأولى ، ونصف ريال فقط على الحوانيت من الدرجة الرابعة [٤] .

تلك كانت قصة التنظيمات والإجراءات المالية ، التى لجأ إليها بونابرت بغية الحصول على المال بكل وسيلة. ونشط بوسيلج وغيره من عمال الإدارة المالية الفرنسيين لتنفيذ هذه الأوامر بكل دقة ، حتى أن المصريين سرعان ماوجدوا أن من المتعذر عليهم محاولة الإفلات من دفع الغرامة أو الضريبة أو تسديد الرسوم ، وعظم استياؤهم على وجه الخصوص من إنشاء المحاكم التجارية أو (محاكم القضايا) ومصلحة التسجيلات وإدارة أملاك الحكومة ، حتى أن مؤرخى الحملة الفرنسيين اعتبروا تذمر المصريين من هذه المحاكم ومصلحة التسجيلات أهم أسباب الثورة التى قامت بالقاهرة عقب انفضاض الديوان العام [٥] .

وكتب الشيخ الجبرتى يصف ما أحدثه إنشاء محكمة القضايا ، ومصلحة التسجيلات

---

(١) Ibid. 3323

(٢) Ibid. 3262

(٣) Ibid. 3449,3464,3472,3487

(٤) Ibid. 3486

(٥) Reybaud IV. 138

وما تركته أساليب منظماتهم المالية عموما من آثار سيئة فى نفوس المصريين بأسلوب من التهكم اللاذع فقال فى حوادث ١٦ ربيع الثانى ١٢١٣ — ٢٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨ « وفيه شرعوا فى ترتيب ديوان آخر وسموه محكمة القضايا ، وكتبوا فى شأن ذلك طومارا ، وشرطوا فيه شروطا ، ورتبوا فيه ستة أنفار من النصارى القبط ، وستة أنفار من تجار المسلمين ، وجعلوا قاضيه الكبير ملطى القبطى ، الذى كان كاتبا عند أيوب بك الدفتردار ، وفوضوا إليهم القضايا فى أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى ، وجعلوا لذلك الديوان قواعد وأركانا من البدع السيئة ، وكتبوا نسخا من ذلك كثيرة أرسلوا منها إلى الأعيان ، وألصقوا منها نسخا فى مفارق الطرق ورؤس العطف وأبواب المساجد ، وشرطوا فى ضمنه شروطا ، وفى ضمن تلك الشروط شروطا أخرى ، بتعبيرات سخيفة ، يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير ، لعدم معرفتهم لقوانين التراكيب العربية . ومحصله التحيل على أخذ الأموال ، كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم الشاهدة لهم بالتمليك ، فإذا أحضروها وبينوا وجهة تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لهم بالإرث لا يكتفى بذلك بل يؤمر بالكشف عليها فى السجلات ، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه فى ذلك الطومار ، فإن وجد تمسكه مقيدا بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت ، ويدفع على ذلك الإشهاد بعد ثبوته وقبوله قدرا آخر ، ويأخذ بذلك تصحيحا ويكتب له بعد ذلك تمكين ، وينظر بعد ذلك فى قيمته ، ويدفع على كل مائة اثنين ، فإن لم يكن له حجة ، أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل ، أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد فإنها تضبط لديوان الجمهور وتصير من حقوقهم . وهذا شىء متعذر وذلك أن الناس إنما وضعوا أيديهم على أملاكهم إما بالشراء أو بأيلولتها لهم من مورثهم ، أو نحو ذلك بحجة قريبة أو بعيدة العهد ، أو بحجيج أسلافهم ومورثيهم ، فإذا طولبوا بإثبات مضمونها تعسر أو تعذر لحادث الموت ، أو الأسفار ، أو ربما حضرت الشهود فلم تقبل ، فإن قبلت فعل به ما ذكر . ومن جملة الشروط مقررات على المواريث والموتى ، ومقاديرها متنوعة فى القلة والكثرة ، كقولهم إذا مات الميت يشاورون عليه ويدفعون معلوما كذلك ، ويفتحون تركته بعد أربع وعشرين ساعة ، فإذا بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان أيضا ، ولا حق فيها للورثة وإن فتحت على الرسم بإذن الديوان يدفع على ذلك الإذن مقررا ، وكذلك على ثبوت الورثة ثم عليهم بعد قبض ما يخصهم مقرر ، وكذلك من يدعى دينا على الميت يثبته بديوان الحشريات ، ويدفع على اثباته مقرراً ، ويأخذ له ورقة يستلم بها دينه ، فإذا استلمه دفع مقرراً أيضا ، ومثل ذلك فى الرزق والأطيان بشروط وأنواع وكيفية أخرى غير ذلك ، والهبات

والمبايعات والدعاوى والمنازعات والمشاجرات والاشهادات الجزئية والكلية ، والمسافر كذلك لا يسافر الا بورقة ، ويدفع عليها قدرا ، وكذلك المولود إذا ولد ويقال له إثبات الحياة ، وكذلك المؤجرات ، وقبض أجر الأملاك وغير ذلك[1] »

وقد تقدم كيف أن هذه المسائل كانت موضع بحث أعضاء الديوان العام الذين وصلوا إلى حلول أرضت الفرنسيين فى أكثرها ، ولكنه كان من المتعذر عليهم أن يقروا هؤلاء على ما أرادوه من تنظيماتهم المالية . ذلك أن أعضاء الديوان ما لبثوا أن اعترضوا اعتراضا شديدا على ضرورة تقديم مستندات التمليك لتسجيلها ؛ كما اعترضوا على فداحة رسوم المحاكم التجارية (محاكم القضايا) وأثبتوا اعتراضاتهم هذه فى الردود التى بعثوا بها إلى بونابرت ، وعندئذ وجد بونابرت أن يتخلص من هذه المعارضة بمحاولة تشكيل لجنة (لاقتراح) نظام جديد لتحديد قيمة الرسوم التى يجب دفعها عند الفصل فى القضايا ، فكتب إلى مونج وبرثوليه فى ١٨ أكتوبر لشكر أعضاء الديوان على ما بذلوه من جهد وعناية ، ويطلب إليهم تأليف هذه اللجنة . وانتهز بونابرت الفرصة فطلب إلى أعضاء الديوان أن يعملوا على تهدئة النفوس ، وإقناع القاهريين بالإخلاد إلى السكينة ، وأن ينصحوهم بإظهار الطاعة ، والرضا بالعيش فى علاقات حسنة مع الفرنسيين ، وعدم إثارة غضبهم ، وتعريض القرى للخراب والدمار نتيجة لحنق الفرنسيين عليهم . وكان سبب ذلك ما بلغ بونابرت من أن المهيجين قد عمدوا إلى ترويج الإشاعات الكاذبة عن عودة البكوات المماليك إلى القاهرة قريبا[2] .

ومع ذلك فإن شيئا لم يحدث لإزالة أسباب التذمر الحقيقية ؛ وذلك بمحاولة الوصول إلى حل (المسألة المالية) بصورة يرضى عنها أعضاء الديوان والمشايخ وسائر المصريين وفضلا عن ذلك فقد انعقد الديوان يوم ٢٠ أكتوبر ، وأحضرت « قائمة مقررات الأملاك والعقار » التى كان قد صدر بها أمر بونابرت منذ أربعة أيام . وتمت فى هذه الجلسة الموافقة على هذه المقررات ، ويبدو أن ذلك كان آخر أعمال الديوان إذ أن الديوان مالبث أن انفض بعد ذلك . غير أنه لم يكد يذاع أمر هذه المقررات على سواد القاهريين حتى انفجر بركان الثورة . ووصف الشيخ الجبرتى ذلك الحادث الذى حرك الثورة بقوله « وفى يوم السبت ١٠ جمادى الأولى ١٢١٣ — ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ —

(١) الجبرتى ٣ : ٢٠ — ٢١
(٢) Corresp. No. 3492

عملوا الديوان ، وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار ، فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة ، والأوسط ستة ، والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معافى ، وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين ، بحسب الحسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ، وألصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتميز الأعلى من الأدنى ، وشرعوا فى الضبط والإحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم ، وضبط أسماء أربابها ، ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم ، واستعظموا ذلك ، والبعض استسلم للقضاء ، فانتبذ جماعة من العامة ، وتناجوا فى ذلك . ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور . ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور ، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ، ولا قائد يقودهم ، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين [١] » ، وكانت الثورة .

وكان هؤلاء المتعممون الذين ذكرهم الشيخ الجبرتى هم بعض مشايخ الأزهر الذين فزع إليهم الناس عندما استبد بهم الضيق ، يشاورونهم فى الأمر ويسألونهم النصيحة . وفى الأزهر سرعان ما تألفت « لجنة من المتآمرين » الذين جمعوا حولهم الناقمين على الحكم الفرنسى ، فكان من بين هؤلاء عدد من المشايخ الذين أغضبهم عدم إشراك بونابرت إياهم فى منظمات الحكومة « الوطنية » الجديدة ومؤسساتها . وفضلا عن ذلك فقد أصدر السلطان فرمانا يحرض المسلمين على القيام ضد الكفرة الفرنسيين [٢] ، كما أن زعيمى المماليك « مراد وابراهيم » ظلا يبعثان بالرسل إلى الأزهر لتحريك الفتنة ، وأذاع هؤلاء أن بونابرت يريد إرغام المسلمين على اعتناق المسيحية ، وأن جيشاً من المماليك والعثمانيين سوف يحضر قريبا إلى الشاطىء المصرى لطرد الفرنسيين من البلاد . ولقيت دعوتهم آذانا صاغية وأقبل مشايخ الأزهر العلماء والمؤذنون يحرضون على الثورة ، حتى إذا كان يوم ٢١ اكتوبر انفجر بركانها [٣] .

غير أن هذه الثورة كانت قصيرة الأجل [٤] ، فقد استطاع بونابرت إخمادها ، بعد أن احتلت قواته الأزبكية ، والمرتفعات الممتدة بين القاهرة والقبة ، وصدرت

---

(١) الجبرتى ٣ : ٢٥ — ٢٦

(٢) Reybaud IV 142 — 8

(٣) Ibid. 139 — 142

(٤) انظر نقولا الترکی ٦٦

التعليمات فى اليوم التالى إلى الجنرال بون Bon (١) لمهاجمة حى الأزهر ، وإطلاق مدافعه على الجامع الأزهر إذا اقتضى الأمر فى ذلك ، كما عهد إلى الجنرال دومارتان Dumartin بمحاصرة الجامع وقطع السبل المؤدية إليه ، ثم دخل الفرنسيون « إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه ، وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثيابه أخرجوه (٢) » .

ومع أن نقولا الترکى يقول إن « الحرب (قد استقامت) ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع كبست الفرنساوية على جامع الأزهر ، وملكوا (الجامع) وسلبوا ما كان فيه من الودايع والدخاير (٣) » ، فالثابت — كما يؤخذ من رواية الشيخ الجبرتى ورواية الفرنسيين أنفسهم (٤) — أن الفرنسيين ارتكبوا فعلتهم الشنعاء فى اليوم الثانى من الثورة (٢٢ أكتوبر) . ومهما يكن من شىء فإنه لم يكد ينقضى اليوم الثالث حتى كانت الثورة قد أخمدت . ويؤخذ مما كتبه بونابرت ، سواء فى تقريره المفصل إلى حكومة الإدارة بعد ذلك ، أم إلى الجنرال رينيه Reynier ، أن الثوار قد تراوحت خسائرهم بين ألفين وألفين وخمسمائة ، بينما لم يفقد الفرنسيون سوى ستة عشر قتيلا ، وبلغ جرحاهم واحدا وعشرين ، وذلك عدا من ذبح منهم فى الطرق ، وقد بلغ هؤلاء عشرين رجلا من مختلف الرتب (٥) .

وكان من أثر ثورة القاهرة أن استبدل الفرنسيون بسياسة الود والصداقة مع المصريين والتحبب إليهم خطة الصرامة وسوء المعاملة ، فأنزل بونابرت عقوبات شديدة بعدد من المشايخ الذين اشتركوا فى هذه الثورة ، وأصدر أمراً فى ٣ نوفمبر ١٧٩٨ بإعدامهم ، ومصادرة ممتلكاتهم (٦) ، ثم عطل الديوان مدة شهرين ؛ فلم يعد تأليفه

(١) Corresp. No. 3524
(٢) الجبرتى ٣ : ٢٧
(٣) نقولا الترکى ٦٨
(٤) الجبرتى ٣ : ٢٦ — ٢٧ ؛ Reybaud. IV. 179 — 180
(٥) Corresp. No. 3539 (Au Gén. Reynier)
(٦) Ibid. 3571

إلا فى شهر ديسمبر ، عند ما رأى الخروج بحملته إلى الشام ، فأعلن عندئذ تشكيل الديوان فى منشور أذاعه على القاهريين فى ٢١ ديسمبر [١] . وكان يتألف فى هذه المرة من ديوانين : الديوان العمومى أو الكبير من ستين عضواً يمثلون سكان القاهرة ، وكان هذا الديوان ينعقد بدعوة من حاكم العاصمة ؛ والديوان الخصوصى أو الديمومى — كما سماه الشيخ الجبرتى — من أربعة عشر عضواً يختارون من بين أعضاء الديوان العمومى ، وينعقد هذا الديوان يومياً فى القاهرة . وكان جلوتيه Glautier ، أحد أعضاء المجمع العلمى المصرى ، المندوب الفرنسى فى هذا الديوان ؛ وسوغ بونابرت إعادة تشكيل الديوان بقوله إنه كان قد اقتص من أولئك الذين « أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة » ، وقد حسنت أحوال القاهريين ومعاملتهم فى أثناء مدة إبطال الديوان ، وأمره « البارى سبحانه وتعالى بالشفقة والرحمة على العباد (فامتثل) أمره » ونسى « ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقا (فقد) توجه (خاطره) إلى ترتيب الديوان كما كان [٢] » .

ومع ذلك فقد تعذر على الفرنسيين أن يتمتعوا بالهدوء والسلام فى البلاد ، بسبب انتشار الاضطرابات فى الوجهين البحرى والقبلى ، وكانت مقاومة المصريين قد بدأت بصورة جدية فى بعض البلدان قبل انفجار ثورة القاهرة ، ثم استفحل أمرها منذ شهر أكتوبر ، وتزعم مراد بك المقاومة فى الوجه القبلى . حقيقة كان بونابرت قد حاول الاتفاق مع مراد عقب فرار المماليك إلى الصعيد بعد هزيمة امبابة ، على أن يحكم مراد فى مديرية جرجا تحت سيادة الفرنسيين والتبعية لهم [٣] . وأوفد لهذه الغاية روشتى Rossetti قنصل النمسا السابق وصديق البكوات للمفاوضة مع مراد ، وتوقيع معاهدة لإنهاء الحرب بينه وبين بونابرت [٤] ، ولكن مراد أصر على المضى فى القتال ، ورفض الاعتراف بغير سيادة السلطان العثمانى ، وندد بأولئك « الفرنسيين الكفرة » الذين غزوا مصر على الرغم من المعاهدات القائمة [٥] ، وعلى ذلك فقد استمرت العمليات العسكرية فى الصعيد كما سيأتى ذكره مفصلا . وانعدم بسبب هذه

---

(١) Ibid. 3785

(٢) الجبرتى ٣ : ٣٨ — ٣٩

(٣) Corresp. No. 2921

(٤) Ibid. 2922

(٥) Reybaud III 388

الاضطرابات والثورات كل رجاء فى إمكان التعاون بين الفرنسيين والمصريين ؛ وزيادة على ذلك فقد شغل بونابرت ورجاله فى الشهور التالية بأمر الحملة الشامية ، عند مانشب الصراع العنيف بين فرنسا وقائدها فى مصر من جانب ، وبين أعضاء المحالفة الدولية الثانية من جانب آخر ؛ وكان تأليف هذه المحالفة التى انضمت إليها تركيا ، بعد ترددها الطويل السابق فى امتشاق الحسام ضد فرنسا ، من آثار هزيمة أسطول بروس فى موقعة « أبوقير البحرية » .

الحرب الشامية :

ذلك بأن مسألة بقاء الامبراطورية العثمانية أو انهيارها كانت من المسائل التى شغلت تاليران وبونابرت من أيام صلح كمبو فرميو على نحو ماتقدم ؛ واعتقد كلاهما أن انهيار هذه الامبراطورية واقع لامحالة ، وأن الواجب يقتضى من فرنسا ألا تدع الفرصة تمر دون الاشتراك مع سائر الدول فى اقتسام ممتلكات رجل أوروبا المريض ؛ على الرغم من علاقات الود والصداقة التى ربطت تركيا بفرنسا من أزمنة بعيدة . فكان من رأى تاليران ، عندما تقدم بتقريره المشهور إلى حكومة الإدارة فى ١٤ فبراير ١٧٩٨ أن إرسال الحملة إلى مصر يجب ألا يكون سبباً فى إنهاء هذه العلاقات ، ثم عاد فأكد ذلك فى تقرير آخر قدمه إلى حكومة الإدارة فى ١٦ مارس من العام نفسه(١) ، ولذلك اهتم بونابرت عند خروج الحملة إلى مصر بضرورة الاحتفاظ بصداقة العثمانيين وعدم استثارتهم ضد فرنسا . واعتقد بونابرت وتاليران أن فى استطاعتهما التوفيق بين غرضين متناقضين ، أحدهما يرمى إلى دعم علاقات المودة والصداقة مع تركيا ، بينما يهدف الآخر إلى اقتطاع جزء من ممتلكات هذه الدولة ، وقد توقف استمرار العلاقات الودية بين فرنسا وتركيا ، أو انفصامها وانضمام تركيا إلى أعداء الجمهورية ، على مدى نجاح السياسة الجديدة التى اتخذت لنشاطها ميدانين هامين ، أحدهما فى القاهرة ، والآخر فى القسطنطينية .

أما فى القاهرة فقد بدأ بونابرت هذه السياسة الجديدة عندما تحدث فى منشوره إلى « أهالى مصر جميعهم » عن صداقة الفرنسيين « لحضرة السلطان العثمانى » وإخلاصهم له ، وأعلن أن من أسباب مجىء الفرنسيين إلى هذه البلاد رغبتهم فى معاقبة المماليك ، الذين « امتنعوا عن طاعة السلطان(٢) » . وقد حرص بونابرت خلال

---

(١) Jonquière II 590 — 1

(٢) الجبرتى ٣ : ٤ — ٥

الشهور التالية على أن يدخل فى روع الباشا العثمانى فى مصر ، وباشا دمشق ، والصدر الأعظم ، وأحمد الجزار ، أنه لم يحضر إلى مصر مناصباً السلطان العداء ، أو لغرض الاعتداء على حقوقه فى هذه البلاد . فكتب إلى بكر باشا ، من معسكر الجيزة فى ٢٣ يوليو ١٧٩٨[١] ، أن غرض الفرنسيين من احتلال مصر إنما هو طرد المماليك بسبب خروجهم على الباب العالى ، وعدائهم للحكومة الفرنسية ، ويطلب إلى بكر باشا البقاء فى القاهرة نائبا عن السلطان العثمانى ، كما طلب إليه أن يؤكد للباب العالى أن استيلاء الفرنسيين على مصر لا يمكن أن يعد خسارة للدولة ، لأن الخراج الذى أرسلته مصر فى الماضى سوف يجرى إرساله إلى تركيا فى المستقبل . ومع أن بكر باشا آثر الخروج مع فلول المماليك الهاربة بزعامة إبراهيم بك ، « قاصدين البرية والديار الشامية[٢] » فقد كتب إليه بونابرت ثانية فى ٣١ أغسطس[٣] يطلب إليه العودة إلى القاهرة ، لاستئناف وظائفه بها ، ويؤكد له صداقته ، واحترامه لشخصه ؛ ولكن بكر باشا رفض إجابة دعوته .

وبسط بونابرت الغرض من مجىء الحملة إلى مصر ، فى كتاب بعث به إلى الصدر الأعظم فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨[٤] ، فقال : إنما هو معاقبة المماليك الذين أساءوا إلى التجارة الفرنسية ؛ ثم أخبر الصدر أن تاليران ، وزير الخارجية فى باريس ، قد عين سفيراً لحكومته لدى الباب العالى ، حتى يعقد اتفاقات مع تركيا لإزالة كل ماينشأ من صعوبات نتيجة للاحتلال الفرنسى فى مصر ، ولدعم أركان تلك الصداقة القديمة التى ربطت دائماً بين تركيا وفرنسا ، والتى يعتبرها بونابرت ضرورية للبلدين ولاغنى عنها . ولما لم يتلق بونابرت رداً على رسالته عاد فبعث بكتاب آخر إلى الصدر الأعظم فى ٩ نوفمبر[٥] ، أكد فيه صداقة الجمهورية للباب العالى ، ورفضها الانضمام إلى أعضاء المحالفة التى تألفت ضد تركيا ، من النمسا والروسيا . وقال بونابرت : إن الدول التى اقتسمت بولندة فيما بينها سابقاً ، تريد اليوم اقتسام تركيا ، ولذلك فواجب الباب العالى فى هذه الظروف أن يعتبر فرنسا دولة صديقة مستعدة دائما للعمل ضد أعدائه . ولما لم يجب الصدر الأعظم بشىء على هذه الرسالة كذلك ، بادر بونابرت فبعث إليه بكتاب

---

(١) Corresp. No. 2824

(٢) نقولا الترکی ٢٩

(٣) Corresp. No. 3206

(٤) Ibid. 3076

(٥) Ibid. 3596

آخر فى ١١ ديسمبر ، عهد بحمله إلى القسطنطينية فى هذه المرة إلى بوشان Beauchamp قنصل الجمهورية فى مسقط ، عسى أن يكون هذا الخطاب دليلا على صدق رغبة بونابرت فى المحافظة على علاقات الود والصداقة مع تركيا . غير أن بوشان الذى غادر الاسكندرية فى ١٣ فبراير من العام التالى سرعان ماوقع فى قبضة الانجليز وهو مايزال فى طريقه بالقرب من رودس .

وحاول بونابرت كذلك أن يستميل إليه الحكام وأصحاب الحل والعقد فى البلدان المجاورة لمصر ، والتى توقع أن تأتيه منها جيوش العثمانيين إذا قامت الحرب بينه وبين تركيا ، فكتب إلى عبد الله العظم ، باشا دمشق ، فى ٣١ أغسطس ١٧٩٨[١] ، يؤكد رغبته فى العيش معه بسلام ، ويردد ادعاءه المعروف أنه إنما حضر إلى مصر للانتقام من المماليك فحسب . وكان بونابرت قد كتب قبل ذلك بأيام قلائل (٢٢ أغسطس)[٢] إلى أحمد باشا الجزار ، حاكم صيدا وعكا وصاحب السلطان فى فلسطين ، يذكر السبب الذى دعاه إلى الحضور إلى مصر ، وهو معاقبة المماليك وقتالهم ، الأمر الذى يتفق تماماً ومصلحة الجزار باشا نفسه ، لأن هؤلاء المماليك كانوا ألد أعدائه وخصومه ، ونفى عن نفسه تهمة الرغبة فى قتال المسلمين ، وقال مدللاً على صدق دعواه : إن مالطة لم تكد تخضع له حتى أطلق سراح ألفين من الأتراك الذين ظلوا يرسفون فى أغلال الاسترقاق سنوات طويلة ، ناهيك بما فعله عند حضوره إلى مصر مع الأئمة والعلماء الذين أمنهم على حياتهم ووظائفهم ، كما وضع المساجد تحت زعامته ، وصار يهتم بشئون الحج ، والاحتفال بالمولد النبوى ، وغيره من الاحتفالات « الدينية والوطنية » .

وحمل هذه الرسالة كالميه — بوفوازان Calmet-Beavuoisins من ضباط هيئة أركان الحرب ، وكانت مهمته[٣] أن يؤكد للجزار صداقة الفرنسيين له ، وينفى تلك الشائعات التى زعم مروجوها « زوراً وبهتانا » أن بونابرت يريد الاستيلاء على بيت المقدس ، والقضاء على العقيدة الإسلامية ، كما كلفه بونابرت أن يعرض على الجزار صداقة الفرنسيين ، وينصحه بالعدول عن التسلح أو التدخل فى النزاع القائم إذا حدثت الجزار نفسه بذلك . وغادر بوفوازان بولاق فى طريقه إلى عكا فى ٢٤ أغسطس ، ولكنه لم يستطع النزول إليها بل هدد « بقطع رأسه » إذا فعل ،

---

(١) Ibib. 3205

(٢) Pièces Diverses. 97

(٣) Corresp. No. 3077

واضطر إلى العودة على نفس السفينة التى حملته إلى عكا[١] ، فوصل إلى دمياط فى ٧ سبتمبر ، ثم قدم إلى بونابرت بمجرد وصوله الى القاهرة تقريراً عن فشل مهمته والأخطار التى عرضت له والإهانات التى لحقت به [٢] ومع ذلك فقد كتب بونابرت إلى الجزار مرة أخرى فى ١٩ نوفمبر ، يؤكد له رغبته فى عدم الدخول فى حرب معه لأنه لايعدالجزار باشا عدواً له « بيد أن الوقت قد حان لأن يوضح الجزار باشا موقفه » حتى إذا ظل يسمح لإبراهيم بك بالاحتماء فى الحدود المصرية فإن بونابرت يعتبر ذلك عملا عدائياً ، ويرى لزاما عليه أن يزحف إلى عكا . أما إذا أراد الجزار أن يعيش فى سلام مع بونابرت ، فالسبيل إلى ذلك أن يعمل على إبعاد ابراهيم بك مسافة أربعين فرسخاً من الحدود المصرية ، وأن يطلق التجارة حرة بين دمياط وسوريا . ولقاء ذلك تعهد بونابرت بعدم الاعتداء على أملاكه ، وإطلاق التجارة حرة من جانبه بين مصر وسوريا فى البر والبحر [٣] .

غير أن كل هذه المساعى ما لبثت أن باءت بالفشل عندما أخفقت السياسة الفرنسية فى القسطنطينية ذاتها ، وانضم الباب العالى فى آخر الأمر إلى المحالفة الدولية ضد فرنسا وتفصيل ذلك أن فرنسا كانت قد اهتمت ببحث الوسائل التى ترجو منها المحافظة على علاقات الود والصداقة مع تركيا منذ أن قررت إرسال الحملة إلى مصر ، وصار من الواجب على حكومة الإدارة أن تبت فى هذا الموضوع بكل سرعة ، عندما توفى فجأة فى القسطنطينية فى أواخر عام ١٧٩٧ (أوبير دوبابيه) Oubert-Dubayet سفيرها فى تركيا ، فى وقت كانت قد تطايرت فيه الشائعات عن احتشاد السفن والجنود فى شواطىء فرنسا الجنوبية . فاقترح تاليران فى تقريره إلى حكومة الإدارة فى ١٤ فبراير ١٧٩٨ إرسال مفاوض ماهر إلى القسطنطينية ، يستطيع أن يرعى مصالح فرنسا فى تركيا، ولما كان من المتعذر اختيار السفير الجديد فى التو والساعة فقد أبقى (روفان) Ruffin سكرتير السفارة الأول فى القسطنطينية ثم رقى إلى منصب قائم بالأعمال فى ٧ مارس .

وظل منصب السفير خالياً حتى إذا بات إرسال الحملة إلى مصر أمراً مفروغا منه ، عاد تاليران فاقترح على حكومة الإدارة فى ١٦ مارس ضرورة إرسال سفير إلى تركيا تكون مهمته [٤] عند وصول أخبار نزول الحملة إلى الشواطىء المصرية ، أن يؤكد

---

(١) Reybaud. IV. 247

(٢) Jonquière II 536 — 39

(٣) Corresp. No. 3644

(٤) Jonquière II 591 — 2

للريس افندى — وزير الخارجية — صداقة فرنسا لتركيا ورغبتها فى أن تعيش فى سلام معها ، وأن يدخل مع الريس افندى فى مفاوضات ، تطول لمدة شهرين أو ثلاثة شهور حتى يتسع الوقت لتثبيت أقدام الفرنسيين فى مصر ، فيعرض على الباب العالى حلا لموقف : إما أن يبقى الباشا العثمانى فى مصر ، فتدار حكومة البلاد باسم الباب العالى ، على شريطة أن تظل القوة العسكرية فى أيدى الفرنسيين الذين يقومون بتحصيل الميرى والضرائب ويدفعون منها ١٥٠٠ كيسة أو ٢,٢٥٠,٠٠٠ فرنكا سنويا ، ويدخل فى ذلك ما يناله الباشا العثمانى فى القاهرة من مرتبات ومخصصات ؛ وإما أن يتنازل السلطان عن كل حقوقه فى السيادة على مصر إلى فرنسا ، لقاء أن تترك فرنسا له جزر الليفانت .

ثم كتب تاليران إلى روفان فى ١١ مايو ١٧٩٨ يبسط له أسباب الحملة على مصر ولم تكن تخرج عما ذكره تاليران فى تقاريره السابقة ، وقد وصلت إلى روفان هذه الرسالة فى ٢٨ يونيه ، فى وقت كانت قد بلغت فيه الأخبار القسطنطينية من مدة عن هدف الحملة وغرضها [١]

وكان الذائع كما جاء فى رسائل الباشوات والقضاة وعمال الحكومة فى المورة وكريت أن الفرنسيين إنما يبغون الاستيلاء على كريت والمورة ومصر ، الأمر الذى أزعج السلطان إزعاجا كبيراً ، لاسيما وأنه لم يكن لدى الباب العالى وقتذاك من القوة ما يكفى لإرغام الحكومة الفرنسية على إعطاء بيان يفسر استعداداتها العسكرية ، ويوضح أغراضها منها وعندما وصلت تعليمات تاليران الأخيرة استمر روفان يتظاهر بعدم معرفة هدف الحملة ، ثم ازداد مركزه حرجا بعد ذلك عندما بلغ السلطان سقوط مالطة ، وخشى العثمانيون أن يكون هدف الحملة الاستيلاء على مصر ذاتها ، حتى إذا كان يوم ١٧ يوليو ذاع نبأ وصول الحملة إلى الإسكندرية ومن ذلك الحين كان مقضياً بالفشل على كل محاولات الفرنسيين لاستمالة تركيا . غير أن تركيا لم تجد لديها من القوة ما يمكنها من إظهار عدائها لفرنسا علانية ، وعلى ذلك ، فقد اكتفى العثمانيون بالتضييق على روفان خاصة والفرنسيين عامة فى جميع أنحاء الدولة حتى اذا جاءت أخبار هزيمة الأسطول الفرنسى فى موقعة « أبى قير » كشفت تركيا القناع عن نواياها . ففى آخر سبتمبر ١٧٩٨ ألقى العثمانيون القبض على روفان وعلى الرعايا الفرنسيين وسجنوهم فكان معنى ذلك انقطاع العلاقات بين البلدين وإعلان الحرب من جانب تركيا على فرنسا [٢]

---

(١) Ibid. 595

(٢) Ibid. 229 Et Sqq.

وكان سبب الفشل فى القسطنطينية صعوبة المهمة التى كلف روفان القيام بها عند ما تعذر عليه إقناع الباب العالى بصداقة الفرنسيين له ، حين احتلت جيوشهم جزءاً من الممتلكات العثمانية . وعلاوة على ذلك فإن حكومة الإدارة لم ترسل إلى القسطنطينية ذلك السفير والمفاوض الماهر ، الذى أشار تاليران بضرورة إرساله ، وذلك على الرغم من أن بونابرت كان قد وافق على تقرير تاليران الذى قدمه إلى حكومة الادارة فى ١٦ مارس ١٧٩٨ ، ووافق على إرسال سفير إلى القسطنطينية . ويبدو أن السبب فى عدم ذهاب سفير فرنسى إلى تركيا فى الوقت المناسب هو أن بونابرت كان يتنازعه عاملان : عامل الرغبة فى السيطرة بنفسه على المفاوضات مع تركيا ، ثم حرصه على اشراك أولئك الذين يقبل النصح منهم فى مواجهة كل ما قد يحدث من أخطار ، نتيجة العمل بنصحهم ، حتى يطمئن إلى عدم خيانتهم له أو انصرافهم عن تأييده . وعلى ذلك فقد طلب بونابرت أن يكون تاليران نفسه السفير الفرنسى الجديد فى القسطنطينية . ثم بدلا من إرساله دون إمهال إلى تركيا ، اكتفى بإصدار أمره إليه فى ٢٣ مايو [١] ، لكى يكون على قدم الاستعداد لمغادرة باريس بمجرد صدور تعليمات أخرى ، حتى إذا تم الاستيلاء على مالطة بعث إليه بونابرت بأمر آخر فى ١٨ يونيه [٢] ، يطلب إليه الذهاب إلى القسطنطينية ؛ ثم أرسل فرقاطة لتحمل السفير الجديد إلى تركيا .

والحق أن مسئولية التأخير لم تكن كلها من نصيب بونابرت وحده ، ذلك أن تاليران نفسه لم يكن يرغب فى الذهاب إلى القسطنطينية ؛ إما خوفا من الوقوع فى قبضة الانجليز الذين كان لأسطولهم السيطرة الكاملة على البحر الأبيض ، وإما رغبة فى البقاء فى باريس لمواجهة العاصفة ، عند ما بدأ أفق السياسة يتلبد بالغيوم . على أن حكومة الإدارة سرعان ما وجدت الاستغناء عن خدمات تاليران فى وزارة الخارجية أمراً متعذراً ، بسبب اضطراب الموقف السياسى فى أوروبا . ولهذا اقترح تاليران أن يعين سفير آخر فى القسطنطينية . وقر الرأى على ذلك فى ١١ مايو ، أى قبل أن يبعث بونابرت بأوامره الأولى إلى تاليران (فى ٢٣ مايو) ببضعة أيام ، ومع ذلك لم يصدر أمر نهائى بتعيين سفير جديد إلا فى ٢ سبتمبر . ووقع الاختيار على ديكورش Descorches ممن خدموا سابقا فى تركيا . ثم ضاع وقت آخر قبل قيام ديكورش إلى القسطنطينية حتى إذا ما وصلت إلى باريس أخبار القبض على روفان وسجنه ، أوقف إرساله نهائيا ، واستطاع بونابرت عند إملاء مذكراته فى منفاه فى سنت هيلانة ، أن

(١) Corresp. No. 2608

(٢) Ibid. 2703

يحمل حكومة الإدارة مسئولية الفشل فى تنفيذ تلك السياسة التى سبق الاتفاق عليها بينه وبين أعضاء هذه الحكومة قبل إبحاره إلى مصر ؛ فإنه لما كان الفرنسيون — على حد قوله — لم يتقدموا إلى الباب العالى بأية بيانات توضح أغراض الحملة المرسلة إلى مصر ، ولم يحضر إلى القسطنطينية ذلك السفير الفرنسى الذى سبق الاعلان عن حضوره فقد اضطر الباب العالى إلى الارتماء فى أحضان الروسيا وانجلترة (١).

وكان وجود السفير الفرنسى فى القسطنطينية فى ذلك الوقت أمراً لا غنى عنه لا لإقناع العثمانيين بحسن نيات فرنسا فحسب ، بل ولإبطال مساعى الانجليز والروس ، الذين نشطت سياستهم نشاطا عظيما لاستمالة تركيا حتى تنضم إلى أعداء فرنسا . فقد دأب سبنسر سميث Spencer Smith ، الوزير الانجليزى ، على إفساد العلاقات بين تركيا وفرنسا ، وساعده فى ذلك ما كان يساور الأتراك من شكوك فى نيات الفرنسيين بسبب ما كان يذاع من شائعات عن أغراض الحملة التى يجهزها هؤلاء فى طولون . وانقلبت هذه الشكوك إلى مخاوف ظاهرة ، عند ما جاءت الأخبار منبئة بسقوط مالطة أولا ، ثم بوصول الحملة إلى الشواطىء المصرية . وراقب سبنسر سميث نشاط (روفان) وانتبه انتباها عظيما لكل ما كان يجرى من محادثات بينه وبين رجال الحكومة العثمانية ، واهتم كذلك بازيل تامارا Basile Tamara المندوب الروسى بمراقبة نشاط الفرنسيين فى القسطنطينية . وكان أعظم ما يخشاه الروس أن ينتشر نفوذ فرنسا فى الليفانت ، وبخاصة بعد استيلاء الفرنسيين على جزر الأيونيان . ثم زادت مخاوف القيصر بول الأول عند ما احتل بونابرت مالطة . فكانت هذه المخاوف سبباً فى أن يعمل القيصر من أجل الاتفاق مع تركيا ، على الرغم من رغبته فى السلام مع الجمهورية فاجتمع المندوب الروسى فى الاستانة بالريس افندى فى يوليو ١٧٩٨ ؛ ومن ذلك الحين سارت المفاوضات بين تركيا والروسيا من جانب ، والروسيا وانجلترا من جانب آخر ؛ وكان الغرض منها إقناع تركيا بالدخول فى محالفة ضد فرنسا ، وإعلان الحرب على الجمهورية . وتردد الباب العالى فى أول الأمر ، ولكنه سرعان ما نبذ هذا التردد ظهريا عند ما بلغته هزيمة الأسطول الفرنسى فى أبى قير ؛ فأصدر منشوراً فى ٩ سبتمبر ندد فيه بتصرف فرنسا ، ثم ألقى القبض على روفان ومواطنيه فى آخر سبتمبر وسجنهم ؛ وكان هذا العمل فى عرف السياسة العثمانية بمثابة إعلان الحرب على فرنسا

وكان اللورد نلسن Nelson من كبار مؤيدى سياسة إعلان الحرب على فرنسا من

---

(١) Bertrand I. 243 – 4

جانب تركيا . ذلك بأن نلسن كان يرغب بعد انتصاره الحاسم على أسطول برويس أن تجهز تركيا جيشاً وأسطولا لطرد الفرنسيين من مصر نهائيا . فأثنى على سبنسر سميث لما أبداه من همة وكفاءة لحمل الباب العالى على التفكير فى مصالحه تفكيراً صحيحاً ، وإعلان الحرب على فرنسا [١] . ثم أدركت الحكومة الانجليزية أهمية الاشتراك العسكرى السريع مع تركيا لإخراج الفرنسيين من مصر ، عندما أصر هنرى دنداس Dundas ، أحد الوزراء الانجليز الذين اهتموا بشئون الهند خاصة ، على ضرورة إخراج بونابرت وجيشه من مصر محافظة على المصالح الانجليزية فى الهند ذاتها . وقدم الاخصائيون فى مسائل الهند ، كالكولونيل فولارتون Fullarton ، ووارن هيستنجز Warren Hastings وغيرهما التقارير الضافية عن المركز الذى تتمتع به مصر فى تجارة العالم ، بفضل موقعها الجغرافى وتوضيح أهمية الاحتفاظ بالوضع القائم بها ، وعدم سقوطها فى أيدى الأعداء خوفا على مصالح انجلتره فى الهند ذاتها . وكان لتحول روسيا إلى العمل والاتفاق مع تركيا عدوتها القديمة أثر حاسم ولا شك فى إقناع الحكومة الانجليزية بضرورة التدخل [٢] .

وعلى ذلك فقد اختار جرانفيل Granville وزير الخارجية الانجليزية السير سدنى سميث Sir Sidney Smith ، وكان خبيراً بالشئون العثمانية ، للتعاون مع الأتراك فصدرت إليه التعليمات بالذهاب إلى القسطنطينية على ظهر (تيجر) Le Tigre ، المركب الحربية التى استولى عليها الإنجليز من الفرنسيين فى يونيه ١٧٩٥ [٣] ؛ حتى يعمل مع أسطوله بالاشتراك مع الأساطيل الروسية والعثمانية ، للدفاع عن الامبراطورية العثمانية « ولإزعاج العدو فى هذه الجهات » . ثم أعطى سدنى سميث حقوقا دبلوماسية تخوله الاشتراك مع أخيه سبنسر سميث ، الوزير الانجليزى فى القسطنطينية ، فى المفاوضات المنتظرة [٤] . واختار جرانفيل كذلك الكولونيل كوهلر Koehler ، ليذهب إلى القسطنطينية على رأس بعثة عسكرية مهمتها تنظيم الجيش العثمانى وإعداده . وذلك كما جاء فى تعليمات كوهلر فى ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، حتى يستطيع الحلفاء هزيمة الجيش الفرنسى فى مصر وتدميره ، وتحطيم نقالاته وسفنه الأخرى فى ميناء الاسكندرية .

وقد أبحر كوهلر إلى القسطنطينية فى أوائل ديسمبر من العام نفسه . أما السير سدنى سميث فقد وصل القسطنطينية فى آخر ديسمبر ، فى وقت كانت قد قطعت المفاوضات

---

(١) Nelson III 158

(٢) Charles-Roux-L'Angleterre. I. 90 — 97; 108 — 112 Et Sqq.

(٣) Barrow I .234

(٤) Nelson III 216

شوطا بعيداً بين الريس أفندى وسبنسر سميث من جانب ، ثم بين الأول والمندوب الروسى من جانب آخر ، وكان غرض الإنجليز أن تنزع تركيا ، فى نطاق المحالفة المزمع عقدها ، النضال ضد الفرنسيين فى الشرق (١) . وقد أسفرت المفاوضة عن عقد محالفة دفاعية هجومية لمدة ثمانى سنوات ، بين روسيا وتركيا ، وقعها فى يوم ٢٥ ديسمبر كل من تمارا وأحمد عاطف الريس أفندى(٢) . فتعهد كل من المتعاقدين بضمان أملاك الآخر ، ونصت المحالفة على أن الغرض منها المحافظة على ممتلكات روسيا وتركيا ، لا الرغبة فى التوسع ، وذلك حرصا من الدولتين المتعاقدتين على حفظ التوازن الدولى ، وتأييد السلام فى أوروبا . ثم دعت الدولتان المتحالفتان سائر الدول الأوروبية ، كالنمسا وانجلترة وبروسيا وجميع رؤساء الحكومات الأخرى للانضمام إلى المحالفة ، تحقيقا لهذا الغرض نفسه .

وفى ٥ يناير ١٧٩٩ عقدت انجلترة محالفة مع تركيا ، وقعها من الجانب الإنجليزى كل من سدنى سميث وسبنسر سميث(٣) . وجاء فيها « أن جلالة ملك بريطانيا ، الذى تربطه بأمبراطور روسيا أواصر المحالفة الوثيقة ، قد انضم الآن فى هذه المحالفة (المبرمة بين انجلترا وتركيا) إلى المحالفة الدفاعية التى تم إبرامها أخيراً ، بين السلطان العثمانى وقيصر روسيا » .

فضمن الطرفان المتعاقدان كل منها أملاك الآخر ، وتعهد جورج الثالث ملك انجلترة بضمان جميع ممتلكات الامبراطورية العثمانية دون أى استثناء ، وكما كانت قبل الغزو الفرنسى فى مصر . وتعهد السلطان العثمانى من جانبه بضمان الممتلكات البريطانية دون استثناء كذلك . وفضلا عن ذلك فقد نصت المعاهدة على ضرورة مواصلة الحرب بالاشتراك فيما بين الحليفين المتعاقدين ؛ فلا يقدم أحدهما على إبرام الصلح منفرداً مع الأعداء دون موافقة الآخر . وبذلك مهد عقد هاتين المعاهدتين لتأليف المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا . إذ أنه سرعان ما انضمت مملكة نابولى الى الحلفاء بمقتضى معاهدة القسطنطينية فى ٢١ يناير ١٧٩٩ ، كما ضغطت كل من انجلترة وروسيا على الحكومة النمساوية ، فأعلنت النمسا الحرب على فرنسا فى ٢٤ يناير ، وظلت بروسيا وحدها خارجة عن نطاق هذه المحالفة (٤) .

---

(١) Charles-Roux-L'Angleterre. I. 133

(٢) Noradounghian II 24 — 27

(٣) Ibid. II. 28 — 31

(٤) Charles-Roux-L'Angleterre.I. 132

وما إن تم توقيع هاتين المحالفتين حتى شمر السير سدنى عن ساعد الجد ، وأخذ يدفع الأتراك ، دفعا لانجاز استعداداتهم لبدء العمليات العسكرية دون إبطاء . وكان أكثر ما أثار همومه ومتاعبه حالة الضعف التى كانت عليها البحرية العثمانية ، حتى إنه كان من المتعذر الاعتماد على الأتراك وحدهم للقيام بأى عمل جدى دون مساعدة خارجية فعول السير سدنى على أن يطلب النجدة من انجلترة ، فكتب فى ذلك إلى اللورد نلسن (فى ٢٤ يناير)[١] كما أنه طلب الإمدادات المالية من حكومته حتى يمكن تجهيز الاسطول العثمانى ، أو تقدم هى اسطولا انجليزيا للعمل بدلا منه . وفضلا عن ذلك فقد طفق السيرسدنى يكثر من عقد الاجتماعات مع الوزراء العثمانيين لبحث برامج العمليات العسكرية والبحرية ضد « الحملة » فى مصر . ثم أبحر أخيراً إلى رودس للاتفاق مع حاكمها حسن بك ، والى عكا للاتفاق مع حاكمها الجزار باشا ، بصدد برامج العمليات الحربية[٢] ولقى سدنى سميث فى أثناء ذلك كله متاعب جمة ، سببها غضب اللورد نلسن الذى ساءه أن تفلت من يده فرصة الإشراف على حصار مصر ، والدفاع عن الشواطىء التركية ، وأن يعين للقيام بهذه العمليات الهامة أحد الضباط الذين لم يشتركوا فى معركة النيل (أو معركة أبو قير البحرية) . فضلا عن إعطاء ذلك الضابط (أى سدنى سميث) حقوقا تجعله شبه مستقل عن قيادة نلسن فى البحر الأبيض[٣] . وزادت متاعب السير سدنى بسبب عدم وصول كوهلر ، الذى تأخر خروجه من انجلترة ، فى وقت كانت الحاجة فيه ماسة إلى تنظيم القوات البرية العثمانية وإعدادها . وبخاصة عندما بدأ بونابرت نفسه يتأهب للزحف على سوريا فى يناير ١٧٩٩[٤] .

ذلك أن أسبابا عدة كانت قد أقنعت بونابرت بضرورة غزو الشام ، قبل أن يبدأ أعداؤه الهجوم عليه فى مصر . فقد بعثت إليه حكومة الإدارة ، منذ أن أخفقت مساعيها السياسية فى القسطنطينية ، بكتاب فى ٤ نوفمبر ١٧٩٨[٥]؛ تذكر فيه استحالة المواصلات بين مصر وفرنسا ، وإرسال الجند والذخيرة إلى بونابرت ما دام الإنجليز والروس أصحاب السيطرة فى البحر الأبيض . وتطلب إليه أن يتخذ ما يراه من وسائل تكفل له الاعتماد على موارده فى مصر فحسب . ثم تركت له أن يختار بين خطط ثلاث للعمل :

---

(١) Barrow I. 251 — 3
(٢) Charles-Roux Op. Cit. I. 140 — 2
(٣) Barrow I 235 — 246; Nelson III 216 — 8
(٤) Charles-Roux Op. Cit. 141
(٥) Ibid. 114 — 5

أولها البقاء فى مصر مع دعم مركزه بها ، بصورة تمكنه من دفع هجوم الأتراك عليه . وثانيها التقدم إلى الهند ، حيث يجد كما هو منتظر شعوباً على استعداد للانضمام إليه ، بغية تقويض دعائم السيطرة الإنجليزية فى تلك البلاد . وثالثها الزحف براً إلى القسطنطينية ، فيسبق بذلك عمليات العدو الذى يهدده . ذلك بأن صعوبات الموقف السياسى فى أوروبا ما كانت تسمح لحكومة الإدارة بإصدار أية تعليمات أخرى ، كما أن العودة إلى فرنسا باتت متعذرة . ولما كان بونابرت قد زحف بجيشه على سوريا، فقد يبدو أنه إنما فعل ذلك تنفيذاً لتعليمات حكومة الإدارة ، غير أن هذه التعليمات وصلت إلى بونابرت يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ ، أى بعد أن أخذ يضيق نطاق الحصار على عكا بنحو أسبوع .

وواقع الأمر أن بونابرت كان قد كتب إلى حكومة الإدارة منذ ١٧ ديسمبر[١] سنة ١٧٩٨ ، ينبئها بما كان يقوم به الأتراك فى سوريا من استعدادات عدائية ضده ، ولما كان الجزار قد امتنع عن الرد على رسائله ، ووصلت إلى بونابرت التقارير من رينييه عن زحف جند إبراهيم بك والجزار باشا صوب الحدود المصرية (٣٠ ديسمبر) ، ثم بلغه نبأ احتلال الجزار لقلعة العريش ، وكانت العريش على مسيرة خمسة أيام فحسب من القطية آخر معاقل الفرنسيين فى الحدود الشرقية[٢] فقد قرر بونابرت لهذه الأسباب جميعاً أن يسبق أعداءه ببدء الهجوم من جانبه ، وأصدر أمره فى ١١ يناير سنة ١٧٩٩ لطليعة الجيش بالسير نحو العريش ، ثم استمر فى الأيام القليلة التالية إصدار الأوامر الخاصة بالعمليات العسكرية . وفى ٦ فبراير بدأت الحملة السورية بوصول الجيش إلى قطية . فلم تمض أيام ثلاثة حتى كان الفرنسيون قد التحموا مع حامية العريش فى معركة حامية . وفى ١٠ فبراير غادر بونابرت القاهرة ، فبلغ العريش يوم ١٧ فبراير؛ واحتشدت جموع الفرنسيين ومدفعيتهم تحت أسوارها ، واشتد إطلاق نيران المدافع على العريش ، حتى اضطر إبراهيم أغا حاكمها إلى توقيع شروط التسليم فى ٢٠ فبراير ، فأخليت القلعة ، واحتل الفرنسيون العريش ، وأمضى الجيش بها بضعة أيام للراحة ، واستؤنف الزحف بعدها إلى سوريا[٣] .

وكان بونابرت قبل مغادرته القاهرة بساعة واحدة فى طريقه إلى العريش قد كتب إلى حكومة الإدارة يبسط الأسباب التى أقنعته بالهجوم على سوريا[٤] ؛ فقال : إن

---

(١) Corresp. No. 3767

(٢) Reybaud IV. 240,256

(٣) Ibid. 310 — 15

(٤) Corresp. No. 3952; Reybaud. IV. 257 — 8

الانجليز قد حصلوا من الباب العالى على وعد بإعطاء أحمد الجزار باشوية دمشق إلى جانب عكا ، وأن عبد الله باشا وغيره من الباشوات العثمانيين يقيمون الآن فى عكا استعداداً للهجوم على مصر ، وأنه — أى بونابرت — سوف يغادر القاهرة لقتالهم .

أما الأغراض التى يرجو الوصول إليها من هذا الزحف ، فقد لخصها بونابرت فى قوله إنها أولا دعم فتوح الفرنسيين فى مصر ، ودفع خطر الهجوم على هذه البلاد من أية جيوش قد تنوى الزحف عليها من جهة الحدود الشرقية ، أو تريد الاشتراك فى العمل مع جيش أوروبى قد ينزل إلى الشواطىء المصرية ؛ وثانياً إرغام الباب العالى على توضيح موقفه بصورة تساعد على نجاح المفاوضات التى لاشك فى أن حكومة الإدارة قد بدأتها مع الباب العالى فى القسطنطينية ، ثم تأييد (بوشان) الذى أرسل فى مهمة لنفس الغرض إلى القسطنطينية ؛ وثالثا حرمان الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض من تموين سفنه من سوريا ؛ وذلك عند استطاعة بونابرت خلال شهرى الشتاء اللذين بقيا له أن يجعل من الشاطىء السورى منطقة « صديقة » ، سواء أتحقق ذلك بالطرق الدبلوماسية ، أم بحد السيف والمدفع . ومما يجدر ذكره أن بونابرت مالبث أن ختم رسالته هذه بقوله : إنه ما كان يسعه عند قيامه بهذه الحملة التفكير فى موقف الجمهورية الفرنسية ذاتها ، لانقطاع أخبارها عنه مدة شهرين كاملين .

وواصل الجيش زحفه بعد سقوط العريش ، فاحتل الفرنسيون خان يونس ، ثم سقطت غزة والرملة واللد ، وحاصر الجيش يافا فسقطت بعد أربعة أيام فى ٧ مارس سنة ١٧٩٩ ، وفى ٩ مارس أرسل بونابرت إلى شيوخ نابلس يخيرهم بين الحرب والسلام ، حتى إذا اختاروا السلام طردوا من نابلس المماليك ورجال الجزار باشا . كما أصدر فى اليوم نفسه منشوراً موجهاً إلى شيوخ وعلماء وأهل غزة والرملة ويافا ، يطلب منهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة ، ويعدهم باحترام شعائرهم وعقائدهم الدينية ، ونشر العدالة بينهم [١] . ثم كتب إلى الجزار يدعوه إلى ترك القتال والعيش فى سلام مع الفرنسيين ، والانضمام إليهم ضد أعدائهم المماليك والانجليز [٢] . وفى ١٣ مارس كتب بونابرت تقريراً مفصلا يصف فيه لحكومة الإدارة موقف الجزار العدائى ، وإخفاق جميع ما قام به من محاولات لاستمالته . كما تضمن هذا التقرير ذكر المعارك التى خاضها جيش بونابرت فى العريش وغزة ويافا خصوصاً . ووجد بونابرت فى يافا عدداً كبيراً من المصريين المحتمين فى قلعتها ، ومن بينهم السيد عمر مكرم .

---

(١) Corresp. No. 4022

(٢) Ibid. 4025

فلم يتعرض لهم بأذى ، بل إن بونابرت على حد قوله فى الرسالة التى وصفت حوادث الغزو فى الرملة ومدينتى اللد ويافا ، وقرئت فى ديوان القاهرة ، قد « رق قلبه لأهل مصر الذين كانوا فى يافا من غنى وفقير ، فأعطاهم الأمان ، وأمر برجوعهم الى بلدهم مكرمين [١] » .

على أن الوباء سرعان ما انتشر بين الجند المرابطين فى يافا ، وزاد من خطره وجود حوالى ثلاثة آلاف من أسرى العثمانيين فى حالة رثة سيئة . فكثرت الإصابات بين الفرنسيين ، ولما كان هؤلاء متذمرين من قلة ما لديهم من مؤن ، وكان الجيش على وشك استئناف الزحف على العدو ، فقد بات من واجب قائد الحملة العام أن يفصل فى أمر هؤلاء الأسرى . ولهذا عقد بونابرت مجلساً حربياً لبحث هذه المسألة ، ورؤى فى بادىء الأمر أن يرسل الأسرى الى مصر ، ولكن صعوبات عدة حالت دون ذلك ؛ منها عدم وجود المؤن اللازمة لهؤلاء الأسرى فى أثناء سيرهم الشاق الى مصر ، ويتعذر الاستغناء عن عدد من الجند الفرنسيين لحراستهم ، كما كان يخشى من وقوعهم فى قبضة الانجليز إذا هم أرسلوا بحراً الى مصر . فقر الرأى على إعدامهم رمياً بالرصاص ؛ وذلك بدلا من أن يتركوا فى يافا يقضى عليهم الجوع بها ، أو ينتهزون الفرصة للانضمام الى جيش العدو ثانية ، فأعدموا . ولا جدال فى أن اعدامهم كان وصمة عار فى جبين قائد الحملة . وذلك باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم [٢] . لأنه مهما كان نوع الأعذار التى انتحلت لارتكاب هذه الجريمة الشنيعة . فإن هؤلاء المقاتلين كانوا قد آثروا التسليم ، وفق شروط اتفقوا عليها مع بوهارنيه Beauharnais وكروازييه Croisier من ياوران بونابرت . وما كان ينبغى بحال من الأحوال ، ومهما كانت الأسباب أن يخلف الفرنسيون وعودهم ، وأن يخرقوا قوانين الحرب المعترف بها . وفضلا عن ذلك فقد كان فى وسع بونابرت ، كما يقول بعض أنصاره ، أن يوفق بين ما يتطلبه العمل من أجل المحافظة على جيشه ، وما كان يقتضيه واجب التمسك بتلك الشروط التى ارتضاها المحاربون فى ميدان القتال . وقد لقى بونابرت جزاء ما فعلت يداه ، عند ما أصر العثمانيون وأحلافهم الذين نجوا من مذابح يافا ، على المقاومة بكل شدة ، أخذاً بثأر إخوانهم . فجنى بونابرت تحت أسوار عكا ثمار ما غرسه على شاطىء يافا [٣] .

---

(١) الجبرتى ٣ : ٥١ — ٥٣

(٢) Reybaud. IV. 341 — 58

(٣) Ibid. 358

فقد استأنف الفرنسيون زحفهم بعد سقوط يافا ، فاحتلوا حيفا ؛ ثم وصلوا الى عكا ، وكانت ذات تحصينات منيعة . فبدأ بونابرت فى حصارها فى ١٨ مارس . وكان حصاراً شاقاً طويلاً استمر ثلاثة شهور ، صمدت فى أثنائها عكا أمام قوات بونابرت ، بفضل ما أبداه أحمد الجزار من ضروب المقاومة العنيدة ، وبفضل المساعدة التى استطاع السير سدنى سميث أن يقدمها الى العثمانيين المحاصرين ؛ وكان قد تمكن من الوصول الى عكا قبل بونابرت بيومين اثنين فحسب . وفضلا عن ذلك فقد استطاع السير سدنى أن يبقى الطريق مفتوحاً لوصول النجدات من رودس الى عكا ، وأن يشتت أسطولاً فرنسيا كان يحمل مدافع الحصار الى بونابرت (١) . كما أحضر على ظهر سفينته (تيجر) الى عكا الكولونيل فيليبو Phélipeaux ، زميل بونابرت فى مدرسة بريين Brienne الحربية ، وأحد المهاجرين الذين انضموا الى أعداء الثورة منذ عام ١٧٩٢ . وقد التحق فيليبو بعد ذلك بخدمة انجلترة بوصفه من ضباط المدفعية ، وقدمه الآن السير سدنى سميث الى الجزار باشا باعتباره خير من يستطيع الإشراف على عمليات الدفاع عن عكا المحاصرة (٢) ، وقد قام فيليبو بواجبه على خير وجه ، وكثيرا ما حاول بونابرت اقتحام أسوارها فأخفق فى هجومه المتكرر على عكا ، فى ٤ ، ٨ ، ١٠ مايو ، حتى اضطر أخيراً الى رفع الحصار عنها فى ١٧ مايو .

وحاول بونابرت فى أثناء حصار عكا أن يستميل إليه شيوخ وزعماء البلدان المجاورة ، فكتب إلى ملاّ مراد زاده بدمشق ، يطمئنه على استمرار الحج إلى مكة المكرمة ، والمحافظة على شعائر المسلمين فى دمشق ؛ كما كتب يستميل إليه ابن الشيخ عمر ظاهر ، الذى خلفه الجزار فى باشوية صيدا . بعد أن قضى عليه ، فلجأ ابنه الشيخ عباس بن الظاهر إلى جبل الدروز ، وعاش معززاً مكرماً بينهم ، واستمتع بنفوذ عظيم ، يكاد لا يقل عن نفوذ أميرهم بشير الشهابى . فكتب إليه بونابرت الآن يعده بإرجاعه إلى حكومة البلدان التى اغتصبها الجزار من أبيه . وكتب إلى الأمير بشير يعده عند ظفره بضمان استقلاله ، وإعطائه ميناء بيروت ، وتخفيض الجزية التى يدفعها . كما كتب إلى شيخ نابلس يستميله إليه (٣) . وقد لبى الدروز دعوة بونابرت ، فحضر وفد منهم كان عباس بن الظاهر على رأسه لتحية بونابرت وعقد محالفة معه (٤) . غير أن هذه

---

(١) Barrow I 265,284

(٢) Reybaud V 258 — 9; Barrow I 193 et. Sqq.

(٣) Corresp. Nos. 4044,4047,4097

(٤) Reybaud. V. 263 — 4

المساعى ما كانت لتسفر عن نتيجة جدية ، ما دام بونابرت عاجزاً عن اقتحام أسوار عكا المنيعة ، وعاجزاً عن الزحف إلى الأمام ومطاردة العدو .

حقيقة استطاع بونابرت أن يحرز انتصاراً كبيرا على قوات العثمانيين المحتشدة فى جبل طابور فى ١٦ إبريل ١٧٩٩ ، وأصبح الطريق إلى الشام مفتوحا بفضل هذا الانتصار ، ولكن وجود معقل الجزار باشا الحصين فى عكا دائما فى مؤخرته منعه من استئناف الزحف ، بل إن بونابرت ما لبث أن أرسل إلى حكومة الإدارة فى ١٠ مايو (١) تقريراً مفصلا عن جميع المعارك التى خاض جنده غمارها منذ حصار عكا ، وقد تحمل جيشه فى أثنائها خسائر كبيرة ، فقتل من قواده بون Bon ، وكفاريللى ، وديتروى Detroye ، وهوراس ساى Horace Say . وكان من الواضح أن بونابرت قد اعتزم رفع الحصار عن عكا والعودة إلى القاهرة . وهكذا لم تمض أيام قليلة حتى كتب بونابرت إلى ديوان القاهرة فى ١٦ مايو يعلن عزمه على مغادرة الشام ، ويعد بالوصول إلى القاهرة سريعا (٢) . وفى اليوم التالى أذاع بونابرت نداء بين الجند أبلغهم فيه قرار العودة إلى مصر (٣) .

ومنذ ٢٠ مايو صدرت الأوامر النهائية باتخاذ الترتيبات اللازمة لتنظيم تقهقر الجيش عن عكا والعودة إلى مصر ، فغادر الجيش عكا ، ثم مر فى تقهقره بيافا وغزة ، ووصل إلى العريش فى أول يونيه . وفى ١٤ يونيه دخل بونابرت القاهرة دخول الظافر المنتصر ، وأقيمت الاحتفالات سترا لهزيمة عكا . فوصف المعلم نقولا الترك موكب بونابرت بقوله (٤) : « فدخل مصر بموكب شهير ، ورآه الكبير والصغير ، ومشت أمامه جميع العساكر الفرنساوية ، وحكام وأعيان وعلماء وأغاوات مدينة مصر المحمية ودخل من باب النصر ، بالعز والنصر ، وكان يوما عظيما » . ولما كانت قد تطايرت الشائعات عن وفاته فى أثناء الحملة الشامية ، وانتشرت الاضطرابات فى القطر بسبب غيبته الطويلة ، فقد وجد لزاما عليه أن يقضى على كل شك يكون قد ساور القاهريين فى حقيقة انتصاره . وأصدر لهذه الغاية منشوراً فى ١٩ محرم ١٢١٤ (٢٣ يونيه ١٧٩٩) « من محفل الديوان الخصوصى بمحروسة مصر » ، لإذاعته فى القاهرة ، وفى المديريات تحدث فيه عن دخوله القاهرة من « باب النصر يوم الجمعة فى موكب عظيم ، وشنك

---

(١) Corresp. No. 4124

(٢) Ibid. 4136

(٣) Ibid. 4146

(٤) نقولا الترك ١٠٤

جليل فخيم ، وصحبته العلماء ، والوجاقات السلطانية ، وأرباب الأقلام الديوانية ، وأعيان التجار المصرية ، وكان يوما عظيما مشهوداً ، وخرجت أهل مصر لملاقاته ، فوجدوه هو الأمير الأول بذاته وصفاته ، وظهر لهم أن الناس يكذبون عليه ، شرح الله صدره للاسلام . والذى أشاع عنه الأخبار الكاذبة العربان العاجزة ، والغز الهاربة ، ومرادهم بهذه الإشاعة هلاك الرعية ، وتدمير أهل الملة الإسلامية ، وتعطيل الأموال الديوانية ، لا يحبون راحة العبيد ، وقد أزال الله دولتهم من شدة ظلمهم ، إن بطش ربك لشديد » .

وقد بسط بونابرت فى هذا المنشور أخبار انتصاراته فى الحرب الشامية ، ثم ما فعله فى عكا على وجه الخصوص عندما خرب أسوارها ، وهدم قلعتها التى تحصن بها الجزار باشا . وجاء فى هذا المنشور أن بونابرت إنما رجع « إلى مصر المحروسة لأجل شيئين : (الأول) أنه وعدنا برجوعه إلينا بعد أربعة أشهر ، والوعد عند الحر دين . (والثانى) أنه بلغه أن بعض المفسدين من الغز والعربان يحركون فى غيابه الفتن والشرور فى بعض الأقاليم والبلدان[١] » . وقد فصل بونابرت حوادث هذه « الفتن والشرور » التى حدثت فى غيابه فى تقرير له إلى حكومة الإدارة من القاهرة فى ١٩ يونيه[٢] . فتحدث عن اشتعال الثورة فى بنى سويف ، وهجوم إحدى السفن الإنجليزية على الاسكندرية ، وضربها بالمدافع فى شهر فبراير ١٧٩٩ ، ثم غرق (تجليامنتو) Tagliamento ، من سفن المدفعية الفرنسية ، فى اشتباك لها مع العدو أمام القصير فى ٦ فبراير ، ثم قيام الثورة فى إحدى مدن مديرية الشرقية وإحراق هذه المدينة . كما ذكر مطاردة العربان بجوار الجيزة ، وثورة مصطفى بك أمير الحج[٣] ، وثورة البحيرة ، وكان سببها ادعاء رجل من أهل درنه أنه المهدى المنتظر ، فتبعه مئات من المغاربة ، واشتعلت الاضطرابات فى دمنهور ، التى ما لبث هذا المهدى حتى استولى عليها ، فلم تخمد الثورة بها إلا عند حضور الجنرال لانوس Lanusse ، الذى أوقع بأهل دمنهور مقتلة عظيمة ، واضطر المهدى إلى الفرار إلى الصحراء بعد أن جرح[٤] . وقد اضطر لانوس كذلك إلى الاشتباك فى قتال مع الثوار عند بحر مويس . وفضلا عن ذلك فقد وصل إلى السويس مركبان انجليزيان أطلقا عليها القذائف ثم انسحبا (فى ٤ مايو) .

---

(١) الجبرتى ٣ : ٧٣ — ٧٥

(٢) Corresp. No. 4188

(٣) Jonquière. V. 7 et. Sqq.

(٤) Ibid. 65 et. Sqq.

وشغل بونابرت فى أثناء إقامته بالقاهرة بالقضاء على الفتن ، وتهدئة النفوس . ولـكن سرعان ما جاءته الأخبار عن وصول الحملة العثمانية إلى الشواطىء المصرية . وكان بونابرت يتوقع مجىء هذه الحملة من مدة ، وصار يتخذ العدة لإتمام التحصينات اللازمة ، خصوصاً فى العريش وقطية والاسكندرية ، ويستعد لمقابلتها منذ عودته إلى القاهرة . ونزل الأتراك عند «أبو قير» فى ١٤ يوليو ، ثم احتلوا قلعتها فى ١٧ يوليو ، وانتقل بونابرت من القاهرة إلى الرحمانية فى ١٩ يوليو ، لمواجهة الخطر الجديد ، واتخذ مقر قيادته فى الإسكندرية . فلم تمض أيام قلائل حتى التحم الفرنسيون مع العثمانيين فى معركة « أبو قير البرية » فى ٢٥ يوليو . وكانت حربا شديدة انهزم فيها العثمانيون شر هزيمة ، وجرح حسين سيد مصطفى باشا قائدهم[١] . ثم سلمت قلعة « أبو قير » فى ٢ أغسطس[٢] . وأرسل بونابرت التقارير الضافية عن هذه المعركة إلى حكومة الإدارة فى ٢٨ يوليو ، ثم فى ٤ أغسطس ١٧٩٩[٣] ، وقدر خسائر الأتراك فى المعركة بنحو ثمانية عشر ألف جندى . وفى ١١ أغسطس عاد بونابرت إلى القاهرة .

رحيل بونابرت إلى فرنسا :

وكان من أثر الانتصار فى هذه المعركة أن زال كل خطر على مصر من جانب العثمانيين ، على الأقل لبضعة شهور تالية ؛ وذلك لأن هذا الفصل من فصول السنة ، لم يكن يسمح باستئناف العمليات العسكرية الهجومية من ناحية البر ، فضلا عن أن اندحار العثمانيين كان لايشجعهم على إنزال قوات جديدة من البحر إلى الشاطىء المصرى[٤] . وكان الفرنسيون محقين عندما نشرت صحيفتهم (لوكوربيه دوليجبت) فى ٦ أغسطس أن انتصار « أبو قير » قد أنهى عمليات « حملة السنة السابقة الدفاعيــة[٥] » . بيد أن معركة « أبو قير البرية » تمخضت عن نتائج أخرى هامة ؛ إذ استطاع الفرنسيون ، بفضل اتصالهم بالعثمانيين والسير سدنى سميث ، أن يقفوا على شىء كثير مما كان يحدث فى أوروبا ، بعد أن كادت تنقطع عنهم تماما أخبار القارة ، منذ أن تحطم أسطولهم فى أول أغسطس من العام السابق . وكان للأخبار التى جاءتهم

---

(١) Sidney Smith 58 — 102 (Trans of Berthier's Report, 11 Thermidor); Jonquière. V. 395 — 484

(٢) Pièces Diverses 118 — 122

(٣) Corresp. Nos. 4323,4334

(٤) Berthier-Mémoires (1 re. Partie) 165; Jonquière. V. 460

(٥) Le Courrier de L'Egypte. No. 35 Du 19 Thermidor VII

عن طريق العثمانيين ، والسير سيدنى سميث خصوصاً ، أعظم الأثر فى إقناع بونابرت بضرورة العودة إلى فرنسا بكل سرعة .

فقد انقطعت أخبار الوطن عن بونابرت من مدة طويلة ، حتى اضطر إلى الخروج إلى سوريا وهو لايزال متعطشاً إلى هذه الأنباء ، فلم يظفر بيغيته إلا أمام أسوار عكا . ذلك أن حكومة الإدارة حاولت مراراً الاتصال بيونابرت ، فأوفدت إلى مصر المواطن وينان مورو Winan Moreau [١] يحمل أخبـار ما جد من حوادث فى القارة ، بعد تلك التى حملها إلى مصر المواطنان هاميلان Hamelin وليفرون Livron ، كما أرسل يوسف ولوسيان أخوا بونابرت رسولا آخر من أسرة باربا كى Barbaki اليونانية ؛ وإن كان هنـاك من يشك فى صحة هذه الواقعة [٢] . فوصل الرسولان إلى القاهرة فى أوائل مارس ١٧٩٩ ، وأرسلهما دوجا حاكم القاهرة إلى سوريا ، فحظيا بمقابلة بونابرت أمام عكا فى ٢٥ مارس [٣] . وليس من شك فى أن هـذه الرسائل التى وصلت إلى بونابرت أمام عكا كانت تحمل أنباء الموقف فى فرنسا وفى أوروبا عموما ، ولاجدال فى أن هذه الأنباء أثارت مخاوف بونابرت من تعرض فرنسا ذاتها لخطر الغزو الأجنبى فى أثناء غيابه عنها [٤] وفضلا عن ذلك فقد أثبت المعاصرون رسالة من حكومة الإدارة إلى بونابرت محررة فى باريس فى ٢٦ مايو ١٧٩٩ [٥] ، تسلمها بونابرت بعد عودته من سوريا إلى القاهرة . وتشير هذه الرسالة إلى الأخطار المحدقة بالجمهورية ، بسبب الجهود الخارقة للعادة التى تبذلها كل من النمسا والروسيا ، وتطلب إلى بونابرت العودة بالقسم الأكبر من قواته إن لم يكن الجيش كله ، وذلك حتى يقود جيوش الامبراطورية .

على أنه كان من المتعذر أن يعود قائد الحملة العام إلى فرنسا مادامت مصر مهددة بالغزو . ولذلك فقد شغل بونابرت على نحو ما رأينا باتخاذ التحصينات اللازمة ، وتوزيع قواته بين الحدود الشرقية والشواطئ الشمالية بصورة تمكنه من مقابلة العدو . ولما كان بونابرت لا يزال شديد التعطش لمعرفة حقيقة الموقف فى أوروبا ، فقد انتهز

---

(١) Meurthe 89. أرسله بلفيل Belville القنصل الفرنسى فى جنوه على ظهر السفينة أوزيريس Osiris فى ٩ فبراير ١٧٩٩ فوصل أبو قير فى ٢٦ فبراير .

(٢) Reybaud VI 259 — 60

(٣) Jonquière V 666 — 8

(٤) Corresp. No. 4382

(٥) Reybaud. VI. 268 — 9; Ader 263

فرصة الاشتباك مع العثمانيين لجمع المعلومات التي يريدها . وأكد مصطفى باشا القائد العثماني الذي وقع في أسره أن الحرب قد بدأت فعلا في أوروبا من ستة شهور مضت ، وأن الهزيمة قد لحقت بالجيوش الفرنسية . وعمد مصطفى باشا إلى مراوغة بونابرت ، فلم يشأ أن يطلعه على كل ما كان لديه من أنباء ، حتى يظل القائد الفرنسي نهبا للشكوك والمخاوف(١) . فلم يجد بونابرت بدآ من محاولة الاتصال بالإنجليز ، لعله يظفر منهم ببغيته ، فاتخذ من مسألة تبادل الأسرى وسيلة لبلوغ غرضه ، فبدأت المفاوضات مع الأتراك والإنجليز ، وأوفد بونابرت لهذه المهمة الضابطين مرلان Merlin وديكورش Descorches ، واستطاع الأخير أن يحمل إلى بونابرت مجموعة من الجرائد الإنجليزية ؛ وكذلك العدد الصادر من « غازيتة فرنكفورت » الفرنسية في ١٠ يونيه سنة ١٧٩٩(٢) . وعرف بونابرت منها مقدار الهزيمة التي لحقت بالجيوش الفرنسية في ميادين القتال المختلفة ، وعبث محاولة الأسطولين الفرنسي والأسباني الإفلات من رقابة جيرفيس ونلسن في البحر الأبيض(٣) .

وتركت هذه الأخبار أثرآ عميقا في نفس بونابرت ، فقال بوريين : « وقد ظللنا شهوراً عدة لاتصلنا أية أخبار من فرنسا ، ولذلك فإنه ماإن وصلت (بونابرت) غازيتة فرنكفورت الفرنسية حتى انكب على قراءتها بشغف زائد ، فلما فرغ من القراءة قال : « لقد وقع ما كنت أخشاه ، وضاعت إيطاليا ، فما أتعسهم ! لقد ذهبت انتصاراتي جميعها سدى ، ولابد لي من العودة حالا دون أي إبطاء(٤) » . واستدعى بونابرت الجنرال برتييه وأطلعه على الجريدة ، ثم أبلغه عزمه على الرحيل ، ورغبته في اصطحابه معه ، على أن يظل ذلك مكتوما بينهما ، ثم استدعى بونابرت أمير البحر غانتوم ، وأمره بإعداد الفرقاطتين ميرون Muiron وكارير Carrère ، ثم مركبين آخرين وذلك لحمل بونابرت وصحبه إلى فرنسا .

ومع أنه يبدو في رأى كثيرين أن بونابرت كان قد اعتزم الرحيل إلى فرنسا من مدة سابقة ، أو بالأحرى وهو لايزال أمام أسوار عكا(٥) ، فقد جاء تنفيذ هذه الرغبة بالسرعة التي تم بها ، « مفاجأة » أثارت غضب أولئك الذين كانوا يودون هم كذلك

(١) Martin I. 394

(٢) Pièces Diverses 235

(٣) Reybaud. VI. 231 — 58

(٤) Bourrienne-Mémoires II 304

(٥) Richardot-Neauveaux Mémoires 188

العودة إلى الوطن . وصاروا يعتبرون الآن رحيل قائد الحملة « فراراً من الميدان » مزريا[١] . ومع ذلك فمن المعروف أن بونابرت كان لايتوقع البقاء فى مصر طويلا ، بل كان قد عقد العزم على العودة السريعة إلى فرنسا ، لتولى قيادة الحملة المعدة لغزو انجلترة ، حسب اتفاقه مع حكومة الإدارة . كما أن حكومة الإدارة كانت تنتظر عودته ، ولم يحل دون تنفيذ هذه الرغبة سوى انهزام أسطوله فى أبى قير ، وإعلان تركيا الحرب على فرنسا ، وخروجه أخيراً إلى الشام . كما أنه ظل يجهل حرج الموقف فى أوروبا[٢] . وعلى ذلك فإنه ماإن وصلته أخبار القارة وهو لا يزال بسوريا حتى أخذ يفكر جديا فى الرحيل إلى فرنسا . يدل على ذلك كتابه إلى غانتوم فى ٢١ يونيه سنة ١٧٩٩ ، أى بعد وصوله إلى القاهرة بأسبوع واحد فقط ، يأمره فيه بإعداد الفرقاطتين ميرون وكارير ، حتى يكونا على أهبة السفر فى أى وقت من الإسكندرية[٣] .

ومع أن الأخبار التى بلغته عن متاعب الجمهورية كانت غير كاملة ، وتنتهى بتاريخ الحوادث التى ذكرتها عند ٨ فبراير سنة ١٧٩٩ ، فقد كانت كافية لأن تقض مضجعه ، حتى أنه مالبث أن كتب إلى حكومة الإدارة فى ٢٨ يونيه ينصحها بعقد الصلح مع العدو ، إذا عجزت عن إرسال النجدات إليه من الجند والأطباء والجراحين ، إلى جانب الأسلحة التى يستطيع بفضلها أن يسد تلك الثغرات التى أحدثتها الحرب السورية فى صفوفه ، وأن يحتفظ بفتوحه فى مصر ذاتها[٤] . وعلى ذلك فإنه ماإن اطمأن على هذه البلاد من خطر الغزو القريب بعد انتصاره فى معركة « أبو قير البرية » فى ٢٥ يوليو ، حتى شرع يعمل جديا لمغادرة البلاد بكل سرعة . وتضافرت عوامل عدة ، غير ماوقف عليه من أنباء الحرب فى أوروبا ، على إقناعه بضرورة العودة .

ذلك أن الانتصار فى هذه المعركة سوف يتيح له فرصة العودة إلى باريس رافع الرأس موفور الكرامة ، فلا يذكر مواطنوه أمام هذا النصر الباهر شيئا عن تلك الهزيمة الشنيعة التى حلت بأسطوله فى العام الماضى ، وفضلا عن ذلك فقد دلت الاضطرابات التى وقعت فى فرنسا ذاتها على أن الوقت قد حان لاقتطاف تلك « الكمثرى » التى انتظر بونابرت نضجها وقتا طويلا . وكان اشتعال الثورة فى إقليم فنديه Vendée ، وتعرض دستور عام ١٧٩٥ للزوال ، وحديث اليعاقبة عن عودة

(١) Desvernois 219
(٢) Ernouf 209 — 12
(٣) Corresp. No. 4197
(٤) Ibid 4225

الإرهاب ، أشد الأخطار التى هددت كيان البلاد الداخلى . وهكذا اجتمع من العوامل الداخلية والخارجية ماصار يكفى لتوجيه الأنظار إلى بونابرت ، ودعوته للحضور على عجل لإنقاذ الوطن[١] .

غير أن استعداد بونابرت للرحيل لم يمنعه من إتمام الإجراءات اللازمة للاطمئنان على تحصينات الحدود الشرقية والشواطئ . كما حاول أن يفتح باب المفاوضة من أجل عقد الصلح مع تركيا ، فكتب إلى الصدر الأعظم فى ذلك فى ١٧ أغسطس ١٧٩٩[٢] ، ولم ينتظر بونابرت رداً على رسالته لأنه سرعان ماوصله من غانتوم فى مساء اليوم نفسه أن السفن الانجليزية والعثمانية قد أبحرت إلى قبرص . فطلب بونابرت من مرافقيه فى السفر المنتظر أن يكونوا على أهبة الاستعداد للقيام مع قائد الحملة العام « برحلة فى الوجه البحرى » عند منتصف الليل ، وفى صباح يوم ١٨ أغسطس غادر بونابرت بولاق مبكراً ، وأصدر وهو بمنوف فى طريقه إلى الشاطئ أوامر عدة إدارية ، بشأن تنظيم الجيش ، وتوزيع قواته . كما كتب إلى الجنرال كليبر فى دمياط يطلب منه الحضور بكل سرعة لمقابلته فى رشيد ، وحدد يوم ٢٤ أغسطس موعداً لهذه المقابلة ؛ وذلك حتى يبحث معه « مسائل فى غاية من الأهمية[٣] » . وعند ما بلغ بونابرت الرحمانية فى ٢٠ أغسطس كتب إلى منو فى رشيد كى يحضر لمقابلته فى اليوم التالى ، فى مكان يقع بين أبى قير والاسكندرية . وفى يوم ٢١ أغسطس وصل بونابرت إلى (بركة غطاس) ، وكان فى اليوم التالى فقط[٤] عند اقترابه من الاسكندرية أن أخبر بونابرت رفقاءه أنه يعتزم اصطحابهم إلى فرنسا .

ولما كان يخشى من ظهور بعض سفن العدو بالقرب من الاسكندرية ، فقد قرر بونابرت الرحيل دون انتظار حضور كليبر . واكتفى بمقابلة منو ، فأطلعه على عزمه ، وعهد إليه بالقيادة فى الاسكندرية ورشيد والبحيرة[٥] . كما سلمه طائفة من الأوامر والتعليمات التى كان قد أعدها لكليبر . وفى مساء يوم ٢٢ أغسطس خرجت الفرقاطتان ، تصحبهما سفينتان صغيرتان ، من الاسكندرية . فكان على ظهر الفرقاطة (ميرون) كل من بونابرت وبرتييه وبوريين وبوهارنيه وديروك ومونج وبرتوليه ، عدا آخرين

---

(١) Berthier-Mem. 1 re. Partie 170 — 171

(٢) Reybaud. VI. 276 — 82

(٣) Corresp. No. 4369

(٤) Ibid. 4372

(٥) Ibid. 4373

غيرهم . بينما حملت الفرقاطة (كارير) القواد لان Lannes وموراَ Murat ومارمون Marmont وآخرين . وفي يوم ٩ أكتوبر ١٧٩٩ نزل بونابرت في ميناء فريجوز Fréjus في شاطىء فرنسا الجنوبي . وذلك بعد رحلة استغرقت سبعة وأربعين يوما . وفي اليوم نفسه غادر بونابرت فريجوز إلى باريس[١] . وكان في أثناء سفره إلى باريس أن كتب من مدينة (اكس) Aix في ١٠ أكتوبر رسالة إلى حكومة الإدارة[٢] يبسط فيها الأسباب التي أرغمته على العودة ، ويذكر الإجراءات التي اتخذها للدفاع عن الشاطىء المصري بإشراف الجنرال كليبر ، وتحت قيادته ؛ ثم أشاد بذكر النتائج التي ترتبت على انتصاره في موقعة « أبو قير البرية » فقال إن مصر قد زال عنها بفضل هذا الانتصار خطر الغزو تماماً ، وأصبحت ملكا خالصاً لفرنسا ، ولا ينازع الفرنسيين في امتلاكها أي منازع . وفي ١٣ أكتوبر وصل بونابرت إلى باريس .

كليبر وقيادة الحملة :

على أن الرحيل عن مصر لم يكن معناه أن بونابرت كان ضعيف الإيمان بمشروع الاستعمار الفرنسي في هذه البلاد ، أو أنه يرغب تسليم هذه المستعمرة « الجميلة » إلى أعدائه إلا إذا أرغم على ذلك ارغاما ، واقتضى عقد الصلح في أوروبا أن تتخلى فرنسا عن مصر ثمناً لإنقاذ الجمهورية .

ولذلك فقد بدا اختيار كليبر لقيادة الحملة العامة في نظر كثيرين من المعاصرين أمراً غريباً ، لأن كليبر كان وقتئذ من زمرة أولئك الذين اعتقدوا بأن مشروع الاستعمار الفرنسي في مصر مقضي عليه بالفشل لامحالة ، بسبب ما تضافر من عوامل جعلت في نظرهم مركز « الحملة » في هذه البلاد على جانب عظيم من الخطورة ، نظراً إلى تحطيم أسطولها ، وما تكبدته من خسائر فادحة في الحرب الشامية ، وفي أثناء النضال المستعر ضد الثورة المشتعلة في الصعيد وسائر الأقاليم المصرية ، وتعذر جلب النجدات من جند وأسلحة وذخائر ومؤن ، مع حاجة المستعمرة النائية إلى ذلك كله ، عندما ظل الأسطول الانجليزي صاحب السيطرة في البحر الأبيض ، وكاد ينقطع كل اتصال بين مصر وفرنسا . أضف إلى ذلك ما كان يتوقعه هؤلاء « الزاهدون » في استعمار مصر من إطباق جيوش العدو على هذه البلاد لغزوها من كل جانب .

وقد عزا كثيرون اضطرار بونابرت إلى تسليم قيادة الحملة إلى كليبر من جهة ،

---

(١) Piéces Divérses 225 — 8; Jonquière V Chap. III; Corresp. No. 4383

(٢) Corresp. No. 4382

ثم انحياز كليبر الى جانب أولئك الناقمين على مشروع الاستعمار الفرنسى فى مصر من جهة أخرى ، الى أن بونابرت ماوقع اختياره على كليبر الا لرغبته فى عودة الجنرال ديزيه الى فرنسا ، واعتقاده أن كليبر كان أكفأ قواد الحملة بعد ذهاب ديزيه ، وأقدرهم على تحمل عبء المسئولية[1] فعهد اليه بقيادة الحملة ، ويستندون فى ذلك الى ما جاء فى تعليمات بونابرت نفسه الى منو فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ . وقال أصحاب هذا الرأى تعزيزاً لما ذهبوا اليه ، ان العلاقات بين الرجلين لم تكن ودية فى أثناء وجود بونابرت فى مصر . وزعموا فضلا عن ذلك أن عدم صفاء العلاقات بينهما أثر تأثيراً بالغاً على السياسة التى اتبعها كليبر فيما بعد ، حتى إنه أهمل تنفيذ التعليمات التى تركها له بونابرت ، وصار يطلب الجلاء عن مصر بكل وسيلة . واستندوا فى ذلك الى أن الرجلين لم تكن بينهما معرفة سابقة قبل مجيئهما الى مصر ، والى أن بونابرت كثيراً ما كان ينقد إدارة كليبر فى حكومة الإسكندرية . كما أن هذا الأخير لم يكن راضياً عن بعض أعمال بونابرت وتصرفاته ، فكان أن عظمت أسباب الجفاء بينهما . وهذا القول وإن كان أعظمه صحيحاً فإنه لم يعرف عن بونابرت من جهة أخرى أنه كان يجفو الرجل ذلك الجفاء الذى يجعل كل تعاون بينهما متعذرا ويحمل كليبر على التفريط فى مصلحة الوطن نكاية فى بونابرت فحسب .

نعم من المسلم به أنه لم يكن بينهما معرفة ولم يتقابلا قط قبل قيام الحملة إلى هذه البلاد[2] ومع ذلك فقد أسهم كليبر فى حروب الجمهورية ، فضلا عن اشتراكه فى اخماد ثورة الفنديه ، وأظهر كفاية ممتازة عند قيادة جيش (السامبر والموز) ، حتى إن حكومة الإدارة ما كانت لترضى بالاستغناء عن خدماته عند ما طلب كليبر الاستقالة من قيادة هــذا الجيش[3] ، بل ظل يقوم بأعباء منصبه حتى تسلم الجنرال هوش قيادة جيش السامبر والموز فى مارس ١٧٩٧ . وقائد تلك مكانته ما كان بونابرت ليغفل عن السؤال عنه ومعرفة نشاطه . ومع أن كليبر فضل العزلة بعد ذلك فلم يشترك فى انقلاب ١٨ فركتيدور (٤ سبتمبر ١٧٩٧) ، على خلاف ما فعل منو الذى أخفق فى مهمته على نحو ما سبق ذكره ، فإنه ما بدأ العمل جديا للانتقام من انجلترة عقب عقد الصلح مع النمسا فى كمبو فرميو ، حتى قرر بونابرت الاستفادة من خدماته ، فبعث اليه بالجنرال كفاريللى ، أحد أصدقاء كليبر الحميمين وزملائه فى جيش السامبر والموز يطلب اليه

(١) Berthier. Op. Cit. 181; Ibid. 4374

(٢) Ernouf 157

(٣) Pajol 256

الالتحاق بجيش انجلترة فى يناير ١٧٩٨ ، فقبل كليبر ، وفى ١٢ أبريل صدر قرار حكومة الإدارة « باستخدام كليبر تحت قيادة بونابرت فى الحملة المعدة فى طولون » . ومع أن الغرض من إعداد هذه الحملة قد ظل سراً مكتوما ، فقد كان كليبر أحد أولئك الأفراد القلائل الذين وثق بهم بونابرت ؛ فوقف على حقيقة أمر الحملة ، وذلك قبل صدور الأمر بتعيينه ، فانكب يفحص التقارير والخرائط الخاصة بالهند وفارس ومصر ، ويدرس مجرى النيل وطبيعة الأقاليم والبلدان المصرية ، التى توقع حدوث المعارك الهامة بها . وقد حدث ذلك كله قبل سفره الى طولون [١] .

وحملت البارجة فرنكلان الجنرال كليبر الى الشواطىء المصرية ، فاشترك فى الهجوم على الاسكندرية ؛ ولكنه أصيب بجرح فى رأسه ، فانتقلت قيادة جيشه الى الجنرال دوجا وترك كليبر فى حكومة الاسكندرية ، على الرغم من نزوع نفسه الى الخدمة العاملة ، والالتحاق بقائده بونابرت الذى حمل له فى قلبه محبة واحتراما كبيرين كثيراما أفصح عنهما بعبارات صريحة حاسمة [٢] . حتى أن بونابرت ما لبث أن وعد فى ٣٠ يوليو بضمه إلى صفوف الجيش العامل خلال الأسبوعين التاليين . ولكن نزول الكارثة بأسطول برويس فى أول أغسطس سرعان ما جعل الرجلين يجفو أحدهما الآخر .

فقد كان كليبر لايوافق على الخطة التى اتخذها برويس من أول الأمر لمقابلة أسطول العدو ، فيقف بسفنه جامدة تطوى قلاعها فى خط غير متحرك ، يتيح لعدو امتاز بالمهارة إصابة هدفه بكل سهولة . كما ساء كليبر أن يرى بونابرت يسىء إلى كونتر أميرال (بلانكيه — دوشايله) Blanquet Duchayla ، ويحاول إلقاء شطر من مسئولية الهزيمة على عاتقه ، مع ما أبداه هذا الأميرال من ضروب البسالة على ظهر بارجته فرنكلان ، وإصابته فى أثناء المعركة [٣] واتسعت شقة الخلاف بين كليبر وبونابرت عند ما عمد هذا الأخير إلى فرض الغرامات ملأ بما يتجمع منها لديه خزائنه الخاوية ، فلم يرض كليبر عن هذه السياسة حرصا منه على عدم تنفير الأهلين ، وبخاصة عند ما صارت تحضر إليه وفود العربان للاتفاق على السلام معه . ولما كان كليبر نفسه فى حاجة ملحة دائما إلى المال للانفاق على شئون الإدارة والجيش فى الاسكندرية ، ثم لتموين الاسكندرية ذاتها بالغلال والمؤن ، خوفا من انتشار المجاعة بها [٤] فقد استولى

(١) Pajol 269; Ernouf 160 — 1

(٢) Ernouf 175

(٣) Ibid 187 — 8

(٤) Pajol 229,303,307

على الأموال التى خصصها بونابرت وأرسلها لإصلاح البقية الباقية من الأسطول المتحطم ، ودفع منها مرتبات الجند المتأخرة ، كما انفق منها على فروع الإدارة المختلفة . وساء بونابرت هذا التصرف ، وألح فى ضرورة تسليم المبالغ التى أرسلها له إلى الأسطول، وشدد عليه فى جمع غرامة كبيرة من تجار الاسكندرية ، ووجه إليه نقدا لاذعا إذ كتب إليه فى إحدى رسائله : « إن إدارة الاسكندرية تكلف ضعف ما ينفق على سائر الجيش ، كما تكلف مستشفيات الاسكندرية ، التى لا يوجد بها سوى ألف جريح فقط ، مبلغا من المال يزيد كثيراً على ما تتكلفه مستشفيات الجيش بأجمعها » (١) فعد كليبر هذا القول تأنيبا لا يستحقه ، كما امتنع عن جمع الغرامة المطلوبة ، وعرض على بونابرت استقالته من حكومة الاسكندرية ، كما أنه طلب تحقيقا فى أمر لو صح نسبته إليه لخسر سمعته ، وثبتت ، عليه تهمة تبديد أموال الجيش ، وهو الرجل الذى لم يحضر إلى مصر « لكى يجمع ثروة » (٢) .

وقد يعد كثيرون ذلك النقاش ، الذى دار بين الرجلين خلال شهرى أغسطس وسبتمبر ١٧٩٨ ، سببا لوجود الجفاء الذى أعتقد هؤلاء أنه كان من المتعذر على الرجلين نسيانه . ومع ذلك فمن الثابت أن بونابرت سرعان ما أخذ يسعى لإزالة أى أثر قد ينجم عن إساءة لم تكن متعمدة بحال من الأحوال (٣) فوسط كفاريللى فى الأمر ، ثم دعا كليبر إلى القاهرة ، فوصلها فى ٢١ أكتوبر . (٤) وعندما خرج الجيش إلى سوريا ، كان كليبر من بين قواده ، وأولاه بونابرت ثقته الكاملة ، وظهر تعاون الرجلين فى أثناء معركة جبل طابور ، التى كان عامل النصر الحاسم فيها وصول بونابرت بنجداته لتعزيز قوات كليبر ، ووفاه بونابرت حقه من الثناء عندما اعترف فى رسائله بجهوده فى هذه المعركة ، ورفض أن يتحدث عن نصيبه هو فى إحراز هذا الانتصار فى تقريره الذى رفعه عن معركة جبل طابور إلى حكومة الإدارة فى ١٠ مايو ١٧٩٩ (٥) ومع ذلك فقد ذكر مارمون وبوريين أن سوء التفاهم كان سائدا بين الرجلين فى أثناء الحملة السورية ، ويبدو أن ذلك قد حدث فى أثناء حصار عكا لأن كليبر كان يرى أن الثغرة التى فتحها الفرنسيون فى أسوار عكا من الضيق بحيث لا تسوغ هجوم الجيش على

(١) Corresp. Nos. 3189,3210

(٢) Pajol 305 — 6

(٣) Corresp. No. 3271

(٤) Ibid. 3418

(٥) Ibid. 4088,4124

هذا الحصن المنيع ، فأشار بأرجاء الهجوم . كما أنه لم يجد الخنادق التى شقها الفرنسيون حول القلعة ذات عمق يكفى لحماية الجنود من نيران العدو ، وفضلا عن ذلك فقد أظهر كليبر شيئا من الضجر والملل وهو فى المؤخرة يحمى ظهر الجيش فى أثناء تقهقره من سوريا . ومن الواضح أن تلك لم تكن أسبابا كافية لإثارة سوء التفاهم بين الرجلين ناهيك بمثل ذلك الجفاء المزعوم بينهما [١] .

وواقع الأمر أن بونابرت عندما اختار كليبر لقيادة الحملة العامة ، إنما فعل ذلك بعد إمعان الفكر ، وعن رغبة صادقة . وما كان ليفضل عليه ديزيه لملء هذا المنصب، وان كان هذا الأخير « أكثر تواضعا من كليبر ، ويساويه فى كفايته العسكرية » [٢]. ذلك أن كليبر كان قد أثبت مقدرة إداريه فائقة فى أثناء حكمه بالأسكندرية ، لا يقلل من شأنها ذلك الخلاف الذى حدث بينه وبين بونابرت ، وكان من أسبابه الهامه انفاق كليبر المال فى غير الوجوه التى أرادها بونابرت . وفضلا عن ذلك فإن ديزيه نفسه كان قد ارتكب كثيرا من « المخالفات » الادارية فى أثناء حملته فى الصعيد ، وذلك عندما صار يستولى على الأموال من الأقاليم التى لم تشملها قيادته ، وذلك للانفاق منها على جيشه وعلى عملياته العسكرية . حتى أن بونابرت مالبث أن كتب إلى زايونشك Zajonchek قومندان بنىسويف فى ١٧ أغسطس ١٧٩٩ [٣] ، أى قبل سفره بخمسة أيام فقط ، ينهاه عن الخطأ الذى يرتكبه بسماحه للجنرال ديزيه بأن يستولى على أموال مديريته ، ويلفت نظره إلى أمر أصدره بونابرت فى اليوم نفسه لمنع وقوع أى تهاون فى جمع الأموال والميرى فى الأقاليم ، وعدم استقطاع شىء من المبالغ المتحصلة مهما تكن الأسباب [٤] .

وواضح من كل ما تقدم أن بونابرت لم يكن مرغماً على اختيار كليبر لقيادة الحملة العامة ، بل إن هناك ما يدعو كذلك إلى الاعتقاد بأن هذا الاختيار كان قد تم الاتفاق عليه مقدماً بين بونابرت وحكومة الإدارة قبل خروج الحملة . فقد حدث عندما قدم بونابرت إلى حكومة الإدارة مذكرته المعروفة عن الحرب ضد انجلترة (١٣ أبريل سنة ١٧٩٨ [٥]) — وقد رأى بونابرت أن شتاء عام ١٧٩٩ هو خير الأوقات ملاءمة لبدء هذه الحرب — إن (مرلان دى دويه) Merlin de Douai ، أحد أعضاء

---

(١) Ernouf 206 — 8; Pajol 328 — 31

(٢) Galland. I. 194

(٣) Corresp. Inédite II 442

(٤) Corresp. No. 4368 (Ordre du Jour)

(٥) Jonquière I. 350 — 2

هذه الحكومة الذين حضروا مناقشة موضوع الغزو وقتئذ — ما لبث أن أكد لأخصائه حصول الاتفاق بين بونابرت وحكومة الإدارة على أن يتسلم الجنرال كليبر قيادة الحملة العامة فى مصر عند عودة بونابرت إلى فرنسا (١) .

وعلى ذلك فإذا ثبت أنه لم يحدث من كليبر وبونابرت ما يدعو لإثارة الجفاء بين الرجلين بالصورة التى تجعل التعاون بينهما متعذراً ، وإذا ثبت كذلك أن بونابرت لم يكن مرغماً على اختيار كليبر للقيادة العامة ، فالواجب يقتضى كل منصف أن يبحث سياسة كليبر كقائد عام للحملة فى مصر ، على ضوء جديد لا يلبث أن يكشف عن حقيقة واضحة ، هى أن هذه السياسة وإن كانت تقوم فى جوها على مبدأ الجلاء عن مصر ، فإنها كانت تتفق من نواحيها المختلفة مع الأهداف التى تضمنتها التعليمات التى تركها إليه بونابرت نفسه قبل رحيله إلى فرنسا .

وقد بادر منو ، منذ ٢٤ أغسطس ، بإرسال هذه التعليمات التى تركها بونابرت بين يديه باسم كليبر إلى قائد الحملة العام فى رشيد (٢) . وكان بونابرت قد أعد مع هذه التعليمات أمراً بإعطاء القيادة العامة إلى كليبر (٣) . وترك بعض الأوراق التى تحمل آخر الأنباء عن الموقف فى أوروبا ، كما أعد مذكرات منفصلة تتناول بعض المسائل التى أشار إليها فى تعليماته . ولعل أهم ما جاء فى هذه التعليمات (٤) حديث بونابرت عن الكتاب الذى بعث به إلى الصدر الأعظم ، لفتح مفاوضات الصلح مع تركيا (٥) ، وضرورة إرسال حامل هذا الكتاب إلى قبرص ، ثم إرشاداته لقائد الحملة الجديد فى موضوع الصلح مع تركيا عموما . ولما كان بونابرت يعلم بحاجة الحملة إلى الإمدادات ، فقد أخذ على عاتقه مسئولية إرسالها ، واعتمد بونابرت فى ذلك على إمكان خروج الأسطول الفرنسى والأسطول الاسبانى الحليف من موانى فرنسا وأسبانيا ، محملين بالأسلحة والذخائر وقسم من الجيش الاحتياطى كذلك (٦) . ثم وعد باتخاذ الاجراءات الكفيلة بإبلاغ كليبر كل ما يهمه من أخبار من حين لآخر ، كما بسط

---

(١) Thibaudeau. I. 201

(٢) Pajol 338 — 9

(٣) Corresp. No. 4375

(٤) Corresp. Inédite II 454 — 9; Berthier, Op. Cit. 188 — 6; Corresp. No. 4374(Alex. 22 août 1799).

(٥) Corresp. No. 4364

(٦) Jonquière V. 119 Et. Sqq.

قواعد السياسة الداخلية الواجب اتباعها فى مصر ذاتها ، وقوامها : (أولا) الاعتماد على صداقة المسيحيين ، مع منعهم من الاستخفاف بمواطنيهم دفعاً لتعصب « الأتراك » ضد الفرنسيين ، (وثانياً) التمتع بثقة مشايخ القاهرة ، لما لهم من نفوذ ظاهر على سائر أفراد الشعب . وأشار بونابرت كذلك إلى ضرورة إتمام تحصينات الاسكندرية والعريش والبرلس ، والعمل بكل وسيلة لتنظيم شئون الإدارة « المرتبكة » على أن يعهد إلى المواطن بوسيلج — وهو رجل جد وعمل — بالشئون المالية فحسب ، لعله ، بفضل ما اكتسبه من خبرة ودراية بأحوال البلاد ، يستطيع تنظيمها .

وكان أهم أجزاء هذه التعليمات ولا شك تلك التى تناولت المفاوضات مع العثمانيين ، فقد خول بونابرت الجنرال كليبر الحق فى إبرام الصلح مع تركيا ، ثم قيد هذا الحق فى الوقت نفسه بقيود معينة ؛ فلا يتم اتفاق إلا إذا أخفقت حكومة الجمهورية فى محاولاتها الاتصال بالجنرال كليبر ، وتعذر وصول أية نجدة ، وأى خبر إليه من فرنسا خلال الشهور المقبلة « من الآن إلى شهر مايو » من عام ١٨٠٠ ، ثم تفشى الطاعون وهلك بسببه ألف وخمسمائة جندى ، وبات لذلك من المخاطرة زج الجيش فى الحملة المتوقعة ، فعندئذ فقط يحق له إبرام الصلح مع تركيا ، ولو كان الجلاء عن مصر من شروط هذا الصلح الأساسية . ثم عاد بونابرت فطلب من كليبر أن يعمل حتى فى حالة قبول هذا الصلح على إرجاء تنفيذ شروطه إلى حين الصلح العام فى أوروبا ، إذا كان هذا ممكنا . كما طلب إليه أن يشترط فى نظير الصلح على أساس الجلاء عن مصر انفصال الباب العالى عن المحالفة الدولية ، وإعطاءه الفرنسيين حق التجارة فى البحر الأسود ، والموافقة على هدنة ستة شهور يتم فى أثنائها تبادل التصديق على المعاهدة ، حيث أنه من المتعذر تنفيذها قبل التصديق عليها ، وأن يشترط فضلا عن ذلك عدم حصول أى عمل عدائى خلال هذه الهدنة . وقد أوضح بونابرت فى تعليماته أسباب هذه القيود جميعها بقوله مخاطبا كليبر : « وإنك تقدر أكثر من أى شخص آخر أيها الجنرال المواطن أهمية احتلال مصر وبقائها فى يد فرنسا .. إن الامبراطورية العثمانية المهددة بالانهيار من كل جانب تتداعى أركانها اليوم ، وسيكون إخلاء فرنسا لمصر من المصائب التى تعظم نتائجها ، إذ قد نرى فى أيامنا هذه البلاد تنتقل إلى يد أوروبية أخرى »

أما المذكرات التى ضمها بونابرت إلى هذه التعليمات فكانت أربعاً أملاها بونابرت فى تاريخ سابق [1] : عن « الإدارة الداخلية » وأعمال « التحصينات » ثم « الدفاع

(١) Ibid 597 — 9

عن مصر » وأخيراً عن « الشئون السياسية » فتكلم فى مذكرته الأولى عن ضرورة استمالة المشايخ والعلماء الدينيين حتى يتعاونوا مع الفرنسيين فى إدارة شئون البلاد ، فيفيد الفرنسيون من معاونة هؤلاء لهم وهم قوم عدول أغنياء وعلى خلق عظيم ، فضلا عن زعامتهم المعترف بها بين أهل البلاد ، وانتهز بونابرت الفرصة فتحدث عن مكانة القاهرة فى العالم الإسلامى بعد مكة المكرمة ، وضرورة المضى فى محاولة إقناع المصريين بأن الفرنسيين يحبون القرآن « الكريم » ويحترمون الرسول صلى الله عليه وسلم . ووصف بونابرت المماليك بأنهم كانوا قوة انتهى أمرها ، وأوصى بأن يستمر استخدام الاقباط فى تحصيل الضرائب ، والقيام بغير ذلك من أعباء الإدارة المالية التى اضطلعوا بها ، وذلك حتى يحين الوقت الذى يمكن استبدال أوربيين بهم . وكان من رأيه أن يجرى تعويد المصريين على الخدمة العسكرية ، حتى يمكن إلحاقهم بالجيش والبحرية .

وتحدث بونابرت فى مذكراته عن « التحصينات » و « الدفاع عن مصر » فأشار بضرورة إقامة الحصون فى العريش والقطية والصالحية ، وفى وادى الطوميلات لصد هجوم البدو على مصر من جهة حدودها الشرقية ، كما أشار بدعم تحصينات الاسكندرية وأبى قير ، ودمياط ، وهى الأماكن التى يستطيع العدو إنزال قواته بها فى الشواطىء الشمالية . وكان من رأيه أن هناك طرقا ثلاثة يمكن منها غزو مصر ذاتها أولها طريق غزة وبرزخ السويس للجيوش المجتمعة فى الشام ، وثانيها الشاطىء الشمالى للحملات الآتية من جهة البحر الأبيض ، وثالثها الهجوم من الشرق والشمال معاً اذا اتحد العثمانيون والانجليز فى زحف مشترك على مصر ، فيحضر الأولون من جهة الشرق ، بينما ينزل الآخرون قواتهم فى الشاطىء الشمالى . ووضع بونابرت خططا مفصلة لمقابلة كل غزو محتمل .

وكانت مذكرته عن « الشئون السياسية » مذكرة هامة حقيقة ، رسمت خطوط تلك السياسة الافريقية التى هدفت إلى اتخاذ مصر قاعدة يعمل الفرنسيون منها على دعم صلاتهم بأمراء الدول الإفريقية وسلاطينها ، والتوغل فى قلب القارة المجهولة . فطلب بونابرت أن يوفد ممثلون إلى ممالك سنار والحبشة ودارفور ، لإنشاء العلاقات التجارية واستقدام نحو عشرة آلاف من العبيد سنويا لإلحاقهم بالجيش ، وكان بونابرت قد بدأ فعلا فى تنفيذ هذه السياسة عندما بعث بالكتب إلى الحكام فى درنة وطرابلس ودارفور على نحو ما سبق ذكره . ولما كان لفرنسا قنصل فى طرابلس ، فقد أشار بونابرت إلى ضرورة إقناع طرابلس وتونس بفائدة إرسال ممثلين سياسيين من قبلهم إلى مصر .

وعقد بونابرت آمالا كبيرة على استخدام هؤلاء فى فتح طريق الاتصال بين مصر وفرنسا .

وعرض بونابرت فى هذه المذكرة الموقف كما بدا له بين تركيا وانجلترة وروسيا من جانب ، وبين فرنسا من جانب آخر ، ومما تجدر ملاحظته أنه ما كان يعتقد بصعوبة الاتفاق مع العثمانيين إذا نجح كليبر فى استمالة الحجاج الوافدين إلى مصر للذهاب إلى مكة أو عند العودة منها إلى بلادهم ،فيحملهم الكتب والرسائل الشفوية إلى الصدر الأعظم ، وإذا استطاع كذلك أن يرسل إلى الصدر الأعظم مفاوضين مهرة يستطيعون إقناع الصدر بأن الفرنسيين لا يريدون امتلاك مصر ، وإنما يستخدمونها طريقا فحسب للوصول إلى الهند ، للانتقام من انجلترة ، وكان بونابرت لا يشك فى نجاح هذه المحاولات ، لاعتقاده أن السلطان العثمانى ما أقدم على الحرب ضد فرنسا إلا مرغما ، وقد بات الآن يبغى إنهاءها بسبب الخسائر الفادحة التى تكبدتها جيوشه المرسلة من الشام وروديس من جهة ، ثم انتباهه إلى كل هذه الأخطار التى أحدقت به من ناحية روسيا ، وهى الدولة التى ناصبت تركيا العداء من أزمان بعيدة .

وفضلا عن ذلك فقد اعتقد بونابرت أن عودة الصفاء والمودة بين الأتراك والفرنسيين إلى ما كانت عليه أيام فرنسوا الأول كفيل بأن يمنع روسيا من القيام بأى عمل عدائى ضد جيش الشرق فى مصر . ذلك بأن انتصار الفرنسيين السريع ثم جلاءهم عن هذه البلاد من شأنه إقناع القيصر بالتزام خطة المسالمة مع فرنسا إالتى لا يحمل القيصر فى صدره أية ضغينة ضد جيشها فى مصر . ولا جدال فى أن الإنجليز وحدهم هم الذين يصرون على طرد الفرنسيين من هذه البلاد . ومع ذلك فقد كان من رأى بونابرت أن الفرصة قد أفلتت من أيديهم ، منذ أن انتقلت الحرب إلى ايطاليا وألمانيا ودول الشمال ، نتيجة لتأليف المحالفة الدولية الثانية . فأصبحت انجلترا فى حاجة ملحة إلى استخدام كل قواتها فى الحرب القارية . ومع ذلك فإن بونابرت ما كان يخشى شيئاً من استطاعة الانجليز التفرغ لمناصبة الفرنسيين العداء فى مصر ، والاهتمام برعاية مصالحهم فى الهند ، إذا حلت الهزيمة بالمحالفة الدولية وساد السلام فى أوروبا ، وذلك بأن تركيا سوف تجد أن من مصلحتها فى هذه الظروف الجديدة أن تسعى لاجتذاب مودة الفرنسيين المنتصرين بصورة تحرم الانجليز من الاعتماد على معاونة تركيا [١] .

---

(١) Ibid 605 — 6

تلك كانت فحوى التعليمات والإرشادات التى تركها بونابرت للجنرال كليبر ؛ وواضح منها أن بونابرت ، عندما غادر هذه البلاد كان مهتما قبل أى أمر آخر بضرورة التفرغ لمنازلة أعداء فرنسا ، وتحطيم المحالفة الدولية الثانية ، وإرغام انجلترة على قبول الصلح مع الجمهورية . وبناء على ذلك فقد غدا بقاء الحملة فى مصر أو الجلاء عن هذه البلاد أمرا أراد بونابرت مجرد المساومة فيه مع تركيا ، لإخراجها من المحالفة ضد فرنسا . فهو لايتردد إذن فى إخلاء مصر ، إذا تطلب الموقف العسكرى والسياسى فى أوروبا ذاتها هذا الجلاء ، وكان من شأن ذلك إتاحة الفرصة لبونابرت حتى يعقد سلاما فى مصلحة دولته ، ولذلك فإن أكثر ما كان يرجوه بونابرت أن يستطيع قائد الحملة الجديد إرجاء الخروج من مصر والجلاء عنها أطول مدة ممكنة ، وإلى أن يتم نهائياً عقد الصلح العام مع أعداء الجمهورية فى أوروبا . على أن تنفيذ هذه السياسة كان مرتبطا بتلك الخطة ، التى سوف تمليها ظروف الموقف على قائد الحملة الجديد ، الذى كان من حقه بفضل إحاطته بدقائق المركز الذى وجد فيه جيش الشرق وقتئذ أن يتحمل مسئولية البت فيما إذا كان فى قدرته البقاء فى هذه المستعمرة الجميلة والتمسك بها مدة طويلة أو الجلاء عنها فى أقرب وقت وبكل سرعة .

تقرير كليبر :

بلغت تعليمات بونابرت ورسائله الجنرال كليبر مساء ٢٢ أغسطس وهو لا يزال فى دمياط ، فقد وصل إلى رشيد بعد يومين ولم يجد أحداً فى انتظاره بطبيعة الحال لرحيل بونابرت فى مساء يوم ٢٢ أغسطس نفسه على نحو ما تقدم ، فاستبد به الغضب حتى أنه كتب إلى منو فى صبيحة اليوم التالى لوصوله (٢٥ أغسطس) يقول إنه ما إن حضر إلى رشيد حتى وجد « أن الطير كان قد فر من وكره » ويسأل منو فى سخرية ظاهرة أن « يبسط له بعض تفصيلات عن رحيل (البطل) وصحبه المبجلين »[١] غير أن هذا الغضب الطارىء سرعان ماخفت حدته رويداً رويداً عندما أخذ كليبر يتدبر الموقف وجاءته الأنباء من منو بانتقال القيادة إليه ، حتى أنه مالبث أن كتب إلى منو فى عصر اليوم نفسه يطلب حضوره إليه للتحدث معا فى بعض الشئون الهامة ويقول له « إنه وإن كان يوافق على الأسباب التى حملت بونابرت على الرحيل فإن لديه — على الأقل — ما يقوله عن الشكل الذى تم به هذا الرحيل »[٢] ، ومع ذلك فقد

---

(١) Pajol 338

(٢) Ibid. 340

أقبل كليبر من تلك اللحظة على تصريف الأمور بكل همة، فأصدر وهو لا يزال فى رشيد منشورا إلى قواد الحملة ، كما أصدر منشورا آخر إلى الجند عند انتقاله إلى القاهرة [١] لتهدئة نفوسهم وتطييب خواطرهم ، فعزا رحيل بونابرت المفاجىء إلى « أسباب قهرية » وتحدث عن انتظار وصول النجدات من فرنسا فى وقت قريب إحياء لأملهم . وفى ٢ سبتمبر جمع إليه القواد وضباط الوحـدات المختلفة . كما عقد الديوان ، وأكد لأعضائه أنه لا يقل عن بونابرت رغبة فى حماية الدين الإسلامى ورعايته والسهر على سعادة المصريين وبسط ألوية العدالة بينهم ، بل إنه وعد أن يحذو حذو بونابرت « الذى ظفر بمحبة العلماء والمشايخ والوجوه والأعيان باتباعه خطة العدل والنزاهة » وذلك حتى يكون — على حد قوله — جديراً بتلك المحبة التى تمتع بها بونابرت [٢] وانكب كليبر يدرس شئون الإدارة عامة والمالية خاصة .

فأعاد تنظيم الحكومة وأصـدر أمراً فى ١٤ سبتمبر ١٧٩٩ بتقسيم القطر المصرى إلى ثمانية أقاليم إدارية كانت حواضرها سبعاً هى : القاهرة حاضرة الجيزة والقليوبية وأطفيح وحاضرة بلبيس والشرقية والعريش والسويس ، ثم حواضر الاسكندرية ودمياط وسمنود ومنوف وبنى سويف وأسيوط . وأبقى كليبر الدواوين التى أنشأها بونابرت فى الأقاليم كما نظم شئون تحصيل الضرائب ، وعنى بضبط حسابات المديريات المختلفة فضلا عن عنايته بسائر فروع الإدارة والاهتمام بنشـاط الجنرال ديزيه فى الصعيد [٣] . فدل هـذا النشاط على أن كليبر قد قر عزمه على الاضطلاع بأعباء منصبه الجديد بكل همة .

ولـكن وجود كليبر بالقاهرة سرعان ما جعله يلمس عن كثب مقدار السخط الذى أثاره رحيل بونابرت الفجائى بين فريق كبير من رجال الحملة . حتى إن هؤلاء المتذمرين صاروا يعتقدون أن بونابرت ما غادر هـذه البلاد إلا ليأسه من دعم أسس السيطرة الفرنسية فى مصر نهائياً . وباتوا يعلقون آمالا كبيرة بسبب هذا الفشل نفسه على العودة قريباً إلى فرنسا [٤] . وكان أشد الناس تذمراً وتألماً من ذهاب بونابرت دون أن يصحبهما معه ، دوجا قائمقام القاهرة ، وبوسيلج المختص بالشئون المـالية . وكان بونابرت قد كتب إلى دوجا يوم مغادرته الاسـكندرية خطابا يفيض عطفاً

---

(١) Pajol 340; Pièces Diverses 229

(٢) Pièces Officielles (Sec. Part.) Extrait du Courrier. 2 — 5

(٣) Rousseau 31 — 4; 53 — 4

(٤) Galli 141 — 2

واحتراماً للرجل الذى استحق ثناءه بسبب ما أبداه من نشاط وحكمة ساعدا على تهدئة الخواطر واستتباب الأمن والنظام فى أثناء غياب بونابرت فى حملة الشام (١) فأنبأه بسفره إلى فرنسا « لأسباب قهرية » ، ووعده بإرسال سفن حربية إلى هذه البلاد فى الشتاء القادم ، فى استطاعة دوجا أن يعود على واحدة منها إلى أرض الوطن (٢) .
ولكن دوجا ظل فترة من الزمن يعتقد أن بونابرت لم يغادر هذه البلاد وأنه لا يزال بالاسكندرية. فكتب إليه فى ٢٦ أغسطس (٣) يستوضحه سبب «سكوته» ثم « هروبه » دون إطلاع خلصائه على عزمه واصطحابهم معه ، ولم يظفر دوجا بطبيعة الحال برد على رسائله . وعندئذ تأكد لديه رحيل بونابرت . فأصدر أمراً يومياً يسوغ فيه رحيل القائد العام بوصول أوامر مشددة إليه بذلك من حكومة الإدارة ، ويناشد الفرنسيين والمصريين على السواء «عدم القلق» بسبب غياب بونابرت(٤) ، ومع أنه شعر بالخجل والحيرة بسبب تشدده السابق فى تكذيب هذا النبأ، واعتقد أنه إنما كان فريسة نفاق وخدعة كبيرة (٥) ، فإن دوجا ما لبث حتى أخذ يعد رسالة إلى (باراس) عضو حكومة الإدارة يصف فيها حال الحملة السيئة التى تركها عليها بونابرت فقال (٦): إن بونابرت غادر البلاد «وتخلى» عن الحملة والخزائن والمخازن خاوية ، فلا مال ولا بارود ولا سلاح وتحصينات الاسكندرية وبلبيس والعريش ضعيفة وسيئة ، ولقد فتك الوباء والرمد بعدد عظيم من الجند الى جانب من أهلكتهم المعارك السابقة ، وقد ظل الباقون دون ملابس ، وقد تراكمت الديون على الحملة ، ونقص عدد الجيش الى سبعة آلاف جندى وهذا كله فى وقت يهدد فيه العدو — وهو على مسيرة ثمانية أيام فحسب — بالزحف على القاهرة .

وكان بوسيلج كذلك من أشد الناقمين على بونابرت بسبب عدم اصطحابه له فى رحلته إلى فرنسا . وهو الذى اعتقد فى قرارة نفسه أن بونابرت ما كان يستطيع الاستغناء عن خدماته . ولم يكسر من حدة نقمته عليه أن بونابرت شاء أن يتركه الى جانب كليبر لمعاونته ، لأن بوسيلج كما قال بونابرت كان رجل جد وعمل ، وله إلمام

---

(١) Berthier, Op. Cit. 200
(٢) Corresp. No. 4376
(٣) Jonquière V. 639 — 40
(٤) Galland I. 190
(٥) Berthier, op. cit; 200
(٦) Rousseau 4—5 Note (1)

بشئون الإدارة المصرية « المرتبكة » ولم يفعل شيئا فى استلال سخيمته ذلك الكتاب الذى بعث به إليه بونابرت فى الوقت الذى كتب فيه الى دوجا نفسه ينبئه باضطراره الى العودة الى فرنسا بكل سرعة (١) . بل اعتقد بوسيلج أن بونابرت تعمد إخفاء نياته عنه، كما تعمد أن يتركه فى هذه البلاد . وكان هذا الاعتقاد كافياً لأن يثير كوامن حقده ضد بونابرت والتشفى من ذلك الرجل الذى صار يصفه بالغدر والخيانة وقلة الوفاء . وكانت وسيلته الى ذلك أن يهول على كليبر الأمر، ويعمد الى المبالغة عند تصوير جسامة ذلك الارتباك المالى الذى أشار إليه بونابرت فى تعليماته (٢) واستطاع بوسيلج أن ينال بغيته بسبب اعتماد قائد الحملة الجديد عليه وعلى زميله دوجا فى كل ما كان يطلبه من معلومات تبين له « حقيقة » الموقف (٣) . ذلك أن كليبر الذى ظل بعيداً عن « مركز الأعمال » ولا يعرف من دقائق الإدارة وتفاصيلها إلا ذلك النزر اليسير الذى أتاحته له فرصة وجوده بالاسكندرية ودمياط ، بل إن كليبر الذى لم يشهد من أقاليم الدلتا سوى جزء صغير من أرضها ذات الزراعة القليلة بسبب وقوعها « على حافة الصحراء » ظل يجهل كذلك ما كانت تتمتع به هذه « المستعمرة » من مواد للثروة العقارية يمكن استغلالها واستثمارها ، وعلى ذلك فقد سهل على بوسيلج أن يدخل فى روعه زيادة النفقات على الإيرادات زيادة عظيمة واستحالة الموازنة بين الدخل والمنصرف ، بل استمرار الفرق بين الإيرادات والنفقات فى الزيادة واستعان بوسيلج فى رسم هذه الصورة القاتمة بزميله دوجا الذى طفق هو الآخر يتحدث عن حال الجيش السيئة ، فقال إن الجند تنقصهم الملابس والأسلحة والذخائر وإنهم كانوا موزعين فى طول البلاد وعرضها . . فى حاميات صغيرة يسهل على العدو اكتساحها (٤) . فكان من سوء طالع كليبر حقاً أن يجد بجانبه عند وصوله الى القاهرة هذين الرجلين الناقمين على بونابرت شر نقمة ، فغدا هو الآخر ينظر الى حالة الحملة بمنظار قاتم ويحمل بونابرت مسئولية ما نزل بالجيش من بلاء عظيم .

وساعد على ذلك أن القاهرة حين مجىء كليبر إليها كانت قد أصبحت عالما يزخر بكل أولئك المتذمرين من الجند الذين كانت لاتزال عالقة بأذهانهم ذكرى الأهوال التى صادفوها فى زحفهم الصحراوى على القاهرة . واستبد بهم الهم والقلق منذ أن علم

---

(١) Corresp. No. 4378

(٢) Berthier, op. cit, 201

(٣) Ernouf 223

(٤) Berthier, op. cit. 201-2

أسطول برويس فى أبى قير ثم جاء رحيل بونابرت ضغثاً على إبالة ، فصور لهم الوهم والوجل أنهم إنما أبعدوا إبعاداً إلى هذه البلاد النائية بل ونفوا إليها ، ولاسبيل الآن للعودة إلى أرض الوطن فبات شغلهم الشاغل تدبير كل وسيلة للخروج من هذا المأزق وادعى كثيرون المرض حتى يحصلوا على « شهادات مرضية » من أطباء الحملة وجراحيها أمثال ديجينت Desgenettes ولارى Larrey تجيز تسريحهم من الجيش[١] وكان لايقل القواد والضباط عن جنودهم رغبة فى العودة إلى فرنسا . وعظم تذمر الضباط على وجه الخصوص عندما فوجئوا برحيل بونابرت ، وتطرف جماعة منهم فعدوا هذا الرحيل « هروباً » يجب أن يحاكم صاحبه أمام مجلس عسكرى يقضى بإعدامه ، كما يحاكم كل جندى يجرؤ على التخلى عن مركزه فى مواجهة العدو [٢] وبلغ توتر أعصاب كبار رجال الحملة حداً جعل قائدين كالجنرال لانوس Lanusse والجنرال جونو Junot يحتدمان فى نزاع أفضى إلى مبارزة كان من الميسور اجتنابها [٣] ، واعتقد كثيرون أن غياب ديزيه فى الصعيد وعدم وجوده إلى جانب كليبر فى هذه الظروف الدقيقة كان من العوامل التى ساعدت على طغيان موجة التذمر على كل حكمة وروية [٤]، فكان من أثر ذلك كله أن بدأ كليبر ينقد « مسلك » قائده السابق ويتهكم عليه فى مجالسه الخاصة تهكما جارحا ؛ وبلغ حنق كليبر حداً جعله يفكر فى إساءة بونابرت ويعمل على إثارة المشاكل بين بونابرت وزوجه من باريس[٥] فأمر بترحيل السيدة فوريس Fourès إلى فرنسا حتى تلحق « بالبطل والعاشق الذى فقدته » [٦] ، وأركبها منو البحر ؛ ولكن الانجليز سرعان ما قبضوا عليها وأعادوها إلى مصر ثانية . ونجم عن تسرع كليبر وعدم تحفظه فى مجالسه أن ذاعت أقواله عن بونابرت وصارت تتناقلها الألسن ، وانقسم الجيش من ذلك الحين إلى فريق يعتب على بونابرت مسلكه ويريد العودة إلى الوطن ، وآخر أخذ على عاتقه دفع كل اتهام يوجه إلى قائد الحملة السابق ويتمسك بالبقاء فى مصر ، وكان منو على رأس ذلك الفريق الثانى . واتسعت شقة الخلاف بين الفريقين عندما طفق كليبر ينقد بشدة سياسة حكومة الإدارة ، التى أفضت

---

(١) Jonquière III 389 ؛ Bricard 331—4

(٢) Desvernois 219

(٣) Jonquière III 28—9

(٤) Ernouf 222

(٥) Rigault 4—5

(٦) Rousseau 70

إلى الاشتباك مع العثمانيين ، ويذكر صراحة أنه لم يكن من رأيه بتاتاً « الذهاب إلى سوريا لأن الصحراء — على حد قوله — إنما هي بمثابة خندق » يفصل بين سوريا ومصر ، كان يجب على الفرنسيين أن يتركوا للعدو مشقة اجتيازه بينما يتحصن جيش الشرق في بلبيس والصالحية [١] .

فكان تحت تأثير هذه العوامل جميعها أن أرسل كليبر إلى حكومة الإدارة تقريره المشهور عن مركز الحملة في مصر عند رحيل بونابرت الى فرنسا ، ومع أن الانجليز الذين صادروا هذا التقرير ثم نشروه يحمل يوم ٨ اكتوبر سنة ١٧٩٩ تاريخاً لكتابته [٢] فقد اتفق الرأى على أن كليبر كتب هذا التقرير في ٢٦ سبتمبر [٣] وقد استهله بعبارات تهكم فيها على بونابرت الذى غادر البلاد بكل سرعة دون مقابلته . وترك له خطابا إلى الصدر الأعظم في القسطنطينية مع أنه كان يعرف تماما أن الصدر موجود في دمشق ثم تحدث عن حال جيش الشرق السيئة بسبب نقص قواته إلى النصف تقريباً ، واتساع رقعة البلاد التى يطلب إليه احتلالها والتمسك بها والدفاع عنها ضد جيوش الباب العالى وانجلترة وروسيا وهى دول كبيرة تعمل متحدة لغرض واحد ، هو إخراج الفرنسيين من مصر ، بينما ينقص الجنود الملابس والمؤن والأسلحة والبارود ، وتفتك بهم الدوسنطاريا والرمد والأمراض الأخرى ، ويستبد بهم الاعياء والتعب . والأمل في أن نستطيع (المسابك) التى أنشئت ومصنع البارود في الروضة أن تسد حاجة الجيش ، كما أنه من المتعذر تنفيذ شيء من الأوامر الكثيرة التى تركها بونابرت قبل رحيله لامداد الجيش بالملابس وبحاجاته الأخرى ، وذلك بسبب العوز المالى . لأن بونابرت قبل مغادرته البلاد كان قد استنفد كل مواردها خلال الشهور القليلة الأولى من الاحتلال ، وجمع من غرامات الحرب كل ما يستطيع إنسان أخذه من البلاد ، وحتى أن اللجوء إلى مثل هذه الأساليب الآن من شأنه أن يحرك الثورة ضد جيش الشرق في الوقت الذى يحيط فيه العدو بالفرنسيين من كل جانب ، وفضلا عن ذلك فإن بونابرت غادر مصر والخزائن خاوية خالية ، ورواتب الجنود المتأخرة تبلغ حوالى أربعة ملايين فرنك ، بينما تنوء الحملة تحت عبء دين ثقيل يقدر مع غيره من المطالب المستعجلة بحوالى عشرة ملايين فرنك ، ولا تستطيع الحكومة

---

(١) Pajol 369

(٢) Copies Of Original Letters. Part The Third . 28 — 37; Rousseau 76—84

(٣) Berthier, op. cit. 205; Pajol 358; Ernouf 225

أن تحصل شيئاً من الضريبة إلا فى شهرى نوفمبر وديسمبر ، بل وقد يتعذر عليها أن تفعل ذلك عندئذ بسبب القتال المتوقع مع العدو ، لأن مصر على خلاف مايبدو من سكون أهلها الظاهر تكاد تكون متوثبة للثورة عند أول سانحة ، إذ يتربص المصريون الدوائر بالفرنسيين ويعتمدون فى ذلك على المماليك الذين مافتئوا ينجدونهم بالأسلحة وإرسال المال ، فى حين أن إبراهيم بك مازال رابضاً بحوالى الألفين من مماليكه فى غزة وقد وصل ثلاثون ألفاً من جيش الصدر الأعظم والجزار باشا إلى غزة كذلك .

ثم انتقل كليبر من ذلك إلى الحديث عن « تخلص » بونابرت من مسئولية مواجهة هذه الأخطار التى كان يعرف تمام المعرفة وجودها ، والتى ما كانت تجيز له تعليمات حكومة الإدارة محاولة التخلص منها . وناقش كليبر التعليمات التى تركها له القائد السابق بشأن إبرام الصلح مع الباب العالى « حتى ولو كان الجلاء عن مصر » شرطاً أساسياً لإبرامه ، ثم تساءل : وماذا يستطيع ألف وخمسمائة رجل أن يفعلوا فى أرض واسعة يجب الذود عنها ضد قوات العدو الجسيمة إلى جانب الاشتباك فى معارك يومية مع الأهلين . مع العلم بأن الاسكندرية والعريش وهما « مفتاحا مصر » — على حد قول بونابرت — تعجزان لأسباب عدة عن الدفاع والمقاومة ، ولا يعنى الانتصار فى معركة أبى قير البرية أن الأتراك سوف يعجزون — كما توهم بونابرت — عن استئناف عملياتهم العسكرية بكل همة .

وعلى ذلك فإن كل مايستطيع كليبر أن يفعله هو أن يمضى قدما فى مفاوضات الصلح التى حاول بونابرت نفسه بدأها مع الأتراك ، إذا أجاب الصدر الأعظم على رسالة بونابرت ، فيقترح كليبر حينئذ إرجاع مصر إلى الباب العالى بشروط لخصها فى « أن يوجد باشا فى مصر نائباً عن السلطان العثمانى كما كان الحال سابقاً ، وأن يترك له الميرى الذى كان من حق الباب العالى أن يتسلمه فى الماضى ، ولو أن الباب العالى ما كان يحصل من هـذا الميرى شيئاً ، وأن يفتح طريق التجارة بين مصر وسوريا ، وأن يبقى الفرنسيون فى مصر يحتلون مواقعها المحصنة ، ويجمعون الإيرادات بما فى ذلك الضرائب الجمركية ، وذلك حتى تعقد حكومة الإدارة الصلح مع انجلترة » ، وقال كليبر إنه يؤدى خدمة كبيرة لوطنه ، إذا ظفر ببغيته ، ولو أنه توقع أن يحول دون تحقيق صلح على هذه الأسس تدخل الإنجليز واستخدام نفوذهم لإحباط مساعيه مستعينين فى ذلك ولاشك بما عرف عن الأتراك أنفسهم من صلف وكبرياء يجعل قبولهم هذه المقترحات متعذراً . وقد سوغ كليبر قبول مبدأ الجلاء من جانبه كقاعدة أساسية لإبرام الصلح

مع تركيا بعجز البحرية الفرنسية . ذلك أن فرنسا منذ أن فقدت بحريتها قد خسرت في رأيه تلك « القوة الدافعة التي حرمتها من السيطرة على الموقف والتي جعل فقدها إبرام الصلح مع تركيا أفضل الوسائل التي تمهد للفرنسيين طريقاً شريفاً (يخلصون به) من مشروع لا يمكن أن يحقق الأغراض التي دعت إليه » وأرسل كليبر مع تقريره بياناً بالأدوات اللازمة للمدفعية ، ثم ملخصاً بالديون التي عقدها بونابرت وغادر البلاد دون أن يسدد شيئاً منها[١] ، ولما كان قد بلغه وصول سفن عثمانية أمام دمياط في انتظار أسطول القبطان باشا المجهز في يافا فقد بادر كذلك بكتابة هذه الأنباء في ذيل تقريره وقدر كليبر عدد الجيش العثماني من خمسة عشر إلى عشرين ألف جندي .

وهكذا كان واضحاً أن كليبر عندما بعث بهذا التقرير إلى حكومة الإدارة كان يعتقد أنه بات من المتعذر على الحملة البقاء في مصر طويلا ، وأنه قد وطد العزم على المفاوضة من أجل الجلاء عنها ، وأراد أن يستند في عزمه هذا على أن الجيش والإدارة قد بلغا درجة من سوء الحال والارتباك تقضى على كل أمل في إمكان الاحتفاظ بالبلاد في وجه العدو المتألب عليها من كل جانب ، وذلك بسبب حاجة الجيش إلى الأسلحة والعتاد إلى جانب النقص الظاهر في قواته ، ثم بسبب ضعف وسائل الدفاع في قطية والعريش وبلبيس ودمياط والاسكندرية ، وهي مراكز الدفاع الهامة عن مصر .

على أن إعداد التقرير بالصورة المتقدمة كان معناه أن بونابرت وحده هو المسئول الأول عن إبلاغ الحملة إلى تلك الحال السيئة التي كانت عليها عند سفره ولذلك فقد اعتبر كثيرون هذا التقرير بمثابة « اتهام » موجه ضد بونابرت نفسه[٢] ، وكان من المنتظر لهذا السبب عينه أن يعمد كثيرون إلى فحص الأقوال وتقدير الاعتبارات التي جاءت به والتي بنى عليها كليبر عزمه على المضي في مفاوضات الصلح من أجل الجلاء عن مصر بكل سرعة ، حتى إذا تبين أنها غير صحيحة سقط الاتهام الموجه ضد بونابرت وتحمل كليبر وحده مسئولية الرغبة في الجلاء .

ومع أن كليبر اهتم في تقريره بإظهار حاجة الجيش إلى الأسلحة والمهمات إلى جانب بيان ما وقع من نقص عظيم في قواته ، وذلك فضلا عن اهتمامه بإظهار عوز الحملة وحاجتها الملحة إلى المال ، فقد اتفق رأى الكثيرين حتى من بين أنصار كليبر والمدافعين عنه على أن تقرير ٢٦ سبتمبر ١٧٩٩ كان يحوى تفصيلات غير صحيحة[٣]

---

(١) Copies Of Original Letters. op. cit. 57—66

(٢) Rigault 19

(٣) Ernouf 225

ذلك أن عدد جيش الحملة عند خروجها إلى مصر فى مايو ١٧٩٨ كان يبلغ ٢٩٫٤٠٢[١]
وقدر (ديجينت) طبيب الحملة خسارة جيش الشرق إلى ما بعد معركة هليوبوليس
وثورة القاهرة الثانيـة بحوالى ٨٫٥٤٢[٢] ؛ يقابل ذلك انضمام آلاف الجنود
البحريين إلى الجيش بعـد كارثة أبى قير البحرية ثم إنشاء ثلاث فرق من اليونانيين
(فى أكتوبر ١٧٩٨) عدد كل منها مائة فى كل من القاهرة ودمياط ورشـيد
لحراسة « عربات البريد » فى الطريق[٣] أى أن الجيش كان يبلغ عند رحيل
بونابرت حوالى اثنين وعشرين ألف رجل[٤] ؛ وفضلا عن ذلك فقد أعد دوجيرو
Doguereau رئيس أركان حرب المدفعية إحصائية فى أول سبتمبر ١٧٩٩ جاء فيها
أن عدد مدافع الجيش تبلغ ١٦٦ بينما وجد فى الحصون ٢٣٧ مدفعا ، أما عدد القنابل
أو الجلل فقد بلغ ٣٣٨٫٧٤٦ وبلغ عدد طلقات البنادق لدى المشاة ٥٫٧٨٨٫٩٣١
خرطوشه ؛ ويقول الجنرال داماس Damas إنه كان بالاسكندرية وحدها ٦١ مدفع
حصار من الطراز الفرنسى و ٨٨ مدفعاً من طراز أجنبى عـدا ١٨ مدفع ميدان
و ٤٨ مدفعاً من غير قنادقها[٥] .

ويدل البحث من ناحية أخرى على أن كليبر كان محقاً لدرجة ما فى شكواه من قلة
المـال وحاجة الحمـلة المستمرة إليه على الرغم من الغرامات والأتاوات التى فرضها
وجمعها بونابرت والمبالغ التى استدانها ، حتى أن دوجا فى القاهرة ما لبث حتى شكا من
قلة المـال فى أثناء الحرب الشامية ، وطفق يؤكد حاجته الملحة إليـه دائما[٦] فقد
بلغ المتـأخر من رواتب الجيش والبحرية حتى أواخر شهر أغسطس ١٧٩٩ حوالى
٩٫٥٥٠٫٧٩٥ فرنكا ولم يكن من المنتظر تحصيل ما يكفى من الضرائب والغرامات
المـالية وما إليها لسد نفقات الحملة لأسباب عدة ، لعل أهمها أن مياه الفيضان فى عام
١٧٩٩ لم تغمر جميع الأراضى الزراعية . وذلك بينما بلغت رواتب الجيش ١٫٣٠٠٫٠٠٠
فرنك فى الشهر الواحد[٧] وبلغت الديون التى تركها بونابرت ١١٫٣١٥٫٢٥٢[٨]

(١) Jonquière I 355—9
(٢) Desgenettes I. 177
(٣) Corresp. No. 3542
(٤) Rigault 14
(٥) Ibid 14
(٦) Guitry 316
(٧) Rigault 15
(٨) Galli 234

فرنكا ، ومع ذلك فقد اعتقد كثيرون أن هذه الأزمة المالية لم تصل إلى درجة من الخطورة تجيز لقائد الحملة الجديد أن يملأ تقريره بمغالطات أو مزاعم غير صحيحة ، فضلا عن أن هـذه الأزمة لم تكن كافية فى نظرهم لاقناعه بضرورة الجلاء عن مصر بكل سرعة [١] .

ووصل تقرير كليبر إلى باريس فى ١٢ يناير ١٨٠٠ ؛ كما وصلت فى الوقت نفسه تقارير عدة بعث بها (دور) Daure مدير المهمات ، و (استيف) Estève مدير الخزانة وكذلك طائفة من الضباط ورؤساء المدفعيـة والمشاة والفرسان وآخرون غيرهم ، استطاع بونابرت القنصل الأول أن يعتمد عليها فى تفنيد ماجاء فى تقرير كليبر من مزاعم . فكان مما ذكره بونابرت أن أحدا فى مصر لم يكن يعلم أن الصدر الأعظم عند ما بعث إليه بونابرت برسالتـه كان قد غادر القسطنطينية ، وعلاوة على ذلك فقد كان الصدر الأعظم فى أرمينيا العليا فى نهاية شهر أغسطس ١٧٩٩ وعند ما كتب كليبر تقريره أى فى أواخر سبتمبر كان الصدر فى الطوروس وليس فى دمشق أو فى حلب [٢] ؛ وناقش بونابرت قول كليبر عن نقص قوات الحمـلة وحاجة الجيش إلى الأسلحة والملابس وما إلى ذلك فذكر مستنداً إلى ماجاء فى تقارير دور واستيف وغيرهما أن الجيش فى شهر سبتمبر ١٧٩٩ كان يبلغ ٢٨٫٥٠٠ ولديه القدر الـكافى من الأسلحة والملابس . ثم تناول مسألة حاجة الحمـلة للمال فقال إن المرتبات كانت تدفع للجنود من مدة طويلة ، ولا تزيد المتأخرات على ١٥٠٫٠٠٠ فرنك ، ولو أن هذه كانت من زمن بعيد ، وفضلا عن ذلك فمن المنتظر حسبما جاء فى تقرير (استيف) أن تحصل الخزانة ستة عشر مليونا من الفرنكات ؛ واعترض بونابرت كذلك على قول كليبر أن مصر على الرغم من هـدوئها الظاهر كانت لا تخضع للفرنسيين ، فكتب أن « مسلك الشعب فى أثناء الحرب السورية كان لايدع مجالا للشك فى أنهم يميلون إلى الفرنسيين ، وعلاوة على ذلك فإنه لا يجب أن يخشى الانسان شيئاً من جانب المماليك لضعف البـكوات ابراهيم ومراد وعجزهمـا عن الهجوم أو المقاومة كما أنه كان لا يوجد فى سوريا فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٩ رجل واحد من جيش الصـدر الأعظم ، بل إن الجزار باشا قد سحب جنده من غزة إلى عكا فأصبح لا يوجـــد فى غزة سوى أربعمائة فحسب من مماليك ابراهيم بك [٣] ؛

---

(١) Berthier, op. cit. 202—4

(٢) Ibid 205

(٣) Ibid 206—211

وعنى بونابرت عناية خاصة بدفع ذلك « الاتهام » الذى وجهه إليه كليبر عندما ذكر فى تقريره أن بونابرت قد غادر مصر وهو يعلم بوجود « أزمة خطيرة » ويشعر باقتراب هذه الأزمة ، حتى أنه على حد قول كليبر — مالبث حتى أشار عليه فى تعليماته بأن يعقد صلحا مع الأتراك على أساس الجلاء عن مصر فى الظروف التى أوضحها بونابرت له فى تعليماته فقال بونابرت « إن هذه الأزمة الخطيرة كانت لاتوجد إلا فى مخيلة كليبر نفسه ، ثم فى مخيلة أولئك المتآمرين الذين أرادوا استثارة كليبر وحمله على ترك مصر ومغادرتها » ذلك أن بونابرت الذى بدأ المفاوضات مع القسطنطينية غداة وصوله إلى الإسكندرية ثم استأنفها وهو فى سوريا ما كان يبغى من وراء ذلك إلا تحقيق أغراض معينة ، منها منع الباب العالى من إعلان الحرب وصرفه عن قتال الفرنسيين ، أو على الأقل كسر حدته ، وحتى يستطيع بطريق الرسل الفرنسيين والأتراك المستخدمين فى هذه المفاوضات الوقوف على أخبار الحوادث فى أوروبا ذاتها . وأما تلك الأزمة الخطيرة التى تحدث عنها كليبر فإنه لم يكن هناك قط مايدعو لوجودها ، لأن الجيش الروسى الذى قيل عنه إنه يرابط فى الدردنيل لم يكن إلا وهما وخيالا ، وكذلك الحال فيما يتعلق بذلك الجيش الإنجليزى الذى اجتاز المضيق ، كما أن الصدر الأعظم سرعان مايصطدم مع الجزار باشا بسبب غيرة الجزار الشديدة ، أضف إلى ذلك كله أن جيش الصدر لايزيد على خمسة آلاف فحسب ، وفى وسع الصدر إذا شاء أن يجمع فى آسيا أربعين أو خمسين ألفا من الرجال غير أن هؤلاء سيكونون كما يبدو من الرجال الذين لم يشهدوا قتالا قط قبل ذلك ولا يمكن أن يبلغ هذا الجيش قوة العثمانيين الذين قاتلوا فى معركة جبل طابور ، فالخطر المتوقع من جانب الصدر الأعظم وجيشه لايستند إلى أى أساس . والحقيقة « أن مصر لا يهددها خطر ما إلا من جانب أصحاب الفكر السيء والروح الخبيثة من رجال أركان الحرب الفرنسيين أنفسهم » . ثم انتقل بونابرت من ذلك إلى ذكر الأسباب التى دعته إلى إجازة عقد الصلح فقال : إنها كانت خوفه من انتشار الوباء فى عام ١٨٠٠ وهلاك عدد عظيم من جند الحملة . ورغبته كذلك وبعد أن قضى الوباء فى العام السابق على سبعمائة جندى تقريبا ، أن يخفف من عبء المسئولية الملقاة على عاتق خلفه فى القيادة ، فأجاز له عقد الصلح دائما على شريطة أن يظل فى مصر حتى يتم عقد الصلح العام فى أوروبا ومع ذلك فلم يحدث مايقتضى تنفيذ هذا الجزء من التعليمات لأن كليبر كتب تقريره فى شهر سبتمبر سنة ١٧٩٩ وكان لايزال أمامه متسع من الوقت حتى شهر مايو سنة ١٨٠٠ قبل عقد الصلح مع الباب العالى. ومن المحتمل على حد قول بونابرت ، أن تكون قد وصلت إلى كليبر فى أثناء هذه المدة الطويلة أخبار من

فرنسا[١] . وقد دافع بونابرت بعد ذلك عن حالة التحصينات فى العريش والإسكندرية كما تحدث عن أهمية انتصاره فى معركة أبى قير البرية ثم اختتم « تعليقاته » على تقرير كليبر بقوله « إن رسالة كليبر تظهر مقدار القلق الذى استولى على هذا القائد ، كما أنها تزخر بالمزاعم الباطلة[٢] » .

وسواء أكان كليبر يستند إلى أسباب قوية فى طلب المفاوضة مع الباب العالى من أجل الجلاء عن مصر أم كان بونابرت محقا فى دعواه أن الموقف فى مصر فى شهر سبتمبر وفى الشهور القليلة التالية لم يكن يسوغ عقد الصلح مع العثمانيين على أساس الجلاء عن مصر ، فمن الواضح أن كليبر قد بات يعتقد اعتقاداً صحيحاً أن الحملة قد ساء حالها لدرجة خطيرة ، حتى أنه إذا تبين أن عقد الصلح أمر متعذر ، فإن من نتائج الدخول فى المفاوضة مع الاتراك منع هؤلاء من الزحف على مصر ، ثم كسب الوقت حتى تصله النجدات اللازمة من مال وسلاح من فرنسا . وزيادة على ذلك فقد اعتقد كليبر أنه بسلوكه هذا الطريق إنما ينفـذ جوهر التعليمات التى تركها بونابرت له[٣] ، ولا مراء فى أن فتح باب المفاوضة مع الصدر الأعظم كان متمما لتلك الخطوة التى خطاها بونابرت من قبل عندما بعث برسالته إلى الصدر الأعظم فى ١٧ أغسطس ١٧٩٩ وقد استحث فيها بونابرت الصدر الأعظم على ضرورة المفاوضة فى مصر وفرنسا معا لتسوية جميع المسائل التى كانت مثار النزاع بين الدولتين ، والتى كانت تسويتها لا تتطلب جهـداً يستمر — كما قال بونابرت — أكثر من ساعتين[٤] ذلك أن هـذه « الخطوة » السياسية كانت تقتضى الدخول فى المفاوضات مباشرة مع العثمانيين لعقد صلح منفرد مع تركيا يمكن بفضله انتزاع تركيا من المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا من جهة ، وبقاء فرنسا فى مصر من جهة أخرى أو على الأقل الاتفاق على هدنة مع العثمانيين تحول دون استمرار الأعمال العسكرية فترة من الزمن لا تحصل انجلترة فى أثنائها على أية معاونة من العثمانيين فى أثناء نضالها ضد فرنسا ، فضلا عن أن هذه الهدنة سوف تتيح الفرصة للفرنسيين لاستئناف القتال بكل همة إذا وصلتهم النجدات

---

(١) Berthier. 212—4

(٢) Ibid. 219

(٣) Pièces Officielles, op. cit. III

(٤) Corresp. No. 4364; Corresp. Inédite II 445—9

فى مصر أو العمل على إنهاء مفاوضات الصلح بنجاح إذا تبين أنه من التعذر إرسال هذه النجدات إلى جيش الشرق [١] .

مفاوضات الصلح واتفاق العريش :

وعلى ذلك فقد بادر كليبر بالكتابة إلى يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم فى ١٧ سبتمبر ١٧٩٩ [٢] ينفى رغبة فرنسا فى انتزاع مصر من تركيا ويذكر أن سبب إرسال الحملة إلى هذه البلاد إنما كان محاولة إلقاء الرعب فى قلوب الانجليز وتهديد ممتلكاتهم فى الهند وإرغامهم إرغاما على قبول الصلح مع فرنسا ، فضلا عن الانتقام مما لحق بالفرنسيين من أذى على أيدى المماليك وتخليص مصر من سيطرة البكوات وإرجاعها إلى تركيا ثم طلب كليبر من الصدر أن يخدم بلاده بعقد الصلح مع فرنسا ، حتى إذا ارتأى الصدر أن يرسل مفاوضاً إلى كليبر قوبل هذا المفاوض بكل ترحيب . وفى أوائل أكتوبر وصل محمد رشدى أفندى رسول الصدر الأعظم يحمل رداً [٣] على كتاب بونابرت السابق (فى ١٧ أغسطس) وكان كتابا — على حد قول كليبر — يدل على « الكبرياء والعجرفة القريبة من الإهانة البالغة » ولكن كليبر سرعان ما تغلب على غضبه .. وكتب إلى منو فى ١١ أكتوبر حتى يتصل بأية سفينة أوروبية قد تكون أمام الاسكندرية بغية الدخول فى مفاوضات مع الانجليز أو الروسيين على أمل أن تحرك هذه الأحاديث غيرة الأتراك فيصبحون أكثر ميلا للتفاهم مع الفرنسيين . فضلا عن إتاحة الفرصة لكسب الوقت دائما إذا أصر كليبر على عدم إغلاق باب المفاوضة [٤] ومع أن كليبر لم يستطع كبح جماح نفسه فى اليوم التالى عندما قابل محمد رشدى أفندى الرسول العثمانى الذى حمل إليه كتاب الصدر وذلك بحضور مصطفى باشا القائد العثمانى الذى أسره الفرنسيون فى معركة أبى قير البرية وبحضور بوسيلج [٥] فقد أمكنه أن يبسط القواعد التى أرادها للصلح مع تركيا ، وكانت هذه تتلخص (أولا) فى جلاء الفرنسيين عن مصر وعقد معاهدة دفاعية هجومية بين فرنسا وتركيا يطلب إلى انجلترة الانضمام إليها ، وذلك حتى تتمكن الدول المتحالفة من الدفاع عن كيان الإمبراطورية

---

(١) Charles-Roux, L'Angleterre II 6; Rousseau 45 (Note 1)

(٢) Pajol 352—4; Rousseau 45—9

(٣) Pajol 370 — 2

(٤) Ibid, 372

(٥) Rigault 48

العثمانية ضد روسيا وقد طلب كليبر أن تظل هذه المفاوضات المتعلقة بمسألتى الجلاء والمحالفة سراً مكتوما عن روسيا . (وثانياً) فانه لما كان اشتراك انجلترة فى المحالفة ضروريا للدفاع عن تركيا فقد بات عقد الصلح أولا بين فرنسا وانجلترة أمراً لامناص منه ولا محيد عنه لتحقيق هذه الغاية . وأخيراً فقد تمسك كليبر بعدم الجلاء عن مصر حتى يتم عقد الصلح بين فرنسا وانجلترة . على أن كليبر قد وافق حتى يقيم الدليل على رغبة الفرنسيين فى إخلاء هذه البلاد حقيقة على وجود أحد الباشوات لتمثيل السلطان العثمانى فى مصر من تاريخ التوقيع على الاتفاق . وواضح أن كليبر كان يهدف من هذه العروض إلى إقناع الصدر الأعظم بأن روسيا هى أكبر أعداء الدولة العثمانية وأن من مصلحة العثمانيين أنفسهم أن يقنعوا الانجليز بذلك ، وأن يعملوا على دعم المحالفة المنتظرة بصورة تجعلها ذات أثر فعال فى أى نضال قد ينشب مع روسيا ، والحيلولة دون توسع هذه الدولة على حساب تركيا أو اتفاقها مع النمسا على اقتسام ممتلكات العثمانيين فيما بينهما . واقتنع كل من محمد رشدى أفندى ومصطفى باشا بأن هذه القواعد التى بسطها كليبر ، كانت حكيمة وعادلة . وكان من رأيهما بدء المفاوضة مع الانجليز ووعد كليبر بإعطاء كل مساعدة للعثمانيين إذا وقف الروس على « سر » هذه المفاوضات وشنوا هجوما مفاجئاً على تركيا ، كما وافق محمد رشدى أفندى ومصطفى باشا على أن المماليك لا يستحقون سوى المعاملة التى عاملهم بها الفرنسيون ، وأظهرا استعداد الباب العالى لطرد المماليك من مصر نهائياً ، وحكم هذه البلاد بالطريقة التى يحكمها بها الفرنسيون أنفسهم (١) .

وبعد مرور عشرة أيام على هذه المحادثات تقريباً جاء كليبر رد الصدر الأعظم على رسالته التى بعث بها إليه فى ١٧ سبتمبر ، وكان رد الصدر لا يحمل أى أمل فى إمكان الوصول إلى اتفاق عندما رفض الدخول فى أية مفاوضة إلا على أساس جـلاء الفرنسيين عن مصر دون قيد أو شرط (٢) فكلف كليبر مصطفى باشا وكان « صديقاً للفرنسيين » والواسطة التى استخدمها وقتئذ كل من كليبر والصدر الأعظم فى إرسال رسائلهما (٣) — بأن يكتب إلى الصدر عن المحادثات الأخيرة وأحال كليبر الصدر إلى خطاب مصطفى باشا (٤) . ثم سنحت الفرصة لسير المفاوضات بعد ذلك سيراً حثيثاً

---

(١) Pajol 374 — 6 (Le procés verbal de la conference ....)

(٢) Rigault 48 et (Note 3)

(٣) Testa II No. LXXIII. 1 — 2

(٤) Pajol 377 — 8

عند ما قرر السير سدنى سميث التدخل فى المفاوضات الدائرة بين الأتراك والفرنسيين . ذلك أن الصدر الذى اعتز اعتزازاً كبيراً بالمحالفة الجديدة بين تركيا وروسيا وانجلترة كان يثق ثقة عظيمة بالسير سدنى سميث الذى حضر مفاوضات القسطنطينية فى مرحلتها الأخيرة (١) . فبادر الآن باطلاع السير سدنى على رسائل بونابرت وكليبر إليه ثم ردوده عليها (٢) . وانتهز السير سدنى الفرصة فكتب إلى كليبر فى ٢٦ أكتوبر عام ١٧٩٩ (٣) يقول إنه من المتعذر أن يقبل الأتراك « منفردين » الصلح أو الهدنة ما دامت معاهدة التحالف المبرمة بينهم وبين الانجليز فى ٥ يناير ١٧٩٩ قائمة ، وفضلا عن ذلك فإنه ما كان فى وسع الفرنسيين أن ينسحبوا من هذه البـــلاد دون موافقة بريطانيا أو علمها ، لأن الانجليز هم أصحاب السيطرة فى البحر الأبيض . وخشى سدنى سميث أن يظن الفرنسيون أنه إنما يريد انسحابهم من مصر خوفا منه على المصالح الانجليزية فى الهند فأكد زوال كل خطر على الهند من بقاء الفرنسيين فى مصر ، لأن الانجليز استطاعوا القضاء على تبو صاحب فى معارك فبراير — مايو ١٧٩٩ واقتسمت شركة الهند التجارية أملاكه الواسعة مع أعدائه (٤) بل إن الانجليز إنما أرادوا إخلاء مصر من الفرنسيين لأنهم تعهدوا بالمحافظة على كيان الأمبراطورية العثمانية ، ولا مراء فى أن خروج الفرنسيين من مصر سوف يساعد على عقد السلام فى أوروبا . ورحب كليبر بتدخل سدنى سميث فى المفاوضة لاتفاق ذلك مع رغبته التى أبداها فى أثناء المفاوضة مع محمد رشدى أفندى ولاقتناعه بأن هذه المفاوضات « من المحتمل أن تصبح مقدمة لعقد السـلام العام » أى ذلك السـلام الذى لا يشك كليبر فى أن سـدنى سميث يشاطره الرغبة فى عقده ، ولو أن الرغبة فى الصلح لا تعنى أن موقف الحملة فى مصر كان ضعيفاً أو أن جيش الشرق لا يمكنه دفع هجوم الأعداء عليها .. فقد تحدث كليبر عن نجاح الحملة فى السيطرة على الموقف فى مصر وقوة التحصينات التى أنشأها جيش الشرق فيها ووفرة استعدادات هذا الجيش وكثرة رجاله . وواضح أن غرض كليبر من تصوير الحالة فى مصر تصويراً يختلف عما جاء فى تقريره إلى حكومة الإدارة إنما كان إقناع المفاوضين الانجليز والأتراك بأن الدخول فى هذه المفاوضة ما كان لرغبة رجال الحملة وجنودها فى الخروج من مصر مهما كلفهم ذلك من ثمن والعودة السريعة إلى أرض

---

(١) Barrow I 381

(٢) Pièces Officielles 175

(٣) Pièces Diverses 347 — 50; Ibid 175 — 8

(٤) Charles-Roux. L'Angleterre I 260 — 1

الوطن (١) وأخيراً ناشد كليبر السير سدنى سميث أن يتعاون معه لوقف القتال بين الانجليز والفرنسيين، كما ذكر له أنه كتب إلى الصدر الأعظم حتى يوفد مندوبين لإجراء المفاوضة فى أى مكان يختاره الصدر، وذلك مع الجنرال ديزيه وبوسيلج مدير الشئون المالية اللذين اختارهما كليبر لهذه الغاية. ولو أن كليبر يفضل أن تجرى المفاوضة على ظهر إحدى سفن السير سدنى سميث نفسه.

ولما كان الصدر الأعظم مصرا على ضرورة جلاء الفرنسيين كخطوة لا مناص من اتخاذها قبل الدخول فى مفاوضات الصلح، فقد حرص كليبر فى رسالته إلى سدنى سميث على توضيح هذه المسألة وإقناع السير سدنى بأن الجلاء لا يمكن أن يتم إلا كنتيجة من نتائج المفاوضة وعند نجاحها. كما أنه حاول فى الوقت نفسه إقناع الصدر الأعظم بذلك فأرسل إليه فى ٨ نوفمبر (٢) الكتابين المتبادلين بينه وبين السير سدنى، كما اقترح على الصدر إرسال شخصين للمفاوضة، وقوى أمل كليبر فى نجاح محاولته عندما وصله فى اليوم التالى كتاب من الصدر الأعظم ردا على رسالته السابقة كان خاليا من الكبرياء والعجرفة، وبأسلوب «فى غاية من التأدب والملاطفة» ولو أن يوسف ضيا كان لا يزال مصرا على عدم الدخول فى مفاوضات من أجل عقد الصلح أو الاتفاق على هدنة مع الفرنسيين طالما بقى هؤلاء فى مصر (٣). وكان من أسباب تفاؤل كليبر، انتصار جيش الشرق على حملة عثمانية صغيرة بقيادة سيد على بك نزلت عند دمياط واتخذت مواقعها على مصب النيل قريبا من البحر، وذلك لإرغام الفرنسيين على الدفاع عن الشواطىء المصرية الشمالية، حتى يتمكن الصدر الأعظم بفضل ذلك من الزحف بجيشه على الحدود الشرقية (٤) فهزمهم الجنرال فردييه Verdier وأنزل بهم خسارة كبيرة وأسر قائدهم (٥)، وكتب السير سدنى الذى راقب الحملة على ظهر بارجته (تيجر) فى ٨ نوفمبر يقول معلقا على هذه المعركة: إن الفرنسيين لابد وأن يكونوا قد تحملوا هم كذلك خسائر كبيرة من أثرها إقناعهم ولا شك بأن الاشتباك مع جيش عظيم العدد وأن كان غير نظامى، ولا ينال منه فقد بعض قواته شيئا، سوف يكلفهم ثمنا باهظا فى النهاية مهما أحرزوا من انتصارات ضده. وعقد السير سدنى آمالا كبيرة على إمكان

---

(١) Ibid. II 25

(٢) Rousseau 105 — 6; Pajol 382; Berthier, op. cit. 386—7

(٣) Pajol 382 — 4

(٤) Barrow I 377

(٥) Pièces Diverses 243 — 5

استمالة الفرنسيين للاتفاق على إخلاء مصر دون سفك دماء أخرى إذا هو أفلح فى إقناعهم بصدق هذه الحقيقة[١] .

غير أن السير سدنى لم يكن فى حاجة لمحاولة إقناع الفرنسيين بصدق هذا الرأى وحصافته ، لأن كليبر نفسه كان لا يقل عنه رغبة فى عقد الصلح ، حتى أنه خشى من أن يعتقد الأتراك أنه قد بات لا يرغب فى المفاوضة بعد انتصار فرديه فى دمياط فبادر بالكتابة إلى يوسف ضيا فى ١٠ نوفمبر[٢] يؤكد له رغبته فى المفاوضة ، ويطلب إليه أن ينزل عن رأيه الذى تمسك به طويلا لأن اخلاء مصر لابد أن يسبقه مفاوضة من أجل الاتفاق على تنفيذه . وأمام هذه الرغبة الصادقة فى المفاوضة والاتفاق من جانب كليبر ولما كان الفرنسيون قد هزموا الأتراك فى دمياط فبرهن جيش الشرق بذلك على قدرته على المقاومة[٣] ، وكان السير سدنى شديد الرغبة كذلك فى الاتفاق ، فقد تضافرت العوامل التى جعلت فى النهاية البدء فى مفاوضات الصلح ممكنا . واستعد السير سدنى للرحيل إلى المياه المصرية ، وعد اختيار ديزيه وبوسيلج لتمثيل الجانب الفرنسى فى هذه المفاوضة اختيارا موفقا[٤] .

ووجد كليبر لزاما عليه وقد تم الإتفاق على بدء المفاوضات ، أن يخبر حكومة الإدارة بما حدث . فغادر لهذه الغاية المواطن باراس من أقرباء باراس عضو حكومة الإدارة الإسكندرية فى ٣ نوفمبر ١٧٩٩ يحمل رسائل عدة إلى باريس تشرح حقيقة الموقف فى مصر ، ثم أوفد فى ٢٤ نوفمبر (جروسبير) Grosbert من ضباط المدفعية برسائل أخرى مع صور من الأوراق التى حملها باراس[٥] وفى ٧ ديسمبر أصدر كليبر تعليماته الأولى لمندوبيه ، ديزيه وبوسيلج ، وذهب كلاهما لمقابلة السير سدنى سميث على ظهر بارجته (تيجر) فحملهما هذا فى ٢٥ ديسمبر إلى يافا لمقابلة الصدر الأعظم من أجل الاتفاق على الهدنة واختيار مكان المفاوضة . ولكن الصدر الذى أكمل استعدادات الغزو وبدأ عملياته العسكرية ، كان قد وصل إلى العريش منذ ٢٢ ديسمبر وشرع فى تضييق الحصار عليها . وعلى ذلك فقد انتقل المفاوضان الفرنسيان إلى المعسكر العثمانى فى العريش[٦] .

---

(١) Barrow I. 379

(٢) Pajol 384 — 6; Rousseau 109 — 10; Berthier 294 — 6

(٣) Charles-Roux; op. cit. II. 26

(٤) Pièces Officielles. 205 — 6 (Lettre De .. Sidney Smith Au Kléber, à Jaffa 8 Nov 1799)

(٥) Rousseau 124 — 5

(٦) Pajol 394 — 5 , 400, 406, 408 — 9, 415; Rigault 57, 59

وكانت التعليمات التى أصدرها كليبر لمندوبيه فى ٧ ديسمبر تعليمات مفصلة[١] طلب فيها وقف القتال فى أثناء المفاوضة، كما أنه وافق على إخلاء مصر، ولو أنه اشترط لذلك انحلال المحالفة الثلاثية (من تركيا وانجلترة وروسيا) ضد فرنسا، وإخلاء جزر كرفو وزانق وسيفالونيا وعودتها إلى فرنسا. وكان العثمانيون قد احتلوا هذه الجزر عندما غزا الفرنسيون مصر، ولما كان إخلاء مصر يعود بفائدة كبيرة على انجلترة فقد أراد كليبر أن تعطى هذه الدولة إلى جانب تركيا ضمانا ببقاء جزيرتى مالطة وجوزو Gozzo فى حوزة فرنسا، واشتملت التعليمات على تفصيلات أخرى خاصة بالاتفاق المزمع عقده لعل أهمها ما تعلق بالاهتمام بأمر الأهالى الذين ساعدوا الفرنسيين وخدموهم فى مصر وتأمينهم على حياتهم وأموالهم، وقد اختتم كليبر هذه التعليمات بقوله: إذا تمسك العدو بضرورة الجلاء عن مصر من غير قيد أوشرط نتيجة لتطور الحوادث فى أوروبا بصورة تعرض الحدود الفرنسية للغزو، ووقعت فى يد العدو المراكز الفرنسية الهامة أو باتت هذه مهددة بهجومه عليها، فالواجب يقتضى المفاوضين الفرنسيين عندئذ أن يعلنا عدم موافقة القائد العام على جلاء كالذى يتمسك به العدو، إلا إذا وصلت كليبر أوامر مكتوبة من حكومته.

فدارت من ثم مفاوضات طويلة اعترضتها صعوبات عدة منشؤها مطالبة كليبر بانحلال المحالفة الدولية الثانية وإعادة جزر الأيونيان (كرفو، زانق، سيفالونيا) إلى فرنسا، كما رفض سدنى سميث إعطاء ضمان جديد من جانب انجلترة لممتلكات الامبراطورية العثمانية، أو نزول جيش الحملة عند العودة فى غير الموانى الفرنسية[٢]. وتمسك المفاوضان الفرنسيان بمطالبهما ولكن دون نتيجة، ثم انتقلت المفاوضات إلى العريش فى الأسبوع الأول من شهر يناير ١٨٠٠ فى معسكر الصدر الأعظم، وكان العثمانيون قد استولوا على قلعة العريش منذ ٣٠ ديسمبر. وبحث سدنى سميث مع يوسف ضيا الشروط التى عرضها الفرنسيون للصلح، وقر الرأى على رفضها، وسلم السير سدنى إلى المفاوضين الفرنسيين فى ٨ يناير مذكرة بالمواد التى تم الاتفاق عليها بينه وبين الصدر الأعظم[٣]. وكتب إلى كليبر فى اليوم التالى يطلب منه إعطاء مفاوضيه تعليمات جديدة كما قال: «إنه لا يساوم فى هذه المسألة، وليس فى عزمه أن يرجو خروج

---

(١) Pajol 401 — 5; Rousseau 135 — 9

(٢) Pièces Officielles 221, 224 — 6; Pièces Diverses 382—3; Rigault 57

(٣) Pièces Officielles 231 — 3; 241—2

الجيش الفرنسى من مصر فسيان لديه بقاء هذا الجيش وخروجه ولو أن بقاء الجيش سوف يفقده كل قدرة على العمل فى أفريقية أو آسيا بسبب تضافر العوامل المعاكسة ضده من كل جانب بينما يمنع خروجه سفك الدماء دون جدوى[١].

غير أن كليبر قبل وصول كتاب السير سدنى سميث كان قد بعث بتعليمات جديدة إلى ديزيه وبوسيلج تنازل فيها عن أكثر تلك الشروط التى قيد بها قبول الجلاء فى تعليماته السابقة. والسبب فى ذلك أن كليبر على الرغم من انتصار فرديبه فى دمياط كان لا يزال مقتنعا بسوء حال الحملة، بل ويتوقع زيادة هذه الحال سوءا كلما طال بها المقام فى مصر دون وصول أية نجدات إليها من فرنسا، حتى أنه كتب منذ ٣ ديسمبر ١٧٩٩ إلى حكومة الإدارة يحمل إليها أنباء قبول الصدر الأعظم للمفاوضة ويقول إنه لا يستطيع الاشتباك مع العدو فى المعركة المقبلة إذا ظل لا تصله النجدات السريعة ويخشى من أن يرغمه العدو على القتال خصوصا فى الحدود السورية[٢]. ثم زاد اقتناع كليبر بضرورة عقد الصلح مع العثمانيين عندما أرسل إليه ديزيه وبوسيلج «الأخبار» التى وقفا عليها من السير سدنى، وكلها تدل على خطورة موقف الجمهورية فى أوروبا بسبب الحصار الذى فرضه الإنجليز على مالطة وعلى الأسطول الفرنسى فى ميناء برست وانهزام الفرنسيين وأحلافهم فى هولنده وتسليم الأسطول الهولندى دون قتال، وإعلان روسيا والباب العالى الحرب على أسبانيا حليفة الجمهورية، ومحاصرة الروس لجنوة[٣]. ثم لم تمض أيام قليلة على إرسال هذه الأخبار إلى كليبر حتى بادر المفاوضان الفرنسيان بإرسال أخرى تصل بأنباء أوروبا إلى يوم ١٠ اكتوبر ١٧٩٩ وقد تأكد لدى كليبر بفضلها أن الفرنسيين قد فقدوا إيطاليا وحلت بهم الهزائم فى ميادين عدة أخرى، وأن الثورة قد اندلع لهيبها من جديد فى فنديه وأن الوطن فى خطر[٤] وعلى ذلك فقد أرسل كليبر إلى مفاوضيه تعليمات جديدة فى ٣ يناير ١٨٠٠ نزل بمقتضاها عن مطالبه السابقة مكتفيا بمطالبة الباب العالى لقاء الجلاء عن مصر بالتزام الحياد فى أثناء الحرب، وبأن يصبح لجيش الشرق عند عودته بسلاحه وذخائره وعتاده إلى فرنسا الحق فى أن يقوم بنصيبه من العمليات العسكرية «ضد أى إنسان وفى أى مكان»

---

(١) Ibid. 226 — 8

(٢) Pajol 396 — 7

(٣) Berthier 317 — 8

(٤) Pièces Officielles 220 — 2; Pajol 417

ورضى كليبر بتسليم قلعة العريش ضمانا للمعاهدة[١] وكان كليبر عندما بعث بهذه التعليمات لا يزال يجهل سقوط قلعة العريش فى قبضة العثمانيين ؛ ولكن سرعان ما وصلت الأخبار فى اليوم التالى (٤ يناير) عن سقوط هذه القلعة كما وقف على تفصيلات هامة زادته اقتناعا بضرورة إبرام الصلح بكل سرعة. فقد زحف الصدر الأعظم على العريش بدعوى أنه لايستطيع انتظار المفاوضة فى وقت لم يكن مندوبا كليبر قد اتصلا بعد بالسير سدنى سميث على ظهر بارجته (تيجر)[٢] وحاول كليبر أن يصل إلى عقد هدنة مع العثمانيين ولكن دون جدوى[٣] فقد ظل هؤلاء يحاصرون العريش وأصلوا قلعتها ناراً حامية حتى استولوا عليها فى ٣٠ ديسمبر، وأوقعوا بالفرنسيين مذبحة كبيرة . وكان مما آلم كليبر وقض مضجعه أن سبب سقوط قلعة العريش كان مرده إلى عصيان حاميتها فقد طلب حوالى ثمانين من رجال الحامية إلى قائدهم كزال Cazals تسليم القلعة إلى العدو ومع أن الجنرال استطاع تهدئة النفوس ووطد العزم على الاستمرار فى المقاومة حتى أواسط يناير وهو الوقت الذى انتظر فيه نفاد ذخيرته فقد سدد العدو الضرب وأمر كزال فريقا من الحامية بالخروج للالتحام مع العدو ولكن أحداً لم يطع هذا الأمر سوى ثلاثة فقط ثم علا صياح الجنود يطلبون التسليم وأبطلوا إطلاق النار وشرعوا يدعون العثمانيين لاقتحام أسوار القلعة فتسلق هؤلاء الأسوار وشددوا الهجوم على القلعة وعندئذ لم ير كزال مناصا من التسليم . غيرأن هذا التسليم لم يمنع الأتراك من الايقاع برجال الحامية فقضوا عليهم فى مذبحة مروعة ، وعظمت الكارثة عندما انفجر مخزن للبارود فكانت خسائر الفرنسيين جسيمة[٤] . وما أن بلغت كليبر هذه التفصيلات حتى أرسل ينبىء ديزيه وبوسيلج بسقوط العريش ويطلب منهما إنهاء المفاوضة بسرعة ، كما كتب إليهما فى اليوم التالى (٥ يناير) بما وقع فى العريش « ذلك الحادث الذى لا يشك فى أنهما وقفا على حقيقته ، ولم يتهاونا فى الاحتجاج لدى الصدر الأعظم على حدوثه[٥] » . ومع ذلك فإن عصيان حامية العريش لم يكن الأول

---

(١) Rousseau 175 — 7; Berthier 324 — 6; Pajol 416 — 7; Pièces Officielles 230 — 1

(٢) Pièc. Offic 212 — 14

(٣) Pajol. 404; Ibid. 206 — 7

(٤) Pièces Diverses 249—52; Bouchard 64 et sqq (Rapport du Citoyen Feray ...)

(٥) Pajol 418 — 9

من نوعه ، فقد تمرد الجنود فى عزبة البرج (القرية من دمياط) فى ٢٢ نوفمبر ، وفى ١٧ ديسمبر كتب الجنرال لانوس عن عصيان فريق من حامية الاسكندرية كذلك[١] بل إن تمرد حامية العريش كان يعزى إلى سريان روح التمرد من حاميات الاسكندرية ودمياط ، ومن دمياط على وجه الخصوص لسبب نقل طائفة من جنود حاميتها المتمردين إلى العريش[٢] . أضف إلى هذا كله أن القاهرة ذاتها كانت لاتخلو من المتمردين ، حتى أصبحت سجون القلعة — كما كتب كليبر نفسه إلى دوجا — وكراً جديداً المتآمرين يحيكون فيه خيوط مؤامراتهم ويصدرون منه كل يوم وريقات يحضون فيها الجنود فى مختلف الفرق على الثورة والعصيان[٣] . وعلى ذلك فقد بادر كليبر فى ٧ يناير ١٨٠٠ بإرسال تعليمات جديدة إلى دزيه وبوسيلج نزل بفضلها عن كل الشروط التى ذكرها فى تقرير ٢٦ سبتمبر إلى حكومة الإدارة أو تضمنتها تعليماته السابقة ، وأراد أن يقيد بها الجلاء أو يكسب بما قد تثيره من مناقشات مع المفاوضين الأتراك بعض الوقت . فنصت تعليمات ٧ يناير[٤] على ضرورة العناية بأمور ثلاثة فحسب هى عدم دخول الجيوش العثمانية إلى مصر إلا عند وصول السفن المعدة لنقل الحملة وهى السفن التى يجب على الصدر الأعظم أن يقوم بإعدادها وتزويدها بالمؤن ، ثم طلب تسليم عدد من الرهائن إلى جانب إعطاء تعهدات أخرى حتى يضمن بذلك ملاحظة تنفيذ المعاهدة والهدنة التى تتبعها ملاحظة دقيقة ، وأخيراً عدم فرض أية قيود تحد من حق جيش الحملة فى العمل ضد أعداء الوطن جميعهم عند عودة الجيش إلى فرنسا .

ولما كان كليبر قد صح عزمه على السير قدما فى المفاوضة فقد كتب إلى الصدر الأعظم فى يومى ٧ و ١٠ يناير ١٨٠٠ يطلب إليه أن يرسل إلى الصالحية مندوبين عثمانيين للمفاوضة معه مباشرة[٥] . وكان نزول كليبر عن شروطه السابقة ينبىء بحدوث تحول جوهرى فى موقفه من مسألة الجلاء إطلاقا ، ولاريب فى أن كليبر قد أدرك ماينطوى عليه هذا التحول من خطورة كبيرة ، ذلك أنه مالبث حتى كتب إلى حكومة الإدارة بعد يومين اثنين من إرسال تعليماته الأخيرة يفسر فى واقع الأمر الأسباب التى أقنعته

---

(١) Ibid 424 — 5

(٢) Dogureau 297

(٣) Rousseau 162

(٤) Pièces Diverses 393; Ibid, 182 — 3

(٥) Pièces Diverses 393 — 5 ; Pajol 426 — 7; Rousseau 180 — 1, 185

بقبول الجلاء عن مصر دون قيد أو شرط ، فبسط مراحل المفاوضات السابقة وماوقع من حوادث فى أثنائها ، ومن أهم هذه الحوادث سقوط قلعة العريش، إلى أن قال : وعلى ذلك فإن ظواهر الأمور تدل جميعها على أن الجيش الذى أتولى قيادته سوف يكون قد وصل إلى إحدى موانى الجمهورية فى شهر أبريل ١٨٠٠ ، وما إن ينتشر هذا الخبر فى أوروبا حتى ينقسم الرأى فى فرنسا ، فينقد فريق مسلك قائد الحملة بينما يؤيده فريق آخر ، ولكننى سوف أعتصم بالهدوء والسكينة ، فلا أزج بنفسى فى هذا النقاش العظيم لاقتناعى بأن الحكومة مهما كان شعورها سوف تمتنع عن البت فى هذه المسألة حتى تستمع كذلك إلى كل مالدى من أقوال فى ذلك[١] ، وكان كل ماأراد كليبر أن يتمسك به فى هذه المرحلة انحلال المحالفة الثلاثية ضد فرنسا ، كما عقد آمالا كبيرة على إمكان الوصول إلى اتفاق بشأن الهدنة التى أرادها فى أثناء المفاوضة .

غير أن هذه التعليمات الجديدة سرعان ماأثارت استياء ديزيه وبوسيلج ، لنزول كليبر عن الشروط التى قيد بها الجلاء من جهة ، ولاعتقادهما من جهة أخرى ، كما كتبا إلى كليبر فى ١٣ يناير ، أن الأتراك لن يوافقوا على انحلال المحالفة خوفا من أن يؤدى ذلك إلى إعلان روسيا الحرب عليهم . فضلا عن أن انجلترا سوف تبذل ماوسعها من جهد وحيلة لضمان استمرار هـذه المحالفة ، حتى يحين الوقت لعقد السلام العام فى أوروبا . أضف إلى ذلك كله أن ديزيه وبوسيلج كانا ضعيفى الأمل فى إمكان الاتفاق على الهدنة بين فرنسا وتركيا ، أو موافقة الأتراك على عدم الدخول إلى مصر حتى يرحل الفرنسيون عنها ، لأن أكثر جنودهم يقيمون فعلا فى العريش ، أى فى أرض مصرية ، ومن المتعذر إقناعهم ، بعد أن سقطت قلعة العريش فى قبضتهم ، بالانسحاب إلى ماوراء الحدود ثانية[٢] .

وحدث فى اليوم التالى ماتوقعه ديزيه وبوسيلج ، فأصر المفاوضان العثمانيان — الريس أفندى والدفتردار — على ضرورة جلاء الفرنسيين دون قيد أو شرط . واستمرت النجدات تأتى إلى المعسكر العثمانى فى العريش ، كما أن الجنود العثمانيين كانوا يلحون فى بدء الزحف بكل سرعة ، حتى يتخلصوا من مشاق العيش وشظفه فى معسكرهم . وعلى ذلك فقد طلب المفاوضان الفرنسيان من كليبر فى ١٤ يناير يسألانه : إما أن يأمر بقطع المفاوضة ، ويأذن لهما فى مغادرة المعسكر العثمانى ،

---

(١) Rousseau 184 — 5

(٢) Berthier 333 — 7

وإما أن يخولهما الحق فى الاتفاق على الجلاء دون قيد أو شرط ، وبالصورة التى يريان من المصلحة قبولها . وذلك حتى يستطيعا النجاة من خطر شعرا أنه يتهددهما ، إذا بقيا طويلا فى العريش دون الوصول إلى نتيجة حاسمة(١).

على أن كليبر كان قبل أن تصله رسالتا مفاوضيه قد كتب إليهما من الصالحية فى ١٥ يناير(٢) أنه لايزال مصراً على إخلاء مصر ، ويريدهما أن يقبلا الصلح حتى ولو رفض الصدر الأعظم انحلال المحالفة الثلاثية وقبول الهدنة . وكان كل ماطلبه كليبر منهما ألا يبديا هذا الجلاء فى صورة تسليم ، « بل يجب عليهما أن يكسباه صفة المعاهدة على أساس ماجاء فى مذكرة سدنى سميث الموقعة فى ٣٠ ديسمبر » . وكان سدنى سميث قد وافق فى هذه المذكرة على أن يفرغ الجلاء فى قالب معاهدة مبرمة بين طرفين ، يتحمل فيها الطرف العثمانى التزامات معينة فى نظير تقرير مبدأ الجلاء(٣) .

وما إن وصلت كليبر رسالتا ديزيه وبوسيلج ، حتى بادر بالكتابة إليهما من جديد فى ١٦ يناير ، يطلب إليهما الاتفاق على الجلاء ، متمسكا فى هذه المرة بهدنة لمدة شهر واحد فحسب . وذلك حتى يستطيع جنود الحملة الانسحاب من الوجه القبلى . وهكذا وافق كليبر على مبدأ هذا الجلاء دون قيد أو شرط فكان ذلك تسليما صريحا من جانبه .

واستاء المفاوضان الفرنسيان من هذا التسليم استياء شديداً . وانبرى ديزيه على وجه الخصوص يحذر قائده مغبة الاندفاع فى قبول الجلاء عن مصر دون قيد أو شرط ذلك أن كثيرين — كما قال ديزيه — قد باتوا يتحدثون الآن عن وقوع انقلاب أو ثورة تسلم بونابرت بفضلها زمام الحكم فى فرنسا ، وفضلا عن ذلك فإن الجيش العثمانى أداة لا تصلح للقتال ، بل يكفى لصد أى هجوم يقوم به ، أن تقف فرقة فرنسية فى وجهه . غير أن تحذيرات ديزيه ذهبت جميعها سدى أمام إصرار كليبر ، الذى بعث إلى ديزيه برسالة طويلة بسط فيها الأسباب التى أقنعته بضرورة الصلح على أساس الجلاء ، ثم عرض على ديزيه قيادة الحملة التى لم يقبلها كليبر — على حد قوله — إلا مرغما ، وذلك إذا ظل ديزيه مصراً على عدم الموافقة ويرى أن فى وسعه الوصول إلى حل حاسم آخر(٤) .

ومع أن كليبر على مايبدو قد قرر أن يتحمل وحده مسئولية قبول الجلاء عن مصر دون قيد ولا شرط ، فإن هذه كانت ولا شك مسئولية جسيمة مالبث كليبر أن

---

(١) Ibid 341

(٢) Pajol 430

(٣) Berthier 327 — 9 (Note du Sidney Smith, 20/12/1799

(٤) Pajol 432 — 3

شعر بخطورتها ، وصح عزمه على أن لاينفرد وحده بتحمل العبء كله ، فاستمع إلى نصيحة (داماس) Damas رئيس أركان حربه(١) ، وعقد فى الصالحية مجلسا حربيا لبحث مسألة الصلح ، حضره تسعة من القواد كان منهم إلى جانب داماس ، دافو Davout ورينييه Reynier وفريان Friant ورامبون Rampon ، كما حضره دور Daure مدير المهمات . على أن هؤلاء لم يكن فى استطاعتهم أن يردوا القائد العام عن عزمه ، عندما كان كليبر قد خول مفاوضيه نهائيا الحق فى الاتفاق على الجلاء قبل دعوة المجلس إلى الانعقاد(٢) . ومع ذلك فقد كان واضحا أن المجلس لايوافق على شروط الصلح كما بسطها لهم كليبر ، واشتدت معارضة الجنرال دافو على وجه الخصوص لهذه الشروط ، غير أن الحاضرين مالبثوا أن وقعوا على محضر هذه الجلسة بالموافقة(٣) ، واستطاع كليبر أن يكتب إلى ديزيه وبوسيلج فى ٢٠ يناير أنه كان من رأى القواد المجتمعين « نظراً لسكوت الحكومة الطويل وخصوصا بعد عودة بونابرت إلى فرنسا » أنه لم يعد هناك أى أمل فى وصول نجدات من أرض الوطن .

ذلك ولما كان الاحتفاظ بمصر متعذرا بعد ، فقد بات الاشتباك فى المعركة المقبلة لاجدوى منه ولا طائل تحته ، حتى إذا كفل النصر للفرنسيين ، أما إذا أصيبوا بالهزيمة فإن الجيش سوف تحل به الكوارث لعدم وجود أية موارد لديه(٤) . وكتب كليبر فى اليوم نفسه إلى دوجا فى القاهرة ، يخبره بما حدث « وموافقة زملائه الإجماعية » . وطلب إليه فى الوقت ذاته أن يبدى رأيه فيما جرى ، كما سأله أن « يستشير » الجنرال لانوس إذا كان هذا الأخير قد وصل إلى القاهرة . ووافق دوجا بطبيعة الحال على الجلاء نزولا على رأى زملائه(٥) . وما إن كمل توقيع أعضاء المجلس الحربى على محضر الجلسة حتى بعث كليبر بهذا المحضر إلى ديزيه وبوسيلج فى ٢٢ يناير(٦) . ونشطت المفاوضات فى اليومين التاليين ، وفى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ وقع ديزيه وبوسيلج على اتفاق العريش كما وقعه وكيلا الصدر الأعظم(٧) .

---

(١) Rigault 61

(٢) Dogureau 304

(٣) Reybaud III 73

(٤) Rousseau 200

(٥) Pajol 439; Ibid 199

(٦) Rousseau 201

(٧) Testa II 7—11; Pièc. Offic. 41 — 50; Pièc. Diver. 255—62; Pajol. 444 — 8; etc.

ويتألف اتفاق العريش من مقدمة واثنين وعشرين بنداً ؛ وقد أفرغ الاتفاق في قالب معاهدة تفرض في شكلها الظاهر التزامات معينة على الطرف العثماني ، وذلك في نظير قبول الطرف الفرنسي الجلاء عن مصر واخلاءها . فجاء في مقدمة الاتفاق كما نشر وقتئذ منقولا إلى العربية (١) : « أن الجيش الفرنساوي بمصر ، عندما قصد أن يوضح مافي نفسه من وفور الشوق لحقن الدماء ، ورأى نهاية الخصام المضر الذي قد حصل مابين المشيخة الفرنساوية والباب العالي ، قد ارتضى أن يسلم بخلو الاقليم المصري حسب الشروط الآتي ذكرها ، بأمل أن بهذا التسليم يمكن أن يتجه ذلك إلى الصلح العام في بلاد المغرب قاطبة » .

أما أهم هذه الشروط فكانت تلك التي نصت على انسحاب الجيش الفرنسي « بالأسلحة والعزال بالأمتعة إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير ، لأجل أن يتوجه وينتقل بالمراكب إلى فرانسا ، إن كان ذلك في مراكبهم الخاصة بهم أم في تلك التي يقتضى للباب العالي أن يقدمها لهم بقدر الكفاية » . ومما تجدر ملاحظته أن الاتفاق لم يفرض قيوداً على حرية الجيش العائد في العمل ضد أعداء الوطن ؛ كما وافق الطرفان على هدنة ثلاثة شهور قد تطول مدتها إذا لزم الأمر ويتم في أثنائها نقل الحملة . واشترط الطرفان صيانة مصالح رعايا كل من الدولتين فرنسا وتركيا في ممتلكات الأخرى ، فنصت المادة التاسعة على « ترجيع الأموال والأملاك المتعلقة بسكان البلاد والرعايا من الفريقين » كما حرص الفرنسيون على عدم إلحاق الأذى بمن ساعدوهم وخدموهم في مصر في أثناء الاحتلال ؛ فجاء في المادة العاشرة : « فلا يحصل التشويش لأحد من سكان الإقليم المصري من أي ملة كانت ، وذلك لافي أشخاصهم ولا في أموالهم ، نظراً إلى ما يمكن أن يكون قد حصل من الاتحاد مابينهم وبين الفرنساوية من إقامتهم بأرض مصر » . وقد تضمنت المواد الأخرى تفصيلات كثيرة بشأن الجلاء وإخلاء الأقاليم المصرية ، وما يرتبط بذلك كله من تدابير مالية وصحية وغيرها . على أن أهم ما يجدر ملاحظته من هذه التفصيلات النص على ضرورة الحصول من الباب العالي أو من حلفائه الانجليز والروس على « فرمانات الاذن وأوراق المحافظة بالطريق » ، أي الحصول على جوازات مرور لضمان عدم الاعتداء على جيش الشرق في أثناء نقله إلى الموانىء الفرنسية ، ثم ضرورة أن تجهز تركيا أو انجلترة وروسيا « السفن اللازمة

---

(١) الجبرتي ٣ : ٨٧ — ٩١ ؛ نقولا الترك ١٤١ — ١٥١

لرجوع الجيش المذكور بالأمن والأمان إلى بلاد فرانسا » ، على أن تتعهد تركيا وحلفاؤها بعدم التعرض للجيش الراجع بأى أذى .

واحتاط أصحاب الاتفاق لفض كل ماقد ينشأ من « مشاكل » عند تنفيذه . فذكر الشرط الثالث أن « رحيل الجيش الفرنساوى يقتضى تدبيره بيد الوكلاء القادمين لهذه الغاية من قبل الباب الأعلى وسرى العسكر كلهبر ، وإذا حصل خصام مابين الوكلاء المذكورين بوقت الرحيل فى هذا الصدد فلينتخب من قبل حضرة سيدنى سميث رجل لينهى المخاصمات المذكورة حسب قواعد السياسة البحرية السالكون عليها ببلاد الانكليز». وجاء فى الشرط الحادى والعشرين : « فكل ما يمكن حدوثه من المشاكل التى تكون مجهولة ولم يمكن الاطلاع عليها فى هذه الشروط ، فلابد من نجازها بوجه الاستحباب ، مابين الوكلاء المعينين لهذا القصد من قبل الجناب الوزير الأعظم عالى الشأن وحضرة الجنرال كلهبر سرى العسكر العام ، بوجه يسهل ويحصل الاسراع بالحلو» . وقد صدق كليبر على اتفاق العريش فى ٢٨ يناير ١٨٠٠[١].

ومع أن السير سدنى لعب دورا ظاهرا فى نجاح المفاوضات وعقد اتفاق العريش فقد امتنع عن التوقيع عليه ، ولم يكن ذلك الامتناع عن رغبة منه فى التنحى عن حمل نصيبه من المسئولية ، أو لأنه كان يضمر فى نفسه الرغبة فى مناقشة هـذا الاتفاق فيما بعد . وهو الرجل الذى نجحت سياسته أيما نجاح [٢] فاستطاع تحقيق أغراضه بموافقة الفرنسيين على الجلاء عن مصر ، وعودة هذه البلاد إلى حظيرة الدولة العثمانية وفضلا عن ذلك فإن استرجاع العثمانيين سيادتهم على مصر من شأنه أن يمكن الأسطول الإنجليزى من استخدام موانى الاسكندرية ودمياط ورشيد ، والاختلاف إليها طالما بقيت المحالفة العثمانية الانجليزية . ثم إن سيدنى سميث ، بفضل ماجاء فى شروط هذا الاتفاق ، كان يحتل مكانا ممتازا يمكنه من ملاحظة تنفيذ سياسة الجلاء بكل دقة . وذلك عندما أقامه الاتفاق « حكما » ينظر فى فض ماقد يحدث من خلافات مستعصية بين الأتراك والعثمانيين بشأن الجلاء عن مصر بكل سرعة .

وما إن صدق كليبر على اتفاق العريش حتى أصدر منشورا إلى ديوان القاهرة فى أول فبراير ، يبلغه الخبر ، ووزعت من هذا المنشور نسخ عدة فى جميع الأقاليم ، وحاول أن يرد عقد الاتفاق إلى رغبة الأمة الفرنسية فى أن تحتفظ بعلاقات الود

---

(١) الجبرتى ٣ : ٩١ (ترجمة تصديق كليبر على الاتفاق)

(٢) Charles - Roux - L'Angl. II. 38

والصداقة القديمة مع الامبراطورية العثمانية ، وأن ترى هذه البلاد تعود مرة أخرى إلى العثمانيين ، كما أنه كان يرجو أن يمهد الاتفاق إلى عقد الصلح العام فى أوروبا[١] وطرب المصريون لهذه الأنباء فأقبلوا يقدمون المال والمؤن اللازمة « لترحيل الفرنساوية » عن طيب خاطر . وكان سرور الفرنسيين الذين انتظروا العودة السريعة إلى أرض الوطن لا يقل عن سرور المصريين ، فقابل الجيش نبأ الاتفاق الذى أعلنه إليهم كليبر فى ٢٧ يناير بفرح عظيم .

ذلك أن كثيرين من جند الحملة ورجالها كانوا يرون فى الحصول على تلك الشروط التى تضمنها اتفاق العريش نجاحا كبيرا لسبب ظاهر ، هو أن هذا الاتفاق قد كفل لهم العودة القريبة إلى فرنسا ، والجيش لا يزال موفور الكرامة مرفوع الرأس لم يلحق العار والشنار بشرفه العسكرى ، تخفق أعلامه وتدق طبوله ، بل إن فرح الجنود كان عظيما حتى إنهم باتوا يعدون اللحظات عدا ، مترقبين الإذن بالرحيل ، وقد نفد صبرهم حتى أن الجنرال فردييه من كبار قوادهم ما لبث أن هتف نشوان جزلا : « لتذهب مصر إلى جهنم وبئس المصير ، ولتحيا أوروبا وليحيا أهلها[٢] » .

غير أن كثيرين من المسئولين سرعان ما استفاقوا بعد نشوتهم الأولى لجسامة مسئولية الإقدام على إخلاء مصر ، ثم عظم الشعور بخطورة الموقف رويدا رويدا حتى إن كليبر نفسه ، بعد إعلان نبأ الاتفاق على جنده ، ما لبث أن صار يمعن الفكر فى عواقب هـذه الخطة التى اتخذها على أن يتحمل وحده مسئولية العمل بها ، منذ أن فرض إرادته فرضا على ذلك المجلس الحربى الذى دعاه للانعقاد فى الصالحية ، لإقرار تعلماته إلى ديزيه وبوسيلج على نحو ماسبق ذكره . وعلى ذلك فقد انحصر اهتمامه الآن ، بعد أن أذاع على جيش الشرق نبأ الاتفاق فى بيان الاسباب التى اعتقد أنها تسوغ عقده ؛ وقد بدأ كليبر يبسط طرفا من هذه الدوافع فى منشوره الذى أصدره فى ٢٧ يناير وتضمن نبأ الاتفاق[٣] . فقال : إن « ظروفا قهريه هى التى أرغمته على الصلح » . ثم أشار إلى الظروف التى تولى فيها قيادة الحملة فقال : « ولو أنى سئلت فى حمل ذلك العبء الثقيل الذى تركه لى بونابرت لما قبلته دون تردد ، وذلك لأنى أشعر يقينا بأن

---

(١) Pièc. Offic 57-9; Rousseau 220 — 1

(٢) الجبرتى ٣ : ٩٢ ;Rigault 65; Bricard 391, 398

(٣) Pajol 443 — 4; Rousseau 205—6

مشاقه مضنية ، ولم يكن فى وسعى الاختيار بين رفض هذه القيادة العامة وقبولها » .

وكتب كليبر فى اليوم التالى إلى حكومة الإدارة[١] يذكر الأسباب التى دعته إلى قبول مبدأ الجلاء دون قيد أو شرط ، فعزا ذلك إلى عجز الاسطولين الفرنسى والاسبانى عن انتزاع السيطرة البحرية من الاسطول الانجليزى وخروجهما من البحر الابيض ، وانزوائهما محاصرين فى ميناء برست ، وفضلا عن ذلك فقد حدث عند انقلاب ٢٠ بريريال السنة السابعة (١٨ يونية ١٧٩٩) — وهو الانقلاب الذى دخل بفضله أعضاء جدد فى حكومة الإدارة — أن وجهت اتهامات كثيرة إلى أعضاء الحكومة السابقين ، فاعتبروا مسئولين عن جميع الأضرار التى لحقت بالجمهورية الفرنسية بسبب إرسال الحملة إلى مصر . ولما كانت الحكومة قد التزمت الصمت الطويل ، وذلك على الرغم من وصول بونابرت إلى فرنسا ، فقد بات واضحا أنه لم يعد هناك أى أمل فى وصول النجدات السريعة إلى جيش الشرق ، وعلى ذلك فقد وجد كليبر ، كما استمر يقول ، أن خير مايفعله هو أن يحاول كسب الوقت ، فاستمر فى المفاوضة التى مهد لها سلفه ، حتى حدث « ماغير وجه المسألة عند سقوط قلعة العريش بسبب تسليم حاميتها لخور عزائم رجالها وجبنهم » .

وامتنع كليبر عن خوض غمار معركة فاصلة مع العدو ، لقلة مالديه من جنود كانوا موزعين فى مراكز عدة ، ولخوفه من أن تنزل كارثة الهزيمة بجيش الشرق . وقد عزا كليبر انتشار روح التمرد والعصيان بين الجنود ، وخصوصاً فى دمياط والاسكندرية ، إلى « نفاد صبر هؤلاء ، والأثر السيء الذى تركه رحيل بونابرت فى نفوسهم » . ومع ذلك فإن كليبر لم يشأ على حد قوله أن يبت فى أمر الصلح إلا بعد استشارة قواده ، فجمع لذلك مجلساً حربياً مالبث أن وافق على إبرام الصلح . ثم اختتم كليبر هذه الرسالة الطويلة بإظهار رجائه أن يمهد هذا الاتفاق إلى انضمام الباب العالى إلى الفرنسيين ، ثم إلى خروج الإنجليز من محالفة « ليس من مصلحتهم مؤازرتها وتعضيدها » ، ثم إلى الصلح التام أخيراً كاحدى نتائج تسليم مصر .

وعاد كليبر إلى الكتابة مرة أخرى لحكومة الإدارة فى ٣٠ يناير[٢] فقال : إن بونابرت لم يذكر فى تعليماته شيئاً عن زحف الصدر الأعظم لأنه لم يكن يتوقع حدوثه ، وفضلا عن ذلك فقد وعد بونابرت بإرسال النجدات إلى مصر معتمداً على وجود

(١) Pojal 440—50

(٢) Rousseau 213 — 9; Ibid 452 — 6

الأسطولين الفرنسى والأسبانى فى البحر الأبيض . وما كان يظن إنسان وقتئذ أن هذين الأسطولين سوف يخرجان من البحر الأبيض ويعودان إلى المحيط الأطلنطى ؛ وما كان يظن إنسان كذلك « أن الحملة المصرية ، وهى التى أغفل شأنها تماماً وأهملت ، سوف تصبح مادة الاتهام الموجهة ضد أولئك الذين أمروا بقيامها » .

وهكذا حاول كليبر أن يسوق من الأدلة والبراهين ما يكفى فى نظره لقبول إبرام الصلح على أساس الجلاء فحسب ، وقبل المدة التى حددها بونابرت فى تعليماته بستة شهور على الأقل ، ودون التقيد بتلك الشروط التى نصت عليها التعليمات . وكان أهم ما استند إليه كليبر فى ذلك أنه قد بات متعذراً على حكومة الإدارة أن ترسل أية نجدات إلى مصر ، بسبب هزيمة جيوشها فى أوروبا ، ومحاصرة أسطولها فى ميناء برست فضلا عن أن كليبر نفسه لم تكن لديه قوات تكفيه لصد الجيوش العثمانية المتدفقة على الحدود وخصوصا بعد استيلاء هؤلاء على قلعة العريش . أضف إلى ذلك كله أن تسليم هذه القلعة كشف عن روح التمرد والعصيان فى الجيش وعدم إحجام جنود الحملة عن ارتكاب الخيانة .

ولما كان كليبر يريد التنصل من كل مسئولية إذا بقيت هناك مسئولية بعد هذه الأدلة والبراهين التى ساقها ، فقد تعمد أن يصور إرسال الحملة إلى مصر كنتيجة لقرار كان يخلو من الحكمة السياسية . وعلاوة على ذلك فقد اتهم بونابرت بقصر النظر عندما ترك الحملة فى أشد الأوقات حرجا ، وصار يمنى النفس بالقدرة على إرسال النجدات إلى مصر فى ظروف لم يكن لبونابرت أى سلطان عليها . ولاشك فى أن محاولة كليبر التنصل من مسئولية عقد الصلح إنما يدل من جانب آخر على مقدار ما كان كليبر نفسه يشعر به من خطورة الخطوة التى خطاها عند عقد اتفاق العريش . وزاد هذا الشعور فى الأيام التالية رويدا رويدا حتى انتهى إلى قلق شديد ، استبد بالقائد العام عند ما سرت روح المعارضة ضد اتفاق العريش بين قواد الحملة وضباطها ، وانقسم المعارضون فريقين ، أحدهما لايرضى بالجلاء عن مصر إلا عند عقد السلام العام فى أوروبا ، وذلك تنفيذاً للتعليمات التى تركها بونابرت ، وكان الجنرال دزيه على رأس هؤلاء المعارضين ، وفريق آخر من الاستعماريين الذين حضروا إلى مصر لإنشاء تلك المستعمرة الجديدة التى أرادوا بها تعويض فرنسا عن خسائرها فى جزر الأنتيل بالهند الغربية ، وقد تمسكوا بضرورة البقاء فى مصر ؛ وتزعم هؤلاء الجنرال منو .

فقد حذر دزيه الجنرال كليبر مغبة الاندفاع والالحاح فى طلب الصلح ، لأن السير

سدنى سميث ، كما كتب ديزيه فى ٩ نوفمبر ١٧٩٩ ، لم يكن هدفه من المفاوضة مع الفرنسيين سوى إقناعهم بضرورة « الخروج من مصر بكل سرعة » (١) وكان من رأى ديزيه فضلا عن ذلك أنه ما كان يجب الخوف من الجيش العثمانى الذى قال إنه يتألف من جماعات تعيش فى بؤس وشقاء ، خير ما يمكن أن توصف به أنها « عصابات من اللصوص وقطاع الطرق » ، ولا قدرة لها على الوقوف أمام فرقة واحدة فقط من فرق الجيش الفرنسى (٢) . وكان ديزيه ولا شك محقا فيما ذهب إليه ، وبرهنت الحوادث فيما بعد على صحة رأيه . بل إن « موريه » سكرتير اللورد الجين Elgin ، السفير الإنجليزى فى القسطنطينية ، لم يلبث هو الآخر بعد أن مكث مع الجيش العثمانى فترة من الزمن ، بين شهرى فبراير ويوليو ١٨٠٠ ، أن شبه المعسكر العثمانى « بسوق كبيرة مكتظة بالباعة الذين يشاركهم الجنود أنفسهم هذه المهنة ، فيقصد تجار الخيل وغيرهم هذه السوق ، وتعقد بها الصفقات فى مزادات علنية » ؛ كما تكثر المنتديات والمقاهى ، حتى انعدم كل نظام فى هذا المعسكر (٣) .

ومع ذلك فقد مضى كليبر فى سبيله وطلب من ديزيه ، عند ما قرب موعد رحيل هذا الأخير إلى فرنسا ، أن يبذل قصارى جهده لدى أصحاب السلطة فى باريس ، لتأييد ذلك « الرجل الضعيف الذى اعتمد فى أعماله على مجابهة الحقيقة وإعمال الفكر والروية فحسب » ، لعل ديزيه يستطيع إزالة غضب هؤلاء على كليبر (٤) . ولكن ديزيه الذى خضع لأوامر قائد الحملة ، على الرغم من عدم موافقته على الجلاء ، ما لبث أن كتب إلى بونابرت ، فى ٢١ فبراير ١٨٠٠ ، قبل إبحاره من الإسكندرية بأيام قلائل (٥) ، لينقل إليه خبر اتفاق العريش ، ويعتذر عن توقيعه عليه عندما ذهبت جهوده سدى ، فى محاولة إعطاء بونابرت سعة من الوقت تمكنه من إرسال النجدات إلى مصر ، واضطراره فى آخر الأمر إلى الامتثال لأوامر كليبر القاطعة بشأن التوقيع على اتفاق العريش .

وعند ما وصل ديزيه إلى طولون بعد رحلة شاقة متعبة فى البحر الأبيض (٦)

---

(١) Berthier 283

(٢) Pajol 432

(٣) Morier 21 — 4

(٤) Pajol 441

(٥) Pièc. Diver. 268 — 9

(٦) Pièc. Offic. 90; Rousseau 209 — 10

بادر بالكتابة إلى بونابرت فى ٥ مايو ١٨٠٠ فقال : إن كليبر رفض أن يسمح له باللحاق بقائده الأعلى حتى يقف إلى جانبه فى ميدان القتال ، « فاستبقاه فى مصر ، وأرغمه على توقيع اتفاق العريش [١] » .

وحذا بوسيلج ، المفاوض الفرنسى الآخر الذى وقع على اتفاق العريش ، حذو ديزيه زميله ؛ وذلك بأن بوسيلج الذى غادر الاسكندرية إلى طولون فى ١٤ مارس من العام نفسه ، ووجد ديزيه ما زال بالحجر الصحى بطولون ، لم يلبث أن كتب هو الآخر إلى بونابرت فى ٥ مايو يبسط الأسباب التى دعت إلى بدء المفاوضة التى انتهت باتفاق العريش [٢] ، وكانت هذه لا تعدو كل ماذكره كليبر نفسه من حجج ودعاوى سردها فى تقاريره ورسائله إلى حكومة الإدارة ، ذكر بوسيلج كذلك أنه كان من المنتظر أن يتعطل خروج الحملة من مصر ، على الرغم من توقيع اتفاق العريش ، وذلك لعدم حضور السفن التى التزم العثمانيون بتجهيزها لنقل الجيش إلى فرنسا . وقد حاول بوسيلج فى هذه الرسالة أن يحمل كليبر وحده مسئولية تقرير الجلاء عن مصر .

منو واتفاق العريش :

أما فريق الاستعماريين الذين رغبوا البقاء فى مصر ، فقد كان أشد معارضة لاتفاق العريش وصاحبه من ديزيه وبوسيلج ومن نحا نحوهما ، وكان من الطبيعى أن يتزعم الجنرال منو هذه المعارضة القاسية ؛ فقد حضر منو إلى مصر يحدوه أمل واحد عظيم ، هو إمكان إنشاء مستعمرة « جميلة » فى هذه البلاد ، تعوض على فرنسا خسارتها فى الهند الغربية من جهة ، وتعوض على منو نفسه بعض الخسائر التى تكبدتها أسرته فى جزيرة سان دمنجو من جهة أخرى . وعلى ذلك فإنه ما استقر به المقام فى رشيد ، التى عينه بونابرت فى حكومتها بعد سقوط الإسكندرية ، حتى انكب على عمله الجديد بكل همة ، واستطاع بعد فترة قصيرة من تعيينه أن يرسل إلى بونابرت فى ١٥ يوليه ١٧٩٨ [٣] تقريراً ضافيا عن رشيد ، وما كان لأرضها من قيمة اقتصادية كبيرة . ثم لم يمض شهران حتى أردف هذا التقرير بآخر فى ٢ سبتمبر من العام نفسه [٤] ، عرض فيه ما هداه إليه إعمال الفكر فى مزايا الديار المصرية من الناحية الاستعمارية ، فتحدث

---

(١) Pièc. Diver. 287 — 8; Pièc. Offic. 87—9

(٢) Pièc. Diver. 289 — 93

(٣) Jonquière II 238

(٤) Ibid III 108 — 9

عن موارد البلاد الاقتصادية بالتفصيل ، ثم أظهر ما يمكن أن تجنيه مصر من فائدة محققة إذا هى بادرت بإنشاء صلات تجارية هامة ، مع دول إفريقية الشمالية ، ووسط أو قلب القارة الإفريقية ذاتها .

ولما كان منو حريصا على بقاء « المستعمرة الجديدة » فى حوزة فرنسا ، فقد شرع يوضح فى رسالة أخرى إلى قائده ، فى ٧ سبتمبر (١) ، ضرورة استخدام وسائل الإقناع والملاطفة والملاينة مع الأهلين من أجل استمالتهم ، لأنه كان من المتعذر كما قال أن يقيم الفرنسيون صرح سلطانهم فى البلاد ، من غير أن يعتمدوا فى ذلك على محبة المصريين أنفسهم لهم(٢) ، بل لقد كانت لحكومة منو فى رشيد أهمية واضحة ، لأن هذه الحكومة إنما تعتبر بحق بداية التجربة الاستعمارية الجديدة ، التى كان من أقوى دعائمها تلك السياسة التى ابتدعها بونابرت ، والتى عرفت باسم السياسة الوطنية الإسلامية وهى سياسة كان منو نفسه من كبار مؤيديها ، حتى إن بونابرت ، الذى عرف فى منو هذا التأييد الصريح ، ما لبث أن امتدح حصافته ، ثم كتب يشكره على ما كان يظهره من ضروب الإجلال والاحترام للنبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، ثم عهد إليه فى ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ بالحكم فى إقليمى البحيرة والإسكندرية ، على الرغم من أن منو كان قد رغب فى الحضور إلى القاهرة . وذلك على حد قول بونابرت لأن « مصلحة الجيش التى خدمها منو خدمة صادقة كانت لا تزال تقتضى وجوده بعض الوقت فى الشمال (٣) » .

وعلى ذلك فقد بقى منو فى منصبه ، ولم يصحب بونابرت عند خروجه فى حملة الشام . ثم قطع منو فى سياسته الوطنية الإسلامية شوطاً بعيداً ، فاعتنق الإسلام ديناً ، وتزوج من بيت معروف فى رشيد . ومع أن هناك من يعزو إسلام منو إلى رغبة هذا القائد فى التمتع بملذات الحياة وسط « حريم » شرقى(٤) ، فقد أصر منو على التمسك بعقيدته الجديدة فى مناسبات عدة ، حتى إنه عند استعداده للرحيل من هذه البلاد ، عند خروج الحملة فى آخر الأمر ، لم يشأ أن يغادر الأراضى المصرية دون أن يحتفظ « كما يجب على كل مسلم » بمصحفين من المصاحف الشريفة ، عدا ثلاثة أو أربعة من كتب الدين الصغيرة . وكتب منو فى هـذا المعنى إلى الجنرال هتشنسون Hutchinson ، القائد

---

(١) Ibid. 109

(٢) Corresp. No. 3115

(٣) Ibid — 3506

(٤) Marmottan 81

الإنجليزى الذى سلم إليه الاسكندرية[١] ، كما أنه حرص على اقناع القبطان باشا ، قائد القوات العثمانية ، بأنه إنما اعتنق الإسلام عن روية وبعد تفكير عميق ، « عندما وضح له أن الإسلام عقيدة سمحة طيبة ، وأن الدين الإسلامى أعظم ديانات العالم طراً وأعلاها شأناً »[٢] ، وفضلا عن ذلك فقد اختار منو زوجا له السيدة زبيدة بنت السيد محمد البواب ، وعقد عليها لأنها كانت على حد قوله : « من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم » ، ويعرف أهلها بالاشراف ، ويتعممون لذلك بعمامة خضراء ، وصار ينظر بعين الغبطة والسرور إلى أن ولده منها (سليمان مراد) سوف يكون من زمرة الأشراف المنتسبين إلى البيت النبوى الكريم[٣] .

وكان قران منو من السيدة زبيدة فى ٢٥ رمضان ١٢١٣هـ ، الموافق لليوم الثانى من شهر مارس عام ١٧٩٩م[٤] ، ولعل أكبر مايؤخذ على منو أنه ظل راغباً فى قضاء « شهر العسل » إلى جانب زوجه ، أو تمضية الوقت كما يقول خصومه وسط الحريم فى رشيد ، فظل مدة شهرين ممتنعاً عن تلبية دعوة بونابرت ، والشخوص إلى سوريا كى يتسلم حكومتها .

وعندما اضطر فى آخر الأمر إلى تنفيذ أوامر قائده ، تباطأ فى الانتقال بصورة مكنته من الوصول إلى القطية ، فى وقت كان بونابرت نفسه قد وصل إلى القطية فى طريق عودته من سوريا[٥] ، فقابله منو بها . وعندئذ أوفده بونابرت إلى العريش حتى ينظر أحوالها ، ثم قام منو بعد ذلك برحلة إلى وادى النطرون . حتى إذا أنزل العثمانيون جندهم فى أبى قير ، عهد إليه بونابرت بالقيام على حصار قلعة العريش ، فظل منو على حصارها حتى سقطت[٦] ، وفى أغسطس ١٧٩٩ قابل منو بونابرت ، قبل رحيل القائد العام إلى فرنسا ، فأعطاه بونابرت قيادة الإسكندرية ورشيد والبحيرة ، وسلمه ما كان لديه من أوامر وتعليمات إلى الجنرال كليبر وسائر قواد ورجال الحملة .

---

(١) Rousseau 426 (Lettre de Menou. 13/9/1801)

(٢) Rigault 44 (Lettre de Menou 1/9/1801)

(٣) Rousseau 411

(٤) Ali Bahgat. 224 — 9 (Acte de mariage de Général Abdallah Menou . . .)

(٥) Rigault 45; Reybaud VIII 43 — 4

(٦) Jonquière IV 606; V 351, 433

وعندما عرفت رغبة كليبر في المفاوضة مع العدو ، اعتقد منو فى أول الأمر أن كليبر إنما كان يرجو من مفاوضته مع العثمانيين حمل هؤلاء على الخروج من المحالفة الدولية ، فضلا عن تأمين الحدود المصرية الشرقية من جهة سوريا . وعلى ذلك فإنه سرعان ماصار يدعو إلى تأييد سياسة المفاوضة ، والوصول إلى اتفاق مع الأتراك يحقق هذين الغرضين . فكتب إلى كليبر فى ٦ أكتوبر ١٧٩٩ (١) أن فى وسعه دعم مركزه فى المفاوضة إذا هو أرسل إلى الصدر الأعظم مفاوضاً ماهراً يثق بكفاءته ذلك أن العثمانيين إذا فتحوا عيونهم قليلا استطاعوا أن يلحظوا وجه الغرابة فى تلك المحالفة « الشنيعة » التى عقدوها مع غرمائهم الروس . ولاجدال فى أن كليبر سوف ينال فخراً عظيما إذا استفاق الأتراك على يده ، وتنبهوا إلى الأخطار التى كانت تحدق بهم ، ووضع كليبر أسس معاهدة جديدة معهم .

ولما كان معروفا عن منو أنه من أشد أنصار التجربة الاستعمارية فى مصر ، واشتهر لذلك بتأييده لبونابرت ، وتزعم أولئك الذين يتمسكون بضرورة البقاء فى هذا القطر ، على الأقل حتى يحين موعد عقد الصلح العام فى أوروبا ، فقد وجد كليبر أن من حصافة الرأى ، إذا هو شاء أن يكسر من حدة المعارضة ضد الجلاء ، أن يشرك فى المفاوضة أحد كبار مؤيدى الاستعمار فى مصر . وعلى ذلك فإنه ما بدأت المفاوضات بصورة جدية حتى بادر بالكتابة إلى منو فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ (٢) ، يدعوه إلى القاهرة ، حتى إذا حضر فى الوقت الملائم — أى فى خلال ثمانية أيام — أوفده كليبر إلى المعسكر العثمانى ، مزوداً بالسلطات اللازمة للمفاوضة ، وذلك « حتى يزيل منو عن عينى الصدر الأعظم المسكين تلك الغشاوة (التى منعته من إدراك جسامة الأخطار التى تحدق بتركيا) ، وحتى يقنعه منو بالفائدة المرجوة من الإصاخة بسمعه إلى صوت العقل والحكمة ... »

بيد أن منو فى هذه الآونة كان قد أدرك حقيقة نيات كليبر ، وعرف أنه إنما يريد الجلاء عن البلاد وإنهاء مشروعات الفرنسيين الاستعمارية فى الشرق . وخشى منو من الوقوع فى الشرك الذى نصبه كليبر له ، فاعتذر عن عدم إمكانه الحضور إلى القاهرة « فى الوقت الملائم » . ولما كان كليبر قد طلب تسليم الجنرال لانوس قيادة

---

(١) Rigault 24

(٢) Berthier 285

الإسكندرية عند مجيء منو إلى القاهرة ، فقد بادر منو بتسليمه القيادة ورضى الانزواء في رشيد .

وجاء انزواء منو ، عقب رحيل بونابرت وتولية كليبر القيادة العامة ، وفى الوقت الذى بدأ فيه كليبر المفاوضة من أجل النزوح عن هذه البلاد ، دليلا جديدا على أن منو الذى رفض الاشتراك فى هذه المفاوضة كان لا يزال مصرا على مقاصده ومقاصد بونابرت قائده الأول ، ولا يؤازر بتاتا سياسة الجلاء التى اختطها كليبر لنفسه والتى لقيت تأييداً يكاد يكون تاما من جانب جيش الحملة برمته . واستهدف منو بسبب موقفه من مسألة الجلاء إلى سخط أولئك الراغبين فى العودة السريعة إلى الوطن ونقمتهم ، حتى أنهم صاروا يلصقون به مختلف الاتهامات ويتقولون عليه الأقاويل الكثيرة ، ويصفونه « بأنه كان مصريا أكثر منه فرنسيا » ، ويفضل البقاء فى مصر على رعاية مصلحة فرنسا . وكان من الطبيعى أن يغضب منو من هذه التهم التى وجهت إليه جزافا وأن يحتج على أصحابها لدى قائد الحملة . واتخذ منو من احتجاجه ذريعة فى الوقت نفسه لبسط آرائه ، والدعوة للاستعمار فى مصر . فقال فى رسالته إلى كليبر فى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٩[1] إن خصومه يعزون دعوته إلى القاهرة « إلى تعذر جباية الضرائب من الأتراك والمصريين فى الجهات التى خضعت لحكومته ، وأنه يرعى مصالح أهل البلاد أكثر مما يرعى مصالح الفرنسيين أنفسهم » . ثم انتقل منو من ذلك إلى الكلام عن مزايا استعمار مصر فقال : إن متهميه لا يدرون شيئاً عن أبسط الوسائل اللازمة لتأسيس المستعمرات ، ولا يدركون أن امتلاك مصر من شأنه أن يمكن الجمهورية من تعويض خسائرها فى جزر الأنتيل ، كما يصون تجارة الفرنسيين فى المشرق وجزر الأرخبيل ؛ وفضلا عن ذلك فقد كان من رأيه أنه ليس بالأمر العسير أن يتم التفاهم مع الانجليز بصدد بقاء الفرنسيين فى مصر فى سلام وهدوء ، إذا اطمأن الانجليز إلى أن أعداءهم لا يريدون إزعاجهم فى الهند . ودافع منو عن زواجه من السيدة زبيدة فقال : « وهل يعرف أولئك الحمقى الذين يعيبون على الزواج من سيدة مسلمة أنى ما فعلت ذلك إلا بدافع من حسن السياسة واستجابة لعاطفة حب الوطن ؟ »

وواقع الأمر أن رسالة منو إلى كليبر إنما كانت تشير إلى تلك المبادىء التى استرشد بها فى سياسته دائماً ، وعززتها كتاباته من آن لآخر ثم أيدتها أعماله ، وهى مبادىء

---

(1) Rigault 25

مدارها الاحتفاظ بمصر ، وإنشاء مستعمرة بها على أساسين هامين ، هما استمالة الأهالى وجذب ودهم من جهة ، ثم التفاهم والاتفاق مع الانجليز من أجل البقاء فى مصر من جهة أخرى . وعلى ذلك فقد أصبح من المتوقع أن تلقى مفاوضات العريش فى هذه الظروف كل معارضة من جانب منو ، ومع أن أحداً لم يستشر منو فى مسألة الصلح وعلى وجه الخصوص بعد انزوائه فى رشيد ، فقد ظل منو يبعث بالكتب والتقارير إلى كليبر طوال شهر يناير ، حتى لا تلين قناته أمام إصرار « الانجليز والفرنسيين والأتراك جميعاً » على إخلاء مصر . فكان من أهم ما كتبه منو فى هذا الشأن (تقرير ١٦ نيفوز من السنة الثامنة للجمهورية) الذى أرسله إلى كليبر (فى ٦ يناير ١٨٠٠) بعنوان « مذكرة عسكرية وأحصائية عن مصر [(١)] » .

وقد أراد منو فى هذا التقرير أن يهدم الرأى الذى أخذ يروج وقتئذ بين رجال الحملة ، وهو أن بقاء مصر فى حوزة فرنسا قد أضحى عديم الجدوى ، وذلك لإخفاق الفرنسيين فى طرد الانجليز من الهند . فأثبت منو فى قسمى هذا التقرير الأول والثانى إحصائية لما كانت عليه تجارة فرنسا الخارجية قبل « الثورة » ، ثم ما آلت إليه بعدها فقدر أن الربح الذى جنته فرنسا من تجارة إمبراطوريتها الاستعمارية القديمة فى عام ١٧٨٩ كان يربى على مائتى مليون فرنك ، حتى إذا نشبت حروب الثورة فى أوروبا ، واستولى الانجليز على جزر الأنتيل ، واندلع لهيب الثورات فى جزر الهند الغربية ، وصار صيد الأسماك فى (تير — نيف) متعذراً ، وبات متعذراً كذلك الاتصال بين فرنسا والهند الشرقية وجزر الرويونون وايل دى فرانس ثم الشاطىء الأفريقى الغربى ، ثم اشتركت وجاقات الغرب وأساكل الليفانت (أو المشرق) مع كل أوروبا فى النضال ضد فرنسا ، فقدت فرنسا بسبب ذلك كله من تجارة المستعمرات ما تبلغ قيمته نيفاً ومائة مليون من الفرنكات سنويا ، وبقيت لفرنسا تجارتها مع أسبانيا والدول التى آثرت الحياد فى النضال القائم إلى جانب بعض دول الأعداء التى رغبت فى التجارة المستترة ، وذلك برفع أعلام البلدان المحايدة على صوارى سفنها .

وخرج منو من ذلك إلى حقائق معينة أجملها فى قوله : « لقد فقدت فرنسا جزر الأنتيل إلى الأبد ، ولن تعيد انجلترة إلى الفرنسيين ممتلكاتهم التى فقدوها فى الهند ، بل إنها ولا شك سوف تمنعهم من إنشاء أية صلات تجارية مع دول البحر الأبيض

---

(١) Ibid 25 — 8 (Mem. Militaire et Statistique sur L'Egypte - 16 Nivôse an VIII)

المتوسط ؛ وهذا إلى أن انجلترة سوف يكون من نصيبها ، بفضل معاهدة المحالفة والتجارة التى أبرمتها مع الولايات المتحدة ، تلك المكانة ذاتها التى تمتعت بها فرنسا سابقا فى القارة الأمريكية ؛ وهكذا لم يبق لفرنسا موضع فى هذا العالم حتى تبدأ فيه من جديد تشييد صرح إمبراطوريتها . ولا مناص من استمرار هذه الحال على الأقل مادام الفرنسيون لا يلجأون إلى استخدام الوسائل التى تكفل لهم إنشاء مستعمرة تستطيع أن تعوضهم شيئا عما فقدوه من أملاكهم » .

وانبرى منو ، فى القسم الثالث من هذه المذكرة الهامة ، يوضح ما ينبغى على فرنسا أن تفعله حتى تجتاز هذا المأزق بسلام ، فألح فى ضرورة بقاء مستعمرة فرنسية فى مصر ، ثم التمسك بهذه المستعمرة لتعويض الفرنسيين عن خسائرهم فى أمريكا والهند الغربية ، مستنداً فيما ذهب إليه إلى أنه « كان يدخل فى اعتبار الحكومة الفرنسية ولا شك عند إرسال حملتها إلى مصر إنشاء مستعمرة فى هذه البلاد تعوض على الجمهورية خسائرها ، لأن الأموال الطائلة التى أنفقت فى تجهيز هذه الحملة ، ومختلف العتاد الكثير الذى جمع ، وإعداد الرجال الذين وقع الاختيار عليهم لمرافقتها ، إنما يدل على أن الغرض من إرسال هذه الحملة لم يكن لمجرد النزهة ، وإنما كان للغزو وإرساء الفتوح الجديدة على قواعد قوية ودعائم ثابتة ، ولم يحدث الغزو إرضاء لشهوة الطمع فحسب ، لأن مصر لها من موقعها الجغرافى ما يجعلها مقراً ومستودعا لتجارة الهند الآتية بطريق البحر الأحمر ونهر النيل وميناء الاسكندرية .

«ولا يقلل من شأن هذه الحقيقة بحال من الأحوال أن الإنجليز موجودون بالهند ، وأن الفرنسيين مضطرون إلى التخلى عن فكرة إقصاء هؤلاء وطردهم منها . ذلك لأن مصر تتمتع بثروة داخلية تجعلها من خير مستعمرات العالم ، فهى تنتج الأرز والقمح والشعير والنيلة وغير ذلك بكميات عظيمة ، فضلا عن نمو شجر العنب بكثرة ، ووفرة الخيول وأجود أنواع الحيوان ؛ وكذلك النطرون . ومما يدعو إلى التفاؤل فى إمكان قيام صناعات الحرير والزيوت وجود شجر التوت والزيتون . وعلاوة على ذلك فإن بمصر من شجر قصب السكر والقطن وغير ذلك مما يسهل معه انتظار حصول فرنسا على خير من هذه المستعمرة الغنية ، بل إن مصر ، إذا قدر لها أن تتمتع بإدارة حازمة مصلحة ، ستكون بعد عشر سنوات فحسب أفضل مستعمرات العالم أجمع ؛ ولا يتأتى ذلك بالاقتصار على استغلال منتجات الأرض ، بل على المستعمرين أن ينشئوا إلى جانب ذلك مصانع لتكرير السكر وصنع النيلة ؛ وفى وسع فرنسا أن تستقدم من سان دمنجو المستعمرين حتى يجلبوا معهم إلى مصر صناعاتهم . »

واعتمد منو فى هذا الجزء من مذكرته على ذلك البحث الذى ألقاه تاليران فى المجمع العلمى بباريس فى ٣ يوليو ١٧٩٧ ؛ ولما كان يريد استرعاء انتباه جيش الشرق إلى ما جاء فى هذا البحث ، فقد أشار منو إليه فى مذكرته ، وطفق يوضح كيف أن تاليران كان يتوقع أن تفقد فرنسا ذات يوم مستعمراتها الأمريكية ، ويطلب لذلك من بلاده أن تتخذ العدة لتعويض هذه الخسارة ، وذلك علاوة على ما ذكره تاليران نفسه من أن الدوق دى شوازيل كان يسعى منذ ١٧٦٩ لإقناع تركيا بطريق المفاوضة بضرورة نزولها عن مصر إلى فرنسا . كما بين بوضوح وجلاء ما كان هنالك من وجوه الشبه بين منتجات مصر ومنتجات جزر الانتيل ، فضلا عن تحذير أبناء وطنه من استعداد الانجليز وإصرارهم على سبق الفرنسيين فى مضار الاستعمار والاستيلاء على جميع ما يفقده هؤلاء من مستعمراتهم إلى جانب امتلاك الأراضى الواسعة الجديدة .

ولما كانت هناك صعوبات ولا ريب سوف تعترض جيش الشرق ، وتحول دون استعماره مصر والاستقرار بها ، فقد شرع منو فى الجزء التالى من مذكرته يشرح وسائل تذليل هذه الصعوبات بقوله : إن التغلب على « تعصب » أهل البلاد سهل ميسر إذا سلك الفرنسيون مع الأهلين طريق التسامح ، وحكموهم بالعدل والقسطاس فاستمالوهم إليهم ، وفضلا عن ذلك فإن لدى جيش الشرق من القوة العسكرية ما يمكنه من الاحتفاظ بالسيطرة الكاملة فى البلاد ، فإذا اعترض معترض بأن مصر سوف تظل فى أثناء الحرب محرومة من التجارة مع غيرها من البلدان الأخرى ، وتعجز لذلك عن تموين جيش الشرق ، فمن السهل دفع هذا الاعتراض بما ظهر من القدرة على الحصول على إيراد كبير من مصر سنويا ، زد على ذلك أنه إذا اتفقت الكلمة على أن تترك الهند وتجارة الخليج الفارسى للانجليز ينتفعون بها ، فإن هؤلاء سوف يقتنعون بدورهم أن يتركوا مصر للفرنسيين ؛ أما إذا هدد الروسيون جيش الشرق فى مصر ، فإن هذا التهديد لا يلبث أن يستثير معارضة الانجليز خوفا من تضخم قوة الروس لدرجة يخشى معها بأس هذه القوة . ولن يهدأ بال الانجليز حتى يحطموا كل أمل لدى الروس فى الاستيلاء على مصر . أما إذا كان الخطر الذى يتهدد الفرنسيين فى مصر آتيا من جانب الأتراك فمن الميسور إزالة هذه المخاوف بالاتفاق مع الأتراك أنفسهم ، على أساس أن « يحتفظ الباب العالى بنوع وقسط من السيادة الدينية يكفى لاشتراكه فى ممارسة سلطان السيادة العليا مع الفرنسيين فى مصر » فضلا عن دفع قدر من المال إلى الباب العالى سنويا .

أما إذا قيل إن فرنسا لا تملك بحرية نافعة، فالجواب على ذلك أن عقد الصلح مع إنجلترة من شأنه أن يلغى حاجة فرنسا إلى بحرية حربية كبيرة ، وكذلك إذا قيل إن الوباء سوف يفتك بعدد كبير من الفرنسيين فى هذه البلاد ، فوسيلة التغلب على على هذه الصعوبة أن يكافح الفرنسيون هذا الوباء ، « ومتى كان الوباء أشد فتكا من الحميات الخبيثة فى جزر الأنتيل ؟ » ومع ذلك فهناك حقيقة واحدة لا ينبغى أن تعزب عن بال إنسان ، هى أنه إذا ترك الفرنسيون مصر فقد خسروها إلى الأبد ، ولا أمل فى عودتهم إليها مرة أخرى . ذلك بأن الانجليز والروس سوف ينتهزون هذه الفرصة للاستيلاء عليها . ولا شك فى أن هؤلاء إذا أبقوا مظاهر السيادة للباب العالى سيصبح فى مقدورهم أن يدعموا مراكزهم فى هذه البلاد بصورة تحقق سيطرتهم على السلطان العثمانى نفسه فى النهاية .

تلك كانت مذكرة ١٦ نيفوز المشهورة ، وقد بسط صاحبها آراءه على أساس البقاء فى مصر وعدم الجلاء عنها . حقيقة اشتملت هذه المذكرة على بعض الآراء « الخيالية » كاعتقاد منو أن فى وسع الفرنسيين أن يتفقوا مع الإنجليز على أساس أن يترك هؤلاء غرماءهم فى مصر ويرضوا باستقرارهم فى أرضها ، أو اعتقاده أنه من الميسور إنشاء مستعمرة ناجحة فى هذه البلاد دون الحاجة إلى وجود بحرية حربية قوية لدى فرنسا . ومع ذلك فقد كانت الفكرة الواضحة فى هذه المذكرة أن الواجب يقتضى جيش الشرق أن ينظر إلى مصر من ناحية قيمتها التجارية والاقتصادية ، ومن واجبه كذلك ألا يفرط فى هذه البلاد بتاتا[١] .

غير أن كليبر وقد قر رأيه على الجلاء لم يعر هذه المذكرة أى التفات ، بل مضى فى سياسته قدما حتى إن منو اضطر إلى الكتابة إليه ثانية فى ١٧ يناير ١٨٠٠[٢] يحضه على عدم التفريط فى المستعمرة ، وأنشأ يقول : إن كليبر ولا شك سوف يتمتع بمكانة تضمن له الشهرة الخالدة والصيت البعيد إذا هو قرر الصلابة أمام الإنجليز والروس والأتراك جميعاً ، ثم اشترط كل ما يحقق مصلحة بلاده . ولكن كليبر ما لبث أن أبرم اتفاق العريش فى ٢٤ يناير ، وبدأت المعارضة تشتد وتقوى بين طائفة من قواد الحملة ورجالها تزعمهم منو الذى ما لبث أن كتب إلى بونابرت فى ٢٤ فبراير[٣] يصف له حزنه العميق لما حدث بسبب الاتفاق على الجلاء عن مصر دون قيد أو شرط ، ويسهب

---

(١) Rigault 30
(٢) Rousseau 192
(٣) Pièc. Offic. 60 — 3

فى ذكر الفوائد العظيمة التى تعود على فرنسا من بقاء هذه البلاد فى حوزتها ، كما كان يحز فى نفسه ضياع تلك النفقات الطائلة التى تكبدتها الحملة بسبب أعمال التحصينات العديدة ، وإنشاء المعامل ، والعناية بوسائل الرى وما إلى ذلك . وطفق يتحدث عن الوسائل التى تمكن من عقد الصلح مع انجلترة وتركيا من غير حاجة إلى الخروج من مصر ، حتى إذا آن وقت عقد الصلح العام فى أوروبا وكانت فرنسا غير راغبة فى الاحتفاظ بمصر ، أو هى تعجز عن ذلك ، كان فى وسعها على الأقل أن تطلب تعويضا كبيراً لقاء الجلاء عنها . وواقع الأمر أن منو كان يعتبر اتفاق العريش نصراً عظيما للسير سدنى سميث الذى استطاع إخراج الفرنسيين أو « طردهم » من مصر ، دون حاجة إلى الاشتباك معهم فى معركة واحدة [١] .

ووجد منو من بين ضباط الحملة ورجالها من شاطره هذه الآراء ، فكان هناك توسار Tousard الذى أحزنه كفرنسى أن يترك بلدا غنيا طيبا كمصر ، وكان هناك القائد دافو الذى كان أظهر المعارضين لكليبر عند انعقاد المجلس الحربى فى الصالحية ، وأراد أن يعرف عنه الجميع هذا الموقف ، ثم أقبل على تأييد منو ، وما لبث قبل إبحاره مع ديزيه إلى فرنسا فى ٣ مارس أن جدد احترامه وتأييده له [٢] . وزاد عدد المعارضين لاتفاق العريش رويدا رويدا كلما قرب موعد الرحيل إلى فرنسا ، حتى ذكر أحد المعاصرين [٣] أن هذه المعارضة بدأت فى أول الأمر فى صورة عدم الاتفاق على الطريقة التى يجرى بها إخلاء البلاد ، ثم ما لبثت أن انتقلت من ذلك إلى عدم الرضا عن المعاهدة ذاتها ورفض فكرة الإخلاء رفضا قاطعا . وأزعجت هذه المعارضة الجنرال دوجا إزعاجا شديدا . وكان دوجا من الأفراد القليلين الذين وافقوا على سياسة كليبر ، واعتزم العودة إلى فرنسا (مع بوسيلج) ، فلقى عنتا كبيرا من جانب المعارضين « الذين ظلوا يعطلون رحيله من الإسكندرية مدة طويلة حتى اضطر قبل إقلاعه منها (فى ١٤ مارس) أن يشكو طائفة من الرجال كفيال Vial ودافو « الذين أرادوا منع أحد مؤيدى (اتفاق العريش) من إبلاغ صوته إلى أسماع أولى الشأن فى فرنسا » [٤] .

---

(١) Rousseau 223

(٢) Pièc. Offic. 87

(٣) Doguereau 305

(٤) Rigault 66

وما أن قويت المعارضة ضد اتفاق العريش حتى انزعج كليبر انزعاجا عظيما ، ثم استبد به القلق عندما تلقى لدى وصوله من الصالحية إلى القاهرة فى ٨ فبراير ما حرص الانجليز على إذاعته من أنباء عن سقوط حكومة الإدارة ، ووصول بونابرت إلى الحكم فى فرنسا . وكانت هذه ولا شك أنباء خطيرة ، وبخاصة وقد ظل كليبر لا يصله شىء من أخبار الوطن أو من أخبار بونابرت منذ رحيل هذا الأخير فى شهر أغسطس من العام السابق [١] . ثم سرعان ما تأيدت صحة هذه الأنباء عند ما وصل إلى أبى قير فى ٢٧ فبراير (لاتور موبورج La Tour Maubourg) رسول الحكومة ، يحمل إلى جيش الشرق طائفة من الرسائل والتقارير والصحف . فأيد الرسول حدوث الانقلاب — انقلاب برومير الذى وضع بونابرت على رأس القنصلية — كما اشتملت الأوراق التى أتى بها على وصف مسهب لحوادث هذا الانقلاب وصورة من دستور القنصلية الجديد [٢] . على أن الأمر الذى استرعى انتباه كليبر أكثر من غيره كان خلو هذه الرسائل والتقارير من أية إشارة قد يستدل منها على أن الحكومة الجديدة تعتزم إرسال نجدات سريعة إلى مصر ، كما أن بونابرت لم يعن بإرسال كلمة تشجيع واحدة إلى جيش الشرق أو إلى قائده [٣] . وفضلا عن ذلك فقد حنق كليبر حنقا كبيراً عندما عثر ضمن رسائل جروسبير على خطاب بعث به الأخير فى ٢ يناير ١٨٠٠ [٤] إلى حكومة القنصلية ، عند وصوله إلى فيلافرانكا ، يقول فيه إن جميع جنود الحملة يجدون كفايتهم من الأردية والملابس ، ولا سبب للخوف من جيوش الصدر الأعظم لتفوق جيش الشرق على العثمانيين ، حتى إن انتصار كليبر عند التحامه مع هؤلاء فى المعركة المقبلة سوف يكون عظيما ساحقا ، وعلاوة على ذلك فإن الحماس يملأ صدور الجند ، كما تملأ قلوبهم المحبة لقائدهم الذى يتمتع بثقتهم العظيمة وتسود بينهم روح عالية طيبة . فجاء كلام جروسبير مناقضا لما ذكره كليبر نفسه فى تقريره المعروف لحكومة الإدارة عن حالة الجيش السيئة ، وهى الحالة التى أوفد كليبر هذا الضابط المدفعى ليبسط حقيقتها مشافهة لدى أعضاء الحكومة ، على أمل أن يعزز جروسبير بأقواله كل ما سطره كليبر فى رسائله وتقاريره . ولذلك فقد ثارت ثائرة كليبر ووصف عمل جروسبير ومسلكه « بالجبن والنذالة [٥] » .

---

(١) Pajol 456

(٢) Corresp. No. 4526

(٣) Rousseau 234

(٤) Pièc. Diver. 247 — 8

(٥) Rousseau 232

وحق لـكليبر أن يغضب وأن يتألم ، ذلك أن مركزه كان فى غاية الحرج بسبب وصول بونابرت إلى أعلى مناصب الحكم فى فرنسا ، وفى وسعه بفضل منصبه الجديد أن ينظر تلك الاتهامات الخطيرة التى وجهها إليه كليبر فى تقرير ٢٦ سبتمبر ، وأن يفصل فى موضوع كان هو نفسه أحد طرفى الخصومة فيه[١] ، ومع ذلك فقد كان إيمان كليبر عظيما بضرورة الاتفاق على أساس الجلاء عن مصر ، حتى إنه ما لبث أن كتب إلى دوجا يقول[٢] « إنه كلما قلب وجوه الرأى فيما فعله من أجل الانتهاء من مسألة البقاء فى مصر ازداد يقيناً بأن الأجيال المقبلة سوف تتوج هامته بأكاليل من المجد والفخار ، لأنه وجد لديه من الشجاعة ما جعله يقرر بصورة معقولة إنهاء مغامرة (جنونية) سرعان ما ينبذها صاحبها نفســه ومبتكرها بصورة تدل على الجبن وعدم الشجاعة » . كما مضى يقول فى رسالة بعث بها فى الوقت نفسه[٣] (٦ مارس) إلى بوسيلج : « إن الإقدام على تأسيس مستعمرة دون أن يكون لدى الدولة التى ترغب فى تأسيسها حكومة مستقرة أو بحرية قوية ، وخزانتها خاوية ، وهى تخوض فى الوقت نفسه غمار الحروب فى أوروبا ، مما يدل على منتهى السخف والهذيان ، ويشبه محاولة فرض الحصار على مكان دون أن يكون لدى أصحاب الحصار أى سلطان فى الميـدان ولا ذخائر حرب لديهم ، بل إنه لأشـد سوءا من ذلك . . . وفى وسع بونابرت القوى القدير أن يكم أفواه الناس فلا ينطقون بالحقيقة وقتاً من الزمن ، ولـكن الحق قمين بأن يظهر عاجلا أو آجلا فيعرفه الجميع » .

وفضلا عن ذلك فقد ساء كليبر على حـد قوله أن يتصدى للمعارضـة بعض أولئك الذين وقعوا بأسمائهم على محضر المجلس الحربى الذى انعقد فى الصالحية ، وقرر أصحابه الموافقة على الصلح ، وطلب كليبر من دوجا وبوسيلج أن يذكرا الحقيقة كاملة عند عودتهما إلى فرنسا ، وألا يخشيا فى قول الحق لومة لائم . وفى ٢٧ مارس كتب كليبر[٤] إلى وزارة الحرب فى باريس يبدى « دهشته العظيمة » من خلو كل ما جاء به لاتور موبورج من رسائل وتقارير من ذكر شىء قد يستفاد من أن الحكومة إنما تعتزم إرسال النجدات السريعة إلى مصر ، ثم خلوها كذلك من أية تعليمات جديدة بعد أن تغير الموقف منذ رحيل بونابرت إلى فرنسا الأمر الذى يدعو إلى اغتباط كليبر على حد

(١) Pajol 457

(٢) Rousseau 227 — 8; Ibid 457

(٣) Rousseau 233

(٤) Pajol 459; Rousseau 236

قوله بتلك التسوية التى انتهى إليها حديثاً . وفى ٢٧ مارس كان قد انقضى أسبوع تقريبا على آخر اشتباك وقع بين الفرنسيين والعثمانيين فى معركة كبيرة ، نتيجة نقض الإنجليز والعثمانيين لعهودهم ، خرج منه كليبر منصوراً مظفرا . وهكذا فإنه على الرغم من المعارضة الشديدة التى أثارها خصوم (الاتفاق) ، والتى ازدادت حدتها بعد وصول لاتور موبورج يحمل أخبار انقلاب (١٨ برومير) الذى أوصل بونابرت إلى القنصلية ، ثم على الرغم من أن العدو قد نكث عهده ، فقد ظل كليبر يؤمن إيماناً صحيحاً بسداد تلك السياسة التى استهدفت الجلاء عن مصر ، والتى أفضت إلى عقد اتفاق العريش . وفضلا عن ذلك فإن كليبر لم يكن مسئولا بحال من الأحوال عن نقض هذا الاتفاق ، بل وقع قسط كبير من مسئولية نقضه على عاتق الإنجليز أنفسهم .

إنجلترة ونقض اتفاق العريش :

ومسئولية الإنجليز عن نقض اتفاق العريش حقيقة لاتقبل جدلا أو مناقشة ، ذلك لأن العثمانيين حلفاءهم ، على الرغم من تلك اللهجة الجافة التى اصطنعها الصدر الأعظم فى رسائله إلى كل من بونابرت وكليبر ، كانوا يرحبون بفكرة المفاوضة مع الفرنسيين حتى يتسنى إخراج هؤلاء من البلاد وعودة الديار المصرية إلى حظيرة الدولة العثمانية ، فضلا عن أنه لم يكن من مصلحة العثمانيين فى شىء أن يخوضوا غمار حرب عنيفة مع الفرنسيين فى مصر ، لاختلال نظام جيوشهم ، ولخروج أحمد باشا الجزار على سلطانهم وتحصنه فى عكا ، وإقدامه على قطع المواصلات بين الجيش العثمانى الزاحف على الحدود المصرية وبين القسطنطينية ، بدلا من مساعدته ، حتى ساد الشعور عقب انسحاب الفرنسيين من عكا بأن الصدر الأعظم إنما أعد جيوشه الجرارة لإنزال العقوبة بكل أولئك الباشوات الذين نبذوا سيادة السلطان العثمانى ، ولم يكن يحاول طرد الفرنسيين من مصر . وكان مما أقض مضجع العثمانيين رؤيتهم أسطول حلفائهم الروس يمخر عباب المياه العثمانية ، فعظمت مخاوفهم حتى إنهم صاروا يعتبرون المبادرة بتحصين المضايق مفضلا على كل ماعداه ؛ لأن مصر أو أى إقليم آخر من أقاليم الامبراطورية العثمانية لايعدو كونه عضواً فى جثمان الدولة ، بينما تعتبر المضايق بمثابة « الحلقوم » إذا أطبق الأعداء عليه فلا مناص من هلاك الجثمان كله(١) .

وعلى ذلك فقد اجتهد الأتراك فى مبدأ الأمر حتى يبقوا المفاوضة مع الفرنسيين سراً مكتوما ، على أمل النجاح فى الوصول إلى اتفاق يضمن خروج هؤلاء الأخيرين

(١) Ghorbal 105 — 6

من مصر . حتى إذا قطعت المفاوضة شوطا تبين منه أن القائد الفرنسى يريد حقيقة الجلاء عن مصر ، وصار ضروريا كذلك أن يبحث العثمانيون مع حلفائهم مسألة إعداد (جوازات المرور) اللازمة للفرنسيين حتى لاتتعرض لهم بشىء أساطيل الحلفاء من الروس والإنجليز فى أثناء عودتهم بطريق البحر الأبيض ، اضطر الأتراك إلى مفاتحة حلفائهم فى أمر هذه المفاوضة ، فعلم بها السير سدنى سميث فى أواخر أكتوبر عام ١٧٩٩ ، أى بعد مضى شهرين تقريبا على بدئها . ولم يذكر الريس أفندى وزير الخارجية العثمانى عنها شيئا للوزير الإنجليزى فى القسطنطينية : سبنسر سميث Spencer Smith إلا فى ٣٠ أكتوبر حينما طلب الريس أفندى إلى حلفائه الإنجليز والروس أن يعاونوا الدولة فى إخراج الفرنسيين من مصر ، وذلك بإعطاء هؤلاء (جوازات المرور) اللازمة لهم . ومع أن تمارا Tamara المندوب الروسى كان قد وافق على إعطاء عدد من هذه الجوازات ، فقد حاول سبنسر سميث ، من ناحيته أن يكسب بعض الوقت حتى يتدبر الأمر الذى فوجىء به مفاجأة ، واعترض على عودة الجيش الفرنسى بكامل عدده وعدته دفعة واحدة إلى فرنسا ، خوفا من أن يلحق الأذى بمصلحة الحلفاء أنفسهم من جراء عودة جيش الشرق ، والحرب مازالت دائرة الرحى فى أوروبا .

وقضى الأتراك وقتا ثمينا يحاولون تبديد مخاوف سبنسر سميث ، وتفتق ذهن تمارا عن « خدعة حربية » للغدر بالجيش الفرنسى العائد إلى بلاده . واقترح الأتراك على الإنجليز قبول هذه « الخدعة » . ومدارها أن ينقل الفرنسيون إلى مكان ما بدلا من إنزالهم فى الشواطىء الفرنسية ، حتى إذا تركوا السفن انقض عليهم الحلفاء وفتكوا بهم فى مذبحة عظيمة ، ثم شردوا من بقى منهم أحياء ، بعد أن يسلبوهم أرديتهم وملابسهم وكل ما يحملون [١] . وقد دل اقتراح الأتراك هـذه « الخدعة » على الإنجليز أنهم كانوا يريدون الحصول على (جوازات المرور) بصورة من الصور . وأمام إلحاح الأتراك وإلحافهم وافق سبنسر سميث فى ٣ نوفمبر على إعطاء هذه الجوازات ، ولكنه اشترط موافقة اللورد إلجين Elgin السفير الإنجليزى الجـديد على ذلك . وكان من المنتظر وصول هذا السفير إلى القسطنطينية بين آونة وأخرى .

على أن وصول (الجين) إلى القسطنطينية بعد أيام قلائل سفيراً فوق العادة لدى السلطان سليم ما لبث أن سبب ارتباكاً ظاهراً فى دوائر الباب العالى . ذلك بأن سفارته كانت تنتزع من سبنسر سميث وأخيه السير سدنى كل صفة تخولها حق المفاوضة

---

(١) Pièc. Offic. 263

مع الأتراك والروس ، فى وقت كانت المفاوضات من أجل جلاء الفرنسيين عن مصر قد قطعت شوطا يدعو إلى الأمل فى إمكان انجازها ، على النحو الذى يريده الأتراك أنفسهم ؛ ويتفق مع وجهة نظرهم ؛ فضلا عن أن اللورد إلجين عند حضوره إلى القسطنطينية كان يجهل حقيقة الموقف فى مصر ، وعليه علاوة على ذلك مجابهة أمور عدة ، واتخاذ قرار عاجل بشأنها ؛ من ذلك أن المفاوضات بين الأتراك والفرنسيين فى مصر كانت قد وصلت إلى مرحلة هامة ، منذ أن توسط السير سدنى فى الأمر ، ووقع على كتابه المعروف إلى كليبر فى ٢٦ أكتوبر ١٧٩٩ بوصفه وزيراً مفوضاً لدى الباب العالى [١] ؛ ومن ذلك أن الأتراك كانوا مصممين على استرجاع مصر وجلاء الفرنسيين عنها بكل سرعة ، بينما انبرى (تمارا) المندوب الروسى يدعو الآن لنبذ الموافقة على هـذا الجلاء ، ويطلب إلى الإنجليز أن يرفضوا ذلك على خلاف ما كان يريده سابقا ؛ ومن ذلك أنه كان على اللورد إلجين أن يبدى رأياً قاطعاً فى مسألة تلك « الخدعة الحربية » التى اقترحها العثمانيون بتحريض من تمارا للقضاء على جيش الحملة .

ورفض إلجين « الخدعة الحربية » ، ولـكنه أقر بأن للعثمانيين الحق فى المفاوضة والاتفاق على أساس جلاء الفرنسيين من مصر ، وإخلاء هـذه البلاد منهم ، لا سيما وقد وافقت روسيا على هذا المبدأ ، والروسيا من أعضاء المحالفة . وانحصر الاهتمام لذلك فى فحص ما يطلبه الفرنسيون من ضمان يكفل عدم تعرض الأسطول الانجليزى لهم عند نقلهم من مصر إلى بلادهم . غير أنه كان يسوء إلجين أن يظل السير سدنى سميث . بوصفه وزيراً مفوضاً ، يلعب دونه دوراً هاماً فى المفاوضات ، كما أن إلجين سرعان ما غير موقفه من مسألة الاتفاق بين الأتراك والفرنسيين على أساس جلاء هؤلاء الأخيرين عن مصر . وكان لهذا التغيير أسباب عدة ، منها أن الأتراك أنفسهم قد ظهر الآن ترددهم فى قبول الصلح عند ما استهوت الخدعة الحربية أفئدتهم ، فأرادوا لو تمكن الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض من أن يقبض على الجيش الفرنسى العائد إلى بلاده ، ويعمل على إبادته وإفنائه . وكان أعظم ما يخشاه إلجين من اتفاق الصدر الأعظم وكليبر ، ثم عودة السلام بين تركيا وفرنسا ، أن يزداد نفوذ الفرنسيين فى القسطنطينية حتى يطغى على كل نفوذ آخر ، وقد لمس إلجين بنفسه آثار النفوذ الفرنسى الـكبير فى القسطنطينية على الرغم من وقوع الحوادث الأخيرة . وقد بسط

---

(١) Ibid 178

الجين ذلك كله فى رسالة بعث بها إلى اللورد جرنفيل Grenville وزير الخارجية الإنجليزية فى ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٩ (١) .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن إلجين ظل ما يقرب من شهر لا يطلع السير سدنى على آرائه أو ما وصل إليه من نتائج . بل إن إلجين الذى شكا فى ١١ نوفمبر من انتحال السير سدنى صفة الوزير المفوض ، مالبث حتى قرر فى ١٧ نوفمبر أن يترك لتقديره وتقدير الصدر الأعظم الفصل فى مسألة (جوازات المرور) لأن الحماية التى يمنحها السير سدنى بوصفه قائد القوات البحرية الإنجليزية فى الليفانت ، لجند الحملة عند خروجهم من مصر ونقلهم إلى بلادهم تساوى فى قيمتها وأهميتها (جوازات المرور) التى يصدرها إلجين نفسه(٢) . ولعل إلجين كان لايزال يريد مصانعة السير سدنى ، عند ما شاهد عند قدومه إلى القسطنطينية مقدار مانشأ من علاقات طيبة بين الصدر الأعظم والسير سدنى سميث ، حتى إن الصدر صار يثق فيه ثقة عظيمة ، ولا يرى ما يدعو إلى إبعاده عن المفاوضة وميدان العمل ، على الرغم من تعيين سفير إنجليزى جديد فى القسطنطينية ، طالما أن الأمور كانت تسير فى نظر الصدر سيراً طيباً(٣) . أو لعل إلجين من جهة أخرى كان لايزال فى حاجة إلى وقت أطول يصرفه فى فحص موضوع الصلح بين تركيا وفرنسا ، حتى إذا قر رأيه على شىء استطاع أن يخطو خطوة حاسمة فى هذه المسألة .

وعلى أى حال فقد بدأ إلجين يوضح موقفه من السير سدنى سميث من أواسط شهر ديسمبر ؛ فكتب إليه فى ١٧ ديسمبر ثم فى ٢٢ ديسمبر يعترض على فعله ويحتج على دخوله فى مفاوضة من أجل إخراج الفرنسيين من مصر دون أن يشرك معه فى هذه المفاوضة الأتراك أنفسهم . إذ لم يحضر مؤتمرات الصلح التى عقدها السير سدنى مع الفرنسيين ، على حد قول إلجين ، أحد من العثمانيين يحمل من الباب العالى تعليمات يستطيع بفضلها المساهمة جديا فى المفاوضة ، مع ما فى ذلك من تعريض المحالفة مع الأتراك إلى خطر الانهيار . وكتب إلجين : « حقا إن تخليص مصر من قبضة الفرنسيين لأمر هام ، ولكن هذه الرغبة لا يجب أن تكون سبباً فى إثارة ظنون الحكومة العثمانية وشكوكها ، وهى الحكومة التى من واجبها أن تسلك فى شئونها الطريق الذى تعتبره ملائماً لمصالحها ، ولكن بشريطة أن يكون هذا المسلك متفقاً فى الوقت نفسه وجميع الارتباطات التى التزمت بها تركيا نحو انجلترة(٤) » . وواضح من هذا

(١) Charles - Roux, op. cit. II. 42
(٢) Ghorbal 107
(٣) Barrow I 381
(٤) Charles - Roux. II. 43

القول كذلك أن إلجين صار يخشى عواقب محاولة الأتراك أن يعقدوا صلحا منفرداً مع فرنسا . وكان أهم ما أخذه إلجين على السير سدنى سميث أنه لم يحتط لهذه المسألة فيدبر الأمر بصورة تكفل تعاون الباب العالى مع الإنجليز فى اتحاد متين من شأنه أن يحمل العثمانيين على الاستمرار فى الحرب ضد فرنسا بعد إنقاذ مصر .

تلك كانت اعتراضات اللورد إلجين على عمل السير سدنى سميث ، وبعض هذه الاعتراضات يستند ولا شك إلى أسباب صحيحة ، بينما بعضها الآخر لا مسوغ له . فالقول بضرورة اشتراك مفاوض عثمانى فى المباحثات الجارية مع العثمانيين فى مصر كان لغواً لا طائل تحته ، لأن المفاوضات إنما بدأت بين كليبر والصدر الأعظم قبل تدخل السير سدنى سميث على نحو ما سبق ذكره . غير أن إلجين كان على حق فيما يبدو فى اعتراضه الآخر ، عندما طالب ببقاء العثمانيين إلى جانب الإنجليز فى الحرب ضد فرنسا ، بعد خروج جيش الشرق من مصر . وذلك لأن السير سدنى لم يعر هذا الموضوع أى اهتمام لأسباب ظاهرة ، منها أنه كان لا يقيم وزنا كبيراً لقدرة الأتراك العسكرية لما عرفه عن ضعف جيوشهم وفساد نظامها ، فلم يهتم بمواصلتهم القتال ضد الفرنسيين بعد خروج هؤلاء من مصر . وفضلا عن ذلك فقد اعتقد السير سدنى أن فى وسع الأسطول الإنجليزى مراقبة مصر وتركيا معا ، إذا وقع فى كلتيهما من الأحداث ما يدعو إلى هذه الرقابة .

ومع ذلك فقد جاءت هذه الاعتراضات جميعها متأخرة ، لأنها لم تبلغ السير سدنى سميث فى الوقت المناسب ، أى قبل توقيع اتفاق العريش الذى حدث كما هو معروف فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ . وعلى ذلك فإنه ما إن وصلت أنباء هذا الاتفاق إلى القسطنطينية فى منتصف فبراير حتى أظهر اللورد إلجين امتعاضه لحدوث الاتفاق دون الأخذ باعتراضاته من جهة ، ولأنه لم يشترك فى عقده من جهة أخرى . وبدأ إلجين من ذلك الوقت حملة شديدة ضد اتفاق العريش وضد « صاحبه » ، وطفق يبعث بالكتب إلى اللورد جرنفيل طوال شهرى فبراير ومارس يبسط فيها أسباب معارضته ؛ ومنها أن الفرنسيين مشهورون بالغدر والخيانة ، فلا يجب الوثوق بما أخذوه على أنفسهم من حيث الجلاء عن مصر فى خلال ثلاثة شهور ، بل إن رغبتهم فى الاحتفاظ بجزر الأيونيان وجزيرة مالطة لتدل دلالة واضحة على أنهم يبغون العودة فى المستقبل القريب إلى مصر واحتلالها مرة أخرى ؛ ثم أن إلجين شعر باستياء عظيم من ناحية السير سدنى الذى تجاهل دعوته للمساهمة فى المفاوضة ، حتى أن اللورد ما لبث أن اتهم السير سدنى بأنه كان « يعمل ضد نفوذه » . أضف إلى هذا كله أن السير سدنى رضى بتضحية

العثمانيين حلفاء الانجليز لسبب مبالغته فى اعتبار الفرنسيين أصحاب بسالة وبطولة تقتضيه أن يحفظ لهم شرفهم العسكرى ، كما أنه أنهى الحرب فى مصر دون أن يتدبر منع الجيش الفرنسى العائد إلى وطنه من الاشتباك مع الانجليز وحلفائهم فى ميادين أخرى ، ودون أن يوضح للعثمانيين أنفسهم أن عليهم التزامات معينة نحو حلفائهم الانجليز ؛ ودون أن يحصل منهم على أى تعهد بضرورة المثابرة على بذل كل ما فى وسعهم من جهد إلى جانب حلفائهم فى القضية المشتركة ضد فرنسا ، مما يتعارض جميعه وما كان يفهمه إلجين نفسه عن حقيقة المهمة التى أوفد من أجلها إلى سفارة القسطنطينية ، وقوامها « تأييد المحالفة الثلاثية حتى تثمر فائدتها فى مواصلة الحرب ضد فرنسا ، ثم العمل على تعزيز الميول بحارية ، ثم دعم الودية الموجودة الآن فى الامبراطورية العثمانية نحو انجلترة ، وذلك بالحصول على مزايا النفوذ الانجليزى فى القسطنطينية بصورة تحرم فرنسا عند عقد الصلح من استعادة نفوذها السياسى فى تركيا بذلك التفوق الذى أفادت منه الأمة الفرنسية فى تشييد صرح عظمتها من الأزمنه السابقة إلى الوقت الحاضر[1] » .

وانتقد إلجين نشاط السير سدنى نقدا مرا ، وعده مسئولا عن هذه الأخطاء جميعها ذلك بأنه اتخذ لنفسه سلطات « الوزير المفوض » ، فطلب الهدنة ، ثم اقترح مبدأ الجلاء ، ثم أظهر تأييده لاتفاق العريش ، وصار من المتعذر عليه الآن أن يطلب من لأتراك أن ينكصوا على أعقابهم ، وأن يلغوا هذا الاتفاق وينقضوا عهودهم . ومع ذلك فقد كان السير سدنى سميث نفسه على حد قول إلجين ، أول من عمل على إثارة الشكوك والمخاوف فى نفس السفير الإنجليزى من ناحية الفرنسيين ، الذين قد يندمون على قبولهم الاتفاق ، ويعمدون إلى استئناف القتال ، ويحضرون إلى مصر مرة ثانية . بل إن السير سدنى كان متجنيا على اللورد إلجين عندما ادعى أنه وافق على جلاء الفرنسيين من مصر ، بالصورة التى تضمنها اتفاق العريش ، حتى أن إلجين ليجد لزاما عليه الآن ، على حد قوله فى رسالته إلى جرنفيل فى ٢٦ فبراير ١٨٠٠ ، أن يصرح جهرا وعلانية أنه لم يقترح شيئا من شروط الاتفاق بل ولا يعرف شيئا من أمر هذه المقترحات ذاتها حتى وقت وصول اتفاق العريش إلى القسطنطينية .

وواضح أن الجين عندما جهر بهذا القول إنما فعل ذلك مدفوعا بعامل الحنق والغيظ فحسب لأن الجين كان يعلم فى واقع الأمر ، منذ حضوره إلى القسطنطينية فى نوفمبر ١٧٩٩ ، أن ثم مفاوضات تدور بين العثمانيين والفرنسيين فى مصر ، وكان

---

(١) Ibid 44

ما عرفه من أمرها كافيا لأن يزعجه إزعاجا شديدا ، حتى كتب فى ذلك إلى جرنفيل خطابه المعروف فى ١١ نوفمبر ، فضلا عن أن مبدأ الجلاء عن مصر كان مطروحا على بساط البحث منذ وصول السير سدنى سميث إلى القسطنطينية فى ديسمبر من اليوم السابق . وقد تبودلت بشأنه المذكرات الكثيرة بين الروس والانجليز والعثمانيين ، حتى إن الجين نفسه عند قدومه لم ير من الحكمة فى أول الأمر أن يتدخل لتعطيل نقل جيش الحملة من مصر إذا تمت الموافقة بالسبل الودية على مبدأ الجلاء ، فرفض « الخدعة الحربية » ثم كتب فى ١٦ نوفمبر إلى حاكم الهند العام ينقل إليه أخبار المفاوضة التى اضطلع بها السير سدنى سميث لتخليص مصر من قبضة الفرنسيين لقاء شروط معقولة . ومما هو جدير بالذكر أن الجين عندما بعث بهذه الرسالة إلى الهند كان يؤمن بضرورة إبطال كل ما يبذله الفرنسيون من محاولات تكفل لهم البقاء والاستقرار فى مصر ، رعاية لمصالح الانجليز فى الهند ذاتها .

وعلى ذلك فإن الانجليز سوف يسخون ، بفضل ما لديهم من نفوذ كبير ، فى منح كل التسهيلات اللازمة لإخراج الفرنسيين من مصر « لأن استخلاص مصر من قبضة فرنسا ما هو — على حد قول الجين — إلا حلقة أخرى فى سلسلة تلك الانتصارات العظيمة التى أحرزها الجند (الانجليز) فى الهند حديثا » ومع ذلك فقد مضى الجين فى معارضته لاتفاق العريش ، حتى أنه كتب إلى اللورد كيث Keith أمير البحر الانجليزى فى ١٠ مارس سنة ١٨٠٠ يطلب إليه إرسال قوة بحرية إلى المياه المصرية أمام الاسكندرية رجاء أن يستطيع كيث فرض شروط جديدة — للصلح — على الفرنسيين [١] .

على أن كيث كان قد بلغه ، قبل وصول رسالة الجين إليه ، أوامر صريحة من حكومته تقتضيه أن يرفض أى اتفاق أو معاهدة بشأن الجلاء عن مصر ، طالما كان هـذا الاتفاق لا ينص على ضرورة أن يسلم الفرنسيون أنفسهم كأسرى حرب تسليما مطلقاً دون قيد أو شرط . والعلة فى ذلك أن الجين لم يكن وحده حامل لواء المعارضة ضد اتفاق العريش ، بل شاطرته الحكومة الإنجليزية مسئولية نقض هذا الاتفاق ، عندما تبدلت سياستها رويداً رويداً من العمل على إخراج الفرنسيين من مصر بأية صورة من الصور ، إلى الرغبة فى استبقاء جيش الشرق فى مصر ومحاصرته بها ؛ ذلك أن انتصار نلسن العظيم فى موقعة النيل (أو معركة أبى قير البحرية) سرعان ما بدد مخاوف الانجليز على ممتلكاتهم فى الهند من بقاء الفرنسيين واحتلالهم مصر ، وما إن وصلت أخبار هذا الانتصار إلى لندن فى ٢ أكتوبر ١٧٩٨ حتى فقد الاهتمام بشئون

(١) Ibid 45 — 7

مصر والشرق عموما مكانته القديمة ، وبات الإنجليز لايرضون الا بأمر واحد فحسب ، إما جلاء الفرنسيين عن مصر من غير قيد ولا شرط وتسليمهم كأسرى حرب ، وإما بقاؤهم محصورين فى دائرة فتوحهم الضيقة ، فيمنعوا من الاتصال بفرنسا حتى يفنوا فى هذه البلاد عن آخرهم ؛ وحصار الحملة فى مصر سهل هين لا يكلف الانجليز سوى ملاحظة منافذ البحرين الأبيض والأحمر ، كما أنه أقل خطورة ومشقة من السماح بعودة جيش الشرق إلى فرنسا ، واشتراكه فى المعارك الدائرة فى أوروبا .

واعتقد الانجليز منذ انتصارهم فى معركة النيل أن هذا الجيش قد أصبح تحت رحمتهم ، وزاد يقينهم عندما سقطت فى أيديهم رسائل جيش بونابرت التى بعث بها الجنود والضباط الى أهليهم وذويهم ، فصادرها اسطول نلسن الرابض فى البحر الأبيض قبل أن تصل إلى أصحابها ، وانتهى الإنجليز من قراءتها إلى أن جيش الشرق قد بات بسبب مالقيه من صعوبات لايستطيع دفع هجوم العدو عليه ، وبلغت استهانة الإنجليز بجيش الشرق لذلك حدا جعل نلسن يعلق على هذه الكتب عند إرسالها إلى لندن بأسلوب ملؤه الهزء والسخرية[1] ؛ ثم رسخ اعتقادهم بأن مصير جيش الشرق إلى الهزيمة لامحالة عندما جاءتهم الأخبار عن رحيل بونابرت إلى فرنسا ، فاعتبروا هذا الرحيل « هروبا » ، وعدوه دليلا جديداً على أن نهاية جيش الشرق فى مصر قد قربت . وما إن صادر الإنجليز بعد ذلك تقرير ٢٦ سبتمبر الذى بعث به كليبر إلى حكومة الإدارة حتى تأيد لديهم أن « الحملة » سوف تهلك عاجلا ، ويتلاشى ذكرها وسط كارثة مروعة ، وعلى ذلك فقد اعتبر الانجليز رغبة الفرنسيين فى المفاوضة من أجل الجلاء والعودة إلى الوطن دليلا على الهزيمة واعترافا ظاهراً بها .

وفى أثناء نشوة « الانتصار » هذه وصلت إلى لندن فى يومى ٨ ، ٩ ديسمبر ١٧٩٩ رسائل سبنسر سميث واللورد الجين فى موضوع (جوازات المرور) التى يطلبها الأتراك لتسهيل عودة جيش الشرق إلى فرنسا . فأصدرت الحكومة قرارها فى ١٢ ديسمبر ، بعدم السماح للفرنسيين بإخلاء البلاد ، فاذا كان الجين قد وافق على خروجهم فمن الواجب أن تصدر الأوامر إلى اللورد كيث حتى يرغم الفرنسيين على العودة إلى مصر ثانية . وفى ١٥ ديسمبر صدرت الأوامر إلى اللورد كيث ألا يوافق بحال من الأحوال على عودة جيش الشرق إلى فرنسا ، أو على تسليم هذا الجيش إلا إذا سلم أفراده كأسرى

---

(١) Nelson III 99

حرب للدول المتحالفة ، فإذا ظهر أن السفير الانجليزى فى القسطنطينية قد وافق على إعطاء جوازات المرور لهذا الجيش قبل أن يعرف رغبات حكومته ، فالواجب يقتضى اللورد كيث عندئذ أن يرفض الاعتراف بصحة هـذه الجوازات ، وأن يرغم السفن المزودة بها على العودة ثانية إلى الأسكندرية (١) . وقد بسط جرنفيل وجهة نظر الحكومة الانجليزية فى هذه المسألة ؛ وفحواها أنه لا مناص من اشتراك الدول المتحالفة فى قبول تسليم العدو ، ولا يصح لأحد أعضاء المحالفة أن يتفق « منفردا » مع العدو عند تسليمه ، وهل يستطيع الأتراك على حد قوله « أن يجيزوا لأنفسهم الاتفاق منفردين على « تسليم » مع العدو على حدة ، بينما يرجع إلينا وحدنا الفضل فى إرغام هذا العدو على التسليم ؟ فاما أن يكون الأتراك حلفاء للانجليز وهم فى هذه الحالة لا يستطيعون العمل من غير أن نشترك فيه معهم ، وإما أن يكونوا غير حلفاء لنا وعندئذ لن يستطيعوا تقييد الانجليز بأى عمل يأتونه هم من جانبهم فقط » . ولا مراء فى أن هذه كانت حجة قانونية سليمة ، ولـكن العيب كل العيب فيها أنها جاءت متأخرة ، وكان الواجب إعلانها عند بدء المفاوضة بين الأتراك والفرنسيين ، أى من تسعة شهور سابقة على الأقل . وفضلا عن ذلك فإن الجهر بهذا القول الآن معناه تجاهل كل ماوقع من حوادث فى أثناء هذه الشهور الطويلة ، لوجود السير سدنى سميث فى مياه الليفانت وهو لا يزال مزودا بالسلطات الدبلوماسية التى أعطاه إياها جرنفيل نفسـه وخولته حق المفاوضة ، كما كان السير سدنى يتمتع بقيادة بحرية « شبه مستقلة » ، وله على الأقل وقتئذ بحكم الواقع فعلا حق التدخل فى عمليات العثمانيين العسكرية . أضف إلى ذلك كله أن السلطات فى لندن ما كانت تجهل نوع « الحل » الذى يفضله السير سدنى على سواه ، لإنهاء المشكلة القائمة ، وقوامه تسليم الفرنسيين بمبدأ إخلاء مصر والجلاء عنها بكل سرعة ومن غير حاجة إلى إراقة الدماء إذا كان ذلك ممـكنا (٢) .

ولذلك فإن هذه القرارات التى اتخذتها الحـكومة الانجليزية . والأوامر والتعليمات التى أصدرتها فى غضون الأسبوعين الأولين من شهر أغسطس ، إنما تدل دلالة واضحة على أن موقف هذه الحـكومة فى مسألة بقاء جيش الشرق فى مصر أو جلائه عنها كان مفضيا ولا شك إلى تعطيل إتفاق العريش عند إبرامه ، وذلك قبل عقد هذا الاتفاق بأربعين يوما على الأقل .

---

(١) Barrow I 9 — 11

(٢) Charles -Roux. II. 47

وواقع الأمر أن معارضة الانجليز ضد هذا الاتفاق ما لبثت أن زادت شدة على شدتها ، وكان اللورد نلسن فى زمرة أولئك الذين تسببوا فى إخفاقه ، ذلك أنه كان يكره بونابرت كراهية عظيمة حتى سماه « بالشريد » ، واعتقد أن هلاكه قد بات وشيك الوقوع بعد تحطيم أسطوله فى أبى قير ثم انسحابه من عكا ، [١] ثم طفق يؤكد لسبنسر سميث واللورد الجين بمجرد أن وصله خبر المفاوضات أن الفرنسيين فى مأزق لا يرجى خلاصهم منه ، وأنه لا يمكن أن يصدق أنهم يبغون حقيقة إخلاء مصر ، « وحتى إذا رغبوا فى ذلك فانه لن يسمح لفرنسى واحد بالعودة إلى أوروبا ورحى الحرب فى هذه القـــارة لا تزال دائرة ، بل سيتركهم يفنون فى مصر جميعا حتى يصبحوا عظة وعبرة لغيرهم ، ويقرأ العالم فيما نزل بهم درساً من دروس العدل الإلهى [٢] » . وكان نلسن قد رفض منذ ١٨ مارس ١٧٩٩ أن ينال الفرنسيون جوازات مرور حتى تحملهم سفنهم بسلام إلى بلادهم ، وأصدر فى ذلك أوامر قاطعة إلى السير سدنى حتى لا يسمح لفرد منهم بمغادرة الأراضى المصرية [٣] . وما إن عرف بعد ذلك أن المفاوضات قد قطعت شوطاً بعيداً ، وأن البحث يدور حول إعطاء جوازات المرور لجيش الشرق ، حتى كتب إلى السير سدنى فى ١٥ يناير ١٨٠٠ [٤] مصراً على عدم إعطاء أية جوازات للفرنسيين . وكان كل ما اهتم به أن يعجل الصدر الأعظم بزحفه على مصر حتى تبدأ تلك المعركة التى ما كان نلسن يشك فى أنها سوف تنتهى بتحطيم الفرنسيين تحطيما تاماً [٥] .

وهكذا تضافرت عوامل عدة على نقض اتفاق العريش ، ووقع على كاهل اللورد كيث إبلاغ كليبر تعليمات حكومته ، وكانت هذه التعليمات قد وصلته فى أوائل يناير ١٨٠٠ ؛ فأعد رسالة إلى كليبر فى اليوم الثامن من يناير ، ذكر فيها هذه التعليمات ، على أن يقوم السير سدنى بإيصال هذه الرسالة إلى كليبر فى مصر ، وكتب كيث خطاباً آخر إلى السير سيدنى فى ١٠ يناير ، وقد تسلم سيدنى سميث هذه الرسائل وهو بقبرص فى ٢٢ فبراير ١٨٠٠ ، أى بعد انقضاء شهر تقريباً على عقد اتفاق العريش [٦] ؛ أما كيث فقد كتب إلى كليبر : « إنه بناء على ماوصله من أوامر

---

(١) Nelson III 451

(٢) Ibid IV 157 — 8

(٣) Ibid III 296

(٤) Ibid IV 179

(٥) Ibid 153

(٦) Berthier 354; Barrow II 9

قاطعة من حكومته بصدد عدم قبول أى اتفاق مع الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال كليبر فى مصر وسوريا إلا إذا ألقى هذا الجيش سلاحه وسلم جنده كأسرى حرب ، ثم ترك للدول المتحالفة كل السفن والذخائر الموجودة فى مينائى الاسكندرية وفى المدينة ذاتها ، وعدم السماح لأحـد من الجند عند حدوث الاتفاق بالعودة إلى فرنسا إلا على قاعدة تبادل الأسرى ، لذلك يرى (اللورد كيث) من واجبه أن يذكر للجنرال كليبر أن جميع السفن التى تبحر من هذه البلاد محملة بالجنود الفرنسيين ومزودة بجوازات للمرور تحمل توقيع أناس غير أولئك الذين من حقهم وحدهم أعطاؤها سوف يرغمها ضباط البحر تحت قيادته على العودة إلى الاسكندرية كما أن السفن التى يعثر عليها فى طريق عودتها الى أوروبا مزودة بجوازات للمرور بناء على اتفاق خاص (بين الفرنسيين وبين إحدى الدول المتحالفة) سوف تضبط كغنائم حرب ويعتبر الجنود الذين تحملهم هذه السفن أسرى حرب » (١) . وعندئذ كان قد بات واضحاً أن كل ماظل يبذلهسدنى سميث على وجه الخصوص طوال الشهور الماضية من جهد وحيلة لإخراج الفرنسيين من مصر دون حاجة إلى الاشتباك معهم فى معارك جـديدة إما لإرغامهم على التسـليم كأسرى حرب ، وإما لإفنائهم وإبادتهم ، قد ذهب جميعه سدى وباءتسياسته بالفشل (٢) . وفضلا عن ذلكفقد ظهر الآن كأنما قد تعطل أمر الفصل فى مسألةالحملة الفرنسية فى مصر فترةأخرى من الزمن . بيد أن سدنى سميث الذى احتضن اتفاق العريش وكان حريصاً على نجاحه مالبث أن جدد سعيه بكل همةونشاط كى يحمل حكومته على قبول هذا الاتفاق وتنفيذه .

استئناف القتال ومعركة هليوبوليس :

ويرجع اعتقاد سدنى سميث بإمكان إخراج الفرنسيين من مصر دون حاجة إلى الاشتباك معهم فى معارك جديدة إلى الوقت الذى وصل فيه إلى القسطنطينية فى أواخر عام ١٧٩٨ ، أى بعد أن أحرز نلسن انتصاره الحاسم فى موقعة أبى قير البحرية ، وكشفت الرسائل التى صادرها الانجليز فى البحر عن مبلغ ما وصل إليه حال جيش الشرق فى مصر من ضعف وسوء أفقده فى نظر الانجليز كل قدرة على المقاومة ما لم تصله نجدات جديدة من فرنسا ، اطمأن السير سدنى سميث إلى تعذر إرسالها إليه بفضل يقظة الأسطول الانجليزى فى البحر الأبيض . وفضلا عن ذلك فقد كان الأتراك

(١) Pièc. Diver. 305 — 6

(٢) Charles - Roux II 52

أنفسهم — على نحو ما تبين للسير سدنى فى أثناء مفاوضاته معهم من أجل عقد المحالفة المعروفة فى شهر يناير من العام التالى — حريصين كل الحرص على ضرورة إخراج الفرنسيين من مصر بكل سرعة ؛ يدفعهم إلى ذلك على وجه الخصوص أن الإنجليز لم يكن فى نيتهم وقتئذ إرسال أية قوة برية للاشتراك فى العمليات العسكرية ، مكتفين بدلا من ذلك بوضع جزء من أسطولهم فى مياه المشرق فحسب . وعلى ذلك فقد سهل الاتفاق فى المؤتمرات التى حضرها وزراء الباب العالى والمندوب الروسى تمارا إلى جانب السير سدنى على تقرير مبدأ ترحيل الجيش الفرنسى إلى بلاده عند سنوح الفرصة الملائمة . ومنذ اتخاذ هذا القرار فى أوائل مارس ١٧٩٩ تقدم البحث فى مسألة عودة جيش الشرق إلى فرنسا بخطوات واسعة حتى إن السير سدنى ما لبث أن أعد فعلا صورة جوازات المرور التى تعطى لأفراد هذا الجيش عند ترحيلهم[١] .

وقد سبق كيف أن نلسن رفض فى ١٨ مارس أن يحصل الفرنسيون على جوازات المرور ، وأصدر فى ذلك أوامر قاطعة إلى السير سدنى[٢] ، بيد أن سدنى سميث ماوقف منذ شهر أكتوبر على حقيقة المفاوضات الدائرة بين الأتراك والفرنسيين حتى اعتزم التدخل بنفسه فى هذه المفاوضة ، فأثار بعمله هذا جدلا كبيراً حول حقه فى التدخل وإشرافه على سير المفاوضة[٣] . وكان اللورد إلجين أول المعترضين على تسمية السير سدنى نفسه « وزيراً مفوضاً لدى الباب العالى » بمقتضى ما أعطى إليه وإلى أخيه سبنسر سميث من سلطات خولتهما حق المفاوضة ، والاتفاق على نصوص معاهدة التحالف التى أبرمت مع العثمانيين فى ٥ يناير ١٧٩٩ . حقيقة ألغى مجىء السفير الجديد إلى القسطنطينية هذه الحقوق منذ نوفمبر من العام نفسه . ولكن وجود السير سدنى فى مكان المفاوضة — سواء كان ذلك فى العريش أم فى غيرها — وبعد اللورد إلجين عن مكانها ، ثم ما فعله اللورد إلجين نفسه من حيث تخويله السير سدنى حق الاتفاق فى مسألة جوازات المرور فى ١٧ نوفمبر ، وارتياح الصدر الأعظم إلى سير المفاوضات بإرشاد السير سدنى وتوجيهه لثقته العظيمة به ، ثم عدم صدور أية أوامر من جانب حكومته تمنعه من الاشتراك فى المفاوضة ، كل ذلك كان من أثره أن يظل السير سدنى ماضياً فى شأنه . وفضلا عن ذلك فقد اعتبر الفرنسيون أن من حقه المفاوضة بفضل

---

(١) Nelson III 336

(٢) Ibid 296

(٣) Pièc. Diver. 350 et sqq; Pièc. Offic 178 et sqq; Charles-Roux. II. 15 et sqq.

ما لديه من تعليمات تخوله ذلك ولأنه بوصفه قائداً للقوات البرية والبحرية الإنجليزية فحسب كان لديه من السلطات اللازمة ما يخوله حق المفاوضة[١] .

وعلى كل حال فقد مضى السير سدنى فى طريقه لا يأبه لاعتراضات المعترضين ، حتى ظفر ببغيته وتم اتفاق العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ على نحو ما سبق ذكره . وصح عزم السير سدنى على مقاومة كل نفوذ يرمى إلى هدم الاتفاق ونقضه عند ما تبين له اشتداد حملة المعارضة ضده[٢] ، فكتب إلى نلسن من المعسكر العثمانى بعد ستة أيام فحسب من عقد اتفاق العريش ، يرد على رسائل أمير البحر الإنجليزى التى منعه فيها من إعطاء جوازات المرور للفرنسيين ، ويبسط الأسباب التى دعته إلى قبول الاتفاق فقال : « إنه لما كانت عملياتنا الكبرى فى هذه الجهات إنما تستهدف استعادة مصر وإرجاعها الى حلفائنا وتأمين الممتلكات البريطانية فى الهند ، وكل هذه فوائد تتطلب للوصول اليها تضحيات كبيرة ، فإنى لا أشك بتاتا فى أنكم سوف توافقوننى على أن هذه المفاوضات قد حققت أقصى ما قد يرجو الإنسان بلوغه فى حرب — مع عدو — من المتعذر أن يكون غرضها تحطيم عدو متصف بالشجاعة والبسالة ، أو إلحاق العار به وإهانته من غير حاجة الى ذلك ، فضلا عن أنه مما يجب أن يذكره المرء دائما أن الجيش المدرب الذى عركته التجارب مهما اشتد تذمره من الحال التى هو عليها فإن اليأس سوف يجعله يحتفظ طويلا ببلاد منعزلة تشق القنوات العديدة أرضها وتكثر بها السدود حتى إنه ليتعذر الدخول إليها[٣] ... »

وما إن وصلته فى قبرص رسالة اللورد كيث إلى كليبر حتى بادر بارسالها مع أحد ضباطه إلى القائد الفرنسى ، وحمل السير سدنى هذا الرسول خطابا آخر منه إلى كليبر فى اليوم نفسه (٢١ فبراير) ، كان بمثابة اعتذار عن سياسة حكومته التى أفضت إلى نقض اتفاق العريش . واستند سدنى سميث عند تلمس الأعذار لفعلة حكومته إلى أن الأوامر التى أرسلت إلى اللورد كيث بين ١٥ ، ١٧ ديسمبر من العام السابق كانت قديمة . ولامراء فى أن الحكومة إنما بعثت بها إليه وهى لاتزال تعتقد أن المفاوضة كانت تجرى بين الأتراك والفرنسيين وحدهما ودون أن يشترك فيها حلفاء العثمانيين ، كما أرادت الحكومة من هذه الأوامر أن تمنع تنفيذ أية اتفاقات لاتقرها

---

(١) Pièc. Offic. 197

(٢) Ibid 253

(٣) Barrow II 5 — 8

معاهدة التحالف القائمة وتتعارض معها . ثم مضى السير سدنى يقول : أما وقد ذاع أمر الاتفاق وعرف الجميع به ، فهو لا يشك فى أن قرار الحظر المفروض على السفن المعدة لنقل الجيش سوف يرفع قبل وصولها ، وأنه أى السير سدنى سوف يبذل كل ماوسعه من جهد وحيلة لتأييد الاتفاق ، ويعتذر عن التأخير الذى حدث فى إبلاغ هذه الأوامر إلى كليبر بطول المدة التى تعطلت الخطابات فى أثنائها فى الطريق ، ويطلب إلى القائد الفرنسى بقاء الأمور على ما كانت عليه عند بدء المفاوضة ، إذا كان الفرنسيون لم يشرعوا بعد فى إخلاء بعض مراكزهم فى البلاد ، وذلك لحين وصول أوامر أخرى من الحكومة الإنجليزية مناسبة للظروف الحالية . وذكر السير سدنى فى ختام كلامه أنه يعتزم الحضور بنفسه سريعاً أمام الإسكندرية حتى يتسلم جواب كليبر على رسالته(١) .

وغادر السير سدنى قبرص . وعند وصوله إلى الإسكندرية كتب إلى بوسيلج فى ٨ مارس ١٨٠٠ — وكان بوسيلج لا يزال بالاسكندرية — يصف الصعوبات التى يضعها رؤساؤه فى طريق أى اتفاق من طراز اتفاق العريش لمنع تنفيذه ، ويحاول إقامة الحجة على صدق نياته بعدم وصول أية تعليمات مخالفة من حكومته فى أثناء المفاوضة ، ذلك بأن أوامر حكومته الأخيرة إنما كانت مؤرخة فى ١٠ يناير ، ولم تبلغه فى قبرص إلا يوم ٢٢ فبراير فقط . ولذلك فإنه يرى لزاما عليه أن يطلع الفرنسيين على حقيقة الموقف ، ويعد فى الوقت نفسه بأن يبذل قصارى جهده فى إقناع حكومته بأن ما تم الاتفاق عليه كان عملا حكيما . ولدى السير سدنى من الأسباب ما يجعل أمله فى النجاح قويا(٢) .

وكان غرض السير سدنى من محاولة إشاعة روح الطمأنينة فى نفوس الفرنسيين ، على الرغم مما كانت تحمله أوامر حكومته الأخيرة من معنى التحدى والاستفزاز ، أن يمنع استئناف القتال بين الفرنسيين والأتراك . وذلك لإدراكه أن نجاح جهوده من أجل الحصول على موافقة حكومته على اتفاق العريش وتنفيذ سياسته إنما يتوقف على منع حدوث أى اشتباك بين جيش الصدر الأعظم وكليبر .

ولذلك فقد كتب(٣) إلى اللورد إلجين منذ ٢٠ فبراير يرجوه « أن يتعاون معه فى منع استئناف القتال » . وطلب إلى القبطان باشا أن يرسل على جناح السرعة

---

(١) Berthier 354 — 5

(٢) Pièc. Offic. 255 — 6; Pièc. Diver. 405 — 6

(٣) Barrow II. 19

النقالات اللازمة لحمل جيش الشرق من الاسكندرية ، وفضلا عن ذلك فقد أعلن السير سدنى — حتى يؤكد للفرنسيين حسن نيته — أنه لن يتردد فى تنفيذ اتفاق العريش من الناحية التى تخصه « فلا يمنع أى مركب فرنسى يغادر الشواطىء المصرية ، ولو أنه لا يستطيع أن يعطى ضمانا عن مسلك سائر السفن الإنجليزية الخاضعة لقيادته حيالها » وبالفعل استطاع كل من دوجا وديزيه وبوسيلج وسائر صحبهم مغادرة الاسكندرية[١] بل إن السير سدنى مالبث أن حاول الاجتماع بالجنرال كليبر للاتفاق معه على هدنة . ولكنه لم يستطع مغادرة بارجته (تيجر) ، كما أن كليبر لم يستطع مغادرة القاهرة .

وطفق السير سدنى من ناحية أخرى يعمل لاستمالة معارضى الاتفاق من مواطنيه الانجليز . فظل طوال شهرى فبراير ومارس ١٨٠٠ يبعث بالكتب إلى الجين ونلسن وإلى وزارة البحرية الانجليزية ، حتى يقروا « حلا » يكفل خروج الفرنسيين من مصر ، دون حاجة إلى إراقة دماء جديدة ، على نحو ما تضمنه اتفاق العريش[٢] . ولعل أهم هذه الكتب كان كتابه إلى نلسن فى ٨ مارس ، ثم كتابه إلى اللورد كيث فى ١٣ مارس، فقد حاول فى كتابه الأول أن يلقى مسئولية (الاتفاق) على عاتق اللورد الجين عندما أخذ يقول : « إنه لما كان اللورد قد أكد على بضرورة إنهاء هذه المسألة وقبل كل شىء منع الفرنسيين من كسب الوقت ، ثم طلب إلى فى الوقت نفسه أن أترك العثمانيين يدبرون شئونهم بالطرق التى تحلو لهم ، فإنه لم يعد فى استطاعتى إذن فعل شىء سوى قبول ذلك الوعد الذى أعطاه الصدر الأعظم للجنرال كليبر فى رده الأول عليه فى أكتوبر ١٧٩٩ . وفحواه أنه فى إمكان الجيش الفرنسى أن ينسحب بأسلحته على سفنه وغير ذلك من السفن التى يقدمها له الباب العالى عند الحاجة إليها[٣] » .

وحاول السير سدنى فى رسالته الثانية أن يستميل اللورد كيث إلى جانب أولئك الذين ساهموا جديا فى إتمام الاتفاق على أساس الجلاء عن مصر ، فامتدح كليبر لنبوغه العسكرى ولفضائله وحسن شمائله ، وأثنى على بوسيلج لتمسكه بالمبادىء والآراء الحرة ، ثم قال : « ولم يدر بخلدى بتاتا أننا قد نعمد إلى وضع عقبات فى طريق اتفاق لاشك فى أنه يفيدنا كثيراً ، ومن الواضح أنه ما كان يمكن الوصول إليه على أى أساس آخر

(١) Pièc. Offic 89 — 94

(٢) Barrow I 384 — 91; II 19 — 36

(٣) Ibid II. 23 — 5

مع جيش مدرب حنكته التجارب ولم تنزل الهزيمة بساحته ، ومن المتعذر أن يقبل هذا الجيش التسليم كأسرى حرب[١] » .

وأثمرت جهود السير سدنى سميث فى لندن عندما وصلت أخبار اتفاق العريش إلى العاصمة فى غضون شهر مارس ١٨٠٠ وانقسم الرأى بصدد هذا الاتفاق فوافق فريق عليه ، على الرغم من شدة معارضة أولئك الذين أغضبهم « جنون » السير سدنى حتى إنه رضى بعودة جيش الشرق إلى أوروبا ، ولم يترك « عصبة من اللصوص وقطاع الطرق » — على حد قول اللورد نلسن — يهلكون فى مصر . واستند مؤيدو الاتفاق إلى ماجاء فى رسالة بعث بها اللورد كيث نفسه إلى وزارة البحرية الانجليزية فى أول مارس . من ذلك أن السير سدنى كان الضابط الذى وجد فى ميدان العمل ، ولانزاع فى أنه كان يستطيع إعطاء العدو مايراه من شروط ملائمة تصون المصلحة ، فضلا عن أن اللورد الجين لم يقتصر على التفكير فى ضرورة إخراج الفرنسيين من مصر ، بل أوصى كذلك توصية شديدة بلزوم إنجاز الاتفاق من أجل إخراجهم ، ووافق على ذلك أيضاً « السفير الروسى » رسمياً[٢] .

ولما كان من المتعذر على الحكومة أن تنقض عملا قام به أحد رجال الدولة ، لما فى ذلك من الإساءة إلى سمعتها ، وإضعاف الثقة بها ، والانتقاص من هيبتها فى نظر حلفائها وأعدائها على السواء ، فقد اقتنع جرنفيل وزير الخارجية بضرورة الامتناع عن أي عمل قد يتعارض مع التعهدات « التى التزمها السير سدنى سميث خطأ باسم حكومة صاحبة الجلالة » . فكتب فى ذلك إلى اللورد الجين فى ٢٨ مارس ، وطلب إليه أن يعمل بالاتفاق مع الباب العالى حتى يتم إعداد جوازات المرور اللازمة للجيش الفرنسى ، على أن يظل الإنجليز حلفاء للباب العالى فحسب ، ولا يكونوا طرفاً فى المعاهدة ، وعلى أن يحترم الإنجليز هذه الجوازات كذلك . بل طلب إليه ، علاوة على ماتقدم ، أن يلفت نظر العثمانيين والروس إلى ضرورة تنفيذ الاتفاق الذى تم الارتباط به مع العدو بكل أمانة ، إذا شاهد من هؤلاء نزوعاً إلى القيام بعمل عدائى ضد الفرنسيين ، قبل أو بعد خروجهم على ظهر السفن التى تنقلهم إلى بلادهم[٣] وفى ٢٩ مارس صدرت أوامر وزارة البحرية الإنجليزية بهذا المعنى إلى اللورد كيث ،

(١) Ibid I 384 — 9

(٢) Ghorbal 117; Nelson IV 213

(٣) Barrow II 13 — 4

ولو أن هذه الوزارة كانت لا تزال مصرة على أن السير سدنى سميث لم يكن مزوداً بسلطات تخوله الحق فى عقد اتفاق من هذا القبيل ؛ بل إن الحكومة — كما مضت هذه التعليمات تقول : لم تقبل اتفاق العريش إلا لاعتبار واحد ، هو أن « قائد جيش العدو ، قد عامل السير سدنى على ما يبدو كشخص اعتقد القائد الفرنسى عن حسن نية أنه كان مزوداً بالسلطات التى تخوله الحق فى إبرام هذا الاتفاق(١) » .

وسواء أكان السير سدنى مزوداً بهذه السلطات أم كانت وزارة البحرية على حق فى دعواها ، فقد نجح سدنى سميث بعد لأى وعناء فى الوصول إلى غرضه ، ولكن هذا النجاح لم يسفر عن نتيجة ، لأن موافقة الحكومة الإنجليزية على اتفاق العريش جاءت متأخرة ، إذ كان كليبر قد اشتبك مع العثمانيين فى معركة كبيرة فى ٢٠ مارس أى قبل صدور أوامر الحكومة الإنجليزية بأسبوع تقريباً ولم تفد شيئاً محاولات السير سدنى سميث فى منع استئناف القتال بين جيش الشرق وجحافل الصدر الأعظم .

فقد شرع كليبر ينفذ اتفاق العريش عقب عقده مباشرة ، فنقل عتاد الجيش وذخائره إلى الإسكندرية حيث كان يجرى العمل على قدم وساق استعداداً للرحيل ، وشرع الجيش فى إخلاء الصعيد ، كما نزح عن مراكز عدة فى الوجه البحرى ما لبث العثمانيون أن احتلوها فى القطية والصالحية وبلبيس ودمياط وعزبة البرج ، وأحضر يوسف ضيا الصدر الأعظم جيشه إلى بلبيس ، بينما رابطت طلائعه فى الخانكة على بعد أربع ساعات من القاهرة ، وكان الفرنسيون على وشك إخلاء القلعة وسائر حصون القاهرة ، عند ما بلغت كليبر رسالة السير سدنى من قبرص تنبئه بصدور الأوامر إلى الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض أن يحول دون تنفيذ اتفاق العريش . وأمام هذا التحول المفاجىء لم يجد كليبر مناصا من وقف عملية الإخلاء واتخاذ طائفة من التدابير العاجلة لدرء الخطر الذى يتهدده من انتشار العثمانيين فى قسم كبير من البلاد ، فأمر جند الرحمانية ورشيد بالحضور إلى القاهرة ، وشدد على جند الصعيد لكى يسرعوا بالمجىء إلى العاصمة ، وعسكرت القوات الفرنسية فى منبسط القبة ، وأرسل كليبر صورة من كتاب اللورد كيث إلى الصدر الأعظم ، وأعلنه بأنه قد قرر تأجيل إخلاء القاهرة ، ويعتبر زحف الجيش العثمانى الرابض فى بلبيس عملا عدوانيا(٢) .

على أن الصدر الذى كان يتشوق إلى دخول القاهرة رفض أن يتريث فى الأمر ، فزحف بجيشه على الخانكة ، ثم ما لبثت طلائعه أن وصلت الى المطرية على مسافة

---

(١) Nelson IV 215 — 7 (Note 1)
(٢) Pièc. Offic 110 — 148

ساعتين من القاهرة ، بينما اتخذت قواته الأمامية مواقعها فى سهل القبة بين المراكز الفرنسية ذاتها . وعندئذ وجد كليبر لزاما عليه فى ١٢ مارس أن يطلع جنوده على حقيقة الموقف ، وتوقع تعطيل تنفيذ اتفاق العريش « بعض الوقت » ، ولو أنه عزا ذلك الى تغيير حدث فى قيادة الأسطول الانجليزى(١) . ثم حاول فى الأيام التالية بين ١٥ ، ١٨ مارس أن يصل إلى تفاهم مع العثمانيين على أساس أنه يتعذر التسليم بإخلاء القاهرة ، قبل أن تصل موافقة رؤساء الأسطولين الانجليزى والروسى فى البحر الأبيض على معاهدة العريش ، وأنه لا مناص لذلك من بقاء جميع القلاع فى العاصمة وفى الوجه البحرى عموما فى حوزة الفرنسيين حتى تأتى هذه الموافقة . ولكن الأتراك الذين توهموا على حد قول كليبر أن « هذه العروض المتواضعة » دليل على ضعف الفرنسيين ، وأن هؤلاء يعجزون عن صد جيوشهم ، سرعان ما رفضوها . وتمسك الصدر بضرورة إخلاء القاهرة حسبما نص عليه الاتفاق ، علاوة على إخلاء جميع القلاع واخلاء الوجه البحرى كذلك(٢) .

واستند الأتراك فى ذلك على أن رفض الحكومة الانجليزية لا أهمية له ، وغير ملزم لهم مادام الباب العالى نفسه قد وافق على المعاهدة(٣) ثم زاد الموقف حرجا عندما استمر الأتراك فى استعداداتهم فأحضروا مدافعهم من العريش ، كما جاءتهم الامدادات من المنصورة والمنوفية والغربية والقليوبية والشرقية ، بل إنهم لم يقنعوا بذلك فطفقوا يوزعون المنشورات فى طول البلاد وعرضها ضد الفرنسيين « الكفار أعداء الدين الإسلامى ، الذين لا يرعون عهدا ولا ذمة » . ويؤسسون مراكز لتحريك الثورة عليهم فى القاهرة والمحلة الكبرى ودمياط . وأمام هذا الخطر الداهم إذن اضطر كليبر إلى اتخاذ العدة لمناجزتهم قبل أن يستفحل أمرهم ويستطير شرهم ، فنشر على الجند فى ١٨ مارس خطاب اللورد كيث ، وعلق عليه بقوله : «ولا يسع المرء أن يرد على هذه الإهانات إلا بإحراز النصر فاستعدوا للمعركة(٤) » .

ومنذ أن صح عزم كليبر على قتال الأتراك شرع يتدبر خطة المعركة المقبلة وكان عليه أن يختار أحد أمرين ما البقاء فى القاهرة وانتظار الصدر الأعظم بها ، وإما التقدم للالتحام مع العثمانيين فى معركة حاسمة ، وفضل كليبر الخروج لمقابلة العدو ، فما وافت

---

(١) Bricard 397

(٢) Pajol 465 — 8

(٣) Pièc. Offic. 115 — 6

(٤) Galland I 247 — 8; Ibid 68 — 9

الساعه الثانية من صبيحة يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠ حتى بدأ الجند يخرجون من ثكناتهم بكل سكون فى صورة مربعات ، يتولى الجنرال فريان قيادة مربعى الميمنة ، والجنرال رينييه مربعى الميسرة ، بينما تبعهم كليبر وأركان حربه ؛ وبقى الجنرال فردييه بالقاهرة للدفاع عنها . وزحف الفرنسيون صوب المطرية حيث أقام ناصف باشا ابن الصدر الأعظم على رأس قوة كبيرة من الانكشارية ، فبدأت من ثم معركة هليوبوليس وامتد ميدانها من المطرية حتى جهات الصالحيه ، وأوقع الفرنسيون بالأتراك هزيمة منكرة [1] . ولما كان نصوح باشا أحد القواد العثمانيين قد استطاع فى أثناء المعركة الافلات من الفرنسيين ، والدخول بفرسانه إلى القاهرة معلنا هزيمة الفرنسيين فقد أرسل كليبر فى أثره بعض القوات بقيادة فريان ودونزيلو Donzelot ، بينما أقبل هو على تشتيت البقية الباقية من فلول العثمانيين . فزحف على الصالحية رجاء أن يعثر بها على الصدر الأعظم ؛ ولكن يوسف ضيا كان قد أخلى معسكره على عجل عندما شاهد انهزام جيشه ، فلم يجد الفرنسيون عند وصولهم سوى خيام العثمانيين وعتادهم مبعثراً فى كل مكان . وعندئذ قصد كليبر القاهرة ، وكانت القاهرة فى أثناء ذلك كله مسرحا لثورة عاتية [2] .

ذلك أن القاهريين الذين ظلوا يتربصون بجيش الشرق الدوائر ، سرعان ما أيقظهم من نومهم دوى المدافع صبيحة يوم المعركة ، فهبوا من رقادهم مذعورين ، « ولم يدركوا حقيقة الحال » فكثر منهم « اللغط والقيل والقال » حتى إذا تبين لهم أن الحرب دائرة بين الفرنسيين وبين العثمانيين و« الأمراء المصريين » الذين صحبوا جيش الصدر فى زحفه إلى الخانكة والمطرية ، « هاجوا ورمحوا إلى أطراف البلد وقتلوا أشخاصاً من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا إلى أصحابهم ، وذهبت شرذمة من عامة أهل مصر فانتهبت الخشب وبعض ما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان عرضى الفرنساوية ، وخرج السيد عمر افندى نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى وانضم إليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر ... وتبعهم كثير من عامة أهل البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح . وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات ، وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطارف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب

(١) Berthier 397 — 410; Pajol 469 Sqq; Ader 308 — 11

(٢) Reybaud VIII 373 — 95

بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم ، وقام الكثير منهم إلى خارج البلدة على تلك الصورة . . . ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياح وجلبة . . . وخلفهم إبراهيم بك ، ثم أخرى وخلفهم سليم أغا ، ثم أخرى كذلك وخلفهم عثمان كتخدا الدولة ، ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم ، وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بك الجداوى وعثمان بك المرادى وعثمان بك الأشقر وعثمان بك الشرقاوى وعثمان أغا الخازندار وإبراهيم كتخدا مراد بك المعروف بالسنارى ، وصحبتهم مماليكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا إلى وكالة ذى الفقار ، فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم » . فكانت مقتلة كبيرة ذهب ضحيتها عديدون من « نصارى القبط والشوام وغيرهم » . واشتد الهرج والمرج وكثر النهب والسلب وجمع « النصارى » كل من استطاعوا « من العسكر الفرنساوى والأروام . وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر[1] » . وصاروا يطلقون النار على الثوار من سطوح المنازل والتحموا معهم فى الأزقة وتحصن الفرنسيون والنصارى الذين استطاعوا ذلك فى قصر الألفى بك بالأزبكية وكان مقر القيادة العامة الفرنسية وتولى الدفاع عن القصر الجنرال درانتو Duranteau الذى تمكن من الصمود فى وجه ناصف باشا وجموعه المحتشدة فى ميدان الأزبكية ، حتى حضر الجنرال لاجرانج Lagrange لنجدته ، فأذاع لاجرانج نبأ انتصار الفرنسيين فى موقعة هليوبوليس ، ثم تبعه فريان ودونزيلو فقوى مركز الفرنسيين فى الأيام التالية[2] .

وعندما وصل كليبر إلى القاهرة فى ٢٧ مارس كانت الثورة قد بلغت ذروتها واندلع لهيبها فى الوجه البحرى ، وعلى الخصوص فى دمياط وسمنود ، وساعد على ذلك انسحاب الفرنسيين من مراكزهم الهامة فى هذه الجهات ، وإخلاؤها تنفيذاً لاتفاق العريش قبل نقضه . وبادر كليبر بإرسال قائده بليار Belliard ورامبون إلى الوجه البحرى ، كما أرسل الجنرال لانوس إلى سمنود لإخماد الثورة ، وقرر كليبر الانتظار ريثما يعود بليار ورامبون قبل أن يشرع جدياً فى إخضاع القاهرة ، وكان سبب هذا التمهل ضعف قوات كليبر العسكرية بعد المعارك الأخيرة ، وعدم وجود

---

(١) الجبرتى ٣ : ٩٥ — ٩٦

(٢) Reybaud VII 406 — 10

الذخائر والمعدات الكافية لديه ، ثم رغبته فى كسب الوقت حتى يتسنى له انجاز استعداداته وتحصيناته . وعمد كليبر إلى الحيلة والخديعة حتى يوقع الانقسام والتفرقة بين العثمانيين وأهل القاهرة ، وكاد ينجح فى فعلته ، ورضى الأتراك بالانسحاب من من القاهرة ، واللحاق بجيش الصدر الأعظم ، لولا أن القاهريين وعلماءهم ما لبثوا بمجرد إذاعة الخبر أن هرعوا إلى ناصف باشا وكبار العثمانيين يلحون عليهم فى البقاء ، بينما ارتمت النساء وكل عجوز ضعيف « على أقدام الجنود العثمانيين يبللونها بالدموع ويرجون هؤلاء الجنود فى عويل محزن أن لا يتركوهم فريسة لغضب المسيحيين الشديد عليهم وانتقامهم منهم[1] » فرفضوا الانسحاب .

على أن كليبر سرعان ما أدرك نجاحا كبيرا كان له أثر ظاهر فى معاونة القائد الفرنسى على إخماد ثورة القاهرة ، عندما استطاع أن يعقد مع مراد بك حامل لواء المقاومة العنيفة فى الصعيد معاهدة صداقة فى ٥ إبريل ١٨٠٠ [2] . وكان لقبول مراد الدخول فى معاهدة مع الفرنسيين أسباب عدة ، إذ تمكن الجنرال (ديزيه) من مطاردته فى أرجاء الصعيد مدة عام بطوله وكبده خسائر جسيمة [3] . وفضلا عن ذلك فقد اشتد نفور مراد من العثمانيين بسبب صلفهم وعجرفتهم ، ثم أقض مضجعه ما لحظه من استعداداتهم الكبيرة فى سوريا للزحف على مصر ، وصار يخشى أن يسترجع العثمانيون سلطانهم القديم وسؤددهم فى البلاد بعد إقصاء الفرنسيين ، وأن يعمد الأتراك المنتصرون إلى طرد المماليك أنفسهم بعد ذلك . وقويت شكوكه عندما نشر الفرنسيون فى القاهرة شروط اتفاق العريش ، وقد نصت هذه على أن يتسلم العثمانيون المراكز التى يجلو عنها الفرنسيون رويداً رويداً حسب شروط الاتفاق[4] . ثم علم مراد أن الأتراك يريدون إقصاء المماليك عن الحكم والقضاء عليهم [5] ؛ يقابل ذلك أن بونابرت ثم كليبر من بعده قد أظهرا نحو « الست فاطمة » زوج مراد الشيء الكثير من ضروب العناية وأسباب التوقير والاحترام ، وكانت هذه السيدة عندما تزوجها مراد أرملة مات عنها زوجها صالح بك الكبير فى عام ١١٨٢ هجرية ، ١٧٦٨ ميلادية[6] . واشتهرت

---

(١) Ader 318

(٢) Champollion - Figeac 332 — 3

(٣) Pièc. Diver. 123 — 51; 241 — 2

(٤) الجبرتى ٣ : ٨٧ — ٩١

(٥) Galland I 240

(٦) الجبرتى ٣ : ١٧٥

بفعل الخير وقد فضلت الست فاطمة البقاء فى القاهرة عند مجىء الفرنسيين وحرص بونابرت وكليبر على العناية بأمرها وقد ظل بيتها فى عهدها مفتوحا كما كان طوال ثلاثين عاما تماما — على نحو ما ذكر كليبر نفسه — يلجأ إليه البؤساء وأصحاب الحاجات [١] .

ورغب مراد منذ أن انتشر خبر اتفاق العريش أن يتقرب إلى الفرنسيين لعله يظفر منهم بمعاهدة تحالف وصداقة تنهى القتال الدائر بينه وبينهم ، فيعيش معهم فى سلام وهدوء خلال المدة القصيرة الباقية لهم فى مصر ، ولذلك فإنه مالبث أن طلب من الجنرال كليبر أن يأذن له بزيارة الصدر الأعظم عندما دعاه الصدر لزيارته فى معسكره ، وذلك قبل نقض اتفاق العريش وتجدد القتال بين الصدر الأعظم وكليبر ، فكتب إليه كليبر « إنه ما كان يرى فى خيام الصدر الأعظم وخيام مراد سوى أصدقاء ومحبين ، وأن لمراد مطلق الحرية فى الذهاب إلى يوسف ضياء » [٢] وقد استطاع القائد موران Morand حامل هذه الرسالة إلى مراد أن يتحدث معه حديثا طويلا ، أعلن فى أثنائه مراد أنه لن يشهر سلاحا قط فى وجه الفرنسيين . وعندما تبين لكليبر أنه لامعدى عن الالتحام مع جيش الصدر الأعظم بادر بإرسال (فوريه Fouriér) ، سكرتير المجمع العلمى المصرى ، إلى الست فاطمة يرجوها التوسط بينهم وبين مراد ، وكان ذلك قبل معركة هليو بوليس بيومين فحسب . فأبلغت السيدة حديث فوريه إلى زوجها . وكان مدار الحديث أن ثقة الفرنسيين فى الانتصار على الأتراك فى النضال المنتظر عظيمة ، وأنهم يرغبون فى استمالة مراد إليهم ، ولكن مراد رفض أن يعد بشىء أو يتورط فى عمل من الأعمال قبل أن يقطع الفرنسيون كل علاقة بينهم وبين الصدر ، « ويتعهدوا بشن الحرب عليه » فينحاز عندئذ مراد وجماعته إليهم . ولما كان كل ما يرجوه كليبر وقتئذ أن يقف مراد موقف الحياد فى أثناء المعركة القادمة ، ولم تكن المفاوضات بين الرجلين قد انتقلت بعد إلى مرحلة البحث فى أية شروط معينة من قبل القائد الفرنسى أو البك المصرى ، فقد عد كليبر جواب مراد صراحة محمودة ، واكتفى بأن طلب إليه عدم الاشتراك فى أية معارك قد تنشب بينه وبين العثمانيين [٣] .

وعلى ذلك فقد امتنع مراد عن الاشتراك فى معركة هليو بوليس ، مع وجوده برجاله

---

(١) Pièc. Diver 327

(٢) Reybaud VII 424 — 5

(٣) Berthier 417; Ibid 426 — 7

قريبا من ميدان القتال ، وعندما دخل ناصف باشا وإبراهيم بك القاهرة رفض مراد أن يستمع إلى أقوال إبراهيم بك زميله القديم الذى ألح عليه بالانضمام إلى صفوف العثمانيين ، وذهب بعسكره إلى طره . وكان مراد فى طره عندما جاءه وكلاء كليبر يتفاوضون معه ، فأرسل مراد إلى كليبر عثمان بك البرديسى مزودا بتعليماته ، وفحواها أنه يطلب الاستقرار فى جزء من البلاد المصرية ، حتى إذا تركها الفرنسيون استطاع بمعاونة النجدات التى يمدونه بها الاستحواذ على بلاد هو صاحبها ، وليس هناك غير الفرنسيين من يستطيع حرمانه منها ، ثم قطع على نفسه عهدا بأن يظل أمينا على اتفاقاته معهم[١] . ولما كان كليبر قد رحب برسول مراد ، وقطع هو الآخر عهداً على نفسه بعدم تعرض الفرنسيين لمناوأة مراد ومماليكه وإزعاجهم فى شىء بعد ذلك ، وأعلن أنه يضع الاهتمام بمصلحة مراد بك فى المرتبة التالية ، لاهتمامه بجيشه مباشرة ، فقد أصبح ميسوراً بدء المفاوضة بصورة جدية ، وعقدت الاجتماعات لبحث قواعد الصلح فى القاهرة فى أثناء اشتعال الثورة بها[٢] .

وفى ٥ ابريل ١٨٠٠ وقع على المعاهدة كل من الجنرال داماس والمواطن جلوتييه Gloutier عن كليبر ، وعثمان بك البرديسى عن مراد . وكانت تتألف من عشر مواد تنص على اعطاء مراد بك الحكم والامارة فى الصعيد ، والانتفاع بالبلاد الكائنة بالبر الشرقى والبر الغربى للنيل ، ابتداء من بلدة بلصفورة بمديرية جرجا الى أسوان ، على أن تكون جرجا الحاضرة ، وذلك لقاء أن يؤدى مراد الى الجمهورية الفرنسية (الميرى) الواجب دفعه عن هذه الجهات الى صاحب الولاية على مصر ؛ وفضلا عن ذلك فقد ضمن قائد الجيش الفرنسى لمراد بك الانتفاع بدخل حكومة هذه الأقاليم ، كما تعهد بحمايته إذا تعرض لهجوم أعدائه عليه ، وقد تعهد مراد من جانبه بتقديم النجدات اللازمة لمعاونة القوات الفرنسية إذا تعرضت الأماكن التى تحتلها هذه إلى أى هجوم من قبل العدو عليها . ومما تجدر ملاحظته أن الفرنسيين اشترطوا فى هذه المعاهدة احترام ملكية الأفراد فى الأقاليم التى خضعت لحكومة مراد ، فحرمته من التصرف فى ملكية شىء من الأراضى التى لايملكها ، ومحاولة أعطائها إلى أفراد حاشيته على اعتبار أن « أمير الوجه القبلى » له الحق فى التمتع بالإيرادات المتحصلة من الضرائب فحسب[٣] .

---

(١) Pièc. Diver. 328; Galland I 257 — 8

(٢) Berthier 418

(٣) Reybaud VII. 428 — 32

وذكر المعلم نقولا الترکی الغرض من إبرام هذه المعاهدة ، وهو تسليم البلاد إلى مراد عند خروج الفرنسيين منها ، فقال « وانعقدت المشورة على أن مراد بيك يصنع وليمة للأمير كليبر فى جزيرة الذهب القريبة من الجيزة ، ويدعوه إليها ، وهناك يكون الاتفاق . فركب أمير الجيوش إلى الجيزة ، ومعه عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الأشقر، وسار بنفر قليل إلى مقابلة مراد بيك . فحين وصل وتقابلا تلقاه مراد بيك بكل بشاشة ، وتصافحا مصافحة الإخوان وجلسا فى ذلك الديوان ... وجلس معهما (داماس) الوزير (ودميانوس) الترجمان . . . وهناك عاهد أمير الجيوش مراد بيك العهد التام ، وأنه يقيم فى بلاد الصعيد بعيش رغيد مع سائر من يروم إقامته من الغز والمماليك هناك ، وصرّفه بجميع ماله من الأملاك ، ويكون حاكما على مدينة جرجه ، ويدفع للمشيخة مال ميريها المرتب عليها ، وأنه يرسل إلى ابراهيم بيك وبقية الغز أن يكون لهم الأمان ، ثم عاهده أيضا إذا أخلت الفرنساوية الديار المصرية فلا يكون تسليم هذه المملكة إلا له دون غيره من الدول[١] » .

ولم يجد مراد غضاضة فى قبول السيادة الفرنسية وتفضيلها على سيادة العثمانيين ، ما دام الفرنسيون فى البـــلاد ، حتى إنه سمى نفسه « سلطاناً فرنسيا[٢] » . وامتدح كثيرون هذه الخطوة التى خطاها كليبر فقالوا إن عقد هذه المعاهدة مع مراد إنما كان يدل على بعد نظر سياسى من كليبر . ذلك أنه أصبح فى استطاعة الفرنسيين عند ما يغادرون « الشرق » أن يجدوا فى مراد بك سلطاناً ينصبونه على هذه البلاد ، حتى لا تقع مصر فى قبضة الإنجليز[٣] ؛ على أن مما يجدر ذكره أن فكرة الاتفاق هذه مع مراد بك لم تكن جديدة ، فقد سبق أن كلف بونابرت القنصل النمساوى روشيتى Rosetti أن يعمل للاتفاق مع مراد ، وخوله الحق منذ أول أغسطس ١٧٩٨ أن يعقد معه معاهدة على أساس احتفاظ مراد بمدينة جرجا ، فى نظير دفع الميرى المرتب عليها ، لقاء أن تظل هذه المديرية تابعة للحكومة الفرنسية[٤] ؛ أما وقد تغيرت الظروف الآن فقد أصبح تسليم البلاد إلى مراد بعد جلاء الفرنسيين عنها الفكرة الظاهرة فى هـــذا الاتفاق الجديد .

ولا جدال فى أن الفرنسيين قد أفادوا فائدة كبيرة من هذا الاتفاق . فقد أصبحوا

---

(١) نقولا الترکی ١٨٣ — ١٨٤

(٢) Ernouf 258

(٣) Rigault 75

(٤) Corresp. Nos. 2921, 2922

الآن مطمئنين إلى التزام مراد الهدوء والسكينة ، فلاينحاز إلى جانب أعدائهم فى النضال القائم ، فضلا عن أنه سوف يصبح فى وسعهم أن يتفرغوا لمنازلة أعدائهم فى الوجه البحرى ، فيحتل مراد بأجناده المواقع التى يخلونها فى الصعيد ، ولا يجد الفرنسيون ضرورة إلى بعثرة قواتهم فى أنحاء القطر ، لاسيما وأن هذه القوات قد أصبحت قليلة[1]

وكان من أثر عقد هذه المعاهدة أن أقبل مراد مباشرة على مساعدتهم فى إخماد الثورة الفاشية فى القاهرة . وقد ظلت هذه الثورة مستعرة الأوار منذ ٢٠ مارس فقدم لهم المؤن والذخائر ، كما سلم إليهم العثمانيين الذين لجأوا إليه يطلبون حمايته ؛ وفضلا عن ذلك فقد أرسل لهم عدداً من المراكب المحملة بالحطب والمواد الملتهبة لأحداث الحرائق فى القاهرة . حتى إن هؤلاء سرعان ما تمكنوا من إخماد الثورة بفضل الحرائق التى أشعلوها فى الأحياء الوطنية ، وفى حى بولاق على وجه الخصوص ، الذى سلطوا عليه كذلك نيران مدافعهم حتى خربوه تخريبا (١٥ ابريل[2]) ، وعند ما صح عزم القاهريين على التسليم توسط مراد فى المفاوضة ، وكانت مفاوضة شاقة مضنية[3] انتهت بإبرام الصلح فى ٢١ ابريل ١٨٠٠ بين ناصف باشا وعثمان أفندى وابراهيم بك من جانب ، وبين كليبر من جانب آخر . وكان يتألف من تسع مواد حصل بفضله الجنود العثمانيون على مهلة ثلاثة أيام بين ٢٢و٢٥ ابريل حتى يخرجوا من القاهرة فى أثنائها ومعهم فلول المماليك إلى البلاد الشامية عن طريق بلبيس والصالحية والقطية والعريش ، ووقع الاختيار على الجنرال (رينييه) « لحراستهم » فى أثناء هذا الانسحاب منعاً من حدوث أية « إهانات » لهم . ومنح كليبر أهل مصر على وجه العموم ، والقاهريين على وجه الخصوص ، الذين اشتركوا فى الثورات والاضطرابات الأخيرة عفواً شاملا ، وفى ٢٤ ابريل كلف الجنرال (رينييه) بأن يرافق العثمانيين والمماليك الذين غادروا القاهرة[4] .

كليبر بعد هليوبوليس :

واعتبر كثيرون أن كليبر قد طوى صفحة قديمة ، وبدأ أخرى جديدة فى تاريخ حكومته فى مصر ، بفضل انتصاره فى معركة هليوبوليس ، وإخماده ثورة القاهريين

(١) Pajol 486

(٢) Reybaud VII 444—6; Berthier 412—28; Galland I 251—64

(٣) الجبرتى ٣ : ١٠٢ — ١٠٨

(٤) الجبرتى ٣ : ١٠٩ ; Reybaud VII 457 — 62

الثانية ، وحاول أصحاب هذا الرأى أن يفردوا بحوثاً مستفيضة ومستقلة لدراسة نشاط كليبر فى تلك الأسابيع القليلة التى انقضت من يوم انتصاره على العثمانيين فى معركة هليوبوليس فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ إلى اليوم الذى لقى فيه كليبر مصرعه فى ١٤ يونيه من العام نفسه . واستندوا فى ذلك إلى أن كليبر بعد هليوبوليس قد اختط لنفسه خطة جديدة ، واسترشد فى سياسته بأغراض تختلف عما كان يستهدفه قبل انتصاره فى هذه المعركة ، فقالوا إن القائد الفرنسي ما لبث بعد هذا الانتصار أن نبذ سياســة الجلاء ظهرياً ، ووطد العزم على البقاء فى مصر ؛ وكان من أصحاب هذا الرأى بونابرت نفسه الذي اعتقد أن كليبر بعد ٢٠ مارس صار لايفكر إلا فى أمر واحد فحسب : هو الاهتمام بدعم أركان المستعمرة الفرنسية الناشئة فى هذه البلاد[١] .

وفضلا عن ذلك فقد اعتقد آخرون أن كليبر ما كان يستطيع العودة إلى فرنسا ، خوفا من بطش بونابرت الذى وجه إليه كليبر « اتهامات » خطيرة فى تقريره المشهور إلى حكومة الإدارة (فى٢٦ سبتمبر١٧٩٩) ، فآثر البقاء فى مصر بعد وصول بونابرت إلى القنصلية عقب انقلاب١٨ برومير[٢]. وذهب فريق من المعتدلين ، ومن أصدقاء كليبر فى إقامة الحجة على أن القائد الفرنسى قد تخلى عن سياسة الجلاء ، إلى أن انتشار روح الرضا بين الجنود بسبب ما أبداه كليبر من اهتمام بشأنهم حتى صاروا يرتدون أردية جيدة ويحصلون على مرتباتهم ويجدون أغذية كافية جعلهم ينسون متاعبهم السابقة ، كما أخذت متاعبهم تقل رويداً رويدا بعد انتصاراتهم الأخيرة ، وبدأوا يتذوقون طعم الحياة الطيبة قليلا ، ويعتمدون على حدوث انقلاب برومير آمالا عظيمة فى وصول النجدات إليهم ، فقويت رغبتهم فى الاحتفاظ بفتوحهم فى هذه البلاد ، ثم زادهم انتصارهم فى هليوبوليس ثقة فى إحراز النصر على العثمانيين فى كل المعارك المقبلة ، كما جعلهم الحنق على الإنجليز لنقضهم اتفاق العريش لا يبالون بقوة هؤلاء وبأسهم بل ويتوقون للالتحام معهم[٣] .

على أنه كان هناك إلى جانب هؤلاء الذين قطعوا بأن كليبر إنما أصبح يريد البقاء فى مصر بعد معركة هليوبوليس ، فريق آخر استغلق عليه فهم سياسة القائد « الجديدة » ، حتى بات يعزو إلى كليبر التردد والتقلب وعدم الاستمرار على حال ، ويصف آراءه بالإبهام وعدم الوضوح[٤] ، وكان مما حيرهم إقبال كليبر على الرغبة فى

---

(١) Bertrand II 349

(٢) Martin II 99

(٣) Reynier 90

(٤) Rigault 73

استئناف المفاوضة مع العثمانيين تارة ، ورفضه المفاوضة معهم تارة أخرى ، واهتمامه بإدخال ضروب الاصلاحات ذات الأثر البعيد حينا ، ثم إزعاجه المصريين وإثارة سخطهم عليه بسبب ابتزازه الأموال منهم حينا آخر ، وتصميمه على قطع كل صلة مع الإنجليز، ثم إصراره فى الوقت نفسه على أن عقد اتفاق العريش لم يكن خطأ سياسيا ، إلى غير ذلك من الأمور والأعمال التى عجزوا عن تفسيرها أو معرفة أسبابها .

ومع ذلك فإن القول بأن كليبر إنما كان يبغى البقاء فى مصر بعد موقعة هليوبوليس ويعمل على دعم أركان المستعمرة الجديدة ، قول لايستند إلى أسباب صحيحة ، ذلك بأن عوامل عدة قد تضافرت منذ وقائع ٢٠ مارس على إحداث أثر واضح فى سياسة كليبر حتى إنه ليستطيع كل إنسان أن يلمس من خلال الوقائع المتعاقبة المتلاحقة أن القائد الفرنسى كان يستهدف غرضا واحدا معينا ، مهما تغيرت صورها ، وبدت للعين المجردة كأنها متضادة متنافرة . فقد نفض كليبر يده من الإنجليز تماما ، وفقد الثقة فى قوم نكثوا فى نظره عهودهم منذ أن نقضوا اتفاق العريش ، فنبذ كل محاولة للتفاهم والاتفاق معهم ، ولما كان يعتقد أن الانجليز لا يستطيعون تهديد جيش الشرق فى مصر إلا إذا عقدوا العزم على مهاجمته من البحر ، وإنزال حملة بحرية على الشاطىء المصرى لهذا الغرض ، واعتقد كليبر أنه ما كان ليتسنى لهم فعل ذلك من غير معاونة الأتراك لهم ، فقد أراد كليبر أن يوقع التفرقة بين الإنجليز والعثمانيين ، متخذا من الترتيبات التى بدأها الانجليز وقتئذ من أجل احتلال الإسكندرية ودمياط والسويس ذريعة لإثارة أسباب النفور بين الفريقين ، وهياج الأتراك ضد حلفائهم . وأراد كليبر من ذلك تحطيم المحالفة المبرمة بين الإنجليز والعثمانيين ، واستمالة الأخيرين إلى عقد معاهدة مع الفرنسيين ، تلزمهم الوقوف موقف الحياد التام فى الحرب الدائرة ، حتى يحين موعد عقد السلام العام فى أوروبا ، وقد أراد كليبر بفضل تفاهمه مع العثمانيين أن ينشىء مع رؤسائهم فى القسطنطينية علاقات تمكنه من الاتصال بالحكومة الفرنسية عن طريق الباب العالى ، فتأتيه أخبارها . وفضلا عن ذلك فإن نجاحه فى تحقيق هذه الأغراض سوف يتيح له الفرصة فى مصر حتى يتفرغ لشئون الإدارة والحكم بصورة تساعده على زيادة موارده الداخلية ، فيسد مطالب الحملة ويرضى الجيش ، فلا تذمر ولا ضجر حتى يخرج جيش الشرق من مصر مرفوع الرأس موفور الكرامة[1] . ومع أن كليبر ما لبث أن نبذ بعد ذلك بقليل فكرة استمالة الأتراك والاتفاق معهم فى ظروف

---

(١) Reynier 95 — 6

سوف يأتى ذكرها ، فإنه ما كان يدور فى خلد كليبر قط أن عقد اتفاق العريش كان خطأ سياسيا ، أو أنه قد تخلى عن خطة الجلاء عن مصر حينما قرر المقاومة ، ورفض أن يتأثر بمحاولات الأتراك والإنجليز لإقناعه بقبول اتفاق العريش مرة أخرى وبتنفيذ نصوصه .

وعلى ضوء هذه الحقائق إذن يمكن تفسير ذلك « التردد والتقلب » الذى اتسمت به سياسة كليبر فى ظاهرها ، والذى جعل كثيرين حتى من بين رجال الحملة وقوادها وقتئذ يعتقدون أنه قد تخلى عن سياسة الجلاء وقرر البقاء فى مصر .

فقد كتب كليبر إلى الجنرال لانوس فى ٢٨ مارس ١٨٠٠ عندما أبلغه اللورد كيث أوامر حكومته المتأخرة فى شأن قبول اتفاق العريش « أن الأخبار التى حملها إلينا اللورد دون خجل أو حياء قليلة القيمة بعد هذه الانتصارات التى أحرزناها (فى هليوبوليس) ، وأعتقد أن فى استطاعتنا لزمن طويل أن نأمن من وقوع أى هجوم علينا ، بل ربما كان فى وسعنا كذلك أن ننتظر بهدوء واطمئنان حتى يعقد الصلح العام فى أوروبا[١] » . ولما كان كليبر على نحو ما سبق ذكره لا يزال يرغب فى استمالة الأتراك إليه فقد سطر رسالة طويلة للباب العالى فى ١٠ أبريل يبسط فيها الظروف التى أدت إلى نقض اتفاق العريش ، ويتحدث عن هزيمة الجيش العثمانى فى هليوبوليس ، ويقول : إنه لا يزال يرغب فى إعادة الصلات النافعة الودية ، التى ربطت بين الأمتين العثمانية والفرنسية من أجيال عديدة وسوف يجده الباب العالى لذلك « مستعدا لأن يضع مصر بين يديه ثانية وفق الشروط التى نص عليها اتفاق العريش مع بعض التعديلات التى تتطلبها الظروف الحالية ، ولا مناص من إدخالها على هذا الاتفاق » فليس هناك ما يدعو إلى إراقة دماء جديدة عند ما بات من الممكن إرجاع مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية بطريق المفاوضة بعد أن عجزت القوة المسلحة عن انتزاعها من أيدى الفرنسيين[٢] . وقد أفصح كليبر عن هذه الرغبة لرجاله عندما كتب فى اليوم نفسه إلى الجنرال لانوس أنه ما يزال ، على رغم ما وقع من حوادث سابقة ، يرغب صادقا فى عقد أواصر المحبة وإنشاء العلاقات التجارية مع تركيا ، ويريد إرجاع مصر إلى العثمانيين وفق شروط معقولة[٣] .

---

(١) Rousseau 254

(٢) Pajol 477 — 8; Ibid 257 — 8

(٣) Rousseau 258 — 61

ولما كان كليبر ينتظر أن تؤتى هذه السياسة ثمرتها ، فقد انكب على شئون الإدارة والحكم بكل همة ونشاط ، لإزالة ما بقى من آثار ثورة القاهريين الأخيرة ، وتدبير المال حتى يحين وقت عقد الصلح العام فى أوروبا . واعتمد كليبر فى ملء خزانته بالأموال على وسائل شتى ، كان يبغى من بعضها الاستيلاء على المال فحسب ، من أى طريق كان ، بينما يريد من بعضها الآخر إدخال ضروب من الإصلاح على الإدارة المالية تمكنه من جباية الضرائب وتحصيلها بكل دقة ، فلجأ إلى « الغرامات » الفادحة يفرضها على الأهلين اقتصاصا منهم لقيامهم بثوراتهم الأخيرة ، كما لجأ إلى « المصادرة » وغيرها من ضروب ابتزاز الأموال ، واصطنع كليبر أساليب العنف والصرامة مع كبار المشايخ ، فذكر الشيخ الجبرتى أنه جمع أهل الديوان وأنهم تأنيبا عنيفا على اشتراكهم فى الثورة وقال : كان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق ، من قتلكم عن آخركم ، وحرق بلدكم ، وسبى حريمكم وأولادكم ؛ ولكن حيث إننا أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم ، وإنما نأخذ منكم الأموال ؛ فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف فرنك . . . على الشيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون ألفا ، والشيخ محمد بن الجوهرى خمسون ألفا ، وأخيه الشيخ فتوح خمسون ألفا ، والشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألفا ، والشيخ العنانى مائتان وخمسون ألفا ، نقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العثمنلى ، مثل : المحروقى، والسيد عمر مكرم ، وحسين أغا شنن ، وما بقى تدبرون رأيكم فيه ، وتوزعونه على أهل البلد ، وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصا . انظروا من يكون فيكم رهينة عندنا حتى تغلقوا ذلك المبلغ . وقام من فوره ودخل مع أصحابه إلى داخل وأغلق بينه وبينهم الباب ، ووقفت الحرسية على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين ؛ فبهت الجماعة وامتقعت وجوههم ، ونظروا إلى بعضهم البعض ، وتحيرت أفكارهم ... ولم تزل الجماعة فى حيرتهم وسكرتهم، وتمنى كل منهم أنه لم يكن شيئا مذكوراً . ولم يزالوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر بوله فى شباك المكان ، وصاروا يدخلون على نصارى القبط ، ويقعون فى عرضهم ، فالذى انحشر فيهم ولم يكن معدوداً من الرؤساء . أخرجوه بحجة أو سبب ، وبعضهم ترك مداسه وخرج حافيا وما صدق بخلاص نفسه[1] » . وأهين الشيخ محمد السادات إهانة بالغة ، وعامله كليبر بقسوة وغلظة ، حتى بدا كأنما القائد الفرنسى ما كان يعنيه من أمر المصريين ووجوههم سوى

(١) الجبرتى ٣ : ١١٢ — ١١٣

ابتزاز الأموال منهم ، حتى يملأ بها خزائنه وينفق منها على جيشه[١] . وفرضت غرامة كبيرة على طنطا ، اقتصاصا من ثورة أهلها ، ثم على المحلة الكبرى ؛ وأثارت هذه الأعمال سخط المصريين الذين سرعان ما حلت الضائقة بهم لفداحة الغرامات التى وقعت عليهم حتى إنهم « تمنوا الموت فلم يجدوه[٢] » .

وحدث أن بدأت تقدم إلى الاسكندرية حوالى ثمانين من السفن المعدة لنقل الفرنسيين إلى بلادهم ، عدا أربع قراويت ، وذلك فى شهر فبراير بعد ذيوع خبر اتفاق العريش[٣] . كما حضرت سفن عثمانية محملة بالذخائر والعتاد لجيش الصدر الأعظم فى العريش ، كما قدمت سفن عثمانية محملة بالذخائر والعتاد لجيش الصدر الأعظم فى العريش ، وفى المواقع الأخرى ، « فطمنهم الفرنساوية ، وأظهروا لهم المسالمة ، وأظهروا لهم بنديرة العثمانى فدخلوا إلى المينا ورموا مراسيهم ووقعوا فى فخ الفرنسيين فاستولوا على الجميع[٤] » . وفضلا عن ذلك فقد دخل إلى الاسكندرية عدد من السفن العادية المحملة بالتجارة . فأصدر كليبر أمراً فى ١٦ ابريل ١٨٠٠ بمصادرة هذه السفن جميعا والاستيلاء عليها[٥] . وانتهز الفرنسيون فرصة معارضة أهل السويس وانحيازهم إلى جانب المتسلم العثمانى الذى كان قد تسلمها من الفرنسيين عقب الاتفاق ورفض الآن إعادتها « فغلبهم الفرنسيس وقتلوهم عن آخرهم ، ونهبوا البندر وما فيه من البن والبهار بحواصل التجار وغير ذلك » ، وأرسل مراد بك من الصعيد كل ما كان العثمانيون قد جمعوه « من أغنام وخيول وميرة ، وكان شيئاً كثيراً » وذلك عندما اضطر هؤلاء إلى إخلاء الصعيد ، بعد أن كانوا قد شرعوا فى احتلاله . واستولى الفرنسيون كذلك على المؤن والغلال والشعير والأتبان التى جمعها العثمانيون فى الوجه البحرى خصوصاً . بل إن كليبر ما لبث أن فرض على « النواحى غلالا وشعيراً وفولا وتبناً وزادوا خيولا وجمالا ، فوقع على كل إقليم زيادة عن ألف فرس ، وألف جمل سوى ما يدفع مصالحة على قبولها للوسايط وهو نحو ثمنها أو أزيد[٦] » .

وكان لغرض الحصول على المال أن أصدر كليبر أمراً فى ٢٨ ابريل ١٨٠٠ يقضى بإلغاء « الإدارة المالية » القديمة التى كان يديرها بوسيلج ثم استيف من بعده ،

---

(١) Rigault 77

(٢) الجبرتى ٣ : ١١٤ ; Rousseau 292—3

(٣) Pajol 487

(٤) الجبرتى ٣ : ١١٨

(٥) Rousseau 297 (Note 1)

(٦) الجبرتى ٣ : ١١٨

فكلف استيف الآن بالإشراف على الإيرادات العامة ، على أن يجمع الضرائب والأتاوات المختلفة التي يجرى دفعها نقداً ، مثل الميرى والفايض والبرانى والكشوفية وما إليها ، فى قسم عام باسم « الضرائب العمومية النقدية » ، ابتداء من سنة ١٢١٤ هجرية ؛ وللقائد العام وحده حق تحديد هذا النوع من الضرائب فى كل عام حسب علو النيل وحالة الفيضان ومقدار محصول الأرض الزراعية . واقتصر عمل الأقباط على تحصيل الضرائب فحسب . ولما كان غرض كليبر ابتكار الوسائل التى يمكن بها ملء « الخزانة » بكل سرعة ، فقد اشتمل هذا الأمر على تفصيلات وافية لإرشاد حكام الأقاليم والمحصلين وسائر العمال إلى أجدى الطرق لتنظيم توزيع الضريبة وتحصيلها بسهولة ودقة وضبط قيمتها فى كل موسم[١] . واعترف كليبر بأن غايته من هذا « الإصلاح لم تكن سوى ضمان وصول المال إلى خزانته » بكل سرعة ، فقال : « إن الإصلاحات الإدارية العظيمة من الأمور التى تحتاج إلى تنظيم كبير ، ولم يكن فى وسعه لعدم تمتعه بالعبقرية والنبوغ أن يبتكر مثل هذه الإصلاحات الإدارية العظيمة فى يوم وليلة ، حتى ولو قدر له أن يستعين فى ذلك بآراء أفراد عرفوا بالخبرة والدراية فى هذه الأمور[٢] » .

ومن ضروب هذا الإصلاح أن شكل (لجنة إدارية) فى ٢٩ ابريل ١٨٠٠ كانت تتألف من رؤساء فروع الإدارة الهامة ، جعل أعضاءها خمسة ، وذلك حتى يبحثوا مع القائد العام شئون التجارة والزراعة والمنشآت العامة ، مما كان يعد خطوة واسعة فى سبيل إقامة نوع من « الوزارات » المختصة بفروع الإدارة المختلفة ، لولا أن كليبر عمد إلى تقييد نشاط هذه اللجنة فقصر عملها فى أول الأمر على مراقبة جميع الضرائب وتحصيل الإيرادات ، قبل أى اعتبار آخر[٣] . وعنى كليبر بمسألة « الموردين » الذين اتفقت معهم الحكومة لتوريد المؤن للجيش والأغذية والملابس وما إلى ذلك ، وكان كثيرون من هؤلاء قد أثروا نتيجة للتلاعب الذى أفضى إلى حرمان الجنود من الأغذية الصحية الكافية والأردية والملابس اللائقة[٤] . فتشدد كليبر فى أن ينال الجند الوجبات المعينة لهم ، وأن تعطى لهم الملابس اللازمة ، كما أمر بأن يصرف العلف المخصص لخيولهم بكل دقة[٥] ، فأشاعت هذه العناية روح الرضى بين الجنود الذين حسنت أحوالهم فاطمأنوا إلى كليبر وحكومته .

---

(١) Rousseau 273 — 7

(٢) Ibid 296

(٣) Ibid 277 — 9

(٤) Pajol 487

(٥) Rousseau 288

ولم يشأ كليبر أن يترك القاهرة دون إصلاح ما تهدم وخرب من مبانيها وأحيائها عقب ثورة القاهريين الأخيرة ، فلم ينقض شهر واحد حتى كان حى بولاق قد استعاد رونقه بعد الحريق الكبير الذى حدث فيه ، كما أصلحت ثكنات الجنود وغيرها من مبانى الجيش ، وأعد كليبر برنامجا للأعمال والتحصينات البسيطة لمنع العدو من دخول القاهرة ، واهتم بإنجاز التحصينات اللازمة لحماية الشاطىء ، ونظم سبل المواصلات فأنشأ الجسور وشيد الكبارى على النيل ، ولما كان العربان يطلبون أجوراً فادحة كلما طلب الفرنسيون استئجار جمالهم أو يبتعدون بها فى الداخل حتى لا يستطيع هؤلاء العثور عليها ، فقد جمع كليبر عددا من الجمال يستخدمها الجيش فى انتقالاته ، [١] وفضلا عن ذلك أفاد كليبر من رغبة الأهالى عموما فى التزام الهدوء والسكينة بعد ثورتهم الأخيرة ، وشكل من القبط فرقة عسكرية من خمسمائة جندى ، وأخذ يشجع الأهالى من مسيحيين ومسلمين خصوصاً فى الوجه القبلى على الخدمة فى الجيش ، وشكل من الأروام فرقا عسكرية بلغ عدد أفرادها ألفاً وخمسمائة نسمة ، وهذا على حد قول الجنرال رينييه حتى يستميل الأهالى إلى الخدمة فى الجيش ، ويبعث فى نفوسهم الروح العسكرية [٢] .

ولا جدال فى أن أكثر هذه الأعمال كانت تنطوى على رغبة حقيقية فى الإصلاح وإن كان كل ما قصد إليه كليبر منها جمع المال ، وضمان استقرار الأمور ، واستتباب الهدوء ، والسكينة . لأنه ما كان يتسنى دون ذلك مثلا تنظيم الإدارة المالية ، ومايستلزمه هذا التنظيم من دراسة موضوع الضرائب ، ومراجعة شتى سجلاتها التى احتفظ بها الأقباط لمعرفة كل نوع من أنواع الضريبة ، وما كان مربوطاً منها على كل قرية ، ونصيب كل فرد من المكلفين بأدائها ، إلى غير ذلك من المسائل المتصلة بأنواع عدة من هذه الضرائب ، التى لم يستند الجباة فى تحصيلها على شىء سوى العرف والعادة فى أحايين كثيرة [٣] .

ووجد عدد من المعاصرين فيما بذله كليبر من محاولات صادقة لإنقاص المصروفات فى جميع فروع الإدارة دليلا على رغبة القائد الفرنسى فى إدخال ضروب من الإصلاح ذات آثار باقية . بل يذهب بعض هؤلاء إلى أن كليبر إنما كان يريد الإصلاح حقاً

---

(١) Pajol 426; Reynier 86

(٢) Reynier 85

(٣) Roussean 296

فى كل ما فعله ، بدليل أن شئون الحكم والإدارة لم تشغله عن التفكير جديا فى مشروع كان يبغى منه الاستعاضة عن نظام ملكية الأرض فى مصر بنظام آخر يقوم على أساس إعطاء الأرض للأفراد فى صورة « حكر وقق » ينال بمقتضاه كل فرد من أفراد الجيش جزءاً من الأرض متناسبا مع رتبته العسكرية ، وما أداه من خدمات للحملة . وذلك حتى يستغلها هؤلاء دون أن يكون لهم الحق فى امتلاكها (١) .

وعلى ذلك فقد كان من أثر هذه الإصلاحات ، وما أظهره كليبر من ضروب النشاط الذى شمل جميع فروع الحكم والإدارة ، أن اعتقد كثيرون أن القائد الفرنسى إنما كان يبغى البقاء فى مصر ، وأنه قد تخلى عن سياسته السابقة التى أفضت إلى اتفاق العريش . وزادهم اعتقاداً فى ذلك ما طرأ من تغيير على موقف كليبر من العثمانيين على وجه الخصوص ، منذ أواخر شهر إبريل تقريبا . ولو أن هذا التغيير كان تغييراً « ظاهراً » ، ولا يدل بحال من الأحوال على أن كليبر قد نبذ ظهريا سياسة الجلاء عن مصر وإخلائها . فقد وصلت كليبر فى القاهرة رسالة من الصدر الأعظم يوم ٢٠ إبريل يدعى صاحبها أن من حقه إزالة العراقيل التى وضعها الانجليز لتعطيل اتفاق العريش ، ويشكو من ذلك الهجوم الذى شنه الفرنسيون على جيشه دون مسوغ ، وضد كل قانون ، وصار يهدد كليبر بأن فى استطاعته أن يدفع إلى الميدان جميع القوات التى حشدها لمنازلة خصمه ، ويطلب منه أن يطلق سراح مصطفى باشا وغيره من أسرى العثمانيين فى القاهرة . فلم يشأ كليبر أن يجيب على هذه الرسالة بل ردها إلى صاحبها ، وذكر فى ذيلها أن كتاب الصدر الأعظم بسبب ما جاء به من أقوال « خاطئة وغير معقولة » لا يستحق غير السخرية (٢) ، وبذلك رفض كليبر أن يدخل فى مفاوضة مع الصدر والعثمانيين .

وعلاوة على ذلك فقد أهمل كليبر (٣) الإجابة على رسالة من اللورد كيث بعث بها اللورد إلى بوسيلج فى ٢٣ إبريل ، ينفى فيها صدور أية تعليمات إليه أو أوامر من حكومته ضد الاتفاق الذى تم إبرامه بين الصدر الأعظم والجنرال كليبر ، بل إن تعليمات صريحة قد وصلته لإعطاء الفرنسيين حق المرور بسلام حتى يعودوا إلى أوطانهم ، وذلك رغبة من حكومته فى إظهار حسن نواياها نحو حلفائها العثمانيين (٤) . وكان كل ما وافق عليه كليبر

---

(١) Martin II 100.

(٢) Rousseau 285 (Note 1)

(٣) Rigault 83.

(٤) Testa II 19—20.

بعد ذلك أن قبل فى ٦ مايو ردا على خطاب من السير سدنى سميث فى ٢٧ أبريل أن يطلق سراح مصطفى باشا وسائر «الأفندية» الذين كانوا قد حضروا إلى مصر عقب اتفاق العريش لاستلام إدارة الجمارك بالبلاد ، وأن يرسلهم جميعاً إلى دمياط لقاء أن يطلق الصدر الأعظم سراح ضابط من الفرنسيين كان قد ذهب للمفاوضة مع الصدر واحتجزه يوسف ضيا فى معسكره [١] وبذلك رفض كليبر أن يدخل فى مفاوضة مع الانجليز من أجل الجلاء عن مصر .

ومع أنه لم يكن غريبا أن يرفض كليبر المفاوضة مع الانجليز وقتئذ ، لأنه كان قد فقد كل ثقة بهم من أيام معركة هليوبوليس ، فإن رفضه الدخول مع الأتراك فى مفاوضة كان شيئاً جديداً لا مناص من معرفة سببه ، إذ اتضح أن كليبر قد استقر رأيه ليس فقط على عدم استئناف المفاوضة مع العثمانيين والانجليز على السواء ، بل اتخاذ الأهبة أيضاً لمقاومتهم جميعا ، إذا بدا لهم أن يشنوا هجوما جديداً على مصر . فقد كان الباعث على ذلك عثور الفرنسيين على أوراق (موريه) سكرتير اللورد إلجين ؛ وكانت هذه الأوراق تشتمل على تفصيلات تلك « الخدعة الحربية » التى اشترك تمارا مع الأتراك فى تدبيرها للغدر بجيش الشرق وإفنائه . فقد سبق كيف أن الجين لم يقبل هذه « الخدعة » عند قدومه إلى القسطنطينية ، ولكنه سرعان ما قبل العمل بها إرضاءاً للعثمانيين حتى لا يخرجوا على المحالفة ، وأصدر تعليماته فى ديسمبر سنة ١٧٩٩ إلى (موريه) أن يذهب إلى الصدر الأعظم فى يافا ، ليفحص حالة المعسكر العثمانى من جهة ، وحتى يعمل على تنفيذ الخدعة الحربية ويبلغ السير سدنى سميث آراء حكومته وتعليماتها من جهة أخرى [٢] . وقد استمر موريه مع جيش الصدر حتى بلغ الحدود المصرية . ثم لازمه عند زحفه على المطرية حتى إذا انهزم العثمانيون فى معركة هليوبوليس ، غادر موريه المعسكر العثمانى إلى دمياط ، للاقلاع منها على عجل ، فوصلها فى ٢٣ مارس ١٨٠٠ ، ولكن مركبه الصغير لم يقو على مقاومة الأنواء ، فاضطر إلى الارتداد إلى بحيرة البرلس . وهناك أحاط به الفرنسيون وعثروا على أوراقه ، ومن بينها جورناله وبه ذكر « الخدعة الحربية » ، فأخذ إلى رشيد . ولما كان يحمل إذنا بالمرور بسلام فقد سمح له باللحاق بالسير سدنى .

أما الجورنال فقد أرسل إلى كليبر الذى وجد عند إطلاعه عليه ملاحظات دونها

---

(١) Rousseau 285—6.

(٢) Ghorbal 116, 295—6; Martin II 109.

موريه نفسه ، تعليقا على أحاديثه مع السير سدنى سميث ، خصوصا بصدد تنفيذ الخدعة الحربية . ومع أن السير سدنى كما اتضح من قراءة الجورنال لم يوافق على هذه الخدعة لأن صيانة الإمبراطورية العثمانية وسلامتها كانت متوقفة فى رأيه على ملاحظة تنفيذ اتفاق العريش بكل دقة ، فقد كان ذكر أمر هذه الخدعة فى فبراير ١٨٠٠ ، أى بعد إبرام اتفاق العريش ، كافيا لإثارة غضب كليبر ، وتحطيم ثقته فى الانجليز نهائيا . وبخاصة عندما كتب موريه نفسه أنه يعتقد أن اقتراح « الخدعة الحربية » إنما جاء نتيجة لما كانت تروجه الإشاعات عن عدم صدق نوايا الفرنسيين ، وأن لا مناص من الالتجاء إلى عمل حاسم من طراز هذه الخدعة حتى يمكن أجلاؤهم عن مصر[1] .

وعلى ذلك فقد صح عزم كليبر على رفض كل مفاوضة مع الإنجليز ومع العثمانيين . وذهب كليبر فى رفض المفاوضة مع العثمانيين إلى أنه لما كان لا يثق بحلفائهم الإنجليز ، ويتعذر عليه الدخول فى مفاوضات معهم ، فقد بات الاتفاق مع العثمانيين على أساس معاهدة العريش عبثاً لا طائل تحته ، لأن هؤلاء لم يكونوا أصحاب السيطرة فى البحر الأبيض ، ولا جدوى كذلك من تسليم البلاد إليهم ، لأنهم لا يستطيعون لهذا السبب نفسه الاحتفاظ بمصر طويلا[2]. ثم سرعان ما ظهر أثر ذلك كله عند ما جاءت الأخبار عن ظهور أسطول عثمانى بقيادة القبطان حسين باشا أمام الاسكندرية فى أواخر مايو . ذلك أن حسين باشا ما لبث أن أرسل اسحق بك يطلب الاجتماع بالجنرال لانوس فى الاسكندرية للمفاوضة ، وكان اسحق بك قد عاش ردحاً من الزمن فى باريس ، وأعلن أنه والقبطان باشا من أصدقاء الجمهورية . واعتقد كثيرون لذلك أن الفرص قد سنحت أخيراً حتى ينشىء كليبر بفضل وجود هذا الوسيط الجديد تلك الصلات التى كان يريدها مع السلطان نفسه بالقسطنطينية . ولكن كليبر الذى كان قد اعتزم عدم الدخول فى مفاوضات مع الأتراك ، فضلا عن أنه كان يجهل الغرض الذى ربض من أجله أسطولهم أمام الاسكندرية ، ويخشى أن يكون العثمانيون قد حضروا لإنزال جيشهم إلى البر واستئناف القتال ، لم يلبث أن غادر القاهرة فى ٣ يونية مع جماعة من الجند ، وأمر باجتماع عسكر الدلتا عند الرحمانية ، وأقام فى الرحمانيـة عسكراً متحركا لمواجهة الخطر من أية جهة قد يأتى منها سواء كان ذلك من ناحية الشاطىء الشمالى أم من ناحية الحدود الشامية . ورفض أن يسمح لأى « مفاوض » بالنزول إلى البر خوفاً من

---

(١) Martin II. 111.

(٢) Rigault 83.

أن يكون غرض هؤلاء أن يتجسسوا على مواقع الفرنسيين واستعداداتهم العسكرية ، ولم يثنه عن عزمه وصول رسالة بعث بها (موريه) من يافا فى ٢ يونيه[١] يقول فيها : إن العقبات التى كانت تحول دون تنفيذ اتفاق العريش قد أزيلت نهائيا . بل إنه ما لبث أن نشر (جورنال موريه) فى جريدة (الكوريه ديجبت) فى ١٠ يونيه وقال : «إن ما سجله هذا الجورنال ليدل دلالة قاطعة على أن موريه كان مكلفاً بتنفيذ خدعة حربية ، على الرغم من وجود المعاهدة ، ثم شرع يحذر موريه من المجىء إلى هذه البلاد حتى لا يقبض عليه ويشنق كجاسوس إذا وطئت قدماه أرض مصر ، وقال كليبر كذلك إن مصيراً كهذا الذى هدد به موريه سوف ينتظر ولا شك كل رسول قد يوفده موريه إلى مصر[٢]. وفضلا عن ذلك فإنه سرعان ما أعد مذكرة بهذا المعنى لإرسالها إلى موريه ولكنه قتل قبل إرسالها .

وهكذا اضطرت الحوادث كليبر إلى القيام بدور « حاكم فى مستعمرة » وقائد للحملة لن يرض عن الجلاء عن مصر وإخلائها بديلا[٣]. وإن كان ذلك لا يعنى أن كليبر قد تخلى عن سياسته التى أفضت فيما مضى إلى عقد اتفاق العريش . واعتقد كثيرون من راغبي البقاء فى مصر ، ومن هؤلاء عبد الله جاك منو ، أن فى وسعهم أن يهنئوا قائد الحملة على « موقفه الجديد » وعزمه الظاهر على المقاومة ، وما توهموه عدولا منه عن سياسته السابقة . ولذلك فقد خيل إلى منو أن من الحكمة أن يحاول تبرير موقفه من المفاوضات الماضية ، وأن ينفى وجود أية مؤامرات أو دسائس « بعيدة كل البعد عن تفكيره » ، كانت سبباً فيما ظهر من خلاف فى الرأى بين الرجلين ، فكتب فى ٢٣ مايو سنة ١٨٠٠[٤] يقول بعد أن شرح ذلك كله « وإذا كنت أعتقد أن التسليم الذى وقع فى العريش خطأ سياسيا لا مرية فيه ، فإن ما أحرزته أنت من انتصار باهر ، وفتحك هذه البلاد من جديد ، لاشك فى أنه سوف يتوج هامتك بأكاليل من المجد والفخار » .

وأطنب منو فى مدح كليبر وعده من مؤسسى المستعمرات العظيمة ، ولن يقلل

---

(١) Pièc. Diver. 418.

(٢) Extrait du No. 70 du Courrier d'Egypte 21 Prairial an 8 Pièc. Diver. 408—19 j Pièc. Offic. 259—74.

(٣) Rigault 83.

(٤) Rousseau 299.

من شأنه إذا أرغم ارغاماً على أن يحتفظ بمصر فترة محدودة من الزمن فحسب ، حتى يحين عقد السلام العام فى أوروبا . ولكن كليبر الذى ما كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه قد تخلى بتاتا عن سياسته السابقة ما لبث أن أجاب على رسالة منو بقوله : إن كتاب منو قد سبب له ذهولا عظيما لأنه حتى هذا اليوم لا يعتقد بحال من الأحوال أن اتفاق العريش كان خطأ سياسياً ، كما أنه لا يظن أن انتصار الجيش فى هليو بوليس كان عملا يدعو إلى الفرح والغبطة ، وأنه مايزال حتى هذه اللحظة يعتقد اعتقاداً جازماً أنه قد وصل إلى نتيجة معقولة عند ما عقد اتفاق العريش ، لأنها (أى الحملة) مغامرة طابعها الإسراف والغلو ، كما أنه ما يزال مقتنعاً بأنه لا أمل هناك نهائياً فى وصول نجدات إلى الفرنسيين من فرنسا ، ولن يستطيع هؤلاء بتاتاً ، أو على الأقل مدة الحرب الدائرة ، أن يؤسسوا مستعمرة فى مصر ، فالثابت أن شجيرات القطن وأشجار النخيل لا تنبت عسكراً ولا تنتج أسلحة . وقال كليبر فى ختام رسالته : « إنك تتجه بوجهك صوب الشرق ، بينما أتجه بوجهى صوب الغرب ، ولا يمكن أن نتفق فى هذا الأمر أبدا[1] » .

على أن مما يجدر ذكره أن رسالة منو لم تثر غضب كليبر ، فقد بادر قائد الحملة عند انتقاله إلى الرحمانية باستدعاء مينو إلى القاهرة فى ٢ يونية وقلده الحكم بها . ومع أنه كان من رأى منو بعد ذلك أن الواجب يقتضى كليبر أن يبسط لأولى الشأن فى باريس كل ما وقع من حوادث فكتب إلى كليبر بذلك فى ٨ يونيه . فقد رفض كليبر أن يعمل بما أشار عليه به ، ولم يكدر هذا الاختلاف صفو العلاقات بين الرجلين فى أيام كليبر الأخيرة . وظل كليبر بعد عودته إلى القاهرة فى ١٠ يونيو ممتنعاً فى أوامره اليومية من نشر أية أنباء عن فرنسا ، أو الحديث عن أغراضه ونواياه . فكان من أثر ذلك أن استمر جند الحملة وقوادها ، ما عدا أولئك الذين قربهم كليبر منه كالجنرال رينييه ، يجهلون حقيقة مابيت عليه عزمه من حيث البقاء فى مصر أو الجلاء عنها . وعلى كل حال فإن الأجل لم يمتد بكليبر حتى يعرف جيش الشرق نوايا قائده الحقيقية ؛ ذلك بأن كليبر بعد أربعة أيام فحسب من عودته إلى القاهرة ما لبث أن لقى حتفه غدراً على يد سليمان الحلبى .

فقد قصد كليبر فى صبيحة يوم السبت ١٤ يونيو ١٨٠٠ إلى جزيرة الروضة ليستعرض فرق الأروام ، حتى إذا انتهى من ذلك ذهب مع المهندس (بروتان) Protain ليفحص أعمال الترميمات الجارية فى مقر القيادة العامة بالأزبكية ، وهى سراى

(١) Ibid 301—2.

الألفى بك ، ثم تناول الغذاء فى دار الجنرال داماس ، وكان يربط بين السراى وبين هذه الدار ممشى طويل فوقه (تكعيبه) من العنب . وخرج كليبر بعد الغـذاء ومعه بروتان ليتفقد بقية الأعمال بالسراى ، وبينما هما يسـيران فى ذلك الممشى طلع عليهما سليمان الحلبى فى صورة متسول يطلب صدقة ، « فأشار إليه بالرجوع وقال له ما فيش وكررها ، فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر فى قضائها . فلما دنا منه مد إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده ، فمد إليه الآخر يده فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده فى يده اليمنى أربع ضربات متوالية ، فشق بطنه وسقط كليبر إلى الأرض » مضرجاً بدمه وحاول بروتان مساعدته ، فضربه الحلبى وفر هاربا . ولـكنه لم يذهب بعيداً فعثر عليه الفرنسيون « منزوياً فى البستان المجاور لبيت سارى عسكر المعروف بغيط مصباح بجانب حائط متهدم فقبضوا عليه [1] » . أما كليبر فقد توفى من جراحه فى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم نفسه وبوفاته انتقلت القيادة إلى عبد الله جاك منو حاكم القاهرة .

---

(١) الجبرتى : ٣ : ١٢١ — ١٢٢ .

الفصل الرابع

التجربة الاستعمارية

تمهيـــد :

كان منو عند وفاة كليبر أكبر قواد الحملة سنا ، ويخوله قدم رتبته العسكرية أن يتولى القيادة العامة ، ولـكنه تردد فى قبول هذا المنصب ، وكان من رأيه أن يتولى القيادة العامة بدلا منه الجنرال رينييه ، من أصدقاء كليبر الأوفياء(١) ومن المحببين إلى الجيش(٢) . ولـكن رينييه لم يقبل حرصا منه على عدم مخالفة القوانين العسكرية ، أو لأنه كان يخشى من تحمل عبء مسئوليات المنصب ، ومن أهمها محاكمة قاتل كليبر . أضف إلى ذلك أن الخوف كان لا يزال مستوليا على النفوس من أن يكون الاعتداء على قائد الحملة السابق بمثابة إنذار لتحريك الثورة من جديد فى القاهرة(٣) . وأمام عزوف رينييه لم يجد منو مناصا من قبول القيادة بصورة « مؤقتة » ، حتى يأتى تثبيته فى هذا المنصب نهائيا من جانب الحكومة الفرنسية .

وما إن تسلم القائد الجديد أعماله حتى أصدر إلى الجيش منشوراً فى ١٥ يونيه(٤) ، يعلن خبر الاعتداء على كليبر ، الرجل الذى استطاع أن « يفتح » مصر مرة ثانية فى مدى عشرة أيام فحسب ، بفضل ماأحرزه الجيش من انتصارات باهرة تحت قيادته ، والرجل الذى استطاع أن ينظم الشئون المالية ، ويدفع للجند رواتبهم المتأخرة . وقد اختتم منو هذا المنشور بقوله : « إنه ايستمد القوة من روح كليبر ، كما يستمدها من عبقرية بونابرت ، حتى يتمكن بفضل ذلك من دفعهم — أى دفع رجال الحملة وجيشها — وهو من بينهم إلى العمل باتحاد لتأييد مصلحة الجمهورية » . وفى اليوم نفسه أصدر منو أمراً بتشكيل لجنة من تسعة أعضاء ، تضم إليها الجنرال رينييه وآخرين، وذلك لمحاكمة

---

(١) Reynier 97.

(٢) Martin II 141.

(٣) Rigault 93.

(٤) Galland I 279 — 83 ; Bricard 424 — 5 ; Pièces Diver. 429—30 ; Pièc. Offic. 286—8 ; Richardot No. 21 pp. 448—9.

المتهمين بقتل كليبر[١] . وجرت هذه المحاكمة فوراً ، فصدر الحكم فى يوم ١٦ يونيه بإدانة سليمان الحلبي قاتل كليبر ، والمهندس بروتان ، وبإدانة أربعة مشايخ كشركاء لسليمان الحلبي ، لأنهم علموا بنواياه ولم يبلغوا عنها . وقد حكم على أحد هؤلاء غيابيا لفراره ، ثم برئ منهم آخر ، ثبت عند التحقيق أنه كان يجهل نية القاتل وعزمه على اغتيال قائد الحملة[٢] . وفى ١٧ يونيه احتفل جيش الشرق احتفالا رهيبا بتشييع رفات كليبر ، وألقى فورييه، القومسيير الفرنسى لدى الديوان وسكرتير المجمع العلمى خطاب تأبين طويل. وكان بعد أن ووريت الجثة التراب أن أعدم سليمان الحلبي ورفاقه الثلاثة[٣] .

برنامج منو وسياسته :

حزن الجيش لوفاة كليبر حزنا شديدا ، ولم يكن منشأ هذا الحزن العظيم حب الجيش لقائدة السابق فحسب ، بل لأن كليبر أيضاً إلى جانب تعلق الجيش به ، كان صاحب سياسة الجلاء عن مصر والعودة إلى فرنسا . وكان من أثر حب الجند لقائدهم الراحل أن خشى بعض كبار الضباط فى المراكز البعيدة عن القاهرة من إذاعة نبأ الوفاة رسميا على الحاميات المختلفة إلا بعد مضى يوم كامل على الأقل من وقوع الحادث[٤] . ومنذ أن أصدر منو منشور ١٥ يونيه ، الذى أعلن فيه خبر الاعتداء على كليبر ، صار يتنازع الجيش عاملان ظاهران ، هما عامل الحزن على وفاة كليبر ، وعامل الدهشة المقرونة بالجزع بسبب انتقال قيادة جيش الشرق إلى الجنرال منو[٥] ؛ ذلك أن الجيش ، أو إن شئت فعلى الأقل قواده وضباطه[٦] ، كانوا لايثقون فى قيادة منو ، الذى وصفه جماعة منهم بأنه « رجل البلاط القديم » الذى يجهل فنون الحرب والقتال جهلا تاما ، بينما قال عنه آخرون[٧] : إنه كضابط تنقصه الكفاءة ، ويهزأ به الجميع ويسخرون منه[٨] . وجزع الجيش جزعا شديدا لأن أحدا ما كان ينتظر العودة

---

(١) Pièc. Diver. 430 - 1 ; Pièc, Offic. 288—9 ; Galland I 282—3.

(٢) Pièc. Offic. 317—22 ; Pièc. Diver. 450—4; Galland I 284—90.

(٣) Pièc. Diver. 456—61 ; Pièc. Offic. 326 — 32 ; Bricard 422—6 ; Martin II 125.

(٤) Rigault 94.

(٥) Bricard 423.

(٦) Douguereau 393.

(٧) Vertray 165.

(٨) Martin II 136.

إلى الوطن فى عهد القائد الجديد ، لاعتناق منو الإسلام دينا ، واتخاذه سيدة مسلمة زوجة له من جهة ، ولأنه كان معروفا بمعارضته الصريحة لتلك السياسة التى أفضت إلى عقد اتفاق العريش ؛ فبات متوقعا أن يظل الجيش فى « المنفى » مدة طويلة ، بعيداً عن أرض الوطن . آية ذلك ماذكره أحد الضباط فى رسالة إلى الجنرال رامبون فى ٢٥ يونيه[١] من « أن تسلم الجنرال منو لقيادة الجيش العامة قد أثار التذمر الشديد فى القاهرة » حتى إن هذا الضابط سرعان ماشعر بالراحة والطمأنينة عندما تمكن من مغادرة القاهرة ، وذلك حتى لا يرى جنده الذين يقودهم وقد انضموا إلى حركة من المتوقع حدوثها قريبا . كما كتب : « ونحن جميعا إنما نشعر بالحزن العميق لوفاة قائدنا الشجاع . ولم يكن مبعث احترامنا وتقديرنا له ماأسداه من خدمات جليلة لحكومة الجمهورية من بداية الحرب فحسب ، بل لما كنا نعقده من آمال فى العودة إلى الوطن على يده كذلك » .

وظهرت رغبة الجيش الملحة فى العودة إلى فرنسا خلال الأيام القليلة التالية ، فسأل ضباط الحملة منو أن يحدد لهم موعد عودة الجيش إلى أوروبا . وفى ١٦ يونيه بعث أحد المواطنين الفرنسيين فى الإسكندرية بمذكرة إلى منو يشير فيها إلى أن مصلحة فرنسا ، واستمرار الحرب فى أوروبا ، ثم رغبة الحكومة (الفرنسية) الجديدة ذاتها ، كل ذلك من شأنه أن يحتم على منو مغادرة الأراضى المصرية ، والرحيل إلى فرنسا . وفى ٢١ يونيه ذكر لانوس ، بمناسبة تأييده للجنرال منو ، « أنه سوف يبذل قصارى جهده حتى تنتهى الحملة الفرنسية على مايتفق مع رغبات الفرنسيين جميعا »[٢] . وحدث فى هذه الآونة أن ارتطمت السفينة الإنجليزية كورموران Cormoran بالشاطىء عند أبى قير ، فى أثناء تجول الأسطول فى البحر الأبيض ، فأسر رجالها وأحضروا إلى القلعة ، وطفق هؤلاء يبذرون بذور الشقاق والتفرقة ، بفضل ماصاروا يذيعونه من إشاعات يبغون بها إشاعة التذمر الشديد فى صفوف جيش الشرق ، فراحوا يؤكدون أن مسألة الخروج من مصر إنما يتوقف حلها على موافقة قائد الحملة العام فحسب على العودة إلى فرنسا وفق نصوص معاهدة العريش[٣] . فكان ذلك من الأسباب التى جعلت القواد والضباط الفرنسيين يتوقون لمغادرة البلاد ، والرحيل إلى فرنسا . أضف

---

(١) Rigault 95.

(٢) Ibid 100.

(٣) Bricard 422.

إلى ذلك ماحدث نتيجة لحضور العمارة التركية إلى الإسكندرية ، وما صار يبديه قائدها حسين باشا من رغبة ملحة فى المفاوضة من أجل تقرير السلام ، فقد تأثرت بذلك حامية الإسكندرية ، وعظم الأمل لدى جنود الحملة فى العودة قريبا إلى أوطانهم . وهكذا كان واضحا أن اغتيال الجنرال كليبر لم يغير شيئا من رغبة الجنود وقوادهم وضباطهم بل وسائر رجال الحملة فى مغادرة هذه البلاد بكل سرعة .

وعلى ذلك فقد بات من واجب منو أن يختار بين أمرين : إما التخلى عن سياسته الاستعمارية ، وهى سياسة البقاء فى مصر على الأقل حتى يحين الوقت لعقد الصلح العام فى أوروبا ، وإما التمسك بهذه السياسة ، ومن واجبه عندئذ أن يبادر بتوضيح سياسته لجيش الشرق ، وأن يعمل لإقناع هذا الجيش بضرورة البقاء فى مصر « تحقيقا للمصلحة العامة » . ولما كان منو قد اختار المضى فى تجربته الاستعمارية[١] ، فقد أصدر نداء إلى جيش الشرق فى ٣ مسيدور من السنة الثامنة للجمهورية و٢٢ يونيه سنة ١٨٠٠ ، كان بمثابة البرنامج الذى ضمنه منو أهدافه السياسية[٢] .

بدأ منو هذا النداء مخاطباً قواد الحملة وضباطها وجنودها بقوله : إنه قد بات لزاماً عليه أن يطلعهم جميعاً على « الحقيقة » التى فى وسعه أن يوضحها ، لبيان الأسباب التى دعت الحكومة الفرنسية إلى إرسال الحملة إلى هذه البلاد ، « ذلك أنه عندما علمت هذه الحكومة فى سنة الجمهورية السادسة (١٧٩٨) أن أعداءها قد أعدوا مشروعاتهم للاستيلاء على مالطه ومصر ، قررت أن تمنع هؤلاء الأعداء من تنفيذ مشروعاتهم ، مسترشدة فى ذلك بضرورة صون مصالحها التجارية فى حوض البحر الأبيض الشرقى (الليفانت) ، وهى مصالح كانت تدر على فرنسا ربحاً سنويا يقدر بنحو خمسين مليوناً من الفرنكات . فصدر قرارها بإرسال الحملة على مالطة ومصر ، وسلمت قيادة هذه الحملة إلى بونابرت ، وكان بونابرت قد اتفق مع الحكومة على أن تبادر هذه بإرسال سفير إلى القسطنطينية ، فى نفس الوقت الذى يغادر فيه الجيش أرض فرنسا . وذلك حتى يطلع السلطان العثمانى على الأسباب التى دعت إلى غزو مصر ، غير أنه حدث — لأمر لايسع المرء إلا أن يشك فى سببه — أن هذا السفير لم يرسل إلى القسطنطينية ، وظل السلطان العثمانى يجهل لذلك أغراض الحكومة ، الأمر الذى

---

(١) Rigault 97.

(٢) Pièc. Offic. 342—6 ; Pièc. Diver. 467—70 ; Bricard 433—5 ; Rigault 97—9 (5 Messidor An VIII—24 Juin 1800) ; Galland I 294—8 (6 Mess. An 8).

أفاد أعداءنا الروس والإنجليز فائدة كبيرة ، وأتاح لهم الفرصة ليرغموا السلطان العثمانى على الانضمام إلى تلك المحالفة الدولية التى تحمل أعضاؤها من جملة سنوات عبء النضال ضد الثورة وضد حرياتنا . وقد تلا ذلك أن نزلت أخيراً فى أبى قير ودمياط جيوش عثمانية بقيادة الإنجليز وإرشادهم . وقد استطعتم أنتم أن تردوا هذه الجيوش إلى البحر ، بينما تقدم جيش آخر بقيادة الصدر الأعظم نفسه عن طريق سوريا . وقد جرت مفاوضات ووقع « تسليم » لا أسمح لنفسى بالتعليق عليه ، وحدث اتفاق على هذا التسليم ، أما كيف نقض هـذا الاتفاق غدرا وخيانة ، فهذا أمر أنتم تعلمونه ، كما تذكرون ولا شك كيف كان غضبكم عظيما عندما علمتم أنهم يريدون منكم أن تسلموا أنفسكم إليهم كأسرى حرب ، كأنما قد حلت بكم الهزيمة — فى معركة حربية — خسرتموها ، وأنتم الذين دان لـكم النصر فى جميع المعارك التى خضتم غمارها .

« ولقد زحف الجيش العثمانى وتقدم ، ولـكنكم هاجمتم هذا الجيش هجوما صادقا فى المطرية وهليوبوليس ، وتلاشى الجيش فى لحظة ، وألقى بعض العثمانين المنهزمين بأنفسهم فى القاهرة ، فأرغمتم على تضييق الحصار على هذه المدينة حتى سلمت بعد شهر واحد من حصارها ، وإنـكم لتعلمون كيف نجم من الإعتداء الفظيع على قائد الحملة العام الذى نجل ذكراه جميعاً أن فقدناه من بيننا . ذلك أن أعداءكم عندما عجزوا عن الحاق الهزيمة بكم فى المعارك ، لجأوا إلى وسائل الغدر ، فاستخدموا (المدى) لتحقيق مآربهم يدفعهم إلى ذلك اعتقادهم أن الاعتداء على كليبر سوف يؤدى لامحالة إلى اختلال النظام فى جيش الجمهورية . وفاتهم أن هذا الاغتيال من شأنه أن يزيدكم شجاعة على شجاعتكم ، وجرأة على جرأتـكم ، حتى إنـكم لتواجهون الشرق كله إذا اجتمع ضدكم حتى تثأروا لدم قائدكم المهدور . ولـكنه من الواجب علينا أن نتساءل ومن الذى يرسم لنا الطريق الآن ويوجه خطانا ويأمرنا بما يجب علينا أن نفعله ، والجواب على ذلك أن الذى يوجهنا ويأمرنا بما نفعله هو صاحب الحق فى هذا الشأن دائماً ، ونعنى به حكومة الجمهورية الفرنسية ، لأن لهذه الحـكومة وحدها الحق فى أن تصدق على كل ماسبق إبرامه أو رفضه فى الماضى ، ثم التصديق كذلك على مايمكن إبرامه فى المستقبل بين الجيش الفرنسى وبين دول العدو ، ولاجدال فى أن جميع أولئك لايريدون أن يستمعوا إلا لصوت الشرف ، ولاأن يلبوا إلا نداء المصلحة الوطنية فحسب . وإنى لمتيقن من أنكم جميعاً من أولئك الشرفاء الغيورين على مصلحة الوطن الذين يدركون استحالة

وجود طريق غير هذا الطريق القانونى الشريف ، الذى يمكن بفضله الوصول إلى عقد أية معاهدة مهما كان نوعها مع أعدائنا . أما مايتعلق بشخصى فإنى أقول إننى لو جاز لى أن أوثر مصلحتى الخاصة على ماعداها أو غاب عن ذهنى لحظة أنى فرنسى لحما ودما ، لرغبت كما يرغب أى فرد منكم ودون تردد فى العودة إلى أرض الوطن . ولكنى أعود فأقول : كلا يا أبناء الجمهورية الشجعان ! فما نسترشد جميعاً إلا بما تمليه علينا مصلحة الجمهورية فحسب . فنحن إذا طلب منا القتال واقتضانا الواجب خوض غمار المعارك ، قاتلنا وانتصرنا ، وإذا امتنع العدو عن القتال ورغب فى المفاوضة بدلا من ذلك ، أصغينا إلى كل ما يقدم إلينا من مقترحات ، ولن يكون فى وسعنا تنفيذ أية معاهدة مالم تصدق عليها حكومتنا . وأنتم لا تزالون تذكرون ولاريب كيف قادكم بونابرت إلى النصر مرات عدة . وإن لهذا القائد وحده فحسب ، بوصفه قنصل البلاد الأول ، الحق فى إرشادنا إلى الطريق الذى يجب علينا أن نسلكه ، وسوف يعلم بونابرت بكل شىء ، وله من وقوفه على مجريات الأمور وإلمامه بما يحدث من وقائع ، بفضل وجوده بينها ، ما يمكنه من إخبارنا بكل ماقد تجمع عليه إرادة الوطن .

«لقد تحدثت إليكم فأوضحت لكم الحقيقة كما أؤمن بها ، ولسوف أسلك ذلك الطريق الذى شقه من قبل بونابرت ثم كليبر ، فأبذل قصارى جهدى حتى أنال تقديركم كما أفوز بثقتكم ، ولن يمضى لحظة دون أن أعمل لفائدتكم والعناية بأمركم . لقد بدأ كليبر بتنظيم الإدارة المالية ودعم أركانها ، وكل ما أريد أن أذكركم به الآن ألا يغيب عن أذهانكم أن مايكفى لحدوثه من أضرار لحظة من اللحظات القصيرة ، يقتضى وقتا طويلا من الزمن لإزالته .

« أما ما أطلبه من الجيش فهو أن يطيع الجند رؤساءهم من كل الرتب العسكرية وأن يسود الجيش النظام الدقيق الصارم ، وأن يتحلى الجميع بالخلق القويم ، ومن حق أن أطلب ذلك منكم ، بل سوف أطلب ذلك منكم دائماً . ولكننى أعلم أنكم من الجمهوريين ، وأنكم متحلون بفضائل الجمهوريين . وعندما يأتى اليوم الذى نعود فيه إلى أوطاننا يحق لنا أن نفخر جميعاً بذلك القدر الذى ساهمنا فيه ، بفضل اشتراكنا فى حملة لها اليوم ولاشك أعمق الأثر وأبلغه فى شئون العالم السياسية » .

وهكذا بسط منوف « ندائه » لجيش الشرق تلك الأسس التى انتوى بناء سياسته عليها . وأهمها عدم الفصل فى مسألة الجلاء عن مصر حتى تأتيه أوامر صريحة فى هذا الشأن من حكومة باريس ذاتها . كما كان واضحا أن قائد الحملة الجديد لايقر (المعاهدة) التى عقدها كليبر مع العثمانيين ، بل يصفها بأنها كانت « تسليما » ينأى بنفسه عن التعليق

بشىء عليها . فكان هذا النداء كافيا لأن يبين لجنود الحملة وضباطها وقوادها حقيقة نوايا منو . ومن ذلك الحين دب الانقسام فى صفوف جيش الشرق ، فكان هناك « الكليبريون » الذين أبوا إلا تأييد سياسة كليبر ، كما كانت مفهومة وقتئذ ، وقوامها الجلاء عن مصر . وكان هناك « الاستعماريون » الذين انحازوا إلى جانب قائد الحملة ، وطفقوا يؤيدون سياسة منو ، وقوامها التمسك بهذه البلاد وعدم الفصل فى مسألة الجلاء عنها حتى تصل حكومة القنصل الأول فى باريس إلى قرار حاسم بشأن إخلائها . وكان من بين هؤلاء الاستعماريين جماعة من القواد والضباط الموثوق بتأييدهم لمنو ، كفريان Friant وبوايه Boyer وبيبان Pepin وغيرهم . فقال فريان : إن الجند استجابوا لنداء قائدهم فقرروا « البقاء فى مصر » ، وقال بوايه — وكان وقتئذ حاكما على إقليم البحيرة — إن الجند مالبثوا أن رحبوا بنداء منو ، لاعترافهم بأن بونابرت كان وحده صاحب الحق فى إصدار الأوامر اللازمة لإخلاء مصر [1] .

ومع ذلك فقد كان واضحا أن نداء منو لم يغير شيئاً من موقف أنصار سياسة كليبر . ذلك أن منو الذى حرص على تبجيل ذكرى كليبر فى ندائه ، لم يسعه وهو الذى يدعو إلى البقاء فى مصر إلا أن ينقد نقداً لاذعا اتفاق العريش ، فكان ذلك بمثابة إعلان الاستنكار الشديد لأهم عمل سياسى قام به كليبر فى مصر ، مما ترتب عليه أن أصبح أكثرية الجند ينفرون من هذا النداء ومن صاحبه [2] كما نفر أولئك الضباط الذين عرفوا كليبر وخدموا معه فى جيش الراين قبل المجىء إلى مصر ، وكان من بين هؤلاء دونزيلو Donzelot حاكم أسيوط ، الذى ساءه أن يقسو منو فى نقده ، بينما هو « يستمد القوة من روح كليبر نفسه » بترسم خطواته ؛ وفضلا عن ذلك فقد كان من المتوقع أن يلقى هذا « النداء » كل مقاومة من جانب أولئك القواد والضباط الذين تمتعوا بصداقة كليبر ووثق بهم القائد الراحل ، فساهموا فى تدبير تلك السياسة التى أسفرت عن عقد اتفاق العريش ، وكان داماس Damas رئيس أركان حرب كليبر أحد هؤلاء الأصدقاء الذين قربهم كليبر فأخلصوا فى معاونته كما كان داماس من كبار مؤيدى سياسة الجلاء عن مصر ، وعلى ذلك فقد أغضبه نداء منو ، واعتبر هذا النداء بمثابة طعنة نجلاء سددها منو إلى ظهر كليبر لاغتياله غدراً وخيانة ، مثل منو فى ذلك مثل أولئك القتلة الذين اغتالوا كليبر ، بل إن كراهية داماس لسليمان الحلبى

---

(١) Rigault 100.

(٢) Bricard 436.

قاتل كليبر سرعان ما اشتدت حدتها حتى شملت منو نفسه ، وعلى ذلك فقد ظل داماس يطلب الاقتصاص من قتلة كليبر يريد بذلك أن يشمل هذا الاقتصاص الجنرال منو أيضاً[١] .

وكان لهذا الانقسام الذى حدث فى صفوف الجيش أخطر الآثار على مصير الحملة ذاتها فى النهاية كما سيأتى ذكره . على أن منو وقد رسم الآن معالم السياسة التى قرر اتباعها قد بات لزاما عليه بعد إصداره نداء ٢٢ يونيه أن يتفرغ لشئون الحكم والإدارة فى تلك « المستعمرة » التى أوجدته الظروف على رأسها . كما بات ضروريا بعد أن أعلن إلى الجيش برنامجه أن يعلن هذا البرنامج كذلك إلى الإنجليز والعثمانيين ، ويبسط لهم موقفه من المفاوضة ، ثم من مسألة جلاء الحملة أو بقائها فى مصر ، حتى تصله أوامر قاطعة فى هذا الشأن من حكومته . ولذلك فقد بدأ منو نشاطه السياسى بإرسال تلك المذكرة التى كان كليبر قد أعدها رداً على خطاب موريه Morier سكرتير اللورد الجين الذى كتب إليه من يافا فى ٢ يونيه ، وذلك بعد عثور كليبر على (جورنال موريه) على نحو ما سبق ذكره ، وحال اغتيال كليبر فى ١٤ يونيه دون إرسالها . فبادر منو الآن بإرسال هذه المذكرة إلى موريه بعد أن أضاف إليها بضعة سطور جاء فيها[٢] : « لاجدال فى أن جورنال موريه لينهض دليلا على أن شيمة صاحبه الغدر والخيانة ، وأنه قد عهد إليه بأن يتخذ من المعاهدة المبرمة ستاراً يخفى وراءه تلك الخدعة الحربية التى اعتزم القيام بها » . وعلى ذلك فقد حذر منو سكرتير اللورد من سوء المصير إذا هو جرؤ على المجىء ، أو إرسال رسول من قبله إلى مصر . وهدده بإلقاء القبض عليه وعلى رسوله ومعاملة الجميع كجواسيس نصيبهم الشنق على « جذع شجرة » . ولما كان قد وقع فى الأسر بعض الضباط الإنجليز عند ما ارتطمت فرقاطتهم (كورموران) بالصخور عند أبى قير ، وخشى منو أن يلحق بياور الجنرال كليبر الضابط بوضوط Beaudot أى سوء — وكان كليبر قد أرسله للمفاوضة مع العثمانيين فاحتجزه الصدر الأعظم عنده — فقد حذر منو موريه وسائر الانجليز مغبة إلحاق أى أذى بهذا الضابط الفرنسى ، وعد الأسرى الانجليز وكانوا حوالى مائة واثنين وخمسين من مختلف الرتب العسكرية مسئولين عن ذلك .

---

(١) Rigault 102.

(٢) Galland I 299; Pièc. Offic. 273—4.

ولما كان السير سيدنى سميث قد بعث بكتاب فى ٩ يونيه من بارجته (تيجر) إلى الجنرال كليبر يحاول إقناعه بضرورة تنفيذ اتفاق العريش[١] ، فوصلت هذه الرسالة بعد مقتل كليبر ، بادر منو فى ٢٠ يونيه بإرسال الرد على هذا الكتاب[٢] ، فبلغ سدنى سميث خبر الاعتداء على كليبر على أيدى الأتراك حلفاء السير سدنى ، الذين لجأوا إلى استخدام « الخنجر سلاح الجبناء الأنذال » ، عند ما عجزوا عن هزيمة الفرنسيين فى المطرية . ثم تناول الكلام عن اتفاق العريش فقال : إن ما فعله السير سدنى عندما طلب من حكومته التصديق على الاتفاق ليوضح للقائد الفرنسى الطريق الذى يجب عليه هو الآخر أن يسلكه . ولهذا فالواجب يقتضى منو أن يطلب التصديق من القناصل أصحاب الحكم فى الجمهورية الفرنسية اليوم على أية معاهدة يمكن عقدها بين الجيش الذى يتولى قيادته وبين الانجليز وحلفائهم ، لأن ذلك وحده هو الطريق القانونى والملائم الذى يجب سلوكه فى كل ماقد يحدث من مفاوضات بينه وبينهم . وانتهز منو هذه الفرصة فألقى درساً قاسياً على السير سدنى سميث فى ضرورة احترام الأمم لكلمتها عند دخولها فى اتفاقات معينة ، أو إبرام معاهدات على أيدى رجالها ، فلا تلجأ إلى وسائل الغدر والخيانة التى كشفت عنها أوراق مورييه عند ما تبوء جهودها العسكرية بالفشل . ثم تحدث منو عما يلقاه الأسرى الانجليز من معاملة طيبة على خلاف مايلقاه بوضوط فى معسكر الصدر الأعظم وعرض على السير سدنى أن يطلق سراح هؤلاء الأسرى فى نظير عودة بوضوط إلى دمياط سالماً .

وأصر منو على موقفه من اتفاق العريش ، فرفض الاستماع إلى « مفاوض انجليزى » بعث به إليه الضابط بيبان من الصالحية[٣] . ولكنه لما كان يريد تخليص بوضوط ، فقد استمرت المكاتبات بينه وبين السير سدنى سميث فى الأيام التالية ، ووجد السير سدنى فى استمرار هذه المفاوضة وسيلة لمحاولة إقناع منو بضرورة تنفيذ اتفاق العريش والجلاء عن مصر . وكتب له فى ذلك فى ٢٢ يونية فقال :[٤] « فى وسع منو أن يزيل عقبة من العقبات التى تحول دون عقد السلام ، بإخلائه مصر حسبما تم عليه

(١) Charles—Roux II. 76.

(٢) Testa II 22—3 ; Rousseau 327—9 ; Pièc. Diver. 462—4 ; Pièc. Offic. 334—7 Richardot 455—6.

(٣) Rigault 107.

(٤) Testa II 23—4; Pièc. Off. 337—42 ; Piéc. Diver. 464—7.

الاتفاق مع كليبر . أما إذا رفض منو فإن الإنجليز مصممون على استخدام كل ما لديهم ولدى حلفائهم من وسائل لإرغام منو على قبول شروط لا ينتظر أن يجدها منو ملائمة كل الملاءمة » . ونصح منو بعدم إغلاق باب المفاوضة . وكان السير سدنى سميث يعقد آمالا عظيمة على نجاح مساعيه تأييداً لتلك السياسة التى جرى عليها من مبدأ الأمر ، وأسفرت عن عقد اتفاق العريش [١] . وفضلا عن ذلك فقد كان السير سدنى يبغى من كتابه هذا توجيه الخطاب إلى جيش الشرق عامة فى واقع الأمر ، وليس إلى منو وحده . وذلك ، كما ذكر السير سدنى فى رسالة له بعد ذلك إلى اللورد إلجين [٢] . لأنه كان يدرك تماماً رغبة قواد الحملة وضباطها فى العودة إلى أرض الوطن ، ولما كان يتوقعه كذلك من انفضاض هؤلاء من حول رجل لا يحترمونه ، أى أن السير سدنى كان يبغى من وراء كتابه هذا بذر بذور الانقسام والتفرقة فى صفوف جيش الشرق ، بعد أن اخفقت مساعى الانجليز فى إقناع منو بحكمة الجلاء عن مصر سلميا دون قتال ، وذلك حتى يحين الوقت الذى يستطيع فيه هؤلاء إرسال قواتهم لهزيمة منو وإرغامه على التسليم قهراً .

ولم يأبه منو لهذه الأساليب . ومع أنه أغفل الرد على رسالة السير سدنى [٣] ، فقد تكللت بالنجاح المفاوضات الدائرة بشأن الأسرى ، وفى ٢٠ أكتوبر أطلق منو سراح الأسرى الانجليز ، وقد لقى هؤلاء كل معاملة طيبة مدة أسرهم [٤] ، وعاد بوضوط سالما إلى دمياط ، وأطلق منو كذلك سراح مصطفى باشا [٥] .

وكما تعذر الاتفاق على الجلاء بين منو وبين الانجليز ، فقد كان من المتعذر كذلك أن يتم أى اتفاق بينه وبين العثمانيين فى هذه المسألة . لاسيما وأن منو لم يحجم فى المنشور الذى أذاعه على الجند فى ١٥ يونية عن توجيه الإتهام إلى الصدر الأعظم نفسه الذى حمله مسئولية اغتيال كليبر . واستند منو فى هذا الاتهام إلى ما ذكره سليمان الحلبى فى أثناء التحقيق من أن الجنود العثمانيين فى حلب كانوا يسألون عن شخص فى استطاعته الذهاب إلى مصر واغتيال القائد الفرنسى ، ولو أن سليمان الحلبى قد أنكر قطعاً

---

(١) Charles-Roux II 77.
(٢) Barrow II 63–4.
(٣) Charles-Roux II 77.
(٤) Galland I 309; Desgenettes (Mem. I) 154.
(٥) Pièc. Diver 50—2.

أن الصدر الأعظم نفسه قد كلفه بذلك [١] . ومع ذلك فقد كتب منو إلى الصدر الأعظم عند ما أبلغه نبأ الاغتيال : « إنه لن يسعى لمعرفة شركاء سليمان الحلبي في هذه الجريمة الشنعاء أو يبحث عنهم » . واهتم منو بتوضيح برنامجه السياسي ، ومداره عجز منو عن تنفيذ أي أمر قد تسفر عنه المفاوضة أو تنفيذ أية معاهدة أبرمت في الماضي أو يمكن إبرامها في المستقبل دون أن يسبق ذلك تصديق حكومة الجمهورية . وعلى ذلك فقد أحال منو المفاوضين على سفير الباب العالي في باريس ورؤساء الحكومة الفرنسية . ولم يشأ منو إغلاق باب المفاوضة في مصر إغلاقاً تاماً ، فأبدى استعداده للاصغاء إلى أية أحاديث قد تصدر من جانب يوسف ضيا الصدر الأعظم ، وإنما على شريطة أن يتأجل تنفيذ أي اتفاق قد تسفر عنه هذه الأحاديث إلى ما بعد تصديق حكومة الجمهورية الفرنسية عليه . كتب منو هذه الرسالة في ٢٩ يونيه [٢] وفي الأيام التالية لم تنقطع علاقاته بالعثمانيين ، فشكر القبطان حسين باشا الذي أطلق سراح بوضوط من الأسر (في ٢١ يوليو) ، وانتهز منو فرصة غرق سفينة من سفن الأسطول العثماني عند السويس ، وارتطام سفينة أخرى بالصخور عند أبي قير ووقوع قائدها في أسر الفرنسيين [٣] فأوفد منو هذا القائد بصحبة بوضوط نفسه للمفاوضة مع حسين باشا القبطان ، بشأن تبادل الأسرى ، ولكن القبطان حسين كان قد ابتعد وقتئذ بعمارته عن الشواطىء المصرية فانتظره بوضوط مدة طويلة دون جدوى .

وتوقع منو أن يفاجئه العثمانيون بشن هجومهم على الشاطىء الشمالي أو الحدود الشرقية ، فسهر (لانوس) بالاسكندرية على مراقبة حركة السفن العثمانية والانجليزية في البحر ، وأرسل منو عدداً من الجواسيس في دمياط والصالحية لاستطلاع حركات جيش الصدر الأعظم على الحدود الشرقية ؛ ثم لم يلبث أن عاود الاطمئنان منو رويداً رويداً من هذه الجهة ، عندما حمل إليه جواسيسه أنباء انتشار الوباء في الجيش العثماني ، وفتك المجاعة بجنود الصدر الأعظم ورجاله ، وفرار عدد كبير من الجنود من الجيش هروباً من الخدمة العسكرية ، ثم قيام النضال بين جيش الصدر الأعظم وقوات أحمد باشا الجزار صاحب عكا ، ثم بين هذا الجيش وأهل نابلس [٤] . وهكذا

---

(١) Pièc. Off. 308—16.

(٢) Rigault 107—8.

(٣) Martin II 133.

(٤) Reynier (Memoires) 146—7.

بدا كأنما قد انتهت مهمة منو الأولى بتوضيح سياسته للعدو من جهة ، وباطمئنانه إلى سلامة حدوده الشمالية والشرقية من جهة أخرى ولو بصورة مؤقتة . وفى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠ استطاع منو إذن أن يعرض فى شىء من الهدوء ما جد من وقائع ، وماطرأ على علاقاته مع العثمانيين والإنجليز من حوادث ، ويبسط ذلك كله فى تقرير شامل بعث به إلى وزير الخارجية الفرنسية فى باريس[١] . ويرسم منو فى هذا التقرير صوراً واضحة لكل من الصدر الأعظم يوسف ضيا والقبطان حسين باشا ؛ فوصف الصدر الأعظم بالخسة والوقاحة ، وقال : إنه بينما تزداد علاقته سواء مع الجزار باشا ومع أهل نابلس ثم مع العربان الذين درجوا على نهب القوافل ، فقد حرص على استبقاء المودة والتفاهم مع الإنجليز ، كما يبدو أنه يخشى العودة إلى القسطنطينية خوفاً من قطع رأسه وإعدامه .

ويذكر منو أن مندوباً روسياً يدعى فرانكينى Frankini يقيم فى معسكر الصدر الأعظم فى يافا ، ويبذل قصارى جهده لإقناع منو بأن البلاط الروسى يريد التقرب من الجمهورية الفرنسية ، حتى إنه لفرط حماسته قد أثار شكوك الصدر ضده ، ويتكلم منو عن القبطان باشا الذى استحكم العداء بينه وبين الصدر ، فيصفه بأنه كان أكثر علما ودراية من يوسف ضيا ، ويمتاز عنه بإنسانيته . فضلا عن أنه موضع ثقة السلطان ومن أقرب المقربين إليه . وقد تبادل معه منو عبارات الاحترام والتقدير ، واستطاع حسين باشا بفضل تجوله الكثير فى البحر بين دمياط والإسكندرية أن يرسل رسله إلى منو كما فعل الأخير ذلك ، لأن القبطان باشا كان يرغب رغبة شديدة فى المفاوضة مع منو وعقد معاهدة معه حتى تزداد حظوته عند السلطان ، وفضلا عن ذلك فقد ظل القبطان باشا يخشى من أن يعمد منو إلى إبرام اتفاق مع الصدر الأعظم . أما منو فقد اتخذ من رغبة هذين الرجلين فى المفاوضة والاتفاق وسيلة للاستماع إلى ما قد يتقدمان به من مقترحات ، يبغى من ذلك إطالة المحادثات على أمل أن يستطيع إثارة شكوكهما فى أثناء ذلك حول حلفائهما الانجليز ، وتكدير صفو العلاقات بينهما وبين هؤلاء . كما انتهز منو الفرصة ، فصار يتفاوض مع القبطان باشا بصدد إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذين قال إنه يوجد منهم عدد كبير فى القسطنطينية وجزر الأرخبيل وفى مختلف نواحى الليفانت ، يقابل ذلك نحو أربعة آلاف أسير عثمانى فى مصر . أما « لب المسألة وجوهرها » أى مسألة الجلاء عن مصر فقد أخطر منو الصدر الأعظم والقبطان

---

(١) Rousseau 357—63; Reyn ier 192—7.

باشا أن لا مفاوضة فى ذلك إلا فى باريس وفى القسطنطينية ، ولم ينس منو أن يذكر وهو يكتب ذلك أنه لا يزال يرجو أن تسفر هذه المفاوضة عن احتفاظ الفرنسيين بهذه البلاد ، التى سوف تصبح دون أى شك أعظم المستعمرات وأنخمها إطلاقا ، وفى وقت قريب . وتناول منو موقف الانجليز فقال إنهم على ما يبدو له فى شدة الاستياء من فعلهم عند ما نقضوا تسليم العريش المملوء بالكوارث فأضاعوا فرصة إخلاء مصر ، ومع ذلك فقد دأب السير سدنى على إرسال مفاوضين إلى منو وقابلهم منو بكبرياء وأنفه ، وساءه على حد قوله أن يدعى السير سدنى زورا وبهتانا أنه عامل (كورتينى بويل) Courtenay Boyle قبطان الفرقاطة (كورموران) معاملة سيئة . ولما كان الإنجليز قد قبضوا على عدة سفن يونانية فى المياه المصرية ، وكان اليونان من رعايا الدولة العثمانية ، فإنه لم يفته أن يوجه أنظار القبطان باشا إلى هذه الإهانة التى يلحقها الإنجليز بالباب العالى حليفهم .

وهكذا كان واضحاً أن المفاوضة فى « لب المسألة وجوهرها » على نحو ما قال منو نفسه ، أى الفصل فى مسألة الجلاء عن مصر أو البقاء فيها بقبول اتفاق العريش أو رفضه إنما هى من اختصاص حكومة القنصل الأول فى باريس ، وأنه من واجب الانجليز والعثمانيين كذلك أن يواصلوا سعيهم لدى هذه الحكومة . وبالفعل سرعان ما انتقل النشاط الدبلوماسى من مصر إلى ميادين أخرى . ولذلك فإنه إلى أن يسفر هذا النشاط عن نتائج حاسمة كان فى مقدور منو أن يجد متسعاً من الوقت لمعالجة شئون الحملة وشئون تلك المستعمرة التى أشرف على إدارتها .

التجربة الإستعمارية

١ — الإدارة والمال :

استرشد منو فى سياسته الداخلية بفكرة ظاهرة ، هى أن مصر « مستعمرة فرنسية » بكل ما يحمله ذلك من معنى ويترتب عليه من نتائج ، لا شك فى أن أهمها كان اعتباره نفسه نائباً عن حكومة القنصلية فى باريس فى حكم هذه البلاد ، وممثلا لها ، وصاحب الحق فى الوقت ذاته فى أن ينفرد بصفة « المشرع » واختصاصاته فى هذه المستعمرة ، على زعم أن الاتصال كان متعذراً بينه وبين القناصل لعدم انتظام المواصلات المستمرة بين المستعمرة وبين مقر حكومة القنصلية فى باريس . وعلى ذلك فقد اعتقد منو أنه إنما يشغل فى مصر مركز « رئيس الدولة » الذى تخوله الظروف القائمة معالجة أمهات المسائل الاقتصادية والاجتماعية

فى البلاد بوجه عام إلى جانب عنايته بأمر جيش الشرق ، من حيث العمل على توفير الموارد اللازمة لتموينه وتزويده بالسلاح ودفع مرتبات جنوده وضباطه وقواده وجميع رجال الحملة بدقة وانتظام . وبناء على ذلك فقد حرص منو على أن يصبح لكل ما يصدر من مقر قيادته العامة من أوامر صفة القوانين التى تستند إليها أداة الحكومة فى تصريف مختلف الشئون. فتعالج هذه الأوامر مسائل الإصلاح اللازمة فى فروع الإدارة ، إلى جانب إنشاء ما يتراءى له من إدارات جديدة ، أو كل ما كان يقتضى إجراؤه من إصلاحات تكفل رفع مستوى الأهلين وتحسين أحوال الفلاحين حتى يسعد المصريون من جهة ، ويطمئن الفرنسيون إلى عيشتهم فى هذه البلاد ويأمن جيش الشرق على حياة أفراده من جهة أخرى . وكان على ضوء هذه الاعتبارات جميعها إذن أن بنى منو برنامج سياسته الداخلية فكانت تلك (التجربة الاستعمارية) التى تعد بحق أكبر محاولة قام بها فرنسى منذ أيام بونابرت الأولى فى مصر ، لتحقيق أهم أغراض الحملة ، أى الاستعاضة عن الخسائر التى تكبدتها فرنسا فى الهند الغربية بإنشاء مستعمرة جديدة وجميلة فى مصر .

ووجه منو فى أول الأمر عنايته إلى الإصلاح الإدارى ؛ ويدخل فى ذلك الإشراف على « حسابات » الحملة بصورة مجدية ، ومراقبة كل ما يتصل بتموين الجيش وتغذيته وإعداد المستشفيات العسكرية وتزويدها بما يلزمها من معدات وأجهزة ، وترميم ثكنات الجنود فى الإسكندرية وغيرها ، والضرب على أيدى « الموردين » الذين تعهدوا بتقديم الملابس والأغذية وما إلى ذلك إلى جيش الشرق ، ومنع تلاعب « قوميسيرى الحرب » . فقد ظل توريد هذه المهمات إلى الجيش من أيام بونابرت عملية رابحة أثرى منها كثيرون ، فكان لهؤلاء الغنم بينما وقع على الجنود الغرم كله . وكان مما ساعد على انتشار هذه المفاسد أن القائمين على حسابات الحملة ظلوا موضع الظنون والشبهات منذ أن ثبت وقوع اختلاسات فى إدارة الإسكندرية ، كما ثبت أن المشرفين على إرسال الدقيق إلى الجنود فى المديريات كانوا لا يتورعون عن السرقة . ومن الذين حامت حولهم الشبهات وشك فى أمانتهم (سوسى) Sucy ، أحد مديرى المهمات أيام بونابرت نفسه . ومن المقطوع به كذلك أن (بوسيلج) مدير المالية لم يترك وراءه ذكرى عاطرة ، بل وجد من الفطنة والكياسة عند رحيله من مصر أن يجمع « دفاتر الحسابات » وينقلها معه إلى فرنسا ، صونا لسمعته ، حتى إن (إستيف) مدير المالية الجديد الذى حل مكانه فى هذه الإدارة ما لبث أن وجد لزاما عليه أن يوضح لقائد الحملة الجنرال منو ما يعترضه من صعوبات حالت دون معرفة حقيقة « الحسابات » التى كانت فى عهد بوسيلج قبل مغادرته .

وكان من أثر هذا الإهمال وسوء التدبير من المديرين الفرنسيين أن كثيرين من « القبط » الذين كلفوا بتحصيل الأموال والضرائب سرعان ما استطاعوا الاستيلاء على مبالغ كبيرة من الأموال التى جمعوها ، وساعدهم على استقطاع هذه المبالغ لأنفسهم أنهم كانوا يحتفظون بسجلات الإيراد ولا يطلعون أحداً عليها ، كما أنهم ظلوا يخفون ما كانوا يتبعونه من أساليب فى تدوين الحسابات وقيدها يصعب على غيرهم فهمها . وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء المحصلين دأبوا على إرغام الأهالى والفلاحين على دفع مبالغ تزيد كثيراً على مطلوب الميرى والضرائب الأخرى المفروضة عليهم ، حتى يحتفظوا بالفرق لأنفسهم [١] . ويبدو أن المعلم يعقوب أو يعقوب القبطى كما سماه الفرنسيون الذين وثقوا به ثقة عظيمة كان الرجل الوحيد الذى خالف فى ذلك سائر زملائه .

وكان من أسباب ارتباك الإدارة المالية وشئون الحكم عموما أن القواد الفرنسيين الذين عينوا حكاما للمديريات المختلفة عمدوا إلى الاستئثار بكل سيطرة إدارية فى الأقاليم التى يحكمونها ، فتصرفوا فى الأموال والضرائب التى جمعوها من الأقاليم حسب أهوائهم ووفق رغباتهم فكانوا ينفقونها فى أغلب الأحيان على جنودهم ، وفى مطالب الإدارة العامة فى مديرياتهم ، حتى إن الجنرال كليبر لم يسعه إلا أن يلفت أنظارهم إلى أن ما كانوا يحصلونه من أموال إنما هو « ملك » الجيش بأجمعه ، فلا يحق لهم أن ينفقوا هذه الأموال على جماعة من الجند دون أخرى [٢] وحاول كليبر تنظيم المالية فأصدر أمراً فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٧٩٩ بتأليف لجنة من سبعة أعضاء عهد إليها بوضع « ميزانية » لبيان إيرادات ومصروفات الحملة ، وكان كليبر ولا شك يبغى من ذلك إصلاح شئون الحملة ، ولو أنه كان يهدف كذلك إلى إقامة الحجة على أن جيش الشرق لا يستطيع البقاء طويلا فى مصر ، وأن من الخير له أن يبادر بالجلاء عن هذه البلاد [٣] على أن وفاة كليبر سرعان ما قضت على محاولة هذا الإصلاح . ووجد الجنرال منو عندما تسلم زمام الأمور أن يبدأ العمل من جديد لإدخال ضروب الإصلاح اللازمة فى جميع شئون الإدارة ، وكان أول ما عنى به تنظيم مالية الحملة وضبط وسائل الإشراف عليها ، فأصدر فى ذلك على وجه الخصوص أوامر عدة .

من ذلك أنه طلب فى أول يولية سنة ١٨٠٠ [٤] أن يقدم إليه قوميسيرو المصالح

---

(١) Rigault 113–5.

(٢) Rousseau 100–1.

(٣) Rigault 116.

(٤) Pièc. Off. 354–6.

ومديروها فى الجيش والبحرية وإدارة الأعمال الميكانيكية والمطبعة الأهلية ثم سكرتير المجمع العلمى وغير هؤلاء من المديرين والقوميسيرين حسابات مصالحهم ، كما أصدر أمراً يقضى على جميع الضباط والقواد الذين يقومون بالحكم فى المديريات أو يشرفون على الحصون والقلاع بتقديم معلومات وافية عن كل تلك الأمور ، التى تهم الإدارات العسكرية والمدنيـة معرفتها ، إلى رئيس هيئة أركان الحرب ، وأن يفعل ذلك أيضاً وكلاء الماليـة . وفى ٣٠ أغسطس ثم فى ١٢ نوفمبر سـنة ١٨٠٠ وضح منو فى أوامره الطريقة التى يمكن بها التحقق من إنفاق الأموال فى الوجوه المعينة لإنفاقها ، كما شكلت لجنة من خمسة أعضاء مهمتها مراجعة الحسابات والتصديق عليها . وفى ٩ يوليو أصدر منو أمراً بمنع حكام المديريات من جمع أموال أو أتاوى جديدة دون استصدار إذن صريح بذلك مقدماً . ثم تشدد منو فى معاقبة القبط الذين تثبت عليهم تهمة التلاعب . فقبض على أنطون أبوطاقية وأرغمه فى ٩ اكتوبر على دفع سبعمائة وخمسين ألفاً من الفرنكات ، «على أن يخصم هذا المبلغ من الأموال المطلوبة من الفلاح فى السنة المقبلة» وفى ٣٠ أغسطس أمر منو بتغيير اختصاصات (اللجنة الإدارية) التى أنشأها كليبر فى ٢٩ أبريل الماضى . وفى ٢ سبتمبر شكل منو (مجلسا خاصا) يضم الرؤساء العسكريين والمدنيين ، مهمته النظر فى شئون الحملة ماعدا ماكان متعلقا منها بمسائل الحرب والسياسة ، فيؤلف أعضاء هذا المجلس لجانا لدراسة مختلف الموضوعات[١] ولما كان هذا المجلس محروما من أية سلطات إدارية ، فقد اتخذه المعارضون لسياسة منو موضوعا لنقدهم اللاذع ، فاعتبره الجنرال رينييه «نادياً» لايمكن أن يترتب على إبقائه سوى إضعاف النظام فى الجيش ، وإشاعة الاضطراب بين جنود الحملة[٢] وخشى أنصار منو أنفسهم أن يجد أعداءهم (الكليبريون) فى وجود هذا المجلس وسيلة لإذاعة آرائهم ، وتحريض أعضاء المجلس العديدين على مقاومة منو ، يشجعهم على ذلك أنه لم يصل أى إشعار من فرنسا بتثبيت منو فى منصب قيادة الحملة العامة ، بل كان من المتوقع عند انعقاد هذا المجلس أن يطلب (الـكليبريون) استقالة منو من منصبه ، ويبدو أن أصدقاء القائد الجديد كانوا على حق فى مخاوفهم لأن منو امتنع عن دعوة المجلس الخاص للانعقاد بتاتا وظلت اللجنة الادارية تقوم بأعمالها[٣] .

---

(١) Galland I 314—9.
(٢) Reynier 118.
(٣) Rigault 122.

وكان منو أكثر توفيقاً فى ميدان آخر عندما أشرك معه (استيف) فى تنظيم الإدارة المالية على أساس العمل الذى قام به الجنرال كليبر فى هذه الناحية منذ أن صدر أمره فى ٢٨ إبريل سنة ١٨٠٠ بإلغاء الإدارة المالية القديمة ، فأصدر منو الآن أوامره فى ٣٠ أغسطس و٧ سبتمبر ، كما أصدر منشوراً لهذه الغاية فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٠٠ ؛ وذلك لتأليف هيئة إدارية برياسة إستيف للاشراف على الشئون المالية . فتناولت هذه الأوامر جميعها تنظيم الهيئة التى كان عليها أن تتسلم الأموال المتحصلة من الضرائب وغيرها ، وضبطها ثم مراجعة حساب الإيرادات من جهة ، والنفقات المدنية والعسكرية من جهة أخرى ، على أن يستمر القبط فى تحصيل الأموال والضرائب . وبمقتضى هذا التنظيم الجديد أصبح مدير هذه الهيئة مسئولا عن إدارته أمام الوزير المختص فى الحكومة المركزية بفرنسا ، ثم أمام القائد العام بوصفه ممثلا لحكومة الجمهورية فى مصر . ومع أن هذا التنظيم كان دقيقا فى جملته فإنه لم يمنع محصلى الضرائب من السرقة[1] .

وكان الغرض من هذه التنظيمات أن تتوافر لدى القيادة العامة الأموال اللازمة للانفاق على جيش الشرق حتى تتحسن حال الجند وسائر رجال الحملة عموماً ، وفضلا عن ذلك فقد أراد منو أن يسد ديون الحملة وأن يدفع مرتبات الجند بصورة منظمة ، إلى جانب الانفاق على شئون الادارة العامة ؛ ولكى يتسنى لقائد الحملة فعل ذلك كله ، أقبل منو على تدبير المال بكل وسيلة . فقد بلغ ما كان يحصله الفرنسيون من هذه البلاد حسب تقدير (دالماس Dalmas) أحد رجال ماليتهم فى يوليو سنة ١٨٠٠ ثمانية عشر مليوناً من الفرنكات سنوياً ، بينما ظل البكوات المماليك يجمعون من أهلها حوالى ستين مليوناً فى السنوات السابقة . والعلة فى هذا النقص أن الفرنسيين عمدوا إلى إعطاء القبط محصلى الضرائب أوراقاً ممهورة بإمضاءاتهم يقيد بها هؤلاء قيمة ما يحصلونه ؛ وكان القبط على نحو ماسبقت الإشارة إليه يحصلون من القرى مبالغ أكبر من المتفق على تحصيلها من أهلها ؛ زد على ذلك أنه كان لحالة الحرب القائمة أثر ملموس فى تعطيل التجارة ، كما نقص الإيراد بسبب التنازل إلى مراد بك عن جزء كبير من أقاليم الوجه القبلى التى ترك له التمتع بإيرادها . وكان مما زاد الطين بلة أن فيضان النيل جاء منخفضاً فى سنة ١٢١٤ هـ (١٧٩٩) ، كما ظلت مساحات واسعة من الأراضى دون زراعة . وعمد الفلاحون بسبب ذلك كله إلى الفرار من القرى تخلصاً

(١) Ibid 123.

من دفع الضريبة ، وزادت الحال سوءا نتيجة لذلك الحصار الشديد الذى فرضه الإنجليز على الشواطىء المصرية . وقد حدث هذا كله فى وقت بلغت فيه نفقات الجيش من خمسة عشر إلى ستة عشر ألفاً من الفرنكات فى الشهر الواحد ؛ وعلى ذلك فقد بات من الواضح أن منو سوف يلجأ إلى وسائل غير عادية لجمع الأموال ، وأنه سوف يثير بذلك تذمر المصريين وشكواهم من إدارته .

وكان من الميسور ابتكار مختلف الوسائل لابتزاز الأموال من الأهلين ، ونشطت اللجنة الإدارية خلال شهور يونيه ويوليو وأغسطس تجمع ما فرض على القاهرة وبولاق ودمياط من غرامات فادحة . كما تولت أمر التصرف فى كل تلك البضائع والسلع التى وقعت فى قبضة السلطات الفرنسية عند مصادرة السفن العثمانية والسفن التجارية التى جاءت إلى الاسكندرية عقب اتفاق العريش . فأجبرت القاهرة على دفع حوالى خمسة ملايين من الفرنكات ، وهى الغرامة التى فرضت على أهلها نظير قيام ثورتهم الثانية ، وانتهوا من دفعها « عيناً » فى ١١ أغسطس ، ثم جمعت السلطات الفرنسية حوالى مليون من الفرنكات من الأقاليم . وصدر فى ١٤ أغسطس أمر إلى (استيف) أن يجمع مليون فرنك من الوجاقلية الذين تتألف منهم الفرق العسكرية التى أنشأها السلطان سليم وكان هؤلاء يملكون مساحات واسعة من الأراضى ، ثم طلب من يعقوب القبطى أن يسدد ما بقى من حساب الغرامة المفروضة على حى بولاق من جيبه . وفكر منو فى إعداد مشروع يمكنه من الحصول على قدر معين من المال من المشايخ ، حتى يتسنى له بذلك وبفضل ما يجمعه من أموال أخرى أن ينفق على جيش بلغ خمسة وعشرين ألفاً ، « من غير حاجة — كما قال — لإزعاج أهل البلاد وتعطيل نشاطهم التجارى ! » .

ونفذ منو رغبته لجمع أموالا طائلة من مشايخ البلاد والشوام والقبط واليهود وسائر سكان القاهرة من غير المسلمين ، واستثنى من ذلك يونانيي جزر الأرخبيل فحسب ، نظراً لما يقدمه هؤلاء من « خدمات » للحملة فى محيط التجارة الخارجية . ثم تناول منو الضرائب الجمركية فأعاد تنظيمها بصورة جعلت فئاتها تتراوح بين ٤٪ و ٧٪ من قيمة التجارة المستوردة ، بينما فرض ضريبة قدرها ١٨٪ على البضائع المجلوبة بطريق القصير إلى أسيوط . وكان غرضه من فرض هذه الضريبة العالية أو « المانعة » أن يضطر التجار إلى إرسال بضائعهم المجلوبة من بلاد العرب إلى السويس ، بدلا من إرسالها إلى ميناء القصير . أما الضرائب التى أمر منو بتحصيلها على الصادرات فقد أصبحت عدا استثناءات قليلة لا تزيد عن ٤٪ . وعمل منو بجانب ذلك كله على

تنشيط التجارة بين مصر وفرنسا ، فأجاز للتجار الذين يستوردون بضائعهم من فرنسا أو يصدرونها من مصر أن يدفعوا نصف الضريبة الجمركية المقررة على مثل هذه البضائع فقط . وألغى منو فى ٥ و ٧ سبتمبر عدداً من الضرائب القديمة ، كضريبة الملح والصيد فى النيل والبحيرات ، والأنبذة ومشروب العرقى ، واستعاض عنها بضريبة بسيطة على الملح حوالى فرنك وربع على كل أردب من الملح تجبى فى أماكن إنتاجه . كما جرى تحصيل ضريبة من الراغبين فى صنع المشروبات الروحية بنسبة ما ينتجه هؤلاء منها .

ولما كان البكوات المماليك قد درجوا على فرض ضريبة على الأملاك المنقولة باسم « بيت المال » عند وفاة صاحبها وانتقال تركته إلى وارثيه ، ولم تكن قيم هذه الضريبة معروفة أو محددة ، فقد استبدل منو بهذه الضريبة غيرها وجعلها حوالى ٥٪ من قيمة الأملاك ، سواء أكانت منقولة أم ثابتة . وفى ١٥ سبتمبر عمم هذه الضريبة حتى شملت جميع التركات التى يتركها أصحابها ، مهما اختلفت جنسية هؤلاء أو دياناتهم . ومع أن « الكليبريين » ثاروا فى وجه منو بسبب هذا الترتيب الجديد ، بدعوى أن مصر ليست « مستعمرة فرنسية » — على نحو ما يأتى ذكره — فقد أصدر منو أوامر أخرى فى أيام ١١ ، ٢٢ ، ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٠٠ بإلزام جميع الأفراد ، بما فى ذلك الفرنسيين أيضا ، بدفع الضرائب المطلوبة إلى الخزانة العامة[١] . ومضى منو فى ابتكار وسائل جمع المال ، فقرر فى ١١ سبتمبر أن تجبى « الدخولية » من عشرين مدينة من المدن المصرية الهامة مع إعفاء البضائع التى دفع عنها أصحابها ضرائب جمركية من هذه الرسوم الداخلية . وفى ١٢ أكتوبر فرض منو قدراً كبيراً من المال على أصحاب الحرف والصناعات يدفعونه فى كل سنة ، ثم ما لبث أن طلب من القبط مليوناً من الفرنكات ، ومن الشوام مائة وخمسين ألفاً ، ومن اليونانيين خمسين ألفاً ، ومن اليهود ثلاثين ألفاً ، ومن الأفرنج أربعين ألفاً . على أن يدفع هؤلاء جميعهم هذه الأموال فى الفترة الواقعة بين ديسمبر سنة ١٨٠٠ وسبتمبر من العام التالى[٢] .

وغنى عن البيان أن هذه الغرامات الفادحة سرعان ما أثارت السخط الشديد ضد الفرنسيين ، وكانت من عوامل تعطيل التجارة . وقد وصف الشيخ الجبرتى شيئا من الأساليب التى لجأ إليها منو فى تنفيذ سياسته المالية ، كما وصف آثارها فقال فى حوادث شهر صفر سنة ١٢١٥ (يونيه — يوليو سنة ١٨٠٠) ، بعد ذكر الوقائع التى ارتبطت

---

(١) Ibid 132.

(٢) Ibid 134.

بمقتل كليبر : « وفيه — أى فى شهر صفر — قرروا فردة أخرى وقدرها أربعة ملايين ، وقدر المليون مائة وستة وثمانون ألف فرانسة . وكان الناس ماصدقوا قرب تمام الفردة الأولى ، بعد ماقاسوا من الشدائد مالا يوصف ، ومات أكثرهم فى الحبوس، وتحت العقوبة ، وهرب الكثير منهم ، وخرجوا على وجوههم إلى البلاد ، ثم دهوا بهذه الداهية أيضاً » . ثم تكلم الشيخ عن الطريقة التى جرى بها توزيع هذه « الفردة » على الأهالى ، سواء على الملتزمين أم التجار أم الملاك أم أصحاب الحرف[1] . فقال : وفى شهر ربيع الأول من العام نفسه (يوليو — أغسطس سنة ١٨٠٠) نادوا — أى الفرنسيين — على الناس الخارجين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر من بعد اثنين وثلاثين يوما من وقت المناداة نهبت داره وأحيط بموجوده[2] » .

وذكر الشيخ فى حوادث شهر ربيع الثانى (أغسطس — سبتمبر سنة ١٨٠٠) : « وفيه اشتد أمر المطالبة بالمال وعين لذلك رجل نصرانى قبطى يسمى شكر الله ، فنزل بالناس منه مالا يوصف . فكان يدخل إلى دار أى شخص كان لطلب المال وبصحبته العسكر من الفرنساوية والفعلة وبأيديهم القزم فيأمرهم بهدم الدار إن لم يدفعوا له المقرر وقت تاريخه من غير تأخير . وخصوصاً مافعله ببولاق . فإنه كان يحبس الرجال مع النساء ويدخن عليهم بالقطن والمشاق وينوع عليهم العذاب ، ثم رجع إلى مصر يفعل كذلك[3] » وكان مما حدث فى هذا الشهر كذلك أن أغلق الفرنسيون جميع الوكائل والخانات « على حين غفلة فى يوم واحد وختموا على جميعها » ثم صاروا يفتحونها وينهبون مافيها « فإذا فتحوا حاصلا من الحواصل قوموا مافيه بأبخس الأثمان وحسبوا غرامته . فإن بقى لهم شىء أخذوه من حاصل جاره وإن زاد له شىء أحالوه على جاره الآخر كذلك وهكذا . . . » .

وعند ذكر حوادث شهر جمادى الأول سنة ١٢١٥ (أغسطس ـ سبتمبر سنة ١٨٠٠) وصف الشيخ الجبرتى مالجأ الفرنسيون إليه من أساليب لابتزاز الأموال من أهل القاهرة بدعوى حملهم على دفع الغرامة المفروضة عليهم فقال[4] : « وذلك أنهم لما قسموا الأخطاط . . وتولى ذلك أمير الخطة وشيخ الحارة والكتبة والأعوان وزعوا

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) الجبرتى ٣ : ١٤٢ .

(٣) الجبرتى ٣ : ١٤٢ — ١٤٣ .

(٤) الجبرتى ٣ : ١٤٣ — ١٤٤ .

ذلك برأيهم ومقتضى أغراضهم ، فأول ما يجتمعون بديوانهم يشرع الكتبة فى كتابة التنابيه وهى أوراق صغار باسم الشخص والقدر المقرر عليه وعلى عقاره بحسب اجتهادهم ورأيهم وعلى هامشها كراء طريق المعينين ويعطون لكل واحد من أولئك القواسة عدة من تلك الأوراق ، فقبل أن يفتح الإنسان عينه مايشعر إلا والمعين واقف على بابه وبيده ذلك التنبيه فيوعدوه حتى ينظر فى حاله فلا يجد بدا من دفع حق الطريق فما هو إلا أن يفارقه حتى يأتيه المعين بتنبيه آخر فيفعل معه كالأول وهكذا على عدد الساعات فإن لم يوجد المطلوب وقف ذلك القواس على داره ورفع صوته وشتم حريمه أو خادمه فيسعى الشخص جهده حتى يغلق ماتقرر عليه بشفاعة ذى وجاهة أو نصرانى وما يظن أنه خلص إلا والطلب لاحقه أيضاً بمعين وتنبيه فيقول ماهذا ؟ فيقال له إن الفردة لم تكمل وبقى منها كذا وكذا وجعلنا على العشرة خمسة أو ثلاثة أو ماسولت لهم أنفسهم . فيرى الشخص أنه لابد من ذلك . فما هو إلا أن خلص إلا وكرة أخرى وهكذا أمراً مستمرا ومثل ذلك ماقرر على الملتزمين فكانت هذه الكسورات من أعظم الدواهى المغلقة ونكسات الحمى المطبقة » وقد استمر الحال على هذا المنوال فى الشهور التالية كذلك حتى إذا بدأ ينتشر وباء الطاعون فى شهر شوال (يناير — فبراير سنة ١٨٠١) ثم نشب النضال مع العثمانيين والإنجليز ، وجد الفرنسيون مايشغلهم ، ولو أن ذلك لم يصرفهم عن جمع الغرامات والأتاوى من المصريين .

ويبدو لأول وهلة وبسبب ما تقدم جميعه أن منو ما كان يقصد من تدابيره المالية سوى ابتزاز المال لحسب للانفاق منه على الجيش والإدارة . ومع ذلك فقد ظل منو يفكر فى خير الطرق التى يمكن بها إصلاح شئون البلاد وتنمية مواردها المالية بصورة تمكنه من تدبير المال اللازم لسد نفقاته دون الالتجاء إلى تلك الأساليب الجائرة التى أرهقت المصريين وسببت سخطهم ، وآية ذلك أنه أعد مشروعاً فى يناير سنة ١٨٠١ لتنظيم الضرائب على أساس الاكتفاء بضريبة واحدة بدلا من كل تلك الضرائب المتعددة السابقة ، من مباشرة وغير مباشرة ، التى أرغم الفلاح على دفعها وناء بحملها . أما هذه الضريبة الواحدة التى اختارها منو فكانت « ضريبة الأرض » وقد استرشد منو فى ذلك بآراء الفيزوكرات Les Physiocrats أولئك القائلين بحكم الطبيعة والذين ظهروا فى فرنسا أيام ثورتها الكبرى وأوجزوا مبادئهم فى العبارة المشهورة « دعه يعمل ، دعه يمر » وكانوا أصحاب الضريبة الواحدة أو ضريبة الأرض على اعتبار أن الأرض وحدها هى مصدر الإنتاج والثروة الاقتصادية ، فلا تفرض ضرائب على

غيرها . وقد عرف مشروع منو باسم المشروع العظيم (Le Grand Projet) أو مشروع ٣٠ نيفوس من السنة التاسعة للجمهورية .

المشروع العظيم :

أما هذا المشروع العظيم فقد تناول مسألة الضرائب كما تضمن الاصلاحات التى اعتزم منو إجراءها بضبط وتحصيل الأموال خصوصا . وقضى منو وقتاً طويلا فى إعداد مشروعه العظيم ، فذكر فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٠ فى منشور أصدره « لأهل مصر[١] » بعض وجوه الاصلاح التى ارتآها ضرورية لرفع كل تلك الضرائب العديدة التى أرهقت الأهلين وأثقلت كواهلهم ، والاستعاضة عن ذلك بضريبة واحدة . وفى ٢٠ يناير سنة ١٨٠١ (٣٠ نيفوس من السنة التاسعة للجمهورية) صدر أمر منو بهذا المشروع العظيم[٢] وكان مشروعاً عظيما حقاً ، لا جدال فى أنه لو أمكن تنفيذه لاستطاع أهل تلك البلاد أن يخلصوا من كثير من المساوىء التى اقترنت بنظم فرض الضرائب وتحصيلها . ذلك أن هذا المشروع العظيم كان يقر مبدأ المساواة بين المصريين فيما يؤدونه من ضرائب ؛ كما أن تنفيذه كان يقتضى حرمان الملتزمين من ممارسة شئون القضاء والادارة التى درجوا من قديم الزمن على ممارستها فى أرضهم ، أو بمعنى أدق فى تلك الأراضى التى « التزموا » بها ، فأصبحوا يتوارثونها لقاء دفع المال المربوط عليها إلى الحكومة . وفضلا عن ذلك فقد منع القبط بفضل هذا المشروع من تحصيل الأموال . وذلك منعا للتلاعب الذى أدى إلى وقوع كثير من الاختلاسات ، إلى جانب إزال صنوف العسف والإرهاق بالأهلين والفلاحين عند تحصيل الضرائب .

وعلى ذلك فقد تألف المشروع العظيم من ثمان وعشرين مادة ، تناولت موضوع الضرائب ، فنصت على إلغاء كل الضرائب التى اعتاد الفلاحون والأهلون دفعها كالميرى والبرانى والفايض إلى غير ذلك من الغرامات والضرائب الاضافية التى ابتكرها الملتزمون (والبكوات المماليك فى الزمن السابق) وأرهق بسببها الفلاحون ، على أن يبدأ هذا الالغاء من سنة ١٢١٥ هجرية . والاستعاضة عن ذلك جميعه بضريبة واحدة ابتداء من العام نفسه . أما هذه الضريبة الواحدة فيكون تحديدها حسب عدد الأفدنة التى فى حوزة أصحابها وجودة الأرض ، كما صار من حق القائد العام وحده أن يحدد

---

(١) Rousseau 367—73; Reynier (Mém. 166—72); Pièc. Div. 567—70.

(٢) Reybaud VIII. 72—4 ; Rousseau 382—93.

قيمة الضريبة فى كل سنة على حدة عقب فيضان النيل ، وقسمت الأرض إلى ثلاثة أنواع تجبى عنها حسب جودتها فئات معينة بين عشرين ، وسبعة عشر وأربعة عشر فرنكا ؛ وذلك حتى يعرف الفلاح الذى يملك ستة أفدنة مثلا من الأراضى الجيدة ، أنه قد قام بدفع ما عليه إذا حصل منه الجباة قيمة الضريبة المفروضة عليه وقدرها مائتان وأربعة فرنكات ، فلا يستطيع أن يزعجه أحد بعد ذلك من الملتزمين أو مشايخ البلد أو الكتاب والصيارفة ؛ ولا يطلب منه إنسان أن يساهم بشىء فى نفقات إصلاح الجسور والقنوات وما إليها . وتعهد منو فى مشروعه العظيم بعدم زيادة هذه الضريبة الواحدة . بل إنه وعد بتخفيضها فى السنوات التى يأتى فيها فيضان النيل رديئا على شريطة أن يقوم الفلاح فى كلا الحالين بدفع القيمة المطلوبة منه تماما . أما إذا قصر الفلاح فى أداء ما عليه فقد هدد منو بإرسال الجند إلى القرى لتحصيل الضريبة قسراً ، ويتحمل عندئذ أهل القرى نفقات إرسالهم .

أما الأموال المتحصلة من هذه الضريبة الواحدة فقد قسمت بمقتضى هذا المشروع العظيم إلى أربعة وعشرين جزءاً ، منها اثنا عشر جزءاً نصيب الجمهورية الفرنسية ، وسبعة أجزاء يأخذها الملتزمون فى نظير ما فقدوه من الأموال التى اعتادوا تحصيلها من القرى والتى « التزموا » بها ، ثم ثلاثة أجزاء تعطى إلى مشايخ البلد تعويضا لهم عن الأتاوة التى كانوا يحصلونها من القرى ، ولتشجيعهم على تأدية أعمالهم . ولما كان منو قد فرض فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٠٠ على هؤلاء المشايخ مبلغا كبيراً من المال فقد استنزلت هذه الأجزاء الثلاثة من الأتاوة المفروضة عليهم ، وأما ما تبقى بعد هذا التوزيع وقدره جزءان ، فقد خصص للانفاق على أعمال القنوات والجسور ولدفع أجور العمال حتى يعفى الفلاحون من السخرة .

ومما تجدر ملاحظته أن هذا المشروع العظيم قد حرم الملتزمين كذلك من الإيراد الذى كانوا يحصلونه من أرض الأثر ، ولذلك فإن السبعة أجزاء التى أعطيت لهم كانت فى واقع الأمر بمثابة معاش سنوى يصرف لهم ، وقد منع هؤلاء الملتزمون من تحصيل هذه الأموال بأنفسهم منعاً قاطعاً ، بل إنهم ما لبثوا حتى حرموا كذلك من ممارسة « سلطانهم » القديم فى القرى أو الأرض التى ظلت فى حوزتهم أزماناً طويلة ، عند ما نصت المادة الحادية والعشرون على أنه « من الممنوع بتاتاً أن يتدخل الملتزمون فى شئون القرى أو يتمتعوا بأى سلطان بها ، لأن جميع ما كانو يتمتعون به من سلطان فى الماضى قد حرمتهم منه الجمهورية الفرنسية . . . فالحكومة وحدها هى صاحبة الحق فى إصدار أحكام الحياة والموت ، ولو أنها لا تستطيع فعل ذلك إلا عن طريق

القضاء ووفق القانون » : والنتيجة الظاهرة لذلك كله أن الملتزمين باتوا بفضل هذا المشروع العظيم مجرد ملاك لأراضى « الوسية » التى يملكونها فحسب ، كما نجم عن تحرر الفلاح من جميع القيود المالية والقضائية القديمة أن غدت أملاكه محررة كذلك ، فأصبح فى مقدوره أن يتصرف فى الأرض التى فى حوزته ، وقد عزز هذا المبدأ اعتراف المشروع العظيم فى مادتيه الرابعة عشرة والخامسة والعشرين بأن الفلاحين ملاك للأراضى . وجاء فى المادة السادسة والعشرين « أن لجميع ملاك الأراضى مطلق الحرية فى أن يزرعوا أراضيهم حسبما يشاءون » .

على أنه لما كان من المتعذر تنفيذ هذا المشروع العظيم قبل أن تتم مساحة جميع الأراض الزراعيه فقد أنشأ منو فى ٢ مارس سنة ١٨٠١ لجنة للمساحة ، من أعضائها المهندس لوبير Le Père والمهندس الجغرافى جاكوتان Jacotin . وذلك من أجل « الوصول إلى تحديد قيمة ضريبة الأرض السنوية أو الميرى وتحصيلها بالعدل والقسطاس فى مصر » وكان من أهم أعمال هذه اللجنة ضبط مساحة الفدان المصرى وتوضيح هذه المساحة بالمقاييس الفرنسية المعروفة . وفى ٥ مارس عرضت اللجنة على منو جميع القرارات التى وصلت إليها فى كل ما من شأنه أن يمهد الطريق أمامها لقيامها بالمهمة الملقاة على عاتقها . [1] ولكن فى مارس سنة ١٨٠١ كان قد استؤنف النضال بصورة جدية من أجل تقرير مصير الحملة ذاتها ، فتعذرت مساحة الأراضى الزراعية ، وتعذر كذلك تنفيذ المشروع العظيم ، مشروع الضريبة الواحدة .

٢ — الزراعة والصناعة والتجارة :

ومع أنه كان من شأن الأساليب التى لجأ إليها منو للحصول على المال بكل وسيلة تعطيل الإنتاج ووقف النشاط الاقتصادى فى داخل البلاد عموما ، فقد عول قائد الحملة الجديد على معالجة هذه الحالة بالتوفر على العناية بشئون الزراعة والصناعة والتجارة ، على أمل أن يصل من ذلك كله إلى دعم أركان تلك المستعمرة الناجحة التى أراد تأسيسها فى مصر . يهدف من مشروعاته الإصلاحية إلى تحقيق غرض واحد هو أن تغدو هذه البلاد مركزاً زراعياً وتجاريا هاما تجنى فرنسا منه كل ربح وفائدة . ولما كان الاهتمام بتنمية الزراعة يقتضى العناية بوسائل الرى ، بما فى ذلك إصلاح القنوات وإقامة الجسور ، لما يجلبه تشجيع الزراعة على حد قوله من منفعة لفرنسا

---

(١) Rigault 258—9.

عند بقاء هذه البلاد فى حوزة الجمهورية الفرنسية بعد عقد الصلح العام ، ولما يترتب عليها كذلك من آثار طيبة يستطيع بفضلها الفرنسيون إذا خرجت مصر من قبضتهم أن يفخروا بما أسدوه للانسانية من خدمات جليلة فقد أصدر منو أمراً فى ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠٠ (١) إلى مهندسى الحملة ، أن ينتشروا فى أرجاء القطر لدراسة مجرى النهر وفحص القنوات والجسور ، ومنع منو تدخل حكام المديريات المختلفة فى أعمال هؤلاء المهندسين . وفضلا عن ذلك فقد اهتم منو بمعرفة مقدار الأراضى الزراعية فى مصر ، فطلب من القبط أن يقدموا له بيانات مفصلة عن ذلك ، وكان غرض منو أن يخصص جزءاً من الأراضى الزراعية التى تملكها الدولة لإنتاج الغلات التى تحتاج إليها فرنسا « لأن مصر — على حد قوله — قد أصبحت بصورة لا تحتمل أى جدل أو مناقشة مستعمرة فرنسية ، وعلى ذلك فإنه ليبدو أن إنشاء حديقة للتجارب من أعظم المشروعات فائدة وأجداها نفعا . وذلك لأنه من الممكن تجربة زرع نباتات جديدة بهذه الحديقة حتى إذا نجحت التجربة عممت هذه الزراعات فى أرجاء البلاد» .

وكان لتحقيق هذا الغرض أن أعطى منو لأحد المواطنين الفرنسيين فى أوائل يوليو سنة ١٨٠٠ حق الانتفاع بقطعة من الأرض الزراعية فى قرية (ميت عقبة) ، لإجراء تجارب زراعة البن وقصب السكر (٢) . وفى ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠٠ أصدر منو أمراً بتشكيل لجنة للزراعة (٣) تضم إليها شامبى Champy و ودليل Delisle و نكتو Nictoux ، كلفها بإنشاء حديقة لزراعة النباتات المجلوبة من فرنسا والاستكثار منها إلى جانب التوفر على العناية بأمر النباتات التى تنمو بالبلاد نفسها . وذلك حتى يمكن على حد قوله — الاستفادة من البذور التى وصلت حديثا من فرنسا استفادة تامة من جهة وحتى يمكن تشجيع الزراعة فى هذه البلاد ، والعناية كما يجب بالأشجار التي تنمو فى مصر ذاتها . وفى ٢٤ سبتمبر كتب منو إلى القنصل الأول (٤) ينبئه بإنشاء (حديقة للنبات) فى القاهرة ثم يطلب إليه إرسال مجموعة كبيرة من بذور الخوخ والمشمش والكمثرى والتفاح وإرسال عدد من البستانيين المدربين إلى القاهرة . ولما كان من أغراض (اللجنة الزراعية) عند تأسيسها العناية بالغلات الوطنية فقد أشرف هؤلاء على زراعة

---

(١) Pièc. Off. 394–5; Pièc. Diver. 305, 500.

(٢) Rigault 107.

(٣) Pièc. Off. 385–6; Pièc. Div. 497–9.

(٤) Rousseau 348.

الأرز والقمح والذرة وغير ذلك من الغلات التي يزرعها الفلاح . كما درس أعضاء اللجنة كل المسائل المتعلقة بإنتاج الأراضي الزراعية في مصر وبحثوا وسائل تقوية الأرض .

ولما كان فيضان النيل رديئاً في سنة ١٨٠٠ فقد قامت حكومة منو بتوزيع البذور والتقاوي على الفلاحين ، وعنى مهندسو اللجنة الزراعية بملاحظة الأراضي حتى يوفروا الأسباب التي تكفل زرعها بسهولة . وفي ١٤ يوليو[١] أصدر منو أمراً بمنع قطع الأشجار للحيولة دون إبادة الأشجار المصرية . وذلك لأنه « لما كانت الأخشاب الضخمة الصالحة للوقود ولبناء السفن لحسب هي التي تأتي إلى البلاد عن طريق تجارتها الخارجية ، فقد بات من الواجب على مصر أن تعتمد على أرضها في إنتاج الأشجار التي تصلح لأعمال النجارة الدقيقة » . وفضلا عن ذلك فقد أراد منو أن يشجع أهل القرى على الاستكثار من زرع أشجار الجميز والتوت واللبخ وما إليها . وفي العام الزراعي ١٨٠٠ — ١٨٠١ كانت جهود منو قد أثمرت فانتعشت الزراعة المصرية[٢] . كما أن هذه الجهود مالبثت أن لقيت كل ترحيب في فرنسا فنشر جورنال المونيتور الفرنسي Moniteur في ١٦ ديسمبر سنة ١٨٠٠ بأمر من بونابرت خطاب منو المتعلق بحديقة النبات ، كما نشر القنصل الأول في الأسبوع التالي في الصحيفة نفسها خطاباً كان منو قد أرسله في ١٤ نوفمبر يتحدث فيه عن إرسال عينات من السكر إلى فرنسا حتى يرى الفرنسيون ماتستطيع مصر أن تنتجه[٣] . وعلاوة على ذلك فقد أجاب القنصل الأول رغبة منو فأعد بعثة من ثمانية من البستانيين الحاذقين يحملون معهم اثنين وسبعين صندوقاً من بذور الفاكهة وعدداً كبيراً من شجيرات الفاكهة عدا الآلات والأدوات الزراعية اللازمة لإجراء التجارب المزمعة في حديقة النبات في القاهرة . وقد غادرت هذه البعثة طولون في ٢١ إبريل سنة ١٨٠٠ على ظهر السفينة (لافيرج دي نييج) La Vierge des Nièges في طريقها إلى مصر ، ولكنها سرعان ماوقعت في قبضة الأسطول الإنجليزي أمام برج العرب على مسافة قريبة من الإسكندرية في مساء ٨ يونيه[٤] .

ومع أن اللجنة الإدارية كانت قد قطعت في ٢١ يونيه سنة ١٨٠٠ بأنه «من المستحيل

---

(١) Pièc. Div. 484–5 ; Pièc. Off. 367–9.

(٢) Rigault 168

(٣) Lokke et Debien 349

(٤) Ibid 355

فعل شىء للنهوض بالصناعة » فى مصر[1] . فقد كان للجيش مطالب عدة لاغنى عن تدبير كل مايمكن من وسائل لإجابتها . وبات لزاما على منو كذلك أن يهتم بأمر الصناعة المحلية والقيام بعدة تجارب فى سبيل إحيائها قبل الانصراف نهائيا عن محاولة النهوض بالصناعة فى هذه البلاد . وكان مما شجع منو على المضى فى محاولاته أن المهندس كونتى Conti استطاع أن يعرض منوالاً لنسج الأقمشة ، كما تبين أنه كان فى وسع التجار الفرنسيين المقيمين فى القاهرة إدارة مثل هذه الأعمال . وعلى ذلك فقد اقترحت اللجنة الإدارية على منو فى ٦ يوليو أن ينشئ مصنعاً للنسيج ، فأقبل منو على هذا المشروع بكل همة . وفضلا عن ذلك فقد أراد أن يضم هذا المصنع عدداً من العمال المصريين لاعتقاده « أن التوفر على تعليم سكان البلاد بكل الطرق الممكنة إنما يعتبر من أجدى الوسائل التى تكفل النهوض بالمستعمرة الناشئة نهوضا سريعا محققا » غير أن اللجنة الإدارية مالبثت أن عارضت هذه الرغبة بكل قوة لخوفها من تسرب أسرار الصناعة الفرنسية نتيجة لإشراك العمال المصريين فى المصنع من جهة ، ولأنه كان من رأى هذه اللجنة عدم التوسع فى الصناعة فى مصر حتى تظل المستعمرة الجديدة معتمدة اعتماداً تاما فى سد حاجاتها على ما تنتجه المصانع الفرنسية ، ، عملا بمبدأ حماية التجارة وتحقيقا للقاعدة الاستعمارية التى تقضى بإلزام المصريين وأهل المستعمرات عموما أن يستوردوا كل مايريدونه من فرنسا دائما ، كما تمنعهم من إنشاء الصناعات المشابهة للصناعات الفرنسية ودارت مناقشة كبيرة بين منو وأعضاء اللجنة الإدارية فى هذا الموضوع فكان من رأى منو — على خلاف ما أخذت به اللجنة الإدارية — « أن المصلحة تقتضى الأمم الغنية بما تنتجه أرضها ومصانعها أن تعمل على إنعاش الصناعة فى الأمم المجاورة لها والتى تتعامل معها تجاريا وذلك لسبب بسيط هو أنه من المتعذر على أية أمة أن تجنى ربحا أو فائدة إذا هى باعت منتجاتها إلى أمة فقيرة لا يمكنها أن تدفع ثمن ما تستورده نقداً أو بطريق تبادل المتاجر مع الأمة المصدرة » .

ومع ذلك فقد استمسك أعضاء اللجنة الإدارية بآرائهم الاستعمارية والاقتصادية وكانت هذه نظريات مالية عتيقة ، وانحاز (كونتى) إلى جانبهم فأعلن امتناعه عن إطلاع المصريين وأهل هذه البلاد على أسرار الصناعة الفرنسية . وهكذا بدأ كونتى فى إنشاء مصنع نسج الأقمشة بعد أن أخذ برأيه فاشترط خروج غير الفرنسيين جميعهم

---

(١) Rigault 169

من المصنع كما اشترط فى حالة موافقة حكومة الجمهورية على إرجاع مصر إلى السلطان العثمانى أن يتم تحطيم أدوات الصناعة والمنتجات الصناعية جميعها أو تنقل هـذه إلى فرنسا . وفى ٢٤ سبتمبر [1] استطاع منو أن يكتب إلى وزير الحربية الفرنسية أن كونتى أنشاء طاحونة لإدارة الآلات اللازمة لصنع الأقمشة ، ولذلك فقد بات ممكنا الحصول فى زمن قصير على الأقمشة اللازمة للجيش . ومع ذلك فإن العمل لم يبدأ فى هذا المصنع إلا فى شهرى يناير وفبراير فى العام التالى [2] وإلى جانب نسيج الأقمشة قامت بعض الصناعات الأخرى ، فصنع رجال الحملة الصابون من الزيوت المصرية ، ونجح المواطن (فاندر فلدت Vanderveldt) فى صنع البيرة . وفى ٢٤ سبتمبر طلب منو من وزير الداخلية فى فرنسا أن يرسل إلى مصر عدداً من النساجين وصانعى الأقمشة والحدادين وصانعى الساعات وحروف الطباعة وغير هؤلاء من الصناع ، وفى ١٨ ديسمبر وعد منو كلا من بيجو Bégot ، وريجاز Regas بحماية ما يبذلانه من جهود لاتقان الدباغـة ولو أنه رفض فى الوقت نفســه أن يمنع غيرهما من الاشتغال بالدباغة .

* * *

وكان إحياء التجارة من كبريات المسائل التى شغلت منو وذلك لما ترتب على الاحتلال الفرنسى لهذه البلاد من آثار سببت ركود النشاط التجارى فى البلاد ، بل كادت تقضى عليه قضاء مبرماً . فقد شدد الانجليز نطاق الحصار على الشواطىء المصرية فمنعوا تجارة الوارد والصادر ، كما أن وجود جيش الصدر الأعظم فى سوريا اضطر قواد جيش الشرق إلى منع تصدير الحبوب إليها ، فحرمت مصر من سوق هام لتجارتها الخارجية . وكان مما زاد الحالة سوءا تلك السياسة المالية التى سار عليها كل من بونابرت وكليبر ، والتى كانت لحمتها وسداها جمع المال من الأهلين بكل الطرق حتى أقفرت من المـال خزائن التجار على وجه الخصوص ، وجاء تفنن منو فى جمع المـال منهم ضغثاً على إبالة ، فزاد ضـنك التجار ووقف نشاطهم ، وبات من الواضح أن إحياء تجـارة مصر فى الميدانين الداخلى والخـارجى على السواء يقتضى بذل جهود عظيمة ، كما قد بات من الواضح كذلك أنه لاغنى عن احياء تجارة هذه البلاد لإنعاش حال التجار وسائر الأهلين وزيادة الثروة العامة بصورة تمكن

(١) Pièc. Div. 524 : Pièc. Off. 426

(٢) Rigault 172 et sqq

منو من الحصول على الموارد اللازمة للانفاق منها على جيش الشرق فى مصر .
ولذلك أقبل منو على معالجة مسألة التجارة وتوزع نشاطه بين تدبير وسائل
إنعاشها فى داخل البلاد ذاتها وبين محاولة إنشاء العلاقات التجارية الواسعة مع
البلدان المجاورة . فعمل على توحيد فئات النقل المائى فى داخل البلاد (١) ، وأصلح
قناة الإسكندرية ، كما أمر بإصلاح الطرق البرية وحفر قناة جديدة بين دمياط وقلعة
النصارى (أول ديسمبر) ، وانكب مهندسو الحملة على دراسة كل مايساعد على
تسهيل سبل المواصلات بين أقاليم الوجه البحرى المختلفة وزيادة الطرق الصالحة للنقل ،
كما اقترح جيرار Girard أحد هؤلاء المهندسين (فى ٢٧ ديسمبر) إنشاء مركز
إدارى فى طنطا للاشراف منه على كل أقاليم الدلتا .

وفى ميدان التجارة الخارجية بذل منو قصارى جهده لتنظيم حركة السفن فى الموانى
وتسهيل التبادل التجارى فى مصر والبلدان الأخرى وتشجيع التجارة الخارجية عموماً .
من ذلك أن اللجنة الإدارية ما لبثت أن أشارت بإقامة لجنة سمتها (لجنة المحايدين)
فى الموانى ، مهمتها جمع المعلومات عن السفن التى صادرها الفرنسيون فى الموانى البحرية
منذ أن استؤنف النضال مع الإنجليز والعثمانيين عقب نقض اتفاق العريش . فأصدر منو
فى ١٩ يونية سنة ١٨٠٠ أمراً جعل من حق إدارة الجمارك السماح للسفن بمغادرة
الموانى ، كما خول القائد العام وحده حق السماح بتصدير الأدوات المستخدمة فى الزراعة
والصناعة . وقد أذن هذا الأمر كذلك بتصدير القمح والحبوب من السويس
ثم بتصدير الأرز عموما (٢) . وفضلا عن ذلك فقد عمد منو إلى التخفيف من صرامة
قوانين الحرب من أجل تسهيل التبادل التجارى بين مصر والأقطار الأخرى ، فأمكن
بفضل ذلك تصدير المنتجات المصرية إلى تركيا ، كما سمح للتجار الإنجليز بالانتقال والتجارة
على سفن يونانية ، بدعوى أن اليونانيين من الشعوب المحايدة على الرغم من أنهم كانوا
من رعايا السلطان العثمانى؛ وأفاد اليونانيون من ذلك فائدة كبيرة ، فأحضروا متاجرهم
إلى مصر ، وعقد الفرنسيون آمالا كبيرة على إمكان استئناف العلاقات التجارية
مع تركيا بواسطتهم .

وكان من الوسائل التى لجأ إليها منو لتشجيع التجارة الخارجية عموما أنه طفق
يبذل الوعود السخية بإعطاء جوائز كبيرة للمصدرين والمستوردين ، وإعفاء السلع
المجلوبة من الخارج من الضرائب الجمركية ، ما دامت هذه السلع مما يطلبه الجيش

(١) Pièc. Offic. 402
(٢) Rigault 174

ويسد حاجته . وفى ١٥ أغسطس منع منو عمال الجمارك والحكام العسكريين فى مختلف الأقاليم من تحصيل ضريبة غير الضرائب الجمركية المقررة (١) . وطبق منو هذا الأمر بصورة عملية عند ما وجه تأنيباً عنيفاً إلى الجنرال جوليان Jullien لأن هذا الأخير كان قد حصل أربعمائة قرش عن كل سفينة يونانية عند خروجها من الإسكندرية ، ولم يفد شيئا اعتذار جوليان بأن كليبر كان قد أجاز له أن يفعل ذلك ، وأن الجنرال (لانوس) قد أقر هذا العمل عند استشارته (٢) ؛ وفى ٣٠ أغسطس أمر منو بأن يعطى كل قبطان سفينة عند دخوله الميناء « وثيقة » ترحيب تكفل له الاطمئنان على المتاجر التى تحملها سفينته وتضمن له قبض الثمن عند بيعها ، وغرضه من ذلك تشجيع التجارة التى تحملها السفن الأجنبية إلى الموانى المصرية (٣) . وفى ٨ ديسمبر بعث منو إلى فريان Friant بمجموعة من المنشورات لإذاعتها حتى يستطيع أهل جزر الأرخبيل أن يقفوا منها على ما يناله تجارهم من معاملة طيبة عند حضورهم إلى مصر (٤) . وفضلا عن ذلك عمل منو بنصيحة كل من (رامبون) و (لانوس) فرفع الحظر المفروض على السفن التى صادرها الفرنسيون فكان من أثر ذلك كله أن أخذت السفن الصغيرة تفد بكثرة عظيمة فى الشهور التالية إلى الاسكندرية .

وحاول منو أن يحطم ذلك الحصار البحرى الذى فرضه الانجليز على الشواطىء المصرية ، وبذل قصارى جهده حتى يتمكن الفرنسيون من إرسال بعض سفائنهم محملة بالبضائع من هذه البلاد إلى فرنسا . فعهد فى ١٧ نوفمبر إلى اثنين من التجار الفرنسيين هما (ريال) Réal و (باتالون) Batthalon بإرسال مركبين إلى فرنسا ، فاستطاعت واحدة من هاتين السفينتين الخروج من الاسكندرية محملة بالأرز والبن فوصلت إلى تونس بعد جهد ومشقة ، وافرغت حمولتها هناك ، وقامت فى الشهر نفسه حركة كبيرة لتجهيز عدد من السفن المحملة بالأرز والسكر والبن والقطن والصمغ بغية إرسالها إلى مرسيليا . وفى ٢٧ نوفمبر و ١٩ ديسمبر سنة ١٨٠٠ استطاعت ست من هذه السفن الخروج من الاسكندرية . وحدث فى فبراير من العام التالى أن تنازلت حكومة منو عن أربع سفن للتجار الفرنسيين وسفينتين للتجار الوطنيين وذلك لكى يرسلها هؤلاء محملة بالمتاجر إلى مرسيليا .

---

(١) Pièc. Div. 496 ; Pièc. Off. 384

(٢) Rousseau 335 — 6

(٣) Pièc. Off. 402 ; Pièc. Div. 508

(٤) Rigault 175

غير أن وجود الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض جعل من المتعذر إحياء النشاط التجارى فى ذلك البحر أو إبقاء المواصلات مفتوحة بين مصر وفرنسا . ولذلك فقد ظلت موانى البحر الأحمر طوال أيام الحملة الفرنسية فى هذه البلاد مراكز التجارة الرئيسية للصادر والوارد على السواء . ولم تغب هذه الحقيقة عن أذهان أعضاء اللجنة الإدارية . وكان بونابرت أول من اعترف بضرورة أن يصبح ميناء السويس مقر تجارة البن والتوابل الآتية من بلاد العرب وتجارة المنتجات الأوروبية والمصرية ، ذلك أن السويس كانت أقرب إلى الوجه البحرى من القصير الميناء المصرى الثانى على البحر الأحمر . ومنذ أن تنازل الفرنسيون عن القصير إلى مراد بك فى عهد الجنرال كليبر ، لفتت اللجنة الإدارية الأنظار إلى ضرورة الاهتمام جدياً بميناء السويس ، لاسيما وقد بات ضرورياً إيجاد ميناء صالح جديد للوجه البحرى بعد أن شدد الإنجليز الحصار على شواطىء الدلتا الشمالية . وعلى ذلك فقد قدم أحد الفرنسيين (المواطن رينييه) تقريرا ضافياً إلى منو فى ٧ يوليو سنة ١٨٠٠ عن أهمية السويس التجارية ، وفى شهرى نوفمبر وديسمبر من العام نفسه عظم الأمل لدى مهندسى الحملة فى إمكان شق قناة تمتد من السويس وتصل البحر الأحمر بشاطىء البحر الأبيض . فكتب المهندس لوبير Le Pére إلى القنصل الأول أن إعادة فتح قناة المصريين القدماء قد بات عملا لا تحول صعوبات كبيرة دون تحقيقه(١) .

على أن العناية بميناء السويس كانت لا تكفى وحدها لإحراز السيطرة التجارية فى البحر الأحمر ، بل إن ذلك كان يقتضى أولا وقبل كل شىء أن يعمل الفرنسيون على إنشاء العلاقات الودية مع حكام البلدان الواقعة على هذا البحر ، واستمالتهم إلى إرسال بضائعهم إلى الموانى المصرية . وكان بونابرت أول من اتبع سياسة التفاهم مع شريف مكة ، ووجد منو الآن أن يحذو حذوه على أمل أن يؤدى هذا التفاهم مع الشريف على الأقل إلى إبعاد السفن الإنجليزية عن البحر الأحمر ، وإلى منع الإنجليز من تأسيس مراكز جديدة لهم فى جدة . واعتقد الفرنسيون أن فى وسعهم التأثير على الشريف حتى يعلن استقلاله وينفصل عن الباب العالى إذا هم أفلحوا فى إثارة مخاوفه وشكوكه من ناحية الإنجليز والعثمانيين معا ؛ فضلا عن أن الشريف فى هذه الحالة سوف لايحجم عن إغلاق (مخا) فى وجه الإنجليز كذلك . واعتقد منو أن مساعيه سوف تكلل بالنجاح فى هذه الناحية لأن الشريف أظهر فى السنتين الماضيتين ميولا ظاهرة نحو الفرنسيين ، فقد

---

(١) Rigault 176 — 7 : Bertrand II 155

رفض أن يمد الإنجليز بالرجال أو السفن ، كما أنه قبل فى اكتوبر سنة ١٨٠٠ أن يدع بريد منو يمر إلى جزيرتى إيل دى فرانس ورويديون الفرنسيتين ، فكتب إليه منو فى ٣٠ نوفمبر[1] أن بونابرت قد كلفه بأن يعمل على تجديد معاهدات الود والصداقة مع الشريف ، وأن ينتهز لذلك هذه الفرصة حتى ينبئه بأن جميع رعايا الشريف فى وسعهم أن يحضروا إلى السويس دون خوف أو وجل ، ويؤكد له أن التجار لن يدفعوا أية أتاوات أو مغارم ، كما أنه لن يقع لهم ما يزعجهم ، لأن منو على حد قوله قد ألغى جميع ما كان يفرض على متاجرهم فى الزمن الماضى ، مكتفياً بتحصيل ضريبة واحدة فحسب ، « فلا يستطيع فرنسى أن يحصل بارة واحدة زيادة على الضريبة المقررة فإذا فعل كان نصيبه الموت فوراً ودون إمهال » . وعزا منو هذا القرار إلى ما يكنه من احترام وتقدير للشريف . ثم استمر منو يقول إنه كان يعتزم إرسال قافلة الحج إلى مكة المكرمة فى هذا العام وإرسال الكسوة إلى الكعبة الشريفة ، لولا أن ظروف الحرب القائمة قد جعلت إرسال ذلك متعذراً ، ووعد بالعمل على تحقيق هذه الرغبة فى العام القادم .

وقد أفلحت ولا شك هذه الخطة الحكيمة ، فجاءت السفن من جدة وينبع إلى السويس فى شهرى نوفمبر وديسمبر محملة بالأنسجة القطنية والشيلان الصوفية والحرائر والبن ، ولو أنه مما تجدر ملاحظته أن الشريف غالب مع موافقته على إنشاء العلاقات التجارية مع الفرنسيين ، ظل مهتما فى الوقت نفسه بإجراء الاستعدادات العسكرية فى جدة وينبع ، ترقبا لما يخشاه أن يطرأ من حوادث فى المستقبل .

ودخل ضمن برنامج منو إنشاء العلاقات التجارية مع سنار ودارفور أى شطر الوادى الجنوبى ومع الحبشة من جهة ، ثم مع البلدان الإسلامية فى إفريقية الشمالية الغربية من جهة أخرى . فقفا منو فى ذلك إثر بونابرت واتبع الطريق الذى سلكه قائد الحملة الأول . وكان بونابرت قد أوصى بإرسال مندوبين فرنسيين إلى السودان والحبشة لإنشاء العلاقات التجارية ولتنظيم شراء الرقيق ، إلى جانب التمهيد من أجل التوغل فى آخر الأمر فى قلب القارة المجهولة فقام منو الآن بتنفيذ هذه الخطة واستطاع أن يكتب فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠ إلى وزير الحربية الفرنسية[2] أنه بعث بكتبه إلى إمبراطور الحبشة ، كما أدلى بمقترحات معينة إلى كل من سلطان سنار وسلطان

---

(١) Rousseau 378 — 80

(٢) Ibid 359

دار فور وسلطان دنقلة لعقد محالفة مع الفرنسيين فى مصر ، بل تكللت جهوده بالنجاح « لأن قافلتين كبيرتين تسيران الآن فى طريقهما من الحبشة وسنار إلى القاهرة » . وكان منو صادقا فى دعواه لأنه لم ينقض زمن طويل حتى كانت القوافل قد وصلت من دارفور وسنار إلى اسنا وأسيوط فى طريقها إلى القاهرة ، كما أن (دونزيلو) فى الوجه القبلى مالبث أن بعث إلى منو بكتاب من سلطان دارفور ، يطلب فيه هذا الأخير صداقة الفرنسيين ويخطب ودهم ويخبرهم باستعداده لتجهيز قافلة كبيرة وإرسالها إلى مصر إذا خفض الفرنسيون الضرائب الجمركية التى كان البكوات المماليك يحصلونها من القوافل . وفضلا عن ذلك فقد أحضر « سفراء » السلطان إلى منو ثلاثة من العبيد وسنورين هدية له .

وكان بونابرت قد حرص على معاملة الحجاج من أهل أفريقية الشمالية الغربية معاملة طيبة وذلك بعد تأدية فريضة الحج ووصولهم من مكة المكرمة إلى القاهرة فى طريقهم إلى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وكان غرض بونابرت من ذلك أن يكسب صداقة أهل هذه البلاد فلا يصرفهم احتلال الفرنسيين مصر عن التجارة معها(١) ولم يفسد على بونابرت سياسته سوى إعلان الباب العالى الحرب على فرنسا واشتراك وجاقات الغرب فى هذه الحرب . فقد طلب الباب العالى من مصطفى باشا داى الجزائر وحموده باشا باى تونس إعلان الحرب على فرنسا ، فامتثل كلاهما للأمر وانقطعت العلاقات مدة من الزمن بين فرنسا وبين الوجاقات ، ولكن الجزائر وتونس مالبثتا أن عقدتا صلحا منفردا مع فرنسا ، فعادت الأمور إلى مجاريها ، وحسنت علاقة حكام هذه البلاد مع الحكومة الفرنسية(٢) وعلى ذلك بادر منو بانتهاز الفرصة فكتب فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٠٠ إلى كل من مولاى سليمان فى مراكش ومصطفى داى الجزائر وحموده باشا باى تونس ويوسف باشا باى طرابلس يؤكد لهم جميعاً أن رعاياهم الذين يريدون الحج إلى بيت الله الحرام سوف يلقون كل معاملة طيبة فى مصر فى أثناء ذهابهم إلى مكة المكرمة . كما بادر بالكتابة إلى (دبوا — ثانفيل) Dubois - Thanville القومسيير الفرنسى لدى حكومة الجزائر لكى يضع ترتيبا لضمان انتظام المواصلات بين هذه البلاد وبين مصر من جهة ، ولتنمية العلاقات التجارية بين موانى الوجاقات وبين ميناء الأسكندرية من جهة أخرى(٣) ويعلق الشيخ الجبرتى على هذه الحوادث بقوله

(١) Jonquière II. 344 — 5

(٢) سر هنك ١ : ٣٦٩ ، ٤٩٢

(٣) Rigault 180

فى ٥ رمضان سنة ١٢١٥ (٢٠ يناير سنة ١٨٠١) : « وفى ذلك اليوم قرئ، فرمان مضمونه أنه وردت مكاتبات من فرنسا بوقوع الصلح بينها وبين أهل الجزائر وتونس بشروط ممضاة مرضية وقد أطلقوا الإذن للتجار من أهل الجهتين بالسفر للتجارة فمن سافر له الحماية والصيانة فى ذهابه وإيابه واقامته باسم دولة الجمهورية الفرنساوية إلى آخره ، ولم يظهر لذلك أثر[1] » وكان سبب عدم ظهور أى أثر لذلك أن أيام الحملة فى مصر قد باتت معدودة ، وأصبح شغل منو الشاغل تدبير الوسائل للدفاع عن مستعمرته .

٣ — الحكومة الوطنية :

وكان من الواضح أنه لا يرجى أى نجاح لجميع تلك المشروعات التى بدأها منو أو فكر فيها من أجل النهوض بالمستعمرة الجديدة وتوطيد أقدام الفرنسيين بها ، طالما كان المصريون يرفضون التعاون مع السادة الجدد ، ويتربصون نزول الكوارث بهم ، وطالما كان الإنجليز والعثمانيون قد صح عزمهم على إخراج الفرنسيين من مصر بكل وسيلة . ولا جدال فى أن انصراف المصريين عن مؤازرة الحكم الجديد كان من العوامل التى ساعدت على إلحاق الهزيمة بجيش الشرق فى النهاية عند ما عجز منو وقواده عن الصمود أمام قوات العدو الزاحفة عليهم ، وسواء أدرك منو أهمية تعاون المصريين معه لدرء الخطر الخارجى أم فاته ذلك ، فمن الثابت أن قائد الحملة الجديد قد بذل كل ما فى وسعه من جهد وحيلة لاستمالة المصريين إلى الحكم الفرنسى كدعامة من تلك الدعامات التى كان لا غنى عنها فى واقع الأمر ، إذا شاء منو أن يكفل النجاح لتجربته الاستعمارية . وعلى ذلك فقد كان تنظيم الحكومة الوطنية من أبرز النواحى التى ظهرت فيها جهود منو الاستعمارية . وكان قوام هذا التنظيم إعادة النظر فى اختصاصات السلطات المحلية من جهة ثم بحث العلاقات التى يجب قيامها بين الحكومة المركزية « الفرنسية » وبين أهل البلاد من جهة أخرى . وقد أقبل منو على معالجة هذه المسائل بكل نشاط وهمة وصادف عند محاولة تحقيق غرضه صعوبات عدة وبذل فى سبيل التغلب عليها جهودا شاقة مضنية .

فقد دل اغتيال الجنرال كليبر على أن هوة سحيقة كانت تفصل بين الفرنسيين وبين أهل البلاد والعالم الإسلامى عموما ؛ ذلك أنه ثبت أن علماء الأزهر كانوا قد استضافوا

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٥١

سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر أسابيع عدة ، كما أن أحدا من هؤلاء لم يبلغ عن سليمان شيئا ، مع أنه أفضى إلى جماعة من هؤلاء الشيوخ بما كان يعتزمه . ونهاه فريق منهم عن ارتكاب فعلته . وقد حكم على هؤلاء بالإعدام كشركاء له فى الجريمة . وفضلا عن ذلك فإن القاهريين لم يلزموا الهدوء والسكينة بعد ذلك إلا نتيجة لما حل بهم من كوارث على إثر تلك المغارم الفادحة التى فرضها الفرنسيون عليهم ، وبسبب إهاناتهم وما ذاقوه على أيديهم من سوء المعاملة بعد مقتل كبيرهم . ومع ذلك فقد ظل منو على الرغم من هذا كله يعتقد أن فى وسعه أن يضيق شقة الخلاف بين الفرنسيين والمصريين ويستل سخيمة الأخيرين إذا هو استطاع أن يبدأ عهدا جديدا من الحكم ، فاستبدل الفرنسيون بسوء المعاملة التودد إلى المصريين واجتذاب قلوبهم ، وحاولوا أن يحكموا بينهم بالعدل والقسطاس .

وكان مما زاد منو اقتناعا بإمكان الوصول إلى غرضه ما أظهره الفرنسيون من رباطة جأش عند فقد كبيرهم ، وإصرارهم على محاكمة سليمان الحلبى وشركائه محاكمة عادلة ، قبل الاقتصاص منهم ، فكان لهذا المسلك الحكيم من جانبهم وقع حسن فى نفوس المصريين ما لبث الشيخ الجبرتى أن أشار إليه عند ذكر هذه الواقعة فقال فى حوادث ٢١ محرم سنة ١٢١٥ — ١٤ يونية سنة ١٨٠٠ : وأعد الفرنسيون « فى شأن ذلك أوراقا ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها ، وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الثلاث الفرنساوية والتركية والعربية . وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة ، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه إلى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ، ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين ، وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقى أهوج وغدره ، وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله ، وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ، ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص ، كما يفهم ذلك من فحوى السطور ، بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم

مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإسلامية بمجرد شهواتهم الحيوانية[١] »

وكان اعتماداً على هذا الأثر الطيب إذن أن أقبل منو على مشروعات إصلاحاته لتحسين أحوال أهل البلاد فى الاسكندرية والبحيرة ورشيد وغيرها . وكان من بين الذين اعتمد عليهم منو فى دعم أركان الحكومة فى البلاد حسن طوبار وكان من أصحاب الأملاك الواسعة فى إقليم المنزلة ، أسدى خدمات كثيرة للفرنسيين ولكن الأجل لم يمتد به فتوفى فى يونيه سنة ١٨٠٠[٢] ، ثم الشيخ المصرى واعتقد منو أن الاستمرار على تلك السياسة الوطنية الإسلامية التى اتبعها بونابرت من قبل كفيل باجتذاب المشايخ والعلماء وسائر الأهلين إليه . فشدد على جنده بأن يحترموا تقاليد وعادات المصريين ما وسعهم ذلك . واحتفل منو بالمولد النبوى الشريف واستعد لإرسال الكسوة إلى الكعبة . وفى ١٧ أغسطس سنة ١٨٠٠ احتفل احتفالا كبيراً بقطع الخليج[٣] ، وفطن منو إلى ضروة تأمين الأهالى على أملاكهم ومعتقداتهم فشدد على جنده بأن يحترموا حقوق الملكية ، كما أصدر أوامر عدة يطلب منهم الابتعاد عن كل مايؤذى الفضيلة ويخدش الأخلاق الكريمة ، ولم يقصر منو اهتمامه على ملاحظة سلوك جنده فحسب بل صار يعنى كذلك بمكافحة العادات الذميمة التى انتشرت وقتئذ بين سكان القاهرة أنفسهم كاستهتار المغنيات والراقصات وارتكاب طائفة من الدراويش الفعال القبيحة فى شوارع القاهرة وطرقاتها . ومما هو جدير بالذكر أن العلماء والشيوخ كانوا قد حاولوا منع هذه الفعال القبيحة والعادات الذميمة ولكن دون جدوى ، ولذلك قوبلت أوامر منو الآن بالاستحسان والتأييد من جانب العلماء ومن جانب القاهريين من أهل الطبقة الوسطى خصوصا[٤] .

الديوان :

ونظم منو الحكومة المركزية فى القاهرة والحكومة الإقليمية فى المديريات ، فاتخذ القاهرة مركزاً للقيادة العامة العسكرية ، على أن تضم إليها المدينة ذاتها والقلعة والحصون المجاورة لها ومصر القديمة وجزيرة الروضة ، ثم ألحق بها السويس ووضع بليار على

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٢٢

(٢) (Extrait du No. 75 du Courrier de L'Egypte. 9 Thermidor an 8)- Pièc. Div. 490

(٣) (Extrait du No. 78 — 6 Fructidor an 8) Pièc. Off. 399 — 341

(٤) Galland II 23 — 8

رأس حكومة القاهرة . وفى الأقاليم عهد بالحكم إلى القواد الفرنسيين فى مديريات القطر الثمانى . وصار هؤلاء متمتعين بسلطات واسعة على اعتبار أنهم يمارسون فى واقع الأمر تلك السلطات التى مارسها البكوات المماليك والكشاف من قبل . فأقر منو فى ديسمبر سنة ١٨٠٠ [١] أن يظل لهؤلاء الحكام التمتع بهذه السلطة الكبيرة فيما يتصل « بالأمور العسكرية وشئون الأمن والدفاع عن البلاد وأهلها » كما خولهم الحق فى إلقاء القبض على كل الذين يجرؤون على تعكير صفو الأمن . ولم يقتصر عمل هؤلاء الحكام على ملاحظة شئون الدفاع والأمن بل طلب إليهم كذلك أن يزودوا الحكومة المركزية بالمعلومات المتعلقة « بطبيعة البلاد ومسائل التجارة وحال القنوات وشئون السكان » فيدون الحكام هذه المعلومات فى سجلات خاصة بينما يفردون غيرها لكل مايتصل بأعمال البوليس ووسائل الدفاع العسكرية . وحفظ منو لنفسه بوصفه قائد الحملة العام أن يعين مشايخ البلد فى القرى وقد تحتم على هؤلاء ابتداء من ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠ أن يحصلوا على (فرمان) جديد من منو يخولهم الحق فى مزاولة أعمالهم [٢] .

ووصف الشيخ الجبرتى هذا الترتيب فقال فى حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٥ (أكتوبر — نوفمبر سنة ١٨٠٠) : « وفيه قرروا على مشايخ البلدان مقرارات يقومون بدفعها كل سنة : أعلى وأوسط وأدنى — فالأعلى وهو ما كانت بلده ألف فدان فأكثر خمسمائة ريال . وجعلوا الشيخ سليمان الفيومى وكيلا فى ذلك فيكون عبارة عن شيخ المشايخ ، وعليه حساب ذلك ، وهو من تحت الوكيل الفرنساوى الذى يقال له بريزون » (Brizon) غير أنه لما كان هذا الترتيب الجديد قد جاء مصحوبا بجمع المال من مشايخ البلاد فإنه سرعان ماأثار السخط ضد منو فقال الشيخ الجبرتى : « فلما شاع ذلك ضجت مشايخ البلاد لأن منهم من لايملك عشاءه فاتفقوا على أن وزعوا ذلك على الأطيان وزادت فى الخراج واستلموا البلاد والكفور من القبطة فأملوها عليهم حتى الكفور التى خربت من مدة سنين بل سموا أسماء من غير مسميات [٣] » .

وتناول منو موضوع الدواوين فى القاهرة والأقاليم ، فأعاد البحث والفحص ، ومن المعروف على نحو ما تقدم أن ديوان القاهرة كان قد أنشىء فى أول الأمر فى ٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨ ، ثم تبعه إنشاء دواوين الأقاليم فى ٢٧ يوليو من العام نفسه ، ثم عطل

---

(١) Rigault 146 — 7
(٢) Ibid 148 — 9
(٣) الجبرتى ٣ : ١٤٤

ديوان القاهرة عقب ثورة القاهريين الأولى ، وأعيد تأليفه فى ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ من ديوانين : كبير أو عمومى ثم خصوصى أوديمومى ، كما أن بونابرت كان قد أعاد تنظيم دواوين الأقاليم فى ٢٠ أكتوبر[١] . ومما تجدر ملاحظته أنه لا يوجد ما يثبت قطعاً أن ديوان القاهرة قد دعى إلى الانعقاد أيام الجنرال كليبر بعد انتصار هذا القائد فى موقعة هليوبوليس . كما أن دواوين الأقاليم كانت قد انحلت منذ أن عقد اتفاق العريش ، ولم يعد كليبر إنشاءها لزعمه أن هذه الدواوين الإقليمية عديمة الجدوى . بل إنه من المحتمل كذلك أن محاكم القضايا التى شكلها بونابرت فى القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط لم تستمر فى عملها وانحلت تماما فى عهد الجنرال كليبر . وعلى ذلك فقد بات من نصيب منو أن ينظر فى كل هذه الأمور لإعادة تنظيم الدواوين والمحاكم ، وكان من رأيه بعد الفحص والدرس أن يكتفى الفرنسيون بإعادة تشكيل ديوان القاهرة فحسب ، والاستغناء عن دواوين الأقاليم ، ثم العمل على دعم أركان الديوان . وذلك بأن يصبح لأعضاء هذا الديوان حق تفسير القوانين الإسلامية من جهة ، ثم الإشراف بصورة جدية على المحاكم الوطنية من جهة أخرى . لأن هذه المحاكم إنما كانت تستند فى أعمالها إلى أحكام الشريعة المحمدية .

وقد ترتب على الرغبة فى تنظيم المحاكم الوطنية البحث من جديد فى تنظيم شئون القضاء عموما فى هذه المستعمرة الناشئة . وعلى ذلك أصدر منو أمراً فى ٢٢ أغسطس سنة ١٨٠٠[٢] بتأليف لجنة من فوربيه وبوضوط ورجنيه Régnier كى تبحث «موضوع إنشاء المحاكم والطريقة التى تملأ بها وظائف القضاء، ثم ما يمكن إدخاله من تغيرات مفيدة لتحديد الرسوم القضائية» . وذلك كله إلى جانب ما قد يحيله القائد العام على هذه اللجنة من مسائل الإدارة الداخلية وما يجب أن يقوم من علائق بين الحكومة الفرنسية وأهل البلاد . وفضلا عن ذلك فقد طلب منو إليهم أن يستشيروا أعضاء لجنة أخرى أزمع تأليفها من المشايخ والعلماء الذين فى وسعهم أن يعاونوا فوربيه وزملاءه على فهم هذه المسائل[٣] .

وفى ٢ أكتوبر سنة ١٨٠٠ صدر أمر منو بتنظيم القضاء وإعادة تشكيل ديوان القاهرة فى وقت واحد[٤] ؛ فاشتمل هذا الأمر على مقدمة وعدة مواد ، جاء فى المقدمة

---

(١) Jonquière II 276 ; Corresp. No. 3516

(٢) Pièc. Dive. 500 ; Pièc. Off. 390

(٣) Rigault 153

(٤) Pièc. Div. 537 — 46 ; Pièc. Off. 444 — 57

« إنه لما كان نشر العدالة بين أهل البلاد الخاضعة للإدارة الحكومية من أهم واجبات الحكومة القائمة ، كما أن من واجب هذه الحكومة إنشاء المحاكم التى تفصل فى قضايا الأهالى المدنية ، وتوقيع العقوبة على المذنبين والمجرمين الذين يأتون ضد النظام العام والمجتمع ، فقد تقرر» أن تكون الأحكام الصادرة من المحاكم القائمة فى مصر ، أو التى تقوم فى المستقبل ، باسم حكومة الجمهورية الفرنسية . كما تعتبر جميع وظائف القضاء فى مصر شاغرة ولا يشغلها أحد ابتداء من ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠ ، فيستمر القائمون فعلا بشئون القضاء فى تأدية أعمالهم بصورة «مؤقتة» وذلك حتى يصدر الأمر بالتعيينات الجديدة اللازمة لملء هذه الوظائف . وتناولت مواد هذا الأمر الترتيب المزمع إنشاؤه ، فتحدثت بعض هذه المواد عن تأليف ديوان القاهرة ، واختيار الأشخاص اللائقين لملء مناصب القضاء — بمعرفة أعضاء الديوان ، ثم تنظيم شئون القضاء عموما . ولذلك كان لأمر أو « قانون » ٢ أكتوبر سنة ١٨٠٠ أهمية كبرى فى تاريخ تلك الحكومة الوطنية التى شاء منو أن يتخذ منها دعامة قوية لضمان نجاح تجربته الاستعمارية .

أما فيما يتعلق بتشكيل ديوان القاهرة الجديد والغرض من دعوته ، فقد نصت المادة الثالثة على أن يتألف هذا الديوان من المشايخ وغيرهم من المسلمين الذين اشتهروا بالتقوى والورع والعلم والنزاهة . وذلك بأن ينتخب علماء القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط وسائر مدن القطر الكثيرة هؤلاء الأعضاء ، وبين منو الغرض من دعوة الديوان بقوله : « أن هذه الجماعة من أكابر علماء مصر إنما تتخذ مركزها بين الحكومة الفرنسية وبين المسلمين من المصريين بصورة تمكنها من السهر على تطبيق القانون والإشراف على إدارة الجوامع والتكايا والأوقاف ومراقبة شئون التعليم الشعبى ، إلى جانب إعداد قافلة الحج الذاهبة إلى مكة ، ثم ملاحظة عادات البلاد الدينية والوطنية وصونها والعمل على تأييدها ودعمها . وفضلا عن ذلك فمن بين مهام الديوان أن ينقل إلى أهل مصر ما توجهه إليهم الحكومة من منشورات ، كما أن من الواجب عليه أن يعرض على الحكومة مطالب الأهالى ؛ على أن يكون اتصال هذا الديوان بالقائد العام مباشرة وفى المادة الثالثة جعل عدد أعضاء الديوان تسعة « أصليين » يحضرون جلسات الديوان مرات ثلاث فى كل فترة عشرية ، وتصرف لهم مرتبات يأتى تحديدها فى أمر منفصل يصدر فيما بعد . وكان إلى جانب هؤلاء الأعضاء الأصليين ، أربعة عشر عضوا من «أعضاء الشرف» يختارهم القائد العام ، متى وكيف شاء ، حتى من بين عظماء القبط والشوام والأروام ، لحضور الجلسات على أن يكون لهؤلاء صوت

استشارى فحسب . وينتخب أعضاء الديوان بعد كل ثلاثة شهور رئيسا وسكرتيراً يمكن إعادة انتخابهما فى الدورات التالية . ويدعو القائد العام لجنة من الفرنسيين يسمى أعضاءها بنفسه لحضور جلسات الديوان . وذلك لضمان تنفيذ أوامر الحكومة ، وملاحظة أعمال الديوان ، وتصحيح ما قد يقع من أخطاء فى أثناء جلساته ، ومنع أعضاء الديوان من تعدى اختصاصاتهم . وكان من وظائف هذه اللجنة الفرنسية إلى جانب ذلك الإشراف على الإدارة القضائية فى البلاد . ثم عين للديوان مكان لاجتماعه ، فلا يجوز له أن يعقد جلساته فى غيره . ومنع الديوان من عقد جلسات غير عادية إلا بإذن من القائد العام . فإذا خالف ذلك كان جزاءه الانحلال ، كما منع من استصدار أو إذاعة أية منشورات من غير تصريح بذلك من القائد العام نفسه .

وفى المادة السابعة نظمت شئون القضاء . فنصت هذه المادة على أن يعقد الديوان جلسته الأولى فى بداية شهر فندمير (سبتمبر) ، فيعمد أعضاؤه إلى إعداد قائمة بأسماء الأشخاص الذين ينعقد على اختيارهم لملء الوظائف القضائية رأى أكثرية الأعضاء . وعلى شريطة أن تشتمل هذه القائمة المقدمة إلى الحكومة على ثلاثة أسماء يرشح أصحابها لمنصب قاضى القضاة فى القاهرة . وذلك حتى يختار القائد العام واحداً من بينهم لملء هذا المنصب. ثم أسماء الأفراد الذين يختارهم الديوان لملء المناصب القضائية فى المديريات ، على أن يكون كل هؤلاء من الذين ولدوا فى مصر أو أقاموا فى هذه البلاد عشر سنوات. وقد ترك لقاضى القضاة الحق فى أن يعين من ينوبون عنه فى محاكم القاهرة ومصر القديمة وبولاق ، بينما ترك للقضاة الآخرين الحق فى تعيين من ينوبون عنهم فى محاكم المديريات كذلك . ومن ضروب الإصلاح التى أدخلها منو أنه أبطل فى مواد هذا الأمر التالية تقديم العطايا والهدايا للقضاة أو من ينوبون عنهم وإلى الكتبة وسائر موظفى المحاكم . كما وعد بإعداد فئات معينة للرسوم القضائية .

وعهد منو بتنفيذ القوانين والأحكام الإسلامية إلى السلطة العسكرية . فرجالها هم الذين يقبضون على المذنبين الذين تصدر الأحكام ضدهم أو يصيبون سمعة سيئة بسبب ما يرتكبونه من آثام ضد المجتمع ، كما أنه بات من اختصاص السلطة العسكرية كذلك جمع الأدلة التى يستند إليها القضاة فى إصدار أحكامهم ، ثم القيام بتنفيذ ما يوقعه هؤلاء من أحكام على المذنبين أو المجرمين بكل سرعة . وحرم منو على ممثلى السلطة العسكرية التدخل فى أعمال القضاء حرصا على العدالة . عندما كان ضمان العدالة منوطا على حد قوله بنزاهة القضاة أنفسهم وحكمتهم . وأشرك منو مع السلطة العسكرية فى القبض على القتلة والأشرار والسارقين ومن إليهم « السلطة العمومية » التى كان من حقها كذلك أن تقدم كل هؤلاء للمحاكمة وفق قوانين البلاد الجنائية .

وتناول منو فى المادة الرابعة عشرة وفى المواد التالية بعض هذه « القوانين » بالمحو أو التعديل . فكان أظهر ما أدخله على هذه القوانين رفض مبدأ (الدية) أو ثمن الدم ، وكان قد جرى العرف على أن القاتل فى استطاعته الإفلات من العقوبة إذا هو دفع مبلغا من المال إلى أسرة المقتول « ثمنا لدمه » . وزيادة على ذلك فقد رفض منو أن يترك لأسرة المقتول مطاردة القاتل والاقتصاص منه أخذا بالثأر وإشباعا لشهوة الانتقام . وذلك بدلا من رفع الخصومة إلى القضاء والرضوخ لأحكامه . وعلى ذلك فقد منعت المادة الرابعة عشرة القضاة من إبدال عقوبة الإعدام بغيرها ، كما منعتهم من قبول الوساطة فى ذلك . وتعهدت الحكومة بالقيام على حمايتهم ومنع الأذى عنهم عند تأديتهم هذا الواجب . واعتبرت من يجرؤون على تهديد القضاة شركاء فى الجريمة .

وجاء فى المادة السابعة عشرة أن علماء « الديوان فى القاهرة يؤلفون هيئة قضائية عليا » ومن حقهم أن يقترحوا عزل القضاة الذين لا يؤدون واجباتهم على الوجه الأكمل ، وكذلك جميع الموظفين فى المحاكم ، فضلا عن إلغاء الأحكام أو تعديلها إذا فشلت هذه فى تحقيق العدالة ، ثم خفض الرسوم القضائية إذا زادت عن القدر المقرر . وبذلك أضحى ديوان القاهرة شبيها بمحكمة عليا استئنافية . فوضح منو فى المادة التالية (الثامنة عشرة) الطريقة التى يمارس بها الديوان سلطته القضائية عندما يطلب أحد طرفى الخصومة استئناف حكم من الأحكام التى أصدرها أحد القضاة فى المسائل المدنية والجنائية . فكان على طالب الاستئناف أن يقدم طلبه فى ذلك خلال ستة أيام فى القضايا المدنية ، وأربعة أيام فحسب فى القضايا الجنائية ، على شريطة أن يصحب هذا الطلب فتوى صادرة من مفتيي المذاهب الأربعة تنص على عدم موافقة هؤلاء على طريقة المحاكمة التى حدثت ، أو اعتبار الحكم الصادر فى نظرهم مخالفا للقانون ؛ حتى إذا جاءت هذه الفتوى ، قبل الاستئناف ، وبحث أعضاء الديوان الدعوى المستأنفة من جديد ، فإذا وافق عندئذ ثلثا الأعضاء الحاضرين على حكم القاضى نفذ هذا الحكم ، أما إذا عارض ثلثا الأعضاء على الأول فيبطل الحكم ، وأرسل الديوان قراره الجديد إلى القاضى ، حتى يقوم هـذا بتسجيله وعندئذ يجرى تنفيذ القرار أو الحكم الجديد مباشرة .

وتناول منو تنظيم القضاء بين أهل الطوائف غير الإسلامية القيمة فى مصر عدا الفرنسيين . فنص الأمر الصادر فى ٢ أكتوبر على إنشاء محكمة لكل طائفة من

طوائف القبط والشوام والأرْوام واليهود وغير ذلك من الطوائف الأخرى ، ما دام أهلها من غير المسلمين ومن غير الفرنسيين ، وعلى شريطة أن يكونوا كذلك قد ولدوا فى مصر أو يقيمون بها . فيتولى كبير كل طائفة رياسة المحكمة التى يحضرها عضوان يعينهما القائد العام . وشمل اختصاص هذه المحاكم الطائفية جميع القضايا المدنية بين أفراد الطائفة ، ولو أن ذلك لم يمنع من عرض هذه القضايا على القاضى الإسلامى طالما رغب فى ذلك أحد طرفى الخصومة ، وكانت المحكمة الطائفية قد بحثت الدعوى من قبل وفضلا عن ذلك فقد كان فى وسع المتخاصمين أن يلجآ إلى المحكمة الإسلامية مباشرة إذا اتفقت كلمتهما على ذلك ، كما كان للمتقاضيين الحق دائما فى استئناف دعواهما أمام القاضى الإسلامى إذا طلب أحدهما ذلك ، وللقاضى الإسلامى أن يصدر ما يراه من أحكام على شريطة عدم تنفيذ هذه الأحكام حتى تعرض أولا على الحكومة التى تصدر ما يلزم من أوامر لتنفيذها . وكان من حق قاضى المحكمة الإسلامية أن ينظر الدعاوى التى يكون أصحابها من غير الفرنسيين ويختلفون فى الدين والجنس ويتعذر عليهم الاتفاق على محكمة أخرى ، أما إذا اتفق طرفا الخصومة على تقديم دعواهما أمام محكمة معينة غير المحكمة الإسلامية فقد امتنع عليهما حينئذ استئناف هذه الدعوى أمام القاضى الإسلامى . وقد تحدد شهر فندميير (أى ابتداء من ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠) لتنفيذ هذا النظام « على أن يجرى تطبيقه فى جميع الأقاليم بما فى ذلك تلك الأقاليم التى يتولى إدارتها مراد بك أمير وحاكم الصعيد باسم الجمهورية الفرنسية » .

وهكذا تضمن « قانون » ٢ أكتوبر سنة ١٨٠٠ إنشاء ديوان القاهرة وإنشاء المحاكم القضائية إلى جانب تنظيم القضاء عموماً . وقد اختلف تنظيم الديوان الجديد عن ديوان بونابرت السابق ؛ فجعل منو ديوانه من مجلس واحد ورسم اختصاصاته بصورة واضحة ، فقصر نشاط الديوان على الشئون القضائية ، تلك الناحية التى اعتقد منو أن فى استطاعة العلماء والشيوخ إذا هم تفرغوا لأعمالهم فيها أن يسدوا خدمات جليلة للقضاء فى هذه البلاد ، وأن يصبحوا أداة فعالة لضمان العدالة فضلا عن ضمان استقامة الأمور فى المساجد وأماكن « التعليم الشعبى » بفضل إشرافهم على إدارتها جميعاً . وقد كانت هذه مسائل تتصل اتصالا وثيقاً بعقائد المصريين وتقاليدهم وعاداتهم . وصف الشيخ الجبرتى هذا الديوان فقال فى حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٥ [١] :

(١) الجبرتى ٣ : ١٤٤ — ١٤٥

« وفيه شرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الأول من تسعة أنفار متعممين لاغير ، وليس فيهم قبطي ولا وجاقلي ولا شامي ولا غير ذلك ، وليس فيه خصوصي وعمومي على ما سبق شرحه ، بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء هم الشيخ الشرقاوي رئيس الديون ، والمهدي كاتب السر ، والشيخ الأمير ، والشيخ الصاوي وكاتبه ، (أي الشيخ عبد الرحمن الجبرتي نفسه) ، والشيخ موسى السرسي ، والشيخ خليل البكري ، والسيد علي الرشيدي نسيب ساري عسكر ، والشيخ الفيومي ، والقاضي الشيخ إسماعيل الزرقاني ، وكاتب سلسلة التاريخ السيد إسماعيل الخشاب ، والشيخ علي كاتب عربي ، وقاسم أفندي كاتب رومي ، وترجمان كبير القس روفائيل ، وترجمان صغير الياس فخر الشامي ، والوكيل الكمثاري فوربيه ، ويقال له مدبر سياسة الأحكام الشرعية ومقدم ، وخمسة قواسة ، واختاروا لذلك بيت رشوان بيك الذي بحارة عابدين وكان يسكنه برطلمان . . وأعدوا للمترجمين والكتبة من الفرنساوية ، مكانا خاصاً يجلسون به في غير وقت الديوان على الدوام لترجمة أوراق الوقائع وغيرها ، وجعلوا لها خزائن للسجلات ، وفتحوا أيضاً بجانبها داراً نفذوها إليها وشرعوا في تعميرها وتأنيقها وسموها بمحكمة المتجر ، وأخذوا يرتبون أنفاراً من تجار المسلمين والنصارى يجلسون بها للنظر في القضايا المتعلقة بقوانين التجار ، والكبير على ذلك كله فوربيه ، ولم يتم ذلك المكان الثاني » .

ولما كان منو قد اقتنع بأنه قام بإصلاحات كثيرة ، فقد بات ينتظر أن تأتي هذه بثمرتها المنشودة ، كما انتظر أن يشاطره المصريون التفاؤل بهذه التنظيمات الجديدة والرضا عنها ، وفي نشوة من نشوانه أصدر منشوراً أو نداء موجهاً إلى أهل مصر ، في ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٠[1] — تحدث فيه عن إصلاحاته التي اتخذها ، ثم عن تلك الإصلاحات التي يعتزم إجراءها ، وطالب المصريين بأن يعترفوا بصنيع فرنسا وأياديها البيضاء عليهم ، بعد ما كان المصريون يعيشون في بؤس وتعاسة ، فجاءت الجيوش الفرنسية إلى هذه البلاد تحرر أهلها من الشقاء وتشيع بين ظهرانيهم السعادة ، واعتبر الفرنسيون المصريين إخوة لهم فعنوا بأمرهم وأحسنوا معاملتهم ، وأصدر منو أوامر عدة لإصلاح شئونهم ورفع الظلم عنهم ، فوضع للضرائب نظاما ثابتا لا يتغير بعد أن ألغى عدداً عظيما منها ، ومنع الملتزمين ومشايخ البلد من إرهاق الأهلين وإثقال كواهلهم بالمغارم والأتاوات

(١) Rousseau 367 — 75 ; Reynier (Mém) 166—62 ; Pièc. Off. 489—93

وما إليها ، ونظم القضاء فبات سير العدالة مضمونا دون حاجة لتقديم الهدايا والرشاوى للقضاة ، وحفظ الأمن وكفل للمصريين حصولهم على أثمان كل ما يقدمونه من مؤن وأغذية للجنود الفرنسيين فى مختلف المديريات . ذلك أنه قد صدرت إليه على حد قوله « أوامر الجمهورية الفرنسية وأوامر القنصل بونابرت ليعمل جاداً ودون أن يغفل لحظة حتى ينعم المصريون بالسعادة ويشعروا بالغبطة والسرور » . وقد اختتم منو هذا المنشور الطويل بتقديم النصح للمصريين أن يلزموا الهدوء والسكينة ، وتوعد بإنزال العقوبة الصارمة بكل من يجرؤ على الإخلال بالنظام ، فأعاد إلى أذهانهم ما حل بأهل بولاق من عقاب صارم تأديبا لهم على ثورتهم .

وكان ديوان القاهرة أداة طيبة فى يد منو فلم يعرف عن أعضائه أنهم اعترضوا على شيء مما طلبه منهم أن يفعلوه ، ولم يبد عضو استقلالا فى الرأى ، ولم يجرؤ أحد على الوقوف موقف المعارضة ومحاولة مناقشة مسألة من المسائل التى كان يفرضها الفرنسيون على أعضاء الديوان فرضا . حتى إن كثيرين من المؤرخين توهموا بسبب ذلك كله أن الديوان كان يتعاون مع الجنرال معاونة كاملة وثيقة ، دليل الرضا عن حكومته والخضوع لسلطان الفرنسيين عن رغبة وارتياح . ومع ذلك فقد كان لهذا «الخضوع» الظاهرى أسباب عدة لعل أهمها تمسك أعضاءالديوان بخطة «المداراة والتريث» بعد كل تلك العقوبات الصارمة التى أنزلها الفرنسيون بالقاهريين عقب ثوراتهم السابقة ، وانشغال العلماء والمشايخ إلى جانب سائر القاهريين بتدبير الأموال لدفع الغرامات الفادحة التى طولبوا بها ، وانتظار الفرج فى وقت كان من المتوقع فيه أن يبدأ العثمانيون وحلفاؤهم الإنجليز الزحف على الحدود المصرية والهجوم على جيش الشرق وطرد (الحملة) من الأراضى المصرية . وعلى ذلك فقد ظل الديوان يجيب رغبات منو مسايرة ومداراة له . فقد حدث فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٠٠ أن أشار منو على أعضاء ديوانه بأن يرسلوا تهنئة إلى بونابرت بمناسبة وصوله إلى أرفع مناصب حكومة الجمهورية الفرنسية . وأن ينتهز الأعضاء هذه الفرصة ، فيبدوا رغبتهم فى انضمام مصر إلى فرنسا نهائيا[١] ، فبادر المشايخ : البكرى ، والشرقاوى ، ومحمد الأمير ، والمهدى ، والصاوى ، والفيومى والسيد على الرشيدى ، وعبد الرحمن الجبرتى ، بإعداد خطاب فى هذا المعنى قرىء بالديوان[٢] فى ٢٤ جمادى الثانى ١٢١٥ ، ١٣ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، ثم تقرر حفظه

---

(١) Rigault 160

(٢) Galland II 10 — 11

فى سجل الديوان ، فأثبت هذا الخطاب فى سجل الديوان بإشراف كل من : الشيخ إسماعيل الزرقانى القاضى ، والسيد إسماعيل الخشاب ، « وثائق » الديوان ، وكاتب سلسلة التاريخ .

وفى هذا الخطاب(١) هنأ العلماء بونابرت على منصبه الجديد ، وأثنوا عليه ثناء عاطراً ، وأبدوا أسفهم لاضطراره إلى مغادرة هذه البلاد حتى يخلص فرنسا من أعدائها ، ووصفوه بسيف الله المسلول ، ثم قالوا : « ونحن إذا قلنا إن المصريين يؤلفون مع الفرنسيين أمة واحدة لأصبنا فى هذا القول كبد الحقيقة ، ويرجع الفضل فى توثيق عرى هذا الاتحاد يوما بعد يوم إلى ما أبداه من عناية فائقة بأمر هذا التآلف صديقنا عبد الله منو صاحب الصيت الذائع والمقام الرفيع الذى حباه المولى بالحكمة وسداد الرأى ، رعاه الله بعين عنايته وأثابه خيراً على ما يفيض به من رأفة وحنان » .
وشكر العلماء المولى سبحانه وتعالى الذى ألهم بونابرت اختيار عبد الله منو حاكما على مصر ، ثم قالوا فى ختام رسالتهم : « ونحن إنما نطلب إليكم ألا تغفلوا أمر مصر ، فيسدل النسيان عليها حجابا ، ذلك أن مصر هى بلادكم ، ولاشك فى أن شرف عاصمتها هو شرفكم . وأما أهلها فهم يكنون لكم كل محبة وتقدير ، ويترقبون عودتكم إليهم بفارغ الصبر ، إن الدين الإسلامى الذى ظفر بتقديركم ليدعوكم إلى المجىء إلى هذه البلاد مرة أخرى ولقد وعدتم أنتم بذلك فلا تخلفوا وعدكم ولن يطول الأمد على تمام الاتحاد بين الأمتين ، فلا معدى عن حدوث ذلك فى يوم قريب ، وإن هذا اليوم آت لا ريب فيه لأن المولى عز وجل قد أراد ذلك ولا مناص من تنفيذ إرادته » .

وإذا كان أعضاء الديوان قد درجوا على « مداراة » منو فأجابوه إلى ما طلبه منهم خوفا من الاصطدام معه فى مسائل كثيرة ، فقد وجد الأعضاء فى بعض المسائل التى عرضها منو عليهم مزايا صادفت هوى فى نفوسهم ، فأقبلوا على معالجتها بكل همة ؛ ولما كان منو قد اصطنع الحكمة والتأنى فلم يشأ أن يفرض إرادته فرضا فى المسائل التى اعتبرها ذات صلة وثيقة بأحكام الشريعة الإسلامية أو بعادات وتقاليد البلاد القديمة ، فقد ظهر من آن لآخر أن هناك تعاونا كاملا بين الديوان وبين حكومة منو من شأنه أن يعزو فى ظاهر الأمور على الأقل النجاح إلى منو فى تجربة حكومته الوطنية . من ذلك « مسألة ضبط الأنساب ومعرفة الأعمار » التى عرضها منو على أعضاء الديوان فانبرى هؤلاء يبحثونها ويقرون وجهة نظر منو ويكملون ما بدا لهم من نقص فى مشروعه

(١) Galland II 6 — 11 ; Testa II 26 — 8

الجديد . وقد شرح الشيخ الجبرتى هذه المسألة وما دار بشأنها من مناقشات فى الديوان فقال فى حوادث ١٦ شعبان سنة ١٢١٥ و ٢ يناير سنة ١٨٠١ [١] : « أن سارى عسكر أمر وكيل الديوان أن يذكر لمشايخ الديوان قصده ضبط وإحصاء من يموت ويولد من المسلمين وأخبرهم أن سارى عسكر بونابرته كان فى عزمه ذلك وأن يقيدله من يتصدى لذلك ويرتبه ويدبره ويعمل له جامكية وافرة فلم يتم مرامه . والآن يريد تتميم ذلك ويطلب منهم التدبر فى ذلك وكيف يكون وذكر لهم أن فى ذلك حكما وفوائد منها ضبط الأنساب ومعرفة الأعمار ، فقال بعض الحاضرين وفيه معرفة انقضاء عدة الأزواج أيضاً ، ثم اتفق الرأى على أن يعملوا بذلك قلفات الحارات والأخطاط وهم يقيدون على مشايخ الحارات والأخطاط بالتفحص عن ذلك من خدمة الموتى والمغسلين والنساء القوابل وما فى معنى ذلك . ثم ذكر الوكيل أن سارى عسكر ولد له مولود فينبغى أن تكتبوا له تهنئة بذلك المولود الذى ولد له من المرأة المسلمة الرشيدية ؛ وجوابا عن هذا الرأى ، فكتبوا ذلك فى ورقة كبيرة وأوصلها إليه الوكيل فوريه » .

ومع أن الشيخ الجبرتى لم يثبت فى تاريخه صورة هذه (الورقة) ؛ فقد ترجمها (جالان) فى كتابه وهى مؤرخة فى ١٦ شعبان سنة ١٢١٥ و ٢ يناير سنة ١٨٠١ [٢] أمضاها عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان ومحمد المهدى سكرتير الديوان . بدأ العلماء رسالتهم الطويلة بالثناء على بونابرت ثم على منو ؛ فمدحوا بونابرت « الذى اتخذ قراراً مفيداً من أجل إعداد سجلات لقيد أسماء الموتى فى مدينة القاهرة » ، إذ بفضل هذا القرار الحكيم يتسنى تنظيم أعمال الحكومة ؛ على أنه كان من الضرورى كذلك لإتمام هذا التنظيم أن تعد سجلات أخرى تقيد أسماء المواليد حتى يمكن بفضل ذلك جميعه معرفة عدد الوفيات والمواليد فى القاهرة وسائر المدن ، ثم قالوا « وإليك وحدك أيها القائد — ويقصدون الجنرال منو — الذى أراد القدر على ما يبدو أن يجرى على يديك إتمام وإنجاز مشروعات بونابرت العظيم بأسرها ، يرجع الفضل فى إظهار الرغبة فى بلوغ نظام سجلات الوفيات والمواليد غايته . وقد أكدنا للمواطن فوريه قومسير الحكومة أن هذا النظام سوف يلقى تأييداً كاملا من جانب العقلاء والمعروفين بالحكمة وسداد الرأى من أهل هذه البلاد جميعهم ، ورجوناه أن يرفع إليك ما انعقد عليه رأى الديوان فى ذلك » . واحتضن أعضاء الديوان أنفسهم هذا المشروع وتحدثوا عنه

(١) الجبرتى ٣ : ١٤٩

Galland II 31 — 6 (٢)

كأنهم أصحابه ومبتدعوه ، فتحدثوا عن فوائد هذا النظام « الذى يطلبونه » ، وأهمها إحكام توزيع التركات ، والوقوف على هوية الأفراد ومعرفة حقيقة أعمارهم ، والوقوف على حال كل أسرة ، فيتسنى حينئذ ضبط عقود زواج السيدات من مطلقات وأرامل ، فلا تستطيع إحداهن الزواج قبل انقضاء عدتها ، فضلا عن أن من مزايا إعداد سجلات المواليد : ضبط مسائل البنوة الشرعية والتحقق منها ، ولذلك « يقترح » الديوان على منو أن يصدر أوامره إلى الحكام فى كل مديرية أن يهيئوا سجلات كاملة للمواليد والوفيات يدون بها جنس كل فرد ذكراً كان أو أنثى ، إلى جانب ديانته ومسقط رأسه . وكان بعد أن فرغ أعضاء الديوان من ذكر ذلك كله أن انتقلوا إلى تهنئة منو بالمولود الجديد الذى ولد له .

وأجاب منو على هذه الرسالة بكتاب طويل قرىء بالديوان فى ١٢ يناير سنة ١٨٠١ ، وأثبته الشيخ الجبرتى فى تاريخه عند ذكر حوادث اليوم نفسه (٢٦ شعبان سنة ١٢١٥)، فقال منو ضمن ما قال[١] : « لجناب حضرة بونابرته الشهير النبيل الصنديد الشجاع الجليل قد تقدم فأمر بأن يحرر دفتر يكتب فيه أسماء كامل الميتين والآن حضرتكم قد طلبتم منى دفتراً آخر خلافه فيه يتحرر أسماء المولودين أيضاً ومن حيث ذلك فلابد أن أعتنى منذ الآن مع جزيل الاهتمام بهذين الأمرين وهكذا أيضاً بتحرير دفتر الزواج إذا كان ذلك أشد المهمات والحوادث الواجبات ، ثم يتبع ذلك بتجديد نظام غير قابل التغيير فى ضبط الأملاك والتميز الكامل عمن ولد ومات من السكان وهذا يعرف من أهالى كل بيت ، فعلى هذا الحال يتيسر للحاكم الشرعى الحكم بالعدل والإنصاف وينقطع الخلف والانقسام بين الورثة ، وتقرر الولادة ومعرفة السلالة التى هى الشىء الأجل والأوفر استحقاقاً فى الإرث » .

واغتبط منو بالنتيجة التى وصل إليها ومجاملة الديوان له بتهنئته بالمولود الجديد فاستمر يقول : « وهكذا إن شاء الله لابد من الفحص والتفتيش بالحرص والتدقيق وبذل الهمة للحصول لأقرب نوال إلى مايلزم لإكمال ما قصدناه ، ثم إن أراد الله لابد أن أعتنى بالمطالبة على وجه تام كل وقت يقتضى لنا أن ندبر أشياء تستفيد بها هذه المملكة التى قد تسلمنا سياستها . وبهذا نوفر ونتحقق كوننا امتثلنا لأوامر دولة جمهور الفرنساوية وحضرة قنصلها الأول بونابرته ، فياحضرة المشايخ والعلماء الكرام إننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا تهنئة بولادة ولدى السيد سليمان مراد جاك منو فنطلب من الله سبحانه

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٤٩ — ١٥١

وتعالى واسأله كذلك بجاه رسوله سيد المرسلين أن يجود به على زماناً مديداً وأن يكون للعدل محباً والاستقامة والحق مكرماً وموفى وعده صادقاً وألا يكون من أهل الطمع فهذا أوفر الغنى الذى أرغبه لولدى لأن الرجل الذى لا يهتدى إلا بالخير فلا يصرف اعتناءه إلا فى خير الأدب لا فى قنية الفضة والذهب فنسأله تعالى أن يطيل بقاءكم والسلام ».

ولا جدال فى أن ما ظهر من « تعاون » فى هذه المسألة من جانب الديوان مع الحكومة كان من أقوى الدوافع التى حفزت منو على المضى فى سياسته الوطنية ، بل جعلته شديد الإيمان فى إمكان التغلب على ما قد يعترضه من صعوبات ؛ وارتاح منو إلى ما وصل إليه فأصدر منذ ٩ أكتوبر سنة ١٨٠٠[١] أمراً أعلن فيه عفوه الشامل عن كل أولئك المصريين الذين غادروا القاهرة عقب تسليمها بعد ثورتها الثانية خوفاً من بطش الفرنسيين بهم أو تخلصاً من دفع الغرامة التى طولب القاهريون بأدائها ، فسمح لهم الآن بأن يعودوا إلى مدينتهم آمنين مطمئنين ، واستثنى منو من هذا العفو المصريين الذين غادروا القاهرة قبل ذلك ، فأمر الآن بمصادرة أملاكهم . وفى يومى ٢ و ٣ يناير سنة ١٨٠١ ذكر منو فى أوامره حادث إقبال شيخين على نجدة بعض الفرنسيين الذين طاردهم بعض المماليك فأنقذهم الشيخان ومكافأته لهما بأن خلع عليهما كسوة من الفرو والشيلان ، كما أنقص ربع المال المطلوب منهما ومن قريتيهما[٢] . وتفصيل ذلك أن ثلاثة من الفرنسيين كانت قد غرقت بهم مركبهم فى النيل قريباً من مكان أقام به مماليك الألفى بك ، وانبرى هؤلاء لمطاردتهم ، فساعدهم شيخان من القرى المجاورة على النجاة ، ورفضا تسليمهم ونجحا فى إثارة أهل القرى ضد المماليك ، فاضطر هؤلاء للنكوص على أعقابهم ، ودبر الشيخان طريقة لفرار الفرنسيين حتى وصلوا بسلام إلى المعسكر الفرنسى فى بنى سويف[٣] .

وكان مما اهتم به منو كجزء هام من أجزاء سياسته الوطنية ضرورة إخضاع عربان البدو لسلطة الحكومة من جهة ، والقضاء على مقاومة المماليك من جهة أخرى . فقد بلغ عدد العربان وقتئذ أربعين ألفاً ، وانتشروا فى أرجاء البلاد يعيثون فسادا ، يغيرون على القرى وينهبون أهلها ويسببون متاعب شديدة لجيش الشرق ، حتى أن بونابرت كان

---

(١) Pièc. Div. 549 — 50 ; Pièc. Off. 462 — 3

(٢) Rigault 160 — 1

(٣) Galland II 30

قد أعد لمكافحتهم ومطاردتهم فرقة خاصة من الهجانة[١] . وأحرز نجاحاً كبيراً عليهم عند ما قهر الهجانة هؤلاء العربان ، واستولوا على مواشيهم ومتاجرهم . واضطر جماعة منهم فى بعض الأقاليم إلى الاتفاق مع الفرنسيين والعيش فى هدوء وسلام معهم .

من هؤلاء عربان أسيوط الذين عقدوا فى ٢٩ يونيه ١٨٠٠ اتفاقاً مع حاكمها (دونزيلو) تعهدوا فيه بدفع الضريبة . أما منو فقد تكللت مساعيه بالنجاح عند ما استطاع هو الآخر أن يبرم اتفاقا مع بعض هؤلاء العربان فى أول يناير سنة ١٨٠١ ، فأمن هؤلاء على جمالهم ومواشيهم ولزموا الهدوء والسكينة ، وفضلا عن ذلك فقد سمح منو لجماعة من عربان الشام بالإقامة على الحدود المصرية[٢] ، على أمل أن يفيد ذلك فى منع إرسال الحبوب إلى العدو إلى جانب رفع قيمة الأراضى الواقعة فى هذه الجهات ، وإمكان جمع المال منها . وأما أولئك العربان الذين رفضوا الاتفاق أو الانضواء تحت لواء الحكومة فقد نشط قواد منو وحكام المديريات المختلفة فى مطاردتهم ، وكان أولاد على من أخطر هؤلاء العربان شأناً ، انقضوا بغتة على إقليم البحيرة فنهبوا أهل الإقليم واضطر فريان أن يخرج لمطاردتهم واستطاع كبح جماحهم بعد مطاردة عنيفة[٣] .

منو ومراد :

وحاول منو التغلب على مقاومة المماليك ؛ ولكنه لم يكن موفقاً فى مسعاه ، ذلك أنه أصر على تعقب أحد بكواتهم محمد بك الألفى ، فنشط فى مطاردته ، كما أنه لم يشأ أن يحترم تلك المعاهدة التى عقدها كليبر مع مراد بك فنفر بهذا المسلك صديق الفرنسيين القديم . وتفصيل ذلك أن الألفى بك كان قد عاد وقتئذ من الشام إلى مصر وقصد الشرقية ، وأعلن رغبته فى الذهاب إلى الصعيد للانضمام إلى مراد بك ، ولكن الألفى بدلا من أن يذهب إلى مراد فى التو والساعة ، فضل الإقامة ردحاً من الزمن مع قبيلة (محارب) شرقى العطف ، وكانت من القبائل الثائرة على الفرنسيين . فبادر منو بإرسال قوة من الهجانة لمطاردة الألفى بينما ذهبت قوة أخرى صوب برزخ السويس لقطع الطريق عليه عند تقهقره . فكانت مطاردة عنيفة صارمة . فاستولى الهجانة على كل متاعه ، ونجا الألفى بنفسه فى حراسة قليلين من رجاله بعد مشقة وصعوبة ، ثم لجأ إلى مراد[٤] وحاول مراد أن يتوسط بين الألفى وبين الفرنسيين ، وطلب أن يعطيه

(١) Bertrand II 59 — 61

(٢) Reybaud VIII 61 — 2

(٣) Rigault 162

(٤) Reybaud VIII 58 — 9

هؤلاء أرضاً يعيش من إيرادها ، ولـكن من غير جدوى . فـكان امتناع منو عن إجابة ملتمس مراد أحد أسباب النفور الذى كدّر صفو العلاقات بينهما .

وكان منو قد حرص فى أول الأمر على استبقاء مودة مراد فى سبيل المحافظة على المحالفة القائمة بين مراد والفرنسيين ، تسامحاً معه عندما عجز عن دفع الجزية كاملة بسبب انخفاض النيل وقتئذ ، ولما كان يتكلفه مراد من نفقات باهظة عندما جمع حوله المماليك الذين لجأوا إليه فى جرجا ، بل إن منو ما لبث حتى أرسل داماس واستيف للاتفاق مع مراد وإعطائه بضع قرى جديدة إلى جانب إنقاص قيمة الجزية المطلوبة عن عام ١٨٠٠ ، وكتب منو إلى الحكومة الفرنسية فى ٢٤ سبتمبر من العام نفسه(١) بمناسبة إرساله صورة من اتفاقه الأخير مع مراد إلى باريس، ثم صورة أخرى من اتفاق كليبر معه : « إن من واجب الفرنسيين تنفيذ معاهدة كليبر — مراد محافظة على شرف الوطن » ، لأن مراد الذى كان فى وسعه أن يلحق الأذى بالجيش الفرنسى المحارب فى معركة هليوبوليس قد امتنع عن فعل ذلك . بل ومن الواجب «شراء» صداقة مراد بأى ثمن ، ومع أن منو كان يجد فى تسليم ميناء القصير إلى مراد ، نزولا على أحكام معاهدته مع كليبر ، عملا يتعارض مع مصلحة الفرنسيين ، لوقوع هذا الميناء على شاطىء البحر الأحمر ، مما يهدد بسقوطه فى أيدى الإنجليز الذين قد يختارونه لإنزال قواتهم به إذا قرروا غزو مصر من هذه الناحية ، وقلب مراد ظهر المجن لحلفائه الفرنسيين ، فقد أبعد منو عنه هذه الشكوك بكل سرعة بسبب كراهية مراد الشديدة للانجليز والعثمانيين ، ولأنه ظل أميناً على عهوده وفياً لحلفائه حتى هذه اللحظة ، ولأن دونزيلو حاكم أسيوط دأب على ملاحظة حركاته ومراقبة نشاطه بكل دقة . وقد عاد منو فأثنى على مراد فى رسالة أخرى كتبها فى اليوم نفسه إلى وزير الحربية الفرنسية(٢) فامتدح مسلكه وقال إن زوجه وهى أرملة على بك الـكبير كانت تتمتع فى القاهرة بكل احترام وتبجيل من أيام بونابرت نفسه .

ومع ذلك فإنه كان من المتعذر أن تظل العلائق طيبة بين مراد ومنو بالدرجة التى بلغتها أيام كليبر . ذلك أن مراداً كان قد عظم أمله أيام كليبر فى قرب خروج الفرنسيين من هذه البلاد ، وعقد آمالا عظيمة على استطاعته أن ينفرد بحكم مصر لما عرف عن رغبة كليبر فى الجلاء وإبرامه اتفاق العريش لتحقيق هذه الغاية ، ولـكن ما إن تسلم

(١) Reynier (Mém.) 192 — 3 ؛ Rousseau 358 — 9

(٢) Pièc. Div. 522 ؛ Pièc. Off. 423 — 4 ؛ Rousseau. 353 — 4

منو زمام الحكم حتى انهارت كل هذه الآمال . فقد ثبت لدى مراد أن منو إنما يبغى البقاء فى مصر ، وأنه إنما يعتبر مراد بك حاكما فى مديريات جرجا وأسوان بوصفه أميراً فحسب ، يحكم الصعيد باسم الجمهورية الفرنسية[1] وفضلا عن ذلك فقد صدر أمر ٣ أكتوبر سنة ١٨٠٠ يقضى باتباع النظام القضائى الذى أوجده منو فى جميع الأقاليم التى يديرها مراد باسم الجمهورية الفرنسية ، فانتزع هذا الأمر من مراد كل حق فى الإشراف على تعيين القضاة فى المديريات الخاضعة له . ثم سرعان ماجد من الحوادث بعد ذلك ما قضى نهائياً على كل أمل لدى مراد فى جلاء الفرنسيين عن مصر أو فى أى تفاهم على صورة الحكم بينه وبين منو . فقد تطايرت الإشاعات بأن العثمانيين يستعدون لاستئناف النضال ضد الفرنسيين ، وكان العثمانيون قد اتخذوا فى يافا والعريش مواقع لهم منذ هزيمتهم فى هليوبوليس ، وساعدهم الإنجليز فى تحصين هذين الموقعين ، وتمكنت جماعة من الانكشارية والمماليك من التقدم عن طريق قطية وبرزخ السويس إلى الحدود المصرية ذاتها كطلائع لجيش الصدر الأعظم ، ولما كان يوسف ضيا باشا قد ظل يتبادل الأخبار مع رجال الأسطول الانجليزى فى البحر الأبيض ومع رجال الدولة العثمانية فى الآستانة ، فقد بات من المتوقع أن يزحف العثمانيون على هذه البلاد قريباً بطريق البر ، بينما يعمد حلفاؤهم الانجليز إلى إنزال حملة على شواطئها ، ولم يكن أمر هذا الهجوم المتوقع سراً مكتوماً ، بل حرص الجواسيس اليونانيون الذين جاءوا من الشام على إذاعته كما أكد هذا النبأ بعض التجار الذين أفلتت سفنهم من رقابة الأسطول الانجليزى فى البحر الأبيض . أضف إلى هذا كله أن مراد بك استطاع أن يقف من بعض مماليك إبراهيم بك الذين جاءوا إليه على حقيقة أغراض العثمانيين والإنجليز وما يدبرونه من خطط عسكرية ، وكان مما عرفه مراد أن الصدر الأعظم يرغب فى الاتفاق مع الفرنسيين .

وكان السبب فى ذلك أن العثمانيين باتوا يخشون من حلفائهم الإنجليز الذين عظم نفوذهم وقتئذ فى الآستانة ، فصاروا يفضلون لذلك الاتفاق مع الفرنسيين بالطرق السلمية على مؤازرة الانجليز لهم واشتراكهم معهم فى النضال المنتظر[2] ، وعلى ذلك فما إن بلغ الصدر الأعظم نبأ « ذلك الاتفاق الذى وقع بين مراد بيك والأمير كليبر ، وأنه وعده إذا رحلت الفرنساوية أن يسلمه الديار المصرية ، ثم بلغه ما حل بالأمير كليبر

(١) Rousseau 353 ; Pièc. Div. 523 ; Pièc. Off. 433

(٢) Peybaud VIII 106 — 7

من المنية» ، حتى بادر بانتهاز الفرصة يطلب من مراد بك التوسط بينه وبين الفرنسيين وكلف إبراهيم بك أن يكتب إلى مراد بك حتى «يطالب عبد الله منو أمير الجيوش بوعدسلفه كليبر» ، وأن يبين له أنه لا معدى عن خروج الفرنسيين من مصر فى النهاية لعجزهم المتوقع عن مقاومة جيوش العثمانيين وحلفائهم الإنجليز ، وأن «خروجهم (لذلك) بالصلح والسلام أوفق لهم من خروجهم بالقهر والإرغام» . ووعد الصدر الأعظم إبراهيم بك أنه «متى عول الفرنسيون على الامتثال وخرجوا على هذا المنوال يسلم المملكة إلى العز المصريين كما وعدهم كليبر ويرحل هو للقسطنطينية بالعساكر الهمايونية ، ويرسل وزيرا يكون بالقلعة السلطانية ، وذلك حكم الأيام السالفة بدون مناقضة ولا مخالفة[١]» فكتب إبراهيم بذلك إلى مراد كما أرسل الصدر رسالة فى هذا المعنى إلى مراد بك .

وقبل مراد الوساطة . وانتهز فرصة إرسال أحد رجاله عثمان بك البرديسى بالجزية السنوية إلى القاهرة ، فكلفه بأن ينقل إلى منو أنباء الحملة التى يعدها العثمانيون مع الإنجليز لغزو مصر . ووصل البرديسى القاهرة فى ٧ فبراير سنة ١٨٠١ وفى اليوم نفسه قابل منو[٢] . فأطلعه على ما لديه من أنباء فحواها أن جيشا يبلغ ثمانية عشر ألفا يعتزم العمل بالاشتراك مع القبطان باشا والنزول فى الشواطىء المصرية ، بينما يجتاز الصدر الأعظم بجيشه الصحراء ويغزو الأقاليم الشرقية ، فضلا عن أن أسطولا إنجليزيا قد غادر الهند فى طريقه إلى السويس ومن المنتظر وصوله إليها قريبا . ولما كان مراد قد طلب من البرديسى أن يطلع منو على رسالة الصدر الأعظم ، فقد فعل البرديسى ذلك ، ثم طلب البرديسى باسم مراد أن يذكر منو مصلحة مراد دائماً إذا هو قرر الاتفاق مع العثمانيين ، كما أن مراد كان مستعدا لإرسال النجدات إلى منو عملا بنصوص الاتفاق المبرم بينه وبين كليبر إذا قرر منو المقاومة بدلا من الاتفاق[٣] .

غير أن منو بدلا من الترحيب برسول مراد ما لبث أن ركب رأسه فأساء مقابلة البرديسى ، واعتقد أنه من المتعذر حدوث أى اتفاق بين العثمانيين والإنجليز لتدبير محالفة هجومية من أجل استئناف القتال ضد الفرنسيين ، ونفى أن هناك مايدعو لقبول النجدة من مراد أو ما يسوغ تدخل مراد ووساطته ، واستبد بمنو الغضب فقال إنه

---

(١) نقولا الترکی ٢٠٠ — ٢٠١
(٢) Martin II 168
(٣) Reybaud VIII 108

كان من الأفضل لمراد أن يظل فى إقليمه هادئا ساكنا بدلا من تبادل الرسائل مع العدو فى سوريا ، ثم كشف القناع عما كان يساوره من شكوك من ناحية مراد الذى جمع حوله أولئك المماليك الذين حضروا من الشام فسمح لهم بالإقامة فى إقليمه وأخذ يمدهم بالأسلحة . ودافع البرديسى عن سلوك مراد ما وسعه ذلك فعزا إلى كليبر نفسه الرغبة فى أن ينشىء مراد علاقات مفيدة مع جيش الصدر الأعظم ، حتى يمكن الوقوف على حركات هذا الجيش . كما أن كليبر نفسه هو الذى أجاز لمراد أن يدعو مماليكه ومماليك البكوات الذين قضوا نحبهم للاقامة معه . ولكن كل هذه الحجج ذهبت هباء لأن منو الذى أصر على رأيه ما لبث أن قال إنه « لا يرى نفسه مقيدا بما فعله كليبر أوملزما بسلوك الطريق الذى سلكه سلفه ، وإنه لا يعتزم التفريط فى مصر وبيعها[١] » . فكان جافى القول خشن المعاملة . ثم بادر فأعلن إلى البرديسى أن الفرنسيين لايعتزمون قطعا « الخروج (الآن) من هذه المملكة ، فمتى عزمنا وأردنا أن نتركها نبق فى ذلك الوقت نقيم بوعدنا مع مراد بيك . ومع ذلك فمراد بيك قاطن بمملكة مصر براحة كلية وقد صار عضوا من أعضاء المشيخة الفرنساوية ولا يكن مهتما إلا بذاته[٢] » .

وأخفق البرديسى فى مفاوضته الأخرى بشأن توسط مراد فى مسألة الألفى ، فرفض منو إعطاء بعض القرى إلى محمد بك الألفى حتى يتعيش من إيرادها ، ثم لم يكتف بذلك بل طفق ينحى باللائمة على مراد ويؤنبه تأنيبا عنيفا لأنه لم يرسل إليه الألفى . « وقد صفده تصفيدا » ، وطلب البرديسى أن يأذن له منو بزيارة بعض كبار القواد حتى يسلمهم كتبا من مراد وحتى يظهر لهم ما يكنه من احترام وتقدير لأشخاصهم ، فرفض منو تسليم الرسائل إلى القواد بدعوى أن مراد ما كان يحق له أن يكتب لغير قائد الحملة العام وممثل الحكومة الفرنسية ، ثم أذن للبرديسى بزيارة القواد على شريطة أن لا يسلم أحدا منهم أية رسالة من مراد[٣] .

وساء البرديسى أن يقابله منو بكل هذا الجفاء ، وتحدث فى ذلك مع (داماس) ، و (دور) . ومع أنهما حاولا إزالة هذا الأثر السىء من نفسه فإن البرديسى لم يسعه إلا إبداء دهشته من اختيار رجل مثل منو ليملأ ذلك المنصب الخطير الذى خلا بوفاة كليبر ، وأظهر ما يساوره من مخاوف على مصير جيش الشرق الذى قد يلحق به أذى كبير على يد هذا الرجل . ومكث البرديسى مدة من الزمن فى انتظار جواب من منو

---

(١) Martin II 170
(٢) نقولا الترك ٢٠١
(٣) Martin II 171

ولكن بلا طائل، حتى إذا جاءت الأنباء عن وصول الأسول الإنجليزى إلى الشواطئ المصرية جدد البرديسى المسعى وعرض مقترحات مراد بك مرة أخرى ، ولكن منو ما لبث أن أمره بمغادرة القاهرة بكل سرعة ، وهدد بإنزال العقوبة الصارمة بمراد إذا ظهر أنه يبغى الانحياز إلى جانب العدو(١).

جريدة التنبيه :

على أن الكلام عن حكومة منو الوطنية لا يتم دون تناول ناحية من النواحى التى تدل على مبلغ اهتمامه باستمالة أهل البلاد إلى تأييد سياسته من أجل نجاح تجربته الاستعمارية . فقد كان من المشروعات التى درسها منو لاستمالة المصريين إلى جانبه وبث دعايته بينهم إصدار جريدة عربية ، تساعد على توطيد أركان الحكم فى المستعمرة الجديدة . وذلك بفضل ما قد يتسنى له من إذاعة أعمال حكومته فى هذه الجريدة ، ونشر أوامره الإدارية وقراراته بصورة تكفل تفسير أغراضه من الحكومة الرحيمة التى أخذت على عاتقها إسعاد أهل البلاد ، وذلك حتى يستطيع هؤلاء أن يدركوا حقيقة ما ينطوى عليه النشاط الحكومى من رغبة فى نشر الحرية والعدل ، والعمل على استتباب الأمن والنظام ، فيتذوقوا نوعاً من القوانين (الفرنسية) غير تلك التى خبروها فى الماضى ، ويقبلوا على مؤازرة حكومته (٢) .

وعلى ذلك فقد أصدر منو أمراً فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ « بإنشاء وطبع جريدة عربية تقوم بنشر أوامر الحكومة الفرنسية وإذاعة أعمالها فى أرجاء البلاد ، وتحذير المصريين من الانسياق وراء أصحاب الميول المغرضة ومثيرى القلاقل والاضطرابات الذين قد يعمدون إلى استثارتهم ، كما تعمل على دعم الثقة وتأييد ذلك الاتحاد الذى تزداد أواصره إحكاماً يوماً بعد يوم بين أهل البلاد وبين الفرنسيين(٣) » .

واختار منو لهذه الجريدة اسم « التنبيه » ، وعهد بالإشراف عليها إلى السيد اسماعيل الخشاب . على أن تطبع بالمطبعة الأهلية ، ويجرى توزيعها فى القاهرة والمديريات ، ويعطى رؤساء القوافل الذين يحضرون إلى القاهرة أعداداً كثيرة منها ، وذلك حتى يعملوا على إذاعتها ونشرها فى اليمن والشام وداخل القارة الإفريقية . وجعل منو من حق الديوان معرفة ما يطبع من هذه الجريدة والموافقة عليه مقدماً ،

(١) Reybaud VIII 110: Martin II. 172 — 3

(٢) Galland II. 117

(٣) Rousseau 375 — 6

وذلك للتأكد من خلو ما ينشرها من أخبار ومقالات من أشياء أو عبارات قد تمس بالعادات والتقاليد المرعية فى البلاد الشرقية أو يحط من شأنها . أما الجريدة نفسها فقد قسمت إلى أربعة أقسام : اختص الأول منها بنشر أوامر الحكومة وذكر أعمالها ، بينما نشرت أوامر الديوان فى القسم الثانى ، وأنباء أوروبا وآسيا التى يهم المصريين الاطلاع عليها فى قسم الجريدة الثالث ؛ ونشرت بعض مسائل الفنون والعلوم فى القسم الرابع . وفضلا عن ذلك فقد اتسعت الجريدة — حسبما جاء فى أمر ٢٦ نوفمبر — لنشر بعض المقالات الأخلاقية والموضوعات التى تتناول توضيح طائفة من المبادىء التى يجب أن تسترشد بها كل حكومة صالحة فى أعمالها . وعهد قائد الحملة إلى المواطن فوريه بالإشراف على التنبيه . ولكن جريدة التنبيه ظلت فى عداد المشروعات التى أوجدتها عبقرية منو ولم تتح لها فرصة التنفيذ .

***

تلك إذن كانت معالم السياسة التى اتبعها منو فى إدارة شئون البلاد الداخلية ؛ وهى سياسة كان قوامها العمل على إنشاء مستعمرة فرنسية قبل أى اعتبار آخر ، ما دام جيش الشرق باقياً فى مصر ولم يغادرها ، غير أن هذه الجهود التى بذلها منو كان نصيبها الفشل فى النهاية لأسباب ثلاثة رئيسية :

(أولها) أنه كان من المتعذر استمالة المصريين إلى قبول الحكم الفرنسى ، طالما كان من دأب الفرنسيين — ومنو على رأسهم — فرض المغارم عليهم وابتزاز المال منهم ، ولم يفد شيئاً إنشاء الديوان فى تفريج كرب الناس الذين « أتوا إليه — على حد قول الشيخ الجبرتى — من كل فج يشكون » ويطلبون رفع هذه المظالم عنهم ولكن دون جدوى[1] . كما ضج مشايخ البلد والملتزمون وغيرهم من كل تلك الأنظمة التى ابتكرها منو لضبط أعمالهم ، وسير دولاب العمل الحكومى بكل دقة ، فأسفرت عن إرهاقهم ، أو ترتب على تطبيقها إغفال تقاليد أهل البلاد وعاداتهم . وفضلا عن ذلك فقد حز فى نفوس القاهريين خصوصاً أن يرقبوا الفرنسيين وهم يهدمون بيوتهم ووكائلهم وحوانيتهم ، كى يستخدموا أحجارها فى أعمال التحصينات التى أقاموها حول القاهرة ، أو لإفساح الطريق نتيجة لإزالة هذه المبانى ، حتى يسهل على جيوشهم الانتقال فى قلب المدينة .

(وثانيها) أن منو ظل يواجه فى أثناء ذلك كله معارضة قوية « إيجابية » من ناحية

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٤٥

عدد كبير من قواد الحملة وضباطها ، ومعارضة صامتة « سلبية » لا تقل فى أثرها عن المعارضة الأولى من ناحية طائفة كبيرة من علماء الحملة الذين شاركوا جيش الشرق رغبته فى العودة سريعاً إلى فرنسا .

(وثالثها) أن منو لم يجد متسعاً من الوقت لتنفيذ مشروعاته وإصلاحاته عند ما بات مصير الحملة أمراً مقرراً بسبب استئناف النضال من جانب العثمانيين وحلفائهم الإنجليز لإخراج الفرنسيين من هذه البلاد بطريق الحرب والقتال ، بعد أن أخفقت جهودهم فى محاولة إقناع منو بضرورة تنفيذ اتفاق العريش والجلاء عن مصر بالطرق الدبلوماسية ، ومن غير حاجة إلى الاشتباك فى معارك جديدة .

أما مبلغ إخفاق منو فى استمالة المصريين إلى الحكم الفرنسى فسوف يأتى الكلام عنه عند ذكر (أثر الحملة) عموماً . كما أن تجدد القتال كان مرتبطاً فى واقع الأمر بالموقف السياسى فى أوروبا ، وساعد ضعف حكومة منو بسبب تفرق الكلمة وانغماس قائد الحملة العام فى « مؤامرات » ضعضعت روح الجيش المعنوية وصرفت منو وقواده « المتآمرين » عن تدبير شئون الدفاع عن هذه البلاد بصورة جدية ، على سرعة انهزام جيش الشرق عند ما تدفقت جيوش العدو على « مستعمرة » منو من كل جهة . وكان مبعث هذا التفكك والانحلال ولا شك معارضة فريق قوى من كبار قواد الحملة وضباطها وعلمائها للجنرال منو .

المعارضة ضد منو :

وبدأ الانقسام يدب فى صفوف جيش الشرق من وقت تسلم منو لقيادة الحملة العامة ، فقد قوبل حادث وصوله إلى هذا المنصب بالدهشة الممزوجة بالجزع ، وبعد أن أصدر منو نداءه المعروف إلى الجيش فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٠٠ ، ظهرت المعارضة ضده بصورة واضحة ، لسبب بسيط هو يقين رجال الحملة أن منو لن يغادر هذه البلاد إلا إذا أرغم على ذلك إرغاما ، وأن العودة إلى الوطن قد أرجىء أمرها زمنا قد يطول كثيرا فى عهد قائد عام يصف اتفاق العريش بأنه كان « تسليما » ، وتزدحم فى رأسه مشروعات واسعه لإنشاء مستعمرة جميلة فى مصر ، تحقيقا لأغراض الحملة عند إرسالها وقد تقدم كيف عول منو على بذل قصارى جهده لتهدئة روع الجيش وإعادة النظام إلى صفوفه ، واستمالة الجند إلى الرضا بالبقاء فى مصر حتى تفصل حكومة القنصل الأول فى باريس فى أمر هذه المستعمرة الجديدة ، ولو أنه ظل عظم الرجاء فى أن يأتى قرار الحكومة فى متفقا مع رغبته فى البقاء إذا استطاع توطيد أقدامه فى مصر ودرء كل خطر عنها .

وأدرك منو أنه لا غنى عن توطيد أسباب الراحة لجنوده وجعل حياتهم فى هذه البلاد هنيئة سعيدة ، إذا شاء أن يقضى على ذلك التذمر المنتشر بينهم ، وأن يصل إلى استمالتهم إلى البقاء فى هذه البلاد دون أن يشعروا بغضاضه ، أو يستبد بهم الحنين إلى الوطن . ولذلك فإن منو ما إن تسلم زمام الحكم حتى شرع يعمل بجد ونشاط من أجل تحسين أحوال الجند والحرص على راحتهم ورفاهيتهم . وبذل منو قصارى جهده فى سبيل ذلك حتى إن كل ما أدخله من تنظيمات وإصلاحات مالية وإدارية كان يدور فى واقع الأمر حول غرض واحد هو تدبير المال للانفاق منه بسخاء على جيش الحملة(١) .

وقد تقدم كيف اهتم منو بضبط حسابات الحملة ومنع تلاعب « الموردين » قومسييرى الحرب ومن إليهم . وكان الضرب على أيدى هؤلاء الموردين والقومسييرين ضرورياً لضمان استقامة الامور فى جيش الحملة وتوفير أسباب الراحة للجنود . وعلى ذلك فقد شدد منو فى مراقبة شئون التموين التى وجد فيها الموردون معيناً لا ينضب من الربح على حساب الجنود ، فأصدر منو الأوامر الصارمة لمنع تلاعب هؤلاء الموردين ، وشكل لجنة لفحص الخبز المقدم لجيش الحملة (٢) . ولما كان قومسييرو الحرب هم الذين يشرفون على سد مطالب الجيش وحاجاته ، فقد فحص منو حال كل واحد منهم ، وعند ما وجد أنهم يكلفون خزانة الحملة أموالا طائلة لكثرة عددهم من جهة ، ولعدم دقة إشرافهم على شئون الجيش من جهة أخرى ، عمد إلى إنقاص عددهم ، « مراعاة للاقتصاد — على حد قوله — فى نفقات جيش الشرق دون الإخلال بمصلحة العمل (٣) » . وفى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠ كتب إلى وزير الحربية الفرنسية ينبئه بهذه الخطوة . فقال إنه أنقص عدد قومسييرى الحرب إلى عشرين ، بعد أن كانوا أربعة وثلاثين قومسييرا (٤) . وعقد منو آمالا عظيمة بعد إجراء هذا « الاقتصاد » على استطاعته المضى فى دفع مرتبات الجنود بصورة منتظمة (٥) .

وكان مما اهتم به منو كذلك توفير أسباب العلاج فى مستشفيات الحملة محافظة على صحة الجنود وسلامة أبدانهم . وحمل منو على ذلك ما وجده عند تسلمه قيادة الحملة ، من أن المستشفيات فى حال يرثى لها ، بسبب ما كان يتصف به رجال

---

(١) Pièc. Off. 354
(٢) Pièc. Div. 488 ; Ibid 372 — 5
(٣) Pièc. Off. 476 — 9
(٤) Ibid 420
(٥) Ibid 419

الإدارة — على حد قوله — « من عـدم الأمانة وقلة الذمة فى أعمالهم [١] » .
فأدخل منو بضعة تغييرات هامة ، مستعيضا عن « عـديمى الذمة والأمانة » ،
بعدد من الرجال الذين وثق فى أمانتهم وطهارة ذمتهم . فتغير الحال فى المستشفيات
سريعاً ، ووجد المرضى فيما يقدم لهم من أطعمة غذاء كافياً ، كما كثرت الأربطة
والضمادات وسائر الأدوات الطبية ، وأحكمت الرقابة على « ضباط الصحة » تحت
إشراف (ديجينت) كبير الأطبـاء ، و (لارى) كبير الجراحـين ، و (بوديه)
Boudet كبير الصيادلة ، فحسن سلوكهم ، بل إن ضباط الصحة سرعان ما أظهروا
شجاعة مشكورة فى مكافحة الأوبئة أو فى أثناء الخدمة فى الميدان . وقد أعد
(لارى) نوعاً من « الأسرة المتنقلة » لاستخدامها فى نقل المرضى أو الجرحى
فى أثناء سير الجيش ، ففحص منو نموذجاً منها وأمر بصنع مائة منها يحملها خمسون
جملا ألحقت بقسم الإسعاف فى الجيش ، كما عهد بالإشراف على هذه الخدمة إلى ديجينت
ولارى وبوديه [٢] .

وإلى جانب توفير أسباب الراحة المادية لجيشه من حيث الاهتمام بمأكل الجنود
وملبسهم ، والعناية بمرضاهم وجرحاهم ، حرص منو على إنعاش روح الجند المعنوية ،
لاسيما وقد وجد هؤلاء متسعاً من الوقت لتقليب وجوه الرأى فيما وصل إليه حالهم ،
والتفكير فى مآلهم ومصير الحملة عموما ؛ وذلك منذ أن وضعت الحرب أوزارها فعلا
بعد هزيمة العثمانيين فى معركة هليوبوليس فى مارس سنة ١٨٠٠ وانسحابهم من
الأراضى المصرية . ووقع الجنود نتيجة لهذه « البطالة » فريسة لما صار يتنازعهم
من بغض شديد للاقامة فى مصر ، وحنين عظيم إلى الوطن ورغبة ملحة فى العودة
إليه ؛ ولما كان أكثر القواد والضباط فى عداد المعارضين لسياسة الاستعماريين ،
فقد فطن منو إلى جسامة هذا الخطر ، وأخذ يعمل بكل همة لدرئه . فكان من الوسائل
التى لجأ إليها لإنعاش الروح المعنوية فى الجيش أنه أجرى عـدة ترقيات بين
الضباط [٣] ، وذلك كما قال حتى يعوض شيئاً على رجال تحملوا مشقات عظيمة فى
مصر ، وبات الآن يشغلهم التفكير فى العودة إلى فرنسا [٤] . فعمد منو إلى ترقية
طائفة من الضباط إلى مراتب القيادة كان أكثرهم قد استحقوا فعلا الوصول إلى

(١) Ibid 428 — 30
(٢) Ibid 458
(٣) Ibid 385
(٤) Rigault 261

رتبة (جنرال) ، بسبب ما كان لهم من « أقدميـة » فى المناصب التى يشغلونها ، أو مكافأة لهم على ماقاموا به من خدمات معروفة [١] ، وبذل منو كل ماوسعه من جهد وحيلة لبث روح النشاط فى الجيش ، وإحياء الأمل فى صدور جنوده ، فأصدر منشورات عديدة تمتدح مسلكهم ، وتثنى على شجاعتهم وبسالتهم تارة ، وتنقل إليهم أخبار الوطن تارة أخرى .

وهدف منو من إذاعة هذه المنشورات إلى تحقيق غرض معين ، هو إقناع جيش الشرق بأن بقاءه بعيداً عن فرنسا لم يكن معناه فى يوم من الأيام أن بونابرت القنصل الأول قد صار لايعبأ بهذا الجيش ، أو أن الصلة قد انقطعت تماماً بين فرنسا وبين جيش الشرق ، وذلك حتى لايشعر الجنود أنهم يعيشون فى منفى بعيد عن أرض الوطن ، وحرص منو فى سبيل تحقيق غايته على تـكذيبه كل ما صار الانجليز يشيعونه عن بونابرت ، كما وجد من الحكمة وأصالة الرأى أن يبادر بإذاعة ما كان يبلغه من أخبار عن سير الأمور فى أوروبا . من ذلك أنه وجـه نداء إلى « جنود جيش الشرق الشجعان » [٢] فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٠٠ ، تحدث فيه عن كل ما بلغه من أنباء عن الموقف فى القارة عموما ، وعن حركات الجيش العثمانى على وجه الخصوص فى آسيا وعند الشواطىء المصرية . وفحواها أن « سفن الروس الرابضة أمام مالطة وشيوز وكرفو وفى بحر الأرخبيل قد غادرت أماكنها وعادت إلى البحر الأسود ؛ وأنه ما إن وصل إلى سمع القيصر نبأ ذلك الأمر الذى أبلغه اللورد كيث بشأن عدم إخلاء الفرنسيين لمصر حتى طلب مقابلة السفير الإنجليزى فى بطرسبرج ، كى يستوضحه السبب ، فاعتذر السفير بعدم وجود أية معلومات لديه عن هذه المسألة ، وفضلا عن ذلك فمن المقطوع به أن قيصر روسيا قد استدعى سفيره من لندن ، وأبدى رغبته فى مغادرة السفير الإنجليزى روسيا . ومن المعروف كذلك أن (السير سدنى سميث) قد استدعى إلى لندن ، ولو أنه من الواجب أن يعترف المرء بأن سدنى سميث قد رفض التورط فى مسألة تلك « الخدعة الحربية » التى اقترحها موربيه . . . . أما موربيه فقد استدعى إلى القسطنطينية . . . . » . وحرص منو على إذاعة أخبار معركة مارنجو التى انتصر فيها بونابرت على جيوش النمسا فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ ، وكانت هذه ولا شك أخبارا طيبة تشد من عزم جنود الحملة ، وتبعث الثقة فى نفوسهم ، وتدخل الطمأنينة ، إلى

(١) Reynier 105

(٢) Pièc. Div. 504 ; Pièc. Off. 396

قلوبهم . ثم نشر منو كل ما كان يردده الإنجليز من إشاعات عن الانتصارات التى أحرزها بونابرت ضد ميلاس Mélas القائد النمساوى ؛ فصدر العدد التاسع والسبعون من جريدة (لوكوربيه دوليجيبت) يحمل أنباءها . ولمس منو ما أحدثه نشر هذه الأخبار المشجعة من أثر طيب فى نفوس جند الحملة فانتهز فرصة حضور لودى Lodi السفينة الفرنسية ، تحمل أخبار انتصارات الجمهورية ، ودعم أركان الحكومة فى فرنسا ، فبادر بإذاعة ذلك كله على جيش الشرق ، كما أنه أذاع من جديد أخبار معركة مارنجو ، وكانت (لودى) قد أحضرت نشرة رسمية عن هذه المعركة . وتحدث منو عن انقلاب ١٨ برومير المشهور (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) ، الذى رفع بونابرت إلى القنصلية « لخفق نجاة الجمهورية من الدمار » .

وكان غرض منو الظاهر من إذاعة هذه الأنباء أن يطمئن جيش الشرق إلى أن الحكومة فى باريس إنما تقوم على دعائم ثابتة قوية ، فلا يستبد التشاؤم بالجيش ، وتلهب هذه الأخبار حماسته ، فينسى الجنود ترددهم ، ويوطدوا العزم على الاحتفاظ بمواقعهم فى هذه البلاد ، ويزدادوا صلابة فى موقفهم من أعدائهم الإنجليز خصوصا . وواتت الفرص منو عندما أفلتت ثلاث سفن أخرى من رقابة الإنجليز فوصلت إلى الإسكندرية : رزوالى Rosali وديجاجيه Degagé وسانت فيليب Saint Philippe تحمل أنباء جديدة من الوطن ، منها تثبيت منو فى منصب القيادة العامة — وسوف يأتى ذكر ذلك مفصلا — فأذاع منو هذا الخبر على جيشه فى أمر يومى فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٠٠[١] ، كما أنه أذاع بعد يومين خطاباً وصله من كارنو وزير الحربية الفرنسية يطلب إليه فيه « أن يعمل بكل حزم على دعم كل تلك الأسس التى وضعت للاحتفاظ بمصر حتى يجىء موعد عقد السلام العام فى أوروبا ، فيتقرر بفضل ذلك مصير هذه الفتوحات العظيمة التى لاتقدر بثمن بصورة حاسمة » . وقد علق منو على رسالة كارنو بقوله : « وهكذا ترون أيها الجند مقدار اهتمام الحكومة بكم ، كما ترون مقدار ماشيره نجاحكم بفضل بسالتكم من إعجاب أوروبا بكم واعتراف الوطن بصنيعكم عليه ! » .

ولما كان قد ازداد الاتصال بين فرنسا ومصر فى ذلك الوقت عن ذى قبل[٢] . فقد استطاع منو أن يكثر من إصدار الأوامر اليومية التى حملت إلى جيش الشرق أنباء انتصار الفرنسيين فى (هوهنلندن) ، فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٠ ، والهدنة التى أعقبت

---

(١) Rigau 264

(٢) Villiers 269

هذا الانتصار مع النمسا ، والصلح الذى عقدته فرنسا مع روسيا . وفعلت هذه الأخبار فعل السحر فى النفوس ، فخف التذمر وامتنع القلق ، وكادت تنجح جهود منو فى بث روح الطمأنينة فى نفوس الجنود وترويضهم على الرضوخ لمطالب السياسة التى فرضت عليهم فرضا البقاء فى مصر ؛ حتى ظهر كأنما جيش الشرق قد بدأ يألف العيش فى هذه البلاد ، عندما اهتم منو إلى جانب ذلك كله بتوفير أسباب التسلية لهم ، كمشاهدة التمثيل وحضور الحفلات الموسيقية وغير ذلك مما سوف يأتى ذكره فى موضعه . وطابت نفوس الجند للعيش فى مصر حتى إن كثيرين منهم ما لبثوا أن أنشأوا صلات وثيقة مع أهل البلاد ، فتزوجوا من مصريات ، أو عاشوا مع زنجيات ، ووجدوا فى الحياة المستقرة متعة كادت تنسيهم الحنين إلى الوطن[1] .

ولكن هذا الحال لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما حدث رد فعل كبير بعد أن تيقن الجنود أن هذه الانتصارات الباهرة التى أحرزها القنصل الأول فى أوروبا لا تعنى أن جهودا فعالة سوف تبذل لنجدتهم أو لإنقاذهم من هذه البلاد وإرجاعهم إلى أوطانهم ، وفشل كل ما كانوا ينعمون به من المباهج الظاهرية فى إزالة تلك الكآبة التى استمرت تعلو وجوههم ، وفتر حماسهم فصاروا لا يعبأون بمنشورات منو وأوامره اليومية ، بل صاروا يتعمدون إظهار عدم المبالاة بقائد الحملة العام نفسه . وظلت أبصارهم شاخصة إلى فرنسا[2] . وكان السبب فى إخفاق منو وإضاعة كل تلك الجهود التى بذلها من أجل استمالة الجند إلى تأييد سياسته وتحبيب البقاء فى مصر إلى نفوسهم ماصمم عليه فريق من كبار قواد الحملة وضباطها من مناصبة منو العداء ، وحمل لواء المعارضة القوية ضده وضد تجربته الاستعمارية .

وتنوعت أسباب هذه المعارضة وتعددت . فكان مرد بعضها إلى ما حدث من تكدر العلاقات بين منو وبين فريق من كبار قواد الحملة ، الذين كانوا من أصدقاء كليبر ، ثم ساءهم أن يصل إلى منصب القيادة رجل يخلو فى نظرهم من كل صفات العسكرى الناجح . وقد ازداد تكدر العلاقات بين هؤلاء وبين منو منذ أن وجه القائد العام الجديد نداءه المعروف إلى الجيش فى ٢٢ يونيه ، ووقف فى هذا النداء موقف المعارضة الصريحة لسياسة كليبر ، كما حاول أن يظهر تمسكه بالولاء الصادق لبونابرت ، حتى يدخل فى زمرة « البونابرتيين » فجاءت هذه المحاولة ضغثا على إبالة ،

---

(١) Galland II 12 — 14 ; Ibid 288

(٢) Bricard 447; Doguereau 395; Villiers 288; Martin II 145

ذلك أن هذه « البونابرتية » الجديدة سرعان ما أدت إلى زيادة شكوك قواد الحملة فى أغراض منو وغاياته ، لأن منو لم يشق لنفسه طريقا فى ميدان من ميادين الحرب والسياسة يقربه من البونابرتيين الذين استرشدوا فى حياتهم العسكرية والسياسية بمبادىء البطل الذى خلص فرنسا من أعدائها والذى عقد عليه أهلها آمالهم فى الوصول بالوطن إلى ذروة المجد والرفعة . فاعتبر قواد الحملة « بونابرتية منو بونابرتية زائفة » لحمتها وسداها التملق للقائد الكبير فحسب .

وما إن دعا منو إلى ضرورة البقاء فى مصر واستثمارها حتى وجد أعداؤه ومناوئوه فى سياسته الاستعمارية سبيلا لحشد صفوف المعارضة السافرة ضده ، فدب الخلاف فى جيش الشرق ، وانقسم هذا الجيش فريقين : فريق الأقلية الاستعمارية التى التفت حول منو وأيدت سياسته ؛ وفريق الأكثرية من أنصار الجلاء عن مصر والذين عرفوا باسم « الكليبريين » ، لأن كليبر كان يمثل فى نظرهم سياسة الجلاء أو الاعتراض على الأقل على إمكان تأسيس مستعمرة فرنسية فى مصر . وفضلا عن ذلك فقد وجد هؤلاء فى إصلاحات منو ومشروعاته مآخذ عدة ، جعلتهم ينقدون هذه الإصلاحات والمشروعات نقداً مراً لاذعاً ، بل إن منهم من ذهب فى نهاية المطاف إلى اعتبار منو بسبب هذه الإصلاحات نفسها قبل أى شىء آخر غير كفء لتولى منصب القيادة العامة ، أما أولئك القواد الذين أثار منو حفيظتهم فكانوا رينييه ولانوس وداماس ثم مدير المهمات هكتور دور Hector Daure وقومسير الجيش أو الحكومة تاليان Tallien .

وقد نشأ الخلاف بين رينييه ومنو منذ أن تسلم منو قيادة الحملة العامة . فمع أن رينييه لم يشأ تولى هذا المنصب وأخذ يلح على منو فى قبوله ، فإنه سرعان ما ندم على فعلته ، وصار يعزو بهتاناً وزوراً ضياع قيادة الحملة منه إلى خديعة منو له ، فكانت حجته فى ذلك أن منو وقت اغتيال كليبر كان يملأ منصب حاكم القاهرة ، ومن واجبه لذلك أن يشرف بصورة مؤقتة فحسب على إدارة أعمال الحكومة . ولذلك فقد أبدى منو تردداً كبيراً فى قبوله قيادة الحملة العامة ، وقبل الاضطلاع بأعباء الحكم بوصفه حاكما للقاهرة فقط[١] . ولذلك فإنه ما كان يحق لمنو أن يستمر فى ممارسة تلك السلطة التى انتزعها لنفسه انتزاعاً بعدئذ إلا إذا عقد مجلس حربى يضم قواد جيش الشرق لبحث موضوع القيادة العامة ، واتفقت كلمة هؤلاء المجتمعين على إعطاء منو هذه القيادة . وكان مما زاد من غضب رينييه أنه علم بعد رفضه منصب القيادة أن الجيش كان ينتظر

---

(١) Reynier 89 — 91

انتقالها إليه ، وأن قبوله لها كان يلقى ولاشك ترحيبا عظيما من جانب جيش الشرق بأسره . واتسعت هوة الخلاف بين رينييه ومنو فى الشهور التالية حتى بات رينييه يرى فى كل أعمال منو وإصلاحاته مسوغا للامعان فى نقده والتهكم عليه والازدراء بشخصه (١) .

ودب الخلاف بين لانوس حاكم الإسكندرية وتاليان قومسيير الحكومة بها من جانب ، وبين منو من جانب آخر ، عندما أراد منو بعد استلامه قيادة الحملة العامة أن يجرى تحقيقاً فى بعض الاجراءات المالية التى اتخذت فى عهدهما . فقد حدث بعد نقض اتفاق العريش أن أمر الجنرال كليبر بمصادرة سفن العدو الراسية فى الإسكندرية ، وانتهز جماعة من التجار ورجال الإدارة هذه الفرصة للاستيلاء على التجارة التى حملتها هذه السفن بأساليب غير نزيهة ، وتهاون لانوس وتاليان فى منع هذه العمليات غير الشريفة والضرب على أيدى المتلاعبين ، فأراد منو عند استلامه قيادة الحملة العامة أن يفحص هذه العمليات (فى أغسطس ١٨٠٠) حتى يقصى من إدارة المدينة كل من تثبت عليهم تهمة التلاعب (٢) فساء هذا العمل لانوس ، الذى اعتبر أن منو إنما كان يقصد من وراء ذلك إلى خدش سمعته والطعن فى أمانته ، فطلب أن يعهد بفحص إدارته فى الإسكندرية عموماً إلى مجلس عسكرى (٣) ، ولكن منو رفض ذلك ، وعندئذ طلب لانوس تأليف لجنة للتحقيق فى ذلك التلاعب الذى وقع وأدى إلى « نهب » تجارة السفن المصادرة ، فوافق منو على تأليف هذه اللجنة (٤) التى بدأت عملها دون إمهال . فكان هذا الحادث كافياً لأن يسبب الحيرة والقلق للجنرال لانوس ، الذى ظل من ذلك الحين تساوره الشكوك فى نوايا منو نحوه ، وخيل إليه الوهم أن قائد الحملة العام قد أحاطه بعدد من الجواسيس لمراقبة حركاته وسكناته .

وزاد من حدة شكوك لانوس أنه كان فى قرارة نفسه لا يطمئن إلى منو بتاتاً ، بسبب اختلاف سياستهما عندما كان لانوس أحد أولئك الكليبريين الذين عارضوا سياسة منو الاستعمارية ، وأرادوا العودة إلى الوطن . ومع ذلك فقد بذل منو قصارى جهده حتى يهدىء من روعه ويقضى على وساوسه ؛ وما إن انتهت اللجنة من أعمالها ، حتى نشر منو نتائج فحصها الذى أثبت أن السرقات التى حدثت كان لا يمكن فى واقع

---

(١) Ibid. Chapitres VI — VII

(٢) Rousseau 336 — 7

(٣) Richardot (Pièce No. 31) 465 — 6

(٤) Rigault 189.

الأمر ملاحظتها لتفاهتها ، وامتدحت اللجنة مسلك لانوس وأثنت على إدارته . وكان نشر ذلك كافياً ولاشك لتبرئة ساحة لانوس والمحافظة على سمعته . غير أن منو الذى أراد أن يعهد بالحكم فى الإسكندرية إلى أحد رجاله المقربين إليه ، والذين يثق فى ولائهم له ، مالبث أن بادر بإقالة لانوس من منصبه نهائيا فى ١٣ أكتوبر ، وعين فريان بدلا منه . وذلك قبل انتهاء اللجنة من أعمالها ونشر نتائج فحصها ، فأول أعداء منو ومعارضوه هذا العمل تأويلات شتى ، فادعوا أن منو إنما أراد بذلك أن يرغم لانوس إرغاماً على التقدم إليه بطلب العودة إلى فرنسا ، حتى يتخلص منه نهائياً ، كما زعموا أن منو أراد من إقصاء لانوس من حكومة الإسكندرية أن يتشفى من غيظه ، لحرمانه من هذه الحكومة أيام كليبر الذى أخرجه منها ، ووضع لانوس مكانه ، فأكل الحقد قلبه [١] .

وسواء رغب منو فى إبعاد لانوس من مصر أم لم يرغب ، فقد قرر هذا الأخير البقاء ، وما إن وصل إلى القاهرة حتى انضم إلى سائر الكليبريين ، وعلى رأسهم رينييه وداماس رئيس هيئة أركان الحرب أيام كليبر . وكان داماس من أشد المعارضين نقمة على منو ويضمر له عداء عظيما . بدأت العلاقات بين الرجلين طيبة أيام كليبر ، فهنأ منو قائد الحملة السابق على اختياره الموفق عند ما عهد بمنصب رئاسة أركان الحرب إلى « رجل يتمتع برضا الجميع [٢] » . وحرص داماس على اجتذاب ود منو . ولكن الحال ما لبث أن تغير عند ما وجد داماس نفسه مضطراً بسبب منصبه إلى الاتصال بالقائد العام الجديد دون انقطاع ، وخدمة تلك السياسة الاستعمارية التى جرى عليها منو ، والتى كان داماس لا يوافق عليها بتاتاً ، لاسيما وقد كان لداماس — وهو صديق كليبر الحميم — نصيب فى تلك السياسة التى أفضت إلى عقد اتفاق العريش ، كما اشتهر بكراهيته للاقامة فى مصر ؛ وقد زادت هذه الكراهية منذ اغتيال صديقه كليبر . وكان داماس من بين أولئك الذين عارضوا بقوة سياسة منو الاستعمارية عموما . وعلى ذلك فقد كان من السهل أن تتعدد أسباب الخلاف بين الرجلين ، حتى إن داماس بات يعتقد أن منو يبذل كل جهده لإرغامه على الاستقالة .

وعند ما تحرجت الأمور ، وبات من المتعذر على منو أن يتعاون معه ، اضطر منو إلى إقالته من منصبه فى سبتمبر ١٨٠٠ ؛ فكاد هذا الإجراء يفضى إلى حدوث أزمة

---

(١) Martin II. 147.

(٢) Rousseau 17.

كبيرة . ذلك أن كثيرين من أعداء منو ومناوئيه سرعان ما اتخذوا من إقالة داماس ذريعة لتوجيه حملة من النقد اللاذع ضد منو ، الذى أقال داماس — كما قالوا — دون سبب [١] وركب داماس رأســه فرفض فى أول الأمر هذه الإقالة ، وأصر على تمسكه بمنصبه ؛ ثم أخذ يطالب تقديمه للمحاكمة أمام مجلس عسكرى . ولـكن منو ، الذى أصر هو الآخر على إقالته ، ورفض « محاكمته » ، استند فى إقصاء داماس إلى أن المسألة لا تعدو تعذر الاتفاق فحسب بين رجلين يختلفان فى آرائهما ومبادئهما كل الاختلاف ، فضلا عن أنه كان « من حق القائد الأعلى فى أى جيش من الجيوش أن يختار من يعمل من قواد تحت قيادته » . وأظهر منو تسامحاً ولينا عندما قبل وساطة رينييه وفريان ، وعمل لتخفيف وطأة هـذه الإقالة ، فأعلن إلى الجيش فى ٨ سبتمبر أن داماس « انقطع » عن مزاولة وظائفه فحسب ، ثم وجه شكراً لداماس باسم حكومة الجمهورية على ما أسداه لها من خدمات كرئيس لهيئة أركان الحرب [٢] وفى ١٦ سبتمبر عين داماس حاكما لبنى سويف والفيوم . ومع ذلك فقد ظل الألم يحز فى نفس داماس ، كما ساء رينييه وسائر القواد إقالة داماس من منصبه . فكتب الجنرال فردييه إلى داماس من منوف « أن (داماس) لم يفقد فى واقع الأمر شيئاً كثيراً إذا هو خسر ثقة هذا الرجل » — أى الجنرال منو . وظل داماس بعد هذا الحادث موضع احترام وتقدير من قواد الحملة وضباطها [٣] .

ويرجع منشأ الخلاف بين هكتوردور وبين منو إلى أيام الحملة الأولى ، عند ما كان منو على رأس الحـكومة فى رشيد . فقد نقد (دور) إدارة منو نقداً لاذعاً . ومع أن دور كان على خلاف كذلك مع الجنرال كليبر ، فقد كان من السهل زوال هذه الخلافات بعد ذلك ، ثم توطدت الصلة بين دور وكليبر حتى بات هكتور دور من أقرب المقربين إلى كليبر فى عهد قيادته العامة للحملة . واتسعت شقة الخلاف بين دور ومنو بسبب إصلاحات هذا الأخير الإدارية ، وعلى وجه الخصوص تلك الإجراءات التى أراد منها منو إحكام الرقابة على حسابات الحملة وضبط ماليتها بكل دقة ، حتى إن دور مالبث أن قدم استقالته فى أغسطس ١٨٠٠ ، وإن عاد فاستردها عند ماطلب إليه منو التريث وإمعان النظر فى أمر ما كان يبغى منه منو — كما أعلن ذلك مرارا — سوى إصلاح حاله

---

(١) Martin II. 148.

(٢) Pièc. Off. 405– 6.

(٣) Galland I. 329.

الجيش عن طريق تنظيم الإدارة ، وإزالة كل تلك المفاسد والمساوئ الظاهرة[١] . ويبدو أن منو ما لبث أن صار يرغب فى التخلص منه بعد ذلك كلية ، فعرض عليه منصب (مفتش عام) لقاء تنازله عن منصب مدير مهمات الحملة الذى يشغله ، فقبل هكتور دور ذلك وتعين (سارتلون) Sartelon بدلا منه .

ولكن منو سرعان ما عين دور مفتشاً عادياً فحسب كسائر مفتشى الجيش[٢] ، فأثار هذا العمل حفيظة دور الذى انبرى يناقش ذلك الحق الذى اتخذه منو لنفسه فى عزل موظفى الحملة كما يشاء ويهوى ؛ فنشأ من ثم ذلك النقاش الذى استمر يدور بعدئذ بصورة جدية حول مبدأ كان على جانب عظيم من الأهمية : هل يمثل منو حكومة الجمهورية فيما يتصل بشئون هذا البلد المفتوح (أى مصر) فحسب ، أو أنه يمثل الجمهورية فيما يتصل بشئون مصر وشئون جيش الشرق كذلك ؟ فإذا كان الأمر الأول هو الصحيح ، فمن حق منو الهيمنة على شئون هذه البلاد الداخلية فقط ، وإذا كان الأمر الثانى فمن حقه الهيمنة كذلك على شئون جيش الشرق ، وفى هذه الحالة الأخيرة له أن يعزل أو يعين من يشاء من قواده ورجاله ، ويتصرف كما يريد فى كل ما يمت للجيش بصلة . فكان من رأى منو أنه بوصفه القائد الأعلى للحملة إنما يهيمن على شئون مصر الداخلية وشئون جيش الشرق على السواء ؛ وكان من رأى دور وصفوف المعارضة أن منو إنما يمثل الجمهورية فيما يتصل بشئون البلاد الداخلية فحسب ؛ وعلى ذلك فإن منو بوصفه قائداً للحملة إنما يخضع لقوة القوانين الفرنسية ، ومن مقتضيات ذلك أنه لا يحق له أن يعزل موظفاً من موظفى الحملة دون محاكمة ، وإلا عد متجنياً على الغير وظالما ، وهذا مالا يمكن أن ترضى عنه حكومة القنصلية بعد ذلك الجهاد الشاق الطويل الذى استمر عشر سنوات تقريباً ، من وقت اندلاع الثورة الفرنسية الكبرى ، التى قامت من أجل القضاء على الظلم والاستبداد ، وضمان العدالة ونشر ألوية الحرية .

على أن وضع المسألة بهذه الصورة إنما كان ينطوى فى واقع الأمر على جوهر ذلك الموضوع الذى ظل سبباً فى احتدام النقاش دائماً بين الاستعماريين ، وهم أنصار منو وبين (الكليبريين) من أنصار الجلاء عن مصر ، والذين رفضوا أن يعتبروا من الناحية القانونية أن هذه البلاد كانت مستعمرة فرنسية . وقد وجد الكليبريون فى شخص (تاليان) Tallien خير من يفسر « نظريتهم » ويوضحها ويؤيدها ، لما عرف عنه من دراية واسعة بالقانون من جهة ، ومهارة فى عرض حججه ودعاويه ، ولباقة

---

(١) Rousseau 334.
(٢) Pièc. Off. 476.

فى توجيه هذه « المعارضة القانونية » من جهة أخرى . وقد اتخذ تاليان من إصلاحات منو ومشروعاته ذريعة لإثارة زوبعة من الجدل القانونى حول تلك السلطات التى أراد منو أن « ينتزعها » لنفسه ، بوصفه قائد الحملة الأعلى فى مصر ومؤسس المستعمرة الفرنسية الجديدة فى « الشرق »[١] .

وعندما قرر تاليان أن يتخذ من إصلاحات منو موضوعا لإثارة هذا الجدل القانونى ، كان قد بات الطريق معبداً وممهداً أمامه لهذه الغاية ، بسبب تلك الانتقادات الكثيرة التى وجهها المعارضون ضد هذه الاصلاحات ؛ وكان أخف هذه الانتقادات وطأة قولهم أن منو قد اشتط فى إصلاحاته شططا عظيما ، حتى إنه لايمكن أن ينجم منها إلا حدوث تغييرات عميقة فى عادات أهل البلاد وتقاليدهم ، فلا مندوحة من أن تثير هذه الإصلاحات استياء المصريين الذين عاشوا على حالهم القديم أزماناً طويلة ؛ وفضلا عن ذلك فإن القول بأن صاحب هذه الإصلاحات قائد اعتنق الدين الإسلامى وتزوج من سيدة مسلمة لن يجدى نفعا فى جعل هؤلاء يستسيغون ما أجراه منو من إصلاحات ، أو أدخله من تغييرات على عاداتهم وتقاليدهم ، « لأن منو المسلم — كما قالوا — لم يكن فى واقع الأمر موضع احترام أو تقدير من قبل ذلك الشعب ، الذى بلغ تمسكه بكل ما هو متصل بعقيدته ودينه درجة التعصب الشديد[٢] » . وقال رينييه إن ما أحدثه منو من تنظيمات مالية وإدارية وقضائية لم يكن لها من أثر سوى زيادة تذمر المصريين ، بسبب إبطاله ما جرى به العرف قديما ، عند ما اعتاد مشايخ البلد فى بداية كل عهد من العهود على تقديم الهدايا من خيول أو ماشية أو جمال إلى الملتزمين الجدد ، فى نظير بقاء هؤلاء المشايخ فى أعمالهم ، فيخلع عليهم الملتزمون وأصحاب الأرض الكساوى من الفرو والشيلان دلالة على رضائهم ببقاء مشايخ البلد فى مناصبهم[٣] . أما إعادة تشكيل الديوان وقصر عضويته على المشايخ المسلمين ، فكان فى نظر هؤلاء المعارضين عملا لا جدوى منه ولا طائل تحته ، لأن هذا الديوان لم يفد شيئاً فى إزالة كل تلك المظالم والمغارم التى أثقلت الأهلين الذين غضبوا كذلك من إصلاحات منو القضائية والمالية المزعومة ، وعزمه خصوصا على إلغاء الدية أو « ثمن الدم » ، مخالفا فى ذلك عادات البلاد وتقاليدها .

بل إن هؤلاء المعارضين ما لبثوا أن اتهموا منو بالرغبة فى تحريك الثورة فى

---

(١) Rigault 195—6.

(٢) Martin II. 149.

(٣) Reynier 106—7.

القاهرة ، باستثارة أهل الطبقات العامة والمتوسطة ضد الطبقة الارستقراطية ، على غرار ما حـــدث فى فرنسا ذاتها . واستندوا فى ذلك الاتهام إلى ما جاء فى صحيفة (لوكوريه دوليجيبت) التى نشرت فى عددها السادس والسبعين فى ٦ أغسطس ١٨٠٠ مقالا جاء فيه [١] : « تفرض الطبقة الارستقراطية الغنية فى القاهرة سيطرتها بصورة من المحتمل أنها تفوق كثيرا ما يفعله أضرابها فى أى مكان آخر ، وإن هذه السطوة لتمكن أصحابها من أن يسحقوا دائما ، وبفضل نفوذهم ، ذلك الشعب الذى يكاد ينوء وحده تحت عبء المطالب المالية . وعلى ذلك فقد وضع القائد العام نصب عينيه الحد من هذا النفوذ ، وإنقاصه بقدر الاستطاعة ، وانتشال تلك الطبقة الجادة العاملة ، وهى طبقة الفلاحين ، مما تعانيه من مشقة » . وقال (مارتان) Martin تعليقا على هذا الـكلام — فى سخرية لاذعة « وهكذا حتى يتمكن منو من تنفيذ هذا المشروع الجليل أصدر أمراً فى نوفمبر ١٨٠٠ بإنشاء جريدة عربية سماها (التنبيه) ، لم تصدر لما كان هناك من حاجة قصوى إلى محرر نابه ! » .

شاهد الكليبريون إذن كل هذه الإصلاحات ، تصدر بها أوامر منو بعضها تلو بعض دون انقطاع ، فأمضهم ذلك وامتعضوا منه ، ثم باتوا يتربصون الفرص بمنو ، حتى إذا أمر فى سبتمبر بتعميم ضريبة (بيت المال) — التى سبق الحديث عنها — ، لتشمل التركات التى يموت عنها أصحابها مهما اختلفت جنسياتهم ودياناتهم ، انبرى الكليبريون يناقشون منو الحساب ؛ واتخذوا من هذه الضريبة ذريعة لإثارة تلك « المعارضة القانونية » التى حمل تاليان لواءها . ومن ذلك الحين احتدم النقاش بين الكليبريين وأنصار منو من أجل الفصل نهائيا فى مسألة المسائل وقتئذ ، أى فيما إذا كانت مصر مستعمرة فرنسية أو بلدا « مفتوحا » فحسب . وكان تاليان من أيام الجنرال كليبر من كبار مؤيدى سياسة الجلاء ، ولم يتردد لحظة فى إطلاع منو على حقيقة رأيه فى هذا الموضوع منذ ابريل ١٨٠٠ ، ولم يغير شيئا من موقفه بعد أن تسلم منو قيادة الحملة العامة . ووجد الآن فى ضريبة (بيت المال) ، التى كان يقتضى تطبيقها فرض ضريبة على تركات الفرنسيين المتوفين فى مصر ، فرصة مواتية لتحطيم كافة إصلاحات ومشروعات منو ، التى هدف منها إلى إعادة تنظيم هذه البلاد كمستعمرة فرنسية سوف يبقى بها الفرنسيون زمناً طويلا ، وذلك إذا تسنى له أن يقيم الحجة الدامغة على أنه لا يمكن بحال من الأحوال اعتبار مصر قانوناً « مستعمرة فرنسية » .

---

(١) Martin II. 151.

فكان من رأى تاليان أن جيش الشرق إنما يقيم فى بلد مفتوح فحسب ؛ وحجته فى ذلك أن حكومة الجمهورية هى التى أصدرت أوامرها إلى هذا الجيش باحتلال مصر ، فالجيش إنما يحتل مصر بناء على هذه الأوامر . ولا يمكن أن يعتبر هذا الجيش نفسه مقيما فى مستعمرة ، كما يذهب البعض دون تفكير كبير ، إلا عند توافر شروط معينة ، أهمها إبرام اتفاق مع الدولة التى كانت أصلا تمتلك هذا البلد . ثم التصديق على معاهدة الصلح ، ومن حق السلطات التشريعية والتنفيذية وحدها عندئذ أن تعلن أن هذا البلد المفتوح مستعمرة ، وتسن القوانين التى يجب بمقتضاها تحديد مايفرض على هذا البلد من مطالب مالية ويجرى تحصيلها منه . ولما كان شىء من ذلك لم يحدث فيما يتعلق بمصر فإن الجنرال منو لايمكن اعتباره « حاكما » لها ، وإنما هو فقط قائد عام لجيش الشرق ، فلا تتعدى سلطته وضع أنظمة البوليس الخاصة بالمحافظة على النظام ، واستتباب الهدوء والسكينة ، فضلا عن اتخاذ مايلزم من وسائل تكفل دفع مرتبات الجند ، وإمداد هؤلاء بالمؤن والأغذية وما إلى ذلك . وعلى ضوء هذه الاعتبارات إذن كان تحصيل ضريبة بيت المال عن تركات الفرنسيين الذين يموتون فى مصر خرقا للدستور ، وافتئاتا على العدالة ، لأن منو لايتمتع فى مصر بسلطة المشرع الذى من حقه سن القوانين ، ولأن الحكومة الفرنسية سوف يظل من حقها دائما أن تحصل هذه الضريبة من الورثة الذين لن يجدوا سبيلا للامتناع عن دفعها ، على الرغم من تلك الضريبة التى تؤخذ منهم فى مصر . ثم خلص تاليان من ذلك كله إلى تقرير مبدأ عام يقضى بإعفاء الفرنسيين من دفع أية ضريبة من تلك الضرائب المباشرة التى يجرى تحصيلها فى البلدان المفتوحة[1] . ووجد تاليان فى موضوع (هكتور دور) وسيلة للمضى بحججه القانونية إلى غايتها ، واعتبار أن منصب القائد العام للجيش لايمكن أن يضفى على منو صفة تمثل الحكومة الفرنسية أو النائب عنها ، وأن الواجب يقتضى الفرنسيين والمصريين على السواء أن يخضعوا لما تصدره العاصمة الفرنسية من أوامر فحسب[2] .

وذهب الكليبريون عموما ، فى دعواهم أن مصر لم تكن سوى بلد مفتوح ، إلى أن القول بأن مصر مستعمرة فرنسية يتنافى تماما مع كل تلك الأغراض التى دفعت فرنسا إلى احتلالها ؛ فمن الثابت أن فرنسا رغبت دائما فى أن تحفظ للسلطان العثمانى حقوق

---

(١) Rigault 185—6.

(٢) Ibid. 197.

سيادته على هذه البلاد ، آية ذلك جميع ما صدر من منشورات ونداءات تضمنت هذه الحقيقة ، أو ماجرى من مفاوضات أيام بونابرت وكليبر استندت فى واقع الأمر على هذا المبدأ كقاعدة أساسية . وفضلا عن ذلك فقد قالوا إنه لن يترتب على التصريح بأن مصر مستعمرة فرنسية سوى زيادة المحالفة القائمة بين تركيا وانجلترة قوة على قوتها ، ثم إمعان هاتين الدولتين فى النضال ضد الجمهورية ، بغية طرد الفرنسيين من مصر ، حتى إذا تكللت جهودهما بالنجاح فقدت فرنسا كل ماتمتعت به من نفوذ فى هذه البلاد من أزمنة قديمة[١] .

وهناك سبب آخر لازدياد معارضة القواد للجنرال منو ، هو « بونابرتيته » التى سبق الحديث عنها ، فقد كان طبيعيا ، وقد شاهد منو سحب هذه المعارضة تتكاثف حوله ، أن يحكم صلاته برجال الحكم فى باريس ، توقعا لما قد يبذله أعداؤه من جهود فى العاصمة الفرنسية ، لإلحاق الأذى به ، فحرص على انتهاز كل فرصة لإظهار ما يكنه من محبة وولاء لبونابرت ، معتمدا على علاقته القديمة به ، وعطف بونابرت عليه فى إبقاء حبل « المودة » متصلا ؛ ولذلك فإنه ماوصله نبأ تأسيس القنصلية حتى بادر بتهنئة بونابرت « القنصل الأول » على هذا المنصب الرفيع الذى بلغه ، كما حرص فى الوقت نفسه على تهنئة القنصلين الآخرين لوبران Lebrun وكامبسيريس Cambacéris[٢] ، واختط لنفسه خطة الإشادة بذكر بونابرت وتمجيد اسمه فى أوامره اليومية ، وبلاغاته إلى الجيش ، حتى أضحت هذه « البونابرتية » علماً عليه وصفة له ، كما أنها أفضت فى الوقت نفسه إلى إثارة شكوك معارضيه فى نواياه وأغراضه . فقد اعتقد هؤلاء أن منو إنما كان يهدف من هذه « البونابرتية » ليس إلى التودد والتقرب من القنصل الأول فحسب ، بل أيضاً إلى إعلان موقفه بصورة قاطعة من سياسة الجلاء ، التى اعتبر الكليبريون سلفه فى القيادة رمزاً لها . وزادهم يقينا على يقينهم أن منو اختار لابنه من السيدة المسلمة التى اتخذها زوجا له اسم سليمان قاتل كليبر ؛ فاعتبروا ذلك دليلا على كراهية منو لكليبر . ثم سرعان ماتأكد هذا الاعتقاد لديهم عندما رفض منو المساهمة فى أية تبرعات تجمع لإقامة نصب تذكارى للجنرال كليبر فى فرنسا على نفقة جيش الشرق[٣] ، مع أنه أصدر أمراً يومياً فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٠ تحدث فيه عن

---

(١) Martin II. 156.

(٢) Pièc. Off. 64—6.

(٣) Martin. II. 160.

تلك اللجنة التى أنشئت فى فرنسا لجمع التبرعات من أجل إقامة نصب تذكارى للجنرال ديزيه الذى قتل فى معركة مارنجو ، ثم طلب من الجيش المساهمة فى ذلك(١) .

ولم يُخف القواد معارضتهم لقائد الحملة فذاعت أخبارها ، وعلم بأمر هذا الانقسام ضباط جيش الشرق وجنوده(٢) . وعمد القواد إلى إظهار تحزبهم ضد منو بصورة واضحة ، فانتهزوا فرصة الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية فى أول فندمير من سنة الجمهورية التاسعة (٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠) ، فجمع داماس أصدقاءه وأصدقاء الجنرال كليبر فى مركب للنزهة فى النيل ، بينما ظل منو فى مركبه وهو يكاد يكون منفردا . وامتلأت أبهاء منازل القواد داماس وريْنيه ولانوس بالسيدات فى أثناء الاحتفالات التى أقاموها فى المساء ، بينما كاد يقفر منهن حفل الجنرال منو(٣) . وقد ترتب على ذيوع أخبار هذه الخلافات أن انقسم الضباط من الرتب الصغيرة فريقين : أحدهما يناصر القائد العام وهو فريق الأقلية ، والآخر يعارضه وهو فريق الأكثرية . ثم انتشرت أعمال الجاسوسية فصار كل جماعة يتجسسون على الجماعة الأخرى ؛ وساء عقلاء الفرنسيين أن يروا جيش الشرق فريسة لهذه الخلافات(٤) . وعجز منو عن حسم أسباب النزاع لأنه كان وقتئذ لايملأ منصب القائد العام إلا بصورة « مؤقتة » ، ويعتبره سائر القواد لذلك زميلا لهم فحسب ، ولا يمارس « سلطات » القائد العام إلا بصورة « مؤقتة » كذلك ؛ ومن حقهم أن ينقدوا أعماله بحرية وصراحة ، وألا يعتبروا أنفسهم ملزمين بالطاعة له إطلاقا « ودون قيد أو شرط » . ثم إنهم ما كانوا يعتقدون أن منو سوف يظل قائداً عاما للحملة ، بل توقعوا قرب انتهاء هذه « القيادة » التى أزعجتهم سريعاً عند وصول أول بريد فرنسى إلى مصر(٥). وكان رينْييه على وجه الخصوص من أشد هؤلاء اقتناعا بأن منو لن يظفر « بتثبيته » فى منصب القيادة العامة ، فاعتبر لذلك أن من واجبه وواجب سائر قواد الحملة أن يقوموا جميعاً بملاحظة مافيه الصالح العام من جهة ، وأن يعملوا لتصحيح ذلك الخطأ الذى وقع فيه رينْييه نفسه عندما تنحى عن منصب القيادة للجنرال منو(٦) .

---

(١) Pièc. Div. 531 ; Pièc. Off. 436—7.

(٢) Rigault 194

(٣) Galland I 323—4

(٤) Dogureau 124 ; Bricard 448 ; Malus 200

(٥) Riagult 199

(٦) Reynier 129

وغلا القواد فيما أرادوا أن يضطلعوا به من تلقاء أنفسهم ، فنشطوا يدبرون الخطط « لتصحيح » ذلك الخطأ الذى نجم من إسناد القيادة العامة إلى منو ، ويقلبون وجوه الرأى فى مشروعات عدة ، كان الغرض منها إما العمل على إقالة منو ، أو تقديمه للمحاكمة أمام مجلس عسكرى[١] ، وإما القبض عليه وحبسه فى القلعة بدعوى أن العته قد أصابه ، وقد ذكر فريان تفاصيل هذه « الخطة » الأخيرة فقال : إن القواد اعتزموا أن يخطب كبارهم فى الجيش حتى إذا تهيأت الأفكار لقبول خطوتهم التالية ألقوا القبض على منو وأعلنوا اختيار الجنرال رينييه قائداً عاماً للحملة[٢] .

أما الكليبريون عموماً فقد استندوا فيما ذهبوا إليه من ضرورة عزل الجنرال منو وإقالته إلى أن إصلاحات منو ومشروعاته كانت تدل على الحماقة وفساد الرأى ، كما تضمنت أوامره المتعلقة بهذه الإصلاحات تعريضاً بسمعة الرؤساء العسكريين والإداريين الذين قاموا بأعباء الحكومة من أيام كليبر ، بل ومن أيام بونابرت نفسه ؛ وفضلا عن ذلك فقد أدى تمسك منو بأن مصر مستعمرة فرنسية ، وإصراره على وجهة نظره ، إلى قيام كل تلك المناقشات التى أوقعت الانقسام فى صفوف الجيش وأسفرت عن عواقب وخيمة .

غير أنه كان من الواضح أن هؤلاء « المتآمرين » لا يستطيعون المضى فى خطتهم إلا إذا وافق الجنرال رينييه نفسه على تولى قيادة الحملة العامة خلفاً للجنرال منو ، ولكن رينييه سرعان ما وجد من المتعذر عليه أن يقر هؤلاء « المتآمرين » على عملهم لأسباب عدة ذكرها رينييه نفسه[٣] ، أهمها أن موقفه — كما قال — قد بات دقيقاً بعد أن وعد منو بأن يبذل قصارى جهده فى مؤازرته ونصحه ، وذلك عندما « طلب » إليه أن يقبل قيادة الجيش . حقيقة أثار منو بعد ذلك بفعاله ومؤامراته ودسائسه حفيظة رينييه ولكن هذا الأخير كان لا يمكنه الموافقة على إقالة منو وعزله خوفاً من وقوع الانقسام واتقاء لما قد يحدثه ذلك من آثار سيئة خطيرة . على أن امتناع رينييه عن قبول القيادة العامة لم يصرف أولئك الذين أظهروا السخط على أعمال منو وأرادوا عزله عن عقد آمالهم العريضة على إقناع رينييه بقبول منصب القيادة العامة فى النهاية ، ولكن رينييه كان قد وطد العزم عندئذ على عدم الاستماع إليهم ، معللا ذلك بقوله : « إنه من المتعذر

---

(١) Reybaud VIII 94

(٢) Rigault 199

(٣) Reynier 128—9

عليه أن يقبل هذا المنصب بالرغم من شعوره بأن هناك حاجة ملحة لوجود رئيس آخر للحملة ، بدلا من الجنرال منو ، ذلك أن البلاد كان قد ساء حالها كثيراً بعد التغييرات التي حدثت في الإدارة ، والانقسام والشقاق الذي نجم من ذلك ؛ كما ساعد على ازدياد سوء الحالة تبديد ما كان مدخرا من أموال في أيام الجنرال كليبر ، ثم تلك الوعود التي تضمنتها أوامر منو اليومية بشأن المضي في دفع مرتبات الجند بصورة منتظمة ؛ وقد أسرف منو في بذل هذه الوعود إسرافاً عظيما مع صعوبة تحقيقها . أضف إلى ذلك كله تلك المشكلات التي كان من المتوقع حتما أن يواجهها خلف منو في قيادة الحملة العامة ، وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن من المستبعد بتاتاً بالرغم من كل ما تقدم أن يظفر منه بتثبيته في قيادة الحملة ، فتسود الفوضى واختلال النظام في الجيش » . لذلك وجد رينييه أنه من الحكمة والصواب أن يرفض الاشتراك في كل تدبير يفضي إلى عزل منو ، أو إلقاء القبض عليه وحبسه[1] ، وأمام إصرار رينييه على موقفه استقر رأى القواد المعارضين على الاكتفاء باتخاذ خطوة من شأنها الحد من نشاط منو ، « ومنعه من بث روح الانقسام في الجيش وإرباك إدارة البلاد ، وذلك بإسداء النصح له فحسب » .

خطوة ٦ بريمير :

اتفق القواد فيما بينهم إذن على تحديد موعد لمقابلة منو « مجتمعين » لتنفيذ عزمهم فاختاروا في أول الأمر يوم ٤ بريمير من سنة الجمهورية التاسعة (٢٦ أكتوبر ١٨٠٠) كما اتفقوا فيما بينهم على « الأسباب » التي عولوا على ذكرها للقائد العام كذريعة لاتخاذ هذه الخطوة ، ولخص الجنرال رينييه نفسه هذه «الأسباب » التي قال إنها أقنعت القواد بضرورة السعي لمقابلة منو والتحدث إليه في شأنها[2] ، وكانت هذه أسباباً منوعة منها ما تعلق بتلك البدع التي استحدثها منو في الإدارة ، ومنها ما تعلق بمسلك منو نفسه . فقد شكا القواد من « شذوذه » الظاهر في معاملة عديدين من رجال الحملة كان من بينهم هؤلاء القواد أنفسهم الذين درج منو على توجيه أقسى عبارات التوبيخ والتأنيب لهم على أتفه الأمور وأقلها قيمة ، وفضلا عن ذلك فقد اختار منو في «عظاته» التي تضمنتها أوامره اليومية إلى الجيش أسلوباً جافا اعتقد أنه كفيل بإقناع الجنود أن من الخير لهم أن يتحلوا بالخلق الحسن الكريم كأنما كان هؤلاء شراذم من أناس جبلوا على الشر لا يعرفون للشرف معنى ولا خلاق لهم ؛ حتى تذمر الجنود من ذلك تذمراً

---

(١) Ibid 129

(٢) Ibid 125

شديداً . هذا بينما كان لايقل استياء الأهالى أنفسهم وتذمرهم عن استياء وغضب الجيش لأن منو سرعان ما قذف الرعب فى قلوب المصريين بسبب ما استحدثته « عبقريته » من بدع ، ونسجه خياله الفياض من إصلاحات ، جعلت هؤلاء يجأرون بالشكوى من قائد مسلم كانوا قد انتظروا بفضل إسلامه أن ينالهم الخير كل الخير على يديه ، فانقلب هذا الأمل يأساً حتى ملأ الحزن نفوسهم لعدم اضطلاع قائد مسيحى بأعباء الحكم بدلا منه . آية ذلك ماصار يشعر به الشيخ المهدى على وجه الخصوص من استياء عظيم ، وهو من الذين أقبلوا على التعاون مع الحكومة[١] . وغنى عن البيان أن المصريين كان فى وسعهم اصطناع الصبر والأناة والرضا بحكومة منو على إرهاقها لهم ، وهم الذين تعودوا على احتمال الظلم والجور أيام الأتراك والماليك ، ولكن تلك الفترة البسيطة التى جعلتهم يتذوقون خلالها مزايا الحكم الذى أقامه كل من بونابرت وكليبر على أساس من القوانين والأنظمة الأوروبية حملتهم على المقارنة بين أيام هذين القائدين وبين أيام منو ، وجعلتهم يشعرون بشدة ماحل بهم من بؤس وشقاء على يده .

ولكن القواد مالبثوا أن أجلوا زيارتهم لمنو إلى موعد آخر ، لأنه حدث فى نفس اليوم الذى اختاروه لمقابلته أن وصل ضابط من طولون يحمل البريد الفرنسى[٢] . فتريث القواد حتى يقفوا على ماجاء به هذا الضابط من أخبار قد تتعلق بما قر عليه رأى الحكومة فى باريس بشأن تعيين قائد عام جديد للحملة بعد مقتل الجنرال كليبر . ولكنهم سرعان ماتبينو أن الرسائل الواردة كانت لاتزال معنونة باسم الجنرال كليبر[٣] . فقرروا عدم إرجاء المقابلة ، ثم زادهم اقتناعا بضرورة ذلك أن منو مالبث أن أذاع على الجيش فى أمر يومى فى ٦ بريمير (٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٠) الأخبار الواصلة من فرنسا مع « إعلان » عام للجيش ناشد فيه قواد الحملة وضباطها وجنودها أن ينسوا خلافاتهم ، وأن ينبذوا المنازعات الحزبية ، وأن يتضافروا جميعاً على مقاومة «المؤامرات الدنيئة » لأنه وإن كان من شيمته العفو مقدما — على حد قوله — عن جميع أعدائه الشخصيين ، فإنه لايسعه إلا أن يعامل أعداء الجمهورية بمنتهى الشدة والصرامة[٤] . وكان السبب فى صدور هذا (الإعلان) الذى تضمنه الأمر اليومى أن الجنرال داستان Destaing أبلغ منو عزم القواد على مقابلته ، وكان داستان كثير التودد إلى منو ، كما أن منو

---

(١) Ibid 126

(٢) Reybaud VIII 95

(٣) Reynier 129

(٤) Rigault 201 ؛ Ibid 129

قد اصطفاه دون سائر زملائه[١] ؛ فتوهم منو أنه إذا نشر هذا (الإعلان) فإن القواد سوف يجدون فيه رادعا يمنعهم من محاولة مقابلته[٢] ، ولكن سرعان ما جاءت النتيجة على خلاف ذلك .

فقد تضمنت الأخبار التى أذاعها منو فى أمره اليومى أنه قد بات من المنتظر عقد السلام قريبا ، وأن الوطن لا يزال يذكر أبناءه البعيدين ؛ وكانت هذه أخباراً طيبة لاشك فى أنها سوف تبعث الطمأنينة إلى نفوس الجنود ، فينصرف هؤلاء إلى القيام بواجباتهم العسكرية فى هدوء وسلام ، لولا أن منو أفسد ذلك كله بنشر إعلانه فى ذيل هذا الأمر اليومى ، فتحدث عن وجود خلافات وانقسامات فى الجيش ، وقضى بعمله هذا على ذلك الهدوء الذى كان ينشده ؛ فقلق الجنود على مصيرهم ، كما أن القواد لم يروا فى نشر هذا (الإعلان) إلا مناورة قصد بها منو تأليب الجنود عليهم[٣] . وعلى ذلك فقد صح عزمهم على طلب مقابلته دون إمهال . فاجتمع القواد الذين كانوا بالقاهرة وقتئذ فى منزل الجنرال بليار ، وحضر هذا الاجتماع كل من رينييه وداماس ولانوس وفردييه وبليار ، وقر رأيهم على الذهاب إلى منو فى التو والساعة . ثم وافق سونجى على الذهاب معهم ، ولكنه غير عزمه فتخلف فى الطريق . وبعد ساعات معدودة فقط من صدور الأمر اليومى كان هؤلاء القواد فى حضرة الجنرال منو فى مقر القيادة العامة .

وقابل منو القواد ، والهم والكدر باديان على وجهه ؛ ذلك أنه كان يخشى من أن يكون غرض هؤلاء المتظاهرين التآمر على شخصه ، واعتقد أنهم ما حضروا إليه إلا ليحملوه على الاستقالة من القيادة بمختلف وسائل الضغط والتهديد[٤] ؛ أو أنهم حضروا للقبض عليه حتى يقدموه للمحاكمة أمام مجلس عسكرى[٥] . وعلى ذلك فإنه ما تبين له أنهم إنما جاءوا لإظهار تذمرهم فحسب من إدارته ، وإقناعه بإلغاء كثير من الإصلاحات التى استحدثها ، والتى نشأت فى واقع الأمر من اعتباره مصر مستعمرة فرنسية ، ثم عرض شكاياتهم الخاصة عليه ، حتى انفرجت أسارير وجهه .

وكان حديث القواد حديثاً طويلا تخلله توجيه كثير من التهم إلى قائد الحملة العام،

(١) Reybaud VIII 95
(٢) Martin II 158
(٣) Ibid 158
(٤) Reybaud VIII 95 — 6
(٥) Martin II 161

«المؤقت» ، فتولى الكلام الجنرال رينييه[١] مبينا مقدار الألم الذى حز فى نفوسهم بسبب ما شهدوه من آثار الانقسام المتفشى فى جيش الشرق ، وذلك بعد أن ظل هذا الجيش يعيش فى هدوء وسلام مدة العامين السابقين أيام بونابرت وكليبر . ولما كان القواد قد لازموا الجيش منذ أن بدأت تلك المعارك التى خاضوا غمارها مع جنودهم ، فاستطاعوا أن يرقبوا عن كثب مبلغ ذلك الاتحاد الذى ألف بين قلوب الجند ، فقد وجدوا لزاماً عليهم أن يبحثوا أسباب هذا الانقسام ، ويعملوا على إزالته . وقال رينييه : إن البحث سرعان ما أفضى إلى معرفة منشأ هذا الانقسام الذى لم يكن سوى إحدى نتائج تلك البدع التى استحدثها منو من ناحية ، ثم الطريق الذى سلكه مع أفراد جيش الشرق منذ أن انتقلت إليه « بصورة مؤقتة » قيادة الحملة العامة من ناحية أخرى ؛ وقد هداهم التفكير إلى أن خير ما يمكن فعله لرجوع الاتحاد والتآلف وتأييد حسن التفاهم هو أن يعمد منو إلى إلغاء بعض تلك الأوامر التى أصدرها ، وإبطال طائفة من القرارات التى اتخذها وجاءت جميعها مناقضة للصالح العام ؛ وفضلا عن ذلك فإن الواجب يقتضى منو أن يسترشد فى مسلكه فى المستقبل بقوانين الجمهورية الفرنسية ، وبكل تلك المبادىء التى تعمل بها القيادات العسكرية ، كما أن عليه قبل أى شىء آخر أن يضع حداً للمؤامرات التى انغمس فيها[٢] .

وكال القواد التهم ضد منو من غير حساب أو وازع ، وبنوا هذه التهم جميعها على ما عرفوه من رغبة منو الصريحة فى تأسيس مستعمرة فى مصر . فقرأوا عليه «مذكرة» أعدوها فى هذا الشأن من قبل[٣] جاء فيها : « إن اعتبار مصر مستعمرة فرنسية عمل غير مناسب فى الوقت الذى أكد فيه دائماً كل من بونابرت وكليبر للعثمانيين أن هذه البلاد ليست سوى رهينة أو وديعة فى أيديهما ، فضلا عن أنه كان من المتعذر على الحكومة الفرنسية فى هذه اللحظة ذاتها بسبب ما يجرى فى أوروبا من حوادث ، إلا أن تعد مصر بلداً مفتوحاً فحسب ، وذلك حتى يمكنها أن تفيد من امتلاكها لهذا البلد عند ما يحين موعد عقد السلام العام فى أوروبا » ؛ بل إنه لم يكن من المصلحة بتاتاً الإصرار على الادعاء بأن مصر مستعمرة فرنسية ، لأن من شأن هذا الادعاء استثارة الأتراك لمضاعفة جهودهم وتأليب جميع الدول ضد فرنسا[٤] ؛ فإذا اتفق الرأى على

---

(١) Reynier 202

(٢) Ibid 131

(٣) Rigault 202

(٤) Pièc. Div. 564

اعتبار فتح مصر « فتحاً مؤقتا » ، بات من المتعذر على منو أن يغير شيئاً من قوانين البلاد أو ما قضى به العرف وأقرته عادات أهلها ، لأن حدوث هذا التغيير ، مهما استتر وراء تلك الإصلاحات التى استحدثها منو ، سوف ينجم عنه ازدياد قلق تلك الدول التى ناصبت فرنسا العداء ، ثم نفور سكان البلاد من كل ما هو فرنسى ، لا سيما وقد أثقل منو كاهل هؤلاء بالضرائب الفادحة التى فرضها عليهم ، وأشد هذه سوءاً ولا شك ضريبة مشايخ البلد أو العمد . أضف إلى هذا كله أنه ما كان ينبغى قط أن يطلب منو من الفرنسيين أن يدفعوا أية ضريبة[1] وكانت هذه الملاحظة الأخيرة بمثابة رد صريح على ما كان منو قد فعله قبل هذه المقابلة بأيام ثلاثة فحسب ، عند ما أصدر أمراً فى ٣ بريمير يقضى « على جميع الأفراد المقيمين بالبلاد مهما كانت تبعيتهم — ويدخل فى عداد ذلك الفرنسيون أنفسهم — بدفع كل الضرائب التى ينص القانون عليها[2] » .

وعند ما أتم القواد كلامهم فى هذه المسألة الجوهرية ، لبيان أنه من المتعذر اعتبار مصر مستعمرة فرنسية ، انتقلوا إلى ذكر تلك المسائل التى شكوا منها ، فاتهمه رينييه وداماس ولانوس بأنه « أظهر الجيش فيما أصدره من أوامر يومية وكأنه عصابة من قطاع الطريق فحسب ، كما أدار قيادته العامة وكأنها منتدى من المنتديات العامة ؛ ولم يحترم القواعد المتبعة ، فصار يتراسل مع صغار المرءوسين مباشرة » . ثم اتهمه القواد بتدبير المؤامرات وراحو يعنفونه على ذلك تعنيفا شديداً ، وساءهم أن يعزل منو موظفى الحملة ويفصل من الخدمة من يشاء ، مع أن الحكومة الفرنسية هى التى قلدت هؤلاء وظائفهم ولا يملك منو وحده حق عزلهم أو فصلهم ، لأنه لا يستطيع أن يضع نفسه فوق القانون . ثم تناولوا علاقة منو بالجيش وبالبلاد التى يحتلها جيش الشرق ، فقالوا : إن الواجب يقتضيه أن يقلع عن الادعاء بأنه يمثل الجمهورية « فى كل شىء » ، لأنهم وإن أجازوا له حق تمثيل الجمهورية فيما يتعلق بإدارة هذه البلاد ، فإنه من ناحية أخرى لايعدو كونه « قائداً » فحسب لجيش الشرق ، ولا يحق له لذلك أن يعزل أحداً قلدته حكومة الجمهورية وظيفته دون محاكمته أولا أمام مجلس عسكرى ؛ والأحرى به على كل حال أن يمارس مايتمتع به من حقوق محدودة بوصفه قائد الجيش العام فحسب . ولا تتعدى تلك الحقوق إجراء الترقية فى مختلف الرتب العسكرية فى الميدان ، على أن يستحق دائما صاحب الترقية رفع درجته عن جدارة صحيحة ، كما لايجوز أن تحدث هذه

(١) Reynier 127

(٢) Ibid 130 — 1

الترقيات إلا فى نطاق ضيق وبقدر ماتدعو إليه الظروف القائمة فعلا . وفضلا عن ذلك فلو أنه حدث أن أعلنت الجمهورية هذه البلاد مستعمرة فرنسية لكان تكييف إدارة هذه المستعمرة من شأن رجال الحكم فى باريس وحدهم . وواجب منو أن يمتنع عن سبق الحوادث فلا يتخذ من الرغبة فى إشباع نزواته فرصة لاستحداث هذه البدع الكثيرة بدعوى الإصلاح . ولما كانت الحكومة الفرنسية نفسها حتى هذا الوقت قد امتنعت من اعتبار هذه البلاد مستعمرة من مستعمراتها ، فمن واجب منو كذلك أن يحترم استقلال كبار موظفى الإدارة ، فلا يُلزم صراف الجملة العام أو مدير مهماتها بتقديم أية حسابات إليه ؛ ومن واجب منو أن يعتبر هذين الموظفين على وجه الخصوص من ذوى الحصانة التى تجعل عزلهما أو استبعادهما أمراً مستعصيا[١] .

ثم شكا القواد من مسائل أخرى كانت أقل خطورة من سابقاتها ، فتحدثوا عن (الدخولية) ، وهى الضريبة التى فرضت على الغلال والأغذية ، ونجم منها ارتفاع أثمانها ارتفاعاً فاحشا ، كما طرقوا موضوع التبرعات التى جمعت لإحياء ذكرى الجنرال ديزيه ، وإقبال منو على تأييد هذا العمل ، والاشتراك فى إحياء هذه الذكرى ، بينما امتنع عن التبرع بشىء لإقامة نصب تذكارى للجنرال كليبر . وكان الكليبريون قد كلفوا داماس بجمع التبرعات اللازمة لذلك ، فلم يصدر منو أمراً يوميا يحمل إلى الجيش نبأ هذا المشروع العزيز عليهم ، كما فعل من أجل إحياء ذكرى الجنرال ديزيه ، فضلا عن امتناعه عن التبرع[٢] .

وأصغى منو فى أول الأمر لكل هذا الكلام الطويل وقد عقدت الدهشة لسانه ، فكان يكتفى فى رده بإيماءة بسيطة ، أو الإجابة بكلمتى نعم أو لا ، حتى إذا تبين من خلال الحديث أن القواد لم يجيئوا إليه ليهددوه أو يرغموه على اعتزال منصبه ، هدأت أعصابه تدريجيا واستعاد ثقته بنفسه رويداً رويدا ؛ فاستطاع أن يجيب على دعوى القواد بأن مصر بلد مفتوح فحسب بعبارات ظاهرة قاطعة ، فقال إنه إنما يعد مصر مستعمرة فرنسية ، وأن لديه ما يحمله على الاعتقاد بأن وجهة نظره هى الصحيحة . آية ذلك ما وصله من رسائل من وزير البحرية الفرنسية تخوله الحق فى إطلاق اسم المستعمرة على هذه البلاد ، وإنه لذلك ما عمد إلى مطالبة مواطنيه الفرنسيين بدفع الضرائب إلا تنفيذا لما يجرى به العمل فى سائر المستعمرات الفرنسية من قديم الزمن[٣]

---

(١) Rigault 203 — 4 ; Martin II 159 ; Ibid 130

(٢) Villiers 261

(٣) Rigault 202

واحتدم النقاش بينه وبينهم ، ولكن منو ، الذى عرف باللباقة وإتقان أساليب المحاورة ، مالبث أن انحرف بمخاطبيه عن هذا الموضوع الجوهرى الذى كان وصولهم فيه إلى قرار حاسم مناقضاً لمصلحة منو ، ومن شأنه أن يهدم ذلك الصرح الذى بذل منو قصارى جهده لتشييد دعائمه . وعلى ذلك فقد انتقل القواد إلى الحديث باستفاضة فى مسائل كانت مثار شكايات شخصية وفردية ، دون أن ينتزعوا من منو جوابا حاسماً عن كل تلك « البدع » والإصلاحات التى جاءوا لاستئصالها . وما إن انتقل القواد إلى بسط شكاياتهم الخاصة وعرض مطالبهم حتى استطاع منو أن يجد مخرجاً سهلا من مأزقه باصطناع الهدوء والحرص على تطييب خواطرهم ؛ ولم يجد غضاضة فى بذل الوعود الجميلة ؛ وعول منو على مسالمتهم حتى إذا انتهت هـــذه الزوبعة عرف كيف يتخلص من مناوئيه ويقضى على تدابيرهم .

وعلى ذلك فقد تظاهر منو بأنه لم يصله أى خبر عن الاكتتاب من أجل إحياء ذكرى كليبر ؛ ولم يبد عليه أى انزعاج عندما كذب القواد دعواه ، بل وعد باعلان نبأ هذا الاكتتاب فى أمر يومى يصدره الى الجيش ينص على جمع التبرعات اللازمة لإحياء ذكرى القائدين ديزيه وكليبر معاً وفى وقت واحد . ووافق القواد على قولهم إن (الدخولية) كانت سبب ارتفاع أثمـان المواد الغذائية ووعد باتخاذ ما يكفل من إجراءات لحصول الجند على كفايتهم من الأغذية ، وطلب منو فى آخر الأمر إعطاءه مهلة من الوقت للتفكير جديا فيما عرضـه القـواد من مسائل ، ووعد بالاجابة على مطالبهم كتابة بعد فترة وجيزة من الزمن [١] ثم مالبث أن استدعى القواد لمقابلته فى اليوم التالى (٨ بريمير) ، وأعلن اليهم عزمه على إلغاء أو تعـديل بعض القرارات السابقة ، ولو أنه تذرع بوجوب التريث حتى يتم هذا الإلغاء والتعديل شيئاً فشيئا ، تجنباً لما قد يترتب على اتخاذ أى إجراء سريع من قلقلة واضطراب لامسوغ لهما . ثم انتهز منو فرصة اجتماع القواد بهيوم الاحتفال بتأبين الجنرال ديزيه عسكرياً (١٠ بريمير وأول نوفمبر ١٨٠٠) فطمأن خواطرهم ، ووعد بابطال تحصيل ضريبة بيت المال من الفرنسيين ، والنظر فى إلغاء بعض الاجراءات السابقة ، ثم طلب إلى صراف الجيش أن يصدر أمراً يوميا بابطال هذه الضريبـة ، كما أكد استعداده لتنفيذ كل ما طلبه القواد فى مقابلتهم الأولى له . وكان منو قبل الاحتفال بيومين قد كتب إلى لاجرانج رئيس أركان حربه الجديد — بعـد اقصاء داماس — يطلب إليه أن يعهـد بمنصب

(١) Reynier 131 — 2

المفتش العام إلى هكتور دور وأن يرفع مرتباته ترضية له ، وقبل دور هذا المنصب[١]
وأقام الجيش فى أول نوفمبر احتفالا مهيباً فى سهل القبة لتأبين الجنرال ديزيه[٢] ،
وبدا لأول وهلة أن أسباب الخلاف بين منو وقواده المعارضين سوف يقضى عليها .

وفى ٣ نوفمبر علم رينييه أن منو قد ألغى الأمر الذى نص على تحصيل ضريبة بيت المال من الفرنسيين . وفى اليوم نفسه تناول الغداء فى منزل بليار مع سائر القواد فوعد فى أثناء ذلك بأنه لن يدعو للانعقاد ذلك (المجلس الخاص) الذى كان قد صدر أمر بتأليفه فى ٢ سبتمبر ، ولم ينفذ أصلا على نحو ما سبق ذكره . وفى ٨ نوفمبر بر منو بوعده فى صدور أمر يومى افتتحت بمقتضاه الاكتتابات اللازمة لاقامة نصب تذكارى لكل من ديزيه وكليبر[٣] .

غير أن ذلك كله لم يقنع الكليبريين بأن منو كان يبغى حقيقة إزالة أسباب النفور أو أنه يود استمالة القواد اليه ، وساد الاعتقاد بينهم أن منو إنما كان يعمل لكسب الوقت فحسب ، ويريد فسحة من الوقت لامعان النظر فيما يجب عليه فعله قبل التورط فى إجابة مطالب القواد جميعها ، وتلمس أولئك الذين ساورتهم الشكوك فى نوايا منو الأسباب لإقامة الدليل على صدق ظنونهم فيما حدث بمناسبة الاحتفال العسكرى ، الذى أقيم لتأبين الجنرال ديزيه ، فلاحظوا أن المكان الذى وقع عليه الاختيار لذلك الاحتفال فى سهول القبه كان قريبا من ميدان معركة هليوبوليس التى انتصر فيها كليبر « فافتتح مصر مرة ثانية » ؛ ولما كان وجود المحتفلين قريباً من ميدان المعركة من شأنه أن يذكر الجنود بوفاة قائدهم ، الذى اغتيل فى نفس اليوم الذى سقط فيه ديزيه فى معركة مارنجو ، فيشعر الجنود بالحزن والأسى ، فقد انتظر الكليبريون أن يجد المتكلمون فى تأبين ديزيه مايقولونه كذلك عن الجنرال كليبر ، ومع ذلك فإن أحداً لم يذكر كليبر بكلمة ، كما أن أحداً لم يفكر فى تكريم ذكراه فى هذه المناسبة بنثر بعض الزهور على قبره[٤] ، بل إن هذا الحفل ما لبث أن انتهى فى صمت عميق ، لأن منو قرر أن يتكلم رجل واحد فحسب فى تأبين ديزيه . فألقى فوريه Fourier خطاباً طويلا[٥] أشاد فيه بذكر ديزيه ، فأسهب فى وصف مناقبه ، كما عدد كل تلك الخدمات الجليلة التى أسداها

---

(١) Rigault 204 : Ibid 125
(٢) Pièc. Div. 572 — 3
(٣) Rousseau 431
(٤) Reynier 133
(٥) Reybaud VIII 101

لوطنه[١] ، وأغفل فوريه ذكر الجنرال كليبر . فلزم القواد الصمت وقد أمضهم هذا الإغفال ، وانفض الحفل وقد زاد نفورهم من منو وعظمت كراهيتهم له .

وفضلا عن ذلك فإنه سرعان ما تبين لهؤلاء القواد المعارضين وأنصارهم أن منو إنما كان يضمر لهم العداء ويريد التخلص منهم . آية ذلك رغبته فى إبعاد تاليان على وجه الخصوص ، حتى إنه أعد له جواز سفر إلى فرنسا منذ ٢٨ أكتوبر ، ونجح فى حمله على مغادرة البلاد ، فاستطاع بذلك أن يبعد عنه أشد المعارضين خطراً عليه وأقواهم مراساً فى تأليب المعارضة ضده[٢]. ثم ما لبث أنه كشف عن حقيقة نواياه عند ما طفق يسعى فى الأيام التالية لإقناع زعماء المعارضة الآخرين داماس ولانوس وفردييه بالسفر إلى فرنسا ، ويقترح عليهم العودة إلى الوطن . وقد رفض هؤلاء جميعاً مغادرة البلاد وقتئذ ، لأنهم كما قال رينييه « كانوا لا يريدون أن تفقد فرنسا مصر فتضيع هذه البلاد بسبب ضعف اليد المسيطرة على الجيش[٣] » . وعلى ذلك فإنه بدلا من أن تستقيم الأمور فى « مستعمرة » منو ، سرعان ما وجد قائد الحملة العام أن الجو قد أخذ يزداد اكفهرارا ، بسبب كل تلك السحب المتلبدة . وكان منشأ هذه الصعوبات التى صادفها أنه إنما يشغل منصب القيادة العامة بصورة « مؤقتة » .

تثبيت منو فى القيادة العامة :

وقد فطن منو إلى أنه لا سبيل لإخماد المعارضة ضده طالما كانت قيادته « مؤقتة » ، ومن المحتمل أن تصدر أوامر القنصل الأول من باريس بإخراجه من منصبه ، وإسناد قيادة الحملة العامة إلى رجل آخر . ولذلك فقد اعتمد منو فى اجتياز العقبات التى صادفته على كياسته فحسب ، فأتقن أسلوب « المداراة » ، وبذل كل وما سعه من جهد وحيلة حتى يتجنب مغبة الاصطدام السافر مع القواد الناقمين عليه ، وراض نفسه على احتمال « مشاكساتهم » حتى تفصل حكومة القنصل الأول فى أمر قيادته . ووجد من الحكمة وأصالة الرأى أن يمضى قدماً فى إصلاحاته وتنظيماته ، ضارباً عرض الحائط بهذه المعارضة القوية ضده ، كما هداه التفكير إلى أنه من الخير له أن يغفل الحديث عن هذه الإصلاحات والتنظيمات فيما يرسله من أنباء إلى حكومته[٤] ، فلم يكتب عنها شيئاً منذ أن

(١) Bricard 442 — 6

(٢) Rigault 201 ; Rousseau 337 — 8

(٣) Reynier 133

(٤) Ibid 133

أقلعت (أوزيريس) فى ١٠ يوليو ١٨٠٠ تحمل أنباء الاعتداء على كليبر ، مع بيان موجز عن وضع البلاد العسكرى[١] . وعلى ذلك فقد امتنع منو فى كل ما بعث به من رسائل حتى أواخر شهر اكتوبر إلى القنصل الأول وإلى وزيرى الحربية والخارجية فى باريس عن ذكر شىء من أخبار ذلك الانقسام الذى ظهرت بوادره فى الجيش ، منذ أن تسلم القيادة العامة ، أو نشاط المعارضة ضده . فقال عند ما كتب إلى بونابرت فى ٢٤ سبتمبر[٢] ، « إن الظروف اقتضت إخراج داماس من رياسة هيئة أركان الحرب ، وتعيين الجنرال لاجرانج بدلا منه » ، وطلب إلى القنصل الأول أن يصدق على التعيينات التى أجراها وقد كانت هذه كما اعترف منو تعيينات كثيرة « وإن كان ذلك بسبب الظروف التى حتمت إجراءها » ، واكتفى منو فى رسائله العديدة إلى كارنو Carnot وزير الحربية بأن نقل إليه خبر تعيين الجنرال لاجرانج رئيسا لهيئة أركان حربه[٣] ، كما انتهز فرصة الإفاضة فيما فعله من إصلاحات يبغى منها توفير الغذاء والكساء للجيش ، وتجهيز المستشفيات بكل ما يلزم لمداواة المرضى والجرحى ، والعناية بأمرهم ، فذكر كيف أنه اضطر إلى معاملة المتعهدين والموردين وفريق من رجال الإدارة الذين ثبت غشهم وتلاعبهم معاملة صارمة شديدة ، حتى إن هؤلاء سرعان ما نقموا عليه وصاروا أعداءه ، وإن كان منو كما قال لا يعبأ بعداوتهم ، طالما كان هدفه صون المصلحة العامة وخدمتها[٤] . وهكذا كانت هذه العبارات الموجزة البسيطة كل ما شاء منو أن يذكره للحكومة فى باريس حتى أول بريمير من سنة الجمهورية التاسعة (٢٣ أكتوبر ١٨٠٠) عن ذلك الخلاف الذى استحكمت حلقاته بينه وبين قواد الحملة وأكثر رجالها .

ولكن الخصومة مالبثت أن اشتدت بين منو وبين قواده ، ثم اتسعت شقة الخلاف بين الفريقين حتى بات من المتعذر نكران وجود الانقسام أو إخفاؤه ، وبخاصة عند ما عقد القواد اجتماعاتهم لتدبير عزل منو من القيادة أوحبسه فى القلعة . واستطاع منو الذى حضر عهد مؤامرات الثورة والإرهاب فى باريس أن يعرف حركات أعدائه ، ولا يفوته تدبير من تدبيراتهم ، كما أنه استطاع أن يجذب إليه بعض رجال الجيش ، كالجنرال داستان والضابط شانيه Chanié ، فصار هؤلاء ينقلون إليه الأخبار تباعا .

---

(١) Pièc. Div. 477 — 83

(٢) Rousseau 344 ؛ Ibid 515

(٣) Pièc. Div. 519

(٤) Rousseau 351

ووجد منو أن الصمت أو المداراة قد بات لا يجدى نفعا ، وأن من واجبه التسلح بالحيطة والحذر ، واتخاذ الأهبة للدفاع عن نفسه وعن إدارته أمام مواطنيه فى مصر وفى فرنسا على السواء ، ثم أمام القنصل الأول قبل أى إنسان آخر . وعلى ذلك فقد نبذ منو خطته الأولى ، وشرع منذ ٢٣ أكتوبر يتهيأ لإرسال الجنرال فيال Vial والضابط لازوسكى Lazowski إلى باريس ، حتى يشرحا لحكومتهما حقيقة الموقف فى مصر[١] ، وحملهما رسائل إلى القنصل الأول وإلى غيره[٢] من رجال الحكم والأصدقاء فى باريس ؛ فغادر فيال القاهرة فى ١٢ بريمير (٣ نوفمبر) ، ثم أقلع من الاسكندرية على ظهر (لودى) بعد يومين فبلغ طولون فى ١٤ فريمير (٥ ديسمبر) ومعه لازوسكى[٣] . ونشرت الجريدة الرسمية (المونيتور) Moniteur رسائل منو فى جملة أعداد من أعدادها ابتداء من ٢٥ فريمير من سنة الجمهورية التاسعة (١٦ ديسمبر[٤]) . وفى هذه الرسائل أشار منو إلى وجود جماعة مناهضة للاستعمار فى مصر ، اضطر إلى مناضلتهم نضالا شديدا حرصا منه على المصلحة العامة ، ذلك أن ما بذله من محاولات للتغلب على العقبات الكثيرة التى اعترضت إصلاحاته المالية والإدارية سرعان ما جعل النفعيين وأصحاب المصالح الشخصية يناصبونه العداء[٥] ، وتلك حقيقة فى وسع فيال ولازوسكى أن يبسطاها للقنصل الأول . ثم طلب منو من بونابرت أن يسطر له كتاباً به من عبارات التأييد « ما يحمل كل أولئك الذين يجب أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم على احترام النظام وعدم الخروج على طاعته[٦] » .

وفى الوقت الذى كان فيه مركز منو بوصفه قائداً « مؤقتا » لجيش الشرق قد بلغ منتهى الحرج ، حتى اضطر إلى إرسال فيال ولازوسكى إلى باريس ، حدث أن وصل إلى الاسكندرية ضابط من طولون يحمل بريد فرنسا ، وكان وصوله فى نفس اليوم الذى غادر فيه فيال القاهرة . وكان هذا البريد يحمل أنباء شتى ، منها استئناف القتال فى القارة بعد انهاء تلك الهدنة البسيطة التى أبرمت عقب انتصار الفرنسيين فى معركة مارنجو ، ثم سقوط مالطة فى أيدى الانجليز فى ٢٥ سبتمبر[٧] ، وعقد السلام بين

(١) Reybaud VIII 101

(٢) Rousseau 366

(٣) Pièc. Div. 504 — 6

(٤) Rigault 228 ; Martin II 162

(٥) Reynier 134

(٦) Rigault 205

(٧) Malus 199

فرنسا وأهل تونس والجزائر[١] . على أن أهم ما حمله هذا الرسول كان ولاشك ذلك الأمر الذى أصدرته حكومة باريس « لتثبيت » منو نهائيا فى قيادة الحملة العامة . وبادر منو بإبلاغ ذلك النبأ إلى الجيش ، فأصدر أمراً يوميا فى ١٣ بريمير (٤ نوفمبر ١٨٠٠) يعلن فيه انتقال قيادة جيش الشرق إليه بصورة رسمية[٢] . وما إن وصل الرسول إلى القاهرة بعد ذلك بيومين حتى سلم هذا الأمر الحكومى إلى منو فوراً[٣] .

وأحدث « تثبيت » منو فى القيادة أثرا عميقا مالبث أن ظهرت آثاره ليس فى موقف رينييه وزملائه من القائد العام فحسب ، بل كذلك فى موقف منو نفسه من القواد الناقمين عليه ، والذين حملوا ضده لواء المعارضة الشديدة منذ أن تولى قيادة الحملة « مؤقتا » من حوالى خمسة شهور مضت . فاستولت على هؤلاء المعارضين الدهشة والحيرة العظيمة ، وطفقوا يتلمسون « الأعذار » لحكومة القنصل الأول التى أقدمت على هذه الفعلة ، وعللوا ماحدث بقولهم إن كل ماكانت باريس تعرفه عن الجنرال منو أنه من القواد المحظوظين فى الجيش ، بدليل اختياره لقيادة الحملة العامة ، فلم يصل إلى علم الحكومة أن الجيش بأسره متذمر منه ، وأن منو لم يشغل منصب القيادة العامة إلا بوصفه أقدم القواد الموجودين فى الرتبة العسكرية عند وفاة كليبر ؛ ولا جدال فى أن الحكومة اعتقدت أنه قد أدرك نصيبا من المران يكفى لاضطلاعه بأعباء الحكم والإدارة بمهارة وكفاءة ، فضلا عن أنها انتظرت من منو أن يطلب النصح من زملائه القواد فيما يتصل بالشئون العسكرية لقلة خبرته بفنون الحرب والقتال ، كما انتظرت منه أن يبذل قصارى جهده لشد أواصر الألفة والاتحاد بينه وبين زملائه . واستمر القواد يفسرون هذه الخطوة على نحو ماطاب لهم أن يفسروها به ، فقالوا إن الحكومة انساقت إلى ذلك بسبب ماذاع عن اعتناق منو الدين الإسلامى ، وتوقعها أن يجذب إسلامه قلوب أهل البلاد إليه ، فيلقى من تأييد هؤلاء له مايكفل النجاح لإصلاحاته الإدارية وتنظيماته المالية ، وكان للحكومة فى باريس العذر كل العذر فى توقع ذلك كله بسبب تقارير منو المزيفة ، التى خدع بها الحكومة ، ثم ماأذاعه زورا وبهتانا — على زعمهم — من وجود جماعة مناوئة للاستعمار فى مصر ؛ فهو قد اغتصب لنفسه كل فضل فيما تم من إصلاحات فى هذه البلاد من وقت مغادرة بونابرت لها ، كأنما كانت

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٥١

(٢) Rigault 210

(٣) Reynier 137

هذه كلها من صنعه هو وحده ، فغمط كليبر حقه ونسى فضله ، كما ادعى دون مبرر أنه نجح « فى إدارة حكومة هذه البلاد لفائدة أهلها فحسب » ؛ وكذب على الحكومة عندما وصف الجيش بأنه فى خير حال يرجى له ، ثم ركب متن الشطط فألصق بأصدقاء كليبر وحدهم تهمة مناوأة الاستعمار فى مصر . وساعد على رواج مفترياته وصول رسائله وتقاريره إلى فرنسا . وفضلا عن ذلك فإنه ما بلغ القنصل الأول خبر تلك الخلافات القائمة بين منو وبين سائر القواد حتى خشى من ازدياد الانقسام فى صفوف الجيش إذا هو أقدم على اختيار قائد آخر لقيادة الحملة العامة بدلا منه . أضف إلى هذا كله أنه كان من سوء التدبير العمل على عزله من القيادة فى وقت ظهر فيه منو بمظهر ذلك المستعمر الذى شيد صرح المستعمرة الجديدة فى مصر ، وتعهد إلى جانب ذلك بالمحافظة على هذه المستعمرة « الناجحة » ، وإبقائها فى حوزة فرنسا ؛ فأذعنت حكومة باريس إذن للأمر الواقع وراحت ترجو من بقاء منو فى منصبه التمكن من إقناع الرأى العام فى فرنسا بمزايا بقاء هذه المستعمرة فى قبضتها ، وبث روح الحماس فى الشعب الفرنسى حتى يتسنى لها إرسال النجدات إلى مصر المستعمرة الفرنسية الجديدة[1] .

تلك كانت الأسباب التى دعت فى نظر القواد والجنرال رينييه على وجه الخصوص إلى تثبيت منو فى القيادة العامة . وسواء كان رينييه وزملاؤه على صواب فيما ذهبوا إليه فى تعليل تثبيت منو فى القيادة أم كان القنصل الأول متأثراً فيما فعل بعوامل أخرى ذات صلة وثيقة بسياسته الخارجية على نحو ما سيجىء ذكره فى الفصول التالية ؛ فقد كان من الواضح أن قرار بونابرت جاء معارضاً لرغبات القواد الذين سرعان ما وجدوا أنفسهم بسبب ذلك فى شر مأزق . فقد استند هؤلاء فى معارضتهم السابقة إلى أن منو إنما يتمتع بقيادة الحملة بصورة « مؤقتة » ، وفى وسعهم لذلك أن يعارضوه ما شاء لهم الهوى — أو تقدير المصلحة ! — دون لوم عليهم أو تثريب . أما وقد صدر قرار حكومى « بتثبيت » منو فى القيادة ، فقد بات لزاما عليهم احترام هذا القرار الحكومى ، وإلا عدت معارضتهم له ثورة صريحة ضد حكومة الجمهورية ذاتها ، وعلى ذلك فقد صار متعذراً عليهم القيام بمظاهرة من طراز تلك المظاهرة التى قاموا بها فى يوم ٦ بريمير ، وقضى على كل أمل لهم فى الاستحواذ على السلطة أو تقرير مصير جيش الشرق وفق رغائبهم مهما كانت أغراضهم نافعة ومفيدة . ومع ذلك فقد استعصى على القواد دفن أحقاد الماضى ، كما استعصى عليهم أن يقلعوا عن معارضتهم ، ولذلك فقد شغل هؤلاء

---

(١) Martin II 163 ; Ibid 139 — 140

فى الفترة التالية بأمرين : أولهما تبرير خطوتهم التى اتخذوها فى ٦ بريمير من سنة الجمهورية التاسعة ، مع إقامة البرهان على أنهم على حق فى معارضتهم حكومة منو وفيما يتخذونه من وسائل لإظهار وجوه هذه المعارضة فى مصر وفرنسا معاً ، وثانيهما الإصرار على رجاء بونابرت أن يعزل منو من القيادة ، أو أن يبعث فى استدعائهم من هذه البلاد نهائيا[١] .

وقال القواد فى تبرير مسلكهم يوم ٦ بريمير إن هذه الخطوة قد حققت شطراً مما هدف أصحابها إليه ، فاصطنع منو الحكمة والروية فى إصلاحاته المستحدثة . وأجرى تعديلا ملحوظا فى بعض ماأصدره من قراراته السابقة ، كما أنه وعد بإبطال البعض الآخر شيئا فشيئا[٢] . ومع ذلك فإن استمرار المعارضة فى زعمهم كان أمراً لامناص منه لما ظهر من عدم خلوص نيته والتواء أغراضه ، ذلك أن منو لم يسمح بجمع التبرعات اللازمة لإحياء ذكرى الجنرال كليبر إلا بعد وثوقه — على نحو مانقله إليه الرسول الواصل من فرنسا حديثا — من أن باريس قد اشتركت فى تأبين كليبر . وفضلا عن ذلك فإن منو لم يشأ أن يرسل إلى باريس النص الكامل لذلك التقرير الذى وضعه كليبر عن معركة هليوبوليس قبل وفاته ، ثم سهر على إتمامه بعد ذلك الجنرال داماس[٣] ، فاستبعد منه منو عند إرساله كل ماتعلق بحالة الجيش منذ وفاة كليبر وأغفل ذكر تشكيل تلك الفرق الإضافية التى ضمت إلى الجيش كقوات مساعدة[٤] . وأعد القواد « مذكرة تفسيرية » اعتزموا إرسالها إلى القنصل الأول والحكومة الفرنسية ، لبيان الأسباب التى حملت رينييه وداماس وفردييه ولانوس وبليار « على الاجتماع بالجنرال منو يوم ٦ بريمير من سنة الجمهورية التاسعة » ، للبحث فيما فيه ضمان مصلحة جيش الشرق ، كما اشتملت هذه المذكرة على « تفاصيل ماحدث فى أثناء هذه المقابلة بكل دقة » . ولم يشأ القواد أن يوقعوا جماعة على هذه المذكرة حتى لاتبدو فى صورة عريضة اتهام « إجماعى » ضد منو[٥] .

وسعى القواد ليستميلوا إلى جانبهم زملاءهم البعيدين عن القاهرة . ولما كان الجنرال رامبون حاكم دمياط من كبار مؤيدى منو من وقت تسلمه القيادة العامة

---

(١) Rigault 205

(٢) Reynier 137

(٣) Pièc. Off. 110 — 70 ; Pièc. Div. 303 — 44

(٤) Reynier 135 ; Pièc. Div. 574 — 7 ; Pièc. Off. 494 — 504

(٥) Reynier 139

فى يونية ١٨٠٠[١] ، فقد بذل رينييه وداماس جهداً كبيراً لاستمالته إلى صفوف المعارضة ؛ كما أنهما حاولا إقنـــاع قائد آخر هو الجنرال فريان بصواب ما حدث يوم ٦ بريمير ، فأرسلا إليه تفصيلات هذه الخطوة . وأسفرت جهودهما عن النجاح عندما كتب فريان إلى داماس فى ٧ نوفمبر يهنئه مع زميله رينييه على دفاعهما عن مصلحة الجيش ، ويؤكد لهما انضمامه إلى إخوانه يوم ٦ بريمير لو أنه كان بالقاهرة وقتئذ ، ثم تساءل فى ختام رسالته : « ومتى تنتهى هذه البدع المستحدثة ويستطيع العودة إلى فرنسا ثم يرفرف السلام بجناحيه على الجميع حتى يصلوا إلى ما تصبو إليه أنفسهم ؟ »[٢]

وكتب القود إلى أصدقائهم فى فرنسا يتحدثون عن إدارة منو وإصلاحاته ، فكتب لانوس إلى الجنرال لان Lannes فى ٦ نوفمبر تعليقا على « فعال » منو متسائلا : « وماذا يمكن أن يرجو إنسان من رجل يتعذر عليه الرجوع إلى فرنسا بسبب ذلك الاسم الجديد الذى اتخذه لنفسه فى مصر وخوفه لذلك من مطاردة دائمة له عند عودته إلى أرض الوطن ؟ » وفى ٢٤ نوفمبر كتب داماس إلى صديقه الجنرال مورو Moreau : « وإنى لعلى يقين أنه لا يزال فى وسعنا أن نحرز بعض الانتصارات ، ولكن من واجبنا كذلك أن ننظر إلى المستقبل وعندئذ يبدو أن تعرضنا لخطر ، قد يكون جسيما أو لاتبلغ شدته حداً عظيما ، أمر محقق ، فلا جدال فى أنه لو استمر النضال على ما نعهده من شدة وصلابة فإنا سوف لا نلبث طويلا حتى نرى أنفسنا وقد حلت بنا الهزيمة بالرغم من انتصاراتنا » . ثم أرسل إليه تقريراً اشتمل على كل تلك الحوادث التى أرغمت الجيش — فى نظر داماس — على البقاء فى هذه البلاد « المنكودة » ، ورجاه أن يسعى لاستدعائه إلى فرنسا . وفى نفس اليوم الذى كتب فيه داماس رسالته إلى مورو ، بعث رينييه بكتاب إلى هذا القائد نفسه يظهر فيه الأسف على حرمانه من خوض غمار المعارك إلى جانب مورو بسبب إقامته فى مصر ، ويرجوه أن يسعى لاستدعائه « إذا كان لا يزال هناك ما يجب عليه فعله من أجل إنهاء الحرب » فى أوروبا . وقد كتب رينييه كذلك فى ٢٤ نوفمبر إلى الجنرال فرينو Ferino يشكو من « البطالة » التى تحرمه وهو فى مصر من كسب أكاليل المجد والفخار بالاشتراك فى المعارك الدائرة فى أوروبا ويرجوه أن يبذل قصارى جهده لاستدعائه إلى فرنسا . وفى رسالة إلى الجنرال سان سير Saint - Cyr أكد رينييه ضرورة إرسال قائد جديد بدلا من منو إلى مصر كما

(١) Rigault 205

(٢) Ibid 206

أكد ضرورة أن يتم اختيار هذا القائد من غير أولئك الموجودين فى مصر . وفى نفس اليوم أيضا (٢٤ نوفبر) كتب رينييه إلى بونابرت يشكو له من منو الذى بذر بذور الشقاق والتفرقة فى جيش لم يعرف حتى هذا الوقت غير الاتحاد وجمع الكلمة ؛ فقد استن منو كثيراً من القوانين غير الصالحة أو الملائمة لعادات أهل البلاد وتقاليدهم وأبعد قواداً تمتعوا باحترام الجميع وتقديرهم ، ولم تفد شيئا محاولات رينييه لإطلاع منو على ما يشيع من تذمر وسخط بين جنود الحملة وبين الأهلين على السواء ؛ ثم نفى رينييه أن له يداً فى كل ما حدث ، أو أنه ينتظر تحقيق مصلحة ذاتية من ذلك ، بل يرى من الملائم أن تتاح له الفرصة لمغادرة هذه البلاد على الأقل بعد إلحاق الهزيمة بالعثمانيين ، وذلك حتى لا يتخذ أولئك المستاءون من منو اسم رينييه ستاراً لتأليف حزب يتصدى لمعارضة منو دون أن يكون له يد فى ذلك [١].

وما إن فرغ القواد من تحرير رسائلهم حتى وقع اختيارهم على أوجست داماس Auguste Damas ، من الضباط الموالين لهم ، ليحمل هذه الرسائل على أن يذهب بها إلى فرنسا يوم ٢٤ نوفبر نفسه . ولكن أوجست داماس لم يستطع مغادرة مصر حتى يوم ٩ يناير ١٨٠١ ، وعندئذ وقع فى قبضة الانجليز [٢] . ومع ذلك فإن هذا الحادث لم يكن معناه أن القواد قد أخفقوا فيما أرادوه من إثارة الرأى العام الفرنسى ضد منو ، واستمالة بونابرت إلى تأييدهم ، ذلك أن تاليان — كما سبق ذكره — كان قد حصل على جواز للسفر منذ ٢٨ أكتوبر ، فغادر البلاد واستطاع الوصول بسلام إلى فرنسا . وقد حمل تاليان فى حقيبته « أوراق الاتهام » التى أعدها المعارضون ضد قائد الحملة .

وغنى عن البيان أن منو كان ملما بكل ما يفعله أعداؤه ويسعون إلى تحقيقه ، وساءه أن يعمل هؤلاء لتشويه سمعته وهدمه . ولم يكن من المنتظر لذلك أن يقف مكتوف اليدين أمام نشاط أعدائه . وإذا كان منو قد فضل اصطناع التريث وسلك طريق المداراة معهم فى الماضى ، لأن قيادته كانت « مؤقتة » فما الذى يمنعه الآن وقد جاءه قرار التثبيت من المضى فى إصلاحاته العزيزة عليه ، أو تلك « البدع المستحدثة » على حد قول معارضيه ، وأخذ هؤلاء المعارضين أنفسهم بالشدة والصرامة وقد اطمأن الآن إلى خضوع جند جيش الشرق لأوامره ؟ وعلى ذلك فإنه ما إن وصله أمر الحكومة

---

(١) Rigault 206 — 9

(٢) Reynier 139

بتثبيته فى منصبه حتى نبذ ظهريا سياسة اللين التى اتبعها مع قواده ومحاولة التفاهم معهم ، وطفق هو الآخر يعمل كما عمل قواده لاستمالة الرأى العام إلى جانبه فى مصر وفرنسا معاً ، ببيان خطل ذلك الرأى الذى جعل القواد يقومون بخطوة ٦ بريمير ، وإظهار هؤلاء القواد بمظهر الناقمين الحاقدين عليه ، والذين ما كان يحركهم سوى أهوائهم الشخصية . واستعان منو فى تدبير هذه الحملة ضدهم بطائفة ممن وثق بهم من الضباط والقواد مثل داستان وشانيه وغيرهما . وفضلا عن ذلك فقد وجد منو أن من الخير له أن يقصى من هذه البلاد أكبر عدد ممكن من هؤلاء المعارضين له . وكانت الحملة التى شنها منو على أعدائه سواء فى مصر أو فى فرنسا حملة عنيفة ، غرضها تشويه سمعة هؤلاء وإسقاطهم فى نظر مواطنيهم فى هذه البلاد وفى أوطانهم .

وعلى ذلك فقد راح منو يعرض على القواد جوازات سفر تمكنهم من العودة إلى فرنسا . ومع أن هؤلاء رفضوا أن يتركوا وظائفهم من غير أن يصلهم أمر صريح بذلك من القنصل الأول نفسه[١] ، فقد نجح منو فى استمالة الجنرال فردييه إلى مغادرة هذه البلاد . والسبب فى ذلك أن فردييه كان متزوجا من سيدة إيطالية كرهت الإقامة فى مصر ، وألحت على منو نفسه فى طلب العودة إلى فرنسا ، فرحب منو بهذه الفرصة وكتب إلى فريان قومندان الاسكندرية[٢] أن يعد لنقل فردييه وزوجه مركب البريد (لوديجاجيه) Le Dégagé ، فأقلعا إلى فرنسا فى ديسمبر ، وكان فردييه يحمل معه رسائل عدة من منو . وكتم منو الخبر فى أول الأمر ، ولكن ما إن عرف رحيل فردييه — وكان من كبار المعارضين لمنو — حتى اشتد حقد سائر القواد على منو ، كما وصف لانوس فردييه بالخيانة ، وتهكم عليه تهكما مراً فقال : « إن السيدة لويزا بيانكى قد سافرت ومعها فارسها ! » . ولم يكن فردييه موفقا فى رحلته فوقع هو وزوجه فى قبضة الإنجليز[٣] . أما سائر القواد فقد جددوا القسم أن يبقوا على عهدهم ، فإما أن يغادروا البلاد جماعة مع جيش الشرق نفسه ، وإما أن يبقوا فى مصر حتى يستدعيهم بونابرت من هذه البلاد رسمياً[٤] . وزاد النضال من ذلك الحين بين منو وبين زعماء المعارضة شدة على شدته .

---

(١) Rigault 207

(٢) Rousseau 380 — 1

(٣) Villier 289

(١) Rigault 209

واتخذ منو من استناد المعارضة هذه فى جوهرها إلى أن القائد العام لا يجب عليه أن يعتبر مصر مستعمرة فرنسية ، ذريعة لتشويه سمعة القواد والحط من كرامتهم بين جنود الحملة ورجالها ، فانطلق أنصاره ومؤيدوه يهمسون فى آذان الجند فى بادىء الأمر ثم يجهرون صراحة بعد التمهيد لقبول دعاويهم ، أن جميع من حملوا لواء المعارضة ضد منو هم من مناوئى الاستعمار الفرنسى فى هذه البلاد . وأن الغرض من تلك المظاهرة التى دبرها المعارضون يوم ٦ بريمير (٢٨ أكتوبر) كان التخلص من غريمهم والقبض عليه وحبسه ، بل إن هؤلاء المعارضين من أنصار الجلاء عن مصر وإخلائها كانوا على صلة بالعدو نفسه [١] ولما كان المعارضون قد اتخذوا من كليبر « معبود » الجيش على زعمهم رمزاً لسياسة الجلاء التى بنوا عليها معارضتهم ، فقد صمم منو على تحطيم هذا « المعبود » وتقويض عروش مجده كخطوة لاغنى عنها إذا هو شاء تحطيم (الكليبريين) أنفسهم ، وهدم تلك الجماعة التى اعتقدت خطأ أو صوابا أنها إنما تترسم خطوات قائد الحملة السابق فيما تفعله . فأذاع أنصار منو ، كداستان وشانيه ، فى رسائلهم التى نشروها فى مصر أو بعثوا بها إلى فرنسا كل ما من شأنه تحطيم مجد كليبر ، وتلطيخ ذكراه وتشويه سمعته .

وفضلا عن ذلك فقد وجد منو أن يبطل مساعى أعدائه فى فرنسا ، حتى يضمن استبقاء مودة بونابرت وتأييده له ، فشرع يفكر فى أجدى الطرق لإقناع القنصل الأول بأن صرح الاستعمار الذى أرسى بونابرت بيده قواعده فى مصر إنما يقوم على دعائم ثابتة متينة تنبىء بنجاح سياسته الاستعمارية ، وهداه التفكير إلى أن خير ما يحقق ذلك حمل الديوان على إرسال تهنئة إلى بونابرت على تسلمه أزمة الحكم فى فرنسا ، وإعلان رغبتهم القاطعة فى الانضمام إلى فرنسا . فكانت رسالة الديوان التى سبقت الإشارة إليها ، وقد أرسلها منو بعد نقلها إلى الفرنسية يوم ١٤ نوفمبر إلى باريس مع خطاب منه إلى القنصل الأول [٢] وأكد منو فى هذا الخطاب مقدار ما يبذله من جهود حتى يكون أهلا لذلك المركز الذى صار يشغله بفضل « تثبيت » بونابرت له فى قيادة الحملة العامة ، كما أكد إخلاصه وولاءه لحكومة الجمهورية « حتى آخر يوم من أيام حياته » ؛ ولما كان يعرف حنين بونابرت إلى جيشه دائما فقد حرص على أن يبعث إليه بتحيات جيش الشرق « الذى يمتثل دائما لأوامر القنصل الأول » .

---

(١) Ibid 266

(٢) Rousseau 373 — 5 ; Testa 26 — 8 ; Galland II 6 — 11

وفضلا عن ذلك فقد تحدث منو عن إصلاحاته الكثيرة ولم يفته أن يذكر أن أعضاء الديوان أنفسهم هم الذين سطروا كتابهم إلى بونابرت ، « فالكتاب كله من إنشائهم ومن ثمار قرائحهم » ولم يتلقوا نصحا أو إرشاداً من أحد حين إعداده ، ولم يتدخل منو أو فوريه فى شيء . وكان بعد هذه العبارات التى حملت فى ثناياها إطراء ظاهراً للفصل الأول أن انتقل منو بلباقة إلى الإشارة إلى كل أولئك الذين قال عنهم « إنهم يكيدون فى الخفاء لإثارة خواطر الجيش والذين أرغموا على التزام جادة الصواب بفضل امتناع الجيش عن التأثر بمكائدهم » .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن الديوان لم « يتطوع » بالكتابة إلى بونابرت من تلقاء نفسه على نحو ما أراد منو أن يقول ، بل كان الواقع على خلاف ذلك . لأن منو هو الذى طلب من الديوان هذه الكتابة ، ولم يشر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بشيء إلى هذه الرسالة فى تاريخه[١] . وفضلا عن ذلك فقد رفض الجيش على الرغم من إلحاح منو أن يكتب رسالة أخرى فى هذا المعنى نفسه إلى بونابرت كما فعل الديوان[٢] .

وانتهز منو فرصة تعيين ثيبودو Thibaudeau ، وهو من أصدقائه ، فى أحد مناصب الدولة العالية فكتب إليه فى ٢٨ نوفمبر[٣] متحدثا عن جهوده من أجل إقامة الحكومة المنظمة فى مصر ، ومطريا لصفات ثيبودو القانونى والمشرع البارع ، كوسيلة تمهد له الكلام عن تاليان — وهو من رجال القانون المعروفين — وتناول شخصه بالنقد والتجريح ، فقال : « وكم كنت أتمنى لو أنى سعيد حقا أن أجد بجانبى مشرعا للشرق يتصف بمثل الكفاءة والمقدرة التى يتمتع بها ثيبودو ، ثيبودو الذى اشتهر بصلابته « كالقضيب من الحديد » لقد صادفتنى هنا عقبات شديدة كثيرة ، ولكنى وقد تعلمت كيف أكون صليبا من حديد كثيبودو نفسه قد تسنت لى مصارعتها والصمود أمامها ، وإنى لأذكر بمناسبة « القضيب الحديدى » إنى تمكنت من أن ألفظ إلى أوروبا ثانية تاليان المعروف ، وذلك بعد أن كانت أوروبا قد لفظته إلى أفريقية . وكان هذا الرجل إلى جانب انشغاله بأسباب اللهو والتسلية فى مصر يعمل لتحريك الجيش وحثه على الثورة والعصيان ؛ ولقيت مساعيه ترحيبا من جانب أولئك الذين كان الواجب يقتضيهم ، بفضل ماشغلوه من مناصب كبيرة ووصلوا إليه من رتب عالية ،

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٤٤ — ١٤٦

(٢) Reynier 142

(٣) Rousseau 377 — 8

أن يكونوا قدوة حسنة ومثلا طيباً للاخرين . ولكنهم بدلا من ذلك لم يجدوا غضاضه فى إصخاء السمع إليه وقبول نظرياته الثورية ، تلك النظريات التى أفسدتهم . أما الجنود فقد أبوا الانسياق وراء هذا التحريض ، وذلك لصفاء معدنهم ، ولما تحلوا به من صفات الشرف والبسالة . ولما كان هؤلاء ينالون مرتبات حسنة ويجدون غذاء كافياً واردية طيبة فقد باتوا على استعداد للسير إلى أطراف المعمورة ، طالما يدعوهم الصالح العام إلى ذلك . فباءت مساعى الأشقياء بالفشل واضطروا إلى استئناف أعمالهم صاغرين ، ورحل تاليان ينشر مفاسده فى مكان آخر » .

وحمل منو على تاليان حملة شعواء ، فكتب بعد يومين إلى فورفيه Forfait وزير البحرية فى ٣٠ نوفمبر [١] ينفى نفياً باتاً أنه أعطى جوازاً للسفر إلى تاليان ، بل صار « يشكو من الشكوى من أولئك الربابنة الذين يجيزون لأنفسهم نقل أفراد لا يحملون جواز سفر على سفنهم ! » ومن هؤلاء الأخيرين إنسار Insard صديق تاليان وأحد المشتغلين بالتجارة ؛ كما أن تاليان وإنسار سمحا لنفسيهما بأن يأخذا معهما ثالثاً لا يحمل جوازا للسفر هو المواطن جيلو Gilot ، أحد الصيادلة المهرة ، مع حاجة الحملة وجيش الشرق إلى الصيادلة عموما . ولم يشأ منو أن يدع الفرصة تمر دون أن يتهم تاليان بمحاولة إشاعة الاضطراب فى صفوف الجند ، وحمل جيش الشرق على التمرد والعصيان غير أن منو لم يكن صادقا حين ادعى أن تاليان غادر هذه البلاد دون « جواز للسفر » لأن منو الذى لم يدخر وسعا فى حمل تاليان على السفر لابعاده كان قد أعطاه جوازاً منذ ٢٨ اكتوبر ١٨٠٠ [٢] ومع ذلك فقد صدق القنصل الأول دعواه كما صدق كل ماقاله منو فأصدر أمراً بالقبض على تاليان فى ٤ يناير ١٨٠١ « لأنه أقدم على مغادرة البلاد دون جواز للسفر بعد أن كان قد أثار فيها القلاقل والاضطرابات » [٣]

ونشط أنصار منو يهاجمون الكليبريين ويعملون لتحطيم مجد كليبر نفسه دون هوادة ، فمن ذلك أن شانيه كان قد أعد منذ أول بريمير (٢٣ أكتوبر) خطاباً مفصلا إلى القنصل الأول ، لم يشأ إرساله قبل أن يأخذ رأى قائد الحملة فى ذلك فبعث به إليه فى ١٥ ديسمبر ، تاركا له الخيار فى إرساله إلى فرنسا أو إتلافه [٤] ولما

---

(١) Ibid. 380

(٢) Rigault 201 ; Ibid 377 — 8

(٣) Corresp. No. 5253

(٤) Reynier 183 (Chanié . . . Au Général en Chef Menou . .

كان هذا الخطاب بمثابة « صحيفة اتهام » ضد الجنرال كليبر وضد الكليبريين فى مصر كما كان بمثابة « شهادة » فى صالح منو « ووثيقة تأييد له » ، فقد اختار منو إرسال هذا الخطاب إلى بونابرت[1] وهو خطاب طويل ، استهله صاحبه بذكر ما كانت تعانيه البلاد من أشد صنوف الحرمان عند مغادرة بونابرت لها ؛ وهى حقيقة لايخال شانيه — كماقال — أن بونابرت نفسه يجهلها ، «ومع ذلك فقد لايعرف القنصل الأول مقدار الحماس الذى قوبل به اختيار الجنرال كليبر لقيادة الحملة ، وذلك لأن كليبر كان معدوداً من القديسين والملائكة ، وفى وسعه أن يقوم بجلائل الأمور وأعظمها ، وانتظر منه الجميع أن يفعل ذلك . أما إذا خيب كليبر كل هذه الآمال المعقودة عليه فإن إثمه لاشك يكون عندئذ كبيراً ونحن لانبغى وزن أعماله وإصدار حكمنا عليه ، لأن كليبر قد قضى نحبه ، وللأجيال القادمة وحدها أن تفصل فى أمره ، وهذا حقها دون ريب . ومع ذلك فقد يعن لأحد الأفراد أن يقف على شىء مما كان يفعله هذا القائد وحقيقة مسلكه فى أفريقية . فإذا تسنى للمرء أن يعرف ذلك ، وجد أن هناك تناقضا ظاهرا صريحا بين ذلك التمجيد الذى دعا القوم لإقامة نصب تذكارى له تخليداً لاسمه ، وبين المنزلة الحقة التى كان يجب أن يوضع فيها هذا القائد فى تقدير الناس ، لأن كليبر لم يفعل شيئاً لإزالة المساوىء التى كان يعلو ضجيج الناس منها وقت اختياره للقيادة ؛ بل إن هذه المساوىء مالبثت أن ازدادت حتى تفاقم شرها فى عهده ؛ وامتنع كليبر عن توقيع العقوبة الرادعة على أولئك الذين تصرفوا فى الأموال العامة وبددوها ، ثم شمل بحمايته فعلاهؤلاء السادرين فى غوايتهم حتىاستفحل الخطب ، فصار الجنود لا يأكلون إلا خبزاً مخلوطا بالقش وغيره من المواد الغريبة ، حتى عافته النفوس ، ووصفه الجنرال منو وهو الرجل المحسن الأمين بأنه كان خبزاً يتردد المقترون والبخلاء فى إطعام كلابهم منه ! » .

وحمل شانيه على الإدارة الإقليمية فى عهد الجنرال كليبر فقال : إن حكام المديريات الفرنسيين كالجنرال رينييه وزملائه رامبون وفردييه وداستان وبوابيه Boyer ساموا أهل الأقاليم صنوفا من العذاب ، فأثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة ، وجاروا عليهم فى الحكم جوراً عظيما حتى برح بهم الألم ، وأفضى هذا الإرهاق الشديد إلى تخريب أقاليم برمتها فى دمياط والشرقية وسائر جهات الدلتا . وإن مثلا واحداً لما كان يفعله هؤلاء ليعد كافياً لبيان نوع هذه الحكومة الإقليمية الغاشمة ؛ فقد وجد بوابيه ذات

---

(١) Reynier 183 (Note. 1); 184 — 90 (Chanié . . . Au Premier Consul 23. 10. 1800)

ـمرة أن من الخير له أن يفنى قافلة من العرب بأكملها بعد أن استولى على تجارة أصحابها حتى لا يطالبه أحد بشىء ، مع أن هؤلاء العرب كانوا من أصدقاء الفرنسيين . وفضلا عن ذلك فإنه بدلا من أن يعنى الحكام المعينون فى السويس بدعم العلاقات التجارية بين هذا الميناء وسائر موانى، البحر الأحمر ، اهتم هؤلاء بفرض الغرامات الفادحة على السفن التى قد يدفعها سوء الطالع إلى السويس ، علاوة على الاستئثار لأنفسهم بالجزء الأكبر من التجارات التى تأتى بها هذه السفن ، ثم تحصيل ضريبة ثقيلة على تلك التجارات التى شاءوا أن يتركوها لأصحابها .

ولا شك فى أن الجنرال كليبر كان لا يجهل هذه الحقائق التى عرفها جيش الشرق بأسره ، ولم يكن هذا حال الحكام وحدهم فقد اشترك معهم فى ارتكاب هذه الآثام قومسيرو الحرب ، وهم الذين كانوا « عصبة من الأشرار — على حد قول شانيه — الذين رفعوا نقاب الحياء عن وجوههم ، وتجردوا من كل عفة » ؛ وجاراهم فى ذلك سائر الموظفين فى فروع الإدارة المختلفة . وقد وصف شانيه هؤلاء أيضاً بأنهم كانوا طائفة من « حثالة القوم » لا يرجى أى خير من حضورهم مع الجيش إلى مصر . أما سائر ضباط الحملة فإنهم سرعان ما صاروا ينسجون على منوال قوادهم ورؤسائهم ، وهكذا ضجت البلاد من شرورهم وآثامهم ، وصار أهلها يئنون من شراهة وقسوة المرءوسين ، إلى جانب جور الرؤساء وعسفهم بهم ، ثم لم تنج المستشفيات من شرور هؤلاء الآثمين ، فامتدت إليها أيدى اللصوص والنهابين ، واكتظت حجراتها بالمرضى والجرحى الذين أعوزهم من يقوم على خدمتهم أو يسهر على علاجهم « فقضوا نحبهم وهم يستمطرون اللعنات على تلك الدولة التى دافعوا عنها ، وعلى حكومتها التى خدموها فنبذتهم الآن نبذ النواة ، وتركتهم يموتون دون شفقة أو رحمة .

وكانت هذه ولا شك صورة قاسية لحكومة الجنرال كليبر تكفى إذا ثبت أنها صحيحة لتقويض عروش مجده . ومع ذلك فقد وجد شانيه أن يطعن هذا القائد وجماعة الكليبريين طعنة نجلاء لا سبيل بعدها لإحياء ذكرى كليبر أو لبقاء معارضة الكليبريين إذا هو استطاع أن يندد بسياسة الجلاء عن مصر وما جرت إليه، كمرض عضال يطلب كل إنسان الفرار منه للنجاة بنفسه . ولذلك فقد سمى شانيه هذه السياسة « تسليما دنيئا » اضطر صاحبه تبريراً له أن يلطخ بالعار سمعة جيش الشرق ، عندما عزا (كليبر) تلك الضرورة الملحة للمفاوضة مع العدو إلى وجود حركات جزئية من العصيان والتمرد يرى شانيه من المحتمل « أن حدوثها كان بإيعاز من الجنرال كليبر نفسه » . ولعل السبب فى ذلك كما قال أن كليبر كان يعتقد خطأ أن الجبن وخور العزيمة قد تطرقا

إلى الجنود تخشى من هزيمة الجيش إذا هو اشتبك مع العدو فى معارك فاصلة . ومع ذلك فإنه سرعان ما بدد هذا الجيش أوهام كل أولئك الذين طعنوا فى بسالة الجنود وكفاءتهم فأحرز جيش الشرق انتصار هليو بوليس الباهر بالرغم من رداءة المواقع التى اتخذتها قواته وقت القتال .

وينقد شانيه سوء توزيع القوات الفرنسية فى أثناء هذه المعركة فيقول : لو أن الجيش كان موفقاً فى اختيار مواقعه وتوزيع قواته لامتنع على ستة آلاف من العثمانيين والمماليك دخول القاهرة ، ولظل على قيد الحياة ثمانية آلاف فرنسى من البواسل الشجعان الذين ذهبوا ضحية هذا الحادث ؛ بل إن اعتقاد كليبر الخاطىء بانتشار التمرد والعصيان فى جيشه دعاه لأن يترك العريش تسقط فى يد العدو . وهكذا ضحى كليبر بسبب وقوعه تحت هذا الوهم الباطل بحوالى ستمائة جندى . وما كان يحمله على فعل ذلك فى واقع الأمر سوى كراهيته الشديدة لمشروع الحملة الفرنسية على مصر . ثم كان بعد أن تمت هذه التضحية أن راح كليبر يتلمس بسببها أعذاراً جديدة لإخلاء البلاد والجلاء عنها . ومع ذلك فقد أنشأوا له نصباً تذكارياً . وكان الأحرى بهم أن يقيموا لذكراه نصباً يبقى دليلا إلى الأبد على ذلك الغضب الذى تشعل جذوته فى النفوس دائماً ذكرى هذا « القاتل ! » . ولم يشأ شانيه أن يقصر حملته الشعواء على كليبر فحسب بل صب جام غضبه كذلك على داماس رئيس هيئة أركان حربه فقال : إن جرم داماس ومسئوليته كانا يزيدان فى خطورتهما على جرم ومسئولية كليبر نفسه ، لأن داماس كان صاحب تأثير كبير على كليبر ، وقد استخدم سلطانه عليه فى جر النكبات على الجيش وإلحاق الأذى والدمار بفرنسا ، حتى فقدت الجمهورية كل ما عقدته من آمال على إمكان الوصول فى وقت قريب إلى إبرام الصلح العام فى أوروبا .

تلك كانت حال الجيش الباعثة على اليأس إذن عندما تسلم الجنرال منو زمام القيادة العامة ؛ وكان عليه أن يقوم بعمل حاسم لاستئصال كل هذه المفاسد . وقد صح عزم منو على فعل ذلك . ووصف شانيه ضخامة الجهود التى يتطلبها مثل هذا العمل الحازم فقال : « وإذ فسد أمر كبار رجال الدولة فاضمحل ذلك الروح المعنوى العالى الذى يحول دون انتشار المساوىء وعم البلاء ، بات العمل من أجل القضاء على المفاسد وإرجاع النظام عملا شاقا قاسيا يقتضى جهداً جباراً وهمة فذة عالية . ولذلك فإن ما فعله منو فى مصر لتحقيق هذه الغاية ليشبه تماما ما فعله بونابرت نفسه فى فرنسا . آية ذلك أن ما أدخله منو من ضروب الإصلاح الأولى على الإدارة لينهض

دليلا على أن هذا القائد رجل شريف نبيل قد صح عزمه حقاً على إصلاح الجيش » .
ولما كان شانيه يريد التنديد بمعارضة القواد فقد عزا ظهور هذه المعارضة غير النزيهة
إلى رغبة هؤلاء فى إبطال كل أثر لإصلاحات منو خوفا على مصالحهم ومنافعهم الشخصية
فقال : إن الوجل سرعان ما حملهم على تأليف حزب لتعطيل هذه الإصلاحات ، ثم
أكثروا من عقد الاجتماعات السرية فى بيوت رينييه وهكتور دور وداماس لتدبير
المؤامرات ضد منو ، واشتطوا فى نقدهم له ولأعماله ، ولكن منو لم يأبه لهم ومضى
قدما فى إصلاحاته وخسر هؤلاء ثقة القائد العام فى أشخاصهم ؛ وتوهم القواد أن منو
قد أهمل أمرهم عن ضعف واستخذاء ، وأن طيبة منو دليل على جبنه وخور عزيمته ،
فأرادوا أن يعزلوه من القيادة ، وأوفدوا رسلهم إلى ضباط الحاميات فى القاهرة يجسون
النبض تمهيداً لهذا الانقلاب .

ثم قص شانيه كيف أن واحداً من هؤلاء الرسل جاء لاستثارته ضد منو حتى
إذا احتدم النقاش بينهما لم يتردد هذا الرسول عن الجهر صراحة بأنه لن يعترف
بالجنرال منو ممثلا للحكومة الفرنسية فى هذه البلاد ، وأنه سوف لا يدين بالطاعة لغير
الجنرال رينييه وحده إذا حدث انقسام فى الجيش . وقد استمرت هذه الدسائس كما قال
شانيه حتى جاء أمر بونابرت بتثبيت منو فى القيادة ، فقطع هذا « الأمر » دابرها ،
وإن كان لا يزال هناك طائفة من أولئك الذين أضمروا العداء لمنو وجيش الشرق
بأسره ، وصمموا فى إصرار وعناد على عدم نسيان الماضى ، وحقدوا على منو أنه
كشف عن نواياهم السيئة للقنصل الأول . ولذلك فقد توسل شانيه إلى بونابرت أن
يستدعى إلى فرنسا كل أولئك الذين يعرقلون بأعمالهم نشاط قائد الحملة العام ،
لما يترتب على استدعائهم من صون المصلحة العامة وتأمين جيش الشرق على
سلامته فى مصر .

واستمرت الحملة ضد « ذكرى » كليبر وضد الكليبريين عموما ، فكتب
لاجرانج[1] رئيس هيئة أركان حرب الجنرال منو ، ومن أخلص أصدقائه ، إلى بونابرت
فى ١٩ يناير ١٨٠١ يهدم سمعة كليبر ويندد بسياسة الجلاء عن مصر ، فقال عن كليبر :
إنه « رجل عرفت أوروبا عنه كما عرف العالم أجمع أنه أراد إخلاء مصر والخروج من
هذه البلاد ، وأنه ظل يعمل لتحقيق هذه الغاية حتى مماته » . ولما كان انتصار
هليوبوليس قد أكسب كليبر صيتا بعيداً فقد حاول لاجرانج هدم هذا الصيت العسكرى

---

(١) Richardot 458 — 62 (Pièce No 28) ; Rigault 268 — 9

فنفى أن كليبر نفسه كان صاحب الفضل فى هذا الانتصار الذى تم بالرغم من الأوامر التى أصدرها يطلب فيها من الجيش عدم الاشتباك مع العدو فى قتال أو الالتحام معه فى أية معركة . وفضلا عن ذلك فإن سبب الانتصار الحقيقى كان وقوع « حادث مفاجىء » فى أثناء القتال أفضى إلى النصر الذى أكسب جيش الشرق مجداً وفخاراً ، فى الوقت الذى ظل فيه ذلك القائد المتردد ، الذى أحب السلام دائما يطلب المفاوضة مع العدو . وعزا لاجرنج رغبة كليبر فى الجلاء عن مصر ، وكل ما ترتب على ذلك من أخطاء وقع فيها هذا القائد ، إلى حقيقة واحدة هى أن استيلاء الفرنسيين على هذه البلاد كان من فعل بونابرت نفسه « وأحد فتوحاته » . أما إذا حرم جيش الشرق من قيادة منو فإن مصر لا محالة واقعة فى قبضة العدو بعد شهر واحد فقط من هذا الحرمان .

تلك صورة لنوع الحملات التى كان يشنها كل فريق على الآخر . ومنذ أن اعتزم الجنرال منو المضى فى حملاته ضد القواد المعارضين جهراً وعلانية صار إخفاء أمر هذا الانقسام والشقاق على الجيش متعذراً ، فشاعت أخبار الخلاف بين الجنود ، واشترك صغار الضباط فى النزاع القائم ، ونشطت أعمال الجاسوسية فصار كل فريق يتجسس على الفريق الآخر ؛ وبدأ عهد من الذعر والخوف والكراهية والجبن ، حتى ملك الفزع قلوب كثيرين ، وبات العقلاء يخشون أن يفضى ذلك كله إلى نتائج وخيمة [1] . وزادت الكراهية بين منو والكليبريين عندما أنجب قائد الحملة من زوجه المسلمة الرشيدية ولداً فى ٧ فريمير من سنة الجمهورية التاسعة (٢٧ نوفمبر ١٨٠٠) ، فسماه سليمان مراد منو وكان اختيار اسم سليمان اختياراً غير موفق لمطابقته لاسم سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر . فقد اتخذ الكليبريون من هذه التسمية دليلا آخر على كراهية منو لسلفه فى القيادة ، وعلى أن منو قد قرر البقاء فى مصر بصورة لا تحتمل شكا أو جدلا . فاتهمه القواد بأنه إنما يريد البقاء فى مصر والابتعاد بها عن محيط السياسة الأوروبية حتى يجعلها بمنأى عن تقلبات الحوادث فى أوروبا ، مستخدما جيش الشرق فى هذه البلاد لتحقيق مآربه [2] . وعندما أصدر منو أمراً يوميا فى ٣١ ديسمبر ١٨٠٠ بتخصيص الجزء الأكبر من الأموال التى جمعت لإقامة نصب تذكارية لكل من ديزيه وكليبر معاً

---

(١) Malus 199 — 200

(٢) Rigault 267

للاسراع فى تشييد النصب الخاص بالجنرال ديزيه[١] ، ثبت لدى الـكليبريين أن منو ما عاد يهتم بإخفاء عدائه لهم .

وفى فبراير ١٨٠١ حدث عند إذاعة خبر القبض على تاليان أن اتهم أحد أنصار منو فى اجتماع كان يضم بعض أصدقاء الـكليبريين كلا من رينييه وهكتور دور إلى جانب تاليان نفسه بتحريض الجيش على الثورة ، ونقل الخبر إلى الجنرال رينييه . وكان مما زاد الطين بلة أن راجت الإشاعات وقتئذ كذلك بأن الجنرال فيال عند رحيله من الإسكندرية كان قد هدد الـكليبريين بأنه سوف يطلع القنصل الأول على « الشيء الـكثير » من أخبار الفرنسيين الذين نصبوا أنفسهم لمناوأة الاستعمار فى مصر . وفضلا عن ذلك فقد عمد منو من مدة قريبة إلى توجيه التهم إلى رينييه — وكان يحكم إقليم الشرقية ومكلفا بمراقبة الحدود السورية — فنسب إليه التهاون والتفريط فى أداء واجبه . حتى أنه ترك العربان يذهبون بالمؤن إلى الجيش العثمانى بقيادة الصدر الأعظم . ثم اتسعت شقة الخلاف بين منو وقواده عند ما ذاع فى مصر خبر تلك الخطابات والتقارير التى أرسلها منو إلى فرنسا ثم نشرتها الصحف الفرنسية ، وكانت تزخر بعبارات المديح والثناء على إدارة منو النشيطة المصلحة فى مصر ، فانبرى رينييه وزملاؤه يدحضون هذه « المفتريات » على زعمهم ، وصاروا ينقدون بقسوة ومرارة أوامر منو اليومية إلى الجيش وقراراته ومنشوراته ، كما جرؤوا على تصوير قائد الحملة العام فى صور هزلية مضحكة ، وهزؤوا به وسخروا من كتاباته ، وتهكموا عليه بسبب أسلوبه الخطابى وطريقة حديثه ، ثم أمعنوا فى النكاية به ، فاتخذوا من حياته الخاصة وزواجه من سيدة مسلمة موضوعا للفكاهة والتسلية ، وانطلقوا يسمونه ما شاء لهم الخيال وأملته عليهم الزراية بشخصه أن يسموه به ، فهو تارة « جنرال المخادع » ، وتارة أخرى « الجنرال الثورى » — إشارة إلى نشاطه أيام الثورة فى فرنسا — أو « الجنرال المضحك » ، وهكذا حتى توترت العلاقات بين الفريقين ، واهتاجت النفوس ، وبات من المتوقع أن ينفجر بركان الغضب سريعا وعند أول بادرة . وقد حدث هذا الانفجار عندما أصدر منو فى ٢٣ بليفوز من سنة الجمهورية التاسعة (١٢ فبراير سنة ١٨٠١) أمراً يومياً أحدث ضجة كبيرة ، وكان من أخطر أسباب تفرق الـكلمة ، فى وقت كان لا مناص فيه من الاتحاد لدفع خطر الغزو عن هذه البلاد ، حينما أطبقت جيوش العدو عليها من كل جانب .

---

(١) Ibid 269 (Note. 1)

جازيت دى فرانس (جريدة فرنسا) :

وكان سبب صدور هذا الأمر اليومى أن البريد حمل عدداً من أعداد (جريدة فرنسا) Gazette de France إلى مصر فى غضون شهر يناير ١٨٠١ استرعى انتباه منو لمقال توهم أن أعداءه هم المسئولون عن كل ما جاء به من أخبار وتعليقات كان الغرض منها هدمه وإقصاءه من قيادة الحملة . وكانت (جريدة فرنسا) قد درجت على نشر ما يصلها من همبرج والقسطنطينية عن مصر ونشاط رجال الحملة بها ، فنشرت فى العدد (١٠١٧) الصادر فى ٥ فندمير من سنة الجمهورية التاسعة (٢٧ سبتمبر ١٨٠٠) رسالة واردة من همبرج بألمانيا مؤرخة فى ١٥ سبتمبر تحمل أنباء البريد الإنجليزى الصادر من لندن فى ٥ سبتمبر وقد اشتملت رسالة لندن هذه على طائفة من المعلومات والأخبار المستقاة من الرسائل الواردة إلى لندن من شواطىء الشام ومن الوجه البحرى فى مصر بين ١٠ و ١٥ يوليو ١٨٠٠ ، أى أن مقال (جريدة فرنسا) كان يستند فى جوهره على أخبار واردة من مصر نفسها .

فتحدث المقال عن عقد مؤتمر فى يافا فى ٢٢ يونيه ١٨٠٠ ، حضره الصدر الأعظم والقبطان باشا والريس أفندى والكخيا بك والسير سدنى سميث لبحث الطريقة التى يمكن بها تنفيذ اتفاق العريش ، وقد حمل قراراتهم أحد الضباط فى ليل ٢٣ — ٢٤ يونيه فى طريقه إلى مصر ولكنه سرعان ما وصل نبأ اغتيال كليبر إلى المعسكر العثمانى فى مساء يوم ٢٨ يونيه وانتقال قيادة الحملة إلى منو الذى أبلغ الحلفاء هذا الخبر ولما كان الجنرال منو قد اعتنق الدين الإسلامى وتزوج من مسلمة ويعتقد الأتراك أنه يطمع فى الدخول فى زمرة البكوات المماليك ، فقد ثبت لدى العثمانيين والانجليز أن القائد العام الجديد سوف تشتد معارضته لاتفاق العريش ، آية ذلك أن الجنرال منو كان على رأس حزب الاستعمار فى مصر ، وزعيم المعارضة التى أحتجت على عقد اتفاق العريش أيام كليبر ، ثم إنه استقال من منصبه فى حكم الاسكندرية ورشيد ، واضطر كليبر إلى تعيين الجنرال لانوس بدلا منه . ثم مضى صاحب المقال يقول ، وفضلا عن ذلك فقد لقيت رغبة منو فى البقاء تعضيداً من جانب بونابرت الذى أرسل لهذه الغاية الضابط (لانور موبورج) من نحو ثلاثة شهور مضت . ثم تعززت الرغبة فى البقاء بفضل الانتصارات التى أحرزها الفرنسيون فى إيطاليا ، ولذلك فقد بات مقضياً على كل أمل فى إمكان استمرار المفاوضات للتعارض الواضح بين ما يهدف إليه العثمانيون وحلفاؤهم منها ، وبين رغبة منو الشخصية فى البقاء فى مصر ، ثم ما تهدف إليه كذلك سياسة

القنصل الأول . وقد استند منو فى تمسكه بالبقاء فى مصر إلى أسباب عدة منها تعذر الوثوق بوعود الأتراك ، واغتيال الجنرال كليبر ؛ بل إن منو مالبث حتى قطع كل صلة له مع الأتراك ولم يكتب إلا للسير سدنى سميث وحده ، وقد فهم السير سدنى من كتاب منو أنه وإن كان لا يرفض فكرة استئناف المفاوضة من أجل إخلاء مصر فهو من ناحية أخرى لا يجيز لنفسه اتخاذ أى إجراء فى هذا الشأن دون موافقة القناصل ، أى أن منو يقول إنه كان يعتزم القتال والمقاومة ، « ولذلك فمن الواضح أن تجديد اتفاق العريش قد بات اليوم متعذرا ، إلا إذا حدث أمر واحد هو قيام الجنود الفرنسيين بالتمرد والعصيان ، حتى يتسنى بذلك عزل الجنرال منو وإعطاء القيادة العامة إلى قائد آخر من أنصار سياسة الجلاء عن مصر وإخلائها » ؛ ولـكنه لما كان من المخاطرة أن يعتمد المرء كثيراً على وقوع مثل هذا الحادث فحسب لتنفيذ الجلاء ، فقد بات من واجب الباب العالى أن يفـكر جديا فيما يجب عليه اتخاذه من وسائل فعالة لإخراج الفرنسيين من هذه البلاد بطريق الحرب وامتلاك مصر ثانية . وعلى ذلك فقد صار شغل الباب العالى الشاغل هو إنجاز الاستعدادات اللازمة لإرسال الإمدادات الـكبيرة إلى الصدر الأعظم . وقد استطاع أن يبعث إليه فعلا نحوالى ثلاثة آلاف مقاتل ، ثلثهم من الفرسان ، هذا بينما استأنف القبطان باشا والسير سدنى سميث التجول فى المياه المصرية ، بل إن هناك ما يدل على أن الاتفاق قد تم على تضييق الحصار على الموانى المصرية وتأييد هجوم الصدر الأعظم البرى على مصر من جهة البحر كذلك[1] .

ذلك كان مقال (جريدة فرنسا) ؛ وقد وضح من خلال سطوره أن الفـكرة الظاهرة التى أملت هذا الـكلام كانت تدور حول أمور ثلاثة : (أولها) أن كل أمل قد انقطع فى استئناف المفاوضة من أجل جلاء الفرنسيين عن مصر « سلماً » بسبب وفاة كليبر ، لأن خلفه فى القيادة كان من كبار مؤيدى مشروع استعمار مصر ؛ و (ثانيها) أنه من المتعذر تنفيذ اتفاق العريش طالما كان منو على رأس الحملة ، وأن مصلحة العثمانيين والإنجليز تقتضيهم لذلك أن يقصوا منو من القيادة العامة وهو أمر يصعب تحقيقه من غير قيام جيش الشرق بحركة عصيان خطيرة تنتقل بفضلها مقاليد الأمور إلى قائد آخر من مؤيدى مبدأ الجلاء ، أى من أولئك الـكليبريين الذين تزعموا المعارضة ضد منو كالجنرالات رينييه وداماس ورامبون ؛ و (ثالثها) أن غزو مصر بات متوقعاً فى القريب العاجل بسبب استعداد الصدر الأعظم لبدء هجومه على مصر .

(١) Rigault 272 — 4

وقد اهتم منو بهذا المقال اهتماماً شديداً ؛ وكان مما استأثر بكل انتباهه وسبب له الانزعاج العظيم ذلك الجزء من المقال الذى تحدث فيه صاحبه عن تعذر تنفيذ اتفاق العريش ما دام منو يشغل منصب قائد الحملة العام ، ولا حيلة للخروج من هذا المأزق إلا بحدوث ثورة فى جيش الشرق تسفر عن إقصاء منو عن القيادة وإفساح الطريق لقائد آخر من أنصار سياسة الجلاء . وكان من الطبيعى أن تتجه شكوك منو إلى أعدائه ومعارضيه الذين بذلوا كل ما وسعهم من جهد وحيلة لعزله ، وكان وجه الخطر فى ذلك كله أن أخبار هذا الانقسام قد بلغت العدو الذى بات يعتمد على استغلال هذا الضعف الداخلى ورغبة المعارضين فى العودة إلى الوطن فى تنفيذ مآربه . واعتقد منو أن المسئول عن ذلك هم رينييه وسائر الكليبريين الذين خدموا بفعالهم العدو ضد مصلحة الوطن وإن حدث ذلك بطريق غير مباشرة .

وفكر منو فيما يجب اتخاذه من وسائل لإحباط مؤامرات أعدائه ؛ فقرأ مقال (جريدة فرنسا) على أصدقائه وأنصاره فى ٢١ يناير ١٨٠١[١] ، ثم كتب إلى الجنرال برتييه Berthier وزير الحربية الفرنسية فى ٦ فبراير[٢] يجدد الشكر للقنصل الأول ويؤكد ولاءه وإخلاصه له وولاء « أكثرية الجيش الكبرى » لبونابرت وعزمهم على تنفيذ رغبته فى الاحتفاظ بمصر بكل قوة . ثم تحدث عن مثيرى الفتن والاضطراب فى الجيش وإخفاقهم بسبب انصراف الجنود عنهم ؛ وانتقل من ذلك إلى الكلام عن العدد الذى وصله أخيراً من (جريدة فرنسا) والذى لو قرأ برتييه ما جاء فيه لعرف حقيقة ما يدبره « أعداء المصلحة العامة » من مشروعات هدامة . إلى أن قال « ومع أن هذه الجريدة قد أرسلت إلى من فرنسا فإنى أجهل مرسلها ؛ وعلى كل حال فالواضح الجلى أن أولئك الذين أرادوا تحريك الفتنة والاضطراب فى مصر قد وجدوا وسيلة لإذاعة أخبار مشروعاتهم فى أوروبا ولا جدال فى أنهم يبغون من ذلك التأكد مما إذا كان هناك من يؤيدهم فيما يريدونه » . وقد حمل هذه الرسالة رسول زوده منو بتفصيلات كثيرة يطلع عليها الجنرال برتييه عند وصوله[٣] .

ومع أنه كان يعوز منو الدليل المادى والبرهان القاطع على أن رينييه والكليبريين هم المسئولون حقيقة عن « إذاعة أخبار مشروعاتهم فى أوروبا » ، فقد كان واضحاً من

---

(١) Reynier 143

(٢) Rousseau 396 — 7 ; Ibid 391 — 2

(٣) Reynier 391 ; Rousseau 397 (Note. 1)

ناحية أخرى أن أخبار جيش الشرق كان ينقلها الجواسيس تباعا إلى أوروبا . وبات لزاماً على قائد الحملة عندئذ أن يحذر الجند من أعدائهم الذين يتجسسون عليهم ، كما أدرك أن القضاء على « مشروعات » المعارضة المؤذية ضرورى إذا هو أراد إلحاق الفشل بمشروعات العدو الذى يعتمد فى تنفيذها على وجود الانقسامات الداخلية . ولم يكن هناك مناص إذن من أن يعمل على جمع الكلمة على أساس طاعة الجند لرئيس الحملة وقائد جيش الشرق طاعة تامة ، ووضع كل ثقتهم فى شخصه والاطمئنان إلى قيادته . وعلى ذلك فقد ظل منو يترقب الفرص المؤاتية للقيام بعمل حاسم ضد أعدائه ومعارضيه خصوصاً . وواتته الفرصة عند ما وصلت إلى مصر فى الأسبوع الأول من شهر فبراير أنباء الاعتداء على بونابرت فى باريس ومحاولة اغتياله[1] . وتفصيل ذلك أن فوضوياً كان قد دبر مكيدة فى ٢٤ ديسمبر لاغتيال القنصل الأول وهو فى طريقه إلى دار الأوبرا فوضع فى شارع (سان نيكاز Saint - Nicase) برميلا من البارود فوق عربة ، ولكن البرميل ما لبث أن انفجر بعد مرور بونابرت بلحظات معدودة فنجا القنصل الأول وقتل كثيرون غيره فعظم سخط الرأى العام فى فرنسا واتهم الفرنسيون الإنجليز بتدبير هذه المكيدة حتى يتخلصوا من بونابرت عدوهم الأكبر . فوجد منو فى هذا الحادث ضالته المنشودة لتحذير جيش الشرق من العدو الغادر من جهة ، وللقضاء على المعارضة من جهة أخرى حتى يضمن جمع الكلمة والقضاء على الانقسام .

وعلى ذلك فقد رأى منو أنه إذا عمد إلى إذاعة أخبار هذا الحادث المروع ثم أضاف إليه مقال « جريدة فرنسا » استطاع إذكاء نار الكراهية الشديدة ضد الإنجليز فى صدور جنوده ، وإلهاب حماستهم فلا يعودون يصغون إلى أقوال معارضيه أو يأبهون « لتحريضهم » فأصدر فى ٢٣ بليفوز (١٢ فبراير ١٨٠١) أمراً يومياً إلى الجيش سرعان ما اكتسب شهرة ذائعة فى تاريخ الحملة فى مصر على أيام منو حتى صار يعد بسبب ما ترتب عليه من نتائج وخيمة من أهم العوامل التى قضت على كل اتفاق بدلا من توحيد الصفوف ، والتى مهدت بذلك لانتصار العدو بدلا من إنقاذ مصر وبقاء هذه المستعمرة الجميلة فى حوزة فرنسا .

الأمر اليومى فى ٢٣ بليفوز :

وصف منو فى هذا الأمر اليومى حادث الاعتداء على حياة القنصل الأول ثم علق على هذا الحادث بقوله — موجهاً الخطاب إلى جنود جيش الشرق : « إن الأشرار

(١) Bricard 449

الذين أرادوا اغتيال القنصل الأول قد اعتمدوا فى تنفيذ مآربهم على جماعة أو حزب من الأجانب سواء كان ذلك فى فرنسا أم فى أفريقية أو فى سائر أجزاء أوروبا ، يعملون دون هوادة لقلب الجمهورية ولا يتورعون فى سبيل ذلك عن استخدام كل الطرق كالقتل العمد وبذر بذور الفساد والتحريض على العصيان والثورة . وقد شخصت أبصار هذه الجماعة إلى مصر فجرؤوا على الظن أن فى وسعهم أن يحيدوا بكم عن طريق الشرف والصواب . . . ولقد رأيت أن أذكر لكم شيئاً وأضع تحت بصركم وناظريكم ذلك المقال الذى نشرته (جريدة فرنسا) . وإليكم نص هذا المقال بأكمله . . . »
ثم أثبت منو المقال برمته ، واختتم أمره اليومى بقوله : وإنه ليحق لى دون ريب أن أحنق حنقاً عظيما على أولئك الأجانب الذين تتألف منهم هذه الجماعة ، ولقد صارحتكم القول من اللحظة الأولى التى تشرفت فيها بتسلم قيادتكم أن حكومة الجمهورية فحسب هى التى يسعها أن تصدر الأوامر إليكم بإخلاء هذه البلاد ، كما صارحتكم القول بأن إخلاصكم للوطن يتطلب منكم أن تبذلوا فى سبيله كل تضحية . فإذا كان الواجب يقضى علينا بالهلاك والفناء فى مصر هلكنا وفنينا جميعا ، ونحن ما نزال فى عداد أولئك الجمهوريين الذين قاموا بكل واجب عليهم . ولا ريب فى أننا سوف نفقد أمام العالم أجمع كل شرف إذا تركنا هذه البلاد دون أن يصلنا فى ذلك أمر حكومى صريح . ومع ذلك فلا حاجة بى للتحدث إليكم باستفاضة عن هذه المبادىء وأنتم الذين تعرفون معانيها السامية بقدر معرفتى أنا لها . ولكننى ما قصدت من حديثى معكم إلا توضيح مبلغ خيانة أعدائكم وغدرهم ثم إرشادكم إلى ما يلجأ إليه أعداؤنا من وسائل دنيئة لقلب الجمهورية وهدمها [١] » .

وكان منو على حق فى تحذيره جيش الشرق من الانسياق وراء « المحرضين » وتذكير الجنود بواجب الطاعة المفروضة عليهم لقائد الحملة . فقد كان معروفا وقتئذ أن ثمة مراسلات تجرى بين الشاطىء المصرى وبين السفن الإنجليزية فى عرض البحر لإبلاغ السير سدنى ما يقع من حوادث فى داخل البلاد ؛ كما ذكر بليار فى خطاب له إلى منو أنه عثر على منشورات مهيجة فى القاهرة [٢] . وفضلا عن ذلك فقد ذكر الشيخ الجبرتى فى حوادث ٩ رمضان ١٢١٥ (٢٤ يناير ١٨٠١) أن العثمانيين كانوا يراسلون « سيدى محمود وأخيه سيد محمد المعروف بأبى دفية » كما كانت ترد الرسائل إلى سيدى

---

(١) Rigault 275 — 6
(٢) Ibid 276

محمود عن طريق السيد أحمد المحروقى « فكان يقصد إلى قليوب ويتلقى ورود القاصد ويرد له الجواب » ، بل إن سيدى محمود (أو محمود أفندى) كان يتلقى إلى جانب ذلك بعض المنشورات المكتوبة بالفرنسية « لتوزيعها ووضعها فى أماكن معينة حيث سكن الفرنساوية » . ووقف منو على حقيقة ذلك كله[١]. ومن ناحية أخرى كان هذا الأمر اليومى يتضمن نفس المبدأ الذى جاء به (نداء) منو القديم إلى جيشه فى ٢٢ يونيه ١٨٠٠ من حيث مطالبة الجنود بالطاعة التامة لقائد الحملة ، وترك تقرير الجلاء عن مصر أو البقاء بها فى يد حكومة الجمهورية . فلم يأت أمراً جديداً .

ومع ذلك فقد أثار هذا الأمر اليومى ثائرة القواد عند ما أخذوا يقرؤونه بإمعان وتدبر خـلال الثلاثة الأيام التالية (٢٣ — ٢٥ بليفوز) ويقلبون وجوه الرأى فى محتوياته . ثم ذهبوا إلى أن منو إنما كان يشير إليهم وحدهم عند ما تحدث عن أولئك الذين اعتمد عليهم الحزب الأجنبى فى قلب الجمهورية وهدمها وتحريض جيش الشرق على العصيان والثورة . بل ذهب بهم الوهم كل مذهب فتخيلوا أن منو وحده هو صاحب هذا المقال الذى نشرته (جريدة فرنسا) والذى تضمنه أمر منو اليومى . فكتب رينييه تعليقا على ذلك كله « إن إشاعات ذاعت فى فرنسـا عن وجود حزب مناهض للاستعمار فى مصر قوامه كل أولئك الذين تمتعوا بثقة كليبر ، ثم ما لبثت هذه الإشاعات أن ازدادت رواجا عند وصول الرسائل والتقارير إلى فرنسا من مصر ، كما نشرت الصحف الفرنسية بعض المقالات فى صور رسائل واردة إليها من بلدان أجنبية . وذلك لتأييد هذه الترهات بدعوى أن العدو نفسـه كان واقفا عليها ويعلم بأمرها . ومن الواضح أن الجنرال منو كان يجد فى ذلك وسيلة لاتخاذ الحيطة لنفسه ، (حتى يضيع أثر ما يكتبه معارضوه ضده) ، وحتى يثير عاصفة من الشبهات حول نفر كان فى استطاعتهم وحدهم أن يفضحوا أمره[٢] » . وفسر رينييه مقال (جريدة فرنسا) تفسيراً يختلف تماماً عما ذهب إليه منو نفسه فقال : « إن هذا المقال قد أفرغ فى قالب يوحى بأن كاتبه ضابط إنجليزى ، لأن الغرض من كتابته لم يكن سوى إظهار الجنرال منو فى صورة أكثر القـواد صلاحية لتولى مهمة الدفاع عن مصر ، وأنه لن يتسنى للعدو استرجاع هذه البلاد إلا إذا قام جيش الشرق بالثورة وأقصى منو من القيادة

(١) الجبرتى ٣ : ١٥٢

(٢) Reynier 141

واستبدل به قائد آخر للحملة من بين الجماعة التى ناوأت الاستعمار على زعمهم والتى ادعوا وجودها زوراً وبهتانا [١] » .

وكان مما حمل القواد على الاعتقاد بأن منو هو صاحب هذا المقال الذى أراد من نشره فى فرنسا تلطيخ سمعتهم بين مواطنيهم أنه حدث أن عرفت فى مصر وقتئذ الصحف الفرنسية التى نشرت كل تلك الرسائل الرسمية التى بعث بها منو إلى فرنسا فى غضون شهر يوليو ١٨٠٠ وكان المركب الفرنسى (أوزيريس) الذى غادر هذه البلاد فى ١٠ يوليو قدحمل هذه الرسائل إلى فرنسا . فاعتقد رينييه وزملاؤه أن منو قد عمد إلى إرسال هذا المركب سراً من الاسكندرية حتى يذيع فى أرض الوطن أنباء تأليف حزب مناوىء للاستعمار من أولئك الذين عرفوا بتأييدهم لاتفاق العريش .

ولما أن تضافرت كل هذه العوامل لإقناع القواد المعارضين أن منو إنما كان يعمل لإلحاق الأذى بهم وإهانتهم وتحطيم سمعتهم فى مصر وفرنسا معاً وإثارة كراهية القنصل الأول ضدهم ، صح عزمهم على أن الوقت قد حان للعمل ونبذ الصمت ظهريا ، «لأن الضرر — كما قال رينييه — قدأصبح الآن ظاهراً واضحاً» . ولا سبيل إلى المراءاة والمداهنة إذا شاءوا تجنبه . وعلى ذلك فقد بادر هؤلاء بتحرير خطابات شديدة اللهجة إلى منو يطلبون فيها أن ينفى القائد العام عنهم رسميا كل تلك الاتهامات التى ألصقها بهم دون حساب بطريق غير مباشر ، كما هددوه بإذاعة هذه الخطابات ونشرها على الملأ إذا هو أحجم عن تكذيب الاتهامات الموجهة ضدهم [٢] . فنشأت من ذلك حال غريبة حقا عند ما شغل القواد ورئيسهم بتبادل الرسائل فى الفترة التالية وإرسال الخطابات إلى أصدقائهم وإلى القنصل الأول فى فرنسا فى وقت كان العدو قد اتخذ أهبته للانقضاض على البلاد وغزو مستعمرتهم براً وبحرا .

فقد بعث رينييه بكتاب إلى منو فى ١٤ فبراير ١٨٠١ [٣] يتساءل فيه عن الغرض الذى حدا بقائد الحملة العام إلى إصدار أمره اليومى (فى ٢٣ بليفوز) ، ويطلب إيضاحا كاملا لمعنى نشر تلك الرسائل التى يقال إنها صادرة من انجلترة ، بعد وصف حادث الاعتداء على حياة القنصل الأول ، كأنما يقصد منو من ذلك إلى أن هناك عدداً من الأفراد فى جيش الشرق لا وطنية ولاشرف لهم يحولان دون انضمامهم إلى أعداء

---

(١) Ibid 143

(٢) Ibid 144

(٣) Ibid 176 — 8

الجمهورية ، مما الحق أكبر الأذى بسمعة هذا الجيش . وفضلا عن ذلك فقد طلب رينييه من منو أن يقولها كلمة صريحة إذا كان يرغب فى رواج هذه الإشاعات الكاذبة عن رينييه وزملائه ؛ على أنه لما كان ماحدث قد سبب لهم الإهانة فقد بات لزاما على منو أن ينفى نفياً قاطعاً كل تلك الأقوال التى جاءت فى أمره اليومى . أما إذا امتنع منو عن فعل ذلك فإن رينييه سوف يرى لزاما عليه هو الآخر حينئذ أن يبعث بصورة من كتابه هذا إلى جميع ضباط وجنود الحملة مع مذكرة صغيرة تبسط فى صدق ودون مواربة حقيقة تلك الخطوة التى قام بها القواد فى ٦ بريمير الماضى . وقال رينييه فى ختام رسالته وإذا كان لدى منو بوصفه القائد العام السلطة اللازمة والوسائل الكفيلة بنشر مايريد وإذاعته فإن لدى رينييه وإخوانه كذلك أقلامهم يشرعونها فى وجه منو وفى وسعهم أن يجدوا من الوسائل مايكفل إطلاع الجيش وإطلاع الوطن على حقيقة الأمر والواقع .

وفى اليوم التالى (١٥ فبراير) بادر كل من داماس ولانوس وبليار بعرض شكاويهم فأكد داماس[1] أنه لاوجود لجماعة مناوئة للاستعمار فى مصر إلا فى مخيلة منو فحسب أما إذا كان منو يريد من نشر مقال (جريدة فرنسا) إلحاق الأذى بمعارضيه فإن داماس لن يحجم من جانبه عن إعلان خديعة منو وغدره على الملأ وإظهار أعداء الجمهورية الحقيقيين . ونسج لانوس على منوال داماس ، بل كان أقسى لهجة منه عندما اتهم منو صراحة بأنه كان صاحب المقال ، وقال إن الأسلوب الذى أفرغ فيه مقال جريدة فرنسا ليدل دلالة واضحة على مقدار مابلغه خبث صاحبه وخداعه . « ذلك أنه إذا أمعن القارىء النظر فى تلك العناية المصطنعة التى أراد صاحبها أن يصور (منو) فى صورة من استقال من حكومة الإسكندرية ورشيد وقت اتفاق العريش ، بينما يعرف جميع الناس الظروف التى تسلم فيها (لانوس) حكم تلك الجهات من (منو) قبل هذا الاتفاق بثلاثة شهور على الأقل ، وكيف أن (منو) قضى هذا الوقت بل كل الوقت الذى حاصر فيه العدو القاهرة قابعاً فى رشيد برغم كل ما وصله من أوامر لاستدعائه إلى مكان آخر — لأدرك القارىء حقيقة صاحب المقال وعرف كاتبه » .

وعرض لانوس لأسباب كراهية منو له ، فعزاها إلى ذلك الاستياء الذى أظهره لانوس من تسلم منو لقيادة الحملة ، فكانت هذه الكراهية مصدر جميع المؤامرات التى دبرها منو ضده وجميع ما ألقى من شبهات لتشويه إدارته ، حتى استدعى هو الآخر

---

(١) Richardot 462 — 4 (Pièce No. 29)

من حكومته إلى القاهرة . ثم قال متوعداً : « ولكن فلينتظر منو مايفعله لانوس به عندما ينشر على الناس قاطبة كل مايعرفه عن خبث منو ومكره وخداعه ! » . وشذ بليار عن زميليه فكان أقرب إلى الاعتدال فى لهجته ، فطلب من منو « إيضاحاً صادقاً » عما إذا كان هناك حزب مناوىء ، حقا للحكومة فى مصر ، وتساءل عما إذا كان منو يعتبره من أعضاء هذا الحزب إذا وجد . واستند بليار فى طلب هذا (الإيضاح) إلى ضرورة هذا العمل من أجل جمع الكلمة وتوحيد الصفوف وإعادة الثقة إلى النفوس وهى أمور لاغنى عنها جميعها لضمان نجاح العمليات العسكرية المقبلة واستتباب الهدوء والسكينة[١] .

وكان اتهام منو بأنه صاحب مقال (جريدة فرنسا) اتهاما خطيراً ، وإن كان لايستند إلى شىء من الحقيقة والواقع . وفضلا عن ذلك فقد أثار أمره اليومى الصادر فى ٢٣ بليفوز عاصفة من الاضطراب وهياج الخواطر لم يكن منو يتوقعها . وكان لامناص إذن من العمل لتسكين هذه العاصفة وتهدئة الأعصاب المتوترة . وعلى ذلك فقد بادر منو بالإجابة على هؤلاء القواد فى نفس اليوم الذى وصلته فيه رسائلهم[٢] . وكانت ردوده جميعها مفرغة فى قالب واحد . بدأها منو بإنكار ونفى وجود أية صلة بين مانشره فى أمره اليومى وبين مايشكو منه قواده ، بل أعلن أنه كان مايقصد بتاتا أن يشير فى شىء إلى أحد منهم ، وإنما كان كل ماقصد إليه الإشارة إلى « جماعة من الأجانب » دأبت على العمل من أجل قلب الجمهورية منذ أن بدأت الثورة الفرنسية . ولم تكن هذه الجماعة سوى الإنجليز الذين يريدون تحريض الجيش على الثورة والعصيان والذين أذاعوا المنشورات المهيجة فى القاهرة ، وأنشأوا من مدة صلات وثيقة مع بعض العناصر فى الاسكندرية للوقوف على حقيقه مايحدث فى داخل البلاد . ومن الواضح كذلك أن الانجليز أنفسهم هم الذين كتبوا المقال الذى نشرته جريدة فرنسا .

ومع وضوح هذا الرد وبالرغم من تلك الصراحة التى توخاها منو فى الإجابة على رسائل قواده فإن هؤلاء لم يقنعوا بها . فكتب إليه رينييه فى اليوم نفسه (١٥ فبراير)[٣] أن إجابته لا تشفى غليلا ولا تروى ظمأ لأن منو لم يشأ أن ينفى بصورة رسمية كل تلك المفتريات التى أذيعت فى الجيش والتى صدر أمر ٢٣ بليفوز اليومى على مايبدو لتأييدها

(١) Rigault 279 — 81

(٢) Rousseau 397 — 8

(٣) Reynier 178 — 9 ; Richardot 464 — 5 (Piéce No. 30)

أما إذا كان الانجليز يبغون من نشر هذا المقال إثارة الاضطراب فى جيش الشرق فقد نفذ منو مأربهم عندما أذاع المقال فى أمره اليومى ؛ ولامراء فى أن الانجليز لا يحجمون عن اللجوء إلى كل ما يحقق أغراضهم لانتزاع مصر من قبضة الجمهورية ، فلا يتورعون فى سبيل ذلك عن حبك خيوط المؤامرات وتدبير المكائد ، ولامراء فى أن الواجب يقتضى منو أن يبذل قصارى جهده لإحباط مساعيهم ومطاردة وكلائهم . ولكن إذاعة الأوامر اليومية على نمط ما جاء فى أمر ٢٣ بليفوز لن يحقق شيئا من ذلك . ثم أشار رينييه إلى كتابه الذى بعث به إلى منو يوم ١٤ فبراير وما تضمنه من « حقائق يعرفها منو معرفة جيدة وله وحده إذا شاء أن يعترف بها وأن يجيب عليها بصراحة تبعث الرضا التام » فى نفس رينييه وزملائه .

ولكن منو لم يشأ « الاعتراف بهذه الحقائق » على النحو الذى أراده رينييه واكتفى عندما كتب له فى اليوم الثانى (١) بأن صار يسترعى انتباهه إلى أن الصالح العام يقتضى وضع حد حاسم لهذا النقاش الدائر بينهما . كما قال إن ما يريد أن يفسر به رينييه ما جاء فى أمره اليومى يتعارض تماما مع نص هذا الأمر اليومى وروحه ، فضلا عن أن منو نفسه لم يكن يفكر وقتئذ فى شىء مما ذهب إليه رينييه بتاتا . ثم ختم كتابه قائلا « ومن الواجب علينا أن لا نشغل أنفسنا فى هذه البلاد إلا بأمر واحد فحسب هو صون المصلحة العامة » .

ولما لم يقتنع رينييه وزملاؤه بهذه الإجابة ، فقد عمدوا إلى إذاعة رسائلهم إلى منو حتى انتشر خبرها فى أوساط الجيش . وقضى القواد علاوة على ذلك الأيام الأربعة التالية حتى يوم ١٩ فبراير فى كتابة الخطابات إلى أصدقائهم فى فرنسا. فبعث رينييه بعدة رسائل إلى برتييه وسان سير ومورو ثم إلى بونابرت ، وكتب داماس إلى دوجا وإلى القنصل الأول ، وأرسل رينييه صوراً من خطاباته إلى منو مع المذكرة التى سبق أن أرسلها القواد مع (أوجست داماس) لتبرير خطوة ٦ بريمير المعروفة ثم صورة من رسالته التى طلب فيها تعيين قائد آخر للحملة بدلا من منو (فى ٢٤ نوفمبر ١٨٠٠) ومن خطابه إلى منو فى ١٥ فبراير ، وحمل هذه الرسائل إلى فرنسا الجنرال فوجيير Fugière والضابط باريه Barré . وطلب القواد فى رسائلهم استدعاءهم من مصر كما حذروا أصدقاءهم من عواقب بقاء منو فى قيادة الحملة كما طلبوا من أصدقائهم أن يبذلوا قصارى جهدهم لاستمالة بونابرت إلى جانبهم . وقضى منو وقته كذلك فى الكتابة

---

(١) Rigault 282

فبعث إلى القنصل الأول برسالة فى ٢٧ فبراير ١٨٠١[١] تحدث فيها « عن أخطاء من المحتمل أن تكون قد وقعت ، وعن خلاف فى الرأى من المحتمل كذلك أن يكون قد حدث ، فيما دار من نقاش حول فتح مصر والاحتفاظ بها ، ولكن مرد ذلك كله إلى تلك الظروف السيئة التى قضى عليها انقلاب ١٨ برميير (الذى أوصل بونابرت إلى القنصلية) فلم يكن منشأ هذه الأخطاء والاختلافات إذن نسيان الواجب أو إغفال صالح الوطن » ثم طلب منو الرأفة والرحمة من بونابرت بأولئك الرجال من جيش الشرق الذين ربما أثاروا شكوك القنصل الأول من ناحيتهم بسبب أخطائهم .

وهكذا أضاع منو وقواده وقتهم الثمين فى كتابة الرسائل والتراشق بالتهم والدخول فى مهاترات لا جدوى منها ولا طائل تحتها ، فى وقت كان الواجب يقتضيهم جميعا أن ينبذوا خلافاتهم ظهريا ، وأن يبذلوا كل ما وسعهم من جهد وحيلة لجمع الكلمة ، والوقوف صفا واحدا أمام عدو يتفوق عليهم فى العدد والعدة ، ويتخذ تدابير واسعة للانقضاض عليهم وطردهم من هذه البلاد التى لم يعرفوا كيف يحتفظون بها ؛ ذلك أن الانجليز كانوا قد أرسلوا حملتهم إلى الشواطىء المصرية بعد رسالة منو الأخيرة إلى بونابرت بأيام قليلة معدودة ، كما تحرك جيش العثمانيين على حدود البلاد الشرقية لغزوها .

(١) Rigault 285

الفصل الخامس

خروج الفرنسيين

تمهيـــد :

كان للخلاف الذى حدث بين الجنرال منو قائد الحملة الفرنسية العام فى مصر وبين الجنرال رينييه ، أكبر القواد الفرنسيين خبرة بفنون الحرب وأعظمهم تمتعا بثقة الجنود بعد وفاة كليبر ، آثار خطيرة قضت على تلك المستعمرة الفرنسية التى أراد منو قبل أى إنسان آخر إنشاءها فى مصر ، وأرغمت الفرنسيين على مغادرة البلاد وسط سلسلة من الهزائم كان الأمل كبيراً فى استطاعة (جيش الشرق) أن يجتنبها ، لو أن التفاهم بين الرجلين كان موجودا . فقد نجم عن انعدام كل تفاهم بين القائدين أن ظل منو يرفض مرة بعد أخرى ما كان يتقدم به رينييه من آراء حصيفة بصدد الدفاع عن (المستعمرة) . فنظر إليها نظرة المستريب الحانق ، لايحيد عن خططه التى رسمها لنفسه ، أو عاونه فيها عدد من الضباط والقواد الذين ماكانوا يرقون بتاتا إلى مراتب الصدارة فى الجيش ، لو أن رجلا غير عبد الله جاك منو كان قائد الحملة العام فى مصر ؛ وفضلا عن ذلك فإن أحداً من معاصريه لم يشهد له بالدراية فى فنون الحرب والقتال . وقد سبب إغفال آراء رينييه ونصائح زملائه الذين انتموا إلى حزبه فشل عمليات الفرنسيين العسكرية فى الدفاع عن القاهرة والإسكندرية ضد جيوش الإنجليز والعثمانيين الكبيرة ، التى استطاعت هزيمة شراذم الفرنسيين المبعثرة فى الدلتا وإرغام القاهرة والإسكندرية على التسليم فى وقت كان بونابرت القنصل الأول يبذل قصارى جهده لنجدة جيش الشرق فى مصر ، ويتخذ العدة لخلاصه ، ثم أفلح فى مسعاه فعقد مع غرمائه الإنجليز (مقدمات الصلح) فى لندن قبل وصول أخبار انهزام منو وعزمه على بدء المفاوضات من أجل التسليم بثمانى ساعات فقط[1] .

وقد يسوغ كثيرون تسليم منو بأن جيش الشرق كان قد نال منه المرض والتعب

---

(١) Rigault 382

وأنهكت قواه الحروب حتى نقصت صفوفه نقصاً ملحوظاً[١] . وذلك دون أن تصله نجدات كافية تسد ثغرته وتقيل عثرته ، فتركته الحكومة الفرنسية يناضل ضد جيوش تفوقه عدداً وعدة . بينما هى قد طالبت قائد الحملة العام بالصمود فترة أخرى من الزمن تمكن حكومة القنصل الأول من عقد الصلح العام فى أوروبا ، واتخاذ وجود جيش الحملة فى مصر وسيلة المساومة من أجل الوصول إلى شروط أدعى لتأييد المصالح الفرنسية فى الشرق[٢] . وكان من المحتمل كذلك أن يبقى الفرنسيون فى مصر[٣] فتتوطد أقدامهم فى تلك (المستعمرة الجديدة) التى قر الرأى على إنشائها فى الشرق على أسس (جديدة) تختلف كل الاختلاف عن تلك القواعد التى كان عمل الفرنسيين بها من أهم أسباب ضياع إمبراطوريتهم الاستعمارية القديمة[٤] .

وقد يكون هذا القول سليما فى ظاهره ، ويجد ولا شك مايؤيده بصدد بقاء المستعمرة المصرية الجديدة فى حوزة الفرنسيين لو أنه كان ميسوراً للاستعاضة عن حقائق التاريخ بضروب الافتراض وشق أنواع الاحتمالات ، على أنه لاجدال من ناحية أخرى فى أن منو قائد الحملة العام كان فى وسعه أن يطيل أمد المقاومة ردحا من الزمن لو أنه استمع إلى النصح وأصغى لآراء سائر القواد المحنكين ، وأحسن تصريف الأمور ، وفضلا عن ذلك فإن القول بترك الحملة وشأنها وإقصاء النظر فى مصيرها من تدابير الحكومة الفرنسية اتهام لايستند إلى شىء من الحقيقة، ولايمكن أن يخلى القائد العام من مسئولية التعجيل بخروج الفرنسيين من مصر وفشل تجربتهم الاستعمارية « الجديدة » فى أهم ميادين الشرق الجديدة .

بونابرت وإحياء البحرية الفرنسية :

فقد حرص بونابرت وهو بمصر على أن يظل طريق الاتصال مفتوحا بينه وبين حكومة الإدارة فى باريس . وبذل قصارى جهده من أجل اطلاع أعضائها على أمهات الحوادث فى مصر وتزويدهم بآرائه ، بقصد اتخاذ الوسائل الكفيلة بإمداد الحملة بالجند والذخائر والمؤمن ، وذلك على الرغم من يقظة الإنجليز الذين سهر أسطولهم فى البحر

---

(١) Walsh - App. No. 38 p. 130° ; Wilson 208 — 209

(٢) Bertrand II 418

(٣) Rigault 391

(٤) شكرى : ٥٦ وما بعدها

الأبيض خصوصا لمنع كل اتصال بين جيش الشرق وأرض الوطن . وفى اليوم الذى غادر فيه بونابرت مع عمارة الحملة طولون فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ أمر بإعداد قافلة من السفن المحملة بالإمدادات اللازمة ، على أن يخرج قسم منها فى آخر مايو يحمل ألفا من الجند إلى جانب المؤن والذخائر ، بينما تغادر الميناء سفينتان مسلحتان من السفن التى استولى عليها الفرنسيون من جمهورية البندقية حوالى ١٠ يونية(١) .

وقد قام بالإشراف على تجنيد هذه القافلة نارجاك Narjac مدير المهمات ، الذى كلفه بونابرت علاوة على ذلك بموافاة الحملة بأخبار الإنجليز من وقت مغادرة الفرنسيين طولون إلى وقت وصولهم إلى الشواطئ المصرية . وانكب نارجاك على عمله بكل همة حتى أنجز إعداد ستة وعشرين مركبا ، واستطاع أن يرسل فى عرض البحر اثنى عشر مركب بريد وصلت أكثرها إلى مالطة سالمة ، وبلغت الشاطئ المصرى فأفلتت من رقابة الإنجليز(٢) . ولما كان الأسطول الإنجليزى دائب الحركة فى البحر الأبيض ينتقل من موضع إلى آخر باحثا عن العمارة الفرنسية ؛ فقد استطاع الفرنسيون الاستيلاء على مالطة(٣) ، ونقل أخبار سقوطها إلى فرنسا مركب محايد تيسر له مصادفة أن يشهد هجوم الفرنسيين على الجزيرة(٤) بيد أن الإنجليز سرعان ما شددوا الرقابة فى البحر الأبيض فاستولوا فى أواخر شهر يوليو على رسائل بونابرت التى بعث بها الفرقاطة (سنسيبل) Sensible ، وتحمل كذلك أعلام فرسان القديس يوحنا ، وأسلاب الحرب التى غنمها الفرنسيون فى مالطة ؛ أما حكومة الإدارة فقد ظلت تجهل تفاصيل الحوادث الحقيقية حتى بلغتها أخبارها عن طريق رسول نزل فى نابولى ، وعندئذ بادرت بكتابة خطاب تهنئة إلى بونابرت فى ٦ يوليو وصل به (لوسمبل) Lesimple إلى القاهرة فى ٩ سبتمبر(٥) .

وكان مما أزعج أعضاء حكومة الإدارة وأقض مضاجعهم تجوال أسطول الإنجليز المستمر فى البحر الأبيض ، وخوفهم من عثوره على العمارة الفرنسية بعد إقلاعها من مالطة ، وما إن بلغهم فى غضون شهر أغسطس نبأ ظهور (نلسن) ثانية فى صقلية

---

(١) Corresp. No. 2586

(٢) Meurthe 28 — 9

(٣) Nelson III 9 — 10, 24 — 5, 37 — 41, 44 — 5

(٤) Jurien de La Gravière I. 359

(٥) Meurthe 29 — 30

(فى ١٨ يوليو) ، يتمون بها بمساعدة النابوليتان ، حتى اطمأنوا بعض الشىء لإمكان إفلات العمارة الفرنسية ، ووصولها بسلام إلى الشاطىء المصرى ؛ ولو أن هذا ما كان يعنى فى الوقت نفسه انتفاء كل خطر على الحملة ، أو أنه فى استطاعة تلك القافلة المجهزة فى طولون الإبحار إلى مصر ، بينما كان (نارجاك) نفسه يفقد كل ثقة فى قدرة هذه القافلة الصغيرة على المرور بسلام ، واختراق نطاق الحراسة الإنجليزية فى البحر الأبيض بل إن حكومة الإدارة ما لبثت أن أصدرت أوامرها إلى (نارجاك) بتسريح أكثر سفن النقل بعد تفريغ المؤن والذخائر منها ، وإعادتها إلى المخازن حتى تحين فرصة استخدام هذه المؤن والذخائر لتموين كورسيكا ومالطة ، بصورة تمكن هاتين الجزيرتين من مقاومة الإنجليز إذا اعتدى هؤلاء عليهما[١]. وظلت حكومة الإدارة تترقب وصول أخبار حاسمة من جانب بونابرت ترشدها إلى ما يجب عليها فعله .

وأدرك بونابرت أهمية تزويد حكومة الإدارة بالأخبار الصحيحة عن سير عمارته الناجح ، ونزول الحملة بسلام على الشاطىء المصرى . فبعث برسولين إلى فرنسا بعد نزول جيش الشرق فى جهة العجمى (٣٠١ يوليو) بأيام قليلة ، ولكنهما لم يستطيعا الوصول إلى فرنسا ، فلم يتجاوز أحدهما فى رحلته مالطة ، بينما وقع الآخر فى أسر الأتراك ، ولما كان العربان قد أفلحوا فى قطع الطريق بين القاهرة والشاطىء فترة من الزمن فقد تعذر على بونابرت إرسال أية أخبار قبل تأمين المواصلات الداخلية ؛ ومع ذلك فقد شاء سوء الطالع أن يقع رسول له بعد أيام فى أيدى الإنجليز (فى ٧ أغسطس) ، فاستولى هؤلاء على عدد من خطابات كانت معه ، ما لبثوا أن نشروها مع غيرها من الرسائل التى وقعت فى أيديهم بعد ذلك . وفى أواخر أغسطس غادر (موتى Mothey) مصر برسائل من بونابرت ، فبلغ أنكونا فى ٢٨ سبتمبر ، ثم باريس فى ١٦ أكتوبر ، فكانت هذه أول ما وصل من رسائل بونابرت إلى حكومة الإدارة رأساً[٢] .

واستطاع بونابرت أن يبعث بطائفة من الأوامر اليومية الصادرة لجيش الشرق ومطبوعات الحملة من وقت وصولها إلى مصر ، مع سفن الدول المحايدة التى سمح لها بالخروج من ميناء الإسكندرية كل مساء من أواخر شهر سبتمبر . ومع أن جزءاً كبيراً من هذه الوثائق قد أتلفه العدو فى أثناء محاولة السفن أن تخترق بها نطاق

(١) Ibid 33 — 6

(٢) Copies of the Original Letters.. (1799); Simon (An VII) ; Meurthe 44, 46.

الحصار البحرى الإنجليزى ، فقد أفلحت السفن فى الإفلات بحوالى خمسين رسالة منها ، نقلتها إلى عدة موانىء أوروبية . وسهل بعد ذلك إرسال هذه الأوراق الهامة منها إلى باريس . وفضلا عن ذلك فقد غادر الإسكندرية (جوليان) Julien ، أحد قومسيرى الحرب ، فى ١٣ أكتوبر يحمل مجموعة كاملة من هذه الأوامر اليومية ، ومطبوعات جيش الشرق المختلفة . وفى ٨ نوفمبر غادر الإسكندرية رسول آخر يدعى ثيبو Thibaut وما إن نزل فى أنكونا حتى بادر بإرسال طائفة من رسائل بونابرت إلى حكومة الإدارة ، فوصلت باريس فى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨[١] .

وقد صادف ورود هذه الرسائل الأخيرة انتشار الشائعات فى باريس عن أن مكروها قد لحق بقائد الحملة العام فى مصر : فمن قائل إنه لقى حتفه فى نضال مع الأتراك تحت أسوار الإسكندرية ، إلى آخر يؤكد وفاته فى أثناء ثورة عنيفة نشبت بالقاهرة وكانت (فينا) مصدر هذه الشائعات التى ذاعت كذلك فى لندن ؛ حتى إن حكومة الإدارة وجدت لزاما عليها ، بعد وصول رسائل بونابرت الأخيرة بيوم واحد فقط ، أن تكتب فى ١٤ ديسمبر إلى الأميرال بليفيل لو بيلاى Plêville Le Pelley ليستفسر فى أنكونا من الرسول (ثيبو) عن حقيقة الحال فى مصر . على أنه سرعان ما هدأ روع أعضاء حكومة الإدارة ، عند ما نشرت (غازيتة فينا) Gazette de Vienne تكذيبا قاطعا لهذه الأقوال ، وأكدت أن أنباء القاهرة لا تشمل سوى قيام الثورة فى القاهرة ، وقتل أحد القواد فحسب[٢] . وما إن اطمأنت حكومة الإدارة على حياة قائد الحملة العام ، حتى شرع أعضاؤها يفحصون ما جاء فى رسائل بونابرت من آراء ومقترحات ذات صلة بموقف الحملة وجيش الشرق من الناحيتين السياسية والعسكرية خصوصا[٣] .

وقد تحدث بونابرت فى رسائله عن هزيمة أبى قير البحرية ، وتأكد لدى أعضاء حكومة الإدارة هول الكارثة من المعلومات التى أمدهم بها (بلانكيه دى شايله) Blanquet de Chayla ؛ وكان أهم ما لفت نظر حكومة الإدارة إصرار بونابرت على إنشاء أسطول جديد فى البحر الأبيض ، يتألف من السفن الثلاث التى نجت من موقعة أبى قير البحرية ، والست التى بقيت فى طولون وأنكونا ، وإحدى سفن البندقية

---

(١) Meurthe 67

(٢) شكرى ١٨٤ — قتل فى هذه الثورة ديبوى وسلكوسكى .

(٣) Meurthe 67 — 9

واستبدل به قائد آخر للحملة من بين الجماعة التى ناوأت الاستعمار على زعمهم والتى ادعوا وجودها زوراً وبهتانا[١] » .

وكان مما حمل القواد على الاعتقاد بأن منو هو صاحب هذا المقال الذى أراد من نشره فى فرنسا تلطيخ سمعتهم بين مواطنيهم أنه حدث أن عرفت فى مصر وقتئذ الصحف الفرنسية التى نشرت كل تلك الرسائل الرسمية التى بعث بها منو إلى فرنسا فى غضون شهر يوليو ١٨٠٠ وكان المركب الفرنسى (أوزيريس) الذى غادر هذه البلاد فى ١٠ يوليو قد حمل هذه الرسائل إلى فرنسا . فاعتقد رينييه وزملاؤه أن منو قد عمد إلى إرسال هذا المركب سراً من الاسكندرية حتى يذيع فى أرض الوطن أنباء تأليف حزب مناوىء للاستعمار من أولئك الذين عرفوا بتأييدهم لاتفاق العريش .

ولما أن تضافرت كل هذه العوامل لإقناع القواد المعارضين أن منو إنما كان يعمل لإلحاق الأذى بهم وإهانتهم وتحطيم سمعتهم فى مصر وفرنسا معاً وإثارة كراهية القنصل الأول ضدهم ، صح عزمهم على أن الوقت قد حان للعمل ونبذ الصمت ظهريا ، «لأن الضرر — كما قال رينييه — قدأصبح الآن ظاهراً واضحاً» . ولا سبيل إلى المراءاة والمداهنة إذا شاءوا تجنبه . وعلى ذلك فقد بادر هؤلاء بتحرير خطابات شديدة اللهجة إلى منو يطلبون فيها أن ينفى القائد العام عنهم رسميا كل تلك الاتهامات التى ألصقها بهم دون حساب بطريق غير مباشر ، كما هددوه بإذاعة هذه الخطابات ونشرها على الملأ إذا هو أحجم عن تكذيب الاتهامات الموجهة ضدهم[٢] . فنشأت من ذلك حال غريبة حقا عند ما شغل القواد ورئيسهم بتبادل الرسائل فى الفترة التالية وإرسال الخطابات إلى أصدقائهم وإلى القنصل الأول فى فرنسا فى وقت كان العدو قد اتخذ أهبته للانقضاض على البلاد وغزو مستعمرتهم براً وبحرا .

فقد بعث رينييه بكتاب إلى منو فى ١٤ فبراير ١٨٠١[٣] يتساءل فيه عن الغرض الذى حدا بقائد الحملة العام إلى إصدار أمره اليومى (فى ٢٣ بليفوز) ، ويطلب إيضاحا كاملا لمعنى نشر تلك الرسائل التى يقال إنها صادرة من انجلترة ، بعد وصف حادث الاعتداء على حياة القنصل الأول ، كأنما يقصد منو من ذلك إلى أن هناك عدداً من الأفراد فى جيش الشرق لا وطنية ولاشرف لهم يحولان دون انضمامهم إلى أعداء

(١) Ibid 143
(٢) Ibid 144
(٣) Ibid 176 — 8

البحر ، وفضلا عن ذلك فقد أزف الوقت الذى يجب فيه إقناع أسبانيا حليفة الجمهورية بإخراج أسطولها من الموانى التى تظل رابضة فيها دون حراك فترة طويلة من الزمن ، ولما كان بونابرت يعتقد بإمكان إرسال « الحملة الكبيرة » على انجلترا مادام بعيدا عن فرنسا ، فقد نصح بإخراج الأسطول الفرنسى الرابض فى ميناء « برست » وإرساله إلى البحر الأبيض ؛ أما إذا اتضح كذلك أن حكومة الإدارة عاجزة عن « فعل شىء فى إرلندة »(١) فقد يكون من الأفضل أن تنقل هذه الحكومة ميدان الحرب البحرية إلى البحر الأبيض المتوسط ، لأن الحرب فى هذا الميدان سوف تسبب للانجليز صعوبات عدة ، وتكبدهم نفقات جسيمة ، منشؤها اضطرار هؤلاء إلى تموين أسطولهم الكبير فى جزر الأرخبيل ، بينما يفيد الفرنسيون من مراكزهم فى مصر وكورفو ومالطة وإيطاليا ، كقواعد يديرون منها رحى هـذا القتال البحرى ، وعلاوة على ذلك فإن الأسطول الفرنسى سوف يجد فى الإسكندرية ملجأ يقيه شر مطاردة العدو عند الحاجة إذ أظهر قياس أعماق المياه فى هذا الميناء خطأ (برويس) السابق ، وأثبت صلاحية الميناء لاستقبال السفن ذات الحمولة الكبيرة .

ثم انبرى بونابرت يقيم الحجة على ضرورة اتخاذ كورفو قاعدة هامة يرتكز عليها الأسطول الفرنسى لمراقبة سفن العدو ، وشل حركتها من جهة ، ولأن جمع الأسطول فى جزر الأيونيان يتيح الفرصة من جهة أخرى لمراقبة الباب العالى . ومع أن بونابرت ما كان يعترف وقتئذ بإقدام الباب العالى على قطع علاقاته مع الجمهورية ، فقد ساورته الشكوك من ناحية العثمانيين ، حتى إنه كان يتوقع نشوب الحرب معهم ، مما جعله يكرر القول بضرورة ذهاب تاليران إلى القسطنطينية ، ثم إرسال برنادوت Bernadotte فى الوقت نفسه على رأس قوة إلى كورفو لغزو المورة وألبانيا فى حماية الأسطول المزمع إنشاؤه ، حتى يحتجز أكبر قوة مستطاعة من قوات العثمانيين فى أرض المورة .

وقد كان بونابرت محقا ولا شك فى آرائه بصدد إرسال أسطول فرنسى إلى كورفو فإن (ديبوا) Dubois مندوب حكومة الإدارة فى كورفو لم يلبث أن بعث هو الآخر فى ٧ ديسمبر بتقرير إلى حكومته ، يتحدث فيه عن أجدى الوسائل التى يرتئيها لبقاء « ترس » الأدرياتيك ومعبره فى حوزة الفرنسيين ، وذلك بإدخال أسطول من عشر

---

(١) Douin. 27

بوارج أو اثنى عشرة بارجة فى هذا البحر لمطاردة العدو ، وإرسال أسطول مثله إن أمكن ذلك إلى كورفو حتى يحمل النجدات إلى مصر . وقد وصل تقرير (ديبوا) إلى حكومة الإدارة فى ١٠ مارس من العام التالى ، فلم يكن له تأثير مباشر على قرارات الحكومة . ومع ذلك فقد كان من الواضح ، أن الفكرة الجوهرية فى رسائل بونابرت ، والتى ما كان فى وسع حكومة الإدارة أن تتجاهل أهميتها ، هى إحياء تلك البحرية التى تحطمت فى موقعة أبى قير البحرية ، وفضلا عن ذلك فقد رسم بونابرت الطريق الذى وجب سلوكه من أجل إحياء هذه البحرية أولا ، وتأمين جيش الشرق فى مصر ثانية[1] ، وأضحى لزاما على حكومة الإدارة أن تتدبر الموقف بصورة جدية

سياسة حكومة الإدارة :

وكان واضحا من مبدأ الأمر أن إنشاء الأسطول الذى اقترحه بونابرت من السفن التى ذكرها فى رسائله تحول دون تحقيقه صعوبات عدة ، منها أنه لم يكن لدى الجمهورية من بقايا أسطول برويس سوى ثلاث سفن فحسب ، منها سفينتان محاصرتان فى مالطة ولا معدى عن بقاء السفينة الثالثة فى كورفو للاضطلاع بمهمة الدفاع عن هذه الجزيرة ، وفضلا عن ذلك فإن سفن البندقية التى ذكرها بونابرت كانت لا تصلح للخدمة العسكرية مع الحاجة إليها ، إلى جانب ذلك فى نقل المؤن إلى الجزر التى ظلت فى حوزة الفرنسيين فى البحر الأبيض ، أما السفن الموجودة فى طولون فكانت معدة لتموين مالطة ، بينما أخواتها المجهزة فى أنكونا تستعد للإبحار منها إلى كورفو بقيادة أمير البحر (بليفيل لوبيلاى) الذى صدرت إليه الأوامر فى ٤ أكتوبر بضرورة إعدادها لهذه الغاية ، ودأب (لوبيلاى) على تسليحها منذ وصوله إلى أنكونا فى نوفمبر ؛ أضف إلى ذلك أن سفن البندقية الثلاث لم تكن صالحة للملاحة فقد فشلت جميعها (فى ديسمبر) فى حمل النجدات التى أرسلت بها إلى مالطة وكورفو ، واضطرت إلى النكوص على أعقابها بسبب دخول المياه فى بطونها قبل بلوغ غايتها ؛ وعلى ذلك فقد رفضت حكومة الإدارة هذا المشروع على اعتبار أنه غير عملى ولا سبيل إلى تنفيذه[2] .

على أنه لم يكن هناك شك من جهة أخرى فى أن الحرب لا محالة واقعة مع النمسا ؛ عندما توالت انهزامات الفرنسيين فى إيطاليا فى يونية ويوليو ، وأعلنت نابولى الحرب

---

(١) Corresp. No 3439 : Meurthe 69 - 72

(٢) Meurthe 47 — 8

فى نوفمبر ، واحتلت جيوشها رومة بعد أن أرغم الفرنسيون على الانسحاب منها ؛ وتوقعت حكومة الإدارة ظهور قوات العدو على نهر الراين والأدج ، وانكب أعضاؤها على إنجاز الاستعدادات العسكرية العظيمة بكل سرعة ، ووضعت الخطط الكثيرة لسحق العدو ؛ من ذلك ما اقترحه بعض القواد الفرنسيين — من إرسال جيش إلى أبيروس للزحف عن طريق سالونيك إلى القسطنطينية فى الوقت الذى يكون قد بدأ فيه بونابرت كذلك من جهته بالزحف على العاصمة العثمانية من جهة سوريا ، ولما كانت هذه المشروعات وغيرها أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، ويمنع حكومة الإدارة من هذه المغامرة الخطيرة تضيق نطاق الحصار وقتئذ على جزر الأيونيان التى فى حوزتها فقد وجب على الحكومة أن تفكر فى وسائل أخرى أجدى نفعا وأسلم عاقبة . ووجدت الحكومة أن لامناص لها فى النهاية من العمل بارشادات بونابرت الأخرى ، من حيث إخراج أسطولها المحاصر فى برست ، وإرساله إلى البحر الأبيض ، ثم محاولة إقناع حلفائها الأسبان بضم جهودهم البحرية إلى جهودها ، واستمالة العثمانيين إلى تسوية النزاع القائم بينهم وبين الفرنسيين واستلال سخيمتهم .

وكان مما حمل حكومة الإدارة على إخراج أسطول بروى Bruix من برست وإرساله إلى البحر الأبيض فشلها فى محاولة النزول فى إرلندة ، وانتفاء أى أمل لديها فى إمكان النزول فى انجلترة ، وتسيير (حملتها الكبيرة) على هذه الجزيرة ، مادام بونابرت متغيبا فى القاهرة ، واقتناعها بسبب ذلك أنه من العبث احتجاز الأسطول فى برست دون أى عمل . وكان فشل حكومة الادارة فى ايرلندة فشلا ذريعا ، ذلك أن حكومة الادارة اضطرت إلى إغفال الخطة التى أعدها بونابرت بالاشتراك معها لغزو ايرلندة بسبب قيام المقاطعات الايرلندية الجنوبية بالثورة فى آخر مايو . فقد وجدت حكومة الادارة بعد خروج أكثر سفنها الحربية مع حملة بونابرت إلى مصر ، وما تكبدته من نفقات فى سبيل إعداد العمارة الفرنسية ، أنه من الافضل لها أن تقصر نشاطها على توزيع المال والسلاح على الثوار الإيرلنديين الذين نزلوا فى باريس وهمبورج ، وتجهيز عدد من السفن فى موانى (تكسل Texel) ودنكرك وبرست ولاروشيل ، كانت أهمها الحملة التى تألفت فى برست من بارجة وثمانى فرقاطات ، وضعت جميعها تحت قيادة الجنرال « همبرت Humbert » الذى غادرت قواته الثغور الفرنسية فى ٦ أغسطس ، فبلغت الشواطىء الايرلندية فى ٢٢ أغسطس ، ونزلت فى خليج (كيلالا Killala) فى وقت كان الانجليز قد تمكنوا فيه من إخماد الثورة ، فاضطر (همبرت) إلى التسليم فى ٨ سبتمبر

وعندما خرج بعد ذلك الأميرال (برومبور) Bromport يقصد الشاطىء الايرلندي كان نصيبه الفشل ، وسلمت سفنه للعدو فى ١١ أكتوبر ، ووصلت باريس أخبار هذا التسليم فى وقت كانت قد غادرت فيه فرقاطات أخرى موانى تكسل ودنكرك ، ولاروشيل فقضى العدو على عددمنها وتمكنت الأخرى من الافلات والعودة إلى قواعدها بعد أخطار كثيرة (١) .

وقد تبع هذا الفشل أن اقتنعت حكومة الادارة بعبث القيام بأية عمليات عسكرية فى إيرلندة ، ولما كان رأى أعضائها قد انعقد كذلك على عدم إمكان الصمود فى حرب بحرية ضد انجلترة فى المحيط الاطلنطى ، فقد قر الرأى على إرسال الأسطول الفرنسى بقيادة الأميرال (بروى) إلى البحر الأبيض ، الميدان الوحيد الذى يمكن فيه التعاون بطريقة مجدية بين هذه القوات البحرية والأخرى البرية المقاتلة فى إيطاليا . وكان مما قوى هذه الرغبة لدى حكومة الإدارة وصول رسائل بونابرت التى بعث بها (تيبو) من أنكونا إلى باريس ، وهى الرسائل التى وصلت باريس فى ١٣ ديسمبر ، ويتحدث فيها قائد الحملة على وجه الخصوص عن مزايا وجود بحرية فرنسية قوية فى البحر الأبيض فأصدرت الحكومة أمراً بعد ستة أيام فحسب ، بضرورة تجهيز سفن أسطولها فى برست وإعدادهاللخروج إلى البحر «فى أقرب وقت مستطاع» . وقد بدأ من ثم تسليح سفن الأسطول فى برست وتموينها وجلب الرجال إليها على الرغم من الصعوبات التى أثارها (شيرر) Schérer والعسكريون بسبب حاجتهم الى الجنود ولتعزيز القوات المحاربة فى إيطاليا ، وللقضاء على أية ثورة قد يقوم بها الملكيون(الشوان) Chouans فى مقاطعة بريطانى ، أو زملاؤهم فى مقاطعة (فنديه) Vendée . وعنيت حكومة الادارة ببحث الوسائل التى تمكنها من تعزيز أسطول بروى عند الفراغ من تجهيزه وخروجه الى البحر الأبيض . وتناول هذا البحث مبلغ استعداد حلفاء الجمهورية لبذل هذه المعونة ، وقيمة ماتبذله حكومة الادارة من جهود فى هذه الناحية لاستمالة هؤلاء الحلفاء الى معاونتها .

ومن أول الأمر نبذت حكومة الإدارة فكرة الاستعانة بالأسطول الهولندى لعدم وثوقها بولاء هذا الأسطول ، ولأن (بروى) نفسه مالبث أن قدم تقريراً إلى حكومة الإدارة فى أول فبراير سنة ١٧٩٩ يشكو فيه من سوء نوايا الهولنديين ويسوق الأدلة والبراهين على ميولهم العدائية ، ويخشى من وجود الجواسيس الانجليز فى جزيرة

(١) Corresp. No. 3953 : Ibid 30 — 3

« فالشرين) Walcheren ، وعلى ذلك فقد اكتفت حكومة الإدارة بأن يبقى أسطول « حليفتها » فى مياه (تكسل) ، يشغل الانجليز بالمراقبة المستمرة فى بحر الشمال من جهة ، وحراسة شواطىء إرلندة من جهة أخرى ، خوفا من أن يدبر الفرنسيون بمساعـدة حلفائهم نزولا مفاجئا على الشواطىء الانجليزية والهولندية معاً وفى وقت واحد [1] .

وكان من الطبيعى أن يحوّل الفرنسيون أنظارهم إلى حليفتهم الأخرى أسبانيا ، وكان لهذه اسطول تربض وحداته فى موانى (فيرول) (Ferrol) وقادش (Cadix) ، وقرطاجنه ، (Cartagena) ويقوم الأسطول الانجليزى فى الاطلنطى والبحر الأبيض على محاصرتها من مدة طويلة . وكانت أكثر وحدات هذا الأسطول فى قادش بقيادة أمير البحر الاسبانى (جوزيف دى مزريدو) Mazerredo . وفى ١١ يناير سنة ١٧٩٩ أوضح (بروى) لوزير الخارجية تاليران ، أهمية توجيه الدعوة لأسبانيا حتى تبدأ استعداداتها من أجل تهيئة أسطولها للقيام بعمل مشترك مع الأسطول الفرنسى « فى وقت قريب جداً » فتضع أسبانيا أسطولها فى قادش والموانى الاسبانية الأخرى تحت تصرف الفرنسيين ، فتذهب السفن الموجودة فى (فيرول) الى إحدى الموانى الفرنسية فى المحيط الاطلنطى ، وتذهب أخواتها الرابضة فى قرطاجنة الى طولون ، وتستبدل بأعلامها راية الجهورية ، ولم يكن من رأى (بروى) اطلاع الاسبانيين على الغرض الحقيق من اتخاذ هذه الخطوة أى العمل فى البحر الأبيض المتوسط إلى جانب الأسطول الفرنسى ، والسبب فى ذلك أن الحكومة الأسبانية كانت ترفض من وقت كارثة (أبى قير البحرية) إرسال أسطولها الى البحر الأبيض للتجول فى المياه الايطالية كما رغبت حكومة الإدارة ، بدعوى أن (مزريدو) يعجز عن اختراق نطاق الحصار الذى ضربه (جرفيس) Jervis على قاعدة الأسطول الأسبانى فى قادش ، وتلك دعوى ما كان يغيب عن فطنة حكومة الإدارة إدراك ما انطوت عليه من عوامل الإخفاق السياسى ، ذلك أن أسبانيا بادرت فى الوقت نفسه (سبتمبر سنة ١٧٩٨) بإظهار رغبتها فى إرسال أسطولها للعمل ضد الإنجليز فى إرلندة ، خير ميدان يمكن الحليفتين (أسبانيا وفرنسا) من توجيه ضربة قاصمة إلى انجلترة منه . وتقدم الأسبان بهذه العروض فى وقت كانت قد باءت فيه محاولات حكومة الإدارة فى هذه الناحية بالفشل والخسران ، وكان من

---

(١) Meurthe 77

الواضح أن مشروع غزو إيرلندة سوف يكون نصيبه الإهمال السريع من جانب حكومة الإدارة[١] .

بيد أن إخفاء الغرض الصحيح من دعوة الأسبان إلى تسليم أساطيلهم فى قادش وغيرها للفرنسيين ، سرعان ما أثار اعتراضات عدة من جانب ممثل هذه الدولة فى باريس ورئيس حكومتها فى مدريد ؛ ورفضت أسبانيا رفضاً قاطعاً فكرة تسليم الأسطول ؛ ولم توافق بتاتاً على حرمانها من أسطولها فى قرطاجنة ، فى وقت كانت تريد الاستعانة به فى استرداد جزيرة مينورقة ، التى استولى عليها الإنجليز فى نوفمبر ١٧٩٨ ، على أن أهم ما أثار معارضة الأسبانيين كان إصرار حكومة الإدارة على إخفاء الغرض من عملياتها البحرية المزمعة فى البحر الأبيض[٢] .

وقد زادت صعوبات حكومة الإدارة عندما وجدت الشاطىء الإفريقى فى البحر الأبيض مغلقاً دون سفنها فى وجاقات الغرب : (الجزائر وتونس وطرابلس) ، وكان لبقاء العلاقات الودية بين فرنسا والوجاقات الثلاث نفع كبير كطريق للاتصال بين فرنسا وجيشها فى مصر ، وعقد بونابرت وأعضاء حكومة الإدارة آمالا كبيرة على إمكان إرسال البريد عن طريق الوجاقات ، ولكن الباب العالى ما لبث أن طلب من الوجاقات إعلان الحرب على فرنسا ، وأوفد لهذه الغاية مندوبين إلى الجزائر وتونس وطرابلس ؛ فقبض داى الجزائر على القنصل الفرنسى وصفده بالحديد فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ ، ولم يخلصه من هذه الأغلال سوى تدخل بعض التجار اليهود من أسرة بكرى البيت التجارى فى مارسيليا والجزائر ، وفى يناير من العام التالى قبض الباى على وكيل القنصل الفرنسى فى تونس ، وصودرت بعض السفن الفرنسية فى الميناء ؛ وفعل مثل ذلك أيضاً حاكم طرابلس ، ولما كانت مراكش تستمتع بقدر كبير من الاستقلال ، فقد رفض سلطانها أن يقطع علاقاته مع فرنسا ، ومع ذلك فقد أغلقت مراكش والجزائر وتونس وطرابلس موانيها دون السفن الفرنسية ، سواء لخوفها من الإنجليز أصحاب السيطرة فى البحر الأبيض ، أم نزولا على رغبة الأتراك ؛ وطفق قراصنة الوجاقات يغيرون على سواحل بروفنس والجمهورية الرومانية فى إيطاليا ، واضطرت حكومة الإدارة إلى إلقاء القبض على طائفة من تجار هذه الوجاقات ومصادرة سفنهم ، إلى جانب الإذن بالقرصنة فى المياه

---

(١) Ibid 49 — 53, 78

(٢) Ibid 79 — 80

الإفريقية[١] ، وضاع كل أمل فى إنشاء طريق سهل للمواصلات المنظمة بين فرنسا ومصر من هذه الناحية ، ولم يبق من وسيلة لدى حكومة الإدارة لإيصال بريدها إلى مصر أو نجدانها إذا شاءت سوى محاولة استخدام الموانى الإيطالية .

ومع ذلك فإن استخدام هذا الطريق الإيطالى لم يكن مأمون العواقب ، لأن الفرنسيين لم يكونوا فى هذه الآونة قد أخضعوا كلابريا تماماً لسلطانهم ، وهى أقرب الجهات فى طرف شبه الجزيرة الإيطالية الجنوبى الشرقى إلى مصر ، فضلا عن أن أنكونا ميناء الفرنسيين الهام على الشاطىء الإيطالى الشرقى كانت متوغلة فى بحر الأدرياتيك ، ويفصلها الثوار الطليان ولصوصهم عن سائر مراكز الفرنسيين فى إيطاليا بينما تعتمد حكومة الإدارة على هذا الميناء فى تموين كورفو ، وكان الأسطولان الروسى والعثمانى قد شرعا يطبقان على كورفو الحصار منذ أربعة شهور ؛ وأظهر الروس علاوة على ذلك يقظة كبيرة فى حراسة منافذ الأدرياتيك ، فاستطاعت إحدى فرقاطاتهم أن تأسر مركباً كان قد خرج من أنكونا يحمل (لفرانك) Lefranc رسولا إلى جيش الشرق فى مصر ، مزوداً برسالة من حكومة الإدارة إلى بونابرت بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، فوقع الرسول ورسالته فى يد الروس . غير أن حكومة الإدارة كان لا يسعها إغفال الطريق الإيطالى بعد أن أغلقت الوجاقات موانيها فى وجوه السفن الفرنسية ، واضطرت بسبب تحرج الأحوال فى ميادين الحرب والسياسة فى أوروبا إلى إطلاع بونابرت على كل ماطرأ من حوادث جديدة ؛ فأعدت تقريراً فى ٣ مارس ١٧٩٩ لخصت فيه حوادث الحرب والسياسة الهامة ، وذكرت قيامها بتسليح أربعة وعشرين مركباً فى برست ، دون بيان الجهة التى سوف يقصدها هذا الأسطول بعد استكمال عدته[٢] ؛ وقد حمل هذه الرسالة من أنكونا (راجمى) Ragmey أحد عملاء الحكومة و (ليكوت) Lucotte أحد ضباطها ، ولكنهما ما لبثا أن أخفقا فى مهمتهما عندما ارتطمت سفينتهما الصغيرة بالصخور بعد ذلك ، وعادا أدراجهما إلى أنكونا ، ولم يصل تقرير ٣ مارس إلى بونابرت[٣] .

وفى أثناء محاولة (راجمى) و (ليكوت) الخروج من أنكونا ، كانت حكومة الإدارة قد بذلت جهوداً أخرى لإيصال رسالة ٤ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى بونابرت ،

---

(١) Ibid 84 — 5
(٢) Corresp. Inédite VI 239
(٣) Meurthe 87 — 8

فابتاع (بلفيل) Belville قنصلها فى جنوه ثلاث سفن : إيزيريس Isiris ، أوزيريس Osiris ، سيرابيس Serapis ، وحملت (أوزيريس) وينان مورو أومورفو Winan Moreau (Wynand Mourveau) مزوداً برسالة ٤ نوفمبر ، فغادر وينان جنوه فى ٩ فبراير سنة ١٧٩٩ ، وبلغ أباقير فى السادس والعشرين من الشهر نفسه ، وذهب إلى القاهرة ، فأرسله منها (دوجا) إلى بونابرت تحت أسوار عكا ، فكانت رسالة ٤ نوفمبر سنة ١٧٩٨ أول خطاب وصل إلى قائد الحملة العام من حكومة الإدارة منذ خطاب التهنئة الذى أوصله إليه (لوسمبل)[١] .

وهكذا أسفرت كل جهود حكومة الإدارة فى محاولة الاتصال بقائد الحملة فى مصر منذ تحطيم أسطول بروبس فى أبى قير ، عن إرسال ثلاث سفن ، نجحت واحدة منها فحسب فى الوصول إلى الشواطىء المصرية ؛ ووجه كثيرون اللوم والتأنيب لحكومة الإدارة على إخفاقها ، واتهمها آخرون بعدم الاهتمام بمصير جيش الشرق وقائده ؛ وكان لويس شقيق بونابرت ، الذى بلغ باريس فى هذا الوقت بعد رحلة شاقة (مارس سنة ١٧٩٩) ، من أشد الناقمين على حكومة الإدارة ، واعتقد هو وإخوته الآخرون ، وعلى وجه الخصوص لوسيان Lucien أن الإدارة قد تركت جيش الشرق وشأنه ، وأصر لويس على ضرورة إرسال سفن البريد بكثرة إلى مصر تنقل إلى القائد العام أخبار الوطن ، وبذل قصارى جهده لتأييد آراء بونابرت بشأن تنظيم بحرية قوية فى البحر الأبيض ، وكان لموقف الأسرة الحاسم ، إلى جانب اقتناع حكومة الإدارة بفشل محاولاتها السياسية سواء فى أسبانيا أو فى وجاقات الغرب ، ثم إعلانها الحرب على النمسا (فى ١٣ مارس) ، وتجدد النضال فى إيطاليا وألمانيا ، أكبر الأثر فى حمل هذه الحكومة على إخراج أسطولها نهائياً من برست وإرساله للعمل فى مياه البحر الأبيض[٢] .

خروج بروى من برست :

عين الأميرال بروى قائداً عاماً للقوات البحرية الموجودة فى برست فى ١٤ مارس ، ثم أبلغ فى اليوم التالى تعليمات حكومة الإدارة ، وخولها[٣] الخروج بأسطوله من برست والدخول به إلى البحر الأبيض لتحطيم العدو أو على الأقل لطرده منه ، على أن يتحاشى بروى الاشتباك مع أسطول الإنجليز فى المحيط أو عند قادش ، حتى إذا

(١) Corresp. No. 4382; Jonquière V 666 — 8; Ibid 89

(٢) Meurthe 91 — 3

(٣) Jonquière V 136 Sq.; Ibid (Pièce No. 7)

بلغ جبل طارق ووجد ألا مندوحة عن الالتحام مع العدو حتى يستطيع العبور بسلام ، فعليه حينئذ أن يطلب معاونة الأسطول الأسبانى ، أما إذا سهل عليه المرور فالواجب يقتضيه أن يترك الأسبانيين فى قادش حتى يحتجزوا بفضل عدم تحركهم منها شطراً من أسطول (جرفيس) أمام الميناء ، فتخف وطأة مطاردة هؤلاء للأميرال الفرنسى فى البحر الأبيض . وطلبت حكومة الإدارة من أمير البحر أن يذهب بأسطوله إلى الشاطىء الإيطالى ، كى يحمل من هناك حوالى الثلاثة أو الأربعة آلاف جندى بمؤنهم وذخائرهم ، فينقل أكثرهم إلى كورفو التى كادت تسلم للعدو ، ويترك كذلك بعض الجند فى مالطة ، ويحمل ما بقى من هذه القوة إلى الاسكندرية .

وقد تلاحقت الحوادث بعد ذلك بصورة جعلت من الحكمة وأصالة الرأى التعجيل بخروج الأسطول من برست للعمل فى مياه البحر الأبيض ، ذلك بأن السفينة (سانت جان بابتيست Saint - Jean - Baptiste) وصلت إلى طولون فى ٥ إبريل تحمل رسالة من بونابرت (فى ١٠ فبراير) [1] يتحدث فى ضمنها عن استعداده لبدء حملته فى سوريا ، ويبسط أسباب هذه الحملة ، ووصلت رسالة بونابرت إلى حكومة الإدارة فى ١٢ أبريل ؛ ثم ما لبث أن تأكدت لدى حكومة الإدارة حاجة جيش الشرق إلى بعض النجدة ، عند ما نزل فى طولون أحد ضباط البحرية الكونتر أميرال (بريه) Pérrée ، مع مركبين استطاع أن يخرج بهما من الإسكندرية فى شهر مارس ، محملتين بالجرحى وعدد من الجنود الذين فقدوا قوة الإبصار فى أثناء عملية الزحف المشهور على القاهرة ، وانتشار أمراض العين بين جند الحملة ؛ وفضلا عن ذلك فقد تحدث هذ الضابط عن انتشار الوباء والبؤس فى الاسكندرية ؛ وفرار بحارة (برويس) القدماء من صفوف الجندية . وقد ظلت الأخبار المزعجة تترى بعد ذلك على حكومة الإدارة ، عندما بلغها نبأ فشل الأسطول الصغير الذى خرج من المياه المصرية يحمل مدافع الحصار الثقيلة إلى بونابرت أمام عكا ، فوقعت سفنه فى يد السير سدنى سميث (فى ١٨ مارس [2]) ؛ وتطايرت الشائعات من كل جانب ، ولعل أثقل هذه وطأة على مسامع أعضاء حكومة الإدارة كان إشاعة سقوط كورفو ذاتها فى يد العدو منذ ٣ مارس [3] . وعندئذ قر رأيها على ضرورة خروج أسطول (بروى) من برست دون إبطاء .

---

(١) Corresp. No. 3952

(٢) Barrow I 265

(٣) Meurthe 109

وفى ٢٦ ابريل سنة ١٧٩٩ خرج (بروى) إذن بأسطوله بعد لأى وعناء ، منتهزاً فرصة التراخى فى المراقبة من جانب وحدات الأسطول الإنجليزى ، التى وضعت على حصار برست ، وكان أسطول بروى يتألف من خمس وعشرين بارجة ، وثلاث عشرة خفيفة ؛ وتلك قوة ما كان فى وسع الإنجليز أن يستهينوا بها ؛ وكان مما أقض مضاجع هؤلاء على وجه الخصوص أنهم ظلوا يجهلون مقصد (بروى) ، بفضل الكتمان الشديد الذى أحاطت به حكومة الإدارة أغراضها ؛ فاعتقد الانجليز أن بروى إنما يبغى الذهاب إلى إرلندة ، أو أنه يريد النزول إلى البرتغال حليفة الإنجليز لشن الغارة عليها[1] . واستطاع بروى السير حتى بلغ مياه قادش حيث كان أسطول الإنجليز بقيادة كيث Keith لا يزال واقفا على حصار الأسطول الأسبانى فى مينائها . وعرضت للأميرال الفرنسى فرصة مواتية للاشتباك مع الإنجليز فى معركة كان الأمل كبيراً فى كسبها ، وتخليص أسطول (مزريدو) الأسبانى من حصارهم وإحراز السيطرة الكاملة فى البحر الأبيض بصورة تمكن الفرنسيين من الاستيلاء على سفن الروس والعثمانيين ، وإشاعة الخوف بين وجاقات الغرب ، وإعادة فتح المواصلات مع جيش الشرق ، بل تهديد القسطنطينية ذاتها على حد قول تاليران بالاقتراب من المضايق[2] ، غير أن شيئا من ذلك لم يتحقق بسبب هبوب عاصفة هوجاء ما لبثت أن أرغمت بروى فى ٤ مايو على التوغل فى البحر بعيداً عن غرمائه ؛ فتابع السير إلى جبل طارق دون أن يحدث أى التحام مع الانجليز ، أو يتم ذلك الاتصال المنشود بالأسطول الأسبانى . وفى ٥ مايو دخل بروى إلى البحر الأبيض .

وكان نجاح بروى فى دخول هذا البحر حادثا ولا شك له خطره ؛ ذلك أن وحدات الأسطول الانجليزى فى البحر الأبيض كانت موزعة فى مراكز عدة أمام عكا والاسكندرية وصقلية ومالطة ونابولى ومينورقة . ولا يزال جزء منها رابضا أمام قادش[3] . ولما كان من المتعذر اجتماع هذه القوات المبعثرة سريعا وفى صعيد واحد لمنازلة بروى ، فقد أصبحت السيطرة فى البحر المتوسط من نصيب بروى ولا شك ؛ وكان فى وسع هذا القائد البحرى أن يؤيد هذه السيطرة لو أنه أوتى قدراً كافيا من الجرأة والمهارة ، وواصل السير رأسا إلى مالطة أو الاسكندرية أو عكا . وآية ذلك

---

(١) Douin (Campagne de Bruix) 73, 79, 83

(٢) Jonquière V 160

(٣) Fortescue IV. 2. 637

أن الإنجليز ما بلغهم خبر وجود أسطوله فى البحر الأبيض حتى انسحبوا بسفنهم من أمام مالطة فترة من الزمن ، كانت كافية لتموين حامية هذه الجزيرة . ولكن بروى على لرغم من تفوقه العددى على العدو لم يشأ المجازفة بأسطوله ، وفضل الذهاب تواً إلى طولون فبلغها فى ١٣ مايو ، وأخذ ينتحل الأعذار عن عدم ذهابه إلى مالطة أو غيرها من المراكز التى سبق ذكرها . ذلك بأن بروى كان لا يثق فى صلاحية سفنه للملاحة الطويلة ، واحتمال وطأة النضال الجدى ، ويخشى أن تعرضه مجازفته بالسير إلى مصر خصوصا إلى نفس المخاطر التى أودت بأسطول برويس من قبل ، لأنه كان يعلم حق العلم أن الانجليز سوف لا يتوانون عن جمع شتات وحداتهم المبعثرة ويعنفون فى مطاردته[١] .

ومع ذلك فقد أتاح وجود بروى فى طولون الفرصة لحكومته أن تعهد إليه بعمليات عدة هامة ، لعل أهم ما تجدر ملاحظته بشأنها ، ذلك التغيير الجوهرى الذى طرأ على موقفها من فتوحاتها الجديدة فى مصر بسبب ما لحق بجيوشها من هزائم فى إيطاليا عند استئناف الحرب ضد النمسا (وحليفتها الروسيا) وعلى ذلك فإنه بدلا من التفكير فى إرسال أية نجدات إلى مصر ، وطدت حكومة الإدارة العزم على استدعاء جيش الشرق وقائده إلى أوروبا . وعلى ضوء هذا التحول الجديد أعدت الحكومة تعليماتها إلى بروى وبونابرت فى ٢٦ مايو[٢] ، وكان الأمر الظاهر من هذه التعليمات أن يوجه بروى عنايته قبل أى شىء آخر الى إخلاء الأراضى الإيطالية ، ونقل الجيوش الفرنسية منها ، ثم الذهاب بعد ذلك الى الاسكندرية لنقل جيش الشرق بأجمعه أو أكثره الى فرنسا ، حسبما يتراءى لبونابرت الذى تركت له حكومة الإدارة حرية الاختيار بين الإخلاء التام أو إبقاء جزء من جيشه فى مصر ، اذا عهد فى نفسه القدرة على ترك جزء من جيشه لاحتلال هذه البلاد بأمان[٣] .

على أن مما تجدر ملاحظته أن حكومة الإدارة اشترطت لتحقيق ذلك كله ، على بروى ، قبل أن يبدأ أية محاولة من أجل تموين مالطة أو الذهاب إلى الإسكندرية لإحضار جيش بونابرت إلى فرنسا ، أن يعمل أولا للاتصال بالأسطول الأسبانى ، ذلك

---

(١) Douin 114

(٢) Meurthe 298 (Piéce No. 9) : Jonquière V. 166 — 7 ; Ader 263

(٣) شكرى ٢١٠

أن حكومة الإدارة كانت لا ترى مندوحة عن اتخاذ هذه الخطوة الهامة لضمان السيطرة البحرية للأسطول الفرنسى فى البحر الأبيض (١) . وعلى ذلك فقد غادر بروى طولون فى ٢٧ مايو ، وطوف فى البحر الأبيض فترة من الزمن على شاطىء ليجوريا (جنوه) لنجدة جيش مورو Moreau ، واستطاع الإفلات من مطاردة اللورد كيث ، وساعده التوفيق ، عندما تمكن من الدخول إلى قرطاجنه والاتصال بأسطول الأسبان الرابض بها ؛ على أن (بروى) لم يستطع المجازفة بعد ذلك بالاشتباك مع أساطيل الإنجليز المتحدة بقيادة كيث وجرفيس ؛ وفضلا عن ذلك فقد رفض الأسبان الاشتراك معه فى أية عمليات حربية فى البحر الأبيض . وعندئذ قرر بروى فى ٢٩ يونية الخروج من قرطاجنة إلى قادش ، وفى ٨ أغسطس ألقى الأسطولان الفرنسى والأسبانى مراسيهما فى برست .

وكان لإخفاق بروى فى تحقيق الآمال التى بنيت على خروجه من برست ووجوده فى البحر الأبيض رنة حزن وأسى عظيمين ، لا فى فرنسا وحدها فحسب بل فى مصر أيضاً . فقد ضاعت بسبب إخفاقه فرصة لا تعوض من أجل استعادة تلك السيطرة البحرية التى فقدتها فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط منذ تحطيم أسطول برويس فى أبى قير ، والاستفادة من هذه السيطرة المنشودة فى افتتاح طريق المواصلات بين فرنسا ومصر ، إن لم يكن من أجل إرسال النجدات إلى مصر ، فلا أقل من أن تستطيع حكومة الإدارة نقل جيش الشرق إلى فرنسا للذود عن أرض الوطن (٢) . أما بونابرت فقد نقد فيما بعد بروى نقدا لاذعاً لعدم إسراعه بالسير إلى الشواطىء المصرية بمجرد نجاحه فى المرور بسلام من جبل طارق ؛ وقد قدر بونابرت أن بروى لو فعل ذلك لاستطاع الوصول إلى الليفانت فى وقت اشتداد الحصار على عكا ، ولكان لتدخله فى هذا الظرف المناسب أجسم الآثار على غزوة الشام بل على مصير الحملة (٣) . وأما النتيجة المباشرة لإخفاق (بروى) فكانت أن بدأت حكومة الإدارة تبذل جهوداً أكبر ونشاطاً أوسع مدى من أجل تسوية نزاعها مع تركيا ، والوصول إلى اتفاق معها بالطرق الدبلوماسية يمكنها من استقدام جيش بونابرت إلى فرنسا .

---

(١) Charles - Roux. I. 206 — 7

(٢) Douin 1. : Charles - Roux I 208 — 9

(٣) Bertrand II 121

حكومة الإدارة وتركيا :

وقد تقدم[١] كيف أن حكومة الإدارة كانت تحرص على استبقاء علاقات الود والصداقة مع تركيا ، على الرغم من إرسال الحملة إلى مصر ؛ وأرسلت التعليمات بهذا المعنى إلى (روفان) Ruffin سكرتير السفارة الفرنسية فى القسطنطينية فى ١١ مايو سنة ١٧٩٨[٢] ؛ وبذل روفان فى هذا السبيل ما وسعه الجهد والحيلة ، ولكنه ما إن بلغ تركيا خبر نزول الحملة فى مصر حتى أرغم روفان على عدم مغادرة سراى السفارة ، وصدرت الفرمانات تمنع الفرنسيين من إظهار شعار دولتهم الجمهورية ، ثم أجبر الفرنسيون على عدم مبارحة دورهم والظهور أمام الناس علنا فى وضح النهار . وقد سرد روفان ذلك كله فى تقرير له إلى تاليران فى ١٠ أغسطس ، وصف فيه كذلك موجة التعصب الدينى العنيفة التى اجتاحت جميع الأساكل التى يقيم بها قناصل فرنسيون وقد عزا روفان ذلك كله إلى مكائد الإنجليز والروس ، وحذر حكومة الإدارة من احتمال قطع العلاقات بين تركيا وفرنسا قريباً . وقد وصل تقرير روفان إلى باريس فى ١٢ سبتمبر ، وبادر تاليران بتلخيص هذه الأنباء الخطيرة لإرسالها إلى بونابرت ، وضمن تاليران تقريره إلى قائد الحملة خبر تعيين (ديكورش) Descorches لسفارة القسطنطينية ، وحمل (ديبوا ثانفيل) Dubois-Thainville هذه الرسالة من جنوه إلى أنكونا ، ولكنه عجز عن إيصالها إلى مصر فلم تبلغ بونابرت[٣] .

ولما كان روفان قد أبلغ تاليران فى رسالته نزول بونابرت بجيشه فى مصر فقد أذاعت حكومة الإدارة فى باريس هذا النبأ رسمياً فى ١٤ سبتمبر ؛ وقوبل هذا النبأ بفرح شامل ، ولكنه سرعان ما ذاع فى باريس فى اليوم نفسه خبر كان على جانب عظيم من الخطورة هو تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير ؛ فتبدلت الأفراح أحزانا ، وأرجىء قيام (ديكورش) إلى القسطنطينية حتى يتضح موقف تركيا من فرنسا بعد هذه الكارثة ؛ أما الأتراك فقد ألقوا القبض بعد ذلك على (روفان) والرعايا الفرنسيين وسجنوهم . وفى أول أكتوبر وصلت الأخبار من فينا إلى سفير أسبانيا فى باريس (الشفاليه دى أزارا) de Azara بأن الأتراك قد أعلنوا الحرب على فرنسا غير أن حكومة الإدارة على الرغم من هذه الأنباء المزعجة ، كانت لا تزال تمنى النفس

---

(١) انظر أيضاً : شكرى ١٩٣ — ١٩٧

(٢) Jonquière II 594

(٣) Meurthe 40

بالقدرة على إبقاء الصلات الودية مع تركيا ، فأعد تاليران تعليمات جديدة إلى (ديكورش) فى ٣٠ أكتوبر ، حتى يحول دون قطع العلاقات ووقوع الحرب ، « إذا كان الوقت ما يزال يسمح بفعل ذلك » .

وطلب تاليران إلى ديكورش أن يسترشد فى مفاوضاته ومحاولاته مع الأتراك بمبدأ واحد لا يتغير ، هو « أن حكومة الإدارة تبغى الاحتفاظ بمصر فى حوزتها حتى تتمكن بفضل ذلك من المفاوضة والاتفاق مع انجلترة » ؛ ولتحقيق هذه الغاية ، عليه أن يوضح للعثمانيين أن مدة احتلال الفرنسيين لمصر لن تطول عن مدة الحرب مع انجلترة ، أما إذا ألح الباب العالى فى معرفة مقاصد الفرنسيين ونواياهم ، فإنه فى استطاعة ديكورش أن يعرض على العثمانيين الاقتراحين التاليين : أولهما — وهذا ما كانت ترغب فيه فرنسا أكثر من أى شىء آخر — أن يظل احتلال القوات العسكرية الفرنسية للبلاد ؛ وتستمتع فرنسا إلى جانب هذا بممارسة حقوق فرض الضرائب واحتكار التجارة تحت سيادة الباب العالى الوهمية أو الخيالية (الافتراضية) ؛ وثانيهما أن تستبدل بمصر جزر الأيونيان التى يعتقد الأتراك أن خروجها من حوزة الفرنسيين ضرورى لتأمين اليونان ضد انتشار الآراء الثورية بها ، فى وقت يكثر فيه التذمر والاضطراب فى هذه البلاد . وحدد لقيام ديكورش إلى تركيا عن طريق أنكونا يوم ١٢ أكتوبر . بيد أنه سرعان ما جاءت الأخبار تؤكد إعلان تركيا الحرب على فرنسا فضلا عن جميع الفظائع التى ارتكبها العثمانيون ضد الرعايا الفرنسيين . وعلى ذلك فقد قررت حكومة الإدارة فى ١٥ أكتوبر وقف بعثة ديكورش ومنعه من الذهاب إلى تركيا[١] .

وعظم القلق على بونابرت وجيشه فى مصر ، عندما تلاحقت الكوارث بعضها فى إثر بعض بسبب تأزم الأمور فى مفاوضات مؤتمر رشتاد Rastadt ، الذى انعقد منذ نوفمبر سنة ١٧٩٧ للنظر فى شأن الصلح بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة بعد صلح كامبو — فورميو ، واستمر منعقدا طيلة العام التالى دون الوصول إلى نتيجة حاسمة ؛ بل إن العلاقات ما لبثت أن تحرجت بين فرنسا من جانب وبين النمسا وحلفائها من جانب آخر ، حتى انتهى الأمر بإعلان الحرب على فرنسا فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ؛ وأحرز الفرنسيون بعض الانتصارات فى بداية القتال ، ولكن جيوشهم سرعان ما لحقت بها الهزيمة بين مارس ويونية فى ميادين القتال فى ألمانيا وإيطاليا ؛

---

(١) Ibid 42 — 4

ونزل الإنجليز بقيادة دوق يورك فى هولندة ، واستولوا على أسطولها فى (تكسل) وخشيت حكومة الإدارة عندما بلغها نبأ استعداد حملة دوق يورك أن يكون الغرض منها الذهاب إلى مصر وهزيمة جيش الشرق وقائده .

وكان لهذه الكوارث أثران ظاهران : أولهما وضوح الحاجة إلى بونابرت حتى يتولى مهمة الدفاع عن أرض الوطن ؛ وقد بسطت حكومة الإدارة هذه الرغبة فى التعليمات التى أعطتها إلى (بروى) فى ١٥ مارس سنة ١٧٩٩ على نحو ما سبق بيانه ؛ وثانيهما زيادة القلق على مصير الحملة وجيش الشرق فى مصر فى وقت كانت قد باءت بالخسران مساعى الحكومة السياسية ، ومحاولة الاتصال بالحملة ونجدتها أولا ، ثم تدبير أمر قدومها إلى فرنسا أو على الأقل قدوم الجزء الأكبر من جيشها وعودة أسطول بروى إلى برست دون أن يحقق شيئاً من هذا الغرض الأخير فى أغسطس .

وقد نجم عن ذلك أن صار التفكير فى أجدى الوسائل لاستدعاء بونابرت من مصر كل ما يشغل حكومة الإدارة ، فتقدم تاليران فى ٣ سبتمبر سنة ١٧٩٩ [١] بتقرير إلى حكومة الإدارة ، اعترف فيه صراحة بأنه لم يعد فى الإمكان تحقيق تلك المثل العليا والمشروعات الضخمة التى سوغت إرسال الحملة إلى مصر ، وبأن الواجب يقتضى الحكومة أن تبحث جديا الطرق التى تستطيع بها إخراج بونابرت قبل أن تحدق به الأخطار بصورة تجعل من المتعذر بعد ذلك إنقاذه . وأوصى تاليران فى تقريره [٢] بضرورة عقد اتفاق يقوم على إخلاء مصر فى نظير تمكين بونابرت من العودة سالماً إلى فرنسا ؛ ونقل جيش الشرق إلى أرض الوطن على سفن العدو حيث إنه لم يعد لدى فرنسا سفن كافية لنقل جيشها . فإذا أقرت حكومة الإدارة هذا المبدأ ، فالواجب إذن أن تدخل فى مفاوضات لهذه الغاية مع تركيا وانجلترة ، ذلك بأن تركيا هى صاحبة البلاد المصرية ، ولأنه لا يمكن إغفال ما للانجليز من مصالح ظاهرة فى هذه المسألة من الناحيتين التجارية والسياسية ، بسبب وقوع مصر على طريق مواصلاتهم مع الهند ، فضلا عن أنهم أصحاب السيطرة فى البحر الأبيض ، وفى وسعهم بفضل هذه السيطرة البحرية أن يمنعوا الإخلاء إذا شاءوا ذلك وحدث الاتفاق بشأنه على غير رغبة منهم ، وعلاوة على ذلك فإن لدى الإنجليز من السفن ما يكفى لحمل جيش الشرق ؛ وفى

---

(١) Ibid. No. 12 p. 305 — 12

(٢) Ibid 189 Sq

وجودهم ضمان لعدم تعريض الجيش العائد إلى عدوان العثمانيين عليهم ، وهم المشهورون بالغدر والخيانة .

وكان من رأى تاليران أن تظل القسطنطينية ذاتها مكان المفاوضات المزمعة ، على أن يتولاها أحد الوكلاء الأسبان حلفاء فرنسا ، إذ تحول صعوبات الحرب دون إرسال مفاوض فرنسى ، ولما كان منتظرا أن يطلب العدو عدم اشتراك القواد والجند الراجعين إلى فرنسا فى أية عمليات عسكرية فى أوروبا ، فقد أوضح تاليران تعذر إعطاء مثل هذا التعهد دون موافقة بونابرت المبدئية ، وكان من رأيه أن الاحتفاظ بهذا الحق لقائد الحملة العام من شأنه أن يحمل بونابرت فى النهاية على الكشف عن مركزه الحقيقى فى مصر بتحديد موقفه من المعاهدة المنتظرة ، حق إذا أصر بونابرت على رفض إعطاء هذا التعهد ، جاء رفضه دليلا على استطاعته المقاومة ، وأضحت حكومة الإدارة فى مأمن من توجيه أى لوم أو تأنيب إليها واتهامها بترك جيش الشرق وقائده تحدق بهما الأخطار من كل جانب . ولذلك يجب على الحكومة إبلاغ بونابرت بما يصح عزمها عليه فى شأن هذه المفاوضة . وطلب تاليران أن ينص فى شروط الاتفاق على تسليم أولئك المواطنين الذين ألقى بهم الأتراك فى السجون ، وبلغ عددهم حوالى ألفى نسمة فى رودس والقسطنطينية ، وكان دى بوليني de Bouligny السفير الأسبانى فى القسطنطينية يقوم بإرسال المساعدات لهؤلاء الأسرى ويتوسط فى شأنهم لدى السلطات العثمانية . ووقع عليه اختيار تاليران للقيام بالمفاوضة على أن يحمل إليه التعليمات اللازمة رسول أسبانى كذلك[1] .

وقد حدث قبل إعداد هذه التعليمات أن خرج تاليران من وزارة الخارجية وحل محله (رينهارت Reinhardt) فى ٥ سبتمبر ١٧٩٩ ، ولكن (رينهارت) كان من مؤيدى سياسة تاليران والذين يصغون لنصحه وإرشاده ، فأتم وضع قواعد الاتفاق المزمع كما أعدها تاليران من قبل ، ثم وافقت عليها حكومة الإدارة فى ١٠ سبتمبر . على أنه سرعان ما ظهرت صعوبات عدة ارجأت إرسال تعليمات الإدارة للمفاوض الأسبانى سريعا ، كان منشؤها اتخاذ روسيا موقف العداء ضد أسبانيا ، والخوف من أن تستخدم نفوذها لدى الباب العالى للقبض على السفير الأسبانى أو طرده ومنع دخول أى مفاوض أسبانى إلى القسطنطينية ، ونجم عن احتمال طرد (بوليني) من تركيا أن شرعت حكومة الإدارة تنظر من جديد فى أمر اختيار مفاوضها فى القسطنطينية ، وفضلا

---

(١) Meurthe 189 — 94

عن ذلك فقد سبب احتمال الطرد غضب الفرنسيين لما وصلوا إليه من ذل وهوان جعلهم يعتمدون على أسبانيا وملكها فى مساعدة الجمهورية ، وزاد ظنهم سوءاً بالبلاط الأسبانى منذ انهزاماتهم الأخيرة .

وقد وجدت حكومة الإدارة مخرجا من هذا المأزق بأن أضافت إلى التعليمات التى قررت إرسالها إلى بونابرت فى ٢٠ سبتمبر بصدد المفاوضة المزمعة مع تركيا ، عبارة تدعوه فيها إلى عدم الاعتماد اعتماداً كليا على مفاوضة (دى بولينى) فى القسطنطينية ، بل تخوله الحكومة الحق فى اتخاذ كل ما يتراءى له من إجراءات عسكرية وسياسية تقتضيها الظروف القائمة فى سبيل ضمان عودته السريعة إلى فرنسا . وقر الرأى على تكليف ثلاثة رسل مختلفين — هم عثمان أغا أحد التجار من أهل تونس ، وفيتاليس Vitallis اليونانى من كورفو ، واليهودى هورفيتز Hourvitz من مستخدمى المكتبة الأهلية فى باريس ، وغادر فيتاليس باريس فعلا يحمل رسالة بتعليمات حكومة الإدارة إلى بونابرت ، قائد الحملة فى مصر[١] .

غير أنه حدث فى الأيام القليلة التالية ما جعل حكومة الإدارة تعدل عن هذه التعليمات وتستبدل بها غيرها ، فقد وصلها فى ٤ أكتوبر بريد أسبانى يحمل رسالة من (بولينى) بتاريخ ٢٤ أغسطس[٢] ، يذكر فيها حديثا له مع الريس أفندى وزير خارجية تركيا ، يدور حول وساطة أسبانيا المحتملة من أجل الوصول إلى اتفاق بين تركيا وفرنسا على أساس إخلاء مصر وعودة جيش الشرق إلى فرنسا . وكان مما استرعى نظر حكومة الإدارة أن هذا الحديث جرى قبل إصدار أية تعليمات إلى السفير الأسبانى فى القسطنطينية ، وفضلا عن ذلك فإن اقتراح إخلاء مصر فى نظير عودة بونابرت وجيشه إلى فرنسا إنما كان المتقدم به الريس أفندى نفسه . واعتقدت حكومة الإدارة — وقد تلاقت رغباتها مع رغبات الباب العالى — أن فى وسعها أن تستغنى الآن عن تلك الوساطة الأسبانية البغيضة . وقد عظم هذا الاعتقاد عندما وصلها فى مساء اليوم نفسه تقرير من بونابرت بتاريخ ٢٨ يوليو ، أحضرته السفينة (أوزيريس) يتحدث فيه عن نزول الأتراك فى أبى قير وهزيمتهم ، وقد تضمن هذا التقرير وصفا من وضع الجنرال برتييه Berthier لحملة سوريا ، يخفى فشل بونابرت أمام عكا تحت ستار العمليات الباهرة التى مكنت جيش الشرق من العودة إلى مصر ودخولها دخول

---

(١) Ibid 199, 205

(٢) Ibid. No. 16 p. 319 — 21

الظافر المنتصر[١] فأحدث هذا التقرير تأثيراً عميقاً فى نفوس أعضاء الإدارة ؛ وذاع الاعتقاد بأن بونابرت بعد هذا النصر الباهر لا يمكن أن يفكر فى التسليم ، وأن اقتراح الريس أفندى الذى وصل باريس عن طريق (بولينى) لم يكن إلا نتيجة لشعور الأتراك بالحرج بعد هزيمتهم ، وأنه لم تعد هناك حاجة إلى وساطة أسبانيا التى ما كان يرغم حكومة الإدارة على التفكير فيها سوى توقعها الرفض من جانب بروسيا إذا طلب إليها التدخل ، ثم عدم اطمئنانها إلى السويد التى وجدت من الكياسة أن تظهر شيئا من العداء نحو فرنسا منذ أن نزلت الهزائم بجيوش الجمهورية .

وعلى ذلك فقد قر الرأى على إلغاء التعليمات السابقة وإعداد أخرى جديدة تعطى بونابرت أوسع السلطات الممكنة للمفاوضة وإبرام الاتفاقات التى يراها ، سواء قام بذلك بنفسه أم فضل أن يعهد بها إلى أى « فرنسى » يختاره لهذه المهمة ، وذلك كله دون أن تقيد حكومة الإدارة نشاطه بتعليمات معينة فى هذا الشأن ، مكتفية بأن تطلب إليه العناية بأمر الأسرى الفرنسيين ، وبذر البذور الصالحة لعقد السلام العام فى أوروبا[٢] .

وكانت الخطوة التالية أن شرعت حكومة الإدارة تبحث فى الوسائل التى تمكنها من إبلاغ رغباتها إلى بونابرت ، فقر رأيها على إرسال نسخة من رسالتها إلى بونابرت إلى فيناو منها إلى (بولينى) حتى يطلب من الأتراك السماح بإرسالها إلى بونابرت فى مصر ، وتجهيز سفينتين فى جنوه وطولون لحمل نفس التعليمات إلى قائد الحملة . وكان مما طمأن حكومة الإدارة على انفتاح الطريق إلى مصر أن استطاعت السفينة هيروندل Hirondelle الإفلات من رقابة الانجليز والوصول برسالة من بونابرت يعلن فيها سقوط قلعة العريش . وطربت الإدارة لهذه الأخبار السارة التى أكدت فى نظرها هزيمة الأتراك نهائيا ؛ وفضلا عن ذلك فقد قوى الأمل لديها فى إمكان الوصول إلى صلح مشرف مع تركيا عندما أخذت الأخبار تترى عن انتصار جيوشها ضد الانجليز فى هولندة على يد الجنرال برون Brune ، وضد الروس فى سويسرة على يد الجنرال ماسينا Masséna فانكب (رينهارت) وزير الخارجية على إنجاز صياغة تعليمات حكومته الأخيرة لبونابرت بكل همة : وبينما هو على وشك الفراغ منها ذاع فى باريس فجأة فى ١٣ أكتوبر خبر اهتزت له دوائر الحكومة ، هو نزول بونابرت فى فرجوز

---

(١) Thibaudeau II 286 — 7

(٢) Meurthe (No. 19)

Fréjus فى ٩ أكتوبر ، وتجاوز قواعد الحجر الصحى فى هذا الميناء الصغير حتى يصل بونابرت إلى باريس فى أسرع وقت ممكن[١] .

وصول بونابرت إلى باريس :

وأزعج حكومة الإدارة ولاشك حضور بونابرت المفاجىء ، فى وقت كانت هذه الحكومة قد بنت كل مشروعاتها على عدم استطاعة بونابرت مغادرة مصر ، والوصول إلى فرنسا قبل ربيع العام التالى (١٨٠٠) على الأقل بسبب انقطاع المواصلات بين البلدين مدة طويلة ، ومع أن بونابرت كان يعتزم بعد مكثه فترة قصيرة فى مصر ، العودة إلى فرنسا لتنفيذ مشروع الحملة الكبيرة ضد انجلترة ، فقد اضطر إلى إرجاء موعد عودته فى شهرى سبتمبر واكتوبر ١٨٩٨ ، حتى يتبين له موقف الأتراك من جهة ، ويتم توطيد أقدام الفرنسيين فى المستعمرة الجديدة من جهة أخرى ؛ وإن كان على استعداد لمغادرة البلاد فى التو والساعة إذا جاءته الأخبار من فرنسا بما يفيد تألب أعداء الجمهورية عليها ، وعدم استتباب السلام فى أوروبا[٢] ؛ أما وقد تحقق لديه ذلك بفضل الرسائل التى حملها إليه كل من ويتان مورو وبلفيل Belville ، ثم مابلغه عن طريق الصحف التى بعث بها إليه الإنجليز[٣] . فقد قر رأيه على الرحيل إلى فرنسا فى أول فرصة سانحة ، وتم له ماأراد فاستطاع الإفلات من رقابة الإنجليز فى البحر الأبيض ووصل سالما إلى الوطن .

وكان فى أثناء سفره السريع من فرجوز إلى باريس أن قابل بونابرت فى (اكس Aix) رسول حكومة الإدارة (فيتاليس) ، وفض التعليمات والرسائل التى كان يحملها (فيتاليس) إليه ؛ وسرعان ما أحاط بونابرت إحاطة تامة بالموقف ، ومشروعات حكومة الإدارة بصدد المفاوضة مع تركيا ، ومحاولة استقدام بونابرت من مصر ، وذلك بفضل الأخبار التى نقلها إليه كل من تاليران والاميرال بروى ، وكان بروى منذ ١٤ أكتوبر قد أرسل إلى يوسف بونابرت صورة من التعليمات الصادرة إليه من طولون بتاريخ ٢٦ مايو[٤] ، ولم يدهش بونابرت لهذه الأخبار ، واعتبر الدخول فى

(١) Corresp. No. 4383 ؛ Pièc. Div. 225 — 8 ؛ Ibid 204 — 6
(٢) Corresp. Nos. 3259; 3439
(٣) شكري ٢١٠ — ٢١٥
(٤) Meneval (Sur le Retour) 11

مفاوضة مع تركيا أمراً طبيعيا تسوغه الظروف القائمة ، وأشار إشارة عابرة إلى محاولته المفاوضة مع تركيا[1] .

وبلغ بونابرت باريس فى ١٦ أكتوبر ، وترتب على ذلك إلغاء تعليمات حكومة الإدارة الأخيرة ، وإعادة بحث الموقف من جديد ، ولما كان ضروريا أن تتخذ الحكومة قراراً بشأن مقترحات السلام مع تركيا ، التى وصلتها عن طريق (بولينى) فقد أعد (رينهارت) تقريراً فى ٢ نوفمبر يرسم فيه خطوط السياسة التى يجب اتباعها ، ويطلب من حكومة الإدارة إصدار أوامرها لتنفيذ ماتراه من الحلول التى تقدم بها[2] وكانت هذه ثلاثة : إما تقوية جيش الشرق بصورة تمكنه من البقاء فى مصر والمحافظة على المستعمرة ، ووجه الاعتراض على ذلك عدم وجود الرجال والمال والسفن اللازمة لفتح طريق المواصلات بين مصر وفرنسا ؛ وإما إخلاء وادى النيل ، ولايؤيد ذلك مايذكره بونابرت نفسه من أن فى استطاعة جيش الشرق — على الرغم من ضعفه — أن يدفع كل هجوم قد يقوم به العدو ضد المستعمرة مدة طويلة من الزمن ؛ وإما وعد الأتراك بإعادة مصر إليهم عند عقد السلام العام والاحتفاظ بهذه البلاد إلى أن يحين وقت الصلح ، وذلك حتى يتسنى للجمهورية أن تحصل على تعويض فى أثناء المفاوضة مع انجلترة لقاء الجلاء عن مصر وإخلائها .

ولما كان (رينهارت) يفضل هذا الحل الأخير ، فقد اقترح إرسال مندوب إلى مصر لفتح باب المفاوضة مع الأتراك ، ورشح لهذه الغاية (ديكورش) ، على أن يبلغ (بولينى) ، إذا كان لايزال فى القسطنطينية ولم يطرده الأتراك منها بعد ، هذا الاتجاه الجديد بصورة ودية . وكان الباب العالى قد أمر بإخراج بولينى منذ ٢٩ سبتمبر وظلت الحكومة تجهل ذلك حتى يوم ١٤ نوفمبر .

ولم تشأ حكومة الإدارة أن تتخذ قراراً فاصلا فى هذه الموضوعات دون استشارة بونابرت ومعرفة رأيه . فأعلن بونابرت صراحة أن من الواجب أن تسترشد الحكومة فى سياستها بتلك المبادىء التى انطوت عليها رسالته إلى الصدر الأعظم فى ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٩ ، ثم تعليماته إلى الجنرال كليبر[3] . وفضلا عن ذلك فإنه يتعذر عليه أن يرفض الحل الأول الذى تضمنه تقرير (رينهارت) ، بل يرى بونابرت على العكس

---

(١) شكرى ٢١٦

(٢) Meurthe 329 — 31 (Pièce No. 20 Rapp. de Reinhard. 2 — 11 — 1799)

(٣) شكرى ٢١٦ ، ٢٣٠ — ٢٣٣

من ذلك أنه من الضرورى أن يبذل كل جهد لنجدة أولئك الشجعان الذين تركهم فى مصر ، والعمل على دعم مراكزهم ، ولا مندوحة لذلك عن إرسال القوات الكبيرة إليهم ، وأن يطلب إلى إسبانيا المعاونة فى هذا الأمر ، واعتبر تعزيز جيش الشرق وإرسال القوات الكافية إلى مصر واجبا تقتضيه مصلحة فرنسا والمحافظة على شرفها . وقد أيد بونابرت إرسال ديكورش للمفاوضة فى حدود التعليمات التى تركها لكليبر . وعلى ذلك فقد وافقت حكومة الإدارة فى ٥ نوفمبر على بعثة ديكورش[١] ، غير أنه ما انقضت أيام قليلة على ذلك حتى حدث انقلاب بريمير المشهور ، ذلك الانقلاب الذى طوح فى يومى ٩ و ١٠ نوفمبر بحكومة الإدارة وأوصل بونابرت إلى منصب القنصلية .

سياسة القنصل الأول :

وكان معنى استئثار بونابرت بكل سلطة نتيجة لهذا الانقلاب الجديد أن أصبح يقع على كاهله وحده وقبل أى رجل آخر عبء مسئولية البت فى شأن مصر وتقرير مصيرها ، والسهر على سلامة جنده ؛ ومن الثابت أن بونابرت على الرغم من اهتمامه العظيم وقتئذ بدفع خطر الأعداء عن فرنسا فى القارة الأوربية ، ظل يبذل قصارى جهده لنجدة جيش الشرق وخلاصه ، وبادر بإصدار نداء يطمئن به هذا الجيش إلى أن حكومة القنصلية جد مهتمة بأمره ومشغولة به كل المشغولية[٢] .

وكان من الواضح من أول الأمر أن العامل الحاسم فى فشل كل المحاولات السابقة سواء لإنشاء المواصلات المنتظمة والمأمونة مع جيش الشرق ، أم إرسال النجدات إليه والمحافظة على المستعمرة الجديدة ، كان حاجة فرنسا إلى البحرية القوية ، وأنه ما دام متعذراً على القنصل الأول أن يعيد بناء هذه البحرية فى وقت قصير ، فإن المفاوضة من أجل عقد السلام مع تركيا أضمن الوسائل لخلاص مصر وبقائها فى حوزة الفرنسيين ، أو خلاص كليبر وجنوده على الأقل إذا أصرت تركيا على استردادها[٣] .

وعلى ذلك فقد أعدت تعليمات ديكورش على ضــوء التعليمات التى تركها بونابرت لكليبر ومدارها الموافقة على إخلاء مصر ، إذا ثبت أن الوباء منتشر فى مصر ويربو عدد ضحاياه من الفرنسـيين على خمسمائة وألف ، وإذا حل شهر فلوريال (ابريل — مايو ١٨٠٠) دون أن تصل نجدات إلى جيش الشرق ، أو كانت النجدات التى وصلته

(١) Meurthe 215 — 17

(٢) Corresp. No. 4411 (2 — 12 — 1799)

(٣) Rigault 214 ; Meurthe 218

ضئيلة ولا تسد حاجته . وغادر ديكورش باريس فى ٧ ديسمبر ، وتعطل بسبب مشقة الطريق مدة ، فبلغ مرسيليا فى ٢٥ ديسمبر ، وبعد انتظار طويل ركب البحر على ظهر الفرقاطة (المصرية L'Egyptienne) فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، لكنه اضطر إلى التوقف عند جزر هيرس Hyères ، على مسافة قصيرة من طولون بسبب هبوب الرياح العنيفة ، وهناك بلغ (ديكورش) خبر اتفاق العريش الذى عقده كليبر ، فعاد إلى طولون فى ٩ أبريل . وفضلا عن ذلك فقد كتب إليه تاليران منذ ٣ أبريل ١٨٠٠ « بناء على ما وصله من أخبار الليفانت » أنه يتعرض فى مروره من البحر الأبيض لأخطار كثيرة دون طائل ، ولا فائدة من ذهابه إلى مصر[1] .

وكان لذيوع خبر عقد اتفاق العريش أثر ظاهر فى نفوس الفرنسيين قاطبة ، فقد تنفس هؤلاء الصعداء بعد أن كثرت الإشاعات منذ شهر مارس ١٨٠٠ على وجه الخصوص عن تحرج الأحوال فى مصر وانتشار الأمراض التى خشى الباريسيون من فتكها الذريع بجند الحملة ؛ واعتقدوا أن الجند الذين ظلوا على قيد الحياة قد أخذ الضعف منهم كل مأخذ حتى إنهم صاروا يعجزون عن الصمود أمام العدو وينشدون الخلاص فى التقهقر المستمر ؛ وبادرت الصحف بكتابة كل ما من شأنه تهدئة النفوس ولكن من غير طائل ، فظل القلق يسود باريس[2] . حتى أذاعت الصحف الإنجليزية فى أوائل إبريل خبر « تسليم » كليبر ، ونشرت الصحف الفرنسية بدورها نص اتفاق العريش فى ١٣ أبريل ، وبات واجبا على الحكومة أن تعلن موقفها من هذا الإتفاق .

ولما كان تاليران من كبار مؤيدى هذا الاتفاق فقد أخذ منذ ذيوع خبر اتفاق العريش ينصح القنصل الأول بضرورة قبول هذا الاتفاق لأسباب عدة منها أنه يجب على الحكومة أن تنظر بعين الاعتبار لما يطلبه الرأى العام الفرنسى عندما ساد الاعتقاد بين الفرنسيين أن كليبر وقواده ما كان فى استطاعتهم أن يحصلوا على شروط أفضل مما حصلوا عليها ، وأن مصلحة الوطن تحتم استقدام جيش الشرق من مصر حتى يتسنى له الدفاع عن فرنسا ذاتها ؛ وكان من رأى تاليران أن الاتفاق لم يفرغ فى صيغة « التسليم » بل كانت له كل خصائص « المعاهدة » وأنه يرحب به . ولم يسع القنصل الأول سوى الموافقة على اتفاق العريش على الرغم من تذمره من سياسة كليبر التى أفضت فى نظره إلى فقد « المستعمرة » فضلا عن أنه كان شديد الغضب على كليبر

---

(١) Meurthe 217

(٢) Aulard I. 230 Sqq

بسبب التهم التى كالها له فى تقرير ٢٦ سبتمبر ١٧٩٩ ، ذلك التقرير الذى وصل القنصل الأول فى باريس منذ ١٢ يناير ١٨٠٠ ويحمل بونابرت وحده أكبر المسئولية عن سوء الحال التى وصلت إليها الحملة[1] .

على أن محاولة الانتقام من كليبر وقتئذ واتهامه بالتخاذل والتفريط فى المستعمرة كان عملا يبعد كل البعد عن عين الصواب والحكمة ، ذلك أن الرأى العام كان يرفض أن توجه اتهامات من هذا القبيل لصاحب اتفاق العريش ، وفضلا عن ذلك فقد خشى بونابرت أن يثار الاهتمام ببحث مسلكه هو نفسه عندما شاء أن يترك مصر فى ظروف لم تكن قد تحرجت فيها الأحوال على نحو ما حدث بعد ذلك ، ولهذه الأسباب إذن وجد بونابرت من الخير أن يوجه الثناء لجند جيش الشرق[2] الشجعان الذين يعودون إلى الوطن بعد أن خلفوا فى مصر آثارا خالدة . وأمر وزير البحرية أن يعلن عن لسانه إلى كليبر أنه قد أقام الحجة بأعماله الباهرة على أن بونابرت كان محقا فى اختياره لقيادة الحملة من بعده وإنه رفع اسم فرنسا عاليا[3] .

وقصر بونابرت جهوده بعد ذلك على محاولة إقناع الشعب الفرنسى بأن مسئولية « التسليم » إنما تقع على كاهل كليبر وحده ، ذلك أنه كان يخشى من أن يدبر كليبر عند عودته حملات النقد اللاذع ضده ، فى وقت كثر فيه الحديث عن تذمر جيش الشرق من رحيل بونابرت إلى فرنسا ، وفى ذلك من الخطورة الكبيرة ما فيه على مركز القنصل الأول الذى لم يكن قد تأيد سلطانه بعد ، قبل انتصاره العظيم فى موقعة مارنجو فبعث بونابرت من لوزان ، وهو فى طريقه إلى ميدان حملته الإيطالية الثانية ، برسالة إلى لوبران ، وكمبسيرس زميليه القنصلين فى باريس فى منتصف مايو ١٨٠٠ يحض فيها على ضرورة إطلاع الشعب الفرنسى على حقيقة الموقف فى مصر ، عند رحيل بونابرت منها ، وعندما كان الجيش مايزال محتفظاً بقوته على الرغم من المعارك الكثيرة التى خاض غمارها ، ولم يكن الطاعون قد انتشر فى مصر فضلا عن اعتقاد بونابرت أن ترك الجيش والتخلى عنه عمل يتسم بالجبن والنذالة .

ومما يؤيد القول بأن جمهرة قواد الحملة ما كانوا يرضون عن تسليم كليبر ، تلك

---

(١) شكرى ٢٥٠ — ٢٥٨

(٢) Rigault 218

(٣) Corresp. No. 4721 (19 — 4 — 1800)

الرسائل التى ذكر بونابرت أنها وصلته من ديزيه [١] ، ومنو [٢] ، ودافو Davout وغيرهم ممن كانوا لا يوافقون فى قرارة نفوسهم على إخلاء مصر وفقدها ؛ وقد طلب بونابرت إلى لوبران وتاليران إعداد مقالات فى ذلك كى تنشرها الصحف ، مع بيان الجهود التى يبذلها بونابرت القنصل الأول لتأييد جيش الشرق فى مصر ، وحتى تعرف أوروبا ذاتها أن مصر ما كانت تخرج من حوزة فرنسا لو أن بونابرت بقى بها [٣] .

وفى خطاب آخر لديزيه حاول بونابرت أن يتنصل من كل مسئولية فى عقد اتفاق العريش [٤] ؛ وكان من الطبيعى أن يهتم بونابرت فى رسالته لزميليه القنصلين بدفع أى اتهام بإهمال شأن الحملة ، وعدم إرسال النجدات إليها عقب وصوله إلى باريس مباشرة ، فذكر أنه وجد الأخطار عند مجيئه تحدق بالجمهورية من كل جانب ، والأسطول مازال رابضا فى برست بدلا من وجوده فى طولون ، ولا رجاء فيه ، فضلا عن محاصرة الإنجليز له وتهديدهم إياه ، وكان الواجب يقتضى بونابرت قبل أى شىء آخر أن يخمد الاضطرابات فى فنديه ، ويجمع المال اللازم لإنجاز الاستعدادات اللازمة ، وقد تم تجهيز الأسطول ، وصدرت الأوامر بإبحاره فعلا ، قبل أن يصل من القسطنطينية نبأ تسليم كليبر بأيام قليلة [٥] .

وكان واضحا أن القنصل الأول إنما يبغى من كتاباته هذه إبراز مسألتين هامتين : إلقاء مسئولية الإخلاء على كليبر ؛ ومعارضة مبدأ الإخلاء على غير الشروط التى تضمنتها تعليماته إلى كليبر ، أو تلك التى أعطيت إلى ديكورش ، وتنطوى جميعها على رغبته الصادقة فى نجدة الحملة وجيش الشرق ، إذا تعذر جلاؤها عن مصر فى الظروف التى حددها بونابرت فى هذه التعليمات . وعلى ذلك فإنه ماجاءت إلى باريس أخبار نقض اتفاق العريش وانتصار كليبر على العدو فى معركة « هليو بوليس » حتى بادر بونابرت يطلب إلى كارنو وزير البحرية فى ٩ يوليو ١٨٠٠ أن يكتب إلى كليبر مؤكداً له وصول النجدات إلى مصر فى خلال الشتاء القادم ، ويطمئنه إلى قرب عقد السلام العام (فى أوروبا) فى بحر ستة شهور ، ويظهر له مايعقده القنصل الأول من آمال على إمكانه

---

(١) Pièc. Div. 268 — 9

(٢) Pièc. Off. 60 — 3

(٣) Testa II 21 : Corresp. Nos. 4799, 4800

(٤) Corresp No. 4786

(٥) Ibid — 4786

المقاومة والبقاء فى مصر ، ويكفى كليبر دليلا على أن من المصلحة الاحتفاظ بمصر وتأمين فتوحه بها ، ما أظهره الإنجليز من غدر وسوء نية ، بينما أن لدى بونابرت ما يحمله على الاعتقاد بأن الأتراك يفضلون أن يتركوا كليبر وجيشه فى مصر – كقوات «مساعدة» – على تسليم هذه الفتوح إلى الإنجليز . وفضلا عن ذلك فالواجب يقتضى كليبر أن يأخذ بعين الاعتبار المحافظة على سمعة الجيش الفرنسى ومجده ، ومصالح فرنسا التجارية فى الشرق ، والمزايا التى يمكن الحصول عليها فى صورة تعويضات عظيمة من انجلترة إذا بقيت مصر فى حوزة فرنسا إلى وقت عقد السلام العام . وأكد القنصل الأول اعتماده على كليبر ذلك الاعتماد الذى طلب أن يكون نصيبه كذلك من كليبر نفسه[١] .

وبدأت من ثم تلك المحاولات الدبلوماسية والعسكرية التى أراد بها بونابرت الوصول إلى عقد السلام فى أوروبا نهائيا ، أو إبرام اتفاقات من شأنها فتح طريق المواصلات البحرية مع مصر ، وإتاحة الفرصة لإرسال النجدات التى تمكن جيش الشرق من الاحتفاظ بهذه المستعمرة الفرنسية . وكان بونابرت شديد الإيمان بأن فى وسع الفرنسيين أن يوطدوا أقدامهم فى مصر إذا طال الأمر على بقائهم فيها ، وامتنع العدو عن مناضلتهم ردحا من الزمن يصلحون فى أثنائه شئونهم ، وأن فى وسعه هو الآخر أن يتخذ من بقاء مصر فى حوزة فرنسا وسيلة تمكنه من عقد صلح مشرف مع انجلترة[٢] . وكان بونابرت يرجو نظير إخلاء مصر أن يعوض على فرنسا خسارتها فى سان دمنجو بالاستيلاء على لويزيانا فى حوض المسسپى[٣] .

الاتصال بجيش الشرق :

ولم يكن هناك مناص لنجاح هذه السياسة من أن يحتفظ جيش الشرق فى مصر بروحه العالية ، ويمحو من أذهان الجند أن حكومة القنصلية قد أهملت شأنهم ، بل إشاعة الطمأنينة فى نفوسهم وإقناعهم بأن القنصل الأول لاينى لحظة عن التفكير فى أمرهم وتدبير نجدتهم[٤] ؛ والوسيلة الظاهرة لضمان ذلك إنما هى اختراق الحصار الإنجليزى ، وإرسال السفن المحملة بالمؤن والذخائر والرجال وأخبار الوطن ومنشورات القنصل الأول « المهدئة » ورسائله « المسكنة » . وقد أدرك بونابرت منذ أن استقامت

---

(١) Rigault 221

(٢) Corresp. No. 3439 ; Meurthe 68 — 9

(٣) Thiers II. 121

(٤) Corresp. No. 4411

الأمور له فى فرنسا أهمية ذلك كله . وعلى ذلك فقد بادر عقب انقلاب القنصلية بإصدار أمره إلى وزير البحرية فى ١٥ نوفمبر بإرسال الإبريق لودى Lodi إلى مصر ، على أن يجهز إبريقان آخران لإبحارهما فى غضون نوفمبر وديسمبر ، ثم مركب بريد ، والفرقاطة : المصرية L'Egyptienne .

وقد استطاعت (لودى) الوصول إلى دمياط فى ٢٤ فبراير ١٨٠٠[١] تحمل الجنرال (جالبو Galbaud) بينما وصلت سفينة أخرى (أوزيريس) إلى أبى قير بعد أربعة أيام تحمل أحد كبار الضباط (لاتور موربوج) . ولم يشأ القنصل الأول وقد ظفر بالقنصلية أن يعترف وسط هذا النصر بعجزه عن نجدة جنده الشجعان فى مصر ، ووجد من العبث أن يعتمد على هذه الجهود « الجزئية » فى إمداد الحملة عندما استطاعت سفينتان فحسب الوصول إلى الشواطىء المصرية ، فقرر أن يستخدم فى هذه الغاية البحرية الفرنسية [٢] فأصدر أوامره إلى بروى فى برست فى أوائل يناير سنة ١٨٠٠ أن يخرج بأسطوله من الميناء ويذهب بكل سرعة إلى مصر يحمل النجدات الكبيرة إليها [٣] .

ثم كرر هذه الأوامر ثانية فى ٢٢ فبراير على أن يأخذ بروى معه الأسطول الإسبانى الذى جاء به إلى برست فى أغسطس الماضى ؛ فيبدأ بمطاردة الأسطول الإنجليزى الواقف على حصار هذا الميناء ، ويجتاز المضيق (جبل طارق) ، ويرفع الحصار عن مالطة ، ويرسل قبل دخوله إلى ميناء طولون جزءا من أسطوله مزوداً بالجند والأسلحة إلى الإسكندرية [٤] . غير أن بروى لم يشأ المجازفة بالاشتباك مع أسطول الإنجليز الكبير فى أية معارك ، واضطر بونابرت فى الأيام الأخيرة من شهر مارس أن يترك لأمير البحر البت فى أمر الذهاب إلى مصر إطلاقا إذا ظل الإنجليز يحشدون قوتهم ولم تنصرف سفنهم قبل مضى وقت طويل[٥] .

وشغل بونابرت بحملته فى إيطاليا ، حتى إذا تم له النصر فى معركة مارنجو الكبيرة ، بادر بعد أقل من أسبوع واحد يكتب من ميلان فى ٢٠ يونيه لإعداد اثنتى عشرة

---

(١) Ibid — 4393

(٢) Dumas III 92

(٣) Corresp. No. 4494

(٤) Ibid — 4612

(٥) Ibid — 4691, 4701

سفينة تحمل الذخائر والبريد إلى مصر[١] ، وأصدر أوامره فى الشهر التالى لأساطيل برست ورشفور حتى تأخذ أهبتها للخروج إلى البحر الأبيض ، ثم بعث يرجو من مدريد إصدار الأوامر إلى أمير البحر الأسبانى جرافينا Gravina الموجود بأسطوله فى برست أن يتعاون مع الأسطول الفرنسى ، فيتسنى للقنصل الأول أن يجمع من الأسطولين الموجودين بهذا الميناء أربعين مركباً حربيا ، لا يلبث أن ينضم إليها بقية قطع الأسطول الفرنسى الموزعة فى موانى لوريان Lorient ورشفور Rochefort وطولون ، على أن تنضم إليها كذلك سفن الأسبان الموجودة فى موانى فيرول Ferrol وقادش وقرطاجنة ، فتصدر حكومة مدريد أوامرها إلى الأميرال مزريدو لإتمام هذا التعاون .

وكان غرض بونابرت أن تجرى هذه العمليات بصورة تزعج الإنجليز وتلقى فى صفوف أسطولهم الحيرة والارتباك ، وتعطى القنصل الأول فرصة مواتية لإخراج أفضل قطع الأسطول الفرنسى الباقية بقيادة الأميرال غانتوم Ganteaume ، تحمل ستة آلاف رجل إلى جانب الإمدادات العظيمة من مؤن وأسلحة وذخائر إلى مصر[٢] . ولما كان الأسبان ما يزالون يرفضون خروج أسطولهم إلى البحر الأبيض ، ويخشون مغبة هذه العمليات الواسعة التى يعجز فى نظرهم الأسطولان الفرنسى والأسبانى عن القيام بها ، بسبب حال سفنهما السيئة ، فقد عول القنصل الأول على التغلب على هذه المعارضة بالطرق الدبلوماسية ، واعتمد فى ذلك على مساعى الجنرال برتييه ، الذى أوفده إلى مدريد للمفاوضة من أجل تعزيز عرش بارما ، ويمت صاحبه بصلة القرابة لملكة أسبانيا ، كما أن زوجه مارى لويز كانت ابنة ملك أسبانيا شارل الرابع والملكة لويز من أسرة بارما ، فتعهد بونابرت (فى أواخر أغسطس) بإعلاء بارما إلى مرتبة الملكية ، وتوسيع حدود المملكة الجديدة نظير إعادة لويزيانا إلى فرنسا ، وانضمام أسبانيا إليها فى تهديد البرتغال ، وحملها على عقد الصلح مع الجمهورية الفرنسيه ، وفصم علاقاتها مع انجلترة ، ثم التنازل عن جزء من الأسطول الأسبانى الموجود فى برست هدية إلى فرنسا[٣] .

وفى انتظار نجاح هذه المفاوضات الدائرة مع أسبانيا ، أصر القنصل الأول على أن

---

(١) Ibid — 4932

(٢) Thiers II 75

(٣) Bertrand II 370 ; Ibid. 121 — 3

تصله على الدوام أخبار جيش الشرق فى مصر من جهة ، وعلى أن تذهب السفن الفرنسية إلى الشواطىء المصرية محملة بالذخائر والأسلحة والعقاقير الطبية ، وهذا عدا العمال البنائين والمدفعيين والفرسان . . وتعاقد مع تجار من الجزائر لأجل إرسال الأنبذة اللازمة لجيش الشرق ، وفضلا عن ذلك فقد حرص القنصل الأول على توفير وسائل التسلية والترفيه عن جنده ، فجمعت جوقة كوميدية لإرسالها إلى مصر ، ورتبت الاشتراكات فى أمهات الصحف الباريسية باسم كبار ضباط الحملة حتى تصلهم الصحف على الدوام فيقرأوا فيها أنباء الوطن ، وطلب إلى السيدات اللاتى كان لهن أقرباء فى مصر أن يذهبن إليها[١] . وذلك كله من أجل تعزيز الروح المعنوية بين رجال الحملة وجيش الشرق[٢] ، وأصدر القنصل الأول أوامره حتى تقوم الأباريق وسفن البريد والسفن التجارية من جميع موانى البحر الأبيض ، بما فى ذلك الموانى الأسبانية والإيطالية ، إلى مصر بصورة منتظمة .

وهكذا شهدت الشهور القليلة التالية من عام ١٨٠٠ وصول عدد من السفن إلى الشواطىء المصرية ، وقد عادت كذلك بعضها مزودة بمختلف الأنباء من المستعمرة ، فغادرت (لودى) طولون فى منتصف أغسطس ١٨٠٠ ، فوصلت الإسكندرية فى ١٤ سبتمبر بعد مطاردة عنيفة اضطرتها إلى إلقاء ما عليها من ذخائر وأسلحة إلى البحر حتى يخف حملها وتنجو من المطاردة ، وفى آخر أغسطس أبحرت مركبة البريد لاكابريسيوز La Capricieuse من طولون ، ولكن الانجليز ما لبثو أن أسروها ، وكذلك كان مصير مركب آخر ، لاندبندان L'Independant . وفى غضون شهر سبتمبر غادرت طولون النقالة لاروسالى La Rosali ، ومركب البريد لودجاجيه Le Degagé فوصلت الأولى الاسكندرية فى ٢٣ أكتوبر ، والثانية فى ٢٩ منه ، وفى شهر أكتوبر غادرت طولون السفينتان جين الكسندرين Jeune Alexandrine وسانت فيليب Saint Philippe فأسر الانجليز الأولى ولكنها وقعت فى قبضة الفرنسيين ثانية فى أنكونا ، أما الثانية فقد وصلت الإسكندرية فى آخر أكتوبر . وقد أحضرت هذه السفينة أمر تثبيت منو فى قيادة الحملة كما جاءت بطائفة من الأخبار الهامة .

وفى ٣ نوفمبر غادرت أوزيريس طولون ولكنها غرقت قريبا من شاطىء تونس ، واستطاع الوكيل الفرنسى فى الوجاقات (وجاقات الغرب) أن يبتاع سفينة

---

(١) Corresp. No. 5237

(٢) Thiers II. 76; Ibid — 5234

جديدة أطلق عليها اسم السفينة الغارقة وبعث بها إلى الاسكندرية محملة بذخائر الحرب وغير ذلك من المهمات والأدوات التى أمكن إنقاذها من الغرق ، فوصلت أوزيريس الجديدة إلى الاسكندرية فى ٨ يناير من العام التالى ، وفى غضون هذا الشهر الاخير حاولت السفينة لوجرييه Le Guerrier الوصول إلى مصر ولكنها أخفقت فى مهمتها بينما استطاع مركب البريد لوتيربيلان Turbulent الدخول الى الاسكندرية فى ٤ يناير ١٨٠١ ، وفضلا عن ذلك فقد استطاعت بعض السفن التى غادرت الاسكندرية فى الشهور السابقة أن تصل الى طولون بسلام ، فجاءت أوزيريس (القديمة) فى أول سبتمبر ١٨٠٠ تحمل أنباء مقتل الجنرال كليبر ، وفى ٥ ديسمبر من العام نفسه وصلت كذلك سفينة (لودى) تحمل (فيال) ، (ولازوسكى) رسولى منو إلى القنصل الأول ، وفى ٢٥ ديسمبر وصلت السفينة الحربية (ماريا تريزا Marie -Thrèse) والنقالة (سانت جان Saint Jean) تحملان أعلام العثمانيين التى غنمها الفرنسيون فى دمياط وهليوبوليس (١) .

وواتت الفرص القنصل الأول فى أثناء ذلك كله ليمضى فى إرسال ما يستطيعه من نجدات إلى مصر ، بل ليفكر أيضا فى إعداد أسطول كبير لهذه الغاية ، عندما أسفرت مساعيه السياسية (نتيجة لانتصاراته العسكرية ولا شك) عن نجاح مهمة برتييه فى مدريد . ثم تأيدت العلاقات بين فرنسا وأسبانيا ، عندما حقق القنصل الأول وعده فى صلح لونفيل Lunéville فى ٩ فبراير ١٨٠١ ، فوسعت بارما ممتلكاتها وأعطى دوقها لقب الملكية الذى يطمع فيه ، ورضى الأسبان بأن يشتركوا مع الفرنسيين فى الهجوم على البورتغال وغزوها ؛ وفضلا عن ذلك فقد عقد بونابرت مع نابولى فى ١٨ مارس معاهدة فلورنسة التى وافقت نابولى بمقتضاها على إغلاق موانيها فى وجه السفن الإنجليزية ، عدا إعطاء فرنسا ثلاث فرقاطات مسلحة ، واحتل الجنرال صولت Soult موانى برنديزى واترنتو وتارنتو فى إيطاليا الجنوبية ، وأعد المراسى فى خليج تارانت ونزل بشواطىء هذا الخليج جيش كبير لنقله فيما بعد بعد إلى مصر (٢) .

وساعد قبل ذلك انحياز بول الأول قيصر الروسيا إلى جانب فرنسا على إحياء ذلك الحياد المسلح القديم الذى أفلحت القيصرة كاترين الثانية منذ نيف وعشرين عاماً

---

(١) Rigault 210, 227 — 8

(٢) Bertrand II 370

فى إبرامه ، فعقدت روسيا والسويد والدنمرك معاهدة فى ١٦ ديسمبر ١٨٠٠ لم تلبث أن انضمت إليها بروسيا كذلك ، وقد أغلقت دول الشمال بمقتضى هذا الحياد المسلح موانيها فى وجه السفن الإنجليزية ، وقد اضطر الإنجليز بسبب ذلك كله إلى توزيع أسطولهم فى أماكن عدة أمام الشواطىء المصرية ، وعند جبل طارق ، وعلى شاطىء البرتغال ، ثم أمام رشفور وبرست ، وهذا عدا مراقبة الدول المحايدة فى بحر الشمال ، واعتقد القنصل الأول أن الفرصة قد سنحت أخيراً لكى يقيم الدليل أمام العالم قاطبة على أنه عند ما قاد الحملة إلى مصر من نيف وست وثلاثين ألف رجل لم يكن ذلك الشاب الذى غرر به الخيال الواسع ، بل إن مشروع الحملة كان مشروعاً جدياً ، ولا مناص من أن ينتهى أمره إلى خير النتائج وأبقاها أثراً فى المحافظة على مصالح الوطن[1]. ومع أن بونابرت لم يكن موفقا فى مفاوضاته فى لندن — على نحو ما سيأتى ذكره — من أجل الحصول على هدنة مع الإنجليز تمكنه من إدخال عدد من السفن بأمان إلى الاسكندرية ، فقد ضمن تبدل الأحوال فى القارة ذاتها على الصورة التى شهدناها ، والفراغ من مشغولية الحرب البرية ، أن يجد القنصل الأول متسعا من الوقت لقصر جهوده على مواصلة الحرب البحرية ، لاسيما وقد باتت الشواطىء الأوروبية تخضع جميعها تقريبا لنفوذه وسلطانه .

وعلى ذلك فقد غدا الاهتمام بإعداد المشروعات العظيمة التى تكفل المحافظة على مصر يستأثر بكل تفكيره ، ومن ذلك صنع نوع خاص من السفن ، يستطيع الدخول فى ميناء الاسكندرية دون حاجة إلى إنزال المدافع إلى البر قبل دخول الميناء ، فوافق على نموذج منها فى ديسمبر ١٨٠٠ ، وأصدر أوامره بصنع عدد من هذه السفن سريعا ، وفى انتظار ذلك طلب فى الشهر نفسه إلى موانى ليفورنه وأنكونا وجنوه[2] أن تبعث إلى مصر بالسفن المحملة بالضباط والعمال والمغنيين والراقصات والممثلين[3] ؛ وكتب إلى لوسيان بونابرت السفير الفرنسى فى مدريد فى ديسمبر ١٨٠٠ وفى يناير من العام التالى ، أن يعمل من أجل إرسال سفن أسبانية تحمل إلى جيش الشرق الذخائر والأسلحة والأدوات الطبية ، كما طلب إليه أن يبعث عدداً كبيرا من السفن التجارية تنقل إلى مصر الأنبذة والمشروبات الروحية ، وفضلا عن ذلك كلف لوسيان بإرسال

---

(١) Thiers II 372

(٢) Ibid 373

(٣) Corresp. No. 5234 ; Ibid 373

الأنباء إلى مصر ، ثم الكتابة إلى جيش الشرق بما يشعره باهتمام «أوروبا وأسبانيا» بأمره ، وما تحفظه له بلدان القارة من احترام وتقدير عظيمين[١]. وفى الموانى الإيطالية وفى طولون جرى العمل على قدم وساق فى ديسمبر ١٨٠٠ وفى الشهور التالية ، فغادرت السفينة تيرين Turenne ميناء ليفورنه فى ٢٥ ديسمبر .

وما أن وصل الجنرال مورا Murat إلى انكونا بعد ذلك حتى سارت الاستعدادات بكل همة لخروج أربع سفن من هذا الميناء ، كما غادرت مركب البريد كارولين Caroline جنوه فى أواخر فبراير ١٨٠١ ، وفى المدة بين ٢٠ يناير و٢٥ إبريل غادرت طولون الفرقاطة لاسانباريل La Sans Parielle والإبريقان لودى وبرودان Prudent والسفينتان جوديونيون Good Union ولافيرج ديتيج La Vièrge des Nièges بينما غادرت فى شهرى مارس وإبريل السفينتان كوريه ديقاديش Courrier de Cadix وسانت انتوان ديبادوا Saint-Antoine de Padoue ميناء قرطاجنة الأسبانى ، ثم جرى تسليح الإبريق ليسبيجل L'Espiègle فى تارنتو فى إبريل ومايو ؛ وقد وقعت أكثر هذه السفن فى قبضة الانجليز ، واستطاعت سفينتان فحسب هما جوديونيون ولودى الوصول إلى الاسكندرية ؛ الأولى فى ٢٢ فبراير والثانية فى ٣ مارس[٢] ، وفضلا عن ذلك جهزت حملتان صغيرتان للخروج إلى مصر فى شهرى يناير وفبراير، تألفت أولاهما من الفرقاطتين لاجوستيس La Justice وليجبسيين L'Egyptienne غادرتا طولون فى ٢٤ يناير تحملان — عدا الأسلحة والذخائر — قوة كبيرة من الجند فبلغت الأسكندرية فى ٣ فبراير[٣] ، أما الحملة الثانية فقد خرجت من رشفور فى ٢٠ فبراير وكانت تتألف من الفرقاطتين لافريكان L'Africane وريجنيريه Régénérée وتحملان نيفا وخمسمائة جندى بقيادة الجنرال ديفورنو Desfourneaux ولكن مالبث هبوب الرياح الشديدة أن فصل الفرقاطتين بعضهما عن بعض ، فسقطت الأولى فى قبضة الإنجليز عند جبل طارق وكان عليها قائد القوة . بينما استطاعت (ريجنيريه) الوصول إلى الاسكندرية فى ٣ مارس[٤] .

وشجعت حكومة القنصل الأول التجار الفرنسيين على إرسال سفنهم إلى الإسكندرية

---

(١) Lecestre I Nos. 29, 32

(٢) Rigault 231

(٣) Bertrand II 372 ; Reybaud VIII. 113

(٤) Rigault 231 ; Thiers III 42 — 3 ; Bertrand II 373

محملة بالمأكولات وأنواع المنسوجات فوصلت من هذه السفن إلى الشواطىء المصرية لافرتى La Vertu ولانتوان L'Antoine ، بينما أسر الانجليز أخريين : سانروش Saint Roch وهيدروبوليت Hydropolite ، وكان يجرى العمل فى تحضير عدد من السفن الأخرى عند بدء القتال فى مصر لإخراج الحملة ، بل إن رجال الصناعة والمال فى فرنسا صاروا يفكرون جديا فى إنشاء المؤسسات الصناعية فى المستعمرة الفرنسية الجديدة ، حتى إن جماعة منهم اقترحوا على الحكومة اقامة « فابريقات » لصنع الأجواخ فى (الشرق) . وأيدت الحكومة هذه الرغبة فى سبيل تعزيز التجارة والصناعة الفرنسية فى مصر . وبات واضحا بفضل سياسة القنصل الأول وتشجيعه أن النشاط الاستعمارى قد بدأ ينتعش من جديد ، وظهر كأنما العزم قد انعقد على عدم ترك تلك المستعمرة التى شاء الفرنسيون أن ينشئوها فى « ميادين جديدة وفق مبادىء جديدة » . وذلك على الرغم من أن الأتراك العثمانيين كانوا قد سيروا حملاتهم على مصر وأن أيام الحملة فى مصر قد باتت معدودة كما سيأتى ذكره . ولعل أكبر الجهود التى بذلها القنصل الأول فى إرسال النجدة الى جيش الشرق وتأمين الحملة على مصيرها ، كان تصميمه على خروج الأسطول الفرنسى بقيادة غانتوم الى الشواطىء المصرية[١] .

أسطول غانتوم :

واعتمد بونابرت على غانتوم فى تحقيق هذه الغاية ، لمعرفة الأميرال الفرنسى بحالة الشاطىء المصرى معرفة جيدة ، فغادر غانتوم برست فى ٢٣ يناير ١٨٠١ بأسطول يتألف من سبع بوارج وفرقاطة واحدة وسفينتين من نوع القرويت ، تحمل جميعها خمسة آلاف جندى . وساعده على الإفلات من مراقبة الإنجليز هبوب عاصفة شديدة فرقت أسطولهم . ولما كان يخشى من مطاردة هؤلاء له ، فقد تظاهر غانتوم بالذهاب إلى سان دومنجو ، وحمل على ظهر سفنه عددا من الرجال والنساء والأطفال السود إتقانا للخدعة ، وجازت على الإنجليز الحيلة ، فأرسلوا فى إثره أحد أمراء البحر (كالدر Calder) ، فيمم شطر الأنتيل[٢] . وبذلك أفسح الطريق لغانتوم ، الذى جمع أسطوله قبالة رأس سان فنسنت فى طرف إيبريا الغربى ، ثم استطاع دخول مضيق جبل طارق فى ٥ فبراير ، دون أن يفلح (وارن Warren) الأميرال الإنجليزى فى منعه .

(١) Rigault 232

(٢) Bertrand II 373 — 4

ولكن غانتوم لم يلبث أن استولى بعد خمسة أيام فقط على إبريق انجليزى كان قد بعث به اللورد كيث من شاطىء خليج ماكرى Macri (بآسيا الصغرى قبالة رودس) يحمل أنباء إلى لندن ؛ فعلم غانتوم من رجال هذا الإبريق أن كيث يحمى بأسطوله قافلة كبيرة من السفن ، وكانت القافلة التى حملت جيش السير رالف ابركرمبى إلى المياه العثمانية ، للتعاون مع الأتراك على النزول فيما بعد على الشواطىء المصرية ، وطرد جيش الشرق من مصر . ثم سرعان ماتأكدت هذه الأخبار لدى غانتوم عندما وقعت فى أسره فرقاطة انجليزية (ساكسس Success) . وعندئذ قرر غانتوم الذهاب إلى طولون ، فدخلها فى ١٩ فبراير ، وسبب هذا الفشل غضب بونابرت واستياءه العظيم ، ذلك أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى خوفه من مطاردة الإنجليز لهم ، وأسطولهم كان ما يزال رابضا فى (ماكرى) على بعد مائتى فرسخ من الإسكندرية ، زد على ذلك أنه لو أن غانتوم واصل سيره إلى الإسكندرية ، بعد اجتيازه جبل طارق مباشرة ، لأمكنه الوصول إليها بين ١٥ ، ٢٠ فبراير ، وقد دل دخول السفينتين (لودى) ، و(ريجنيريه) إلى هذا الميناء فى ٣ مارس على إمكان ذلك .

وقد اعتبر بونابرت فيما بعد عودة غانتوم إلى طولون من أسباب إخفاق قومندان الاسكندرية فريان الذى عجز بسبب نقص قواته عن منع نزول جيش ابركرمبى فى أبى قير فى ٨ مارس [١] ؛ ومع أن غانتوم كان يرى متابعة السير بعد أن تأكد لديه نبأ وجود الأسطول الانجليزى فى مياه ماكرى ورودس مجازفة كبيرة ، بسبب ما أصاب أسطوله من إعياء على أثر هبوب العواصف فى أثناء رحلته من برست إلى جبل طارق ثم حاجة سفنه إلى الإصلاح والترميم السريع ، فقد عزا مؤرخو (الحملة العسكرية والعلمية) إخفاق غانتوم إلى ضيق أفق تفكيره ، ذلك الضيق الذى جعله يعتقد أن المحافظة على عدد قليل من السفن يفوق فى أهميته لفرنسا خلاص جيش الشرق فى مصر وسلامة المستعمرة [٢] ، والواقع أن غانتوم ، مثله مثل بروى من قبل ، لم يكن سوى نتاج تلك البحرية المنحلة التى حطم روح رجالها المعنوية انهزام أبى قير الحاسم فى بداية الحملة .

أما بونابرت فقد بادر بإرسال أوامره إليه للخروج ثانية من طولون ، ثم لم يسعه أن يغفل تذكير غانتوم بأنه لو استمر فى طريقه لاستطاع انجاز مهمته ورفع سمعة البحرية الفرنسية ثانياً . وعندما طلب غانتوم النزول فى درنه على شاطىء برقة بدلا

---

(١) Ibid 376

(٢) Reybaud VIII 114

من الاسكندرية ، بدعوى أن درنة لم تكن محصنة ومن الميسور استخدام أهلها العرب فى نقل الجند بطريق البر على جمالهم إلى الاسكندرية ، وجد بونابرت من الخير أن يأذن له بذلك إذا وجد غانتوم نفسه مرغماً على إنزال الجند فى درنة وكان الانجليز يحاصرون الاسكندرية بأسطول يفوق كثيراً أسطوله[١] ، وصدرت الأوامر من باريس فى الوقت نفسه إلى موانى رشفور وفيرول وقادش لتنظيم قطع الأسطول بها من أجل إرسال النجدات إلى مصر بكل الطرق[٢] .

وفى ١٩ مارس غادر غانتوم طولون واتجه صوب سردينيا . على أن هذه المدة الطويلة التى قضاها غانتوم فى طولون كانت كافية لأن يجمع (وارن) الأميرال الانجليزى أسطولا صغيراً فى جبل طارق ، يدخل به البحر الأبيض . ويتخذ العدة لمطاردة الفرنسيين ، واستطاع اللحاق بأسطولهم قرب شاطىء سردينيا فى ٢٦ مارس ، ولكن غانتوم ما لبث أن قام بحركة باهرة أفلت بها من وارن ، واختفى عن أنظار الأسطول الانجليزى ؛ وظن (وارن) أنه وقد نجا من قبضته ، قد يمم وجهه شطر مصر ، فصمم وارن على الانضمام بقواته إلى أسطول اللورد كيث . وكان فى وسع غانتوم لو أنه أوتى قليلا من الجرأة أن يقصد الشاطىء السورى عند حيفا وجبل الكرمل ، فيجمع شيئاً من أخبار العثمانيين ، ويتخذ طريقه من هذه الناحية صوب دمياط ، فينزل بها ما كان معه من نجدات كبيرة (خمسة آلاف جندى) ، ولكن غانتوم فضل — بدلا من ذلك — أن يعود أدراجه إلى طولون فى ٥ أبريل بعد أسبوعين فقط من موقعة كانوب أو الاسكندرية ، وفى وقت كان لا يزال الفرنسيون يحتلون القاهرة والاسكندرية[٣] .

وغضب القنصل الأول مرة أخرى ، وأصدر أوامره من جديد إلى أمير البحر الفرنسى ليبدأ محاولة جديدة ، وأصر على ضرورة ايصال النجدات إلى مصر بالنزول فى دمياط أو برقة . وزوده بالمدافع لإقامة البطاريات على الساحل ، والمال لاستئجار الجمال والخيول لنقل الجند والمهمات ، وكان فى تعليماته صريحاً بأنه لا يجوز لغانتوم الوقوف عند درنة أو بنغازى وانزال الجنود بهما إلا إذا أرغم ارغاما على ذلك . وخرج غانتوم من طولون للمرة الثانية فى ٢٥ أبريل[٤] ، وكان أسطوله

---

(١) Corresp. Nos. 5415, 5421, 5430; 5446

(٢) Thiers III 45

(٣) Bertrand II 375 — 6 ; Ibid 95

(٤) Thiers III 114

يحمل عدا الجنود طائفة كبيرة من الصناع والبستانيين الاخصائيين فى علم النبات ، ثم جوقة كوميدية لمسرح القاهرة [١] . وفى ٨ يونيه كان على مسافة عشرين فرسخاً فقط من الاسكندرية ، ولكن غانتوم قرر الذهاب إلى درنة ، وأخفق فى انزال جنده بها بسبب ما لقيه من مظاهرات الأهلين العدائية ضده ، فقد أسرع هؤلاء بسلاحهم إلى الشاطىء بصورة مفزعة ، فأدار غانتوم وجهه صوب كريت وفصل من أسطوله السفينة هليوبوليس وبعث بها إلى الاسكندرية .

أما هو فقد عاد أدراجه إلى طولون فدخلها فى ٢٢ يونية واستطاع غانتوم فى أثناء هذه الجولة الفاشلة أن يأسر مركبا إنجليزيا (سويفتشور Swiftsure) بعد قتال دام ساعتين ، بينما قبض الإنجليز بدورهم على خمس نقالات من سفنه قادوها إلى خليج أبى قير . وقد أكد وصول هذه النقالات إلى أبى قير اعتقاد الإنجليز بأن أسطول غانتوم قريب من الإسكندرية فشددوا حصارهم على هذا الميناء ، وأرسلت ثلاث بوارج إنجليزية وبارجة تركية إلى كونترأميرال بيكرتون Bikerton لمطاردة أسطول غانتوم [٢] . وهكذا أضاع غانتوم — بسبب إخفاقه — كل أمل فى إنقاذ جيش الشرق . وما من شك فى أن غانتوم لو حاول دخول الإسكندرية وقتئذ لاستطاع أن يفعل ذلك [٣] ، بدليل نجاح (هليوبوليس) فى الدخول إلى الميناء ، ولأن أكثر قوات الإنجليز الزاحفة على القاهرة بقيادة الجنرال هتشنسون كانت قريبة من الجيزة ، ولا يقوم على حصار الإسكندرية سوى الجنرال كوت Coote بقوات لا تزيد على الخمسة آلاف جندى تقريباً فشا بينهم المرض .

وهكذا ظل القنصل الأول مثابرا على محاولة إرسال النجدات إلى مصر حتى آخر أيام الحملة ، ولم يمنعه من تحقيق غايته سوى انحلال البحرية الفرنسية ، وعجز حكومة القنصلية عن النهوض بها فى أثناء تلك المدة القصيرة التى انقضت من وقت انقلاب بروميير (نوفمبر ١٧٩٩) ، إلى وقت نزول قوات أبركرمبى فى أبى قير (فى مارس ١٨٠١) ، زد على ذلك أن غانتوم لم يكن من أولئك الذين أعطوا القدرة على الظفر بأكاليل المجد وكتب لهم الخلود . ولم يقصر القنصل الأول نشاطه على تجهيز سفن البريد والفرقاطات وما إليها لإرسالها إلى الشواطىء المصرية الفينة بعد الفينة ، أو إعداد

---

(١) Reybaud VIII. 327

(٢) Thiers III 114 — 7 ; Ibid 325 — 7

(٣) Bertrand II 377

الأساطيل فى برست وطولون وقادش وقرطاجنة خصوصاً لمنازلة الإنجليز ، وفتح طرق المواصلات البحرية بين فرنسا ومصر ، ونقل النجدات العسكرية والمؤن والذخائر إلى المستعمرة الجديدة ، بل إنه ظل فى أثناء ذلك كله يبذل نشاطاً دبلوماسياً كبيراً مع حلفائه أو الدول المحايدة حتى يحملها بشتى وسائل الضغط والإقناع على إغلاق موانيها دون سفن العدو . ولعل أكبر دليل على أن القنصل الأول ما كان يرضى بأن يترك جيش الشرق فى مصر وشأنه ، تلك المساعى التى ظل يبذلها فى القسطنطينية ولندن من أجل إخراج الأتراك من محالفتهم مع الإنجليز ، وعقد صلح منفرد معهم يحفظ لفرنسا مصالحها من ناحية ، ومن أجل اقناع الإنجليز بعقد هدنة تمكن الفرنسيين من إرسال النجدات الى مصر بأمان إذا تعذر إبرام صلح مشرف مع انجلترة ، من ناحية أخرى .

القنصل الأول وتركيا :

وكان يعترض الاتفاق مع تركيا ولا شك صعوبة التوفيق بين رغبة فرنسا الظاهرة فى الاحتفاظ بمصر تحت سيادة العثمانيين « الاسمية أو الوهمية » على الأقل ، وبين إصرار الأتراك على استعادة ممتلكاتهم القديمة . وفضلا عن ذلك جابهت الفرنسيين مشكلة التوفيق بين رغبتهم فى المحافظة على بقاء الدولة العثمانية ومنع انحلالها وتقسيم أملاكها بين النمسا وروسيا خصوصا ، وبين رغبتهم كذلك فى استبقاء مصر بأيديهم ، مع ما ينطوى عليه هذا العمل من معنى التقسيم الفعلى ، وما يجر إليه من عواقب خطيرة، من أثرها ولا شك انزلاق تركيا فى طريق الانحلال السريع فى النهاية .

على أن القنصل الأول كان — على ما يبدو — كبير الثقة فى التغلب على هذه الصعوبات ، بل الوصول إلى حل موفق لها ، يحقق أغراض الفرنسيين السياسية جميعها واعتقد بونابرت أن فى وسعه إقناع السلطان العثمانى بحسن نوايا الفرنسيين ، إذا أظهره على أغراض الدول المتحالفة نحو تركيا واقتسام ممتلكاتها من جهة ، ثم عزمه على إبقاء جيش الحملة فى مصر يعمل كقوات مساعدة من شأنها معاونة العثمانيين فى المحافظة على هذه البلاد فحسب . واعتمد بونابرت فى هذه المحاولة على جهوده وجهود ممثل الجمهورية فى تركيا ، فضلا عن وساطة حلفائه أو وزراء الدول المحايدة ، وأكد بونابرت فيما بعد [1] أن المفاوضات كانت تدور بكل همة مع الباب العالى فى الشهور الستة الأخيرة من عام ١٨٠٠ يقوم بها روفان ثم وزراء بروسيا وأسبانيا . ومع ذلك فقد

---

(١) Ibid 371

ظل روفان فى السجن مدة طويلة ويشكو لوزير الخارجية تاليران مايلقاه من عنت وإرهاق على أيدى ساجنيه .

وفى يونيه كتب بولينى Bouligny إلى مدريد وكان وقتئذسفيراً لأسبانيا فى فينا أن بونابرت بعث إلى السلطان برسالة يحذره فيها مما يبيته حلفاء تركيا لها من نوايا خبيثة ، ويؤكد له صداقة الفرنسيين وحرصهم على أن يستبق السلطان مصر بالصورة التى سبق ذكرها [١] . ولا ينهض إرسال هذا الكتاب إلى السلطان دليلا على بدء مفاوضات جدية فى القسطنطينية . دع عنك القول بأنها كانت تسير بكل همة ؛ وفى شهر سبتمبر ذاع فى باريس أنه جاءت أنباء من تركيا تقول إن الباب العالى ماكان يبغى من وراء استعداداته العسكرية للزحف على مصر سوى تهدئة خواطر الانجليز وذر الرماد فى عيونهم لإخفاء غرضه الحقيقى ، وهو انتظار بدء المفاوضات فى أوروبا وانتهائها إلى إعادة مصر إلى الأتراك ، دون حاجة إلى تعاون هؤلاء مع الانجليز فى قتال يضعفهم . وذكر بونابرت فيما بعد أن الباب العالى قد قطع على نفسه عهداً بعدم القيام بأى عمل عدائى ضد (الحملة) فى مصر ، وأن الصدر الأعظم سوف يظل بجيشه رابضاً بأرض الشام احتراما للمحالفة العثمانية الانجليزية وتهدئة لخواطر الانجليز ، ووعد الباب العالى بالامتناع عن إرسال إمدادات لهذا الجيش ، لأن الأتراك كانوا يدركون أن الفرنسيين بنزولهم فى مصر إنما يريدون إصابة مصالح الانجليز فى الشرق بضربة قاتلة ولا يريدون إلحاق الأذى والضرر بتركيا [٢] .

وقد يكون الأتراك أقوى رغبة فى إخلاء مصر بالطرق السلمية بعد مفاوضة ناجحة ولكن الثابت كذلك أنهم ماكانوا يحجمون عن الانتفاع بمحالفتهم العسكرية مع الانجليز إذا تبين لهم أن استعادة سيطرتهم الكاملة وسيادتهم التامة على مصر تقتضيهم أن يبذلوا جهداً عسكرياً كبيراً ؛ وما من شك فى أن الأتراك كانوا يريدون استعادة سيطرتهم وسيادتهم على هذه البلاد كاملة غير منقوصة ، وآية ذلك أن الباب العالى الذى قبل وساطة ملك بروسيا فى فض النزاع بينه وبين الحكومة الفرنسية ، لم يلبث أن طلب من الوزير البروسى فى القسطنطينية فى آخر يوليو ١٨٠٠ أن تقوم هذه الوساطة على أساس إخلاء مصر من الفرنسيين ، فتبذل بروسيا مالديها من وسائط لتحقيق ذلك

---

(١) Rigault 226

(٢) Bertrand II 371 — 2

فى أقرب وقت وأسرعه ، سواء تم الإخلاء بالوسائل السلمية والودية أم اقتضى الأمر اللجوء إلى قوة السلاح (١) .

وكان من الواضح لذلك أن استعدادات الأتراك العسكرية لم تكن ذراً للرماد فى عيون الانجليز ؛ وبات واجبا على القنصل الأول أن يجدد السعى من أجل إقناع الاتراك بدعواه أن الفرنسيين لايستطيعون إخلاء مصر مادام الخطر باقياً من ضياع هذه البلاد من تركيا بعد خروجهم ، وعودة البكوات المماليك يستبدون بالسلطة والسلطان فى مصر ، أو خشية أن يعمد (حلفاء) الباب العالى (الغادرون) الى انتزاعها من تركيا ، فعول القنصل الأول على إيضاح ذلك كله للسلطان العثمانى من جهة ، كما أخذ رجال حكومته يقلبون وجوه الرأى فى إمكان الإفادة من وساطة روسيا فى هذا الشأن ، وقد ساعد على التفكير فى طلب وساطة روسيا ما أظهره قيصرها بول الأول من ميول صادقة نحو القنصل الأول . وعلى ذلك فقد شرع (ديكورش) يفحص هذه المسألة منذ نوفمبر ١٨٠٠ ، وكان كل مايعنيه وزن المصالح الفرنسية والروسية ، والوقوف على مدى اتفاق هذه المصالح أو اختلافها من حيث الإبقاء على تركيا ومنع انحلالها . وقد انتهى ديكورش من بحثه إلى انتفاء أى تعارض بين مصالح الدولتين فى ذلك ، لأن تركيا يخدم مصالح روسيا وفرنسا معا . ولا يكلف المحافظة على كيانها كثيراً ، لأن بقاء ديكورش ، اعتقد بأن الانحلال لم يكن قد سرى فى جثمان تركيا بدرجة تهدد بزوالها بل إن تركيا فى رأيه كانت بعيدة عن هذا الانحلال ، وسوف تبقى قائمة مدة طويلة .

وكان مما أيد فائدة اللجوء إلى وساطة روسيا أن الأخبار سرعان ما جاءت من القسطنطينية فى ديسمبر (٢) تبين مزايا اتخاذ هذه الخطوة ، على اعتبار أن تحطيم نفوذ الانجليز فى تركيا والشرق ، هو ما يجب على فرنسا وروسيا أن تهدفا إلى تحقيقه بكل وسيلة . بل إن أنصار هذا الرأى لم يشكوا فى نتيجة هذه الوساطة ، لاعتقادهم أن الاحتلال الفرنسى فى مصر لن يحول دون نجاح المفاوضات فى وقت كان فيه العثمانيون — على حد زعمهم — ينظرون إلى بقاء الفرنسيين فى مصر كقوة يستطيعون الاعتماد عليها فى تعزيز سلطانهم فى تلك الأقاليم التى نشبت فيها الثورات ضدهم فى آسيا وإفريقية وصاروا لا يجنون منها أية فائدة . واطمأن الفرنسيون من ناحية روسيا منذ أن نجحت دبلوماسية القنصل الأول مع روسيا ودول الشمال ، فتجدد حياد هذه الدول

---

(١) Testa II 25 — 6
(٢) Rigault 235

المسلح منذ ١٦ ديسمبر ١٨٠٠ ، وعقدت الدول الأربع روسيا والسويد والدانمرك وبروسيا المحالفة الرباعية على نحو ما أسلفنا القول . وكان الخوف قبل ذلك يقض مضاجع الفرنسيين من أن يقدم الروس على إرسال جيش بطريق البحر الأسود لمعاونة الأتراك فى حملتهم ضد مصر ، فكتب بونابرت إلى تاليران فى ٢٠ يناير ١٨٠١ أن السلام مع النمسا لا توازى أهميته شيئا فى جانب التحالف مع روسيا ، ذلك بأن من شأن المحالفة مع الروس إتاحة الفرصة لتوطيد أقدام الفرنسيين فى مصر ، وبقاء هذه البلاد فى حوزتهم [١] ، بل اعتقد بونابرت أن هذه المحالفة سوف تمكنه فى النهاية من تنفيذ مشروعه الشرقى العظيم ، وإلقاء الرعب فى قلوب الانجليز .

وبدأت المفاوضة بصورة جدية فى باريس مع كوليتشيف Kolytcheff السفير الروسى منذ فبراير بصدد الوسائل التى تمكنه من الاحتفاظ بمصر ، واقترح السفير أن تتوسط روسيا بين فرنسا وأعدائها على أساس إخلاء مصر السريع . وحاول بونابرت فى نظير الموافقة على إعادة مالطة إلى فرسان القديس يوحنا ، أن يقنع الروس بتأييد رغبته فى الاحتفاظ بمصر ، وكتب بونابرت إلى القيصر فى ٢٧ فبراير ١٨٠١ [٢] « أن من مصلحة جميع دول البحرين الأبيض والأسود بقاء مصر فى حوزة فرنسا » وأن العمل المشترك بين فرنسا وروسيا يجب أن يلقى الرعب فى نفوس الأتراك بدرجة تضطرهم إلى نبذ محالفتهم مع انجلترة . وكان فى أثناء هذه المفاوضة على ما يظهر فى شهرى فبراير ومارس ١٨٠١ أن تقدم بونابرت بمشروعه الشرقى مقترحا على الروس القيام بعمل عسكرى مشترك ضد الانجليز فى الهند ، فتنزل حملة فرنسية كبيرة فى نهر الدانوب إلى البحر الأسود ثم استراخان حيث يحشد بها الروس جيشاً عظيما ، فتسير الجيوش المجتمعة عن طريق هيرات وقندهار إلى الهند وتطرد الانجليز منها . [٣]

وكثر ترديد الإشاعات فى باريس بأن الروس قد وافقوا على ذلك ، وعهد القيصر بول الأول إلى الجنرال أورلوف Orloff فى يناير ١٨٠١ بقيادة الحملة الروسية المزمعة ؛ وأزعج هذا المشروع انجلترة أيما إزعاج . وعبثا صارت تحاول استلال سخيمة القيصر وإزالة أسباب سوء التفاهم معه ، حتى اضطرت فى آخر الأمر إلى إصدار أوامرها إلى نلسن بالذهاب إلى بحر الشمال لتحطيم محالفة الحياد المسلح الرباعية . ورجا بونابرت

---

(١) Sorel VI 105

(٢) Corresp. No. 5417

(٣) Sorel VI. 112 — 4

أن يتيح خروج الأسطول الإنجليزى إلى بحرى الشمال والبلطيق الفرصة لخروج الأسطول الفرنسى من برست يحمل النجدات إلى جيش الشرق فى مصر ، غير أن هذه الآمال سرعان ما انهارت عندما قتل القيصر بول غيلة فى ليل ٢٣ — ٢٤ مارس ، ثم أرغمت الدانمرك على الخروج من المحالفة عندما ضرب نلسن كوبنهاجن بقذائفه فى ٢ أبريل ، ثم اضطرت روسيا بعد ذلك إلى عقد الصلح مع انجلترة وانحلت المحالفة الرباعية نهائيا ؛ فضاعت من ثم كل فرصة فى إمكان التحالف بين فرنسا وروسيا ، ولم يخرج إلى بحر البلطيق ذلك الأسطول الانجليزى الكبير ، الذى انتظر خروجه القنصل الأول ، حتى يبعث بالنجدات من برست إلى الاسكندرية ، [1] وفضلا عن ذلك فقد صمم الأتراك على المضى فى مؤازرة الإنجليز فى مصر ، والتعاون معهم منذ أن وصل الباب العالى خبر الانتصارات الأولى التى أحرزها هؤلاء فى أبى قير والاسكندرية [2] .

مفاوضات لندن ومهمة أوتو :

وكان القنصل الأول فى أثناء مساعيه من أجل المفاوضة مع تركيا من جانب ، وإحياء محالفة الحياد المسلح ضد انجلترة من جانب آخر ، حتى يتسنى له إرسال النجدات إلى مصر واستبقاء هذه البلاد فى حوزة فرنسا بصورة دائمة ، إذا نجح فى إقناع تركيا على التسليم بذلك أو بصورة وقتية إلى أن يحين عقد السلام العام فى أوروبا ، إذا استطاع حمل انجلترة على إبرام صلح مشرف مع فرنسا — كان القنصل الأول يبذل جهداً ظاهرا فى لندن لتحقيق غرض مباشر أولا ، هو عقد هدنة تمكنه كما أسلفنا القول من إرسال النجدات إلى مصر ، ثم الوصول إلى صلح فى آخر الأمر يمكنه من اتخاذ مصر وسيلة للمساومة مع الإنجليز إذا أصر هؤلاء على إخلائها ، لقاء أن تنال فرنسا تعويضا ملائما عن فقدها .

وكان فشل القنصل الأول فى هذا الميدان ولا شك من الأسباب الحاسمة التى جعلت الإنجليز يتحولون عن التمسك ببقاء الفرنسيين فى مصر ، أى عن تلك السياسة التى جعلتهم ينقضون اتفاق العريش عقب إبرامه [3] ، إلى ضرورة إخراج جيش الشرق ، ويرسلون حملتهم إلى الشواطىء المصرية لهذا الغرض ، منذ أن تبين لهم ضعف جيش الشرق فى مصر من جهة ، ووقفوا على نوايا بونابرت ورغبته الملحة فى إرسال النجدات

---

(١) Bertrand II 369

(٢) Rigault 236

(٣) شكرى ٣١٦ — ٣٣٠

إلى جيشه ، ومحاولة إخراج الأتراك من المحالفة مع الإنجليز ، واستبقاء مصر فى حوزته حتى يتخذ من ذلك وسيلة لمساومة مربحة مع انجلترة . ولا جدال فى أن الإنجليز كانوا أصحاب السيادة المطلقة فى البحر الأبيض منذ انتصارهم البحرى فى أبى قير ، ذلك الانتصار الذى مكنهم فى الشهور القليلة التالية من الاستيلاء على جزيرة جوزو Gozzo القريبة من مالطة فى أكتوبر ١٧٩٨ ، ثم ميناء ماهون الأسبانى فى جزيرة مينورقة فى نوفمبر[١] ، وفتحت لهم موانى صقلية وسردينيا ، وتأيدت سيطرتهم أخيرا بفضل استيلائهم على جزيرة مالطة ذاتها فى ٥ سبتمبر ١٨٠٠ . وكان من أثر هذه السيطرة على نحو ما رأينا إخفاق كل محاولة بذلها بونابرت من أجل إرسال أية نجدات كبيرة تحملها سفن غانتوم إلى الإسكندرية .

وعلى ذلك فقد عمد بونابرت منذ أن خلصت له الأمور فى باريس عقب عودته من مصر ، ومكنته انتصاراته الأولى فى القارة ، إلى الدخول فى مفاوضات جدية مع انجلترة استمرت فى واقع الأمر إلى ما بعد نزول الحملة الإنجليزية على الشواطىء المصرية . وقد مرت هذه المفاوضات فى دورين ظاهرين ، يتميز الأول منهما بمحاولة بونابرت إرسال الإمدادات إلى مالطة ومصر عن طريق عقد هدنة بحرية مع الإنجليز تمكنه من ذلك وقد ظلت المفاوضة دائرة فى هذا الشأن إلى وقت عقد الصلح مع النمسا فى لونفيل فى ٩ فبراير ١٨٠١ ، بينما يتميز الدور الثانى برغبة بونابرت الملحة فى اتخاذ مسألة بقاء جيش الشرق فى مصر أو جلائه عنها وسيلة للمساومة مع الإنجليز ، من أجل استبقاء هذه المستعمرة فى أيدى الفرنسيين ، أو الحصول على تعويضات هامة عن فقدها ، وخروج جيش الشرق من البلاد رافع الرأس موفور الكرامة ، إذا أصر الإنجليز على إعادة مصر إلى تركيا .

وكانت الحكومة الفرنسية قد أرسلت إلى لندن المواطن أوتو Otto للبحث فى مسألة تبادل الأسرى مع السلطات الإنجليزية منذ يناير ١٨٠٠[٢] . وحدث فى أغسطس أن أعلن اللورد مينتو Minto سفير انجلترة فى النمسا ، فى ظروف سوف يأتى ذكرها رغبة حكومته فى أن تشترك فى مفاوضات الصلح الدائرة وقتئذ بين فرنسا والنمسا ، وكانت النمسا قد طلبت بعد هزيمة جيوشها فى معركة مارنجو عقد الهدنة ، والدخول فى مفاوضات من أجل عقد الصلح العام فى أوروبا ، وأجابها القنصل الأول إلى ذلك .

(١) Meurthe 63

(٢) Bertrand II 368

فاتخذ بونابرت من رغبة الانجليز فى الاشتراك فى هذه المفاوضات ذريعة لإعلان عزمه على عدم تجديد الهدنة مع النمسا ، مالم يعقد الإنجليز معه هدنة بحرية ، كان الغرض الواضح منها ، كما أدركه الإنجليز ، إرسال النجدة إلى جيش الشرق فى مصر وإلى الحامية الفرنسية فى مالطة (١) وعلى ذلك فقد أصدر بونابرت أوامره فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٠٠ إلى أوتو حتى يفاوض الإنجليز ، فبدأت من ثم تلك المحادثات التى استمرت بين أوتو والوزراء الانجليز طوال شهر سبتمبر(٢) ، فاقترح أوتو إطلاق حرية الملاحة حتى تستطيع سفن فرنسا التجارية والحربية الجولة بأمان فتنقل الإمدادات إلى مالطة والإسكندرية ، تطبيقا للقاعدة التى كان يجرى وقتئذ العمل بها لتزويد المواقع التى كان يحاصرها الجيش الفرنسى فى ألمانيا مثل فيليبسبورج Philipsbourg ، وأولم Ulm وانجلوشتاد Inglostadt . حقيقة تفيد فرنسا من تطبيق هـذا المبدأ فى المحافظة على مراكزها فى مالطة والاسكندرية ، ولـكن ما كان ينبغى استـكثار هذه الفائدة عليها وهى التى أجازت تقوية مراكز أعدائها فى القارة ، وتركت فصل الصيف برمته يمر دون أن تحطم قواتها جيش النمسا .

وفى أول سبتمبر حصل أوتو على تعليمات جديدة من تاليران أن يوضح للانجليز إصرار فرنسا على التمسك بمالطة ومصر ، وأن (اتفاق كليبر) لم يكن سوى نتيجة اختلال نظام الحكومة الفرنسية ، وأنه منذ أن حصلت الحكومة على تقارير توضح حقيقة شعور جيش الشرق ، سرعان ما تأكد لديها أن فى وسعها تماما الاحتفاظ بفتوحها . وقد طلب تاليران من المفاوض الفرنسى فى لندن أن يرفض عقد الهدنة ما دامت هذه لا تقوم على أساس تموين مالطة ومصر(٣) ؛ وفى ٤ سبتمبر عرض أوتو هذه المقترحات على الحكومة الانجليزية ، ولم يكن من الميسور أن يقبل الانجليز هذه العروض لما انطوت عليه من « تضحيات » عظيمة ، إذا أجازوا تموين مالطة والاسكندرية ؛ لأن معنى ذلك احتمال بقاء مصر ذاتها فى حوزة فرنسا ، وإعطاء الفرصة للأسطول الفرنسى (والأسطول الأسبانى) الرابض فى برست لاختراق نطاق الحصار الانجليزى والدخول إلى البحر الأبيض ، حيث يسهل عليه عندئذ أن يجد قواعد مهيأة لإمداده بحاجته من المؤمن والذخائر بصورة تمكنه من استعادة السيطرة فى البحر الأبيض عاجلا أو آجلا .

---

(١) Stanhope III 234

(٢) Thiers II 134 — 5

(٣) Rigault 222

ولما كان الإنجليز فى الوقت نفسه يخشون من تحطم جيوش النمسا ، واضطرار هذه الدولة إلى عقد صلح منفرد مع فرنسا ، من شأنه أن يزيح عن كاهل بونابرت عبء القتال فى القارة ، ويتيح له القيام بعمل عدائى ضد الجزر البريطانية ذاتها ، فقد تقدم الإنجليز بمشروع قبلوا فيه الدخول فى مفاوضات عامة من أجل عقد الصلح الأوروبى ، ووافقوا على اتخاذ (لونفيل) مكاناً للمؤتمر الذى ينعقد لتقرير السلام ، بل عينوا توماس جرنفيل شقيق وزير الخارجية لهذه المهمة . أما فيما يتعلق بأمر الهدنة البحرية ، فقد نص مشروعهم على وقف القتال فى البحر والبر معاً ، وألا تقتصر الهدنة على الدول المحاربة فقط : انجلترة والنمسا وفرنسا ، بل يجب أن تشمل حلفاء الانجليز الآخرين ، وكان غرض هؤلاء أن يمنعوا عن حليفتهم البرتغال كل تهديد من جانب أسبانيا . ومع أن الإنجليز لم يكن فى وسعهم أن يرفضوا صراحة معاملة مالطة والإسكندرية بنفس المعاملة التى تمتعت بها المدن الألمانية الثلاث ، فقد قيدوا موافقتهم بتحفظات هامة تلغى ولا شك كل فائدة منتظرة من إبرام الهدنة ؛ ذلك أنهم اشترطوا منع إرسال النجدات إلى مالطة والإسكندرية بطريق البحر بدرجة تمكن حاميات هذين المكانين من الاستمرار فى الدفاع والمقاومة ، بل يجب الاكتفاء بإرسال المؤن فحسب وعلى دفعات متقطعة مرة كل أسبوعين ، وذلك بعد أن يقرر مندوبون يعينون لهذه الغاية مقدار ماتحتاجه الحاميات من مؤن وأطعمة . وأراد الإنجليز من مقترحاتهم أن لايفوتوا فرصة الصلح على النمسا حليفتهم ، وأن يمنعوا عنها الهزيمة حتى يضمنوا عزوفها عن عقد صلح منفرد مع فرنسا .

ومع أن مالطة كانت فى حاجة إلى المؤن والأطعمة ، بعد أن انتشرت بها المجاعة بسبب تضييق الحصار عليها ، حتى اضطر أهلها ورجال الحامية إلى أكل الجرذان أخيراً[1] ، فقد كان واضحاً أن مصر إنما تطلب الأسلحة والجنود لنجدة الحاميات بها وتعزيزها . ولذلك اقترح تاليران فى ١١ سبتمبر أن يطلب (أوتو) من الإنجليز السماح لست فرقاطات فرنسية تذهب من طولون إلى مصر دون أن يتعرض الإنجليز لها بشىء أو « يفتشوها » ، لقاء أن يمتد أجل الهدنة مع النمسا والبورتغال حليفتى انجلترة . وأصرّ تاليران فى تعليماته على أن يكون فتح المواصلات الحرة بين فرنسا ومصر أساس كل اتفاق . ذلك أنه لما كان الغرض من إرسال هذه الفرقاطات الست نقل ألف ومائتى جندى وألف بندقية إلى الاسكندرية ، فإن الحكومة الفرنسية لا يسعها أن تترك

(١) Reybaud VIII. 116

جيشها فى مصر معرضاً لافتراس وحوش العثمانيين فى أثناء المفاوضات لعقد السلام العام فى أوروبا . ومع أن بونابرت وافق على بقاء الأسطول الإنجليزى فى مراكزه أى استمرار الحصار المضروب على برست وعلى الشواطىء المصرية ، وإرسال المؤن والأطعمة إلى مالطة مرة كل خمسة عشر يوماً ، فقد تمسك فى تعليماته إلى أوتو فى ٢١ سبتمبر بضرورة إرسال الفرقاطات الست إلى الإسكندرية ، بل إن القنصل الأول ذهب فى ضرورة إرسال النجدات إلى مصر إلى حد اقتراح إغفال أمر الهدنة كلية ، والدخول رأساً مع انجلترة فى مفاوضات منفصلة عن مفاوضاته مع النمسا[١].

وأخفقت مساعى القنصل الأول ، لأن الإنجليز ما كانوا يوافقون بتاتا على إبقاء مالطة ومصر فى حوزة فرنسا ، بل وجد هؤلاء مسوغا لرفضهم مقترحات بونابرت ووزير خارجيته فى اعتراف كليبر نفسه ، بعد استئناف القتال ، بأن اتفاق العريش لا يزال ساريا ، وأنه إذا بلغته موافقة انجلترة عليه فيشرع حالا فى تنفيذه ؛ وهو « اعتراف » يخولهم الحق ، وقد أقرت حكومتهم اتفاق العريش فى مارس ، أن يصروا على إخلاء مصر . وفضلا عن ذلك فقد ذاع فى هذه الآونة خبر تسليم مالطة (منذ ٥ سبتمبر ١٨٠٠) ، وحرم سقوط الجزيرة الفرنسيين من أهم موقع يستطيعون الارتكاز عليه فى إرسال النجدة من فرنسا إلى مصر عبر البحر الأبيض . وكان من الطبيعى أن يزداد الإنجليز تشبثاً بمطالبة الفرنسيين بالجلاء عن مصر . وعلى ذلك بعث تاليران إلى أوتو فى آخر سبتمبر بالكف عن مفاوضات الهدنة ، ما دامت هذه لا تحقق الغرض الهام منها ، أى فتح المواصلات مع مصر وإرسال النجدات إليها[٢] .

وفى المعارك التالية أنزل مورو Moreau بجيش النمسا هزيمة ساحقة فى هوهنلندن Hohenlinden فى ٣ ديسمبر ، وزحف الفرنسيون صوب فينا . وعندئذ لم تجد النمسا مناصا من طلب الهدنة فى ٢٥ ديسمبر ، ثم عقد النمساويون مع القنصل الأول الصلح فى لونفيل فى ٩ فبراير ١٨٠١ ، وخرجت النمسا من تحالفها مع انجلترة . واعتقد بونابرت أن الفرصة قد باتت موانية لحمل الإنجليز على قبول الصلح ، وفق الشروط التى ترتضيها فرنسا . وقوى هذا الاعتقاد سقوط وزارة بت Pitt ذلك الوزير الذى اشتهر بعدائه لحكومة « الجمهورية الفرنسية[٣] » . وعلى ذلك أسرع تاليران فى ٩ مارس يطلب من (أوتو) البقاء فى لندن ، واستئناف البحث فى مقدمات الصلح مع انجلترة .

---

(١) Thiers II 137 — 8

(٢) Rigault 224

(٣) Charles - Roux II 99

ومع أن أوتو كان يدرك تماما أن الإنجليز لن يوافقوا على ترك الفرنسيين فى مصر وتأييد سلطانهم بها ، فقد كان كبير الرجاء فى إمكان المفاوضة بنجاح بسبب ما لمسه من تبدل ظاهر لدى طائفة من رجال السياسة الإنجليز ، الذين كانوا يرون أنه من العبث انتزاع مصر عنوة من قبضة الفرنسيين ، سواء بطريق المفاوضة أو القتال ، عندما كان فى استطاعة الفرنسيين دائما أن يحاولوا العودة إلى احتلال مصر بالاتفاق ودياً مع تركيا وليس فى وسع بريطانيا فى هذه الحالة أن تستأنف الحرب مع فرنسا لمجرد منعها من احتلال مصر مرة ثانية (١) . بل إن أوتو لم يلبث أن أقتنع بأن فرنسا سوف لا ترغم على إخلاء مصر فى النهاية عندما فاتحه فى ٢١ مارس اللورد هوكسبرى Hawkesbury وزير الخارجية الجديد فى وزارة أدنجتون Addington برغبة حكومته فى الدخول فى مفاوضات مع فرنسا ، ملقيا فى روع المفاوض الفرنسى فى الوقت نفسه أن انجلترة لا تمانع فى احتفاظ فرنسا بمصر ، فى نظير أن يبقى فى حوزة الإنجليز ما أخذوه من أملاك فرنسا وحلفائها الأسبان والهولنديين (٢) . وفهم تاليران من ذلك أن المفاوضة المزمعة قد باتت تنحصر فى أمر واحد ، ما لبث أن لخصه فى تعليماته إلى أوتو فى آخر مارس بقوله : « إما أن تبقى فى حوزة انجلترة سيلان وأملاك تبو صاحب سلطان ميسور Mysore فى الهند ، بينما تحتفظ فرنسا بمصر ، وإما أن تفضل انجلترة إعادة مصر الى السلطان العثمانى صاحبها ، بينما ترجع هى أملاك تبو صاحب إليه وسيلان إلى هولندة » . وعلى ضوء هذه التعليمات إذن بدأ أوتو مفاوضاته الجديدة فى لندن .

غير أن أوتو لم يلبث أن تحطمت آماله فى إمكان الاتفاق بمجرد أن قابل هوكسبرى ، إذ اتضح أن الإنجليز الذين يرضون أن تحتفظ فرنسا بفتوحها فى نظير أن يحتفظوا هم كذلك بفتوحهم ، كانوا مصممين على التمسك ببعض هذه الفتوح وامتلاكها فى الوقت الذى يطلب فيه من الفرنسيين أن يعيدوا مصر إلى صاحبها الشرعى (٣) . ووجد أوتو أن تلك كانت « صفقة غير متكافئة » وعبثا حاول أن يقنع الوزير الإنجليزى بأن فرنسا عند تمسكها بمصر إنما تريد قبل كل شىء الاحتفاظ بمستعمرة زراعية وحسب . ومع ذلك وعلى الرغم من خيبة أمل المفاوض الفرنسى الظاهرة ، فقد كان واضحاً أن إخلاء مصر بات موضعا المساومة ، حتى إذا أمكن الاتفاق بصورة من

---

(١) Rigault 237

(٢) Driault (Politique) 165

(٣) Rigault 237

الصور على توزيع مناطق النفوذ الاستعماري الجديدة في آسيا وأفريقية بين انجلترة وفرنسا ، ذللت جميع العقبات التي حالت دون إبرام الصلح بين هاتين الدولتين . ولم تفقد باريس الأمل في إجراء هذا التوزيع على أساس إدخال حوض البحر الأبيض في دائرة النفوذ الفرنسي ، بينما يظل الإنجليز أصحاب السيطرة الكاملة في الهند (١) .

وعلى ذلك فقد بعث تاليران بتعليماته إلى أوتو في ٨ أبريل يعرض عدم إزعاج الإنجليز في الهند ، أو الإلحاح في إرجاع سيلان إلى هولندة ما دام هؤلاء موافقين على بقاء الفرنسيين في مصر . ولكن هوكسبري سرعان ما أكد في مذكرته للمفاوض الفرنسي (في ١٤ أبريل) أن الإنجليز لازالوا مصرّين على ضرورة إخلاء مصر كشرط أساسي لأي اتفاق بينهم وبين الفرنسيين ، وأنهم يرضون في نظير ذلك بالتنازل لفرنسا وحلفائها الأسبان والهولنديين عن المراكز الفرنسية في الهند ، وعن نيجاباتام Negapatam ، وملقا ، ورأس الرجاء الصالح ومينورقة ، وبعض المواقع الأخرى ، عدا سيلان والمارتنيك وترنداد ، فهذه تبقى في حوزتهم ؛ أما الهند فقد ظلت خاضعة لسلطانهم ، ثم لم يذكر هوكسبري شيئاً عن مالطة ومصيرها ، وفضلا عن ذلك فقد احتفظ هوكسبري لنفسه بحرية التصرف من جديد إذا جاءت الأخبار منبئة بأن الجيش الفرنسي قد أخلى مصر ، أو بأن معاهدة قد أبرمت لهذه الغاية ، وذلك قبل توقيع مقدمات الصلح نهائيا بين انجلترة وفرنسا .

وهكذا كان من الواضح أن انجلترة ترفض أن يكون لفرنسا امبراطورية استعمارية ، كما كان من الواضح كذلك أن القوة وحدها هي التي ترغم الإنجليز على التسليم ببقاء مصر في حوزة فرنسا . وكان من أسباب إصرار الإنجليز اعتمادهم على أن « إخلاء اختياريا » سوف يحدث قريباً بفضل ازدياد أنصار الإخلاء السريع والعودة إلى الوطن . وبات مصير الحملة بسبب ذلك كله في يد جيش الشرق نفسه . واعتقد بونابرت واعتقد كثيرون غيره أن نجاح دبلوماسيته ، وإرغام الإنجليز على عقد صلح يحفظ لفرنسا مصالحها ، إنما يتوقف على حسن بلاء الفرنسيين في مصر ، وقدرتهم على المقاومة ، وتصميم جند الحملة ورجالها على البقاء في هذه البلاد وإحراز الانتصارات التي تدعم مراكزهم بها .

وما إن بلغت المفاوضات في لندن هذه المرحلة حتى دخلت في دور من الركود المفتعل . ذلك أن المفاوضين الإنجليز والمفاوض الفرنسي فضلوا جميعا انتظار نتيجة

---

(٢) Driault op. cit. 167 — 8

القتال الدائر فى مصر . وطغى اهتمامهم بتتبع سير الحوادث فى هذا الميدان على سواه ، حتى أن المرء فى الأيام القليلة التالية كاد ينسى تماما على حد قول (أوتو) ماعداها من حوادث فى بطرسبرج وكوبنهاجن وهمبرج ؛ وفى ٢٧ إبريل كتب (أوتو) أن انتصارا حاسما يدركه جيش الشرق فى هذا الميدان من شأنه أن يقنع الإنجليز بقبول المقترحات الفرنسية . وذاع الاعتقاد فترة بأنّ الهزيمة قد نزلت بجيش السير رالف إبركرمبى [١] ، ولم تطل فترة الانتظار ، إذ سرعان ما جاءت الأخبار فى آخر مايو بأن إبركرمبى قد أفلح فى إنزال جنده فى أبى قير ، وأحرز انتصاراً باهرا على الفرنسيين فى موقعة كانوب أو الإسكندرية فى ٢١ مارس ١٨٠١ ، وكان لهذه الأخبار رنة فرح عظيمة فى لندن ، وبادر هوكسبرى باستئناف المفاوضة وضغط على أوتو ضغطا شديداً لقبول شروط الصلح التى يعرضها الإنجليز ، وهدد هؤلاء بتأليب الدول ضد فرنسا وعقد تحالف دولى ثالث على نمط ذلك التحالف الذى أفضى انتصارهم الأول فى معركة أبى قير البحرية إلى عقده [٢] .

واضطر بونابرت إلى التسليم بفقد مصر بسبب مابلغه كذلك من (رينييه) وزملائه الذين « طردهم » منو من مصر ، عن سوء الأحوال فى هذه البلاد ، واشتداد الحرج على جيش الشرق ، فوافق فى ٢٣ يوليو على إرجاع مصر إلى تركيا [٣] . ومع ذلك فإن القنصل الأول لم يفقد الأمل فى حمل الإنجليز على إجابة شىء من مطالب الفرنسيين السابقة ، لأن باريس كانت تعلم من أوثق المصادر أن الإسكندرية ما زالت تقاوم ، وأنه مادامت الإسكندرية بأيدى الفرنسيين فإن مصر بأكملها سوف تظل فى حوزتهم . وفضلا عن ذلك فقد أكد تاليران أن الإسكندرية حسب ما بلغه من أخبار فى وسعها المقاومة لمدة عام بطوله ؛ ويكفى تضحية من جانب فرنسا إخلاؤها مصر ، ويجب على انجلترة أن تخلى بدورها تلك المستعمرات الهامة التى امتلكتها عنوة من فرنسا وهولندة وأسبانيا ؛ وإن جاز لحكومة القنصل الأول أن تقدم تضحية أخرى ، إلى جانب فقد مصر ، تضحيتها الكبرى ، فإنها سوف تكتفى فى هذه الحالة بعدم المطالبة بإرجاع سيلان إلى هولندة .

ولكن سرعان ما كان الفشل نصيب هذه المساومة الأخيرة عندما هدد هوكسبرى

---

(١) Rigault 329

(٢) Driault 185 — 6

(٣) Corresp. No 5649

بقطع المفاوضات فى ٢٧ يوليو ، ثم عاد يوافق على إخلاء مالطة فحسب ، لقاء بعض الجزر فى الهند الغربية . وقوى مركز الإنجليز عندما ذاعت فى هذه الآونة أخبار سقوط القاهرة . ولما كان القنصل الأول يخشى من عجز الإسكندرية عن المقاومة طويلا ، بعد تسليم جيش بليار فى القاهرة ، فقد رأى من الضرورى إنهاء المفاوضة قبل تسليم الإسكندرية ، وطلب فى ٨ سبتمبر من تاليران أن يعمل على عقد مقدمات الصلح بكل سرعة لأن منو ما كان فى وسعه على حد قول بونابرت أن يصمد بالإسكندرية بعد يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٠١ (١) .

وعلى ذلك فقد وقعت مقدمات الصلح فى لندن فى أول أكتوبر ١٨٠١ على أساس إرجاع مصر إلى الباب العالى ثم ضمان أملاك تركيا وسلامة أراضيها ، كما كانت قبل الحرب الأخيرة . واستبقت انجلترة أهم مستعمراتها : الهند وسيلان وجزيرة ترنداد . وكان بعد الفراغ من توقيع مقدمات الصلح بثمانى ساعات فحسب أن وصل رسول يحمل إلى لندن بريد مصر ، يعلن استيلاء الإنجليز على مرتفعات الإسكندرية ، وطلب منو المفاوضة فى شروط التسليم والجلاء عن البلاد المصرية .

وفى غضون شهر أكتوبر نفسه كان قد تم ارتحال جيش الشرق من مصر ووصوله إلى فرنسا (٢) . وفى ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ عقد الصلح العام فى إميان على نفس القواعد السابقة بين انجلترة وفرنسا وأسبانيا وهولندة ، وهكذا فقدت فرنسا مصر دون أن تنال فى الشرق أو فى غيره من الميادين الاستعمارية ما يعوضها عن خسارتها الفادحة .

وقد عزا بونابرت — فيما بعد — اهـذا الفشل إلى عجز منو عن الاستمرار فى المفاوضة حتى يوم ١٥ نوفمبر ١٨٠١ ، وهو اليوم الذى قدّر فيه بونابرت وصول أخبار مقدمات صلح لندن إلى الإسكندرية (٣) . ويميل جماعة من المؤرخين (٤) إلى الاعتقاد بأنه لو فشل الإنجليز فى حملتهم على مصر فى عام ١٨٠١ ، أى لو أن منو — بقول آخر — استطاع المقاومة ، ورفض بونابرت المفاوضة على أساس إخلاء مصر ، لـكان فى استطاعة فرنسا أن تحتفظ — على الأقل لفترة أطول من الزمن — بتلك المستعمرة التى قامت حملتها فى عام ١٧٩٨ من أجل إنشائها . وقد تناسى بونابرت

---

(١) Ibid — 5749
(٢) Rigault 382
(٣) Bertrand II 447
(٤) Charles - Roux II 225

كما تناسى هؤلاء المؤرخون من بعده أن القنصل الأول كان قد بذل كل ماوسعه من جهد وحيلة من أجل إرسال النجدات إلى جيش الشرق دون جدوى ، وأن اقتناع بونابرت بعبث كل محاولة يبذلها فى هـذا السبيل لضعف البحرية الفرنسية قبل كل شىء ، ثم اقتناعه كذلك بعبث الاعتماد على أن جيش الشرق فى إمكانه الاستمرار على المقاومة زمنا طويلا ، قد جعله يسلم بمبدأ إخلاء مصر ، ويتخذ من الإخلاء وسيلة للمساومة ، إما لبقاء جيشه فى هذه البلاد كقوات ثانوية « مساعدة » تحت إشراف العثمانيين وسيادة الباب العالى ، سواء كانت هذه السيادة اسمية « وهمية » كما كان يرجو ، أم واقعية فعلية كما كان لا معدى عن حدوثه ، بسبب إصرار الباب العالى على استرجاع أملاكه القديمة ومؤازرة الإنجليز له فى ذلك ؛ وإما للاستعاضة عن فقد مصر ببعض المغانم الاستعمارية فى الميادين الأخرى سواء كذلك كانت هذه المغانم « إيجابية » باسترجاع بعض المستعمرات التى فقدتها فرنسا فى آسيا وأمريكا ، وحمل الإنجليز على اقتسام الإمبراطورية الاستعمارية مع فرنسا ، أم كانت هذه المغانم « سلبية » بإجلاء الإنجليز على الأقل عن المستعمرات التى أخذوها من أسبانيا وهولندة خصوصا .

وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن من المحتمل بتاتا — وقد تقرر مبدأ الإخلاء فى مقدمات صلح لندن وظهرت بوادر الانحلال فى مصر بتسليم القاهرة على يد بليار — أن يقنع الباب العالى بغير استعادة سلطانه الكامل على هذه البلاد بديلا ، أو أن يرضى الإنجليز بالتنازل عن تلك الأسس التى بسطها هوكسبرى فى ١٤ ابريل فى مذكرته إلى المفاوض الفرنسى قبل أن تصل إلى لندن أنباء الحرب الدائرة فى مصر . ومع ذلك فإن المرء لا يسعه إلا أن يسلم بحقيقة ظاهرة على الرغم من ذلك كله ، هى أن بونابرت منذ عودته إلى فرنسا ظل شديد الاهتمام بجيش الشرق فى مصر ، وكان لا ينى يبذل كل جهد من أجل إرسال النجدات إلى هذا الجيش ، والعمل على إشاعة الثقة بين صفوفه ، وتقوية روح الجند المعنوية ورجال الحملة قاطبة فى مصر .

أما أن جيش الشرق قد أخفق فى الاحتفاظ بمصر ، وعجز عن المقاومة ، فمرد ذلك إلى أمرين جوهريين : أولهما نجاح السياسة الإنجليزية التى ما فتئت تهدف إلى غرض واحد منذ أن تبين لها عجز الحملة وضعف جيش الشرق وعدم قدرته على المقاومة الجدية ، وكان هذا الغرض ، طرد الفرنسيين من مصر بقضهم وقضيضهم ؛ وثانيهما أن منو قائد الحملة العام فى مصر لم يكن له من العبقرية أو القدرة العسكرية ما يمكنه من الصمود طويلا فى وجه الجيوش العثمانية الإنجليزية المتحدة ، التى شرعت تزحف على البلاد من ناحية البحر الأبيض شمالا والشام شرقاً وعن طريق القصير وقنا جنوبا .

سياسة انجلترة :

وقد حدث هـذا الزحف المشترك نتيجة لذلك التبدل الذى طرأ على سياسة الحكومة الإنجليزية ، فعدلت عن التمسك ببقاء الفرنسيين فى مصر ، أو تسليمهم كأسرى حرب ، إلى اتخاذ الوسائل العسكرية الكفيلة بإخراج جيش الشرق من مصر دون إبطاء ، ومهما تكلفه إجلاؤهم عنها من جهد وتضحيات عظيمة . وكان من أسباب تلك السياسة التى أفضت إلى نقض اتفاق العريش — على نحو ماسبق بيانه (١) — ذيوع الاعتقاد فى دوائر الحكومة الانجليزية بأن (المسألة المصرية) قد باتت منتهية ، منذ أن وهنت روح جيش الشرق المعنوية بعد « فرار » بونابرت إلى فرنسا ، وأضنت المتاعب رجال الحملة وجندها بسبب سوء الأحوال فى مصر ؛ زد على ذلك أن بونابرت بخروجه من البلاد قد ترك مصير جيش الشرق فى يد القدر وحده وسوف لا يهتم بأمره (٢) .

وعلى ذلك فإن الإنجليز ظلوا لايأبهون مدة طويلة بأية عروض تأتيهم من جانبه لعقد الصلح فى أوروبا ، والوصول إلى اتفاق بصدد (المسألة المصرية) . وآية ذلك ما حدث فى الشهور التالية ، فقد بادر بونابرت — كجزء من مساعيه السياسية فى سبيل تهيئة الأسباب التى تمكنه من إرسال النجدات إلى مصر ، واستبقاء هذه المستعمرة فى أيدى الفرنسيين إذا أمكن ، أو الحصول على مواقع هامة فى ميادين الاستعمار الأخرى تعوض الفرنسيين عن فقدها — بادر بونابرت ، فى رسالة بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٧٩٩ إلى جورج الثالث ، بعث بها تاليران إلى جرنفيل بعرض الصلح على الإنجليز ، فكان نصيب رسالته الإهمال التام ، وكتب جرنفيل إلى تاليران فى ٤ يناير ١٨٠٠ يرفض المفاوضة مع حكومة القنصل الأول ، ما دامت فرنسا متمسكة بتلك المبادىء التى تمخضت عنها (الثورة) ولا تريد التنازل عن أطماعها . وأعاد تاليران الكرة مرة ثانية فى ١٤ يناير واستمرت الحكومة الانجليزية على رفضها (٢٠ يناير) ، وكان لهذا الرفض أسباب عدة تتصل بالموقف العسكرى فى القارة الأوروبية ، وبسياسة الحكومة الانجليزية عموما إزاء الحملة ، وشكوكها فى صدق نوايا القنصل الأول السلمية .

---

(١) ثم انظر شكرى ٣١٦ وما بعدها

(٢) Charles - Roux II 83

وذلك أن مورننجتون Mornington (اللورد ولزلى Wellesley فيما بعد) كان منذ مايو ١٧٩٩ قد انتصر على تبو صاحب سلطان ميسور الذى لقى حتفه فانحلت إمبراطوريته ودانت ميسور لسلطان الإنجليز . ثم انتفى كل خطر على الهند من ناحية الفرنسيين عندما ضمن الإنجليز السيطرة فى البحر الأبيض عقب موقعة أبى قير البحرية وشددوا الحصار على جيش الشرق فى مصر ، وعظم الاعتقاد فى وقوع هذا الجيش فى قبضة الإنجليز قريبا حتى إنهم رفضوا الموافقة على مغادرته البلاد ، ورحيله إلى أرض الوطن ، وفضلا عن ذلك فقد استولت قواتهم فى الهند الغربية على جزر المارتنيك وتباجو وترنداد ، وفى إفريقية الجنوبية على الكاب الهولندية ، وانتزعوا كذلك سيلان من قبضة الهولنديين ثم ضيقوا الحصار فى البحر الأبيض على جزيرة مالطة ، حتى أوشكت أن تسقط فى أيديهم .

وكان من شأن هذه الانتصارات زيادة الأمل لدى الحكومة الإنجليزية ، وعلى رأسها وليم بت عدو (الثورة الفرنسية) اللدود فى إرغام فرنسا على الانكماش داخل حدودها القديمة ، وإنشاء تلك الحكومات « التقليدية » التى ضمنوا عدم انصياعها لمبادىء الثورة وتعاليمها ، أو الوقوع تحت تأثير « أطماعها » وعلى ذلك لم يكن من مصلحة الإنجليز الظاهرة قبول الصلح مع فرنسا ، بل إن بت Pitt وصحبه ماكانوا ينظرون إلى أية عروض تأتيهم من جانب الفرنسيين لعقد السلام إلا بعين الشك والريبة . فاعتبروا رغبة كليبر فى المفاوضة من أجل الجلاء خدعة كبيرة ليس الغرض منها سوى كسب الوقت فحسب ؛ ووجدوا فى تلك النداءات التى أصدرها بونابرت عند مجىء الحملة إلى مصر تؤكد لأهل البلاد إسلامه وإسلام جنده ، ويتحدث فيها عما أنزله من أضرار وألحقه من إهانات بشخص البابا فى رومة ؛ ثم إدعاء بونابرت فى كتابه إلى الصدر الأعظم أنه إنما جاء إلى مصر ليخلص البلاد من شرور البكوات المماليك ويعيدها إلى الباب العالى ، فضلا عن الأوامر والتعليمات التى أصدرها إلى كليبر عند مغادرته مصر لبدء المفاوضة مع الأتراك ، على أن يبذل جهده فى الوقت نفسه لعدم إخلاء البلاد والجلاء عنها حتى يحين عقد الصلح العام فى أوروبا ، بصورة تمكن الفرنسيين من الاحتفاظ بها فى النهاية — وجد الإنجليز ، أو بالأحرى بت وأنصاره فى ذلك كله ما يسوغ عدم الاطمئنان إلى نوايا القنصل الأول ، ورفض المفاوضة معه . زد على ذلك أن مجىء الحملة إلى مصر كان — على حد قول بت — اعتداء صريحا على الباب العالى

صديق الإنجليز وحليفهم ، كما كان الغرض منه تهديد الإنجليز فى الهند وطردهم منها ، وآية ذلك محاولة بونابرت إنشاء الصلات الوثيقة مع تبوصاحب (١) .

ومع ذلك فقد وجدت طائفة من رجال السياسة الانجليز الذين خالفت آراؤهم بصدد الصلح مع فرنسا ماذهب اليه بت Pitt وصحبه ؛ اذ كانوا لايرون من الحكمة أن ترفض حكومتهم المفاوضة للوصول الى صلح ، من نتائجه المنتظرة إخلاء مصر وجلاء الفرنسيين عنها دون إطلاق رصاصة واحدة . بل ذهب المعارضون لحكومة بت الى أبعد من ذلك ، عندما قوى الشعور رويداً رويداً بأن الفرنسيين قد قطعوا مرحلة كبيرة فى سبيل توطيد أقدامهم فى مصر ؛ حتى إنه صار فى استطاعة علمائهم أن يطوفوا فى أنحاء البلاد ، باحثين منقبين عن آثارها فى أمن وطمأنينة ، يعدون بحوثهم العلمية فى سلام وينشرونها ، وتنقل الصحف الانجليزية ذاتها بعض هـــذه البحوث والدراسات الممتعة .

وكانت المعارضة فى مطالبتها بضرورة المفاوضة مع القنصل الأول إنما تعبر عن شطر كبير من الرأى العام الانجليزى . ثم سرعان ما أخذ الموقف يتغير بصورة دعت الحكومة ذاتها إلى التفكير جديا فى تغيير خطتها ، وقبول الدخول فى مفاوضات مع القنصل الأول ، وتدبير أمر خروج الحملة وجلاء جيش الشرق عن مصر . فقد نجم عن انتصار بونابرت الحاسم فى موقعة مارنجو (١٤ يونيه ١٨٠٠) أن دخل تغيير كبير على الموقف السياسى فى القارة ، سبق ذكر بعض آثاره ، وأهمها عقد الهدنة بين النمسا وفرنسا تمهيداً لخروج النمسا من المحالفة الدولية ضد حكومة القنصل الأول ، ثم بداية التفاهم بين فرنسا وروسيا ، ذلك التفاهم الذى أسفر عن عقد محالفة الحياد المسلح الرباعية (فى ٢ ديسمبر ١٨٠٠) . ثم بداية الكلام عن ذلك (المشروع الشرقى العظيم) الذى ابتغى بونابرت من تحقيقه طرد الانجليز من الهند بمعاونة الروسيا . فكان من أثر هذا التحول تسليم حكومة بت بضرورة المفاوضة ، وتصريحها بذلك على لسان سفيرها فى فينا اللورد منتو Minto منذ أغسطس ١٨٠٠ ، على نحو ماسبق بيانه . وكان انحياز روسيا إلى جانب فرنسا ، وموافقة بول الأول قيصرها على مشروع بونابرت الشرقى ، مصدر مخاوف عظيمة لانجلترة على إمبراطوريتها فى الهند خصوصا . وحاول بت إفساد سياسة القنصل الأول مع روسيا بالعمل على إزالة أسباب سوء التفاهم بين حكومته وبين القيصر ، فغادر السير هوم بوبهام Sir Home Popham لندن إلى

---

(١) Charles-Roux II 87.

روسيا لهذه الغاية فى نوفمبر ١٧٩٩ . ولكنه لم يصل إلى بطرسبرج إلا بعد فوات الوقت ، عندما كان سوء التفاهم بين الدولتين قد بلغ ذروته .

وقد أدرك الواقفون على حقيقة الأمور خطورة هذا التحول الذى طرأ على سياسة روسيا ، فكتب أبوت Abbott عضو شركة الليفانت إلى جرنفيل فى ٢٠ نوفمبر ١٨٠٠ يذكره بمشروعات القيصرة كاترين الثانية ، التى كانت تهدف إلى افتتاح الشام وفلسطين ومصر ، وإرسال حملة إلى الهند عن طريق مصر بعد فتحها ، وكان أبوت قد أقام ردحا من الزمن قبل ذلك فى بطرسبرج . ثم ما لبثت أن ظهرت آثار هذا التحول بعد ذلك عندما جاءت الأخبار إلى لندن فى شهر ديسمبر تذكر أن الجنرال تمارا Tamara ، « سفير » روسيا فى القسطنطينية ، قد طلب من الباب العالى عدم السماح للانجليز بإنزال جنودهم فى مصر ، إذ يعتبر القيصر موافقة تركيا على ذلك عملا عدائياً ضد روسيا[1] . وانزعج اللورد الجين Elgin السفير الإنجليزى فى القسطنطينية أيما انزعاج بسبب هذه المحالفة « المنتظرة » بين فرنسا وروسيا ، وما كانت تحمل فى طياتها من أخطار جسيمة ، ليس فقط على مستقبل الامبراطورية العثمانية ، بل على مصير ممتلكات الإنجليز فى الهند ذاتها . وراجت الإشاعات المثيرة فى القسطنطينية وفينا وبغداد وبومباى بالهند عن ذلك المشروع الشرقى الذى كثر الحديث عنه أخيراً فى بطرسبرج وباريس ، حتى إن اللورد ولزلى ما لبث أن وجد من الحكمة وأصالة الرأى أن يتخذ للأمر عدته ، فبعث إلى فارس الكابتن مالكولم Malcolm أحد ضباطه منذ أواخر ديسمبر ، ليعقد معاهدة دفاعية هجومية مع الشاه ؛ نجح مالكولم فى عقدها فى يناير من العام التالى .

إزاء ذلك كله لم يكن هناك معدى عن تحول الحكومة الانجليزية عن موقفها ، وقبول الدخول فى المفاوضة مع فرنسا لإخراج جيش الشرق من مصر ، ثم اتخاذ كل إجراء من شأنه طرد الفرنسيين من هذه البلاد بقوة السيف والمدفع فى النهاية . على أن هناك أمرين لا مندوحة عن ذكرهما : أولهما أن طرفا من هذه الإجراءات العسكرية كان قد بدأ التفكير فيه والعمل على تنفيذه ، فى وقت كان (بت) لا يزال مصمما على رفض أى اتفاق يسمح بانسحاب الحملة من مصر بالطرق السلمية ؛ ويرى أن تتحمل تركيا وحدها عبء القتال ضد الفرنسيين ، بينما يحصر الانجليز جهودهم فى تقديم « مساعدات » ثانوية لتخفيف شىء من الضغط الواقع على العثمانيين . وقد نجم عن

---

(١) Letters of Lord St. Vincent 161

هذه الخطة تجهيز حملة فى الهند وإرسالها إلى مصر عن طريق البحر الأحمر . والأمر الثانى أنه بمجرد أن حدث ذلك التحول الذى أفضى إلى قبول المفاوضة مع (أوتو) فى لندن منذ أغسطس ١٨٠٠ ، ثم تبين للانجليز عجز الأتراك عن القيام بأى عمل عسكرى ناجح ضد جيش الشرق فى مصر ، قررت حكومتهم الاشتراك جديا فى القتال الدائر ضد الفرنسيين ، وأسفر هذا القرار عن خروج حملة البحر الأبيض بقيادة السير رالف ابركرمبى إلى الشواطىء المصرية .

حملة البحر الأحمر :

وكان تقرير إرسال حملة من الهنـــد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر يحمل فى طياته معنى إخفاق تلك الخطة التى تمسكت بها الحكومة الانجليزية ، منذ ذهاب الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام ١٧٩٨ . وهى أن يترك للعثمانيين وحدهم واجب تحطيم جيش الشرق فى هذه البلاد . فضلا عن فشل تلك السياسة التى رسم خطوطها السير سدنى سميث ، وأفضت إلى إبرام اتفاق العريش . وهى أن يجلو الفرنسيون عن البلاد طوعا ، وبرضاء طرفى النزاع الأصليين — أى الأتراك والفرنسيين — وقد تقدم كيف أن الحكومة الانجليزية اضطرت إلى قبول اتفاق العريش بعد أن نقضته ، وإن جاء هذا القبول متأخراً [١] ، وكان من أثر استئناف القتال وانتصار كليبر فى معركة هليوبوليس (فى ٢٠ مارس ١٨٠٠) أن عادت انجلترة إلى التمسك بخطتها الأولى .

ومع ذلك وجد من بين الانجليز فريق رأى من حسن السياسة عدم الاعتماد على الأتراك وحدهم فى مناضلة جيش الشرق ، وخالفوا (بت) رئيس الحكومة فى اعتبار أمر الحملة الفرنسية على مصر منتهيا ، ومصير الحملة إلى الفشل لا محالة بسبب « فرار » بونابرت . فقد أكد سدنى سميث أن بونابرت لن يترك مصر وشأنها ، وأنه سوف يرسل النجدات إليها بكل وسيلة ؛ وكتب دنداس Dundas أحد أعضاء الحكومة البارزين إلى (بت) فى نوفمبر ١٧٩٩ : أنه يتعذر عليه اعتبار الحملة « منتهية » إذا كان الفرنسيون لا يزالون محتفظين بجيش كبير فى مصر [٢] . وكان من أثر هذا الاختلاف فى الرأى أن اضطر (بت) إلى اتخاذ قرار عاجل فى مسألة مشاركة العثمانيين فى عملياتهم العسكرية ضد الحملة ، وتحديد مدى هذه المشاركة ، عندما وقفت حكومته على وجه الخصوص موقف المعارضة من تلك المفاوضات التى بدأها كليبر فى الشهر

---

(١) ثم انظر شكرى ٣٢٩

(٢) Charles - Roux II 85, 106

نفسه ، من أجل إخلاء مصر بالطرق « السلمية » فارتأى (بت) (رسالته إلى دنداس فى ١٢ ديسمبر ١٧٩٩) أن الواجب يقتضيه ، وقد أصدر تعلياته إلى أمراء الأسطول فى البحر الأبيض ، لمنع الجيش الفرنسى من العودة إلى أرض الوطن ، والإصرار على تسليم جنوده كأسرى حرب فحسب ، أن يبذل المساعدة للأتراك حتى يخفف بعض الشىء من عبء النضال ضد جيش الشرق عن كواهلهم. أما هذه المساعدة التى قر رأى بت على التقدم بها فكانت إرسال حملة من الهند إلى مصر عن طريق البحر الأحمر .

على أن مما تجدر ملاحظته أن اتخاذ هذا القرار لم يكن معناه أن بت قد عدل عن خطته الأولى من حيث الاعتماد على الأتراك فى النضال ضد الفرنسيين ، بل كان متمشيا مع تعلياته التى أصدرها إلى اللورد كيث . أميرال الأسطول الانجليزى فى البحر الأبيض ، ومتمما لها ، والغرض منه منع جلاء الحملة عن مصر بالطرق السلمية على النحو الذى أراده كليبر والسير سدنى سميث ورجال السفارة الانجليزية فى القسطنطينية فضلا عن الباب العالى نفسه . بل إن الأسباب التى حملت (بت) على بذل بعض المساعدة للأتراك ، فى صورة إرسال حملة من الهند عن طريق البحر الأحمر ، كانت فى جوهرها أسبابا (سياسية) ولا تمت إلى خطط الدفاع والهجوم العسكرية بصلة وثيقة ، ذلك أن خروج مثل هذه الحملة الانجليزية من الهند من شأنه أن يكسر من حدة غضب الأتراك ، ويزيل شيئاً من ذلك الأثر السيء الذى أحدثه فى نفوسهم رفض الاتفاق العثمانى الفرنسى ، ويكسبهم شجاعة جديدة على المضى فى النضال ، ويمنعهم من محاولة الخروج من المحالفة التى عقدوها مع الانجليز (منذ يناير ١٧٩٩) .

وثمة ملاحظة أخرى هى أن هذه « المساعدة » التى قرر بت القيام بها لم تكن جدية بالصورة التى تمكن الحليفتين (انجلترة وتركيا) من إنزال الهزيمة الحاسمة بجيش الشرق ، والبت فى أمر المسألة المصرية نهائياً . لأن الحملة المزمعة كانت تتألف من خليط من الهنود والإنجليز ، ولا تدل على أن انجلترة قد أخذت على عاتقها فعلا عبء العمليات العسكرية الكبيرة ، فضلا عما يلزم من زمن طويل لوصول هذه الحملة الهندية إلى السويس أو غيرها من الموانى المصرية فى البحر الأحمر . وقد نجم عن عدم الرغبة فى مشاركة العثمانيين جديا فى جهودهم العسكرية ، رفض التفكير فى إرسال قوات إنجليزية إلى مصر عن طريق البحر الأبيض . وعندما بحثت الحكومة الأخطار التى يمكن أن تتعرض لها حملة الهند ، إذا أقدمت على عمليات عسكرية ، دون أن تلقى تأييداً كاملاً من ناحية البحر الأبيض ، قر رأيها على تأجيل إرسال حملة الهند « حتى تأتى الفرصة المناسبة » .

ومع ذلك فقد فكر آخرون قبل (بت) فى إمكان إرسال (حملة هندية) إلى مصر ، واختلف مقصدهم من الحملة عن أغراض رئيس الحكومة الإنجليزية . من هؤلاء دنداس وسدنى سميث وإلجين ، بل ورجال الباب العالى نفسه فى القسطنطينية . وظل التفكير فى أمر هذه الحملة ، وضرورة الإسراع بإرسالها مع نجدات كافية ، يشغل أذهان الصدر الأعظم ورجال السياسة والحرب الإنجليز ، الذين قصدوا معسكر الصدر فى يافا ، أو أشرفوا على تنظيم جيوشه .

وكان غرض كل هؤلاء أن تشترك هذه النجدات الإنجليزية الهندية اشتراكاً فعالا فى الحرب الدائرة ، وبصورة تمكن من إلحاق الهزيمة بجيش الشرق ، وطرد الفرنسيين من مصر فى النهاية .

ويعود تفكير دنداس فى ضرورة إرسال الحملة الهندية إلى وقت ذيوع أنباء تحطيم أسطول برويس فى معركة أبى قير البحرية ، فاقترح إرسال أحد الضباط الإنجليز (الكولونيل ميتلاند Maitland) إلى البحر الأحمر للكشف والاستطلاع .

ومن المحتمل أن يكون إلجين قد فكر فى ذلك أيضا من نفسه أو عن طريق السير سدنى سميث [١] ؛ وقد كتب كلاهما إلى (ولزلى) حاكم الهند يسألانه الرأى فى ذلك ؛ ولم يشجع ولزلى إرسال حملة من الهند ، بدعوى قلة مالديه من جنود كان لا يزال بحاجة لاستخدامهم فى عملياته العسكرية فى الهند . أما فى القسطنطينية فقد بدأ بحث هذا الموضوع منذ أن عرف نزول الفرنسيين فى مصر .

وكتب سبنسر سميث ، الوزير الإنجليزى بالقسطنطينية وقتئذ ، إلى مانستى (Manesty) ، وكيل شركة الهند الشرقية التجارية فى البصرة ، فى ضرورة توجيه عناية حكومة الهند إلى البحر الأحمر ، واتخاذ وسائل الحيطة والحذر ، لمنع بونابرت الذى نزل فى مصر ، من تهديد مصالح الإنجليز فى الهند ، كما أوضح له أن العثمانيين أنفسهم قد أظهروا هذه الرغبة (٢٨ يوليو ١٧٩٨) ، وفضلا عن ذلك فقد بادر سبنسر سميث بإبلاغ هذه الأخبار إلى اللورد جرنفيل (٤ أغسطس) ، وبعث إليه بصورة من كتابه إلى مانستى [٢] .

وعلى ذلك فقد وجد اللورد إلجين والسير سدنى سميث ، عند حضورهما إلى

---

(١) Fortesque. IV. 2. 803

(٢) Charles - Roux I. 65

القسطنطينية ، فكرة الاستنجاد بحملة من الهند مختمرة فى أذهان رجال السفارة من جهة ، وفى أذهان الأتراك من جهة أخرى . وطفق سدنى سميث يدعو إلى إرسال حملة من الهند عن طريق البحر الأحمر ، لنجدة الأتراك عند زحف بونابرت على الشام ، وتشديده الحصار على عكا ، ثم عقب انسحابه إلى مصر وهزيمة العثمانيين فى موقعة أبى قير البرية[١] . حتى إذا ما بدأت (مفاوضات العريش) عاود سدنى سميث الكرة ، فاقترح إذا أخفقت مباحثاته مع ديزيه وبوسيلج أن تأتى حملة من الهند ، لأن الفرنسيين كانوا يرهبون على حد قوله غزاة الهند وفاتحى ميسور ، ويخشون من ظهورهم فى الصعيد . بينما لا تزعجهم بتاتا جيوش الصدر الأعظم التى ينعدم فيها النظام ، وتشيع فيها الفوضى ، فضلا عن أن جيش الشرق ، وقد نقصت قواته إلى حوالى الثمانية عشر ألف رجل تقريباً ، كان يدرك خطورة التعرض لهجوم مزدوج عليه من ناحيتى البحر الأبيض والبحر الأحمر فى وقت واحد[٢] .

وعندما نقض الإنجليز اتفاق العريش ، وأوقع كليبر الهزيمة بجيش يوسف ضيا الصدر الأعظم فى هليوبوليس (٢٠ مارس ١٨٠٠) ، استأنف سدنى سميث مساعيه فى لندن ، لكى تصدر أوامرها بخروج حملة الهند ، وكتب إلى اللورد مورننجتون (ولزلى) ، يطلعه على حقيقة الموقف فى مصر ، حتى يأخذ الأهبة لإرسال هذه الحملة بمجرد وصول أوامر الحكومة الإنجليزية إليه فى ذلك[٣] . واعتنق اللورد إلجين السفير الإنجليزى الجديد — منذ وصوله إلى القسطنطينية فى نوفمبر ١٧٩٩ — فكرة استقدام حملة من الهند لتأييد عمليات العثمانيين العسكرية ، فظل خلال الشهور التالية يكتب إلى دنداس فى لندن ، وإلى مورننجتون فى الهند ، فى شأن القيام بعمل عسكرى هام فى البحر الأحمر ، يضعف مقاومة العدو ، ويعجل إجلاء الفرنسيين عن مصر وطردهم منها[٤] .

وأجمع الثقاة الإنجليز فى جيش الصدر الأعظم على ضرورة إرسال حملة من الهند للقيام بعمليات عسكرية فى الصعيد على وجه الخصوص ، فى نفس الوقت الذى يحارب فيه الأتراك الفرنسيين فى الوجه البحرى . فقرر هذا الرأى (موريه) Morier

---

(١) Drompore Papers, V 480; Barrow I. 314 Sq

(٢) رسالة سدنى سميث إلى مورننجتون من يافا فى ٩ نوفبر ١٧٩٩

(٣) Barrow II 39

(٤) رسالة ٥ فبراير ١٨٠٠

سكرتير اللورد إلجين ، الذى أرسله السفير إلى معسكر الصدر الأعظم فى يافا ، لتدبير تحطيم جيش الشرق بالاشتراك مع العثمانيين غدرا وخيانة ، بعد تسليم كليبر المنتظر بعد إبرام اتفاق العريش[١] ، ومكث فى المعسكر العثمانى مدة أقنعته بضرورة إرسال قوات إنجليزية من الهند ، لمعاونة جيش الصدر فى حربه ضد الفرنسيين . وانبرى يؤيد هذا الرأى كذلك الجنرال كوهلر Koehler الذى بعثت به الحكومة الإنجليزية لإدخال شىء من النظام فى جيش الأتراك ، وأقام وقتئذ مع الصدر الأعظم فى معسكره بيافا . فأشار بضرورة إرسال حملة من الهند إلى القصير ، كى تساعد بنشاطها فى الصعيد عمليات الجيش العثمانى على الحدود الشامية ، وتتاح الفرصة بذلك للقيام فى وقت واحد بهجوم واسع النطاق على مراكز الفرنسيين الموزعة بين الإسكندرية ودمياط والسويس والقاهرة ، وفى الوجه القبلى . وفى رأى أحد المؤرخين[٢] أن ما أشار به (كوهلر) وقتئذ كان نفس النظرية التى بنى عليها العسكريون ورجال السياسة الإنجليز خططهم ، وزاد الاقتناع بها رويدا رويدا فى لندن وكلكتا ويافا ، حتى استندت إليها عمليات حملة ١٨٠١ ، التى انتهت بالانتصار على الفرنسيين وإخلاء جيش بونابرت من مصر .

ومع أن (مورنتجتون) أو (ولزلى) كان يرفض فى بادىء الأمر على نحو ما رأينا إرسال جزء من جيشه إلى البحر الأحمر ، بدعوى حاجته إلى كل قواته بالهند ، فإنه مالبث أن أبدى استعداده لإجابة هذه الرغبة ، بمجرد أن انتهت حملته ضد تيبوصاحب فى ميسور (فى مايو ١٧٩٩) ؛ وشرع يبحث جديا مع ضباطه مشروع الحملة المنتظرة وكان من رأيه أن الاكتفاء بإرسال جيش عن طريق البحر الأحمر ، للقيام بعمليات واسعة النطاق فى الصعيد ، لمجرد شغل الفرنسيين وإرغامهم على توزيع قواتهم على نحو ماقصده بت ، أمر لا جدوى منه ، ولا ينجم عنه سوى إهراق الدماء ، وتبديد الأموال دون طائل ، وذلك ما دام هذا الجيش لا يلقى معاونة صادقة من ناحية حملة أخرى قوية تنزل فى مصر من ناحية البحر الأبيض[٣] . أما إذا كان الغرض من إرسال جيش الهند القيام بعمليات ثانوية ضد مراكز الفرنسيين القليلة على شاطىء البحر الأحمر ، فلا خطر فى محاولته ذلك ، بل يرجو مورنتجتون أن تعود هذه المحاولة بفائدة دون تحمل نفقات كثيرة .

---

(١) Ghorbal 116, 295 — 6

(٢) Charles - Roux. II. 111 — 2

(٣) رسالة من مورنتجتون إلى دنداس فى ٥ مارس ١٨٠٠

ولما كانت الحكومة الإنجليزية لاتزال معتمدة فى القتال على جهود العثمانيين العسكرية فحسب ، ولا تريد إرسال حملة إنجليزية على مصر عن طريق البحر الأبيض ، فقد أصر ولزلى على اجتناب القيام بعمليات واسعة النطاق فى البحر الأحمر ، ولم يثنه عن عزمه سوى إلحاح أصحاب مشروع الحملة الهندية الأولين ، أمثال إلجين وسدنى سميث وغيرهما، فانصاع ولزلى رويدا رويدا إلى رغبة هؤلاء ، وأخذ يميل منذ يوليو ١٨٠٠ إلى إرسال جزء من جيشه إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ، دون انتظار معاونة حملة إنجليزية أخرى كبيرة ، تنزل فى هذه البلاد عن طريق البحر الأبيض . ثم زاد من اقتناعه أخيراً بضرورة التعجيل باتخاذ هذه الخطوة ، ما صار يصل إليه بعدئذ من أخبار انتصارات القنصل الأول العسكرية والسياسية فى أوروبا ، حتى بات يخشى أن يعتزم بونابرت نجدة جيش الشرق ، إما بتصويب ضربة قاتلة ضد الإنجليز فى الهند ، وإما بالاستيلاء على منافذ البحر الأحمر . وعلى ضوء هذه التطورات الأخيرة إذن ، انتظر ولزلى أن تأتيه الأوامر من لندن بارسال (حملة الهند) دون إمهال إلى البحر الأحمر ، وليس لمجرد مناوشة مراكز الفرنسيين فى هذا البحر ، بل من أجل التعاون مع جيش كبير آخر يبعث به الإنجليز إلى مصر عن طريق البحر الأبيض(١) .

وانكب ولزلى على تجهيز حملته بكل همة . ولما لم تصله حتى نهاية عام ١٨٠٠ اية أوامر من لندن بصدد هذه الحملة ، فقد أخذ (ولزلى) على عاتقه مسئولية سبق هذه التعليمات « المنتظرة » ، وإخراج قوة برية مع جماعة من الجند بقيادة الأميرال بلانكت Blankett ، للقيام « ببعض » عمليات فى البحر الأحمر لا تتعدى الاستيلاء على القصير والسويس ، ثم قطع كل مواصلات العدو مع منطقة القصير ؛ وإمداد البكوات المماليك بالأسلحة والذخائر عن طريق القصير ، وإشاعة الفوضى والارتباك فى صفوف الفرنسيين . وعند ما وصلت أخبار ذلك إلى الجين فى القسطنطينية ، بادر السفير بإبلاغ ذلك كله إلى لندن فى ١٤ نوفمبر راجياً أن يتفق وصول حملة الهند إلى مصر وقيام الحلفاء الانجليز والعثمانيين بهجوم كبير على مصر من ناحية البحر الأبيض وسوريا ، حتى تتحقق أغراض حكومته(٢) . أما حملة الأميرال بلانكت فقد غادرت بمبــاى فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٠٠ .

---

(١) Charles - Roux. II. 115

(٢) Ibid . 115

حملة البحر الأبيض :

وعند ما كتب الجين إلى اللود جرنفيل فى ١٤ نوفمبر ، كان قد طرأ منذ شهر سبتمبر تعديل على خطة الحكومة الانجليزية ، من حيث نبذ فكرة الاعتماد على جهود العثمانيين العسكرية فحسب ، فى مواصلة القتال ضد الفرنسيين ، والاقتناع بضرورة الاشتراك معهم جديا من أجل طرد جيش الشرق من مصر . ومرد ذلك إلى أسباب عدة فقد عمد الانجليز إزاء انتصارات بونابرت ، فى حملته الايطالية الثانية ، إلى اتخاذ خطوات سريعة لنجدة حلفائهم فى مختلف نواحى القارة ، وتقوية مراكزهم فى البحر الأبيض ، وضمان سيطرتهم فى هذا البحر ، لمنع بونابرت من إرسال أية إمدادات إلى مصر . وفى مايو سنة ١٨٠٠ صدرت تعليمات الحكومة إلى السير رالف أبركرمبى Abercromby ، الذى خلف السير تشارلس ستيوارت فى قيادة البحر الأبيض ، ليعمل على تعزيز القوات الانجليزية الواقفة على حصار مالطة ، ثم تعزيز حامية مينورقة ونجدة النمساويين فى إيطاليا ، وبذل المعونة لأهل نابولى والبرتغاليين بصورة تمكنهم من الصمود أمام الفرنسيين إذا غزا هؤلاء بلادهم ، وأخيراً تحريك الملكيين للثورة فى جنوب فرنسا ومساعدتهم . وفضلا عن ذلك فقد اعتزم الانجليز فى أغسطس القيام « بعمليات » عسكرية ضد الموانئ الأسبانية فى فيجو Vigo ، وفيرول Ferrol ، وقادش Cadix وغيرها [١] .

بيد أن هذه الأغراض جميعها كان نصيبها الفشل ، إما لعجز الانجليز عن تحقيقها وإما لعدم تنفيذها أصلا . ذلك أن السير جيمس بلتينى Pulteney لم يلبث أن انهزم أمام فيرول فى أغسطس ، ثم اضطر أبركرمبى إلى وقف هجومه على قادش فى بداية أكتوبر ؛ وعند ما حاول الأميرال كيث إنزال النجدات فى ليفورنه وجد أن النمساويين قد مدوا هدنتهم مع الجيش الفرنسى فى إيطاليا فترة أخرى فى اتفاق كاستيليونى Castiglione ، ولم يسع كيث بسبب تفشى المرض بين جنده وما كانوا فيه من تعب وإعياء ، إلا أن يبعث بفريق منهم إلى ماهون فى مينورقه ؛ وبالآخرين إلى مالطة ، وكان كل ما أفاده الانجليز من عملياتهم إرغام مالطة على التسليم (فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠) [٢] . وفضلا عن ذلك فقد خابت الدبلوماسية الانجليزية وقتئذ فى القارة وسارت المحالفة الدولية (ضد فرنسا) حثيثاً فى طريق الانحلال ، فالنمسا المنهزمة

(١) Fortesque IV. 2. 782, 788

(٢) Bertrand II 377 — 8

تتفاوض مع القنصل الأول ، والروسيا تخرج من المحالفة ، وتركيا متعبة من النضال ؟ يجب مراقبتها عن كثب ، وبذل المعونة لها خوفا من أن تتفق مع بونابرت .

وتوقع الإنجليز أن تفلح دبلوماسية القنصل الأول فى إحياء محالفة الحياد المسلح بين دول الشمال الأربع . وبات من الواضح أن الإنجليز سوف يرغمون على إرسال جزء من أساطيلهم للعمل فى بحر الشمال ضد دول المحالفة المنتظرة ، وإضعاف قوتهم البحرية فى البحر الأبيض نتيجة لذلك . وخشى الإنجليز بسبب نقص قواتهم فى هذا البحر أن يستطيع القنصل الأول إرسال النجدات إلى مصر . أضف إلى هذا أنه كان لا يبدو أى أمل فى احتمال خروج الفرنسيين من مصر دون قتال ومقاومة منذ أن قتل كليبر ، وقضى على أنصار الجلاء والمعارضين للاستعمار فى هيئة أركان حرب الجيش ، وأعلن منو قائد الحملة الجديد تصميمه على البقاء ، وإن كان الإنجليز قد عرفوا حدوث الانقسام فى صفوف ضباط الحملة وقوادها ، من الرسائل التى صادروها أسطولهم ، فقوى لديهم الأمل تبعا لذلك فى إمكان هزيمة جيش الشرق ، إذا قر الرأى على إنزال جند أوروبيين فى الأراضى المصرية ، وترك الإنجليز خطة الاعتماد على العثمانيين وحدهم فى محاربة الفرنسيين وإجلائهم عن البلاد .

وكان مما أقنع الحكومة الإنجليزية بضرورة التعاون العسكرى مع الأتراك تعاونا جديا ، انعقاد الرأى بين ضباطهم وعمالهم فى معسكر الصدر الأعظم على أن الجيش العثمانى بحالته الراهنة عاجز كل العجز عن طرد الفرنسيين من مصر ، وما إن طلب يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم نجدة انجليزية من خمسة آلاف ، بل من عشرة آلاف جندى ، حتى انبرى الجنرال كوهلر وسدنى سميث يؤيدان طلب النجدة ، واستبد اليأس (بموريه Morier) ، بسبب ما شاهده من ضعف العثمانيين ، حتى إنه بات لا يرجو أية فائدة من نشاطهم العسكرى ما لم يسرع الإنجليز بإرسال حملة كبيره للاشتراك فى النضال إلى جانبهم ضد جيش الشرق (١) .

وكان فى هذه الظروف غير المواتية إذن أن قدم دنداس فى ٣١ سبتمبر مذكرة إلى رئيس الحكومة تبحث الموقف فى مصر خصوصا . واضطرت إلى دعوة الوزارة للانعقاد لبحث مسألتى البرتغال (حليفة الانجليز) ومصر . وقر الرأى على الدفاع عن البرتغال ، والاشتراك بصورة جدية مع الأتراك فى عملياتهم العسكرية ضد الفرنسيين فى مصر . فعهد إلى الجنرال بلتينى بالمهمة الأولى ، بينما عهد إلى السير

---

(١) Charles - Roux II 113 — 8

رالف أبركرمبي بالمهمة الثانية . وفى بداية شهر أكتوبر من عام ١٨٠٠ ، أصدر دنداس طائفة من التعليمات إلى السير رالف ، تأمره بالذهاب مع خمسة عشر ألف جندى إلى إحدى الموانى المناسبة فى قبرص أو كريت أو آسيا الصغرى ، للعمل مع قواد السلطان العثمانى ، والتعاون معهم من أجل الاستيلاء على الإسكندرية . وقدر دنداس عدد قوات الفرنسيين فى مصر بحوالى ثلاثة عشر ألف جندى ، منهم ثلاثة آلاف تقريبا فى حامية الإسكندرية ، بينما ظلت بقية قواتهم موزعة فى الوجه البحرى وعلى الحدود الشامية . وتوقع (دنداس) سقوط الإسكندرية بسهولة لضعف تحصيناتها من جهة ، ولعجز العدو عن منع الانجليز من تضييق الحصار عليها ، ثم انحلال الروح المعنوية لدى الفرنسيين الذين نفد صبرهم ، وصاروا يتوقون للعودة إلى الوطن بكل سرعة وبأية وسيلة .

وعلى ذلك فقد طلب إلى أبركرمبي أن يعرض على الفرنسيين نقل حاميات الإسكندرية وسائر الحاميات فى مصر إلى فرنسا ، ويعمل على إذاعة هذه العروض بين صفوف العدو إذا رفضها منو وقواد الحملة . ثم منع أبركرمبي من الزحف داخل البلاد بعد سقوط الاسكندرية والموانى الأخرى ، إلا إذا وجد ضرورة لهذا الزحف وكان من شأنه مساعدة العثمانيين على اجتياز الحدود من جانبهم ، والتقدم فى داخل البلاد . وأخيراً ذكرت التعليمات تلك الأوامر التى صدرت إلى الهند من أجل إرسال حملة من خمسة آلاف جندى للاستيلاء على موانى البحر الأحمر التى فى حوزة العدو ، وإضعاف جيش الشرق بسبب قيام هذه العمليات العسكرية فى مؤخرته . وفى ٦ أكتوبر(١) كتب دنداس إلى (ولزلى) حاكم الهند العام ينبئه بقرار الحكومة ورغبتها فى إرسال قوة من ألف من المشاة الانجليز ، وألفين من الهنود للعمل من ناحية البحر الأحمر . وبعث كذلك بالكتب فى هذا الشأن إلى كلايف Clive حاكم مدراس وإلى دنكان Duncan حاكم بمباى فى الوقت نفسه .

ثم لم تكتف الحكومة الانجليزية بتجهيز هاتين الحملتين (حملة البحر الأبيض وحملة البحر الأحمر) لمعاونة الأتراك ، بل عملت أيضا على تجهيز حملة ثالثة بقيادة السير هوم بوبهام بعد عودته من مهمته الفاشلة فى بطرسبرج ، فعهدت الحكومة إليه بالخروج فى أسطول صغير ، لنقل ما يجمع من جنود فى رأس الرجاء الصالح يذهب بهم إلى بمباى ، ثم يحمل ما يستطيع من القوات الهندية المعدة للابحار كذلك إلى

---

(١) Fortesque IV. 2. 799 Et Sqq

البحر الأحمر ، فيذهب بهم إلى هذا البحر ويعمل على الاتصال ببقية وحدات الأسطول وحملة الأميرال بلانكت ، وبذلك يستطيع الجميع الاتحاد مع القوات المرسلة عن طريق البحر الأبيض للاشتراك مع العثمانيين فى إجلاء الفرنسيين عن مصر وطردهم منها . وكان دنداس يرى أن فى استطاعة بوبهام الدخول فى بحر العرب والوصول إلى مخا فى زمن غايته شهر فبراير من عام ١٨٠١ [١] . وهكذا صدرت أخيرا الأوامر التى ظل (ولزلى) ينتظرها زمنا طويلا . فقامت الحملة الهندية إلى البحر الأحمر فى بداية ديسمبر سنة ١٨٠٠ ، ونزل الجند بقيادة الجنرال بيرد Baird فى القصير فى شهر مايو من العام التالى ، ووصلوا الجيزة فى ٧ أغسطس ١٨٠١ ، بعد تسليم القاهرة بأربعين يوما ، ثم بلغوا الاسكندرية وقت تسليم حاميتها [٢] فلم يكن لها أى أثر فى العمليات العسكرية التى أفضت إلى إجلاء الفرنسيين من مصر ، ووقع العبء كله فى ذلك على حملة البحر الأبيض .

نزول أبركرمبى فى أبى قير :

أما هذه الحملة التى نقلها أسطول اللورد كيث ، بقيادة السير رالف أبركرمبى ، فقد غادرت مالطة فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٠٠ ، ثم يممت شطر مينورقة فأقامت بهامدة استأنفت بعدها السير فى البحر (٢١ نوفمبر) ، قاصدة إلى مالطة فبلغتها فى أول ديسمبر ، ثم أقلعت مرة ثانية فى ١٧ ديسمبر بعد أن كمل استمدادها ؛ وصارت تتألف من سبعة عشر ألف مقاتل ، واتجهت شرقا عن طريق كريت ، فبلغت ميناء مارموريس على شاطىء كرمنيا Caramania بآسيا الصغرى ، فألقت مراسيها فى خليج ما كرى Macri شمال جزيرة رودس فى ٢٩ ديسمبر ، وأنزل أبركرمبى جنوده إلى الشاطىء ليأخذوا نصيبهم من الراحة بعد مشقات السفر [٣] . وكان غرض أبركرمبى من النزول عند خليج ما كرى أن يتأكد لدى العثمانين وصول الحملة ، وعزم الإنجليز على التعاون الجدى معهم ، فيحول ذلك دون مفاوضتهم مع الفرنسيين . وفضلا عن ذلك أراد أبركرمبى أن يتمهل قليلا فى سيره ، حتى يفسح الوقت لوصول حملة البحر الأحمر الهندية فى الوقت المناسب ، ويتمكن فى الوقت نفسه من العثور على عدد من الخيول كان

---

(١) Charles - Roux II 120 — 1

(٢) Reybaud VIII 320 — 1

(٣) Reybaud VIII 117 — 8 ; Walsh 105 ; Fortesque IV. 2. 806 Et. Sq

فى حاجة إليها لفرسانه ، ولنقل مدافع الحملة ، علاوة على زوارق مدفعية تركية لحماية الحملة عند نزولها على الشاطئ المصرى ، وهذا عدا بعض السفن الخفيفة التى تستطيع الدخول فى البحيرات المصرية الشاطئية(١) .

ثم كان من أهم أغراض أبركرمبى محاولة الاتفاق مع الصدر الأعظم ؛ بصدد الخطة التى يجب اتخاذها من أجل الغزو المشترك ، على أساس أن تجرى عمليات العثمانيين العسكرية من ناحية الحدود السورية ، بينما ينزل أبركرمبى وقواته فى فرع النيل الشرقى وكان أبركرمبى يبغى النزول فى يافا بدلا من الذهاب إلى الاسكندرية مخالفا فى ذلك تعليماته — حتى يشترك مع جيش الصدر الأعظم فى الزحف عبر الصحراء على الحدود المصرية ، فيجتمع الجيشان فى السويس وينتظران هناك وصول الحملة الهندية ، ثم تستأنف الجيوش الثلاثة زحفها على القاهرة (٢) . وأرسل ابركرمبى إلى معسكر الصدر فى يافا الجنرال سيرجون مور Moore للاتفاق مع يوسف ضيا باشا بصدد ذلك كله ، وقد ظل أبركرمبى رابضا فى مارموريس طول شهرى يناير وفبراير سنة ١٨٠١ ينتظر عودة مور من مهمته ، وإقبال الأتراك على تزويده بالخيول والمهمات اللازمة ، وجمع السفن ورجال المدفعية فى رودس . غير أن العثمانيين لم يزودوه بحاجته كما أنهم لم يجمعوا شيئاً فى رودس مما طلب إليهم ، على الرغم من المساعى التى بذلها إلجين فى القسطنطينية لهذه الغاية ووعود الباب العالى الكثيرة .

أما (مور) فقد رجع من يافا فى ٢٢ يناير يحمل أنباء غير مطمئنة عن حالة الجيش العثمانى السيئة وجهل قواده ، ويقرر عدم جدوى الاعتماد على معاونة الأتراك ، أو انتظار نجاح أية عملية عسكرية تجرى بالاشتراك معهم ، أضف إلى ذلك أن يوسف ضيا باشا لم يكن لديه سوى ثلاثة آلاف مقاتل تقريبا من مختلف الأجناس ، تنقصهم الأسلحة والذخيرة ، وتشيع فى صفوفهم الفوضى ، ويعجزون عن الدخول فى معارك كبيرة ويعتمد الصدر على التزام خطة الدفاع بحسب من زمن طويل؛ وزاد من اختلال الأمور فى المعسكر العثمانى كذلك وفاة الجنرال كوهلر بالطاعون ، وكان صاحب نفوذ عظيم على يوسف ضيا باشا ، وفى وسعه اقناع الأتراك بمزايا خطط الانجليز العسكرية ثم زادت الحال سوءا عندما أعلن أمير البحر العثمانى : القبطان حسين باشا ، الذى ذهب بأسطوله إلى القسطنطينية ، أنه لايستطيع العودة قبل أربعين يوما . فزال أى أمل فى إمكان

---

(١) Anderson 185

(٢) Bertrand II 379 — 80

التعاون مع العثمانيين ، وبات واضحا ألا معدى للانجليز عن الاعتماد على أنفسهم فحسب إذا شاءوا إدراك أى نجاح فى عملياتهم [١] .

وبينما كان أبر كرمبى لايزال متردداً فى اختيار الخطة التى يجب اتخاذها للخروج من هذا المأزق ، لم يلبث أن وصله خبر دخول الفرقاطتين ايجيبسين ولاجوستيس Justice وعدد من السفن الفرنسية إلى الاسكندرية ، وعرف أن أسطولا فرنسيا قد خرج من برست ودخل البحر الأبيض يحمل جندا وامدادات منوعة لنجدة جيش الشرق فى مصر . فكان لهذه الانباء أثر حاسم فى إزالة كل تردد لدى أبر كرمبى واتخاذ قرار سريع فى التو والساعة [٢] ، ومغادرة (مارموريس) إلى أبى قير والاسكندرية رأسا وكان مما عزز هذا القرار أن (مور) والقواد الانجليز فى هيئة أركان الحرب كانوا يعتبرون أن إضاعة الوقت فى (مارموريس) تفوّت على جيش السير رالف فرصة مباغتة الفرنسيين والحاق الهزيمة السريعة بهم بفضل هذه المباغتة ، وعلى الرغم مما كان يساورهم من قلق بسبب النقص الظاهر فى قوة فرسانهم ؛ وعاب مور تغيير الخطة الأصلية التى تضمنتها التعليمات وهى الإبحار رأساً إلى الاسكندرية من مالطة بدلا من الذهاب إلى شواطىء آسيا الصغرى [٣]

ولما كان من واجب أبركرمبى أن يدعو العدو إلى الجلاء عن البلاد ، والعودة إلى فرنسا قبل بدء القتال معه ، فقد وسط أبركرمبى ، منذ خروجه بالحملة من مالطة ، الصدر الأعظم لإبلاغ هذه العروض إلى منو ، وبعث بها الصدر بدوره إلى مراد بك فى بداية فبراير سنة ١٨٠١ ، وأوصلها عثمان بك البرديسى إلى القاهرة ، ولكن منو رفض الجلاء فى ظروف سوف يأتى ذكرها [٤] ، وعلى ذلك تضافرت كل هذه الأسباب مجتمعة ، لإقناع أبركرمبى بضرورة العمل فورا ، ثم الرجوع إلى خطته الأولى ، أى الذهاب إلى الاسكندرية بدلا من دمياط . وفى بداية يناير كانت قد وصلت إلى (مارموريس) النقالات التركية المعدة لنقل الخيول بحراً ، وكان يجرى تجهيزها فى أزمير ، كما وصلت بعض زوارق المدفعية التركية من رودس ، ووصلت فى الوقت نفسه من مالطة بقية قطع الأسطول الانجليزى . وفى ١٤ يناير وصل سير ريشارد بكرتون

---

(١) Walsh 54—5; Reybaud VIII 116; Fortesque IV. 2. 802—8

(٢) Bertrand II 380

(٣) Moore I 397 — 9

(٤) Reyb ud VIII 108 — 9

Bikerton على ظهر سفينته سويفتشور Swiftsure ، والسير سدنى سميث على سفينته (تيجر) Tigre ، كما وصل إلى (مارموريس) فى اليوم نفسه قائد البحرية التركية[١]. وقر الرأى فى مجلس حربى على أن يكون نزول الحملة فى أبى قير ، ثم تبدأ الزحف منها على الاسكندرية . وفى ١٧ فبراير اجتمع القواد على ظهر البارجة كنت Kent وشرح لهم السير رالف أبركرمبى الغرض من الحملة وأصدر إليهم تعلماته النهائية[٢] .

وفى ٢٣ فبراير غادر الأسطول (مارموريس) قاصدا الشواطىء المصرية . وكان يتألف من سبع بوارج وست فرقاطات مسلحة ، وتسع وثلاثين غير مسلحة ، وقرويت واحدة وثلاثة أباريق ، عدا ثمان نقالات مسلحة ، أما الأسطول العثمانى فكان يتألف من عشر بوارج وثمان قراويت ولكن سرعان ماهبت عاصفة شديدة ألقت الرعب فى قلوب العثمانيين ، فانفصلت قافلتهم عن الأسطول ، ولجأت إلى الجزر المجاورة ؛ وحرم الانجليز من معاونة الأتراك ، وبات من الواجب الاعتماد على أنفسهم لحسب فى العمليات التالية[٣] . وكان أسطولهم يحمل جيشاً إنجليزياً من حوالى خمسة عشر ألف جندى من المشاة ، وألفين ومائتين من الفرسان ، وستمائة مدفعى ؛ وقائده العام السير رالف أبركرمبى . ثم يليه فى القيادة الجنرالات : السير هيلى هتشتسون Hely Hutchinson ، كوت Coote ، كرادوك Cradock ، كفان Cavan ، مور Moore ، يليهم دويل Doyle ، ستوارت Stewart . ثم فنش Finche ولوسون Lawson[٤] . ووصل الأسطول أمام الإسكندرية على مسافة تسعة أميال من الشاطىء تقريباً ، فى أول مارس سنة ١٨٠١ — وفى اليوم التالى ألقى الأسطول مراسيه فى خليج أبى قير على مسافة سبعة أميال من الشاطىء . وحال هبوب العواصف دون إنزال الجنود إلى الشاطىء . حتى إذا هدأت الريح فى ٦ مارس . هاجمت بعض سفن المدفعية بقيادة السير سدنى سميث طابية فرنسية صغيرة عند مدخل بحيرة المعدية (أبى قير)[٥] .

وكان أبركرمبى ، قبل قيام الأسطول إلى أبى قير بأيام قليله ، قد أرسل ضابطين للاستطلاع على الشاطىء المصرى عند (مرابط) وفى خليج أبى قير ؛ فوصلا إلى جهة مرابط فى ليل ٢٧ فبراير ونزلا إلى الشاطىء . ولكنهما لم يستطيعا العودة قبيل طلوع

---

(١) Anderson 192 — 5

(٢) Walsh, 7; Ibid App. No. 3 P. 8° 9°

(٣) Anderson 213 — 14

(٤) Reybaud VIII 120

(٥) Anderson 216 — 7

النهار ، فشاهد المدفعيون الفرنسيون سفينتهما فى بحيرة المعدية (بحيرة أبى قير) ، فقتل أحدهما بينما أسر الآخر ، وأرسل إلى القاهرة ، فوصلها فى ٢ مارس ، وعرف الفرنسيون جهة التى يقصدها الانجليز ويبغون النزول فيها ، أى فى خليج أبى قير ، وبالفعل ألقى (كيث) مراسى أسطوله فى نفس المكان الذى وقف فيه أسطول (برويس) قبل ذلك[١] . ولما كانت الريح الشديدة قد عطلت نزول الحملة إلى البر مدة ستة أيام تقريباً ، فقد بات لدى الفرنسيين من الوقت ما يكفى لاستعدادهم السريع . وانتفى عنصر المفاجأة ، زد على ذلك أنه كان فى وسعهم ، لو أنهم أحكموا التدبير ، أن يمنعوا نزول الحملة أو يلحقوا بها الهزيمة ، فقد كان من رأى (مور) الذى بعث به أبركرمبى إلى البر عند هدوء الريح فى يوم ٦ مارس للاستطلاع ، أن النزول فى هذه الجهة مخاطرة كبيرة . إذ تمكن طبيعة الأرض من تسلل قوات الفرنسيين إلى مواضع قريبة جداً من الشاطىء ، بل وإخفاء قواتهم الحقيقية عن أنظار الانجليز ، واعتقد (مور) أن فى وسع الفرنسيين كذلك أن يجمعوا جيشهم لمقابلة الانجليز ، إذا أعطاهم هبوب الرياح وتعطيل نزول الحملة الى البر الوقت الكافى ليفعلوا ذلك ؛ وتوقع مور أنهم قد بادروا بجمع قواتهم فعلا لهذه الغاية[٢] .

ومع ذلك فقد قرر أبركرمبى أن يجرب حظه ، واعتمد على ما كان لديه من معلومات دقيقة عن طبيعة الشواطىء المصرية ، أمده بها جورج بلدوين ، قنصل الإنجليز سابقا فى القاهرة منذ انضمامه إلى الحملة ، وكان أبركرمبى وكيث قد طلبا إليه الانضمام إليها ، فغادر نابولى ، حيث استقر به المقام بعد ذهابه إلى إيطاليا على أثر خروجه من مصر ، وقابل الأسطول فى مالطة ، وحضر الآن مع الحملة إلى الشواطىء المصرية[٣] . وواتى الحظ أبركرمبى ، لأن الفرنسيين لم يأخذوا أهبتهم الكافية ، ولم يعرفوا الاستفادة من مواقعهم (الاستراتيجية) فى المعارك التالية مباشرة ، فأنزل أبركرمبى أجزاء من الجيش بقيادة مور وأوكر Oaker، ثم بقيادة لادلو Ludlow، وكوت ثم عشرة مدافع ، وبلغ عدد الجميع حوالى ستة آلاف مقاتل[٤] .

وكانت طبيعة الأرض التى جرت عليها المعارك منذ وصول الحملة الإنجليزية إلى

---

(١) Bertrand 382

(٢) Moore II. 1 ; Walsh 73 ; Fortesque IV. 2. 817 Et. Sq

(٣) Charles - Roux. II 139 — 40 ; Anderson 239 — 40

(٤) Reybaud VIII 125

أبى قير ، إلى وقت تضييقهم الحصار على الإسكندرية ، من شأنها مساعدة الفرنسيين على الدفاع لو أنهم أحسنوا خططهم العسكرية ، ذلك أن المسافة بين أبى قير والإسكندرية كانت عبارة عن واد ضيق ذى انخفاض كبير ، تحد جانبيه مرتفعات صخرية ، تفصل هذا الوادى فى الشمال عن البحر الأبيض ، وفى الجنوب عن مياه بحيرة المعدية (أبى قير) ؛ ويضيق الوادى كثيراً حتى يشبه عنق الزجاجة على مسافة قصيرة من قلعة أبى قير فى طرف الخليج الشمالى الغربى . ثم يزداد ضيق الوادى قبيل الوصول إلى (معسكر قيصر) القائم على هضبة تحدها المرتفعات الصخرية فى الشرق والجنوب والغرب ، ويحده امتداد الوادى الضيق فى الشمال ، ومن وراء هذا الامتداد المرتفعات الصخرية التى تفصله عن البحر الأبيض ؛ وتكاد هذه المرتفعات ذاتها تسد الطريق إلى مرتفعات نيكو بوليس حتى أطراف الإسكندرية عند باب رشيد . وكان يمر فى الوادى الضيق طريقان أحدهما إلى الشمال من قلعة أبى قير إلى الإسكندرية ، ويعرف باسم طريق أبى قير ، والثانى فى الجنوب من رشيد إلى الإسكندرية كذلك ، ويعرف باسم طريق رشيد .

أما خلف الإسكندرية ومرتفعات نيكو بوليس ، فكانت تجرى ترعة الإسكندرية متجهة صوب الشرق ، يفصل شريط ضيق بينها وبين منخفض بحيرة مريوط القديمة ، وكانت لاتزال جافة من أزمنة طويلة ؛ ثم تجرى هذه الترعة ذاتها صوب الجنوب الشرقى بعد اجتيازها منطقة نيكو بوليس ، وتخترق شريطا ضيقا من الأرض يفصل بين بحيرة المعدية (أبى قير) وبين منخفض بحيرة مريوط ، ثم تستمر فى جريانها مارة بالبيضاء ودمنهور والرحمانية ، حتى تصب مياهها فى فرع رشيد عند سمخراط . وعلى ذلك فإن الإنجليز إذا نزلوا فى أبى قير يتعذر عليهم الزحف رأساً إلى الإسكندرية ، إلا إذا اخترقوا الوادى الضيق ، فيعرضون أنفسهم لنيران العدو ، دون أن يستطيعوا الاعتماد على أية مدفعية من جهتى البحر أو بحيرة المعدية . ولم يكن أمامهم سوى الالتفاف حول مراكز الفرنسيين ، وهذا أمر يسهل إفساده إذا أحكم هؤلاء الدفاع عنها جيدا[١] .

وكانت إذن مهمة فريان Friant قومندان الاسكندرية ، إلى جانب منع نزول القوات الانجليزية إلى البر ، محاولة وقف زحفهم فى السهل الضيق إلى الاسكندرية فبادر منذ ٢ مارس بوضع قواته على الشاطىء فى مواجهة أسطولهم . ثم أمدته الفرقاطة ريجنيريه ، فى ٤ مارس ببعض النجدات فبلغت قواته حوالى ١٤٥٠

---

(١) Richardot 387 — 9

جنديا منهم ١٥٠ فارسا ، وأرسل منو فى الوقت نفسه من القاهرة جيشاً بقيادة الجنرال لانوس ، ولكن هذه النجدة لم تصل إلى الاسكندرية عن طريق الرحمانية إلا يوم ١٠ مارس ، فاتخذت مواقعها فى (معسكر قيصر) — أو (قصر القياصرة) . فلم يستفد فريان من هذه القوات فى مناوشاته الأولى ، من أجل منع نزول الانجليز إلى البر وكان الواجب يقتضيه بسبب ضعف قواته بالقياس إلى جيش الانجليز ، أن يجمع فى أبى قير أكبر عدد مستطاع من الجند الموزعين بين رشيد وقلعتها (قلعة جوليان) وإدكو ومعسكر قيصر والاسكندرية [١] ، ولكنه بدلا من ذلك عمد إلى توزيع قواته على طول الهضبة ، وقسم المدفعية ثلاثة أقسام على جانبي الهضبة وفى وسطها ، وترك بالاسكندرية حوالى ١٢٠٠ من الجنود البحريين وستين فارساً من غير الراكبين ، ومائة وخمسين من سلاح المهندسين ، فضلا عن بقاء الجنرال زايونشك Zayonschek فى (معسكر قيصر) مع خمسمائة من المشاة وآلاى من الفرسان [٢].

فسهل على الانجليز بفضل تفوقهم العددى هزيمة فريان وتثبيت أقدامهم على الشاطىء واضطر الفرنسيون بعد أن تكبدوا خسارة فادحة إلى التقهقر ، واتخاذ مواقعهم الجديدة على المرتفعات أمام باب رشيد ، للدفاع عن مداخل الاسكندرية ، ولما كان الانجليز لم يفرغوا بعد من إنزال فرسانهم ومدفعيتهم إلى البر ، فقد تعذر عليهم مطاردة (فريان) ، وقضوا ثلاثة أيام دون حراك فى مواقعهم [٣] وكان من السهل على فريان أن ينتهز هذه الفرصة للهجوم عليهم بفضل مالديه من فرسان ومدفعية . ولأنه كان يصعب على مشاة العدو الاستمرار فى الزحف على رمال الوادى الرخوة ، دون اشتراك فرسانهم والاحتماء بنيران مدفعيتهم [٤] . ولكن فريان بدلا من ذلك شغل الوقت كله بالكتابة إلى منو يطلب اليه منذ ٨ مارس الحضور بالجيش إلى الاسكندرية على عجل من القاهرة ؛ مع العلم بأن جيش منو ما كان يستطيع الوصول الى الاسكندرية إلا بعد انقضاء أحد عشر يوما فى وقت كان يجب عليه فيه أن يحضر بالجيش الى الاسكندرية يوم ٩ مارس . لو أنه غادر القاهرة فى الوقت المناسب للاشتراك فى هذه العمليات الهامة الأولى [٥] .

---

(١) Reynier 205

(٢) Richardot 389 ؛ Rigault 295

(٣) Moore II 2 Et Sq

(٤) Richardot 392 — 3 ؛ Walsh 92

(٥) Fortesque IV. 2. 817

ومع أن قوات لانوس ، التى غادرت القاهرة فى يوم ٤ مارس ، ما لبثت أن وصلت إلى الأسكندرية فى ١٠ مارس ، وأصبح لدى فريان حوالى الخمسة آلاف جندى ، فإنه لم يحاول هجوما على الإنجليز ، بل فضل خطة الدفاع حتى يأتيه جيش منو ؛ وشغل فريان فى الأيام الثلاثة ٩ ، ١٠ ، ١١ مارس بتأمين مواصلاته بين الإسكندرية والبركة (بركة غطاس) ، طريق الإمدادات الوحيد إلى الإسكندرية ، فغادر مواقعه أمام الإسكندرية ، واحتل المرتفعات التى كانت تقوم فى عرض الوادى الضيق ممتدة من البحر إلى طرف بحيرة المعدية فكانت ميسرته تستند على معسكر قيصر بينما استندت ميمنته على ترعة (أو خليج) الإسكندرية فى جزئها الذى يفصل بين بحيرة المعدية وبين منخفض مريوط ، أما القلب فقد بات يحده من الناحية الشمالية طريق أبى قير ، ومن الناحية الجنوبية طريق رشيد . واتخذ (لانوس) فى الوقت نفسه موقعا يمكنه من الارتكاز بميسرته على معسكر قيصر ، وبسط جناحه الأيمن حتى طريق (أبى قير) وعلاوة على ذلك احتل فريق من جيش فريان بقيادة الجنرال دلاجرانج Delagrange منطقة الترعة أو الخليج ، الواقعة بين بحيرة المعدية ومنخفض مريوط . ووضع فريان الفرسان بقيادة الجنرال برون Bron فى الصف الثانى أى خلف خط القتال الأول[١] .

ووجد الإنجليز عندما فرغوا من إنزال فرسانهم ومدفعيتهم إلى البر ، وقرروا الزحف على الإسكندرية فى يوم ١٢ مارس ، أن الواجب يقتضيهم انتزاع أهم مواقع الفرنسيين فى خط دفاعهم ، وهو معسكر قيصر الذى ترتكز عليه مدفعيتهم[٢] . وفى ١٣ مارس بدأت معركة نيكوبوليس بهجوم الإنجليز على خطوط الفرنسيين وقاموا (بمغامرة) للالتفاف حول ميمنة الفرنسيين ، فسيروا طابورا لهذه الغاية ، وعندئذ بدا للجنرال لانوس أن الإنجليز قد أخطأوا التقدير ، فدخل جناحهم الأيسر بقوات قليلة فى أرض الوادى أو السهل الضيق ، وأن الفرصة قد باتت مواتية لتحطيم هذا الجناح ، فغادر موقعه الحصين وانقض بفرسانه عليهم وأمر المشاة والمدفعية بالتقدم ؛ وقام بحركة جريئة منفصلة ، إذ لم يكن لدى قوات فريان متسع من الوقت للتدخل . ولكن لانوس سرعان ما أدرك خطأه عندما انكشفت له حقيقة المناورة ، وضغط عليه الإنجليز بقواتهم المتدفقة ، فاضطر إلى التقهقر ، ولم ير فريان بدا من التراجع هو الآخر عندما شاهد ميسرة الجيش متقهقرة ، فأخلى لانوس وفريان معسكر قيصر

---

(١) Reybaud VIII. 138 — 9

(٢) Fortesque IV. 2. 825 : Wilson 19

واتخذا مواقعهما الجديدة على مرتفعات نيكوبوليس القريبة من الإسكندرية . وخسر الفرنسيون معركة ٢٢ فنتوز أو ١٣ مارس[١] ، ودخل الإنجليز معسكر قيصر ، واتخذوا منه مركزاً دفاعيا منيعا ، يصدون منه كل هجوم عليهم ، أو يجعلون منه قاعدة يعتمدون عليها عند استئناف عملياتهم العسكرية[٢] . وعزا فريان هذه الهزيمة إلى حماس واندفاع الجنرال لانوس الذى مافتئ منذ حضوره إلى الإسكندرية يبدى رغبة شديد فى الاشتباك مع الإنجليز وإلحاق الهزيمة بهم دون حاجة إلى انتظار وصول منو ، حتى لا يكون لقائد جيش الشرق الأعلى فضل فى ذلك[٣] . وقد نقد (بونابرت) فيما بعد اندفاع لانوس نقداً مراً ، وفى رأيه أنه كان يجب على لانوس عدم مغادرة مواقعه الحصينة أو التقهقر إلى باب رشيد بل إلى داخل أسوار المدينة إذا لزم الأمر ، محتميا بنيران المدفعية ، فيكسب بفضل ذلك بضع ساعات تمكنه من معرفة أعداد الإنجليز الزاحفين فى الوادى أو السهل الضيق تحت أنظاره ؛ فلو أنه فعل ذلك لأدرك خطورة المجازفة بالهجوم على جيش يبلغ أربعة أمثال جيشه[٤] .

وكان من آثار انتصار الإنجليز فى هذه المعركة أن أقبل العربان يمدون الجيش بالمؤن والأغذية ، فقد سرهم ولا شك انهزام الفرنسيين الذين كانوا يعنفون فى معاملتهم؛ وكان العربان يعرفون المستر جورج بلدوين ، القنصل الإنجليزى القديم الذى نزل الآن بينهم ، لتنظيم حركة البيع والشراء بينهم وبين الحملة ، وأفلح بالاتفاق معهم على إقامة (سوق) بالقرب من بحيرة المعدية (أبى قير) تحت إشرافه ، لتقديم المواشى والخيول والجمال وما إلى ذلك إلى الجيوش الإنجليزية[٥] . وفضلا عن ذلك فقد تسبب عن تقهقر فريان وعزل حامية أبى قير الفرنسية أن سقطت قلعة أبى قير فى أيدى الإنجليز فى ١٨ مارس ، وسلمت الحامية بقيادة دالهوسى Dalhousie وفيناش Vinache كأسرى حرب ، بعد أن أقام الإنجليز على حصار القلعة منذ نجاح عمليات نزولهم إلى البر[٦] ؛ ثم أنشأ هؤلاء خطين جديدين من التحصينات : أحدهما قريبا من ترعة

---

(١) Reybaud VIII 141 — 6; Walsh 86 — 92; Wilson 19 — 23; Reynier 213 — 8

(٢) Fortesque IV. 2. 826—9; Walsh 86—92; Wilson 19—23

(٣) Rigault 297 — 8

(٤) Bertrand II 432 — 3

(٥) Anderson 239 — 44

(٦) Anderson 244— 6; Martin II 183

(أو خليج) الاسكندرية ، والآخر أمام قصر القياصرة (معسكر قيصر) ؛ ولما كان غرضهم عزل الاسكندرية ؛ ووجدوا أن منخفض مريوط لا يصلح للعمليات العسكرية ، فقد اعتمدو على إحراز السيطرة التامة على منافذ الترعة ، ومراقبة حدود الاسكندرية الجنوبية من بحيرة المعدية ، فاستولوا على قرية البيضاء ، وأدخلوا عدداً عظيما من زوارق المدفعية فى البحيرة ، ووضعوا بطاريات قوية على طول الخط الممتد على منافذ الترعة [١] . أما فريان فإنه لم يستطع فعل شىء بسبب قواته الضعيفة ، وظل ينتظر وصول النجدات وحضور منو على رأس الجيش من القاهرة .

منو فى القاهرة :

وصلت أخبار نزول الإنجليز فى أبى قير وعملياتهم العسكرية . وطلب فريان النجدة من القاهرة ، إلى منو فى وقت كان قائد الحملة العام ما يزال مشغولا بخلافاته مع كبار قواده ، وإعداد مشروعاته « الإصلاحية » العظيمة ، وجمع « المليون » الذى تقدم الحديث عنه فى الفصول السابقة لسد العجز الظاهر فى مالية الحملة ، وفرض الأتاوات والمغارم . ومع ذلك كان منو يعلم منذ شهرى ديسمبر سنة ١٨٠٠ ويناير من العام التالى أن الأتراك والإنجليز يستعدون لإرسال حملة كبيرة على مصر ، ثم لم يلبث أن جاءته الأخبار فى فبراير منبئة بعزم الإنجليز على النزول فى شاطىء البحر الأبيض ، وتوقع حدوث الغزو فى جهة أبى قير والاسكندرية ، ولكنه لم يتخذ أى إجراء حاسم لتقوية الدفاع عن أبى قير والاسكندرية ، بل ظل متمسكا بخطة للعمليات العسكرية من أجل الدفاع عن مصر ، دلت على عدم درايته بفنون الحرب والقتال ؛ وفى هذه الخطة على تقديرات خاطئة . وذلك على الرغم من المحاولات التى استمر يبذلها أقدر قواده لإظهاروجود الخطأ الجسيم فى مسلكه . فقد بعث إليه دوتزيلو فى ٤ يناير ١٨٠١ بخطاب من مراد بك تحدث فيه صاحبه عن وصول حملة انجليزية كبيرة إلى رودس للانضمام إلى الأتراك فى زحفهم عبر الصحراء على حدود مصر الشرقية . ثم بعث إليه برسالة أخرى فى ٢ فبراير عن رغبة الصدر الأعظم فى أن يتوسط مراد مع الفرنسيين من أجل عقد الصلح ؛ وكتب (دوتزيلو) فى اليوم نفسه إلى (رينييه) كذلك يخبره بحضور عثمان بك البرديسى من قبل مراد يحمل الخراج إلى القاهرة ولكى يتحدث فى بدء المفاوضات المزمعة بين الصدر ومنو . ووصل عثمان بك البرديسى

(١) Martin II 182 — 3

فعلا إلى القاهرة لهذه الغاية فى ٧ فبراير . وتأكد لدى منو اشتراك الانجليز مع العثمانيين فى الهجوم المنتظر .

بيد أنه سرعان ما نجمت عن بعثة البرديسى هذه ومكاتبات دونزيلو نتائج خطيرة ، كان لها أكبر الأثر فى خطط منو وإجراءاته التالية . ذلك أن (دونزيلو) أكد فى رسائله أن الصدر الأعظم « يطرق كل باب من أجل الوصول إلى صلح يكسبه حسن السمعة ، ويمكنه من استعادة ثقة السلطان العثمانى به » ، إذا استطاع الاتفاق مع الفرنسيين على الجلاء عن مصر فى صلح منفرد معهم[١] : وما إن وصل عثمان البرديسى إلى القاهرة حتى أكد للقائد العام هذه الرغبة ، وكان مراد بك قد وقف على حقيقة أغراض العثمانيين ، وعرف خططهم من مماليك إبراهيم بك فى المعسكر العثمانى . فقد عرف يوسف ضيا الصدر الأعظم أن الجماعة المقاومة للنفوذ الانجليزى فى القسطنطينية قد قوى شأنها أخيراً ، وأنها تفضل المفاوضة والصلح على نزول الانجليز فى الشواطىء المصرية ، أو دخولهم إلى البلاد عبر الحدود الشرقية خوفا مما قد يترتب على ذلك — والانجليز أصحاب أطماع استعمارية معروفة — من نتائج مضرة بمصالح العثمانيين[٢] . ولكنه لما كان قد بات الاتصال متعذراً بين الصدر ومنو بسبب موقف هذا الأخير ، وإصراره على أن يجرى كل اتفاق بشأن مصر عن طريق حكومة الجمهورية الفرنسية وانقطعت المراسلات بينهما من مدة ، فقد اقترح الصدر على إبراهيم بك أن يطلب من مراد التوسط ، وأدرك مراد خطورة الموقف ، ورأى أن من مصلحة حلفائه الفرنسيين المفاوضة والاتفاق مع الأتراك ، فأرسل عثمان البرديسى إلى القاهرة يحمل عروض الصدر الأعظم .

وقابل البرديسى منو وبذل قصارى جهده ليكسب ثقته ، فاطلعه على الخطابات التى كتبها إبراهيم بك الى مراد باسم الصدر الأعظم ، وقد تحدث يوسف ضيا فى هذه الرسائل عن صعوبة مقاومة الفرنسيين ضد الجيوش الثلاثة التى قرر الحلفاء غزو مصر بها ؛ وأن النصر إذا بسم له الحظ — والحظ قلّب ولا يؤمن جانبه — سوف يكلفه خسائر فادحة ، وأن من حسن السياسة قبول المفاوضة على أساس إخلاء مصر[٣] . وكان من بين التفصيلات التى أعطاها البرديسى ، أن جيشاً انجليزيا يتألف من ثمانية

---

(١) Rigault 288 — 9

(٢) Martin II 168 ; Reybaud VIII 107

(٣) Rigault 288 — 9

عشر ألف جندى سوف يعمل بالاشتراك مع القبطان باشا فى النزول على الشواطىء المصرية ، بينما يزحف الصدر الأعظم من يافا على الحدود الشرقية ، وتنزل فى السويس قوة انجليزية أخرى آتية من الهند . ولما كان مراد حريصا على بقاء الحكم له فى الصعيد فقد رجا منو ألا يغفل مصالحه ، عند المفاوضة ، أما اذا رفض منو المفاوضة فإن مراداً مازال على ولائه للفرنسيين ، ولا يتوانى عن إرسال النجدة والإمدادات حسب معاهدة التحالف بينه وبين الفرنسيين(١) ، ونصح مراد وعثمان البرديسى بالمفاوضة .

وكانت الأنباء التى نقلها عثمان بك البرديسى إلى منو على جانب كبير من الخطورة ، إذ تدل على أن الإنجليز قد قر رأيهم على الاشتراك مع العثمانيين فى القتال المنتظر ، وأن قوات عظيمة سوف تطبق على جيوش منو من الشمال والشرق والجنوب ، وأن من الواجب على منو أن يسرع باتخاذ التدابير العاجلة لمواجهة الموقف ؛ ولكن منو ظل على الرغم من الأنباء التى أبلغها إياه مراد والبرديسى متأثراً بفكرة خاطئة هى تعذر الاتفاق بين الأتراك والإنجليز على أى عمل مشترك ، فضلا عن اعتقاده الراسخ بضعف الترك عندما راح يؤكد فى رسالته إلى تاليران (فى ٢٥ يناير) أن الطاعون يفتك فتكا ذريعاً بجيش الصدر الأعظم ؛ ويكثر فرار الجنود من الصفوف ، كما تزيد صعوبات الصدر يوماً بعد آخر بسبب عداء العرب وعشائر الدروز وأهل نابلس له ، وامتناع الجزار باشا فى عكا عن الاعتراف بسلطة الصدر أو تأييده(٢) ؛ وعلى ذلك فإنه بدلا من العمل بنصيحة مراد بك ، أظهر منو عدم تصديقه للأنباء التى جاء يحملها البرديسى ، ونفى بتاتا إمكان تعاون العثمانيين والإنجليز فى أى هجوم مشترك على مصر .

ولما كان يسوءه أن يجد مراد بك أدرى منه بسير الحوادث ، وأكثر اطلاعا منه على دقائقها ، فقد عنف فى معاملة البرديسى رسول مراد وأغلظ له القول ، وطلب أن يلتزم مراد السكون فى الصعيد ، « فلا يزعج خاطره » بما يحدث بعيداً عنه ، ومن الأفضل له أن يمتنع عن تبادل الرسائل مع البكوات الموجودين فى معسكر الصدر . وعند ما أجاب البرديسى بأن كليبر على العكس من ذلك كان يأذن لمراد بالاتصال مع أصدقائه وأعوانه بالشام ، قال منو غاضبا « إنه لا يقلد الأخطاء التى ارتكبها كليبر ، وأنه لا يريد بيع مصر » ؛ ثم احتدمت المناقشة عندما أبلغ البرديسى منو رغبة مراد فى أن يصفح القائد العام عن إبراهيم بك ، الذى لجأ إليه يرجوه التوسط لدى منو فى

---

(١) Reybaud VIII 107 — 8 ; Reynier 153 — 4

(٢) Rousseau 394 — 5

العفو عنه ؛ وقال إن مرادا لم يسعه أن يرفض رجاء إبراهيم ، فأقطعه قرية يقيم بها مع مماليكه حتى يأتيه العفو . فانذفع منو يعيب على مراد سلوكه ويقول فى كلام ملؤه التأنيب الشديد أن الواجب كان يقتضى مرادا أن يبعث بإبراهيم مكبلا بالاغلال إلى القاهرة ، حتى يلقى جزاءه [١] ، وفضلا عن ذلك أبى منو أن يجيب رغبة مراد فى العفو عن محمد بك الألفى ، وعنف فى حديثه مع عثمان بك البرديسى بسبب صفح مراد عن الألفى وتأمينه له [٢] . ثم عظم استياء منو عندما طلب البرديسى زيارة كبار القواد حتى يبلغهم تحية سيده . فخرج البرديسى من هذه المقابلة وقد بلغ منه اليأس حداً بعيدا .

وكان من أسباب غضب منو ذلك الاحترام الكبير الذى ظل مراد يظهره فى رسائله إلى منو وإلى قواد الحملة لذكرى الجنرال كليبر [٣] . وأظهر البرديسى استياءه من منو فى أثناء مقابلاته بعد ذلك مع (داماس) أو (دور) وغيرهما . وما أن علم منو باجتماعه مع هؤلاء حتى شدد الرقابة عليه وأظهر الشك فى إخلاصه وأمانته ، وصار يتوعده بالعقاب الصارم إذا هو أبدى حرا كا بعد ذلك؛ وبقى البرديسى فى القاهرة أياما أخرى على أمل أن يعمل منو بنصيحة مراد فى النهاية ، ويقبل المفاوضة مع الأتراك أو يطلب مساعدة مراد . ولكن منو لم يغير شيئا من موقفه ، وظل مصرا على رفض كل مساعدة من ناحية مراد ، فغادر البرديسى القاهرة يائسا [٤] .

وعلى الرغم من تلك « الإهانة » التى لحقت برسول مراد ، ظهر مراد بمظهر النبيل ، فلم يغضب أو تفتر عزيمته ؛ وأخذ فى مطاردة المهدى مولاى محمد ، ذلك المتمهدى الذى حضر من درنة بطرابلس الغرب ، ودعا إلى الثورة فى البحيرة ضد الفرنسيين فى أثناء حملة بونابرت فى الشام ، حتى إذا قضى لانوس على قواته فى دمنهور (مايو ١٧٩٩) ، اختفى فترة من الزمن عاد بعدها إلى الظهور فى أثناء ثورة القاهرة الثانية (مارس — أبريل ١٨٠٠) ، ثم لحق بعد إخمادها بجيش الصدر الأعظم ، وأرسله العثمانيون إلى هذه البلاد مرة أخرى (يناير ١٨٠١) ليجدد الفتن والثورات بها ، فى الوقت الذى تزمع فيه الجيوش المتحالفة الزحف على مصر وغزوها .

---

(١) Reynier 155 — 6

(٢) Reybaud VIII 109

(٣) Martin II 167

(٤) Reybaud VIII 109 — 10; Ibid 167—173

ثم اضطر المهدى بعد مطاردة عنيفة فى الدلتا إلى الفرار إلى الصعيد ، ولقى هناك تأييدا من قبيلة جهينة ؛ وأخذ مراد الآن فى مطاردته مطاردة عنيفة (١) ، وأفلح فى تفريق شمل أتباعه (٢) . ولا جدال فى أن منو قد أخطأ فى إساءة معاملة البرديسى وكان فى وسعه على الأقل ، بعد إظهار ثقته التامة بقدرة جيشه على مقاومة جيوش العدو المتحدة ، أن يقبل المساعدة التى يعرضها مراد كبرهان على احترامه له وتقديره لولائه ، وعلاوة على ذلك فإن المفاوضة مع الصدر الأعظم قد تعطيه الفرصة حتى يبذر بذور الشقاق والتفرقة بين الصدر والإنجليز ، وتعطيل نشاط الجيش الإنجليزى ، ثم تعزز دبلوماسية القنصل الأول فى القسطنطينية .

وذاع خبر حادث البرديسى ، ووساطة مراد فساد الأهلين بالقاهرة شعور قوى بأن الحرب لا محالة واقعة فى وقت جد قريب ، وشاطر هذا الشعور نفر كبير من الفرنسيين إن لم يكونوا جميعهم (٣) . وظل منو وحده يشعر بالثقة والطمأنينة ، وهو الذى كان مازال يعتقد بأن السير رالف أبركرمبى سوف يجد عند نزوله فى الشاطىء الشمالى إذا حاول ذلك « قذائف المدافع ورصاص البنادق معداً لاستقباله » ويزعم أن الانجليز والعثمانيين لن يستطيعوا الاشتراك فى هجوم على مصر . ورأى منو أن الواجب يقتضيه أن يبذل ما وسعه من جهد وحيلة ليدخل الطمأنينة إلى نفوس الفرنسيين ، ويحفظ روحهم المعنوية من الانهيار بسبب انقطاع الصلات بين الحملة فى مصر وبين رجال الحكومة والقنصل الأول فى أرض الوطن ، منذ أن بات متعذراً وصول السفن الفرنسية الى الموانى المصرية إلا بعد كل عناء ومشقة ، بسبب سيطرة الانجليز فى البحر الأبيض . وحرص منو الى جانب ذلك على اخماد كل تذمر قد يبدو من ناحية الأهلين ، والقضاء على مروجى الأخبار « الكاذبة » ومنع اتصال القاهريين بعملاء الصدر الأعظم ، وإنزال العقوبة الرادعة بأولئك الذين عمدوا إلى اشاعة الشائعات المزعجة .

وكانت وسيلة منو فى ذلك كله الاعلان بإطلاق المدافع عند وصول السفن الى الموانىء المصرية ، وإصدار المنشورات لتحذير الأهلين ، وعقد الديوان لقراءة « الفرمانات » على أعضائه ، واذاعة الأخبار الملفقة عن جهود القنصل الأول فى سبيل توطيد أركان

---

(١) Reynier 151 — 2

(٢) Wilson 69; Reybaud VIII 110 — 11

(٣) Ibid VIII. 111

الاحتلال الفرنسى فى مصر . فما أن علم منو بوقوع الصلح بين الفرنسيين وبين أهل الجزائر وتونس حتى أذاع هذا الخبر فقرىء فرمان (فى ٢٠ يناير ١٨٠١) « بورود مكاتبات من فرنسا » بوقوع هذا الصلح « بشروط ممضاة مرضية » فصار فى استطاعة التجار من أهل الجهتين (السفر) للتجارة ، « فمن سافر فله الحماية والصيانة فى ذهابه وإيابه ، وإقامته باسم دولة الجمهور الفرنساوية » ، ووقعت بعد أربعة أيام واقعة « سيدى محمود وأخيه سيدى محمد المعروف بأبى دفية » . وكان لسيدى محمود صلات بالصدر الأعظم يبعث إليه بالأخبار من القاهرة عن حركات الفرنسيين ، ويزوده الصدر بالتعليمات لإشاعة الشوائع وإثارة الخواطر ضد الفرنسيين ، وكلفه الصدر بتوزيع « أربعة أوراق مكتوبة باللغة الفرنساوية » فانكشف أمره قبل أن يفرغ من توزيع هذه الورقات (أو المنشورات) . واختفى سيدى محمود ، ولكن الفرنسيين قبضوا (فى ٢٤ يناير) على أخيه وكل من وجدوه معه « وحبسوهم ببيت قائمقام[١] » وفى ٨ فبراير « ضربت مدافع كبيرة بسبب ورود مركبين عظيمين من فرنسا هما (أوزيريس ، تيربيلان وصلتا الى الاسكندرية منذ يناير) فيهما عساكر وآلات حرب ، وأخبار بأن بونابرته أغار على بلاد النمسه وحاربهم وحاصرهم وضايقهم وأنهم نزلوا على حكمه وبقى الأمر بينهم وبينه على شروط الصلح ، وأنه استغنى عن هذه الاشياء المرسلة ، وسيأتى فى أثرهم مركبان آخرن فيهما أخبار تمام الصلح ، ويستدل بذلك على أن مملكة مصر صارت فى حكم الفرنسيين لا يشاركهم غيرهم فيها . هكذا قالوا وقرؤه فى ورقة بالديوان »[٢] .

وكان مما اهتم به منو اهتماما كبيرا محاولة اقناع الاهلين بأن الفرنسيين لن يبرحوا البلاد وأن لديهم من الوسائل ما يمكنهم من الاحتفاظ بهذه المستعمرة والذود عنها ضد جيوش الأعداء وأساطيلهم . وخشى منو أن يصدق أهل القاهرة ما قد يتسرب إليهم من أخبار عن حركات العثمانيين وحلفائهم الإنجليز ، أو أن يندس بينهم « المفسدون » ويثيروا الفتن والاضطرابات ، بعد أن أثبت حادث سيدى محمود أبى دفية احتمال وجود عدد من عملاء العثمانيين ومروجى الإشاعات ، وانتشار الإشاعات عن وصول أسطول الإنجليز إلى جهة أبى قير . ومع أن أهل القاهرة كانوا يتوقون ولا شك للخلاص من الفرنسيين ، ويهمهم أن يقفوا على حقيقة ما يبذله العثمانيون وحلفاؤهم من جهود لتحرير

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٥١ — ١٥٢

(٢) الجبرتى ٣ : ١٥٣

البلاد وخلاصها ، فإنهم كانوا لا يزالون فى هذه الفترة العصيبة من حياتهم فى شغل شاغل بأمر «بواقى الفردة» وتدبير (المليون) . « ولا شغل لكل فرد إلا بتحصيل ما فرض عليه » ، ولا يفكرون فى شغب أو عصيان أو القيام بالثورة . وكان مما ساعد على استقرار الهدوء فى القاهرة إلى جانب الانصراف لتدبير سداد (المليون) وبواقى الفردة ، ماحدث من وجوم وخوف شديدين بعد مصرع كليبر وإغلاق الجامع الأزهر (منذ يونية ١٨٠٠) وهو المكان الذى اعتاد شيوخه (والمجاورون) على الإشراف منه على الثورة وتحريكها .

ومما يجدر ذكره أن الذى طلب إغلاق الجامع الأزهر كان المشايخ أنفسهم ، فقد استأذن المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى « كبير الفرنسيس فى إقفال الجامع وتسميره . . . وكان قصدهم من ذلك منع الريبة بالكلية » ، بعد أن ثبتت إقامة سليمان الحلبى ، قاتل كليبر ، وسكنه بالأزهر ، فإن للأزهر على حد قولهم « سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله فربما دس العدو من يبيت به واحتج بذلك على اتخاذ غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك[1] » . وقد صادف ذلك ولا شك هوى فى نفس منو ، وكان بناء على رغبته فى الحقيقة لأنه كان قد دعا لبحث هذا الأمر ديوانا « وادعى أن هذا المكان ليس محلا للدرس والتعليم للفرائض والسنن، بل هو محل لعقد المشورة وإيقاظ الفتن » (واعتزم) طرد المجاورين وقفل أبوابه[2] » .

ومع ذلك فقد عمد منو إلى « ضرب عدة مدافع من القلاع » ثم أعد فرمانا قرئ بالديوان فى اليوم التالى (٢٨ فبراير سنة ١٨٠١) لم يلبث « أن ألصقت منه نسخ فى مفارق الطرق والأسواق » ؛ ذكر فيه منو[3] أن نفراً « من الناس الذين هم من الأشقياء والمفسدين ، ولا يعيشون إلا على الإضرار بالناس وإضراركم ، يظهرون فى وسط المدينة بينكم أخباراً رديئة تزويرا لتخويفكم وتخويف المملكة ، وكل ذلك كذب وافتراء » . وبعد أن هدد منو « برمى رقبة » كل من يقبض عليه متهما بإشاعة هذه الشوائع المزعجة ، قال إن الغرض من هذه الصرامة إنما هو « تعذيب العصاة » . أما أهل مصر فواجبهم أن يكونوا « مستريحى البال ومترفهى الحال » ذلك أن دولة الجمهور الفرنساوى إنما حضرت لحمايتهم وصيانتهم .

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٤١

(٢) نقولا الترکى ١٩٣

(٣) الجبرتى ٣ : ١٥٤ ؛ Galland II 42 — 3

ولما لم يكن هناك مايدعو — فى نظر الديوان ، وأهل القاهرة عموما — لهذا التهديد والوعيد من ناحية ، ثم تذكيرهم والتأكيد لهم بأن دولة الجمهور الفرنساوى لاتزال تعمل من أجل « حمايتهم والمحافظة عليهم » فقد ثبت لأعضاء الديوان أن أموراً خطيرة قد حدثت بالفعل ، وأن مابلغهم من إشاعات عن تحرك العثمانيين ووصول مراكب إنجليزية إلى جهة أبى قير كان صحيحا ؛ وعلى ذلك فقد سأل الأعضاء الوكيل فورييه عن سبب إطلاق المدافع فى اليوم السابق ، وعندئذ انبرى فورييه يلقى على أسماعهم مزيجا من الأخبار الصحيحة والملفقة ، طغى الجزء الملفق منها على ماعداه ، بنية إقناعهم بأن الفرنسيين باقون فى البلاد ، وأن العدو لن ينال منهم ، وأن المغارم التى يشكون منها سوف تنتهى قريبا بمجرد انتهاء الحرب ، على أمل أن يستقر فى أذهانهم عبث التفكير فى المقاومة وإثارة الفتن من جهة ، ورجاء أن تدخل الطمأنينة إلى قلوبهم ، وتهدأ نفوسهم . فأخذ (فورييه) يفسر لهم إطلاق المدافع بقوله « إن الفرنساوية كانت تحارب القرانات (الدول الكبيرة) ، والآن وقع الصلح بينهم وبين القرانات ماعدا الإنكليز ، فإنه الآن مضيق عليه ، وربما كان ذلك سببا لرضاه بالدخول فى الصلح — أى حمل الإنجليز على قبول الصلح مع فرنسا — وقد خرج من فرانسا عمارة ربما توجهت على الهند وربما إنهم يقدمون إلى مصر ؛ وقد وصل لسارى عسكر أمر من المشيخة بوصول مراكب الموسقو التى تحمل الذخائر إلى الفرنساوية ، وأن يمكنهم من دخول الإسكندرية وقد خرج ستة غلايين من فرانسا إلى بحر الهند ، فربما قدموا بعد ذلك إلى جهة السويس ، وبورود هذه الأخبار تعين خلوص مصر إلى جمهور الفرنساوية . وفى سالف الزمان كانت جميع القرانات التى بالجهة الشمالية ضداً للفرنساوية ، وقد زالت الآن هذه الضدية ، ومتى انقضى أمر الحرب عمت الرحمة والرأفة والنظر بالملاطفة للرعية ، والذى أوجب الاغتصاب والعسف إنما هو الحرب ، ولو دامت المسألة (المسالمة) لما وقع شىء من هذا[1] » .

على أن الموقف ما لبث أن زاد حرجا عندما أخذت الأخبار المزعجة تترى على منوفى الأيام القليلة التالية ، فجاءه خطاب من رامبون فى دمياط فى آخر فبراير ينبئه بتوقع نزول الانجليز إلى البر ، بينما يستعد أربعة وعشرون ألف تركى لاجتياز الصحراء والزحف على مصر[2] ، وفى ٤ مارس أرسل رافل Raffle قومندان بلبيس إلى

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٥٤ — ١٥٥

(٢) Rigault 289

(رينييه) كتابا يخبره فيه أن الصدر الأعظم يستعد للزحف فى غضون أسبوعين أو عشرين يوما ، ووصل منو فى اليوم نفسه من فريان فى الاسكندرية نبأ ظهور الأسطول الانجليزى أمام أبى قير[1] ، ويطلب نجدة من الفرسان ، وانتظر منو وقد اطمأن من ناحية بلبيس والحدود الشرقية ، أن تصله أخبار أوفى عن حركات العدو فى الشواطىء الشمالية ، فأضاع صباح يوم ٥ مارس فى هذا الانتظار ، حتى إذا كان المساء ، جاءته رسالة من فريان ، تقول إن الأسطول الإنجليزى قد ألقى بمراسيه فى خليج أبى قير .

وكان من رأى فريان أن العدو إنما يقصد القيام بعمليات ثانوية فى الشاطىء فحسب بينما يحدث الغزو من جانب العثمانيين فى الحدود الشرقية . وأكد فريان أن فى وسعه تحطيم قوات الانجليز وأسطولهم ، فلا يزعج منو نفسه من هذه الناحية ؛ ومع ذلك فقد طلب فريان إرسال آلاى من الفرسان فوراً وبكل سرعة . وعلى ضوء هذه الأخبار إذن كان من الواضح أن العدو على وشك غزو البلاد من ناحيتى الشمال والشرق فى وقت واحد ؛ وإن كان الخطر المباشر من ناحية الاسكندرية بسبب ما كان متوقعاً من تأخر حركة جيش الصدر الأعظم مدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع تقريبا ، وفضلا عن ذلك فإن فريان على الرغم من تقليله من شأن قوة الأسطول الانجليزى ، وادعائه القدرة على تحطيمه بالجند القليلين معه — وقد اتهمه رامبون بسبب هذه الأخبار المطمئنة التى أرسلها إلى القاهرة بأنه كان المسئول الأول عن هزيمة الفرنسيين فى معارك أبى قير والاسكندرية[2] — طلب نجدة سريعة من القاهرة لحاجته الملحة إلى قوة من الفرسان لامعدى عن استخدامها فى العمليات اللازمة لمنع نزول الانجليز إلى البر ، ولتعطيل زحفهم فى ذلك الوادى الضيق بين أبى قير والاسكندرية .

أضف إلى ذلك أنه كان واضحا أن الجيش الذى حمله الأسطول إلى أبى قير لم يكن سوى جزء من الحملة المشتركة ، ولما كان معروفا من الأخبار التى أبلغها عثمان البرديسى أن جيشاً ثالثاً سوف يأتى من الهند ، فقد بات من المتوقع كذلك أن يجد الفرنسيون أنفسهم فى وقت قريب محاصرين من جميع النواحى ، كما أن عزم الانجليز على إرسال حملة الهند لم يكن معناه كما توقع فريان ، أن يقصر السير رالف أبركرمبى نشاطه فى الشمال على القيام بعمليات ثانوية ، كستار لتغطية زحف العثمانيين من الشرق فحسب ، بل

---

(١) Galli. 168

(٢) Rigault 298

كان معناه أن السير رالف إنما يبغى الاستيلاء على الاسكندرية ثم الزحف إلى داخل البلاد لمقابلة الحملة الهندية (١) .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات إذن أجمع الثقات على أن الخطة المثلى التى كان من الواجب اتباعها لمواجهة الموقف من كل نواحيه ، هى أن يعمل منو بتلك التعليمات التى تركها بونابرت إلى كليبر عند مغادرته البلاد ، وفحواها أن تجتمع قوات الجيش الفرنسى بكل سرعة فى مكان تستطيع منه إرسال وحداتها بسهولة وسرعة للعمل ضد الانجليز والأتراك ، إذا نزل الانجليز فى أبى قير (٢) ؛ وأن من الواجب الذهاب إلى الاسكندرية مباشرة وبمجرد وصول أخبار فريان إليه عن ظهور أسطول الانجليز فى خليج أبى قير كما فعل بونابرت نفسه فى ظروف مشابهة قبل ذلك ، أوالذهاب الى الرحمانية — وهى خير مكان لحشد الجيوش التى يمكن إرسالها منه لنجدة الاسكندرية من جهة ، ولتعزيز الدفاع عن دمياط وحدود البلاد الشمالية الشرقية من جهة أخرى ، كما فعل كليبر كذلك (٣) . ولما كان من المتوقع تأخر زحف العثمانيين فقد بات واضحا أن الخطر الماثل إنما هو من جهة الاسكندرية ، وأن فى وسع منو إذا اتخذ إجراء سريعا لدفع هذا الخطر ، وهزيمة الانجليز فى الشواطىء الشمالية ، أن يرتد بعد ذلك إلى القاهرة لمناجزة العثمانيين والانتصار عليهم ، ولو كان هؤلاء قد استطاعوا فى أثناء ذلك الدخول إلى القاهرة ذاتها ؛ وليس أدل على ذلك مما فعله كليبر الذى هزم العثمانيين فى معركة هليوبوليس على الرغم من دخول بعض قواتهم إلى القاهرة (٤) على أن أهم ما كان على قائد الحملة العام أن يفعله هو حشد كل ما لديه من قوات وعدم توزيعها حتى يتسنى له الصمود أمام جيوش العدو التى كانت تفوق جيشه كثيراً فى عدد مقاتليها واستعدادها (٥) زد على ذلك أن الموقف ما كان يحتمل أى تباطؤ أو مراوغة بل يقتضى كل سرعة ، ولايقل عن ذلك أهمية التشاور مع كبار قواد الحملة المحنكين والإنصات إلى آرائهم .

ومع ذلك ظل منو من أول الأمر يدين بعدة آراء كانت ذات أثر حاسم فى تطور القتال ، وانهزام جيش الشرق ، واضطراره إلى الجلاء عن مصر فى النهاية . ذلك أن

---

(١) Reybaud VIII 135 — 6

(٢) Bertrand II 162 — 7

(٣) Martin II 175 ; Galli. 168

(٤) Reynier 190 — 1

(٥) Ibid 188

منو كان يعتقد أن القاهرة هى المكان الرئيسى الذى يجب أن تدار منه كل خطط الدفاع فى البلاد جميعها ؛ فهى بمثابة العصب الذى يجب على القائد العام أن يبذل قصارى الجهد من أجل المحافظة على سلامته وتقويته . وأنه مادامت الاسكندرية بعيدة عن الخطر فمن واجبه البقاء فى القاهرة[١] . ومع أن منو كان يتوقع حدوث الهجوم من ناحيتى الشمال (حيث الانجليز) والشرق (حيث الأتراك) فقد اعتقد أن هذا الهجوم المزدوج سوف يقع فى وقت واحد[٢] . وأصر على أن الأتراك والانجليز سوف يوحدون حركاتهم فلا يقوم فريق منهم بعمل منفرد .

وكان لنظرية الهجوم المشترك واتحاد العمليات الانجليزية والعثمانية أكبر الأثر على خطط منو وإجراءاته ، ذلك أن أى عمل جدى من ناحية الانجليز فى جهة أبى قير كان لايمكن أن يتم — حسب هذه النظرية — إلا إذا بدأ الأتراك بالزحف فعلا من ناحيتهم ، وأن الحركات العسكرية فى جهة أبى قير سوف تكون لذلك ذات قيمة ثانوية وعلى ذلك فقد اهتم منو بتقوية الدفاع عن الحدود الشرقية ، كاجراء لامعدى عن اتخاذه بكل سرعة ، وهذا على الرغم من أن منو نفسه كان يعتقد ، أن زحف الأتراك سوف يتأخر كثيراً بسبب ضعفهم . وكان مما زاده استمساكا بهذه الآراء ، مابلغه من أخبار ومعلومات جاءته عن طريق رجاله وقواده من جهة ، وأوصلها إليه العدو كما يبدو بغية تضليله ، فقد أبدى فريان — كما رأينا — ثقته فى القدرة على صد العدو وتحطيم سفنه ، وصدق منو كذلك قول فريان فى رسالة بعث بها هذا إليه فى ٣ مارس ووصلت القاهرة بعد يومين ، أن الإنجليز « لن ينزلوا جنودهم إلى البر إلا فى اللحظة التى يتم فيها اقتراب جيش الصدر الأعظم من الحدود المصرية » ، ومع أن فريان طلب أورطتين من المشاة وآلايا من الفرسان وعددا من الخيول لاستخدامها فى جر المدافع ، ثم طلب حضور الضابط لوفيفر Lefévre فى ظرف يومين إلى إدكو حيث كان بها الجنرالان زايونشك ودلجرانج ، فقد ختم رسالته بإظهار اعتقاده أن منو فى وسعه مع بقية الجيش أن يهزم جيش الصدر الأعظم[٣] بسهولة » .

وفضلا عن ذلك فإن فريان مع إصراره على ضرورة إرسال الفرسان والمشاة الذين

---

(١) Rousseau 399 — 400

(٢) Rigault 289, 291

(٣) Rigault 293

طلبهم فى رسالته السابقة ، عاد يؤكد فى ٦ مارس هزيمة العدو إذا حاول النزول إلى البر ؛ لاشك فى ذلك ، ثم يذكر فى اليوم التالى أن قوات العدو لاتزيد على ستة آلاف فقط ، وأنه استطاع أن يدفع محاولات عدة قام بها العدو من أجل إنزال جنوده عند مدخل بحيرة المعدية (أبى قير)[١] . فتأيد لدى منو بفضل هذه الأخبار أن الخطر المنتظر إنما هو من ناحية الشرق وليس من جهة الشواطىء الشمالية . فازداد طمأنينة لأنه على نحو ماظهر من رسالة له إلى رينييه فى ٧ مارس — كان يرى أن الانجليز إنما يريدون سحق جيش الصدر تمهيداً لاقتسام الامبراطورية العثمانية ، بدلا من التعاون الصادق مع جيشه[٢] . وأفلح الأعداء فى إشاعة بعض الأنباء الكاذبة لتضليل الفرنسيين وخديعتهم ، فأذاعوا أن الانجليز ليس لديهم على ظهر السفن التى حضرت إلى أبى قير سوى عدد قليل من الجند المعدين للنزول إلى البر ، بينما بقيت أكثر قواتهم فى رودس لتوطيد أقدام الانجليز ، وإخماد ثورة الأهلين بها ، والاستيلاء على جزر الأرخبيل[٣] وفضلا عن ذلك تطايرت الشائعات عن حدوث انقسام خطير فى صفوف القيادة الإنجليزية . وصدق منو هذه الشوائع ، واعتقد أن قواد الحملة الانجليز بسبب عجز السير رالف أبركرمبى ، الذى فشل فى هولندة ، وهزمه الأسبان فى فيرول Ferrol ، وأخفق أمام ليفورنه وقادش ؛ ثم مايوجد من خلافات بين السير رالف والسير سدنى سميث ، سوف يضطرون إلى طلب الصلح عاجلا[٤] .

وعلى ضوء هذه الآراء والمعلومات الخاطئة إذن بنى منو خططه الأولى ؛ وظلت تدور حول أمرين رئيسيين ، بقاء الجيش مع قائده فى القاهرة ؛ « لتأمين شخص القائد العام فحسب ، وليس للدفاع عن البلاد — كما قال ناقدوه — لأن القاهرة كانت تبعد بمسافات شاسعة عن الإسكندرية » موضع الخطر[٥] ؛ ثم تقرير الدفاع عن الحدود الشرقية ، والاكتفاء بإرسال النجدات القليلة التى طلبها فريان فى الإسكندرية . فأصدر أوامره إلى الجنرال رينييه بالذهاب مع قوة من المشاة والمدفعية إلى بلبيس (فى ٤ مارس) ؛ وقد حاول رينييه أن يقنع منو بضرورة ذهاب الجيش مع قائده الأعلى إلى أبى قير ، حتى إذا قضى على خطر الإنجليز أمكن التفرغ لمناجزة العثمانيين ،

---

(١) Ibid 294
(٢) Rousseau 398 — 9
(٣) Martin II 167
(٤) Rousseau 398 — 9
(٥) Martin II 174 — 5

ولكن منو تمسك برأيه وطلب إلى (رينييه) الخروج إلى بلبيس فى التو والساعة ، وعد (رينييه) صدور هذا الأمر إهانة له وازدراء لكفايته ؛ واعتبر كثيرون أن غرض منو من إرسال (رينييه) إلى بلبيس فى هذا الظرف العصيب لم يكن سوى استبعاده لكراهيته له وعدم وثوقه من إخلاصه[1] ؛ وأرسل منو قوات أخرى بقيادة موران Morand إلى دمياط ؛ وأصدر أوامره ببقاء الحاميات فى مراكزها مبعثرة فى أنحاء البلاد ، فى الصالحية ، وبلبيس ، والسويس ، وعزبة البرج ، والبرلس ، وكذلك بقى الجنرال دوزيلو فى الصعيد ومعه ستة آلاف جندى[2] .

ولما كان فريان قد ألح فى ضرورة إرسال نجدات من الفرسان والمشاة إلى جهة أبى قير والإسكندرية ، فقد بعث إليه منو يطمئنه على وصول بعض هذه النجدات إليه من الفرسان والمشاة الموجودين بالدلتا ، وعلاوة على ذلك كتب منو إلى فريان أنه إذا لم تأته أخبار أخرى فى مساء اليوم نفسه (٤ مارس) فإنه سوف يحضر إلى الإسكندرية فى اليوم التالى . ومع ذلك فإن منو سرعان ماغير رأيه ؛ فكتب إلى فريان رسالة أخرى ينبئه فيها بخروج لانوس من القاهرة بدلا منه ؛ وصدرت الأوامر لهذا الأخير أن يستعد للسير إلى الإسكندرية[3] . وغادر لانوس القاهرة فى ٤ مارس ، يصحبه عدد من المشاة ثم آلاى من الفرسان بقيادة الجنرال برون Bron .

أما منو فقد ظل ينتظر فى مقر قيادته وصول أخبار أخرى من فريان . وجاءته رسالة فريان التالية فى ١٥ مارس ، وكانت تبعث على الطمأنينة — كما رأينا — على الرغم من تكرار طلب الإمدادات بكل سرعة ، فكان من أثر ذلك أن أرسل منو إلى لانوس يأمره بالتوقف فى الرحمانية ، ثم الاكتفاء بإرسال جزء بسيط من القوات التى معه إلى الإسكندرية[4] . وظن منو وقد اتخذ كل هذه الإجراءات « الصائبة » أن مسئولية الدفاع عن البلاد قد انتهت ، وخيم جو من السكون على مقر القيادة العامة ؛ وانصرف رجال الحملة وسائر الفرنسيين إلى التفريج عن أنفسهم بالتندر والفكاهة ؛ وكان من رأيهم ، وقد وجدوا إجراءات قائدهم تتسم بطابع الاستخفاف بشأن الإنجليز ، أن هؤلاء لا بد

---

(١) Galland II 48 ; Reynier 190 — 3 ; Reybaud VIII 123 Et note

(٢) Reybaud VIII 138

(٣) Rigault 290 — 1

(٤) Martin II 176

وأن يكونوا قد أحضروا سفن أسطولهم إلى أبي قير والإسكندرية فارغة لا جنود عليها[1] ، وطفق منو يوجه عنايته إلى « معالجة » الموقف الداخلي .

فقد استفاضت الأنباء في القاهرة منذ ٣ مارس عن وصول « مراكب إلى أبي قير » وتأيدت الإشاعات التي انتشرت في أنحاء العاصمة منذ أواخر فبراير ، وزاد اقتناع الأهلين بصحتها عندما شهدوا في اليوم التالي (٤ مارس) خروج « جملة من العسكر الفرنساوية (وسفرهم) إلى الجهة البحرية برا وبحراً » . فانتهز منو اجتماع الديوان في يوم ٦ مارس ، وحاول تضليل أعضائه ، فبدأ « الوكيل (فوربيه) يقول إنه كان يظن أن يكون حرب ولكن وردت أخبار أن المراكب التي حضرت إلى اسكندرية ، وهي نحو مائة وعشرين مركبا قد رجعت ، فقيل له وما هذه المراكب ، فقال : مراكب منها طائفة من الإنكليز وصحبتهم جماعة من الأروام وليس فيها مراكب كبار إلا قليل جداً ، وباقيها صغار وتحمل الذخيرة . ثم قال إن حضرة ساري عسكر كان قد وجه إليكم فرمانا في شأن ذلك قبل أن يتبين الأمر وهو وإن كان قد فات موضعه من حيث أنه كان يظن أن هناك حرب ، ولكن من حيث كونه قد برز إلى الوجود فينبغي أن يتلى على مسامعكم » ثم أخذ رفائيل الترجمان يقرأ هذا الفرمان الجديد وكان يحمل تاريخ ٥ مارس ؛ تحدث فيه منو[2] عن ظهور الإنجليز « في السواحل وإن كانوا يتجرؤا يضعوا أرجلهم في البر فيرتدوا في الحال على أعقابهم في البحر ؛ والعثمانيون متحركين كهؤلاء الإنكليزية يعملون أيضا بعض حركات ، فإن كان يقدموا ففي الحال يرتدوا وينقلعوا في غبار وعفار البادية » .

ثم طلب إليهم وإلى أهل البلاد قاطبة أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة ويتفرغوا إلى أعمالهم ؛ وحذر منو أهل القاهرة من إثارة الفتن والقلاقل ، وأنذر بتوقيع العقوبة الصارمة على كل من تحدثه نفسه بذلك ؛ وحمل المشايخ مسئولية ما يحدث ، واجتمع هؤلاء (يوم ٧ مارس) « ببيت الشيخ عبد الله الشرقاوي . وحضر الأغا والوالي والمحتسب ، وأحضروا مشايخ الحارات وكبراء الأخطاط ونصحوهم وأنذروهم وأمروهم بضبط من هو دونهم ، وألا يغفلوا أمر عامتهم ، وحذروهم وخوفوهم العاقبة وما يترتب على قيام المفسدين وجهل الجاهلين ، وأنهم هم المأخوذون بذلك كما أن من فوقهم مأخوذ عنهم »[3] .

---

(١) Ibid. 176

(٢) Galland II. 44 ؛ Reybaud VIII 151 — 2 ؛ الجبرتي ٣ : ١٠٥ — ١٠٦

(٣) الجبرتي ٣ : ١٥٦ — ١٥٧

ولما كان الطاعون قد انتشر فى القاهرة بصورة مزعجة منذ منتصف فبراير ، وضاق الناس ذرعا بإجراءات الفرنسيين الصحية التى لم تكن تعدو « التشديد فى أمر السكرنتيلة » ؛ وتوقع أهل القاهرة حدوث الفتن بسبب « ورود أخبار المراكب إلى أبى قير وتحذير الفرنساوية واستعدادهم وتأهبهم ونقل أمتعتهم إلى القلعة »[١] ؛ فقد عمد كثيرون إلى الفرار من القاهرة والهروب إلى الريف . وكان من أسباب هياج الخواطر ما شاهده القاهريون من خروج « عساكر كثيرة بحمولهم وفرشهم ، (وذهابهم) إلى جهة الشرق (ثم ذيوع الأخبار) عن حضور عرضى العثمانية ووصولهم إلى العريش صحبة يوسف باشا الوزير » . وعلاوة على ذلك فقد أخذ الفرنسيون كرهائن ، الشيخ السادات ، ثم على أغا المحتسب ، واصعدوهما إلى القلعة[٢] . وكان منو عندما أكد لأعضاء الديوان أن الإنجليز والعثمانيين سوف يكون نصيبهم ولا شك الهزيمة إذا حاول الأولون النزول إلى البر ، وعبر الآخرون الحدود الشرقية ، جاداً فى قوله ، ولا يقصد أى تمويه ، وآية ذلك أنه أذاع هذا القول نفسه فى أمر يومى أصدره فى ٦ مارس ، ينقل إلى جنوده أخبار وصول الأسطول الإنجليزى إلى الشواطىء المصرية ، وتحرك الجيش العثمانى صوب العريش ، ويؤكد لهم أنه سوف يلقى بالأولين فى البحر إذا حاولوا النزول إلى البر ، وأن جيوش العثمانيين سوف تهلك فى الصحراء[٣] .

غير أن فترة الاطمئنان هذه سرعان ما مرت وانقضت عندما كتب فريان فى ٨ مارس يلح على منو فى إرسال النجدات « والحضور مع الجيش بكل سرعة » ؛ ثم عاد يكرر هذا الطلب مرات أخرى فى اليوم نفسه ويسأل منو الحضور مع الجيش بأكمله إلى الاسكندرية . ثم وصلت الأخبار إلى القاهرة فى يوم ١١ مارس منبئة بنزول الانجليز وهزيمة فريان وعجزه عن صدهم[٤] . وعندئذ لم يجد منو محيداً عن اتخاذ قرار بمغادرة القاهرة فى مساء اليوم نفسه . وهكذا يكون منو قد اضطر إلى الذهاب إلى الشواطىء الشمالية بعد أن رفض نصيحة (رينيه) وزملائه ، وأضاع حوالى أسبوعين منذ أن أخبره رامبون بتوقع نزول الانجليز فى الشواطىء الشمالية ، وحوالى الأسبوع منذ أن أخبره فريان بوصول الانجليز إلى أبى قير وإرساء سفنهم

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٥٧ ؛ Galli. 170

(٢) الجبرتى ٣ : ١٥٧ — ١٥٨

(٣) Rigault 295

(٤) Rousseau II. 42 ; Martin II 172

فى الخليج ، وأربعة أيام منذ أن طلب منه فريان الحضور بالجيش إلى الاسكندرية .
وحدث ذلك كله فى وقت أثبتت الحوادث فيه أن إضاعة كل دقيقة من شأنها إتاحة الفرصة للانجليز ليوطدوا أقدامهم على الشاطىء ، وينجزوا استعداداتهم للالتحام مع جيش الشرق فى معارك حاسمة (١) .

ومع ذلك فقد شغل منو فى يوم ١١ مارس ، باتخاذ بعض الإجراءات التى كان لا غنى عن اتخاذها لتنظيم شئون القيادة فى القاهرة ؛ فعهد بها إلى الجنرال بليار Belliard ومهمته الاشتراك فى دفع غزو الأتراك مع زميله (رينييه) الذى طلب إليه ، إلى جانب مراقبة الحدود الشرقية فى بلبيس والصالحية ، إرسال بعض قواته إلى القاهرة لتعزيز حاميتها ؛ وإلى الرحمانية عن طريق الدلتا . وهكذا ظهر أن منو حتى اللحظة الأخيرة وعلى الرغم من اضطراره إلى الذهاب إلى الشواطىء الشمالية ، كان ما يزال متأثراً بفكرته الخاطئة الأولى ، ويتوقع أن تظل الحدود الشرقية مصدر أخطار كبيرة ، وميدانا للعمليات العسكرية الهامة . وكان لذلك أوخم العواقب ، لأن منو بدلا من الخروج « بكل جيشه » إلى الاسكندرية ، أبقى حوالى الألفين فى القاهرة للسهر على الدفاع عنها ، ومراقبة الحدود السورية ، وامتنع عن إخلاء الصعيد والمراكز الأخرى فى دمياط وبلبيس والصالحية والسويس ورشيد ، وعزبة البرج . وأمر الجنرال رامبون بالحضور من دمياط إلى الرحمانية (٢) ، فصار بفضل هذه الخطة حوالى تسعة آلاف جندى مبعثرين فى أنحاء البلاد ، ولا يفيد القائد العام من استخدامهم فى معارك الاسكندرية الفاصلة (٣) .

وقد أدهشت هذه الإجراءات قواده وضباط الجيش وجنوده ، حتى إن القواد رأوا من واجبهم أن يبصروا قائدهم الأعلى بعواقب هذه الخطة الوبيلة ، ولكنهم آثروا السكوت فى النهاية عند ما لم يظفروا من منو بإجابات شافية ، خوفا من اتهامهم بالخروج على الطاعة وعصيان الأوامر (٤) . وانفرد (رينييه) وحده بمخالفة أوامر قائده ، فإنه ما إن وصلت إليه تعليمات منو الأخيرة فى ١١ مارس حتى أدرك خطورة الموقف ، وقرر العودة إلى القاهرة يصحبه داماس وبوضوط Beaudot بدلا من الذهاب إلى بلبيس

---

(١) Reybaud VIII. 154
(٢) Martin II 182
(٣) Bertrand II 393
(٤) Martin II 176

والصالحية [١] . وفى يوم ١٢ مارس طلب منو « رؤساء الديوان والتجار فحضروا إلى منزله ، فأعلمهم أنه مسافر بحرى وتارك بمصر قائمقام بليار وجملة من العسكر والكتبة والمهندسين . وأوصاهم بأن يكون نظرهم على البلد . وكان فى العزم حبسهم رهينة ، فاستشار فى ذلك فاقتضى رأيهم تأخير ذلك » [٢] وبعد أن انفض الاجتماع ركب منو من فوره ، وغادر القاهرة . وما إن وصل (رينييه) إلى القاهرة فى اليوم التالى حتى استأنف السير هو الآخر مع جنده صوب الاسكندرية « ولحقوا بكبيرهم براً وبحراً » [٣] وكشفت للأهلين عودة رينييه غير المنتظرة إلى القاهرة مدى الخلاف المستحكم بين القائدين ، وخطل الرأى الذى أخذ به منو من عدم توقع نزول الانجليز فى الشواطىء الشمالية وإهمال « تحصين ثغور الاسكندرية » نتيجة لذلك [٤] .

ومع أن منو غادر القاهرة بعد لأى وعناد شديد ، وإضاعة الوقت سدى ؛ فقد تلكأ فى سيره ، فوصل إلى الرحمانية فى مساء ١٥ مارس واستراح بها يوما ، ثم بلغ دمنهور فى ١٨ مارس ، وهناك لحق به (رينييه) و (رامبون) ؛ ثم بلغ بركة غطاس فى اليوم التالى (١٩ مارس) وفى مساء اليوم نفسه وصل إلى معسكر لانوس بالاسكندرية [٥] وهكذا قطع منو المسافة بين القاهرة والاسكندرية فى ثمانية أيام .

وكان تباطؤ القائد العام فى هذه الظروف العصيبة موضع نقد لاذع وتهكم كبير ، من جانب مواطنيه الذين سخروا كذلك من كثرة ما كان يذيعه من منشورات وأخبار ، ويصدره من أوامر يومية ؛ فظهرت فى هذه الآونة رسوم هزلية تصور منو ممتطيا صهوة جواده على ظهر سلحفاة تسير ببطء شديد صوب الانجليز ، ويحيط به عدد من الجمال تحمل زوجه وابنه سليمان ، وتتألف بطرية مدافعه من أوانى مطبخه ؛ وهذا بينما يحمل أحد الجمال « أوامر منو اليومية » إلى جيشه ؛ ويحمل آخر « أخباراً شبيهة بالرسمية » ؛ والثالث « الحقيقة بأكملها » ، وكانت هذه الجمال الثلاثة تنوء بحملها [٦] . وقد تداول الجند هذه الصور « بكل حرية » وكان ذلك دليلا على ضعف النظام فى جيش سمح أفراده لأنفسهم أن يتهكموا بقائدهم الأعلى [٧] .

---

(١) Reynier 200 — 1
(٢) الجبرتى ٣ : ١٥٨
(٣) الجبرتى ٣ : ١٥٨
(٤) الجبرتى ٣ : ١٥٨ — ١٥٩
(٥) Martin II 183 — 4 ; Reybaud VIII 154
(٦) Reybaud VIII. 152 — 3
(٧) Galli 170 — 1

معركة كانوب : (٢١ مارس سنة ١٨٠١)

وجد منو الإنجليز عند وصوله إلى الإسكندرية فى مساء ١٩ مارس متحصنين فى معسكر قيصر ؛ مصطفين فى خطين : عند ترعة الإسكندرية ، وأمام مراكزهم فى معسكر قيصر ؛ وتحرس مدفعيتهم منافذ بحيرة المعدية بينما ينتشر عدد من زوارق المدفعية فى هذه البحيرة . ومع أن مواقع الإنجليز كانت تبدو ممتنعة(١) ، فإن السير رالف أبر كرمبى ، بعد نجاح عملياته العسكرية فى معركة ١٣ مارس ، كان يشعر بحرج موقفه ، ويخشى مغبة الهجوم على مواقع الفرنسيين الذين كانوا يحتلون مرتفعات نيكو بوليس ، ويعتمدون فى تعزيز هذه المواقع على قوة مدفعيتهم ؛ وفضلا عن ذلك كان أمام السير رالف — حتى إذا استطاع إجلاء العدو عن هذه المرتفعات المنيعة — واجب إخضاع الإسكندرية ذاتها ، ومحاصرتها ؛ وتوقع القائد الانجليزى أن يطول الحصار بسبب ما كان منتظراً من دفاع الفرنسيين الشديد عنها ، فيلقى السير رالف جيشاً على كامل الأهبة ، لا مجرد حامية بسيطة يسهل التغلب عليها(٢) . أضف إلى هذا أن الانجليز كان ينقصهم الفرسان ولم يحل تفوق مشاتهم دون ضعف ميسرتهم الظاهر(٣) ؛ ولكن لما كان الغرض من العمليات العسكرية الزحف على الإسكندرية واحتلالها ، وليس البقاء دون حراك فى ذلك الوادى الضيق أو «البرزخ» الذى يفصل بين أبى قير والإسكندرية فقد بات واجباً على أبر كرمبى أن يقرر استئناف العمليات العسكرية والتحرك عاجلا أو آجلا ، بل إن السير رالف كان فى عزمه إصدار الأوامر ببدء الهجوم فى خلال يومين على الأكثر(٤) ، لأنه ما كان يعتقد أن الفرنسيين سوف يتركون مراكزهم المنيعة على المرتفعات ، ويحاولون مهاجمته(٥)؛ ولكن هؤلاء سرعان ما أخرجوا القائد الإنجليزى من ورطته عندما قر رأيهم على بدء الهجوم من جانبهم .

وما إن وصل منو إلى معسكر لانوس حتى راح يتساءل عن الإجراءات التى اتخذت، لإخبار غانتوم بحركات الإنجليز ونزولهم فى الشاطىء ، وكان منو عظيم الثقة بأن غانتوم سوف يحضر بنجدات كبيرة إلى مصر . فأكد له (لوروى) Le Roy أن السفينة

---

(١) Walsh 97

(٢) Charles-Roux II. 168

(٣) Bertrand II. 444

(٤) Wilson 39 — 40

(٥) Walsh 97; Ibid 40

أوزيريس Osiris قد أرسلت تحمل هذه الأنباء إلى غانتوم ، وأن الاستعدادات لاستقبال النجدات عند وصولها قد تمت ، وعندئذ طفق منو يفحص مع قواده الموقف ؛ ولاحظ هؤلاء أن الإنجليز إذ جعلوا ميمنة جيشهم مستندة إلى البحر وميسرته متكئة على بحيرة المعدية ، قد أتاحوا للعدو فرصة الانتصار عليهم ، إذا أقدم على تركيز كل جهوده فى مهاجمة القلب بصورة تفصل بينه وبين جناحى الجيش ، حتى إذا حدث ذلك سهل الإجهاز على كل جناح من هذين الجناحين على حدة ، وإلقاء جنده إلى البحر أو البحيرة(١) ؛ واعتقد منو وقواده أن النصر قمين أن يكون من نصيبهم إذا هم اتبعوا هذه الخطة ، وعلى ذلك فقد وافقوا جميعاً عليها ، وآمنوا بالنصر واتخذوا قراراً بالهجوم العاجل على جيش أبر كرمبى .

وكان من الأسباب التى دعت إلى تقرير الهجوم السريع ، خوف القواد من زحف العثمانيين على الحدود الشرقية ، ووصول حملة الهند قبل أن يكونوا قد فرغوا من هزيمة العدو فى الشواطىء الشمالية(٢) ، ولو أنه لم يكن هناك ما يدعو فى واقع الأمر إلى الخوف من زحف العثمانيين الذى وقع بعد هذه الحوادث بفترة طويلة من الزمن ، كما أن حملة الهند وصلت بعد انقضاء المعارك الهامة . وللمرة الأولى فى تاريخ قائد الحملة العام ، تحرر منو من صلفه وكبريائه وأقبل يستشير أولئك القواد الذين كانوا أكثر منه حنكة ودراية ومعرفة بفنون القتال . ولما كان لا يجرؤ على استشارة (رينييه) بعد كل ذلك الذى حدث بينهما ، فقد طلب من لانوس أن يعد خطة المعركة المقبلة ، على اعتبار أن لانوس قد قضى زمناً طويلا بالوجه البحرى ، فأصبح أكثر معرفة من غيره بخصائص الإقليم الذى يدور فيه القتال . وكان منو يرجو من ذلك ولاشك أن يبحث لانوس تفاصيل هذه الخطة مع الجنرال (رينييه) ، وهو القائد الذى شهد الجميع بكفاءته . وبالفعل بحث لانوس مع (رينييه) خطة المعركة ، واشترك معهما فى البحث الجنرال لاجرانج رئيس هيئة أركان الحرب ، وأسفر البحث عن وضع خطة لم يلبث أن صدر بتفاصيلها أمر يومى فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠١ وزع على سائر القواد فى الساعة العاشرة من مساء اليوم نفسه(٣) .

وبلغ الإنجليز نبأ ما قرره الفرنسيون ودهش أبر كرمبى فى أول الأمر ، ورفض

---

(١) Charles - Rous II 170

(٢) Reynier 210

(٣) Reybaud VIII 155-6; Wilson. App. 9. 483-5; Anderson 264 — 8

أن يصدق الأنباء التى وصلته ، ولكنه ما تأكدت له صحتها حتى أخذ يعد للأمر عدته ، وتوقع الانجليز أن يبدأ الفرنسيون هجومهم المنتظر فى أثناء الليل ، ووقفت خطوطهم الأمامية وقواتهم الاحتياطية على قدم الاستعداد للعمل عند أول بادرة . وفى فجر يوم ٢١ مارس بدأت معركة كانوب الفاصلة[١] .

كان الانجليز عند بداية المعركة يقفون فى خطهم الأول بصورة جعلتهم يركزون أكثر قواتهم : أولا فى جناح الجيش الأيمن بقيادة الجنرال مور Moore على مرتفعات معسكر قيصر ؛ يعززه (متراس) حصين أمام هذا المعسكر ؛ وثانيا : فى القلب بقيادة الجنرال كوت Coote ؛ كما اتخذ السير رالف أبركرمبى موقفه فى القلب كذلك أما جناح الجيش الأيسر فقد استند إلى ترعة الاسكندرية التى كانت تفصل بينه وبين منخفض مربوط ، وكان هذا الجناح ضعيفاً ؛ تولى قيادته الجنرال كرادوك Craddock ووقف خلفه كافان Cavan ، ووضع الانجليز فرسانهم القليلين إلى جانب قوات من المشاة فى خط القتال الثانى خلف خطهم الأمامى ؛ فكان الفرسان بقيادة فينش Finch والمشاة بقيادة Doyle وراء القلب وعلى طرفه الأيمن مباشرة . ثم انتشر المشاة الانجليز فى قوات احتياطية خلف هذين الخطين بين شاطىء البحر ومنخفض مربوط . وتولى الجنرال ستيوارت القيادة واتخذ مركزه فى الميمنة .

وأما الفرنسيون فقد جعلوا ميمنتهم بقيادة الجنرال رينييه ترتكز على ترعة الإسكندرية من ناحيته ، ويقف إلى يساره الجنرال فريان ، ثم جعلوا القلب بقيادة الجنرال رامبون وإلى يمينه الجنرال دستان D'Estaing بين قوتى رامبون ، وفريان ؛ وجعلوا الميسرة بقيادة الجنرال لانوس ممتدة إلى شاطىء البحر . ووزعوا مدفعيتهم بين القلب والجناحين وفى طرف جيش رينييه المطل على الترعة ومنخفض مربوط . ووضع الفرنسيون جزءاً من فرسانهم بقيادة الجنرال برون فى طرف ميمنة جيشهم خلف ترعة الإسكندرية فى منخفض مربوط . وأما بقية فرسانهم فقد اتخذت مواقعها فى مؤخرة القلب وعهدوا بقيادتها إلى الجنرال رواز Roize ، ومن خلفها المدفعية ، وفضلا عن ذلك فقد أعدوا قوة من الهجانة بقيادة الكولونيل كافاليه Cavalier .

ونصت التعليمات التى وزعت على القواد فى مساء يوم ٢٠ مارس[٢] على أن تبدأ المعركة فى منتصف الساعة الخامسة صباحا ، بأن تقوم قوات الهجانه (بقيادة

---

(١) Wilson 39 — 42, 304 — 6; Anderson 252 Et Sq

(٢) Rigault 300 — 2; Wilson 283 — 5; Anderson 264 — 8

كفاليه وتحت أوامر رينييه) بهجوم كاذب على ميسرة الإنجليز ، حتى إذا شغل هؤلاء بدرجة كافية ، يبدأ الهجوم الكبير على الفور تقوم به ميسرة الفرنسيين بقيادة رامبون ودستان ؛ على أن يكون هدفهم المباشر تحطيم (المتراس) القائم أمام معسكر قيصر . وقد طلب إلى رينييه قائد الميمنة أن يتحرك بقواته فى أثناء هذا الهجوم رويدا رويدا حتى إذا رأى القلب يشتبك نهائيا فى المعركة معززاً بذلك هجوم الميسرة ، يبدأ (رينييه) هجومه الجدى بصورة تمكن من الإجهاز على خط العدو الأول . فإذا تم ذلك أعاد الجيش تنظيم صفوفه ، واستأنف الهجوم على خط العدو الثانى ؛ فتحمل الميسرة على العدو ، ويحذو القلب حذو الميسرة مسترشدا بخطواتها ، بينما تظل مهمة الميمنة (قيادة رينييه) شغل ميسرة العدو ومنعها من الاشتراك فى صد الهجوم الفرنسى ؛ فلا يجد قلب العدو وميمنته إزاء هجوم الفرنسيين الشديد مناصا من الارتداد صوب ميسرته ؛ وبحركة تطويق سريعة يستطيع هؤلاء حينئذ أن يلقوا بالجيش المتقهقر فى بحيرة المعدية .

تلك كانت الخطوط الرئيسية التى رسمها الفرنسيون للمعركة ؛ وواضح أن واضعيها لم يجدوا حاجة إلى استخدام قوات رواز وبرون فى أثناء القتال بصورة حاسمة ؛ إذ جعلوا مهمة برون وفرسانه مجرد إزعاج العدو بإطلاق النار عليه فى أثناء الهجوم الأول ، ثم لم يشركوه حسب خططهم فى الهجوم الثانى . أما رواز فقد انحصرت مهمته فى أثناء المرحلة الأولى من المعركة فى حماية مؤخرة القلب مع مدفعيته ، ثم مطاردة فلول العدو المنهزم فى المرحلة الثانية ، واستخدام المدفعية فى أثناء العمليات جميعها ، فضلا عن مراقبة مدفعيته للعدو ، وزيادة على ذلك فإن نجاح هذه الخطة بحذافيرها كان يتوقف على نجاح خدعة الهجوم الكاذب حتى يمكن استدراج شطر من قوات الإنجليز من القلب واليمين لتعزيز ميسرتهم فتتحقق بفضل ذلك فائدة الهجوم الكبير ، وكانت ميسرة الإنجليز أضعف النقط الظاهرة فى خط قتالهم . ومع ذلك فقد منعت التعليمات ميمنة الجيش الفرنسى (قيادة رينييه) من القيام بهجوم حاسم على هذه الميسرة ، بل قيدت حركته وجعلت تقدمه أو اشتراكه فى المعركة مرهونا بتقدم القلب ونجاح هجومه مع الميسرة على جناح العدو الأيمن وقلبه .

ولعل أهم ما يمكن توجيهه من ضروب النقد أن الفرنسيين عندما وضعوا خطة المعركة حصروا كل اهتمامهم فى تنظيم الهجوم على ميمنة العدو ؛ وأغفلوا شأن ميسرته مع أن مراكز الإنجليز فى معسكر قيصر وحوله كانت قوية ، وإن كان يبدو للعين المجردة

أن هناك بعض الثغرات فى خط الإنجليز الأمامى يمكن النفاذ منها ، بسبب التواء هذا الخط قليلا صوب الشمال الغربى عند معسكر قيصر ، ووجود فرجة بسيطة بين ميمنته وقلبه ؛ وفات الفرنسيين أن فرسان العدو وبعض مشاته بقيادةدويل Doyle وغيره كانت تحمى ظهور الميمنة ، ناهيك بقوات الجنرال ستيوارت فى الخط الخلفى . وكان الخطأ الذى وقع فيه (رينييه) و (لانوس) و (لاجرانج) عند وضع تفاصيل هذه الخطة ظاهرا لدرجة أن نابليون فيما بعد أخذ على قواد جيش الشرق أنهم أغفلوا فى تدبيرهم الاستفادة من ضعف ميسرة الإنجليز ، وكان من رأيه(١) أن يغير القواد خططهم فى ليل ٢٠ — ٢١ مارس بصورة تمكنهم من تركيز الهجوم على ميسرة الإنجليز الضعيفة ، وذلك بأن تستند الميمنة الفرنسية (قيادة رينييه) على بحيرة المعدية بينما تتخذ الميسرة والقلب مواضع تمكنهما من الدفاع عن باب رشيد (مدخل الإسكندرية) من جهة ، ثم القيام بحركة تطويق تساعد عن إرغام قلب العدو وأكثر قواته على الارتداد ثم الانحراف مع الميسرة نحو البحيرة من جهة أخرى ، فيشترك حينئذ القائمون بالهجوم فى قذف العدو إلى المياه فى بحيرة المعدية (أبى قير) .

ومع ذلك فقد أجمع الثقات على أنه كان فى استطاعة الفرنسيين على الرغم من عيوب خطتهم أن يلحقوا الهزيمة بالعدو ، بفضل مناعة مواقعهم من ناحية ، وحاجة العدو إلى الفرسان وضعف ميسرته من ناحية أخرى ، لو أنهم (أى الفرنسيين) أفلحوا فى خديعة (الهجوم الكاذب) أولا ، ثم ألقى (رينييه) بالميمنة فى أتون المعركة عند ما حمى وطيس القتال بعد ذلك ؛ وكان القائد العام الذى أشرف على سير القتال رجلا غير منو . بل إنه كان فى الاستطاعة أن يتجنب الفرنسيون بعض ما نزل بهم من خسائر فادحة لو أنهم تقهقروا فى الوقت المناسب ؛ بل كان فى وسعهم بمجرد إعادة تنظيم صفوفهم أن يستأنفوا الهجوم ، وأن يتخذوا من التدابير ما يكفل بعد ذلك تعطيل زحف الجيوش الإنجليزية إلى داخل البلاد ؛ ولم يحدث شىء من ذلك كله لعجز منو وفشل القيادة العامة . وقد ظهر هذا العجز وهذا الفشل بأوسع معانيهما فى أثناء معركة كانوب الحاسمة نفسها .

فقد بدأ تنفيذ الخطة الموضوعة لإدارة رحى هذه المعركة ، بإطلاق الرصاص على ميسرة الجيش الإنجليزى تمهيداً للقيام بحركة الهجوم الكاذب ؛ وكان الضرب ضعيفا حتى إن الانجليز اعتقدوا فى أول الأمر أن الغرض من هذه العمليات لم يكن سوى

---

(١) Bertrand II 443 — 4

خديعتهم وإزعاج جنودهم وأعيانهم ومعرفة مدى انتباههم ويقظتهم ، ومبلغ استعدادهم لخوض غمار المعركة (١) . غير أن الضرب سرعان ما أخذ يشتد ويقوى على جناحهم الأيسر الضعيف ؛ وقام الكولونيل كفالييه على رأس هجانته بهجوم عنيف على جيش كرادوك واقتحم بطارية العدو الأولى مكتسحا كل شيء أمامه حتى صار يهدد باختراق الترعة (ترعة الاسكندرية ؛ بين منخفض مريوط وبحيرة المعدية) ، والاستدارة خلف جيش كرادوك ، فيكشف بهذا العمل كل الجناح الأيسر ؛ وأدرك الانجليز خطورة الموقف ، واضطر الجنرال ستيوارت عند اشتداد ضرب النار إلى التحرك من موقفه خلف ميمنة الجيش صوب الميسرة ؛ واضطر الجنرال مور ، وكان صاحب الاشراف على العمليات العسكرية فى هذا اليوم إلى العدو بحصانه فى نفس الاتجاه لاستطلاع الخبر . ولا شك فى أنه لو استمرت (خدعة) الفرنسيين وقتا أطول ، وكان لدى كافالييه قوات كافية ، وصدرت له الأوامر من ناحية ميمنة الجيش الفرنسى — وكان كفالييه يخضع فى حركاته لأوامر (رينييه) حسب التعليمات التى تضمنتها خطة المعركة — بالاستمرار فى هذا الهجوم ، واشترك رينييه معه فى الهجوم ، أو عزز قواته بإرسال النجدات إليه عند ما وجد (الهجوم الكاذب) على وشك أن يتحول إلى هجوم صحيح لفائدة الفرنسيين الظاهرة بسبب ضعف ميسرة الانجليز — نقول إنه لو حدث شيء من ذلك لاختلفت نتيجة القتال فى ذلك اليوم ؛ غير أن منو الذى قبع فى مكانه أو ظل طوال المعركة يتجول على حصانه خلف الخطوط ، لم يدرك أهمية ما جد من حوادث ؛ واكتفى (رينييه) بالتقدم قليلا ، باسطا بعض قواته بحذاء الترعة وفق ما كان لديه من تعليمات ؛ ولم تشأ القيادة الفرنسية أن تتحول قيد أنملة عن خطتها الأساسية من حيث اعتبار هجوم كفالييه فى صميمه هجوما كاذبا ، وتركيز الاهتمام فى الهجوم على ميمنة الجيش الانجليزى وقلبه .

ومع أنه كان يجب التريث حتى يبدأ الانجليز فعلا فى نقل بعض قواتهم لتعزيز جناحهم الأيسر فيتحقق الغرض من الهجوم الكاذب ؛ وقد شاهدنا كيف أن(ستيورات) و (مور) كانا فى طريقهما إلى الميسرة ، فقد أسرع الجنرال (لانوس) بالانقضاض على ميمنة العدو ولما ينقض وقت طويل على بدء « الهجوم الكاذب » (٢) وأفسد بتسرعه الأحمق خطة المعركة (٣) . فإنه ما إن سمع مور Moore إطلاق

(١) Walsh 97 — 8

(٢) Reynier 228; Wilson 40

(٣) Walsh 107— 8; Wilson 40

الرصاص وشهد ضرب المدفعية على الميمنة حتى عاد . فلوى عنان حصانه ناكصا على عقبيه وهو يقول « إنما يقع فى هذا المكان الهجوم الصحيح » (١) . وفعل مثله كذلك الجنرال ستيوارت ؛ واستطاع الانجليز أن يصمدوا أمام هجوم لانوس العنيف ؛ وكان غرض لانوس الاستيلاء على (المتراس) الحصين الواقع أمام معسكر قيصر ، ثم إجلاء الانجليز عن مواقعهم فى هذا المعسكر ، وتحطيم جناحهم الأيمن . فحمى وطيس القتال وأحكم الانجليز تدابير دفاعهم عن المسالك الضيقة الموصلة لهذه المراكز ؛ وعندما عنف إطلاق النار على القوات المهاجمة فى الطليعة ، ترددت سائر قوات لانوس فى متابعة الهجوم ؛ ووجد لانوس أن قسما من هذه القوات ما يزال فى المؤخرة بقيادة الجنرال فالنتان Valentin ، فعدا بحصانه إلى الخلف كى يستحثه على التقدم بكل سرعة وتأييد رأس الجيش ، ولكنه لم يلبث أن أصيب بطلقة من مدفع فى فخذه ، وحمل من ميدان المعركة ، وبدأ اختلال النظام يشيع فى جيشه (٢) . وصاح لانوس فى وجه منو وهو يحتضر فى مساء اليوم نفسه « لقد هلكت ؛ وهذا هو مصير المستعمرة كذلك » (٣) .

وفى وقت حدوث هذا الهجوم على جناح الإنجليز الأيمن بدأ الجنرالان رامبون وداستان هجومهما حسب الخطة الموضوعة على قلب الجيش الإنجليزى ؛ وانحرف هجوم رامبون نحو اليمين حتى يشمل جزءاً من ميسرة الإنجليز ؛ أما داستان فقد حاول أن ينفذ من الفضاء الواقع بين (المتراس) وبين المعسكر فقوبل بنيران شديدة اضطرته إلى الانسحاب ، ووقع جنده الذين توغلوا قليلا فى هذا الفضاء أسرى فى أيدى الإنجليز ، وجرح (داستان) فى أثناء هذا الهجوم بينما نجا (رامبون) من الموت بصعوبة . وهكذا فشلت أهم أجزاء الخطة الفرنسية ؛ وكان من الواضح أن سبب هذا الفشل الأكبر هو عدم توحيد العمليات بحيث يقع الهجوم على ميمنة جيش الإنجليز وقلبه فى وقت واحد ؛ بل حدث الهجوم فى حركات « غير متسقة » وبقوات من المشاة ضعيفة بالقياس إلى العدو ، « ومنفصلة » بعضها عن بعض (٤) .

وكان فى هذه الظروف العصيبة أن ارتكب منو ، القائد العام خطأه الأكبر . فقد خطر له ، وقد شاهد فشل هجوم (لانوس) (ورامبون) (وداستان) ، أن يلقى بقوات

---

(١) Fortesque IV. 2. 834

(٢) Reybaud VIII 214 — 5; Martin II 186

(٣) Reybaud VIII. 161

(٤) Ibid. 163

فرسانه بقيادة الجنرال رواز فى أتون المعركة علّه يتمكن من اختراق صفوف الإنجليز ويظفر بإخراجهم من مواقعهم . فاقترب منو فى أثناء جولته على حصانه خلف الخطوط من (رواز) وطلب إليه الهجوم بفرسانه على العدو ، ولما كان (رواز) قد لاحظ الارتباك الذى حدث فى صفوف الميسرة والقلب الفرنسيين بعد فشل هجوم لانوس ورامبون وداستان ، وكان يعتقد أن دخول فرسانه إلى الميدان بعد هذا الفشل لافائدة منه ، وليس هناك مايسوغه ، ولاينجم عنه سوى تضحية قواته سدى ودون جدوى ، فقد أدهشه أمر منو له بالهجوم ، ولما لم يستطع إخفاء حيرته وظل ينظر إلى القائد العام مشدوها ، فقد كرر منو الأمر بالهجوم بصورة جعلت حمرة الخجل تعلو جبهة رواز الذى اكتفى بأن سأل منو عما إذا كان من واجبه حقا الهجوم ، فقال منو « أمامك وفى خط مستقيم ! » وكان معنى هذا الأمر أن يقوم رواز بالهجوم على معسكر قيصر — « أمامه وعلى خط مستقيم » — أمنع معاقل الإنجليز ، وحيث عجز مشاة لانوس عن اقتحامه ، فضلا عن اختلال النظام الذى بدأ يشيع فى صفوفهم عقب سقوط لانوس فكان جواب (رواز) « إلى الأمام أيها الإخوان إنهم يبعثون بنا إلى المجد والموت[١] » وكان هجوما كتب لرواز وفرسانه صفحة من المجد والفخار ، ولكنه لم يأت بأية نتيجة بل كلف الفرنسيين خسارة أخرى إلى جانب خسائرهم الأولى الفادحة .

ومما يزيد فى خطورة مسئولية منو عن هذا الفشل الذريع فى كانوب ، أنه لم يأمر المشاة بتعزيز هجوم رواز[٢] ، وكان لديه جيش (رينييه) فى الميمنة لم يشترك فى شىء من الالتحامات السابقة ، وعلى ذلك فقد حمل فريق من فرسانه بقيادة الجنرال بوسار Boussart حملة عنيفة على مواقع الانجليز ، أوصلتهم إلى خيامهم ، ولكنهم سرعان ما أوقفوا عندما صارت خيولهم تتعثر فى حبال هذه الخيام وتقع فى الحفرات التى ملأت المكان من جهة[٣] ، ثم اشتداد إطلاق النار عليهم من جهة أخرى ، فهلك عدد عظيم من خيولهم ، وجاءت النجدات مسرعة لتعزيز صفوف الإنجليز فاتخذت مواقفها فى ذلك الفضاء الذى كان يفصل بين (المتراس) و (المعسكر) ؛ ومع ذلك بلغ هجوم صفوف الفرسان التالية بقيادة رواز نفسه من أجل اقتحام هذا الموضع أقصى مايبلغه هجوم من الشدة والعنف، حتى إن الانجليز لم يسعهم ، إزاء هذه الإغارة اليائسة إلا أن

---

(١) Dragon d'Egypte 154—6; Reybaud VIII 168 — 9

(٢) Wilson 43

(٣) Walsh 109

يخلوا مكانا لمرور الفرسان الفرنسيين . وما إن نفذ هؤلاء من الثغرة حتى استدار الانجليز وأخذوا يمطرونهم وابلا من الرصاص ، أهلك عددا عظيما منهم ، وعبثا حاول الفرسان عندئذ أن يعودوا أدراجهم ، حتى يخرجوا من هذا المأزق ، إذ أطبق الانجليز عليهم من كل جانب وأوقعوا بهم مقتلة عظيمة[١] ، وكان رواز نفسه من بين الذين قتلوا ، كما أصيب السير رالف أبركرمبى بجرح قاتل وكاد مور يقع فى الأسر . وكان من الواضح أنه لامعدى عن اشتراك المشاة الفرنسيين فى القتال الدائر ، ليس فقط من أجل تعزيز هذا الهجوم ، بل لتخليص رواز وفرسانه من مأزقهم . ومع ذلك فقد ظل منو لايبدى حراكا ولايصدر أوامره لمشاة (رينييه) بالدخول فى المعركة .

أما (رينييه) الذى انتظر عبثا صدور هذه الأوامر ، فقد أخذ على عاتقه مسئولية التقدم لتخليص فرسان رواز ؛ ومع أن بعض المؤرخين الذين درسوا هذه المعركة يشكون فى أن (رينييه) قد تحرك أصلا للاشتراك فى هذا القتال الدائر[٢] ، فقد تحدث الإنجليز الذين شهدوا وقائعها عن محاولة المشاة الفرنسيين نجدة رواز وفرسانه ، وتعرضهم بسبب ذلك إلى نيران العدو التى كبدتهم خسارة فادحة[٣] . ويقول مؤرخوهم إن قسما من جيش (رينييه) قد تحرك فعلا لتأييد هجوم رواز ، ولكنهم لم يستطيعوا الاقتراب من المتراس ، أو تلك الثغرة التى سدها الانجليز بكل سرعة[٤] . ويؤكد (رينييه) أن جنده ما كادوا يصلون إلى المتراس حتى تبين لهم أن الفرسان قد صدوا . ويعلل (رينييه) عجز مشاته عن الاشتراك فى القتال بصورة حاسمة ، بأنه لم يكن لديه متسع من الوقت لإرسال قوات كبيرة من جناحه الأيمن لتأييد رواز[٥] ، وسبب ذلك ولاشك أن أحداً لم يخبر (رينييه) بالهجوم المنتظر ، ولم يدرك (رينييه) ومشاته خطورة ماوقع إلا عند مشاهدتهم الهجوم يحدث فعلا . وعلى كل حال فقد كانت محاولة (رينييه) المتأخرة ضئيلة القيمة والغاية ، لدرجة أن أحداً من الانجليز الذين اشتركوا فى هذه المعركة أو شهدوا وقائعها لم يشعر بها ، بل انعقد رأى هؤلاء جميعاً على أن ميمنة الجيش الفرنسى بقيادة (رينييه) ، و (فريان) ظلت طوال الوقت

---

(١) Fortesque IV. 2. 837 — 8

(٢) Charles - Roux II 176

(٣) Walsh 103 ; Anderson 404

(٤) Fortesque IV. 2. 837

(٥) Reynier 221

فى عزلة تكاد تكون تامة ، ولا يعدو اشتراكها فى المعركة الدائرة الاستهداف لنيران العدو ومقابلة هذه النيران بمثلها[١] .

ولعل أكبر أخطاء (رينييه) عند ما أرسل بعض مشاته لتخليص رواز أنه فضل عدم المثابرة فى حركته على الصمود أمام العدو ، فأسرع جنده بالارتداد ، وفضلا عن ذلك فإنه لم يحاول استئناف الهجوم بقوات أكبر ، فى وقت أكد فيه الإنجليز أنفسهم أنهم ظلوا بعد التحام رواز العنيف ساعة بأكملها دون أن يوجد لديهم طلق واحد ، وعجزت مدفعيتهم عن إطلاق قذائفها على العـدو ، ولم يكن هناك معدى لو تقدم المشاة الفرنسيون عن أن يقابلهم نظراؤهم الإنجليز بالسلاح الأبيض (أوالسونكى) فحسب[٢]. ومع ذلك فقد كان لدى الإنجليز من ناحية أخرى قوات احتياطية كثيرة لم تكن قد اشتركت فى المعركة حتى هذا الوقت ، وفى وسعها صد الهجوم الفرنسى الجـديد إذا حدث[٣]. ومهما يكن من أمر فقد بات واضحاً بعد هزيمة رواز أن الفرنسيين قد خسروا المعركة ، وغدت مهمة منو التالية تدبر الموقف دون إبطاء .

وكان من رأى (رينييه) ، وقد فشل هجوم رواز ، إنهاء المعركة والارتداد إلى تلك المراكز الحصينة التى خرج منها الفرنسيون فى بداية القتال ؛ أو اتخاذ إجراء حاسم لمحاولة هجوم جديد لانتزاع مواقع الانجليز الحصينة عند المتراس ومعسكر قيصر ، تقوم به ميمنة الجيش (قيادة رينييه) التى ظلت محتفظة بنشاطها ؛ ولوأنه لم يكن من الحكمة المخاطرة بهذه القوات التى ظل فى إمكانها حمـاية مؤخرة الجيش عند تقهقره . ويقول (رينييه) إنه عرض هذه الحـلول على منو وطلب إليه إما الارتداد إلى مرتفعات نيكوبوليس وإما استئناف الهجوم ؛ ولـكنه لم يظفر منه بطائل ؛ فظل جناح الفرنسيين الأيمن (قيادة رينييه) فى موضعه معرضاً لنيران مدافع العدو ، دون أن يبدى حراكا يتكبد خسائر فادحة فى كل لحظة مدة تزيد على ساعتين[٤]. ولاشك فى أنه كان فى وسع منو — وقد بيت النية على عدم استئناف الهجوم — أن يتجنب هذه الخسائر ، لو أنه أمر بالتقهقر قبل أن تأتى الذخائر إلى العدو ، بعد أن ظلت بطاريات مدافعهم دون طلق واحد مدة ساعة بأكملها على نحو ما قدمنا .

---

(١) Anderson 404; Walsh 104; Wilson 41 — 2

(٢) Moore II 21

(٣) Fortesque IV. 2. 839

(٤) Reybaud VIII 171 — 2

ويرى بعض المؤرخين أن الكبرياء الكاذب وحده هو الذى جعل منو يصر على إبقاء الجنود فى خط القتال بعد أن بات واضحاً ضياع كل فرصة لاحتمال القيام بهجوم ناجح [١] ؛ ويقول مؤرخو الإنجليز ، إن تعريض الجنود لنيران العدو على هذا الوجه كان بالقياس إلى سائر الأخطاء التى ارتكبتها القيادة الفرنسية فى ذلك اليوم أشدها إجراما [٢] . وأخيراً وبعد أن تأكد لدى منو نفاد الذخيرة لدى جنوده أصدر حوالى منتصف الساعة الحادية عشرة صباحاً أمره إلى الجيش بالتقهقر إلى مرتفعات نيكوبوليس [٣] . وبذلك تكون قد انتهت معركة كانوب الحاسمة ، تلك المعركة التى قضت على مصير جيش الشرق فى هذه البلاد ، والتى جاءت خسارتها فى الحقيقة مؤذنة بانتهاء (حملة عام ١٨٠١) الكبيرة ، والتى كان غرضها إجلاء الفرنسيين عن مصر وطردهم منها .

وقد سقط فى هذه المعركة من الفرنسيين حوالى الألف وجرح حوالى المائة وألف ؛ وكان من بين الصرعى لانوس ، الذى رفض أن تبتر ساقه لإنقاذه من الموت حتى لايعيش بعد هذا اليوم الأغبر . ويذكر نقولا الترکی أنه عند ما نقل لانوس جريحا من المعركة « دخل عليه قبل وفاته أمير الجيوش عبد الله منو وبكى عليه وقال له سلامتك أيها البطل من الهلاك ، ولا تشمت بك أعداءك ، فتنفس الجنرال لانوس الصعداء من فؤاد مجروح من سهام الأعداء وأجابه قائلا : قد ألقيتنا أيها الجنرال ببحر الهلاك من فساد رأيك وكبرياك ، فلا يسوغ للذى نظيرك أن يكون أمير الجيوش الفرنساوية ومدبر حروبها القوية ، بل يجب أن يكون مدبراً فى مطبخ المشيخة لأنك لو كنت تركت العساكر سائرة فى طريقها لما كانت أعداءنا الإنكليز قدرت تملك منا البر وتتمكن هذا التمكين ، فكان ذلك من جبروتك وعنادك المبين [٤] » ؛ وكذلك هلك رواز وبوضوط Beaudot ؛ وكان من بين الجرحى داستان وبوسار وغيرهما من كبار الضباط. أما الإنجليز فقد بلغت خسارتهم حوالى الألف وخمسمائة وكان من بين القتلى قائد الحملة نفسه السير رالف أبركرمبى ، ثم الجنرال كوت Coote ومن الجرحى أوكس Oakes ، ولوسون Lawson والسير سدنى سميث وغيرهم [٥] .

---

(١) Charles - Roux. II 178

(٢) Fortesque IV. 2. 837 — 8

(٣) Reybaud. VIII. 173

(٤) نقولا الترکی ٢٠٧

(٥) Reybaud VIII 173 — 4

وكان من الطبيعى أن يحاول الفرنسيون تحديد مسئولية أولئك الذين جلبوا العار والهزيمة على جيش الشرق فى ذلك اليوم المشهود ، وعنفت مناقشاتهم فى أسباب هذه الهزيمة . وانقسموا فريقين أحدهما ، وعلى رأسه منو ورامبون ولاجرانج ، يرد أسبابها إلى سوء نوايا رينييه وداماس وقواد ميمنة الجيش عموما ، وسوء تصرف لانوس وحماقته ؛ أما الفريق الثانى فكان يتألف من رينييه ودوجرو Dougereau وغيرهما ممن ألقوا المسئولية على منو وحده . فقال جلان Galland « إن كثيرين من الجنود يعزون فشل المعركة إلى تفرق كلمة القواد السيء ، ويتهمون رينييه وداماس بعدم مؤازرة القائد العام (منو) لنجاح عملياته العسكرية ، ويقولون إن رينييه فقد عدداً عظيما من جنده دون أن يطلق رصاصة واحدة ، وكان الجنود فى شدة الغضب ؛ ومن أقوالهم كذلك إن لانوس قد قتل ولكن دون أن يقاتل فى المكان الذى خصص له [١] » .

ويبنى هؤلاء أن بطء منو كان السبب فى الهزيمة . ويقول ملليه Millet ، وكان ممن شهدوا المعركة ، إن قواد الميمنة (أى رينييه وداماس وزملاءهما) الذين كرهوا منو لم يتصدوا لمؤازرة القلب عند ما طلب رامبون وفريان النجدة[٢] . وقال نقولا الترکى ، إنه عند ما أصيب لانوس بجرحه القاتل « حضر إلى معونته أمير الجيوش وحمل على الأخصام وأمر إلى رؤس العساكر الجنرال رانيه والجنرال داماس وهما المكروهين منه أن يتقدما لمساعدة لانوس فتخلفا وأبيا عن التقدم وقرعت طبول الكسرة والرجوع إلى ورا نكاية فى أمير الجيوش [٣] » .

أما منو نفسه فقد أصدر منشوراً إلى جنوده بعد مضى أسبوع من المعركة يتحدث فيه عن « أولئك الأفراد الذين بسبب سوء نواياهم يعمدون إلى إشاعة الفوضى فى صفوف الجيش [٤] » .

ثم أعد بعد ذلك فى ٢٤ إبريل تقريراً طويلا إلى القنصل الأول أخذ يسرد فيه ما وقع من حوادث ، منذ ظهور المراكب الإنجليزية أمام الإسكندرية فى بداية مارس . فقال إن نفراً من الذين ساءت نواياهم وخبثت طويتهم شرعوا عشية المعركة

---

(١) Galland 49 — 50

(٢) Millet 205 — 6

(٣) نقولا الترکى ٢٠٧ — ٢٠٨

(٤) Galland 51

(معركة كانوب) يهيجون خواطر الجنود ويحضونهم على العصيان ويكتبون إلى القاهرة أن الفرنسيين قد فقدوا كل شيء، وأنه لا محيد عن إخلاء البلاد، والتسليم الكامل في سبيل عقد الصلح مع العدو وقبوله مهما كانت شرائطه [١].
وكان أصحاب النوايا السيئة الذين قصدهم منو بطبيعة الحال هم أعداؤه القدامى، (رينييه) وجماعته « أولئك الذين رغبوا من زمن طويل في إخلاء البلاد وأقاموا الدليل في أثناء هذا اليوم الذي لا يمكن نسيانه على خبث طويتهم العظيم » .

أما (رينييه) فقد شرع يكتب إلى أصدقائه في فرنسا وإلى أعوانه في القاهرة مساء يوم المعركة نفسه، يعزو الفشل إلى تردد منو، ويقيم الحجة بعد الحجة على عجز وسوء تدبيره في أثناء المعركة. وكان أكبر دفاع له في دحض أقوال أولئك الذين اتهموه بالجمود وعدم الحركة في أدق ظروف المعركة، وأشد أوقاتها حرجا أن الخطة التي صدر بها أمر منو واشترك هو مع غيره في وضع تفاصيلها، كانت تلزمه بالوقوف قليلا، والحركة ببطء، حتى إذا تم تقدم القلب لتعزيز جناح الجيش الأيسر، وحمي وطيس المعركة، تقدم هو بميمنته واشترك مع جيشي لانوس ورامبون في هزيمة الانجليز أما وقد أخفق الهجوم فقد انتفت الحاجة لجيشه، وبات واجبه حماية المؤخرة حتى تستطيع قوات لانوس ورامبون التقهقر في نظام لا يعرضها لتكبد خسائر أخرى؛ وفضلا عن ذلك فقد أسفرت هذه العمليات الأولى عن هزيمة حوالي ثلاثة أخماس الجيش الفرنسي، ومع أن هذه خسارة كبيرة، فانها لم تكن ذات آثار حاسمة؛ وكان الأجدر عندئذ أن يصدر الأمر بالتقهقر، فلا تعدو المعركة حينئذ عملية استطلاع فحسب، ويتسنى للجيش بعد إعادة تنظيم صفوفه أن يستأنف الهجوم مرة أخرى. أضف إلى ذلك أنه لم يكن لديه قوات كافية للمجازفة بالإغارة على الانجليز، في وقت كان يرى فيه جنود لانوس ورامبون مبعثرين في ميدان المعركة بسبب ما حل بهم من هزيمة [٢].

وسواء كان رينييه مصيباً أم كان منو على حق في دعواه، فالثابت أن الفرنسيين في هذه المعركة الحاسمة كان ينقصهم وجود القائد العام المحنك، الذي كان من واجبه من أول الأمر حشد كل قواته في المعركة، فلا يترك جنوده موزعين على الحاميات في طول البلاد وعرضها وقت الحاجة الملحة لخدماتهم؛ ولا يدع الأيام تمضي منذ ٢ مارس على الأقل دون الاسراع إلى مكان المعركة المقبلة؛ حتى إذا ما دارت رحى القتال سهر على

(١) Reynier 342
(٢) Ibid 215 — 8

تنفيذ الخطة الموضوعة ، فلا يترك لقواده حرية التصرف دون أن يعمل على تنسيق حركاتهم ، الأمر الذى حدا بنابليون فيما بعد إلى وصف معركة كانوب بأنها كانت مجموعة من العمليات التى لا يربط بينها رابط ، وتدل على أن الجيش كان خلوا من كل قيادة[١] وقال الضباط الذين شهدوا هذه المعركة أن أحدا لم يكن يرجو أن يسفر الهجوم الذى حدث عن أى انتصار ، أو على الأقل لم يتخذ إنسان أى إجراء صحيح يضمن الظفر[٢] وعاب آخرون عجز القيادة الظاهر فقالوا إن منو الذى ظل لا يجرؤ على اتخاذ قرار حاسم طول المعركة ، لم يلبث أن أقام الدليل على نقص مواهبه عندما أصدر ذلك الأمر الوحيد الذى جاء فى غير أوانه ودون حاجة إليه ، يطلب إلى رواز وفرسانه أن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة[٣]. وقد تحدث الانجليز كذلك عن انتفاء أى غرض واضح من ذلك الهجوم الذى قر رأى منو على القيام به دون تريث أو « غاية معينة » على حين كان من الواجب عليه الانتظار حتى تبدأ عمليات الانجليز أنفسهم بالهجوم على مراكز الفرنسيين الحصينة[٤].

أما عن وقوف منو خلف الخطوط وعدم النزول بنفسه إلى ميدان المعركة ، فيكفى أن نذكر للمقارنة بين القيادتين الانجليزية والفرنسية فى أثناء هذا القتال ما فعله أبر كرمبى الذى كان فى رأى منو الاستهانة به والاستخفاف بقدرته . فقد أصر السير رالف ، على الرغم من جرحه الخطير الذى أصيب به عند هجوم رواز وفرسانه على البقاء فى ميدان المعركة خشية أن تختل صفوف جنده فى هذه المرحلة الحاسمة من مراحل المعركة ؛ فتحمل آلام جراحه بجلد عظيم ، حتى إذا شاهد النصر يقبل على جنوده وقد تقهقر العدو أذن بفحص جرحه بعد أن خارت قواه فأغمى عليه ثم نقل بعد ذلك إلى بارجة اللورد كيث ، حيث فاضت روحه بعد أيام قليلة — (٢٨ مارس)[٥].

ولعل أكبر دليل على عجز منو ذلك الانقسام الذى استفحل أمره بين قواد الحملة ، ووجود تلك « النوايا السيئة » التى عزا منو فشله إلى أصحابها . وفضلا عن ذلك فقد ذاع خبر هذا الخلاف حتى عرفه أهل البلاد . أما هؤلاء فقد شاطروا «أصحاب هذه النوايا

---

(١) Reybaud VIII 164 ؛ Bertrand II 388 — 91, 441 — 4

(٢) Richardot 418

(٣) Malus 205 — 6

(٤) Wilson 39

(٥) Anderson 261

السيئة » الرأى فى أن منو كان لا يصلح للقيادة ، وآية ذلك ما دونه الشيخ الجبرتى عن تفاصيل هذه المعركة ، إذ كتب فى ١٩ ذى العقدة ١٢١٥ (٣ أبريل ١٨٠١) : « سمع ونقل عن بعض الفرنسيس أنه وقع الحرب بين الفرنساوية والانكليزية ، وكانت الهزيمة على الفرنساوية وقتل بينهم مقتلة كبيرة وانحازوا إلى داخل الاسكندرية ، ووقع بينهم الاختلاف واتهم منو سارى عسكر رينه وداماس ورابه منهما ما رابه وكان سببا لهزيمته فيما يظن ويعتقد فقبض عليهما وعزلهما من إمارتهما . وذلك أن رينه وداماس لما ذهبا على الصورة المتقدمة ونظر رينه وأرسل من كشف على متاريس الانكليز فوجدها فى غاية الوضع والإتقان ، فاجتمعوا للمشورة على عادتهم ودبروا بينهم أمر المحاربة ، فرأى سارى عسكر منو رأيه فلم يعجب رينه ذلك الرأى ، وإن فعلنا ذلك وقعت الغلبة علينا وإنما الرأى عندى كذا وكذا ، ووافقه على ذلك داماس وكثير من عقلائهم فلم يرض بذلك منو وقال أنا سارى عسكر وقد رأيت رأيى ، فلم يسعهم مخالفته وفعلوا ما أمر به ، فوقعت عليهم الهزيمة وقتل منهم فى تلك الليلة خمسة عشر ألفا . وتنحى رينه وداماس ناحية ولم يدخلا فى الحرب بعسكرهما فاغتاظ منو ونسبهما للخيانة والمخامرة عليه وتسفيههم لرأيه . . . » [1] ومع أن بعض هذه التفاصيل لم يكن صحيحا ، فالواضح من رواية الشيخ الجبرتى أن الرأى الذائع فى سبب هذه الهزيمة كان أولا : اعتداد منو برأيه الخاطىء وإصراره على مخالفة ما انعقد عليه رأى « العقلاء » من قواده ، وفى ذكر « العقلاء » تسفيه خفى وإن كان ملموسا لرأى منو نفسه ؛ وثانياً : عدم اشتراك رينييه وداماس فى المعركة بسبب ما كان بينهما وبين منو من خلافات مستحكمة .

زحف الانجليز على القاهرة :

وظهر أثر هذه الخلافات العميقة ، عندما شرع القواد الفرنسيون يتدبرون الموقف بعد انسحاب الجيش المنهزم إلى مرتفعات نيكوبوليس ؛ فقد رأى فريق منهم أن يغادر الجيش بقيادة منو الاسكندرية بعد أن يترك بها حامية للدفاع عنها ، فيتخذ مواقعه فى الرحمانية ، على أن تجتمع بالرحمانية كذلك جميع القوات الأخرى فلا يبقى إلا بعض الفرق فى قلعة القاهرة وقلعة جوليان (برشيد) وعزبة البرج . وكان الغرض من الانتقال إلى الرحمانية اختيار مكان يسهل منه مراقبة عمليات الانجليز والعثمانيين العسكرية

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٦١

من الشمال والشرق ، ثم حشد القوات الفرنسية سريعاً لمقابلة جيوش الأعداء متفرقة فى أى مكان يأتى الخطر منه وفى الوقت المناسب . فيستأنف جيش الشرق الموجود فى الرحمانية الهجوم على الانجليز إذا قر رأى هؤلاء على البقاء فى الشواطىء ، أويذهب لملاقاة جيش الصدر الأعظم إذا زحف يوسف ضيا باشا عن طريق الصحراء [1] وقد اتفقت كلمة مؤرخى حملة ١٨٠١ العسكرية على أن هذه كانت أفضل الخطط — من الناحية النظرية على الأقل — التى وجب اتباعها [2] . وكان من كبار الداعين لهذا الرأى ، الجنرال رينييه الذى كان يتوقع بعد هزيمة كانوب أن يقوم الانجليز والعثمانيون بحملة مزدوجة من البر والبحر ، تزيد من خطورة مركز الفرنسيين فى الاسكندرية وغيرها من المواقع .

ومما هو جدير بالذكر أن رينييه طلب مرات عدة بعد معركة كانوب مقابلة منو ليشرح له الموقف ويتحدث إليه فى خطط الدفاع عن مصر الواجب اتخاذها ؛ وعندما عجز عن الحصول منه على إجابات مقنعة ، وجد رينييه لزاماً عليه فى آخر الأمر أن يدون آراءه فى كتاب بعث به إلى منو فى ١٣ أبريل سنة ١٨٠١ عرض فيه الموقف بإيجاز وأشار إلى حديثه مع قائد الحملة العام فى صباح اليوم نفسه ، ثم شرع يذكر تفصيلات عسكرية من شأن العمل بها تقوية جناحى الجيش ، واحتلال المواقع التى تصلح قواعد يمكن استخدامها لدفع هجوم العدو عن الاسكندرية ؛ ورأى (رينييه) أن الإشارة إلى خبرته الشخصية وتجاربه الماضية مدة عشر سنوات قضاها فى قيادة الجيوش والخدمة العسكرية النشيطة ، فضلا عن اهتمامه وزملائه بالمحافظة على شرف الجيش الفرنسى ، من جهة ، ورغبتهم جميعاً فى المحافظة على هذه البلاد من جهة أخرى ، رأى رينييه فى ذكر ذلك كله شيئاً قد يفيد فى تعزيز مقترحاته .

أما هذه المقترحات فأهمها أن يجمع منو القوات التى كانت لا تزال — بعد معركة كانوب — مبعثرة فى أنحاء البلاد ، والتى أشار رينييه بضرورة جمعها قبل المعركة كذلك ، بل منذ أن علم بوصول الأسطول الإنجليزى إلى أبى قير ؛ والغاية من ذلك إمكان القيام بعمليات عسكرية ناجحة . واتخذ رينييه من بطء حركات العدو سواء الجيش الإنجليزى الذى قل نشاطه الظاهر بعد الاستيلاء على رشيد على نحو ما يأتى ذكره ، أم الجيش العثمانى الذى بدأ زحفه البطىء من مدة قريبة ، ذريعة للاسراع

---

(١) Reybaud VIII 180 — 1 ; Reynier 222 — 3

(٢) Thiers III 85

بجمع جيش الشرق فى مكان يسهل منـه تعطيل عمليات العدو ، وفضلا عن ذلك فإن جمع الجيش فى موقع مختار يتيح للفرنسيين فرصة كسب الوقت فى أثناء تعطيل عمليات العـدو حتى تصلهم النجدات من فرنسا أو يأتيهم ماقد تصدره إليهم حكومة القنصل الأول من أوامر ترتئى إرسالها إليهم ؛ وعلى كل حال فإنه سوف يصبح فى قدرة منو انتظار ما قد تسفر عنه مفاوضات الصلح فى لنـدن ، إذا كان ما بلغ (رينييه) عن سقوط وزارة (بت) صحيحاً[1] .

ولـكن منو لم يشأ الإجابة على هذه الرسالة ، ولم يجد فى الآراء التى تقدم بها رينييه وزملاؤه إلا وسيلة لخذلانه والقضاء عليه ، فرفض العمل بها[2] . وكان منو يرى مراكز الفرنسيين بالاسكندرية منيعة ، ونفى أن الصدر الأعظم فى وسعه أن يتقدم ويعبر الحدود ؛ وقال إن الإنجليز على الرغم من انتصارهم الأخير سوف يرحلون على سفنهم ؛ وإن جمع جيش الشرق فى مكان واحد كالرحمانية ليس الغرض منه سوى إخلاء البلاد من الحاميات الفرنسية تمهيداً للجلاء عن مصر ، على نحو ما يريد المعارضون للاستعمار من جماعة (رينييه) وداماس وهكتور دور ومن إليهم ، وعلى ذلك فإن هيئة أركان الحرب الفرنسية هى نفسها مصدر الخطر على الجيش كله ، وأن من واجبه البقاء بالاسكندرية حتى يتمكن من إحكام الرقابة على هؤلاء الأعداء الخفيين الذين استهدفوا من زمن طويل لغضبه[3] . وفضلا عن ذلك اعتقد منو أن أنصار الجلاء الذين يشيرون عليه بالخروج من الاسكندرية إلى الرحمانية أو إلى أى مكان آخر لم يكن غرضهم سوى المجازفة بجيش الشرق كله بتعريضه لهجوم العدو عليه فى أرض منبسطة سهلة بعد حرمانه من مواقعه الحصينة فى الاسكندرية . وكان من رأى بليار (منذ ٢٧ مارس) أن هزيمة الجيش الجـديدة بعد حشـده واستئناف الهجوم مرة أخرى سوف ينجم عنها ولاشك إصرار العدو على إملاء شروطه القاسية والمجحفة على قائد الحملة العام .

وعلاوة على ذلك اعتقد منو أن رينييه وداماس إذا كتب لجيش الشرق النصر ، سوف يتخذون من هذا الانتصار ذريعة لإرغام منو وإرغام الإنجليز والعثمانيين كذلك على قبول « ذلك التسليم المشرف » الذين ظلوا يسعون لتحقيقه بكل قواهم زمناً طويلا. لذلك كان من رأى منو « اتباع خطة الحرب الدفاعيـة » بالبقاء فى الاسكندرية

---

(١) Reynier 288 — 91

(٢) Reybaud VIII 194 — 5

(٣) Ibid 181 — 2

من جهة ، والاطمئنان إلى استمرار طريق المواصلات مع فرنسا مفتوحاً ، وكسب الوقت حتى تأتيه تلك النجدات التى وعده بها القنصل الأول من جهة أخرى[١].

وكتب نابليون فيما بعد أن الفرنسيين خسروا فى معركة ٢١ مارس حوالى الألفين بين قتيل وجريح ، ولا يمكن تعويض هذه الخسارة الفادحة إلا إذا أحضر غانتوم النجدات التى كان ينتظر وصولها كل إنسان بفارغ الصبر ؛ ولو أن الجميع وقد طال انتظارهم سرعان ما فقدوا الأمل فى مجىء هـذه النجدة ماعدا منو الذى ظل وحده يعتقد أنها لابد آتية . وقد نجم عن خسائر الفرنسيين الكبيرة أن الفرنسيين لم يكونوا فى أعداد تسمح لهم بالابتعاد عن الأسكندرية بعد أن يتركوا بها حامية تكفى للدفاع عنها ، وكان يخيفهم زحف الصدر الأعظم عبر صحراء الشام على مصر ، كما استبد بهم القلق على مصير القاهرة . وقال نابليون ، إن هذه صعوبات لم يكن يستطيع مواجهتها والتغلب عليها سوى قائد محنك قدير . ولم يكن نابليون فى يوم من الأيام يعتقد أن الجنرال منو صاحب عبقرية أو دراية فى فنون الحرب والقتال[٢] .

ويعزو بعض ثقات المؤرخين تصميم منو على البقاء بالأسكندرية ، ورفض نصيحة رينييه أو قواده الآخرين الذين أشاروا عليه بضرورة حشد الجيش فى الرحمانية إلى أنه كان يعترف فى قرارة نفسه بعجزه عن إدارة العمليات العسكرية ووضع خطط المعارك الناجحة ؛ ومعنى الانتقال إلى الرحمانية واتخاذها مركزاً لإدارة الحرب المقبلة أن يضطلع بأعباء القيادة ،وهذا ما كان يخشاه ويريد أن يتجنبه بكل وسيلة ، وبخاصة عندما ثبت فى معركة نيكو بوليس أن أحداً لا يستطيع الاعتماد على تدابير القائد العام وخططه ، ناهيك بما يسببه له مجرد إصدار الأوامر لقواده عند الاستعداد للخوض فى غمار أية معارك من تعب ذهنى لا قدرة له على إحتماله[٣] . وفضلا عن ذلك فإن بقاءه بالأسكندرية يجنبه مخاطر كثيرة ، إذ يقتضى وجود القائد العام بهذه المدينة الحصينة وجود أكبر قوات الجيش معه ، وفى ذلك حماية لشخصه إلى جانب احتمائه وراء أسوار المدينة وتحصيناتها الكثيرة[٤] .

وعلى ذلك رفض منو نصيحة قواده المحنكين ، وقرر البقاء بالإسكندرية ، وتوزيع

---

(١) Rigault 311 — 2 ; Ibid 204

(٢) Bertrand II 440

(٣) Charles - Roux II 187

(٤) Reybaud VIII 210 — 11

قواته بدلا من حشدها بالرحمانية . وعملا بخطة الحرب الدفاعية التى صمم على اتباعها ، أصدر أوامره إلى رؤساء المهندسين وسلاح المدفعية بتحصين مرتفعات نيكوبوليس الممتدة أمام الإسكندرية حتى ينشئوا سداً من التحصينات المنيعة فى وجوه الانجليز .
ولما كان الانجليز بعد انتصارهم فى ٢١ مارس قد ظلوا بعض الوقت دون حراك ، فقد أمن منو جانبهم ، حتى إنه كتب إلى بليار فى ٥ إبريل إن العدو فى حال يسوء كثيراً عن حال الفرنسيين ، بسبب انتشار المرض ونقص المؤن الشديد لديه ؛ وكان مما زاد منو اطمئنانا على قدرته على الدفاع عن الاسكندرية ما كان لديه من مؤن وذخائر وأموال اعتقد أنها تكفيه شهوراً عدة ؛ كما أن فى استطاعته أن يجلب مؤنا وأغذية كثيرة بفضل بقاء المواصلات مفتوحة مع البلاد الداخلية عن طريق مريوط ؛ وقد أمكن منو ببذل بعض المال أن يقنع عربان أولاد على أن يأتوه بشىء من المؤن ، وأرشدتهم فرق الهجانة الفرنسية إلى الطريق الذى يحضرون منه هذه المؤن إلى الاسكندرية(١) . وأصر منو على بقاء الحاميات فى مواضعها ، فاستدعى فقط جند حاميات ميت غمر ومنوف وسحب بعض الجنود من بلبيس والصالحية ، ولو أنه أصدر أمراً طلب فيه عودة جند الصعيد ، ثم لم يرسل إلى الرحمانية وإلى رشيد سوى نفر قليل ، فقرر إرسال ألف ومائتى جندى إلى الرحمانية ما لبث أن أنقصهم إلى النصف ، وأمر الجنرال موران Morand فى دمياط أن يترك مائة جندى فقط فى عزبة البرج ، وعدداً مماثلا فى الديبة وأم فرج ، ويذهب بالباقين إلى الرحمانية مع المدفعية . ومع ذلك فإن الأعرابى الذى حمل هذه الأوامر فشل فى إيصالها إلى موران(٢) .

غير أن الإنجليز الذين توقع منو أن يطول خمولهم بعد انتصار ٢١ مارس ، حتى يضطروا فى النهاية إلى ركوب البحر والعودة أدراجهم ، سرعان ما استأنفوا نشاطهم عندما تبين للجنرال هتشنسون الذى خلف أبركرمبى فى القيادة ، أن الوقوف بلا حراك أمام تحصينات الإسكندرية من شأنه إذا طال أمده أن يذهب بثمار انتصار نيكوبوليس . وواقع الأمر أن مركز الإنجليز بعد هذا الانتصار كانت تكتنفه الصعوبات من كل جانب . فمع أنهم أحرزوا نصراً ظاهراً فى المعركة ، فإن هذا النصر لم يكن حاسماً بالدرجة التى تمكنهم من اقتحام تحصينات نيكوبوليس والإسكندرية ؛ فجيش الشرق لا يزال قويا ، وتنتشر فرق منه فى أنحاء البلاد ،

---

(١) Ibid. 204

(٢) Ibid. 181

ولم يكن غرض الإنجليز الاستيلاء على الإسكندرية فحسب ، بل الاستيلاء على معاقل الفرنسيين الأخرى ؛ وفضلا عن ذلك ، فإن من أهم الصعوبات التى واجهتهم إلى جانب ضرورة الاستيلاء على هـذه المعاقل والحصون ، كان اتخاذ التدابير التى تكفل لهم الحصول على المؤن والأغذية عند زحفهم فى داخل البلاد ، فضلا عن فتح طريق للمواصلات بينهم وبين جيش الصدر الأعظم من جهة وجيش الهند من جهة أخرى .

وقد زاد من صعوباتهم انتشار الطاعون وغيره من الأوبئة والأمراض التى صارت تفتك بجنودهم وتهدد بنقص أعدادها . ولما كان اللورد كيث الأميرال الإنجليزى يعتزم مغادرة الشواطىء المصرية بعد شهور قليلة ، لحاجة بعض سفنه إلى الترميم والاصلاح ، وللتزود بالمؤن والذخائر ، ولأنه كان يخشى من اشتداد الأنواء فى البحر الأبيض وعلى الشواطىء الشمالية بعد شهر اكتوبر ، فقد بات ضروريا استئناف العمليات العسكرية والفراغ من الحملة بكل سرعة فى ظروف لم تكن مواتية[١] . أضف إلى هذا أن الانجليز كانوا قد خسروا فى العمليات السابقة حوالى ألف وأربعمائة مقاتل عدا القتلى والجرحى من الضباط ، وقد بلغ عدد هؤلاء ثلاثا وسبعين ، لم يلبث هتشنسون أن طلب عوضا عنهم نجدات جديدة من حاميات مينورقة فى مساء يوم معركة نيكو بوليس نفسه[٢] ؛ ويبدو أن هتشنسون بسبب هذه الصعوبات كان بعد المعركة على استعداد لإنهاء القتال مع الفرنسيين ، والوصول إلى اتفاق معهم على أساس اتفاق العريش القديم ، فيحذو فى ذلك حذو السير رالف أبركرمبى نفسه قبل الموقعة .

وعزز هذه الرغبة ما كان السير سدنى يدعو إليه فى كل مناسبة ، فقد تمسك السير سدنى سميث دائماً بسياسة الوصول إلى إخلاء مصر نظير عقد الصلح مع الفرنسيين ، على أساس تسليم هؤلاء دون إلحاق أية إهانة بهم أو إذلالهم ؛ وكان من خطته فى كل وقت أن يلوح للفرنسيين باتفاق العريش كأداة تمكنهم إذا شاءوا استخدامها من إنهاء نزاعهم مع الانجليز وحلفائهم العثمانيين . ونصح السير سدنى فى هذه الظروف بأن يقبل هتشنسون جلاء الفرنسيين لقاء تسليم هؤلاء بصورة تحفظ لهم الشرف العسكرى ووافق هتشنسون[٣] وقام بمهمة عرض الصلح السير سدنى نفسه ، فتقدم فى مساء يوم

---

(١) Wilson 49

(٢) Fortesque IV. 2. 849

(٣) Charles-Roux. II. 185

٢٣ مارس وهو يرفع راية الهدنة ، حتى وصل إلى مخافر الفرنسيين الأمامية ، وطلب مقابلة الجنرال فريان « قومندان الاسكندرية » ؛ ولكنه لم يسمح له باجتياز خطوط الفرنسيين ، فأرسل السير سدنى كتابا من السير رالف أبركرمبى (وكان لا يزال على قيد الحياة) واللورد كيث يقترح جلاء الفرنسيين عن مصر ، ونقلهم إلى فرنسا أحراراً طليقين ، دون اعتبارهم أسرى حرب ، ثم يطلب إليهم تسليم سفنهم ومدفعيتهم وعتاد الحرب إلى الانجليز ، فيحتفظ جيش الشرق بأعلامه وسلاحه البسيط ، ومقتنيات جنوده الخاصة ، لقاء إنهاء القتال وعقد الصلح معهم .

غير أنه لما كان منو لا يفكر بتاتا فى إخلاء مصر ، فقد جاء جواب فريان فى صبيحة اليوم التالى يحمل رفض هذه العروض ، ويظهر صاحبه الدهشة من مقترحات لا يجد مايسوغ صدورها أو التفكير فيها ، ويؤكد عزم الفرنسيين على الدفاع عن مصر إلى النهاية ، ومع ذلك فقد شكر فريان كبير قواد الإنجليز لما يظهره من عطف على الجرحى الفرنسيين الذين وقعوا فى أسرة [1] ؛ على أن السير سدنى سميث لم يلبث أن علم ، بفضل أحاديثه مع الجنود فى المخافر الأمامية ، أنهم إنما يحاربون لأن نظام الجيش وواجب الجندية يفرضان عليهم ذلك ؛ ولا يقاتلون من أجل المحافظة على مصر ، تلك البلاد التى تدل الدلائل جميعها على أن الإنجليز سوف يخلفونهم فى احتلالها قريبا . وقد أكدت هذه المعلومات للسير سدنى أن من سداد الرأى المضى فى تلك الخطة التى اتبعها دائما ، وهى التلويح لهؤلاء الجند بمغادرة البلاد والعودة إلى الوطن ، وفق شروط تحفظ لهم كل مظاهر الشرف العسكرى ؛ وأثبتت الحوادث فيما بعد أن تلك كانت خطة ناجحة ، عندما سهل على فرق من المقاتلة الفرنسيين أو حاميات بأكملها إلقاء سلاحهم وتفضيل التسليم على مواصلة القتال فى أثناء الشهور القليلة التالية [2] .

واستقامت الأمور فى المعسكر الإنجليزى بعد مضى أيام قليلة ؛ فقد حدث فى يوم ٢٥ مارس أن وصل إلى أبى قير القبطان باشا على رأس عمارة تركية من ست بوارج وبضع فرقاطات عدا سفن القتال الصغيرة والنقالات ، وقد بلغت جميعها سبعاً وخمسين مركبا تحمل حوالى أربعة آلاف مقاتل [3] . ولما كان أبركرمبى ينتوى استخدام قوات العثمانيين فى الاستيلاء على رشيد ، فقد قرر هتشنسون إرسال الجنرال سبنسر Spencer

---

(١) Anderson 269; Wilson 44 — 5

(٢) Charles-Roux II 186 — 7

(٣) Fortesque IV. 2. 849

على رأس قوة من أربعة آلاف مقاتل تركى وألفين من الإنجليز للاستيلاء على رشيد ، من أجل السيطرة على مصب النيل عند هذه البلدة ، وتمهيدا لدخول زوارق المدفعية فى فرع رشيد عند الزحف على القاهرة . وفى ٣ أبريل أخبر سانت فاوست Saint Faust قومندان المدفعية منو أن الانجليز قد أنشأوا مركزا قويا فى القلعة المربعة الواقعة على بعد فرسخ شمالى رشيد على البر الغربى ، ووضعوا بها أربعة آلاف جندى عثمانى استعدادا للهجوم على رشيد ذاتها ، فبعث منو بأحد ياورانه مع قوة من الفرسان للاستطلاع بين إدكو والقلعة المربعة ؛ ولما لم تكن لهذا الضابط دراية بهذه الشئون فقد اكتفى بالتجول أمام رشيد ، واعتمد فى المعلومات التى جمعها على مابلغه من أحد العربان بهذه الجهة وعاد أدراجه يحمل فى جعبته تقريراً مطمئناً ، فحواه أن الغرض من احتلال القلعة المربعة لم يكن سوى إنشاء مستشفى ، لعزل الأتراك عن بقية الجيش ، وأن القوة التى بها لاتزيد على سبعمائة أو ثمانمائة جندى فحسب .

ومع ذلك فقد نقل شيخ إدكو فى يوم ٦ أبريل أخباراً مزعجة إلى (سانت فاوست) عن عدد القوات النازلة فى القلعة المربعة ، وعن حركات العدو عموما . وأنه يستعد للزحف على رشيد فى اليوم التالى . وكان هذا الشيخ صادق الولاء للفرنسيين منذ قدومهم إلى هذه البلاد ، ورجا الشيخ قومندان رشيد أن يحرق رسائله ، وأن يمتنع عن مكاتبته خوفا من وقوع هذه الرسائل والمكاتبات فى أيدى العدو . وعندئذ لم ير (سانت فاوست) بدآً من نقل المدفعية ثم المرضى والجرحى من جنوده إلى قلعة (جوليان) أو قلعة رشيد . ولما كان الشيخ قد أبلغه أن قوات العدو تبلغ أربعة آلاف ، ولم تكن لدى (سانت فاوست) قوات كافية لصدهم ، فقد قرر إنزال جميع الرجال الإداريين من السفن وانتقل إلى البر المقابل يرقب حركات العدو من جهة ، وحتى يستطيع الحركة بقواته القليلة على شاطىء الدلتا . غير أنه مالبث أن عاد أدراجه عندما انقضى اليوم (٧ أبريل) دون أن يبدو أثر للعدو . على أن طلائع الأتراك سرعان ما ظهرت أمام رشيد فى اليوم التالى ، واشتبكوا مع الفرنسيين ، وعندئذ قرر (سانت فاوست) إخلاء المدينة . وحدث فى هذا الوقت أن حضر سارتلون Sartelon مدير المهمات مكلفا من منو بنقل المؤن إلى الرحمانية ، فلم يجد فى رشيد وسائل كافية للنقل ولم يكن هناك وقت لنقل شىء فغادرها بسرعة ، وأخليت رشيد وبقيت حامية صغيرة فى قلعة جوليان ، ثم فى برج أبى مندور . أما سائر القوات فقد انسحبت إلى فوة وإلى الرحمانية ، وفى عصر اليوم نفسه شاهد المراقبون فى برج أبى مندور جيش العدو

يزحف على رشيد وعلى قلعة جوليان ، وفى ١٠ أبريل اتخذ العدو مواقعه أمام رشيد فسلمت إليه المدينة دون مقاومة .

وأزعج سقوط المدينة منو وقواده ؛ إذكان من المتوقع بعد تسليم رشيد ، وسقوط قلعة جوليان بعد ذلك فى أيدى الانجليزى أن يتمكن هؤلاء من الزحف بطريق النهر والبر معا على الرحمانية وتهديد مراكز الفرنسيين بها ؛ وكانت حامية الرحمانية ضعيفة ويطلب قائدها (لاكروا) Lacroix المعونة ، وأدرك منو أنه لا مناص من الاعتراف بأهمية هذا الموقع كمركز يمكن تموين الاسكندرية ذاتها منه ، حتى إنه أمر بإرسال قوة من القاهرة لتعزيزها ؛ وقامت هذه القوة فعلا بقيادة بيبان Pépin ، ولكن بليار مالبث أن أمر بعودتها بمجرد أن علم ببداية زحف الأتراك من الحدود الشرقية على القاهرة ، فبلغ بيبان أمر بليار يوم ٧ أبريل ، وهو لايزال على مسافة خمسة فراسخ من الرحمانية ، فعاد أدراجه . وعلى ذلك فقد ألح قواد الفرنسيين بضرورة اتخاذ قرار سريع وحاسم لانقاذ رشيد . ولم يسع منو سوى إجابة رغباتهم . ومع ذلك فإن منو الذى أصر على التمسك بخطة الحرب الدفاعية لم يشأ أن يرسل إلى رشيد قوات كافية بل بعث بالجنرال فالنتان Valentin على رأس نفر قليل من الجند عجزوا عن استعادة البلدة ، واستطاع الانجليز أن يطلقوا نيران مدفعيتهم على قلعة جوليان ، مدة يومى ١٧ ، ١٨ أبريل ، وفى ضحى اليوم الثالث اضطرت حاميتها إلى التسليم ، وبذلك سيطر الانجليز على مصب فرع رشيد ، وانفتح طريق النيل لدخول زوارق من مدفعيتهم مصعدة فيه صوب الرحمانية . واستطاعوا بفضل تسلطهم على هذا الفرع ، إنشاء شبكة من المواصلات النهرية مع بقية أجزاء الدلتا ، وجلب المؤن اللازمة لهم [١] .

أما القوات المنسحبة من رشيد ، فقد وصلت إلى فوة وإلى الرحمانية فى ١١ أبريل ولما كان لايوجد وقتئذ بالرحمانية سوى خمسمائة مقاتل ، يعجزون عن الدفاع عنها ، وأدرك منو أن سقوط الرحمانية بيد الانجليز سوف يفصله عن القاهرة ، ويحول دون وصول الإمدادات إلى الاسكندرية عن طريق النيل ، وأكد كل من الجنرال فوجيير Fugières قومندان الرحمانية ثم مدير المهمات سارتلون ضرورة تعزيز حاميتها بكل سرعة [٢] ، فقد قرر الآن إرسال النجدات إليها ، ثم تعزيز مواقع

(١) Anderson 284 — 6,413; Reybaud VIII. 184 — 6; Martin II. 192 — 8

(٢) Martin II. 198; Rigault 317 — 8; Reybaud VIII 186 — 7

الفرنسيين الأخرى على النيل فى فوة والعطف كمخافر أمامية تفيد فى الدفاع عن الرحمانية ، ووقف الزحف الانجليزى عليها . وعلى ذلك أمر الجنرال لاجرانج بالذهاب إلى العطف والتحصن بها فى ١٥ أبريل ، بينما تحصن فالنتان فى فوة . واسترعى هذا النشاط الجديد انتباه الانجليز ؛ فعزموا على تأييد مواقعهم فى رشيد وحولها ، ثم حرمان الفرنسيين من الاستفادة من طريق النيل فى إبقاء المواصلات مفتوحة بين الاسكندرية والقاهرة والاعتماد على الرحمانية كمركز لإرسال المؤن من الدلتا إليهم بالاسكندرية وعزل الرحمانية ذاتها عن بقية الجيش فى الاسكندرية تمهيدا للزحف عليها وفتح الطريق إلى القاهرة . ولما كان الانجليز قد عثروا فيما وجدوه فى أوراق الجنرال رواز على رسالة كان منو قد بعث بها إليه يتحدث فيها عن مخاوفه من أن يعمد الانجليز إلى قطع ترعة الاسكندرية ، وإحداث ثغرة فى ذلك السد الذى يفصل بين بحيرة المعدية ومنخفض مريوط ، فتدخل منها المياه فى البحيرة القديمة ، فقد فكر الانجليز جدياً فى قطع الترعة وإغراق منخفض مريوط ، حتى يمتنع وصول أى قوات أو نجدات إلى الفرنسيين عن طريق الدلتا والنيل فضلا عما يفيدونه من ذلك من حيث تأمين جناحهم الأيسر ، بل وجزء من جبهة جيشهم الأمامية أيضاً وتخفيف شىء من عبء العمليات العسكرية اللازمة لتضييق الحصار على الاسكندرية ووضعها فى معزل عن مراكز الفرنسيين الأخرى .

ومع أن هتشنسون كان يخشى فى أول الأمر أن تطغى مياه البحر بحال يتعذر معها وقفها ، وقد تؤدى إلى تخريب الإسكندرية ذاتها ، فقد وافق فى النهاية على إغراق منخفض مريوط وقطع الترعة (١) ، عندما رأى الفرنسيين يسيرون فى انسحابهم من رشيد صوب الرحمانية ، ويحتلون فوه ، ويعمدون إلى تعزيز قواتهم فى العطف والرحمانية ، وخشى أن يستطيع هؤلاء تهديد جيشه من الرحمانية ؛ فبدأ الإنجليز منذ يوم ١١ أبريل بفتح أربع ثغرات بالسد الذى يفصل بين المعدية ومريوط عرضها ثمانية وعشرون قدما واستطاعوا بفضل ذلك إغراق منخفض مريوط ، فضلا عن منع وصول المياه العذبة إلى الإسكندرية عند حلول فصل الفيضان فى شهر سبتمبر (٢) ؛ ونجم عن إغراق منخفض مريوط أن باتت جيوش الفرنسيين الثلاثة فى الإسكندرية والرحمانية والقاهرة منعزلة ، ولا تستطيع الاتصال بعضها ببعض إلا بمشقة عظيمة ، وفضلا عن ذلك حرمت

---

(١) Wilson 54

(٢) Anderson 282

الإسكندرية من طريق النهر ، وأصبح تموينها من الدلتا متعـذراً ، ولا تأتيها المؤن إلا بطريق برج العرب بعد الاستدارة خلف بحيرة مريوط الجديدة (١) . وما إن اطمأن هتشنسون إلى قوة مراكزه فى أبى قير والإسكندرية بعد سقوط قلعة جوليان ، حتى نقل مقر قيادته إلى رشيد ، واستعد للزحف على الرحمانية تؤازره قوات القبطان باشا (٢) .

وعند ما تقرر بدء الزحف فى الدلتا كانت قوات الفريقين من الإنجليز والفرنسيين موزعة بصورة تمكن الأخيرين من القيام بعمل عسكرى مفيد إذا شاء منو النزول عن خطة « الحرب الدفاعية » . ذلك أن حامية الإسكندرية كانت تتألف من ستة آلاف فرنسى ، يقابلها نفس العـدد من الإنجليز فى معسكر الإسكندرية ؛ وكان لدى الجنرال لاجرانج فى العطف تسعمائة وثلاثة آلاف جندى ، يقابلهم سبعة آلاف انجليزى وستة آلاف تركى ، ثم كان لدى بليار فى القـاهرة حوالى ثلاثة آلاف يواجهون جيش الصدر الأعظم وأعداده العظيمة (٣) . وواضح من هذا التوزيع أن قوات العدو كانت تزيد كثيراً على قوات الفرنسيين ، فى العطف والقاهرة ، وإن كانت قوات الفريقين تبدو متكافئة أمام الإسكندرية . فدعا هذا التوزيع القواد الفرنسيين إلى التفكير فى الموقف ، واستطاعوا أن يعرضوا على منو اقتراحات عدة للعمل الجدى ونبذ الحرب الدفاعية حتى يتسنى إنقاذ البلاد من خطر الغزو، وإلحاق الهزيمة بالعدو . وكانت أوضح الخطط التى يجب اتباعها وأقربها منالا ، أن تبادر حامية الإسكندرية بالهجوم على المعسكر الإنجليزى ، بمجرد خروج هتشنسون من هذه الجهات ، وبداية الزحف فى الدلتا ، فيستعيد منو السيطرة على الشاطىء ويقطع كل صـلة بين الجيش الزاحف وبين مؤخرته (٤) .

أما إذا تشبث منو بالبقاء فى الإسكندرية ورفض الخروج منها فالواجب يقتضيه حينئذ أن يأمر لاجرانج بترك الرحمانية ، والانسلال من بين قوات الإنجليز والعثمانيين فى الدلتا ، والانضمام بجيشه إلى جيش بليار فى القاهرة ، فيشـترك الإثنان فى إلحاق الهزيمة بجيش الصـدر الأعظم وتشتيت فلوله وسط الصحراء ؛ ثم يعودان أدراجهما إلى الرحمـانية بكل سرعة فيلتحمان مع هتشنسون فى معركة حاسمة . وكان الجنرال

(١) Reybaud VIII 203; Martin II 198—9; Walsh 83,116 — 7

(٢) Anderson 287,414

(٣) Walsh 128; Reynier 235

(٤) Bertrand II 445

(رينييه) من مؤيدى هذه الخطة (١) ، كما رأى آخرون أن ينقض لاجرانج على جيش الصدر الأعظم فى أثناء استعداد الإنجليز لبدء زحفهم على القاهرة (٢) . وقد قدم الجنرال فريان إلى منو مشروعا يشبه فى جوهره المشروع السابق ، وأساسه أن يحشدوا الجنود فى الرحمانية على أن ينتقل هؤلاء الجنود إلى القاهرة إذا زحف العثمانيون عليها ، فيشترك لاجرانج مع بليار فى هزيمة الصدر الأعظم ثم يعودان إلى الرحمانية ، فإذا ظل العثمانيون واقفين على الحدود دون حراك ، انتقل بليار إلى الرحمانية واشترك حينئذ مع لاجرانج فى صد هجوم العدو ، ومنع السير هيلى هتشنسون وحلفائه من التوغل فى الدلتا ، وقطع مواصلاته مع البلاد الداخلية . وأصر فريان على عدم الاعتماد على الشاطىء الشمالى بل اعتباره فى حوزة العدو ، ولا جدوى من انتظار نجدات يحملها الأسطول الفرنسى من أرض الوطن . ثم كان من رأيه كذلك أنه إذا بات متعذراً تموين الإسكندرية ، وجب إخلاؤها واعتلاء النهر إلى وردان وإلى القاهرة ذاتها .

وفى ٢٦ أبريل ألح لاجرانج على منو بسبب ماشاهده من امتناع الإنجليز عن مهاجمة الإسكندرية ، أن يترك بها حامية كافية للدفاع عنها ، والاشتراك مع لاجرانج فى سد طريق النيل فى وجه جيش الإنجليز وحلفائهم العثمانيين الزاحف على القاهرة ؛ أو الصعود فى النيل سريعا حتى يتمكن من سبق العدو فى الوصول إلى القاهرة ؛ وكان من رأى لاجرانج أن يتخذ منو من الرحمانية مكانا يحشد به الجيش ، وقاعدة لتوجيه العمليات منها ضد جيش الصدر الأعظم والسير هيلى هتشنسون على السواء ، ويبدو أن منو قد أدرك ما تنطوى عليه هذه الخطة من حكمة بالغة ، فكتب إلى بليار فى ٣ مايو أنه سوف يحضر إلى القاهرة بعد أيام قليلة بمجرد الفراغ من تحصين الإسكندرية ، وأخبر لاجرانج فى الوقت نفسه أنه سوف يجىء إليه فى العطف بعد يومين اثنين فقط مع سائر الجند . وقد أجمع الثقات على أنه لو نفذ منو هذه الخطة لأصبح ميسوراً استبقاء مصر فى أيدى جيش الشرق وطرد العدو من أرضها (٣) . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وأفاد الإنجليز من تردد الفرنسيين وبطء حركاتهم ، وأرسل هتشنسون نجدات جديدة لتعزيز قوات الجنرال سبنسر Spencer الذى ذهب إلى الحماد . وما إن وصل الكونتر أميرال بارلس وارين Barlesse Waren ، يحمل أسطوله بعض النجدات

---

(١) Reynier 236 — 7

(٢) Malus 208 — 9

(٣) Rigault 321 — 2

حتى قرر هتشنسون مغادرة رشيد إلى الحماد بعد أن ترك الجنرال كوت على رأس الجيش المرابط أمام الاسكندرية لحصارها ، وكان يتألف من ستة آلاف مقاتل ، بينما أخذ هتشنسون معه حوالى خمسة آلاف جندى (١) . ولاحظ الإنجليز أن وجود لاجرانج فى العطف لايحول دون مرور جيوشهم بين ميسرته وبين بحيرة إدكو ، كما لاحظوا أن الطريق لا يزال خاليا من كل عائق بين إدكو وبين بحيرة المعدية ؛ وفى استطاعتهم أن يرسلوا منه جيشاً على دمنهور حتى يقوم بالهجوم على الرحمانية من الجهة الغربية(٢) . وعلى ذلك قر رأى هتشنسون على الزحف على العطف ثم على الرحمانية . وبدأ سير الجيش الإنجليزى العثمانى من الحماد فى ٥ مايو ، بينما اعتلت قوارب المدفعية والسفن المسلحة فرع رشيد (٣) . وحدث قبل الزحف بيومين أن وصل إلى معسكر الإنجليز فى الحماد رسول يحمل إلى القائد الإنجليزى رسائل من مراد بك وأتباعه رداً على كتاب كان قد بعث به هتشنسون إلى مراد ، وأرفق به فرمانا من السلطان ، وضمانا من القبطان باشا يؤمن مراد بك إذا هو انحاز إلى جانب الجيوش التى حضرت لتخليص البلاد من العدو الغاصب ، فأكد الآن مراد بك استعداده للانضمام إلى القائد الإنجليزى إذا زحف جيشه على القاهرة ، وأبدى عجزه عن القيام بأى عمل حاسم قبل بداية هذا الزحف .

ولما كان مراد قد مات بعد ذلك بالطاعون فى ٢٢ أبريل وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه فى رياسة أتباعه عثمان بك الطنبورجى ، فقد بعث هذا بخطاب كذلك إلى السير سدنى سميث يعلن فيه وفاة مراد ، وسوغ ما فعله مراد من قبول الاتفاق مع الفرنسيين بعجزه عن مقاومتهم ؛ ولكنه أكد الآن تأييد أغراض الانجليز وحلفائهم . وقد ارتاح الانجليز لانحياز البكوات المماليك إلى جانبهم بسبب ما كان لدى هؤلاء من فرسان عديدين منظمين ، ولأنهم كانوا يعرفون البلاد وأهلها معرفة جيدة (٤) . وفضلا عن ذلك فقد أسفر تأييد مراد وأتباعه للانجليز عن انضمام ذلك الثائر المغربى القديم مولاى محمد إلى جيش هتشنسون الزاحف من الحماد ، وكان يستمتع باحترام ونفوذ عظيمين بين الأهلين الذين نظروا إليه كأحد القديسين لما

---

(١) Fortesque IV. 2. 849 — 50

(٢) Martin II 200 — 1

(٣) Anderson 296

(٤) Walsh 122; Wilson 65 — 6; Ibid 292,412 — 4

اشتهر عنه من الصلاح والتقوى والجهاد فى سبيل الله ، كما أنه غدا فى نظرهم رمز المقاومة العنيفة ضد أعدائهم الفرنسيين[1] .

على أن الانجليز سرعان ما أرغموا فالنتان على إخلاء فوه[2] ، وما إن اقترب هتشنسون من العطف حتى بادر لاجرانج باخلائها والانسحاب إلى الرحمانية (٧ مايو) بعد مناوشات يسيرة ، ودون أن يقوم العدو بأى هجوم على مراكز الفرنسيين بها ودهش الانجليز لهذا الانسحاب عندما وجدوا تحصينات العطف قوية ، وتمتد فى عرض السهل حوالى ثلاثة أميال من النيل جنوب بحيرة أدكو[3] ؛ غير أنه يبدو أن لاجرانج كان يخشى من أن يطوقه الإنجليز لأن التحصينات كانت تحمى فى واقع الأمر مواقعهم الأمامية ، بينما ظل فى إمكان العدو المرور من الفضاء الواقع بين ميسرة الفرنسيين وبين بحيرة أدكو[4] . وكان هتشنسون عندما بدأ زحفه على العطف يجهل حقيقة قوات الفرنسيين بها ، ولكنه مالبث بعد سقوطها أن عثر على عدد من الوثائق علم منها أن جيش العدو كان لايزيد على أربعة آلاف جندى تقريبا ، وعرف كذلك أن بليار كان يشكو من انتشار وباء الطاعون بين جنوده فى القاهرة ، ويشكو من قلة مالديه من قوات تمكنه من الاحتفاظ بمركزه طويلا ، فشجعت هذه المعلومات هتشنسون على المضى فى زحفه[5] .

وفى ظهر يوم ٩ مايو ، وصل هتشنسون أمام الرحمانية ؛ وبدأ القتال بين الفريقين ؛ ومع أن الإنجليز عدوا هذا القتال « مناوشة بسيطة » ، على خلاف مايدعى الفرنسيون ، فقد قرر لاجرانج فى مساء اليوم نفسه إخلاء الرحمانية ، وجرى الإخلاء فى ليل ٩ — ١٠ مايو ؛ وفى صبيحة ١٠ مايو سلمت الرحمانية[6] فى نظير احتفاظ الضباط بسيوفهم ومقتنياتهم الخاصة وإرسال الجند إلى فرنسا بعد أن يتعهدوا بعدم الاشتراك فى حروب ضد انجلترة وحلفائها ، إلا إذا أعاد الفرنسيون عدداً مماثلا لهم من أسرى الإنجليز وحلفائهم إلى أوطانهم[7] . وانقطعت بسبب سقوط الرحمانية كل صلة بين جيش

(١) Wilson 70

(٢) Martin II 201

(٣) Anderson 299 — 300

(٤) Walsh 123; Reybaud VIII 205 — 7; Fortesque IV. 2. 859

(٥) Wilson 78 — 9

(٦) Anderson. Official Papers No. XI. 419 — 23

(٧) Reybaud VIII 207 — 10; Walsh 129; Ibid 300 — 4

الفرنسيين فى الإسكندرية والقاهرة . وكان مما أفاد الإنجليز ولا شك تردد منو وبطء حركته الشديد . فقد كان فى وسعه أن ينفذ بين يومى ٣ ، ٩ مايو ذلك الوعد الذى قطعه على نفسه لقائديه فى الرحمانية والقاهرة ، فيذهب بالجيش إلى الرحمانية ويضم صفوفه إلى صفوف لاجرانج فى منازلة الإنجليز ، ولكنه بدلا من ذلك ظل متشبثا بأوهامه ، ينتظر وصول غانتوم بالنجدات التى وعد بها القنصل الأول . وكتب إلى وزير البحرية الفرنسية فى ٣ مايو يسأله عن سبب تأخر وصول غانتوم ويذكر له ما كان فى استطاعة أمير البحر أن يفعله من منع وصول النجدات لو أنه حضر إلى الشواطىء المصرية فى الوقت المناسب[١] . وأخيراً وافق منو على إرسال الجنرال دليجورج Delegorgue على رأس قوة لنجدة الرحمانية ، ولكن دليجورج ما إن وصل إلى بركة غطاس حتى جاءته الأخبار بسقوط الرحمانية ، فعاد أدراجه ووصل إلى الإسكندرية بعد يومين فقط من خروجه منها[٢] . ومما يجدر ذكره أن الإنجليز استطاعوا أسر قافلة من السفن كانت حاضرة عن طريق قناة منوف ، تنقل مهمات كثيرة ، وتبغى الاشتراك فى الدفاع عن الرحمانية والإسكندرية ، ولكنها بلغت الرحمانية بعد انسحاب لاجرانج فاستولى عليها الإنجليز يوم ١٤ مايو[٣] . أما لاجرانج فقد استطاع المضى إلى القاهرة فوصل إلى الجيزة فى يوم ١٣ مايو ثم عبر النهر إلى بولاق وانضم إلى جيش بليار ؛ وبات مصير الجيش فى القاهرة والإسكندرية من ذلك الحين رهناً بيد القدر[٤] .

وكان على القائد الإنجليزى بعد سقوط الرحمانية أن يتدبر الموقف ؛ فهو يرى الجنود المنسحبين من الرحمانية يسيرون فى طريق القاهرة ؛ وكان عليه أن يستأنف الزحف على القاهرة فى أثرهم ويتعقبهم ويطاردهم دون هوادة ؛ ويرى قواده من جهة أخرى أن الموقف أمام الإسكندرية قد تحسن كثيراً بسبب وصول النجدات الأولى الآتية من مالطة ونزولها فى أبى قير منذ يوم ٩ مايو ، فضلا عن الأخبار التى بلغتهم عن زحف الصدر الأعظم على الصالحية ، كما كثرت الإشاعات عن ظهور أسطول الهند فى البحر الأحمر ؛ وكان مما دعا القواد إلى اختيار العودة إلى الإسكندرية بدلا من الاستمرار فى الزحف على القاهرة ، خوفهم من عدم قدرة الجنود على احتمال قيظ

---

(١) Rousseau 404

(٢) Martin II 201 — 2; Reybaud VIII 209

(٣) Martin II 203; Anderson 420

(٤) Anderson 421; Rigault 323

الصيف الشديد وحاجتهم الملحة إلى المؤن والذخائر ؛ وذعرهم من تفشى وباء الطاعون فى القاهرة خصوصا ، واعتقادهم بأن لدى بليار فى هذه المدينة قوات تفوق جيوشهم عدداً وعدة ، واستحالة حصار القلعة بصورة مجدية ؛ ولما كانت هذه كلها اعتبارات لاوزن لها فى نظر القائد العام للحملة ، ولم يكن الغرض منها سوى ستر نفور القواد وسائر الضباط من السير هيلى هتشنسون ، فقد قر رأى القائد العام على الزحف صوب القاهرة ؛ فأغضب هذا القرار قواده لدرجة بلغت حد التمرد والعصيان ، حتى إنهم طلبوا حضور الجنرال كوت من الإسكندرية ، والجنرال مور الذى ظل فى رشيد بسبب جرحه حتى يتوليا القيادة ، ونشأت فى المعسكر الإنجليزى حركة عصيان وانقسام تشبه كثيراً ما كان يشكو منه منو فى المعسكر الفرنسى نفسه ، ولكن أحداً من كبار القواد الإنجليز لم يؤيد هذه الحركة ، فامتنع كل من كوت ومور عن إجابة رغبات المتمردين ، واستطاع هتشنسون أن ينفذ إرادته[١] ؛ ورجحت كفة القائلين بوجوب الزحف على القاهرة لمطاردة الفرنسيين المتقهقرين من جهة ، ولتغطية جيش الصدر الأعظم الزاحف على القاهرة ، والاتصال مع جيش الهند عند وصوله من جهة أخرى[٢] . وفى ١٤ مايو غادر هتشنسون الرحمانية فى طريقه إلى القاهرة . ثم عسكر الإنجليز فى علقام يوم ١٧ مايو . وفى اليوم نفسه أبلغهم العربان أن قوة من الفرنسيين قد جاءت إلى هذه الجهات تقصد الذهاب إلى القاهرة وتتقدم صوب النيل قريباً من المكان الذى ترابط فيه سفن القبطان باشا . فبعث هتشنسون فى أثرها فرسانه بقيادة الجنرال دويل[٣] .

وتفصيل ذلك أن منو أرسل فى ١٤ مايو كفاليه قائد الهجانة إلى إقليم البحيرة حتى يجمع من القرى المؤن والأغذية ، فخرج كفاليه من الإسكندرية ومعه قافلة كبيرة من الجمال (حوالى التسعمائة جمل) ، يحرسها جنود من المشاة والفرسان والهجانة بلغوا (٤٤٥) جنديا ويستخدمون مدفعا واحدا . وزار كفاليه فى أثناء تطوافه قريتين من قرى البحيرة ، وجدهما خاويتين على عروشهما ولا مؤن بهما ؛ ولما كان يجهل أن الإنجليز غادروا الرحمانية ، فقد قرر الذهاب إلى النيل واعتلاء النهر إلى القاهرة بدلا من العودة إلى الإسكندرية . ولكنه فوجىء برؤية سفن القبطان باشا فى النهر . واعتقد أن العدو قريب منه ، وعلى ذلك ارتد إلى الصحراء ، وشكل مربعا ليدفع عن

---

(١) Fortesque IV. 2. 851
(٢) Anderson 420
(٣) Ibid 313 -- 4

قافلته هجمات العربان الذين ظلوا يتعقبونه ويطلقون النار عليه من كل جانب ، وكان فى أثناء هذا الارتداد أن وجد كفاليه نفسه فجأة وجها لوجه أمام قوات الجنرال دويل ، ومع أنه استطاع أن يشق طريقه بكل صعوبة ، فقد اشتدت مطاردة الإنجليز والعربان له ، وبات يتوقع هجوما عنيفا على مؤخرته وجناحيه ، ولذلك فإنه ما إن أرسل دويل له مفاوضا يعرض عليه التسليم بنفس الشروط التى جرى بها تسليم الرحمانية حتى قبل كفاليه ، ووقع على شروط التسليم عند قرية كوم شريف فى ١٧ مايو[١] . وغضب منو عندما بلغه الخبر فأصدر أمرا يوميا وصف به كفاليه بالجبن والخيانة إذ سلم للعدو دون إطلاق رصاصة واحدة ومعه حوالى السبعمائه من الجنود . وانقسم الرأى فى هذه المسألة فاعتقد البعض أن كفاليه كان يستهدف لهلاك محقق لو أنه رفض عروض الإنجليز[٢] ، بينما علل فريق آخر من الإنجليز خصوصا هذا الحادث بأن الجنود الفرنسيين بعد معركة كانوب كانوا قد بدأوا ينبذون الطاعة ونفد صبرهم ، وصار يكفى المرء أن يذكر اسم فرنسا أو يلوح لهم بالعودة إلى الوطن حتى يفقدوا كل سيطرتهم على أعصابهم ، وعجز كفاليه عن مقاومة هذا الشعور العنيف وهذه العاطفة الجامحة[٣] .

وحدث فى اليوم الذى سلم فيه كفاليه أن انسحب الفرنسيون من عزبة البرج والبرلس ، وكان الإنجليز قد قرروا الهجوم على العزبة وأرسل الصدر الأعظم قوات كبيرة مع خمسة مدافع لهذا الغرض بقيادة إبراهيم باشا ، فاحتل العثمانيون دمياط التى أخلاها الفرنسيون دون معارك . ثم هاجموا العزبة بالاشتراك مع سفن المدفعية الإنجليزية التى دخلت البوغاز ، ولكن الفرنسيين أخلوا العزبة فى أثناء الليل (١٤ مايو) وانسحبوا إلى البرلس ، وهناك بلغهم نبأ انسحاب لاجرانج من الرحمانية إلى القاهرة فقرروا إخلاء البرلس ؛ وشرعت خمس سفن صغيرة تنقل جموعهم إلى الإسكندرية ، فطاردتها عند أبى قير فرقاطة إنجليزية ، وأسرت أربعا منها بينما فرت الخامسة صوب جزيرة رودس ، فأسرعت فى تعقبها فرقاطة تركية ؛ وفى رواية أخرى أن عدد السفن كان أربعا ، أسر منها الإنجليز اثنتين وسارت الأخريان إلى الشواطىء الإيطالية رأسا[٤] وهكذا كان توزيع الجنود فى الحاميات المبعثرة من أهم أسباب ضعف هذه المراكز الفرنسية ، وسقوطها فى أيدى العدو ، وحرمان منو من قوات قد تفيده فى الدفاع

---

(١) Reybaud VIII 212 — 4; Walsh 66 — 7; Ibid 314,419 — 23

(٢) Reybaud VIII 215 — 6

(٣) Wilson 107; Bertrand II 402 — 3

(٤) Reydaud VIII 231 — 2

عن الإسكندرية ، أو فى العمليات الأخرى العسكرية . فإنه لما كان عدد جنود هاتين الحاميتين فى العزبة والبرلس يبلغ السبعمائة جندى ، فقد بلغ عدد من وقع من جنود جيش الشرق فى أيدى الإنجليز — حسب تقدير هؤلاء أنفسهم — حوالى ألف وستمائة جندى فى غضون أيام قليلة (من ٩ مايو إلى ١٧ منه)[١] .

أما هتشنسون فقد استمر فى زحفه فوصل إلى الطرانه يوم ٢١ مايو ، ولما كان الصدر الأعظم بعد زحفه على القاهرة واشتباكه مع قوات بليار فى معركة الزوامل كما سيأتى ذكره ، قد رغب فى مقابلة القائد الإنجليزى للاتفاق على تفاصيل العمليات العسكرية المقبلة ، فقد ذهب لمقابلة هتشنسون ؛ وما إن وصل القائد الإنجليزى فى زحفه قريبا من بير شام Byr-Ghâm حتى وجد طلائع الجيش العثمانى بقيادة طاهر باشا ، وذهب هتشنسون ومعه القبطان باشا الذى صحبه دائما منذ أن غادر أبى قير ، لزيارة الصدر الأعظم فى مخيمه ، وهناك تقابل مع إبراهيم بك ومحمد باشا حاكم القدس وطاهر باشا ؛ واتفق الصدر وهتشنسون على كل ما يجب اتباعه فى الحملة المقبلة[٢] ؛ وفى ٢٨ مايو اتصل عثمان بك الطنبورجى بالأتراك والإنجليز . ووصلت السفن الإنجليزية والعثمانيـة إلى بطن البقرة ، بينما كان جيش الصـدر قد بلغ دجوة فى القليوبية . ثم وقف الإنجليز بضعة أيام بهذا المكان ، وانهمك العثمانيون فى صنع العجلات وفنادق (جرارات) المدافع وما إلى ذلك .

وفى يوم ٥ يونية استأنف الجيشان الانجليزى والعثمانى زحفهما حتى بلغا وردان ووجد الأنجليز أنفسهم على مسافة سبعة أميال فحسب من الإهرامات ، وفى ١٤ يونية بدأ الزحف من جديد على شاطىء النيل الأيسر ، وبعد يومين أقاموا معسكرهم على مسافة نصف ميل من امبابه ، وفى صبيحة ١٦ يونية وصلت الانجليز نجدات جديدة مكونة من ألايين من الاسكندرية بعد رحلة استمرت أربعة عشر يوما ، وشرع الانجليز ينشئون جسراً من القوارب لفتح طريق للمواصلات عبر النهر بينهم وبين العثمانيين الذين عسكروا على الجانب الآخر ، وفى هذا المكان كذلك انضم إلى الجيش الزاحف عثمان بك ومماليكه وكانوا يبلغون ألفاً وخمسمائة . أما الجسر فقد تم صنعه (عند شبرا) فى ٢٠ يونية ؛ وفى اليوم نفسه أخبر (روبان) Robin الجنرال بليار أن العدو قد اتخذ مواقعه فى مواجهة المعسكر الفرنسى ويبدو أنه قد أكمل استعداده لبدء المعركة[٣]

---

(١) Anderson 315,319,421 ; Walsh 137 ; Moore II. 42

(٢) Reybaud VIII 245 — 9

(٣) Anderson 321 — 2; Malus 215 ; Ibid 251

بليار فى القاهرة :

وكان بليار خلال الشهور الثلاثة الماضية منذ أن غادر (منو) القاهرة فى ١٢ مارس فى مركز تحوط به الصعوبات من كل جانب ؛ لأسباب عدة ، أهمها ولا شك أن قائد الحملة العام لم يترك أوامر مفصلة فيما يجب عليه أن يفعله عند إطباق العدو الذى شرعت جيوشه تزحف على القاهرة من الشمال والشرق والجنوب ، ذلك أن خطة منو كانت لاتعدو التمسك بالاسكندرية والقاهرة ، والاحتفاظ بجميع مراكز الفرنسيين المبعثرة فى أنحاء القطر ، فيصمد كل قائد فى موضعه أمام جيوش العدو ؛ ويعمل منو على تحصين الاسكندرية ، بينما يعمل بليار من جانبه على تحصين القاهرة ، ويدافع قومندانا الصالحية وبلبيس عن هاتين المدينتين إلى النهاية ، ويبذل جيش الشرق عموما قصارى جهده لانهاك قوى العدو بإرغام الانجليز والعثمانيين على إطالة أمد الحصار المضروب على مواقع الفرنسيين زمنا يتيح لهؤلاء استقبال النجدات التى وعد القنصل الأول بإرسالها من فرنسا ، أو يمكنهم من عدم وقف القتال حتى تجىء الأخبار بعقد الصلح العام فى أوروبا [١] . أى أن منو كان يرغب كذلك فى أن يتبع بليار (وسائر القواد) خطة الحرب الدفاعية بأوسع معانيها . وفى هذه الظروف إذن كان يتوقف نجاح بليار فى الاحتفاظ بالقاهرة على انتصار منو الذى خرج لصد جيوش الأعداء عن الاسكندرية والعمل بفضل هذا الانتصار إذا تم على بقاء المواصلات مفتوحة بين الاسكندرية والقاهرة . وأدرك بليار وزملاؤه أن نتيجة المعركة المقبلة بالاسكندرية سوف تكون ولاشك ذات أثر حاسم فى تقرير مصير « المستعمرة » ؛ وخشى بليار من هزيمة الفرنسيين فى هذه المعركة وما ينجم عن انتصار الانجليز من آثار سيئة ، وهم الذين قالوا على لسان وزيرهم دنداس Dundas فى البرلمان الانجليزى : إنهم سوف ينكلون بالجيش الفرنسى فى مصر حتى يصبح عبرة لغيره ، ويخدمون الإنسانية بالقضاء عليه قضاء مبرما [٢] . وعلى ذلك فقد شغل بليار وزملاؤه فى الأيام التالية باستقصاء أخبار منو . وتوقعوا أن تحدث المعركة الفاصلة يوم ١٩ مارس . ولكنهم لبثوا خمسة أيام بتمامها دون أن تصلهم أخبار من الاسكندرية ، فاستبد بهم القلق .

وزادت هواجس بليار عندما « أشيع بين الناس (يوم ٢٤ مارس) وصول العثمانية إلى ناحية غزة ، وأن جواليشهم وصلوا إلى العريش ، وقدمت الهجانة إلى الفرنساوية

---

(١) Rigault 313

(٢) Reybaud VIII 187

بالخبر [١] » وكان سبب هذه الاشاعات أن أحد شيوخ قبائل العربان بالوادى أخبر قومندان بلبيس أن قوات من الفرسان العثمانيين قد شوهدت فى هذه الجهات ، فذاع الاعتقاد بأنهم طلائع جيش الصدر الأعظم ، وبات من المتوقع حسب رواية الشيخ أن يصل هؤلاء الفرسان إلى القاهرة يوم ٢٧ مارس ؛ واتخذ بليار معسكره بين القبة وبركة الحاج استعدادا لمقابلتهم [٢] ، وخشى الفرنسيون أن يكون العثمانيون قد أنشأوا صلات وثيقة مع كبار أهل القاهرة ، وأن القاهريين يعتزمون القيام بالثورة ، وانزعج الفرنسيون انزعاجا شديدا ، وبدا الذعر واضحا على وجوههم وفى حركاتهم ، فشغل كل امرىء منهم بتدبير وسائل نجاته وخلاص نفسه ، وظلوا طيلة يوم وليل ٢٥ مارس يخلون دورهم ومساكنهم ومستشفياتهم وينقلون متاعهم ومرضاهم إلى القلعة ، وتطايرت الشائعات فى الأوساط الفرنسية عن بدء تجمع الأهلين بجوار الجامع الأزهر ، يتباحثون ويتناقشون ، ويدبرون — فى زعمهم — الثورة المقبلة .

ومع أن هـذه الاجتماعات لم تسفر عن شىء ، لأن الأهلين كما ذكر الفرنسيون ومؤرخوهم كانوا لا يزالون متأثرين بذلك الدرس القاسى الذى ألقى عليهم عند مقتل كليبر؛ وتم النقل إلى القلعة دون حدوث أية اضطرابات [٣] ، فقد حرص الفرنسيون منذ أن وصلت أخبار الطلائع العثمانية على استمالة كبار الأهلين ، وقادة الرأى فيهم والتأثير عليهم بالوعد تارة وبالوعيد تارة أخرى حتى يخلدوا إلى الهدوء والسكينة ، فدعوا مساء يوم ٢٤ مارس المشايخ للاجتماع بالديوان ، « فلما تكامل حضورهم حضر فوريه الوكيل وصحبته آخر من الفرنسيس من طرف قائمقام (بليار) ، فتكلم فوريه كلاماً كثيراً ليزيل عنهم الوهم ويؤانسهم بزخرف القول ، كقوله إنه يحب المسلمين ويميل بطبعه إليهم وخصوصا العلماء وأهل الفضائل ويفرح لفرحهم ويغتم لغمهم ولا يحب لهم إلا الخير ، وسياسة الأحكام تقتضى بعض الأمور المخالفة للمزاج وأن سارى عسكر (منو) قبل ذهابه رسم لهم رسوما وأمرهم بإجرائها والمشى عليها فى أوقاتها ، وأنه عند سفره قصد أن يعوق المشايخ وأعيان الناس ويتركهم فى الترسيم رهينة عن المسلمين ، فلما ظهر له وتحقق أن الذين وردوا إلى أبى قير ليسوا من المسلمين وإنما هم إنكليزية ونابلطية وأعداء للفرنساوية والمسلمين أيضاً ، وليسوا من ملتهم حتى يخشى من ميلهم إليهم

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٥٩

(٢) Martin II 188 — 9

(٣) Galland 47; Ibid 190 — 1

أو ليتعصبوا من أجلهم . والآن بلغنا أن يوسف باشا الوزير وعساكر العثمانية تحركوا إلى هذا الطرف فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان وذلك من قوانين الحروب عندنا بل وعندكم ، ولا يكون عندكم تكدر ولا وهم بسبب ذلك ، فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم ، والوكيل دائماً نظره معهم ولا يغفل عن تعليل مزاجهم فى كل وقت ويوم » وانتهى الأمر « بتعويق » أربعة من المشايخ هم الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى فنقلوهم إلى القلعة و « أجلسوهم بجامع سارية ؛ ونقلوا إلى مكانهم الشيخ السادات ، فاستمر معهم بالمسجد ، وأمروا الأربعة الباقية من أعضاء الديوان وهم البكرى والأمير والسرسى و (الشيخ عبد الرحمن الجبرتى) ، أن يكون نظرهم على البلد ويجتمعون بشيخ البلد ولا ينقطعون عنه » .

وكان من الذين أخذوا رهائن وأصعدوا كذلك جماعة أخرى من أصحاب الكلمة والنفوذ « وأمروا المشايخ الباقية والذين لم يحبسوا بتقييدهم ونظرهم إلى البلد والعامة وأنهم يترددون على بليار قائمقام ويعلمونه بالأمور التى ينشأ عنها الشرور والفتن » .
وكان من وسائل التهدئة والتسكين التى لجأ اليها الفرنسيون أن « أهمل ديوان المليون والمطالبة بثلثه وكذلك كسرت الفردة ونفس الله عن الناس ، وكذلك تسوهل فى أمر الكرنتيلة وإجازة الأموات وعدم الكشف عليهم وتصديق الناس بما يخبرون به فى مرض من يموت » وذلك على حد قول الشيخ الجبرتى « لكثرة أشغالهم وحركاتهم وتحصنهم ونقل متاعهم وصناديقهم وفرشهم وذخائرهم إلى القلعة الكبيرة على الجمال والحمير ليلا ونهاراً والطاعون متعلق فيهم ويموت منهم العدة الكثيرة فى كل يوم [1] » .

ومع أن بعضاً من الفلاحين ما لبثوا أن حضروا يحملون معهم أنباء هذه الطلائع العثمانية التى شوهدت فى الصحراء الشرقية تفيد أن هؤلاء لم يكونوا سوى مماليك إبراهيم بك وأنهم إنما جاءوا للذهاب إلى مراد بك والانضمام إلى قواته فى الصعيد ، وطمأنت هذه الأخبار الفرنسيين قليلا ؛ فقد زاد ابتئاسهم عندما حضر إلى القاهرة الضابط تيوش Tioche مساء يوم ٤ أبريل يحمل من الإسكندرية تفاصيل موقعة كانوب ، وبعض الأوامر التى أصدرها منو من أجل إخلاء الصعيد وإنقاص حاميات الصالحية وبلبيس والبرلس وعزبة البرج ثم إخلائها إذا هاجمها العدو بقوات متفوقة عليها وكذلك إرسال كل ما يمكن إرساله من قوات إلى الشواطىء الشمالية ، ويطلب من جميع الفرنسيين سواء كانوا من الجند أو من رجال الإدارة الالتجاء إلى القلعة

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٥٩ — ١٦٠

والتحصن بها [١] ؛ فكان لهذه الأنباء أسوأ الأثر فى نفوس الجند وقوادهم بالقاهرة ، وعظم غضبهم من إخفاق خططهم العسكرية وهزيمة جيشهم بالإسكندرية ، واشتد بهم الجزع حتى طفرت دموع الكثيرين من أولئك الذين قال عنهم بليار « إنهم يخافون العسكر الإنجليز خوفاً شديداً ويخشون مغبة استيلاء الإنجليز على البلاد [٢] » .

أما بليار فقد اشتد به هو الآخر الحزن والقلق ، وبخاصة عند ما تأكد لديه أن المواصلات بينه وبين منو قد باتت مقطوعة ، منذ أن بلغه ما حل بالرسل الذين كلفوا بنقل الرسائل والأخبار ، والذين ثبت لديه أنهم قتلوا فى الطريق أو أصيبوا بجراح بليغة منعتهم عن نقلها . وما إن بلغته أنباء الهزيمة فى كانوب (٤ أبريل) حتى عقد مجلساً حربياً فى الساعة الواحدة من صباح اليوم التالى (٥ أبريل) لتقليب وجوه الرأى فيما يجب فعله ؛ واتجه الرأى إلى إحداث انفجار فى قلاع بلبيس والصالحية والسويس لتحطيم هذه القلاع بعد انسحاب حامياتها واستقدام جندها إلى القاهرة ؛ ولكن المجلس لم يلبث أن انفض دون الوصول إلى نتيجة[٣] ؛ وبلغ اليأس من بليار أشده حتى إنه كتب إلى منو فى اليوم التالى يشكو تعذر الدفاع عن القاهرة ، والأتراك يزحفون عليها ، بينما كانت المخازن خاوية ، وانتشر وباء الطاعون بدرجة مروعة ، حتى إن بليار اضطر بين يومى ٣٠ مارس ، ٣ أبريل إلى نقل مائة وعشرين رجلا إلى المعزل (لازريتو) مات منهم عشرون ؛ وقد يلحق بهم كثيرون غيرهم . ويتوقع (القائمقام) أن تثور القاهرة عند اقتراب العثمانيين منها ، ولامندوحة عن إخلاء المدينة ، والاقتصار على الدفاع عن القلعة [٤] .

وكان من أسباب قلق بليار ذيوع الشائعات فى القاهرة عن هزيمة الفرنسيين فى موقعة كانوب ، وعن أسباب هذه الهزيمة ، ثم حديث الأهلين عن الانقسامات الخطيرة فى مقر قيادة جيش منو ، بينه وبين رينييه وداماس ، تلك الانقسامات التى سبقت هزيمتهم ؛ ثم ما صار القاهريون يتناقلونه عن إطلاق « حبوس المياه الملحة » وما فعله الإنجليز لإغراق « طرق الاسكندريه (حتى) صارت جميعهـــا لجة ماء ولم يبق (للفرنسيين) طريق مسلوك إلا من جهة العجمى إلى البرية [٥] » . وأزعجت بليار

---

(١) Martin 191
(٢) Rigault 317
(٣) Reybaud VIII 191; Martin II 101 — 2
(٤) Rigault 314 — 5
(٥) الجبرتى ٣ : ١٦١ — ١٦٢

أخبار خلافات القواد بالاسكندرية ؛ وتلك الآراء المتضاربة التى صارت تصله وتشير عليه بالطريق الذى يجب أن يسلكه . فبينما يريده منو أن يبقى فى القاهرة للدفاع عنها ، ينصحه (رينييه) إذا عجز عن صد جيوش الصدر الأعظم بالحضور بكل مالديه من قوات إلى الإسكندرية ، إذ يساعد وجود الجيش مجتمعاً على القيام بمحاولة جديدة للانتصار على العدو أو « إملاء شروط مشرفة » . وفى وسط هذه الآراء المتضاربة إذن كان كل ما يرجوه بليار أن يحصل من منو على أوامر صريحة حاسمة .

ومع ذلك فقد ظل منو يبعث إلى القاهرة ماعده « أخباراً مطمئنة » فكان يتحدث تارة عن ضعف الجيش الذى وقف على حصار الاسكندرية ، وكثرة فرار جنود القوات المساعدة من صفوفه ، وتارة أخرى عن سقوط وزارة بت وخروج جرنفيل من الحكم ، وكيف أن اللورد كيث هو الذى نقل إليه هذه الأخبار التى تدعو إلى الاطمئنان بأن عقد الصلح العام قد بات قريبا ؛ ومرة ثالثة يبدى منو اعتقاده بأن العدو لن يحضر إلى القاهرة أو يزحف إليها ، أما إذا حضر فواجب بليار أن يهزمه هزيمة ساحقة ثم يأتى بالجنود إلى الاسكندرية ؛ ومرة رابعة يحيل منو قائده بليار على كل من القواد روبان Robin ، وديرانتو Duranteau ، وتارير Tareyre « صاحب الرأس المفكرة » يستشيرهم فيما يجب عليه أن يصنع ؛ بل يترك له أيضا حرية التصرف « حتى يسلك ما يراه أنه أفضل الطرق » ، المحققة لغرضه « إذ أن (منو) فى مكانه بالاسكندرية لا يستطيع أن يصدر رأيا فى موقف متغير تبعا لتغير الحوادث السريع مرة فى كل خمس عشرة دقيقة » ؛ ثم تتمخض نصيحة منو فى آخر الأمر عن تذكير بليار بأن الواجب يقتضيه أن يملأ قلعة القاهرة بالذخائر والمؤن « لأن هذا المكان إذا أحكم الدفاع عنه رجل مثل قومندان القلعة (دوباس) Dupas أمكن أن يصمد فى وجه العدو أربعة شهور تقريبا » ، وأن يعمل على كسب الوقت دائما « إذ من المحقق أن السلطان العثمانى قد أرسل فرمانات يطلب فيها من جنوده الامتناع عن الزحف » . ويشدد منو على بليار بضرورة إذاعة هذه الأخبار على أهل القاهرة ، لأن الإنجليز بفضل ما يوزعونه من أموال قد استمالوا نفراً من العثمانيين الموالين لهم إلى متابعة الزحف على البلاد المصرية[١] .

وكان من الواضح أن منو مع رغبته فى الاحتفاظ بهذه البلاد ، أطول مدة ممكنة ، لا يزال يرفض الاشتباك فى معارك فاصلة ، ولا يريد أن يحيد عن خطة الحرب الدفاعية

---

(١) Rousseau 401 — 3

ولذلك فإن رسائله إلى بليار لم تكن مطمئنة ولا مشجعة . وزادت هموم بليار ، عندما وصل دونزيلو إلى القاهرة فى يوم ٨ أبريل على رأس جنوده من الصعيد ، ثم وصل بعد أربعة أيام الجنرال لاجرانج بجنده من الرحمانية ، كما جاءت حامية الصالحية فى ١٠ أبريل ، وكان الفرنسيون قد أخلوا الصالحية قبل ذلك بيومين . ثم توالى حضور حاميات القرين وبلبيس والسويس وسائر الجنود « بناحية الشرقية » رويدا رويدا بعد ذلك[١] . وقد دل مجىء لاجرانج على أن الانجليز قد باتوا أصحاب السيطرة التامة على طريق النيل ، وفى استطاعتهم الملاحة فى هذا النهر دون عائق ؛ بل فى وسعهم الوصول أمام بولاق فى ثلاثة أيام فقط لو أنهم شاءوا ذلك ، وأن يهددوا الفرنسيين من الخلف بينما يهددهم العثمانيون من الأمام .

وكانت الأخبار قد بلغت الفرنسيين بأن الصدر الأعظم غادر العريش منذ ٤ أبريل مع جيش مؤلف من عشرين ألف عثمانى إلى جانب اثنى عشر ألف انجليزى[٢] كما وصلتهم الأنباء عن قرب وصول الحملة الهندية الإنجليزية إلى القصير ، وكان على بليار أن يختار بين أمرين إما البقاء فى القاهرة فيتلقى ضربات العدو الزاحف عليه من جهة الدلتا فى الشمال والسويس فى الشرق والقصير فى الجنوب ، وقد بلغ عدد هؤلاء جميعا حوالى سبعين ألف جندى ، بينما كانت قوات بليار لا تعدو السبعة آلاف فحسب ؛ وأما الخروج لمقابلة جيش الصدر الأعظم ، فيقضى عليه فى معركة شبيهة بمعركة هليوبوليس الماضية ، وإذا قدر له النصر عاد أدراجه لمواجهة الإنجليز الزاحفين على القاهرة من الشمال مستفيدا فى هذه الحركة من وجود القوات التى أحضرها لاجرانج ودونزيلو خصوصا إلى القاهرة ، فيخبر منو بالأمر حتى يقوم القائد العام من جانبه بهجوم آخر فى الوقت نفسه على مؤخرة الإنجليز[٣] . ولم يكن البقاء فى القاهرة وتلقى ضربات العدو فيها خطة حكيمة لتفشى الطاعون واشتداد وطأته من جهة ، ولانعدام الثقة فى القاهريين من جهة أخرى ، وذلك على الرغم من هدوئهم الظاهر ، وما صار ينقله إلى بليار نفر من أهلها عن حركات الجيش العثمانى ومواقعه ، أو يرشدونه إلى مواضع الثغرات التى يستطيع الدخول منها إلى القاهرة[٤] .

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٦٢ ; Reybaud VIII. 202

(٢) Reybaud VIII 191,224

(٣) Ibid 225

(٤) Rigault 317

فمع أن الفرنسيين ظلوا يبذلون قصارى جهدهم لتهدئة أهل القاهرة ، ويؤكدون لهم انتشار الأمراض (كالزحير والرمد وما إلى ذلك) فى صفوف الانجليز ، وعزم هؤلاء على العودة إلى بلادهم ، ويقرأون فى الديوان رسائل مطمئنة من منو تشتمل على أخبار كاذبة ، منها رغبة السلطان فى إخلاء البلاد من جنده تجنبا للاشتباك فى نضال مع روسيا التى هدده قيصرها بالحرب إذا هو أصر على إزعاج الفرنسيين فى مصر ، ويعدون المشايخ فى الديوان برفع « نصف المديون » والظلم عن الأهلين ، لم يصدق أحد هذه الأخبار أو ذلك « الـكلام الفارغ » . وفضلا عن ذلك زاد من نفور الأهلين ما صار يفعله صنائع الفرنسيين ، من أشرار القوم « وأسافل العامة » مثل عبد العال الذى عين أغات مستحفظان ومحتسبا ، فصار يمعن فى إرهاق التجار وابتزاز أموالهم والتضييق على الناس ، وحبس الرهائن ، وضرب أعناق الفلاحين من أهل القرى المجاورة فى طريق العثمانيين . وقد ظل الحال على ذلك حتى أوائل مايو [١] .

وزاد الموقف حرجا عند ما جاءت الأخبار منذ ٢٦ أبريل ، معلنة وفاة مراد بك بالطاعون بالوجه القبلى ، ففقد الفرنسيون أقوى أنصارهم فى الجنوب . وكان بليار قد طلب إلى مراد منذ يوم ١٥ مارس أن يحضر إليه بمماليكه من الصعيد ، ولـكن بوفاة مراد بدأ أتباعه يتمسكون بخطة الحياد ، وينصرفون عن تأييـــد الفرنسيين وإن لم يظهروا نبذ ولائهم بصورة علنية ؛ وكان سبب تغير المماليك أنهم شاهدوا الجيوش الحليفة تزحف على القاهرة من كل جانب ، وعلى وشك أن تطبق على قوات بليار الضعيفة فى القاهرة . فاقتنعوا الآن بأن موقف الفرنسيين سواء فى القاهرة أو الإسكندرية قد بات ميئوساً منه ؛ وصاروا يستعدون لاتخاذ معسكرهم قريباً من الانجليز والقبطان باشا . ومع ذلك حرصوا فى الوقت نفسه على إخطار الفرنسيين بما صح عليه عزمهم ، وساروا يلتمسون الأعذار فى إقدامهم على اتخاذ هذه الخطوة ، ذاكرين فى الوقت نفسه أنهم لا يريدون بهم شراً ، ولا ينوون الإخلال بعهودهم ومواثيقهم [٢] ؛ وأخيراً سرعان ما جاءت الأخبـار منبئة « بوصول طاهر باشا الأرنؤدى بجملة من العساكر الأرنؤدية إلى أبى زعبل » . وفى ١٢ مايو « وردت الأخبـــار (كذلك) بوصول ركاب الوزير يوسف باشا إلى مدينة بلبيس » ، وذلك منذ ٨ مايو [٣] .

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦

(٢) Reynier 263 — 5

(٣) الجبرتى ٣ : ١٦٦ ، ١٦٧

وكان الصدر الأعظم قد جمع حوله منذ أواخر فبراير جيشاً عظيما على مسافة قريبة من يافا ؛ ولكنه لم يستطع الزحف وقتذاك بسبب انتشار الوباء ، وزيادة على ذلك أرسل له الجزار باشا والى عكا نجدات جديدة برهاناً على ولائه للباب العالى ، فقرر أن يبدأ زحفه على الحدود الشرقية ؛ وصحب نخبة من الضباط الانجليز جيشه ، فكان مع الصدر الكولونيل هالوى Halloway ، ومع فرسان طاهر باشا الكابتن ليك Leake ، ومع مشاة محمد باشا الألبانيين الكابتن لاسى Lacey [1] ؛ فبدأ الصدر زحفه يوم ١٢ مارس ؛ وحالت رداءة الطقس دون سرعة الحركة ؛ فبلغ العثمانيون العريش فى آخر الشهر نفسه . وفى ٢ أبريل غادر جيش طاهر باشا ومعه الكابتن ليك العريش صوب القطية و (الطينة) ؛ وبعد ثلاثة أيام تبعه جيش محمد باشا ومعه الكابتن لاسى . وفى ١٩ أبريل تحرك الصدر الأعظم يوسف ضيا بسائر قوات الجيش والضباط الإنجليز الذين كانوا بقيادة (هالوى) . حتى إذا وصل الصدر إلى قطية بعث يطلب تسليم الحاميات الفرنسية فى عزبة البرج ودمياط ، ثم وجه إليها جزءاً من قواته مالبث أن احتلها بعد أن أخلاها الفرنسيون على نحو ما شاهدنا . وواصل الصدر سيره فى طريق القاهرة .

ولما كان الفرنسيون قدأخلوا الصالحية بعدأن نسفوا تحصيناتها ومخازنها منذ ٩ أبريل ، وفعلوا مثل ذلك فى بلبيس فى ١١ منه ، فقد استولى الصدر على الصالحية فى ٢٨ أبريل ، ووصلت طلائع جيشه إلى بلبيس فى اليوم التالى ، وانضم إليه كثير من المماليك والعربان والفلاحين الذين عزا مؤرخو الفرنسيين انضمامهم إلى جيوش الصدر إلى رغبتهم فى السلب والنهب فحسب ، ولو أن هؤلاء العربان والفلاحين كانوا يحضرون معهم المؤن والإغذية الكثيرة من القرى المجاورة التى سرعان ما اطمأن أهلها بعد أن ذهب عنهم الخوف وقويت روحهم المعنوية . وبات العثمانيون يهددون بتدفق جيوشهم على القاهرة[2] .

وقد ساعد الصدر الأعظم ولا شك على التقدم فى داخل البلاد ، انتصار الإنجليز فى معركة كانوب ، ثم نجاح عملياتهم العسكرية التالية حتى سقوط الرحمانية ، ولذلك فإنه لم يشأ الاستقلال فى الرأى ، أو أن يعمل منفصلا عن حلفائه ، واستمع لمشورة هتشنسون الذى كان يخشى من أن تلحق بالعثمانيين الهزيمة ، إذا هم اشتبكوا فى معارك

---

(١) Anderson 320

(٢) Reybaud VIII 226 — 8; Charles-Roux II 184

كبيرة مع العدو من جهة الدلتا ، بدلا من الزحف على القاهرة مباشرة . وكان الغرض من ذلك شغل الفرنسيين وبعثرة جهودهم ، ثم إتاحة الفرصة لجيش الصدر نفسه ليجد فى الجيش الإنجليزى الزاحف على القاهرة تكأة تستند إليها مؤخرة العثمانيين [١] وعلى ذلك فقد ذهبت بعض قوات العثمانيين إلى عزبة البرج ودمياط على نحو ما قدمنا ، ووقف الصدر بجيشه فى بلبيس .

ولما كان بليار يرى من مدة أن فى استطاعته الخروج من القاهرة والاشتباك مع العثمانيين فى معركة فاصلة ، إذا اجتمع لديه جيش يكفى لتشكيل أربعة مربعات عدا تأليف قوة احتياطية ، يواجه بها جميعا جيوش العثمانيين [٢] ، فقد سنحت الفرصة لتنفيذ ذلك عند مجىء لاجرانج بجنده من الرحمانية ، وزيادة عدد جيش القاهرة تبعا لذلك حتى صار يبلغ أحد عشر ألف مقاتل تقريبا . ولم يعد هناك ما يدعو إلى بقائه بالقاهرة يتلقى ضربات الأعداء الزاحفين عليه من الشمال والجنوب والشرق ، ومع ذلك ظل بليار متردداً فترة من الزمن ، ثم دعا أخيرا مجلساً حربيا للانعقاد فى يوم ١٥ مايو لبحث الموقف . وما كاد يجتمع هذا المجلس حتى تعددت الآراء فى أول الأمر وتنوعت ، فاقترح بعض القواد التقهقر إلى دمياط وإخلاء القاهرة ، وأظهر (دوتبول) D'Hautpoul قومندان سلاح المهندسين مزايا الانسحاب إلى دمياط . ذلك أن هذه كانت مركزا عسكريا يسهل تحصينه ، وتوجد به المؤن بكثرة وافرة ، وكاد بليار يقبل فكرة التقهقر إلى دمياط ، لا سيما إذ كان يعتقد أن الدفاع عن القاهرة ضرب من الجنون ؛ ولكنه ما لبث أن نبذ هذه الفكرة حتى لا يحمل مسئولية إخلاء القاهرة . ثم قر الرأى على اتباع خطة كان بليار نفسه قد اقترحها على منو (منذ ٢٢ أغطس سنة ١٨٠٠) . وفحواها أنه إذا فرض أن غادر الجيش القاهرة ثم زحف العدو عليها فالواجب أن يحتل الفرنسيون الحصون والمواقع الهامة حول القاهرة ، ثم يجرى تشكيل طابور منظم يسير لمقابلة العدو فى أى مكان يأتى منه ؛ ولا يستطيع العدو الزحف على القاهرة إلا من جهتين ، إما من ناحية المطرية ، وإما من ناحية مصر القديمة وكان معنى اتباع هذه الخطة خروج بليار بجيش القاهرة للاشتباك مع العثمانيين فى معركة حاسمة [٣] .

---

(١) Reybaud VIII 226

(٢) Rigault 322 — 3

(٣) Ibid 331 — 2

معركة الزوامل

وعلى ذلك فقد صمم بليار على الخروج بجيش من ستة آلاف مقاتل تقريباً يقوده كذلك لاجرانج ، وروبان ؛ وكلف القوات الباقية بقيادة الجنرال ألميرا Almeyras بالاحتماء بالقلعة والتحصين بها . والعمل على صد هجمات العدو عنها إذا وجه العثمانيون قوات إليها [١] . وغادر بليار القاهرة . فى عصر يوم ١٥ مايو قاصداً إلى بلبيس ، وكان معنى انهزام جيش الصدر لو قدر للفرنسيين النجاح ، ضمان استرجاع البلاد وافتتاحها من جديد ، إذ يؤكد بعض المؤرخين أن مثل هذا الانتصار من شأنه أن يضمن بقاء الأهلين على هدوئهم وسكينتهم ، واستمرارهم على ولائهم الظاهر للفرنسيين . وفضلا عن ذلك فإن النصر سوف يقضى على الجيش العثمانى الزاحف من الشام ، ويقضى إلى عزل جيش العدو الزاحف على القاهرة ، بل ويضع هؤلاء بين حجرى الرحى : جيش بليار فى القاهرة من أمامهم وجيش منو فى الإسكندرية من خلفهم [٢] . وكانت هذه ولا شك خطة حكيمة لو أن القائد الذى حاول تنفيذها كان جريئاً غير هياب ولا وجل ؛ ولكن بليار كان شديد الخوف كثير التردد .

وصل بليار إلى (المنير) فى اليوم نفسه وطرد منها بعض قوات العدو ، ثم قضى بها الليل . ووصلت أخبار زحفه إلى الصدر الأعظم فى بلبيس ، فأرسل الصدر على الفور قوة بقيادة طاهر باشا ، وصلت فى مساء اليوم نفسه إلى مسافة ثلاثة أميال من مواقع الفرنسيين [٣] . وفى صبيحة اليوم التالى (١٦ مايو) كانت معركة الزوامل ؛ فبدأت العمليات العسكرية بهجوم الأتراك على الفرنسيين ، ثم سرعان ما انضم خمسمائة من الفرسان لتعزيز قوات العثمانيين ، ولما تبين هؤلاء أن العدو قد أحضر معه قوات كبيرة من المشاة والفرسان عدا المدافع ، أمر الصدر قائده الآخر محمد باشا بالتقدم إلى المعركة فى خمسة آلاف من الفرسان والمشاة ، وتسعة مدافع من الطراز الخفيف ، ثم تسلم الصدر نفسه القيادة العامة ، فوزع قواته إلى جماعات صغيرة للالتفاف حول مربعات الفرنسيين ومناوشتهم ؛ وكان غرضه الواضح عدم الاشتباك مع الفرنسيين فى معركة حاسمة عملا بنصيحة هتشنسون ، بل مجرد شغلهم ، بينما يسرع القسم الأكبر من فرسانه إلى القاهرة للاشتراك مع الإنجليز الزاحفين من الرحمانية فى احتلال المدينة ،

---

(١) Malus 211 — 2

(٢) Rigault 331

(٣) Anderson 317

وقطع خط الرجعة على بليار وجيشه[١]. وانتقــل الفرنســيون فى أثناء ذلك إلى مكان يكثر النخيل به فحمى وطيس القتال ، وصد الفرنسيون على الرغم من هجومهم الشديد صــداً عنيفا حتى إنهم اضطروا إلى التقهقر إلى ما وراء الخانــكة على مسافة سبعة أميال تقريباً من مكان العمليات الأولى .

ومع ذلك امتنع الصدر عن مطاردتهم ، بل أصدر أوامره بعدم تعقبهم[٢]، وشاهد الفرنسيون العــدو فجأة يكف عن ملاحقتهم ، وبدا كأنه إنما يبغى الارتداد على الرغم من نجاح عملياته الظاهر . فكان هذا التوقف من جانب العثمانيين كافياً لأن يستبد القلق بالقائد الفرنسى ، فقد لحظ بليار اختفاء فريق من فرسان الأتراك من الميدان ، وخشى أن يكون هؤلاء قد قصدوا الذهاب إلى القاهرة على نحو ما فعل ناصف باشا بعد موقعة هليو بوليس[٣] ، وبدر من الأتراك فعلا بعد قيامهم بحركة الالتفاف السابقة ما يدل على أن فرسانهم يريدون أن يشقوا لأنفسهم طريقاً إلى القاهرة ؛ وكان أكثر ما يخشاه أن يكون الغرض من توقف الأتراك ثم اختفاء فريق من فرسانهم أنهم يرومون التقهقر والارتداد حتى ينضموا إلى جيش القبطان باشا والجنرال هتشنسون[٤]. وفاته أن الصدر بسبب نفوره من القبطان حسين باشا لا يرضى بوضع قواته إلى جانب جيش منافسه القديم[٥] ، فضلا عن أن انسحاب الصدر وتقهقره يحمل فى طياته — لو حدث — بذور الفوضى ويؤدى إلى تشتيت جيشه[٦].

وعلى ذلك فإنه بدلا من أن يمضى بليار فى قتاله ويبذل قصارى جهده من أجل الاستيلاء على بلبيس والصالحية فيهدد بذلك مؤخرة العثمانيين ، ويرغمهم على الارتداد لاستخلاص قواعدهم على الأول تاركا لحامية القاهرة — وكانت تتألف من حوالى الخمسة آلاف — مهمة الدفاع عنها وصد هجوم العثمانيين إذا حاولوا الهجوم عليها ؛ صمم بليار على الانســحاب إلى القاهرة . وكانت حجته فى ذلك إلى جانب ما تقدم أن التعب والإعياء قد أخذا من جنده كل مأخذ ، بسبب سيرهم الشاق الطويل فى الصحراء دون أن يكون لديهم ماء أو مؤن كافية . وبذلك انتهت معركة الزوامل وحلت الهزيمة

---

(١) Reybaub VIII 229 — 30

(٢) Anderson 318 — 9, 415 — 9

(٣) Malus 211 — 2

(٤) Reynier 246

(٥) Walsh 151 — 2

(٦) Bertrand II 401 — 2

بالجيش الفرنسى — وهو جيش ظـل مرهوب الجانب دائما — على أيدى العثمانيين وجنودهم التى يعوزها النظام ، والتى لا يمكن أن ترقى إلى جيوش الفرنسيين المظفرة ذات الشهرة الذائعة فى فنون الحرب والقتـال[1] . وهكذا أفلتت من بليار — بسبب تردده ولعدم ثقته بنفسه وضعف إيمانه بالمهمة الملقاة على عاتقه — فرصة تخليص البلاد من جيوش « الأعداء » ، وبقائها مستعمرة فرنسية[2] . وفى ١٦ مايو عاد بليار إلى القاهرة ودخلها جيشه فى ذلة وسكون ، فقال الشيخ الجبرتى : « ورجعوا مهزومين وكتموا أمرهم ولم يذكروا شيئا[3] » .

القاهرة بعد معركة الزوامل :

عاد بليار إلى القاهرة فى حزن واستخذاء ، وزاد حزنه ولا شك عند ما وجد القاهرة لا تزال على الحال التى تركها ؛ فقد لزم الأهلون جانب الحـكمة فى أثناء معركة الزوامل ، وساد السكون والهدوء على خلاف ما حدث أيام معركة هليو بوليس ، فامتنع القاهريون عن الاختلاط بالعثمانيين القريبين من مدينتهم ، سواء كان سبب ذلك الخوف من العقوبة الصارمة أو الغفلة وعدم الاكتراث[4] ؛ وفضلا عن ذلك كان هتشنسون وجنوده لا يزالون فى طريقهم من الرحمانية إلى الطرانة ، بعيدين عن القاهرة ؛ ولم تكد الحملة الإنجليزية الهندية تصل إلى القصير[5] ؛ ومع ذلك فإن المخاوف والأوهام التى جعلت زمام المعركة يفلت من بين يدى بليار ، ظلت مسيطرة عليه كذلك حتى بعد عودته إلى القاهرة ، فهو لا يزال يعتقد أن القاهريين يضمرون له العداء ، ولجيشه الـكراهية ، ويتربصون بالفرنسيين الفرص للقيام بالثورة عليهم ، وتزعزع إيمانه فى إمكان الدفاع عن القاهرة ضد الجيوش الزاحفة التى سوف تطبق على قواته بعد فترة قصيرة من الزمن ؛ وزالت ثقته فى جدوى أعمال التحصينات التى يقوم بها جنده ، ووطد النفس على أن يلقى العثمانيين والإنجليز وهو على حد قول نابليون فيما بعد « مكتوف الذراعين » مشلول الحركة ، قد غابت عن ذهنه كل فنون المبارزة ، فلا يحاول أن يشن هجوما على هتشنسون ، أو يعيد الـكرة على جيش الوزير ، (الصدر الأعظم) ، ولا يسعى للاتصال بقائد الحملة الأعلى ، منو ، فى الاسكندرية .

---

(١) Fortesque IV. 2. 853

(٢) Reybaud VIII 231; Rigault 333

(٣) الجبرتى ٣ : ١٨٦

(٤) Reybaud VIII 233 — 4

(٥) De Noé 133 — 4

وكان فى وسع بليار أن يفعل ذلك لو أنه كما يقول نابليون أيضا شق لنفسه طريقا على جانب النيل الأيسر . ثم هو إلى جانب ذلك كله لم يبذل جهداً نافعاً لتحصين القلعة حتى إن (دوباس) قومندانها أنذر باستقالته[١] . واعتقد كثيرون أن بليار ما كان يبغى من اهتمامه بتنظيم الدفاع عن القاهرة سوى إقناع العدو بأن من الخير له أن يعرض على الفرنسيين تلك الشروط التى عرضها سابقا على كليبر ، فيخلى هؤلاء القاهرة لقاء « شروط تسليم مشرفة » ، وآية ذلك كتاب بليار نفسه إلى القنصل الأول يتحدث فيه عن الهمة العظيمة التى يبذلها جنوده فى تحصين القاهرة ، وحفر الخنادق وإقامة المتاريس ، ثم يعد بأن العدو لن يستطيع الدخول إلى القاهرة إلا على أجساد جنده ، ويقول : « ومن ذلك يتضح أننا لانهاب الموت جميعا أو على (بأنفسنا) شروط تفهقرنا » وإخلاء القاهرة[٢] ؛ وزاد اقتناع بليار بعبث المقاومة عند ما بلغه غداة دخوله القاهرة خبر تسليم كفاليه ، وما دل عليه هذا الحادث من اشتياق الجند إلى الوطن ، ورغبتهم فى التسليم ما دامت شروطه تكفل فى نظرهم العودة إلى فرنسا مرفوعى الرأس ، موفورى الكرامة . وفت فى عضده انتشار الطاعون ، وكان وباء جارفا لم تشهد البلاد مثله من أيام وباء (إسماعيل بك) فى عام ١٧٩١ فقد أهلك الطاعون منذ ظهوره فى شهر يناير (١٨٠١) مئات الفرنسيين — عدا ألوف الأهلين — ولم تنكسر حدة هذا الوباء وتخف وطأته إلا فى أواخر مايو[٣] .

وهكذا انقضت الأيام التالية دون فعل شىء ، بل قنع بليار بالوقوف دون حراك ينتظر مجىء العدو ؛ وكان لهذا الموقف السلبى أكبر الأثر فى إضعاف روح الجند المعنوية أولئك الجند الذين شاهدوا الوباء يفتك بجموعهم ، ويزحف العدو عليهم من كل جانب ، دون أن يحرك قوادهم فى الإسكندرية والقاهرة ساكنا لإنقاذهم ، أو يرسل القنصل الأول النجدات اللازمة لتخليصهم من مأزقهم ؛ فاشتد بهم اليأس واعتقدوا أن « فرنسا قد تركتهم وشأنهم ، وصارت لا تعنى بهم » ، وصاروا ينعون على هتشنسون والإنجليز بطأهم ، لأنهم باتوا يريدون الآن « الانتهاء » ، على أية صورة من الصور ، من ذلك البؤس وتلك الشقوة التى نغصت عليهم عيشهم[٤] ،

---

(١) Bertrand II 434 — 8

(٢) Rigault 335

(٣) الجبرتى ٣ : ١٧٢ وما بعدها ثم ١٨٥ ؛ Galland 52 — 6
Reybaud VIII 242 — 4

(٤) Thurman 208

وعلى ذلك فقد غدت القاهرة منذ عودة بليار من معركة الزوامل إلى وقت إخلائها ودخول العثمانيين إليها مسرحا لحوادث عدة ، ترجع أسبابها إلى موقف بليار «السلبى» وما ترتب عليه من ضرورة مواصلة التحصينات وتهيئة سبل الدفاع عن القاهرة ، ثم العمل بكل الوسائل من أجل « إقناع » القاهريين بواجب الإخلاد إلى السكينة . ولما كان الفرنسيون قد قنعوا بالوقوف مكتوفى الأيدى فى انتظار وصول العدو ، فقد نجم عن زحف الإنجليز والعثمانيين على القاهرة قطع كل الطرق بينها وبين البلدان المجاورة ، كما منع العدو كل اتصال بين القاهرة والصعيد ؛ وضيق العدو الحصار على القاهرة رويدا رويدا ، فامتنع ورود الأغذية والمؤن ، وشعر القاهريون بوطأة هذا التضييق الشديد أكثر من الفرنسيين ، الذين كانوا قد ملأوا مخازن القلعة التى تحصنوا بها بالمؤن والعتاد ، فارتفعت الأثمان وشكا الأهلون من الغلاء الفاحش . وفضلا عن ذلك فإنه لما كان من المتعذر على الفرنسيين أن يجبوا أية ضرائب من مختلف جهات القطر التى خرجت من حوزتهم ؛ وكانوا بحاجة ملحة إلى المال ينفقون منه على أعمال تحصيناتهم ، ودفع مرتبات جندهم ، وسداد تكاليف الحكم والإدارة فى تلك المواقع القليلة التى بقيت لهم ، فقد باتوا يعتمدون الاعتماد كله على ابتزاز الأموال بشق الطرق من أهل القاهرة لسد حاجتهم ؛ فعظم الكرب والبلاء .

ولم يمنع القاهريين فى هذه الشهور القليلة الحاسمة فى تاريخهم من إعلان الثورة على الفرنسيين سوى انشغالهم بتدبير أمور معاشهم من جهة ؛ وبدفن موتاهم فى وقت كان الطاعون يفتك بهم فتكا ذريعا ، ولا يرون طريقاً للخلاص منه من جهة أخرى ؛ وعدم اكتراثهم بذلك النضال الدائر حولهم ، وقد باتوا يشعرون فى قرارة نفوسهم بفضل ما يتسقطونه من أخبار عن حركات الجيوش العظيمة الزاحفة على القاهرة ، أن الفرج قريب ، وأن الهزيمة فى هذه المرة من نصيب الفرنسيين لا محالة . وآية ذلك أن أحدا من أعضاء الديوان أو المشايخ ما كان يصدق تلك « التمويهات » التى صار يقصها عليهم فوريه وكيل الديوان ، أو جيرار الذى خلفه ، أو يلقى بالا إلى تلك الرسائل التى « ادعى » فوريه أو جيرار أو (أستوف) الخازندار العام ومدبر الحدود أنها آتية من منو بالإسكندرية . ولم يلمس القاهريون فى محاولة الفرنسيين أن يستميلوهم إليهم ، بعد أن أخذوا منهم الرهائن واعتقلوا شيوخهم وكبار سراتهم ، ثم سودوا عليهم نفراً من « أسافل » الناس ، وأرهقوهم بمطالبهم المالية التى لا تفرغ ، إلا ضعفاً ؛ ولم يروا فى ذلك كله إلا دليـــلا على عجز أعدائهم وهزيمتهم ، وعلل الأهلون أنفسهم

بانكشاف الغمة قريباً ، فلم يبد شيوخهم من أعضاء الديوان اهتماما بما يطلب إليهم أن يفعلوه ، فهم ينمقون الرسائل تارة إلى منو « بشكره » ، وتارة إلى بليار يأخذون على أنفسهم العهود والمواثيق بالتزام الهدوء والسكينة ؛ وهم يظهرون « تصديقهم » لما يلق عليهم من أكاذيب ؛ ثم انتهى بهم الأمر إلى غمز الفرنسيين ولمزهم فى مناقشات تدل على أنهم ما عادوا يقيمون لهم وزناً ولا اعتباراً .

ويذكر الشيخ الجبرتى ما فعله الفرنسيون من أجل تحصين القاهرة ، ويصف ما ترتب على ذلك من هدم وتخريب ، حتى « عم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والحروبى فهدموا تلك الاخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا ، وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة ، وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر . . واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس إلى باب الحديد ، حتى بقى ذلك كله خرابا متصلا واحداً وبقى سور المدينة الأصلى ظاهرا مكشوفا، فعمروه ورموا ما تشعب منه وأوصلوا بعضه ببعض بالبناء ، ورفعوا بنيانه فى العلو ، وعملوا عند كل باب كرانك وبدنات عظاما وأبواباً داخلة وخارجة وأخشاباً مغروسة بالأرض مشبكة بكيفية مخصوصة ، وركزوا عند كل باب عدة من العسكر مقيمين وملازمين ليلا ونهارا ، ثم سدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق ، وأنشأوا عدة قلاع فوق تلال البرقية ورتبوا فيها العساكر وآلات الحرب والذخيرة وصهاريج المياه وذلك من حد باب النصر إلى باب الوزير وناحية الصوة طولا فمهدوا أعالى التلال وأصلحوا طرقها وجعلوا لها مزالق وانحدارات لسهولة الصعود والهبوط بقياسات وتحريرات هندسية على زوايا قائمة ومنفرجة وبنوا تلك القلاع بمقادير بين أبعادها ، وهدموا أبنية رأس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير تحت القلعة الكبيرة ، وما بذلك من المدارس القديمة المشيدة والقباب المرتفعة ، وهدموا أعالى المدرسة النظامية ومنارتها وكانت فى غاية من الحسن وجعلوها قلعة ونبشوا ما بها من القبور فوجدوا الموتى فى توابيت من الخشب فظنوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام الموتى فأنزلوا تلك التوابيت وألقوها إلى خارج ، فاجتمع أهل تلك الجهة وحملوها وعملوا لها مشهدا بجمع من الناس ودفنوها داخل التكية المجاورة لباب المدرج ، وجعلوا تلك المدرسة قلعة بعد أن هدموا منارتها أيضا ، وكذلك هدموا مدرسة القانيبة والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة

الناصرية خارج باب البرقيـة ، وكذلك أبنيـة القرافة ومدارسها ومساجدها وسدوا الباب وعملوا الجامع الناصرى الملاصق له قلعة بعد أن هدموا منارته وقبابه وسدو أبواب الميدان من ناحية الرميلة وناحية عرب اليسار وأوصلوا سور باب القرافة بجامع الزمر وجعلوا ذلك الجامع قلعة ، وكذلك عدة قلاع متصلة بالمجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة الكبيرة وسدوا عيونها وبواكيها وجعلوها سورا بذاتها ولم يبقوا منها إلا قوصرة واحدة من ناحية الطيبى جهة مصر القديمة جعلوها بابا ومسلكا وعليها الكرنك والغفر والعسكر الملازمين الإقامة بها ولقبض المكس من الخارج والداخل وسـدوا الجهة المسلوكة من ناحية قنطرة السد بحاجز خشب مقفص وعليه باب بقفل مقفص أيضاً وعليه حرسجية ملازمون القيام عليه وذلك حيث سواقى المجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة وحفروا خلف ذلك خندقا » .

وخربوا دور الأزبكية وهدموا قنطرة الموسكى وما جاورها ، « ومن أول القنطرة المقابلة للحمام إلى البوابة المعروفة بالعقبة الزرقاء حيث جامع أزبك . . . فيسلك المار من على القنطرة فى رحبة متسعة ينتهى إلى رحبة الجامع الأزبكى ، وهدموا بيت الصابونجى ووصلوه بجسر عريض ممتد ممهد حتى ينتهى إلى قنطرة الدكة ، وفى متوسط ذلك الجسر ينعطف جسر آخر إلى جهة اليسار عند بيت الطويل المهدوم وبيت الألفى حيث سكن سارى عسكر ممتد ذلك الجسر إلى قنطرة المغربى ومنها يمتد إلى بولاق على خط مستقيم إلى ساحل البحر . . . وهدموا المسجد المجاور لقنطرة البركة مع ماجاوره من الأبنية والغيطان وعملوا هناك بوابة وكرنكا وعسكراً ملازمين الإقامة والوقوف ليلا ونهاراً وذلك عند مسكن بليار قائمقام وهى دار جركس الجوهرى وما جاوره[1] »

وهدم الفرنسيون « القباب والمدافن الكائنة بالقرافة تحت القلعة خوفا من تترس المحاربين بها فكانوا يهدمون ذلك بالبارود على طريقـة اللغم . . . وكذلك أزالوا جانباً كبيراً من الجبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفا من تمكن الخصم منها والرمى على القلعة » ، « واجتهد الفرنساوية فى وضع متاريس خارج البلد من الجهة الشرقية والبحرية وحفروا خنادق وطلبوا الفعلة للعمل فكانوا يقبضون على كل من وجدوه ويسوقونهم للعمل ، وكذلك فعلوا بجهة القرافة وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب ببحر انبابه لتمنع المراكب من العبور . وابتدؤا المتاريس البحرية من باب الحديد ممدودة إلى قنطرة الليمون إلى قصر إفرنج احمد إلى السبتية إلى مجرى البحر » ،

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٦٦ — ١٦٩

« وشرعوا فى هدم جانب من الجيزة فى الجهة البحرية (بسبب اقتراب) عساكر الانكليز القادمة من البر الغربى إلى البلد المسماة بنادر عند رأس ترعة الفرعونية »[١] .

وأزعج هذا الهدم والتخريب الأهلين إزعاجا كبيراً فقد لقى هؤلاء بسبب سد باب البرقية (أو الغريب) خصوصا مشقات كبيرة فى دفن موتاهم ببستان المجاورين ، وكان باب البرقية هو الطريق المسلوك إلى هذه المدافن ، وذلك فى وقت اشتد فيه فتك الطاعون ، فاضطر بليار إلى فتح باب صغير فى « حائط السور جهة كفر الطاعين على قدر النعش والحمالين والمشاة[٢] » وكان مما أرهقهم ذلك الخندق الذى احتفره الفرنسيون عند تلال البرقية كذلك « فكان الذين يخرجون بالأموات يصعدون بهم من فوق التل ثم ينزلون ويمرون على سقالة من الخشب على الخندق المحفور فحصل للناس غاية المشقة . واتفق أن ميتا سقط من على رقاب الحمالين وتدحرج إلى أسفل التل »[٣] وزاد بلاء الناس وشقاؤهم عندما شحت الأقوات وارتفعت الأثمان « لاستمرار انقطاع الطرق وأسباب المتاجر وغلو البضائع المجلوبة من البلاد الرومية والشامية والهندية والحجازية والمغرب حتى علت أسعار جميع الاصناف ، وانتهى سعر كل شىء إلى عشرة أمثاله »[٤] .

ولما ضيقت الجيوش الزاحفة الخناق على القاهرة « عزت الأقوات وشحت زيادة على قلتها وخصوصا السمن والجبن والأشياء المجلوبة من الريف ، ولم يبق طريق مسلوكة إلى المدينة إلا من جهة باب القرافة وما يجلب من جهة البساتين من القمح والتبن ، فيأتى ذلك إلى عرصة الغلة بالرميلة ، ويزدحم عليه النساء والرجال بالمقاطف فيسمع لهم ضجة عظيمة ، وشح اللحم أيضا وغلا سعره لقلة المواشى والأغنام ... (وأما) الزيت (فصار) لايوجد البتة وغلت الأبذار جداً[٥] » ، وطلب الفرنسيون الزيت من « الزياتين وألزموهم بمائتى قنطار سيرج وسمروا جملة من حوانيتهم ، وخرج جماعة من الجزارين لشراء الغنم من القرى القريبة فقبض عليهم عساكر العثمانية القادمة ومنعوهم من العودة بالغنم والبقر ، وكذلك منعوا الفلاحين الذين يجلبون الميرة والأقوات

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٧١ ، ١٨٦ — ١٨٧
(٢) الجبرتى ٣ : ١٦٢
(٣) الجبرتى ٣ : ١٦٤
(٤) الجبرتى ٣ : ١٧٢
(٥) الجبرتى ٣ : ١٩٠

إلى المدينة ، فانقطع الوارد من الجهات البحرية والقليوبية » واضطر الجزارون إلى إغلاق حوانيتهم [١] .

وما إن وصلت الجيوش الزاحفة إلى الجيزة حتى منعت « المعادى من تعدية البر الشرقى فانقطع الجالب من الناحية القبلية أيضا،فامتنع وصول الغلال والاقوات والبطيخ والعجور والخضروات والخيار والسمن والجبن والمواشى ، فعزت الأقوات وغلت الأسعار فى الأشياء الموجودة منها جدا » ، وعلا ضجيج الناس وصخبهم عندما تعذر حصولهم على الغلال خصوصا [٢] وزاد كرب القاهريين وبؤسهم عندما أقر الفرنسيون أعمال عبد العال وأساليبه العاتية فى ابتزاز أموال الناس ، لحاجة الفرنسيين الملحة إلى المال يسدون به نفقاتهم بعد انقطاع مواردهم ، فقبض هؤلاء بفعل عبد العال الأغا على « نيف وستين من مغاربة الفحامين وطولون والغورية ونفوهم [٣] » . وقبض عبد العال الأغا « على أناس من الغورية والصاغة ومرجوش وغيرهم وألزمهم بمال ، وسئل عن ذلك فقال لم أفعله من قبل نفسى بل عن أمر من الفرنسيس » .

وعند ما ضج القاهريون بالشكوى « أنهى مشايخ الديوان تعرض عبد العال لمصادرة الناس وطلب المال بعد تأمينهم وتبشيرهم برفع نصف المليون عنهم ، فأجيبوا بأن ذلك على سبيل القرض لتعطل المال الميرى واحتياج العسكر إلى النفقة ؛ وقيل لهم أيضاً إن كان يمكنكم أن تكتبوا إلى البلاد بدفع الميرى رفعنا الطلب عن الناس ، فقالوا هذا غير ممكن لحصول البلاد فى حيازة القادمين وقطع الطريق من وقوف العرب بها وعدم الانتظام ، وإنما القصد الملاطفة والرفق ، فإن وظيفتنا النصح والوساطة فى الخير [٤] » . وتشدد الفرنسيون فى طلب الأموال « المتأخرة من فردة الملتزمين » ؛ « وقبضوا على ألطون أبى طاقية النصرانى القبطى وحبسوه بالقلعة وألزموه بمبلغ دراهم تأخرت عليه من حساب البلاد [٥] » وظهر التخبط والارتباك فى فعالهم ، فهم تارة يعملون على استمالة القاهريين وتأمينهم ، وتارة أخرى يستفزون القاهريين بأعمالهم ويثيرون أحقادهم ؛ فقد تقدم كيف شكل الفرنسيون فى عهد كليبر فرقة عسكرية من الأقباط وعهدوا بقيادتها إلى المعلم يعقوب ؛ فانتهز يعقوب الفرصة وأخذ يكثر من « جمع

(١) الجبرتى ٣ : ١٨٦
(٢) الجبرتى ٣ : ١٩١
(٣) الجبرتى ٣ : ١٦٣
(٤) الجبرتى ٣ : ١٦٤
(٥) الجبرتى ٣ : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧

شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم . . . وصيرهم عسكره وعزوته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر ، وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام ، وكذلك بنى أبراجا ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية ، وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذى رممه الفرنساوية ، ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهاراً وبأيديهم البنادق على الطريقة الفرنساوية »[١] .

وعندما شرع الفرنسيون يحصنون القاهرة « توكل رجل قبطى يقال له عبد الله من طرف (المعلم) يعقوب يجمع طائفة من الناس لعمل المتاريس فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه ، فتشكى الناس من ذلك القبطى وأنهوا شكواهم إلى بليار قائمقام ، فأمر بالقبض على ذلك القبطى وحبسه بالقلعة »[٢] . على أن مما يجدر ذكره أن سائر الأقباط لم يكونوا راضين عن هذه الفعال فكتب منو إلى القنصل الأول منذ أواخر نوفمبر سنة ١٨٠٠ « أن الأقباط باستثناء المعلم يعقوب لاينظرون إلينا بعين الرضا بل يشعرون بأن أسباب السلطة قد أفلتت من أيديهم » . ثم وصفهم منو بأنهم أعظم الناس ميلا إلى المخاتلة والمكر فى العالم[٣] ، وهو وصف إن دل على شىء فإنما يدل على عدم اطمئنان الفرنسيين إلى القبط ، وعلى أن الفرنسيين كانوا يتوقعون — إذا استثنيت جماعة المعلم يعقوب — اشتراك القبط مع سائر إخوانهم القاهريين فى الثورة على الفرنسيين عند سنوح الفرصة ؛ وكان أكثر ما يخشاه الفرنسيون عند اشتداد حرج مركزهم فى هذه الأيام الحاسمة أن يشعل القاهريون الثورة ضدهم ، وبخاصة عند ما ذاعت الأخبار أن القاهريين صاروا يكثرون من عقد الاجتماعات فى حى الأزهر ؛ واعتقد كثيرون من قواد وكبار رجال الحملة أن خوف القاهريين « العظيم » من بطش الفرنسيين بهم هو السبب الذى يمنعهم من إشعال هذه الثورة[٤] ؛ ويقنعهم بالتزام الهدوء والسكينة ، على الرغم مما كانوا

(١) الجبرتى ٣ : ١٧١

(٢) الجبرتى ٣ : ١٨٨

(٣) Reynier 385

(٤) Martin II 190

يقاسونه من ويلات الحصار ، وعلى الرغم من اقتراب قوات « العدو » — العثمانيين ، والإنجليز — من أسوار القاهرة ؛ ومع ذلك فقد أبلغ المشايخ بليار والفرنسيين ، أن القاهريين ينتوون الانضمام إلى العثمانيين إذا أفلح هؤلاء فى دخول القاهرة ، وأنه يتعذر عليهم — أى على المشايخ — أن يمنعوهم من ذلك ؛ ونصحوا بضرورة إحكام الرقابة على المسالك المؤدية إلى القاهرة ؛ ومضاعفة الحراسة على أبوابها . وكان من أثر هذه النصيحة التى عمل الفرنسيون بها ، أن أخذ بليار عدداً من المشايخ أبقاهم « رهينة » فى القلعة (١) .

وعمد الفرنسيون إلى استمالة أهل القاهرة بشتى الطرق ، ومن أهمها أنهم أخذوا يظهرون الرفق بالقاهريين ، « ورفعوا الطلب عن الناس بباقى نصف المليون » ؛ ثم صاروا يكثرون من عقد الديوان ، ويقرأون على أعضائه الكتب والرسائل الواردة من الإسكندرية ، ويدلون بالبيانات ، ويلقون الخطب التى كان الغرض منها « محاولة إقناع المشايخ » — ثم أهل القاهرة عموما — بأن الفرنسيين لا يزالون يتمتعون بكل سيطرة وسلطان فى البلاد ؛ وأن النصر سوف يكون نصيبهم لا محالة ، على الرغم من إطباق جيش العدو على القاهرة ، وأنهم لاينوون الجلاء عن مصر مهما طال أمد القتال ولكن مساعيهم هذه كانت فاشلة ، لأن محاولة رفع « الطلب عن الناس بباقى نصف المليون » جاءت متأخرة ، وبعد عودة بليار من موقعة الزوامل مهزوما ؛ فكان السبب فى إظهار « الرفق بالناس والسرور بهم » ، هو عدم قيام القاهريين — على حد قول الشيخ الجبرتى — « عند خروج (الفرنسيين) للحرب وخلو البلدة منهم ، وكان (الفرنسيون) يظنون منهم ذلك(٢) » .

وأدرك القاهريون أن الفرنسيين ما لجأوا إلى رفع هذه المظالم عنهم إلا بسبب ما كانوا فيه من حرج شديد ، خوفا من ثورة الأهلين عليهم فى وقت كانوا يتأهبون فيه للدفاع عن القاهرة ؛ وزاد القاهريين اقتناعاً بأن الهزيمة سوف تنزل بأعدائهم إن هؤلاء ظلوا ينقلون الأغذية والأمتعة والذخائر إلى القلعة ، فدون الشيخ الجبرتى أخبار ذلك فى نفس اليوم الذى رفع فيه الفرنسيون الطلب عن الناس بباقى نصف المليون ، فقال : « وفيه (أى فى هذا اليوم نفسه ، وهو اليوم الثامن عشر من شهر مايو ١٨٠١ والخامس من شهر ذى القعدة ١٢١٦) أخذت جملة من عدد الطواحين

---

(١) Reybaud VIII. 235; Reynier 261

(٢) الجبرتى ٣ : ١٨٦

وأصعدت إلى القلعة ، وأكثروا من نقل الماء والدقيق والأقوات إليها وكذلك البارود والكبريت والجلل والقنابر والبنب ونقلوا ما فى الأسواق والبيوت من الأمتعة والفرش والأسرة وحملوه إليها ولم يبقوا بالقلاع الصغار إلا مهمات الحرب [١] » . ثم استمر الفرنسيون يحصنون القاهرة ، يهدمون الأبنية ويحفرون الخنادق ويقيمون المتاريس . ولم يكن من المنتظر بسبب ذلك كله أن يصدق القاهريون تلك البلاغات أو البيانات والخطب التى اتخذ الفرنسيون من عقد الديوان وطلب المشايخ إلى الاجتماع ذريعة لإلقائها على المشايخ وأعضاء الديوان حتى يتاح لها الذيوع والانتشار بواسطة هؤلاء الرؤساء بين الأهلين عموما . ولم تفلح هذه البلاغات والبيانات فى اقناع القاهريين بأن الفرنسيين باقون فى بلادهم ، وأن ما يتطاير بينهم من شائعات عن انهزام جند الحملة وانتصار العثمانيين وحلفائهم الانجليز عليهم ، لايستند إلى أساس من الصحة .

وكان السبب الأكبر فى عدم تصديق أقوال الفرنسيين أن هؤلاء اعتمدوا على التلفيق والكذب فى صوغ رسائلهم وبياناتهم وخطبهم ؛ بل ظهر تمويههم بصورة جعلت القاهريين يزدرون بهم ، ويستخفون بأمرهم . وقد سبق ذكر الشىء الكثير من ذلك . ومن أواخر شهر أبريل وطوال شهر مايو على وجه الخصوص كثر انعقاد الديوان أو الجمعية وقراءة الكتب الواردة من منو على المشايخ والأعضاء ، وإلقاء البيانات « الكاذبة » فحدث فى أول مايو أن انعقد الديوان « وحضر الخازندار (استوف) والوكيل (جيرار) وعبد العال وعلى أغا الوالى وبعض التجار — كالسيد أحمد الزرو والحاج عبد الله التاودى شيخ الغورية ، والحاج عمر المليطى التاجر بخان الخليلى ومحمود حسن وكليمان الترجمان — فتكلم أستوف وترجم عنه الترجمان أن سارى عسكر الكبير منو يقرئكم السلام ويثنى عليكم كثيراً . وسينجلى هذا الحادث إن شاء الله تعالى ويقدم فى خير ويرى أهل مصر مايسرهم : وقد هلك من الانكليز خلق كثير وباقيهم أكثرهم مرمودون الأعين وبمرض الزحير وجاءت طائفة منهم إلى الفرنساوية وانضموا إليهم من جوعهم وعطشهم . ولتعلموا أن الفرنساوية لم يسلموا فى رشيد قهراً عنهم بل تركوها قصدا ، وكذلك أخلينا دمياط لأجل أن يطمعوا ويدخلوا إلى البلاد ، ويتفرق عساكرهم فتتمكن عند ذلك من استئصالهم . ونخبركم أنه قد وردت إلى سكندرية مركب من فرانسا وأخبرت أن الصلح قد تم مع كامل القرانات ماعدا الانكليز ، فانهم لم يدخلوا فى الصلح وقصدهم

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٨٦

عدم سكون الحرب والفتن ليستولوا على أموال الناس ؛ واعلموا أن المشايخ المحبوسين بالقلعة وغيرهم لابأس عليهم وإنما القصد من تعويقهم وحبسهم رفع الفتن والخوف عليهم ، وشريعة الفرنساوية اقتضت ذلك ولا يمكن مخالفتها كمخالفة القرآن العظيم عندكم . وقد بلغنا أن السلطان العثملى أرسل إلى عسكره بالكف عن الفرنساوية والرجوع عن قتالهم ، فخالف عليه بعض السفهاء منهم وخرجوا عن طاعته وأقاموا الحرب بدون إذنه . فأجابه بعض الحاضرين بقوله إن القصد حصول الراحة والصلح ، والفرنساوية عندنا أحسن حالا من الإنكليز لأننا قد عرفنا أخلاقهم ، ونعلم أن الإنكليز إنما يريدون بانضمامهم إلى العثملية تنفيذ أغراضهم فقط ، فإنهم يولون العثملى ويقرونه حتى يوقعوه فى المهالك ثم يتركونه كما فعلوا سابقا » .

وكأنما قد أدرك (الخازندار) أن الحاضرين إنما يتظاهرون بتصديق أقواله ، مجاراة له ولدفع الأذى عن أشخاصهم فحسب ؛ فأنشأ يقول « إن الفرنساوية لايحبون الكذب ولم يعهد عليهم ، فلازم أن تصدقوا كل ماأخبركم به » . فأجابه بعض الحاضرين بقوله إن الكذب من شيمة الحشاشين وحدهم « والفرنساوية لايأكلون الحشيش » ؛ فغير (استوف) من لهجته ، وأخذ يتوعد المصريين بالعقوبة الصارمة إذا « وقع من أهل مصر فشل أو فساد » ثم قال : « واعلموا أن الفرنساوية لايتركون الديار المصرية ولا يخرجون منها أبداً لأنها صارت بلادهم وداخلة فى حكمهم ، وعلى الفرض والتقدير إذا غلبوا على مصر فإنهم يخرجون منها إلى الصعيد ثم يرجعون إليها ثانيا . ولا يخطر فى بالكم قلة عساكرهم فإنهم على قلب رجل واحد وإذا اجتمعوا كانوا كثيراً » . ومع ذلك فإن أحداً من الحاضرين لم يصدق هذه « التمويهات والخرافات » التى « طال الكلام فيها » ، وكانت أجوبة الحاضرين على حد قول الشيخ الجبرتى « بحسب المقتضيات » ؛ « ثم قال الخازندار والقصد منكم معاونة الفرنساوية ومساعدتهم وغلاق نصف المليون ونشفع بعد ذلك عند سارى عسكر فى فوات النصف الثانى حكم ماعرفكم قائمقام بليار . فاجتهدوا فى غلاقه من الأغنياء واتركوا الفقراء ، فأجابوا فى آخر الكلام بالسمع والطاعة ، فقال لكن ينبغى التعجيل فإن الأمر لازم لأجل نفقة العسكر ؛ ثم قال لهم ينبغى أن تكتبوا جواباً لسارى عسكر تعرفونه فيه عن راحة أهل البلد وسكون الحال وقيامكم بوظائفكم ، وهو إن شاء الله يحضر إليكم عن قريب . وانفض المجلس وكتب الجواب المأمور به وأرسل[1] » .

(١) الجبرتى ٣ : ١٦٥ — ١٦٦

ويذكر الشيخ الجبرتى أن الفرنسيين مالبثوا بعد ذلك أن « أبرزوا مكتوباً (فى ٩ مايو) وزعموا أنه حضر من سارى عسكرهم وقرئ بالديوان» وقد أظهر منو فى هذا الخطاب غضبه على فوريه وكيل الديوان الذى ترك القاهرة وتوجه إلى الإسكندرية « ضد (أوامره) ... وما تلك الفعلة إلا من نقص جسارته » فاستبدل به «الستويان جيرار (وهو — على حد قول منو) رجل واجب الاستوصاء لأجل عرضه وفضله وخصوصاً لأجل غيره وجسارته » ؛ وقد أعاد جيرار «فرش الديوان» فى اليوم التالى ؛ أما الشيخ الجبرتى فلم ير فى إعادة فرش الديوان إلا إمعاناً فى التمويه والتضليل « على حد قول القائل :

وتجـــلدى للشـامتين أريهم   أنى لريب الدهر لاأتضعضع »[1]

وفى يوم ٩ يونية « طلبوا مشايخ الديوان فاجتمعوا بالديوان وحضر الوكيل والترجمان وطلبهم للحضور إلى قائمقام ، فلما حصلوا عنده قال لهم على لسان الترجمان : نخبركم أن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية ، وأن تنصحوا أهل البلد والرعية بأن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوهم ولا يتداخلوا فى الشر والشغب ، فإن الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد ، والواجب على الوالد نصح ولده وتأديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التى يكون فيها الخير والصلاح ؛ فإنهم إن داموا على الهدو حصل لهم الخير ونجوا من كل شر، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم ويتمت أولادهم وسبيت نساؤهم وألزموا بالأموال والفرد التى لاطاقة لهم بها . فقد رأيتم ماحصل فى الوقائع السابقة فاحذروا من ذلك فإنهم لايدرون العاقبة ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا ، وإنما نطلب منكم السكون والهدو لاغير ؛ فأجابوه بالسمع والطاعة وقولهم كذلك وقرئ عليهم ورقة بمعنى ذلك[2] » وأمر الفرنسيون « الأغا وأصحاب الشرطة بالمناداة على الناس بذلك . وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة فلا ينزعجوا من ذلك فإنه شنك وعيد لبعض أكابرهم وأن يجتمع من الغد بالديوان الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك . فلما كان ضحوة يوم الثلاثاء (١٠ يونية) اجتمعوا كما ذكر وحصلت الوصية والتحذير وانتهى المجلس وذهبوا إلى محلاتهم[3] » .

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٦٧

(٢) الجبرتى ٣ : ١٨٨ ؛ Galland 63 — 4

(٣) الجبرتى ٣ : ١٨٨

وفى يوم ١٢ يونية «اجتمع المشايخ والوكيل بالديوان على العادة ، وحضر أستوف الخازندار وترجم عنه رفاييل بقوله : إنه يثنى على كل من القاضى والشيخ إسماعيل الزرقانى باعتنائهما فيما يتعلق بأمر المواريث وبيت المال والمصالح على التركات المختومة ؛ لأن الفرنساوية لم يبق لهم من الإيراد إلا مايتحصل من ذلك ، والقصد الاعتناء أيضاً بأمر البلاد والحصص التى انحلت بموت أربابها ، فلازم أيضاً من المصالحة والحلوان والمهلة فى ذلك ثمانية أيام ، فمن لم يصالح على الالتزام الذى له شبهة فى تلك المدة ضبطت حصته ولا يقبل له عذر بعد ذلك ؛ واعلموا أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فلازم من اعتقادكم ذلك وأركزوه فى أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى ، ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم فإنه لايخرج من أيديهم شىء أبدا . وهؤلاء الإنكليز ناس خوارج حرامية وصناعتهم إلقاء العداوة والفتن ، والعثملى مغتر بهم . فإن الفرنساوية كانت من الأحباب الخلص للعثملى فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور وأن بلادهم ضيقة وجزيرتهم صغيرة ولو كان بينهم وبين الفرنساوية طريق مسلوك من البر لانمحى أثرهم ونسى ذكرهم من زمان مديد ، وتأملوا فى شأنهم وأى شىء خرج من أيديهم فإن لهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن لم يصلوا إلينا ، والفرنسيس عند قدومهم وصلوا فى ثمانية عشر يوما ، فلو كان فيهم همة أو شجاعة لوصلوا مثل وصولنا » ؛ واستمر (أستوف) على حد قول الشيخ الجبرتى ، يذكر كلاما كثيرا « من هذا النمط فى معنى ذلك من بحر الغفلة » ويكمل الشيخ قصة ماحدث فى ذلك اليوم فيقول « ثم ذكر البكرى والسيد أحمد الزرو أنه حضر مكتوب من رشيد على يد رجل حناوى لآخر من منية كنانة يذكر فيه أنه حضر إلى سكندرية مراكب وعمارة من فرانسا ، وأن الإنكليز رجعت إليهم وأن الحرب قائمة بينهم على ظهر البحر ، فقال الخازندار يمكن ذلك وليس ببعيد ؛ ثم نقلوا ذلك إلى بليار قائمقام فطلب الرجل الراوى لذلك فأحضر الزرو رجلا شرقاويا حلف لهم أنه سمع ذلك بأذنه من الرجل الواصل إلى منية كنانة من رشيد[1] » .

واستمر تمويه الفرنسيين فى الأيام التالية ، فحدث قبل غروب شمس يوم ١٣ يونية أن «مشى عبدالعال الأغا وشق فى شوارع المدينة وبين يديه منادى يقول الأمن والأمان على جميع الرعايا وفى غد تضرب مدافع وشنك من القلاع فى الساعة الرابعة فلا تخافوا ولا تنزعجوا ، فإنه حضرت بشارة بوصول بونابرته بعمارة عظيمة إلى الإسكندرية وأن

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٨٩

الإنكليز رجعوا القهقرى » . وعندما أطلقت المدافع فى صبيحة اليوم التالى (١٤ يونية) ، « صعد أناس إلى المنارات ونظروا بالنظارات فشاهدوا عساكر الإنكليز بالجهة الغربية وصلوا إلى آخر الوراريق وأول انبابه ونصبوا خيامهم أسفل انبابه ، وعند وصولهم إلى مضاربهم ضربوا عدة مدافع فلما سمعها الفرنساوية ضرب الآخرون تلك المدافع التى ذكروا أنها شنك . أما العساكر الشرقية فوصلت أوائلهم إلى منية الأمراء المعروفة بمنية السيرج والمراكب فيما بينهما من البرين بكثرة[١] » .

وفى يوم ١٥ يونية « حصلت الجمعية بالديوان » وقرىء خطاب من بليار موجه « لأرباب الديوان والحاضرين يذكر فيه أنه حضر إليه مكتوب من كبيرهم منو بالإسكندرية صحبة هجانة فرنسيس وصلوا إليهم من طريق البرية مضمونه أنه طيب بخير والأقوات كثيرة عندهم يأتى بها العربان إليهم ، وبلغهم خبر وصول عمارة مراكب الفرنساوية إلى بحر الخزز ، وأنها عن قريب تصل الإسكندرية ، وأن العمارة حاربت بلاد الإنكليز واستولت على شقة كبيرة منها ، فكونوا مطمئنين الخاطر من طرفنا ودوموا على هدوكم وسكونكم ، إلى آخر مافيه — على قبيل الشيخ الجبرتى — من التمويهات ، وكل ذلك لسكون الناس ، وخوفا من قيامهم فى هذه الحالة . وكان وصول هذا المكتوب بعد نيف وأربعين يوما من انقطاع أخبار سكندرية ولا أصل لذلك[٢] » .

وكان الغرض من هذه التمويهات ، إقناع القاهريين بالتزام الهدوء والسكينة على نحو ماذكر الشيخ الجبرتى ؛ ومع أن أحداً لم يصدق شيئاً من هذه التمويهات فقد التزم الأهلون جانب الهدوء والسكينة ، وإن كان من الواضح أن هؤلاء سوف يرحبون بدخول العثمانيين إلى القاهرة ، وينضمون إليهم ضد الفرنسيين عند سنوح الفرصة[٣] ؛ وقد شغل القاهريون فى أثناء ذلك كله بتتبع أخبار زحف العثمانيين وحلفائهم الإنجليز صوب القاهرة ، وبخاصة منذ عودة بليار من معركة الزوامل مهزوماً فعلموا « بوصول طاهر باشا الأرنؤدى بجملة من العساكر الأرنؤدية إلى أبى زعبل[٤] » .

وفى يوم ١٢ مايو ، ذاع نبأ وصول « ركاب الوزير يوسف باشا إلى مدينة بلبيس » وذلك يوم ٨ مايو[٥] ؛ وفى ١٤ مايو « تواترت الأخبار بوصول القادمين من الإنكليز

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٨٩
(٢) الجبرتى ٣ : ١٩٠
(٣) Reynier 261
(٤) الجبرتى ٣ : ١٦٦
(٥) الجبرتى ٣ : ١٦٦

والعثمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون الكائنة بالعطف وغيره[١] » ؛ ثم علم القاهريون أن « العساكر القادمة من الجهة الشرقية (قد قربت وحضرت طوالعهم إلى القليوبية ، والمنير ، والخانكة لأخذ الكلف[٢] » ؛ وفى ٢٣ مايو « تواترت الأخبار بأن العساكر الشرقية وصلت أوائلها إلى بنها وطحلا بساحل النيل[٣] » . وتأكد لدى القاهريين إطباق العثمانيين والإنجليز على القاهرة عند ما اشتد إطلاق المدافع ، وسمع القاهريون أصوات هذا الضرب الشديد « على بعد » ، ضحوة يوم ٩ يونية ؛ ثم أشيع فى اليوم التالى « حضور الوزير إلى شلقان وكذلك عساكر الإنكليز بالناحية الغربية (ووصولهم) إلى أول الوراريق[٤] » . ثم زاد إطلاق المدافع يوم ١٤ يونية ؛ وتابع الفرنسيون ضرب مدافعهم « من جميع القلاع » .

وتبين للقاهريين أن الإنجليز قد وصلوا إلى « آخر الوراريق وأول انبابه[٥] » . ثم ذاع الخبر فى اليوم التالى عن وصول « العساكر الشرقية إلى العادلية (وامتداد) العرضى منها إلى قبلى منية السيرج ، وكذلك الغربية إلى انبابة . وقد نصب العثمانيون والإنجليز خيامهم بالبرين ، وأقاموا جسراً من المراكب فى النيل بين المعسكرين ؛ « وضربوا عدة مدافع ، وخرج عدة من الفرنساوية خيالة ، فترامحوا معهم وأطلقوا بنادق ، ثم انفصلوا بعد حصة من الليل ، ورجع كل إلى مأمنه[٦] » ؛ ثم « زحف العساكر الشرقية (العثمانيون) حتى قربوا من قبة النصر ، وسكن إبراهيم بيك زاوية الشيخ دمرداش » وكان ذلك يوم ١٨ يونية . واستطاع فريق منهم الوصول إلى جهة المذبح ، وأشرفوا من حائطه على الجزارين وأطلقوا بنادقهم على ثلاثة من « أنفار الفرنسيس . . . فأصيب أحدهم فى رجله فأخذوه وهرب الإثنان » ؛ « ووقع بين الفريقين مضاربة على بعد وقتل بعض قتلى وأسر بعض أسرى : ولم يزل الضرب بينهم إلى قريب العصر والفرنسيس يرمون من القلعة الظاهرية وقلعة نجم الدين والتل ولا يتباعدون عن حصونهم » ؛ ثم تبادل الفريقان إطلاق النار فى اليوم التالى كذلك[٧] ؛

(١) الجبرتى ٣ : ١٨٦
(٢) الجبرتى ٣ : ١٨٦
(٣) الجبرتى ٣ : ١٨٧
(٤) الجبرتى ٣ : ١٨٨ — ١٨٩
(٥) الجبرتى ٣ : ١٨٩
(٦) الجبرتى ٣ : ١٩٠
(٧) الجبرتى ٣ : ١٩٠

ثم حدث بعد ذلك أن «وقعت مضاربة أيضاً بطول النهار (فى يوم ٢٠ يونية) ، ودخل نحو خمسة وعشرين نفراً من عسكر العثمانية إلى الحسينية وجلسوا على مساطب القهوة وأكلوا كعكا وخبزا وفولا مصلوقا وشربوا قهوة ثم انصرفوا إلى مضربهم[١] » . وحدث فى نفس اليوم أن « زحفت عساكر البر الغربى إلى تحت الجيزة » فانتقل بليار إلى « بر الجيزة فسمع الضرب أيضاً من ناحية الجيزة وسمعت طبول الأمراء ونقاقيرهم واستمر الأمر إلى يوم الثلاثاء حادى عشره (أى اليوم الحادى عشر من شهر صفر الخير سنة ١٢١٦ ، الموافق ٢٣ يونية سنة ١٨٠١) فبطل الضرب فى وقت الزوال » . . . وانقضى اليومان التاليان « والمضاربة بين الفريقين ساكنة وأشيع وقوع المسالمة والمراسلة بينهما ، والمتوسط فى ذلك الإنكليز وحسين قبطان باشا ، فانسر الناس وسكن جاشهم لسكون الحرب[٢] » .

تسليم بليار :

وتضافرت عوامل عدة ساعدت العثمانيين وحلفاءهم الإنجليز فى زحفهم على القاهرة ، كان من أهمها أن مشايخ القرى والبلدان التى مر بها الصدر الأعظم والقبطان باشا فى طريقهما إلى عاصمة البلاد ، سرعان ما صاروا يقدمون خضوعهم للعثمانيين ، ثم حذا حذوهم الفرسان البدو الذين أخذوا يفدون من جميع الجهات للانضمام إلى الترك فى زحفهم على القاهرة ؛ ولو أن (رينييه) كان يعزو ترحيب الأهلين إلى خوف هؤلاء من العثمانيين وبطشهم فيقول : إنهم ما كانوا يقدمون المؤن إلى الجيش الزاحف إلا مرغمين إرغاما على ذلك ، كما زعم أن فرسان البدو ما حضروا إلى معسكر الأتراك إلا لخوفهم من مطاردة هؤلاء لهم من جهة ، ولأنهم كانوا يطمعون فى أن تتاح لهم فرصة الحصول على الأسلاب والمغانم بفضل ما ينهبونه من البلدان التى يمرون بها ، فى وقت سادت فيه الفوضى نتيجة لعجز الفرنسيين عن المحافظة على الأمن وسط هذه الأزمة المستحكمة بسبب الغزو العثمانى الانجليزى[٣] .

ومع ذلك فمما لا شك فيه أن عجز الفرنسيين عن صد الجيوش الزاحفة فى الدلتا ثم انهزام بليار فى معركة الزوامل على وجه الخصوص ، كان قد زاد الأهلين وبدو الصحراء اقتناعا بأن الفرنسيين لا محالة راحلون عن البلاد ، وأن أيامهم فى القاهرة

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٩١

(٢) الجبرتى ٣ : ١٩١

(٣) Reynier 260

قد باتت قصيرة ومعدودة . فكان لهذه المعركة أثر حاسم فى موقف الأهلين والعربان عموما من الفرنسيين ، كما أحدث الانتصار على بليـار فى هذه المعركة أثراً لا يقل خطورة عن سابقه فى موقف العثمانيين وحلفائهم الانجليز كذلك من جيش الاحتلال الفرنسى فى القاهرة ، ذلك بأن (الزوامل) كانت المعركة الأولى التى أحرز فيها العثمانيون نصراً ظاهراً على الفرنسيين بعد انهزامهم الكبير فى موقعة هليوبوليس أيام كليبر ، ثم فى غير هذه من المعارك والمناوشات فدل انتصار الأتراك — وهم الذين كانت جيوشهم تفتقر إلى التنظيم وتنقصها الأسلحة والمعدات الحديثة — على أن الفرنسيين قد وصلوا من الضعف إلى درجة شديدة ، فاطمأن الانجليز إلى قدرة حلفائهم الأتراك على كسب المعارك ، وزاد الأتراك من ناحيتهم إيماناً باستطاعتهم الانتصار على أعدائهم (١) . وشجع هذا النصر كلا الجيشين العثمانى والانجليزى على مواصلة الزحف بهمة ونشاط صوب القاهرة . وفضلا عن ذلك فقد كفل انتصار الزوامل اطمئنان العثمانيين إلى خطوط مواصلاتهم ، فصاروا لا يخشون من قيام العدو بأية محاولات جدية لقطعها ، بل أمكن الاتصال فى آخر مايو بين هتشنسون والصدر الأعظم ، وانضم آلايان من المشاة الانجليز وبعض الفرق من فرسانهم ومدفعيتهم إلى الجيش العثمانى (٢) .

وعند ما عسكر الانجليز وحلفاؤهم العثمانيون قريباً من القاهرة عظم الأمل فى إمكان تضييق الخناق على الفرنسيين وجيش بليار وإرغامهم على التسليم طوعا أو كرها وكان مما عزز هذا الأمل انضمام البكوات المماليك بفرسانهم إلى الجيوش الزاحفة منذ أوائل شهر يونيه على نحو ما سبق ذكره ؛ فقد تم الاتفاق بين هتشنسون وبين عثمان بك البرديسى وعثمان بك الطنبورجى ، ومحمد بك الألفى وعثمان بك حسن وسليم بك وغيرهم (٣) ، على أن يبذل هؤلاء كل مساعدة ممكنة للانجليز ، وأن يشتركوا معهم فى القتال الدائر ضد الفرنسيين ، لقاء أن يضمن لهم الإنجليز استرجاع ممتلكاتهم ، ثم ذلك المركز الممتاز الذى أعطاهم كل سيطرة وسؤدد فى البلاد قبل مجىء « الحملة الفرنسية (٤) » .

ومع أن هذه كانت جميعها ظروفا مواتية ولا شك لأن يبدأ هتشنسون هجومه الحاسم على القاهرة ، فقد اكتفى العثمانيون والانجليز فى مبدأ الأمر بإرسال الرسل

---

(١) Walsh 144

(٢) Charles-Roux II 196

(٣) Walsh 198

(٤) Charles-Roux II 198 — 9

يعرضون على بليار شروطا « سخية » نظير تسليم القاهرة ، فبعث الصدر الأعظم منذ ٢ مايو بأحد الضباط الانجليز يطلب إلى بليار التسليم [١] . وفى منتصف يونيه عرض هتشنسون على بليار التسليم « وفق شروط مناسبة ومفيدة [٢] » ، ورفض بليـــار عروض الوزير العثمانى والقائد الانجليزى ، وكان مما سبب إرجاء القيام بأية عمليات عسكرية حاسمة ضد القاهرة من جانب الانجليز ، ثم من جانب الأتراك — الذين لم يكونوا يستطيعون العمل فى الحقيقة منفردين دون معاونة حلفائهم الإنجليز لهم — ، أن هتشنسون عند وصوله أمام القاهرة سرعان ما وجد نفسه فى مأزق تحيط به صعوبات تشبه من وجوه عدة تلك التى صادفها القائد الإنجليزى عقب واقعة نيكوبوليس فقد ذاع فى المعسكر الانجليزى نبأ ظهور أسطول غانتوم قريباً من الشاطىء الافريقى غرب الإسكندرية يحمل النجدات إلى منو ، كما ذاع خبر نجاح إحدى الفرقاطات الفرنسية فى الدخول إلى ميناء الإسكندرية .

وعلى ذلك فقد بدأ أولئك الذين أعربوا عن تذمرهم وأعلنوا عصيانهم فى ظروف سابقة ، يرفعون رءوسهم مرة أخرى لإقناع القائد العام بالعدول عن محاولة اقتحام خطوط الفرنسيين الأخيرة والهجوم على القاهرة ، لما فى ذلك من خطر بالغ قد يعرض الجيش فى نظرهم إلى الهلاك المحقق وذلك لاعتبارات عديدة ، منها أن قوات الجنرال كوت المرابطة أمام الاسكندرية قد نقصت بسبب المرض إلى حوالى أربعة آلاف مقاتل كما انتشر المرض فى جيش هتشنسون حتى اضطر القائد العام نفسه إلى إرسال حوالى الألف من المرضى بطريق النيل منذ مغادرته الحماد ، أضف إلى هذا أن معظم قواته الزاحفة على القاهرة كانت من الجنود العثمانيين الذين يشك كثيراً فى صلابة عودهم ، وذلك بينما تفصل بين القاهرة والاسكندرية مسافات شاسعة ، ولا يستطيع الجنرال كوت بجيشه الذى لا يزيد على أربعة آلاف جندى أن يصمد أمام جيش منو الذى يبلغ حوالى سبعة آلاف مقاتل معتصمين بالاسكندرية ؛ ومع أن الأمل كان عظيما فى وصول قوات الحملة الانجليزية الهندية أمام القاهرة ، فإن جزءاً بسيطاً من هؤلاء الجنود فحسب قد بلغ القاهرة وانضم إلى جيش هتشنسون ، بينما كانت الحملة الانجليزية الهندية لا تزال منعزلة عن بقية الجيش فى أحد موانى البحر الأحمر البعيدة ، ويفصل بين هذا الميناء وبين القاهرة فراسخ عدة [٣] .

---

(١) Rigault 323 ؛ الجبرتى ٣ : ١٦٦

(٢) Wilson 123

(٣) Fortesque IV. 2. 854

غير أن هتشنسون الذى استطاع أن يقضى على معارضة هؤلاء المتذمرين سابقاً ، كان قوى العزم والإرادة ، ويعتقد اعتقاداً راسخاً أنه يستحيل عليه فى هذا الوقت أكثر من أى وقت آخر النكوص على عقبيه والتقهقر من أمام القاهرة ، وصمم على المضى فى خطته ، وكان له من انتصاراته السابقة ونجاح زحفه على القاهرة خير كفيل بإمكان القضاء على هذه المعارضة ؛ وزيادة على ذلك فقد ساعده الفرنسيون أنفسهم بتخاذلهم وترددهم ، على اجتياز الأزمة بسلام . فإن غانتوم الذى عقد الفرنسيون آمالهم على نجاحه فى حمل النجدات إلى الإسكندرية ، وأثار ظهوره على الشاطىء الإفريقى مخاوف الإنجليز ، لم يلبث أن عاد أدراجه ، وما إن بلغت أخبار اختفاء الأسطول الفرنسى من البحر الأبيض المعسكر الانجليزى حتى تنفس هتشنسون الصعداء وصمم على بدء الهجوم واقتحام تحصينات القاهرة[1] .

وعلى ذلك فقد ترك هتشنسون عدداً من الجند لحراسة « الجسر » الممتد عبر النيل بين معسكرى الجيشين الإنجليزى والعثمانى ، وتقدم ببقية قواته حتى عسكر أمام أسوار الجيزة فى ٢١ يونية استعداداً لمحاصرتها ؛ ولم يكن من المتوقع أن تبدى قلعتها مقاومة تذكر بسبب ضعف حاميتها ، ولو أن الفرنسيين كانوا يعتمدون فى إمكان الصمود أمام هجوم الإنجليز على أنه كان فى استطاعتهم أن يمدوا هذه القلعة بالنجدات ، بواسطة جسر أنشئوه على النهر لهذه الغاية . ولذلك فقد بات هدف هتشنسون الأكبر الاستيلاء على هذا الجسر ، حتى إذا تم له ذلك وسقطت الجيزة فى قبضته عبر النهر بجيشه ، للاتصال بجيش الصدر الأعظم المعسكر على مسافة قصيرة من القاهرة ، فيتحد عندئذ الجيشان فى هجوم حاسم على القاهرة ذاتها .

غير أن صعوبات عدة لم تلبث أن عطلت تنفيذ هذه الخطة ، واضطرت القائد العام إلى إرجاء الهجوم بعض الوقت ، وأهم هذه الصعوبات انخفاض مياه النهر بدرجة جعلت من المتعذر عبوره بسهولة ، أو نقل المدافع الثقيلة مسافات طويلة ، كما ظهرت الحاجة للمهمات والمواد الكثيرة التى كانت تنقص الجيش لتنفيذ هذه الخطة ، ووضحت تبعاً لذلك ضرورة إرجاء الهجوم أياما أخرى حتى يتسنى تذليل هذه الصعوبات التى من شأنها « إطالة عمليات الحملة العسكرية وزيادة متاعبها[2] » . ولكنه ما بدأ هتشنسون فى اليوم التالى (٢٢ يونية) يعمل على تذليل هذه الصعوبات حتى انتفى كل سبب لتدبير

---

(١) Charles-Roux II 197 — 8; Ibid

(٢) Anderson 323

أمر الهجوم على القاهرة ؛ ذلك بأن بليار ما لبث أن أرسل توسار Tousard أحد ضباطه يطلب مقابلة الجنرال هوب Hope ويرجوه إخبار هتشنسون برغبة القائد الفرنسى العام فى عقد مؤتمر للبحث فى شروط تسليم القاهرة[١] ، فكانت مفاجأة طرب لها الصدر الأعظم طربا عظيما ، ووافق هتشنسون على انعقاد المؤتمر فى اليوم التالى للنظر فى شروط التسليم ، ونصبت الخيام فى معسكر أنشىء لهذه الغاية على شاطىء النيل بين مخافر الإنجليز الأمامية وحصن أو قلعة الجيزة ، أطلق عليه اسم « معسكر المؤتمر »[٢] .

وكان قرار تسليم القاهرة قراراً خطيراً اختلف رأى المعاصرين فى تقدير أسبابه ، ووزن الظروف التى أقنعت بليار بضرورة الاعتراف بالهزيمة والتعجيل بتسليم القاهرة دون إبداء أية مقاومة ، وقبل محاولة الدفاع عن القاهرة ، والالتحام مع العدو فى معركة حاسمة . فنقم فريق من المعاصرين على بليار ما عدوه تخاذلا مشينا من جانبه ، وأيده فريق آخر . ولا يزال قرار التسليم موضع نقاش كبير بين الكتاب والمؤرخين — والفرنسيين منهم على وجه الخصوص — إلى الوقت الحاضر . فبينما يرى جماعة منهم أن الدفاع عن القاهرة كان متعذراً لأسباب عسكرية واقتصادية وسياسية عدة ، اعتقد آخرون أن بليار كان فى وسعه الدفاع عن القاهرة ، ولكنه لم يحاول الصمود أمام العدو لسبب واحد هو أنه كان قد قرر التسليم منذ حلت به الهزيمة فى معركة الزوامل (أو الخانكة) ، لاعتقاده أن جيش الشرق والفرنسيين قد فقدوا مصر نهائياً ، وأن الاستمرار على المقاومة عبث لا طائل تحته ، وأن الجلاء عن مصر فى شروط تشبه شروط اتفاق العريش السابقة خير وأجدى ، إذ يتمكن جيش الشرق عندئذ من العودة إلى أرض الوطن مرفوع الرأس موفور الكرامة[٣] .

غير أنه لا يتسنى الوصول إلى رأى قاطع فى مسألة تسليم بليار دون فحص الظروف التى أحاطت بهذا التسليم ، والأسباب التى أقنعت بليار بوقف القتال وترك الدفاع عن القاهرة ، فقد كان أمام القائد الفرنسى أن يختار بين خطط ثلاث : إما تركيز قواه فى القاهرة ، ثم الاستمرار على الدفاع عن العاصمة ؛ وإما محاولة الخروج من القاهرة وشق طريق لجنده وسط الجيوش المحاصرة والالتحام مع هذه الجيوش فى معارك حاسمة

---

(١) Rigault 337

(٢) Reybaud VIII 263

(٣) Charles-Roux II 199 — 200

حتى يتمكن من تحطيم ذلك الحصار المضروب على القاهرة ؛ وإما الانسحاب من القاهرة والتقهقر إلى الدلتا أو إلى الصعيد لاستئناف العمليات العسكرية ضد العدو .

وكان لكل من هذه الخطط الثلاث مزايا عدة لو أنه أمكن تنفيذها ، فمما لاشك فيه أن خطة تركيز القوى كانت ذات فوائد كبيرة ؛ إذ تمكن الفرنسيين من حشد قواتهم لمقابلة جيوش العدو المتفوقة عليهم ، ولكن مما لاشك فيه كذلك أن تركيز القوى فى القاهرة لم يكن من الناحية العسكرية تدبيراً يكفل النصر فى النهاية ، ذلك بأن عدد القلاع أو الحصون الصغيرة ، التى وجب التمسك بها والدفاع عنها فى القاهرة وما يجاورها ، كان لا يقل عن أربعة عشر حصنا أو موقعا ، عدا قلعة القاهرة الكبيرة ، وهذا بينما امتد خط القتال مسافة تزيد على اثنى عشر ميلا من القاهرة إلى الجيزة ، ماراً بمصر القديمة وبولاق ، أضف إلى هذا أنه لم يكن من الحكمة فى شىء اتخاذ القاهرة مركزاً للعمليات العسكرية الهامة ، فى وقت كان الخوف من قيام القاهريين بالثورة وانحيازهم إلى جانب العدو الرابض أمام أبواب القاهرة شديداً .

أما إذا قرر بليار أن يخرج من القاهرة وأن يشق له طريقاً بحد السيف وسط جيوش العدو ، فإن هذا العمل على خطورته وما قد ينجم عنه من خسائر فادحة ، سوف يعرض القاهرة ومؤخرة جيش بليار نفسه لكارثة محققة ، لأن انشغال بليار بالالتحام مع جيش هتشنسون من ناحية ، سوف يعطى الصدر الأعظم الفرصة لاقتحام تحصينات القاهرة والدخول إلى المدينة من الناحية الأخرى ، وكذلك إذا هاجم بليار جيش الصدر فإن هتشنسون سوف يجد طريقه كذلك لاقتحام القاهرة . وعلى ذلك فقد كان من العبث التفكير فى محاولة « خروج مسلح » من القاهرة والالتحام مع العدو أمام تحصيناتها .

وأما إذا قرر بليار الانسحاب من القاهرة وحاول القهقرى إلى الدلتا أو الصعيد ، فإن صعوبات عدة سوف تحول دون نجاح هذه الحركة ، ذلك بأن دمياط ورشيد والرحمانية فى الشمال كانت جميعها فى أيدى الإنجليز ، بينما يحاصر هؤلاء الإسكندرية حصاراً شديداً ، ولا سبيل إلى الانضمام إلى قوات الجنرال منو المحاصرة بها بسبب انقطاع طرق المواصلات إذ أغرق الإنجليز منخفض مريوط بالماء ، ومن المتعذر استخدام الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية دون التعرض لأخطار عدة شديدة . ولم يكن من الحكمة فى شىء محاولة التقهقر إلى الصعيد كذلك ، إذ أنه كان من المتوقع أن تعترض الحملة الهندية الإنجليزية الزاحفة من الجنوب جيش بليار المتقهقر فى الصعيد ،

فلا يمضى وقت طويل حتى يجد بليار نفسه محاصراً بين جيشين ، جيش هذه الحملة من أمامه ، وجيش الجنرال هتشنسون (والصدر الأعظم) من خلفه . أضف إلى ذلك أن وباء الطاعون كان منتشراً فى الصعيد ، ويستأثر بالسلطة فى أكثر أقاليم الوجه القبلى مولاى محمد (المهدى) الذى أفلح فى إشعال الثورة فى الصعيد بعد وفاة مراد بك . وهكذا وجد بليار أنه من المتعذر عليه أن يترك القاهرة ، كما وجد أن الاقتصار على تركيز القوى بها أمر لا نفع فيه ولا جدوى منه ، إذا لم يصحب تركيز هذه القوى تصميم على الدفاع عن القاهرة بصورة جدية(١) .

ومع ذلك فقد كان من رأى بليـــار أن الدفاع عن القاهرة يكاد يكون أمراً من المستحيل محاولته ، لأن قلاع القاهرة لم يكن فى مقدورها الصمود أمام هجوم العـدو عند بدء المعركة الحاسمة سوى أيام معدودة لضآلة حامياتها ونقص استعداداتها ، وضعف تحصيناتها على الرغم من مظهرها الذى كان يدل على القوة والمناعة . ومع أن بليار كان قد أقام جملة مراكز للدفاع بين القاهرة وبولاق ، فإن هذه ما كانت تقوى على احتمال نيران المدفعية الشديدة . ومن المتوقع انهيارها إذا جد الجد وحمى وطيس القتال ، ومن المنتظر أن تسلم للعدو الواحدة بعد الأخرى ، إذا استطاع هتشنسون أو الصدر الأعظم اقتحام مركز منها . ولا شـك فى أن توزيع الجند على هذه المراكز والقلاع وعلى طول خط الدفاع الممتد من القاهرة إلى الجيزة سوف يترك أبواب القاهرة تحت رحمة العدو وتحت رحمة القاهريين المتأهبين للثورة ، ويجعل من المتعذر حشد جنـد هذه الحاميات فى صعيد واحد للالتحام مع العدو فى معركة أخيرة فاصلة ، ولا معدى فى هذه الحالة عن سقوط القاهرة .

وكان أخشى ما يخشاه بليار وقوع القاهرة فى قبضة العدو بعد فشل الدفاع عنها ، إذ أن ذلك — كما اعتقد — سوف يؤدى لا محالة إلى حدوث مذبحة لن ينجو منها فرنسى واحد(٢) . وفضلا عن ذلك فإن الدفاع عن القاهرة — إذا تقرر — سوف لا تطول مدته ، فالمؤن والذخائر قد بدأت تقل بسبب « إهمال » منو وسوء تدبيره ، واعتقد بليار أنه من المتعذر عليه تصحيح « الأخطاء » التى ارتكبها قائد الحملة العام ومع أنه بعث بمدير شئون التموين(رينييه) Reynier — شقيق الجنرال رينييه — فى مركب مسلح للطواف بالبلدان الواقعة على شاطىء النيل فى الصعيد كى يجلب منها

---

(١) Reybaud VIII 253 — 4

(٢) Ibid 255

الحبوب والأغذية ، فقد وجد رينييه القرى حول القاهرة خالية من سكانها الذين فتك الطاعون بشطر كبير منهم ، وغادرها الباقون خوفا من الهلاك ، ثم إنه لم يستطع التقدم كثيراً فى النهر بسبب انتشار ثورة (المهدى) [١] . وزادت صعوبات بليار عند ما وجد خزائنه خالية ولا يكفى ما لديه من أموال لدفع مرتبات الجند أو سد مطالب الإدارة الضرورية سوى أيام معدودة فقط ، بفضل ما يمكن تحصيله من ضرائب وأموال من أهل القاهرة .

أما المخازن ، وبخاصة مخازن المدفعية ؛ فقد باتت خاوية على عروشها بسبب طلبات منو المتكررة ؛ وقد استخدم كل ما أرسل إليه من ذخائر ، أو فقد فى الرحمانية ورشيد وسائر الأماكن التى كان الانجليز يحتلونها ، وبقى فى القاهرة حوالى مائة وخمسين طلقة فحسب لكل مدفع بها ، وانعدم وجود قنادق المدافع بتاتا . ومع أن بليار ظل مدة طويلة ينتظر تعليمات حاسمة وواضحة من قائد الحملة العام ، فقد اكتفى منو بأن يطلب إلى بليار « كسب الوقت » والاستماتة فى الدفاع عن القاهرة ، ولم يرسل إليه تعليمات للقيام بأعمال « إيجابية » [٢] ، وفضلا عن ذلك فقد حملت كل الرسائل التى وصلت بليار من منو تاريخاً يسبق سقوط الرحمانية ، ولم تصل بليار أية تعليمات بعد أن أخلى (لاجرانج) الرحمانية ، أو فى أثناء حصار القاهرة ؛ وكان بعد تسليم القاهرة فقط أن بلغت بليار تعليمات من منو يأمره فيها بضرورة إحراز النصر أو الاستبسال فى الدفاع عن القاهرة حتى الموت والفناء ، وذلك فى وقت كان يعلم فيه منو أن الحامية المحاصرة قد باتت تعانى شدائد عظيمة ، وتطبق عليها جيوش العدو من كل جانب ، فدلت هذه التعليمات على أن صاحبها قد فقد كل اتزان وحكمة ، وصار لا يرضيه — على حد قول أحد ضباط بليار فى القاهرة — إلا أن يرى أشلاء رجال الحامية مبعثرة فى كل مكان ما دام هلاك جيش القاهرة ينقع غلته ويروى ظمأه الشديد إلى المجد والشهرة [٣] .

فكان لهذه الأسباب جميعها أن قر رأى بليار على تسليم القاهرة . وزاده اقتناعا بضرورة عدم الإبطاء فى التسليم أن عثمان بك البرديسى وهو أحد البكوات الذين انحازوا إلى جانب الانجليز ما لبث أن أفلح فى إبلاغ ماجو Majou أحد ياوران بليار وبتروتشى (أو بطروشه) من الوكلاء المدنيين ، بأن الانجليز والعثمانيين ينوون

---

(١) Ibid 256

(٢) Rousseau 402 — 3

(٣) Malus 218

التساهل مع الفرنسيين ، ومعاملتهم بسخاء كبير ، إذا قبـــل هؤلاء التسليم وقرروا وقف القتال (١) .

ومع ذلك فإن بليار لم يشأ أن يأخذ على عاتقه وحده مسئولية البت فى هذه المسألة الخطيرة ، فعقد مجلساً حربياً فى القلعة بعد ظهر يوم ٢٢ يونيه (و٣ مسيدور من السنة التاسعة) لبحث موضوع التسليم ، وحضر هذا الاجتماع كبار القواد الفرنسيين فى القاهرة .

ولما كان القواد أكثر تضامناً ، واختفت عوامل التفرقة من هيئة أركان الحرب منذ أن غادر منو القاهرة ، فقـد صار ميسوراً تقليب وجوه الرأى فى الموقف بكل هدوء وسكينة ، واستطاع القواد المجتمعون الوصول إلى قرار حاسم بعد الاستماع إلى وجهات النظر المختلفة . فبدأ بليار الحديث وأخذ يوضح فى هدوء الصعوبات التى أحاطت بالموقف من كل جانب ، فذكر انتشار وباء الطاعون ، وبسط أسباب ضعف قواته بالقياس إلى قوات العدو ، وأبدى خوفه من قيام القاهريين بالثورة ، وما كان يتوقعه من حدوث مأساة مروعة إذا قدر لحامية القاهرة بعد هزيمتها الوقوع فى أيدى العثمانيين وأحلافهم المنتصرين وأيدى أهل القاهرة ، ثم طلب إلى الحاضرين أن يدلوا بآرائهم ويبسطوا أقوالهم فى ذلك كله . فانبرى (لاجرانج) — وكان من مؤيدى منو فى ضرورة الاستماتة فى الدفاع عن القاهرة إلى النفس الأخـيـر — فرفض المفاوضة والاتفاق مع العدو دون أخذ رأى قائد الحمـلة العام (أى منو) فى ذلك أولا ، وكان من رأيه أن من نتائج التسليم الجزئى فى القاهرة حرمان الجيش المحاصر فى الإسكندرية من الاشتراك فى إملاء شروط التسليم ، ثم التأثير عموما بصورة سيئة على مسألة الإخلاء وجلاء الحملة ؛ وعلى ذلك فقد نصح بأن يحدث الاتفاق على التسليم بالاتحاد بين حامية القاهرة وحامية الإسكندرية ، وتمسك بضرورة الاستمرار فى المقاومة والدفاع . وكان من بين الذين عارضوا التسليم كذلك (دونزيلو) Donzelot الذى حضر قريباً من الصعيد ، ويعرف موارد البلاد الحقيقية ، ويعتقد أن فى استطاعة الفرنسيين مواصلة الحرب بنجاح ضد العدو فى الوجه القبلى ، فنصح بالانسحاب إلى الصعيد والصمود فى حرب دفاعية طويلة من شأنها إرغام الإنجليز على قطع المسافات الشاسعة سيراً على الأقدام وتعريضهم للأمراض المهلكة وإنهاك قواهم ، حتى يحين الوقت الذى تشعر فيه حكومة القنصل الأول بضرورة إرسال النجدات إلى مصر .

---

(١) Rigault 338

ثم تحدث بعد (دونزيلو) كل من تارير Tarayre ، وجوجيه Goguet ، ودوتبول d'Hautpoul ، وأعطيت الـكلمة بعد ذلك إلى دوباس Dupas قومندان القلعة ، وكان دوباس صريحاً فى نبذ فـكرة التسليم والمفاوضة ، وقال « إن جيش بونابرت وكليبر ، ذلك الجيش الذى انتصر فى أبى قير وهليوبوليس ، لا يستطيع أن يسلم بلادا دفع دماءه ثمناً لافتتاحها » . بل يرى من الواجب الاستمرار فى القتال حتى النهاية .

وهكذا كان من الواضح أن لاجرانج ودونزيلو ودوباس يعارضون جميعاً التسليم والمفاوضة مع الإنجليز[١] . ولـكن هؤلاء كانوا أقلية ، فقد تحدث بعدهم آخرون كانوا يخالفونهم فى الرأى مخالفة صريحة ، وقد ذهب هؤلاء المتحدثون من أنصار التسليم والمفاوضة إلى أنه لم يحدث قط أن وجد الجيش فيما مر به من تجارب منوعة موقفا يشبه الموقف الحالى ، بل إن الظروف التى تحيط بالجيش الآن — على حد قولهم — إنما هى ظروف غير عادية ، وتستلزم لمعالجتها وسائل وإجراءات سريعة وغير عادية كذلك . ولا جدوى من انتظار وصول أوامر وتعليمات جديدة من منو ، لأن الانتظار الطويل معناه تفويت الفرصة ، وتعريض الجيش لهجوم العدو ، ووقوع الفرنسيين أسرى فى أيدى الإنجليز والعثمانيين ؛ وعلاوة على ذلك فإن الانسحاب إلى الصعيد لن يمنع الإنجليز والعثمانيين بحال من الأحوال من تعقب الجيش المتقهقر ومطاردته حتى الشلال إذا لزم الأمر ؛ ولا أمل فى إدارة العمليات العسكرية بنجاح فى الصعيد بسبب انقطاع المواصلات بين الجيش المتقهقر وسائر القوات الفرنسية وخلو المخازن من الذخيرة والمؤن ، ولأن أهل البلاد سوف يبادرون بالانقلاب عليهم . ومع أن (دوباس) كان قد تحدث عن المقاومة حتى الهلاك ، وذكر ما ينتظر الجيش من مجد وفخار إذا سقط جميع رجاله فى ساحة الوغى ، فقد أجاب مؤيدو التسليم على ذلك بقولهم إن المجد والفخار ولا شك سوف يكون من نصيب أى فرد يجد من الشجاعة التضحية بنفسه لإنقاذ غيره ، ولـكن التضحية بجيش يبلغ عدد رجاله حوالى السبعة أو الثمانية آلاف ضرب من الجنون لا يصح السكوت عليه أو قبوله . وإذا تحدث إنسان عن انتصار أبى قير وهليوبوليس ، فإن الظروف التى أحاطت بمعركة هليوبوليس تشبه وحدها من بعض الوجوه الظروف التى تحيط بالجيش فى موقفه الحاضر .

حقيقة كان جند العدو منتشرين فى الأراضى المصرية ، ولـكن هؤلاء الجند كانوا من العثمانيين الذين يجهلون النظام ولم يكن لديهم خطة حربية معينة ، ويتألف جيشهم

---

(١) Reybaud VIII 259 — 60

من عناصر مختلفة جمعت بكل سرعة ولا رابط يربط صفوفهم ، ومن المنتظر إذا حلت بهم الهزيمة فى أية مناوشة صغيرة أن تنحل جموعهم وتذهب ريحهم ، على خلاف الحال اليوم ؛ لأن الأتراك لا يحضرون وحدهم فى هذه المرة ، بل يشد أزرهم عشرون ألفاً من الإنجليز ، وبدلا من أن يقاتلهم الفرنسيون بجيش يبلغ عشرة آلاف كما حدث أيام كليبر فى هليوبوليس ، فقد بات الجيش الفرنسى لا يعدو ستة آلاف فحسب ، لا يقوون على مهاجمة أعدائهم ، بل فى وسعهم إطالة الدفاع عن القاهرة مدة قد تكفى لتدبير المفاوضة مع العدو من أجل الوصول إلى شروط ملائمة تحفظ حياة هؤلاء الجنود الشجعان ، وتمكنهم من العودة إلى أرض الوطن لخدمة فرنسا فى ميادين أخرى بدلا من تضحيتهم فى نضال لا طائل تحته وذلك فى نظير تسليم القاهرة[١] .

واحتدم النقاش وقتاً طويلا ، وكان من رأى (لاجرانج) أن التفكير فى الهدنة « سابق لأوانه » والواجب المضى فى الحرب ، ووافقه على ذلك كل من ديرانتو وفالنتان وأصر (دوباس) إصراراً شديداً على ضرورة مواصلة القتال لأنه رفض أن يعتقد أن عشرة آلاف من الجنود الفرنسيين فى وسعهم أن يسلموا سلاحهم للأتراك أو للانجليز : الترك الذين لا شأن ولا وزن لهم ، والإنجليز الذين كان الفرنسيون يجهلون حقيقة أعدادهم ، ولا سبيل إلى معرفة قوتهم الصحيحة إلا بالاشتباك معهم ، فإذا اتضح فى ساحة القتال أنهم يفوقون الفرنسيين عدداً وعدة ، انسحب هؤلاء إلى الحصون ، ولا شك فى أن لدى الفرنسيين متسعاً من الوقت دائماً للمفاوضة ؛ ولكن مما لا شك فيه كذلك على حد قوله أن من الأفضل أن تفقد الجمهورية حامية القاهرة فى الميدان ، بدلا من أن « يحمر وجهها خجلا » عند عودة هؤلاء الجنود إلى فرنسا[٢] .

وأصر الجنرال دونزيلو على الصمود بضعة أسابيع أخرى حتى ترتفع المياه فى النهر ويتم الاستعداد للانسحاب إلى الصعيد فتتاح الفرصة للفرنسيين بسبب معرفتهم للبلاد أكثر من أعدائهم للقيام « بمناورات » ناجحة . وقد دفع بليار هذا الرأى بقوله إن الوباء منتشر فى الصعيد ولا أمل فى العثور على مواقع « استراتيجية » هامة فى هذه الأقاليم ، ولن يجد الفرنسيون — بسبب مطاردة الإنجليز لهم — وقتاً كافياً لإحكام تدابير مناوراتهم[٣] ، واقترح الجنرال موران Morand اقتحام خطوط العثمانيين على

---

(١) Ibid 260 — 6

(٢) Bertrand II 405 — 6

(٣) Rigault 339

شاطىء النيل الشرقى والزحف إلى دمياط حيث تكثر المؤن للتحصن بها . وأكد الجنرال لاجرانج استحالة فعل شىء دون أخذ رأى منو واقترح إرسال ضابط إلى الاسكندرية لإبلاغه حقيقة الموقف بالقاهرة ، ونصح بالتريث والانتظار حتى يمكن معرفة رأى منو وقراره .

ولكن بليار رفض مواصلة القتال ، كما عارض فكرة « التقهقر المسلح » واقتحام خطوط العدو ، ولم يوافق على استشارة منو أو انتظار أية تعليمات جديدة قد تأتيه من قائد الحملة العام . وقد بنى بليار رأيه على اعتبارات عدة استطاع جاربيه Garbé أحد ضباطه أن يلخصها فى مذكرة بادر بإعدادها فى اليوم التالى للاجتماع ، جاء فيها أن كليبر عندما أراد الدفاع عن القاهرة كان عليه أن يتخذ إجراءات من شأنها إحكام خطة الدفاع ضد جماعات من فرسان (الأتراك) فحسب ، بينما بات الواجب الآن اتخاذ تدابير فعالة ضد جيش عظيم يحتل شاطئ النيل ، وله فى النيل أسطول صغير ، ولا وسائل للدفاع عن جزيرة الروضة ، ومن واجب الفرنسيين المحافظة على جبهة متسعة بقوات قليلة من الجند ، ويقتضى الدفاع عن معسكر الفرنسيين بالقاهرة حوالى نصف عدد الجنود الموجودين على أقل تقدير .

وأوجز (جاربيه) النتائج التى وصل إليها فى قوله (أولا) إنه قد اتضح بعد التأكد من عدد قوات العدو الواقفة على حصار القاهرة أن فى وسعهم أن يشنوا هجومهم على أربعة مواقع من مواقع الدفاع عن القاهرة ، إذا جلبوا إلى كل موقع منها بالتوالى قوات تساوى فى عددها تلك التى يستطيع الفرنسيون أنفسهم أن يجمعوها إذا شاءوا تركيز قوات جيشهم بأجمعها فى كل واحد من هذه المواقع لصد هجوم العدو . (ثانيا) غير أنه لما كانت وسائل الدفاع ضعيفة فقد صار من المتعذر القيام بهذه المناورة وتركيز قوات الجيش فى موقع دون سائر المواقع ، إذ يعرض هذا العمل المواقع الأخرى لخطر محقق لأنها لا تقوى بمفردها على مقاومة العدو بسبب ضعف حامياتها ، ولذلك فمن الواجب ترك جميع هذه المواقع والاكتفاء بالدفاع عن القلعة — قلعة القاهرة — ومع ذلك فإن الانسحاب إلى القلعة سوف يكون عملا شاقا لأن أحدا سوف لا يعلم إلا فى وقت متأخر جداً أى المواقع التى يبغى العدو اقتحام تحصينات القاهرة والدخول إلى المدينة منها ، فلا يكون ثمة وقت لجمع الحاميات وحشدها فى القلعة ، وفضلا عن ذلك فان العدو سوف يبادر بوضع مدفعيته على جبل المقطم ، فلا تنقضى أيام معدودة — عشرة أيام أو اثنا عشر يوما — حتى تكون هذه القلعة التى يسيطر عليها جبل المقطم قد سقطت فى قبضة العدو .

وكان من رأى (روتى) Ruty قومندان المدفعية عندما سأله بليار فى ذلك أن اقتراح التحصن بالقلعة وإخلاء المواقع الأخرى لا يمكن بحال تأييده ، إذ يكفى يومان فقط لاستهلاك ثلثى كمية الذخائر الموجودة دون أى أمل فى إمكان الحصول على غيرها ، ذلك بأن كل ما لديه من مدافع كان لايعدو (١٣٤) مدفعا ، أما عدد الطلقات المخصصة لكل مدفع من مدافع القلعة فكان (٢٦٠) طلقة ، ولكل مدفع فى القاهرة (٩٠) طلقة ، وفى الجيزة (١٢٠) طلقة ، ولكل مدفع من مدافع الميدان (٢٨٠) طلقة ، ولا يوجد بالمخازن أى احتياطى من الذخائر[١] .

تلك كانت الأسباب العسكرية التى أقنعت بليار بضرورة وقف القتال ، وأقنعت فريقا كبيرا من الحاضرين بتأييد ماذهب إليه ؛ ووافق لاجرانج على أن الموقف حقيقة لا يبعث على الطمأنينة ، ولكنه عاد فتساءل ، وماذا يكون الموقف إذا حدث بعد التوقيع على التسليم أن وصلت النجدات إلى القاهرة ؟ فأجيب على ذلك بأنه فى الاستطاعة دائما المماطلة والتسويف فى أثناء المفاوضات حتى تنقضى المدة التى يطلبها لاجرانج ، وأن المماطلة ومد أجل المفاوضة خير من المضى فى القتال .

ولما كان أكثر الحاضرين قد رفضوا فكرة التسليم دون قيد أوشرط ، وتمسكوا بأن تجرى المفاوضة على أساس عقد اتفاق للاخلاء على نفس الأسس التى قام عليها اتفاق العريش القديم[٢] ، فقد عرض بليار الاقتراح التالى لأخذ الرأى عليه ، ونصه : « الدفاع عن القاهرة أو المفاوضة مع العدو » ، فجاء قرار الأكثرية فى جانب الاتفاق مع العدو ، وترك هؤلاء للجنرال بليار القيام بأعباء المفاوضة ، وكان المعارضون أربعة فحسب ، هم لاجرانج ودىرانتو وفالنتان ودوپاس ، وشفعوا معارضتهم بالاحتجاج على هذا القرار ، ولكن دون جدوى[٣] . ووقف دوتبول بناء على رجاء من بليار نفسه يشرح للمجتمعين مرة أخرى الصعوبات العسكرية التى تعترض المضى فى القتال ، وتحتم استحالة تذليلها قبول مبدأ التسليم والدخول فى مفاوضات مع العدو من أجل إنهاء الحرب الدائرة[٤] .

ووقع اختيار بليار على المندوبين الذين عهد إليهم بمهمة المفاوضة ، وكانوا ثلاثة :

---

(١) Rigault 340 — 1

(٢) Bertrand II 406

(٣) Reybaud VIII 262 ; Ibid 406

(٤) Rigault 339 — 04

الجنرال موران ، والجنرال دونزيلو ، والقومندان تارير . واجتمع المفاوضون الفرنسيون فى اليوم التالى (٢٣ يونيه سنة ١٨٠١) بالمفاوضين الأتراك والإنجليز فى « معسكر المؤتمر» . وقد مثل الإنجليز فى هذا الاجتماع الجنرال هوب Hope بينما حضر عثمان بك عن الصدر الأعظم ، وإسحق بك عن القبطان باشا ، ووقع المجتمعون فى اليوم نفسه على هدنة يتم فى خلالها إبرام المعاهدة على أساس « إخلاء مصر » من الجنود الفرنسيين تحت قياة الجنرال بليار . واستمرت المفاوضة حتى يوم ٢٧ يونيه[1] وقد حدث فى أثناء هذه المفاوضة أن طلب الفرنسيون أن يدفع لهم الأتراك مبلغاً كبيراً من المال ، لسداد ديونهم فى القاهرة من جهة ، ولتعويضهم عن الإيرادات المستحقة لهم والتى لم يستطيعوا تحصيلها من البلاد بسبب ظروف الحرب من جهة أخرى ؛ ولكن الجنرال هوب رفض إجابة هذا الطلب ، كما قال الأتراك إن من واجبهم أن يطالبوا الفرنسيين — على العكس مما حدث — بأن يدفعوا لهم تعويضاً كبيراً عن تلك السفن التركية التى صادرها هؤلاء فى ميناء الإسكندرية عقب نقض اتفاق العريش ، عدا الأموال الكثيرة التى دفعوها للجنرال كليبر قبل نقض هذا الاتفاق[2] .

وطلب الفرنسيون أن يتم التسليم « على يد حسين باشا قبطان بواسطة الإنكليز ، وسببه — على حد قول نقولا الترکی — كان هذا المشار إليه يميل لطرف الفرنساوية ميلا عظيما وذلك قبل دخولهم وأخذهم الأقطار المصرية . وقد تهمه الوزير الأعظم أن دخولهم كان باطلاعه ، وتغمغمت الفرنساوية على الوزير لدخوله فى الجمعية وقالوا نحن لانعقد معه شروطا ولا نقبل منه خطوطا لأنه كان خان عهوده مع أمير جيوشنا الأمير كليبر ، وإذا لم يقدر على التغلب عليه أرسل قتله خفية» . وقد أمكن تذليل هذه الصعوبة بقبول المفاوضين الإنجليز والعثمانيين أن يتم التسليم « على يد حسين باشا وسر عسكر الإنكليز ، وتسطرت أسطر الشروط[3] » وكانت تتألف من إحدى وعشرين مادة وفى يوم ٢٧ يونيه وقع على شروط التسليم من الجانب الفرنسى كل من دونزيلو وموران وتارير ، ومن الجانب الإنجليزى الجنرال هوب ، ومن الجانب العثمانى عثمان بك وإسحق بك ؛ وصادق عليها فى اليوم التالى كل من الجنرال هيلى هتشنسون ، وضابط

---

(١) Anderson 324; Bricard 469 — 70

(٢) Wilson 129

(٣) نقولا الترکی ٢١٣

البحرية جيمس ستفنسون Stevenson عن أمير البحر الإنجليزى اللورد كيث Keith والصدر الأعظم الحاج يوسف ضيا والقبطان دريا حسين باشا[١] .

ونصت شروط الاتفاق على أن يخلى جنود بليار مدينة القاهرة والقلعة وحصون بولاق والجيزة ، وكل الجهات التى كان يحتلها جيش بليار وقت التسليم ، على أن يتم انسحاب الجند بسلاحهم وعتادهم ومدفعيتهم وذخائرهم إلى رشيد عن طريق البر ، بحذاء شاطىء النيل الأيسر ، حتى إذا وصلوا إلى رشيد نقلتهم سفن الحلفاء الإنجليز والعثمانيين إلى الموانى الفرنسية فى البحر الأبيض المتوسط . ونصت المادة الثانية على أن يحدث ذلك كله فى مدة أقصاها خمسون يوماً من وقت التصديق على الاتفاق . ونصت المواد التالية على تسليم قلعة سلكوسكى Sulkosky (وباب الأهرامات) فى بلدة الجيزة بمجرد التوقيع على الاتفاق ، ثم تسليم مدينة القاهرة وقلعتها وبولاق وحصونها بعد اثنى عشر يوماً ، على أن يتعهد الإنجليز والعثمانيون بتقديم كل وسائل النقل وما يحتاج إليه الجيش المنسحب من أغذية ومؤن إلى جانب إعداد السفن الحربية اللازمة لحراسة الفرنسيين فى أثناء عودتهم إلى بلادهم بطريق البحر الأبيض . ونصت المادة الحادية عشرة على أن يتمتع رجال الإدارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون ثم جميع الأفراد الملتحقين بخدمة الجيش الفرنسى بنفس المزايا التى يتمتع بها العسكريون ، وعلى أن يحمل رجال الإدارة وأعضاء لجنة العلوم والفنون كل ما لديهم من أوراق متعلقة ببحوثهم وأعمالهم إلى جانب أوراقهم الخاصة ، وغير ذلك من الأشياء التى يملكونها . ثم نصت المادة الثانية عشرة على أن لكل فرد من المصريين كل الحرية فى الذهاب مع الفرنسيين ما دام يريد اللحاق بالجيش الفرنسى ، وذلك دون أن تتعرض أسرته بعد ذهابه لأى ضرر ودون أن تصادر أملاكه . وضمنت المادة الثالثة عشرة من الاتفاق عدم إيذاء أحد من « سكان مصر » الذين كانت لهم صلات بالفرنسيين فى أثناء احتلالهم للبلاد أو مصادرة أملاكه مهما كانت عقيدته الدينية .

وهكذا حصل بليار على الشروط التى سبق أن قبلها كليبر فى اتفاق العريش ، بل إن هذه الشروط فى نظر بعض المؤرخين[٢] كانت أفضل من سابقتها لأن كليبر

---

(١) Reybaud VIII 264 — 75 ; Noradounghian II. 41 — 45 — 7 ; Walsh 70° — 76° ; Wilson 320 — 4; Galli 175 — 81; Reynier 318 — 26 ; Martin II 257 — 66

(٢) Rigault 346 (Note 1)

لم يستطع الحصول على موافقة الصدر الأعظم على إباحة ذهاب المصريين مع الجيش الفرنسى إلى أوروبا .

ومع انه كان من الواضح أن فرنسا قد خسرت نهائياً « مستعمرتها » فى مصر بسبب تسليم ٩ مسيدور (٢٨ يونيه ١٨٠١) فإن مصير هذه المستعمرة كان قد تقرر فى الحقيقة من نحو عامين مضيا عند ما حطم نلسن العمارة الفرنسية فى موقعة أبى قير البحرية ، ودلت الحوادث على أن تسليم ٩ مسيدور لم يكن سوى نتيجة حتمية لما وقع . واعتقد بليار وغيره من المعاصرين الذين اعتقدوا أنه من العبث الاستمرار على المقاومة أنه لم يكن هناك معدى عن هذا التسليم سواء أطال أمد الانتظار أم قصر ، بل إن بليار كان يعتقد أن الخير كل الخير فيما فعله ، حتى إنه وجد لزاماً عليه أن يشترط من تلقاء نفسه للجنرال منو قائد الحملة العام حق التمتع بالمزايا التى تضمنتها معاهدة القاهرة ، فاشترط فى المادة العشرين من اتفاق التسليم أن يقوم أحد الضباط الفرنسيين بإبلاغ هذا الاتفاق إلى منو بالإسكندرية ، على أن يكون للجنرال منو كامل الحرية فى قبوله فيما يتعلق بالقوات البرية والبحرية الموجودة بالإسكندرية ، حتى إذا ما قبل منو هذا الاتفاق أبلغ موافقته عليه إلى قائد القوات الإنجليزية المرابطة أمام الإسكندرية « فى مدة عشرة أيام » من تاريخ اطلاعه على المعاهدة .

وفى ٢٩ يونيه بعث بليار بالضابط تارير Tarayre إلى الاسكندرية لإخبار منو بتسليم القاهرة [١] . وفى ٣٠ يونيه بعث بليار برسالة مطولة إلى القنصل الأول يذكر فيها الحوادث الأخيرة ويبسط الأسباب التى حتمت عليه تسلم القاهرة [٢] .

ومع أن بليار حاول جهده فى رسالته إلى القنصل الأول أن يبرر هـذا التسلم بذكر الأسباب العسكرية وغيرها التى أقنعته بضرورة اتخاذ هذه الخطوة ، فقد اختلف رأى معاصريه فى قيمة « الأسباب » التى أفضت إلى تسليم القاهرة ، ومما لا شك فيه أن أولئك الذين لم يروا فى الأسباب التى تذرع بها بليار أى مبرر لتسليم القاهرة كانوا يزيدون كثيرا على أولئك الذين اقتنعوا بأهميتها ، بل إنه مما يسترعى النظر أن عديدين من الفرنسيين الذين رغبوا وقتئذ فى العودة إلى أوطانهم كانوا من بين أولئك الذين أسفوا على مغادرة البلاد ، وكانوا فى قرارة نفوسهم لا يرضون بهذا التسليم على الرغم من تأييدهم الظاهر لهذه الخطوة ، نذكر من هؤلاء الضابط بيكار Bicard

(١) Reybaud VIII 276

(٢) Reynier 327 — 37, Walsh 77° — 84°

أحد مؤيدى التسليم ، والذى كتب فى مذكراته إن الدهشة التى أثارها التسليم كانت لا تقل عن الارتياح الذي قوبل به نبأ إبرام المعاهدة ، إذ يأسف الفرنسيون على مغادرة بلاد بذلوا فى افتتاحها « مرتين » تضحيات كبيرة ، وكان بفضل جهودهم أن بدأ الرخاء يجد طريقه إليها ، ومن المنتظر أن تصبح بعد قليل أغنى المستعمرات الفرنسية . وقال بيكار : حقا لقد كان التسليم « هروبا » ولكن إخلاء البلاد ومبارحتها لم يحدث إلا بعد إبرام معاهدة « مشرفة »[١] .

وإذا كان (بيكار) ، وكان بليار والقواد الذين وافقوا على التسليم يرون فى اتفاق التسليم والإخلاء الذى أبرموه مع الانجليز والعثمانيين عملا « مشرفا » ، فقد كان هناك آخرون يرون خلاف ذلك ولا يجدون فى الأسباب التى استند إليها بليار وقواده ما يصح اتخاذه مبرراً لإلقاء السلاح وتسليم القاهرة المحصنة دون مقاومة . فقد اعتقد الجنرال (رنييه) أنه كان فى استطاعة بليار لو أنه أوتى الجرأة والشجاعة أن يدبر « خروجا مسلحاً » ، من شأنه مفاجأة العدو المرابط أمام القاهرة فى موقع من المواقع التى استهان العدو بقوة تحصيناتها ، وأغفل تشديد الرقابة عليها[٢] ؛ وأيد بونابرت هذا الرأى كذلك ، واعتقد لو أن بليار درس خطة « الخروج المسلح » بإمعان لوجد أن فى استطاعته تحطيم الحصار ، وقد أملى (الأمبراطور نابليون الأول) فيما بعد مذكراته فى أثناء منفاه فى (سنت هيلانه) فنقد بشدة جميع عمليات بليار العسكرية منذ وصول الجنرال لاجرانج إليه بقوات الرحمانية فى ١٣ مايو إلى وقت تسليم القاهرة[٣] .

واعتقد المؤرخون الانجليز الذين بحثوا مسألة تسليم القاهرة ، أن أى قائد آخر من قواد بونابرت غير بليار ما كان يفكر فى إلقاء السلاح قبل أن يحاول أولا تشتيت جموع الاتراك غير النظامية ، حتى إذا تمكن من تحطيمها سهل عليه إنزال الهزيمة الماحقة بالانجليز . ولكن « رؤية الأردية الحمراء » (الجنود الانجليز) وحدها كانت كافية لإقناع الفرنسيين بأن ساعة الخلاص قد دنت لأن الانجليز كان فى وسعهم دون غيرهم أن يهيئوا ما يلزم من سفن لنقل الفرنسيين الراغبين فى العودة من « المنفى » إلى أرض الوطن[٤] . وشاطر بونابرت نفسه هذا الرأى فقال : « عندما يعتقد جيش

---

(١) Bricard 470,473
(٢) Rigault 342
(٣) Bertrand II 434 — 40
(٤) Fortesque IV. 2. 855

ما أن فى وسعه الخلاص من مأزق شديد بالوصول إلى اتفاق يكفل له المحافظة على كل مظاهر الشرف العسكرى ، فانه سرعان ما تذهب ريحه ويذوى كل أمل فى استمراره على المقاومة[١] ، وفضلا عن ذلك فقد وجد بليار وقواده فيما فعله كليبر من قبل عند عقد اتفاق العريش مثالا ينسجون على منواله ، ولم يدر بخلد أحد منهم أن التسليم دون مقاومة تذكر كان أمراً لا يرضى به الشرف العسكرى . وبخاصة عندما استند الجميع فى تسليمهم إلى تلك الأسباب العسكرية التى ذكرها بليار عند انعقاد المجلس الحربى ودونها جاربيه Garbé ثم بسطها بليار نفسه فى خطابه إلى القنصل الأول ، وكلها كما تقدم القول ، تدور حول استحالة تحطيم الحصار أو القيام « بخروج مسلح » أو إطالة التحصن بالقاهرة .

ومع ذلك ، فقد تصدى كثيرون لإقامة الحجة على أن هذه الأسباب « العسكرية » وغيرها التى ذكرها بليار وأخذ بها الموافقون على وقف القتال لم تكن صحيحة ، ولا تستند إلى حقائق ثابتة . فقد ذكر (لاجرانج) أن أعمال التحصينات الخارجية فى الجيزة كانت قد انتهت — قبل حدوث التسليم — وتم تسليحها بعدد من المدافع القوية كما حفرت الخنادق التى أقيمت عليها المتاريس ، وحصنت المنافذ الرئيسية[٢] ، وأيد هذا القول الضباط الإنجليز فاعترفوا بأن التحصينات التى أقامها الفرنسيون كانت تبدو منيعة ، حتى أن العدو ما كان فى وسعه أن يجازف باقتحامها إذا قرر الهجوم على القاهرة إلا بعد تردد طويل[٣] ، بل إن الإنجليز عندما دخلوا القاهرة ووقفوا على حقيقة هذه التحصينات وعدد المدافع الموجودة بالقلاع والجنود المتحصنين بالقاهرة وقلعتها ، زاد اقتناعهم بأنه ما كان فى وسعهم أن يحصلوا على شروط أفضل من تلك التى حصلوا عليها[٤] .

حقيقة لم يقم بعض القواد الإنجليز — الجنرال مور خصوصاً — وزناً كبيراً لهذه التحصينات ، ولكنه كان من رأى مور نفسه أن الفرنسيين لو أرادوا لأمكنهم الدفاع عن القاهرة ، ولأرغموا الإنجليز على إطالة الحصار وكبدوهم خسائر فادحة ، ولذلك فإن قرار التسليم جاء « فى الوقت المناسب[٥] » ، وقال مور « ويبدو لى أن سلوك

(١) Bertrand II 438
(٢) Rigault 342
(٣) Walsh 202
(٤) Wilson 152
(٥) Moore II 30 — 1

بليار فى تسليم القاهرة كان من أدنأ الأعمال التى سمع بها إنسان وأشدها ضعة ، فلقد كان فى وسعه على وجه التحقيق بفضل ما كان لديه من قوات ملحوظة الجانب أن يستمر فى الدفاع (عن القاهرة) ، وأن يكبدنا خسائر فادحة ، وأن يؤخر تسليم القاهرة مدة تتراوح بين الأسبوعين والثلاثة أسابيع[١] » .

ومع أن بليار كان يخشى مغبة هجوم الجيوش المحاصرة لو تأخر التسليم ، فقد كان من رأى بونابرت أن هذا الخوف لا داعى له ، لأنه لم يكن من المقطوع به أن العدو سوف يبدأ متعمدا هجومه على المواقع الضعيفة التى يجهلها ، وعلى ذلك فقد كان فى وسع بليار أن يطيل أمد المقاومة مدة ستة أسابيع ، لا يلبث أن يأتى الفيضان بعدها فتعلو المياه فى النهر ، وتفيض على جانبيه وتغرق الأراضى المجاورة ، وترغم الإنجليز والأتراك على رفع الحصار ووقف عملياتهم العسكرية مدة شهرين على الأقل[٢] ، وقد اعترف الإنجليز بأن تسليم بليار كان « عملا سعيدا » إذ منعهم ذلك من التعرض لأخطار لا معدى عن إحداقها بهم إذا طال الحصار . « ذلك بأنه كان يتحتم عليهم الاستيلاء على القاهرة حالا دون إمهال ، نظرا لقرب انتهاء الوقت الصالح لاستمرار العمليات العسكرية ، إذ أنه كان يستحيل على (الإنجليز) إذا طال أمد انتظارهم شهرا واحدا فحسب ، أن يستطيعوا تضييق الخناق على الإسكندرية ، لأن مياه النيل سوف تفيض عندئذ على جوانبه ، وتجعل من المتعذر على الإنجليز أن يستأنفوا السير صوب الإسكندرية ، ولذلك فقد كان من حسن حظ الإنجليز أن يقترح الفرنسيون التسليم على الرغم من أنه كان فى وسعهم المقاومة ، ولا ينقصهم السلاح أو تعوزهم الذخيرة »[٣] .

وعلاوة على ذلك فقد أعلن دوبار Dupart قومسيير الحرب عند انعقاد المجلس الحربى فى ٢٢ يونيه ، أن قلعة القاهرة كانت ملأى بالذخائر والمؤن التى تكفى الجيش مدة شهرين . ومع أن بليار أكد فى خطابه إلى القنصل الأول أنه لم يكن لديه من الذخائر سوى ما يكفى مائة وخمسين طلقا لكل مدفع ، فقد ذكر روتى فى خطاب بعث به إلى سونجى Songis بالإسكندرية أن لديه ما يكفى ضعف عدد هذه الطلقات لكل مدفع من مدافع الميدان . ويتفق ما ذكره روتى فى هذا الشأن مع ما أدلى به من معلومات فى إجتماع المجلس الحربى ؛ حقيقة كان عدد الطلقات التى يمكن

---

(١) Ibid 35

(٢) Bertrand II 437

(٣) Anderson 340

تخصيصها للمدافع الأخرى قليلا ولكن كان من الواضح أن فى استطاعة المواطن شامبى Champy الذى أشرف على إعداد الذخائر أن يصنع قدرا كبيرا من القذائف كل يوم ، عدا ما يمكن إنتاجه فى مصانع ومسابك القاهرة والجيزة . ويؤكد (روتى) أن جميع التحصينات لا تنقصها الأسلحة كما كانت المواقع الهامة مسلحة تسليحا جيدا[١].

وكان من الأسباب التى تذرع بها بليار لقبول التسليم العاجل خوفه أولا من أن يفتك الطاعون بجيشه ، وثانيا أن يقوم القاهريون بالثورة ضده وأن ينضموا إلى العدو كما أنه كان يخشى من « وحشية » الأتراك وفتكهم بالفرنسيين إذا قدر لهم الانتصار ودخلوا القاهرة عنوة[٢]، غير أن وباء الطاعون كانت قد خفت وطأته رويداً رويدا ، حتى أنه لم يبق فى المعازل يوم ١٤ يونيه سوى مائة وثمان وعشرين مريضا فحسب ، كانوا جميعا فى دور النقه[٣] ؛ أما القاهريون فقد تقدم كيف أنهم حافظوا على الهدوء والسكينة فى أثناء اشتداد الحصار على مدينتهم ، حتى أن جيرار ، الذى خلف فوريه فى القيام بأعباء وكالة الديوان ، مالبث أن كتب إلى منو فى ١٧ يونيه : « إن القاهريين ينظرون لاقتراب العثمانيين منهم فى غير اهتمام ودون مبالاة » . ونشرت جريدة الكوريه Courrier de l'Egypte فى عددها رقم ١١٦ « إن هدوء سكان القاهرة مستمر على الدوام ، ويستبين من دلائل عدة أنه من المتعذر أن يطرأ تغيير ما على هذه الحالة » . وكان من رأى جيرار أن سبب هذه السكينة تلك المتاعب التى تعرض لها القاهريون فى أثناء وجود العثمانيين بالقاهرة فى العام السابق ، مما جعل الأتراك يفقدون شيئاً كثيرا من سمعتهم الطيبة . زد على ذلك أن القاهريين إلى جانب عدم اهتمامهم بالعثمانيين وبالصدر الأعظم ، ثم حذرهم من الإنجليز الذين لا يعرفونهم ، كانوا — على حد قول جيرار — يفضلون كثيرا على هؤلاء الكفار — الإنجليز — الذين يجهلونهم ، أولئك الفرنسيين الذين عاشوا بينهم زمنا استطاعوا فى أثنائه أن يبلوا خيرهم وشرهم[٤].

على أن ثمة حقيقة واحدة تعذر على الناقمين على بليار أن يدحضوها ، هى أن منو

(١) Rigault 343

(٢) Charles-Roux II 202

(٣) Desgenettes I. 224

(٤) Rigault 344

منذ مغادرته القاهرة لم يرسل إلى قائده أية أوامر أو تعليمات « إيجابية » ، واكتفى بأن يوصيه بضرورة « إزعاج الإنجليز والعثمانيين وإنهاك قواهم » . بل إنه كان من الظاهر — فضلا عن ذلك — أن القنصل الأول نفسه قد ترك مصر وشأنها نهائياً . فقد كتب بليار فى خطابه إلى بونابرت فى ٣٠ يونيه « لقد انقضى حوالى الثمانية شهور وأنت تعلم بنبأ مجىء حملة أبركرمبى ، ومع ذلك فقد أخفقت جميع محاولاتك لإرسال النجدات إلينا ، وقد بات لنا أربعة شهور ونحن ندافع عن أرض مصر شبرا شبرا ولم يصلنا شىء من النجدات بعد ، فماذا عسانا نرجو . وفى اعتقادى أن الإنجليز ما كانوا يستطيعون التقدم والوقوف أمام أبواب القاهرة لو أنهم خشوا من ظهور أسطول فرنسى كبير فى البحر الأبيض(١) » .

ويبدو أن بونابرت نفسه قد أدرك هذه الحقيقة ، ولذلك فإن (الإمبراطور المنفى) بعد أن أنحى باللائمة على بليار لتسليمه ، عاد يمتدح شجاعة بليار ، ويحمل منو وزر هذا التسليم كله ، فقال « لقد ترك قائد الحملة العام دون أن يصدر إليه أية أوامر ، وكان من أثر ذلك التذمر العام واليأس الذى سببه إبطاء منو وتردده وعدم كفايته العسكرية ، أن زال كل أمل ورجاء لدى الجند كما زالت كل ثقة لهم بأنفسهم . إن القواد الذين وقعوا على التسليم كانوا من الضباط الممتازين الذين عارضوا اتفاق العريش معارضة شديدة . وهل كان يليق بنا فى وقت زينت أكاليل الغار هامة الجمهورية نتيجة لما أضفاه عليها من مجد وفخار عقد صلح لونفيل ، والصلح مع روسيا والباب العالى وانجلترة ، أن نحجب هذه الأضواء اللامعة ، ونسبب الألم والحزن للأمة الفرنسية ، بإجراء تحقيقات تنال من شرف أولئك الشجعان الذين لاشك فى أنهم كانوا يستحقون تقدير الوطن العظيم ، لو أن الظروف التى مروا بها كانت غير الظروف التى أحاطت بهم . أولم يكن من الأفضل لنا أن نغمض أعيننا وأن نعزو كل ماحدث إلى حكم القضاء والقدر ، وإلى أن الجيش كان ينقصه تماما وجود قائد أو رئيس يهيمن على مصائره ، إذ لامشاحة فى أنه مهما بذل الإنسان من جهد ، ومهما كان نوع ماتبديه أية حكومة من نشاط ، ومهما استصدرت هذه الحكومة من تشريعات نافذة ، فإن ذلك كله لن يجعل من جيش يقوم على رأسه « وعل » من الوعول جيشاً يتألف من الأسود الشجعان(٢) » .

---

(١) Reynier 327 — 37; Walsh 77° — 84° ; Idid 345

(٢) Bertrand II 440 — 1

إخلاء القاهرة :

وما إن تم التوقيع على شروط التسليم حتى بدأ الفرنسيون يأخذون أهبتهم لإخلاء القاهرة ، فأطلقوا فى اليوم التالى (٢٩ يونيه) سراح « المحبوسين بالقلعة من أسرى العثمانية ، وأعطوا كل شخص مقطع قماش وخمسة عشر قرشاً ، وأرسلوهم إلى عرضى الوزير . وكان بلغ بهم الجهد من الخدمة والفعالة وشيل التراب والأحجار وضيق الحبس والجوع ومات الكثير منهم ، وكذلك أفرجوا عن جملة من العربان والفلاحين[١] » وذهب عدد كبير من الضباط الفرنسيين إلى المعسكر الإنجليزى لتسليم خيولهم ، وبعض العتاد الذين وجدوا من المتعذر عليهم أخذه معهم ، كما أحضروا معهم عدداً من النساء الجورجيات اللاتى رضين بمعاشرتهم ، وخشى الفرنسيون أن يتعرضن لانتقام الأهلين ؛ واحتفظ الإنجليز بالخيول والعتاد . أما النساء فقد باعوهن بيع الرقيق فى « السوق لحلفائهم الأتراك[٢] . وحدث فى مساء اليوم نفسه « أن سمع صوت مدفع بعد الغروب عند قلعة جامع الظاهر خارج الحسينية ، ثم سمع منها أذان العشاء والفجر فلما أضاء النهار نظر الناس فإذا البيرق العثمانى بأعلاها ، والمسلمون على أسوارها فعلموا بتسليمها . وكان ذلك المدفع إشارة إلى ذلك ، ففرح الناس وتحققوا أمر المسالمة ، وأشيع الإفراج عن الرهائن من المشايخ وغيرهم وباقى المحبوسين فى الصباح . وأكثر الفرنساوية من النقل والبيع فى أمتعتهم وخيولهم ونحاسهم وجواريهم وعبيدهم وقضاء أشغالهم » . ثم «أنزلوا عدة مدافع من القلعة ، وكذلك من قلعة باب البرقية وأمتعة وفروش وبارود» .

وفى يوم ٣٠ يونية « عمل الديوان وحضر الوكيل وأعلن بوقوع الصلح والمسالمة ووعد أن فى الجلسة الآتية يأتى لهم فرمان الصلح وما اشتمل عليه من الشروط ويسمعونه جهارا »[٣] ؛ وظل الفرنسيون ينقلون أمتعتهم من « القلعة الكبيرة وباقى القلاع » طيلة ذلك اليوم ، كما أفرجوا فى الأيام التالية عن « بقية المسجونين والمشايخ » فكان من بين هؤلاء محمد جلبى أبو دفية وإسماعيل القلق ومحمد شيخ الحارة بباب اللوق والبرنوسى نسيب أبى دفية والشيخ خليل المنير ثم الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير والشيخ محمد المهدى وحسن أغا المحتسب ورضوان كاشف الشعراوى وغيرهم ، وقد نزل هؤلاء الأخيرون « إلى بيت قائمقام وقابلوه وشكروه فقال للمشايخ

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٩١

(٢) Anderson 337

(٣) الجبرتى ٣ : ١٩١ — ١٩٢

إن شئتم إذهبوا فسلموا على الوزير فإنى كلمته ووصيته عليكم » . وفى ٢ يوليو « حضر الوزير ومن معه من العساكر إلى ناحية شبرا ، وكذلك الإنكليز وصحبتهم قبطان باشا إلى الجهة الغربية والعساكر تجاههم ، ونصبوا الجسر فيما بينهم على البحر ، وهو من مراكب مرصوصة مثل جسر الجيزة بل يزيد عنه فى الإتقان » . ثم ألصق الفرنسيون فى اليوم نفسه « أوراقاً بالطرق مكتوبة بالعربى والفرنساوى وفيها شرطان من شروط الصلح التى تتعلق بالعامة » ، لتأمين الأهالى على « أنفسهم وأديانهم ومتاعهم » ، وبخاصة أولئك الذين « كانوا بخدمة الجمهور الفرنساوى » ، وإطلاق الحرية لمن يريد من أهل البلاد اللحاق بالفرنسيين والذهاب معهم . وفى ٣ يوليو « عملوا الديوان وحضر المشايخ والوكيل » وقرأ الوكيل عليهم بقية شروط الصلح « والترجمان يفسرها » [1] .

وحدث فى أثناء انشغال الفرنسيين بإخلاء القلعة والمواقع الأخرى أن وصل فى ليل ٤ — ٥ يوليو جنود من الهجانة يحملون إلى القاهرة أمر منو الذى يطلب فيه من جيش بليار الصمود حتى إحراز النصر ، أو الاستبسال فى الدفاع حتى يفنى الجيش عن آخره ؛ ومع أن أحداً لم يأبه لهذا الأمر الأخير ، ورفض الجند أن يضحوا بأنفسهم إرضاء لنزوات رجل لا يمكن أن يكون مستمتعا بحواسه الكاملة — على حد قولهم — عند ما أصدر هذا الأمر ، الذى يدل على أن بصاحبه خبلا ، فقد أصر دوباس على ضرورة إطاعة أوامر قائد الحملة العام ، واستمسك بالدفاع عن قلعة القاهرة إلى النهاية وأغلق أبواب القلعة وأخذ يتحصن بداخلها ، واضطر بليار إلى تهديده بالعزل ، إذا هو أصر على تعطيل الإخلاء [2] ، فأذعن دوباس واستؤنف إخلاء القلعة .

وفى يوم ٦ يوليو « أرسلوا أوراقا ورسلا للاجتماع بالديوان، وهو آخر الدواوين . فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الوجاقلية واستوف الخازندار والوكيل والترجمان ، فلما استقربهم الجلوس أخرج الوكيل كتاباً مختوما ، وأخبر أن ذلك الكتاب من سارى عسكر منو بعث به إلى مشايخ الديوان ، ثم ناوله لرئيس الديوان ففضه وناوله للترجمان فقرأه والحاضرون يسمعون » وقد جاء فى هذا الخطاب : إن بونابرت سوف يبعث إلى المشايخ « جواب جميع (مكاتيبهم) إليه » ، ووعد منو بزيارة القاهرة قريبا . وطفق يؤكد « أن جمهور المنصور غلب فى أقاليم الروم جميع أعدائه ، وبعون الله

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٩٢ — ١٩٣

Malus 218; Galland II 79 — 80 (٢)

هادى كل شىء ، سيغلب كذلك العدا فى مصر » . ثم أوصى أهل الديوان خيرا بزوجته « الكريمة السيدة زبيدة (وولده) العزيز سليمان مراد » . ويبدو على حد قول الشيخ الجبرتى أن منو كتب هذا الخطاب قبل وصول خبر الصلح إلى الإسكندرية . ثم أخذ الوكيل يقول « إن الجنرال منو انسر بسلوككم حتى الآن وراحة البلد حظ الفقراء ، وإن الحكام القادمين لابد وأن يسلكوا معكم هذا الموضوع . ولا بد من وصول مكاتيب بونابارته بعد أربعة أيام أو خمسة ، وأنه لا ينسى أحبابه كما لا ينسى أعداءه ؛ ولو لم يكن له من الحسن إلا جعلكم وسايط لإغاثة الناس لكان كافيا وإنكم تعلمون أنه كان نظر إلى أحوال المارستان ومصالح المرضى وكان قصده أن يبنى جامعا ولكن عاقه توجهه إلى الشام » .

ويقول الشيخ الجبرتى إن جيرار واستيف (أو استوف) مالبثا أن صارا يكثران من ذكر « أمثال هذه الخرافات والتمويهات » ، وتحدث « استوف الخازندار ، ومدبر الحدود العام فى مجلس الديوان العالى » عن نوايا بونابرت ومنو الطيبة ، وما بذلاه من ضروب الإصلاح ، وما فعلاه من أجل إزالة أسباب الظلم والجور وإقامة الحكومة المصلحة العادلة ؛ وذكر ما كان ينتويه منو على وجه الخصوص من تسهيل سبل الحج الشريف « فى هذه السنة » ، وزيارة « طنطا لأجل حفظ مقام السيد أحمد البدوى » واختتم (استوف) خطابه الطويل بقوله : « ويكفينا الآن أن نحقق لكم من عند حضرة القنصل الأول فى الجمهور الفرنساوى بونابرته ، ومن عند حضرة سر عسكر منو ، المحبة والشفقة الصادقة التى واقعة من الفرنساوية إلى الرعايا المصرية ، وهذه المحبة والعشم لم ينقطعا أبدا بسبب سفر جانب من الجيش ، وهلبت أن يصادف يوم أننا نرجع إلى عندكم لأجل تمام الخير الذى يصدر من حكم الفرنساوى والذى ما أمكننا تتميمه فلا تتوهموا يامشايخ وياعلماء أن فراقنا لم يقع إلا عن مدة ، وذلك محقق عندى ، ولابد أن دولتنا يربطون ثانيا فى مدة قريبة المحبة القديمة التى كانت بينهم وبينكم ، وهلبت أن دولة العثمانية لما تسير على الجرف الحالى الذى عمل لهم الإنكليز يرون أن الفرنساوية فى طلب الديار المصرية ليس لهم إلا ربط زيادة محبة صحبتهم لأجل كسر نفس وطيش الإنكليز الذين مرادهم نهب جميع البحور ومتاجر الدنيا » ، فكان جواب الحاضرين « إن الأمر لله والملك له وهو الذى يمكن منه من شاء ، وانفض الديوان »[1] .

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٩٤ — ١٩٦

وكانت خطبة استيف الطويلة هذه بمثابة « خطبة الوداع » ، ومع أنه كان واضحا من تعليق الشيخ الجبرتى فى أثناء نقل ترجمة هذه الخطبة أن أحدا لم يصدق كل هذه « الخرافات والتمويهات » التى ذكرها استيف عن محبة الفرنسيين للمصريين ، وسهرهم على منفعتهم وجلب الخيرلهم ، فقد استطاع استيف أن يذكر فى كتاب له إلى الجنرال منو فى ٢٧ يوليو أن أكثر كبار القاهرة الذين حضروا لتوديعه كانت « تجرى الدموع فى مآقيهم » ، ويبدو على وجوههم القلق الذى سببه رحيل الفرنسيين من مدينتهم [١]

وفى صبيحة اليوم نفسه كان الفرنسيون قد نبشوا « قبر كليبر بالقرب من القصر العينى ، وأخرجوا الصندوق الرصاص الموضوع فيه رمته ليأخذوه معهم إلى بلادهم » ، ثم نقلوا الجثة إلى الجيزة ، وشيعها الجند فى احتفال مهيب ، وأطلق الإنجليز والعثمانيون — إلى جانب الفرنسيين — مدافعهم إحتراما لها ، وأعدوا لنقلها فى النيل (جرما) مجللا بالسودان . وفى يوم ١٤ يوليو كان قد تم استعداد الجند للرحيل ، فأعد الانجليز والعثمانيون ثلثمائة مركب لنقلهم فى النيل صوب رشيد . [٢] ونقل الفرنسيون معهم كذلك « هيكل » سليمان الحلبى قاتل كليبر[٣] . وما إن وصل الجيش المنسحب إلى مسافة فرسخ واحد من رشيد ، حتى غادر الجند السفن للسير بطريق البر إلى أبى قير حتى يبحروا منها إلى بلادهم . وفى ٩ أغسطس اعتلى الجنرال بليارمع أركان حربه السفينة الإنجليزية (دوق يورك) ، وكان قد بدأ انتقال الجند والمرضى والمدنيين منذ ٢ أغسطس على أربعة سفن انجليزية . وفى اليوم العاشر من شهر أغسطس كان قد تم انتقالهم جميعا على ظهر السفن ، وبلغ عدد الجميع (١٣٫٦٠٠) منهم تسعة آلاف جندى ، وكان الباقون من المرضى والمدنيين ، ومن هذا العدد جميعه حوالى الخمسمائة من اليونانيين والأقباط ، الذين قرروا الخروج مع الفرنسيين والذهاب إلى فرنسا[٤] .

وبلغوا جميعاً طولون — بعد رحلة طويلة مروا فى أثنائها بقبرص ورودس وكريت ومالطة وصقلية وسردينيا — فى ١٩ أكتوبر ١٨٠١ ، ودخلوا فرضة مرسيليا فى ٢٣ أكتوبر [٥] ، ونقلت رفات كليبر إلى (فورديف Fort d'If) [٦] وكان ممن

---

(١) Rigault 348

(٢) Reybaud VIII 277

(٣) Wilson 143

(٤) Reybaud VIII 280; Martin II 267; Anderson 356,427

(٥) Bricard 477 — 83; Galland II 89 — 90

(٦) Bricard 483

خرجوا مع الفرنسيين المعلم يعقوب القبطى [1] ؛ ذلك أن المعلم يعقوب لم يشأ الاستفادة من « الأمان » الذى أرسله ابراهيم بك إلى أكابر القبط عند دخول العثمانيين والبكوات المماليك القاهرة ، بل « خرج بمتاعه وعازقه وعدى إلى الروضة ، وكذلك جمع إليه عسكر القبط ، وهرب الكثير منهم واختفى ، واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى قائمقام (بليار) ، وبكوا وولولوا وترجوه فى إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإنهم فقراء وأصحاب صنائع ما بين نجار وبناء وصائغ وغير ذلك ، فوعدهم أنه يرسل إلى يعقوب أنه لايقهر منهم من لايريد الذهاب والسفر معه» [2] .

ويقدر الشيخ الجبرتى مدة « تحكم » الفرنسيين « بالديار المصرية » وبقائهم فى القاهرة من يوم انتصارهم فى معركة انبابه أو الأهرام فى ١٩ صفر ١٢١٣ إلى يوم « انتقالهم ونزولهم من القلاع وخلو المدينة منهم » ليلة ٢١ صفر ١٢١٦ بثلاث سنوات وواحد وعشرين يوما [3] .

منو فى الاسكندرية :

قضى سقوط القاهرة على كل أمل فى انقاذ الاسكندرية ، إذ أصبح فى استطاعة الانجليز والعثمانيين بعد تسليم بليار أن يبعثوا بجيوشهم إلى الاسكندرية لتعزيز قوات الجنرال كوت الذى تركه هتشنسون على حصارها عند ذهابه إلى القاهرة . وقد ظل كوت مدة طويلة فى حاجة لنجدة سريعة ، لأن ذهاب هتشنسون بقسم من الجيش إلى القاهرة أنقص القوات المرابطة أمام الاسكندرية حتى صار عددها لايزيد على سبعة آلاف جندى كان منهم حوالى الألف يشكون من مختلف الأمراض ، وينتشر الرمد على وجه الخصوص بينهم ، كما كان ينقص جيش الجنرال كوت وقتئذ المؤن والأغذية ويهدد الطاعون بالفتك به [4] ؛ وكان من المحتمل لدرجة بعيدة أن يكون النصر فى جانب منو ، لو أنه انتهز الفرصة للاستفادة من هذه الصعوبات التى أحاطت بالعدو فالتحم مع الإنجليز فى معركة حاسمة ، ولكنه ما إن سقطت القاهرة حتى كان قد ضاع كل أمل فى إمكان تحطيم الحصار وتخليص الاسكندرية [5] ، بل اعتقد الإنجليز أن الإسكندرية

---

(١) Rigault 348

(٢) الجبرتى ٣ : ١٩٦

(٣) الجبرتى ٣ : ١٩٧

(٤) Reybaud VIII 331 — 2

(٥) Rigault 351

لن تستطيع المقاومة طويلا بعد تسليم القاهرة [١] ، ذلك أن فشل بليار فى القاهرة سوف يزيد من ضعف روح حامية الاسكندرية المعنوية [٢] ، ولأن منو بفضل تهاونه واعتماده على اتخاذ خطة الدفاع فحسب ، قد جعل زمام الموقف يفلت من يده كما مكن أعداءه من جلب النجدات اللازمة لتضييق الحصار ، والقيام بالعمليات العسكرية الناجحة ضد الاسكندرية .

وكان منو ما يزال قوى الأمل فى استبقاء المستعمرة الناشئة على الرغم من الهزائم التى حلت بالفرنسيين ، وانتشار جيوش الإنجليز والعثمانيين فى أرض الدلتا ، ثم زحف هؤلاء صوب القاهرة — ولم تكن أنباء سقوط العاصمة قد بلغت منو بعد — وعظمت ثقة منو فى أن القنصل الأول لن يتوانى عن إرسال النجدات السريعة لإنقاذ المستعمرة وقرر التمسك بالاسكندرية حتى يستقبل بها هذه النجدات ، وحتى يتسنى لجيش الشرق بعد تعزيز قواته أن يستأنف منها العمليات العسكرية الكبيرة لطرد العدو من البلاد وإعادة افتتاحها . وكان على ضوء هذه الاعتبارات إذن أن التزم منو بعد معركة نيكوبوليس خطة الدفاع « السلبى » فحسب ، وكانت هذه تقوم فى نظره على تقوية تحصينات الاسكندرية والاعتصام بداخلها وتجنب كل التحام مع العدو ، وإقامة سياج من الرقابة الشديدة لمنع كل صلة بين جنده وبين جند العدو فى المخافر الأمامية ، حرصا منه على عدم تسرب الدعوة إلى التسليم والهزيمة بين صفوف جنده ، أو تشجيع أولئك الذين يئسوا من المقاومة على الفرار من الجيش ، وتسليم أنفسهم أسرى للعدو فى نظير أن يضمن لهم الإنجليز العودة إلى أوطانهم [٣] .

وعلى ذلك فقد استأثر تحصين الإسكندرية بكل اهتمام منو فأصبح شغله الشاغل بعد معركة كانوب ، وكان أول ما عنى به تعزيز مواقع الفرنسيين على مرتفعات نيكوبوليس ذاتها ، وإنشاء خط جديد على شاطىء البحر ، لإحاطة مقر القيادة العامة ومعسكر منو نفسه بسلسلة من التحصينات المنيعة . ولما كان ضروريا إقامة حصنين لإحكام الدفاع عن مداخل المدينة ، أحدهما على مرتفعات كليوبطرة ، والآخر عند (عامود بومبى) ، وبخاصة منذ أن وصلت المياه بعد إغراق « منخفض » مربوط إلى سفح الهضبة التى يقوم عليها عامود بومبى ، فقد استطاع القواد سانسون Sanson

---

(١) Wilson 130

(٢) Charles-Roux II 203

(٣) Reybaud VIII 342

وبرتران Bertrand وسونجى Songis أن ينجزوا تشييد هذين الحصنين ، بعد أن اقتنع منو بضرورتهما لمنع العدو من الاستيلاء على مراكز يستطيع منها — لو أنه استولى على مرتفعات كليوبطرة وعامود بومبى — أن يسيطر على الإسكندرية والميناء الجديدة ، ويقطع كل اتصال بين مراكز الفرنسيين الأخرى . ثم أنشأ الفرنسيون إلى جانب ذلك — وتحت وابل من رصاص العدو — سوراً جديداً يبدأ من القلعة المثلثة إلى مسلة كليوبطرة ، كما حفروا خندقا كبيراً حول الميناء الجديدة لمنع نزول العدو بها [١] . واعتقد منو — كما كتب إلى القنصل الأول — أن إنجاز هذه التحصينات المنيعة جعل العدو لا يجرؤ على فعل شىء ، ولا يحاول الهجوم على الإسكندرية لأنه كان من المتعذر عليه اقتحامها [٢] .

على أن الاعتماد على مناعة تحصينات الإسكندرية ، والتمسك بخطة الدفاع وإطالة أمد المقاومة وإضاعة الوقت فى انتظار وصول النجدات من فرنسا ، كان عملا بعيداً عن الحكمة سرعان ما أسفر عن عواقب وخيمة ، وكان من أهم الأسباب التى جعلت سقوط الإسكندرية أمراً لا مفر منه ولا محيد عنه فى النهاية . حقيقة كانت التحصينات التى أقيمت فى الجزء الشرقى من المدينة منيعة الجانب ، واعترف العدو نفسه بمتانة الحصون (أو المتاريس) التى أقيمت عند كليوبطرة وبومبى ، كما شهد بقوة المدفعية التى وضعها الفرنسيون عند (الفنار) ، ولكن بقية التحصينات ، وفى الجزء الغربى من المدينة خصوصاً ، لم تكن ذات قيمة كبيرة ؛ ولم يكن من المتوقع أن تستطيع الإسكندرية الصمود أمام هجوم العدو مدة تزيد على عشرة أيام أو اثنى عشر يوماً [٣] ونقد نابليون نفسه فيما بعد هذه التحصينات ، فقال عنها : إنها كانت ممتدة فى خط طويل يصعب تركيز الجهود فى الدفاع عنه ، كما أن منو قصر كل اهتمامه فى الجزء الغربى من المدينة على تحصين مرابط فحسب ، ثم جمع قواته فى الناحية الشرقية من المدينة بصورة تسلبها القدرة على القيام بأية حركة [٤] .

وفضلا عن ذلك فقد سيطر انتظار النجدات من فرنسا على ذهن منو سيطرة كبيرة حتى إنه بدلا من الإشراف على أعمال التحصينات أخذ ينفق وقته الثمين سدى ، تارة بالجولة على الشاطىء يرقب وصول النجدات من أرض الوطن [٥] وتارة أخرى

---

(١) Martin II 271 — 2; Ibid 329 — 30

(٢) Rousseau 410

(٣) Walsh 261 — 5

(٤) Bertrand II 445 — 7

(٥) Martin II 271

يتسقط الأخبار المطمئنة عن قرب وصول هذه النجدات من بعض الأسرى الذين قد يقعون صدفة فى قبضة رجاله ، فينقل فى خطابه إلى القنصل الأول فى ٢٧ مايو خبر وقوع مركبين للعدو فى أسره ، إحداهما إنجليزية والأخرى تركية ، يقول ملاحوها: « إن بالبحر الأبيض جيشاً بحرياً فرنسياً وأسبانياً » ثم يسأل القنصل الأول : « ومتى يصل هذا الجيش » إلى الإسكندرية . لقد حصن الإسكندرية تحصيناً منيعاً ، ولا جدال فى أنه وجنده لا يحجمون عن التضحية بأنفسهم والهلاك جميعاً ، ما دام فى ذلك خلاص الإسكندرية ، « ولكن أين هى النجدات التى كلف غانتوم أو غيره بإحضارها ومتى تحضر »(١) وكان بسبب انتظار وصول هذه النجدات ، التى لا يتحقق بدونها — فى نظر منو — تخليص الإسكندرية ، أن انصرف قائد الحملة العام عن التفكير فى اتخاذ خطوات حاسمة لتحطيم قوات العدو الواقفة على حصار الإسكندرية .

ومما لاشك فيه أن العدو فى الشهور القليلة التى تلت موقعة كانوب لم يكن فى مركز يمكنه من الصمود طويلا ، لو أن منو استبدل مناجزة العدو بخطة الدفاع التى تمسك بها . فقد نقصت قوات الإنجليز كثيراً ، منذ أن بدأ هتشنسون يزحف مع قسم هام من الجيش صوب القاهرة ؛ وعلاوة على ذلك فقد أصدر هتشنسون أمره بعد وقت قصير إلى الجنرال كوت ، أن يبعث إليه بعدد من المشاة والفرسان والمدفعية ، فنقصت قوات كوت أمام الإسكندرية إلى حوالى خمسة آلاف ، كان من بينهم حوالى ألف وخمسمائة جندى مصابون بالرمد ومختلف العلل ، أى أن عدد الجند الصالحين للقتال كان حوالى ثلاثة آلاف جندى فحسب(٢) . وهذا بينما كان لدى منو بالإسكندرية ستة آلاف مقاتل فى وسعهم القيام بهجوم ناجح ضد الإنجليز ورفع الحصار عن الإسكندرية (٣) ، ولكن منو أضاع الفرصة . وكان من عواقب الإصرار على التزام خطة إطالة أمد المقاومة أن بدأ الموقف يسوء فى الإسكندرية خلال الشهور التالية ، حتى انتهى الأمر بأن وجد منو نفسه يضطر إلى التسليم دون إبداء أية مقاومة جدية .

وكان من عوامل الضعف « الداخلية » التى حرمت منو ، إلى جانب تمسكه بأهداب الأمل فى إمكان وصول النجدات التى اعتمد عليها فى تخليص الإسكندرية ، عن التفكير فى مناجزة العدو ، ذلك الانقسام الذى بدأ فى القاهرة بينه وبين زمرة

---

(١) Rousseau 407 — 8

(٢) Walsh 188 — 9

(٣) Bertrand II 445 — 7

من كبار قواده ، والذى ما لبث أن ظهرت خطورة آثاره السيئة خلال حصار الإسكندرية فقد رفض منو — على نحو ما سبق بيانه — أن يستمع لنصح رينييه قبل معارك نيكوبوليس وكانوب وبعدها ، وأصر على إرسال لاجرانج إلى الرحمانية ، وحرم رينييه وجماعته من كل عمل مثمر ؛ ثم عهد بالقيادة إلى طائفة من أنصاره الذين رفعهم إلى مراتب جنرالات كفريان ورامبون ، كما رقى غيرهم دون نظر إلى كفايتهم العسكرية ، متحدياً فى ذلك أعداءه القدماء ، فزادت بسبب ذلك كله شقة الانقسام اتساعا بين منو وبين رينييه وداماس [١] .

ولما كان رينييه وداماس قد وجدا أنهما صارا متعطلين ولا عمل لهما ، فقد حصرا كل اهتمامهما فى مناقشة الحوادث وتوجيه النقد اللاذع لقائد الحملة العام ولقواده الجدد ، واتهما فريان ورامبون بالخنوع لمنو ، وقال داماس عن البولندى زايونشك الذى رفعه منو إلى رتبة جنرال : إن السبب فى ترقيته لم يكن سوى قدحه فى كليبر وإظهار إعجابه بمنو . وتناول رينييه وداماس بالنقد على وجه الخصوص خطة الدفاع التى تمسك بها منو وأنصاره ، إذ كان من مقتضياتها إلزام الجيش بالوقوف سا كنا ، وإعطاء الفرصة للعدو حتى يكمل استعداداته لاقتحام تحصينات الإسكندرية ، بعد أن تكون قد جاءته الإمدادات الكافية ، وبعد أن يكون الوباء قد انتشر بين جنود الحاميات ، وتكون المجاعة قد فتكت بالجند والأهلين على السواء ، وبلغ الضعف بالجيش الفرنسى حداً يجعل من المتعذر عليه المقاومة . ووجدت هذه الانتقادات آذانا مصغية بين الجند والضباط . وبدأ الجيش المحاصر بالإسكندرية يضيق ذرعا بتلك التحصينات التى أكثر منو من إقامتها ، كما بدأ ينفد صبره من انتظار تلك النجدات التى استمر منو يمنى النفس بقرب وصولها من فرنسا [٢] وكان من أثر ذلك أن بدأت تسوء حالة القواد النفسية ، وصارت الأعصاب متعبة ، ولم ينج من ذلك حتى أولئك القواد الذين أظهروا إعجابهم بمنو وخضعوا لنفوذه ، فصار فريان يشكو داستان إلى منو ، وفقد زايونشك كل احترام بين زملائه ، بل إن التذمر من خطة منو لم يلبث أن انتشر بين هؤلاء الأنصار أنفسهم ، حتى صار لا يمنع فريان ورامبون وسونجى وسائر القواد عن المعارضة العلنية سوى حرصهم على استتباب النظام فى الجيش ، واستسلامهم لما قد يأتى به القدر [٣] .

---

(١) Rigault 317 — 8

(٢) Ibid 319 — 20

(٣) Ibid 366

ولم يقتصر رينييه وداماس على إذاعة روح الاستياء من أعمال منو بين الضباط والقواد بالاسكندرية ، بل وجدا متسعاً من الوقت بسبب تعطلهما للكتابة إلى زملائهم وأصدقائهم — إلى بليار فى القاهرة وإلى الجنرال مورو Moreau فى فرنسا — ثم إلى القنصل الأول نفسه ، يحصيان أخطاء منو ، وينددان بأعماله ، ويرسمان صورة « لعهد الإرهاب » الذى أقامه منو فى الاسكندرية ، ويبسطان مبلغ اليأس الذى استبد بالنفوس نتيجة لذلك التصرف السيء ، الذى كان يهدد فى نظرهم بضياع مصر وفقد المستعمرة نهائيا . فكتب رينييه إلى (مورو) يشكو من أعمال منو ، ويرسل إليه موجزاً عن الأعمال العسكرية التى تمت فى عهد قيادته العامة ، ومذكرات تحوى تفصيلات ما يقع من حوادث « يوميا » ، على أمل أن يذيع (مورو) ذلك كله فى فرنسا ، ويعرض هذه التفصيلات على القنصل الأول . كما كتب رينييه إلى بليار ، يبسط له نظريته فى أجدى طرق الدفاع عن المستعمرة ، وفحواها أن يترك بليار القاهرة ، وأن ينسحب إلى الاسكندرية للانضمام بجيشه إلى الجيش المـــدافع عنها « لأن الإسكندرية هى المكان الذى يبغى الإنجليز الاستيلاء عليه » [(١)] .

وكان من أثر هذه الانتقادات والأقوال اللاذعة التى أذاعها رينييه وداماس أن انقسم الجند المحاصرون بالاسكندرية فريقين ، انحاز أحدهما إلى رينييه وجماعته ، وظل الآخر مؤيداً لقائد الحملة العام [(٢)] . وزاد من تذمر الناقين على منو أن الانجليز فى المخافر الأمامية كانوا يلوحون دائماً أمام الجند الفرنسيين بالأمل فى العودة سريعا إلى أوطانهم ، إذا حدث التسليم وانفض قتال لاطائل منه [(٣)] وبذل الانجليز قصارى جهودهم لبذر بذور التفرقة بين الجند المحاصرين ، وزيادة عوامل الانقسام شدة على شدتها ، فتحدث بعض ضباطهم مع فريق من الجند الفرنسيين فى المراكز الأمامية ، وأخبروهم بأن الضابط (كليمان) Clément أحد ياوران القنصل الأول ، قد وقع فى أسرهم قريبا من مرابط ، وأن هذا الضابط كان يحمل أمراً بترقية الجنرال رينييه إلى رتبة أعلى فى قيادة الجيش . فكان لذيوع هذه الأخبار أسوأ الآثار فى المعسكر الفرنسى ، ذلك بأن رينييه لم يلبث أن ازداد مجرفة بعد ذلك فى علاقته مع منو والقواد

---

(١) Ibid 325

(٢) Doguereau 420

(٣) Dragon D'Egypte 159

الموالين له ، كما أنه أخذ يذيع هذه الأخبار ، وعظم قلق منو من أن يدبر رينييه مؤامرة واسعة لانتزاع السلطة منه ، وانتشر أعوانه فى كل مكان يتجسسون على زملائهم[١] . وانبرى داستان يؤكد لمنو أن الجند يبدون أسفاً عظما ، لأنهم لم يرغموا رينييه عند وفاة كليبر على قبول القيادة العامة ، وينحون باللائمة على أنفسهم لأنهم تركوا « جاهلا » يتقلد هذا المنصب الخطير . وما إن أكد له رامبون وداستان — ثم انحاز إليهما فريان كذلك — أن رينييه وداماس قد أخلا بواجبهما فى أثناء معركة كانوب ، وأن هناك ما يدل على ثبوت ذلك قطعا ، حتى اتخذ منو من هذه الأقوال ذريعة للتخلص من أعدائه نهائياً[٢] فأصدر أوامره إلى القومندان نوفل Novel فى ١٣ مايو بالقبض على رينييه ، وداماس ، ودور ، وبوابيه Boyer ونيرو Néraud وباشيلو Bachelu ودليتر Delaître .

وفى ليل ١٣ — ١٤ مايو ، ذهبت قوة كبيرة ، تتألف من ثلثمائة من الجند المشاة وخمسين من الفرسان ، عدا جماعة من المهندسين إلى منزل رينييه ، فأحاطوا به وأخذوا معهم إلى جانب أسلحتهم الكثيرة مدفعا لزيادة الحيطة . وكان السبب فى اختيار سكون الليل وقتا لتنفيذ أمر القبض على رينييه ، ثم حشد هذه القوات الكثيرة ، خوف منو من حدوث ثورة خطيرة لو انكشف « السر » وذاع الخبر قبل تسليم رينييه[٣] . ومع أن رينييه كان يعتزم المقاومة إلا أنه ما لبث أن فضل الإذعان للقوة ، وطلب مهلة كتب فى أثنائها خطابا عنيفا لمنو ، شحنه بمختلف أنواع الوعيد والتهديد ، كما ملأه بالإهانات ، وحمل فيه منو مسئولية الخسائر التى تكبدها الجيش دون جدوى. لأن منو رفض دائما أن يستمع لنصحه وإرشاده ، ثم هدد بإبلاغ القنصل الأول ذلك كله عند عودته إلى فرنسا . وبعد الفراغ من كتابة هذه الرسالة نزل رينييه إلى الميناء استعداداً للرحيل هو وصحبه إلى فرنسا ، فاعتلى ظهر الإبريق لودى Lodi ، بينما اعتلى داماس ودور ظهر السفينة (جود يونيون Good-Union) ، وحملت لودى الضباط الآخرين . واستطاع هذا الإبريق بعد مطاردة عنيفة الوصول إلى نيس فى ٢٨ يونية بينما وقعت السفينة (جود يونيون) فى أسر الإنجليز قريبا من جزيرة كريت[٤] .

---

(١) Reynier 375, 378

(٢) Rigault 327

(٣) Martin II 207

(٤) Reybaud VIII 221 — 2 ; Ibid 207 — 8

وأما منو فقد أذاع غداة القبض على رينييه وزملائه وترحيلهم أنه تمكن من مصادرة مبلغ كبير من الفرنكات ، يبلغ حوالى الثلاثة ملايين ، كان يمتلكه رينييه والقواد الآخرون ، ووعد بأن يدفع منها إلى الجند رواتبهم المتأخرة . وكان غرض منو من إذاعة هذه الأقوال الإساءة إلى رينييه خصوصا ، فقد عرض منو فى الوقت نفسه على أحد ياوران الجنرال رينييه — وقد بقى بالاسكندرية — أن يقدم له مايحتاجه من مال يكفى سد « الديون » التى خلفها رينييه وراءه [١] . وبادر منو بالكتابة إلى وزير الحربية وإلى القنصل الأول وإلى أصدقائه فى فرنسا يبسط فى خطابه إلى الوزير الأسباب التى دعته إلى إلقاء القبض على رينييه وزملائه وترحيلهم ، فنفى أنه كان يحمل فى نفسه حقدا عليهم ، بل اضطر إلى اتخاذ هذه الخطوة ضدهم « لأنهم إنما كانوا يحاولون إذاعة القلق والاضطراب فى المستعمرة وفى صفوف الجيش » . وطفق منو يؤكد للقنصل الأول أنه وقد زال كل خوف من حدوث ثورة بالاسكندرية قد بات فى إمكانه التفرغ تماما لشئون الدفاع عنها بعد رحيل هؤلاء القواد ، ثم قال : وسوف يفنى جيش الشرق عن آخره تحت أنقاض المستعمرة ، إذا لم تأته النجدات من فرنسا سريعاً [٢] .

وحاول منو جهده فى رسائله إلى أصدقائه أن يعزو كل ما ارتكب من أخطاء إلى رينييه وداماس ولانوس ، فهم المسئولون وحدهم عن الهزائم التى لحقت بجيش الشرق فى المعارك السابقة ، وهم وحدهم بسبب تذمرهم الذين أشاعوا روح الفوضى وعدم النظام فى الجيش ، فلم يعد الجنود يطيعون الأوامر ، وإذا أطاعوها فعلوا ذلك متبرمين ساخطين ، ولا جدال فى أن اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة من جانب منو ، وترحيل هؤلاء القواد قد ضمن — على حد قوله — الخلاص للمستعمرة والجيش ، ومن شأنه إتاحة الفرصة لإنزال الهزيمة بالعدو [٣] . وكان منو حتى وقت القبض على رينييه وزملائه لا يزال عظيم الثقة فى أن فى استطاعته الانتصار فى النهاية على العدو ، بالرغم من زوال كل أمل فى الحقيقة فى إحراز النصر منذ أن شرع الإنجليز يشددون الحصار على الإسكندرية ، وبدأت تنتشر بها المجاعة والأمراض ، وباتت حاميتها فى عزلة تامة بعد تسليم القاهرة خصوصا ، ولم تصل منو النجدات التى انتظرها طويلا من فرنسا .

---

(١) Reynier 374

(٢) Rigault 329 — 30

(٣) Reybaud VIII 222 — 3

وواقع الأمر أن تمسك منو بالدفاع عن الإسكندرية ، وإطالة أمد المقاومة بها ضد الجيوش التى ضربت حول المدينة نطاقا من الحصار الشديد ، كان عملا مقضيا عليه بالفشل عاجلا أو آجلا . وذلك لأسباب عدة : منها أن الاسكندرية باتت مهددة بالمجاعة منذ أن أفلح الإنجليز فى قطع سد المعدية وإغراق « بحيرة » مريوط ، فقد حوصر منو وجيشه نتيجة لذلك فى «شبه جزيرة» صغيرة حول الاسكندرية أكثر أرضها مجدب ؛ وازداد الموقف صعوبة عندما سقطت مخازن الجيش الملأى بالمؤن والذخائر وما إلى ذلك فى أيدى الانجليز ، فإن العربان الذين ظلوا يمدون منو وجيشه بالمؤن والأغذية خلال شهرى مارس وأبريل ، قد باتوا الآن لا يجرءون على الاقتراب من الإسكندرية بسبب تشدد العدو فى مراقبة المسالك المؤدية إليها من الجهة الغربية ، فأخذت الأقوات تشح رويدا رويدا بداخل المدينة ، واضطر منو إلى تنظيم توزيع المؤن على الجيش بقدر معين وبدقة بالغة ، فصار الزيت والنبيذ يوزعان على الجند مرة كل يومين ، على أن يقتسم كل أربعة رجال زجاجة احدة من النبيذ فيما بينهم ؛ واختص منو « العمال » المشتغلين بأعمال التحصينات وما إليها بقدر أكبر من المؤن ، وبذل جهدا ظاهراً لإعداد ما يكفى من خبز لجميع أفراد الجيش ، وقرر إذا حالت الظروف دون توفير الخبز الكافى أن يضرب مثلا لجنده بالاقتصار على استهلاك « البسكويت » فى الأيام التى أبيح فيها استهلاك هذا النوع من الغذاء فحسب .

وفى أوائل يونيه كانت قد شحت الأطعمة بالإسكندرية لدرجة اضطرت منو إلى اتخاذ إجراءات غير عادية ، فأصدر أمراً يومياً فى ٤ يونيه بإخراج جميع الأفواه العاطلة من الإسكندرية وإبعادهم إلى الرحمانية ، كما أعدم رمياً بالرصاص أحد الفارين من الجيش ، وبعض الأجانب الذين اتهموا بالتحريض على الثورة وإشاعة الفوضى فى المدينة (١) . ومنذ نهاية شهر مايو بدأت تفتك بالأهلين وبجند منو الأمراض الناجمة عن انتشار المجاعة ، وأزعج القوم مشاهدتهم فى أثناء ذلك مياه « بحيرة مريوط » تتقدم شيئاً فشيئاً نحو الغرب ، وتحطم كل أمل فى الاتصال مع سائر البلاد من هذه الناحية . وزاد من يأس الجيش سقوط كفالييه فى الأسر ، فى الظروف التى سبق بيانها ، وامتنع ورود الأقوات بتاتا ، فانعدم اللحم من الأسواق ، ، وصار الخبز يوزع على الجند والأهلين مخلوطاً بالأرز ، ثم انتهى الأمر بتوزيع الأرز فقط واختفى الأرز بدوره ، وفتكت أمراض سوء التغذية بالجنود والأهلين ، فصار مستشفى الإسكندرية

---

(١) Galland II 52

يغص بالمرضى الذين يشكون من علة فساد الدم[١] . وأسقط فى يد منو الذى تعذر عليه أن يجد علاجا ناجعا لكل هذه الأدواء ، وإن ظل على الرغم من كل هذه الصعوبات مصمما على المقاومة إلى النهاية .

وكان أخشى ما يخشاه منو أن يستبد اليأس بنفوس الجند فيستمعوا إلى « دعاية » العدو ، الذى ظل يلوح أمام ناظريهم دائماً بمزايا العودة إلى الوطن ، ويعمل على بذر بذور التفرقة والانقسام ، فى صفوفهم ، فأكثر منو من إصدار « الأوامر اليومية » يذيع فيها على الجند الأخبار المطمئنة ، ويحثهم على الصمود أمام العدو ، ويحذرهم مغبة الوقوع فريسة لدعايته الباطلة ، ويمنيهم بالنصر القريب ، وسرعة انتهاء الشدة التى هم فيها ، وكل ذلك لتقوية روح الجند المعنوية . فما إن عثر فريق الهجانة قريباً من برج العرب على بضع رسائل معنونة من أنكونا حتى أذاع أخبارها على الجيش فى أمر يومى بتاريخ ٢١ إبريل ١٨٠١ ، حمل أنباء توقيع معاهدة لونفيل (فى ٩ فبراير سنة ١٨٠١ بشروط مطابقة لشروط معاهدة كمبوفورميو) ، « وإغلاق موانى نابولى وصقلية فى وجه الإنجليز[٢] » . ثم عاد منو فأصدر أمراً يومياً آخر فى ٧ مايو ، نقل فيه إلى الجند خبر « وجود يوسف بونابرت فى لندن من قبل القنصل الأول ووجود المستر فوكس Fox فى باريس » ، مما يدل على انتظار انتهاء النضال مع انجلترة وعقد الصلح قريباً بينها وبين حكومة القنصل الأول . واختتم منو أمره اليومى بمناشدة جنده أن يظلوا شجعاناً متذرعين بالصبر مستمرين على نشاطهم ، كما طلب إليهم أن يذكروا دائماً مقدار ما يحدثه التمسك بهذه البلاد دائماً من أثر عظيم فى مصير مفاوضات الصلح القائمة . ثم أخبرهم بوقوع مركب إنجليزى محمل بالأسلحة والذخائر عند مدخل الميناء القديم[٣] . وعندما ذاع خبر إخلاء الرحمانية وانتشرت الإشاعات المزعجة بين الجنود أصدر منو أمراً يومياً فى ٢٢ مايو ، تحدث فيه عن أولئك الرجال الذين لاشرف لهم ، والذين ذهبوا إلى مخافر العدو الأمامية ليعودوا منها بأنباء مثبطة ينشرونها بين الجنود : « إن الحرب مزيج من انتصارات وانهزامات لامفر من وقوعها ، أخذ منو على عاتقه أن يبلغ أخبارها الصحيحة إلى جيشه سواء كان النصر فى جانبه أو صادفته الهزيمة[٤] » .

---

(١) Martin II 269

(٢) Rigault 324

(٣) Rousseau 404 — 5

(٤) Rigault 352

على أن هذه الأوامر اليومية وما حملته من أنباء « مشجعة » لم تفد شيئاً فى مكافحة ذلك اليأس ، الذى أخذ يستبد بنفوس الجند الذين نالت منهم المجاعة وأضعفهم المرض ، وبدءوا يشعرون بشدة وطأة حصار العدو لهم ، وعجز منو عن دفع مرتباتهم إليهم كاملة لقلة ما صار فى خزائنه من أموال كانت فى ٣٠ مايو لاتزيد على (٩٩٧ و ٩٥) جنيها فحسب وذلك فى وقت ارتفعت فيه الأسعار بالإسكندرية ارتفاعا فاحشا ، حتى إن فريان مالبث أن اضطر إلى دعوة تجارها إلى الاجتماع عنده حتى يأخذ عليهم العهود والمواثيق بعدم رفع أسعار السلع والمحاصيل . ومع أن العربان كانوا قد استطاعوا إحضار بعض اللحوم إلى الإسكندرية ، فقد علم منو فى ٣ يونيه أن هذه اللحوم قد نقصت وباتت لاتكفى لاستهلاك الجيش أو المدينة (١) .

غير أنه حدث إبان اشتداد هذه الأزمة ، وضياع كل أمل فى إمكان وصول أية نجدات من فرنسا ، أن شاهد القوم فجأة فى يوم ٩ يونيه القرويت هليوبوليس تدخل ميناء الاسكندرية ، وعلم الفرنسيون أن هليوبوليس كانت إحدى قطع أسطول غانتوم الذى أرسله بونابرت بالرجال والمؤن والذخائر لنجدة المستعمرة . فقابلها الجند ومنو على رأسهم بفرح عظيم . وقوى أملهم بقرب وصول النجدات الباقية إليهم ، ولكن هذه الآمال مالبثت أن تحطمت عندما علم الجيش مما أذاعه رجال هذه السفينة أنه من العبث انتظار مجىء أية نجدات أخرى ، لإخفاق غانتوم فى محاولته الوصول إلى الشواطىء المصرية ، واضطراره إلى النكوص على عقبيه ، والالتجاء إلى الشواطىء الفرنسية فراراً من مطاردة أسطول الانجليز له ، ومع ذلك فقد ظل منو وحده متشبثاً بأهداب الأمل ، وزاده وصول هليوبوليس إيماناً بأن القنصل الأول سوف لايرضى بضياع هذه المستعمرة « الجميلة » ، وأنه لن يتوانى عن إرسال النجدات اللازمة للدفاع عنها .

ومن الثابت أن بونابرت كان يدرك تماما ضرورة الاحتفاظ بمصر فى وقت كان مايزال يرجو فيه عقد الصلح مع انجلترة ، وبذل قصارى جهده لإرسال النجدات إلى منو ، ولو أن جميع هذه الجهود ذهبت سدى . فقد أرسل بونابرت إلى ميناء روشفور أمير البحر الفرنسى بروى Bruix لتسليح أسطول جديد لهذه الغاية ، فجمع بروى عدداً من السفن الأسبانية فى فيرول وقادش كما جمع من أوترانتو Otrante جنوداً بغية إنزالهم فى مصر ، ولكنه أصيب فجأة بمرض خطر اضطر بسببه لترك هذه المهمة (٢)

---

(١) Ibid 352

(٢) Guérin III 632 — 3

وعهد بونابرت إلى الكونترأميرال (لينوا Linois) بمهمة إيصال النجدات إلى مصر ، وغادر لينوا بالفعل ميناء طولون قبيل عودة غانتوم إليها بأيام قلائل فى ١٣ يونيه ، على أن يأخذ معه أسطولا أسبانيا من ميناء قادش ، ولكن (لينوا) لم يلبث أن علم فى ٤ يوليو أن الانجليز يحاصرون بأسطولهم ميناء قادش ، فاضطر إلى الدخول فى خليج (الجزيرة)Algésiras بعد انتصاره فى مناوشة ضد الإنجليز ، ولكن هذا النصر لم يفد جيش الشرق فى شىء ، ولم يستطع القنصل الأول إرسال أية نجدات إلى الإسكندرية ، وظل منو يبدد الوقت فى انتظار هذه النجدات عبثاً(١) .

وواقع الأمر أن وصول القرويت هليو بوليس إلى الإسكندرية كان له آثار سيئة ، على الرغم من السرور الوقتى الذى أحدثه ، لأسباب عدة ، لعل أهمها أن منو ، الذى عظم اعتقاده بأن غانتوم لا محالة واصل بنجداته إلى الإسكندرية ، صار ينفق الوقت متجولا على الشاطىء تارة ، أو واقفاً على إفريز الفنارة تارة أخرى ، يرقب وصول أسطول غانتوم ، حتى إذا أرخى الليل سدوله غادر المكان وهو ما يزال يعتقد أن الغد سوف يحمل فى طياته أنباء طيبة . واستأثر انتظار أسطول غانتوم بكل تفكيره حتى صار لا يعنى بشئون الدفاع عن المدينة ، فترك تدبير وسائله والإشراف على إنجاز التحصينات لطائفة من القواد كفريان وسونجى وسانسون Sanson وبرتران Bertrand الذين لم يشغلهم « لحسن الحظ » التفكير فى أمر هذه النجدات التى يحملها أسطول غانتوم ، واستطاعوا التوفر على مراقبة التحصينات والعناية بوسائل الدفاع الأخرى (٢) .

وكان فى هذه الأثناء أن عمد منو إلى إذاعة الأخبار الكاذبة التى تحملها تقاريره إلى حكومة القنصل الأول ، من ذلك ما ذكره فى إحدى رسائله إلى شابتال Chaptal وزير الداخلية بتاريخ ١٧ يونية عن انهزام العثمانيين الذين هاجموا جيش الشرق من ناحية الشام حلت بهم الهزيمة فى معركتين ، كان الصدر الأعظم نفسه يقود الجيش فى المعركة الثانية ، وكأن إلحاق الهزيمة بالعثمانيين وحدهم لم يكن كافيا فذكر منو أن الإنجليز قد دحروا فى معركة بالقرب من امبابة « على مسافة قصيرة من القاهرة وإن لم تكن قد وصلته التفصيلات بعد ، ولكن الإنجليز الموجودين فى هذا المكان أمام الإسكندرية يعترفون بأن خسائرهم فى هذه المعركة كانت جسيمة ويبدو أن قائدهم

---

(١) Ibid 642 — 3, 651 — 63

(٢) Reybaud VIII 328

العام الجديد قد قتل فى أثنائها » [١] . وبعث منو بهذه الأخبار « الـكاذبة » ذاتها فى كتاب أرسله فى اليوم نفسه إلى القنصل الأول ؛ وقد علق أحد مؤرخى الحملة الفرنسية فى مصر على ذلك بقوله : « وهكذا تضمنت التقارير الرسمية أخبار معركة فاصلة ضد الإنجليز فى إمبابة ومعركتين أخريين ضد الأتراك . إن ذلك ولا شك لما يجعل صحيحاً مانعته به أحد المتندرين من جنود الحرس عندما سماه قائد عام جيش المغفلين » [٢] . وفضلا عن ذلك فقد بذل منو قصارى جهده لإرسال الأنباء الـكاذبة إلى فرنسا بشتى الوسائل ، وأثبت صاحب التاريخ السابق صورة ما جاء فى أحد التقارير التى كثر تداولها فى باريس وقتئذ . وكان منو وحده المسئول عن إذاعة ما احتوته من أكاذيب لعل أشدها إمعانا فى التضليل القول بأن الإنجليز قد أخلوا مصر جميعها ، بعد أن اشتبكوا فى عدة مواقع دامية مع الفرنسيين ، وأصيبوا بهزيمة ماحقة أمام أبى قير والإسكندرية ، ولم ينجهم من الهلاك المحقق سوى مغادرتهم الشواطىء ونزولهم إلى البحر بكل سرعة . وكان من الأكاذيب التى تضمنها هذا التقرير كذلك أن الإنجليز فقدوا ثلاثة آلاف من القتلى عدا مئات من الجرحى والأسرى فى ساحات القتال ، وأن نجدات كبيرة قد وصلت لتعزيز جيش الشرق فى مصر [٣] .

وقد يكون الباعث على إرسال هذه الأكاذيب إلى فرنسا أن منو لم يشأ أن يفقد مواطنوه الأمل فى نجاح « الحملة » ، ونجاح تلك التجربة الاستعمارية ، التى جندوا من أجلها العلماء والمتخصصين لمساعدة قائد الحملة العام فى إنشاء المستعمرة الجديدة على أسس جديدة وفى ميادين جديدة ، حتى تستطيع فرنسا أن تجد فيها ما يعوضها عن الخسارة التى ما زالت تتكبدها فى مستعمراتها القديمة فى جزر الهند الغربية ، فيحدو مواطنيه ورجال الحـكومة الأمل فى إرسال النجدات التى انتظرها منو طويلا ، والتى اعتقد أن خلاص المستعمرة مرهون بسرعة وصولها إلى الأراضى المصرية ؛ وقد يكون الباعث على إذاعة هذه الأكاذيب أنه يرغب بفضل إحياء الآمال الـكاذبة إزالة الأثر الذى سوف تحدثه ولا شك معرفة أخطائه [٤] ، أو قد يكون مبعث ذلك

---

(١) Reynier 393 — 4 Rousseau 415

(٢) Reybaud VIII 340 — 1

(٣) Ibid 339

(٤) Reynier 275

أن الأمر قد اختلط على منو نفسه لشدة ما كانت تسيطر الرغبة فى البقاء بمصر على تفكيره ، حتى صار يتوهم الخيال حقيقة ثابتة .

ومع ذلك فمن الثابت أن منو على الرغم مما كان يصوره من أوامر يومية يطلب فيها من جنده الثبات والشجاعة ، وعلى الرغم من تلك الأكاذيب التى لم يتورع عن إذاعتها عليهم فحسب ، بل نجح فى إذاعتها فى فرنسا كذلك — كان فى قرارة نفسه لا يثق بأن الفوز فى النهاية سوف يكون من نصيبه ، وكان يدرك ولا شك جسامة الأخطار التى أحدقت به ، وآية ذلك خطابه إلى فريان فى ٦ يونيه ، يتحدث فيه عن ضرورة التمسك بالصبر ، والاتصاف بالشجاعة ، والمضى فى العمل بكل نشاط وهمة ، لأن الصبر والشجاعة والنشاط من شأنها جميعاً إتاحة الفرصة للخلاص من الانجليز ، ليس فى مصر وحدها ، بل فى سائر أنحاء العالم ، ذلك بأن الرمد والدوسنطاريا والطاعون ومرض فساد الدم والجدرى قد بدأت جميعها تضيق الخناق عليهم وتفتك بهم . ومع أنه اختتم هذه الرسالة بتمنى البقاء للجمهورية ! يحاول أن يدفع عن نفسه بذلك ظنة الخور وضعف العزيمة ، فقد كان أكثر صراحة فى رسالة أخرى إلى أحد خلصائه ، فقال : أما إذا لم تصله أية نجدات من فرنسا ، فإن مصير جيش الشرق إلى الفناء لا محالة ، وكان من أقواله كذلك : « إن الانجليز سوف يكون مصيرهم الفناء معنا ، وإن على الحكومة أن تتدبر الأمور وتأخذ لكل شىء عدته » [1] وفى خطابه إلى القنصل الأول فى ١٠ يوليو أوصى بونابرت بزوجه « ستى زبيدة » وبابنه منها سليمان مراد الذى قال منو « إنه لا يعرف شيئاً عنه ألبتة إذ فرقت ظروف الحرب بينه وبين زوجه وولده منذ مدة طويلة [2] » .

وكان من أسباب الصعوبات التى زادت من حرج مركز منو أنه ظل يجهل نوايا الإنجليز ، ولا يعلم شيئاً عن خططهم ، لحاجته إلى العيون والجواسيس الذين يستطيعون تسقط الأخبار من معسكرات الإنجليز والعثمانيين ، وينبئون القائد الفرنسى عن حركات أعدائه ؛ وزاد جهله بما كان يجرى حوله أو يحدث فى سائر أنحاء القطر ، وفى القاهرة على وجه الخصوص ، منذ أن وقع كفاليه فى أسر العدو ، ذلك أن منو كان يعتمد فى نظام مخابراته على فرقة الهجانة اعتماداً كاملا ؛ ولم تفد محاولته استخدام العربان فى حمل رسائله . أو تكليف ضباطه بحمل أوامره ، شيئاً فى إبلاغ رغباته إلى

---

(١) Rigault 353

(٢) Rousseau 411 — 12

القاهرة ، أو تزويده بالأخبار التى كان فى حاجة ظاهرة لمعرفتها . ومع أن منو مالبث أن عين بدلا من كفالييه ضابطا آخر هو سانت جنيس Saint-Geniès ، واستطاع أن يحصل على الجمال اللازمة لفرقته الجديدة من عربان أولاد على ، فإن سانت جنيس سرعان ما وقع فى أسر الإنجليز فى ٢ يوليو ، عند خروجه فى طلب المؤن من إقليم البحيرة ، وبعد أن تقدم قليلا صوب القاهرة .[١] وكان من أثر عزلة منو على وجه الخصوص أنه ظل يجهل حوادث القاهرة ويجهل الأسباب التى أفضت إلى تسليمها .

غير أنه سرعان ما انتشرت بعد ذلك فى أنحاء الأسكندرية إشاعات خطيرة عن تسليم القاهرة ، واستطاع الإنجليز فى المخافر الأمامية أن يطلعوا فريقا من الجنود الفرنسيين على بعض التفصيلات المتعلقة بهذا التسليم ، لم يلبث هؤلاء أن أذاعوها بدورهم حتى بلغت مسامع منو ، الذى اشتد به الغضب عند وقوفه عليها ، وبادر بتكذيبها على أنها من حيل الإنجليز وخدعهم ، وادعى أن لديه وحده الخبر اليقين لمن شاء أن يعرفه ، وهدد بالإعدام رميا بالرصاص كل من يعمل على ترويج هذه الإشاعات الكاذبة . وأسرع بكتابة تلك الرسالة التى طالب فيها بليار بالصمود حتى إحراز النصر أو الموت . كما أرسل (فيالا Viala) أحد ضباطه مزودا بتعليمات شفوية إلى بليار فى القاهرة . بيد أن منو سرعان ما تبين صحة هذه الأنباء ، وتأكد لديه أنها لم تكن شائعات كاذبة فحسب ، عندما أبلغه اللورد كيث رسميا فى ٧ يوليو خبر إتفاق تسليم القاهرة ، وحضر لمقابلته أحد الضباط الإنجليز يحمل صورة من هذا الاتفاق ، ويعرض على منو الاستفادة من مادة الاتفاق (العشرين) التى تركت لمنو وجند الأسكندرية الخيار فى قبول التسليم وفق الشروط التى تم الاتفاق عليها بين بليار وبين الإنجليز والعثمانيين فى ٢٧ يونية .

ومع أنه كان من الواضح أن الاستمرار على المقاومة كان لاجدوى منه ، بعد تسليم القاهرة ، وبسبب الصعوبات التى أحاطت بقائد الحملة العام من كل جانب ، فقد أصر منو على رفض هذه العروض ، وأخذ الغضب منه كل مأخذ ، فأقسم أمام الضابط الإنجليزى أنه لن يأتى عملا مشينا كتسليم بليار . وانحاز إلى جانبه فى ذلك القواد الذين سألهم منو الرأى ، فصمم الجميع على إطالة الدفاع عن الأسكندرية ، حتى يتمكن القنصل الأول من إرسال النجدات إليهم أو يصل إلى عقد الصلح مع انجلترة[٢] .

ووصل فى هذه الأثناء (تارير) الذى كان قد أرسله بليار بنسخة من اتفاق تسليم

---

(١) Reybaud VIII 332 — 3 ؛ Martin II 272

(٢) Rigault 356 — 7

القاهرة منذ ٢٩ يونية وحتى يطلع منو على أسباب هذا التسليم ، فرفض منو أن يأذن له باجتياز خطوط الدفاع الأمامية . وأرسل أحد ياورانه ليتسلم ما معه من رسائل ، واضطر (تاريز) أن يعود إلى القاهرة دون مقابلة منو فبلغها فى ١٤ يوليو (١) .

أما منو فقد أصدر أمراً يومياً خاصاً فى ٩ يوليو أبلغ فيه جيشه خبر تسليم بليار المشين ، وأكد لجنده أن القواد الذين جمعهم لسؤالهم الرأى فى هذا التسليم ، وهم فريان ورامبون وسونجى وداستان وسانسون قد اتفقت كلمتهم على أن الواجب « يقتضينا أن نسلك هنا مسلك الرجال الذين لا يعرفون سوى الشرف وحب الوطن مبادىء يسترشدون بهديها » وأما إذا كان هناك جند لا يشعرون فى نفوسهم بالقدرة على قتال أعداء الجمهورية ، « فأبواب الإسكندرية مفتوحة أمامهم » ، ويعد منو بإرسالهم إلى رشيد حيث يجتمعون بعد أيام قليلة بزملائهم الحاضرين من القاهرة (٢) . وفى ١٠ يوليو كتب منو إلى القنصل الأول أنه يحتدم غضبا إذ ينقل إليه خبر تلك الجريمة الشنيعة ، التى بدأت بصورة دسيسة تحاك خيوطها منذ أن غادر بونابرت مصر من أجل إخلاء البلاد . والتى تحققت الآن بفضل تسليم بليار « دون أن يحارب العدو ودون أن يشن العدو أى هجوم عليه » ، وذلك على الرغم من وجود المؤن والذخائر التى تكفيه ثلاثة شهور بتمامها ، ناهيك بتحصينات القاهرة المنيعة والمدافع العديدة التى كانت لديه ، فضلا عن الهدوء الشامل الذى كان يسود المدينة ، « بل لقد بلغ السفه ببليار حدا جعله يشترط فى تسليمه أن يكون باستطاعة منو قبول هذه المعاهدة المهينة إذا شاء منو ذلك ، كأنما كان فى وسع أحد القواد أن يشترط شروطا لقائده الأعلى دون أن يصدر له أمر بذلك » (٣) .

وهكذا تناسى منو — على حد قول أحد مؤرخى الحملة — كل ما ارتكبه هو من أخطاء لعل أظهرها كان بقاؤه بالإسكندرية وهو قائد الحملة العام ، وقت إطباق جيوش العدو على القاهرة ، ثم تقسيم الجيش قسمين : أحدهما بالاسكندرية والآخر بالقاهرة ، ولا مواصلات بينهما ، ويجد فريق منهما نفسه مرغماً على الاشتباك مع العدو دون أن يتحرك الفريق الآخر ، أو يبذل جهداً للتدخل فى القتال القائم ، وأن بليار تصرف تصرفا ، لم يفعل منو شيئاً ، وما كان فى وسعه أن يفعل شيئاً ، لمنعه أو إبداء

(١) Reybaud VIII 376

(٢) Martin II 273 — 4 ; Galli 236 — 7 ; Ibid 336 — 7

(٣) Rousseau 413

موافقته عليه [١] . بل يعزو هذا المؤرخ نفسه تلك الاتهامات التى كالها منو لبليار إلى ما كان يتأجج فى صدر منو من كراهية بسبب إغفال شأنه ، وعدم محاولة بليار أن يسأله رأيه ، ثم ما فعله الجند المنسحبون من القاهرة عند إظهار حفاوتهم الكبيرة بجثة قائدهم القديم الجنرال كليبر . ولقد أكد منو فى رسالته إلى القنصل الأول أنه لن يسلم الاسكندرية بتاتاً ، وأنه سوف يمضى فى الدفاع عن المدينة حتى يدفن تحت أنقاضها ، ثم اختتم كتابه بكلمات رنانة عند ما أنشأ يقول : « وإنى لأعرف كيف أموت ولكنى لا أعرف كيف أسلم ! » ؛ ولكنه مما يبعث على الأسى حقاً أنه بينما كان منو يصوغ هذه العبارات ، التى إن دلت على شىء فإنما تدل على صلف صاحبها ؛ كان الجميع — عدا منو طبعاً — يعرفون أنه من المتعذر على الجيش الصمود طويلا ، بسبب نقص المؤن والذخائر وقلة المال وتفشى المرض وانتشار المجاعة ، ويتوقعون تسليم الاسكندرية بعد وقت قليل [٢] . وفى الواقع لم يكد يمضى شهران على خطاب منو الأخير إلى القنصل الأول حتى كانت الاسكندرية قد فتحت أبوابها للعدو ، وسلم منو للانجليز والعثمانيين على غرار ما فعل بليار فى القاهرة .

تسليم منو :

فى الوقت الذى أذاع فيه الانجليز خبر تسليم القاهرة ، بدأت تصل إليهم النجدات تباعا . فأحضرت الفرقاطه ليدا (Leda) يوم ٥ يوليو عدداً من الجند ومبلغاً من المال كذلك ، ليشترى به الانجليز حاجتهم من المؤن والأغذية من العرب ؛ وفى ٨ يوليو دخلت الفرقاطة أكتيف Active خليج أبى قير تحمل جنداً ومالا كثيراً . وبعد مضى أسبوع واحد فقط وصلت قافلة من السفن تحمل الجند والعتاد من جزيرة منورقة فما انتصف شهر يوليو حتى كان عدد الانجليز قد بلغ حوالى ستة عشر ألف جندى [٣] ووجد الجنرال كوت قائد الجيش المرابط أمام الاسكندرية أن باستطاعته ، وقد زادت قوته كثيراً ، أن يشدد الحصار على الاسكندرية ، وبدأ يعد الخطة للهجوم على المدينة من الجانب الغربى ، لضعف تحصينات الفرنسيين فى هذه الجهة بالقياس إلى تحصيناتهم المنيعة فى الجانب الشرقى ، فاعتلى الإبريق (بورت ماهون) وذهب يستطلع ذلك القسم من الشاطىء الممتد من مرابط ، وأسفر هذا الاستطلاع عن تأكده أن فى استطاعة خمسة

---

(١) Reybaud VIII 336—8

(٢) Ibid 336 — 8

(٣) Fortesque IV. 2. 856

آلاف مقاتل ، إذا أقاموا المتاريس وأنشأوا بعض التحصينات السريعة ، أن يحتلوا تلك الأرض الرملية بين بحيرة مريوط والبحر ، وهى الأرض التى لم تغمرها المياه بعد كسر السد .

وعلى ذلك لم يكد يرجع كوت من هذا الاستطلاع الهام حتى شرع يتخذ العدة لإرسال حملة إلى الجهة الغربية . ثم سرعان ما وصلته الأخبار بأن الجنرال مور قد غادر امبابه منذ ١٥ يوليو بقسم من الجيش الإنجليزى الذى جعل تسليم القاهرة الاستغناء عنه ممكنا . ووصلت هذه القوات الجديدة بعد أيام قليلة ، ووصلت معها كذلك القوات العثمانية بقيادة القبطان باشا ، بينما بقيت حامية صغيرة بقيادة الصدر الأعظم فى القاهرة[١] . وشرع الإنجليز ينفذون خطتهم ، ولم يحل دون البدء مباشرة فى العمليات العسكرية المزمعة سوى انشغال الإنجليز بجمع السفن اللازمة فى فرضة أبى قير ، لنقل جنود بليار إلى الشواطىء الفرنسية ؛ كما أنهم فضلوا التريث وإحكام تدابيرهم قبل تنفيذ خطة الهجوم على الإسكندرية من الجهة الغربية ، لأنهم ظلوا يجهلون حقيقة موقف الفرنسيين بداخل المدينة ومدى استعداداتهم . وكان السبب فى ذلك أن منو صمم على قطع كل صلة مع الإنجليز ، خوفا من اتصال هؤلاء بجنوده وتحريضهم على الفرار أو بذر بذور الفتنة بينهم . بل كان منو متشددا فى منع كل صلة مع الإنجليز حتى إنه رفض مقابلة (استيف) ، الذى طلب عند وصوله إلى أبى قير بعد تسليم القاهرة أن يذهب لزيارة صديقه ، وليعرض على قائد الحملة العام «حسابات» الحملة ، وينال موافقته عليها . فبعث الجنرال (كوت) فى ٧ أغسطس يطلب من منو الإذن لأستيف بالمرور من الخطوط الفرنسية ، ولكن منو الذى أصر دائما على عدم دخول أى فرد إلى الإسكندرية ، سواء من طريق البر أو البحر ، رفض أن يحقق أمنية استيف ، حتى اضطر هذا الأخير إلى مغادرة أبى قير دون مقابلته[٢] . ومع أن منو عاد بعد ذلك فرضى بمقابلته ، فإن استيف كان قد أبحر فى طريق عودته إلى فرنسا[٣] . وعلى ذلك فقد اكتفى الإنجليز فى أول الأمر بتشديد الحصار على الإسكندرية ، وأخذوا يدرسون بإمعان خطتهم الجديدة .

أما هذه الخطة الجديدة فكانت تتلخص فى نقل حوالى خمسة آلاف جندى بقيادة

---

(١) Reybaud VIII 331 — 2

(٢) Walsh 208

(٣) Wilson 179

الجنرال كوت إلى الناحية الغربية ، لمحاصرة الإسكندرية من هذا الجانب ، ومنع أية مؤن أو إمدادات قد تأتيها من طريق البر ، فضلا عن إرغام الفرنسيين على توزيع قواتهم ، ومنعهم من حصر كل انتباههم فى ملاحظة خطوط تحصيناتهم الشرقية . ووافق اللورد كيث أمير البحر الإنجليزى على هذه الخطة ، بعد أن استطلع مواقع العدو على جانب البحيرة ، وتأكد لديه عجز الأسطول الفرنسى الصغير عن المقاومة . واتفقت كلمة سائر القواد الإنجليز على أن الجيش سوف يعجز كذلك عن المقاومة ، إذ قام الإنجليز بهجوم على الإسكندرية من الناحية الغربية ؛ وكان من رأيهم أن إنزال الجنود إلى البر سوف يتم دون صعوبة تذكر[1] ؛ وما إن وصل هتشنسون إلى معسكر الإسكندرية فى ١٥ أغسطس حتى وافق هو الآخر على تنفيذ هذه الخطة ، بعد أن قرر القيام إلى جانب ذلك « بعملية عسكرية » بسيطة ، يخدع بها الفرنسيين ويرغمهم على تركيز نشاطهم فى مكان غير المكان الذى أراد الإنجليز أن يهاجموا منه الإسكندرية . وانتظر الإنجليز أن يسفر نجاح هذه العمليات العسكرية عن نتائج طيبة ، إذ سوف يمكنهم امتداد خطوطهم فى الجهة الغربية من الإستيلاء على حصن مرابط الصغير ، والسيطرة على مداخل الميناء القديمة ، وإدخال سفنهم الحربية فى ميناء الإسكندرية[2] . ومما يجدر ذكره أن فيلنوف Villeneuve أمير البحر الفرنسى كان يشعر بعجزه عن مقاومة الإنجليز إذا حاول هؤلاء دخول الميناء ، لأنه لم يكن لديه بالإسكندرية سوى ثلاث فرقاطات فحسب ، هى (جوستيس) ، و (إيجبسيين) ، و (ريجنريه) وكتب منذ ٨ أغسطس يطلب من منو أن يأذن له بالخروج بها من مياه الإسكندرية والذهاب إلى فرنسا ، لأن الجمهورية سوف تخسر هذه الفرقاطات لا محالة — على حد قوله — إذا بقيت فى المياه المصرية[3] .

وبدأ الإنجليز ينفذون خطتهم مساء يوم ١٦ أغسطس ، فاستطاعوا أن ينقلوا أربعة آلاف من جنودهم بقيادة الجنرال كفان والجنرال فنش ، وذلك عدا رجال المدفعية والمهندسين على سفن المدفعية التركية الصغيرة التى دخلت بحيرة مريوط منذ ١٣ أغسطس وتولى الجنرال كوت القيادة العامة . واستعد الجنرال هتشنسون فى الوقت نفسه للقيام بهجوم كاذب على تحصينات الفرنسيين الشرقية . فما إن بزغت شمس يوم ١٧ أغسطس

---

(١) Anderson 360 — 1

(٢) Martin II 275.

(٣) Rigault 365

حتى كان ألفان من الجند الألبانيين قد بدأوا هجومهم على أحد مخافر الفرنسيين الأمامية ، وأجلوا هؤلاء عنها ، ومنعتهم مدفعية الفرنسيين الشديدة من البقاء طويلا فى الأماكن التى احتلوها ، فاضطروا إلى تركها بعد خسائر عظيمة ، وارتدوا إلى المعسكر الإنجليزى ، وظلوا طيلة النهار يناوشون مخافر الفرنسيين الأمامية ، والتحم فى الوقت نفسه جيش من الإنجليز يبلغ ستة آلاف مقاتل مع الفرنسيين فى معركة خيل الوهم للجنرال منو أن الإنجليز يبغون منها نتائج حاسمة[1] . فرفض أن يستمع إلى نصيحة الجنرال سونجى ، الذى حاول أن يوضح له أن نشاط الإنجليز فى هذه المعركة لم يكن سوى خديعة حربية يقصدون بها تحويل أنظار الفرنسيين عن عملياتهم العسكرية الأخرى فى الجهة الغربية . واكتفى بإرسال قوة صغيرة من المشاة والفرسان لتتبع حركات الإنجليز فى هذه الجهة[2] ، فكان من نتائج ذلك أن نجح الإنجليز فى تنفيذ خطهم واستطاعت إحدى بوارجهم الوقوف قريباً من رأس التين وبدأت تقذف الإسكندرية بقنابلها .

ولما كانت القوة الصغيرة التى أرسلها منو لمراقبة سير السفن التى نقلت الإنجليز فى البحيرة تخشى من أن يحاول هؤلاء إنزال جنودهم إلى البر ، فقد وجدت من الحكمة وأصالة الرأى أن تكف عن السير حتى لا يستطيع الإنجليز قطع خط مواصلاتهم مع سائر الجيش ؛ وفضلا عن ذلك فقد عمد الفرنسيون إلى إحراق سفنهم التى كانوا قد أدخلوها إلى البحيرة ، وذلك خوفاً من سقوطها فى قبضة الإنجليز .

وهكذا لم يأت المساء حتى كان هؤلاء قد ركزوا قواتهم فى مواقعهم الجديدة[3] ، وبدأوا هجومهم على حصن مرابط فى اليوم التالى (١٨ أغسطس) . فلم تمض أيام ثلاثة حتى سلم (إتيين) Etienne قومندان الحصن للانجليز فى ليل ٢١ ، ٢٢ أغسطس[4] واستطاع الإنجليز بعد ذلك أن يدخلوا إلى ميناء الإسكندرية عدداً كبيراً من السفن والفرقاطات والقراويت والأباريق اتخذت مواقعها جميعاً قبالة الفرقاطات الفرنسية التى اضطرت إلى الاحتماء فى داخل الميناء تحت ستار من نيران مدافع حصن (لترك) Leturcq . واعتقد الفرنسيون عندما شاهدوا هذا العدد الكبير من سفن العدو يدخل

---

(١) Reybaud VIII 345 — 7

(٢) Reynier 294

(٣) Martin II 276

(٤) Wilson 332 — 4 ؛ Walsh 95° — 6° ؛ Anderson 365 — 7

الميناء ، أن غرض الإنجليز كان إنزال الجند عند رأس التين ، حيث يستطيعون الهجوم على الإسكندرية من هذه الناحية دون أن يصدهم عائق ؛ فعمدوا إلى إغراق عدد من السفن اتخذوا منها « جسراً » ووضعوا فوقه بطريات مدافعهم للدفاع عن رأس التين ؛ ومع أن هذه البطريات كانت ضعيفة وفى استطاعة الإنجليز تحطيمها بسهولة ، لو أنهم أدركوا ما كانت تدل عليه حركة الفرنسيين هذه من أنهم يشعرون بعجز مراكزهم فى رأس التين عن المقاومة والدفاع ، فقد شغلهم إطلاق قنابلهم على حصن (لترك) عن محاولة الهجوم على رأس التين ، واستمر تصويب مدافعهم على هذا الحصن حتى يوم ٢٥ أغسطس ، حتى إذا كان اليوم التالى بدأ الإنجليز هجومهم على حصن (لترك) . غير أن منو كان قد أذعن فى عصر اليوم نفسه لرغبة قواده ، وبعث اثنين من ضباطه لطلب هدنة من العدو تمهيداً للاتفاق على شروط التسليم النهائية[١] .

فقد شاهد الفرنسيون منذ بدأت عمليات العدو الأخيرة بصورة جدية فى ١٧ أغسطس أن الإنجليز والعثمانيين يقتربون من خطوطهم رويداً رويداً ، بينما نقصت قواتهم فلم يعد هناك (حسب إحصاء لعدد الجنود فى أول سبتمبر) سوى (٩٥٠٧) من الرجال ، منهم (٧٣٦٢) من الضباط والجند العاملين ، بينما كان الباقون من المرضى أو من أولئك المشتغلين بشئون الإدارة ، ثم شحت المؤن والأقوات فلم يعد بالمخازن (يوم ٢٨ أغسطس) سوى (٧٢٣٧) ليبرة من القمح أو ٣٦١٨½ كيلوجراماً من القمح يجب أن تكفى لتغذية الجند حتى نهاية الأسبوع الأول من شهر أكتوبر . ولم يوجد من الأرز سوى قدر قليل يكفى لعشرة أيام فقط . بينما لم يعد بخزائن الجيش سوى (١٩١) ، ألف من الجنيهات (حسب إحصاء ١٧ سبتمبر)[٢]. وفضلا عن ذلك فقد خلت المخازن من الأنبذة وغيرها ، واعتقد الجند فى المخافر الأمامية ، واعتقد زملاؤهم فى الأماكن الأخرى وفى داخل الإسكندرية أن من الخير المفاوضة مع الإنجليز ، وهم ما يزالون بعيدين عن خطوط الفرنسيين المحصنة وأسوار المدينة ، والاستفادة من رغبتهم فى بذل شروط سخية ، حتى يمكن الوصول معهم إلى اتفاق يحفظ الشرف الفرنسى ، وذلك قبل أن يقتحموا تحصينات الإسكندرية ، ويرغموا جيش الشرق على أية شروط أخرى قد يرتأونها ، تنال من شرفه . ولكن أحداً من هؤلاء الجند ما كان يجرؤ على معارضة القائد العام بذلك كله ؛ ولو أن مسلك منو فى هذه الآونة

---

(١) Martin II 280 ; Wilson 327 — 30

(٢) Rigault 375

كان يدل على أن الخبل قد أصاب قائد الحملة العام عند ما أغرق سفن النقل ، ووجه اتهامات شنيعة لأمير البحر فيلنوف ، ووصمه بالجبن لرغبته فى تخليص سفنه من الوقوع فى أسر الإنجليز أو تحطيمها على أيديهم ، ثم اعتزم منو بدلا من ذلك إغراق الفرقاطات الثلاث فى ميناء الإسكندرية[1] ، فنظر الجند إلى قوادهم الآخرين ، وعقدوا آمالهم على فريان ورامبون وسونجى الذين وثقوا بأنهم خير من يستطيعون تخليصهم من هذا المأزق .

وعلى ذلك فقد قرر رامبون أن يأخذ على عاتقه مفاتحة منو فى أمر التسليم ؛ وتمكن من مقابلته مقابلة طويلة يوم ٢٥ أغسطس ؛ وبذل رامبون قصارى جهده فى إقناع منو بأن الوقت حان لقبول التسليم إذا رغب القائد العام فى المفاوضة ، ولما يحدث بعد ما يذهب بشرف الجيش الفرنسى ، وأخبر رامبون منو أن العمليات العسكرية الأخيرة وحدها قد كلفت حامية الإسكندرية ثمانمائة رجل ، وأن من يصلحون للخدمة صاروا لا يزيدون على ثلاثة آلاف فحسب . وثار منو وافتعل الغضب وأخذ يصيح « لقد تخلى عنى الجميع ؛ لقد تخلوا عنى ولا يساعدنى أحد على إقالة عثرة الجيش الفرنسى والنهوض به ، بل يطلبون لهذا الجيش نهاية تدعو إلى الخزى والخجل ، ومع ذلك فإنى وحدى سوف أظل مصرا على القيام بواجبى حتى أنقذ شرف الجيش وأرفع عنه وصمة العار ، وأحفظ له ذلك السجل الطويل من أعمال المجد والفخار السابقة » ؛ غير أن هذه العبارات الجوفاء لم تنل شيئاً من عزيمة رامبون الذى أخذ يوضح لقائده الأعلى أن العار سوف يكون لا محالة أعظم إذا دخل الإنجليز الإسكندرية ، وأن من العبث الاعتقاد بأنه ما يزال فى وسع الجيش المقاومة وصد العدو ؛ وطال النقاش بين الرجلين دون جدوى ، وأكثر منو من الصياح والهياج حتى أتعب رامبون ، فغادره رامبون وهو ينظر إليه كما ينظر إنسان إلى طفل لا يعى ما يقول ، أو إلى مجنون يهذى ؛

وما إن عاد رامبون إلى منزله حتى طلب زملاءه للاجتماع به لبحث الموقف ، وقر رأى المجتمعين على ضرورة بدء المفاوضة مع الإنجليز بكل سرعة ؛ ثم بعثوا إلى منو الجنرال (دارمنياك) Darmagnac ، وهو أحد الضباط الذين رفعهم منو بنفسه إلى مرتبة القيادة ، ليحمل إليه قرار قواده ، فأحدث إرسال (درمانياك) الأثر المطلوب ، وأذعن منو فى آخر الأمر وقبل المفاوضة . وأرسل لهذه الغاية فى الساعة الرابعة من مساء يوم ٢٦ أغسطس اثنين من ياورانه إلى المعسكر الإنجليزى ، ذهب

---

(١) Reybaud VIII 366 — 7

أحدهما من باب رشيد إلى معسكر الجنرال هتشنسون ، بينما اجتاز الآخر تحصينات (لترك) فى طريقه إلى معسكر الجنرال كوت ، وحمل كلاهما خطابا من منو إلى القائدين الإنجليزيين ، يطلب فيه هدنة لمدة ثلاثة أيام « يستعد فى أثنـــائها لطلب التسليم » . وناشد منو العدو ألا يعتبر طلب الهدنة خديعة يلجأ إليها القائد الفرنسى تمهيداً لاستئناف القتال مرة أخرى . فأجاب الإنجليز رغبة منو وأعلنت الهـدنة ، ورفعت الأعلام البيضاء على المخافر الأمامية فى اليوم التالى (٢٧ أغسطس [١]) ، وعقد منو مجلساً حربياً برياسته فى صباح يوم ٢٨ أغسطس للنظر فى شروط التسليم ؛ حضره من القواد وكبار الضباط والموظفين ، فريان ، وسونجى ، وداستان ، وزايونشك ، وفوجيير ، وسانسون ، وليففر ، وديليجورج ، وفولتريه Faultrier ، وبوسار ، ودارمنياك ، وهبلر Heppler ، وسارتلون Sartelon ، ولوروى Le Roy ، وريشر Richer ، وانعقد المجلس فى (وكالة فرنسا) التى يقيم فيها فريان قومندان الإسـكندرية .

ويتضح من مضبطة هذه الجلسة [٢] أن الجند كانوا فى شدة التعب والإجهاد ولا قدرة لهم على المقاومة ، ومع أن الذخائر كانت على وجه العموم « كثيرة » ولدى المدفعية كميات من القذائف تكفى لإطالة مدة الدفاع على الرغم مما حدث من نقص ، فقد تبين بسؤال المختصين من أعضاء المجلس أن الجنود الملحقين بسلاح المدفعية كان أكثرهم من اليونان والبحارة الجدد الذين تعوزهم الخبرة ، وزيادة على ذلك فإن الجند الباقين بالاسكندرية كانوا لا يكفون للقيام بالعمليات العسكرية الناجحة لأن الدفاع عن حصون الإسكندرية كان يتطلب وحده ستة آلاف جندى ، ناهيك بالجند اللازمين لأعمال الدفاع عن سائر المراكز العامة ، وكان هؤلاء لا يقلون فى تقدير القواد المجتمعين عن ستة آلاف أخرى ؛ وذلك فى وقت كان قد بلغ فيه عدد المرضى بالمستشفيات ألفاً وتسعمائة مريض يشكو أكثرهم من علة فساد الدم ، بسبب سوء التغذية وانتشار المجاعة ، ولم يكن هناك أى أمل فى إمكان الحصول على الحبوب واللحوم وسائر أنواع الأغذية ، وبات الموجود من الحبوب فى المخازن لا يكفى سوى أسابيع معدودة (حتى يوم ٢٣ سبتمبر على وجه التدقيق) ، بينما انعدم وجود الزيت

---

(١) Walsh 112° — 116°

(٢) Walsh 122° — 125° : Reybaud VIII 369 — 70, 373 — 6, 377 — 9

والخل والأنبذة وسائر المشروبات الروحية ، مع حاجة المستشفيات للأنبذة لاستخدامها على وجه الخصوص فى علاج مرض فساد الدم أو (الأسكربوط) ؛ كما صارت المستشفيات تقدم لمرضاها لحوم الخيول إلى جانب لحوم الأغنام ، ونقصت كميات اللحوم بها عموما ؛ ولما كان عدد المرضى فى ازدياد مستمر فقد بات ينقص المستشفيات العتاد والفرش ، كما انعدم وجود الدواء اللازم لمعالجة المرضى بالأسكربوط خصوصا .

وعندما سأل المجلس رأى الطبيب (سافرسى) Savaresi والجراح (لارى) Larrey والصيدلى (پوبل) Pouble الذين استدعاهم ليستوضح الحالة الصحية فى المدينة ، ومبلغ استعداد المستشفيات للمضى فى خدمة المرضى ، أكد هؤلاء عجز المستشفيات عن العناية بالمرضى للأسباب السابقة كما توقعوا أن تزيد وطأة الوباء شدة على شدتها بسبب رطوبة الجو الناجمة من دخول المياه إلى بحيرة مريوط ، بعد أن كسر الانجليز السد الذى حجز مياه بحيرة المعدية ، فأغرقت المياه مساحة من الأرض لا تقل عن مائة وخمسين ميلا مربعا ، وهى مساحة كانت تقوم عليها حوالى اثنتى عشرة أو خمس عشرة قرية ، كما كثرت المستنقعات حول الاسكندرية ، ومن شأن مرض الأسكربوط أن يجعل المرضى به أكثر تعرضا للاصابة بوباء الطاعون فإذا أضيف إلى ذلك كله أنه لم يكن لدى الفرنسيين أسطول يصح الاعتماد عليه فى الدفاع عن ميناء الإسكندرية ، أو تعطيل عمليات الانجليز فى البحر وكانت قوات الإنجليز وحلفائهم العثمانيين تبلغ حوالى خمسة وعشرين ألف جندى من إنجليز وترك وشوام وغيرهم ؛ ويقف أسطول مؤلف من أربعين مركبا على حصار الإسكندرية ، يوجد منها سبعة عشر مركبا فى داخل ممرات الميناء القديمة ، وهذا عدا وجود ما يزيد على مائة وعشرين قاربا مسلحا من قوارب العدو فى بحيرة مريوط تقوم على حصار الإسكندرية من هذه الجهة اتضح أنه لا جدوى من الاستمرار على المقاومة .

وفضلا عن ذلك فقد بات متعذرا وصول الماء العذب إلى الإسكندرية بسبب قطع جسر أوسد المعدية ، وامتلاء الخليج — أو الترعة التى تمد المدينة بالماء الصالح للشرب — بمياه البحر الملحة ، ناهيك بما لحق ذلك العدد القليل من الجند المدافعين عن الإسكندرية من تعب وإجهاد ، بسبب التحامهم المستمر مع العدو فى مناوشات ومعارك عدة منذ إخلاء القاهرة ؛ وذلك بينما أنشأ العدو معسكرين منيعين فى شرق المدينة وغربها ، واحتل خطا يمتد من البحر إلى بحيرة مريوط ؛ واستطاع بفضل ذلك فى كل مرة حاول فيها الفرنسيون الهجوم على العدو أن يشترك معهم فى معارك من الأمام والخلف وعلى

الجانبين ، بسبب ما لديه من سفن المدفعية الكثيرة ؛ فإذا أخذنا بعين الاعتبار كذلك أن قلعة مرابط قد سقطت « بعد دفاع مجيد » فى يد العدو ؛ وأن تسليم القاهرة قد أتاح للعدو الفرصة ليجمع جيوشه أمام الإسكندرية ؛ وأن الإنجليز استطاعوا إغلاق المنافذ التى كان يأتى العربان منها بالأغذية إلى المدينة المحاصرة ، وأنه من المستبعد أن تصل من أوروبا النجدات قبل يوم ٢٣ سبتمبر — وهو يوم نفاد الأغذية ؛ وأن الجيش الموجود بالإسكندرية لا يستطيع النضال ضد جيش بلغ عدده منذ تسليم القاهرة عشرة أمثال الجند الفرنسيين الذين يصلحون للخدمة فى الميدان ، اتضح عجز الفرنسيين عن الاستمرار فى الدفاع عن المدينة .

وعلى ذلك لم تكد تعرض كل هـذه الحقائق على أعضاء المجلس الحربى ، حتى اتخذ هؤلاء قراراً نص على أن يطلب إلى قائد الحملة العام الجنرال عبد الله جاك منو أن يبدأ من الآن المفاوضة مع قواد الدول المتحالفة ، من أجل إخلاء الإسكندرية بشروط مشرفة للجيش الفرنسى ، وللقوات التى وقفت إلى جانبه ، فضلا عن جميع الأفراد الذين التحقوا بخدمته ، على أن تكون هذه الشروط فى مصلحة التجارة والتجار ، ومن أثرها المحافظة على أملاك الأفراد وأرواحهم ، مهما كان هؤلاء من جنسيات مختلفة ، ومهما كانت عقائدهم ، ماداموا قد خدموا الجمهورية الفرنسية فى مصر ؛ كما طلب إلى منو الموافقة على تسليم الإسكندرية بشريطة أن يحدث ذلك خلال مدة معينة يتفق أجلها وما لديه من موارد ، وعند عدم وصول أية نجدات من فرنسا ؛ ثم اتخذ المجلس قراراً أخيراً أصبح بمقتضاه لكل عضو من أعضائه مطلق الحرية عند التوقيع على محضر هذه الجلسة أن يسجل رأيه الشخصى ، حتى إذا خالف ذلك رأى الأكثرية . وقد وقع على هذا المحضر دون تعليق كل من رينيه René ، وريشر ، وسارتلون ، وليففر ، وهبلر ، ودلزون Delzons ، ودارمانياك ، وديليجورج ، وبوسار ، وفولتربيه وزايونشك ، وسونجى ، وفريان ، ورامبون ، أما (داستان) فقد أبدى رغبته فى أن يمتد الأجل المنصوص عليه قبل تنفيذ التسليم حتى يوم ٢٣ سبتمبر لاحتمال وصول نجدات قبل هذا التاريخ ، ثم أبدى سانسون نفس الرغبة ، وسجل منو رأيه الخاص فى قوله : « إن تسليم القاهرة الذى ما كان ينتظر بل ما كان ينبغى أن ينتظر حدوثه الجيش الواقف أمام الإسكندرية ، جعل سقوط الإسكندرية أمراً مفروغاً منه ولاسبيل إلى منعه . وكان يجب أن تصمد القاهرة فى الحقيقة على الأقل مدة أخرى نحو شهرين ونصف شهر ، فلو أنه حدث ذلك لأمكن تموين الإسكندرية ، وإتمام

تحصيناتها على الوجه الأكمل ، ولفتكت الأمراض كذلك بجيش العدو ، ولاستطاع الفرنسيون أن يبقوا مصر فى حوزتهم[١] » .

على أن اتخاذ قرار التسليم المشروط والتوقيع على مضبطة الجلسة لم يكن معناه انتهاء الجلسة ، ذلك أنه بقى على المجلس بعد أن قبل أعضاؤه المفاوضة مع العدو أن يضع هؤلاء قواعدها ، فتم الاتفاق فى الليلة ذاتها على أن يقوم كل من رامبون وفريان وسونجى وسانسون وديليجورج بإعداد هذه القواعد . وفى صبيحة اليوم التالى (٢٩ أغسطس) كان هؤلاء قد فرغوا من عملهم . ولكنه ماإن عرضت قواعد المفاوضة على المجلس حتى أبدى أولئك القواد الذين سجلوا « تحفظاتهم » عند التوقيع على مضبطة الجلسة السابقة ينقدونها نقـداً مراً ، وكان (داستان) أشدهم عنفا فى معارضته ، ومع ذلك فقد لزم منو الصمت فى أول الأمر . ذلك أنه وقد اتضحت فى الجلسة السابقة استحالة الدفاع عن الإسكندرية ؛ فقد صار الآن — على حد قول أحد المؤرخين[٢] — لايرضى بأن يدفن تحت أنقاض الإسكندرية ، بل أصبح الآن يرغب رغبة صادقة فى المفاوضة أكثر من أى شخص آخر . ومع ذلك فقد كان من المتعذر عليه أن يكشف القناع عن نياته الصحيحة بعد تمسكه السابق بضرورة الدفاع حتى النصر أو الموت . فتدخل فى المناقشة وعاد يكيل الاتهامات لبليار ، ويعزو سبب قبوله المفاوضة إلى تسليم القاهرة على يد بليار ؛ وافتعل الغضب فأخذ يصيح « رأسى أو رأس هذا القائد سوف تطيح بها يد الجلاد عند العودة إلى فرنسا » ، ولكن منو مالبث أن هدأ بعد ذلك ، وكان لتدخله الحاسم أثر فعال فى إنهاء المناقشة وقبول تلك القواعد التى وضعها رامبون وزملاؤه للاسترشاد بها فى المفاوضة دون تغيير ؛ وبدأ المجلس يضع مقترحات الصلح فى صيغتها الأخيرة قبل إرسالها إلى العدو . وانقضى النهار قبل أن يفرغ منو من صوغها وكتابتها .

ولما كان يوم ٢٩ أغسطس آخر أيام الهدنة ، فقد قلق هتشنسون ، وظن أن فى الأمر خدعة ، وكان على وشك استئناف العمليات العسكرية عندما جاءه أحد ياوران منو فى مساء اليوم نفسه يعتذر عن التأخير ، ويطلب امتداد الهدنة يوما آخر فرفض هتشنسون وهدد بالهجوم على الإسكندرية عند منتصف الليل ، ولم يقبل الانتظار حتى صباح اليوم التالى إلا بعد إلحـاح شديد ؛ وعلى ذلك بادر منو بعد أن عقـد اجتماعا جديداً

---

(١) Reybaud VIII 388 - 9 ; Walsh 125°

(٢) Reybaud VIII 392

بإرسال شروط الصلح التى وافق عليها القواد إلى هتشنسون ، ولما كانت قراءتها تحتاج إلى وقت طويل فقد رفض هتشنسون أن يبحثها . وأصر على أن يتم توقيع التسليم يوم ٣١ أغسطس وفق شروط لخصها هتشنسون فى مواد أربع : نقل جيش منو بأسلحته وعتاده وأحد عشر مدفعا فحسب من مدافع الميدان إلى فرنسا ، والفراغ من تسليم الإسكندرية خلال عشرة أيام ، على أن يجرى نزول الجند إلى البحر خلال العشرة الأيام التالية حتى يتسنى ترحيلهم بمجرد استعداد السفن للإبحار ، أما فيما يتعلق بلجنة العلوم والفنون فإنه يمتنع على أعضائها أن ينقلوا معهم شيئا من القطع الأثرية القديمة أو المخطوطات العربية أو الرسوم والمصورات أو المذكرات أو المجموعات الفنية والعلمية بل يتركون ذلك كله « تحت تصرف القواد والرؤساء الانجليز » ؛ وأخيراً أن تتم تفصيلات التنفيذ وفق ما سبق الاتفاق عليه فى معاهدة القاهرة . وحدد هتشنسون الساعة العاشرة من مساء يوم ٣١ أغسطس موعدا لقبول هذه الشروط أو رفضها .

وعلى ذلك فإنه ما إن وصلت هـذه الشروط إلى الفرنسيين ، وكانت بمثابة إنذار باستئناف القتال ، حتى عقد المجلس الحربى وقد ظل مجتمعاً بصورة دائمة فى أثناء ذلك كله — جلسة أخرى ناقش فيها عروض القائد الإنجليزى ؛ وتم الاتفاق على شروط التسليم ، وأرسلت هذه إلى هتشنسون ، وكانت تتألف من اثنتين وعشرين مادة ، رفض هتشنسون بعضها وأدخل تعديلا على البعض الآخر ، وقبل عدداً منها [(١)] . ولم يسع الفرنسيون سوى النزول على إرادته .

فقد رفض هتشنسون أن يمد أجـــل الهدنة ووقف القتال إلى يوم ١٧ سبتمبر سنة ١٨٠١ ، وهو اليوم الذى حدده الفرنسيون لقبول إخلاء مواقعهم وتسليم المدينة إذا ظلت لا تصلهم أية نجدات من فرنسا حتى ذلك التاريخ ؛ وأصر هتشنسون على أن يتم إخلاء مراكز الفرنسيين وحصنى (لترك) و (دوفيفيه) Duvivier بعد يومين من تاريخ التسليم فحسب ، أى ظهر ٢ سبتمبر ، على أن يسلم الفرنسـيون كذلك الذخائر والمدافع بهذين الحصنين ، ويتم إخلاء مدينة الإسكندرية والقلاع وما إلى ذلك فى ظرف عشرة أيام من تاريخ التوقيع على الاتفاق ، « أو فى اللحظة التى ينقل فيها الفرنسيون على ظهر السفن » لركوب البحر إلى فرنسا . ومع أن هتشنسون وافق على أن ينقل الفرنسيون معهم عتـــادهم الخاص وما يملكه أفرادهم من أوراق

---

(١) Wilson 336 — 43 ; Anderson 371 — 84 ; Reybaud VIII 397 — 414

وسلع أو متعلقات شخصية ، فقد اشترط ألا ينقل شىء مما يعد من ممتلكات حكومة الجمهورية الفرنسية ، وأن يسمح فقط للضباط والجنود الفرنسيين وأولئك الذين عاونوهم وكانوا من جنسيات وأديان أخرى سواء فى أعمال الحرب أو الإدارة المدنية بأن ينقلوا معهم متعلقاتهم الشخصية ، ماداموا قد ظلوا فى صفوف الجندية أو خدموا جيش الشرق مدة لا تقل عن عشرة أشهر ، ووافق هتشنسون على أن يغادر الفرنسيون البلاد محتفظين بكل مظاهر الشرف العسكرى فلا يعاملون كأسرى حرب ، ولكنه رفض أن يخرجوا بكامل أسلحتهم وأن يحتفظوا بكل مالديهم من وثائق وأوراق ، كما سمح لهم بنقل عشرة مدافع فحسب لا تزيد عدد طلقات كل منها على عشر فقط ، ثم رفض أن تخرج السفن الحربية بكامل عدتها وسلاحها ، والسفن التجارية التى يملكها فرنسيون أو غيرهم ، مع الجيش المنسحب ، وأصر على تسليم جميع هذه السفن « بحالتها الراهنة » وأجيب بالرفض كذلك طلب الفرنسيين اعتبار شروط التسليم سارية على سفن الجمهورية الفرنسية أو سفن حلفائها التى قد تدخل ميناء الاسكندرية من تاريخ توقيع الاتفاق إلى يوم ١٧ سبتمبر ، وعدم مصادرة سفن الجمهورية أو حلفائها التى تدخل هذا الميناء خلال الأيام العشرين الأولى التى تلى هذا التسليم ، بل يسمح لها بدلا من ذلك بالخروج من الميناء حرة طليقة بعد أن يزودها الانجليز وحلفاؤهم بجوازات المرور اللازمة .

ومع أن هتشنسون أجاز ذهاب من يشاء من التجار وغيرهم من الأفراد سواء كانوا من الشوام أو القبط أم اليونان أم اليهود أم العرب مع الفرنسيين ، وتأمين أولئك الذين خدموا جيش الشرق فى مصر على أموالهم وأرواحهم إذا رغبوا البقاء فى مصر ، فقد أصر على أن تظل جميع البضائع الموجودة بمخازن الإسكندرية ، أو فى بطون السفن الراسية بمينائها فى حوزة الإنجليز على أن يتم التصرف فى هذه البضائع بعد ذلك حسب القوانين والقواعد التى أقرتها الدول المتمدينة . ورفض هتشنسون أن يأخذ معهم أعضاء لجنة العلوم والفنون وأعضاء المجمع العلمى أوراقهم ومذكراتهم ورسومهم ومجموعاتهم العلمية (فى التاريخ الطبيعى) والآثار القديمة والقطع الفنية التى جمعوها مدة إقامتهم فى مصر ، وأجاز لهؤلاء بدلا من ذلك أن ينقلوا معهم آلاتهم العلمية وأدواتهم التى أحضروها من فرنسا عند مجيئهم إلى هذه البلاد فحسب ، وأصر على اعتبار المخطوطات العربية والتماثيل والمجموعات العلمية التى جمعها العلماء باسم الجمهورية الفرنسية من الممتلكات العامة ، وجعل التصرف فيها من حق قواد الجيوش المتحالفة وحدهم ، وعلاوة على ذلك فقد اشترط هتشنسون أن يسلم إليه الفرنسيون

جميع مالديهم من رسوم مدينة الإسكندرية وحصونها ، وكذلك الصورات والخرائط المتعلقة بأقاليم القطر المصرى ؛ وفيما عدا ذلك تضمنت مواد التسليم الإجراءات التى يجب اتخاذها لتنفيذ الجلاء ، ونقل الفرنسيين من أبى قير على نفقة الإنجليز وحلفائهم وفى سفنهم ، ثم نقل مرضى الفرنسيين فى « سفن المستشفى » المزودة بالمؤن والعقاقير وأدوات الجراحة وما إلى ذلك . وتعهد الحلفاء بتخصيص بعض سفنهم الحربية لحماية الجيش المنسحب فى أثناء سفره إلى فرنسا ؛ وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين بمجرد تسليم المعسكرات والحصون الفرنسية ، والتصريح لسفينة فرنسية « غير مسلحة » بالخروج من الإسكندرية ، تحمل أنباء « التسليم » إلى حكومة الجمهورية ، ونصت المادة الأخيرة من الاتفاق على أن تجرى تسوية كل خلاف يحدث بشأن التسليم بالطرق الودية .

وفى يوم ٣١ أغسطس إذن وقع عبد الله جاك منو على اتفاق تسليم الإسكندرية ، كما وقعه من الجانب الإنجليزى الأميرال اللورد كيث Keith والجنرال هتشنسون ، ومن الجانب العثمانى القبطان باشا ، وفى ٢ سبتمبر بدأ تنفيذ الإخلاء بتسليم حصنى (لترك) ودوفيفيه ومعسكر نيكو بوليس ، ثم سلم الفرنسيون الفرقاطات الثلاث وسائر السفن التى كانت بالميناء إلى الإنجليز ، وشرعوا يتخذون الأهبة لمغادرة الأراضى المصرية .

الجلاء عن مصر :

وجد منو لزاما عليه ، وقد قبل تسليم الإسكندرية بشروط أقل ما يقال عنها إن الفرنسيين قد عوملوا بمقتضاها كأسرى حرب وكما يعامل المهزومون تماما ، أن يكتب إلى القنصل الأول فى ١١ سبتمبر ، شارحاً الأسباب التى أرغمته على التسليم وتوقيع اتفاق الإسكندرية ، بعد أن أجاب الإنجليز إلى كل ما تمسكوا به من شرائط فى نظير وقف القتال ، وسماحهم بعودة جيش الشرق إلى فرنسا ؛ فعزا منو فشله فى الدفاع عن الإسكندرية إلى الصعوبات العديدة التى سبق الحديث عنها ؛ وأهمها تسليم القاهرة ، وانتشار الأمراض ، وقلة المؤن والأغذية ، وحدوث المجاعة ، واستطاعة الانجليز والعثمانيين أن يحشدوا جيوشهم الكبيرة أمام الاسكندرية ، وأن يضيقوا نطاق الحصار الشديد عليها ، وغير ذلك من الأسباب التى اعتقد منو أن فى ذكرها « تغطية » لموقفه وتهوينا من شأن أخطائه (١) . وشغل منو وشغل جيش الشرق فى الأيام التالية

(١) Rousseau 424 — 5

بالاستعداد للرحيل ، فأخلى الجنود بقية المراكز ، ونقل المرضى من المستشفيات ، وبلغ عدد الجيش (٩٥٠٧) كان منهم (٧٣٦٢) ضابطا وجنديا فى صحة جيدة ، وكان الباقون من المرضى والجرحى . من هؤلاء الأخيرين نحو الثلثمائة لم تسمح خطورة حالهم بنقلهم من الإسكندرية ، فظلوا فى مستشفياتها تحت رعاية الدكتور يونج Young كبير أطباء الإنجليز ، يساعده ضباط الصحة الفرنسيون الذين بقوا كذلك بالإسكندرية لهذا الغرض . وبين يومى ١٤ ، ٣٠ سبتمبر كان قد تم إقلاع السفن التى حملت جيش منو إلى فرنسا من أبى قير[١] . وبلغ عدد السفن التى حملت المصابين بالدوسنطريا والإسكربوط اثنتى عشرة سفينة مستشفى ، بينما حملت بقية المرضى سفينتان أخريان . وكان بعد شهرين من الجلاء أن تم شفاء المرضى الفرنسيين الذين بقوا بالإسكندرية فاستطاعوا العودة إلى أوطانهم[٢] .

أما منو وقد نال منه التعب والإجهاد خلال شهور الحصار الطويلة ، فإنه مالبث أن وقع فريسة للأمراض ؛ وكان من أسباب اشتداد العلة عليه ماأصيب به من أرق حرمه النوم مدة طويلة ؛ بسبب الهواجس التى انتابته ، وماكان يشعر به من ضخامة مسئولية التسليم الملقاة على عاتقه . وظهرت عليه عوارض مرض الطاعون فشكا من حدوث « جمرات » فى رجله اليسرى ، واستدعى الجراح لارى لعلاجه ، فنصحه (لارى) بالمبادرة بالرحيل لعله يفيد من هواء البحر ، وعلى ذلك اعتلى منو الفرقاطة الإنجليزية (ديانا) Diana فى ١٨ أكتوبر ، وصحبه (لارى) للعناية به فى أثناء الرحلة إلى فرنسا ؛ وتحسنت صحة منو رويدا رويدا حتى إذا وصل إلى طولون كان قد شفى تماما مما أصابه[٣] .

وكان منو قد اهتم قبل رحيله بمدة طويلة بتدبير سفر زوجته السيدة زبيدة وابنه سليمان مراد إلى فرنسا ، فقد حدث عند استيلاء الإنجليز والعثمانيين على رشيد أن اضطرت زوجة منو وولده إلى الفرار من رشيد وصحبها أخوها السيد على ؛ فأقامت بعض الوقت فى بلدة فوة حيث تعيش أسرتها ؛ ولكن ما إن استولى الأتراك على فوة ثم سقطت الرحمانية فى أيدى الإنجليز حتى اضطرت السيدة زبيدة إلى الفرار إلى القاهرة[٤] . فنزلت عند الضابط ألفران Alpheran أحد ياوران منو ، وكان من

---

(١) Malus 221

(٢) Reybaud VIII 426 — 7

(٣) Matin II 294

(٤) Wilson 79

رجال الكنيسة القدماء . وحضرت السيدة زبيدة وولدها وأخوها حصار القاهرة ، واستبدت المخاوف بالسيد على ، وعجز ألفران عن تهدئة روعه ، حتى إذا حدث تسليم القاهرة غادرت زوجة منو القاهرة مع جيش بليار المنسحب منها ؛ وكانت تبغى الذهاب إلى جانب زوجها ، ولكن منو الذى أصر على عدم الاعتراف بتسليم القاهرة أو الاستفادة من مواد اتفاق التسليم ، رفض مقابلة زوجه وولده حتى لا يظن إنسان — كما كتب إلى اللورد كيث فى ٢٥ يوليو — أنه يوافق على مادة من مواد تسليم القاهرة[١] ؛ وبعث فى الوقت نفسه برسالة إلى زوجه يوصيها بولده خيرا ، ويطلب إليها أن تنشئه التنشئة الصالحة ، غير أنه كان متعذرا بقاء السيدة زبيدة برشيد بعد إقلاع جيش القاهرة إلى فرنسا ، فقد عرض كل من بليار وألفران على منو أن يضم زبيدة وسليمان مراد إلى أسرته ، وطلب ألفران أوامر صريحة من منو كى يسترشد بها فى مسلكه . وعندئذ قرر منو فى ٢ أغسطس أن يطلب لزوجه وولده من اللورد كيث « جواز مرور » حتى يستطيعا الإبحار من أبى قير ، وأجاب كيث رغبة منو دون صعوبة ، وأقلعت الأسرة مع جيش بليار العائد إلى فرنسا[٢] .

وعندما وصل منو إلى طولون ، كانت مقدمات الصلح بين فرنسا وانجلترة قد وقعت فى لندن منذ أول أكتوبر ١٨٠١ ، وتسير المفاوضات بكل همة من أجل الاتفاق على شروط الصلح النهائية ، ولم يشأ القنصل الأول فى هذه الظروف تقريع قواده الذين أخفقوا فى الدفاع عن « المستعمرة » الجديدة . وأفاد بليار من هذه « الميول الكريمة » وصفح عنه القنصل الأول ، ثم أفاد من هذه الميول الكريمة كذلك قائد الحملة العام الذى وصل إلى طولون يوم ١٥ نوفمبر ، فإنه لم تمض أيام قليلة حتى كتب إليه بونابرت فى أول ديسمبر بأنه يعرف تماما رغبته الشديدة فى الاحتفاظ بمصر ، وحبه الشديد لهذه البلاد الجميلة ، وتصميمه على بقاء هذه الفتوح فى حوزة فرنسا ، ويمتدح إصراره على المقاومة الطويلة فى الإسكندرية ، تلك المقاومة التى ساعدت على تقدم المفاوضات من أجل عقد الصلح ونشر السلام[٣] . غير أن هذا « الرضاء » الظاهر لم يكن معناه أن بونابرت كان يقر فى أعماق نفسه هذا التسليم الذى أفضى إلى ضياع الفتوح الفرنسية الجديدة فى الشرق ، وقضى على كل أمل فى إنشاء المستعمرة الناجحة التى تمكن

---

(١) Rigault 361

(٢) Wilson 179 — 80 ; Walsh 226

(٣) Corresp. No. 5887

الفرنسيين من تعويض الخسائر التى تكبدوها فى ميادين الاستعمار القديمة . فقد كان من رأيه أن تسليم منو حدث قبل أوانه ، ولم يكن هناك مايدعو إلى التعجيل بقبول المفاوضة والاتفاق على الجلاء فى آخر شهر أغسطس من عام ١٨٠١ .

فقد جاء فى مذكرات نابليون التى أملاها فى سنت هيلانه : « إنه كان من الأنسب إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف التى أحاطت (بمنو وجيشه) فى آخر شهر أغسطس أن يطول أمد الدفاع حتى تصل الأمور إلى شدتها القصوى ، ولا شك فى أن جميع الضباط الذين حضروا المجلس الحربى كانوا يقرون الاستمرار على الدفاع والمقاومة إلى النهاية ، لو أن أحدا أكد لهم أن جيشا سوف يأتى لنجدتهم قبل يوم ١٥ نوفمبر ، أو بلغهم نبأ مقدمات الصلح تمهيداً لعقد السلام العام . إن ماحدث ليس سوى واحد من آلاف الأمثلة التى يزخر بها التاريخ ، والتى تنهض دليلا على أن الحاكم فى أى مكان لايجب عليه أن يفكر إلا فى أمر واحد هو الدفاع حتى النهاية ، وعلى ذلك فقد كان الواجب يقتضى (منو) الاستمرار على المقاومة حتى يقتحم العدو تحصينات برج العرب ، ويستولى على قلعتى كريتان Cretin ، وكفاريللى Cafarelli ، ويستطيع النفاذ من تلك الثغرة التى أحدثها فى خطوط تحصيناته ؛ إذ عندئذ فقط يمكن القول بأن الشرف قد سلم من الأذى ؛ وعندئذ فقط يصبح التسليم ، مهما كانت شروطه — عملا مجيدا . ولا تكون شروط التسليم مشرفة إلا إذا كانت قاسية ، إذ أنه مما يبعث على إثارة الشكوك ويسبب سوء الظن دائماً أن تستطيع حامية من الحاميات الخروج بسلام من مكان محاصر على جسر من الذهب[١] » ؛ واعتقد نابليون أنه كان لدى منو (٨٩٢٠) مقاتلا ، وأن العدو عند تسليم القاهرة وجد بها (٥٣٥) مدفعا ومائتى ألف قذيفة وثمانمائة جمل ، وثلثمائة حصان ، بينما كان بالمخازن كميات كبيرة من الأرز والبن والزيت[٢] .

وأثبت أحد الضباط الإنجليز عدد جند حامية الإسكندرية التى سلمت يوم أول سبتمبر ، فكان عدد الجنود المشاة والفرسان وضباطهم (٥٩٦٥) وعدد المدفعيين (٧٩٥) ؛ والهجانة والأدلاء والمدفعيين البحريين والمهندسين (اللغمجية والبلطجية) والبحارة الذين كانوا يعملون فى الحصون واليونان (٢٢٦٧) ؛ وعدد الجرحى (٢٤٠) والمرضى (١٣٨٧) وبلغ مجموع العسكريين (١٠,٥٢٨) ، أما المدنيون من موظفى قومسيرية الجيش والبحرية والمستشفيات والخزانة ، وهذا إلى جانب المهندسين

---

(١) Bertrand II 446 — 7

(٢) Rigault 374

الجغرافيين وأعضاء لجنة العلوم والفنون وسائر المدنيين والتجار الذين ربطوا مصيرهم بمصير الفرنسيين ، فقد بلغ عددهم (٦٨٥) أى أن مجموع من سلموا يوم أول سبتمبر ١٨٠١ كان (١١٢١٣)[١] ؛ وسواء كان الرقم الذى ذكره نابليون فيما بعد صحيحا أم سلمنا بصحة الأرقام التى ذكرها المؤرخون الإنجليز ، أو ذكرها المختصون من أعضاء المجلس الحربى الذى انعقد للبحث فى شئون التسليم ، واعتمد عليها منو فى تبرير وقف القتال وإخلاء الإسكندرية ، فإنه لا معدى عن ذكر حقيقة ظاهرة ، هى أن الرأى الشائع وقتذاك ، سواء فى فرنسا أم فى مصر كان يميل إلى الاعتقاد بأن منو كان فى وسعه إطالة أمد المقاومة ، وأنه كان لديه من الجند والعتاد والمؤن والأسلحة والذخائر ما يكفيه زمنا أطول ، لو أنه صمم على الدفاع إلى النهاية . وقد عبر نابليون فى مذكراته عن هذا الرأى فى منفاه بعد ذلك ، أما فى مصر فقد كتب أحد المعاصرين تعليقا على تسليم منو ما نصه[٢] « .. وتقاسما الدولتان الانكليزية والعثمانية جميع ما تركوه الفرنساوية لأنهم خرجوا بسلاحهم فقط ، وساروا فى مراكب الإنكليز إلى بلاد باريز ، وخلوا مدافع وجبخانات وأمتعة وذخائر وخيرات . وكان تسليم الجنرال بليار وخروجه أصلح شأنا من تسليم منو فى الذل والهوان . ولكن قد افتخر الجنرال منو على بليار بأنه ماوقع التسليم إلا بعد الحرب العظيم والجوع الجسيم ، فهذا على مقتضى شرايع مشيختهم وأحكام دولتهم » .

لقد أخذت الأخبار تذيع فى فرنسا عن حملة ١٨٠١ الفاصلة بعد معركة كانوب بزمن قصير ، فعلمت باريس فى ١٥ أبريل بنزول السير رالف أبركرمبى فى شاطىء أبى قير والتحاماته الأولى مع جيش الشرق ، وفى ٣٠ أبريل ذاعت أنباء هزيمة كانوب وتأيدت أنباء هذه الهزيمة فى منتصف مايو عندما أرسل (أوتو) الذى كان لا يزال يفاوض فى لندن أخبارها ، ونقل إلى باريس فضلا عن ذلك خبر وفاة أبركرمبى وانتقال القيادة إلى هتشنسون ، ثم لم تلبث أن ذاعت بعد ذلك أنباء سقوط القاهرة وتسليم بليار ، فكان لهذه الحوادث أثر بالغ على سير المفاوضات فى لندن ، حتى اضطر بونابرت (منذ ٢٣ يوليو) إلى إعلان عزمه على إرجاع مصر إلى الباب العالى ؛ كما اضطر إلى التساهل فى إجابة مطالب الإنجليز الذين أصروا على احتلال سيلان ، وترنداد وغير ذلك من المستعمرات الفرنسية والهولندية والأسبانية ، وذلك كله قبل

---

(١) Wilson 208 — 9

(٢) نقولا الترك ٢٢٨ — ٢٢٩

أن يزداد الموقف سوءاً فى مصر ، وتنزل بمنو الهزيمة ، ويرغم إرغاماً على تسليم الإسكندرية ، ويزداد عناد الإنجليز وتصلبهم فى وقت كان قد أصبح كل ما يهم بونابرت الاحتفاظ بالفتوح الفرنسية فى أوروبا ذاتها ، ثم الحصول بعد ذلك على شروط تحفظ لجيش الشرق شرفه العسكرى ، وتصون مصالح الجمهورية الفرنسية فى مصر ؛ لقاء جلاء الفرنسيين عن هذه البلاد وإرجاعها إلى الباب العالى ، فكان من أثر هذا التساهل أن وقعت مقدمات الصلح بين فرنسا وانجلترة فى لندن فى أول أكتوبر ١٨٠١ (١)

وكان بعد أن تم التوقيع على هذه المقدمات بثمانى ساعات فحسب أن ذاعت الأنباء فى لندن عن استيلاء الإنجليز على مرتفعات الإسكندرية ، وإرسال منو مفاوضا للعدو يطلب الهدنة وإنهاء الحرب على أساس تسليم الإسكندرية (٢) . ولا شك فى أنه لو صمد منو قليلا فى مقاومته ، لاستطاع القنصل الأول ، وقد تم الاتفاق بينه وبين الإنجليز على مصير هذه البلاد وإرجاعها إلى العثمانيين ، أن يحصل على شروط أفضل من تلك التى رضى بها منو فى ٣١ أغسطس والتى عومل الفرنسيون بمقتضاها وكأنما لم يكن لهم بالبلاد أية صلة ولن تربطهم بها روابط بعد ذلك . .

ويقول أحد المؤرخين الفرنسيين مامعناه : إن الحملة الإنجليزية التى انتهت فى عام ١٨٠١ بإرغام الفرنسيين على الجلاء عن مصر كانت بمثابة آخر جهد حربى استطاع الإنجليز أن يبذلوه لإخراج الفرنسيين من هذه البلاد ، قبل أن يعقد الصلح بين فرنسا وانجلترة ، فى وقت كانت لاتزال المفاوضات فيه دائرة بشأنه ، ولا يمكن تأجيل عقد السلام مدة طويلة : أما مايعجز المرء عن التكهن به فهو مبلغ قدرة الفرنسيين على الاحتفاظ بهذه المستعمرة ، التى خرجت عمارتهم الكبيرة من طولون فى شهر مايو من عام ١٧٩٨ لإنشائها فى ميدان الشرق الجديد ، وعلى قواعد جديدة غير تلك التى أفضى التمسك بها فى الماضى إلى فقد إمبراطوريتهم القديمة ؛ وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار أن تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير على يد نلسن مالبث أن عزل جيش الشرق فى مصر ، وفرض نطاقا من الحصار الشديد على شواطئ هذه المستعمرة الناشئة ، ومنع كل اتصال مفيد بينها وبين فرنسا . ومع ذلك فمن الثابت أن حملة ١٨٠١ لو لقيت مقاومة أكثر إحكاما وشدة ، وأبدى القواد الفرنسيون شيئاً من المهارة فى فنون

---

(١) Sorel VI 143 Et Sq ; Driault (Napoléon Et L'Europe) 183 Et Sq ; Driault I 165 Et Sq

(٢) Rigault 382

الحرب والقتال ، لاختلاف مصيرها ، بل ولحلت بها الهزيمة وانتهى أمرها — على حد قول الإنجليز أنفسهم — إلى كارثة محققة ، ولما استطاع إنسان أن يصف حملة بونابرت على مصر بأنها « مشروع جنونى[١] » .

على أنه وإن كان الفرنسيون قد عجزوا عن إنشاء المستعمرة التى انتظروا الخير من إنشائها ، ثم أرغموا على الخروج من هذه البلاد « الجميلة » إرغاما ولم يطل مقامهم بها فقد خلفوا وراءهم آثاراً عميقة اهتز لها كيانها ، فنفضت عنها غبار الماضى القديم وبدأت حياة جديدة . وكان للبحوث والدراسات التى قام بها علماء الحملة على وجه الخصوص أكبر الفضل فى توجيه البلاد إبان نهضتها الطويلة خلال القرن التاسع عشر ، منذ أن استقرت بها الأمور وخلص الحكم فيها لمؤسس البيت العلوى الكبير محمد على .

(١) Charles - Roux II 225

الفصل السادس

أثر التجربة الاستعمارية

تمهيد : التجربة الاستعمارية :

أوقعت الجيوش المتحالفة الهزيمة بالفرنسيين فاضطر منو إلى تسليم الإسكندرية ، وتحطم كل رجاء فى إمكان تأسيس مستعمرة فرنسية كبيرة فى مصر ، وكان منو من أعظم المتحمسين الذين عقدوا آمالا عظيمة على نجاح أول تجربة استعمارية قام بها الفرنسيون فى « ميادين جديدة وعلى أسس جديدة ووفق مبادىء جديدة » فى فاتحة القرن التاسع عشر ، وبعد زوال عهد إمبراطوريتهم الاستعمارية القديمة . ومع أن منو نفسه كان ولا شك مسئولا عن سرعة انهيار هذه المستعمرة الفرنسية الناشئة فى مصر ، بسبب الأخطاء العديدة التى وقع فيها منذ أن تولى قيادة جيش الشرق العامة ، وبخاصة عند ما رفض أن يستمع لنصيحة قواده المحنكين فى أثناء العمليات العسكرية التى قام بها الإنجليز والعثمانيون على نطاق واسع فى حملة سنة ١٨٠١ ، فقد تضافرت عوامل عدة جعلت إخفاق تجربة الإستعمار الفرنسى فى مصر أمراً محتوماً .

وكان أخطر هذه العوامل عجز الفرنسيين عن إرسال النجدات والإمدادات إلى جيش الشرق من فرنسا ، منذ أن تحطم أسطولهم فى معركة أبى قير البحرية ، وفرض الإنجليز حصاراً بحرياً شديداً على الشواطىء المصرية ؛ ولم تستطع حكومة الإدارة أو حكومة القنصل الأول أن تفعل شيئاً من أجل إحياء البحرية الفرنسية ، فلم يكن فى وسع كليبر أو منو اللذين خلفا بونابرت فى قيادة الحملة العامة فى مصر أن يسدّا ما حدث فى صفوف جيش الشرق من ثغرات كبيرة ، بسبب الخسائر الفادحة التى تكبدها هذا الجيش ، سواء فى معارك سوريا ، أو فى حروبه ومناوشاته المستمرة فى داخل البلاد ذاتها ، للذود عن حدودها تارة ، وإخماد المقاومة الأهلية تارة أخرى . وفضلا عن ذلك فقد تسبب عن تعذر إرسال المؤن والذخائر والأسلحة إلى جانب الرجال والمال إلى مصر ، أن ظل الفرنسيون طوال مدة إقامتهم فى هذه البلاد يعتمدون الاعتماد كله على مواردها المحدودة ، ليس فى محاولة إنشاء مستعمرتهم الجديدة فحسب ، بل كذلك فى محاولة الدفاع عن هذه المستعمرة ضد دولتين كان فى وسع إحداهما — تركيا —

أن تحشد جيوشاً كبيرة على حدودها الشرقية ، وفى استطاعة الأخرى — انجلترة — أن تنزل على شواطئها قوات نظامية تستخدم أسلحة جيدة ، وتستند فى مؤخرتها على وجود أسطول استأثر بكل سيطرة فى البحر الأبيض ، وضمن بفضل هذه السيطرة وصول الإمدادات الكثيرة إلى جيوشها ، ثم ظل من ناحية أخرى طريق البحر الأحمر مفتوحاً أمام قواتها الآتية من الهند ، للزحف على معاقل الفرنسيين من الخلف ، وحصر جيش الشرق من كل الجوانب .

وكان مما ساعد على هزيمة الفرنسيين ولاشك ذلك الانقسام الذى حدث فى صفوف الحملة ، وظهرت بوادره منذ أن بدأ جيش بونابرت زحفه الشاق من الإسكندرية إلى القاهرة ، ثم استفحل أمره بعد رحيل بونابرت إلى فرنسا ، إذ اقتنعت جماعة كبيرة من رجال الحملة وقوادها وجنودها أن لاخير فى البقاء فى مصر ، وأن لارجاء فى إنشاء مستعمرة ناجحة فى هذه البلاد ، فعمد كليبر والكليبريون إلى المفاوضة مع العدو للجلاء عن مصر بكل سرعة ، وانبرى منو وأنصار الاستعمار يقاومون هذه الرغبة ويتشبثون بالبقاء فى مصر إلى النهاية . وكان مقتل الجنرال كليبر نكبة عظيمة على الفرنسيين ، إذ زاد الانقسام خطورة ، وأخفق قائد الحملة الجديد فى جمع الكلمة ، بل إن اختيار منو لهذا المنصب الهام ، ثم موافقة بونابرت على تثبيته فى منصب القيادة العامة ، كان من أهم عوامل التفرقة ، وانصراف أحزاب الفرنسيين فى مصر إلى تدبير المكائد والمؤامرات بعضها ضد بعض ، حتى إن منو ومؤيديه من أنصار الاستعمار سرعان ماأرغموا على وقف نشاطهم على مكافحة رينييه وزملائه من الناقمين على قائد الحملة الجديد ، ثم مقاومة سائر « الكليبريين » الذين كانوا لا يزالون يرغبون فى العودة إلى الوطن ، كما انعدمت ثقة منو فى نخبة من كبار القواد الذين كانوا من أقدر العسكريين ، وفى وسعهم إذا تضافرت القوى واطمأن منو إليهم أن يبذلوا الجهد فى الدفاع عن المستعمرة .

وأحدث ذيوع أخبار هذا الانقسام آثارا سيئة بين « أهل المستعمرة » . فعلم المصريون به ، وتناقلوا خبره ، وخاضوا فى الحديث فى أمره ، ولم يكن من مصلحة الفرنسيين فى شىء أن تنكشف أمام الأهلين مواطن ضعفهم فى وقت أحدقت فيه الأخطار بالفرنسيين من كل جانب ، وكان يقرع العثمانيون والإنجليز فيه أبواب « المستعمرة » ، وينتظر المصريون بفارغ الصبر مجىء هؤلاء « الخاصين » لإنقاذهم من براثن العدو . فما كان المصريون يرضون عن احتلال الفرنسيين لبلادهم ، وأخفقت سياسة بونابرت ومنو الإسلامية — الوطنية فى جلب مودتهم ، وذلك لأسباب عدة

أهمها اعتماد الفرنسيين على موارد البلاد فحسب للانفاق على تجربتهم الاستعمارية الجديدة، وما ترتب على ذلك من لجوئهم إلى ابتكار مختلف الأساليب والحيل التى استطاعوا بها ابتزاز أموال المصريين وتجريدهم من ممتلكاتهم وأقواتهم وأرزاقهم ؛ ثم سخط المصريين ونقمتهم على «المستعمرين» الجدد بسبب تلك الأساليب الجديدة ، التى حاولوا إدخالها على حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم الموروثة ، فصاروا يتدخلون فى أخص شئونهم ، يفتشون مساكنهم ، ويقتحمون « حريمهم » ، ويهدمون جوامعهم ، ويستولون على بيوتهم ، ويهينون نخبة من علمائهم وأصحاب القول والرأى من كبار القوم، ولايستطيعون أن يعوضوهم شيئاً عن تلك الخسائر التى أصابتهم فى عقائدهم وأخلاقهم وأموالهم وأنفسهم. فلم يروا فى التنظيم الفرنسى الجديد إلا سلسلة من الشرور متصلة الحلقات ولافكاك منها.

وبلغ إخفاق الفرنسيين ، فى محاولة فهم الخلق المصرى أو إدراك حقيقة ما كان لدى المصريين من مثل عليا يسترشدون بها فى حياتهم العامة والخاصة — حداً جعل الغزاة المستعمرين يسيرون فى طريق ، بينما يسير الأهلون فى طريق آخر ، يعتقد الأولون أنهم إنما يضعون أسس الحكومة الرشيدة الصالحة فى البلاد ، ويعتقد المصريون أنهم فريسة طغيان لانهاية له ولامنجاة منه ، إلا إذا شاء العلى القدير أن يطوى صفحة الفرنسيين طيا ، ويكتب لأهل مصر الفرج القريب . ولعل أقسى ما نزل بالمصريين من صنوف الإرهاق والعنت ، وجعلهم يتوقون للخلاص من هذا الشر المستطير ، حاجة الفرنسيين للمال ، والمال الكثير ؛ وكانت حاجة دائمة وعلة مزمنة ، لازمت الفرنسيين منذ جاءوا إلى مصر إلى وقت رحيلهم عنها ؛ وكانت حاجتهم إلى المال ، ومامهد لها من أسباب ، وصحبها من حوادث ، وماترتب عليها من نتائج ، هى الصخرة الوعرة التى تحطمت عليها فى آخر الأمر تجربتهم الاستعمارية :

١ — الأثر الاقتصادى :

فقد كان لإرغام الفرنسيين على أن يعتمدوا فى بناء مستعمرتهم الجديدة على موارد البلاد فحسب آثار خطيرة ، ذلك أنه ما كان يتسنى بتاتا إنجاز كل تلك المشروعات التى عقدوا على نجاحها الأمل فى إنشاء مستعمرتهم الغنية ، دون توفر المال لديهم ، ينفقون منه على المؤسسات والتنظيمات العديدة ، التى كان لامندوحة عن وجودها لاستقامة شئون الإدارة والحكم واستتباب الأمن ، وضمان الحياة المستقرة الهادئة لعلمائهم ، ودفع الأذى وغائلة الأمراض الفاتكة عن جنودهم ، ودفع رواتب هؤلاء الجنود وتوفير سبل العيش لهم ، وإمدادهم بالأقوات والملابس ، عدا الأسلحة والذخائر ، ناهيك بإجراء

الإصلاحات اللازمة لضبط توزيع المياه وقت الفيضان وفي زمن التحاريق ، فضلا عن تشجيع التجارة وزيادة ثروة البلاد ، سواء بالعمل على إنتاج الغلات الكثيرة وتحسين أنواعها ، أم بمحاولة إحياء الصناعات الوطنية القديمة وتحسين أساليبها ، أم إدخال غيرها من الصناعات الجديدة .

وقد استلزم ذلك كله — أو بالأحرى ما استطاع الفرنسيون في أثناء إقامتهم القصيرة بهذه البلاد أن ينجزوه منها — أموالا كثيرة . ولما كان هؤلاء قد بدءوا ينفذون هذه المشروعات الواسعة منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر ، واعتمدوا في تنفيذها على كل ما يمكن أن يجمعوه من أموال من أهل البلاد ، ولجأوا في ذلك إلى أساليب وحيل منوعة ، فقد ظلت الحاجة إلى المال والمال دائماً من أقوى الأسباب التي أبعدت عنهم قلوب المصريين ، وحركت كوامن الحقد ضدهم ، وحرمتهم تعاون المصريين معهم ، ذلك التعاون الذي كان لا غنى عنه لنجاح مشروعاتهم في النهاية وبقاء هذه المستعمرة الناشئة في حوزتهم .

وقد حدث الغزو الفرنسي في وقت انخفاض النيل — في شهر يوليو — ولما كانت الضرائب لا تجبى من الأهالي إلا عند ثبوت ارتفاع النيل ووقت الفيضان في كل سنة ، فقد وجد الفرنسيون عند دخولهم القاهرة ما لا قليلا لا يكفي للانفاق على شئون الحكم والإدارة العاجلة (١) ، فشعروا بضيق شديد ، وكان من أهم أسباب هذا الضيق المباشرة أن البكوات المماليك : إبراهيم ومراد واتباعهما ، عندما تيقنوا من الهزيمة بعد معركة إمبابة ، سرعان ما عمدوا إلى الفرار من القاهرة يحملون معهم أموالهم ونفائسهم إلى جانب « حريمهم » ؛ وحذا حذوهم عديدون من كبار المصريين وصغارهم ، الذين كانوا في سعة من العيش تمكنهم من استئجار دواب الحمل لنقل متاعهم وثرواتهم ، كما أسرع أقوام كثيرون من العامة ممن لا قدرة لهم على استئجار الجمال أو الحمير بالخروج من القاهرة ، وهم يسيرون على أقدامهم ويحملون متاعهم فوق رءوسهم ، ولم يبق في القاهرة إلا كل عاجز أو مريض أو فقير ليس لديه ما يخشى عليه ، أو رضى بالاستسلام لتصاريف الزمن ، فخرج من القاهرة شيء كثير من المال والمتاع والحلى والنفائس .

على أن طالبي السلامة لم ينجوا من شرور « العربان والفلاحين » الذين ترصدوهم « خارج أبواب البلد ... فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم ، بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته ، فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوق الحصر .

(١) Charles - Roux (Bonaparte) 109

(ذلك بأن) الأموال والذخائر التى خرجت من مصر (كانت) أضعاف ما بقى فيها» .
وانتهز « الجعيدية وأوباش الناس » هذه الفرصة فانقضوا على البيوت التى تركها
أصحابها ، ينهبون ما بقى فيها من أمتعة وفرش [١] .

وعلى ذلك فقد كان تدبير المال من أولى المعضلات الشائكة التى واجهت الفرنسيين
عند دخولهم القاهرة ، وكان لامندوحة عن اتخاذ عدد من الإجراءات السريعة للحصول
على المال بكل وسيلة . وقد سبق ذكر الشىء الكثير من هذه الإجراءات فى الفصل
الثالث من هذا الكتاب : كمصادرة أملاك البكوات المماليك ، وفرض القروض الإجبارية
وإنشاء (مصلحة التسجيلات وإدارة أملاك الحكومة) ، (ومحكمة القضايا) ؛ ثم
ضبط المنهوبات والمسروقات من دور البكوات المماليك ، وإرغام زوجات البكوات على
« المصالحة على أنفسهن » ، وطلب الخيول والجمال والأبقار والثيران إلى جانب السلاح
وأخذ « المصالحات » على هذه الحيوانات فى نظير تركها لأصحابها ، وإرغام أهل
« الحرف من التجار بالأسواق » وخلافهم على دفع مبالغ معينة « على سبيل القرض »
وغير ذلك [٢] .

وبلغ من اشتطاط بونابرت فى جمع الأموال أنه فرض على تجار الإسكندرية ثلاثمائة
ألف فرنك يدفعونها فى خلال أربع وعشرين ساعة ، وعلى تجار رشيد مائة ألف فرنك
يدفعونها فى ثمان وأربعين ساعة ، وعلى تجار دمياط مائة وخمسين ألف فرنك يدفعونها
فى خلال خمسة أيام ، وتجار خان الخليلى بالقاهرة عشرة ألف ريال يدفعونها فى عشرة
أيام ، وعلى تجارة وكالة الصابون عشرة آلاف ريال ، ونقابة السقائين خمسة عشر
ألف ريال ، وتجار الغورية (وهم الذين يتاجرون فى المنسوجات الهندية) خمسة عشر
ألف ريال ، والتجار الشوام ما قيمته مائة ألف ريال عينا ونقداً ، وتجار البن مائتى
ريال ، وعلى القبط المكلفين بتحصيل الضرائب فى الأقاليم مائة ألف ريال ، فأرغم
هؤلاء وغيرهم على تقديم كل هذه الأموال قروضاً ، تعد الحكومة بسدادها إليهم عن
طريق استنزالها مما كان يجب عليهم أن يدفعوه من ضرائب عادية ، أو بطرائق أخرى [٣]

وغنى عن البيان أن هذه الأعمال سرعان ما أثارت سخط المصريين وتذمرهم ،
ليس فقط لأنهم فقدوا أموالهم التى اغتصبها الفرنسيون منهم اغتصاباً ، بل لأن هؤلاء

---

(١) الجبرتى ٣ : ٩ — ١١
(٢) الجبرتى ٣ : ١٣
(٣) Charles - Roux. op. cit. 113

لحرصهم على جمع كل ما يمكن أن يضعوا أيديهم عليه من أموال اتبعوا فى ذلك وسائل عنيفة سببت استياء المصريين الشديد . فقد عمدوا إلى اقتحام البيوت وتفتيش مساكن « الحريم » بحثاً وراء المنهوبات التى أرادوا ضبطها ، وغالى الفرنسيون فى هذا « التفتيش » حتى إن صنائعهم وأتباعهم وعدداً من أشرار جنودهم سرعان ما انتهزوا هذه الفرصة لإلحاق الأذى بالأهلين الوادعين المسالمين ونهب دورهم ومصادرة أموالهم ، وخشى بونابرت العاقبة فشدد فى منع رجاله من ارتكاب هذه المظالم ، وأنشأ لجنة لفحص الشكاوى من الشيخ السادات وروشتى قنصل النمسا العام وجونو Junot أحد قواده ، ولكن دون جدوى ؛ وعظم استياء الأهلين عندما ظل الفرنسيون يصادرون محاصيلهم وأغذيتهم وجمالهم وخيولهم ، واستولوا على ما كان لديهم من سروج وطقوم ؛ وفضلا عن ذلك فقد تعذر عليهم أن يدركوا قيمة تلك « الإيصالات » التى كانت تعطى لهم ، ويعد فيها الفرنسيون بدفع تعويض عن الحيوانات أو المحصولات التى اغتصبوها من أصحابها ، كما لم يفقهوا معنى لوجود المحكمة التجارية ومكتب التسجيل ، ولم يروا فى إنشائهما إلا وسيلة لابتزاز الأموال منهم ، وذريعة يتذرع بها الفرنسيون لانتهاك حرمة بيوتهم وإهانة نساء كبرائهم[١] .

ولما كان الإنجليز قد شددوا الحصار على الشواطىء المصرية ، وامتنع ورود التجارات أو تصدير المحاصيل والنتاج المصرى إلى الخارج ، وذلك فى الوقت الذى عمد فيه الفرنسيون إلى مصادرة أموال المصريين ومقتنياتهم ، فقد ترتب على ذلك أن كسدت التجارة وانتشر الضنك والبؤس بين طبقات الشعب ، وارتفعت الأسعار وحل الفقر بساحة كثير من « مساتير » القوم ، فافتقر عديدون من الأغنياء وعانى متوسطو الحال آلام الفاقة والجوع ، واضطر أصحاب المتاجر إلى امتهان الحرف الدنيئة ، ويقول الشيخ الجبرتى : « وأما أرباب الحرف الدنيئة الكاسدة فأكثرهم عمل حماراً مكارياً حتى صارت الأزقة خصوصاً جهات العسكر مزدحمة بالحمير التى تكرى للتردد فى شوارع مصر » ، ووجد الحمّارون رواجاً ملحوظاً بسبب إقبال « الفرنسيس » على ركوب الحمير ودفع الأجور الكبيرة ، حتى إن « الكثير منهم يظل طول النهار فوق ظهر الحمار دون حاجة سوى أن يجرى به مسرعاً فى الشارع »[٢] . أما أولئك الذين لم يشاءوا تأجير الحمير للفرنسيس فقد لجأوا إلى أعمال اللصوصية وقطع الطريق .

(١) Ibid 112 — 120

(٢) الجبرتى ٣ : ٤٥

واختل الأمن اختلالا كبيراً عندما أكثر العربان من الإغارة على القرى وأطراف المدن الكبيرة ، وعظم طغيانهم ، حتى اضطر بونابرت ، ولما يمض قليل على وجوده بالقاهرة ، إلى تأليف فرقة « من طوائف الأجنـــاد والبطالين » برياسة برتليمى Barthélemy (برتلميوسيرا Bartholomeo Sera) أو « برطلمين النصرانى الرومى ، (وكانت) تسميه العامة فرط الرمان ، (وقلده بونابرت) كتخدا مستحفظان [(١)] » وكانت مهمته منع اعتداءات العربان ومن يلوذ بهم من العامة ، وصون الأمن والسلام حول القاهرة . ولكن (برطلمين) سرعان ما فهم مهمته على غير وجهها الصحيح ، فإذا خانه الحظ ولم يعثر بعدد من العربان فى طريقه ، انقض على « الفلاحين » الوادعين فقطع رءوسهم ، وأحضرها إلى السلطات الفرنسية بالقاهرة دليلا على عنايته بتنفيذ أوامرهم ، وقد حدث ذات مرة عقب عودته من جولة خارج القاهرة أن طلب (برطلمين) المثول بين يدى (ديوى) Dupuy قومندان المدينة ، وكان ديوى قد أولم وليمة لبعض كبار القواد والضباط من هيئة أركان حربه ، فلما ألح برطلمين بالدخول أذن له (ديوى) بذلك ، فأفرغ (الرومى) كيساً مملوءاً بالرءوس التى أطاحها تحت المائدة وكأنه قد أتى عملا جليلا ، وغلبته الدهشة العظيمة عند ما طرده ديوى شر طردة [(٢)] . ومع ذلك اعتمد الفرنسيون على برطلمين وجماعته فى إرهاب أهل العاصمة ، وتفتيش دور المصريين ، ومصادرة أموالهم ، وجمع الغرامات التى فرضوها عليهم ، ثم فى تنفيذ ما كان يصدره الفرنسيون من أوامر لتنظيم القاهرة ، وما يتخذونه من إجراءات استلزمها على حد قولهم ضرورة حماية جندهم من الأوبئة والأمراض من جهة ، واعتداء الأهلين عليهم من جهة أخرى [(٣)] .

ب — الأثر الإجتماعى :

وواقع الأمر أن الفرنسيين فى مدة إقامتهم بهذه البلاد لم يحاولوا بتاتاً أن يتعرفوا إلى المصريين ، أو يتغلغلوا فى أوساطهم ، حتى يقفوا على حقيقة شعورهم ، وما كان يجول بأذهانهم ، أو ما كانت تحدثه « إصلاحاتهم » العديدة ، والسريعة التى أرادوا منها إلى جانب الحصول على المال لسد نفقات « الحملة » ، أن يخلقوا من عاصمة البلاد بلداً أوروبيا يضارع عاصمتهم باريس فى بهائها وروائها ، وكثرة ملاهيها و (قهاويها)

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٢

(٢) Reybaud IV 129 — 31

(٣) Charles - Roux 106 — 8 ؛ Reybaud IV 143 ؛ الجبرتى ٣ : ٤٣

وأنديتها وملاعبها ، حتى يكفلوا لجنودهم ورجالهم عيشاً هنيئا سعيداً . وفاتهم أنه من المتعذر على حكومتهم الجديدة أن تغير أخلاق القوم وعاداتهم ، وما درجوا عليه من أساليب العيش القائمة على التمسك بالتقاليد الإسلامية من عصور قديمة بين طرفة عين وانتباهتها . وفاتهم أن هذه « الإصلاحات » التى نظر إليها المصريون كما ينظرون إلى « البدع » وكل أمر مستهجن ممقوت ، إنما تتعارض مع ما كانوا يدعونه ويذيعونه عن إسلامهم واحترامهم لشعائر الدين الحنيف ، ويحاولون إقناع المصريين بأنهم كانوا من حماته ومن المنافحين عنه .

ولا جدال فى أن بعض هذه الإصلاحات التى تستلزمها عناية الفرنسيين بشئون الصحة العامة فى القاهرة والمدن الكبيرة خصوصاً ، حرصاً منهم على عدم انتشار الأوبئة وفتك الأمراض الخطيرة بجنودهم ، كالطاعون والزهرى والرمد وغير ذلك ، كانت « إصلاحات » ضرورية ، ويصيب المصريون من إجرائها كل فائدة . ولكن تفكير بونابرت وقواده فى المحافظة على سلامة الجنود ورجال الحملة وعلمائها قد طغى على كل تفكير فيما قد ينجم عن هذه الإصلاحات من نتائج يقع أثرها على القاهريين وأهل المدن عموما . ولعل أكبر ما يؤخذ على الفرنسيين فى هذا الشأن أنهم حاولو أن يفرضوا فرضاً على المصريين نوعاً من الحضارة الأوروبية كان مقضيا عليه بالفشل لسبب بسيط ظاهر ، هو أن بونابرت وأنصار التجربة الاستعمارية فى مصر لم يكن فى وسعهم أن يعنوا بغير مظاهر هذه الحضارة الأوروبية المادية ، فى وقت كانت بحوث علمائهم لا تزال فى مراحلها الأولى ، ولما تكتمل بعد تلك الدراسات التى كان من المنتظر أن تصبح أساساً لكل إصلاح يراد إدخاله إلى هذه البلاد ، حتى يثمر ثمرته المنشودة بفضل اطمئنان المصريين إليه وقبولهم له .

ولقد كان من مقتضيات تلك السياسة الإسلامية — الوطنية ، التى وضع بونابرت أصولها واتبعها خلفاؤه ، أن يحتفل الفرنسيون بأعياد أهل البلاد الدينية ، ويحترموا شعائرهم وعاداتهم ، وأن يحاولوا جذب قلوب المصريين إليهم ، باستمالتهم والتقرب منهم وعقد أواصر المحبة والصداقة مع كبرائهم ومشايخهم ، ومحاولة الاختلاط مع عامتهم ، حتى يطمئن إليهم سواد الشعب ويرضى الناس بما قدر عليهم [١] .

وهذه ولا شك كانت سياسة حكيمة ولا مناص من نجاحها فى النهاية فى كسب مودة المصريين والقاهريين منهم على وجه الخصوص ، لو أن الفرنسيين حاولوا معرفة شىء

---

(١) الجبرتى ٣ : ٤٥

عن نفسية ذلك الشعب الذى فرضوا عليه سلطانهم قهراً ، وكانوا غرباء عنه لا يربطهم به دين أو جنس أو لغة ، ولا يزال أفراده متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، ولم يطرأ عليها أى تغيير من أجيال طويلة . ولكن الفرنسيين الذين كانوا قد نبذوا ظهريا دينهم منذ اشتعال الثورة الكبرى فى بلادهم ، لم يكن فى وسعهم مهما حاول رجال من طراز بونابرت أو منو — أخذوا على عاتقهم تنفيذ سياسة إسلامية واضحة المعالم — أن يتحرروا من ذلك الإلحاد الذى جعلهم يعيشون فى عالم مادى يقيسون فيه مراتب السعادة بما قد ينالهم فى حياتهم من لذة أو ألم حسى ، فباتوا ينظرون إلى الموالد والمواسم المصرية ذات الصبغة الدينية نظرهم إلى احتفالاتهم وأعيادهم الفرنسية فينتهزوها فرصة للترفيه عن أنفسهم ، والاشتراك مع الدهماء وأراذل القوم فى الإقبال على المباذل ، والأخذ بأسباب المجون والخلاعة .

وفضلا عن ذلك فإنه ما كان يتسنى أى نجاح لهذه السياسة الإسلامية عندما اعتمد دعاتها على جيش الشرق فحسب ، فى تشييد صرح تلك المستعمرة التى أرادوا إنشاءها فى مصر ، ذلك بأن رجال الحملة من المدنيين والعلماء كانوا قلة ، وتصرفهم شئون الإدارة والبحث العلمى عن مخالطة سواد الشعب ، ولم تتح الفرصة للفرنسيين أن يجلبوا إلى هذه البلاد جالية مثقفة كبيرة ، بسبب انقطاع المواصلات بين مصر وفرنسا ، فلم يعرف أكثرية المصريين وسواد القاهريين غير الجنود فحسب ، واعترف كثيرون من رجال الحملة أنفسهم أن عديدين من الأدنياء وأراذل الفرنسيين جاءوا مع جيش الشرق مقاتلين أوملحقين بخدمة الجيش والإدارة ، وأن هؤلاء ما كانوا يأبهون لتلك الأوامر والتعليمات التى أصدرها بونابرت ، وحرص على تنفيذها قواده وسائر جنده ، لإظهار احترامهم الكامل لعادات الأهالى ودينهم وتقاليدهم ، واحترام نسائهم والمحافظة على حرمة بيوتهم ، فارتكب هؤلاء الطغاة المفسدون جرائم كثيرة ، وعمد بونابرت إلى التخلص من أشرارهم ، كما جند عديدين منهم فى جيشه وفرض عليهم رقابة صارمة (١) .

ومع ذلك — وعلى الرغم من عقوبات بونابرت القاسية — فقد تعذر على قواد الحملة استئصال شأفتهم ، بل إنهم مالبثوا أن ألفوا من بينهم عصابات مسلحة جعلت ديدنها السطو والنهب ، واتخذت ميدانا لنشاطها ضواحى القاهرة وأطرافها خصوصا ، واشتهر أمر هذه العصبة المخربة التى سمت نفسها (جماعة القمر) ، وزادت شرورها وقوى بأسها ، حتى إن منو بعد أن تسلم مقاليد الحكم لم يجد مناصا من تجريد قوة

---

(١) Reybaud IV 101 — 2

كبيرة لتعقبها ومطاردتها ، وأعدم كثيرين منها رميا بالرصاص ؛ وإن لم يقض ذلك على كل شرورها ، إذ ظل القاهريون وأهل القرى المجاورة معرضين للاعتداء عليهم إلى وقت خروج الحملة ، وإن قلت حوادث الاعتداء عليهم عن ذي قبل (١) .

أما جيش الشرق فما كان يصلح لأن يكون نواة المستعمرة الجديدة ، وما كان فى استطاعة الجند ، مع تظاهرهم باحترام التقاليد والشعائر الدينية وعادات الأهلين ، أن ينزعوا عنهم لباس ذلك الجندى ، الذى إذا عاد من معركة أو حرب وفتحت له المدن الكبيرة أبوابها انطلق يعبث فى شوارعها وأزقتها وأنديتها العامة والخاصة ، بل فى بيوت أهلها الوادعين المسالمين ، عله يجد فى هذا العبث منفذاً لعواطفه المكبوتة ، وراحة لأعصابه المرهقة . وكيف يستطيع جند جيش الشرق أن يغالبوا سنن الطبيعة ، وهم الذين خاضوا غمار المعارك ، وقاسوا ألوانا من المشقة والتعب فى أثناء زحفهم على القاهرة ، وأدركوا خطورة مأزقهم فى هذه البلاد بعد أن حطم الإنجليز أسطولهم ، وضربوا حصاراً شديداً على الشواطىء المصرية ، حتى كادوا يقطعون كل صلة بين الفرنسيين فى مصر وبين أرض الوطن ، وأنهكت قواهم تلك المقاومة العنيفة التى مافتئت قائمة بشتى أساليبها ، تارة فى صورة ثورة جامحة وحروب ، وأخرى فى طيات تذمر عميق لايدع مجالا لأى تعاون قد يطمع الفرنسيون فيه من جانب المصريين ؛ ثم تذوقوا طعم الهزيمة تحت أسوار عكا المنيعة ، وارتدوا على أعقابهم مدحورين ، وشاهدوا القاهريين يسخرون منهم ، ويرجون نزول الكوارث بساحتهم ، ويهللون ويصفقون كلما نظروا جماعة من رفقائهم آتية من أقاصى الصعيد وقد أثخنتهم الجراح ونال الإعياء منهم كل منال (٢) .

فكان لامناص من أن ينتهز هؤلاء فرصة الاحتفال بالأعياد الدينية والمواسم ، إلى جانب أعيادهم الفرنسية ، حتى يخففوا من حدة بلايام بالانطلاق وسط صخب الموالد وضجيج الأعياد والاحتفالات ، يتشاجرون مع العامة والدهماء ، بل يتقاتلون معهم ، ويزاحمون أدعياء « الولاية » وغيرهم من الدراويش « والبله » فى شرورهم ومفاسدهم يعتدون على النساء ، ويستثيرون بفعالهم أهل النخوة والشهامة من القاهريين ، فيقتل منهم من يقتل ويقتلون من يقتلون ، ويتدخل (برطلمين) بجماعته المرهوبة المكروهة « لقمع الفتنة » وإعادة النظام (٣) .

---

(١) Galland II 301 — 2

(٢) الجبرتى ٣ : ٢١ ، ٢٥ ، ٥٣

(٣) Galland II 24 — 6; Villiers 71 — 2; Reybaud V 173 — 5

المواله والأعياد :

وأما أعياد المصريين وموالدهم المشهورة ، التى شهدها الفرنسيون مدة وجود الحملة بهذه البلاد وحرصوا على الاحتفال بها ، وارتكبت فى أثنائها كل هذه الشرور والمفاسد فكانت الاحتفال بشهر الصوم ، والعيدين الصغير والكبير ، وإمارة الحج والكسوة الشريفة ، والمولد النبوى ، ومولد السيدة زينب ، ومولد السيد على البكرى ، ومولد الحسين ، والاحتفال بوفاء النيل . وعلاوة على ذلك احتفل الفرنسيون بعيد جمهوريتهم كما أكثروا من إقامة الزينات فى كل مناسبة ، فاحتفلوا بذكرى واقعة ريفولى Rivoli وعند رجوعهم من حملة الشام ، ونظموا مهرجانات عدة كلما عمد « مخترعهم » كونتيه Conté إلى إطلاق « بالونانه » فى الجو ، وعملوا « شنكا » ، وضربوا مدافع كثيرة كلما أتتهم الأخبار بانتصار بونابرت فى حملة الشام ، أو وصلت إحـــدى سفنهم إلى الشواطىء المصرية من فرنسا .

وكان أسبق الأعياد التى أصر الفرنسيون على الاحتفال بها منذ نزولهم فى هذه البلاد إثبات هلال رمضان لعام ١٢١٣ هجرية (فبراير ١٧٩٩) ، « فأعرض حسن أغا محرم المحتسب لسارى عسكر (بونابرت) أمر ركوبه المعتاد لإثبات هلال رمضان ، فرسم له بذلك على العادة القديمة ، فاحتفل لذلك المحتسب احتفالا زائداً وعمل وليمة عظيمة فى بيته أربعة أيام » للعلماء والفقهاء والمشايخ والوجاقلية والتجار والأعيان ، ثم دعا فى رابع يوم « أكابر الفرنساوية وأصاغرهم » . وظل أكابر الفرنسيين « يدعون أعيـــان الناس والمشايخ والتجار (طوال شهر رمضان) للافطار والسحور ، ويعملون لهم الولائم ويقدمون لهم الموائد على نظام المسلمين وعادتهم ؛ ويتولى أمر ذلك الطباخون والفراشون من المسلمين تطميناً لخواطرهم » . كما صار الفرنسيون من جانبهم يترددون على المشايخ وكبراء المصريين « ويحضرون عندهم الموائد ويأكلون معهم فى وقت الإفطار ويشاهدون نظامهم وترتيبهم ويحذون حذوهم [1] » ، وعند انتهاء شهر الصوم احتفل الفرنسيون بالعيد الصغير فى أول شـوال (٨ مارس ١٧٩٩) بأن « ضربوا عدة مدافع لشنك العيد ، واجتمع الناس لصلاة العيد فى المساجد والأزهر » ، وصلى بالنـــاس الشيخ عبد الله الشرقاوى فى الجامع الأزهر ، وقال الخطبة ، وكان الشيخ محمد المهدى قد أعدها له ، وقد تحدث الشيخ فى هذه الخطبة عن مناقب بونابرت ، وذكر أن سارى

(١) الجبرتي ٣ : ٤٥ ، ٥٠ .

عسكر قد قر رأيه على إعلان إسلامه « عاجلا أو آجلا » ، وتوعد الشيخ فى هذه الخطبة بنزول غضب الله على كل امرئ قد تحدثه نفسه بمخالفة أوامر قاهر المماليك ونصيرهم أحمد باشا الجزار والى عكا (١) .

وأحدث احتفال الفرنسيين بشهر الصوم والعيد وما « وقع منهم من المسايرة للناس وخفض الجانب » دهشة كبيرة ؛ و « تعجب » عقلاء المصريين مما حدث ، وإن كان واضحا أن اهتمام بونابرت ورجاله بإحياء رمضان ، ثم طوافهم بعد ذلك « على أعيان البلد » وتهنئتهم بالعيد ، ما كان ليقنع المصريين بصدق نواياهم ، أو يجذب قلوبهم نحو أولئك الذين أرهقوهم بمطالبهم المالية ، وبما فرضوه عليهم من « إصلاحات » وتنظيمات سوف يأتى ذكرها ، فأظهر الشيخ الجبرتى عجبه من هذه « المسايرة » ، وكان حريصاً على إثبات شكوكه فى نواياهم بقوله تعليقا على هذه المسايرة وخفض الجانب : « الله أعلم » — أى أعلم بنواياهم الحقيقية ومقاصدهم . كما ذكر أن الناس صاروا يقابلون تهنئة الفرنسيين لهم فى أيام العيد بالمجاملة « و بالمداراة أيضا » . وكان مما عكر صفو هذ العيد أن انتهز « بعض الحرافيش » فرصة خروج « الرجال والنساء لزيارة القبور » فأشاعوا أن العرب قد نزلت عليهم ، « فهاجت الناس وانزعجت النساء ورمحت الجعيدية والحرافيش وخطفوا ثياب النساء وأزرهن وما صادفوه من عمائم الرجال وغير ذلك » ، حدث ذلك فى « نواحى تربة باب النصر . . . واتصل (كذلك) بتربة المجاورين وباب الوزير والقرافة ، حتى إن بعض النساء مات تحت الأرجل ، ولم يكن لهذا الكلام صحة ، وإنما ذلك من مخترعات الأوباش لينالوا أغراضهم من الخطف بذلك » . فانقضى العيد وسط انزعاج العامة من جهة ، وعجب الخاصة من فعال الفرنسيين وزيادة شكوكهم فى نواياهم من جهة أخرى (٢) .

ثم لم تمض أيام قلائل على هذه الحوادث حتى كان الفرنسيون قد أخذوا أهبتهم للاحتفال « بموكب كسوة الكعبة المشرفة » وكان بونابرت قد احتفل « بتقليد » مصطفى بك كتخدا الباشا (أى وكيل سيد أبو بكر باشا حاكم مصر العثمانى وقت مجيء الفرنسيين إلى هذه البلاد) على « إمارة الحاج » منذ أول سبتمبر ١٧٩٨ ، « فحضروا إلى المحكمة عند القاضى ولبس (مصطفى بك) هناك الخلعة بحضرة مشايخ الديوان ، والتزم بونابرته بتشهيل مهمات الحج وعمل محلا جديدا » لهذا الغرض . وكتب إلى غالب شريف مكة يخبره بهذا التعيين ،

---

(١) Reybaud V 147 — 8

(٢) الجبرتى ٣ : ٥٥

ويطلب إليه منع العربان من الاعتداء على الحجاج ، ورد عليه الشريف رداً حسناً [١]

ويقول مؤرخو الحملة [٢] أن العادة قد جرت من أزمان قديمة على أن يحتفل المصريون « بالكسوة » فى أول يوم سبت يأتى بعد انتهاء شهر الصوم ، ولما كان قد انقضى هذا اليوم دون حدوث موكب الكسوة ، فقد تطايرت الإشاعات فى القاهرة عن سبب هذا التأخير ، وقال الناس إن الفرنسيين إنما يريدون من تعطيل الكسوة منع الحج إلى بيت الله الحرام فى هذه السنة وعلى ذلك فقد بادر الفرنسيون بدعوة الناس إلى الاحتفال « بموكب كسوة الكعبة المشرفة ، فلما أصبح يوم السبت (٩ شوال و١٦ مارس) اجتمع الناس فى الأسواق وطريق المرور ، وجلسوا للفرجة » ثم مر موكب الكسوة . على أن استخدام الفرنسيين «لعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة » ، ثم طلوع (برطلمين) المكروه فى هذا الموكب بوصفه كتخدا مستحفظان ، سرعان ما أفقد هذا الاحتفال روعته . فقال الشيخ الجبرتى : وكانت «هذه الركبة من أغرب المواكب وأعجب العجائب لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال وتنوع الأمثال واجتماع الملل وارتفاع السفل وكثرة الحشرات وعجائب المخلوقات واجتماع الأضداد ومخالفة الوضع المعتاد [٣] » .

ومع أن الفرنسيين كانوا قد صادروا أموال الناس واغتصبوا مقتنياتهم ، وأرغموهم على دفع مختلف أنواع الضرائب ، بفضل تلك الأنظمة المالية والإدارية التى وضعوها ، فقد أصروا كذلك على أن يحتفل الناس بالعيد الكبير — عيد النحر ؛ فما أن غربت شمس يوم الأربعاء ٩ ذى الحجة ١٢١٣ (١٥ مارس ١٧٩٩) حتى «ضربوا مدافع من القلعة إعلاما بالعيد وكذلك عند الشروق » ويقول الشيخ الجبرتى « ولم يقع فى ذلك العيد أضحية على العادة لعدم المواشى ولكونها محجوزة فى الكرنتيلة والناس فى شغل عن ذلك » وكان من سوء حظ الفرنسيين أنه كادت تقع فتنة كبيرة فى هذا اليوم (أول يام العيد) عندما انطلق فى سوق الجمالية « غلام مملوك » لأحد التجار (الازمرلية) « وسيفه مسلول بيده ويقول الجهاد يامسلمين اذبحوا الفرنسيس » . وكان هذا الغلام يريد قتل سيده ولكن صاحبه كشف أمره ، فصادف أثناء مروره بجهة الغورية ثلاثة من الفرنسيين قتل أحدهم وهرب الآخران ، وعلا الصخب والضجيج وترامى إلى

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٦ ؛ Galland I 113 — 7

(٢) Reybaud V 151 — 2

(٣) الجبرتى ٣ : ٥١

أسماع الفرنسيين أن هذه الفعلة علامة لاشتعال فتنة مدبرة ، فأرسلوا (برطلمين) لقمعها « وبادر إلى القلاع ... وهاجت العامة وصحت الصغار وأغلق بعض الناس حوانيتهم ، ثم لم تزل الفرنسيس تسأل عن ذلك المملوك » حتى عثر عليه (برطلمين) مختبئاً فى خان بالجمالية فقبضوا عليه واعترف بفعلته وأعدمه الفرنسيون فى اليوم التالى (١) .

وكان المولد النبوى من أهم الأعياد الدينية التى عنى بونابرت عناية عظيمة بالاحتفال بها كدعامة من دعامات سياسته الإسلامية ، ووسيلة للتقرب من المصريين وكسب صداقتهم ، وضمان تعاون علمائهم ومشايخهم مع حكومته . وعلى ذلك ما إن حان موعد إقامة هذا المولد بعد دخول الفرنسيين إلى القاهرة بأسابيع قليلة ، ولما يبدأ المصريون استعداداتهم للاحتفال به حتى سأل بونابرت عن سبب ذلك « فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال » ، فأصر بونابرت على ضرورة الاحتفال به « وأعطى (الشيخ البكرى) ثلثمائة ريال فرانسا معاونة ، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد فى الهواء (٢) » .

وألبس بونابرت فى أول أيام المولد الشيخ البكرى « فروة » وقلده نقابة الأشراف ، بدلا من السيد عمر أفندى النقيب السابق ، وهو السيد عمر مكرم الذى غادر البلاد إلى سوريا عقب واقعة إمبابة ، وأدب الشيخ البكرى مأدبة عظيمة لبونابرت وكبار رجال الحملة ، وأقام حفلة ذكر شهدها بونابرت وصحبه (٣) . وطلب بونابرت فى الوقت نفسه إلى كليبر بالاسكندرية ومنو برشيد إحياء المولد النبوى ، ولما كان كليبر لا يؤمن فى قرارة نفسه بجدوى « هذه المسرحيات الدينية » ، فقد نزل على رغبة القائد العام متضجرا ، فأقيمت الزينات بالأسكندرية . أما منو ، وكان من مؤيدى سياسة بونابرت الدينية ويعتقد بجدواها فى جذب قلوب المصريين ، فقد اهتم بالأمر اهتماما كبيراً ، ولكنه فوجىء بامتناع مشايخ رشيد عن الموافقة على الاحتفال

---

(١) الجبرتى ٣ : ٦١ — ٦٢ ؛ Reybaud V 173 — 5

(٢) الجبرتى ٣ : ١٥ — ١٦

(٣) Reybaud III 376 — 8

بالمولد ، واضطر إلى استخدام الوعيد والتهديد معهم قبل أن يحصل منهم على «فتوى» بإجازة الاحتفال بالمولد ، فأقيمت الزينات فى رشيد كذلك [١] .

ومع أن بونابرت كان قد قرر الرحيل إلى فرنسا بعد عودته من حملة سوريا ، فقد حرص قبل مغادرة البلاد بأقل من أسبوعين تقريبا على أن يجرى الاحتفال بالمولد النبوى فى شهر ربيع الأول من سنة ١٢١٤ (أغسطس ١٧٩٩) ، كما حدث فى العام السابق ؛ « فعمل المولد النبوى (فى ٩ أغسطس) بالأزبكية ، ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم ، وتعشوا عنده ، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ، ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج قناديل واصطناع مهرجان » [٢] .

وغادر بونابرت البلاد بعد ذلك فى مساء يوم ٢٢ أغسطس ، وتولى الجنرال كليبر قيادة الحملة العامة بعده ، ولكن الأجل لم يمتد بالقائد الجديد حتى يشهد احتفال المولد النبوى التالى ، لأنه لم يلبث أن قتل فى غضون شهر يونيه من عام ١٨٠٠ ، وانتقلت القيادة العامة إلى منو . واحتفل منو بالمولد احتفالا كبيراً فأطلقت المدافع فى صباح يوم ٢ أغسطس ١٨٠٠ ، وأقام الشيخ خليل البكرى « من سلالة النبى الكريم » مأدبة عظيمة بهذه المناسبة للجنرال منو وكبار قواده ورجال الإدارة الذين وجدوا بالقاهرة وقتئذ ، كما حضرها نفر من أعيان المصريين ، وأقيمت الزينات فى جميع أنحاء المدينة فى المساء [٣] . ومع ذلك فإن الشيخ الجبرتى لم يجد ما يدونه فى حوادث هذا الشهر (ربيع الأول سنة ١٢١٥) سوى قوله : « وفيه نادوا على الناس الخارجين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر من بعد إثنين وثلاثين يوما من وقت المناداة نهبت داره وأحيط بموجوده وكان من المذنبين . واشتد الأمر بالناس وضاقت منافسهم (وتابع الفرنسيون) نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته واحتجب سارى عسكر (منو) عن الناس وامتنع من مقابلة المسلمين وكذلك عظماء الجنرالات وانحرفت طباعهم عن المسلمين زيادة عن أول واستوحشوا منهم (وكان ذلك ولا شك بسبب قتل كبيرهم السابق كليبر) ونزل بالرعية الذل والهوان وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد الأقباط والشوام

---

(١) Ibid 377 — 8

(٢) الجبرتى ٣ : ٨١

(٣) Pièces Officielles 380 — 3 ; Galland I 302

والأروام بالإهانة حتى صاروا يأمرونهم بالقيام إليهم عند مرورهم ، ثم شددوا فى ذلك حتى كان إذا مر بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم إليه بعض الناس على أقدامه رجعت إليه الأعوان وقبضوا عليه وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة واستمر عدة أيام فى الاعتقال ثم يطلق سراحة بشفاعة بعض الأعيان [1] ».

ولم يشهد الفرنسيون بعد ذلك احتفالا بالمولد النبوى فى الديار المصرية ، ذلك بأنه لم يجىء وقت الاحتفال به حتى كان بليار قد أخلى القاهرة منذ منتصف يوليو ١٨٠١ ، وكان الإنجليز والعثمانيون يشددون الحصار على منو فى الإسكندرية التى انقطعت عنها المؤن وسدت دونها المسالك ، وكان العثمانيون والبكوات المماليك قد عادوا إلى القاهرة ، وكان من نصيب هؤلاء إقامة أول احتفال بالمولد النبوى بعد خروج الفرنسيين من عاصمة البلاد ، فنودى فى يوم ٢ أغسطس ١٨٠١ « بتزيين الأسواق من الغد تعظيما ليوم المولد النبوى الشريف ، فلما أصبح يوم الأربعاء كررت المناداة والأمر بالكنس والرش فحصل الإعتناء وبذل الناس جهدهم وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير والزردخان والتفاصيل الهندية (وذلك على الرغم) من تخوفهم من تعرض هذه النفائس لنهب العسكر العثمانى) . وعند المساء أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد وحصل الجمع بتكية الكلشنى على العادة وتردد الناس ليلا للفرجة وعملوا مغانى ومزامير فى عدة جهات وقراءة قرآن وضجت الصغار فى الأسواق وعم ذلك سائر أخطاط المدينة العامرة ومصر وبولاق ، وكان من المعتاد القديم أن لا يعتنى بذلك إلا بجهة الأزبكية حيث سكن الشيخ البكرى لأن عمل المولد من وظائفه وبولاق فقط »[2] .

فجاء الاحتفال عظيما فخما ، واشترك الناس فيه عن رغبة صادقة ، ذلك بأن المصريين الذين أرغم عقلاؤهم وكبارهم وشيوخهم على الاحتفال بالمولد النبوى أيام الفرنسيين ، ما كانوا يفعلون ذلك فى واقع الأمر إلا مجاراة ومداراة لهم ، وهم الذين أوقعوا بهم صنوف الإرهاق والمغارم ، وخيل إليهم الوهم أن مجرد إقامة الموالد كفيل وحده باجتذاب قلوب المصريين . ولعله كان فى وسع الفرنسيين أن يفلحوا فيما أرادوه لو أنهم رفعوا عن الأهلين المظالم والمغارم ، وترفقوا بهم فلم يسلبوا أموالهم وأرزاقهم ، ولعله كان فى وسعهم كذلك أن يقنعوا المصريين بحسن نواياهم ، وأنهم إنما قصدوا من الاحتفال بالمولد النبوى الشريف تمجيد نبيهم الكريم ، والمحافظة على شعائرهم

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٤٢

(٢) الجبرتى ٣ : ٢٠٠ — ٢٠١

الدينية وتقاليدهم ، لو أنهم راعوا قدسية هذا اليوم ، ومنعوا جنودهم من الاشتراك مع الدهماء والرعاع فى انتهاك حرمته . فقد ثبت أن عديدين من كل هؤلاء كانوا ينتهزون فرصة المولد فى ميدان الأزبكية فيقيمون حول المولد الزينات وتحتشد المكان بالنساء ، ومدعى الولاية و (المجاذيب) أو « البله » — كما يسميهم الشيخ الجبرتى — والدراويش ، فيختلط الحابل بالنابل ، وتجرى أمور يشمئز منها صاحب كل خلق كريم ، ولا يقرها شرع أو دين ، بل يقع كثير من المخازى عياناً جهاراً دون تستر أو احتشام ومما لا يليق ذكره [١] .

وما من شك فى أن أحدا ما كان يجرؤ على ارتكاب هذه الفعال الشنيعة لو أن كبار الفرنسيين عرفوا كيف يفرضون رقابة صارمة على جنودهم وصغارهم وأرغموا أعوانهم من أهل الطوائف غير الإسلامية القاطنة فى مصر على عدم التبذل والاحتشام ، مسايرة للفرنسيين ومحاكاة لهم .

وواقع الأمر أن بونابرت الذى ابتدع « هذه السياسة الإسلامية » ، كوسيلة هامة من وسائل دعم الحكم فى المستعمرة الجديدة ، لم يكن يعنى على ما يبدو بغير ظواهر الأمور فحسب ، ويكفيه من الحرص على شعائر القوم وتقاليدهم أن تجرى الاحتفالات الدينية وتقوم المواسم « الوطنية » فى مواسمها المعتادة وبكل أبهة وتفخيم . بل إن التحمس لإقامة هذه الموالد ما لبث أن بلغ ذروته عند ما أصر على ضرورة الاحتفال بمولد السيدة زينب ، فعلقت القناديل فى جامعها وأقيمت الزينات ، وأدب السيد محمد السادات مأدبة عظيمة حضرها بونابرت ورجاله [٢] . وفضلا عن ذلك فقد قرر بونابرت إحياء الاحتفال بمولد السيد على البكرى ، وكان الناس قد شغلوا عن هذا المولد « وأهمل شأنه فى جملة المهملات وترك مع المتروكات » عند مجىء الفرنسيين إلى هذه البلاد .

وكان السيد على البكرى « رجلا من البله وكان يمشى بالأسواق عريانا مكشوف الرأس والسوأتين غالبا » اتخذ أخوه « وكان صاحب دهاء ومكر . . من ميل الناس (له) واعتقادهم فيه كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله » وسيلة للتكسب ، « فحجر عليه ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثياباً وأظهر للناس أنه أذن له بذلك وأنه تولى القطبانية ونحو ذلك فأقبلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به وسماع ألفاظه والإنصات إلى

---

(١) Villier 71 — 72

(٢) Galland I 96 — 7

تخليطاته وتأويلها بما فى نفوسهم » وعند وفاته دفنه أخوه بجامع الشرايبى بالأزبكية بالقرب من الرويعى وبنى له مقصورة ومقاما « فهرعت لزيارة قبره النساء والرجال بالنذور والشموع وأنواع المأكولات وصار ذلك المسجد مجمعاً وموعداً » ، وكان من أسباب نفور عقلاء القوم من هذه البدعة أن أصحابه رتبوا « المقرئين والمداحين وأرباب الأشاير والمنشدين (يذكرون كرامات السيد على البكرى) وأوصافه فى قصائدهم ومدحهم ونحو ذلك ويتواجدون ويتصارخون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه فى أعبابهم وجيوبهم » . تلك صورة ما كان يحدث بهذا المولد الذى أراد بونابرت الآن إحياءه ، الأمر الذى جعل خيار القوم يلصقون بالقائد الفرنسى تهمة العمل على إفساد الأخلاق فكتب الشيخ الجبرتى «فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج على الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهى وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد[1]» .

وكذلك أصر بونابرت على الاحتفال بالمولد الحسينى ، وكان الشيخ محمد السادات المكلف بعمله قد اعتزم أن يترك الاحتفال به ، فوشى به الواشون لدى الفرنسيين وقالوا إن « غرض الشيخ السادات عدم عمله إلا إذا حضر المسلمون » ، فبادر الشيخ دفعا لهذه التهمة عن شخصه إلى الاحتفال بالمولد « وشرع فى عمله على سبيل الاختصار وحضر سارى عسكر (بونابرت) وشاهد الوقدة ورجع إلى داره بعد العشاء »[2] . على أنه مالبث القاهريون إن أرغموا على الاحتفال بمولد الحسين مرة أخرى فى ١٦ يناير ١٧٩٩ ، وكان قد « ترك هذا المولد فى جملة المتروكات » فأعيد إحياؤه الآن ، وحدث فى أثنائه مثل ماكان يحدث فى المولد النبوى من ارتكاب « السوقة وأهل الحرف السافلة » للمخازى والمعاصى ؛ بل بلغ من عدم تبصر الفرنسيين أنهم فتحوا قهوة فى « خط المشهد الحسينى » ظنا منهم أنهم إنما يكسبون بذلك محبة القاهريين وصداقتهم ، فصار الناس يختلفون إليها للجلوس والسهر حصة من الليل « والتسلى والخلاعات ، وعم ذلك جهات تلك الخطة ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة وتلك هى طبيعة الفرنساوية » على حد قول الشيخ الجبرتى . ويعزو الشيخ عمل المولد بعد حادث السيد السادات إلى أن زائرى هذه القهوة سرعان

---

(١) الجبرتى ٣ : ٨٥ — ٨٦
(٢) الجبرتى ٣ : ٢٣

ماحسنوا لصاحبها — وكان يهودياً من عملاء الفرنسيين وتراجمهم — إعادة هذا « المولد الشهرى (لما) يقع فى لياليه من الجمعيات والمهرجان » فكان الاحتفال[1] .

وكان الاحتفال بوفاء النيل من أهم الأعياد الوطنية التى عظمت فيها الزينات و « المهرجانات » ، ووقع فيها من حوادث المجون والخلاعة الشىء الكثير ، فكانت هذه الاحتفالات سبباً فى زيادة نفور عقلاء المصريين وأهل الطبقة المتوسطة من القاهريين الذين ساءهم أن يشاهدوا العامة وطوائف الأروام والشوام ومن إليهم يجارون الفرنسيين فى مباذلهم ، بل ويبزونهم فى أسباب اللهو والمجون ، مستهترين بالعادات والتقاليد فى بلد إسلامى على حين يحاول بونابرت وكبار رجال « دولته » فى مصر أن يقنعوا أهل البلاد وأهل الشعوب الإسلامية المجاورة بأنهم يحترمون الدين الحنيف ويحرصون على عدم إلحاق الأذى بشعور المسلمين ويحافظون على عادات المصريين وتقاليدهم ، وآية ذلك — كما يقولون — تلك الاحتفالات التى يقيمونها فى كل مناسبة من مناسبات الأعياد الدينية والوطنية فى مصر . فكان ما يقع من حوادث مشينة فى هذه الأعياد ، وخصوصاً فى أثناء الاحتفال بوفاء النيل وفتح الخليج ، من العوامل التى فوتت على الفرنسيين غايتهم ، وبصرت المصريين بحقيقة نواياهم ، وجعلتهم لا يصدقون دعاوى هؤلاء الغزاة الأجانب ، ولا يأبهون « بتمويهاتهم » وأباطيلهم .

وحدث أول احتفال بوفاء النيل بعد دخول بونابرت إلى القاهرة بأسابيع قليلة ، فما بزغت شمس يوم ١٨ أغسطس ١٧٩٨ (٥ ربيع الأول ١٢١٣) حتى خرج بونابرت من القاهرة يقصد مقياس الروضة ، يحف به أركان حربه ويصحبه أعضاء الديوان وأغا الانكشارية وأعيان المصريين وكتخدا الباشا والقاضى ، واصطفت الجنود على طول الخليج حتى النهر ، وازدحمت فى النيل « عدة مراكب وغلايين » مزينة بالاعلام ، واحتشد جمع غفير من الناس على طول الطريق بين الخليج ومصر العتيقة ، يدفعهم حب الاستطلاع إلى الخروج لمشاهدة هذه الزينات الجديدة ، ثم أطلقت المدافع محيية عند وصول بونابرت وصحبه إلى المقياس ؛ وأعلن شيخ المقياس مقدار الارتفاع الذى سجله الفيضان فى هذا العام — وكان خمسة وعشرين قدماً — فشرعوا بعد ذلك « فى كسر الجسر » ، وجرت مياه النهر فى الخليج . والقيت (عروس النيل) فى النهر وقت انطلاق المياه ، وألقى بونابرت حفنة من النقود الذهبية

(١) الجبرتى ٣ : ٤١ — ٤٢

فى الخليج ، كما بدر على الجمع المحتشد من الأهالى وعامة الناس كميات كبيرة من (الميدى) ، وهرع الناس لالتقاطها ، ثم ألبس نقيب الاشراف الفرو الأبيض ، والمُلاّ فرواً أسود ، ووزع عدداً من (القفاطين) على الرؤساء وكبار المصريين ، وعاد بموكبه إلى داره بالأزبكية .

ويقول مؤرخو الحملة الفرنسية[١] إن سرور الناس بهذا الاحتفال وحماسهم له كان عظيما ؛ وفضلا عن ذلك فقد حمد الله كثيرون وأثنوا على رسوله الكريم ، وأظهروا الشكر لجيش الفرنسيين الذى خلصهم من طغيان البكوات المماليك ، الذين أكثر القوم من استنزال اللعنات عليهم ، وصاروا يقولون لقد شاءت إرادة المولى أن يأتى بونابرت لتحريرنا من طغيان المماليك فكتب له النصر عليهم ، وشاءت إرادته تعالى أن يعم الخير فبلغ وفاء النيل المبارك حداً لم يبلغه منذ قرن من الزمان . وانقضى بقية اليوم فى مرح وحبور . وغنى عن البيان أن هذا القول يحمل فى طياته كثيراً من المغالاة ، بل قد يبعد ما حدث فعلا عن الحقيقة بعداً كبيراً ، ذلك أن القاهريين الذين خرجوا لنجدة إبراهيم ومراد متسلحين « بالعصى والنبابيت » وبكل ما وصلت إليه أيديهم أيام واقعة امبابة المعروفة ، ثم خبروا الشىء الكثير من أساليب الفرنسيين الإدارية ، ووقع عليهم الإرهاق بسبب مطالب هؤلاء المالية ، وما فرضوه على القاهريين وكبارهم من مغارم منوعة ، ما كانوا ليتحمسوا هذا التحمس الذى يدعيه مؤرخو الحملة الفرنسيون فى إبداء حفاوتهم بقائد الفرنسيين ، وإظهار الشكر والحمد على ما ابتلوا به . ويقول الشيخ الجبرتى فى حوادث هذا اليوم : « وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والإفرنج البلديين ونسائهم وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها[٢] » .

وكان هؤلاء الشوام والإفرنج البلديون ونساؤهم والناس البطالون هم الذين أحيوا كذلك الاحتفال بوفاء النيل فى العام التالى ، ارتكبوا خلال هذا الاحتفال فعالا شنيعة وكان القائم بشئون الاحتفال بوفاء النيل فى السنة التالية (١٢١٤ هجرية ، ١٧٩٩ ميلادية) : الجنرال دوجا حاكم القاهرة ؛ ذلك أن بونابرت كان قد غادر البلاد إلى فرنسا منذ ٢٢ أغسطس ، وكان كليبر قائد الحملة العام الجديد متغيبا عن القاهرة ، فذهب دوجا فى صبيحة يوم الاحتفال (٢٤ ربيع الأول ، ٢٦ أغسطس) مع هيئة أركان حربه

---

(١) Reybaud III 374 — 6

(٢) الجبرتى ٣ : ١٠

إلى (الكوشك) المنصوب عند مدخل الخليج ، يصحبه أعضاء الديوان والأعيان وعدد كبير من الجند المشاة والفرسان ، وصدحت الموسيقى ، وأحاطت بالعقبة السفن والقوارب المسلحة والمزينة ، وأطلقت المدافع ، وبدر دوجا النقود فى الخليج وتسابق الناس لاختطافها ، وألقيت عروس النيل فى النهر ، وانقضى اليوم ومساؤه[1] — على حد قول الفرنسيين — فى حبور شامل ، وانتهز الشوام والإفرنج البلديون ونساؤهم والناس البطالون هذه الفرصة فخلعوا العذار وشاركوا الفرنسيين فى مجونهم وخلاعتهم ، فقال الشيخ الجبرتى : « وخرج النصارى البلدية من القبطة والشوام والأروام وتأهبوا للخلاعة والقصف والتفرج واللهو والطرب وذهبوا تلك الليلة إلى بولاق ومصر العتيقة والروضة واكتروا المراكب ونزلوا فيها وصحبتهم الآلات والمغانى ، وخرجوا فى تلك الليلة عن طورهم ورفضوا الحشمة وسلكوا مسلك الأمراء (البكوات المماليك) سابقاً من النزول فى المراكب الكثيرة المقاديف وصحبتهم نساؤهم وقحابهم وشرابهم ، وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين ، وبعضهم تزيا بزى أمراء مصر ولبس سلاحاً وتشبه بهم وحاكى ألفاظهم على سبيل الاستهزاء والسخرية وغير ذلك . وأجرى الفرنساوية المراكب المزينة وعليها البيارق وفيها أنواع الطبول والمزامير فى البحر ، ووقع فى تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف . وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورذالة الرقاعة بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم ، بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه وما يخطر بباله وإن لم يكن من أمثاله :

« إذا كان رب الدار بالدف ضاربا   فشيمة أهل الدار كلهم الرقص[2] »

وما كان الفرنسيون بمثل هذه الاحتفالات المشينة يستطيعون أن يكسبوا مودة المصريين وصداقتهم ، ولم يكن انضمام السوقة والرعاع إلى أجنادهم وأنصارهم من أهل الطوائف غير المصرية أو غير الإسلامية ، مؤذناً بنجاح سياستهم « الإسلامية — الوطنية » بل أحدثت هذه الاحتفالات أذى بليغاً فى نفوس عقلاء القاهريين ، وزادت نفورهم من حاكميهم الجدد . وواقع الأمر أن هؤلاء السوقة والرعاع أنفسهم لم يلبثوا هم الآخرون أن انصرفوا عن هذه الاحتفالات ، عندما تذوقوا قسوة ذلك العقاب

---

(١) Galland I 179 - 81

(٢) الجبرتى ٣ : ٨١ - ٨٢

الصارم الذى أنزله بهم الفرنسيون عقب ثورة القاهرة الثانية ، واشتد الرعب على أثر مقتل الجنرال كليبر ، وتبدل مسلك الفرنسيين عموماً نحوهم بعد هذه الحوادث الجسيمة . ولذلك فإنه على الرغم مما كان يبديه الجنرال منو قائد الحملة الجديد بعد كليبر من عظيم الاهتمام باقتفاء خطوات بونابرت فى سياسته الإسلامية الوطنية ، وحرصه على الاحتفال بوفاء النيل فى عام ١٨٠٠ (١٢١٥ هجرية) ، فإن أحداً من من القاهريين لم يقدم على المساهمة فى هذا الاحتفال سوى مشايخ الديوان والموظفين الرسميين بحكم مناصبهم ، وطائفة من الدهماء الذين أغراهم مايبدره القائد العام عادة من نقود فى مثل هذه المناسبات ، ولم يغادروا بيوتهم .

فلم يذكر الشيخ الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الثانى من عام ١٢١٥ هجرية الذى وقع فيه الاحتفال بوفاء النيل فى تلك السنة شيئاً عن هذا المهرجان ، بل اقتصر على ذكر ما وقع على المصريين فى أثنائه من مغارم ومظالم وما شاهدوه وأصحاب الوكائل والخانات من سلب أموالهم ونهب متاجرهم وذلك إلى جانب هدم الدور وإنشاء القلاع وما إلى ذلك(١) . ثم اكتفى عند تدوين حوادث شهر جمادى الأولى بالإشارة إلى « زيادة النيل زيادة مفرطة » فى هذا العام « لم يعهد مثلها . . حتى انقطعت الطرقات وغرقت البلدان وطف الماء من بركة الفيل وسار إلى درب الشمسى وكذلك حارة الناصرية وسقطت عدة دور من المطلة على الخليج(٢) » .

وفضلا عن ذلك فقد وقع يوم الاحتفال بوفاء النيل فى ٢٨ أغسطس ١٨٠٠ (٧ ربيع الثانى ١٢١٥) من الحوادث المروعة ماذهب ببهاء هذا اليوم — إذا كان له بهاء أو رونق — فقد غرق عديدون عند محاولتهم العثور على قطع النقود التى ألقاها منو فى النهر ، وبلغ من شدة التيار بسبب علو الفيضان وتدفق المياه أن فقدت بعض النسوة أطفالهن عندما دفعن بفلذة أكبادهن إلى الماء للبركة ولشفاء أطفالهن من الأمراض على نحو ما اعتدن فعله كل عام ، ونفذ الماء المتدفق الشديد من ثغرة أحدثها فى حاجز أقامه الفرنسيون عند مدخل ميدان الأزبكية لمنع المياه من الوصول إليه ، وكانت قد حطت برحالها قافلة كبيرة فى هذا الميدان ، ففوجىء أصحابها بتدفق المياه عليهم ، فساد الهرج والمرج ، وعلا الصياح ، وعظم رغاء الجمال ، وحدثت ضوضاء وجلبة شملت حى الأزبكية

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٤٢ — ١٤٣
(٢) الجبرتى ٣ : ١٤٤

بأجمعه ، حتى إذا تبين الناس حقيقة ماحصل سرى عنهم[1] ؛ وكان ذلك الحادث « التسلية » الوحيدة التى وجد فيها القاهريون مايفرجون به عن أنفسهم وسط مالازمهم من نكد وعسر مقيم باتوا يتوقون إلى الخلاص منه وينتظرون فرج الله القريب .

وأما الدهماء فقد شاركوا الفرنسيين على عادتهم فى الاحتفال بوفاء النيل فى هذه السنة . فوصف الشيخ الجبرتى مافعله هؤلاء عندما أخذ يلخص حوادث هذا العام ، وكان كل ماعنى الشيخ بتدوينه إلى جانب أعمال الهدم « والتخريب » التى قام بها الفرنسيون ، ذلك الهبوط الخلقى الذى حدث بين العامة ونسائهم ، فقال « ومن حوادث هذه السنة (أى سنة ١٢١٥ هجرية) تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء . وهو أنه لما حضر الفرنسيون إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن . وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى إخفائه . فلما وقعت الفتنة الأخيرة (ثورة القاهرة الثانية) وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما يستحسنون من النساء والبنات صرن مأسورات عندهن فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية وتداخل مع هؤلاء المأسورات غيرهن من النساء الفواجر . ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها ، فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات وخصوصاً عقول القاصرات . وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة فى سلطانهم ونوالهم فيظهر حالة العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزييات بزيهم ومشوا معهم فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية والأحكام

---

(١) Galland I 309 — 11

العادية والأمر والنهى والمناداة وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس مثل ماير الحاكم ويأمرن وينهين فى الأحكام . . . وأما الجوارى السود فإنهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجا فرادى وأزواجا فنططن الحيطان وتسلقن إليهم من الطيقان ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك[1] » .

وكان من هؤلاء النسوة المتبرجات ابنة الشيخ البكرى ، وقد تبرأ منها أبوها عند خروج الفرنسيين واقتص منها القوم بأن « كسروا رقبتها » . وكذلك امرأة أخرى اسمها « هوى » كانت زوجة إسماعيل كاشف المعروف بالشامى ، أحد الذين خرجوا من مصر مع من خرج منها حين دخول الفرنسيين ، وقد تزوجت هذه المرأة من (نقولا القبطان) فاستأذن إسماعيل كاشف الصدر الأعظم عند جلاء الفرنسيين « فى قتلها فأذنه ، فخنقها ومعها جاريته البيضاء أم ولده ، وقتلوا أيضا امرأتين من أشباههم[2] » .

وأما الاحتفال بوفاء النيل فى هذا العام فقد وصفه الشيخ بقوله « إنه لما أوفى النيل أزرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن فى المراكب والرقص والغناء والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت فى تحريك المقاديف بسخيف موضاعاتهم وكثائف مطبوعاتهم وخصوصا إذا دبت الحشيشة فى رؤسهم وتحكمت فى عقولهم فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم شىء كثير[3] » .

ولم يتح للفرنسيين الاحتفال بوفاء النيل بعد ذلك ، لأنه ما حل موعد هذا الاحتفال فى العام التالى حتى كان هؤلاء قد ارتحلوا عن القاهرة ، فما إن تم وفاء النيل المبارك — فى ٢٨ ربيع الأول ١٢١٦ ، ٨ أغسطس ١٨٠١ — حتى « ركب محمد باشا المعروف بأبى مرق المرشح لولاية مصر فى (صبح ذلك اليوم) إلى قنطرة السد ،

(١) الجبرتى ٣ : ١٧٠
(٢) الجبرتى ٣ : ٢٠٢
(٣) الجبرتى ٣ : ١٧١

وكسروا جسر الخليج بحضرته وفرق العوائد وخلع الخلع ونثر الفضة والذهب[١] » ، ولم يقع شىء من تلك المخازى والمعاصى التى اعتاد القاهريون مشاهدتها أيام الفرنسيين .

تلك كانت احتفالات الفرنسيين بأعياد المصريين ومواسمهم ؛ وظاهر من التفاصيل التى ذكرناها أن بونابرت ومؤيدى الاستعمار الفرنسى فى هذه البلاد ، من أصحاب السياسة الإسلامية الوطنية ودعاتها ، قد اخفقوا فى كل ما عقدوه على اتباعها من آمال عظيمة لجذب قلوب المصريين نحوهم ، واستمالتهم إلى التعاون معهم ، أو الرضا بحكم هؤلاء الأجانب « الملاحدة » لهم . وظاهر أن السبب فى إخفاقهم هو أنهم حاولوا أن يجعلوا من هـذه الأعياد والمواسم وسيلة للتسلية ، والتسرية عن نفوسهم هم ، لا لإدخال الطمأنينة والسرور على نفوس أهل البلاد . والحقيقة أن الفرنسيين منذ قدومهم إلى هذه الأقطار ما كانوا يعنون فى حياتهم الاجتماعية إلا بشىء واحد ، هو توفير أسباب المسرات لرجالهم المقيمين بالقاهرة وغيرها من المدن الكبيرة ، وإتاحة الفرصة لحامياتهم أو لجنودهم العائدين من مختلف المعارك ، سواء ما وقع منها فى داخل القطر فى الوجهين البحرى والقبلى أم فى خارجه ، فى أثناء حملة الشام ، أم على حدود البلاد وشواطئها الشمالية والشرقية ، حتى يجدوا من صنوف اللهو وأسباب المرح ما يخفف من وطأة ما كانوا فيه من نصب وإعياء ، فأجازوا لأنفسهم الخروج عن واجب اللياقة والاحتشام فى أثناء هذه الموالد والأعياد ، وشجعوا نصراءهم من طوائف الشوام والأروام ومن إليهم على مجاراتهم وخلع العذار .

ومع ذلك فإن هـذه الأعياد والمواسم كانت قليلة ومتباعدة ، ولا يكفل إحياؤها إقامة المهرجانات المستمرة ، وخلق حياة من اللهو واللعب تحمل ذلك الطابع الفرنسى ، الذى كان لا مندوحة عنه للتسرية عن نفوس كبار رجالهم وصغارهم وأجنادهم ومن انضوى تحت لوائهم . فعقدوا العزم منذ أن دانت لهم القاهرة أن يقيموا بها نوعاً من الحياة يجعل من هذه العاصمة الشرقية (باريس) جديدة ، لا تختلف فيما حاولوا أن يضفوا عليها من مظاهر البهجة والسرور — فى نظرهم — عن العاصمة الفرنسية ذاتها ، فاتخذوا لذلك وسائل عدة ، بعضها متعلق بشئون تنظيم « وتنظيف » القاهرة ، والآخر بإنشاء الحانات والقهاوى والأندية ، وإعداد مسرح لتمثيل الهزليات والمآسى من جهة ، ثم إحياء أعيادهم القومية والإكثار من المهرجانات « الفرنسية » والحفلات الراقصة وما إلى ذلك من جهة أخرى .

---

(١) الجبرتى ٣ : ٢٠٢

باريس الصغيرة :

ونجم عن شدة اشتياقهم إلى خلق هذه العاصمة المرحة ، أو باريس الصغيرة — على حد قولهم ، أو القاهرة الخليعة — على نحو ما اعتقد الشيخ الجبرتى ونظراؤه ولا شك من عقلاء المصريين — أنه لم يمض زمن طويل على وجودهم بالقاهرة حتى كانت القهاوى والمطاعم (ذات الموائد والكراسى على الطراز الفرنسى ، بدلا من الجلوس على المصاطب أو المقاعد الحجرية) ، ثم (مشارب البيرة) — أو (البارات) ، قد أنشئت فى أحياء القاهرة ، وفتحت أبوابها تستقبل الفرنسيين ومن سار سيرتهم من أفراد الطوائف التى رحبت بهذا النوع الجديد من الحياة . وقد تقدم كيف افتتح أحد صنائع الفرنسيين (قهوة) فى حى المشهد الحسينى ، يسهر فيها الناس حصة من الليل ويعلو صياحهم وصخبهم ؛ وفضلا عن ذلك فقد افتتح أحد مشارب البيرة فى أهم الطرق بين القاهرة ومصر العتيقة . على الرغم من أن الفرنسيين كانوا يشكون من صنف البيرة الردىء التى أنشئت بعض الفاوريقات لصنعها من مواد استعيض بها عن حشيشة الدينار [1] . وأقيمت فى هذه المشارب والمطاعم حفلات رقص المخاصرة وصدحت الموسيقى . وكان من علامات التحول الجديد التى سر لها الفرنسيون كثرة اللافتات التى وضعها أصحاب المحال التجارية وغيرها على محالهم ، وكانت الكتابات التى على اللافتات باللغة الفرنسية [2] .

على أن أهم ما فعله الفرنسيون لإنعاش الحياة الاجتماعية فى « باريسهم الصغيرة » أنهم أنشأوا بالقاهرة فى نوفمبر ١٧٩٨ ملهى كبيراً يشبه ملهى تيفولى Tivoli الباريسى وسموه بنفس الاسم ، أنشأه دارجيفل Dargeavel رفيق بونابرت القديم فى مدرسة بريين Berienne الحربيــة ، فاختار داراً له قريبة من ميــدان الأزبكية أحد قصور البكوات المماليك ، وكانت تحيط بالدار حــديقة واسعة تظلل طرقاتها أشجار البرتقال والليمون وتنساب الجداول فى كل أنحائها . وكان مبنى التيفولى يضم حجرات عدة ، يمضى فيها الفرنسيون رجالا ونساء أوقاتهم فى الحديث أو القراءة والاستماع إلى البحوث العلمية تارة ، أو للعب البلياردو وغيره من الألعاب وإقامة حفلات الرقص والاستماع للموسيقى تارة أخرى . كما كان يجتمع الحواة والمهرجون من « أولاد البلد » لتسلية القوم ، ويقصد التيفولى كذلك عدد من المغنيات والراقصات — أو العَلْمات —

---

(١) Galland II 12

(٢) Reybaud IV. 66

الوطنيات ، لإدخال السرور والبهجة على قلوب أصحابه ؛ وتصدح موسيقى الجيش بأنغامها الشجية والحماسية فى حديقته التى عنى الفرنسيون دائماً بتعليق القناديل على أشجارها وعمل الزينات الكبيرة فى الأعياد والمواسم خصوصا (١) .

وكان من المشكلات التى واجهها منشئوا هذا الملهى أنه ما كان يوجد بالقاهرة وقتئذ عدد من النساء الفرنسيات يكفى لإحياء الحفلات الراقصة ، أو للمساهمة فى أنواع اللهو والتسلية ، وذلك لأنه لم يكن فى استطاعة السيدات الفرنسيات مرافقة أزواجهن أو أصدقائهن عند خروج جيش الشرق إلى مصر ، فاضطر عدد منهن للاندساس بين الجنود وهن متنكرات فى زى الرجال ، كما فعلت زوجة الجنرال فرديه Verdier الإيطالية الأصل . أو زوجة الضابط فوريس Fourès ، فلم يزد عدد النساء الفرنسيات على ثلثمائة سيدة تقريبا ، بينما بلغ عدد الرجال حوالى أربعة آلاف . وقدحاول بونابرت علاج هذه المشكلة بالكتابة إلى حكومة الإدارة ، يطلب منها العمل على إرسال مائة امرأة ، وكذلك زوجات الفرنسيين الذين حضروا إلى هذه البلاد ولم يحضروا معهم زوجاتهم (٢) ولما كان الانجليز قد جعلوا بفضل سيطرتهم البحرية كل اتصال بين فرنسا ومصر متعذرا ، ولما يستطع بونابرت تحقيق رغائبه ، فقد عمد جند الحملة إلى علاج هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة بأساليبهم الخاصة بهم . فتزوج البعض من نساء مصريات وإن كانوا قد حرصوا على إبقاء زوجاتهم محجبات فى البيوت — وصادق آخرون عددا من الوطنيات المستهترات ، أو عاشروا زنجيات من الرقيق وهكذا (٣) . كما عالج بونابرت هذه المشكلة بطرائقه الخاصة أيضاً ، فوقع اختياره على (مدام فوريس) وكان قد قابلها فى إحدى حفلات التيفولى الراقصة — واشتهر أمر السيدة (بليولى) بين الجند ، فأطلق هؤلاء عليها اسم « قائدتنا بليلوت Bélilote الصغيرة » ، وقد لاحقت هذه السيدة بونابرت حتى بعد عودته إلى فرنسا ، ولكنه لم يأبه لها بعد ذلك (٤) .

وأقام الفرنسيون مسرحا لتمثيل الروايات « الكوميدية والتراجيدية والأوبرا كوميك » ، فى الوقت الذى أنشأوا فيه ملهى تيفولى الكبير ، وصادفتهم كذلك فى مبدأ الأمر صعوبة العثور على ممثلات ، فصار الرجال يتزيون بزى النساء ، ويقومون بأدوار السيدات فى هذه التمثيليات ، واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن حتى رضيت بعض الفرنسيات الاشتراك فى التمثيل . وقد ظل هذا المسرح قائما حتى أواخر

(١) Ibid 68 — 9

(٢) Villiers 85 ; Ibid 70

(٣) Galland I 87; II 307

(٤) Reybaud IV 72 — 7 ; Villiers 86

عهد الحملة فى مصر (١) . وكانت تقوم حفلات التمثيل مرة أو مرتين كل عشرة أيام ، فيقصد (التياترو) إلى جانب الفرنسيين كبار المصريين وكبار النصارى الشوام والأروام وأهل الطوائف الأخرى ، وكان المسيحيون يصطحبون معهم فى بعض الأحايين نساءهم . وأما القواد والضباط الفرنسيون فكانوا يحضرون هذه الحفلات ومعهم نساؤهم وجواريهم الجركسيات والجورجيات الحسان ، وهذا عدا كثيرات من الزنجيات ، كما كان يحضر كذلك النساء الفرنسيات . وكان الحسان الجركسيات والجورجيات يجلسن فى مقصورة — أو لوج — مخصص لهن ، فى الناحية المقابلة (لألواج) القواد والرؤساء . وكانت الزنجيات أشد افتتانا من غيرهن برؤية هذه المشاهد أما السيدات الروميات والشاميات فكان يسوءهن أن يرين الممثلين يقومون بأدوار النساء ويتزيون بزيهن ، حتى إن إحداهن مالبثت أن صاحت عند رؤيتهم ومشاهدة مناظر التمثيلية الغريبة « إن ما أراه لا يمكن أن يفعله الإله ، وإنما ذلك من فعل الشيطان نفسه » (٢) .

وأما عقلاء المصريين فقد وجدوا فى ذلك كله دليلا جديداً على انغماس الفرنسيين فى حياة اللهو والخلاعة ، وحرصهم على نشر الفساد فى البلاد ، فقال الشيخ الجبرتى وهو يدون حوادث شهر جمادى الثانية ١٢١٣ (نوفمبر ١٧٩٨) ، « ومنها أنهم (أى الفرنسيين) أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة ، منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه ويكون مأذوناً وبيده ورقة » ، ثم قال عند الكلام عن الاحتفال بأول يوم من أيام شهورهم فى ١٥ شوال ١٢١٣ ، ٢٢ مارس ١٧٩٩ إنهم « عملوا ليلة السبت شنكا وحراقة وسواريخ وتجمعوا بدار الخلاعة نساء ورجالا وتراقصوا وتسابقوا وأوقدوا سراجا وشموعاً وغير ذلك وأظهر الأقباط والشوام مزيد الفرح والسرور (٣) » .

واتخذ الفرنسيون ميدان الأزبكية ، ومنتزه التيفولى مكاناً لحفلاتهم التى حرصوا على إقامتها دائماً فى عيد الجمهورية الفرنسية عند بداية أول شهورهم ، وكانت هذه حفلات باذخة ، عنوا عناية فائقة بترتيبها وتنظيمها ، وتوفير أسباب اللهو والسرور

---

(١) Galland II 218 ; Villiers 283

(٢) Galland II 12 — 4

(٣) الجبرتى ٣ : ٣٤ ، ٥٣

« والخلاعة » فى أثنائها على نطاق واسع ، فطيروا (البالونات) وأكثروا من الزينات وجلبوا الحواة واللاعبين ، وأفسحوا مكاناً للراقصات والمغنيات (والعلمات) الوطنيات ، وأقاموا المراقص وتبذلوا فى لهوهم ومجونهم لدرجة كبيرة . ووقع أول احتفالاتهم فى يوم ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨ فاستعدوا له استعداداً عظيما ، منذ أواخر الشهر السابق فقال الشيخ الجبرتى : « وفى أواخره (أى فى أواخر شهر ربيع الأول ١٢١٣) كان انتقال الشمس لبرج الميزان وهو الاعتدال الخريفى فشرع الفرنساوية فى عمل عيدهم ببركة الأزبكية وذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهورية ببلادهم فجعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً ، فنقلوا أخشاباً وحفروا حفراً وأقاموا بوسط بركة الأزبكية صارياً عظيما بآلة وبناء وردموا حوله تراباً كثيراً عالياً بمقدار قامة وعملوا فى أعلاه قالباً من الخشب محدد الأعلى مربع الأركان ولبسوا باقيه على سمت القالب قماشاً ثخينا طلوه بالحمرة الجزعة وعملوا أسفله قاعدة نقشوا عليها تصاوير سواد فى بياض ووضعوا قبالة باب الهواء بالبركة شبه بوابة كبيرة عالية من خشب مقفص وكسوها بالقماش المدهون مثل لون الصارى وفى أعلى القوصرة طلاء أبيض وبه تصاوير بالأسود مصور فيه مثل حرب المماليك المصرية معهم وهم فى شبه المنهزمين . بعضهم واقع على بعض وبعضهم ملتفت إلى خلف وعلى موازاة ذلك من الجهة الأخرى بناحية قنطرة الدكة التى يدخل منها الماء إلى البركة مثل بوابة أخرى على شكلها لأجل حراقة البارود وأقاموا أخشاباً كثيرة منتصبة مصطفة منها إلى البوابة الأخرى شبه الدائرة متسعة محيطة بمعظم فضاء البركة بحيث صار عامود الصارى الكبير المنتصف المذكور فى المركز وربطوا بين تلك الأخشاب حبالا ممتدة وعلقوا بها صفين من القناديل وبين ذلك تماثيل لحراقة البارود أيضاً ، وأقاموا فى عمل ذلك عدة أيام »(١) .

ثم يمضى الشيخ فيقول « وفى يوم السبت حادى عشره (١١ ربيع الثانى ١٢١٣، ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨) كان يوم عيدهم الموعود به ، فضربوا فى صبيحته مدافع كثيرة ووضعوا على كل قائم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة ، الخيالة والرجالة ، واصطفوا صفوفا على طرائقهم المعروفة بينهم ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبطة والشوام فاجتمعوا ببيت صارى عسكر بونابرته وجلسوا حصة من النهار ولبسوا فى ذلك اليوم ملابس الافتخار ولبس المعلم جرجس الجوهرى كركه بطرز قصب على أكتافها إلى أكمامها وعلى صدرها شمسات قصب بأزرار وكذلك فلتيوس وتعمموا بالعمائم الكشميرى وركبوا البغال الفارهة وأظهروا البشر

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٧ — ١٨

والسرور فى ذلك اليوم إلى الغاية . ثم نزل عظماؤهم وصحبتهم المشايخ والقاضى وكتخدا الباشا فركبوا وذهبوا عند الصارى الكبير الموضوع بوسط البركة ، وقد كانوا فرشوا فى أسفله بسطا كثيرة ، ثم إن العساكر لعبوا ميدانهم وعملوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفا حول ذلك الصارى وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم لايدرى معناها إلا هم وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ ، ثم قاموا وانفض الجمع ورجع صارى عسكر إلى داره فمد سماطا عظيما للحاضرين ، فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التى على الحبال والتماثيل والأحمال التى على البيوت وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسواريخ ونفوط وشبه سواقى ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار ثم فكوا الحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة وبقيت البوابة المقابلة لباب الهواء والصارى الكبير وتحته جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلا ونهاراً من عساكرهم لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم فى زعمهم (١) » .

وهذا الوصف الذى أتى به الشيخ صحيح فى جملته وتفاصيله . فقد اجتمعت حاميات القاهرة ومصر العتيقة وبولاق بميدان الأزبكية ، وقصد بونابرت المكان فى الساعة السابعة من صبيحة ذلك اليوم تحيط به هيئة أركان حربه وقواده ورؤساء الإدارة الفرنسيون وأعضاء المجمع العلمى والديوان ، وممثلو دواوين الأقاليم وعدد كبير من الشيوخ والعلماء والأعيان وأغا الانكشارية وغيرهم ؛ وما أن اكتمل عقد المحتفلين بهذا العيد حتى وقف الجنرال بواييه Boyer عند قاعدة « الصارى الكبير » يلقى على الجنود « منشور » بونابرت إلى عسكره ، يعدد انتصاراتهم ويثير حماستهم ، وقد باتوا منذ مجيئهم إلى هذه البلاد موضع الأنظار ، ليس فى فرنسا فقط بل فى أوروبا بأجمعها، حيث أصبح يتوقف على جهودهم ونشاطهم ومايبذلونه من تضحية ، عقد السلام العام ، وانتعاش التجارة وعودة الرخاء والسعادة إلى العالم ونشر ألوية الحرية على ربوعه . أما تلك « العظة » التى جاء ذكرها فى كلام الشيخ الجبرتى فكانت « ترتيلا » أعده لهذه المناسبة بارسيفال دى جرانميزون Parseval de Grandmaison ، وريجل Rigel وكلاهما من أعضاء المجمع العلمى (٢) .

وقد ألصق الفرنسيون على القماش الذى غطوا به الصارى ورقاً كتبوا عليه أسماء

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٧ — ١٩

(٢) Reybaud III 380 — 3

أولئك الذين قضوا نحبهم من جنودهم ورجالهم منذ نزولهم إلى هذه البلاد . وكانت الغاية من إقامة هذا الصارى الكبير رغبة الفرنسيين فى أن يبقى رمزاً على « الحرية » التى عمد جنود « الثورة الفرنسية » إلى نشر مبادئها فى كل مكان حلوا به . ومع ذلك فقد ذاع الاعتقاد بين المصريين أن الغرض من بنائه لم يكن سوى تذكيرهم بذلك « الخازوق » الذى توقعوا أن يستخدمه الغزاة دائماً فى الاقتصاص منهم إذا حدث ما يدعو إلى عقوبتهم [١] . وكان مما فعله الفرنسيون فى ذلك اليوم أنهم نصبوا علم جمهوريتهم المثلث الألوان على قمة هرم الجيزة [٢] . كما أنهم أجروا فى الميدان عصر اليوم نفسه سباقاً للعدائين ، ووزعوا الجوائز على الفائزين ، ثم أجروا سباقاً آخر للخيل اشتركت فيه الخيول العربيـة إلى جانب الخيول الفرنسية التى يملكها فرنسيون كالقواد برثييه وجونو Junot [٣] .

ووقع احتفال الفرنسيين بعيد جمهوريتهم الثانى فى سبتمبر ١٧٩٩ فاستعرض كليبر قائد الحملة الجديد العسكر الفرنسية فى الفضاء الواقع بين القاهرة والروضة على شاطىء النيل الشرقى ، ويمتد بين قلعة المجمع العلمى والمستشفى الذى أقامه الفرنسيون عند « عزبة » إبراهيم بك — وكان هذا الفضاء لذلك يعرف باسم سهل أو ميدان إبراهيم بك — وخطب كليبر فى جنوده . وأقيمت الزينات ، ومع ذلك فإن الاحتفال فى هذا اليوم لم يبلغ فى الروعة والـكمال احتفال العام السابق [٤] ويقول الشيخ الجبرتى فى فى حوادث أول جمادى الأولى ١٢١٤ (أول أكتوبر ١٧٩٩) « وفيه اهتم الفرنسيس بعمل عيدهم المعتاد وهو عند الاعتدال الخريفى وانتقال الشمس لبرج الميزان ، فنادوا بفتح الأسواق والدكاكين ووقود القناديل وشددوا فى ذلك وعملوا عزائم وولائم وأطعمة ثلاثة أيام . . . ولم يعملوه على هيئة العام الماضى من الاجتماع بالأزبكية عند الصارى العظيم المنتصب والـكيفية المذكورة لأن ذلك الصارى سقط وامتلأت البركة بالماء (فنبهوا) على الأمراء والأعيان بالبكور إلى بيت سارى عسكر فاجتمع الجميع صبح يوم الإثنين (٤ أكتوبر) فركب سارى عسكر معهم فى موكب كبير وذهبوا إلى القصر العينى فمكثوا هناك حصة وعرضت عليهم العساكر جميعها على اختلاف أنواعها من خيالة ورجالة وهم بأسلحتهم وزينتهم ولعبوا لعبهم فى ميدان الحرب وخلع سارى

---

(١) Villiers 75

(٢) Reybaud III 382

(٣) Galland I 91 ; Ibid 384

(٤) Galland I 202 — 3 ; Reybaud VI 338 — 9

عسكر على الشيخ الشرقاوى والقاضى وأغات الينكرجية خلع سمور ثم رجعوا إلى منازلهم ، ثم نودى فى جميع الأسواق بوقود أربع قناديل على كل دكان فى تلك الليلة ومن لم يفعل ذلك عوقب ، ثم عملوا بالأزبكية حراقة نفوط ومدافع وسواريخ ولعبوا فى المراكب طول ليلهم[١] » .

وكان مما فعله الفرنسيون فى ذلك اليوم أنهم طيروا بالونا فى ميدان الأزبكية لم يستطع التحليق فى الجو كثيراً فسقط وسبب ذعراً شديداً بين الأهلين بدلا من استثارة إعجابهم أو دهشتهم[٢] .

وأما آخر احتفالاتهم بعيد الجمهورية فى هذه البلاد فكان فى عهد منو الذى تسلم قيادة الحملة بعد مقتل كليبر ؛ وصار الاحتفال به يوم ٢٢ سبتمبر ١٨٠٠ ، وكان مهرجانا فاق فى بهجته احتفال العام السابق ، نثر منو فى أثنائه الزهور والرياحين على قبرى كليبر وديزيه وخطب خطبة كبيرة[٣] ، ولكن هذا الاحتفال على الرغم مما بذله منو من جهد فى سبيل إحيائه على نطاق واسع لم يبلغ فى رونقه احتفال بونابرت بهذا العيد فى عام ١٧٩٨ . ولعل السبب فى ذلك أن الفرنسيين كانوا مشغولين بتلك الخلافات التى استفحل أمرها بين جماعة الكليبريين وأنصار الاستعمار ، وتغير أكثر رجال الحملة من ناحية منو . وفضلا عن ذلك فقد كان القاهريون أنفسهم مشغولين بأسباب معاشهم وتدبير الأموال اللازمة لدفع المغارم التى فرضت عليهم ، كما أنهم ما عادوا يهتمون بأمر هذه الاحتفالات والزينات التى أكثر الفرنسيون من إقامتها ، ليس فى عيد جمهوريتهم فحسب بل فى كل مناسبة طارئة .

فيكتفى الشيخ الجبرتى بتسجيل حوادث هذا العيد فى عبارات قليلة فيقول : « وفى ٥ جمادى الأولى ١٢١٥ (٢٢ سبتمبر ١٨٠٠) كان عيد الصليب وهو انتقال الشمس لبرج الميزان والاعتدال الخريفى وهو أول سنة الفرنسيس وهى السنة التاسعة من تاريخ قيامهم ويسمى عندهم هذا الشهر وندمير وذلك يوم عيدهم السنوى فنادوا بالزينة بالنهار والوقدة بالليل ، وعملوا شنكا ومدافع وحراقات ووقدات بالأزبكية والقلاع وخرجوا صبح ذلك اليوم بمواكبهم وعساكرهم وطبولهم وزمورهم إلى خارج باب النصر ، وعملوا مصافهم فقرىء عليهم كلام بلغتهم على عادتهم وكأنه موعظة حربية ثم رجعوا بعد

---

(١) الجبرتى ٣ : ٨٥

(٢) Richardot 203

(٣) Galland I 321 — 3

الظهر[١] » . ولعل أهم ما كان يسترعى النظر فى هذا أن « الكليبريين » اتخذوا من هذا الاحتفال وسيلة لإظهار استيائهم من منو وعدم رضائهم عنه ، فإنه ما انتهى استعراض الجنود فى سهل القبة ، وألقى منو خطبته ، وبدأ الجنود والقواد سمرهم ولهوهم المعتاد ، وركبوا الزوارق المزينة فى النيل ، حتى شوهد الجنرال داماس ، أصدق أصدقاء الجنرال كليبر ومن أعداء منو الظاهرين ، يتوسط النهر فى مركب وقد زين صدره بالنياشين والتف حوله جماعة كبيرة من الكليبريين ؛ بينما ظل منو قائد الحملة وحده فى قاربه لا يحف به أحد . ثم ظهرت آثار الانقسام واضحة عندما أقام منو حفلة الرقص العامة فى المساء ، فلم يحضره غير قليلين من السيدات الفرنسيات اللواتى فضلن إحياء هذا العيد بمراقصة داماس ورينييه ولانوس وغيرهم من القواد الذين ناصبوا منو العداء السافر[٢] .

ومن الوسائل التى حاول بها الفرنسيون أن يدخلوا البهجة على نفوسهم من جهة ، واسترعاء انتباه القاهريين وإثارة العجب والدهشة فى نفوسهم ، ثم إقامة الدليل على مبلغ ما وصل إليه علماؤهم من قدرة ومهارة ، كان إطلاق (البالونات) الهوائية والمناطيد فى سماء القاهرة ، سواء فى أثناء الاحتفال بالأعياد العامة ، أم فى حفلات أقاموها لهذا الغرض الخاص فحسب . فأجرى كونتيه Conté مخترعهم أولى تجارب بالوناته هذه فى أواخر شهر نوفمبر ١٧٩٨ ، فبدأوا يوم ٢٩ نوفمبر بالاستعداد لذلك استعداداً كبيراً ، « فكتبوا عدة أوراق مطبوعة وألصقوها بالأسواق مضمونها (أنهم يريدون فى اليوم التالى أن يطيروا) مركباً ببركة الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية ، فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم ؛ فلما كان ذلك اليوم (٣٠ نوفمبر) قبل العصر تجمع الناس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة » . وطير (كونتيه) البالون ولما كان لم يمض على حوادث القاهرة المعروفة فى الشهر السابق سوى أسابيع قليلة ، فقد أسقط الفرنسيون من هذا البالون عند ارتفاعه فى الهواء آلاف المنشورات المكتوبة باللغة العربية[٣] ولكن البالون لم يستمر فى الجو طويلا فسقط وسط إزدراء القاهريين واستخفافهم .

ويصف الشيخ الجبرتى ، الذى حضر المهرجان مع من حضر ، ذلك البالون ثم

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٠٤

(٢) Galland I 323 — 4

(٣) Reybaud IV 214

ما حدث من وقائع فى أثناء المهرجان ، فيقول : « وكنت بجملتهم فرأيت قماشا على هيئة الاوية على عمود قائم وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دائرة الغربال وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها إلى الدائرة وهى مشدودة ببكر وأحبال وأطراف الأحبال بأيدى أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها . فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأه فانتفخ وصار مثل الكرة وطلب الدخان الصعود إلى مركزه فلم يجد منفذاً فجذبها معه إلى العلو فجذبوها بتلك الأحبـــال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض فقطعوا تلك الأحبال فصعدت إلى الجو مع الهواء ومشت هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة وسقط أيضاً ذلك القماش وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المبصومة ، فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات بل ظهر أنها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح [١] » . فكان هذا الحكم الأخير أقسى ما يمكن صدوره من أحكام على ناحية هامة من نواحى نشاط علمائهم

وكان من الطبيعى أن يحاول (كونتيه) استئناف تجاربه ، فعمل تجربة جديدة بميدان الأزبكية بعد فشله السابق بزمن قليـــل (٢٩ ديسمبر ١٧٩٨) . واحتفل الفرنسيون لذلك احتفالا كبيراً ، ولكن أحداً من المصريين لم يظهر أى اهتمام بما كانوا يفعلون حتى إذا أخفق كونتيه فى هذه المرة أيضاً واحترق المنطاد فى الجو ، وسقطت بقاياه على رءوس المتفرجين ، ذعر القاهريون ذعراً شديداً ، ورسخ فى أذهانهم أن الفرنسيين إنما يحاولون صنع آلات حرب مدمرة كى يحرقوا بها مدن أعدائهم [٢] .

وانتهز (كونتيه) بعد ذلك فرصة الاحتفال بإحياء ذكرى موقعة ريفولى Rivoli المشهورة إبان الحملة الإيطالية ، فاستعد يوم هذه الذكرى (١٤ يناير ١٧٩٩) بإطلاق منطاد آخر فى الجو [٣] ، وأعلن الفرنسيون عن هذا الحادث كعادتهم « فكتبوا أوراقا بتطيير طيارة ببركة الأزبكية مثل التى سبق ذكرها وفسدت فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر وطيروها وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية

---

(١) الجبرتى ٣ : ٣٣

(٢) Galland I 88 ; Villiers 86 — 7

(٣) Galland I 119 — 20

وسقطت ، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم » [١] .

وهكذا لم يفلح الفرنسيون فى استرعاء انتباه القاهريين أو إثارة إعجابهم بجهودهم العلمية ، بل نجحوا فى إزعاجهم وتحريك مخاوفهم من جهة ، وزيادة استخفافهم بهم وإزدرائهم « لحيلهم وتمويهاتهم » من جهة أخرى .

على أن أخطر ما كان المصريون يأخذونه عليهم ولاشك أنهم تسببوا — بما كانوا يظهرونه من أنواع المجون والخلاعة فى مهرجانات أعيادهم وفى مراقصهم و « دار خلاعتهم » — فى إفساد أخلاق أهل البلاد وتشجيع العامة على إتيان المخازى والمعاصى ومشاركتهم فى ارتكاب الآثام . فقد أثار سخط المصريين رؤيتهم القواد وكبار رجال الإدارة الفرنسيين يعاشرون الجوارى والزنجيات ؛ والجنود يقصدون بيوت الدعارة والمواخير التى زادت فى أنحاء المدينة زيادة كبيرة ، ويشاهدون السيدات الفرنسيات غير محجبات ، ويراقصن الرجال فى الشوارع وميدان الأزبكية فى أثناء الاحتفالات والمهرجانات التى سبق وصفها ، بل ويحضضن القاهريين على الغواية ، يدفعهن إلى ذلك — على حد قول المعاصرين الفرنسيين أنفسهم — حب الاستطلاع أو « عرض آخر » فكثر تردد بعض فاسدى الأخلاق على هؤلاء الفرنسيات المتبذلات [٢] .

ولعل أظهر ما يمكن ملاحظته فى هذه الناحية الخلقية سرعة انتشار المفاسد ، وانحطاط مستوى الأخلاق لدى طبقة معينة من طبقات المجتمع القاهرى على أيام الفرنسيين خصوصا ، وإن كان أهل الطبقات الوطنية الوسطى والعليا قد ظلوا بتقاليدهم وعاداتهم لاتؤثر فيها أساليب عيش الفرنسيين المطبوعة على الخلاعة والمجون ، بل ازداد بغضهم لما يشاهدونه كل يوم من آثار هذه الخلاعة وهذا المجون . وكأنما شعر الفرنسيون بجريرة آثامهم فحرصت طائفة منهم على تشويه الخلق المصرى ، ورسم بعضهم صورة قبيحة لتلك الحمامات العامة التى كان يختلف إليها الرجال والنساء فى أوقات معينة ، كما بالغوا فى وصف ما كان يفعله (البله) والمجاذيب ومدعو الولاية والدراويش [٣] ، وذلك حتى يخففوا من أوزارهم . غير أنه سرعان ما انبرى فريق آخر منهم يدفع تلك الاتهامات المعيبة التى ألصقها مغرضو الفرنسيين بالمختلفين إلى الحمامات العامة ، ويصف

---

(١) الجبرتى ٣ : ٤٢

(٢) Galland I 88

(٣) Ibid.II 24 — 6

مظاهر الاحترام التى كان المصريون يبدونها لأصحاب الولاية — وأدعيائها — تبركا بهم — وصفاً مجرداً عن الهوى[١] . حقيقة كان هذا الاحترام يخرج ببعض النسوة عن جادة الاعتدال فى إظهاره ، ويدفعهن إلى محاولة التبرك بهؤلاء بوسائل وطرائق لا يقرها عقل أو شرع أو دين ، ولكن العسكر الفرنسيين من المستهترين المطبوعين على حب المفاسد والمخازى سرعان ما صاروا يقصدون الأزقة والحارات والدروب التى يكثر فيها وجود هؤلاء الأولياء والبله والمجاذيب ، ويتربصون بالنساء حتى إذا مرت إحداهن وشاهدوها تطلب البركة بما جرت عليه عادات النسوة من الدهماء فى ذلك العصر ، بادر الفرنسيون بارتكاب فعالهم الذميمة .

وكان مما ساعد على انتشار هذه المفاسد تجول الراقصات والمغنيات (العلمات) من الطبقة الوضيعة فى الطرقات والشوارع يعرضن بضاعتهن المرذولة ، وقد وجدن جميعاً فى ذلك الانحلال الخلقى الذى صحب مجىء الفرنسيين إلى هذه البلاد فرصة مواتية لنبذ التقاليد والإمعان فى الضلالة ، حتى عظم الخطب وعم البلاء ، ووقعت على الفرنسيين أنفسهم مغبة ذلك كله ، فكثر عدد جنودهم المرضى بالأمراض الجلدية والزهرية ، واضطروا إلى فرض رقابة صارمة لمنع جنودهم من الاختلاط بالنساء الساقطات ، وأصدروا أوامرهم لعزل هاته النسوة ممن يثبت أن لهن علاقات بالفرنسيين ، وانتهز أغا الانكشارية هذه الفرصة ، فقبض على حوالى أربعمائة منهن ، ما لبث أن وضعهن فى أكياس وقذف بهن فى النيل[٢] . وانتهى الأمر بأن اضطر منو بعد ذلك إلى مخاطبة أعضاء الديوان فى ضرورة اتخاذ إجراءات حاسمة لمعالجة هذه الفوضى الأخلاقية . ولما كان هؤلاء يتوقون لإزالة هذه المساوىء والشرور التى لا يقرها دين أو عرف ، فقد كتبوا إليه أن الدين الحنيف يمنع هذه المعاصى ورجوه أن يعجل باستصدار الأوامر الحازمة لوقفها وإبطالها ، وفعل منو ذلك[٣] .

البدع الجديدة :

على أن اهتمام السلطات الفرنسية ما كان يستهدف فى الحقيقة ، عندما عزمت على مطاردة الساقطات ومنع الجنود من معاشرتهن ، سوى المحافظة على صحة هؤلاء الجنود ورجال الحملة عموماً ، وقبل أى اعتبار آخر ؛ وآية ذلك أن هذا الإجراء « الحكيم »

---

(١) Richardot 307 — 12, 321 — 3

(٢) Galland I 171 ؛ Reybaud IV 114 — 5

(٣) الجبرتى ٣ : ١٤٨ — ١٤٩ ؛ Galland II 26

كان أحد تلك الإجراءات العديدة التى لجأ إليها أطباء الحملة ورؤساؤها لمنع انتشار العدوى ومكافحة الأمراض ، وكان أشد ما يخشاه هؤلاء وباء الطاعون ، فبذلوا جهوداً صادقة فى سبيل المحافظة على الصحة العامة فى البلاد . ولازمهم التوفيق فى بعض مساعيهم ولا شك ، عند ما أدرك المصريون سواء فى القاهرة أم فى سائر المدن الكبيرة والأقاليم مبلغ ما يجنونه من فائدة استشارة الأطباء الفرنسيين ، وقبول المعالجة على أيديهم ، ولكن التوفيق سرعان ما خان الفرنسيين عند ما صاروا يتحسمون فى مكافحة وباء الطاعون ، ويتخذون من الإجراءات اللازمة للحيطة من هذا الوباء ما نفر منهم قلوب المصريين وسبب سخطهم عليهم .

بدأ الفرنسيون فى مشاريعهم الطبية بدءاً حسنا ، فكان أول ما عنى به بونابرت بعد انتصار إمبابة إنشاء المستشفيات العسكرية فى الجيزة وبولاق ومصر العتيقة والقاهرة ، كما أنشأ كليبر فى الإسكندرية ومنو فى دمياط عدداً من المستشفيات كذلك ؛ ثم لم يمض زمن طويل حتى كانت قد أنشئت المستشفيات العسكرية فى مراكز الحاميات جميعاً ؛ وفضلا عن ذلك قام أطباء الحملة بدراسة مختلف الأمراض والأوبئة المنتشرة فى مصر ، فدرس (كاريه) Carrié حالة الصحة العامة فى منوف ، وحذا حذوه (سافرسى) Savaresi فى دمياط والصالحية ، و (ريناتى) Renati فى مصر العتيقة ، و (سيريسول) Ceresole فى الجهات التى زارها فى أثناء رحلة قام بها من القاهرة إلى أسيوط ، كما أتم (بروانت) Bruant بحوثاً مفيدة فى أمراض الرمد والدوسنطاريا ، وأعد (باربيز) Barbés مذكرة مسهبة عن الأمراض المتفشية بين مرضى مستشفى مصر العتيقة ، وحدث ذلك كله تحت إشراف (ديجنت) Desgenettes كبير أطباء الحملة الذى أوصى معاونيه بفحص المرضى من الفرنسيين والمصريين على السواء قبل تدوين ملاحظاتهم .

ثم أنشأ بونابرت غداة وصوله إلى الإسكندرية معزلا صحياً لمراقبة الوافدين على البلاد ؛ وما إن دخل القاهرة حتى أمر بتأليف (لجنة صحية) عهد إليها بتطبيق قواعد الحجر الصحى السارية فى معازل موانى البحر الأبيض المتوسط ، كما أنشأ بعد قليل (مكتبا للصحة والنظافة) للقاهرة ومصر العتيقة وبولاق ، كلف (فرانك) Franke أحد أطباء الجيش بالإشراف عليه . وساهم (ديجنت) فى ذلك كله بنصيب وافر . ثم أنشئت ثلاثة معازل جديدة — أو « كورنتيلة » — أحدها فى القاهرة والآخر فى رشيد والثالث فى دمياط[١] . وزار (ديجنت) بصحبة الشيخ عبد الله الشرقاوى

---

(١) Gharles-Roux (Bonaparte) 102 — 105 ؛ الجبرتى ٣ : ١٤٦

(ماريستان) القاهرة ، وكان الشيخ من القائمين على إدارته ، فوجد به (ديجنت) عدداً من الأسرة المصنوعة من الخشب لا يزيد على خمسة وعشرين تعلوها الفرش القذرة الرديئة أو الحصر وذلك عدا خمسين سريراً منحوتة من الحجارة ، ويؤوى (المارستان) سبعة وعشرين مريضاً ، وأربعة عشر مجنوناً نساء ورجالا ، يعيشون جميعاً على جرايات من الخبز والأرز والعدس ، ولا يعنى بعلاجهم أحد ، ولا يوجد بهذا المستشفى العتيق دواء ولا يعالج مرضاه ، بينما تربط المجانين السلاسل بالحائط وينتظر الجميع الموت للخلاص من أدوائهم ، فعنى (ديجنت) بإصلاح ذلك كله[1] .

ومما يجدر ذكره أن المصريين لم ينفروا من هذه المستشفيات التى أنشأها الفرنسيون ، ولم يجدوا غضاضة فى عرض أنفسهم على أطبائها ، وتناول ما يعطى لهم من دواء ، بل إن (سيريسول) استطاع أن يفحص عديدين من المرضى فى أثناء وجوده بالصعيد ، ولم تحجم النساء عن عرض أنفسهن كذلك على هذا الطبيب مع ما عرف عن شدة تمسك أهل الصعيد بعاداتهم وتقاليدهم الصارمة .

ولكن ما كاد يبدأ الفرنسيون إجراءات مكافحة الطاعون والمحافظة على الصحة العامة فى المدن خصوصاً — كإرغام الأهلين على نشر متاعهم وملابسهم على أسطحة المنازل وفى أفنائها حتى تقتل الشمس جراثيم المرض ، وتطهير المنازل وتنظيفها ورشها ، ثم ما يترتب على ذلك من اقتحام بيوت الناس لتفتيشها ، ومراقبة تنفيذ أصحابها لإرشاداتهم وتعليماتهم الصحية[2] — حتى عظمت شكوى الأهلين وعظم نفورهم من إجراءات الفرنسيين الصارمة وسخطهم عليها ، وبخاصة عند ما مضى هؤلاء ينفذون إجراءاتهم دون مبالاة بشعور الأهالى ، ويستخفون بعاداتهم وتقاليد بيوتهم ، ويحطمون أمتعتهم ويمزقون ملابسهم ، ويفرضون عليهم غرامات مالية مرهقة ، إذا امتنع أحدهم عن تبليغ السلطات بوجود مريض لديه ، أو نزول ضيف وفد عليه من بلد بعيد ، واستطاع دخول القاهرة دون أن يفحصه أطباء المعازل ، أو يمضى المدة القانونية بالمعازل ، بل إن الفرنسيين ما لبثوا أن أصدروا تعليمات فيما ينبغى اتخاذه عند دفن الموتى ، وشددوا على الأهلين بضرورة تنفيذها وإلا تعرضوا للعقوبات الصارمة .

ويذكر الشيخ الجبرتى شيئاً كثيراً مما نال القاهريين من عنت وإرهاق بسبب

---

(١) Reybaud IV 110 —3 ; Galland I 108 — 10

(٢) Charles-Roux. op. cit. 105 ; Reybaud IV 99

هـذه الإجراءات التى أراد الفرنسيون من اتخاذها مكافحة وباء الطاعون ، فيقول الشيخ فى حوادث ١٦ ربيع الثانى ١٢١٣ (٢٧ سبتمبر ١٧٩٨) : — « وفيه نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الأزبكية والرويعى ، ولا يدفنون الموتى إلا فى القرافات البعيدة والذى ليس له تربة بالقرافة يدفن ميته فى ترب المماليك وإذا دفنوا يبالغون فى تسفيل الحفر . ونادوا أيضاً بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عـدة أيام وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة ، كل ذلك للخوف من حصول الطاعون وعدواه ، ويقولون إن العفونة تنحبس بأغوار الأرض فإذا دخل الشتاء وبردت الأغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات خرج ما كان منحبسا بالأرض من الأبخرة الفاسدة فيتعفن الهواء فيحصل الوباء والطاعون . ومن قولهم أيضا إن مرض مريض لا بد من الإخبار عنه فيرسلون من جهتهم حكيما للـكشف عليه إن كان مرضه بالطاعون أو بغيره ثم يرون رأيهم فيه » .

وقال الشيخ فى حوادث أول جمادى الأول ١٢١٣ (١١ أكتوبر ١٧٩٨) — : « وفى ذلك اليوم نودى فى الأسواق بنشر الثياب والأمتعة خمسة عشر يوما وقيدوا على مشايخ الأخطاط والحارات والقلقات بالفحص والتفتيش ، فعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للـكشف عن ذلك فتصعد المرأة إلى أعلى الدار وتخبرهم عن صحة نشرهم الثياب ثم يذهبون بعد التأكد على أهل المنزل والتحذير من ترك الفعل وكل ذلك لذهاب العفونة الموجبة للطاعون وكتبوا بذلك أوراقا ألصقوها بحيطان الأسواق على عادتهم فى ذلك » .

وفى ٢٤ مارس ١٧٩٩ « رتبوا أوامر وكتبوها فى أوراق مبصومة وألصقوها بالأسواق إحداها بسبب مرض الطاعون وأخرى بسبب الضيوف الأغراب ، ومضمون الأولى بتقاسيمه ومقالاته خطابا لأهل مصر وبولاق ومصر القديمة ونواحيها ، إنكم تمتثلون هذه الأوامر وتحافظون عليها ولا تخالفوها وكل من خالفها وقع له مزيد الانتقام والعقاب الأليم والقصاص العظيم ، وهى المحافظة من تشويش الـكبة ، وكل من تيقنتم أو ظننتم أو توهمتم أو شـككتم فيه ذلك فى محل من المحلات أو بيت أو وكالة أو ربع يلزمكم ويتحتم عليكم أن تعملوا كرنتيلة ويجب قفل ذلك المـكان ويلزم شيخ الحارة أو السوق الذى فيه ذلك أن يخبر حالا قلق الفرنساوية حاكم ذلك الخط ، والقلق يخبر شيخ البلد قائمقام مصر وأقاليمها ، ويكون ذلك فوراً . وكذلك كل ملة من سكان مصر وأقاليمها وجوانبها . والأطباء إذا تحققوا وعلموا حصول ذلك المرض

يتوجه كل طبيب إلى قائمقام ويخبره ليأمره بما هو مناسب للصيانة والحفظ من التشويش ، وكل من كان عنده خبر من كبار الأخطاط أو مشايخ الحارات وقلقات الجهات ولم يخبر بهذا المرض يعاقب بما يراه قائمقام ويجازى مشايخ الحارات بمائة كرباج جزاء للتقصير . وملزوم أيضاً من أصابه هذا التشويش أو حصل فى بيته لغيره من عائلته أو عشيرته وانتقل من بيته إلى آخر يكون قصاصه الموت وهو الجانى على نفسه بسبب انتقاله ، وكل رئيس ملة فى خط إذا لم يخبر بالكبة الواقعة فى خطه أو بمن مات بها أيضاً حالا فوريا كان عقاب ذلك الرئيس وقصاصه الموت ، والمغسل إن كان رجلا أو امرأة إذا رأى الميت أنه مات بالكبة أو شك فى موته ولم يخبر قبل مضى أربع وعشرين ساعة كان جزاؤه وقصاصه الموت . . .

(ومضمون الثانية) . . . أنه يتحتم ويلزم كل صاحب خمارة أو وكالة أو بيت الذى يدخل فى محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو إقليم أن يعرف عنه حالا حاكم البلد ولا يتأخر عن الإخبار إلا مدة أربعة وعشرين ساعة يعرفه عن مكانه الذى قدم منه وعن سبب قدومه وعن مدة سفره ومن أى طائفة أو ضيفاً أو تاجراً أو زائراً أو غريما مخاصما لا بد لصاحب المكان من إيضاح البيان والحذر أتم الحذر من التلبيس والخيانة وإذا لم يقع تعريف عن كامل ما ذكر فى شأن القادم بعد الأربعة وعشرين ساعة بإظهار اسمه وبلده وسبب قدومه يكون صاحب المكان معتديا ومذنبا وخائنا وموالسا مع المماليك . (وقد فرضت غرامة على) معاشر الرعايا وأرباب الخمامير والوكائل عشرين ريالا فرانسة فى المرة الأولى ، وأما فى المرة الثانية فإن الغرامة تضاعف ثلاث مرات . (وأخبروا هؤلاء) أن الأمر بهذه الأحكام مشترك (بينهم) وبين الفرنسيس الفاتحين للخمامير والبيوت والوكائل [١] » .

ولا شك فى أن هذه كانت أوامر صارمة وأن الفرنسيين لم يحجموا عن تنفيذها بكل شدة ، وذلك فى حين أن القاهريين — بل وأهل البلاد عموما — ما كان فى استطاعتهم — عدا قلة ضئيلة منهم — أن يدركوا أغراض الفرنسيين من اتخاذ كل هذه الإجراءات وفرض العقوبات القاسية على مخالفى تعليماتهم وإرشاداتهم ، بل عد القاهريون هذا العمل وسيلة لإرهاقهم والحد من حرياتهم وتدخلا من جانب « الإدارة » وسلطات الاحتلال فى أخص شئونهم [٢] .

---

(١) الجبرتى ٣ : ٢١ — ٢٢ ، ٢٥ ، ٥٤ — ٥٥

(٢) Charles-Roux. op. cit. 106

قال الشيخ الجبرتى تعليقاً على أوامر جديدة تشبه سابقتها وأصدرها الفرنسيون فى غضون شهر سبتمبر ١٧٩٩ ، إن الناس كانوا « يأنفون » من إرغامهم على « نشر الحوائج (وتشدد الفرنسيين) فى ذلك بالتفتيش والنظر (يقوم به جماعة) من طرف مشايخ الحارات ومع كل منهم عسكرى من طرف الفرنساوية وامرأة أيضاً للكشف على أماكن النساء .. ويستثقلونه ويستعظمونه وتحدثهم أوهامهم بأمور يتخيلونها كقولهم إنما يريدون بذلك الاطلاع على أماكن الناس ومتاعهم ، مع أنه لم يكن شيء سوى التخوف من العفونة والوباء[1] » . وقد تقدم فى مواضع عدة من هذا الكتاب كيف اشتد تذمر القاهريين على وجه الخصوص عندما اشتدت وطأة وباء الطاعون إبان حصار مدينتهم فى أواخر أيام الحملة (فبراير — مايو ١٨٠١) واضطر بليار إلى اتخاذ اجراءات صارمة فى سبيل مكافحته .

وكان من الوسائل التى لجأ إليها الفرنسيون ، من أجل المحافظة على الصحة العامة فى القاهرة ومكافحة الوباء ، أنهم صاروا يرغمون الأهالى على كنس الشوارع والحارات والدروب ورشها ويوقعون عقوبات صارمة على كل من يقصر فى ذلك . وقد شكا الفرنسيون عند دخولهم القاهرة أن شوارعها كانت ضيقة قذرة وتنبعث منها الروائح العفنة الكريهة ، بل وتتراكم الأقذار بالشوارع لدرجة أن لايأمن السائر بها من الانزلاق فى أوحالها . لم يكن السبب فى ذلك ، على خلاف ما اعتقد كثيرون منهم أن القاهريين كانوا لايعنون بنظافة شوارعهم وبيوتهم ، وإنما كان سبب تراكم هذه الأقذار أن القاهريين شغلوا عن العناية بكنس الشوارع ورشها بما كان فى نظرهم أهم من ذلك وأولى بعنايتهم ، عندما زحف بونابرت وجيشه على عاصمة بلادهم ، وبات على مسافة قريبة من القاهرة ، وأخذ البكوات ابراهيم ومراد واتباعهما العدة لمقابلة العدو ودحره ، وتقاطرت جموع الفلاحين وأهل القرى والبلدان المجاورة على العاصمة ليشتركوا مع أهلها فى الدفاع عنها ؛ ودأب القاهريون على الخروج كل صباح إلى بولاق حيث كان إبراهيم بك قد عسكر بجيشه ، فلا يعودون إلى بيوتهم إلا بعد انقضاء النهار ودخول الليل وهم فى تعب وإعياء شديدين ، ولم يكن لدى القوم متسع من الوقت لكنس الشوارع ورشها أو حتى العناية ببيوتهم ، فغدت « الأسواق مصفرة والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش » .

ووصف الشيخ الجبرتى حال القاهرة قبيل الهزيمة الحاسمة فى امبابة فقال : « ومحصل

---

(١) الجبرتى ٣ : ٨٤

الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حين نصب إبراهيم بك العرضى هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى فيرجعون إلى بيوتهم يبتون بها ثم يصبحون إلى بولاق ، وأرسل إبرهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما والاها وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيمان وأولاد على والهنادى وغيرهم . وفى كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوماً فيوماً لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم فى صعيد واحد[1] » .

وعاصمة هذه حالها ما كان ينتظر من أهلها وقد دهمتهم الخطوب ووضع مصيرهم فى الميزان أن يجدوا متسعاً من الوقت لتنظيف الشوارع وكنسها . ولا عجب إذا وجد الفرنسيون عند دخولهم القاهرة أن شوارعها كانت قذرة ، وفى حاجة ملحة للكنس والرش . ومع أنه كان من المنتظر عند استقرار الأمور أن يعمد القاهريون إلى تنظيف عاصمتهم ، فقد تعجل الحكام الجدد الأمر خوفاً من انتشار الأمراض ولاشك ، ورغبة منهم فى المحافظة على سلامة جنودهم ورجالهم — فأصدروا أوامرهم المشدده بضرورة كنس الشوارع ورشها ، وتنظيف المنازل مرتين كل يوم ؛ وكان من الطبيعى أن ينفر القاهريون من هذه الأوامر التى لم يدركوا لها غاية سوى رغبة هؤلاء الحكام الجدد فى التدخل فى شئونهم ، وما أعطاهم النصر من قوة وسلطان يبغون بهما الحد من حريات الأفراد الشخصية ، أو أنهم كانوا يضمرون أغراضاً خفية ، فتذمروا من هذا الإرغام[2] . وقد ظلت « مشكلة الكنس والرش » قائمة إلى وقت رحيل الفرنسيين من القاهرة . حتى إذا دخلها العثمانيون والبكوات ، أقبل القاهريون على تنظيف شوارع القاهرة « وحصل الاعتناء وبذل الناس جهودهم » وانتهزوا فرصة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف — على نحو ما قدمنا — « فزينوا حوانيتهم بالشقق والحرير والزردخان والتفاصيل الهندية[3] » وما كانوا يفعلون شيئاً من ذلك أيام الاحتلال الفرنسى .

وكما تذمر القاهريون من أوامر الكنس والرش ، فقد اشتد سخطهم عندما

---

(١) Galland 82 ؛ الجبرتى ٣ : ٦ — ٧

(٢) Charles-Roux, op. cit. 105 — 6

(٣) الجبرتى ٣ : ٢٠١

أرغمهم الفرنسيون كذلك على إضاءة الشوارع والحارات والأسواق بالقناديل ، ووقعوا العقوبات على المقصرين فى ذلك . « فنادوا بوقود قنـــاديل سهارى بالطرق والأسواق ، (وطلبوا) أن يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل [١] » . ثم ما لبثوا أن « نادوا بإبطال القناديل التى توقد فى الليل على البيوت والدكاكين وأن يوقدوا عوضها فى وسط الطريق مجامع فى كل مجمع أربع قناديل ، بين كل مجمع ثلاثون ذراعاً ويقوم بذلك الأغنياء دون الفقراء ولا علاقة للقلقات (وهم حكام الأخطاط) فى ذلك ، ففرح بذلك فقراء الناس وانفرجت عنهم هذه الكربة [٢] » وقد كان إرغامهم على إضاءة هذه القناديل « كربة » حقيقية ، ذلك أن الحراس كانوا يطوفون فى أثناء الليل لملاحظة القناديل المعلقة على البيوت ، فإذا وجدوا أن الريح قد عبث بها أو فرغ الوقود فانطفأت ، طرقوا أبواب بيوت أصحابها فى أى وقت من الليل وأخرجوهم من فراشهم لإضاءتها من جديد . وقد يحدث ذلك أكثر من مرة مما سبب انزعاجا شديداً .

قال الجبرتى وكثر « تعدى القلقات وتشديدهم على وقود القناديل بالأزقة وهم (أى القلقات) من أهل البلد ، وإذا مروا بالليل ووجدوا قنديلا أطفأه الهواء أو فرغ زيته سمروا الحانوت أو الدار التى هو عليها ولا يقلعون المسمار حتى يصالحهم صاحبها على ما أحبوه من الدراهم وربما تعمدوا كسر القناديل لأجل ذلك ، واتفق أن المطر أطفأ عدة قنـــاديل بسوق أمير الجيوش بسبب كونها فى ظروف من الورق والجريد فابتل الورق وسال الماء فأطفأ القناديل فسمروا حوانيت السوق وأصبح أهلها صالحوا عليها ووقع مثل ذلك فى طرق عديدة فجمعوا فى ذلك اليوم جملة من الدراهم وأمثال ذلك حتى فى الأزقة والعطف الغير النافذة حتى كان الناس ليس لهم شغل إلا القناديل وتفقد حالها وخصوصاً فى ليل الشتاء الطويل [٣] » . وكان الغرض من إرغام القاهريين على إضاءة شوارع مدينتهم حرص الفرنسيين على سلامة جنودهم الذين قد يتأخر أحدهم فى السهر ، فلا يأمن على نفسه من الاعتداء فى شوارع القاهرة المظلمة عند عودته إلى معسكره [٤] .

---

(١) الجبرتى ٣ : ٢٠
(٢) الجبرتى ٣ : ٤٣
(٣) الجبرتى ٣ : ٤٠
(٤) Charles-Roux, op. cit. 106

وكان من أثر حرص الفرنسيين على سلامة جنودهم من جهة ، ثم خوفهم المستمر من أن يجنح القاهريون إلى الثورة ضدهم ، وبخاصة بعد حوادث ثورتهم الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨ ، أنهم أصروا على هدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه الأبواب مصنوعة من الخشب الثقيل ، وفى استطاعة الأهالى إذا أغلقوها أن يتحصنوا فى داخل أحيائهم عند حدوث الفتنة ونشوب الثورة ، وأن يعرقلوا عمل الحراس والشرطة فى الأوقات العادية ، ويمنعوهم من الجولة فى أحيائهم ؛ ومع أن الفرنسيين عند دخولهم القاهرة كانوا قد أمروا بإزالة هذه الأبواب وعهدوا بذلك إلى « القلقات» فقد استطاع عديدون « المصالحة عليها » . ورشوا « القلقات والوسايط على إبقائها » فتركت « وسومح أصحابها » . حتى إذا وقعت الثورة ، نشط الفرنسيون فى إزالة الأبواب التى تركت ، وخصوصاً أبواب الدروب فى الحسينية ، « فقلعوها ونقلوها إلى ما جمعوه من البوابات بالأزبكية ، ثم كسروا جميعها وفصلوا أخشابها ورفعوا بعضها على العربات إلى حيث أعمالهم بالنواحى والجهات ، وباعوا بعضها حطباً للوقود ، وكذلك ما بها من الحديد وغيره[1] » . فأزعج هذا العمل القاهريين إزعاجا شديدا.

وكانت قد تطايرت الإشاعات عندما بدأ الفرنسيون عقب دخولهم القاهرة يهدمون أبواب الحارات والدروب — عن أغراض الفرنسيين من هدم هذه الأبواب التى شعر المصريون أن فى وجودها باعثا على الطمأنينة والهدوء ، فكان مما أشيع وقتئذ أن الفرنسيين إنما فعلوا ذلك لغرض واحد ، هو مفاجأة المسلمين وقت صلاة الجمعة وذبحهم ، وكان مما أثار تذمرهم أن الفرنسيين عمدوا كذلك إلى جمع ما كان معهم من أسلحة اعتادوا الاحتفاظ بها لاستخدامها فى الدفاع عن أنفسهم وأموالهم ؛ فاعتقد القاهريون أن الغرض من نزع سلاحهم هو رغبة الفرنسيين فى الاعتداء على حياتهم وممتلكاتهم وعقائدهم ، دون أن يكون بأيديهم ما يدفعون به عن أنفسهم ذلك الأذى البليغ[2] .

وحدث وسط هذا الاضطراب أن طلب بونابرت من المشايخ والعلماء أن يضعوا على صدورهم شارة الثورة Cocarde أو « الجوكار » ، كما يسميها الشيخ الجبرتى الذى وصف هذه الواقعة فقال ، وفى يوم ٢٠ ربيع الأول ١٢١٣ (وأول سبتمبر ١٧٩٨) : « طلب صارى عسكر بونابرته المشايخ ، فلما استقروا عنده نهض بونابرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض

---

(١) الجبرتى ٣ : ٣٠ — ٣١

(٢) Charles-Roux. op. cit. 106 — 7

وأحمر وكحلى فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به إلى الأرض واستعفى وتغير مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه ، فقال الترجمان يامشايخ أنتم صرتم أحباباً لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم ، فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين ، فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى إنه لايصلح للرياسة ، ونحو ذلك ، فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك فقال إن لم يكن ذلك فلازم وضعكم الجوكار فى صدوركم وهى العلامة التى يقال لها الوردة ، فقالوا أمهلونا حتى نتروى فى ذلك واتفقوا على اثنى عشر يوما وفى ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعاء فصادفهم منصرفين فلما استقر به الجلوس بش له وضاحكه صارى عسكر ولاطفه فى القول الذى يعربه الترجمان وأهدى له خاتم ألماس وكلفه الحضور فى الغد عنده وأحضر له جوكار أوثقه بفراجته فسكت وسايره وقام وانصرف ، فلما خرج من عنده رفعه ، على أن ذلك لايخل بالدين[1] » .

وعلى الرغم مما بدا من تذمر المشايخ وسخطهم ، وهم القادة وأصحاب الرأى بين المصريين ، فقد عمد الحكام الفرنسيون فى المدن والمديريات إلى استخدام القوة لإرغام الأهالى على حمل هذه الشارة . كما أنهم ما لبثوا أن رفعوا العلم الفرنسى المثلث الألوان على مآذن الجوامع فى القاهرة والأقاليم وعلى الأبراج والقلاع وعلى المراكب والجروم التى تسير فى النيل . فلما اشتد السخط وشعر الفرنسيون بوجود ذلك التذمر الذى سببه على الخصوص مضيهم فى إجراءاتهم وتنظيماتهم المالية ، وخشوا من انفجار بركان الغضب ، خف تشددهم فى ضرورة حمل هذه الشارة رويداً رويداً ، حتى صدر الأمر أخيراً بإنهاء المطالبة بحملها . وأزلت الأعلام من على المآذن وظلت الراية المثلثة الألوان ترفرف فقط على دور الحكومة ومبانيها الرسمية[2] ، وإن لم يحدث ذلك إلا بعد فوات الفرصة ، وبعد أن تضافرت كل تلك العوامل — وكانت مسألة « الجوكار » من بينها — التى أفضت إلى تحريك الثورة فى القاهرة .

وكان من أسباب التذمر والسخط أن طوائف الأروام والنصارى والشوام واليهود كانوا قد انتهزوا فرصة مجىء الفرنسيين إلى هذه البلاد فأرادوا أن يقضوا على كل

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٧

(٢) Reybaud IV 90 — 2

تلك التقاليد والعادات التى حتمت عليهم احترام شعائر المسلمين ، وميزت هؤلاء منهم ، ولم يجدوا فى محاولاتهم زاجراً أو رادعاً من الفرنسيين . فقد امتنع على المسيحيين واليهود قبل الغزو الفرنسى بحكم هذه التقاليد لبس العمامة الخضراء أو الحمراء أو البيضاء أو التدثر بالشيلان الفاخرة ، أو انتعال (المراكيب) الحمراء أو الصفراء ، كما جرت التقاليد بأن يترك المسيحيون واليهود الجانب الأيمن من الشارع لسير المسلمين ، وأن يترجلوا عن ركائبهم إذا مروا بجامع من الجوامع تعظيما وتقديسا ، وامتنع عليهم ركوب الخيل والبغال ، وما كان أحد منهم يجرؤ على تناول الطعام والشراب علنا وفى الأسواق أو الشوارع طوال شهر الصوم ، أو التدخين بحال من الأحوال(١) . ولكن ما إن حضر الفرنسيون حتى تغير ذلك كله .

فقد ذكر الشيخ الجبرتى من حوادث شهر شعبان ١٢١٣ (يناير ١٧٩٩) — : « ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيل وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين كل ذلك بما كسبت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد والحال الحال والمركوز فى الطبع ما زال والبعض استهوته الشياطين ومرق والعياذ بالله من الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (٢) » . وواقع الأمر أن بعض هؤلاء لم « يمرقوا من الدين » مجاراة للفرنسيين الذين جاءوا ملاحدة إلى هذه البلاد وبعد أن نبذوا الدين ظهريا ، فحسب . بل إنهم سرعان ما ركبوا رءوسهم وصاروا لا يقنعون بإزالة ما كان يفصلهم من فوارق عن أهل الدين الحنيف ، بل أرادوا الاستعلاء على المسلمين ، وانتهزوا استخدام الفرنسيين لهم فى جباية الضرائب ، واعتمادهم عليهم فى تحصيل المغارم ، فاشتطوا فى طلب الأموال وأوقعوا بإخوانهم المسلمين صنوفا شتى من المظالم — باعتراف مؤرخى الحملة أنفسهم — وكانوا يسخرون منهم ويهزأون بهم .

ومع أن القاهريين كانوا يجأرون بالشكوى من هذه المظالم فإن شيئا من شكاويهم ما كان يبلغ سلطات الاحتلال البغيض . ثم زاد الحال سوءاً عند ما تعمد الأروام والشوام واليهود جرح شعور المسلمين وتحطيم العادات والتقاليد ، فصاروا يرتكبون المعاصى والمخازى جهرة ودون احتشام ، ويأكلون ويشربون ويدخنون خلال شهر الصوم وعلى مرأى من المسلمين ، ولم يستطع المسلمون الذين ساءتهم هذه الفعال

---

(١) Reybaud IV 138; V 142

(٢) الجبرتى ٣ : ٤٦

أن يكتموا غيظهم ، فكانت المعارك التى سالت فيها الدماء ، واختل بسببها حبل الأمن ، وأخفق (برطلمين) على قسوته وصرامته فى منع هذه المعارك الحامية ، وعجز القاضى وأغا الانكشارية عن فض الخصومات وإعادة الأمور إلى نصابها ، وبلغ من جرأة هؤلاء « النصارى » أنهم صاروا يسعون لإثارة الفتنة بين القاهريين والفرنسيس ، فأبلغوا الأخيرين (فبراير ١٧٩٩) أن المسلمين ينتوون « الوثوب على الفرنسيس » وكانت هذه تهمة خطيرة وبخاصة بعد ما وقع من حوادث القاهرة الأولى ، غير أنه سرعان ما تبين للفرنسيين كذبهم ، ولم يسعهم إزاء ذلك كله إلا أن يصدروا أوامرهم القاطعة بإرغام المسيحيين واليهود على اتباع العادات والتقاليد السابقة ، وإلزامهم بلبس العمامة الزرقاء أو الكحلية القاتمة أو السوداء ، ومنعهم من الأكل والشرب جهرة طوال شهر رمضان [١] .

حـ – الأثر السياسى :

تضافرت كل هذه العوامل إذن لإثارة غضب القاهريين وسخطهم ، فكان لا مناص من اشتعال الثورة ضد الفرنسيين فى النهاية بسبب سياستهم المالية من جهة ، ثم بسبب تلك التدابير التى اتخذوها لمكافحة وباء الطاعون ، وإرغام المصريين على حمل شارة (الجوكار) ، وما حدث من استعلاء « النصارى واليهود » على المسلمين ، واستهتارهم بالعادات والتقاليد ؛ ثم بفضل تلك المساعى التى كان يبذلها الباب العالى والبكوات المماليك لإشعال نار الثورة فى مصر ، فضلا عما كان يرتكبه الفرنسيون وأعوانهم ، وطبقات العامة التى جاراهم أفرادها ، من المعاصى والمخازى . وليس من شك فى أن الفرنسيين لو ترفقوا فى مشاريعهم وأساليبهم المالية والإدارية ، وحرصوا على احترام تقاليد أهل البلاد وعاداتهم حقيقة ، بدلا من استصدار الأوامر وإذاعة المنشورات ، وإلقاء الخطب فى الديوان ، والكلام الكثير الذى لا طائل تحته ولا جدوى منه ، لإقناع القاهريين بحسن نواياهم ، ثم حاولوا فهم نفسية « أو سيكولوجيه » تلك الشعوب التى رغبوا فى استعمارها ، نقول لو أنهم فعلوا ذلك لاستطاعوا أن يكسروا من حدة بغض المصريين عليهم ، ولا ستمالوهم رويداً رويداً إلى تأييدهم ، ولامتنع حدوث تلك الاضطرابات والثورات العديدة التى لم تشتعل نارها فى القاهرة فحسب ، بل امتد لهيبها حتى شمل البلاد بأجمعها ؛ ولم يستطع الفرنسيون يوما أن يخلدوا إلى

---

(١) الجبرتى ٣ : ٤٧ ؛ Reybaud V 142 — 4

السكون والراحة أو يطمئنوا إلى المضى بسلام فى تنفيذ تلك المشروعات التى أرادوا بها تحقيق هدف حملتهم الأول وهو إنشاء « مستعمرتهم الجميلة » .

ولقد أكد كثيرون من رجال الحملة أن المصريين رحبوا ببونابرت واطمأنوا إليه ، وكان دليلهم على ذلك أنهم ما دخلوا القاهرة حتى انبرى عين من الأعيان يرحب بمقدمهم ، ويهدى بونابرت قصيدة طويلة من ثلاثين بيتاً ، يتغنى فيها بفضائله ويشيد بذكر مناقبه . كما أن كبار العلماء والشيوخ أنسوا بهم وأولموا لهم الولائم ، كما فعل الشيخ المهدى عندما أقام عرسا لزواج أحد أولاده ، وفعل غيره فى كل تلك المناسبات التى سبق ذكرها ؛ كما لقى بوسيلج « مدير الحدود » أو « الروزنامجى » ، ودوجا « وكيل سارى عسكر » ، كل معاملة جميلة عندما أخذا يكثران من زيارة المشايخ والأعيان فى بيوتهم ، ويبذلان كل ماوسعهما من جهد وحيلة لاستمالة الشيخ السادات والشيخ المهدى وأعضاء الديوان والسيد أحمد المحروقى كبير التجار[1] ؛ ثم ذاع فى أنحاء القاهرة خبر (رؤيا) غريبة فى صالح الفرنسيين ولدعم أركان دولتهم ، وكان ذلك عقب دخولهم القاهرة واستقرارهم بها ، وفضلا عن ذلك فقد توهم بونابرت وصحبه أن السبب فى جذب قلوب المصريين اتباع تلك السياسة الإسلامية الوطنية التى وضع أصولها .

على أن هذا الاعتقاد لم يكن فى واقع الأمر إلا ضربا من الأوهام والخيالات التى سيطرت على عقول بعض رجال الحملة ، وعاونت فى أحايين كثيرة على إفساد خطط رؤساء الحملة وقوادها ، ذلك أن تلك القصيدة «العصماء» التى رحب فيها صاحبها بقدوم الفرنسيين ، وانتصار بونابرت على البكوات المماليك فى معركة الأهرام أو امبابة المشهورة ، لم تكن من صنع أحد المصريين أو أدباء القاهريين ، بل كان صاحبها المعلم نقولا الترکی ، من أسرة نشأت فى استانبول ، ولد فى بيروت أو دير القمر ، والتحق بخدمة الأمير بشير الشهابى ، ثم حضر إلى مصر وشهد وقائع الحملة ، وكتب قصيدته فى مدح بونابرت والجيش الفرنسى ، والإشادة بذكر انتصارات امبابة ؛ وقد مهد لهذه القصيدة بالعبارة الآتية : « ناظم هذه القصيدة نقولا الترك ولد يوسف الترك ، استانبولى الأصل ، وذلك فى مدينة مصر المحروسة ، مادحاً بها مشيخة فرنسا وشجاعة عزيزها أمير الجيوش الأمير بونابرته ، فى اصطباح سنة ١٢١٣ » ومطلعها :

لله عصر قـــد زهـــا   فلك السعادة فيـــه دار

---

(١) Reybaud IV 142 — 152; V 138 — 41 الجبرتى ٣ : ٧٧

وجمال كواكب دولة الـ ... جيش الفرنساوى أنار
يا حسنها من دولة ... بالافتخار لها اشتهار
مقدامها ذو سطوة ... وتهدى الملوك له الوقار
الشهم بونابرتة ... أسد الوغا ذو الاقتدار

وقد اختتم نقولا التركى هذه القصيدة ببيت من الشعر ، أشار فيه إلى واقعة الأهرام ، ثم « أرخ » لهذه الواقعة التى انتصر فيها بونابرت فى يوم السبت ٧ صفر ١٢١٣ (٢١ يوليو ١٧٩٨) فقال :

وبيوم سبت فيه قد ... أرخت تم الانتصار(١)
١٢١٣

أما المصريون — وقد ذكر الشيخ الجبرتى عدداً من أدبائهم وعلمائهم الذين قرضوا الشعر — كالشيخ حسن العطار ، ويبدو أنه كان أجودهم ومن أعلام أدباء عصره ، والشيخ خليل المنير ، والشيخ محمد الأمير ، والسيد على الصيرفى الرشيدى الذى استقر به المقام فى عكا ، فإن أحداً منهم لم ينظم شعراً — أو يكتب نثرا — فى مدح بونابرت والفرنسيين ؛ بل على العكس من ذلك تهكم الشيخ حسن العطار بالفرنسيين وسخر من عاداتهم ، وانطباعهم على حب اللهو والمجون ، فقال :

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم ... فى مصرنا بين خمّار وخمار
وعن قريب لهم فى الشام مهلكة ... يضيع لهم فيها آجال أعمار

ويشير الشيخ فى البيت الأخير إلى حملة الشام التى اعتزم بونابرت وقتئذ الخروج فيها ، وكان نصيبه الاندحار والهزيمة تحت أسوار عكا .

وقد وصف السيد على الصيرفى الرشيدى « نزيل عكا » هذا الحادث فقال :

وأرام قبيحهم حسن قصد ... نحو عكا ذات السعود البادى
فاستعدوا لها بآلات حرب ... ورجال كثيرة كالجراد

ومنها :

حاصروها وشددوا فى حصار ... واستمدوا بكل نوع مراد
ثم دارت رحى الحروب لدينا ... بضروب مدامة الترداد

إلى آخر ذلك ؛ وهى قصيدة طويلة . وأما الشيخ خليل المنير ، فقد رثا « الأمير

---

(١) Reybaud III 221 — 5

أيوب بك الدفتردار ، وهو من مماليك محمد بك » ، وكان قد اشترك فى واقعة الأهرام ولم يتبع مراد بك الذى نجا بنفسه ، فهلك وهو يقاتل الفرنسيين . قال الشيخ خليل :

لم يبر منهم سوى أيوب من ألم   مجانس داء خصم قادم حنق

بانت له من حسان الحور قائلة   إركض برجلك للخيرات واستبق

واترك مراداً إلى الدنيا ولم بنا   أنا الحياة فمل الروح واعتنق

ومنها :

مضى شهيداً وحيداً طاهراً سمحا   مغسلا بدم الهيجاء لاغرق[1]

ولما كان غرض بونابرت من إنشاء الديوان ، الاستعانة بأعضائه على دعم أركان مستعمرته الجديدة ، ولم تطابق أفعاله أقواله وادعاءاته الكثيرة ، أو تلك « التمويهات » — على حد قول الشيخ الجبرتى — ، فقد أخفق بونابرت وقواده فى جلب مودة المشايخ الذين اكتفوا « بمداراة » الفرنسيين ومجاراتهم دفعاً للأذى والشر ، ولم يطمئنوا إليهم ، ناهيك بامتداحهم والإشادة بذكر مناقبهم ؛ فلم تكن وسائل الحمد والشكر التى طلب إليهم فى الديوان أن يكتبوها إلى بونابرت أو إلى الجنرال منو خصوصاً إلا مظهراً من مظاهر هذه « المداراة » ، ولا تنهض دليلا على ودهم لهذين القائدين ، أو أنهم كانوا يعتقدون الخير فى هؤلاء الأجانب الذين ملكوا بلادهم . ومع أن بعض مؤرخى الحملة من الفرنسيين فى أيامنا هذه قد بذلوا قصارى جهدهم ، لبيان أن بونابرت إنما كان يهدف من إنشاء الديوان ، وتعيين أعضائه من بين المصريين إلى إقامة إدارة وطنية بحتة فى البلاد ، وذلك باستبعاد العنصر العثمانى وشغل الوظائف الهامة بالمصريين فحسب ، ويذكرون دليلا على ذلك إلى جانب اختيار مشايخ مصريين أعضاء للديوان أن بونابرت عهد بمنصب قاضى البلاد إلى الشيخ أحمد العريشى بدلا من القاضى العثمانى[2] ، فإن تلك ولا شك دعوى كبيرة ، ولا سبيل إلى تأييدها لأسباب عدة ، منها أن بونابرت ضم إلى ديوانه الأول — قبل ثورة القاهرة المعروفة فى أكتوبر — نفراً من العثمانيين كان من بينهم القاضى التركى نفسه ؛ ثم ثلاثة من الأوروبيين هم : ولمار Wolmar ، وكان طبيبا سويديا ، وكاف Gaffe وبوديف Baudeuf وكانا من تجار مرسيليا ويمثلون جميعاً جالية الإفرنج بهذه البلاد ، وعندما أعيد تنظيم الديوان بعد الثورة ، كان من بين أعضاء الديوان الخصوصى أو الديمومى على نحو مايذكر

---

(١) الجبرتى ٣ : ٤٥ ، ٦٩ ، ٧٢

(٢) Henry d'Estre 329 — 31

الشيخ الجبرتى ، « من الشوام يوسف فرحات ، ومخاييل كحيل ، ورواحة الإنكليزى ، وبودنى ، وموسى كافر الفرنساوى » ، عدا الوكلاء والمباشرين « من الفرنسيس والمترجمين[1] . ولعل رواحة الإنجليزى وبودنى وموسى كافر الفرنساوى هم أولئك الذين كانوا يمثلون جالية (الإفرنج) فى الديوان السابق ولمار ، وكاف ، وبوديف .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان سبب استبعاد القاضى العثمانى ، خروجه من مصر إلى الشام ، وإصراره على عدم العودة إلى مصر ما دام الفرنسيون بها ؛ وقد انتقم بونابرت من القاضى بأن قبض على ابنه (ملا زاده) ، ولم يخرجه من الحبس إلا بعد أن أثار بفعله هذا غضبا شديدا . وكثر توسط المشايخ لديه فى أمر الإفراج عنه ، ومع أن بونابرت عمد ساعتئذ فقط إلى الادعاء بأنه ما قصد من عزل القاضى وحبس ابنه إلا اختيار أحد الشيوخ العلماء المصريين ومن المولودين فى أرض مصر حتى « يتولى القضاء ويقضى بالأحكام الشرعية كما (كان) الملوك المصرية يولون القضاة برأى العلماء للعلماء » فإن هذا القول لم يقنع أحداً من المشايخ ، وألحوا فى ضرورة الإفراج عن « ملا زاده ابن قاضى العسكر » لأنه ما كان يصح أن يؤخذ الابن بجريرة أبيه ، بل قال الشيخ السادات : « وأيضاً إنكم تقولون دائماً إن الفرنساوية أحباب العثمانية وهذا ابن القاضى من طرف العثمانلى ، فهذا الفعل مما يسيء الظن بالفرنساوية ويكذب قولهم وخصوصاً عند العامة » . فاشترط بونابرت للافراج عنه أن يختار المشايخ قاضياً منهم ؛ واختاروا الشيخ أحمد العريشى .

ومما يدل على أن « تمصير » الإدارة وجعلها « وطنية » بحتة لم يدر فى خلد بونابرت — أنه ما تم الإفراج عن ابن القاضى العثمانى حتى أذاع بونابرت « أوراقا » — أو منشورات على الأهلين ، حاول أن يبرر فيها فعلته بصورة لا تدع مجالا للشك فى الأسباب الحقيقية التى جعلته يختار (قاضيا مصريا) بدلا من القاضى العثمانى ؛ فقال « إن القاضى لم أعزله وإنما هو هرب من إقليم مصر وترك أهله وأولاده . وخان محبتنا من المعروف والإحسان الذى فعلناه معه . وكنت استحسنت أن ابنه يكون عوضا عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته ويحكم بدله . ولم يكن ابنه قاضياً متوليا للأحكام على الدوام لأنه صغير السن ليس هو أهلا للقضاء ، فعلمتم أن محل حكم الشريعة خال الآن من قاض شرعى يحكم بالشريعة ، واعلموا أنى لا أحب مصر خالية من حاكم

---

(١) الجبرتى ٣ : ١١ ، ٣٨ ؛ Reybaud III 217 ; IV 201 — 2

شرعي يحكم بين المؤمنين فاستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضياً شرعيا من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين . »(١)

ولقد كان قيام القاهريين بثوراتهم المعروفة من أكبر الأدلة على فشل هذه السياسة الإسلامية الوطنية ؛ وقد عزا الكتاب الفرنسيون الذين امتدحوها ذلك الفشل إلى « تعصب » المصريين ، وعجزهم عن إدراك نوايا بونابرت ، وما كانت تنطوى عليه سياسته « المصرية » على زعمهم من فوائد جمة ؛ كما أنهم عابوا على بونابرت وقواده أنهم أخفقوا فى « عدم فهم » نفسية تلك الشعوب الإسلامية التى تسلموا زمامها (٢) . ولا جدال فى أن « عدم الفهم » هذا كان من أكبر الأسباب فى فشل التجربة الاستعمارية فى هذه البلاد ، على نحو ما سبق بيانه فى مواضع عدة .

المقاومة فى القاهرة والأقاليم :

ومع ذلك فإن أحداً من رجال الحملة ما كان يفطن إلى حقيقة تلك الأسباب العميقة التى قضت على تجربتهم الاستعمارية فى النهاية ، بل اكتفى هؤلاء بأن صاروا يأخذون الأمور بظواهرها وعلى علاتها ، فتوهموا أن منشوراتهم التى أذاعوها فى طول البلاد وعرضها عند مجيئهم ، يعدون المصريين بتحريرهم من نير البكوات المماليك ، ويمنونهم بإقامة نوع من الحكومة العادلة تهتدى بهدى القرآن الكريم وتسترشد بتعاليمه — كانت كافية لاستمالة المصريين إلى تأييدهم ، حتى إذا « فوجئوا » بالثورة فى القاهرة ، ثم تكرر نشوبها ؛ وظلت المقاومة فى الأقاليم شديدة قاسية ، صاروا يتلمسون لفشلهم أسبابا ومعاذير عدة ، أهمها فى نظرهم استياء المصريين من إدارتهم المالية ، ثم تعصبهم واستماعهم لتحريضات السلطان العثمانى والبكوات المماليك . واسترشد الفرنسيون فى سياستهم « العملية » نحو هؤلاء المصريين الثائرين عليهم بمبدأ واحد ، أخذ به بونابرت وأخذ به قواده وحكام الأقاليم ، هو أن « القوة » وحدها وما يترتب على استخدامها من أعمال البطش والقوة كفيلة بردع المصريين وزجرهم ، والقضاء على ثوراتهم وقلاقلهم .

ثم استنام الفرنسيون مطمئنين إلى أن النجاح لامحالة نصيبهم ، عندما فشى الاعتقاد بينهم بأن المصريين ، وهم الذين درجوا على الإيمان بأحكام القضاء والقدر ، والتسليم

---

(١) الجبرتى ٣ : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧٥ — ٧٧

(٢) Henry D'Estre 231

بكل ما هو « مكتوب » على الجبين ، سوف يرضون بما رضى الله به واختاره لهم ، « وكتبه » القدر عليهم . فكان من أثر ذلك كله أنهم بدأوا تجربتهم الاستعمارية فى هذه البلاد ، وهم يصدقون كل مايبلغهم من ترهات تتفق وما وطدوا النفس على تصديقه ، ثم انتهى الأمر بهم إلى العنف بالمصريين ، والاقتصاص منهم اقتصاصاً صارماً قاسياً ، عندما تبين لهم خطأ زعمهم وأفاقوا من غفلتهم . أما آية هذه « الغفلة » فهى أنه ماحل ركابهم بهذه البلاد حتى بادروا بتصديق ما بلغهم عن « رؤيا » ذاع خبرها — على حد قول مؤرخيهم — بين المصريين الذين « رحبوا » بقدومهم ، ومدارها أن أحد أولياء الله رأى فيما رأى فى منامه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتجاذب أطراف الحديث مع « القدر » ، عند ما شهد عمارة الفرنسيين تقترب من الشواطىء المصرية ، فشرع رسول الله يقول له « أيها القدر الجاحد ، كيف طاب لك — وقد جعلتك المتصرف المطلق فى شئون العالم قاطبة — أن تعطى أجمل البلاد التى عمل أهلها بشريعتى واعتنقوا الإسلام دينا ؟ — فأجاب القدر : لقد كتب ذلك من الأزل ولا مناص من حدوثه ، فالفرنسيون سوف يصلون إلى هذه البلاد ، وسوف يفتحونها ويتعذر على أن أمنع ذلك ، ولكن لاتبتئس يامحمد ، فقد شاء القضاء أن يعتنق هؤلاء الفرنسيون الإسلام » ثم أتم صاحب الرؤيا قصته فقال : إن الرسول ماعتم بعد ذلك أن ترك « القدر » وهو قرير العين جذلان مطمئن(١) .

قد يكون صاحب هذه « الرؤيا » صادقاً فى رؤياه ؛ وقد يكون ناقلها صادقاً فى روايته ؛ ومع ذلك فإن الشيخ الجبرتى وقد زخر تاريخه بأمثال هذا القصص وهذه الوقائع ، لم يذكر شيئاً من ذلك . ومهما كان من شىء ، فإنه سرعان ما اختفت قصة هذه الرؤيا ، وضاع أثرها — إن كانت قد أحدثت أثراً اللهم إلا فى أذهان الفرنسيين لإشباع خيالهم فحسب — عند ما فوجىء هؤلاء بأئمة المساجد ، يلجأون فى خطبهم إلى ضرب الأمثال يخفون فى طياتها دعوتهم إلى الثورة ضد الفرنسيين ، ويحرضون القاهريين عليها ، بل ويعلن المؤذنون من فوق المآذن الدعوة إلى « الجهاد » ، وإشعالها حرباً دينية مقدسة ضد هؤلاء الكفار الظالمين . واجتمع طائفة من المشايخ والعلماء يدبرون فى الجامع الأزهر أمر هذه الفتنة ، فكانت ثورة القاهرة الأولى (٢١ — ٢٣ اكتوبر ١٧٩٨)(٢) . وماكان هناك مايدعو إلى أن يؤخذ الفرنسيون

---

(١) Galland I 99 — 100

(٢) Reybaud IV 152 — 4 ; Ibid 100, 191

على غرة لو أنهم تحرروا من غفلتهم ، وهم الذين اضطروا قبل انفجار بركان الثورة إلى التنبيه « على العامة بترك الفضول والكلام فى أمور الدولة » ، ولمسوا شيئاً من حقيقة ترحيب القاهريين بهم وسرورهم بقدمهم ، عندما صار هؤلاء — كما سبق القول — لا يبالون بإظهار شماتتهم بجرحى الفرنسيين ، ويهزأون بهم ، حتى شدد كبيرهم فى ضرورة منع ذلك ، وطاف المنادون فى شوارع القاهرة وأزقتها يحذرون الأهالى من السخرية بهؤلاء « المجروحين أو المنهزمين ، والتصفيق عليهم كما هى عاداتهم[١] » .

وأفاق الفرنسيون من غفلتهم بعد حادث هذه الثورة ، وذهبت منذ ذلك الحين كل ثقة من نفوسهم ، وساءت علاقتهم بالمصريين لدرجة بعيدة ، حتى بات مقضيا بعد ذلك على كل أمل فى إمكان التعاون بينهم وبين أهل البلاد . وانبرى كثيرون من الكتاب ينحون باللائمة على الفرنسيين بسبب ما طرأ على سياستهم وأساليبهم من تغيير ، صبغها بصبغة القسوة والصرامة ؛ كأنما كان مرد ما نسب من ثورة لاحقة فى القاهرة ، ثم ما كان يحدث من ضروب المقاومة فى طول البلاد وعرضها ، إلى هذا التغير الطارىء فى سياستهم فحسب . فى حين أن سبب كل هذه الاضطرابات والثورات لم يكن سوى تصميم المصريين على مناصبة العداء هؤلاء الغرباء الذين جاءوا يملكون بلادهم . ولم تفلح قسوة الفرنسيين وصرامتهم فى ردع القاهريين أو كبت شعورهم ، بل ظلوا يتربصون بهم الدوائر ، وسنحت الفرصة عندما اضطر بونابرت إلى الوقوف أمام أسوار عكا ، منذ أن أحرز انتصارات عدة سريعة بعد خروجه من القاهرة ، إلى بدء حصار عكا ، وبلغ القاهريين ما صار يصادفه بونابرت وجنوده من مشقات ، ويتكبدونه من خسائر تحت أسوارها المنيعة .

وكان مما عجب له الفرنسيون دائما أن المصريين كانوا فى أحايين كثيرة أسبق منهم إلى معرفة الأخبار الصحيحة ، ولا سبيل إلى إخفاء شىء عنهم مما جرى أو يرغب الفرنسيون فى عدم إذاعته وإفشائه[٢] ؛ فكثر حديث الناس فى أمر هذه الحملة الشامية ، وصاروا لا يبالون بإظهار شماتتهم بأعدائهم ، وتناقل أخبار ما حاق بالفرنسيين من فشل أمام عكا ، وما أبداه أحمد باشا الجزار من بطولة عظيمة فى الدفاع عنها ، حتى إن السلطات الحكومية فى القاهرة ما لبثت أن عمدت إلى تحذير القاهريين من الخوض فى هذه الموضوعات ، وتهديدهم بإنزال العقوبات الصارمة بهم . « فشق جماعة

---

(١) الجبرتى ٣ : ٢١

(٢) Galland II 238 — 9

من أتباع الشرطة (يوم ١٥ شوال ١٢١٣ ، ٢٢ مارس ١٧٩٩) فى الأسواق والحمامات والقهاوى ، ونبهوا على الناس بترك الفضول والكلام واللغط فى حق الفرنسيس ، ويقولون لهم من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فليتنه ويترك الكلام فى ذلك ، فإن ذلك مما يهيج العداوة ، وعرفوهم أنه إن بلغ الحاكم من المتجسسين عن أحد تكلم فى ذلك عوقب أو قتل » . وبث الفرنسيون العيون والأرصاد ، وأرشد جواسيسهم إلى عدد من القاهريين الذين استمروا يخوضون فى حق الفرنسيين ، فعاقبوهم « بالضرب والتغريم » . ومع ذلك فقد ظل القاهريون يتحدثون ما طاب لهم الحديث ، ويلغطون ما شاءوا أن يلغطوا « فى حق الفرنسيس ... ولم ينتهوا[1] » .

وعندما انقطعت أخبار بونابرت وجنده الواقفين على حصار عكا ، زاد كلام القاهريين « وأكثر (الناس) من اللغط » وكانت قد تطايرت الإشاعات كذلك عن انتصار الشيخ الكيلانى ومجاهدى الحجاز ، الذين ركبوا البحر مع جماعة من ينبع إلى القصير ، للجهاد ضد الفرنسيين والانضمام إلى البكوات المماليك فى الصعيد . وكان الشيخ الكيلانى مغربيا مجاورا بمكة والمدينة والطائف ، نفر إلى الجهاد مع حوالى السمائة من العرب « لنصرة الحق والدين » وطرد الفرنسيين من مصر .

فلما كثر لغط الناس فى ذلك كله جمع الفرنسيون الديوان فى أوائل مايو ١٧٩٩ ، وقرأوا عليهم (طومارا) « وطبعوا منه عدة نسخ (وألصقوها) بالأسواق على العادة » يؤكدون فيها انهزام الشيخ الكيلانى من جهة ، وأنهم سوف يقتحمون أسوار عكا فى القريب العاجل من جهة أخرى ، ويأمرون « الرعايا من أهل مصر والأرياف أن يلزموا الأدب والإنصاف ويتركوا الكذب والخراف فإن كلام الحشاشين يوقع الضرور للناس المعتبرين ... فأنتم يا أهل مصر ويا أهل الأرياف اتركوا الأمور التى توقعكم فى الهلاك والتلف وأمسكوا أدبكم قبل أن يحل بكم الدمار ويلحقكم الندم والعار ، والأولى للعامل اشتغاله بأمر دينه ودنياه ، وأن يترك الكذب وأن يسلم لأحكام الله وقضاه . فإن العاقل يقرأ العواقب وعلى نفسه يحاسب ، هذا شأن أهل الكمال يتركون القيل والقال ويشتغلون بإصلاح الأحوال ويرجعون إلى الكبير المتعال والسلام[2] » .

غير أن هذه التحذيرات ذهبت جميعها سدى ، ووجد الناس فى أخبار فشل

---

(١) الجبرتى ٣ : ٥٣

(٢) الجبرتى ٣ : ٥٩ — ٦٠

الفرنسيين أمام عكا فرصة مؤاتية للتفريج عن كربتهم بتناقل أنباء هذا الانهزام . وكثر اللغط ، فجمع الفرنسيون الديوان (فى ٦ يونيه سنة ١٧٩٩) ، وقرأوا على أعضائه « مكتوبا مترجماً » بعث به بونابرت من عكا إلى « محفل ديوان مصر » ، يشرح فيه الأسباب التى حالت دون سقوط حصن عكا فى قبضته ؛ وبلغت هذه على نحو ما جاء فى رسالة بونابرت خمسة عشر سبباً [١] ؛ ثم رغب بونابرت فى ستر ما لحقه من هزيمة ، وأراد الدخول إلى القاهرة فى موكب عظيم ، فاستعد « دوجا الوكيل ونبه على الناس بالخروج لملاقاته » . وفى ١٤ يونيه أقيم احتفال كبير بالأزبكية أشرف عليه « دوجا وداستان » ، وخرج لاستقباله فى سهل القبة جمع حافل من كبار الفرنسيين وأعضاء الديوان والتجار وأرباب الحرف والصناعات ، وعلى رأسهم دوجا ، وداستان ، وبوسيلج ، وهنأ المشايخ والعلماء بونابرت ، وأهداه الشيخ البكرى حصانا عربياً أسود مسرجا بالذهب والأحجار الكريمة واللؤلؤ ، ومملوكا يرعى هذا الحصان هو « روستان Roustin » الذى حكيت حول شخصيته الأساطير ، وقد ظل فى خدمة نابليون فى قصر التويلرى بعد ذلك حتى سقطت الامبراطورية ، فتركه عندما خان الحظ نابليون . وانفض الناس من حوله ؛ وكذلك أهدى المعلم جرجس الجوهرى فى فى هذه المناسبة جملين تكسوهما الكساوى الثمينة ، وامتطى بونابرت صهوة الحصان المهدى إليه ، وسار فى مقدمة الموكب الذى دخل القاهرة عن طريق باب النصر ، واستمر فى سيره إلى ميدان الأزبكية . وازدحمت النـــاس — على حد قول مؤرخى الحملة — لمشاهدة هذا الموكب . ثم استمر العيد ثلاثة أيام بلياليها ، وأقيمت الزينات فى ميدان الأزبكية ، وأعد (دارجيفل Dargeavelle) صاحب التيفولى مهرجانا عظيما فى حديقته [٢] .

ومع ذلك فقد كان كل ما استرعى انتباه الناظرين يوم الاحتفال بعودة بونابرت وجيشه من الحرب الشامية « أنه قد تغيرت ألوان العسكر القادمين ، واصفرت ألوانهم ، وقاسوا مشقة عظيمة من الحر والتعب ، (بعد أن) أقاموا على حصار عكا أربعة وستين يوما ، حربا مستقيما ليلا ونهاراً (أبلى فى أثنائها) أحمد باشا (الجزار) وعسكره بلاء حسناً وشهد له الخصم » . وفضلا عن ذلك فإن الذين اشتركوا فى إحياء هذه المهرجانات لم يكونوا سوى عامة القوم من « أرباب الملاهى والبهالوين وطوائف اللاعبين والحواة

(١) الجبرتى ٣ : ٧١ — ٧٢

(٢) Reybaud VI 4 — 8

والقرادين والنساء الراقصات والحلايص . (الذين) أعطاهم سارى عسكر دراهم وبقاشيش » مكافأة لهم وأجراً على مساهمتهم فى إحياء هذا العيد(١) .

وكان واضحاً على الرغم من ذلك كله أن القاهريين ما كانوا يصدقون شيئاً من تلك الأقوال التى أصر بونابرت ورجال حكومته على إذاعتها يفسرون بها هزيمتهم أمام عكا ، ويحاولون إخفاء خسائرهم ، فأذاعوا بعد مضى أيام معـــدودة على احتفالاتهم منشورات « طبعوها وألصقوها بالأسواق » ، يحضون الناس فيها على اجتناب الفتن والشرور ، وعدم تصديق أقوال المنافقين المفسدين ، الذين بلغ من جرأتهم أنهم أشاعوا موت بونابرت نفسه أمام عكا . ويتوعدون محركى الفتنة بالويل والثبور وعظائم الأمور(٢) . غير أن القاهريين الذين ما كان يردعهم رادع ، أو يمنعهم عن الخوض « فى حق الفرنسيس » مانع ، سرعان ما وجدوا الفرصة مواتية للتسرية عن نفوسهم وإظهار ما يكنونه من بغض وكراهية للفرنسيين ، واشتياق لعودة ذلك النوع من الحياة التى ألفوها قبـل مجىء هؤلاء إلى بلادهم ، وإعادة الأمور إلى نصابها عند ما تواترت الأخبار (يوم ١١ يوليو ١٧٩٩) عن وصول « مراكب عثمانية » إلى أبى قير .

وعقد القاهريون آمالا عظيمة على انتصار العثمانيين « فـكثر اللغط فى الناس ، وأظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى » واعتـدوا عليهم ، ثم « وردت الأخبار وعدة مكاتيب (٢٢ يوليو) لـكثير من الأعيان والتجار وكلها على نسق واحد تزيد عن المائة مضمونها بأن المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم ملـكوا الاسكندرية » فـكثر القيل والقال وعظم اللغط ، وكادت تقع فتنة كبيرة لولا أن بادر الفرنسيون بإذاعة أخبار انتصار بونابرت فى موقعة أبى قير البرية المعروفة ، « وضربوا مدافع كثيرة من قلعة الجبل وباقى القلاع المحيطة وبصحن الأزبكية وعملوا فى ليلتها ... حراقة بالأزبكية من نفوط وبارود وسواريخ تصعد فى الهواء » .

وما أن رجع بونابرت إلى القاهرة وذهب المشايخ وأعضاء الديوان للسلام عليه حتى أخذ يقرعهم تقريعاً شديداً فقال لهم « إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه وأما فى هذه المرة فليس كذلك لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون بل يموتون عن آخرهم فـكنتم فرحانين ومستبشرين وكنتم تعارضون الأغا فى أحكامه وأن المهدى والصاوى ماهم بونو أى ليسوا بطيبين ونحو ذلك(٣) » .

---

(١) الجبرتى ٣ : ٧٢ ، ٧٣
(٢) الجبرتى ٣ : ٧٣ — ٧٤
(٣) الجبرتى ٣ : ٧٨ — ٨١

وتلك عبـــارات تظهر بوضوح وجلاء حقيقة شعور المصريين ، ومبلغ ودهم وصداقتهم المزعومة لهؤلاء السادة الذين فرضوا سلطانهم عليهم ، ولم يحاولوا « فهم » نفسية الشعوب التى دانت لهم ، ورغبوا فى استعمار بلادهم . ويعترف مؤرخو الحملة أنفسهم بأن أعضاء الديوان — وهم قادة القاهريين وزعماؤهم قد ظلوا « جامدين » ويحزنهم انهزام العثمانيين ، ولم يؤثر فيهم شيئاً تقريع بونابرت ، أو إطلاق المدافع الكثيرة التى أعلنت نصر الفرنسيين ؛ وهم — أى أعضاء الديوان — الذين كانوا قد شاركوا الأهلين فى إظهار الفرح والسرور عندما تطايرت الإشاعات عن انتصار العثمانيين ، وانطوت قلوبهم — كقلوب سائر المصريين — على كل كراهية وحقـــد لحكامهم الفرنسيين [١] .

وواقع الأمر أن أعضاء الديوان وأعيان المصريين ظلوا على الرغم من اشتراكهم فى المهرجانات التى أقيمت للاحتفال بعودة بونابرت من سوريا ، يحكمون صلتهم بالرؤساء العثمانيين ، ويراسلون قائد الجيش العثمانى — حسين سـيد مصطفى باشا — كما كان لإبراهيم بك أعوان وعمال كثيرون فى القاهرة ؛ وأراد أعضاء الديوان من إحكام علاقاتهم بالصدر الأعظم أن يدفعوا عن أنفسهم فى عينى السلطان العثمانى وخليفة المسلمين تهمة التعاون مع الفرنسيين وشد أزرهم ؛ ولم يفت الفرنسيين الموجودين بالقاهرة ملاحظة هذا الاتجاه الذى استمرت تؤيده القرائن ، حتى إن بوسيلج ما لبث أن كتب إلى بونابرت فى أثناء حملة هذا الأخير السريعة فى أبى قير ، أنه إذا استثنى الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ البكرى ، وهم الثلاثة الذين ارتاح إليهم بوسيلج بدرجات متفاوتة ، فإن سائر المشايخ وأعضاء الديوان من المتعصبين الذين لا يمكن الاطمئنان إليهم ؛ ومن أشد هؤلاء انحرافا عن الفرنسيين الشيخ المهدى — الذى كان يهدف — على حد قول بوسيلج — إلى جذب قلوب الجماهير إليه ، وكسب الشهرة ، ولا يبالى بتضحية الفرنسيين جميعهم ، لقـاء الاحتفاظ بهذه الشهرة بين مواطنيه [٢] ؛ وإن كان الشيخ المهدى قد حاول بعد ذلك « مداراة » الفرنسيين والتودد إليهم ، حتى يدفع الأذى عن نفسه وعن سائر مواطنيه ؛ ثم حبسه الفرنسيون فى القلعة عند اشتداد الحصار على القاهرة فى أواخر أيامهم فلم يفرجوا عنه إلا عند تسليمهم على يد بليار .

وسنحت للمصريين الفرصة لإظهار شعورهم من جديد عندما تواترت الأخبار

---

(١) Reybaud VI 224 — 6

(٢) Ibid 227 — 9

عن « تقرير الصلح » بين كليبر والعثمانيين ، وعقد اتفاق العريش (٢٤ يناير ١٨٠٠) على أساس جلاء جيش الشرق عن مصر ، « ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً » . وما إن بدأ تنفيذ هذا الاتفاق ودخل أحد رجال الدولة العثمانية — ويسمى محمد أغا — إلى القاهرة فى موكب كبير (فى ٢٨ يناير) حتى « حصل للناس ضجة عظيمة وازدحموا على مشاهدتهم له والفرجة عليه وارتفعت أصواتهم وعلا ضجيجهم ، وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف وانطلقت النساء بالزغاريد من الطيقان . . . وازدحم الناس والأعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس » . وكان الأغا قد أحضر معه فرمانا من الصدر الأعظم بتحصيل « الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية ، على أن يقوم السيد أحمد المحروقى بجمعها » فاجتهد السيد احمد « فى توزيع ذلك وجمعه فى أيام قليلة » ذلك أن القاهريين بادروا بإخراج المال « عن طيب قلب وانشراح خاطر . . . ومن غير تأخير (لعلمهم) أن ذلك لترحيل الفرنساوية » .

وصار القاهريون لايبالون بإظهار شعورهم نحو الفرنسيين جهراً وعلانية فكان كل واحد منهم يدفع ما عليه من مال وهو « يقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة (وحدث) كل ذلك بمشاهدة الفرنسيين ومسمعهم وهم يحقدون عليهم » . وحدث مثل ذلك فى الإقليم « وجمع المال والغلال ومطلوبات الذخيرة » ، ونظر « أهل مصر . . . للفرنسيس بعين الاحتقار وأزلوهم عن درجة الاعتبار ، (وكشف الرعايا وهمج الناس) نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ، ولم يفكروا فى عواقب الأمور ولم يتركوا معهم للصلح مكانا . حتى إن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف حسبة ، وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم ، بلعن النصارى وأفراد رؤسائهم كقولهم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرطمان — (أو برطمين) — ونحو ذلك وظنوا فروغ القضية ، ولم يملكوا لأنفسهم صبرا حتى تنقضى الأيام المشروطة[1] » . واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن حتى إذا صار نقض اتفاق العريش فى الظروف التى سبق ذكرها ، واشتبك كليبر مع العثمانيين فى معركة هليوبوليس خرج القاهريون إلى ناحية القبة يرقبون سير المعركة ، بينما عمد من بقى

---

(١) الجبرتى ٣ : ٨٧ ، ٩١ — ٩٣

منهم بداخل القاهرة إلى القيام بالثورة ، فكانت ثورة القاهرة الثانية التى استمرت مدة شهر تقريباً من ٢٠ مارس إلى ٢٠ ابريل سنة ١٨٠٠ .

وكانت ثورة شديدة هاجم القاهريون والعثمانيون ، فى أثنائها بقيادة حسن بك الجداوى دار المعلم يعقوب الذى « كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى (وكان قد) استعد استعداداً كبيراً بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد » ثورة القاهرة الأولى . وضرب الفرنسيون بولاق بالمدافع واندلعت ألسنة النيران فى كل مكان ، فالتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكائل والخانات وهلكت أسر بأكملها ، وكانت معركة حقيقية اشترك فيها من قواد كليبر « الشجعان » كل من لاجرانج Legrange ، وفريان Friant وبليار Belliard ودونزيلو Donzelot ، وديرانتو Duranteau ، ورينييه Reynier ، وروبان Robin ، فاستطاع الفرنسيون بعد جهد وعناء إخماد الثورة ، بعد أن فقدوا عديدين من ضباطهم وكان من بين الجرحى ديجنت Desgenettes كبير أطبائهم والمستشرق مارسيل Marcel مدير المطبعة الأهلية [١] .

وكان اقتصاص الفرنسيين من المصريين بعد هذه الواقعة رهيباً شديدا ، وفرضوا غرامات فادحة على كثير من العلماء والأعيان ، وأحلوا بهم من صنوف المذلة والهوان شيئا عظيما . وانبث « المعينون والعسكر فى طلب الناس وهجم الدور وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلتهم وحبسهم وضربهم ... وتطاولت النصارى من القبط والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكانا وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين [٢] » . وكان من أثر أساليب القمع الشديدة التى استخدمها الفرنسيون فى إخماد هذه الثورة ، حدوث رد فعل كبير عند ما تبين للمصريين عبث المقاومة أمام جيوش الفرنسيين المسلحة بأنواع الأسلحة من الطراز الحديث ، ولديهم من المدافع ما يستطيعون به تخريب القاهرة بأكملها لو أرادوا ، وأنه لا جدوى من الاعتماد على العثمانيين أو البكوات المماليك فى مناضلة الفرنسيين أو انتظار هزيمة هؤلاء على أيديهم ، وقد لاذ حسن بك الجداوى بالفرار إلى الصعيد عند اشتداد الخطب وتبعه إبراهيم بك بعد أن اضطر مع ناصف باشا إلى عقد الصلح مع العدو

---

(١) الجبرتى ٣ : ٩٤ — ١٠٧ ؛ Reybaud VII 457 — 60

(٢) الجبرتى ٣ : ١١٤

(فى ٢١ إبريل) ؛ وكان كليبر قد نجح قبل ذلك فى عقد معاهدة مع مراد بك زعيم المقاومة فى الصعيد . « فانكشف الغبار — على حد قول الشيخ الجبرتى — عن تعسة المسلمين وخيبة أمل الذاهبين والمتخلفين ، وما استفاد الناس من هذه العمارة وما جرى من الغارة إلا الخراب والسخام والهباب ، فكانت مدة الحصر بما فيها من الثلاثة أيام الهدنة سبعة وثلاثين يوما وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج والشقاق والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور ، وقتل الرجال ونهب الأموال ، وتسلط الأشرار وهتك الأحرار » الشيء الكثير [١] .

تلك كانت قصة القاهريين ، الذين ظلوا على الرغم مما أصابهم ، واضطرارهم إلى التزام الهدوء والسكينة بعد ذلك حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، يكنون البغض والكراهية للفرنسيين ، ويتوقون إلى التحرر والخلاص من نيرهم .

على أن القاهرة لم تكن وحدها ميدان هذه الاضطرابات والثورات التى امتاز بها عهد الاحتلال الفرنسى فى مصر . ذلك أن أهل الوجهين البحرى والقبلى كانوا لا يقلون عن القاهريين كراهية للحكم الجديد . فاشتعلت الثورات فى الدلتا واشتدت المقاومة فى الصعيد . ومنذ أن بدأ زحف الفرنسيين من الاسكندرية إلى القاهرة (يوليو ١٧٩٨) بدأت المقاومة ضدهم على نطاق واسع فى القطا وعلقام . وقد أحرقها الفرنسيون — ثم امتدت إلى منوف وطنطا والمنصورة ودمياط ودمنهور وعدد كبير من المدن والقرى اشترك فى إخضاعها نخبة من قواد الفرنسيين كالجنرالات زايونشك وفيال ودوجا وفوجيير ، وداستان،ولانوس ، وموزا ، وفرديه ، وداماس ، ورامبون ، واندريوسى وغيرهم . وأصدر بونابرت التعليمات المشددة إلى هؤلاء القواد بالتجرد من كل رحمة وشفقة فى إخماد هذه الثورات ، وقذف الرعب فى قلوب الأهلين وإرهابهم [٢] ؛ ونفذ هؤلاء تعليمات بونابرت الصارمة ، فأحرق جنودهم قرى مطوبس ، والسالمية ، وغمرين وتتار (Tétar) القريبة من منوف ، وميت سليل ، وقرية الشعراء والقرى الواقعة بين المنصورة ودمياط وقرية شباس عمير ، انتقاما لمقتل الرسام جولى Joly ، وذلك عدا نهب القرى والمدن العديدة [٣] .

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٠٩

(٢) Corresp. Nos — 2901, 2971, 3201, 3374, 3476

(٣) Reybaud III Caps IX, XI, vol IV Cap I; vol V Cap III; vol VI. Cap XIV

واشتهر من زعماء هذه المقاومة الأهلية ، أبو قورة فى المنصورة ، وابن شعير فى قرية عشما ، وحسن طوبار فى المنزلة ، والإمام المهدى فى دمنهور ، وكان رجلا مغربياً « يدعى المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد . . فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم ، وحضروا إلى دمنهور ، وقاتلوا من بها من الفرنساوية[1] » . ولما كانت الاضطرابات قد ظلت مستمرة فى الإسكندرية ، فقد قبض كليبر على السيد محمد كريم ، ونقله إلى البارجة (أوريان) ، ثم بعث به (برويس) إلى القاهرة بناء على طلبه قبيل واقعة أبى قير بيومين فقط ، ثم أعدمه نابليون عند مارفض السيد كريم أن يدفع ما فرضه عليه من غرامة كبيرة لقاء العفو عنه فى ٦ سبتمبر ١٧٩٨[2] .

وصادفت الفرنسيين صعوبات جمة عند ما خرجت قواتهم لإخضاع الصعيد ، بعد أن قرر مراد المقاومة عقب هزيمته فى موقعة الأهرام ، ورفض الاتفاق مع الفرنسيين ؛ وكان بونابرت قد أوفد إليه (روشتى) Rossetti للمفاوضة معه ، فاضطر بونابرت إلى إرسار ديزيه Desaix لمطاردته وإخضاع الصعيد ، وكان إخضاع الصعيد عملا شاقا متعبا بسبب إقبال الأهلين على مساعدة مراد ، وإمداده بالنجدات ، والاشتراك معه فى كثير من العمليات العسكرية الكبيرة ، ثم اشتعال الثورة فى الأقاليم التى ظن الفرنسيون أنهم أخضعوها ؛ وفضلا عن ذلك فقد لقى مراد فى أثناء هذه المعارك التى استمرت أربعة عشر شهراً معونة صادقة من جانب « أشراف » الحجاز وأتباع الشيخ الكيلانى الذى سبق الحديث عنه ، وإن كان الفرنسيون قد استطاعوا التغلب على هؤلاء فى النهاية . أضف إلى ذلك كله انتشار الأمراض بين جند ديزيه ، وخصوصاً الرمد وقد فقد عديدون من جنده قوة الإبصار بسببه .

وبدأت عمليات ديزيه العسكرية عندما غادر القاهرة فى ٢٥ أغسطس ١٧٩٨ ، يقصد بنى سويف لمطاردة المماليك الذين انتشرت قواتهم على طول بحر يوسف ، ولكن ما بلغ بنى سويف فى آخر أغسطس حتى كان المماليك قد غادروها ، ورابط مراد بالبهنسا بينما اتخذ محمد بك الألفى موقعه بين البهنسا واللاهون بيد أن مراداً ما لبث أن أخلى البهنسا منسحبا إلى اللاهون عند وصول ديزيه ، فاحتل القائد الفرنسى البهنسا وتابع زحفه إلى المنيا ثم إلى ملوى ، حتى وصل أسيوط فى ١٤ سبتمبر ، وهناك علم بعودة مراد عن طريق الصحراء إلى الفيوم فاضطر ديزيه إلى النزول فى بحر يوسف لمطاردة

(١) Ibid III 321 — 2; IV 4 — 18; 122 — 34 ؛ الجبرتى ٣ : ٢٩ ، ٦٠

(٢) Ibid III 268 — 70 ؛ الجبرتى ٣ : ٦٥ — ٦٦

مراد فى الفيوم ، وفى ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ انتصر ديزيه على مراد فى واقعة سدمنت المشهورة (١) ، بعد مقاومة عنيفة كاد يكتب النصر فيها لمراد ، بفضل ما كان لديه من مدفعية أحدثت خسائر فادحة فى صفوف الفرنسيين ، لولا هجوم الجنرال فريان الحاسم بفرسانه فى اللحظة الأخيرة ؛ وقد شغل ديزيه بعد هذه الواقعة بإخماد ثورة خطيرة نشبت فى الفيوم ، وهددت بالفناء حاميتها التى تركها ديزيه بقيادة الجنرال روبان فى مدينة الفيوم . ثم قاد ديزيه جنده إلى بنى سويف . وفى هذا المكان وصلته نجدات من حوالى ألف من الفرسان بقيادة الجنرالين دافو Dovoust وبليار كان ديزيه نفسه قد طلب إرسالها من القاهرة . ولما كان بونابرت قد أزمع الرحيل إلى الشام فقد غادر ديزيه الصعيد لمقابلة قائد الحملة العام وتلقى تعليماته .

وفى ١٦ ديسمبر استأنف ديزيه وقواده فريان وبليار ودافو ودونزيلو العمليات العسكرية ضد مراد ، الذى عمد وقتذاك إلى حرب المناوشات ، وظل يتجنب الاشتباك مع الفرنسيين فى معارك فاصلة . فزحف ديزيه إلى المنيا ، وأسيوط (٢٥ ديسمبر) ثم إلى جرجا فبلغها بعد أربعة أيام ، وأقام بها حتى يوم ٢١ يناير سنة ١٧٩٩ . وكان فى هذه الأثناء أن جاء إلى الصعيد الشيخ الكيلانى وصحبه ، واستطاع مراد أن يجمع فلول جيشه ، واندلع لهيب الثورة بين أسيوط وجرجا ، واتفق مراد مع حسن بك الجداوى على ضم الصفوف ، واضطر (دافو) إلى الاشتباك مع الثوار المصريين فى سوهاج وطهطا (٢) وفى أواخر يناير كانت النجدات قد وصلت إلى ديزيه ، وإلى مراد فاستعد الفريقان للالتحام هذه المرة فى معركة حاسمة ، فكانت واقعة سمهود فى ٢٢ يناير سنة ١٧٩٩ (٣) وانهزم مراد فى هذه الواقعة ، ووصل ديزيه فى مطاردته إلى دندره وطيبة وأرمنت وإسنا وإدفو وأخيراً إلى أسوان (فى أول فبراير) . واستطاع بليار أن يقضى على مناوشات المماليك فى دراو ، ويرغمهم على التقهقر إلى النوبة ، ويحتل فيلة وغيرها من جزر النيل الصغيرة (فى ٢٠ ، ٢١ فبراير) . وفى ١٦ مايو أحرز ديزيه نصرا جديدا فى أسوان ، وبادر بإعلان خضوع الصعيد لقائده الأعلى بونابرت وكانت الخطوة التالية الاستيلاء على القصير ، فغادر بليار ودونزيلو قنا لهذه الغاية فى ٢٦ مايو ، وبعد ثلاثة أيام كانت القصير قد سلمت لجيشهما دون مقاومة (٤) .

---

(١) Reybaud III 398 — 404

(٢) Ibid 511 — 14

(٣) Ibid 517 — 20

(٤) Ibid V 1 — 55 Et Sqq

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه الانتصارات ، فقد ظلت الاضطرابات فى الصعيد وكان من الواضح أنه ما دام مراد حراً طليقاً ، ويلزم جانب الحيطة والحذر فلا يلتحم مرة أخرى فى معارك كبيرة مع الفرنسيين ، فإن هؤلاء لن يستطيعوا إخماد المقاومة الأهلية فى الصعيد . وما إن عظمت صعوبات كليبر بعد فشل اتفاق العريش واشتعال الثورة فى القاهرة حتى وجد من الخير أن يصل إلى اتفاق مع مراد الذى شعر من جانبه هو الآخر أن من المتعذر عليه الاستمرار على مقاومة الفرنسيين بصورة جدية ، فعقد الاثنان معاهدة ٥ إبريل سنة ١٨٠٠ المعروفة ، وساعد مراد الفرنسيين فى أثناء ثورة القاهرة ، وكان لتوسطه أثر فى إنهاء هذه الثورة .

على أن إخماد ثورة القاهرة ، وحرق القرى فى الوجه البحرى والصعيد ، وإدخال الرعب على قلوب أهل الإسكندرية ، لم يكن معناه أن البلاد قد دانت لسلطان الفرنسيين وأسلمت لهم قيادها ، وفى وسع هؤلاء أن يطمئنوا إلى استتباب حكومتهم فى « المستعمرة الجديدة » ، أو أن يتفرغوا لمناجزة العدو فحسب عندما تلبد الجو بالسحب ، وقامت الاستعدادات على قدم وساق لإرسال حملة أبركرمبى إلى مصر ، واحتشدت جيوش الصدر الأعظم تهدد بالزحف على حدود مصر الشرقية ، وغادرت فى آخر العام نفسه (ديسمبر سنة ١٨٠٠) حملة الجنرال بيرد Baird خليج البنغال تقصد إلى جزيرة سيلان ، ثم إلى بمباى فى طريقها إلى مياه البحر الأحمر . فقد ظل القاهريون بسبب تلك الكوارث التى حلت بساحتهم عقب ثورتهم الثانية — لا يجسرون على التمرد والعصيان ؛ وإن كان قد زاد فى حفيظتهم وسخطهم على الفرنسيين ما أوقعه هؤلاء بهم من عقوبات صارمة ، وفرضوه عليهم من مغارم فادحة ، فشغل القاهريون بتدبير المال اللازم لدفع هذه الغرامات ، ثم عظم انزعاجهم واشتدت كربتهم عندما ذاع فجأة خبر مقتل كبير الفرنسيين وزعيمهم ، وتوقع أهل القاهرة أن ينتقم هؤلاء لاغتيال الجنرال كليبر انتقاماً عظيما .

ولكن سرعان ما سرى عنهم عندما شاهدوا الفرنسيين يجرون تحقيقاً دقيقا ؛ ولا يدينون الجناة إلا بعد محاكمة جدية ، فيعدمون من ثبتت عليه التهمة ، ويطلقون سراح من وضحت براءته . حتى إن الشيخ الجبرتى — ولم يكن فى يوم من الأيام مؤيداً للحكم الفرنسى — وجد لزاما عليه أن يثبت « ترجمة أوراق » التحقيقات التى أذاعها الفرنسيون « لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين ، (فلم

يعجلوا بقتل الجانى) وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار ، بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخه بدم سارى عسكرهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة . . . ثم نفذوا الحكومة (فى أولئك الذين ثبتت إدانتهم) ، بما اقتضاه التحكيم ، وأطلقوا سراح » من ثبتت براءته [١] .

وقد استمر القاهريون على هدوئهم ، ثم شغلوا بأمر ذلك المليون وتلك المشروعات التى ابتكرها ذهن منو الخصب أو خياله والتى سبق الحديث عنها ، حتى إذا نزل الإنجليز على الشواطىء المصرية وزحف العثمانيون على حدود البلاد الشرقية ، بدأت تنتعش آمال القاهريين من جديد فى التحرر مما كانوا فيه من عنت وإرهاق ؛ وإن كانوا ما يزالون بعيدين عن التفكير فى تحريك الثورة بعد تجاربهم الأخيرة . ومع ذلك فقد ظلت الشكوك تساور الفرنسيين من جانبهم ؛ واعتقدوا أن هذا الهدوء هدوء ظاهرى ، وهو الهدوء الذى يسبق العاصفة ، وأن العاصفة لا محالة آتية إذا قدر لهم الانهزام أمام جيوش الإنجليز والعثمانيين .

واتخذ منو وبليار إجراءات كثيرة أملتها الحيطة واقتضاها الحذر فى زعمهم ، كأخذ الرهائن وحبس الشيوخ فى القلعة وغير ذلك مما سبق ذكره فى موضعه . واستبد بهم الخوف من انتقاض القاهريين عليهم واشتعال ثورة خطيرة ضدهم عند ما ذاع فى القاهرة يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٠١ خبر انهزام منو وجيش الشرق فى موقعة كانوب الحاسمة ، كما ذاع خبر زحف العثمانيين صوب بلبيس والقاهرة ، فشل الخوف والرعب تفكير الفرنسيين فى القاهرة ، وأسرعوا يتحصنون فى القلعة وفى سائر حصون القاهرة [٢] ؛ ومع أن القاهريين تجمعوا فعلا بالقرب من الجامع الأزهر ، على أثر ذيوع هذه الأنباء ، فقد انفضت هذه الاجتماعات دون حدوث ثورة أو شغب [٣] ، ليس فقط لأنهم كانوا لا يريدون التعرض لاقتصاص الفرنسيين منهم على ثورتهم ، بل لأنهم على ما يبدو كانوا يتوقعون عجز بليار وصحبه عن المقاومة ، واضطراره إلى التسليم السريع عند ما يتم إطباق تلك الجيوش الزاحفة على القاهرة . على أن خوف بليار من أن يقوم القاهريون بالثورة ظل مسيطرا على كل تفكيره ، وكان هذا الخوف — على نحو ما شهدنا — أحد العوامل الحاسمة التى عجلت بتسليم القاهرة .

---

(١) الجبرتى ٣ : ١٢٢

(٢) Villiers 290

(٣) Reybaud VIII 190

وفضلا عن ذلك فقد فتح المصريون طريق الصعيد للحملة الانجليزية التى غادرت القصير إلى قنا فى ٢١ يونية ١٨٠١ ، ثم وصلت الجيزة فى ٧ أغسطس — بعد تسليم بليار — ثم استأنفت السير فى الوجه البحرى ، فنزلت النيل فى ٢٨ أغسطس ، ووصلت رشيد وقت تسليم الاسكندرية (١) . وكان من الأسباب التى عجلت بتسليم منو فى الاسكندرية ، وقف القتال فى القاهرة من جهة ، وأن العثمانيين فى زحفهم فى الدلتا ما كانوا يلقون مقاومة تذكر من تلك الحاميات الفرنسية المبعثرة ، والتى باتت من مدة طويلة فى شبه عزلة تامة بسبب عـداء الأهلين لها وإحجامهم عن إمدادها بالمؤن والأغذية .

وهكذا قضى على تجربة الفرنسيين الاستعمارية فى مصر إخفاق هؤلاء فى « فهم » تلك الشعوب التى جاءوا لحكمها ، واستهتارهم من الناحية الأخلاقية بعادات القوم وتقاليدهم ، ثم اعتمادهم على القوة والعنف فى اخماد كل مقاومة لحكمهم ، وتوهمهم أن سياسة الحفلات والأعياد وإنشاء الدواوين كانت كافية لاستمالة المصريين وفصم علاقاتهم التاريخية الوطيدة بدولة الخلافة الإسلامية .

وهكذا عجزت الحملة عن بلوغ غاياتها وتنفيذ أغراض أصحابها ، فلا هى استطاعت أن تشيد صرح تلك « المستعمرة الجميلة » التى شاء الفرنسيون أن يتخذوا منها نواة لإمبراطوريتهم الاستعمارية الجديدة ، ولا هى حققت شيئا من مشروعات حكومة الإدارة العسكرية والسياسية . فقضى انهزام جيش الشرق على كل أمل فى غزو الهند والاقتصاص من الإنجليز ، أو الزحف عن طريق القسطنطينية ونهر الدانوب فى قلب أوروبا وإرغام حلفاء الإنجليز على الانفضاض من حولهم ، ثم تحطيم أعداء « الثورة » تحطيما لا قيامة لهم من بعده ، وإتاحة الفرصة للقنصل الأول حتى يتخذ من ضرورة البت فى مصير هذه البلاد أداة للمساومة المربحة عند عقد السلام العام ؛ ولا هى مهدت لبونابرت طريق الشهرة والخلود ، فلم يظفر القائد الشاب بأكاليل الغار التى توهم أن فى وسعه أن يظفر بها فى ميادين « الشرق » البعيد ، الذى كان ما يزال ذكره يوقظ الأطماع فى النفوس ، ويبعث التفكير فى أمره صوراً شتى من الخيالات والأحلام الجميلة ، ويضفى على « قاهره » ضوءاً ساطعاً من المجد والفخار .

ومع ذلك فإن نصيب الحملة لم يكن الإخفاق كله ولا شىء غير الفشل ، فإن أولئك الرجال الذين اختاروا لمرافقة الحملة نخبة من علماء فرنسا ، وزودوهم بكل ما يحتاج

---

(١) De Noé 133 — 7

إليه الغزو العلمى ، من كتب وآلات علمية وأدوات ؛ وحرص بونابرت وكليبر على أن أن تستمر بحوث علماء الحملة ودراستهم لكشف النقاب عن تاريخ وآثار هذه البلاد التى جاءوا ليستعمروها ، ودراسة مناخها وطبيعة أرضها وحيوانها ونباتها وأجناسها وعادات شعوبها وغير ذلك ؛ ثم شعور منو نفسه — على الرغم من تأرجحه تارة بين تأييد جهود هؤلاء العلماء ، وتارة أخرى بين تعطيل أعمالهم — بأنه من الجبن فى حق نفسه وسمعته أن يوصما بتهمة الإساءة إلى العلم والعلماء ، نقول إن أولئك الرجال جميعاً سرعان ما جنوا ثمرة غرسهم ، بفضل نشاط علماء الحملة ، الذين حفظوا هذا المشروع الكبير ، بسبب ما قاموا به من بحوث ودراسات واسعة عميقة ، من السقوط فى وهدة تلك « المغامرات الجنونية » التى لا يخلو منها زمان ، نتيجة لأطماع أصحابها وانسياقهم وراء الشهرة المزيفة وسراب المجد الكاذب .

د — الأثر العلمى :

وعاش العلماء فى مصر عيشة دأب وبحث وتنقيب ؛ وانتشر أفرادهم وجماعاتهم فى طول البلاد وعرضها يفحصون ويكشفون ، ولا يمنعهم تفشى الأوبئة والأمراض وخصوصاً الرمد والطاعون ، ولا يصدهم الخوف من تلك الاضطرابات والثورات التى اقتضى إخمادها قيام الفرنسيين بالعمليات العسكرية العنيفة فى الوجهين البحرى والقبلى بل صار هؤلاء العلماء وزملاؤهم من الرسامين وسائر الفنيين يخرجون مع الحملات المرسلة لإخضاع المدن والقرى ، أو مطاردة المماليك ، فيقومون بدراساتهم وينقبون عن الآثار ويفحصونها ويرسمونها ، ويحاولون إماطة اللثام عن تاريخ هذه البلاد القديمة ، وحياة شعوبها بينما يشتبك الجنود مع الثوار أو البكوات المماليك فى مناوشات دامية أو معارك طاحنة . وكثيراً ما أصيب بعض هؤلاء العلماء بجراح خطيرة أو لقوا حتفهم بسبب هذه العمليات العسكرية ، وكثيراً ما سقط آخرون فريسة لوباء الطاعون أو لغيره من الأمراض المستعصية ، حتى إذا انقضت أيام الاحتلال الفرنسى فى مصر ، كان قد بلغ عدد هؤلاء ثلاثين عالماً من علماء النبات والكيمائيين والمهندسين والجغرافيين والرسامين والجراحين والمستشرقين والأدباء والفنانين والميكانيكيين والاقتصاديين وكبار القواد العسكريين من أعضاء المجمع العلمى المصرى ، وذلك عدا ثلاثة ماتوا فى الطريق فى أثناء العودة إلى فرنسا [1] . وكان كل هؤلاء من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، أو المجمع العلمى الذى أنشأه بونابرت فى القاهرة .

(١) Villiers 326

وإلى جانب ما قاسوه من عناء الاضطرابات والثورات والعمليات العسكرية المستمرة وانتشار الأوبئة والأمراض ، واجه العلماء صعوبات عدة فى أثناء بحوثهم ودراساتهم ، نشأ بعضها من تلف جزء هام من آلاتهم العلمية وأدواتهم فى أثناء العبور إلى مصر أو بسبب الثورات التى قامت فى القاهرة . فقد غرقت السفينة لاپاتريوت La Patriote التى كانت تحمل جزءاً كبيراً منها ، كما أنه صار من المتعذر عليهم أن يجلبوا من فرنسان بدلا من هذه الآلات والأدوات ، عندما كادت تنقطع كل صلة بين مصر وفرنسا بعد انتصار الإنجليز فى موقعة أبى قير البحرية [١] ، فصار كل اعتماد العلماء على جهود نوت Nouet العالم الفلكى ومساعده ميشان Méchain فى « اختراع » بعض الآلات الفلكية [٢] ، كما اعتمدوا على مهارة كونتية Conté زميلهم « المخترع » ، الذى استطاع بفضل مهارته الفنية أن ينشىء عدداً من المعامل « والورش » ، التى صنعت الآلات والأدوات التى استعان بها العلماء فى إنجاز بحوثهم [٣] .

وفضلا عن ذلك فقد كان سوء ظن الأهلين بهم وعدم استطاعتهم أن « يفهموا » أو يدركوا ما كان لبحوث هؤلاء العلماء من أهمية عظيمة ، منشأ متاعب ومشقات جمة ، إذ بات من واجب العلماء الفرنسيين أن يستميلوا إليهم المشايخ وكبار المصريين من جهة ، وأن يطلعوهم على ما حوته أبنية (المجمع العلمى) وغيره من مجموعات نباتية وحيوانية وجيولوجية وآلات ميكانيكية وفلكية ومواد كيمائية وما إلى ذلك ، ويفسرون لهم ما استغلق على هؤلاء المشايخ وأعضاء الديوان من الأعيان فهمه ، كما بات عليهم من ناحية أخرى أن يوقظوا فى العامة شيئاً من حب الاستطلاع والاشتياق لمعرفة قصة جهودهم العلمية بصورة تساعد على إزالة ما كان يخامر هؤلاء (والقاهريين على الخصوص) من شكوك فى نوايا العلماء الفرنسيين ، وحقيقة أغراضهم العلمية ، « فكانوا إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه من الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم

(١) Reybaud IV 227, 235

(٢) Ibid VI 31 — 32

(٣) Charles - Roux. op. cit. 171

والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار » .

وكان الشيخ الجبرتى من أولئك الذين زاروا المجمع العلمى وتكررت زياراته[١]. كما زار المشايخ البكرى والمهدى والفيومى والصاوى وغيرهم من أعضاء الديوان وسائر القاهرين المطبعة الأهلية[٢] ؛ وكانت (الطواحين) التى « تدور فى الهواء » ، والتى بناها كونتيه فى القاهرة ، ثم أنشىء عدد منها فى المدن الأخرى كرشيد ودمياط وبلبيس والصالحية موضع عجب المصريين[٣]. وطير الفرنسيون المناطيد (البالونات) كوسيلة من وسائل استرعاء انتباه القاهريين والعامة إلى مهاراتهم العلمية وإثارة إعجابهم « بمخترعاتهم » وجهودهم . غير أن فشلهم فى هذه الناحية كان فشلا كبيراً للأسباب التى سبق ذكرها . وظل سواد القاهريين يسيئون الظن بالعلماء ويشكون فى نواياهم ولا يفرقون بينهم وبين سائر الفرنسيين . وكان من أسباب إثارة الشكوك فى نوايا العلماء الفرنسيين تلك الأوهام والخرافات التى ظلت متسلطة على عقول العامة ، فقد حدث أن رغب (ريجو) Rigo أحد الرسامين أن يرسم صورة نصفية لرجل نوبى ، فما أن شرع فى تلوين الرأس والصدر ، حتى هب النوبى مذعوراً يطلب من ريجو أن « يعيد إليه رأسه وصدره » وأرغم نوبى آخر كان فى خدمة أحد الفرنسيين على الرضوخ لتصويره . فاشتد السخط وساد الذعر ، لاعتقاد هؤلاء النوبين أن أجزاء الجسم المصورة لا تلبث أن تيبس ولا مفر من موت أصحابها ، وتطايرت الإشاعات بأن (ريجو) كان يحفظ فى معمله « رءوسا وأعضاء مبتورة » . وذاع الاعتقاد فى أوساط القاهريين بأن أعضاء المجمع العلمى ما هم إلا جماعة من السحرة أحضرهم بونابرت معه ليساعدوا على نجاح عملياته العسكرية ، وأنهم قد قاموا وما زالو يقومون بهذه المهمة على خير وجه[٤] .

وعلى ذلك فقد ظلت الشكوك تساور القاهريين من ناحية هؤلاء العلماء ؛ ولقى العلماء بسبب ذلك عنتا وإرهاقا فى أعمالهم وبحوثهم ، بل ذهب نفر منهم ضحية هذه الوساوس والشكوك ، وآية ذلك ما كان يقع لهم فى الأقاليم ، حيث أكثر العربان والفلاحون من الغارة عليهم ، وقتل كل من وقع بأيديهم ، ثم

---

(١) الجبرتى ٣ : ٣٥

(٢) Charles - Roux. op. cit, 152

(٣) Ibid 120 ؛ الجبرتى ٣ : ٣٤

(٤) Galland I 121

ما كان يحدث فى القاهرة ذاتها ، فقد لقى عدد من هؤلاء العلماء حتفهم فى أثناء ثورة القاهرة الأولى خصوصاً ، نذكر منهم (تستفويد) Testevuide رئيس المهندسين الجغرافيين ، والرسام دو پريس Duperrés ، والمهندسين ثيفينو Thévenot وديفال Duval ، كما جرح المهندس دى لاروش de la Roche ، وقد هاجم الثوار مبنى المستشفى فقتلوا اثنين من الجراحين هما (روسيل) Roussel ، (مونجان) Mongin كما سقط فى أثناء هذه الثورة القائد كفاريللى Caffarelli وكان من أعضاء المجمع العلمى، ونجا العالم مونج Monge بوجه الصدفه وهاجم الثوار مبنى المجمع العلمى وسراى قاسم بك مقر لجنة العلوم والفنون ، وضيقوا الحصار على المجمع خصوصاً(١) . وفضلا عن ذلك فإنه ما كان يستطيع أحد من العلماء إجراء أية بحوث فى الوجه البحرى ، أو البحث عن الآثار ورسم نقوشها والتماثيل العديدة فى الوجه القبلى ، لولا حماية الجيوش التى خرجت لإخماد الثورات فى الدلتا وإخضاع الصعيد .

لجنة العلوم والفنون :

ومما يجدر ذكره أن هؤلاء العلماء الذين وفدوا إلى مصر كانوا ينتمون إلى هيئتين منفصلتين كان لكل منهما قوامها الخاص بها ، ولا يربط بينهما سوى صلة العلم وتضافر الجهود العلمية فحسب . هما (لجنة العلوم والفنون) ، و (المجمع العلمى المصرى) . أما الأولى فكانت تلك التى تألفت فى فرنسا كجزء من الحملة الذاهبة إلى مصر ؛ وأما الثانية ، هيئة (المجمع العلمى) ، فكانت تلك التى تم تشكيلها فى مصر بعد أن دخل بونابرت القاهرة(٢) ، فقد صدر قرار من حكومة الإدارة فى ١٦ مارس ١٧٩٨ يطلب إلى وزير الداخلية أن يضع تحت تصرف الجنرال بونابرت المهندسين والفنانين وغيرهم ، من أعضاء الهيئات التى تخضع لإشراف وزارة الداخلية ، وكذلك مختلف الأشياء التى يريدها بونابرت لحملته ؛ وكان بونابرت قبل ذلك قد اختار (مونج) لرئاسة هيئة العلماء الذاهبة إلى مصر ، والتى عمد بونابرت إلى اختيار أهم أعضائها ، ثم اشتمل قرار ١٦ مارس على أسمائهم ، وكان هؤلاء : بوشامب Beauchamp ، ودانجوس Dangos ، ودوك — لاشابل Duc-Lachapelle ، ميشان الابن Méchain fils ، نوت Nouet ، كزنو Quesnot وكانوا من علماء الفلك .

---

(١) Reybaud IV 159 - 61

(٢) Champollion - Figeac 314

ثم أندريوسى Andréossy وبونابرت نفسه وبرنجويه Bringuier وشاربو Charbaud وكوستاز Costaz وكورانسيز Corancez ودى فيلليه دى تيراج De Villiers du Terrage وفوريه Fourier وفوسو دى سانت كلمنت Fusseau de Saint-Clément ولورى Le Roy ومالوس Malus وموريه سانت أماند Moret Saint-Amand وفنسنت Vincint وفيار Viard ؛ وكانوا من علماء الرياضة .

وصمويل برنار وبرتوليه وشامبي الأب ونيقولا شامبي Nicolas Champy وكوليه ديكوتيل Collet-Descotils ورينو Regnault وبيكيه Picquet وبوتيه Pottier ، وكانوا من علماء الكيمياء والطبيعة .

وأنديس الأب والابن Andés وإيميه Aimé وبرجويه الابن Bréguet وكسارد Cassard وسيسيل Cécile وسيروت Cirot وكولان Colin وكونتيه Çonté وكوتيل Çoutelle وكوفرور Couvreur وديبوا Dubois وفافييه Favier وفوكيه Fouquet وهسنفراتز Hessenfratz وهيرو Hérault وهوشى Hochu ولومتر Lemaitre ولنوار الابن Lenoir ولومون Laumont وميزيير Maizières وموﻻر Mollard ومونج Monge وبلازانيه Plazanet وتوماس ؛ من العلماء الميكانيكيين .

وبلزاك ودمولان Demoulin ولوبير J. B. Lepére ونورى Norry وبروتان Protain من المعماريين .

وأليبر Alibert وأرنولليه Arnollet وبودار Bodard وكاريستى Caristie ودى فولفيك شابرول de Volvic Chabrol ودبودر Debaudre وديفال Duval (المهندس) وفاى Faye وفيفر Févre وجيرار Girard وإسنار Isnard وجولوا Jollois ولانكريه Lancret ولوبير وأخوه جرتيان لوبير Gratien Le Père ومارتان Martin ومولين Moline ورافينو Raffeneau وسانت جنيس Saint-Genis وثيفينو Thévenot وكانوا من العلماء المهندسين — مهندسى الطرق والكبارى .

وقد انضم إلى جماعتهم من علماء الأقسام الأخرى كل من دى فيلليه ، دى بوا ، إيميه ، دو شانوى ، فافييه ، بوتيه ، رينو ، فيار ؛ ثم بنازيه Bénazet وبرتر Bertre وبورجوا Bourgeois وكورابوف Coraboeuf وديليون Dilion وفوبى Faubie وجاكوتان Jacotin وجومار Jomard وجومار الأصغر (Jeune) ولافويلاد Lafeuillade ولاروش Larouche ولاتويل Lathuile وليسين Lecesne وليدوك Leduc وليفزك

Lévesque ورولان بوتيه وشوانى Schouani وسيمونل Simonel وتستفويد ، وكانوا من المهندسين الجغرافيين .

ثم بوشيه Boucher وشومو Chaumont وجرزليه Greslé وج . ب فنسنت (J.B.) وبونجان Bonjean ، وكانوا من مهندسى السفن .

ثم دو شانوى Duchanoy وجيوفرى سنت هيلير Geoffroy Saint-Hilaire واسكندرجيرا Gérar وردوتيه Redouté وسافينى Savigny من علماء الحيوان .

ثم كوكبير دى مونتبير Coquebert de Montbert ، رافينو دليل R. Delile ومارى Marie ، ميلبير Milbert ، نكتو Nectoux ، ثوان Thouin ، وكانوا من علماء النبات .

ثم كورديه Cordier ودولوميو Dolomieu ، فيكتور ديبوى Dupuy ، نبفو Nepveau ، روزير Rozière ، وكانوا من علماء المعادن .

ثم بسير Bessières ، بيدو Bidou ، ديرون Daburon وديجنت ، ديفزفر ، Devaisvres وأنتوان دبوا ودبوا الابن ، لابات Labatte ، لاسبير Lascipière ، ولارى Larrey ، پوكفيل Pouqueville ، ريال Réal ، وكانوا من الأطباء والجراحين.

ثم بوديه Boudet ، رجوان Roguin ، رويرس Rouhierès ، من الكيمائيين.

ثم بودان Boudoin ، كاكيه Caquet ، كاستيكس Casteix ، دينون Denon ، ديتارتر Dutertre ، ث . فوكيه C. Fouquet ، جولى Joly ، بورتال Portal ، بريه Peré ، ريجل Rigel ، ريجو Rigo ، فيلوتو Villoteau ، وكانوا من الفنانين الرسامين والموسيقيين .

وقد انضم إليهم سيسيل ، وريدوتيه ؛ ثم أرنو Arnault ، بنابن Benaben ، بورين Bourienne ، كفاريللى (دوفالكا) Dufalca ، ديزيه Desaix ، دوجا ، استيف (أو أستوف على ماسماه الجبرتى) ، جلوتيه Gloutier ، لبلون Leblond ، ليروج Lerouge ، برسيفال دى جرانميزون Parseval de Grandmaison ، پورليه Pourlier ، بوسيلج ، رينو دى سنت جان دانجلى D'Angely ، رينيه Reynier ، ريبولت Ripault ، تاليان Tallien ، سان سيمون Saint-Simon ، سلكوسكى ، سوسى Sucy ، وهم من الأدباء وعلماء الآثار والاقتصاد .

ثم مارسيل Marcel ، بسون Besson ، بودوان Beauduin ، جالان Galland ولابورت Laporte ، بنتيس Puntis ، وقد عهد إليهم بأعمال الطباعة

ثم بلتت Belletête ، براكيفتش Bracevich ، ديشيزى De Chésy ،ديلابورت Delaporte ، جوبير Jaubert ، لوماقا Lomaca ، مجالون ، بنهوسن Panhusen ورج Raige ، دون رفائيل Raphael De Monachis ، فنتور Venture ، وكانوا من المستشرقين (وقد انضم إليهم مارسيل) .

وعلاوة على ذلك فقد كان من بين لجنة العلوم والفنون أعضاء توزع نشاطهم ولم يلتحقوا بقسم معين من أقسام اللجنة وهم : برج Berge ، بوشار Bouchard ، برونيه دينون Brunet-Denon ، روبل Rubel ، جوليان Jullien ، كليبر ، لاسى Lacy ، لافون Lafond ، هيسنث لوبير Hyacinthe Le Pére ، ليدوك (من الملحقين بهيئة أركان الحرب وغير سميه المهندس الجغرافى) ، جنتيل Gentil ، لوميتر Lemaitre (غير سميه من العلماء الميكانيكيين) ، مايو Maillot ، ثيرى Thierry [1] .

وقد حالت ظروف عدة دون حضور كل أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين ذكرهم قرار حكومة الإدارة (١٦ مارس ١٧٩٨) إلى مصر ، سواء أكان ذلك لعدم مغادرتهم فرنسا أصلا مع الحملة أم تخلفوا فى مالطة ، فكان من المتغيبين ارنو ، بودوان ، بنابن، بنازيه ، برجويه الابن ، ديشيزى ، دانجوس ، دبودر ، ديبوا ، دوك لاشابل ، ميزبير، مولار ، توماس ، دمولان ، اسنار ، رولان بوتبيه ، ثوان ، نبفو ، بورتال ، بريه ، لبلون ، رينو دى سنت جان دانجلى ، وهكذا يكون عدد العلماء الذين حضروا إلى مصر (١٧٥) عالماً [2] .

وقضى اثنان وثلاثون عالماً نحبهم فى أثناء قيامهم ببحوثهم فى مصر وسوريا ، ففتك الطوعون بنيقولا شامى ، هيرو ، بودار ، كوكبير ، وليروج فى مصر ، رنجويه ، وسان سيمون فى يافا ، وقتل فى أثناء الاضطرابات فى شباس عمير جولى ، وفى القاهرة سلكوسكى ، تستفويد ، ثيفينو ، واغتيل كليبر ، كما قتل فى مصر تيرى Thierry وديفال ، وقضى نحبه بيكيه (فى العريش) ، وكولان (فى دمياط) ، وبانهوسن (فى الإسكندرية) ، وغرق كورابوف وديليون ، وتوفى بورجوا ، كاكيه ، سيروت ، فورى Faurie ، لودوك Leduc ، ديفزفر ، جلوتيه ، لابورت ، وتوفى فنتور فى عكا ، وقتل فى أثناء حصارها كل من شاربو ، فوسودى سانت كلمنت ، ساى ، كفاريللى . وفضلا عن ذلك فقد قضى من العلماء فى أثناء العودة إلى فرنسا ثلاثة هم : بوشامب ،

(١) Champollion-Figeac 316 ; Villiers 336 – 53 ; Galli 193 – 6

(٢) Villiers 335, 354 ; Galland II 351 — 2

وسوسى (الذى قتل فى صقلية) ، ودولوميو الذى حبسه ملك نابلى وتوفى عقب عودته إلى فرنسا[١].

وقسمت لجنة العلوم والفنون عند وصولها إلى مصر ثلاثة أقسام : الأول فى القاهرة وكان مونج وبرتوليه أول من حضر من العلماء إليها ثم تبعهما الآخرون ؛ والثانى فى الإسكندرية وكانوا حوالى خمسة عشر عالماً أوجد لهم كليبر مكاناً مريحاً فى منزل قنصل البندقية ؛ والثالث فى رشيد ، وكانوا حوالى عشرين عالماً أقاموا فى بيت فارسى Varsy أحد التجار الفرنسيين بالمدينة . وكان منهم الرسام جولى الذى قتل فى حادث شباس عمير .

غير أنه ما استقر الأمر لبونابرت فى القاهرة حتى أرسل منذ ٢١ أغسطس ١٧٩٨ يطلب حضور جميع العلماء إلى القاهرة ، فأمر برتيه Berthier رئيس هيئة أركان حربه بأن يجمع كل العلماء والفنانين والمهندسين فى القاهرة ، ما عدا المهندسين الذين كان كليبر ومنو قد عهدا إليهم بخدمات معينة فى الإسكندرية ورشيد . ومع أن منو اضطر مكرهاً إلى إرسال العلماء الموجودين فى رشيد ، فقد استطاع كليبر أن يستبقى لديه المهندسين الجغرافيين ومهندسى الطرق والكبارى ، بدعوى اشتغالهم فى وضع خريطة أو رسم للاسكندرية . وبدأ العلماء سيرهم إلى القاهرة بطريق النيل فى ٧ سبتمبر ١٧٩٨ واكتمل عقدهم فى غضون الشهر نفسه . وبدأت من ثم إعادة تنظيم لجنة العلوم والفنون ووزعت الأعمال على أعضائها ، فعين لوبير (الأب) رئيساً لهيئة مهندسى الطرق والكبارى على أن يساعده جيرار ؛ وعين تستفويد رئيساً للمهندسين الجغرافيين وجاكوتان معاوناً له ، وترأس كونتيه الصناع يساعده سيسيل ، وأشرف شامى الأب على معامل البارود ، وعين برنار Bernard للاشراف على (الضربخانة) أو مكان سك العملة ، ثم أنشئت حظيرة للحيوانات وأعد مكان للطيور — لمساعدة علماء التاريخ الطبيعى فى أعمالهم — تحت إشراف رافينو ، ودليل Delille .

وقبل بداية شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كان قد تم ترتيب مكتبة للعلوم الطبيعية ومعمل للكيمياء ، ومكتبة للتاريخ الطبيعى ، وطلب بونابرت إنشاء مرصد ، فعهد العلماء الفلكيون إلى كفاريللى والمعمارى نورى Norry باختيار موضعه ، وأخيراً نظم كونتيه « الورش » الميكانيكية التى زودت العلماء بالآلات والأدوات التى احتاجوا إليها فى بحوثهم[٢] . وبدأ العلماء نشاطهم دون إبطاء ، فأنشأوا مصانع لدبغ الجلود ،

---

(١) Villiers 325 — 6

(٢) Reybaud IV 115; VI 23 ; Charles - Roux. op. cit. 167 — 70

وصناعة السروج والأحذية ، وما إلى ذلك ، كما بنوا غيرها لعمل الكحول ، والمشروبات والبيرة والقبعات والمطرزات ، (وقد بذ المصريون فى هذه الصناعة الفرنسيين) ، وأنشأوا ورشاً للنجارة لعمل الموائد والكراسى والأسرة وغير ذلك مما احتاج الفرنسيون إليه فى بيوتهم[١] . وفضلا عن ذلك استطاع دينون أن يصحب جيش ديزيه الذاهب لإخضاع الصعيد ، وذلك لكى يرسم آثارها ومعابدها والنقوش الهيروغليفية . كما ذهب جومار كمهندس وجغرافى للغرض نفسه إلى الصعيد ، وأراد (ديوا إيميه) اللحاق به وقصد إلى القصير .

ولما كان العلماء من قسم لجنة العلوم والفنون بالقاهرة يريدون إجراء بحوثهم فى الصعيد للتنقيب عن الآثار ، ورسم النقوش الهيروغليفية ، ودراسة الوجه القبلى دراسة شاملة ، فقد أصدر بونابرت أمره منذ ١٤ أغسطس ١٧٩٩ بتأليف لجنتين : إحداهما برئاسة كوستاز Costaz ، ومن أعضائها نوت ، وميشان وكوتيل ، وكوكبير ، سافينى ، ريبولت ، بلزاك ، كورابوف ، لنوار ، لابات ، لوبير المهندس المعمارى ، سانت جنيس ، وفيار ، على أن تغادر القاهرة فى ١٥ أغسطس إلى الوجه القبلى لزيارة الآثار القديمة ؛ والثانية برئاسة فوريه ، ومن أعضائها بارسيفال دى جرانميزون ، وفيلوتو ، دليل ، لوبير (المهندس) ، ردوتيه ، لاسبير ، شابرول ، أرنولليه ، وفنسنت ، على أن تغادر إلى الصعيد كذلك فى ١٨ أغسطس[٢] . وقد غادر كل هؤلاء العلماء القاهرة فعلا إلى الصعيد فى ٢٠ أغسطس . وكانت خطة العمل التقدم فى الصعيد حتى الشلال الأول ثم العودة إلى القاهرة فى مراحل صغيرة ، حتى يستطيع العلماء رسم هذا الطريق النهرى وكل ما يوجد من آثار على جانبى النيل[٣] . ووصل العلماء من أعضاء لجنة كوستاز إلى أسوان وفيله ، فزاروا آثار الصعيد فى طيبة ووادى الملوك والكرنك ومدينة آبو ، ومعابد إدفو وغيرها ، وحققوا مواقع بعض المدن القديمة[٤] .

وما إن خلف كليبر بونابرت حتى لقيت لجنة العلوم والفنون كل تشجيع من القائد الجديد . ذلك بأن كليبر من ناحية الاهتمام بالبحوث والدراسات العلمية كان على اتفاق تام مع بونابرت ، على الرغم من اختلافهما فى أشياء كثيرة أخرى ، فأراد أن يتم ما بدأه بونابرت ، بأن ينظم جهود العلماء ويحدد وجوه نشاطهم ، ويعين

---

(١) Reybaud IV. 67

(٢) Corresp. No. 4353

(٣) Champollion — Figeac 6 ؛ Reybaud VI 160 — 1, 415 - 6

(٤) Reybaud VII 107 — 316

لأعضاء لجنة العلوم والفنون الموضوعات التى يجب أن تتوفر كل جماعة منهم على بحثها . ولما كانت اللجنتان اللتان تألفتا منذ أغسطس ١٧٩٩ ، وسافرتا إلى الصعيد ، قد اختص أعضاؤها بالتنقيب عن الآثار القديمة ودرسها ، فقد رغب كليبر فى أن يدرس العلماء عادات أهل البلاد وأساليب عيشهم ودياناتهم ، وتقاليدهم والقوانين السارية بينهم ونوع حكومتهم ، كما أراد أن يدرس العلماء شئون التعليم والتجارة ، علاوة على صنع الخرائط وعمل الصورات وجمع الوثائق الهامة المتعلقة بكل هذه الموضوعات ، ثم كتابة تاريخ البلاد من وقت مجىء حملة القبطان حسن باشا (١٧٨٦) إلى وقت وصول العمارة الفرنسية إلى الشواطىء المصرية ، على أن يعنى العلماء كذلك بدراسة ما كان لمصر من علاقات مع داخل إفريقية [١] .

وعلى ذلك فقد أصدر كليبر قراراً بتأليف لجنة ثالثة (أو مكتب) (إلى جانب لجنتى كوستاز وفوريه السابقتين) فى ٢٠ نوفمبر ١٨٩٩ ، أعضاؤها : ديجنت كبير أطباء الحملة ، وجلوتييه Gloutier القومسير الفرنسى فى الديوان ، وفوريه ، وليفرون وتاليان وروشق (قنصل النمسا العام) وبودوت (أوبوضوط كما سماه الجبرتى) ياور كليبر ، ودوجا ، وبروتان ، ثم لم يلبث أن انضم إلى أعضائها كل من جيرار ، وكونتيه ، ودوترتر Dutertre ولوبير الأكبر Le Père Ainé مدير الأشغال العمومية ورئيس المهندسين ، وجاكوتان رئيس المهندسين الجغرافيين ، ومارسيل المستشرق ومدير المطبعة الأهلية . ونص قرار تأليف هذه اللجنة على ضرورة اجتماعها بعد يومين حتى تضع خطة لتوزيع الأعمال والبحوث على المختصين . وقد تم ذلك على الوجه التالى :

(١) التشريع والعادات الأهلية والدينية — جلوتييه وفوريه ؛ (٢) الإدارة — تاليان وجلوتييه (٣) البوليس — فورييه ودوجا ؛ (٤) الحكومة والتاريخ — روشق ومارسيل ؛ (٥) الشئون العسكرية — بوضوط ، ودوجا ؛ (٦) التجارة والصناعة — ليفرون وروشق ، وكونتيه ؛ (٧) الزراعة — جيرار ، وتاليان ؛ (٨) السكان — ديجنت ؛ (٩) الآثار والنقوش وما إليها — بروتان ، مارسيل ، دوترتر ؛ (١٠) الجغرافيا والهيدروليكا — لوبير ، وجاكوتان . وقد استطاعت هذه اللجنة أن تعقد جلسات عدة وبذل أعضاؤها نشاطاً عظيماً [٢] .

---

(١) Ibid VI 416 — 7

(٢) Champollion - Figeac - Doc. IV Pièce C pp. 326 — 7

المجمع العلمى :

ولم تكد تنقضى أيام معدودة على دخول بونابرت القاهرة ظافرا ، حتى أصدر أمراً فى ٢ أغسطس ١٧٩٨ باختيار بيت يتسع لإعداد مكان « لمطبعة جيش مصر » ، وإنشاء معمل كيمائى ، ومكتب للعلوم الطبيعية ، وإقامة مرصد إذا كان ذلك ممكنا ، وطلب إلى كل من مونج العالم الرياضى ، وبرتوليه الكيمائى ، والجنرال كفاريللى من أعضاء لجنة العلوم والفنون أن يعملوا على تنفيذ هذه الرغبة ، كما طلب بونابرت فى هذا الأمر إنشاء « صالة للمجمع العلمى »[١] . ومما تجدر ملاحظته أن بونابرت اختار مكانا واسعاً يضم كل المؤسسات العلمية التى قرر إنشاءها ، كما أنه اعتمد على أعضاء لجنة العلوم والفنون فى اختيار هذا المكان ؛ وكان ظاهرا أن أعضاء المجمع العلمى سوف يختارون كذلك من بين أعضاء لجنة العلوم والفنون ، ولو أن الهيئتين استمرتا منفصلتين فى تكوينهما .

ووقع الاختيار على مكان للمجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون فى حى — على حد قول جومار — لا يبعد عن السيدة زينب والخليج ، هو قصر حسن كاشف بالناصرية ، وبعض القصور والبيوت المجاورة له كقصرى قاسم بك وإبراهيم كتخدا السنارى ، وغيرهما من مساكن البكوات المماليك وأعيان المصريين ، وبدىء فى تهيئة مكان لعقد جلسات المجمع ، وللمكتبة والمعامل الكيمائية والطبيعية ، ولحظيرة الحيوان وحديقة النبات ، والورش الميكانيكية ، والمرصد ، وإعداد أمكنة لمجموعات التاريخ الطبيعى ، والمجموعات الأركيولوجية وغير ذلك . وعندما تم اختيار المكان ، وابتداء العمل ، أقدم بونابرت مطمئنا على تأسيس المجمع العلمى ، فأصدر أمراً فى ٢٠ أغسطس ١٧٩٨ إلى مونج وبرتوليه وكفاريللى وجيوفرى سنت هيلير ، وكوستاز وديجنت والجنرال أندريوسى ، بالاجتماع الساعة السابعة من صباح اليوم التالى للبحث فى تنظيم « المجمع العلمى فى القاهرة » واختيار أعضائه[٢] . واجتمع هؤلاء فى الموعد المحدد ووضعوا المواد التى يتألف منها قرار إنشاء المجمع العلمى[٣] .

وفى ٢٢ أغسطس صدر أمر بونابرت بتأسيس المجمع[٤] ؛ على أن يكون من

(١) Charles - Roux. op. cit. 154

(٢) Corresp. No. 3051

(٣) Corresp. No. 3082

(٤) Corresp. No. 3083

أغراضه : (أولا) العمل على إشاعة نور العلم والعرفان فى مصر . (ثانياً) دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ، ونشر هذه الدراسات . (ثالثاً) إبداء الرأى فيما قد تعرضه الحكومة على المجمع من مسائل تبغى استشارته فيها وقد قسم المجمع إلى أربعة أقسام : للرياضيات . والطبيعيات . والإقتصاد السياسى . والآداب . والفنون . على أن يتألف كل قسم منها من اثنى عشر عضواً ، فيعقد الأعضاء جلستين كل شهر ، وينتخبون من بينهم هيئة مكتب المجمع ، ويكون للمجمع سكرتير دائم ، ومهمته إعداد البحوث والمذكرات العلمية ، ثم التقارير التى تطلبها الحكومة ، ونشر بحوث الأعضاء ومذكراتهم ؛ وخصصت جائزتان لأفضل ما يقدم من دراسات فى موضوعى تقدم الحضارة عموما فى مصر ثم تقدم الصناعة .

وواضح من قرار إنشاء المجمع العلمى أن بونابرت كان يهدف إلى وضع الأسس العلمية الصحيحة . التى لا يتسنى دونها تشييد صرح المستعمرة الناجحة ، كما أن تسابق العلماء المنتظر من أجل الحصول على الجوائز العلمية ، من شأنه أن يحفز إلى التفكير فى أهم الوسائل التى تكفل تقدم هذه المستعمرة الناشئة ، فى ناحيتين من النواحى التى شعر بونابرت وشعر معاصروه الفرنسيون أن مصر وقتئذ كانت فى حاجة ملحة إلى استكمالها ؛ حتى تغدو بلداً متحضراً وفق الأساليب الفرنسية ولا شك ؛ وحتى ترقى الصناعة فيها بصورة تسد حاجة جيش الشرق على وجه الخصوص من المنتجات الصناعية ، التى لم يعد هناك أى أمل فى جلبها من الخارج ، منذ أن تحطم أسطول بروس فى خليج أبى قير ، وانقطعت الصلات بين الحملة فى مصر وأرض الوطن . ولو أن ذلك ما كان يعنى أن البلاد ذاتها سوف لا تستفيد شيئاً من هذا النشاط العلمى والصناعى فى آخر الأمر ، إذا قدر للحملة البقاء فى مصر مدة طويلة ، وساد التفاهم بين الفرنسيين وأهل البلاد وأقبل المصريون على تأييد جهودها .

وكان فى أثناء الاجتماع الذى عقد لتنظيم أعمال المجمع العلمى ، أن تم اختيار أعضائه ، وصدر أمر بونابرت فى ٢٢ أغسطس (١) كذلك بتعيين هؤلاء الأعضاء . وكانوا فى أول الأمر ستة وثلاثين حسب قرار ٢٢ أغسطس ، ثم ضم إليهم عشرة بعد ذلك ، فأصبحوا ستة وأربعين عضواً (٢) ، وهذا عدا أعضاء المكتبة ، وكانوا اثنين فحسب وأعضاء لجنة الزراعة ، وكانوا ثلاثة . وعلى ذلك فقد جرى توزيع أعضاء

---

(١) Corresp. No. 3084

(٢) Champollion - Figeac 5, 15

المجمع العلمى على أقسامه المختلفة على النحو التالى : (١) الرياضيات — أندريوسى وفورييه (سكرتير المجمع الدائم) . وكوستاز وجيرار وموبج ولوبير وبونابرت ولوروى ونوت ، ساى ، مالوس ، كزنو ، لانكريه ؛ (٢) الطبيعيات والتاريخ الطبيعى — كونتيه ، ديكو تيل ، دولوميو ، برتوليه ، جيوفرى سانت هيلير ، شامبى الأب ، دليل ، ديجنت ، ديبوا ، سافينى ، بوشامب ، بوديه ، لارى ؛ (٣) الاقتصاد السياسى — كفاريللى ، جلوتيه ، بوسيلج ، سوسى ، تاليان ، كورانسيز ، دوجا ، بورين (فوفليه) ، جاكوتان ، رينييه ؛ (٤) الآداب والفنون — دينوت ، برسيفال ديجرانميزون ، ريجال ، نورى ، ريدوتيه ، فنتور ، دون رفائيل، پروتان ، ريجو ، ريبولت ؛ وأما عضوا المكتبة فكانا كوكبير ، ميشان ؛ وعين شامبى الأب ودليل ونكتو أعضاء فى لجنة الزراعة [١] .

وعلاوة على ذلك كان من أعضاء المجمع العلمى كل من فكتور ديبوى مهندس المناجم ، والجنرالين كليبر وديزيه ؛ ويلاحظ أن هذه القائمة اشتملت على أسماء أعضاء من لجنة العلوم والفنون . وكانت جميع الهيئات ممثلة فى المجمع خير تمثيل ، فقد مثل عدد كبير العلماء الرياضيين . وكان بونابرت وكفاريللى وأندريوسى وساى وسلكوسكى (ثم كليبر وديزيه) يمثلون الجيش ، بينما حضر ديجنت وديبوا عن الأطباء ومثل رجال الإدارة سوسى وبوسيلج وجلوتيه ، ورجال السياسة تاليان ، والمسيحيين الشرقيين دون روفائيل .

ومع أن ثلث الأعضاء لم يكونوا بالقاهرة ، وأمر بونابرت باستدعائهم من الاسكندرية ورشيد بكل سرعة [٢] ، فقد عقد المجمع العلمى أولى جلساته فى ٢٣ أغسطس ١٧٨٩ ، ووقع الاختيار على موبج رئيساً ، وبونابرت نائباً للرئيس ، وفورييه سكرتيراً دائماً ، وكوستاز مساعداً للسكرتير . وتحدث موبج عن الغرض الذى أنشىء المجمع من أجله ، والبحوث التى يجب على أعضائه القيام بها ، وهى تتعلق بدراسة الآثار القديمة ، وكشف النقوش والكتابات التى على الجرانيت ، ثم الوقوف على أحوال البلاد فى عهدها الحاضر ، فأوصى بصنع خريطه دقيقة ، وعمل بحوث مفيدة فى الفلك والتاريخ الطبيعى ، وألح فى ضرورة التفكير فى كل ما من شأنه أن يعود بالفائدة كذلك على أهل البلاد ، نتيجة لإدخال الإصلات الهامة التى لا غنى عنها

(١) Galland II 350 — 1 ; Reybaud III 349 — 50

(٢) Charle - Roux. op. cit. 159

لضمان تقدمهم . كما تناول مسألة زراعة الأراضى وإصلاح وسائل الرى وطرق توزيع ماء النيل . وبعد أن فرغ من حديثه ، تكلم بونابرت فعرض على المجمع مسائل أربع تتناول توفير مواد الوقود اللازمة لأفران الجيش ، والاستعاضة عن حشيشة الدينار بغيرها من نبات البلاد أو المواد الكيمائية فى صنع البيرة ، وترشيح مياه النيل وتبريدها ، والمقارنة بين مزايا طواحين الماء التى اعتاد الأهالى استخدامها وبين طواحين الهواء ، ثم النظام القضائى القائم بالبلاد ، وحالة التعليم بها . وفضلا عن ذلك فقد طرحت على بساط البحث مسائل أخرى ترتبط بزراعة الكروم فى الأراضى الصالحة لزراعتها وجلب المياه من النيل إلى القلعة وحفر الآبار فى الصحراء ، والاستفادة من الخرائب (والأكوام) الموجودة حول مدينة القاهرة وسائر المدن والقرى المصرية فى إنتاج ملح البارود وصنع البارود . وقد تألفت فى التو والساعة اللجان اللازمة لفحص هذه المسائل جميعها ، ووضع برنامج شامل لتنظيم نشاط المجمع العلمى (١) .

وعقد المجمع جلسات عدة ابتداء من أواخر أغسطس لغاية أوائل أكتوبر ١٧٩٨ ؛ وفى جلسة ١٢ أكتوبر أشار بونابرت من جديد إلى ضرورة العناية بفحص المسائل الخاصة بمصر ، ووسائل ترقية أحوال أهلها من الناحيتين : الخلقية والجسمانية ، وذلك للنهوض بالبلاد . واستطاع العلماء وأعضاء اللجان التى توفرت على بحث المسائل التى أثيرت فى جلسة المجمع الأولى ، أن يعدوا مذكرات عديدة بنتائج فحصهم ودراساتهم ، وأن يعرضوا بحوثهم على المجمع ، وأن يناقش أعضاؤه هذه البحوث . وحضر بونابرت جلسات المجمع ، وكثيراً ما كان يتدخل فيما يحدث من مناقشات علمية بين الأعضاء ، خصوصا فى موضوعات الاقتصاد السياسى ، وسارت الأعمال بهمة عظيمة فشرح مونج ظاهرة السراب ، وأوضح برتوليه نظريات كيمائية عدة ، وألقى بونابرت وسلكوسكى ، وسافى ، وفورييه ، وبوسيلج ، وديترتر ، وجيوفرى سنت هيلير ، ولوبير ، ومالوس ، وكوستاز ، وبوشامب ، وبرسيفال دى جرانميزون ، وغيرهم بحوثا متنوعة ؛ كما ألقيت القصائد وتحدث المستشرق مارسيل فى أوزان الشعر العربى ، والقوافى ، وترجم ايات من القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية نظما ، كما ترجم قصيدة نقولا التركى عن الفتح الفرنسى من العربية إلى الفرنسية . وتحدث أندريوسى عن صنع ملح البارود ، وألقى نورى بحثاً عن عمود پومبى ، وتكلم دولوميو عن موضع

(١) Reybaud III 350 — 2 ; Corresp. No. 3091

الإسكندرية القديم ، وديجنت عن الرمد ، ثم عن موافقة المناخ فى مصر للصحة العامة وهكذا [١] .

ومع أن نشاط المجمع فتر مدة قصيرة بسبب خروج بونابرت فى غزوته المعروفة إلى الشام ، فقد اهتم بمجرد عودته بإحياء نشاط المجمع ، فعقد المجمع جلسة هامة اقترح بونابرت فى أثنائها أن يؤلف المجمع لجنة لبحث مسألة الطاعون ، تقوم بجمع كل ماتيسر من معلومات عن حقيقة هذا الوباء الذى فتك بجنوده فى أثناء حملة الشام . وكان الواضح أن بونابرت — إذا تركنا جانبا ناحية الموضوع العلمية — إنما يريد أن يعزو فشله أمام أسوار عكا إلى انتشار هذا الوباء بصورة مفاجئة . ويقول مؤرخو الحملة إن مونج اقترح أن يكون ضمن أعضاء هذه اللجنة ديجنت ، ولكن هذا رفض خوفا « من الوقوع فى الفخ » ، فاحتدمت المناقشة بينه وبين بونابرت بسبب ذلك [٢] .

ووصف الشيخ الجبرتى ماشاهده من ضروب النشاط خلال تردده الكثير على سراى المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون ، فقال « فمن جملة مارأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف ، وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين وفى الأخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى وكذلك صورة الأئمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال اسلامبول وما بها من المساجد العظام كآيا صوفيه وجامع السلطان محمد وهيئة المولد النبوى . . . وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى الصعيد والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف ، والبردة للبوصيرى ، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن . ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ويدأبون فى ذلك الليل والنهار . وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها

---

(١) Reybaud IV 60 Sqq

(٢) Ibid VI 19 — 20

واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل مايرون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت . وعند نوت (Nouet) الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البعيدة العجيبة التركيب الغالية الثمن . . . وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها ، وأنواع المنكبات والساعات التى تسير بثوانى الدقائق . . .

« وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى وهم المصورون ومنهم أريجو (Rigo) المصور وهو يصور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق ، حتى إنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان . وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر ، وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها . ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لايوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لايتغير ولا يبلى ولو بقى زمنا طويلا . وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق وسكن الحكيم رويا (Royer) من كيميائي جيش الحملة[1] ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح ، وقدوراً عظيمة وبرامات ، وجعل له مكانا أسفل وأعلى ، وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحية ، وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى . . . وأفردوا مكاناً أيضاً للنجارين وصناع الآلات والأخشاب وطواحين الهواء والعربات واللوازم لهم فى أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم . ومكاناً آخر للحدادين . . . وبأعلى هذه الأمكنة صناع الأمور الدقيقة مثل البركارات وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك[2] » .

وقد ذكر الشيخ ذلك فى حوادث شهر جمادى الثانية ١٢١٣ — أى فى غضون نوفمبر وديسمبر ١٧٩٨ — وذلك بعد انقضاء أقل من ثلاثة شهور فقط على صدور قرار بونابرت باختيار مكان لجنة العلوم والفنون والمجمع العلمى وتأسيس المجمع . ومع أن أعمال المجمع تعطلت فترة من الزمن بسبب طغيان الاهتمام بالاستعدادات الحربية ،

---

(١) Galland II 345

(٢) الجبرتى ٣ : ٧٤ — ٧٧

عند خروج بونابرت فى حملته إلى سوريا ، فقد استأنف المجمع نشاطه بعد ذلك[١] .

نشاط العلماء :

وواقع الأمر أن ميادين نشاط هؤلاء العلماء كانت متعددة ، وطفقوا يدرسون آثار البلاد القديمة وتاريخها ، وطبيعة أرضها وأجناسها ، وحيوانها وطيورها ، وغلاتها الزراعية ، وصناعاتها وتجارتها ، وعادات أهلها ، وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والجيولوجية ، وكل ما يتعلق بماضى البلاد وحاضرها . فقام نوت وميشان بتحقيق موقع الإسكندرية الجغرافى ، واستطاع لوبير (الأكبر) Le Pére Ainé ومساعدوه أن يضعوا خريطة دقيقة لها ، وكذلك حقق نوت وكورابوف مواضع أهم جوامع القاهرة وضواحيها ، وتمكن الفلكيون الذين زاروا الأقاليم الشرقية من الوجه البحرى أن يحققوا مواقع دمياط وبلبيس والسويس والصالحية ، ورسم الضابط سوهيت Souhait مجرى النيل من القاهرة إلى العطف ، واستكشف جيوفرى سنت هيلير الطريق بين القاهرة والصالحية ، وجزءاً من الطريق بعد الصالحية إلى الشام ، كما استطاع أن يجمع فى أثناء رحلاته العديدة مجموعة من الحيوانات والطيور ، واهتم فضلا عن ذلك بدراسة الحيوانات التى حنطها قدماء المصريين كالتمساح والثعابين والطيور ، وذلك عدا الأجسام البشرية التى عثر عليها فى طيبة وسقارة[٢] .

واستكشف كريبان Crépin بعض الترع والقنوات فى منطقة بحر مويس ، وزار كل من شوانى Schoauni وفيفان دينون الصعيد ، ولا تويل Lathuille المنوفية والغربية ، وجومار وبرتر Bertre الفيوم ، وبوريل Burel الجيزة ، واستكشف كازال Cazals وثيفيوت Théviotte ، بوتييه Pottier بحيرة البرلس ، ولانكريه وشابرول ترعة الإسكندرية ، ومالوس وفيفر Févre بحر مويس ووقفا على آثار بوبسطه ، وكان من رأى العلماء أن بحر مويس هو الفرع التيتيتى أحد فروع النيل القديمة[٣] ، واستكشف جيرار ترع الصعيد ، وانهمك جاكوتان فى صنع خريطة لمصر ، وفحص جيوفرى سنت هيلير أسماك النيل والحيوان فى منطقة بحيرة المنزلة ، واستكشف أندريوسى الجزء الواقع بين مصب الديبه والمطرية ،

---

(١) Reybaud IV 63

(٢) Galland II 241 — 3

(٣) Ibid 169 — 70

كما زار جميع المراكز الواقعة فى منطقة البحيرة مثل أم فرج والتينه وبيلوز أوالفرما ، ثم اتجه بعد ذلك صوب مديرية الشرقية فسار فى بحر مويس وزار الصالحية ، ثم عاد إلى دمياط بعد أن أتم قياس أعماق بحيرة المنزلة ووضع خريطة لها ، وقد استغرقت هذه الرحلة سبعة عشر يوماً (١١ أكتوبر إلى ٢٨ أكتوبر ١٧٩٨) (١) .

ودرس دليل النبات فى الدلتا ، وشامبى الأبن وأرنوليه المعادن فى منطقة البحر الأحمر ، وأشرف كونتيه على المصانع الميكانيكية وإنشاء طواحين الهواء ، وعمل نوت وبوشامب تقويماً يشتمل على تقويم الكنائس الرومانية واليونانية والقبطية إلى جانب التاريخ الهجرى ، ثم تاريخ الجمهورية الفرنسية ، وأعد سافينى مجموعة من حشرات الصحراء ، وحلل رينو طمى النيل ، كما فعل ذلك برتوليه وديكوتيل فيما يتعلق بالنبات للوقوف على خصائصه فى الصناعة ، وقام الأطباء تحت إشراف ديجنت ببحوث واسعة بصدد الأمراض المنتشرة فى مصر ، وعنى لارى بدراسة الرمد ، واهتم كل من بروانت Bruant وسيريسول Ceresole وفرانك Franke ورينانى Renati ، فوتييه Vautier وغيرهم بدراسة شئون الصحة العامة ، واكتشف سافرسى Savaresi معالم بركان قديم فى أرض عزبة البرج ، وفحص كوستاز رمال الصحراء ، وقام ريبولت ببحوث وافية فى الواحات (٢) ، وألقى فرانك بحثاً « طبياً » عن التمساح ، كما أعد الصيدلى رويير Rouyères بحثاً طبياً عن الصعيد ، وتكلم جيرار عن مقياس النيل القديم الذى استكشفه فى جزيرة الفنتين ، وجارو Garo عن الاحتفالات التى يقيمها المصريون عند ولادة أحد أطفالهم (٣) .

ومع أنه من المتعذر الإلمام بوجوه نشاط هؤلاء العلماء إلماما تاما دقيقا ، فقد يكفى أن نجتزىء بذكر بعض وجوه هذا النشاط ، لبيان مدى ما كان يبذله هؤلاء من جهد وهمة فى دراساتهم وبحوثهم . فإنه ما حل ركابهم فى القاهرة حتى قاست طائفة من المختصين بالطبيعيات ودراسة المعادن والصخور ، والمتحجرات وما إليها ، فزار العلماء جبل المقطم كما زار جيرار آثار هليوبوليس ، ولحق به دوجا ، وقام الاثنان بفحص مسلة عين شمس ، ورسم جاكوتان مواقع هذه الآثار وحققها من الناحية الجغرافية ، كما قاس ارتفاع المسلة وأبعادها كل من لانكريه وليفر Lefebvre . وزار جماعة أخرى ،

(١) Reybaud IV 18 — 19

(٢) Ibid 57 — 60

(٣) Galland II 220 — 3, 235 — 40

منهم نوت وشامبي الأب والإبن ، وديكوتيل وعديدون غيرهم من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، أهرام الجيزة وصحبهم بونابرت ، ولما كانت زيارتهم فى وقت الفيضان والبلاد مغرقة بالمياه فقد انتقلوا فى جروم حتى سفح الأهرام تقريبا . وركب مع بونابرت كل من كفاريللى ، وبرتييه ، ودومارتان ، ومونج ، وبرتوليه ، وكوستاز ، وفورييه ، وجيوفرى سنت هيلير ، وجلوتيه ، وبرسيفال ديجرا نميزون ، وركب الآخرون جروما أخرى . وصعد كثيرون الهرم حتى وصلوا إلى القمة . وكان من الذين ذهبوا فى هذه الزيارة دوجا وريفييه ولوكليرك Leclerc . وقضوا هناك يومين استطاع فى أثنائهما (نوت) أن يستكشف أن كل زاوية من زوايا الهرم الأكبر تتجه إلى جهة من الجهات الأربع الأصلية ، ووصف الأهرامات ورسمها كما رسم أبا الهول كل من كونتيه ودوترتر . وقد زار العلماء بعد ذلك آثار سقاره ومنف ورسم جاكوتان خريطة لهذه الأماكن(١) .

واهتم العلماء بإصلاح مقياس الروضة . وتم ذلك بإشراف المهندس شابرول وقدم لوبير رئيس المهندسين بنتيجة ذلك مذكرة إلى فورييه حسب طلب الديوان حتى يمكن حفظها فى « سلسلة التاريخ » أو سجلات القاهرة فحقق ارتفاع عمود المقياس « بحضور مصطفى شيخ المقياس ، وبحضور السقاباشى » — « ورفعوا قاعدة العمود العليا ذراعا ، وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الأربع قراريط الذراع » فبلغ ارتفاع العمود الكلى ثمانية عشر ذراعا وستة قراريط وأزالوا ما تراكم من أوســاخ فى القاعة التى بها عمود المقياس وبنوا حجرتين لشيخ المقياس (٢) .

ولما كان خليج (أو ترعة) الإسكندرية يربط بين هذه المدينة وفرع النيل بالقرب من الرحمانية ، فقد كان من المنتظر أن تصبح الترعة طريقا هاما للمواصلات النهرية بين الإسكندرية والقاهرة ، لو أن الملاحة فى هذه الترعة كانت متيسرة على مدار السنة أو فى أكثر فصولها ، على خلاف ما كان يحدث فعلا ، عند ما كانت ترعة الإسكندرية لأسباب عدة لا تصلح للملاحة إلا فترة قصيرة من الزمن — حوالى عشرين أو خمسة وعشرين يوما فحسب(٣) . وعلى ذلك فقد رأى بونابرت تسهيلا

---

(١) Reybaud III 352 — 5 ؛ Ibid 207 — 12

(٢) الجبرتى ٣ : ١٦٩ ؛ Galland II 119—23

(٣) Chabrol et Lancret — Des. De L'Egypte (État Moderne) II 364 — 85

للمواصلات بين القاهرة والإسكندرية أن يعهد إلى المهندس بودار Bodard باستكشاف هذه الترعة القديمة والنظر فى وسائل إصلاحها ، حتى يمكن الاستفادة منها فى الملاحة النهرية . فقام بودار باستكشافها وأعد مشروعا بالأعمال اللازمة لجعل الترعة صالحة للملاحة فى كل فصول السنة ، دون تكبد نفقات طائلة[١] . ولكنه سرعان ما وقع من الحوادث ما عطل هذه البحوث . ومع أن منو عندما تسلم قيادة الحملة العامة ، كان يرغب فى إصلاح الترعة وجعلها صالحة للملاحة ، فإن هذه الرغبة لم تتحقق كذلك . فقد أصدر منو أمره فى ٢٧ يوليو ١٨٠٠ إلى فيلليه دى تيراج بالذهاب إلى الرحمانية لهذه الغاية ؛ وصدع دى تيراج بالأمر فعلا فوجد عند وصوله (فى ٥ أغسطس ١٨٠٠) زميليه لانكريه وفيار ، ولكن الجنرال داستان فى الرحمانية رفض أن يخصص جنوداً لحراستهم ، ثم ما لبثت مياه النيل أن دخلت الترعة قبل أن تصل أوامر جديدة فتعطل العمل[٢] .

وكلف بونابرت الجنرال أندريوسى بزيارة الصحراء الغربية لاستكشاف بحيرات النطرون ، ومعرفة شىء عن الأديرة القبطية القريبة من هذه البحيرات ، والوادى الذى يعرفه الأهالى باسم « بحر بلا ماء » ، وتحدث عنه الرحالون والكاشفون القدماء كثيرا . وكان لهذا الاستكشاف إلى جانب قيمته العلمية أهمية تجارية واضحة ، إذ أنه كان يجلب من هذه الجهات النوشادر (Alcaline) الذى كانت تصدره مصر بكميات كبيرة . وعلى ذلك فقد اصطحب اندريوسى معه فى هذه الرحلة الهامة برتوليه وفوريه وريدوتيه (الصغير) ودوشانوى ورينو . وبدأت الرحلة فى ٢٣ يناير ١٧٩٩ ووصلوا إلى بحيرات النطرون فوجدوا أنها تغطى مساحة من الأرض طولها سبعة فراسخ فى اتساع ثمانمائة متر ، وعددها سبع بحيرات تفصلها الرمال بعضها عن بعض . وينخفض أو يرتفع مستوى المياه حسب ارتفاع مياه النيل وانخفاضها ، ووجدوا أن هذه المياه تشتمل على أنواع مختلفة من الأملاح المعدنية . وكان « يلتزم » أهل طرانه أو يحتكرون الاتجار فى النطرون المستخرج من هذه المنطقة ، فتخرج منها قوافل الجمال (والحمير) محملة بحوالى ستمائة قنطار من النطرون ؛ فتصدر طرانة هذا النطرون إلى رشيد والإسكندرية ثم تحمله السفن من هذين الميناءين إلى أوروبا ؛ وعثر أندريوسى وجماعته على أربعة أديرة يرجع تأسيسها إلى القرن الرابع الميلادى ،

---

(١) Reybaud VI 165 — 8

(٢) Villiers 259 — 60

هى دير البراموس أو الدير اليونانى ، ودير امبابشاى ، ودير « أبو مقار » (القديس مقار) ، ودير السريانى (أو دير الشوام أو دير صيدا) [١] .

فحص برزخ فى السويس :

وكان مما اهتم به بونابرت وذكرته تعليمات حكومة الإدارة وأوامرها شق قناة فى برزخ السويس تربط بين البحرين الأبيض والأحمر . ومع أن قدماء المؤرخين اتفقوا على وجود قناة قديمة تربط بين هذين البحرين فقد اختلف الجغرافيون فى تحديد موضع هذه القناة ، ولذلك فقد رغب بونابرت فى الوقوف على حقيقة موضع هذه القناة ، لحل هذا اللغز الجغرافى ، من جهة ، وحتى يستعين بذلك على شق القناة التى اعتزم حفرها فى البرزخ لفائدة التجارة الفرنسية . وفضلا عن ذلك فإن تحقيق هذا المشروع يقتضى الاستيلاء على السويس ، ويطهر هذه المنطقة من العربان الذين ظلوا يعتدون على قوافل التجار والحجاج الذين يستخدمون طريق السويس البرى ، حتى إن الجنرال رينييه كثيراً ما كان يرسل الجنود وراء العربان لمطاردتهم وصون الأمن عموما فى مديرية الشرقية ، وعلى ذلك فقد كلف بونابرت الجنرال (بون) Bon باحتلال مدينة السويس ومينائها . فغادر بون القاهرة فى ٢ نوفمبر سنة ١٧٩٨ يصحبه أوجين بوهارنيه (ياور بونابرت) وضابطان من المهندسين ورسام فى قافلة من الجمال ، فوصل الجميع إلى العجرود بعد خمسة أيام ، وبادر (بون) بإعلان أهل السويس بضرورة الخضوع والتسليم ، فأرسل هؤلاء وفداً منهم إلى المعسكر الفرنسى (٨ نوفمبر) . وفى نفس اليوم استولى (بوهارنيه) على المدينة ، بعد أن كان قد غادرها أكثر أهلها .

ولما كان بونابرت قد صمم على القيام باستكشاف البرزخ بنفسه فقد غادر القاهرة فى ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ مع هيئة أركان حربه ، وجماعة من أعضاء المجمع العلمى. فخرج معه فى هذه الرحلة مونج ، برتوليه ، بوريين ، كوستاز ، لوبير ، برتييه ، كفاريللى ، الكونتر أميرال غانتوم ، كما صحبه عدد من المصريين من بينهم السيد أحمد المحروق ، فبلغ الركب بركة الحاج فى مساء اليوم نفسه ، وبين ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨ ، ٣ يناير من العام التالى استطاع بونابرت أن يعثر على معالم القناة القديمة فى جهات عدة ، كما زار فى أثناء ذلك قلعة العجرود ، وزار السويس وعيون موسى (٢٨

---

(١) Reybaud IV 37 — 45

ديسمبر) . وكان بونابرت قد اضطر لـكى يزور هذه العيون إلى الخوض فى بقعة قليلة الغور من خليج السويس وقت انحسار المياه ، ولـكن الجماعة عند عودتها وجدت الماء يعلو مع المد ، فأشار المرشدون إلى السير فى مكان ظنوا أن الماء لا يعلو فيه إلى درجة خطيرة ولـكن ما إن توسطت الجماعة هذه البقعة حتى وجد بونابرت وصحبه الماء يكاد يصل إلى صدورهم ، فاشتد الخوف ، وساد الهرج والمرج ، وكاد يقع مالا تحمد عقباه ، لولا ما أظهره بونابرت والقواد المحيطون به من صبر وحزم ، وخشى كفاريللى وبرتييه وقد وقفا بجانبه أن يلحق قائد الحملة أذى ، غير أن بونابرت سرعان ما تولى قيادة الجمع الذى احتشد حوله ، وأشار بذهاب جملة أفراد فى اتجاهات مختلفة لسبر غور المياه حتى إذا عثروا على طريق قليل الغور قصدته القافلة . فتم ذلك واستطاع الجميع أن يعودوا بسلام إلى السويس .

وفى ٣٠ أغسطس غادرت القافلة السويس لاستكشاف القنـاة ، فوصلت إلى البحيرات المرة ، ثم رجعت معظم القافلة إلى العجرود بينما قصـــد بونابرت وبعض الفرسان إلى الشمال ، وتتبع معالم القناة مسافة خمسة فراسخ ، ثم قصد بعد ذلك إلى العجرود ، ومنها إلى بلبيس ، فوصلها فى ٤ يناير ١٧٩٩ ، ثم أراد أن يفحص طرف القناة الآخر ، فتوغل مسافة عشرة فراسخ فى وادى الطميلات ، حيث عثر على بعض معالمها ، ثم ألف لجنة لقياس سطح البرزخ وعاد إلى القاهرة ، ولما كان ينقص هؤلاء الآلات العلمية اللازمة ، فقد اقتضى جلب هذه الآلات العودة إلى القاهرة ، وفى ١٦ يناير غادر لوبير ، وأخوه جرتيان لوبير ، ومعهما سنت جنيس Saint-Genis ، القاهرة بحراسة جونو Junot فوصلوا إلى السويس ، وانضم إليهم المهندس ديبوا ، وفى آخر يناير غادروا السويس ، فاستكشفوا ثانية ذلك الجزء من البرزخ الذى سبق استكشافه ، حتى وصلوا إلى وادى البحيرات المرة ، وهناك فقدوا معالم القناة القديمة ، ثم اضطروا بسبب قلة ما كان لديهم من ماء إلى وقف استكشافاتهم فى هذه المنطقة واتجهوا بدلا من ذلك صوب وادى الطميلات ، فعثروا فى جانبه الشمالى على آثار القناة القديمة وتتبعوا هذه الآثار مسافة خمس ساعات حتى بلدة العباسة ، الواقعة عند مدخل الوادى ثم وجدوا بعدها بقليل عدة ترع ، وتعذر عليهم تتبع الأثر ، فعادوا من بلبيس إلى القاهرة ، ووصلوها فى ٩ فبراير ١٧٩٩ . ولما كان بونابرت قد خرج فى حملته إلى سوريا فقد طغى الاهتمام بهذه الحملة على كل ما عداه ، وتوقفت أعمال اللجنة . على أن

هذه البحوث لم تذهب سدى فقد ثبت بفضلها أن القدماء حفروا فى الزمن الماضى طريقا بحريا فى برزخ السويس يصل بين البحرين الأبيض والأحمر[١] .

ولكن ما إن عاد بونابرت من حملته السورية حتى شغل بمناجزة العثمانيين فى موقعة أبى قير البرية ، ثم غادر البلاد إلى فرنسا وعلى ذلك لم تستأنف الأعمال فى برزخ السويس إلا فى عهد الجنرال كليبر ، الذى ألف لهذا الغرض لجنة جديدة برئاسة لوبير وكان من أعضائها أخوه جرتيان لوبير وسنت جنيس Saint-Genis ، فيفر Févre دى فيلليه دى تيراج ، دوشانوى ، أليبير وذلك لاستئناف عمليات قياس سطح البرزخ فى نقطة (السبع أبيار) على أن تنقسم قسمين : أحدهما يسير إلى التينة ، بالقرب من خرائب بيلوز القديمة ، والآخر يضرب فى الوادى الذى يمر بالعباسة وبلبيس ، وذلك كى يمكن التحقق بصورة قاطعة من وجود القناة القديمة ، والنظر فى إمكان شق قناة فى البرزخ تصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط . وعلى ذلك فقد غادر هؤلاء القاهرة فى ١٦ نوفمبر ١٧٩٩ بحراسة الجنرال رينييه حتى إذا وصلوا إلى المكان الذى انتهت عنده الأعمال السابقة ، اتجه فريق منهم صوب البحر الأبيض بينما سار الفريق الآخر فى طريق قناة (أبو منجة) صوب القاهرة ، وكان دى فيلليه دى تيراج وفيفر وأليبير ودوشانوى من هذا الفريق ، وقد استمروا فى رحلتهم حتى وصلوا مقياس الروضة ، وقد أسفرت التحقيقات التى قام بها أعضاء اللجنة بقسميها ، سواء فى جهة السويس أم البحيرات المرة أم التينة وغيرها، عن الاعتقاد بأن سطح البحر الأحمر يعلو بمقدار تسعة أمتار وعشرة سنتيمترات عن سطح البحر الأبيض ؛ وقدم هؤلاء العلماء مذكراتهم وبحوثهم إلى لوبير ، الذى قام بمساعدة أخيه جرتيان لوبير باستخراج النتائج النهائية منها ، وأعد بذلك بحثا ما لبث أن قدمه إلى القنصل الأول عند عودته إلى فرنسا . وكان من رأى لوبير أن التحقق من وجود هذا الفرق الناشىء من اختلاف ارتفاع سطحى البحرين الأبيض والأحمر يتفق مع الحقائق العلمية وما أجمع « التواتر » على صحته[٢] .

آثار الدلتا (حجر رشيد) :

واهتم علماء الحملة بالكشف عن الآثار القديمة فى الوجهين البحرى والقبلى ،

---

(١) الجبرتى ٣ : ٣٨ — ٤٠ ، ٤٤ ; Henry D'Estre 215 — 21; Galli 206 — 8 ; Reybaud IV 216 — 39; Galland II 170 — 1

(٢) Brehier 67 — 8 ; Villiers 228 — 31

وإلى هذا الاهتمام وما وقفوا فى زيارته من معابد ومقابر وأهرامات ، وخرائب (أو آثار) المدن القديمة ، ثم ما رسمه الفنانون من تماثيل وهيا كل ونقوش الكتابات القديمة ، يرجع الفضل فى ظهور (الإيجبتولوجى) أو دراسة الآثار المصرية القديمة دراسة علمية منسقة ، والوقوف على الشىء الكثير من تاريخ قدماء المصريين وآرائهم ومعتقداتهم وعاداتهم ، وأساليب حياتهم ووجوه نشاطهم ، وقد تضمن (كتاب وصف مصر) الشىء الكثير عن أخبار هؤلاء العلماء وثمرة جهودهم فى هذه الناحية . وسوف يأتى ذكر ذلك كله فى موضعه . على أن أهم ما يعنينا الآن من ذكر ما عثر عليه رجال الحملة من آثار فى الوجه البحرى هو اكتشاف حجر رشيد .

فقد أمر بونابرت بعمل تحصينات فى رشيد وبناء قلعة على شاطىء النيل الأيسر فى منطقة البوغاز . فذهب الضباط المهندسون لكشف شبه الجزيرة الصغيرة المحصورة بين النيل والبحر (الأبيض) ، وبحيرة المعدية ، وجرت الاستكشافات تحت إشراف دوتبول D'Hautpoul الضابط المهندس ، والكابتن بوشار Bouchard ، وقد اقتنع كلاهما بأن خير مكان لإنشاء هذه التحصينات هو موضع تلك القلعة القديمة ، التى بناها سلاطين مصر فى الزمن القديم ، والتى ظلت بقاياها تعرف باسم (برج رشيد) . وما إن تقرر ذلك حتى بدأ الحفر لإقامة القلعة ، فعثروا على بقايا أبنية مصرية قديمة ، كان السلاطين قد شيدوا عليها قلعتهم ، وكان بين خرائب هذه الأبنية المصرية القديمة أن عثر بوشار على (حجر رشيد) ، حوالى منتصف شهر يوليو ١٧٩٩ ، وهو حجر من الجرانيت الأسود ارتفاعه ٩٧٥ ملليمتر (أو ثلاثة أقدام تقريبا) ، وعرضه (٧٣٢) ملليمتر ، وسمكه حوالى ٢٥٠ ملليمتر . وقد وجدوا نقوشا على وجه واحد منه فقط ، عبارة عن ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن بعض . أما النقوش العليا فكانت أربعة عشر سطرا بالهيروغليفية ؛ يليها اثنان وثلاثون سطرا لم يعرف المكتشفون عنها شيئا ظنوا أولا أنها كتابة سريانية ، ثم أعلن بعد ذلك أنها بلغة « مجهولة » ، ولو أنهم رجحوا أن تكون باللغة العامية للمصرية القديمة ، أما النقوش التى تليها فكانت فى أربع وخمسين سطرا باللغة اليونانية القديمة . وقد أرسل هذا الحجر فى النيل من رشيد إلى القاهرة ، فى أواسط أغسطس من العام نفسه حتى يفحصه المجمع العلمى ، وأنزل فى بولاق . وقضى العلما الموجودون بالقاهرة حول هذا الحجر أسابيع طويلة يحاولون حل رموزه . وأعلن مارسيل وريج Raige أن النقوش التى أعلن أنها سريانية « أو مجهولة » ما هى إلا « حروف » مصرية قديمة كتبت بعجلة .

وشرع الرسامون يرسمون الحجر وما عليه من نقوش مصرية بدقة عظيمة ، فقضوا فى هذا العمل أسابيع عدة . وحاول مارسيل بوصفه مدير المطبعة الأهلية أن يطبع من النقوش الموجودة على هذا الحجر عدة صور ، ونجح فى غرضه ، وذلك بأن غسل الحجر بمحلول من الملح المخفف ، ثم تركه يجف ، ثم صب عليه حبر الطباعة ، ووضع عليه الورق ، وحصل على « بروفات » ناجحة فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ ، وعند ما تبين كونتيه Conté نجاح هذه العملية أراد أن يستخدم الطريقة المتبعة فى طبع الصور والحروف المحفورة على المعادن (طريقة الكالكوجراف Chalcographie) ، ونجحت هذه التجربة كذلك . وكلف مارسيل وريج Raige بنقل وترجمة الكتابة اليونانية . وتبين أنها نقشت فى عهد البطالسة أيام بطليموس ايبفان . وعمد مارسيل وريج إلى الاستعانة بما ورد من أسماء فى النقوش اليونانية ، على حل رموز النقوش الأخرى ، على اعتبار أن هذه الأسماء قد تكرر ذكرها كذلك فى الكتابة « الهيروغليفية » ، والأخرى « المجهولة » ، فبدأت من ثم تلك الجهود التى تكللت أخيراً بالنجاح على يد شامبليون Champollion (فى عام ١٨٢٢) . وقد أرسلت صور من « البروفات » التى أخرجتها المطبعة الأهلية وحصل عليها كونتيه إلى باريس ، وحملها دوجا إلى المجمع العلمى الفرنسى [١] . أما الحجر نفسه فقد ظل فى مصر حتى وقت جلاء الحملة ؛ وبذل منو جهداً كبيراً لمنع الإنجليز من الاستيلاء على حجر رشيد ، بدعوى أن هذا الحجر كان من ممتلكاته الخاصة . ولكن الإنجليز أصروا على أخذه [٢] . فنقلوه إلى المتحف البريطانى ، وهناك نجح شامبليون كما تقدم فى فك رموزه . وقد تبين أن النقوش « المجهولة » كانت كتابة ديموطقية .

آثار الصعيد (رحلة دينون) :

على أن الصعيد بفضل ما زخر به من آثار سرعان ما أصبح ميداناً واسعاً لنشاط علماء الحملة ، الذين رغبوا فى زيارة المعابد والتماثيل وبقايا المدن القديمة ودراسة آثارها . وكان (فيفان دينون) Vivant Denon (١٧٤٧ — ١٨٢٥) أسبق « العلماء » الذين تجولوا فى أنحاء الصعيد ورسموا آثاره . وكان فناناً رساماً حضر مع الحملة ضمن أعضاء لجنة العلوم والفنون ولم يجد فى الاسكندرية من الآثار ما يثير الدهشة أو يسترعى الاهتمام ؛ وصحب منو إلى رشيد وقضى الوقت فى الدلتا ، بينما كان بونابرت يزحف

(١) Galland II 172 — 3 ; Reybaud VI 430 — 9
(٢) Wilson 218 — 9

بجيشه صوب القاهرة ، فشهد دينون تحطيم أسطول برويس فى أبى قير ، وصحب تلك الحملات التى أرسلت لإخضاع القرى والمدن الثائرة ، ورسم مناظر وصوراً عدة ، ولكنه لم يجد فى آثار (سايس) أوصا الحجر ، أو فى آثار كانوب ، ما يرضى به فنه ، وساءه أن يفقد زميله الرسام جولى Joly الذى قتله الثوار فى قرية شباس عمير . وأتيحت له الفرصة للحضور إلى القاهرة عندما طلب بونابرت العلماء الموجودين بالدلتا حين تأسيس المجمع العلمى ، فجاء إلى القاهرة فى ٢٢ سبتمبر ١٧٨٩ وشهد أول أعياد الجمهورية الفرنسية فى مصر ، وزار أهرامات الجيزة مع العلماء والقواد الذين اصطحبهم بونابرت فى هذه الزيارة ، وكان دينون منهمكا فى رسم آثار القاهرة وقبور السلاطين عندما قامت القاهرة بثورتها الأولى .

ورغب دينون فى الذهاب إلى سينا مع قافلة من العربان ، ولكنه لم يذهب لامتناع شيخ القافلة عن تحمل مسئولية المحافظة على سلامته ، فرغب فى الرحلة إلى الصعيد لزيارة آثاره التى ذاع صيتها ، فأذن له بونابرت بذلك ، وانتهز دينون خروج قافلة محملة بالمؤن والذخائر إلى الجنرال ديزيه فذهب معها ، وصعد فى النيل حتى التقى بقوات الجنرال بليار ، وظل فى صحبة هذا القائد طوال المدة التى قضاها فى الصعيد حوالى ثمانية شهور يتمتع بحماية الجيش ، ورسم ما يشاهده من معابد وتماثيل وآثار . وما إن استأنف الجنرال ديزيه عملياته العسكرية لمطاردة مراد بعد عودته من مقابلة بونابرت فى القاهرة ، قبل ذهاب الأخير فى حملته إلى سوريا ، حتى أتيحت لدينون الفرصة فى صحبة جيش بليار دائماً ، للتوغل فى الصعيد حتى أسوان وفيلة . فزار المنيا وملوى وهرمو بوليس الأشمونين ومنفلوط وأسيوط وسوهاج ، ثم جرجا ، وقد رسم دينون آثار هرمو بوليس (الأشمونين) ، ومنفلوط وأسيوط وسوهاج ، ثم جرجا . وقد رسم دينون آثار هرموبوليس والأديرة (القبطية) فى سوهاج ، ولما كان ديزيه قد قرر البقاء فى جرجا حوالى ثلاثة أسابيع ، فقد عقد دينون آمالا كبيرة على رسم آثار هذه المنطقة ، ولكنه لم يستطع ذلك ، لأن ديزيه كان يخشى من انقضاض مراد بك على جيشه[١] ؛ بيد أن دينون سرعان ما وجد ما عوضه عن ذلك عند ما ذهب مع بليار إلى دندرة وطيبة وأرمنت وإسنا وإدفو وأسوان وفيلة ؛ فرسم معبد دندرة ، ولازمه بليـــار حتى فرغ من رسمه . واكتشف دينون فى معبد دندرة فلك (أو منطقة البروج) ، وهو مجرى الشمس الظاهرى الذى نقشه قدماء المصريين

---

(١) Denon I 213 — 4

وقد نقل دينون الصورة ، وكان هذا اكتشافاً عظيما ؛ ففحص أعضاء المجمع العلمى بالقاهرة الرسوم ، ثم أرسل الرسم إلى اللوفر فى باريس لدراسته .

ومما يجد ذكره أن دى فيلييه دى تيراج وجولوا Jollois قد أعادا هذا الرسم بدقة أكثر مما فعل دينون ، وكان من رأى دبوى Dupuis وريج Raige أن تاريخ النقش يرجع إلى اثنى عشر ألف سنة قبل الميلاد ، واعتقد فوريه Fourier أنه يرجع إلى ألفين وثلاثمائة سنة فحسب [1] أما دينون فقد استطاع فى طريق عودته من فيله وأسوان (فى ٢١ فبراير ١٧٩٩) إلى القاهرة أن يزور آثار كوم امبو وإدفو والأقصر والكرنك وطيبة ، ويرسم آثارها جميعا خصوصا مدينة هابو والرمسيوم ووادى الملوك ثم صحب بليار ودونزيلو من قنا إلى القصير (٢٦ مايو) ، وعند عودته قابل فى قنا جيرار وبعض العلماء من لجنة العلوم والفنون ، الذين اعتلوا النيل لفحص مجراه . ثم ودع بليار فى قنا وبدأ العودة إلى القاهرة ، فوصلها فى يوليو ١٧٩٩ ، وكان من أثر خروج دينون مع جيش بليار فى العمليات العسكرية المتعددة أنه تمكن من زيارة بعض الأماكن الأثرية مرات كثيرة ، فزار آثار طيبة سبع مرات ، ودندرة عشرا ، وإدفو وفيلة أربعا كما أقام فى أسوان شهراً تقريبا ، استطاع فى أثنائه أن يرسم جميع آثارها تقريبا [2] وعلى ذلك فقد أحضر دينون معه إلى القاهرة حوالى مائتى رسم تشتمل إلى جانب صور التماثيل والمعابد وما إلى ذلك على رسوم نقوش هيروغليفية ، كما أحضر معه بعض أوراق البردى التى عثر عليها فى أثناء هذه الرحلة [3] ؛ وأثارت هذه الرسوم اهتمام زملائه من أعضاء المجمع العلمى فى القاهرة وأمطروه وابلا من الأسئلة ، وعزم دينون على إلقاء بحث عن نتائج رحلته فى المجمع العلمى ، ولكن بونابرت ما لبث أن اصطحبه إلى الدلتا ، حتى يرسم معركة أبى قير البرية التى انتصر فيها بونابرت على العثمانيين ، ثم طلب إليه أن يصحبه إلى فرنسا ، فغادر دينون واثنان من زملائه أعضاء المجمع العلمى هما مونج وبرتوليه الإسكندرية مع بونابرت فى ٢٣ أغسطس فى طريقهم جميعاً إلى فرنسا [4] . على أنه قبيل إقلاعهم من الإسكندرية بثلاثة أيام فحسب ، كان قد قام إلى الصعيد أعضاء هاتين اللجنتين اللتين صدر قرار بونابرت بتأليفهما ، لزيارة الآثار فى الوجه القبلى بعد عودة دينون من رحلته الناجحة .

---

(١) Villiers 134 — 8

(٢) Denon II 25, 36 — 8, 44, 49 — 53

(٣) Galland II 173 — 5

(٤) Carré I 140

وعظم نشاط العلماء والفنانين من أعضاء هاتين اللجنتين فى البحث عن الآثار وزيارتها ، ورسم المعابد والنقوش الهيروغليفية والتماثيل وما إلى ذلك[١]. ووصف العلماء الآثار التى زاروها وصفا دقيقاً ، وكان بفضل جهودهم أن أمكن الوقوف على حقائق عدة عن معتقدات قدماء المصريين وعاداتهم وأساليب معيشتهم ، ومدى معارفهم فى علوم الطب والفلك وفنون الهندسة والعمارة ، ورسم ريدوتيه Redouté من أعضاء لجنة فورييه ، ما صادفه من آثار وشاهده من مناظر فى جزيرة فيله وجزيرة الفنتين ، وفى كوم امبو وإدفو وإسنا ، وأرمنت والأقصر والكرنك ووادى الملوك فى طيبة ومدينة هابو ودندره . كما رسم بلزاك Balzac من أعضاء لجنة كوستاز الآثار فى فيله والفنتين وكوم امبو وإدفو وإسنا والأقصر والكرنك ومدينة هابو ووادى الملوك ودندرة وأسيوط ، ثم المناظر الطبيعية على شاطئ النيل فى إسنا والمنيا وبنى سويف[٢] . وقد ظل هؤلاء العلماء فى الصعيد إلى وقت اتفاق العريش حينما استدعاهم الجنرال كليبر بكل سرعة إلى القاهرة ، انتظاراً للجلاء عن هذه البلاد والعودة إلى فرنسا[٣] .

خريطة جاكوتان :

على أن هؤلاء العلماء الذين انتشروا فى طول البلاد وعرضها من منف إلى فيله فى الجنوب ، ومن القاهرة إلى السويس ودمياط ورشيد والإسكندرية فى الشرق والغرب والشمال ، لم يقصروا عنايتهم على دراسة الآثار القديمة أو رسمها ، أو ثروة البلاد النباتية والحيوانية والمعدنية ، إلى جانب دراسة شعوبها ومناخها فحسب ، بل عنوا إلى جانب ذلك بجمع المعلومات الجغرافية والطبوغرافية الدقيقة التى تساعد على وضع خريطة مفصلة للقطر المصرى . وكان الاهتمام بإعداد هذا المصور الجغرافى العظيم أحد آثار ذلك المشروع الذى أراد به بونابرت أن ينشئ فى مصر مستعمرة ناجحة ، تكون بمثابة النواة لامبراطورية فرنسا الاستعمارية الجديدة . ذلك أن بونابرت كان يرى لزاما عليه أن يدخل ضروب الإصلاح « المادية » العديدة فى مرافق البلاد ، وينهض بأهلها الذين أخضعهم بحد السيف لسلطانه ، حتى يتسنى نجاح مشروعه الاستعمارى . واعتقد بونابرت أنه لاغنى عن وضع خريطة مفصلة دقيقة للبلاد ، حتى يتمكن من المضى فى إصلاحاته المالية والاقتصادية والإدارية بصورة منظمة ناجعة[٤] .

---

(١) Reydaud VII 107—316

(٢) Galland II 194—207

(٣) Reybaud VII 315

(٤) Ibid VI 25

وعلى ذلك فقد كلف غداة وصوله إلى القاهرة نخبة من علماء الحملة بقياس المسطحات ووضع الرسوم ، وانتشر هؤلاء فى أول الأمر فى أقاليم الدلتا وبدأوا أعمالهم بإشراف تستفويد Testeviude الذى عهد إليه بجمع بحوث وتقارير هؤلاء العلماء ورسومهم وفحصها ، حتى يتسنى تنظيمها تنظيما علميا دقيقا . فتوفر ديليون Dulion وليسين Lecesne على رسم طبوغرافيات الجهات الواقعة حول الإسكندرية (وقد غرق ديليون فى أثناء هذه الأعمال) ، واختص شوانى بالعمل فى مديرية المنوفية ، ورسم سيمونل Simonel مجرى النيل بين مصر القديمة وبولاق ، وتوغل برتر Bertre فى مديرية الغربية ، ولكنه لم يستطع زيارة كل أقاليمها . وقد حدث وقتئذ أن قتل تستفويد فى أثناء ثورة القاهرة ، ولما كانت قد قطعت الأعمال شوطا ملحوظا ، فقد وجد بونابرت أن يسرع المختصون بتنظيم المعلومات والرسوم التى أسفرت عنها هذه الأعمال ، فأصدر أمراً فى ٢٨ يونيه ١٧٩٩ باجتماع العلماء المهندسين الجغرافيين لهذه الغاية فى مقر هيئة أركان الحرب ، وعين جاكوتان ليخلف (عمه المتوفى) تستفويد رئيساً عليهم . وعهد بونابرت فى هذا الأمر نفسه إلى رئيس هيئة أركان الحرب بمهمة الإشراف على إنجاز صنع خريطة عامة للقطر المصرى[١] .

ولما كان كثيرون من العلماء — غير أولئك المهندسين الجغرافيين — قد قدموا لجاكوتان نتيجة بحوثهم وما لديهم من رسوم ومصورات ، فقد اجتمع لهذا المهندس عدد كبير من الرسوم . وعمد جاكوتان إلى إعداد مصور شامل (مقياس الرسم ١ : ١٠٠،٠٠٠ ملم) ولكنه مابدأ يفحص هذه الرسوم ويمحص الأرصاد الفلكية التى يستعين بها على تحقيق المواقع المختلفة ، حتى تبين له أن أكثر ماقدم له من وثائق ورسوم لم يكن كاملا ، وهذا يدل على أن أصحابها لم يتريثوا فى صنعها أو جمع المعلومات اللازمة ، بل كانت العجلة رائدهم . ولا يسمه لذلك الاعتماد على مالديه فى صنع خريطة تامة دقيقة . وعلى ذلك فقد ترك جاكوتان صنع الخريطة جانبا ، واعتزم أن يعد برنامجا مفصلا لتنظيم جهود المهندسين الجغرافيين وتوحيد عملهم . غير أن هذا العزم الجديد سرعان ما تعطل عندما نزل العثمانيون فى أبى قير ، واضطر بونابرت إلى حشد قواته لمنازلتهم ، فحرم المهندسون الجغرافيون من حماية الجند . وما كان فى وسعهم أن يعملوا دون حراسة كافية . حتى إذا انهزم العدو (فى موقعة « أبى قير » البرية) ، استؤنف

---

(١) Corresp. No. 4227

النشاط ، ثم اتسعت دائرته كثيراً بفضل تلك الرسوم العديدة والمعلومات المفيدة التى جاء بها دينون من رحلته فى الصعيد .

ويعود الفضل فى زيادة نشاط البحوث اللازمة لصنع خريطة مصر إلى الجنرال كليبر . فقد أصدر بونابرت أمره على نحو ما تقدم بإنشاء لجنتين برياسة كوستاز وفوربيه للذهاب إلى الصعيد ، فأيد كليبر تأسيسهما فى ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٩ ، ولكنه لم يشأ أن يقصر هؤلاء العلماء جهودهم على زيارة الآثار ودراستها ورسمها فحسب ، بل أراد أن يضع برنامجاً لتنظيم وجوه نشاطهم وذلك بأن تشمل دراسة العلماء البحث فى شئون التشريع وعادات أهل البلاد وتقاليدهم الدينية ، والإدارة ، والبوليس ، والحكومة والتاريخ المصرى؛ والشئون العسكرية والتجارة والصناعة والزراعة والآثار والجغرافيا والهيدروليكا . وقد اشتمل هذا القسم الأخير على دراسة السكان وأجناسهم ودياناتهم وطبوغرافية البلاد ومساحة الأراضى الزراعية وأنواع الزراعات والنباتات والرى وأوقات الجفاف ، فكان تأسيس تلك اللجنة أو ذلك المكتب الذى سبقت الإشارة إليه وصدر به قرار كليبر فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩ . وقد عهد كليبر إلى لوبير وجاكوتان بوضع تفاصيل قسم البرنامج الأخير ، أى المتعلق بالجغرافيا والهيدروليكا فتم ذلك . واتفق الرأى على كتابة أسماء المدن والقرى باللغتين الفرنسية والعربية ، وبيان المديريات التى تقع بها هذه المدن والقرى ، مع توضيح المسافات التى تفصل بين المراكز الهامة والنيل على أن يكون قياس المسافات بقدر عدد الساعات التى يقطعها السائر(١) .

وحالت ظروف مفاوضات العريش والاستعداد لإخلاء البلاد دون تنفيذ هذا المشروع ، ولكن العمل سرعان ما استؤنف بهمة ونشاط عظيمين بعد معركة هليوبوليس . فرسم سيمونل Simonel (طبوغرافيا) بحيرة البرلس وفرعى رشيد ودمياط وفتحات القنوات التى تصب فى هذين الفرعين ، كما رسم الآثار التى عثر بها فى نفس المنطقة . واستمر (شوانى) فى رسم أقاليم الدلتا الداخلية التى كان قد بدأ يضع خريطتها ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الصعيد حتى يرسم خريطة الجهات المجاورة لطيبة والقصير ؛ ورسم (جنتيل) بحيرة المنزلة والبلاد الواقعة بين هذه البحيرة وفرع دمياط وترعة أشمون كما امتد نشاطه إلى الصعيد فأوضح مواقع الجهات حول إسنا وكوم امبو

(١) Reybaud VI 27–8

وإدفو وأسوان . وعمل كل من كوتيل Coutelle وروزيير Roziére فى جبل سينا وقام دى فيلليه (ديتراج) وفيار باستكشاف ورسم المنطقة الواقعة بين ترعة (أبى منجة) والصحراء من القاهرة إلى بلبيس ، ورسم مهندسو الطرق والكبارى وادى البحيرات المرة ، واستكشف مارتان Martin جزءاً من مديرية بنى سويف والمنطقة الواقعة شمال بحيرة الفيوم . ورسم (كاريستى) Caristie بحر يوسف ، ورسم دليل Delile الصحراء بين النيل عند أسيوط ومنفلوط إلى شاطىء البحر الأحمر ، ورسم جومار خريطة القليوبية ؛ وبدأ فى رسم خريطة الغربية . وعلاوة على ذلك فقد أمد آخرون جاكوتان بمعلومات كثيرة ، نذكر منهم الجنرال أندريوسى والضباط المهندسين بوشار ولازوسكى Lazouski ومالوس وبيكو وساى وتاسكان Taskin ، فيناش Vinache ومن المهندسين شابرول وديبوا — إيميه وفافييه وفيفر وجولوا ولانكريه ولاتوبل .

على الرغم من تردد منو فى كل ما كان يتعلق بنشاط العلماء وبحوثهم تقريبا ، وتغيره على كثيرين منهم ، فقد ظل قائد الحملة الجديد بعد مقتل كليبر ، يشجع بقدر طاقته وبما كان يتفق مع غاياته بعض هذه الجهود العلمية الهامة ، التى بدأها بونابرت وكليبر ، فأصدر أمرا فى ٤ مارس ١٨٠١ بإنشاء لجنة من مهندسى الطرق والكبارى للقيام بمساحة الأراضى المصرية ، واستمر العمل بفضل ذلك لإتمام الخريطة . وهكذا عندما حان وقت الجلاء بعد ذلك بشهور قليلة كان العلماء أكملوا جمع المعلومات والرسوم اللازمة . ثم ناضلوا بشدة ضد الإنجليز الذين أرادوا وقت الجلاء الاستيلاء على أوراق ورسوم علماء الحملة ومذكراتهم وآلاتهم وأدواتهم العلمية . فاستطاع العلماء الفرنسيون أن يحضروا معهم إلى فرنسا هذه الوثائق والمعلومات الثمينة التى اعتمدوا عليها فى إنجاز خريطة مصر ، ففرغوا من صنع هذه الخريطة نهائيا فى ١٣ أكتوبر ١٨٠٣[1] .

كتاب وصف مصر :

وكما كان كليبر صاحب الفضل فى تنظيم جهود العلماء بالصورة التى أسفرت عن نجاحهم فى إنجاز (خريطة مصر) فى النهاية ؛ فقد كان صاحب الفضل كذلك فى ظهور كتاب « وصف مصر » بعد وفاته بسنوات عدة . ومرد ذلك كله إلى الأمر الذى أصدره كليبر فى ٢٠ نوفمبر ١٧٩٩ بتأسيس تلك اللجنة الثالثة ، أو « المكتب » الذى

---

(١) Brehier 69—70 ; Charles - Roux op. cit. 299—392 ; Pièces Officielles 904—II Reybaud; IV 32

ضم عدداً من علماء الحملة وزعت عليهم الدراسات والبحوث المتعلقة بتاريخ مصر الحديثة وجغرافيتها وأحوال أهلها وعاداتهم وثروتها الطبيعية ، وغير ذلك من الشئون التي تقدم ذكرها .

حقيقة كان لبونابرت فضل السبق في تأسيس هاتين اللجنتين العلميتين اللتين اهتم أعضاؤهما بدراسة آثار الصعيد تحت إشراف كوستاز وفوربيه ؛ وكان ظاهر الرغبة في أن تنظم نتائج بحوثهم في بحث علمي مفصل وقام فوربيه على ما يبدو بهذا العمل ، ونشرت صحيفة (الكوربيه) في عددها السابع والأربعين بحثاً تناول بالربط والتنسيق أعمال هاتين اللجنتين بعد عودتهما إلى القاهرة ؛ ولكن كليبر — على نحو ما أوضحنا في مواضع عدة من هذه الدراسة — كان صاحب اليد الطولى في توجيه نظر العلماء إلى ضرورة عدم إغفال دراسة أحوال البلاد الراهنة ، إلى جانب دراسة آثارها القديمة ، ثم بيان مزايا تنظيم جهودهم بتوزيع هذه الدراسات « الحديثة » على أعضاء المجمع العلمي — الهيئة التي غدت هيئة علمية مستديمة — وأعضاء لجنة العلوم والفنون التي احتفظت بكيانها بصورة مؤقتة حتى يفرغ أعضاؤها من بحوثهم ، فيعودوا إلى أوطانهم أو يضمهم المجمع إليه [١] ، فكان من أثر صدور هذا القرار كما تقدم إنجاز تلك البحوث التي اعتمد عليها جاكوتان وزملاؤه في رسم خريطتهم — (خريطة مصر) — كما كان من أثر صدور هذا القرار وضع « كتاب وصف مصر » على نحو ما يأتي ذكره .

فقد بعث كليبر غداة عودة لجنتي كوستاز وفوربيه من الصعيد برسالة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٧٩٩ إلى المجمع العلمي ، تلاها فوربيه على أعضائه ، جاء فيها « إن المرء لا يسعه إلا أن يبدي إعجابه بذلك النشاط العظيم ، وذلك التساند الذي ظهر بين أعضاء هاتين اللجنتين لتبادل ثمار البحوث العديدة التي قاموا بها ؛ ولا مراء في أن من دواعي هذا الإعجاب الكبير ذيوع تلك الفكرة التي ترمي إلى جمع كل تلك الآثار الجليلة في كتاب عظيم واحد وإيداع (البحوث والمواد التي اعتمد عليها العلماء في إنجاز دراساتهم) ضمن المحفوظات الأهلية ، وذلك لأن هذه الفكرة إنما يدل ذيوعها على وطنية العلماء وكرم أخلاقهم . وأما أولئك الفرنسيون الذين زاروا الصعيد قبل تأسيس اللجنتين (لجنتي كوستاز وفوربيه) ، أو زاروا هذا الإقليم في أثناء بحوثهم العلمية ودراساتهم الفنية ، أو عنوا بهذه الدراسات في أثناء قيامهم بوظائف أو أعمال أخرى ، فإن

---

(١) Champollion-Figeac 5–7

الواجب يقتضى انضمامهم كذلك إلى أعضاء هاتين اللجنتين ، لأن الغرض واحد ولا يتغير ، ألا وهو البحث عن الحقائق لنشر نور العلم والعرفان ، والتعاون والتساند من أجل رفعة اسم فرنسا . وعلى ذلك فإن ما أرجوه هو أن يتم بوجه السرعة اتخاذ ما يكفل من أسباب لتصنيف تلك البحوث المختلفة ، بتوزيع موادها واختيار من يعهد إليه بتنسيق ثمارها فى كتاب عظيم يجمع بين دفتيه شتاتها . ولا شك فى أن المجمع العلمى سوف يشعر بالحاجة إلى وضع مقدمة عامة لهذا الكتاب تستمد بهاءها من بهائه » وعلى هـذا النحو لم يكتف كليبر برسم منهاج العمل فحسب ، بل نصح أيضاً بكتابة تلك « المقدمة العامة » ، التى دبجها يراع فوربيه فيما بعد ، وراجعها بونابرت نفسه (١) .

وعلى ذلك فقد دعا المجمع العلمى للاجتماع لجنتى كوستاز وفوربيه فى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٩ ، وتقرر فى هذه الجلسة أن يدعو (فوربيه) جميع أعضاء لجنة العلوم والفنون وأصحاب البحوث والمذكرات العلمية الآخرين ، وذلك حتى يمكن التفاهم فى شأن (الكتاب) المزمع تصنيفه بصورة تضمن تنسيق هذه الآثار العلمية ونشرها كاملة . واختار المجتمعون فوربيه للاشراف على هذا العمل . وقد نبتت فى ذلك الحين فكرتان : أولاهما أن يعود أكثر أعضاء لجنتى كوستاز وفوربيه إلى فرنسا ، والأخرى أن يتضامن العلماء الذين سوف يضم (الكتاب) بحوثهم فى تحمل نفقات النشر عند الفراغ من إعداده . وكان منشأ الفكرة الثانية أنه كان قد حدث اتفاق بصدد النشر بين أعضاء لجنة العلوم والفنون وبين هاملان Hamelin أحد رجال الأعمال الفرنسيين ، ووافق كليبر على هذا الاتفاق ، غير أن هاتين الفكرتين لم تتحققا ، لأنه كان من المتعذر على العلماء أن يغادروا مصر بسبب انقطاع المواصلات بين مصر وفرنسا ، وفضلا عن ذلك فقد رفض الجنرال منو عند ما تسلم قيادة الحملة العامة أن يستمر الاتفاق مع (هاملان) قائماً ، بدعوى أن بحوث العلماء ملك للجمهورية ، وأن من واجب حكومتها أن تضطلع بمهمة النشر ، وأن تكافىء المؤلفين على بحوثهم صونا لكرامتها (٢) .

ولقى مشروع وضع كتاب شامل يضم بين دفتيه بحوث العلماء ويشتمل على مقدمة عامة ، كل تأييد من بونابرت القنصل الأول . وبلغ من عنايته بنشر بحث موجز يعرض

---

(١) Villiers 232 ; Ibid 74

(٢) Rousseau 347

نتائج دراسة الآثار المصرية القديمة ، أنه طلب من ريبولت Ripault أحد أعضاء لجنة كوستاز التى ذهبت لزيارة آثار الصعيد ، أن يكتب تقريراً عن هذه الآثار ؛ وكان ريبولت قد عاد إلى فرنسا بسبب سوء صحته ، فصدع بالأمر ، وإن حاول أن يصرف بونابرت عن نشر هذا التقرير ، لأن ريبولت على حد قوله ما كان يرغب فى الاعتداء على « آراء » زملائه وحرمانهم من ثمرة جهودهم . ولكن التقرير ما لبث أن ظهر فى عدد من أعداد « المونيتور » Moniteur الجريدة الرسمية (١) . ثم انتظر القنصل الأول حتى عاد جيش الشرق إلى فرنسا ؛ وقرر أن تقوم الحكومة بنشر (الكتاب) المزمع تصنيفه ، وأن تتكفل الخزانة العامة بجميع نفقاته ، وأن يجرى صرف تلك المرتبات التى كان ينالها العلماء وهم فى مصر ، فضلا عن إعطائهم الحق فى الحصول على الربح المتحصل من طبع الكتاب . وصدر بذلك قرار فى ٦ فبراير سنة ١٨٠٢ (٢) . وبدأ العمل لجمع المهندسون الجغرافيون كل الخرائط التى نجح جاكوتان فى منع الإنجليز من الاستيلاء عليها ؛ وكانت ذات فائدة عظيمة ولا غنى عنها فى وضع (خريطة مصر) ؛ وحضر فولنى Volney نفسه لفحص أعمال العلماء وليشرح لهم طريقته فى رسم الكلمات العربية بالحروف اللاتينية . وكلف فوربيه بوضع قائمة بالأعضاء الذين تألفت منهم اللجان والهيئات العلمية فى مصر ، ثم عهد إلى لجنة من ثمانية انتخبهم العلماء للاشراف على تبويب الكتاب وإنجاز العمل وتقدير نفقاته ، كما كلفوا بتأليف « المقدمة التمهيدية » . وكان هؤلاء الثمانية : برتوليه ، كونتيه ، كوستاز ، ديجنت ، فورييه ، جيرار ، لانكريه ، مونج ؛ وقد حل محل لانكريه وكونتيه أولا جومار وجولوا Jollois ، كما ضم دليل ، وديفيلليه ديتراج إلى هذه اللجنة (فى بداية عام ١٨١٠) (٣) .

وكان أعضاء هذه اللجنة قد وقع اختيارهم قبل ذلك على فورييه ليكتب مقدمة المؤلف الذى سماه العلماء (كتاب وصف مصر) (٤) . وما إن فرغ فورييه من كتابتها حتى ذهب إلى باريس فى خريف ١٨٠٩ لمقابلة الإمبراطور . ووافق نابليون الأول على المقدمة ، وطلب صورة منها ، ثم أبدى بعض ملاحظات لم يلبث فورييه أن عمل بها عند إعادة كتابة المقدمة . وظهر أول أجزاء الكتاب فى عام ١٨٠٩

---

(١) Champollion-Figeac 113 (Note 11); 262—3

(٢) Ibid 75

(٣) Descripion De L'Egypte I Clviij

(٤) Champollion-Figeac 75—83

وكتب الإهداء باسم الإمبراطور نابليون ؛ ثم حالت الظروف السياسية دون نشر بقية أجزائه فى عهد الإمبراطورية ، فظهر آخر أجزاء هذه الطبعة (الأولى) فى عام ١٨٢٢ ، وتتألف من تسعة مجلدات تشتمل على بحوث العلماء ومذكراتهم وما إلى ذلك ؛ ثم أحد عشر مجلدا أخرى تحوى الرسوم . وكان قد بدىء فى إخراج طبعة ثانية (طبعة بانكوك Panckoucke) فى عهد الملك لويس الثامن عشر فى عام ١٨٢١ ؛ وتم الفراغ من طبع أجزائها فى عام ١٨٢٩ ، وهذه تتألف من ستة وعشرين مجلدا تحوى البحوث والدراسات ومثلها تحوى الرسوم (١) .

وجرى تبويب هذا الكتاب على أساس تقسيم موضوعاته إلى ثلاثة أقسام : (الأول) التاريخ القديم ؛ (الثانى) التاريخ الحديث ؛ (الثالث) التاريخ الطبيعى . ثم اتبع فى القسمين الأولين وصف الآثار وتخطيط الأماكن المختلفة ابتداء من الجنوب عند جزيرة فيلة إلى الشمال حتى بيلوز والإسكندرية . واتبعت نفس الطريقة فى وصف ثروة البلاد المعدنية ، بينما اتبع عند الحديث عن ثروة مصر الحيوانية والنباتية وما إلى ذلك توزيع هذه فى مجموعات مستقلة ؛ وشمل الكلام فى قسم التاريخ القديم وصف جميع الآثار المصرية وأماكنها ، قبل عهد العرب (أو الإسلام) ، بينما اختص القسم الحديث بذكر مايلى ذلك من حوادث ، إلى جانب وصف البلاد فى حالتها الراهنة أيام الحملة الفرنسية . وقد اشتمل كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة على عدة مجلدات من الرسوم والمتون .

واشتملت مقدمة فوربيه على ذكر ما كانت عليه البلاد من الفتح العثمانى إلى وقت مجىء الحملة الفرنسية . كما أن فوربيه تحدث عن المماليك وخصوصاً على بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب ، وتناول علاقات مصر التجارية بغيرها من البلدان ، وأوضح ما تتمتع به مصر من أهمية تجارية بحكم موقعها ، ثم انتقل من ذلك إلى ذكر تاريخ الحملة الفرنسية بصورة موجزة حتى عهد منو وخروج الحملة ، وانتهى بالحديث عن الكتاب نفسه (كتاب وصف مصر)(٢) . أما الأجزاء التى تناولت الكلام عن العهد أو التاريخ القديم فكانت تسعة ، إلى جانب جزء عاشر لتوضيح الرسوم الخاصة بهذا العهد ؛ ثم يأتى الكلام عن العهد أو التاريخ الحديث ابتداء من الجزء الحادى عشر .

وعلاوة على ذلك ضم كتاب (وصف مصر) مجموعة كبيرة من الصور والرسوم عدا أطلس جغرافى لمصر (خريطة جاكوتان) وسوريا . وتتألف خريطة مصر من

---

(١) Carré I 157 ; Ibid 83—87

(٢) Description. vol. I i —CLV

سبع وأربعين قطعة ، أما خريطة الشام فتتألف من خمس قطع تتناول غزة ، وبيت المقدس ، ويافا ، وعكا ، والأردن ، وصيدا وغيرها[١] . وقد تعاون فى تقديم الرسوم والبحوث التى اعتمد عليها جاكوتان فى وضع خريطة مصر عدد من المهندسين الجغرافيين نذكر منهم : الجنرال اندريوسى ، برتر ، بوشار ، كاريستى ، شابرول ، ديفلليه ، ديبوا إيميه ، فافيه ، فيفر ، جولوا ، جومار ، لانكريه ، لاتويل ، لازوسكى ، ليسين ، لوجنتيل ، جرتيان لوبير ، مالوس ، مارتان ، بيكو ، رافينو دليل ، ساى شوانى ، سيمونل ، تاسكان ، فيناش .

وأما أولئك الذين ساهموا فى وصف الآثار المصرية القديمة فكانوا : جومار ، لانكريه ، ديبوا إيميه ، شابرول ، سانت جينس ، جولوا ، ديفلليه ، روزيير ، كاريستى ، كورديبه ، نورى ؛ ووصف جومار وحده آثار القاهرة وطيبة وأبيدوس وأرمنت ، وانتنوى ، وأشمونين ، إدفو ، أسوان ، الفشن وغيرها ، ومنف وغيرها ، واشترك مع كاريستى فى وصف آثار الفيوم ، بينما وصف ديفلليه الآثار فى برزخ السويس ونفس البرزخ[٢] ؛ وفى الأجزاء المخصصة لتاريخ البلاد القديمة وجغرافيتها ، وعادات المصريين القدماء ، وعلومهم وفنونهم وصناعاتهم وغير ذلك ، كتب جيرار مذكرة عن مقياس النيل القديم فى جزيرة الفنتين ، وكوستاز عن الزراعة والفنون لدى قدماء المصريين وعاداتهم ودياناتهم ، وجومار عن بحيرة قارون وعن معارف قدماء المصريين فى الفلك والرياضيات ، والنقوش القديمة عموماً وعن الهيروغليفية خصوصاً ، وعن سكان مصر فى العصور القديمة والحديثة ، وعن الأهرامات ، وكتب روزيير عن جغرافية شواطىء البحر الأحمر القديمة وتجارة المصريين القدماء ، وبعض الآثار التى وجدت فى منطقة برزخ السويس ، وبحث ريمى ريج Remi Raige موضوع بروج الشمس عند قدماء المصريين ، وتناول فيلوتو Villoteau الموسيقى وآلاتها ، وتحدث لانكريه عن الفرع الكانوبى (مع إضافات من صنع جومار) ؛ وديبوا إيميه عن فروع النيل القديمة ومصباتها ، والإسرائيليين وخروجهم من مصر ، وتناول جولوا وديفلليه موضوع بروج الشمس ، وتكلم فورييه عن الحكومة والعلوم والآثار الفلكية فى مصر ، ووضع بوديه مذكرة تاريخية عن صناعة الزجاج ، وكوتيل عن أهرامات الجيزة[٣] .

---

(١) Ibid. État Moderne t XVII 498–594; 594–609

(٢) Ibid t. I–V, IX

(٣) Ibid t. VI - IX

وأما الرسامون الذين رسموا الآثار القديمة فكانوا : بلزاك ، سيسيل ، شابرول ، وكورابوف ، ديفلليه ، دوتارتر ، جيرار ، جولوا ، جومار ، لانكريه ، لوجنتيل ، لنوار ، لوبير ، ديدونيه ، روزيير ، سنت جنيس ، فيار ، كوتيل ، دليل ، بروتان ، كاريستق ، كاستكس Castex ، كونتيه ، ديبوا إيميه ، فاى ، فيفر ، جاكوتان . جرتيان لوبير ، مارتان . وقد اشتمل الجزء العاشر من الكتاب على وصف كامل لهذه الرسوم[١] .

وأسهم فى تقديم البحوث التى اشتملت عليها أجزاء الكتاب التى تناولت دراسة مصر الحديثة عدد كبير من علماء الحملة ، فدون نوت عدة ملاحظات فلكية جمعت فى أثناء سنوات ١٧٩٨ — ١٨٠٠ فى مصر ، وكتب لوبير عن طرق المواصلات بين المحيط الهندى والبحر الأبيض وعبر برزخ السويس ، وعن مقياس الروضة ، ووصف وادى النيل ، وجرتيان لوبير عن الجزء الغربى من مديرية البحيرة وعن مريوط ، وبحيرات وصحراوات مصر السفلى ، ومدينة الإسكندرية ؛ وفوائد رسم مسطح وادى النيل بين مقياس الروضة وهرم الجيزة الأكبر ، ودرس ديبوا إيميه حدود البحر الأحمر القديمة وبلدة القصير ونواحيها والبدو الذين يقطنون حولها ، وكذلك القبائل العربية الضاربة فى الصحراوات المصرية ، كما تحدث عن رحلته فى الدلتا ووصف عادات المصريين فى الأزمنة الحديثة ، ووضع مذكرة عن مقياس الروضة ووادى النيل ، وتحدث روييه Rouyer (بالاشتراك مع روزيير) عن صناعة تفريخ الدجاج ، ثم عن (الأدوية)التى يستخدمها المصريون عادة فى علاج مرضاهم . وتناول لانكريه النظام الإدارى والمالى فى مصر فى آخر سنوات المماليك ، كما وضع بالاشتراك مع شابرول مذكرة عن ترعة الاسكندرية ، ووصفا طبوغرافيا للمنطقة الواقعة بين الرحمانية والإسكندرية وكذلك حول بحيرة مريوط .

وتكلم شابرول نفسه عن عادات المصريين فى الزمن الحديث ؛ وكتب الجنرال أندريوسى عن بحيرة المنزلة ووادى النطرون ؛ ووضع كوستاز مذكرة عن النوبة والبرابرة ؛ وشرح ديكوتيل صناعة ملح (الأمونيا) ؛ وأسهب لارى فى الحديث عن الأمراض التى فتكت بجيش الشرق فى مصر والشام ، كما تحدث عن الأجناس فى مصر ووضع ديجنت إحصاء عن الوفيات التى حدثت فى القاهرة بين عامى ١٧٩٨ ، ١٨٠١ وتكلم فيلوتو عن الموسيقى المصرية الحديثة وتاريخ الموسيقى عند الشرقيين عموما ووصف

---

(١) Ibid t. X

آلاتها ، وبحث مارسيل النقوش الكوفية وغيرها ، الموجودة على الآثار العربيـــة ، وتكلم عن جامع ابن طولون وتاريخ الدولة الطولونية ، كما تحدث عن مقياس الروضة ؛ ودون جومار ملاحظاته عن العرب القاطنين فى مصر الوسطى ، ووصف (قلعة القاهرة) ومدينة القاهرة وسكانها وآثارها وصناعات أهلها وعاداتهم ؛ ووضع جاكوتان مذكرة عن صنع خريطة مصر ؛ وتكلم بوديه عن صناعة الجلود ، وصمويل برنار عن الأوزان (والمثاقيل) العربية القديمة والحديثة ، وكذلك عن النقود المتداولة فى مصر ؛ ووصف مارتان مديريتى الفيوم وبنى سويف وصفاً هيدروغرافياً ؛ وتحدث جيرار عن الزراعة والصناعة والتجارة . ودون كوتيل Coutelle ملاحظات طبوغرافية عن شبه جزيرة سينا وتكلم عن أهلها وعاداتهم ، وصناعاتهم وتجارتهم ؛ وذكر جوبير Jaubert أسماء القبائل العربية بين مصر الوسطى وفلسطين ؛ ووصف لازوسكى خط سير جزء من الجيش الفرنسى من العريش إلى فلسطين فى أثناء العودة من الشام ؛ ووضع مالوس Malus مذكرة عن مديريات الوجه البحرى قديما وحديثاً وتحدث جولوا عن مدينة رشيد والرحلة بحراً من الإسكندرية إليها وفى النيل من رشيد إلى القاهرة ؛ ثم أثبت دلابورت Delaporte تاريخا (موجزا) للمماليك من نشأتهم إلى الفتح الفرنسى ؛ ووضع أستيف Estève مذكرة مشهورة عن مالية مصر من أيام السلطان سليم الأول إلى مجىء بونابرت . وفضلا عن ذلك فقد شملت الأجزاء المخصصة لدراسة مصر الحديثة بحوثا عن عيون موسى وآلات الرى (الشادوف مثلا) عدا فهرس جغرافى بأسماء المدن وما إليها فى المديريات المختلفة ، كما اشتمل الجزء الثانى عشر على شرح واف للرسوم المتعلقة بالفنون والصناعات فى مصر[1] .

وأسهم فى وضع قسم التاريخ الطبيعى من كتاب وصف مصر ، نخبة من العلماء ، فتحدث جيوفرى سنت هيلير عن الأسماك فى نهر النيل والبحرين الأبيض والأحمر (ووصف التمساح) كما وصف الحيوانات الثديية ، واشترك معه أودوان Audouin جزء من هـــذا البحث الأخير ؛ وتحدث سافينى عن طائفة من الحيوان والطير والزواحف فى مصر وفى الشواطىء الشامية والمصرية ، وصورها فى رسوم كثيرة ، كما أسهب فى الحديث عن العجل أبيس من ناحية التاريخ الطبيعى والناحية الميثولوجية ، وتكلم كذلك عن الثدييات ؛ وقد قام فكتور أودوان بشرح الرسوم التى أنجزها سافينى ودون عليها ملاحظات عدة . ووصف (دليل) شجر الدوم فى الصعيد ، ووضع

(١) Ibid t. XI-XVIII

مذكرة مسهبة عن النباتات (والزهور) فى مصر ، وعقد (كوكبير) مقارنة بين النبات فى مصر وفرنسا ، ووصف جيرار وادى التيه واستكشافاته الجيولوجية فى هذا الوادى كما وصف آثاره ، كما تكلم عن التربة فى مصر وفيضانات النيل وأسباب اختلاف الفيضان عموما ؛ وحلل (رينو) Regnault طمى النيل ؛ وعقد روزيير فصولا تناول فيها الحديث عن الصخور المصرية (والعربية) وعن المعادن فى وادى القصير ، ووضع مذكرة مطولة عن وصف مصر الطبيعى (أو الفيزيقى) وعلاقة ذلك بالأنظمة المصرية القديمة ، فتكلم عن حدود البلاد ، وجبالها ، وتربتها . وسكانها ، وصلاحية أرضها للزراعة ؛ وطمى النيل ، والدلتا ، والفيضان ، ومقياس الروضة ، والمقاييس المصرية (الذراع خصوصا) ومعادنها ، وصحراواتها ، ووادى التيه ، إلى غير ذلك ، وانجز رسوما عدة ؛ ثم دون كوتيل Coutelle ملاحظات مترولوجية أخذت فى القاهرة ، ثم أخرى بارومترية ؛ وحذا حذوه (نوت) Nouet فدون عدة ملاحظات مترولوجية وهيجروماتيكية أخذت فى مدن مصرية مختلفة[١] .

وأما مجموعة الرسوم والمصورات فكانت تضم صوراً ورسوما عدة ، تبدأ بخريطة مصر القديمة التى رسمها دانفيل D'Anville ، ثم تشتمل على آثار الصعيد ، والفيوم والوجه البحرى . فكانت هناك رسوم لجزيرة فيلة وآثارها ، وكذلك لجزيرة الفنتين ثم كوم امبو ، وجبل السلسلة (لبيان المحاجر القديمة) ، وإدفو ، والكاب ، إسنا ، أرمنت ، طيبة (مدينة هابو ، تمثالى ممنون ، بيبان الملوك ، الأقصر ، الكرنك) وكذلك رسوم أوراق البردى والنقوش الهيروغليفية . وقد رسم هذه الأوراق جومار ، كما رسم مومياء الطيور والتماسيح سافينى ، وجيوفرى سنت هيلير ؛ ثم رسوم قوص وقفط ، دندرة ، أبيدوس ، الأشمونين ، أنتنوى ، بنى حسن ، ملوى ، الدر ، الفيوم ، منف ، بحيرة مريوط ، (حصن بابليون) ، هليوبوليس ، صان الحجر ، بوبسطة ، تانيس ، برزخ السويس ، الدلتا ، الإسكندرية ، النقود القديمة والنقوش الهيروغليفية ومجموعات الأوانى والتمائم وغيرها .

واشتملت الخرائط على خريطة لأسوان ، وأخرى لإسنا ، ثم قنا ، القصير ، أسيوط ، المنيا ، مصر الوسطى ، وخريطة هيدروغرافية للوجه البحرى ، وبرزخ السويس ، وميناء السويس ، والقاهرة (بولاق ، جزيرة الروضة ، الجيزة) ، ثم رسم حديقة مراد بك فى الجيزة ، ثم مصر القديمة ، الخليج ، القبة ، سفح الأهرام ، مقياس

---

(١) Ibid t. XIX - XXIV

الروضة ، جوامع القاهرة (ابن طولون ، السلطان حسن ، الخ) ، باب النصر ، باب الفتوح ، بركة الفيل ، الأزبكية ، حديقة وسراى قاسم بك ، سراى حسن كاشف (مقر المجمع العلمى) بيت إبراهيم كتخدا السنارى ؛ الرميلة ، القلعة ، بير يوسف ، بركة الحاج ، بلبيس ، دمياط ، أم دينار ، فوة ، رشيد ، قلعة «أبو قير» ، الإسكندرية بمبانيها القديم والحديث ، وجوامعها وحماماتها ومقابرها ومنازلها ؛ برج العرب ، الصحراوات ، الوكايل بالإسكندرية ورشيد ودمياط ، المحاجر القديمة فى جبل السلسلة ، الأديرة فى سينا ، ووادى النطرون .

وعدا ذلك ضم المجلد الثانى عشر شرحا لرسوم الصناعات والحرف المصرية ، كصناعة الزيوت ، وتفريخ الدجاج ، والفخار والزجاج ، السواقى والشادوف والمحراث والنورج وطواحين الأرز ، والنسيج ، الجلود ، الصباغة ، البناء ، صناعة الحصر ، النجارة ، الحدادة ، الخراطة ، صناعة الزجاج الخ . واشترك فى تفسير هذه الرسوم كل من ديفلليه ، جومار ، جولوا ، سيسيل ، دليل ، كوتيل ، لوبير (المهندس) وهو ميلو Humelot ، بوديه ، ديكوتيل Descotils .

ثم كانت هناك عدة رسوم تشرح أزياء وملابس الأفراد فى مختلف الطبقات . وأثاث البيوت وآلات الموسيقى ، عدا صور بعض الشخصيات كأمير الحاج ومراد بك ، الشيخ السادات ، سيد مصطفى باشا الذى أسر فى واقعة « أبو قير » البرية ، وبعض علماء القاهرة والآستانة ، والراقصات (أو العلمات) والسقاء والسيدات المصريات ، والإفرنجيات وغير ذلك[١] .

واشترك فى وضع رسوم القسم الخاص بالتاريخ الطبيعى وتفسيرها كل من سافينى ، جيوفرى سنت هيلير ، بيسا Bessa ، برابو Barrabaud ، بريتر Prêtre ، مونييه Meunier ، هوية Huet ، ديويلى Dewailly ، تيربان Turpin ، (الحيوانات والزواحف وما إليها) ، دليل ، برتو Bertaux ، بيسا ، بواتو Poiteau سافينى ، تيربان (النبات) ؛ روزيير ، كلوكيه Cloquet ، ديفرين Defraine . ليشانديه Lechandé ، رينجويه Ringuet ؛ وسافينى (الحيوانات عادمة الفقار) ؛ سافينى (الفقارية) ؛ واختص ديدونيه برسم النبات ، وروزيير برسم المعادن[٢] .

ذلك كان كتاب وصف مصر الذى يعتبر بحق من أكبر الموسوعات التى وضعت فى تاريخ مصر وجغرافيتها ووصف أرضها وتربتها ونيلها وترعها وآثارها وموارد

(١) Ibid t 1 — 11 (1809) t. X, XII
(٢) Ibid. XXII - XXIII, XIX, XXI

ثروتها الحيوانية والنباتية ، والمعدنية ومناخها وأجناس شعوبها وعادات أهلها ، وأساليب معاشهم ، وصناعاتهم وتجاراتهم — ولا شك فى أن هذا الأثر العلمى كان أعظم آثار الحملة الفرنسية وأبقاها خلوداً على مر الأيام والدهور .

بيد أن هؤلاء العلماء الذين حضروا مع بونابرت إلى مصر ؛ لم يحفظوا بحوثهم ودراساتهم حتى يعودوا إلى بلادهم ، بل بادروا بنشر كل ما تيسر إنجازه منها وهم فى هذه البلاد وقرأوه على إخوانهم من أعضاء المجمع العلمى ، وناقشهم زملاؤهم من أعضاء لجنة العلوم والفنون فى محتوياته بحثا وراء الحقيقة وإرواء لظمئهم العلمى ، ثم اختصت إحدى الصحف التى أنشأها الفرنسيون فى هذه البلاد بنشره بعد ذلك حتى يفيد من قراءته سائر مواطنيهم ، وكل من رغب فى الاشتراك فى هذه الصحف وقراءتها وكانت (لاديكاد اجبسيين) Decade Egyptienne هى الصحيفة التى اختصت بنشر بحوث العلماء وما يلقونه من دراسات فى قاعة المجمع العلمى . على أن الحديث عن هذه الناحية من جهود العلماء والمجمع إنما يتناول الكلام عن أثر من آثار الحملة فى مصر هو إدخال الطباعة إلى هذه البلاد وظهور الصحف بها لأول مرة فى تاريخها .

المطبعة الأهلية :

اهتم بونابرت واهتمت حكومة الإدارة باختيار نخبة من المختصين بشئون الطباعة كما اهتمت باختيار ذلك العدد الكبير من العلماء المبرزين الذين صحبوا الحملة إلى مصر ، ولم يمنع إشراف بونابرت على الاستعدادات التى جرت على نطاق واسع من أجل تجهيز واستكمال معدات الحملة العسكرية ، من تخصيص بعض وجوه نشاطه لاختيار « العلماء » والطباعين الحاذقين الذين كانوا يعملون فى دار المطبعة الأهلية بفرنسا أو فى أماكن أخرى ، للعمل فى المطابع التى قرر إحضارها معه إلى مصر . وكانت هذه مطابع أفرنجية وشرقية أمدتها المطبعة الأهلية بالأدوات والحروف التى تكفى ثلاث مطابع فرنسية. واستطاع الجنرال كفاريللى بناء على أمر من بونابرت أن يبتاع لهذه المطبعة (مطبعة الحملة الفرنسية) أدوات كثيرة [١] . ولما كان يعتمد على « المطبعة » كأداة صالحة للدعاية تمكنه من إذاعة نياته وأغراضه ، أو تلك المنشورات التى أراد من إصدارها جلب مودة المصريين ، واطمئنانهم إلى الحكومة التى أزمع إنشاءها فى بلادهم ، فقد فاق اهتمامه بالمطبعة العربية على سواها من المطابع ، وعهد إلى (مونج) صاحب الصيت

(١) Charles-Roux. op. cit. 138 ; Canivet 3 ; Corresp. No. 2452

العلمى الذائع ، باختيار « المستشرقين » أو الذين يحذقون فنون الطباعة العربية والشرقية . فصدع مونج بالأمر ، واختار (موظفى) المطبعة الشرقية من بين المتخصصين فى شئون الطباعة الشرقية أو الذين كانوا يعرفون اللغة العربية فى باريس أو رومة أو الفاتيكان .

وقد نجم عن تضافر جهود بونابرت ومونج وحكومة الإدارة عموما أن صارت لجنة العلوم والفنون تضم عند الفراغ من تأليفها عدداً من المستشرقين والطباعين والمصححين الفنيين المختصين بشئون الطباعة ، الذين كانت مهمتهم العمل فى مطبعة الحملة الرسمية . فأما الطباعون والمصححون ومن إليهم الذين اختصوا بالعمل فى المطبعة الأفرنجية ، وضمتهم إليها لجنة العلوم والفنون فكانوا : بيسون Beson ، بودوان Beaudiun ، جالان Galland ، بولانجيه Boulanger ، لابورت Laporte ، بنتيس Puntis ، باريبه Barrier . ماركوى Marquoy ، پونيسلو Ponicelot ، بوايه Boyer ، جاردان Jardin ، نيفيه Nivet ، فيرى Véry ، ديبوا Dubois ، جرانسار Gransart ، ماريله Mariet ، لتيون Lithions ، كاستيرا Castera [١]. وكان رئيسهم مارسيل العالم المستشرق .

وأما موظفو المطبعة الشرقية — وهؤلاء لم تضمهم لجنة العلوم والفنون إليها — فكانوا عشرة ، أهمهم على ما يبدو أحد المترجمين من ديار بكر ، وهو إليافاتالا Elia Fatalla ، وقد وضعت تحت إدارته المباشرة المطبعة الشرقية[٢]. وكانت هذه المطبعة الرسمية التى أحضرتها الحملة معها إلى مصر تتألف من ثلاث مطابع فرنسية ، واثنتين عربيتين ، وواحدة يونانية . وتنقسم إلى قسمين : المطبعة الشرقية والمطبعة الفرنسية ؛ وتعرف جميعها باسم (المطبعة الشرقية والفرنسية) وكان مارسيل المدير الذى أشرف عليها جميعاً : وقد حملت بارجة القيادة (أوريان) هذه المطبعة .

وقد أحضرت الحملة معها إلى جانب هذه (المطبعة الرسمية) مطبعة أخرى خصوصية كان صاحبها مارك أوريل Marc Aurel . وكانت قد نشأت صداقة متينة بين والده بيير مارك أوريل ، وكان صاحب مطبعة ومكتبة فى مدينة فالنس وبين بونابرت الذى عرفه منذ أن كان فى حامية هذه المدينة ؛ وقد حضر مارك أوريل الابن بمطبعته مع الحملة بوصفه

---

(١) Villiers 350—1 et (Note 1)

(٢) Chales-Roux. op. cit. 139

(طابعا حراً) ودون أن تكون له صفة رسمية ؛ ولم يكن لدى مطبعة أوريل التى حملها السفينة (سان كيلوت Sans-Culotte) أية حروف عربية .

وبدأت مطبعتان (الرسمية والخصوصية) عملهما وهما ما تزالان فى عرض البحر ، فى أثناء العبور من فرنسا إلى مصر . فأخرجت مطبعة مارسيل الرسمية بعض المطبوعات الفرنسية ، منها نداء بونابرت إلى جيشه فى ٢١ يونيه ، وأمره اليومى فى ٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨ ، كما طبعت بالعربية منشور أو نداء بونابرت المشهور إلى أهل مصر ، وهو « المرسوم (الذى) طبعوه وأرسلوا منه نسخاً حين حلولهم بالاسكندرية إلى البلاد التى (قدموا) إليها تطميناً لهم »[١] بتاريخ ١٣ مسيدور أو ٣٠ يونيه ١٧٩٨ . وأذيع غداة استيلائهم على الاسكندرية ، أى فى ٢ يوليو من العام نفسه[٢] . ومن المحتمل أن تكون مطبعة مارك أوريل قد أخرجت هى الأخرى بعض المطبوعات (الفرنسية) فى أثناء العبور كذلك .

وقبل مغادرته الاسكندرية أصــدر بونابرت أمره فى ٧ يوليو بإنزال المطابع الفرنسية والعربية واليونانية إلى البر ، أى تلك المطابع التى كانت تحت إشراف مارسيل ، وترك أحد الضباط من هيئة أركان حربه للاشراف على هـذه العملية ، كما أمر بأن تنقل المطابع إلى منزل قنصل البندقية ، على أن يتم إعداد المطابع الفرنسية والعربية فى خلال يومين فقط ، لطبع كل ما يمكن إرساله لها من أوامر ومنشورات تصدرها القيادة العامة فى أثناء الزحف على القاهرة . كما كلف بونابرت المطبعة العربية بطبع أربعمائة نسخة من منشوره أو ندائه العربى[٣] . ولما كان برويس قائد الأسطول قد غادر ببارجته أوريان ميناء الاسكندرية إلى أبى قير فى صبيحة يوم ٧ يوليو[٤] ، فمن المرجح أن مطبعة مارسيل كانت قد أنزلت إلى البر قبل يوم ٧ يوليو ، بل بدأت عملها قبل هذا التاريخ ، والدليـل على ذلك أنه لم يلبث أن ظهرت بالاسكندرية قائمة (أو تعريفة) بقيمة العملة المتداولة تحمل تاريخ الاسـكندرية فى ٦ يوليو ١٧٩٨ . فتكون المطبعة الرسمية إذن قد بدأت عملها بعد أقل من أسـبوع واحد من الاستيلاء على الاسكندرية ، وفى مكان غير منزل قنصل البندقية الذى ذكره أمر بونابرت وقت

---

(١) الجبرتى ٣ : ٤

(٢) Canivet 9

(٣) Corresp. No. 2784 ; Ibid 9

(٤) Douin (La Flotte) 81

رحيل قائد الحملة العـام من الاسكندرية وبداية زحفه صوب القاهرة [١] ؛ ولا ينهض صدور أمر بونابرت فى ٧ يوليو بطبع عـدد من ندائه المعروف إلى « أهالى مصر » دليلا على أن المطبعة الرسمية بإشراف مارسيل قد بدأت عملها فى مدينة الاسكندرية فى يوم ٨ يوليو ، أى فى اليوم التالى لظهور هذا الأمر كما يعتقد بعض الـكتاب .

ولما كانت المطبعة الرسمية (مطبعة مارسيل) تتألف من مطابع عدة ، ومن المتعذر نقلها بسلام إلى القاهرة مع الجيش فى أثناء زحف بونابرت الشاق على العاصمة ، فقد فضل القائد العام إبقاء هذه المطبعة بالإسكندرية ، واختار لها بيت القنصل البندقى مكاناً كما أسلفنا ، واكتفى بإرسال المطبعة الخصوصية (مطبعة مارك أوريل) إلى القاهرة ، فتبع أوريل ومطبعته الجيش الزاحف ، واعتمد بونابرت على هذه المطبعة (الخصوصية) فى طبع أوامره باللغة الفرنسية ، كما عهد إليها بطبع الصحيفتين اللتين أنشأهما بونابرت فى القاهرة،وهما لوكوريه‌دوليجيبت Le Courrier de L'Egypte ،لاديكاداجيبسيين La Decade Egyptienne ؛ وسمى (أوريل) نفسه طابع (مطبعجى) الجيش ، وقد ظل محتفظاً بهذا اللقب حتى وقت رحيله من مصر . وقد طبع أوريل أول أمر يومى من أوامر بونابرت فى ١٦ أغسطس ١٧٩٨ ؛ وهذا بينما ظلت مطبعة مارسيل الرسمية تعمل بالإسكندرية ، تحت عنوان (المطبعة الشرقية والفرنسية) . ويستخدمها الجنرال كليبر حاكم الإسكندرية فى طبع ماتصدره قيادته من أوامر وتعليمات ، كما كانت ترسل إليها أصول النداءات وغيرها المكتوبة باللغة العربية لطبعها . وفضلا عن ذلك فقد أخرجت مطبعة مارسيل بالإسكندرية ، إلى جانب «قانون العقوبات العسكرى لجميع جنود الجمهورية» مصنفين صغيرين أحدهما «حروف الهجاء العربية والتركية والفارسية» والآخر « تمارين للقراءة العربية مستخرجة من القرآن (الكريم) لمساعدة أولئك الذين يريدون معرفة هذه اللغة» . وكان هذا أول ماطبع إطلاقا فى مصر من الـكتب [٢] .

وما إن دخل بونابرت القاهرة ظافراً حتى بادر بإصدار أمره إلى الجنرال برتييه فى ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٨ أن يطلب إحضـــار المطابع الفرنسية والعربية (أى المطبعة الرسمية) إلى القاهرة بكل سرعة ، وصدع برتييه بالأمر فى اليوم نفسه ، ولـكنه لما كان يجهل مكان هذه المطبعة على وجه التدقيق ، فقد كتب إلى منو حاكم رشيد ليرسل

---

(١) Charles-Roux. op. cit. 140

(٢) Ibid 142, 144

هذه المطابع إذا كانت فى رشيد[١] . وكتب بونابرت كذلك فى ٢٧ يوليو إلى كليبر أن يرسل المطبعة الرسمية إلى القاهرة ؛ وكان ذلك قبل أن يبدأ (مارك أوريل) فى طبع أو إعداد (لوكوريه دوليجيبت) . وعندما شرع بونابرت ينظم جهود علماء الحملة عهد فى أمره الذى أصدره فى ٢ أغسطس ١٧٩٨ (وقد سبق ذكره) إلى مونج وبرتوليه وكفاريللى باختيار مكان يتسع لإيواء المجمع العلمى والمنشآت العلمية الأخرى التى قرر تأسيسها ، ثم المطبعة الرسمية[٢] . وفى الوقت الذى استدعى فيه بونابرت علماء الحملة إلى القاهرة ، طلب من جديد حضور المطبعة الرسمية . وعلى ذلك فقد كتب (برتييه) إلى كليبر فى أواخر أغسطس يطلب منه إرسال إحدى المطبعتين العربيتين إلى القاهرة نظراً للحاجة الشديدة إليها ، فقد كان يستغرق إرسال الأصول (العربية) إلى مطبعة مارسيل بالإسكندرية ثم عودتها إلى القاهرة زمناً طويلا إذ يفصل بين الإسكندرية والقاهرة مسافة ثلاثمائة كيلومتر تقريبا بطريق النيل . ومع ذلك فقد تأخر وصول المطبعة الرسمية ؛ واضطر بونابرت أن يعهد إلى (مارك أوريل) بطبع صحيفتى الحملة ، فظهر أول أعداد (لوكوريه) فى ٢٩ أغسطس وأول أعداد (لاديكاد) فى أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ ؛ ولم ينل العددان عند ظهورهما رضاء بونابرت بسبب ما كان بهما من أخطاء مطبعية كثيرة[٣] .

وأخيراً وصلت المطبعة الرسمية إلى القاهرة بحروفها الفرنسية والعربية واليونانية ، عقب ثورة القاهرة الأولى مباشرة ، وحضر معها مارسيل وسائر الموظفين ؛ فاستقرت المطبعة فى نفس المكان الذى أقام فيه المجمع العلمى ؛ ولكنها مالبثت أن نقلت إلى منزل عثمان بك أشقر بميدان الأزبكية ، بينما ظلت سراى حسن كاشف مقر المجمع العلمى ، وعرفت باسم (المطبعة الأهلية) وبقيت تحت إشراف المستشرق مارسيل ، وبادر بونابرت بتنظيمها فأصدر أمراً فى ١٤ يناير ١٧٩٩ من ست مواد برسم خطة العمل ؛ ويعهد بالإشراف على قسم المطبعة العربية إلى (فانتور) Venture ، وعلى قسم المطبعة الفرنسية إلى فوفليه دى بوربين Bourienne وذلك تحت إدارة مارسيل نفسه مدير المطبعة الأهلية . وقامت (المطبعة الأهلية[٤]) بطبع الأوامر اليومية للجيش والنداءات أو المنشورات العربية ، كما أخرجت مطبوعات باللغة اليونانية ، وأخرى رسمية باللغة

---

(١) Corresp. Nos. 2853, 2864 ; Ibid 143

(٢) Canivet 11

(٣) Corresp. No. 3672

(٤) Keller IV 206

التركية وعهد إليها كذلك بطبع صحيفتى الحملة (لوكورييه) و (لاديكاد [١]) .

ومما يجدر ذكره أنه كان لا يزال يوجد بالإسكندرية بعض أدوات المطبعة وحروفها ، بمقدار يسمح بطبع بعض الأوامر والمنشورات تحت إشراف (بيسون) . وعلى ذلك فقد انتفت الحاجة تماماً لمطبعة مارك أوريل الخصوصية ، ورغب مارك أوريل فى العودة إلى فرنسا ، فعرض على بونابرت أن يشترى مطبعته ، وعهد القائد العام إلى ديجنت واثنين آخرين بتقدير الثمن المناسب لها ، ولما كان بونابرت يريد معاملة مارك أوريل بسخاء فقد قدرت اللجنة ثمناً لها أربعة آلاف وخمسمائة فرنك [٢] ، ولكن أوريل لم يستطع قبض المبلغ قبل مغادرة بونابرت إلى فرنسا . وعندما تولى الجنرال كليبر قيادة الحملة أعيد تقدير قيمة المطبعة بثمن يقل بمبلغ ألف وخمسمائة فرنك عن سابقه ، وصدر أمر كليبر إلى (الصراف العام) بشراء مطبعة مارك أوريل بثلاثة آلاف فرنك ، وكان ذلك فى ٧ سبتمبر ١٧٩٩ [٣] ، وعاد أوريل إلى فرنسا .

أما المطبعة الأهلية (الرسمية) فقد ظلت فى مكانها بمنزل عثمان بك أشقر ، حتى إذا كانت ثورة القاهرة الثانية أيام كليبر ، وكانت ثورة عنيفة هاجم الثوار فى أثنائها المجمع العلمى ومكان المطبعة — نقلت المطبعة إلى الجيزة فى أبريل سنة ١٨٠٠ ، ثم أعيدت إلى مكانها الأول بعد أن هدأت الأمور — على أنه ما انتشر ذعر الفرنسيين بالقاهرة عند زحف الجيوش الإنجليزية والعثمانية على العاصمة فى أثناء حملة ١٨٠١ المعروفة ، وحاصر الأعداء مدينة القاهرة حتى نقل الفرنسيون — مع ما نقلوه إلى القلعة — المطبعة ، وعند جلاء الفرنسيين من البلاد نقلت المطبعة إلى فرنسا [٤] .

وأخرجت المطبعة الأهلية (ومطبعة مارك أوريل كذلك) ، إلى جانب الأوامر والمنشورات وصحيفتى الحملة ؛ « دليلا سنوياً » يشمل طائفة من البحوث العلمية والأدبية من عمل أعضاء المجمع العلمى ؛ كما أخرجت بعض الكتب فى النحو والهجاء باللغتين العربية والفرنسية ، لفائدة رجال الحملة والمصريين أنفسهم الذين يريدون معرفة اللغة الفرنسية ، وطبعت كتاباً بالعربية عن سقوط القسطنطينية ، وأصدر مارسيل طبعة من وصايا لقمان الحكيم ، كما طبعت أسماء مديريات القطر المصرى باللغة العربية [٥] ،

---

(١) Reybaud IV 64

(٢) Desgenettes III 13, 17

(٣) Canivet 13

(٤) Ibid 14

(٥) Recueil des Pièces . . . El-Halaby (Kaire An VIII); Reybaud VI 64 — 5 ; الجبرتى ٣ : ١٢٢ — ١٤٠ ; Galland I 278—90; II 262—323

ثم كتاب ديجنت فى مرض الجدرى ، ووصف مرض الرمد فى مصر لأنطوان سافرسى باللغتين العربية والإيطالية ، وموجزاً للحوادث التى وقعت فى أوروبا خلال الأربعة شهور الأولى من العام السابع للجمهورية ، ودستور السنة الثالثة للجمهورية الفرنسية؛ وبعض آيات قرآنية من اختيار وترجمة مارسيل ، ثم الأوراق الخاصة بمحاكمة سليمان الحلبى ، وصورة الحكم الصادر بإعدامه . وإعدام « كل من له جرة فى غدر وقتل سارى عسكر العام كلهبر » — وقد نشر الشيخ الجبرتى هذه المستندات فى تاريخه — وغير ذلك[1] .

وحازت المطبعة الأهلية إعجاب الكثيرين من المشايخ أعضاء الديوان ، وغيرهم من المصريين المثقفين الذين زاروا مطبعة مارسيل ، وقد تقدم كيف زار المشايخ المهدى والفيومى والصاوى وغيرهم المطبعة مرات كثيرة ، وأعجبوا بطرق الطبع لإخراج المطبوعات العربية والفرنسية . وكان ممن زاروا المطبعة كذلك الشيخ محمد الفاسى ، وكان قد شاهد مطبعة القسطنطينية ثم « مطبعة الشوام » ، بالدير المارونى فى لبنان ، فاستطاع الشيخ الفاسى أن يؤكد تفوق المطبعة الأهلية على المطبعتين التركية والسورية ، وقال إنها تفضلهما كثيرا ، وكان الشيخ البكرى ممن زاروا المطبعة ، وسأل أسئلة عدة عن تأثير الطباعة على الحضارة ، وقال إنه يعرف كتبا عربية كثيرة يود لو أن المطبعة طبعتها ، ونشأت بين الشيخ المهدى ومارسيل صداقة عظيمة ، فترجم مارسيل قصص الشيخ إلى الفرنسية (ونشرها فى باريس ١٨٣٦[2]) .

صحيفة (لوكوربيه دوليجيبت)

وكانت صحيفة (لوكوربيه دوليجيبت) Le Courrier de L'Egypte أول الصحف التى أخرجتها المطابع الفرنسية فى القاهرة ، قام بطبع أول أعدادها مارك أوريل فى مطبعته . فقد رغب بونابرت أن ينشىء صحيفتين مستقلتين ، إحداهما سياسية تنشر الأخبار التى كان يهم جيش الشرق معرفتها ، والأخرى أدبية تضم طائفة من بحوث علماء الحملة وموجزاً لما كانوا يقومون به من دراسات ، وما وصلوا إليه من نتائج علمية هامة ؛ فأسس للغرض الأول صحيفة (لوكوربيه دو ليجيبت) ، وكان المقرر أن تصدر مرة كل خمسة أيام ، وأصدر لتحقيق الغرض الثانى صحيفة (لاديكاد ايجبسيين) La Decade Egyptienne على أن تصدر مرة كل عشرة أيام . فكانت مهمة الصحيفة

---

(١) Charles-Roux. op. cit. 153

(٢) Ibid. 152 — 3

الأولى أن تنشر أخبار أوروبا إلى جانب الأخبار المحلية ، وذلك حتى يقف جيش الشرق على مجريات الحوادث فى داخل المستعمرة الناشئة وخارجها ، وحتى تحمل هذه الصحيفة (لوكوريه) صورة صحيحة إلى عاصمة البلاد عن الحياة العامة فى المديريات والأقاليم ، ثم تحمل إلى المدن فى مختلف أنحاء البلاد صورة الحياة فى العاصمة[١] .

وكان بونابرت يهدف من ذلك إلى توجيه رأى قارئ هذه الصحيفة إلى ناحية معينة تتفق وما كان يعقده من آمال عظيمة على نجاح تجربة الاستعمار الفرنسى فى هذه البلاد (الشرقية) . وعلى ذلك فقد عنى بونابرت باختيار المشرفين على صحيفة (لوكوريه) بنفسه ، فعرض فى بادىء الأمر رياسة التحرير على برسيفال جرانميزون أحد أعضاء المجمع العلمى ولكنه رفض ، فاختار بونابرت العالم الرياضى فوريه Fourier ، ولما كان فوريه لا يزال وقتئذ فى رشيد ، فقد عهد بونابرت إلى كوستاز بالاشراف على إصدار الجريدة ، فصدرت أعداد (لوكوريه) الأربعة الأولى تحت إشرافه ؛ ثم تسلم فوريه العمل عند وصوله إلى القاهرة بعد ذلك بخمسة عشر يوما . وقد ظلت مطبعة (مارك أوريل) تصدر (الكوريه) حتى العدد الثلاثين فى ١٩ جرمينال من السنة السابعة للجمهورية (٨ أبريل ١٧٩٩) ؛ ثم تولى مارسيل طبع الجريدة فى المطبعة الأهلية ابتداء من العدد الواحد والثلاثين فى ١٩ مسيدور من العام نفسه (٦ يوليو ١٧٩٩).

وقد أرسل بونابرت أول أعداد (لوكوريه) إلى كليبر بالإسكندرية ، وكان هذا العدد يشتمل على مقال خاص بالمولد النبوى ، طلب بونابرت من كليبر أن يطبع منه (بالمطبعة العربية) لديه نسخاً عديدة لإذاعته فى الليفانت ، ووعد كليبر بإرسال أربعمائة نسخة من الجريدة . وغرض بونابرت من ذلك ولا شك هو الترويج لسياسته الإسلامية — الوطنية بين شعوب الليفانت الإسلامية . على أن كليبر لم يجد فى عدد (لوكوريه) ذلك الكمال الذى كان ينشده بسبب ما به من أخطاء مطبعية كثيرة . ولم يكتم استياءه ، بل كان يتوقع امتناع كثيرين عن الاشتراك فى (لوكوريه) بسبب ضعف لغة الجريدة[٢]

وقد ظل (فوريه) يشرف على الصحيفة ، حتى إذا تولى كليبر القيادة العامة عهد إلى (ديجنت) كبير أطباء الحملة برياسة التحرير ابتداء من العدد السابع والثلاثين فى ١٥ سبتمبر ١٧٩٩ ، ثم استمر صدور الجريدة فى عهد كليبر ومنو حتى بلغ عدد أعدادها ستة عشر ومائة ، ظهر آخرها فى ٢٠ بريريال من السنة التاسعة للجمهورية

---

(١) Reybaud IV 64 ; Ibid 145

(٢) Charles-Roux. 146 ; Canivet 15 — 6

(٩ يونيه ١٨٠١) ، وكان يشتمل على أخبار تسليم بليار كما نشرت شروط هذا التسليم كلحق للصحيفة وكان هذا الملحق آخر ما أخرجته المطبعة الأهلية [١] .

ونشرت (لوكوريبه) الأوامر الرسمية وأخبار الجيش وحوادث القاهرة والأقاليم وأمهات الأخبار المحلية ، كأنباء الاحتفالات والأعياد ، مثل الاحتفال بوفاء النيل والمولد النبوى وأعياد الجمهورية ، ثم المآدب وأخبار التمثيليات وحفلات الموسيقى والرقص التى كانت تقام فى ملهى (التيفولى) وقصائد من نظم جالان ، وبنابن Benaben وغيرهما ، وهذا عدا إعلانات النوادى والقهاوى (والبارات) فى الأزبكية ومصر القديمة ، وفاوريقات (المكرونة) وما إلى ذلك ؛ ثم وصف الاستعراضات العسكرية بحضور بونابرت ، وعنيت الجريدة بنشر حوادث الديوان وملخصات جلساته ، واهتمت على وجه الخصوص بنشر رسائل الديوان ونداءاته إلى الأهلين التى يحثهم فيها على الهدوء والسكينة وطاعة أولى الأمر . وفضلا عن ذلك فقد نشرت (لو كوريبه) أخبار الشام وأوروبا التى أمكن أن تحملها بعض السفن التى استطاعت اختراق نطاق الحصار البحرى الذى ضربه الإنجليز على الشواطىء المصرية ، وأجازت نشرة الرقابة العسكرية الفرنسية .

ونشرت الجريدة كذلك بعض النوادر والقصص الصغيرة التى تساعد الفرنسيين على فهم شىء من عادات وتقاليد المصريين ، من ذلك قصة ذلك النوبى الذى صوره (ريجو) وقد سبق ذكرها ؛ ولعل من أهم ما نشرته (لوركوبيه) موجز لرحلة فولنى المشهورة وضعه صاحب الرحلة نفسه . وفضلا عن ذلك فقد نشرت (لوكوريبه) من وقت لآخر شيئا من أخبار المجمع العلمى وجلساته وموجزا لبعض بحوث أعضائه ، كوصف قصر قارون وبركة قارون ومدينة النمروذ وبحيرات النطرون « وبحر بلا ماء » الذى يقع غرب هذه البحيرات ، ثم بحر مويس ومدينة بوبسطة ورحلة لوبير ، وجراتيان لوبير وسانت جنيس وديبوا فى برزخ السويس ورحلة دينون فى الصعيد واستكشافات لوبير ولانكريه وشابرول فى برج العرب ، ومقال لجيرار عن برزخ السويس ووصف لمجموعة جيوفرى سنت هيلير العلمية فى التاريخ الطبيعى [٢] .

ومع ذلك فإن نشر بحوث الحملة لم يكن فى واقع الأمر مهمة (لوكوريبه) بتاتا ، لأن الصحيفة الأخرى (لاديكاد اجيبسيين) هى التى اختصت بذلك

---

(١) Canivet 15, 17

(٢) Galland II 152 — 60, 169 — 171, 173—5, 223- 5, 241—3

صحيفة (لاديكاد إجيبسيين)

فقد حدث فى أولى الجلسات التى عقدها المجمع العلمى فى ٦ فريكتيدور من السنة السادسة للجمهورية الفرنسية (٢٣ أغسطس ١٧٩٨) أن تم الاتفاق على إنشاء صحيفة أدبية ، تكون بمثابة لسان المجمع ، فتتحدث عن نشاط علمائه وتنشر بحوثهم ، كما اختار الأعضاء بونابرت وتاليان وديجنت مشرفين على إصدارها ؛ ثم اقترح كفاريللى « العشرية الفلسفية » La Decade Philosophique اسما لهذه الصحيفة ، ولكن الأعضاء ما لبثوا أن اختاروا « العشرية المصرية — جريدة للأدب وللاقتصاد السياسى » «La Decade Egyptienne-Journal Literraire et d'Economie Politique» اسماً لها . ثم كلف تاليان بوضع برنامج الصحيفة ، بينما عهد إلى (ديجنت) بالإشراف على طبعها ، أما بونابرت فلم يتدخل فى أمرها [1] . وكان تحت إشراف (ديجنت) أن ظهر عدد الصحيفة الأول فى بداية أكتوبر ١٧٩٨ ، حتى إذا غادر (ديجنت) القاهرة مع بونابرت فى حملته إلى سوريا أشرف (فوريه) على طبع الأعداد الرابع والخامس والسادس من الجريدة ، وتولت مطبعة مارك أوريل طبع (لاديكاد إجيبسيين) فأصدرت الأعداد الثلاثة الأولى فقط ، ولم تنل طريقة طبعها رضاء بونابرت فطلب إلى (ديجنت) فى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٨ أن تقوم المطبعة الأهلية بإشراف مارسيل بطبع الصحيفة وأن تعنى بظهورها فى مواعيد منظمة مرة كل عشرة أيام .

وقد أعادت المطبعة الأهلية طبع الأعداد الثلاثة التى أخرجتها مطبعة مارك أوريل ؛ ولما كانت المطبعة الرسمية قد وصلت بحروفها الفرنسية والعربية إلى القاهرة ، عقب ثورة القاهرة الأولى مباشرة ، وحضر كذلك مارسيل وجالان وسائر موظفيها أى فى أواخر شهر أكتوبر ١٧٩٨ فقد أمكن طبع الأعداد التالية من (لاديكاد اجيبسيين) فى القاهرة ابتداء من العدد الرابع الذى ظهر فى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٨ ؛ ولا يعنى صدور أمر بونابرت فى ١٤ يناير ١٧٩٩ بتنظيم المطبعة الأهلية نهائيا أن هذه المطبعة كانت متعطلة عن العمل كما يعتقد بعض الكتاب .

وأعد تاليان (برنامج) الجريدة ، الذى نشرته صحيفة (لاديكاد) كمقالها الافتتاحى ، ومع أن بونابرت لم يرتح تماما لهذا البرنامج ، فقد نجح تاليان فى إظهار الغرض من نشر هذه الصحيفة ، وهو أن تصبح (لاديكاد) خير واسطة يتمكن بفضلها الفرنسيون سواء فى مصر أم فى فرنسا ، ثم أوروبا بأكملها ، من معرفة هذه

---

(١) Canivet 17 — 18

البلاد (مصر) معرفة صحيحة . فقال : « لا ينبغى أن يظل ما تفيده فرنسا من فتح مصر قاصراً على الناحية السياسية أو الشئون التجارية ، بل يجب أن تفيد من ذلك الفتح أيضاً العلوم والمعارف . . . إن غرضنا الذى نهدف إليه هو أن نعرف بمصر ليس فقط أولئك الفرنسيين الموجودين بهذه البلاد ، بل نريد أيضاً أن نحمل هذه المعرفة إلى فرنسا وإلى أوروبا ، فقد ظلت حتى وقتنا الحاضر لا تعرف موارد هذه البلاد ، التى ذاع صيتها وثروتها ، وموقعها ووصفها الطبوغرافى نفسه معرفة كاملة صحيحة »

ثم أخذ تاليان يوضح الصعوبات التى عطلت بحوث الرحالين الأوروبيين الذين زاروا مصر قبل الاحتلال الفرنسى ، وهى صعوبات نشأت من تخوف أهل البلاد ، وعدم ثقتهم بالرحالين الذين لا يفهمون لغتهم ، ثم انصراف الحكام المستبدين عن تشجيع الأجانب الذين يريدون الرحلة فى بلادهم ، « وقد تغير ذلك كله الآن ، منذ أن دانت مصر لسلطان (الفرنسيين) فصار من السهل على (هؤلاء) أن يبحثوا عادات أهلها ، وأن يعرفوا على وجه الدقة حال مناخها ونوع منتجات أرضها وما عليه زراعتها وما يمكن إدخاله من تحسينات على هذه الزراعة . بل فى وسعنا مطمئنين أن نزور آثارها القديمة ، وأن نرقب بدقة وعناية تلك العجائب التى تبسطها الطبيعة أمام أنظارنا ، وبذلك يتسنى تصحيح تلك الأخطاء التى هى نتيجة الجهل بأحوال هذه البلاد ، أو كان منشؤها حماس المعجبين بها ومغالاتهم » .

وهكذا كانت مهمة هذه الصحيفة — كما وعد برنامجها الذى أعده تاليان — كشف القناع عن هذه البلاد ، وإبراز صورة صحيحة لها تمكن العالم الغربى من التعرف إليها وإدراك قيمة ما بها من موارد غنية وما كانت تضمه بين جوانبها من آثار قديمة وقد أكد تاليان هذا الغرض العلمى من إنشاء (لاديكاد) فقال « وسوف يكون لكل إنسان الحق فى أن ينشر فى هذه الصحيفة كل ما يأتى بفائدة من الناحية العلمية » ولا شك فى أن بحث المسائل العلمية وتبادل الرأى بين العلماء فى أمرها من شأنه أن يساعد على معرفة الحقائق العلمية وإذاعتها ، ولن تنشر الجريدة شيئاً من البحوث المقدمة للنشر إذا خرجت عن هذه الموضوعات العلمية ؛ ذلك بأن صحيفة (لا يكاد) ليست سوى « قاعة للمناظرات الحبية » ولا ينبغى أصحابها أن يجعلوا من صفحاتها ميدانا للتراشق والخصومة « فالفنون الجميلة حبيبة للحرية ، كما أنها من ألد أعداء الفوضى الخلقية »[1] .

---

(١) Ibid 18 ; Charles-Roux. 150 — 1

وعلى ذلك فقد كان من المنتظر أن تعمل الصحيفة بهذا البرنامج الذى نشرته ، فتضم صفحاتها كثيراً من البحوث العلمية « المستقلة » وطائفة من المسائل التى يتصدى العلماء لمناقشتها ؛ ولكنها اقتصرت على نشر جلسات المجمع العلمى إلى جانب مذكرات أعضائه ، أو موجز لبعض المذكرات والبحوث التى يلقيها الأعضاء فى جلسات المجمع إذا كانت هذه المذكرات والبحوث مهمة . ومع ذلك فقد ظلت جريدة (لاديكاد) ذات قيمة تاريخية وعلمية فريدة . وذلك لأن « أصول » المذكرات والبحوث التى ألقيت فى المجمع العلمى ونشرتها الجريدة ، سرعان ما اختفت من الوجود وأصبح العثور عليها متعذرا ، فكانت (الديكاد) وما تزال من أهم المصادر — إلى جانب أربعة مجلدات أخرى نشرت على حدة تحت عنوان « مذكرات عن مصر نشرت فى أثناء حملة بونابرت »[١] — التى يمكن استقاء كل ما يتعلق بنشاط المجمع العلمى وما ألقى من بحوث فى جلساته منها ، وتشاركها فى هذه الأهمية صحيفة (لوكوريه دوليجيبت) ، بفضل ذلك القدر اليسير الذى نشرته عن نشاط المجمع وبحوث أعضائه على نحو ما بينا[٢] .

وكانت (لاديكاد) تظهر فى كراسات صغيرة ، ولم يمكن إصدارها مرة كل عشرة أيام كما كان العزم ، بل انتهى الأمر بأنها صارت تصدر مرة كل شهر فحسب . وقد جمعت هذه الكراسات فى ثلاث مجلدات ظهر الأول منها فى ٢٩ فريكتدور السنة السابعة (١٥ سبتمبر ١٧٩٩) وأهدى إلى بونابرت ، وظهر المجلد الثانى فى ٢٧ فلوريال السنة الثامنة (١٦مايو ١٨٠٠) وأهدى إلى كليبر ، أما الثالث فقد ظهر فى ١٠ جرمينال السنة التاسعة (٣٠ مارس ١٨٠١) وأهدى إلى الجنرال منو ، وهؤلاء كانوا قواد الحملة الثلاثة[٣] .

ولا يسعنا ونحن بصدد الحديث عن الصحف التى ظهرت فى عهد الحملة إلا أن ننوه بصحيفة التنبيه Tambyeh - L'Avertissement ، تلك الجريدة التى عزم منو فى نوفمبر سنة ١٨٠٠ على إصدارها كوسيلة للترويج لحكومته وكسب صداقة المصريين واستمالتهم إلى تأييد حكومته ، ولكنه لم يفعل ، فظل مشروعها حبرا على ورق ولم تصدر الجريدة وقد سبق الحديث عن (التنبيه) عند الكلام عن منو وحكمه .

---

(١) Mem. Sur L' Egypte ... à Paris Par Didot Ans VII - XI; Charles-Roux 152

(٢) Canivet 21

(٣) Ibid 19

تلك كانت قصة الطباعة والصحف ، أحد مظاهر ذلك النشاط العلمى الواسع الذى حفظ التجربة الاستعمارية فى مصر من أن تصبح مغامرة عسكرية وسياسية فاشلة فحسب ، وأكسبها ذلك الطابع العلمى الذى خلد بعض آثارها . ولا جدال فى أن العلماء الذين حضروا إلى مصر وجابوا أنحاءها منقبين باحثين ، لا يبغون من دراساتهم العلمية سوى استكشاف هذه البلاد ، التى ظلت مغلقة دون العالم الغربى أجيالا عديدة ، قد تركوا آثارا أبقى على مر الزمن من انتصارات بونابرت أو « ابتكاراته » السياسية أو « مشروعات » منو أكبر دعاة الاستعمار الفرنسى فى مصر . وقد أدرك بونابرت — كما فعل كثير من بعده — أن إنشاء المستعمرة الناجحة أمر لا يكفى لتحقيقه إحراز النصر فى المعارك ضد البكوات المماليك ، وإخماد مقاومة أهل البلاد ودفع هجوم العدو عن حدودها ؛ واعتقد كلاهما أن كل تنظيم إدارى واقتصادى ومالى لا يعتمد على معرفة البلاد التى جاء الفرنسيون ليحكموها لن يأتى بثمرة طيبة ولا يمكن أن يضمن له البقاء .

وكان هذا الإدراك الصحيح سبب إقبالهما على تأييد جهود العلماء وتشجيعهم على المضى فى بحوثهم حتى سار الغزو العسكرى والفتح العلمى جنباً إلى جنب ، منذ أن وطئت قدما بونابرت أرض مصر إلى أن قضى كليبر نحبه . وقد تقدم كيف كان للقائدين اليد الطولى فى تنظيم نشاط العلماء وتوجيه أعمالهم بصورة مكنتهم من إنجاز قدر عظيم من البحوث والاستكشافات العلمية خلال العامين الأولين من الاحتلال الفرنسى . ولكن قصة هذا النشاط العلمى سرعان ما تغيرت عندما تسلم منو قيادة الحملة العامة . ومع أن منو كان من أكبر أنصار مشروعات بونابرت الاستعمارية فى الشرق ، ومن أشد الفرنسيين تمسكا بضرورة بقاء مستعمرة مصر الجميلة فى حوزة فرنسا ، فقد فاته أن العلماء هم كالجيش سواء بسواء الدعامة التى يستند عليها صرح هذه المستعمرة الناشئة فكانت الأيام التى قضاها العلماء فى مصر بعد أن أصبح منو قائد الحملة العام أياما قاحلة حجر فى أثنائها لأسباب عدة على نشاط العلماء العلمى ، ولاقى هؤلاء على يد منو كل عنت وإرهاق حتى أتيحت لهم الفرصة بعد لأى وعناء للعودة إلى أوطانهم مع فلول جيش الشرق المنهزم .

وقصة هؤلاء العلماء مع منو صفحة حالكة السواد فى تاريخ هذا القائد الذى اعتقد فى نفسه الكفاية الحربية ، وهو الذى لم يشهد معركة كبيرة قط غير تلك التى لقى فيها الهزيمة على أيدى الإنجليز فى كانوب ، وصور له الخيال أنه رجل الإدارة والحكم ، وهو الذى كان يحلو له أن يكدس أوراق المشروعات على مكتبه . فيغرق بين أكداسها

حتى أذنيه ، ثم تسفر دراساته عن إصدار عدد عظيم من الأوامر والتعليمات التافهة ، ولا يدرى الطريق إلى تنفيذ شىء من هذه المشروعات « المجيدة النافعة » بصورة جدية ، أو هو لاينفذ شيئاً منها ؛ وأقض مضجعه تغلب الوسواس على ذهنه ، فساورته الشكوك فى نوايا معظم زملائه القواد وسائر مواطنيه ، ولم ينج العلماء من شرور وساوسه ومخاوفه ، واعتقد أنه مشجع العلم وناشر لواء الحضارة والمعرفة ، بينما دعاه تردده وعدم إدراكه لقيمة مايفعله العلماء إلى إبداء الرغبة فى مساعدة هؤلاء على المضى فى بحوثهم فى أول الأمر ، ثم اعتبارهم من « الأفواه العاطلة » التى يجب التخلص منها ؛ والإمعان فى امتهانهم وإساءة معاملتهم بعد ذلك ، حتى إنه هددهم بإطلاق القنابل عليهم إذا حاولوا دخول الإسكندرية دون إذنه ، كما سيأتى ذكره عند الكلام عن آخر مظهر من مظاهر نشاط العلماء قبل رحيلهم ورحيل الحملة الفرنسية من الديار المصرية .

***

منو ورحيل العلماء :

فقد رغب العلماء الذين استدعاهم كليبر إلى القاهرة وقت إبرام اتفاق العريش ، ثم شاهدوا نقض هذا الاتفاق من جانب الإنجليز ، وحضروا انتصار كليبر على العثمانيين فى معركة هليوبوليس ، أن يستأنفوا بحوثهم العلمية . واقترح أعضاء لجنة العلوم والفنون القيام « بحملة علمية » من الطيبائيد إلى النوبة وهضبات الحبشة ، للتنقيب عن الآثار وزيارة المعابد القديمة التى اعتقدوا أن هذه الجهات تضم منها عدداً يفوق كثيراً ما يوجد من آثار ومعابد فى الصعيد المصرى ؛ وعقدوا آمالا عظيمة على حماية مراد بك لهم فى أثناء رحلتهم بالصعيد ، بعد أن عقد مراد مع كبيرهم كليبر معاهدة التحالف والصداقة المعروفة . غير أن وفاة كليبر ما لبثت أن عطلت قيامهم ، حتى إذا تسلم منو القيادة تجدد النشاط ، وأظهر منو كل استعداد لإجابة رغائبهم ، وأصدر أوامره فعلا بقيام هذه « الحملة » . ولكنه سرعان ما نقض أوامره ، ثم ظل خلال ثلاثة شهور بأكملها يصدر تارة الأمر برحيلها ، ويلغى تارة أخرى هذا الأمر ، وهكذا دواليك حتى أيقن العلماء أن لا أمل فى الرحيل فتفرقوا . وهكذا أخفق مشروع علمى عظيم النفع والأثر ، لأن منو على حد قول مؤرخى الحملة — لم يكن الرجل الذى يسعه التفكير فى مثل هذه المشروعات الجليلة أو يستطيع إدراك قيمتها [1] .

---

(١) Reybaud VIII 91

على أن هؤلاء العلماء الذين أبطل تردد منو وعجزه مشروعهم ما لبثوا أن قرروا متابعة نشاطهم العلمى فى ميـــادين أخرى ، فحصل (روزيير) و (كوتيل) على إذن بالذهاب مع (قافلة الطور) إلى شبه جزيرة سينا لـكشف جبل سيناء ووصفه ؛ واعتزم لوبير (المهندس) وكوتيل كذلك ، وشامبي وفوربيه وجيوفرى سنت هيلير زيارة آثار منف ، ووضعوا تقريراً مسهباً عن أعمالهم فى هذه المنطقة الأثرية (١) . وكان من ضروب النشاط القليل الذى تم فى هذه الآونة قيام مارتان بعمل استكشاف فى بحيرة (موريس) بالفيوم (٢) ؛ كما وضع (روزيير) بحثاً عن القصير ؛ وديبوا إيميه عن العبابدة ، ومارسيل عن الجغرافيين العرب ، وجيرار عن مدينة طنطا وسكانها (وقد نشرت هذا البحث الأخير جريدة (لوكوربيه دوليجيبت) (٣) . وقام فريان Friant برحلة إلى برج العرب ، وأمكنه أن يعثر على بعض الآثار ، فنشط منو — فى فترة من فترات حماسه القليلة النادرة — وقرر إيفاد لجنة من العلماء لزيارة هذه الآثار ووقع اختياره على المهندسين لوبير وشابرول ولانـكريه لهذه الغاية ، وكان هؤلاء قد عادوا من جولة فى رشيد والبحيرة ، فغادروا الإسكندرية فى ٢٣ يناير ١٨٠١ بحراسة الضابط مارتينيه Martinet وسلـكوا طريقا يمر بحذاء منخفض مريوط الشمالى إلى مرتفعات مريوط ، ورسموا خريطة لهذا الطريق ، وكان فى نيتهم السير حول منخفض مريوط نفسه ، ولـكنهم لم يفعلوا ذلك (٤) .

وكان ذلك كل ما حدث من نشاط علمى فى عهد منو بطوله ، وهو نشاط ولا شك ضئيل إذا قيس بما تم من بحوث علمية عظيمة فى عهد سلفيه فى القيادة . وفضلا عن ذلك فإن مبعث هذا النشاط الضئيل كان حماس العلماء أنفسهم ، ولم يبد منو أى اهتمام بهذه الناحية العلمية ، بل كانت شئون الإدارة والحـكم شغله الشاغل خلال هذه الشهور الأولى القليلة ، والتى امتازت بالهدوء قبل تحرج الموقف وإطباق جيوش الإنجليز والعثمانيين على البلاد من كل جهة تقريبا (٥) . بل إن بعض العلماء الذين كانوا يريدون القيام ببحوث أخرى فى الواحات كرافينو دليل Raffeneau-Delile ، أو التنقيب عن المخطوطات القديمة فى الأديرة ، كما أراد أن يفعل مارسيل ، لم

---

(١) Galland II 243 — 61

(٢) Martin II 155 — 6

(٣) Reybaud VIII 317

(٤) Galland II 223 — 7

(٥) Reybaud VIII 92

يستطيعوا ذلك لانصراف منو عن تأييدهم . ولعل أكبر مشروعات منو العلمية فى تلك الفترة كان رغبته فى تأسيس (مكتبة أهلية) فى القاهرة ، تجمع شتات الكتب الموجودة فى دار المجمع العلمى ، وتلك التى تركها بونابرت نفسه فأصدر قراراً بذلك فى ١٦ يوليو ١٨٠٠ وعهد إلى فورييه بعمل قائمة بهذه الكتب ، وأنجز فورييه هذه المهمة ، وكان ذلك كل ما أسفر عنه عملياً مشروع تأسيس المكتبة الأهلية (١) .

وواقع الأمر أن استيلاء منو على منصب قيادة الحملة العامة فى مصر كان مؤذنا بتعطل جهود العلماء ووقفها ، وعندما نزل الإنجليز على الشواطىء المصرية ، وهزموا منو وجيش الشرق فى موقعة كانوب (٢١ مارس ١٨٠١) ، قضى تماما على كل أمل لدى العلماء فى إمكان مواصلة جهودهم العلمية ، ومن ذلك الحين بدأ عهد التراخى والانتظار ، وبطل كل نشاط ، فأوقف المجمع العلمى بالقاهرة جلساته ، وعكف قليلون من العلماء فى أثناء حصار القاهرة على إنجاز ما كان لديهم من بحوث كانوا قد بدءوا فى إعدادها ، كما ظلت المطبعة الأهلية التى نقلت إلى القلعة تصدر بعض الأوامر والمنشورات وكان من الطبيعى فى هذه الظروف أن يرغب العلماء فى مغادرة القاهرة والذهاب إلى الإسكندرية استعدادا للرحيل إلى فرنسا . فكانت هذه الرغبة فى الذهاب إلى الإسكندرية مثار كل مانشأ بينهم وبين منو من خلافات ومشاكل ، تألفت منها عناصر تلك المأساة التى دمغت أواخر أيام منو فى مصر بطابع المهانة والضعة .

فقد خشى العلماء مغبة البقاء فى القاهرة وسط الاضطرابات السائدة بها ، وعندما كان بليار نفسه وسائر القواد يتوقعون قيام القاهريين بالثورة فى أى وقت ، وأراد العلماء أن يحفظوا ثمرات جهودهم من التلف ، وهم الذين شاهدوا هجوم القاهريين على المجمع العلمى والمطبعة الأهلية إبان الثورة السابقة خصوصا (ثورة القاهرة الثانية) ؛ كما أنهم ، وقد تعطلت أعمالهم بسبب حرج الموقف فى مصر ، كانوا يريدون انتهاز الفرصة للعودة إلى أرض الوطن على أول سفينة يمكنها اختراق نطاق الحصار المضروب على الإسكندرية ، حتى يتسنى لهم نشر بحوثهم العلمية فى أمان وطمأنينة . فصمموا على مغادرة القاهرة ، ولكن منو لم يشأ أن يقدر هذه الاعتبارات حق قدرها ، فاشتد غضبه لأنه لا يريد — كما قال — أن يدخل الإسكندرية أناس لا يفيد وجودهم فى الدفاع عنها ، بل يزيد من صعوبات الحكومة المحاصرة ، لإضطرارها إلى إطعام هذه « الأفواه العاطلة » ، فأمر أن يوضع جميع العلماء فى قلعة القاهرة ، وبادر بالقبض

(١) Champollion-Figeac 9

على نفر قليل من زملائهم الذين كانوا وقتئذ بالإسكندرية يقومون ببعض البحوث التى كلفهم بها منو نفسه وأرسلهم إلى الرحمانية .

وعلى ذلك فقد ظل علماء القاهرة مسجونين بقلعتها ، حتى إذا اشتدت وطأة وباء الطاعون أصيب كثيرون بالطاعون وهلك عدد منهم ، وعندئذ أعاد العلماء الكرة يطلبون الذهاب إلى الاسكندرية ، ولم يسع بليار إزاء إلحاحهم الشديد إلا الموافقة على خروجهم من المدينة الموبوءة ، فغادروا القاهرة بطريق النيل فى ٦ أبريل ١٨٠١ ، ووصلوا الرحمانية بعد خمسة أيام ، ولكن لاكروا Lacroix قومندان الرحمانية منعهم من الرحلة إلى الاسكندرية ، وكان عنيفا فى معاملتهم وأهانهم ، وأستعد العلماء للعودة إلى القاهرة ، ولكن ظهور كفاليه Cavalier والهجانة أمام حصن الرحمانية لم يلبث أن أنقذهم ، فاستطاع العلماء الخروج من الرحمانية ، وتولى كفاليه حراستهم حتى وصلوا سالمين إلى الاسكندرية مساء يوم ١٤ أبريل ، بعد أن تلفت بعض « مجموعات التاريخ الطبيعى » التى أحضرها العلماء معهم[١] .

وما إن علم منو بوصولهم حتى غضب غضبا عظيما ، وصمم على عدم دخولهم الاسكندرية ، وأمر بأن يقضوا أربعين يوما فى « الحجر الصحى » ، ومضى (ليروج) Lerouge أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون نحبه مصابا بالطاعون أثناء الحجر الصحى ، وسمح للعلماء بعد انقضاء مدة هذا الحجر بالدخول إلى الإسكندرية ، وألح هؤلاء على منو أن يعمل على إرسالهم إلى فرنسا ، فوافق منو بعد صعوبات كثيرة على ذلك فى ١٣ مايو ، ولكنه اشترط على العلماء أن يتركوا بين يديه قبل رحيلهم كل ما كان لديهم من مذكرات ومخطوطات ورسوم ومجموعات علمية ، ولما عارض العلماء فى ذلك ، اكتفى منو بأن يتركوا الخرائط والمذكرات والبحوث المتعلقة بمساحة الأراضى وقياس سطوحها . ولما كان منو قد عمد منذ استلامه قيادة الحملة العامة إلى بذر بذور الانقسام بين العلماء — جريا على عادته خوفا من حدوث أى اتفاق أو تكتل ضده — ونجح فى استمالة العلماء المهندسين إليه ، وصار هؤلاء أكثر خضوعا واستسلاما له من زملائهم ، فقد وافق العلماء المهندسون على طلب منو الأخير . ثم لم يكتف هو بذلك بل طلب من العلماء ، وكان عدد هؤلاء من أعضاء لجنة العلوم والفنون ثمانية وأربعين عالما ، أن يعلنوا كتابة أنهم لايحملون ضمن متاعهم

---

(١) Reybaud VIII 283 — 6

أشياء تتعلق بالموقف العسكرى والسياسى بمصر ، كما جعلهم يوقعون على (محضر) ببيان كل ما كانوا يحملونه .

وفى ٥ يونيه ١٨٠١ أذن لهم بمغادرة الاسكندرية وأعطاهم (جوازا للمرور) وخصص الأبريق (لوازو) L'Oiseau لنقلهم إلى فرنسا فانتقل العلماء فى مساء اليوم نفسه إلى السفينة المعدة لهم ، وكانت ذات حمولة بسيطة ، وتحمل أربعة مدافع فحسب بقيادة الكابتن (مورا) Murat . ولما كان العلماء يخشون من أن يمنع الانجليز عبورهم ، فقد طلبوا إلى منو أن يوفد معهم « مفاوضا » إلى أمير البحر الانجليزى للاتفاق معه على عبور العلماء بسلام إلى فرنسا ، ولكن منو غضب من هذا الرجاء ، وأصر على عدم الحديث معه فى هذه المسألة ، ومع أن (مورا) أقلع بسفينته مرتين محاولا الخروج من الميناء ، فقد اضطر إلى العودة والانتظار بناء على أوامر منو المشددة إليه بعدم الرحيل حتى يأذن له ، وهكذا أرغم العلماء على الانتظار على ظهر سفينتهم الضيقة فى الميناء خمسة وثلاثين يوما

وكان فى أثناء انتظارهم الطويل فى الميناء أن ذاع خبر تسليم بليار فى القاهرة ، وعرفت شروط هذا التسليم . ومنها تلك المادة الحادية عشرة التى تنص على أنه فى وسع أعضاء لجنة العلوم والفنون أن ينالوا شروطا مماثلة لما جاء فى صلب اتفاق التسليم ، متعلقا برحيل جنود حامية القاهرة إلى أوطانهم ؛ وعقدوا آمالا عظيمة على إمكان الاستفادة من هذا الاتفاق لتسهيل مسألة عبورهم بسلام ، وعدم تعرض الأسطول الانجليزى لهم ، فاختاروا من بين زملائهم العلماء كورانسيز Corancez ودليل Delille وجيوفرى سنت هيلير ، لمقابلة منو حتى يأذن لهم بالسفر ويرسل « مفاوضا » إلى الانجليز وقابل هؤلاء منو مرات ثلاثا وتظاهر منو بالموافقة ، بل سلم جيوفرى سنت هيلير خاتما هدية منه إلى مدام بونابرت .

ولكنه لم يرسل مفاوضاً للانجليز ، واكتفى بعد لأى وعناء بإصدار أمره إلى لوروى Le Roy مدير البحرية فى ١١ يوليو بأن يسمح للابريق (لوازو) بمغادرة الميناء فى الوقت الذى يراه قبطانها مناسباً على شريطة أن تخطر القيادة العامة بخروج (لوازو) فلا يكون خروجها مفاجئاً ، وذلك بسبب حالة الحصار القائمة . ولكن هذا الشرط الأخير ما لبث أن أثار مخاوف العلماء فقابل فورييه والكابتن مورا الضابط ريشيه Richer قومندان الأسلحة يستفسران منه عن موعد خروج السفينة الذى يصح الاتفاق عليه ، فطمأنهم (ريشيه) إلى أن فى وسع (لوازو) أن تخرج من الميناء

فى أى وقت تشاء ، وفى وضح النهار ، وذلك حسب ما لديه من أوامر صريحة فى هذا الشأن ، فأعلماه أن (لوازو) سوف تغادر الميناء يوم ١٢ يوليو . وفى مساء ١١ يوليو بدأت الاستعدادات فعلا للرحيل فى صباح اليوم التالى ، وعرف بذلك أيضاً (لوروى) مدير البحرية . ولـكن الرياح الشديدة عطلت خروج السفينة فلم تستطع الإقلاع إلا فى يوم ١٥ يوليو ، وما إن اجتازت (لوازو) ممرات الميناء حتى طلب قائدها من العلماء أن يتخلصوا من خطاباتهم الخاصة خوفاً من وقوعها فى يد العدو ، فيعرف الإنجليز حقيقة الموقف فى الإسكندرية وشدة وطأة الحصار عليها ، فألقيت الرسائل فى البحر .

غير أن إحدى قراويت الإنجليز (القرويت سينثيا Cinthia) سرعان ما اعترضت (لوازو) فى سيرها وأطلقت عليها قنابلها ، فاضطرت إلى التوقف ، ثم اتفق قائدا المركبين مورا والـكابتن ديجز Diggs (قائد سينثيا) على عرض مسألة عبور العلماء على اللورد كيث Keith أمير البحر الإنجليزى ، فأبحرت السفينتان إلى أبى قير ، وقابل فوربيه اللورد كيث على ظهر البارجة (فودريانت Foudrayant) ، وبسط وجهة نظر العلماء بصدد المادة الحادية عشرة من شروط تسليم القاهرة وانطباقها عليهم ، فرفض كيث أن يأخذ بهذه النظرية بدعوى أن هذه المادة لا يمكن انطباقها على العلماء وحدهم دون حامية الإسكندرية وأن الإسكندرية فى حالة حصار ولا يستطيع لذلك أن يأذن لأحد بالخروج منها ، وفضلا عن ذلك فإن منو قائد الجيش العام لم يخبر الإنجليز بعزم العلماء على الخروج من الإسكندرية . ومع أن كيث أكرم وفادة (فوربيه) ودعاه إلى الغداء معه ، إلا أنه صمم على عودة (لوازو) إلى الإسكندرية ، ولم يفد شيئاً تدخل السير سدنى سميث وبعض الضباط الإنجليز الآخرين ، الذين رغبوا فى مساعدة العلماء وإقناع اللورد كيث بالموافقة على عبورهم .

وأراد سدنى سميث أن يخفف من وقع هذه الأنباء غير السارة على العلماء فانتقل مع (فوربيه) وقابل العلماء ، وكان من أحاديثه معهم أنه لو حدث خروجهم وقت قيادته فى العام الماضى لما تردد سدنى سميث فى السماح لهم بالمرور بسلام . ثم عادت (لوازو) بصحبة القرويت الإنجليزى إلى الإسكندرية ، وبدأت فى اجتيـاز ممرات (أو مداخل) الميناء فى ١٦ يوليو . ولـكنه ما اجتازت (لوازو) نصف المسافة بين مرابط ، وخط الفرقاطات الفرنسية الداخلى ، حتى منعت الفرقاطة الفرنسية (جوستيس Justice) سفينة العلماء من التقدم ، وأمرت (لوازو) بالوقوف بصورة تمكن

(جوستيس) من تصويب مدافعها عليها . ثم طلب قائدها من الكابتن مورا الإبحار والخروج من الميناء فى مدة ربع ساعة وإلا أغرق المركب . ورفض القائد أن يتسلم رسالة من اللورد كيث كان فوريبه قد أحضرها إلى منو من أمير البحر الإنجليزى . ولقيت (لوازو) صعوبات عدة عند محاولتها الخروج من الميناء لعدم وجود أدلاء يرشدونها إلى الطريق الذى تستطيع أن تسلكه حتى تجتاز ممرات الميناء ؛ وانقضت المهلة ،ثم أعطيت (لوازو) مهلة عشر دقائق أخرى ، وشاهد العلماء من على جسر المركب الجنرال منو يتجول على الشاطىء ، ثم استطاعت (لوازو) بعد متاعب كثيرة وعند حضور (الدليل) اجتياز الممرات والخروج إلى عرض البحر .

وعندئذ أحضر أحد الضباط خطابا من منو إلى العلماء على ظهر السفينة (لوازو) بتاريخ ١٦ يوليو ١٨٠١[١] يوبخهم فيه على خروج سفينتهم فى وضح النهار ، بدلا من الخروج تحت جناح الظلام ، وعلى رفعهم الراية الإنجليزية العمل الذى يستحق من أجله مورا قائد (لوازو) الإعدام شنقاً ، بدلا من رفع العلم الفرنسى ، أو دون رفع أى علم على سفينتهم ، ويؤنبهم على عدم الدفاع عن شرف فرنسا بدلا من الارتماء فى أحضان العدو ، ويقول لو أنهم لم يفعلوا ذلك لأمكنه أن يستقبلهم كفرنسيين شرفاء عند عجزهم عن الإفلات من قبضة العدو ، واضطرارهم إلى العودة إلى ميناء الإسكندرية وإزاء هذه الإهانة الجديدة لم يجد العلماء مناصا من أن يردوا على قائد الحملة العام رداً قاسياً فى اليوم نفسه[٢] ، يذكرونه بأوامره السابقة وإذنه لهم بالخروج ويهددون بكتابة تقرير مطول عن كل تلك الإهانات التى تعرضوا لها ، ورفض منو إرسال مفاوض للانجليز أولا ، ثم إرغامهم ، بعد تهديدهم بإلقاء القنابل على سفينتهم ، على الخروج إلى عرض البحر والوقوع فى قبضة العدو .

ولم يكن العلماء أسعد حظاً فى هذه المرة عن سابقتها ، فقد اعترضهم القرويت الإنجليزى سينثيا مرة ثانية ، واضطر فوريبه وثيفنان Thevenin والكابتن مورا إلى مقابلة الكونتر أميرال بيكرتون Bikerton على ظهر البارجة (أجاكز) Ajax ، ثم تقرر إحالة المسألة على اللورد كيث ، وزارهم السير سدنى سميث ، وأعطاهم كتاب توصية إلى اللورد كيث ، وذهبت (لوازو) إلى أبى قير ، وتكررت المأساة ، وعنف كيث فى هذه المرة فى مقابلة فوريبه وثيفنان ، وأصر على عودة (لوازو) إلى

---

(١) Villiers 298; Ibid 298 — 9

(٢) Villiers 299 — 301 ؛ Reybaud VIII 300 — 3

الإسكندرية ، وساء كيث أن يحاول منو — على حسب اعتقاد أمير البحر الإنجليزى — إرغامه على فعل شىء لا يريده . ووعد بكتابة خطاب إلى منو ، وصرف فوربيه وزميله على أن يقابلاه فى موعد آخر ، ولكنه رفض مقابلة فوربيه وثيفنان ومورا عندما حضر الثلاثة حسب الموعد ، واكتفى بأن أعطاهم رسالة إلى منو ثم أحالهم على (بيكرتون) للتفاهم معه بدعوى أن لدى بيكرتون تعليمات مفصلة فيما ينبغى عليه فعله معهم .

وأما هذه التعليمات التى عرفت فى اليوم التالى (١٩ يوليو) فكانت تقضى بإنزال العلماء إلى البر فى أقرب مكان من الإسكندرية إذا أصر منو على عدم دخولهم إلى الإسكندرية ، ثم إحراق مركبهم (لوازو) وإغراقها . وعهد إلى القرويت (سينثيا) بالذهاب إلى الإسكندرية للمفاوضة . وفى ٢٠ يوليو حاول قائدها (ديجز) إقناع السلطات الفرنسية بالميناء بالسماح للإبريق الفرنسى بالدخول إلى الأسكندرية ، وعرفت نتيجة المفاوضة فى اليوم التالى ، وهى أن منو أصدر أوامره — على حد قوله — بدخول الإبريق إلى الميناء بيد أن العلماء الذين خبروا تردد منو وشاهدوا مدافع الفرقاطة (جوستيس) مسلطة على سفينتهم خشوا من أن يكون هذا الجواب « المبهم » شركا نصبه منو لإلحاق الأذى بهم ، فطلبوا من (بيكرتون) أن يستأنف المفاوضة مرة أخرى للحصول على جواب قاطع ، ولكن بيكرتون رفض إجابة ملتمسهم ، وطلب إلى ديجز تنفيذ مالديه من تعليمات ، أو بقول آخر إنزال العلماء إلى البر وإشعال النار فى سفينتهم فأحدث هذا القرار هرجا ومرجا شديدين بين العلماء على ظهر (لوازو) ، واستبد اليأس بالكابتن مورا ، وكان أكثر مايخشاه أن تمتنع الحكومة الفرنسية التى ضمنت سفينته ، من أن تعوضه أو تعوض أصحابها شيئاً عن فقدها إذا أحرقها الإنجليز ، وهدد فى أول الأمر بالذهاب بسفينته إلى الإنجليز ، ثم وعد بعد ذلك بأن يسمح لأحد ضباطه بقيادة السفينة والإبحار إلى الإسكندرية ، على شريطة أن يتعهد العلماء متضامنين بدفع قيمة التأمين لأصحابها إذا رفضت الحكومة الفرنسية دفع هذا التأمين ؛ فوافق العلماء على ذلك بعد نقاش حاد طويل .

وبينما كان العلماء مايزالون فى هرجهم ومرجهم حضر لزيارتهم السير سدنى سميث ، وأخذ فى تهدئتهم ، وعرض عليهم مقابلة اللورد كيث مرة ثالثة على أن يذهب بنفسه معهم ، لعله يستطيع أن يثنيه عن عزمه ، وذلك إذا أصر العلماء على عدم العودة إلى الإسكندرية . غير أن الكابتن (مورا) وثيفنان كان من رأيهما العودة إلى الإسكندرية وإزاء هذا الانقسام قرر العلماء أن يخاطروا جميعا بالعودة ، وأن يمنعوا كل من تحدثه

نفسه بترك السفينة من فعل ذلك ، وحاول ڤيفنان مغادرة (لوازو) وحاول (فوربيه) منعه ، وألقى عديدون من ملاحى السفينة بأنفسهم إلى البحر وساد الهرج والمرج ، ثم اشتدت الجلبة والضوضاء عندما ارتفع الصياح من كل جانب « أن المركب يحترق » .
واعتقد السير سدنى سميث الذى شهد هذه الحوادث أن هناك من ينتوى حقيقة إغراق المركب ، وغادر (لوازو) ، وكان فى هذه اللحظة أن أحضرت القرويت سينثيا رسالة من منو يبدى فيها ضجره من عدم عودة (لوازو) إلى الإسكندرية ، على الرغم من انتظاره لها . فهدأت هذه الرسالة من روع العلماء ، ولـكنه لما كان سدنى سميث قد ذهب كى يتفاوض بشأنهم مع اللورد كيث ، فقد فضل العلماء انتظار نتيجة مسعاه .
وظلوا أربعة أيام فى حراسة القرويت الإنجليزى ، ولـكن كيث ظل مصمما على عودة (لوازو) إلى الإسكندرية ، وعندئذ عرض سدنى سميث على العلماء أن يقبل فى ضيافته كل من يرفض العودة منهم ، وقبل هذه الدعوة كاستيكس Casteix وبيلون Pelon وثيفنان ، وفى ٢٧ يوليو دخلت (لوازو) ميناء الإسكندرية ، ورحب منو هذه المرة بقدومهم ، ونزل العلماء إلى البر بعد خمسة أيام فى الحجر الصحى ، وضمهم منو إلى صفوف فرقة من (الحرس الوطنى) كان قد انتهى من إنشائها وتنظيمها وقتئذ[١] .

وبقى العلماء بالإسكندرية إلى وقت تسليمها ، وكان لهم موقف محمود فى الدفاع عن ثمرة جهودهم العلمية ، عندما طلب الإنجليز فى المادة السادسة عشرة من الشروط التى عرضوها على منو أن يسلم أعضاء المجمع العلمى المصرى ولجنة العلوم والفنون كل مالديهم من أوراق ومذكرات ورسوم ومجموعات علمية (فى التاريخ الطبيعى) ، إلى ماجمعوه من آثار (بما فى ذلك حجر رشيد) . فقد عارض العلماء فى ذلك ، وكتبوا إلى منو خطابا شديد اللهجة قالوا فيه إن القائد العام الفرنسى إذا كان يحق له أن يبت فى مصير الجيش والمستعمرة ، ويتصرف فى مهمات الجيش وعتاده ، فإنه ولاشك يتجاوز سلطاته إذا اعتقد أن من حقه كذلك أن يفصل فى ثمرة جهود العلماء التى هى ملـكهم الخاص.

ومما يذكر لمنو بالثناء أنه أقر العلماء على وجهة نظرهم ، على الرغم من كبريائه وغروره ، ووعد بأن يطلب من الإنجليز تعديل هذه المادة . ولـكنه فشل فى مسعاه وأصر الإنجليز على التوقيع على شروط التسليم بأكملها بما فيها المادة السادسة عشرة . وعندئذ أوفد العلماء ثلاثة من زملائهم لمقابلة السير هيلى هتشنسون للتفاهم معه ، وكان هؤلاء جيوفرى

---

(١) Reybaud VIII 287 — 316 ; Villiers 294 — 305 ; Martin II 227 — 9 ; Rigault 362 — 5

سنت هيلير ، وسافينى ، ودليل ، فقوبلوا فى المعسكر الإنجليزى ببرود . ولما لم يقتنع الإنجليز بوجهة نظرهم واعتبار مالديهم من مذكرات ورسوم وغير ذلك من ممتلكاتهم الخاصة ، أعلن هؤلاء عزمهم على إتلافها وإشهاد أوروبا بل العالم أجمع على أفعال الإنجليز الذين اضطروهم بسبب قسوتهم التى لا مسوغ لها إلى إتلاف هذه الآثار العلمية الثمينة . فوعد هتشنسون بالنظر من جديد فى هذه المسألة ، كما وعد بإرسال رده إليهم مع هاملتون Hamilton أحد رجاله .

وكانت الفكرة الذائعة أن هاملتون كان المسئول عن إصرار هتشنسون على سلب العلماء ثمرة جهودهم ، لرغبته فى الاستيلاء على مالديهم من مذكرات وبحوث علمية . وضم منو صوته إلى صوت العلماء الفرنسيين ، فاحتج فى رسالة بعث بها إلى القائد الإنجليزى فى أول سبتمبر ١٨٠١ قال فيها إن تلك البحوث والمجموعات العلمية لا تملكها حكومة الجمهورية الفرنسية ، وإنما هى من ممتلكات العلماء الخاصة ، بل فى اعتقاده أن حكومة الجمهورية لا تملك من هذه الأشياء سوى تابوتين كان قد أصدر أوامره بإرسالها إلى فرنسا . وأما فيما يتعلق بالتماثيل فإن فريان يمتلك اثنين منها كان قد عثر عليهما فى أثناء تنقيبه عن الآثار بالإسكندرية على نفقته الخاصة . وهذا بينما اشترى العلماء مالديهم من مخطوطات عربية وقبطية بأموالهم الخاصة[١] . وناضل منو طويلا فى سبيل الاحتفاظ بحجر رشيد ، ولكن دون طائل وعندئذ قرر منو تسليم الحجر إلى الانجليز « حيث أن (هؤلاء) أكثر قوة وأشد بأسا ويصر قائدهم على أخذه »[٢] .

وأما العلماء فقد أصروا على عدم تسليم ما كانوا « يملكون » ، بل انبرى جيوفرى سنت هيلير يقول عندما جاء هاملتون يعلن إلى العلماء تشبث هتشنسون بتنفيذ المادة السادسة عشرة من شروط التسليم : « كلا ! نحن نرفض أن نطيع هذه الأوامر . إن جيشكم لن يدخل الاسكندرية إلا بعد يومين ، وهذه مدة كافية ولاشك لأن نتوج جهادنا ببذل هذه التضحية الأخيرة ، وعندئذ يمكنكم أن تفعلوا بأشخاصنا ماتشاءون . كلا ! إنى أكرر لك القول بالرفض ، ولن يقول أحد بعد ذلك إننا سلمنا بهذه التضحية عن طيب خاطر ، فنحن سوف نحرق بأنفسنا ما معنا من كنوز . إنكم تنشدون الشهرة والمجد . إذن فعليكم أن تتدبروا ما سوف يسجله التاريخ من ذكريات

---

(١) Rousseau 423

(٢) Ibid 424, 428

عندما يقول إنكم أيضاً قد أحرقتم مكتبة أخرى بالإسكندرية » [١] . وكان جيوفرى سنت هيلير يشير فى عبارته الأخيرة إلى أقصوصة حريق مكتبة الإسكندرية القديمة على أيدى العرب ، وكانت هذه الإشارة وحدها كافية لردع الإنجليز ومندوبهم ، فأكد هاملتون للعلماء صدق نياته فى الوساطة لهم لدى هتشنسون . وأفلحت وساطة هاملتون ، ووافق هتشنسون بعد عناد لم يطل أمده على أن يترك للعلماء ثمرة جهودهم وفى ٢٧ سبتمبر ١٨٠١ غادر أعضاء لجنة العلوم والفنون أرض مصر إلى فرنسا ، ينقلون معهم مذكراتهم وبحوثهم ورسومهم ومجموعاتهم العلمية والأثرية [٢] ، وكل تلك الدراسات التى ساعدت فيما بعد على صنع (خريطة مصر) وإصدار (كتاب وصف مصر) ، تلك الموسوعة الخالدة .

---

(١) Reybaud VIII 421

(٢) Villiers 324

الفصل السابع

نهاية منـــو

خاتمة القول :

كان منو فى طليعة الجنود الزاحفين على الإسكندرية بعد نزول جيش الشرق إلى الأراضى المصرية ، وكان آخر من غادر البلاد فى الظروف التى سبق ذكرها ؛ وقد تقدم كيف انتابته الهواجس واستبد به القلق فى أخريات أيامه بالإسكندرية حتى مرض واشتدت به العلة ، واضطر (لارى) كبير جراحى الحملة أن يلازمه فى غرفته طوال الرحلة من الإسكندرية إلى طولون . وكان بفضل هذه العناية أن أبل منو من مرضه . ودخل منو طولون على ظهر السفينة ديدون Didon ، التى نقلته من الفرقاطة الإنجليزية ديانا إلى الميناء ، وقضى مدة الحجر الصحى فى معزل سانت ماندرييه Saint-Mandrier ولم تعاوده العلة[١] .

ومع أن منو كان قد شفى تماما ، فقد فضل بعد خروجه من المعزل البقاء فى طولون ، بدعوى أنه كان لايزال مريضا ، ولا يستطيع لذلك تحمل مشقات السفر الطويل إلى باريس . والسبب فى ذلك أنه أراد البقاء بعيداً عن أعدائه الذين علم بوجودهم فى باريس ، فضلا عن أنه يريد الاطمئنان قبل ذهابه إلى العاصمة إلى أن القنصل الأول لم يتأثر بمساعى الجنرال رينييه وزملائه ، ولم يصغ لاتهاماتهم أو يحنق على قائد الحملة الذى أضاع مستعمرة الفرنسيين الجليلة فى مصر ، على نحو ماقال أعداؤه[٢] . وكان هؤلاء منذ وصولهم إلى أرض الوطن قد أثاروها حرباً شعواء على منو ، يبغون تحطيم سمعته تحطيما ، انتقاما مما فعله منو عندما أرغمهم على مغادرة الإسكندرية فى الظروف التى تقدم ذكرها[٣] .

فقد استطاع الجنرال رينييه أن يفلت على ظهر الأبريق الفرنسى لودى Lodi من

---

(١) Reybaud VIII 424—5

(٢) Martin II 293 — 4

(٣) Reybaud VII 12 — 22 ؛ Ibid 207 — 8

رقابة الأسطول الإنجليزى فى البحر الأبيض ، فبلغ نيس فى أواسط يونيه ١٨٠١ ، وعجل بإخبار الحكومة بما وصل إليه جيش الشرق فى مصر من حال سيئة ، فبعث إلى بونابرت وإلى وزير الحربية فى ٢٩ يونيه و٦ يوليو ببيان موجز عن (حملة ١٨٠١) ، ونزول الإنجليز على الشاطئ المصرى ، ومعارك شهر مارس . ثم تكلم عن تلك « الحماقات » المتكررة التى ارتكبها الجنرال منو وسببت هزائم الفرنسيين ، كما كتب فى ٢٩ يونيه إلى الجنرال مورو أنه لايساوره أى شك فى أن الطريقة التى لجأ إليها منو ، من أجل إخراجه هو وزملائه من مصر ، لن تؤثر شيئاً فى موقف الحكومة منه ، أو يجعلها تسئ الظن به ؛ وعلاوة على ذلك ، «فإن لديه كما قال من الأدلة والبراهين القاطعة ماينأى به تماما عن مواطن الشبهات ، وذلك بفضل صفاء نواياه واستقامة مسلكه » . وفى ١٩ يوليو كتب رينييه مرة أخرى إلى صديقه مورو أنه يعد كتيبا يبسط فيه « تاريخ إدارة منو وحكومته » فى مصر . وقد نشر رينييه هذا الكتيب بعد شهور قليلة ، وكان محشوا بغليظ القول ، وجه صاحبه فيه الاتهامات القاذعة ضد منو . واشترك كذلك فى الحملة ضد منو كل من الجنرال بوايه Boyer والضابط نيرو Néraud — وقد حضرا مع رينييه من مصر — فما إن وطئت أقدامهما أرض الوطن حتى بادرا بإلصاق شتى التهم بالجنرال منو ؛ ثم اشتدت وطأة الهجوم على منو عندما وصل الجنرال داماس Damas[1] .

غير أن رينييه وزملاءه لم يكونوا موفقين فى حملتهم على منو لأسباب عدة : منها أن بونابرت كان لا يشعر بأى عطف نحو الجنرال رينييه صديق كليبر الحميم ، وصديق غيره من القواد الذين لم يلقوا حظوة عند بونابرت ، كالجنرال مورو . أضف إلى ذلك أن القنصل الأول كانت تربطه أواصر الصداقة والمحبة بالجنرال منو من زمن قديم ، ولا يزال يذكر « خدمات » منو السابقة له . وقد تقدم كيف استدعاه بونابرت من عزلته فى ٦ مايو ١٧٩٨ لينضم إلى صفوف الحملة عند خروجها إلى مصر . وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن من مصلحة القنصل الأول فى شىء ، وجيوشه تحرز انتصارات باهرة فى أوروبا ، أن يتحول اهتمام الشعب إلى بحث ما وقع من انهزامات فى مصر ، أو التعرض لمناقشة الأسباب التى أدت إلى إرسال جيش الشرق فى « مغامرة » كانت فاشلة من الناحية العسكرية ؛ ولما كان بونابرت قد قرر وقتئذ إخلاء مصر ، ولا يريد أن يبدو جيش الشرق عند عودته ، وقد لحقت به

---

(١) Rigault 386 — 7

الهزيمة ، فقد حرص على إحياء روح هذا الجيش المعنوية ، والإشادة بذكر ما أظهره رجاله من بطولة كبيرة فى تحمل مشاق القتال فى بلاد بعيدة ؛ بل إن بونابرت أراد أن يجعل من جلاء الفرنسيين بعد دفاعهم « المجيد » عن هذه البلاد ظفرا محققاً ، استطاع بفضله أن يصل إلى صلح مشرف مع العدو .

ولذلك فقد بادر القنصل الأول منذ ١١ يوليو ١٨٠١ بالكتابة إلى الجنود الفرنسيين الذين أسرهم الإنجليز فى موقعة أبى قير البرية ، ثم أطلقوا الآن سراحهم وعادوا إلى أرض الوطن ، فقال إنه يفخر بهم كما يفخر بأبنائه ، « ولا يعدهم جندا حلت بهم الهزيمة قط »[١] . وأظهر بونابرت تسامحاً كبيراً مع طائفة من الضباط والقواد الذين استحقوا فى نظره المحاكمة عسكريا ، لتسليمهم للعدو دون مبرر ، أو لتقصيرهم فى الدفاع عن مراكزهم ، فعفا عن (كفاليه) الذى سلم للعدو فى الظروف التى تقدم ذكرها وغفر له جرمه[٢] ، ثم عفا عن بليار ، مع اعتقاده بأن كل ما ذكره هذا القائد فى تقريره الذى بسط فيه أسباب التسليم كان لا يستند على شىء من الواقع ، لأن بليار إنما حصل من الجمهورية على « أمر » كى يقذف بجنده إلى الميدان من أجل الدفاع عن مصر والاحتفاظ بها ، ولم يخوله حق إنقاذ جنده على حساب المصلحة العامة . ومع ذلك فقد وجد القنصل الأول مبرراً للعفو عنه ، لأن بليار كما قال كان من أكبر الضباط كفاءة ، وبذل جهداً صادقاً إبان الحملة المصرية ، كما أظهر بسالة عظيمة فى حملة إيطاليا ، فلم يحجم عن تعريض نفسه للهلاك من أجل المحافظة على شخص بونابرت فى موقعة أركولا . وفضلا عن ذلك فإن بليار كان من كبار المتمسكين ببقاء مصر فى حوزة فرنسا ، كما عارض بشدة اتفاق العريش ، ولم يكن خروجه لمناجزة العدو فى الخانقاة سوى دليل ناطق على أنه كان يعرف تماما ما يجب عليه عمله . وثمة أمر آخر هام هو أن بليار لم يحاول قط أن يلطخ سمعة زملائه ، فى وقت كانت قد قطعت الجمهورية فيه شوطا بعيداً فى طريق المجد والشهرة[٣] .. بل إن وزير الحربية ما لبث أن كتب إلى بليار فى سبتمبر ١٨٠١ يبلغه تقدير القنصل الأول لما فعله بليار عندما نقل إلى فرنسا عدداً من قطع المدفعية رمزاً على احتفاظ جيش الشرق بشرفه العسكرى ، كما نقل إلى أرض الوطن رفات الجنرال

---

(١) Corresp. No. 5632

(٢) Bertrand II 433 — 4

(٣) Ibid. 439—41

كليبر ، ثم طلب إليه أن يبلغ القوات التي حضرت معه تقدير الحكومة لما أظهره الجند من بسالة وإخلاص في سبيل المحافظة على شرف العسكر الفرنسي وسمعته ، ثم عزم الحكومة على مكافأتهم وتعويضهم خيرا على كل ما تحملوه من مشقة وتعب .

ولما كانت جريدة (المونيتور) الرسمية قد نشرت أن عدد الجيش العائد يبلغ إثني عشر ألفا ومائة وثمانية وثمانين مقاتلا ، واحتج بليار على ذلك بأن جميع المحاربين في مصر لم يبلغوا نصف هذا العدد ، فقد قوبل هذا الاحتجاج بتسامح كبير . وكتب القنصل الأول إلى وزير الحربية في أكتوبر ١٨٠١ ليطلب من بليار أن يعد تقريراً شاملا عن رحلته ، من وقت مغادرته القاهرة إلى وقت وصوله إلى طولون ، يذكر فيه عدد الجنود الذين تألف منهم جيشه ، والصالحين منهم للخدمة العسكرية [١] . وفي ٢٢ نوفمبر قال القنصل الأول في خطاب موجه إلى الهيئة التشريعية تعليقاً على هزائم جيش الشرق : «إن تسليم هؤلاء الجنود لم يكن لتفوق قوات العثمانيين والإنجليز عليهم ، بقدر ما كان لقسوة الظروف التي أحاطت بهم . وإن النصر كان ولا شك يلازمهم لو أنهم خاضوا معارك القتال متحدين ولم يفرق الانقسام صفوفهم [٢] » . وفي ٢٥ يناير ١٨٠٢ استعرض القنصل الأول في ميدان بلكور Bellecour في مدينة ليون الجنود الذين حاربوا في مصر ، وهم الذين عادوا إلى الوطن — على حد قوله — بعد خدمة طويلة شاقة استمرت أربع سنوات ، أبدوا في خلالها من ضروب البسالة والشجاعة ما ألبسهم المجد والفخار ، وأدوا من الخدمات والأعمال ما خلد لهم في مصر ذكرى عاطرة [٣] . وفي ٦ فبراير ١٨٠٢ صدر قرار بطبع آثار الحملة العلمية ونشرها على نفقة الحكومة [٤] .

ذلك إذن كان موقف القنصل الأول من جيش الشرق الراجع إلى أرض الوطن ، وموقفه من ضباطه وقواده . ولم يكن من المنتظر لذلك أن تلقى اتهامات رينييه وزملائه ضد منو آذانا مصغية . بل إن تطرف رينييه وزملائه ما لبث أن أحدث على ما يبدو أثراً عكسياً ، على خلاف ما كانوا يؤملون . وسببت أقوالهم ضد قائد الحملة « دهشة » عظيمة ، كانت لا تقل عن الدهشة التي أثارها رجوعهم « غير المنتظر » لأن منو — على على نحو ما قال بونابرت ورجال بطانته وكبار قواده الآخرون — ما كان يرضى بحرمان

---

(١) Rigault 383–4

(٢) Corresp. No. 5874

(٣) Corresp. Nos. 5932, 5874

(٤) Corresp. No. 5946

نفسه من خدمات نخبة من القواد الأكفاء ، الذين كان فى وسعهم معاونته لو أنهم ظلوا إلى جانبه ، ولم يكن هناك من الأسباب الخطيرة ما جعله يفضل إبعادهم والخلاص منهم . ولذلك فقد كتب الجنرال دوجا إلى كل من بوابيه ونيرو فى يوليو ١٨٠١ « مستحيل على المرء أن يخدع نفسه فلا يعترف بأن هذه الكوارث جميعها لم يكن سببها سوى ذلك الانقسام الذى دب فى صفوف القواد » . كما كان من رأى دوجا أن الواجب يقتضى من كل عاقل أن يتريث فى إبداء حكمه على مسألة خطيرة كهذه المسألة دون بحث وتمحيص[١].

أما القنصل الأول نفسه فقد أبدى تعجبه من أن ضباطاً بلغوا فى الجيش أعلى المناصب ، ولم تشب سلوكهم شائبة من قبل ، قد أجازوا لأنفسهم أن يتركوا جيشاً فرنسياً فى وقت كان لا يزال رجاله يقاتلون جيشاً إنجليزيا ؛ بل إن القنصل الأول ما لبث أن طلب من برتييه وزير الحربية أن يسأل كلا من رينييه وبوابيه إعداد مذكرة مسهبة يوضحان بها ماوقع من حوادث فى مصر ، ويشرحان الأسباب التى أدت إلى مغادرتهما هذه البلاد[٢] . ولم يزد وقوف بونابرت على ما جاء فى رسائل رينييه وبوابيه إلا اقتناعاً بأن ما حدث من انقسام فى صفوف القواد كان سبب الكوارث التى حلت بجيش الشرق ، والهزائم التى لحقت به ونشرت الجريدة الرسمية المونيتور ، هذا الرأى فى عددها الصادر فى ١٢ يوليو ، وانحاز وزير الحربية إلى هذا الرأى كذلك ، فكتب إلى القنصل الأول فى ١٥ أغسطس بعد اطلاعه على تقارير رينييه أنه وإن كان يؤخذ من هذه التقارير أن منشأ النكبات التى حلت بالجيش هو عدم إتصاف الجنرال منو بالحيطة والحذر ، وعدم تبصره فى عواقب الأمور ، مع اعتماده على أنصاف الحلول دائماً ، فإن ذلك كله لا ينفى بتاتا أن الانقسام الذى حدث بين قواد وضباط الحملة قد أفضى إلى وقوع هذه الكوارث[٣] .

وعلى ذلك فقد دلت هذه الأقوال على أن رينييه وزملاءه كانوا فى نظر القنصل الأول لايخلون من مسؤولية العمل على تعجيل إنزال الهزيمة بجيش الشرق فى مصر ، عند ما انشقوا على الجنرال منو . وعندئذ لم يجد رينييه بدا من الاحتجاج احتجاجاً شديداً على هذه الأقوال ، وطلب أن يقدم للمحاكمة حتى تثبت إدانته أو تظهر براءته .

---

(١) Rigault 379

(٢) Corresp. No. 5628

(٣) Rigault 379 Note 3

ولكن بونابرت الذى ساءه موقف رينييه لم يلبث أن كتب إلى وزير الحربية أن يبلغ هذا « الضابط » أنه من المتعذر على الحكومة أن تصل إلى رأى قاطع بشأن ماجرى من حوادث فى مصر ، حتى يفتح الطريق بين هذه البلاد وفرنسا . وفى وسع رينييه أن يقيم فى ناحيته حتى يتم ذلك ، فتأتيه هناك مرتباته كاملة (أغسطس ١٨٠١)(١) .

ولكن رينييه الذى لم يشأ الاقتناع بأن القنصل الأول لن يصغى إلى « إتهاماته » ضد منو ، ظل ماضياً فى حملته ضد هذا الأخير ، فنشر كتيبه الذى سبقت الإشارة إليه عن (تاريخ إدارة منو وحكومته) فى مصر ؛ ولما كان منو قد وصل إلى طولون عند نشر هذا الكتيب ، ووقف على ما جاء به من عبارات وصفها بأنها كانت قذفاً فى حقه بلغ منتهى السفاهة ، فقد وعد فى أواخر نوفمبر بالإجابة عليها ، ولكن دون حاجة إلى اللجوء إلى تلك الحماقات التى لم يكن الغرض منها سوى الطعن والتجريح فحسب ، وذلك عند وصول موافقة الحكومة على عزمه . غير أن القنصل الأول ما لبث أن تدخل فى الأمر لوضع حد نهائى لهذه المناقشات . فأمر بمصادرة كتاب (رينييه) لأنه وجد المضى فى مناقشة أسباب الهزائم التى منى بها جيش الشرق فى مصر منافياً لمصلحته الشخصية ولا تقره الحكمة السياسية بأى حال من الأحوال .

وفضلا عن ذلك فقد اعتقد بونابرت كما ذكر فى ٢٣ يناير ١٨٠٢ فى كتابه إلى زميليه كمباسيريس Cambacérès ولوبران Lebrun عضوى القنصلية ، أن الانقسام الذى حدث فى صفوف قواد الحملة وضباطها كان سبب الهزيمة — كما يؤكد ذلك ما بلغه شخصياً فى أثناء محادثاته مع الضباط الموجودين فى ليون ، وماذكرته التقارير التى وصلته من بعض قواد جيش الشرق الآخرين (٢) واستثار رينييه غضب القنصل الأول عليه عند ما اشتبك مع الجنرال داستان فى جدال بعد ذلك ، أفضى إلى وقوع مبارزة بين الإثنين فى غابة بولونيا فى ٣ يونيه ١٨٠٢ ، ذهب ضحيتها داستان فأمر بونابرت « بنفى » رينييه وإبعاده مسافة ثلاثين فرسخا عن باريس ، وكتب إلى برتييه فى ٥ يونيه تعليقا على هذا الحادث : « إن هذه المبارزة التى حرمت الوطن من خدمات قائد من أعظم قواده بسالة وشجاعة كانت كارثة أليمة حتى لقد لبس الوطن عليه ثوب الحداد العام. وإنه يخشى أن تتكرر هذه الحوادث المحزنة(٣) » . وكان من الواضح أن أشد ما يخشاه

(١) Corresp. No. 5669

(٢) Corresp. No. 5930

(٣) Corresp. No. 6078

القنصل الأول أن يشتبك رينييه فى مبارزة أخرى مع منو نفسه يذهب هذا الأخير ضحيتها . واستمر غضب القنصل الأول على رينييه زمنا طويلا ؛ فلم يعف عنه حتى أيام الإمبراطورية ، وعندئذ فقط أتيحت الفرصة للجنرال رينييه أن يشترك فى حملات أسبانيا والروسيا وحملات عام ١٨١٣ ونال لقب (كونت) وأسر فى ليبزج ، ولكنه لم يعمر طويلا بعد عودته من الأسر ، فمات فى فبراير ١٨١٤ . وأما (داماس) — من أشد أعداء منو مراسا — فقد ظل هو الآخر مغضوبا عليه مدة طويلة ، فحرم من ترقيته التى نالها (كفريق) على يد كليبر ، ثم أخرج من الخدمة العاملة ، ولم يلتحق بالجيش إلا أيام الإمبراطورية عندما انضم إلى الجنرال (مورا) Murat ، ثم أعطى وسام جوقة الشرف فى ١٨١١ ، ونال رتبة (فريق) بعد عامين فقط[١] . وهكذا لم يظفر أعداء منو بأى طائل ، على الرغم من حملاتهم واتهاماتهم الشديدة له .

وعلى خلاف ذلك كان حال منو مع القنصل الأول . فإنه لم يمض أسبوعان على وصوله إلى طولون حتى كان بونابرت قد بعث إليه فى أول ديسمبر ١٨٠١ بتلك الرسالة التى سبقت الإشارة إليها ، يثنى فيها على استماتته فى المقاومة بصورة ساعدت على تقدم مفاوضات الصلح مع العدو . واطمأن منو إلى رضا القنصل الأول واستمرار عطفه عليه ، وإن فضل البقاء فى طولون ما دام رينييه على وجه الخصوص مقيما فى باريس ، يعمل على تشويه سمعته . وظهر رضاء بونابرت على صديقه القديم عندما صدر قرار الحكومة فى ٢٦ مايو سنة ١٨٠٢ باستمرار تمتع الجنرال منو بمرتبات القائد العام . وذلك على الرغم من مرارة تلك الحملة التى أثارها رينييه ضده ، والتى بلغت وقتئذ منتهى القسوة والشدة .

وما إن صدر أمر بونابرت بإبعاد (رينييه) خارج باريس ، بعد حادث مبارزته مع داستان وقتل هذا الأخير ، حتى جاء منو إلى باريس ، واستطاع مقابلة القنصل الأول فى التو والساعة ، ونشرت الجريدة الرسمية فى اليوم التالى (٦ يونيه ١٨٠٢) خبر هذه المقابلة فقالت : إن القنصل الأول رحب به ترحيبا عظيما ، وأثبتت مادار بينهما من حديث عندما تكلم منو فقال : « إن الألم ليحز فى نفسى حزا عند ما أتقدم إليك وقد ضاعت من يدك أجمل مستعمراتك » وأجابه القنصل الأول « لقد قمت بأقصى ما يمكنك أن تفعله بعد يوم ٢١ مارس المشئوم كرجل عرف بالشجاعة وحنكته التجارب ، كما كان لمقاومتك الطويلة فى الإسكندرية أثر حميد فى نجاح « مفاوضات لندن » ، وإن جميع

---

(١) Rigault 387

الرجال ليقدرون ما خلفته إدارتك الطيبة والحكيمة من آثار حميدة عادت بالخير والنفع على البلاد . وإنى لأعرف حق المعرفة كل ما وقع من حوادث فى جيشك . لقد كانت عظيمة حقا تلك النكبات التى انتابتك ، ولكن ذلك لم يؤثر شيئاً فى تقديرى واحترامى لك ، وإنى لأبادر بإعلان هذا التقدير عالياً ، حتى لا يجد أولئك الذين يريدون إثارة الصخب والضجيج حول اسمك سبيلا إلى تلطيخ سمعتك أو العيب فى مسلكك »[١]

ولقى منو حظوة كبيرة لدى صديقه فى أيام القنصلية والإمبراطورية ، فحصل على وسام الشرف فى ديسمبر ١٨٠٣ ، ثم نال أوسمة أخرى رفيعة فى الأعوام التالية ، حتى أصبح من زمرة النبلاء بلقب (كونت) فى أيام الامبراطورية[٢] . وكان نابليون يسميه دائما بذلك « المصرى القديم » .

وتقلد منو فى عهدى القنصلية والإمبراطورية مناصب إدارية وحكومية هامة ، فحكم فى بيد منت مدة خمس سنوات ونصف تقريبا ، ثم فى تسكانيا مدة سنة ونصف تقريبا ، ثم فى البندقية حتى قبيل وفاته بأقل من شهر واحد ، فقد صدر قرار فى إبريل سنة ١٨٠١ بجعل بيد منت مقاطعة فرنسية ، ثم استبدل القنصل الأول بإدارتها العسكرية إدارة مدنية فى سبتمبر من العام التالى ، وأرسل بونابرت لحكومتها فى أول ديسمبر سنة ١٨٠٢ الجنرال منو ، ثم عينه بعد ثلاث سنوات تقريبا حاكما لما وراء الألب فى مايو ١٨٠٥ ، وبقى منو فى هذا المنصب حتى الشهور الأولى من عام ١٨٠٨ . واشتهر منو بحرصه على تأييد سلطة الإمبراطور فى أملاكه الإيطالية ، كما اشتهر بكثرة الأوامر الإدارية التى صار يصدرها تباعا ، على نحو ما كان يفعل فى مصر ، وتصميمه على تنفيذها مهما تعارضت مع آراء غيره ، بدعوى أنه وحده كان المسؤول الأول عن الحكومة فى بيد منت . ورحب نابليون بهذا النشاط الذى اعتقد أنه يكفل القضاء على كل نزوع إلى المقاومة من جانب الشعب ضد سلطته .

على أن مهام الحكم ما كانت بحال من الأحوال لتصرف منو عن التمتع بلذات الحياة ، جريا على عادته فى كل مكان يحل به ، والإنفاق بسعة على الحفلات العديدة التى كان يكثر من إقامتها ، حتى استرعى بذخه وتبذيره أنظار معاصريه جميعا . فقد اتخذ سراى ملك سردينيا محلا لإقامته ، بعد أن أجرى بها إصلاحات كبيرة أنفق عليها أموالا طائلة بلغت ١٣٢٫٥٦٩ فرنكا . ولما كان المحفل الماسونى فى تورين يعقد

---

(١) Corresp. No. 6076

(٢) Rigault 388

إجتماعاته فى قسم منها ، فقد أمر منو هذا المحفل بمغادرة السراى وأبطل إجتماعاته ، ثم انتهى به الأمر بحله أخيراً فى عام ١٨٠٣ . ومما يؤثر عن منو أنه أراد كذلك بناء الحمامات فى تورين على الطريقة الشرقية . وواقع الأمر أن تورين لم يمر بها عهد شهدت فى أثنائه من ضروب البذخ وحياة اللهو والترف كما حدث فى أيام منو . من ذلك إحياء الحفلات الراقصة ، وبخاصة فى أيام أعياد الكرنفال . حتى إن إحدى هذه الحفلات استمرت قائمة مدة ثلاثة أيام بلياليها ، دون إنقطاع ، لم يتغيب منو فى أثنائها لحظة واحدة . ومع أن منو أحضر زوجته المصرية السيدة زبيدة إلى « تورين » ، فقد تركها مع ولدها الصغير سليمان مراد فى شبه عزلة تامة ، بينما اتخذ لنفسه هو عشيقات عدة من بين الراقصات والممثلات الجميلات فى تورين . واشتهر (المصرى القديم) ، إلى جانب حبه للانفاق والتبذير ، بعدم تمسكه بأهداب الفضيلة وعدم التقيد بأى قانون أخلاقى . وكلفت حياة اللهو والبذخ هذه منو أموالا طائلة عجزت مرتباته عن تحملها ، فلجأ على عادته أيضا إلى الاستدانة . ولما كان عاجزاً بطبيعة الحال عن سداد ديونه فقد تراكمت هذه الديون ، وطالب أصحابها وزارة الحربية بسدادها (١) .

وعندما أعطى وريث مارى لويز إمارة فى البورتغال لقاء تنازله عن تسكانيا (فى معاهدة فونتنبلو Fontainebleau) فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٠٧ عهد الامبراطور إلى دوشى Dauchy مستشار الدولة بإدارة شئون تسكانيا بالاشتراك مع قواد جيش الاحتلال الفرنسى بها . وفى مايو ١٨٠٨ أنشأ الامبراطور مجلسا حكوميا فوق العادة ، أوجونتا Junta ، لتعزيز السلطات المعطاة إلى دوشى ، يتألف من دوشى نفسه وثلاثة مستشارين آخرين أرسلهم من باريس ، وجعل على رأس الجميع الجنرال منو كما أصدر فى الشهر نفسه قرارا بضم تسكانيا إلى الامبراطورية . وفى ١١ يوليو ١٨٠٨ وصل منو إلى فلورنسة وتسلم مهام الحكم بها . وما إن وصل إلى مقر حكومته الجديدة حتى قام بزيارة المدينة ، والكنائس الهامة بها مع أعضاء الحكومة . وفى ١٥ أغسطس زار منو الكتدرائية فى موكب عظيم يتألف من أربعين عربة يحيط بها الفرسان من كل جانب كما ترأس فى اليوم نفسه احتفالا كبيرا لإعداد مائة من الفتيات الصغيرات لاستقبال حياة الرهبنة ، وصدحت الموسيقى فى أهم ميادين فلورنسة . وفى المساء أقام مأدبة فخمة فى سراى بيتى Pitti أعقبتها حفلة راقصة ، وفى ٣١ أغسطس أقام احتفالا آخر فى ميدان سانتا كورس Santa- Corc$_e$ عرضت فى أثنائه ألعاب كثيرة ، وكان من أهم المناظر التى

---

(١) Marmottan 82 — 82; Ibid 288 — 9

استرعت أنظار آلاف المتفرجين حتى استعادوه مراراً ، منظر الهجوم على الإسكندرية واقتحام حصنها .

واستمرت الإحتفالات والاستعراضات بعد ذلك كما أقيمت الحفلات الراقصة ، وأسرف منو على عادته فى الإنفاق على هذه الحفلات الرائعة ، وانغمس فى حياة الترف والبذخ ، وعاش منو فى لهو ومتعة فى فلورنسة ، ولم يتورع عن اصطحاب عشيقاته فى كل مكان يذهب إليه ، بل إنه ما كان يحجم عن اصطحاب خليلته المفضلة عند ذهابه إلى الاجتماعات الرسمية ، أو عند ذهابه إلى الكتدرائية وأماكن العبادة الأخرى ، وساعده على ذلك ولا شك أنه ترك السيدة زبيدة وولدها فى تورين مهملة فى زوايا النسيان . ومع أن الديون سرعان ما تراكمت عليه فى فلورنسة بسبب إسرافه وتبذيره وكثر دائنوه وعظمت لجاجتهم فى مطالبته بسداد ما عليه ، فقد ظل الإمبراطور راضيا عنه ، بل إن تسامحه فى الشهور الأولى مع هذا « المصرى القديم » كما كان يدعوه — بلغ حدا بعيدا . والسبب فى ذلك أن منو أظهر نشاطا عظيما فى تأييد سلطان نابليون فى تسكانيا ، والقضاء على خصوم العهد الجديد بكل صرامة وشدة .

وعلى ذلك فقد أغدق عليه الإمبراطور ألقاب الشرف والرفعة ؛ فأضحى منو من نبلاء الإمبراطورية عند ما نال لقب (كونت) فى عام ١٨٠٨ ، ثم منحه الإمبراطور بعد ذلك وسام (النسر الأعظم) ؛ ثم عمل الإمبراطور على تعزيز سلطانه للقضاء على كل محاولة للثورة من جانب أهل تسكانيا ، فأرسل إليه من نابولى الجنرال (راديه) Radet لتنظيم قوة البوليس فى فلورنسة . وكان (راديه) من الرجال الذين امتازوا بالنشاط والمثابرة على العمل ، خدم فى جيش الثورة واشترك فى أكثر المعارك وكان من القواد الممتازين . وصل فلورنسة فى يوليو ١٨٠٨ وبقى بها حتى يونيه من العام التالى؛ ويعزى إليه الفضل فى إنشاء وتنظيم قوة من الشرطة المدربة ، التى استطاعت تطهير أكثر مقاطعات تسكانيا من العصابات المسلحة ، وقطاع الطريق الذين عبثوا بالأمن ، وأثاروا بها الاضطرابات من وقت لآخر . وكان من أهم الثورات التى اشترك (راديه) فى إخضاعها تلك التى قامت فى سيين Sienne وارتزو Arezzo فى أغسطس ١٨٠٨ .

وكان من أهم أسباب هذه الثورات والاضطرابات التى هددت سلطان الإمبراطور فى تسكانيا فداحة الضرائب وامتناع الأهلين عن أدائها ، أضف إلى ذلك تذمر رجال الدين الذين ساءهم أن تفقد الكنيسة أملاكها بفضل إدخال نظام العلمانية ، واستيلاء الحكومة على إيرادات الكنيسة . ولما كان عديدون من الأسبانيين لايزالون يقيمون

فى تسكانيا ، ويسوءهم اندماجها فى الإمبراطورية الفرنسية ، فقد عمد هؤلاء إلى تحريك الثورة بها ضد الإمبراطور ، وشمر منو عن ساعد الجد والعمل فى تعقب هؤلاء الأسبانيين واعتقالهم وإخماد نشاطهم . فقد كتب منو إلى الإمبراطور من فلورنسة فى ٢٨ نوفمبر ١٨٠٨ : « إن جميع الأسبان الذين كانوا فى تسكانيا قد وقعوا فى قبضة الحكومة منذ ثلاثة أسابيع مضت وأرسلوا إلى ديجون وصودرت أملاكهم . . . كما كان لانتصار (نابليون) وتقدمه فى أسبانيا أعظم الأثر فى تهدئة الخواطر وضمان السكينة فى تسكانيا » وفى غيرها من الممتلكات الفرنسية فى إيطاليا[١] .

ولكن منو الذى اشتهر بالتردد وعدم المثابرة سرعان ما أهمل بعد ذلك القيام بأعباء حكومته ، ووجد « موظفوه » صعوبة كبيرة فى محاولة الاتصال به ، فلم يستطع أحد القواد مثلا ، وقد حضر مع هيئة أركان حربه لمقابلة منو ، أن يظفر بهذه المقابلة إلا بعد مشقة ، حتى إنه ما لبث أن امتنع بعد ذلك من زيارة منو ، وصار يشكو من معاملته من الشكوى . وعظمت الشكوى ضد منو بسبب خروجه على التقاليد ، واتخاذه إحدى الراقصات محظية له يعيش معها فى علانية ودون تستر ، ويدعوها لحضور الحفلات والمقابلات الرسمية . أما هذه العشيقة ، التى أثارت الشعور العام ضد منو فكانت تدعى : (جين جراسينى) Jeanne Grassini ، أصلها من ميلان ، ثم عملت كراقصة بأحد مسارح فلورنسة . قال أحد الناقمين على منو : « إن احتفاء صاحب السعادة الكونت منو بهذه الراقصة كان يزداد يوماً بعد يوم ، وتوثقت علاقته بها حتى اشتهر أمرهما فى كل فلورنسة ، لا سيما وأن منو صار يزورها فى بيتها ويقضى فى صحبتها الليل بطوله ثم أكثر ساعات النهار ، تاركاً فى انتظاره خارج دارها كوكبة من الحرس طول الوقت : وصار يغدق عليها العطايا ؛ بل بلغ افتتانه بها حداً جعله يخصص لنفقاتها دخلا سنوياً كبيراً ، كما أرغمها على الامتناع عن مخالطة غيره ، ثم أحضر من ميلان أخاً لها كان يعمل كمتعهد بتقديم الراقصات إلى المسارح ، فاتخذه منو سكرتيراً له. وظهر استياء القوم من مسلك منو عند ما رفض كثيرون من الكبراء حضور إحدى حفلاته الراقصة لوجود هذه الراقصة فى صحبته . وكان من أسباب الاستياء والتذمر أن هذه الراقصة صارت تتدخل فى شئون الحكم ، ويلجأ إلى وساطتها أصحاب الحاجات لدى منو لقضاء حاجاتهم منه[٢] » .

---

(١) Marmottan 84 — 90

(٢) Ibid 183 — 5

ومن الغريب أن الامبراطور الذى كانت تبلغه تباعا أخبار منو لم يظهر أى استياء مما كان يفعله « صديقه » القديم ، إما لأنه كان مشغولا بما هو أهم من حكومة منو فى تسكانيا ، وإما لأنه كان عظيم العطف على ذلك « المصرى » الذى توطدت أواصر صداقته معه من أيام حوادث اكتوبر ١٧٩٥ . وهكذا ترك نابليون « لصديقه » الحبل على الغارب ، حتى إذا عظمت الشكوى منه وكثر عدد دائنيه نقله الإمبراطور من فلورنسة إلى حكومة البندقية فى ٢٨ سبتمبر ١٨٠٩ . ولـكن منو لم يغير شيئاً من أساليب حياته ، فظل فى البندقية سادراً فى غوايته ، يعيش فى بذخ وإسراف ، وينفق على معشوقته التى صحبها معه إلى البندقية أموالا طائلة[١] ، حتى بلغت ديونه ١٥٣,٠٠٠ فرنك . غير أن الإمبراطور مالبث أن نفد صبره على منو فى هذه المرة ، ونقم على مسلك « صديقه » ؛ فـكتب إلى (أوجين — بوهارنيه) حاكم إيطاليا فى ١٥ يوليو ١٨١٠ أن يأمر منو بالذهاب إلى باريس ، ثم دفع الإمبراطور لتسوية ديون منو خمسين ألف فرنك ، كما أمر أن يدفع له من خزينة إيطاليا ثلاثون ألف فرنك لسداد جميع ديونه[٢] ، وفى ٢٣ يوليو من العـام نفسه كتب وزير الحربية إلى منو يخبره بضرورة العودة إلى فرنسا . وهكذا انتهت حكومة منو فى البندقية .

ولـكن منو لم يعش طويلا حتى يشعر بوطأة هذا السخط عليه ، فقد عاجلته المنية بعد ذلك على أثر إصابته بحمى حادة ، فتوفى يوم ١٣ أغسطس ١٨١٠ فى فيلا كورنيسو Corneso بالقرب من ميستر Mestre على مسافة غير بعيدة من البندقية[٣] . أما زوجه المصرية السيدة زبيدة فيبدو أنها توفيت قبله ، إما فى تورين وإما فى البندقية . وأما سليمان مراد فقـد ذكرت المراجع الفرنسية[٤] أنه عاش بعد والده ، وورث لقب (الـكونتية) . ومع ذلك فمن المرجح أن سليمان مراد قد توفى فى حياة والده ، حوالى شهر يناير ١٨١٠ وأن الذى ورث لقب (الـكونتية) كان ابناً آخر غير سليمان ، ولد لمنو من زوجه المصرية ، إما فى فرنسا وإما فى إيطاليا ، أى بعد عودة منو من مصر[٥] .

***

(١) Ibid 183 (Note 1)

(٢) Corresp. No. 16662

(٣) Rigault 389 — 90

(٤) Dictionnaire De la Noblesse Impériale-Rigault 390 (Note 1)

(٥) Bahgat. (La Famille) 40 — 2

تلك كانت قصة عبد الله منو ، الرجل الذى استطاع أن يجمع فى شخصه بين مزايا الإدارى الحاذق إذا شاء الانكباب على العمل ، ونقائص المستهتر الخليع إذا شاء أن يقضى وقته فى اقتناص متع اللذة والعيش فى « بوهيمية » جامحة ؛ وليس من شك فى أن منو ، على الرغم من هذا التناقض الظاهر فى شخصيته ، كان فى طليعة أولئك الفرنسيين الذين آمنوا وقتئذ بضرورة تشييد صرح إمبراطوريتهم الجديدة على ضفاف النيل ، فكان من كبار مؤيدى أول تجربة استعمارية من نوعها فى مصر ، وإن كان مقدراً الإخفاق كل الإخفاق لهذه التجربة من أول الأمر ، لأخطاء ارتكبها قبله كل من بونابرت وكليبر فى أثناء حكمهما لهذه البلاد ، ولأخطاء أخرى كان منو نفسه هو المسئول عنها ، ثم بسبب ذلك النضال الدولى الذى جعل إخراج الفرنسيين من مصر ضرورة لامندوحة عنها ، للقضاء على مشروعات نابليون فى « الشرق » وإعادة التوازن فى أوروبا ذاتها .

مصادر الكتاب

١ — مجموعات المراجع

Bibliothèque Khédiviale. Catalogue ... Section européen II L'Orient. Caire 1899.

Combe, E. Catalogue de la bibliothèque municipale (d'Alexandrie) Section Européenne 1892—1926. t. 1. Egypt: L'Expédition de Bonaparte.

Catalogue. Institut d'Egypte 1859—1917 Caire 1927.

Guémard, G. Supplément (Addenda et Corrigenda) A'La Bibliographie .. De M. René Maunier. Caire 1925

Hilmy (Prince Ibrahim). The literature of Egypt and the Sudan from the earliest times to the year 1885 inclusive. (2 vols). London 1886 – 1888.

Maunier, R. Bibliographie économique, juridique et sociale de L'Egypte moderne (1798—1916). Caire 1918

Mortiz, B Publication de la Bibliothèque Khédiviale. Caire 1901.

Munier, H. Catalogue de la bibliothèque du Musée Égyptien du Caire Caire 1928.

—Tables De La Description De L'Egypte Suivies D'une Bibliographie Sur L'Expédition Française de Bonaparte. Caire 1943.

Pratt, Ida A. Modern Egypt. A List of refrences to material in the New York Public library. New York 1929.

٢ — وثائق مطبوعة

Annuaire de la République française calculé pour le méridien du Kaire, l'an VIII de l'ère française. Au Kaire, Impr. Nation. An VIII.

Annuaire de la République française calculé pour le méridien du Kaire, l'an IX de l'ère française, Au Kaire, Impr. Nation. An IX.

Annuaire de l'an VIII, suivi de la Constitution française. Guiezeh, Impr. Nation. An VIII.

Courrier de L'Egypte, du 12 fructidor an VI (29 août 1798) au 8 messidor an IX (27 Juin 1801). Kaire VI – IX.

Damas, (général, comte Fr. Et. de). — Rapport fait au Gouvernement français des événements qui se sont passés en Egypte depuis la conclusion du traité d'El-Arych jusqu' à la fin de prairial an VIII. (1800). Kaire an VIII.

Documents extraits des Archives historiques du Ministère de la Guerre de France. Expédition française en Egypte. Kléber.

Premier Carnet. Armée d'Orient ... Deuxième Carnet. Extraits et idées diverses et sans ordre. (Revue d'Egypte I., II.) Caire 1895—6.

Documents extraits des Archives du Ministère de la Guerre de France. Notes de M. le général Morand sur les opérations du général Kléber. (Rev. d'Eg. II.) Caire 1895.

Documents extraits, etc... Notes sur l'insurrection au Caire. (Rev. d'Eg. II) Caire 1895.

Drompore Papers. (The Historical Manuscripts Commission Reports. VI—VII.)

Hauterive, A. M. Blanc d'. — Observations et pièces reltives à la convention d'El-Arisch. Paris, an IX.

Jonquière, de La. — L'Expédition d'Egypte (1798—1801) — 5 vols. Paris 1899—1907

La Décade Egyptienne. Organe de L'Institut d'Egypte. 3 vols. Kaire. Années VII, VIII.

Martens, G. F. von. Recueil des principaux traités ... 8 vols. Göttingen. 1817—35.

Noradounghian, G.— Recueil D'Actes Internationaux de L'Empire Ottoman. vols I, II. Paris 1897.

Pièces Diverses et Correspondance Relatives aux Opérations de l'Armée d'Orient en Egypte. Paris. An IX.

Pièces Officielles de l'Armée d'Egypte. Première Partie. (Pièces Diverses relatives aux opérations militaires et politiques du général Bonaparte.) Paris, an VIII.

Rélation de l'Expédition de Syrie, de la bataille d'Aboukir et de la prise du fort de ce nom. Imprimé sur les pièces originales et officielles. Paris, an VIII.

Recueil des pièces relatives à la procédure et au Jugement de Solyman el-Halaby, assassin du général en chef Kléber et traduction turke des pièces. Caire, an VIII. Also Revue d'Egypte II, III. 1896.

Testa, Le Baron I. de—Recueil des Traités De La Parte Ottomane... (vol II). Paris 1864—98.

Vagnier, R. et Venture, J.—Kléber en Egypte. Documents inédits. Paris 1899.

٣ — الرسائل والمذكرات والتقارير

Anonyme.. Copies of Original Letters From the Army of General Bonaparte In Egypt. Intercepted by the Fleet Under the Command of Admiral Lord Nelson. London 1799.

- Lettres de l'Armée en Egypte au Gouvernement français interceptées par la corvette de Sa Majesté Britannique El Vincejo dans la Méditerranée. Londres 1800

Baldwin, G.—Palitical Recollections relative to Egypt. . . etc . . . London 1801

Barrow, H. Life and Corresppondence of Admiral Sir William Sidney Smith. 2 vols. London 1848.

(Belliard) Memoires du Comte. . . écrits par lui-même, recueillés et mis en order M. Venit . . . etc . . . 3 vols. Paris 1842.

Berthier—Mémoires du Maréchal Berthier . . . Campagne d'Egypte. Ire Partie. Paris 1827

Bertrand— Campagne d'Egypte et de Syrie (1798—1799). Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à St. Hélène . . . 2 vols. Paris 1847.

Boissy. L. de.— Bonaparte au Caire. Ou Mémoires Sur L'Expédition de ce général en Egypte . . . Paris 1799

Bonnefons, A. — Un Soldat d'Italie et d'Egypte. Souvenirs d'Antoine Bonnefons. . . (Carnet de la Sabretache. 2° série. Ier volume.) Paris 1903.

Bourrienne. L. A. F. de—Mémoires de . . . ministre d'Etat Sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration. t. II—III. Paris 1828—30.

Bricard—Journal du Canonnier Bricard 1792—1802 publié pour la première fois par ses petits-fils Alfred et Jules Bricard. Avec Introd. de Lorédan Larcher. Paris 1891

Brotonne, L. de—Lettres inédites de Napoléon, collationnées sur les textes . . . Paris 1898.

Correspondance de Napoléon Ier publié par ordre de Napoléon III. vols 4—5. Paris 1858—70.

Correspondance officielle de l'Armée d'Egyte, contenant les dernières dépêches par le général Vial, . . . et par l'aide-de-camp du général Menou . . . etc. Paris, an IX.

Desvernois. Avec Bonaparte en Italie et en Egypte. Mémoires etc... publiés par Albert Dufourq. Paris 1933

Douguerau, J-P. Journal de l'Expédition d'Egypte . . . etc Avec une introd. et notes par C. de la Jonquière. Paris 1904.

Doyle, Col. Ch.— A non military journal of observations made in Egypt by an officer upon the staff of the British Army . . . In a series of letters . . . London 1803.

Du Casse. A.—Supplément à la Correspondance de Napoléon . . . Paris 1887.

Dumas, le comte Mathieu-Souvenirs du lieutent-général . . . de 1790 à 1836. publié par son fils. 3 vols. Paris 1839.
Fuite de Bonaparte de l'Egypte, Pièces authentiques sur sa désertion, etc . . . Suivies de plusieurs lettres qu' il a adressées au Grand-Vizir et qui ont interceptées par la corvette de S. M. Brit. El Vincejo. Paris 1814.
Geoffroy Saint-Hilaire, E. Lettres écrites d'Egypte, recueillies et publiées avec une préface et des notes par E. T. Hamy. Paris 1901.
Grolleau, Ch.—Journal au Capitaine François (dit le dromadaire d'Egypte, 1792—1830) .. 2 vols. Paris 1903—4.
Guémard, G—Nouvelle contribution à l'histoire de l'Institut d'Egypte et de la Commission des Sciences et Arts. Correspondance inédite des ingénieurs civils de l'Armée d'Orient, découverte par M. Jean Ott . . . (Bull. de l'Inst. d'Eg. VII. Session 1924—26.)
Jollois, P—Journat D'Un Ingénieur . . . (1798—1802). Publié par P. Lefèvre-Pontalis. (G. Maspero. Bibliothèque Egyptologique-Tome Sixième). Paris 1904.
Journal des opérations du général Kléber pendant toute la durée du commandement qu' il exerça à Alex. du 18 messidor au 2° Jour complémentaire an VI. . , (Rev. d'Egypte II.) Caire 1895.
Keith, Sir R. M.—Memoirs and Correspondence. (2 vols) London 1849
Keller, A.—Napoléon 1er, Correspondance, bulletins et ordres du Jour, édités par . . . t IV. Paris. (S. D.)
Larcher, L. Correspondance Intime de l'Armée d'Egypte Interceptée par la Croisière Anglaise etc . . . Paris 1866.
Larrey, D. J. Mémoires de chirurgie militaire et de campagnes. vol 1 Paris 1812—17.
Las Cases, Comte de. - Mémorial de Sainte-Hélène, suivi de Napoléon dans l'exil par M. M. O'Méara et Antommarchi . . . 2 vols. Paris. S. D.
Lecestre, L. Lettres inédites de Napoléon (an VII-1815). 2 vols. Paris 1897.
Leibnitz, G. W. von. Mémoire à Louis XIV, sur la Conquête de l'Egypte, publié avec préface et notes par M. de Hoffman. Paris 1840,
Lettres des Membres du Divan du Kaire an Général Bonaparte . . . Traduit de l'original par Silvestre de Sacy . . . et Jaubert Terminé en ventôse an IX, par les soins de J. J. Marcel. Paris, an XI.
Magallon, Ch. Mémoire Sur l'Egypte. (Rev. d' Eg. III.) Caire 1899,
Malus de Mitry, E. L. L'Agenda de Malus. Souvenir de l'Expédition

d'Egypte 1798—1801. Publié et Annoté par le Général Thoumas. Paris 1892.

Marmont. Mémoires du maréchal Marmont, duc de Raguse, de 1792 à 1841 ... vol I. Paris 1857.

Mémoires sur l'Egypte publiés pendant les campagnes du général Bonapart dans les années VI, VII, VIII et IX. (4 vols) Paris, ans VIII à XI.

Michaux, A. Journal du siége du Kaire par l'armée française sous les ordres du général-en chef Kléber du 21 mars au 21 avril, 1800. (Rev. d'Eg. II) Caire 1895

Millet, S. Le Chasseur Piére Millet. Souvenirs de la Campagne d'Egypte (1798—1801). Avec Introd. Notes et Appendices. Paris 1903.

Miot, J. F. Mémoires pour servir à l'histoire des expédition en Egypte et en Syrie pendant les années VI, VII et VIII de la République Française. Paris, an XIII (1804)

Morier, J. Memoir of a Campaign with the Ottoman Army in Egypt from February to July 1800 ... London 1801

Mortureux, Commandant. Expédition d'Egypte. Correspondance du général Dugua, comm. la Basse-Egypte, pendant l'Expédition de Syrie. (Carnet de Sabretache) Paris 1906

Murat, Prince. Lettres et documents pour servir à l'histoire de Joachim Murat 1767—1813 ... (4 vols) Paris 1900.

Mure, J-B. Mémoire Militaire et Politique sur l'Egypte. Note Remise en 1789 à M. Abancourt . . . (Rev. d'Eg. II.) Caire 1896.

Napoléon Bonaparte. Correspondance Inédite Offieielle Ét Confidentielle ... par le général Beauvais (vols I, II). Paris 1819—20.

(Nelson). The Dispatches and Letters of Vice Admiral Lord Viscount Nelson. With Notes by Sir Nicholas H. Nicolas. (vols 3, 4). London 1845.

Neillo-Sargy, J. G. de-Mémoires sur l'Expédion d'Egypte, recueillis et mis en ordre par Alph. de Beauchamp. Paris 1825.

Noé, Comte de. Mémoires relatifs à l'expédition anglaise partie du Bengale en 1800 pour aller combattre en Egypte l'armée d'Orient Paris 1826.

Pajol, Le Comte.-Kléber, sa vie, sa Correspondance. Paris 1877

Poussielgue. Lettre de M. Poussielgue, ancien administrateur général des Finances de l'Egypte, accompagnée de pièces justificatives à M. Thiers. Paris 1845.

Reynier, G. Mémoires du Comte Reynier. Compagnes d'Egypte. 11° Partie. Paris 1827.

Richardot., Neauveaux Mémoires Sur l'Armée française en Egypte et en Syrie ,.. Paris 1848

Rousseau, M. F.-Kléber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaparte (Août 1799-Septembre 1801). Documents.. etc.. Paris 1900

Roy, J. J. E.—Les Français en Egypte, ou souvenirs des Campagnes d' Egypte et de Syrie, par un officier de l'Expédition. Tours 1857.

Savary, A. J. M. R. Mémoires du duc de Ravigo, pour servir à l'histoire de l'empreur Napoléon. (vol 1) Paris 1828.

Savary, C. E. Settres Sur L'Egypte.. (2 vols). Paris 1798.

Simon, E, T. Correspondance De L'Armée Française Interceptée par L'Escadre de Nelson etc.. Paris, an VII (1799).

Smith, Sir Sidney. Letters to Lord Nelson Containing A Most Extraordinary Narrative of the Defeat and Almost entire Destruction of the French Army at St. Jonn De Acre in Syria. Bristol 1799.

Talleyrand — Mémoires Du Prince De Talleyrand, Publiés Avec une Préface Et Des Notes par le Duc De Broglie. (vol 1). Paris 1891.

(Terrage). Villiers du Terrage, E. de — Journal et Souvenirs sur l'Expédition d'Egypte (1798—1801) etc. Paris, 1899.

(Thurman). Bonaparte En Egypte. Souvenirs publiés avec préface et appendices par le comte Feury. Paris 1902.

Thornton. (Surgeon). The British Campaign in Egypt of 1801 as recorded in the Diary by... edited with command by Lt-Col. Thorton Cantrob. Alexandria 1937.

Tott, Baron de - Mémoires Sur les Turcs et les Tartares (4 vols). Amesterdam 1784.

Trécourt, J—B. Memoires sur l'Egypte, année 1791 édités et annotés par Gaston Wiet. Caire 1942.

Wiet, G. Deux Mémoires inédits sur l'Epédition d'Egypte. Journal de Grandjean. journal du Lieut. Laval. Préfacés et annotés... Caire 1941.

٤ — رحلات وأسفار

Bernardin de St. Pierre, J. H.-Voyage à l'île de France. (Oeuvres t. I, II) Paris 1818.

Bruce, J. Travels to Discover the Source of the Nile in the Years 1768, 1769. 1770, 1771 and 1773. (vols 1, 4). Edinburgh 1804

Cooper, J. Observations on the Passage to India through Egypt..etc.. London 1785.

Cooper, Rev. W. A Voyage up the Mediterranean in his Majesty's Ship the Swiftsure... with a description of the Battle of the Nile. London 1802.

Denon, V. - Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte 2 vols. Paris, an X (1802).

Dominique Di Pietro. Voyage historique en Egypte pendant les campagnes des généraux Bonaparte, Kléber et Menou. Avec une carte de l'Egypte . . Paris 1818.

Galland, A. Reise nach Aegypten und Bemerkungen über verschiedene Gegenstände während des dreijährigen Aufenthalts des Französischen Arme in diesen Lande (1799 bis 1801) . . . Weimar 1804.

Irwin, E. A Series of Adventures in the Course of a Voyage up the Red Sea . . 2 vols. Dublin 1780.

Kendal, A. G. Travels in Upper and Lower Egypt during the Campaigns of General Bonaparte. from the French of Vivant Denon. To which is prefixed an historical Account of the invasion of Egypt by the French. 2 vols London 1802.

Nectoux, H. Voyage dans la Haute-Egypte au-dessus des cataractes ... etc ... Paris 1808.

Poivre, P. Voyages d'Un Philosophe . . Paris 1763.

Sonnini, C. A. Travels in Upper and Lower Egypt undertaken by order of the Old Government of France. (Translation). London 1800.

Volney, C. F. C. Voyages en Syrie et en Egypte Pendant les anées 1783, 1784 et 1785 . . . 2 vols. Paris 1787.

Wittman. W. Travels in Turkey, Asia Minor. Syria, and across the desert into Egypt during the years 1799, 1800, 1801, in company with the Turkish Army and the British Military Mission . . . London 1803

٥ — كتابات وبحوث المعاصرين

Anderson, A. — A Journal of the forces which sailed from the Downs in April 1800, on a secret expedition under the commond of Picot . . . London 1802.

Anonyme — Considérations Politiques (1783); Suites Des Considérations Politiques. (Paris 1785).

— Operations of the British Forces in Egypt 8th to 21st March 1800; Operations of the British and French, 12th and 13th March; Batlle of Alexandria 21st March. London (S. D.).

—Plan of the Operations of the British and Ottoman Forces in (Lower) Egypt from the 8th of March to the 2nd of Sept 1801 London 1802.

—Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie. Paris 1800.

—Situation de l'Egypte au 1er vendémiaire an XIII, et récapitulation des événements qui s'y sont succedés depuis le départ de l'armée française. Paris an XIII (1805).

Antes, J. Observations on the manners and customs of the Egyptians, the overflowing of the Nile and its sffects, with remrarks on the plague and other subjects... London 1800.

Berry, Sir E. Authentic narrative of the proceedings of His Majesty's squadron under the command of Rear-Admiral Sir Horatio Nelson from its sailing to Gibraltar to the conclusion of the glorious battle of the Nile... London 1798.

Berthier, le général. Relation des companges du général Bonaparte en Egypte et en Syrie. Paris, an IX 1801.

Boisgelin, L. de. Malte, ancienne et moderne, ed. française publiée par A. Forbia (de Pilles)... 2 vols. Marseilles 1805.

Bonaparte en Egypte ou détails sur le massacre et l'empoisonnement des prisonniers et des malades de Jaffa, terminés par une des proclamations aux habitants du Caire. (?)

Delaporte — Abrégé Chronlogique de l'histoire des Mamelouks d'Egypte... (Description de l'Egypte t XV 231—263).

Delarivière-Notice sur Dugua. Caen 1802.

Description de l'Egypte, ou recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition de l'armée française. 9 vols de texte et 14 de planches. Paris 1809—1828.

Desgenettes, R.-Histoire Médicale de l'Armée d'Orient-Paris 1802.

Desgranges Ainé—Histoire De l'Expédition Des Français En Egypte Par Nakoula El-Turk. Paris 1839.

Dumas, Lieut — gén. Comte Mathieu — Précis des événements militaires, ou Essais historiques sur les campagnes de 1799 à 1814. (t. VII). Paris 1817—19.

Estève — Mémoire sur les Finances de l'Egypte... (Description de l'Egypte t. XII 41—248).

—Trésorerie générale, Instruction concernant le service de la trésorerie donnée aux payeurs divisionnaires de l'armée de la Méditerranée. Caire an, VI.

—Service de trésorerie (armée de la Méditerranée) Caire, an VI-VIII.

Expéditon De syrie Jusqu'à la Prise De Jaffa. Caire, an VII.

Fabien, F. et Beaumont, L. Galerie militaire ou Notice historique sur les généraux en chef. etc. Paris, an XIII 1805.

Galland, A. — Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'Armée Française... (2 vols). Paris 1804.

Grobert, G.—Description des Pyramides de Guizeh, de la ville du Caire et de ses environs. Paris, an X.

Guitry, (Commandant)—L'Armée de Bonaparte En Egypte 1798—1799 Paris, 1897.

Hennet, L. La Mission d'Écorches de Sainte — Croix à l'Armée d'Orient (1800) et les Sainte—Croix. (Carnet de la Sabretache) Paris 1806.

Herbin De Halle, P.-Ét - Conquêtes des Français en Egypte; ouvrage dans lequel on a joint à les description géographique, l'histoire des révolutions, etc. Paris, an VIII.

Histoire des généraux Desaix et Kléber. Avec des Notes et remarques.. etc. Paris, an X (1802).

Irwin, E. - Bonaparte in Egypt; or, An Appendix to the enquiry into his supposed Expedition to the East. Dublin 1798.

Lancret — Mémoire sur le système de l'imposition territorial etc... (Description de l'Egypte. t. XI. 461—571.)

Larrey, D. J. — Relation Historique et Chirurgicale de l'Expédition de l'Armée D'Orient En Egypte et En syrie. Paris 1803.

Lattil, J. B. — Campagnes de Bonaparte à Malte, en Egypte et en Syrie. Marseilles, an X.

Lusignan, S. — A History of the Revolt of Ali Bey Against the Ottoman Porte, etc.. London 1784.

Mably, L'Abbé de. — Le Droit publique de l'Europe fondé sur les Traités. (3 vols). Geneva 1764.

Martin, P.-Histoire de l'Expédition Française en Egypte (1798—1801) (2 vols). Paris 1815

Menzies, J. - History of the late expedition to Egypt, under the Command of Lieut,-General Sir Ralph Abercromby. Glascow 1803

Norry, Ch - Relation de l'expédition d'Egypte, suivie de la description de plusieurs monuments de cette contrée, Paris, an VII.

Raynal, G. T. - Histoire philosophique et politique des établissemnts et du commerce des Européens dans les Deux Indes. (10 vols). Geneva 1780—1

Reybaub, L. - Histoire scientifique et militaire de l'Expédition française en Egypte ... etc. (10 vols). Paris 1830—1836

Reynier, G. - De l'Egypte Aprés la bataille d'Heliopolis. Considérations générales sur l'organisation physique et politique de ce pays. Paris 1802

Richardot. - Relation de la campagne de Syrie Spécialement des siéges de Jaffa et de St. Jean d'Acre... Paris 1839

Thibaudeau, A. C. - Histoire de la campagne d'Egypte sous le régn de Napoléon le Grand le Grand. (2 vols). Paris 1839

(Galli). Vertray. - L'Armée Française en Egypte 1798—1801. Manuscrit mis en ordre et publié par A. Galli. Paris 1883

Walsh, Th. - Journal of the late Campaign in Egypt including Descriptions of that Country... London 1803

Wilson, Sir R. T. - History of the British Expedition to Egypt; to which is subjoined a Sketch of the present State of that country... (2 vols). London 1802

٦ — تراجم

Aldeguier, F. d'. - Etude historique sur la vie privée et militaire de Joseph - Maximilien de Caffarelli du Falga ... Paris S. D.

Allardyce, A. - A Memoir of the Hon. G. Keith Elphinstone, Viscount Keith. London 1882

Anson, W. J. - The life of John Jervis, Admiral Lord Saint-Vincent London 1913

Aubigné, d'. - Vie de Kléber. Paris 1891

Aubry, O. - Napoléon. Paris 1936

Bachatly, Ch. - the manuscrit autographé de don Raphaël, membre, de l'Institut d'Egypte (1798). - Bull de l'Inst. Eg. XIII. Session 1930—3

— Un membre oriental du premier Institut d'Egypte, Don Raphaël (1759—1831)... Bull. de l'Inst. d'Eg. XVII Session 1934—5

Belin. - Jean - Joseph Marcel, orientaliste. Notice historique et biographique par Taillefer ... Paris 1854

Boselli, J. - Biographies égyptiennes, Edme - François Jomard. Rev. d'Egypte IV. 1897

Coutret, J. - Kléber. Paris 1886

Daressy, G. - Moustapha Pacha, le prisonnier d'Aboukir. Bull de l'Inst. d'Eg. Session 1928—9.

Degerando. J. M. - Vie du général Louis-Marie-Joseph Maximilien Caffarelli du Falage.. Paris, an X (1801)

Derrecagaix. - Les états - majors de Napoléon. Le lieutenant-général comte Belliard. Paris 1908
Desaix, J. et Foliot, A. - Le Général Desaix. Annecy 1879
Driault, E., et Houth, E. - Alyre Reffeneau Delile. Bull. de l'Inst. d'Eg. XV. Session 1932—3
Dupin, Ch. - Essai historique sur les services et les travaux scientifiques de Gaspard Monge ... Paris 1819
Dupont, de Nemours. - Notice sur la vie de M. Poivre. Paris 1786
Ernouf, le Baron. - Le Général Kléber. Paris 1867
France, A. - Notice historique sur Vivant Denon. Paris 1890
Garçon, M. - Kléber (1753—1800). Paris 1936
Garnier. - Notice sur le général baron Delzons, avec note sur le général Destaing. Paris 1863
Lacour - Gayet, G. - Talleyrand (1754—1838). 3 vols. Paris 1930
Leroy - Dupré, Dr. - Larrey, chirurgien en chef de la Grande Armée. Paris 1860.
Lockroy, E. - Ahmed le Boucher, la Syrie et l'Egypte au dixhuitième siècle. Paris 1888
Lucas-Dubreton, J. - Kléber (1753—1800) Paris 1937
Mahan, A. T. - The Life of Nelson, the embodiment of the sea power of Great Britain. 2 vols. Boston 1897
Marion. - Notice nécrologique sur le lieutenant-général comte Andréossi. Paris. S. D.
Martha - Beker, F. Le général Desaix. Paris 1852
Oberny, Le D'.-Au Sueil de l'opopée. Episodes des Campagnes d'Egypte et de Syrie 1798—1801. Paris. S. D.
Pallary, P.- Documents concernant la vie et les oeuvres de Savigny. Bull. de l'Inst. d'Eg. XVI Session 1933—4
Rigault, G.- Le Général Abdallah Menou et la Derniére Phase de L'Expédition D'Egypte (1799—1801). Paris 1911
Southey, R. - The Life of Nelson. 3 vols. London 1853

٧ — مراجع عامة ودراسات خاصة

Abbate, W. - Bonaparte et l'Institut d'Egypte. Bull. de l'Inst. ég. 11[e] Série No. 10. Caire 1889
Ader, J-J, - Histoire de l'Expédition D'Egypte et de Syrie, Revue Pour Les Détails Stratégigues par M. Le Général Beauvais. Paris 1826
Artin, Y. - Institut égyptien. La propriété foncière en Egypte. Caire 1883
Aulard, F. A. - Histaire Palitique de la Révolution Française. Paris 1921.

—Paris pendant la Réaction thermidorienne et sous le Directoire. Collection de documents relatifs à l'histoire de Paris pendant la Révolution ... 5 vols. Paris 1898—1902.

Bachatly, Ch. - L'Administration de la justice en Egypte à La veille des reformes de l'an IX, d'aprés un document arabe inédit. Bull. de l'Inst. d' Eg. XVIII. 1935 - 6.

Bahgat, A. - Acte de mariage du général Abdallah Menou. Bull. de l'Inst ég. 3° série No. 9. Caire 1899.

—Le famille musulmane du général Abdallah Menou. Bull de l'Inst. ég. 4° série. No. 1. Anée 1900. Caire 1901.

Bainville, J. - L'expédition française en Egypte (1798—1801). Précis de l'histoire d'Egypte. III. Caire 1935.

Baudot, R. - Dominique Larrey et les campagnes de la Révolution et de l'Empire. Tours 1900.

Bonnal, E. - Histoire de Desaix. Armée du Rhin, Expédition d'Orient. Marengo, D'après les archives du Dépôt de la guerre. Paris 1881.

Bréhier, L. - L'Egypte De 1798 à 1900. Paris 1900.

Burgogne, S. - Egypt. Noval and Military Operations (1798—1802) London 1893.

Canivet, R. G. - L'Expédition d'Egypte: 1798—1801. La Commission des Sciences et des Arts. La Rev. inter. d'Egypte. III. No. 1 ; IV. Nos. 4—5. Caire 1906.

— L'Imprimerie de l'Expédition d'Egypte, les Journaux et les procès-verbaux de l'Institut (1798—1801). Bull. de l'Inst. ég. 5° série III. 1 er fasc. annés 1909.

Carré, J - M. - Voyageurs Et Écrivains Français En Egypte. 2 vols Caire 1932,

Champollion - Figeac. — Fourier Et Napoléon, L'Egypte Et les Cent Jours.Mémoires Et Documents Inédits. Paris 1844.

Charles-Roux, F.-L'Isthme Et Le Canal De Suez. 2 vols. Paris 1901

—Les Origines De l'Expédition d'Égypte. Paris 1910.

—Autour D'Une Route. L'Angleterre. L'Isthme De Suez Et L'Egypte Au XVIII° Siecle. Paris 1922.

—L'Angleterre Et l'Expédition française en Égypte 2 vols. Caire 1925.

—Bonaparte Gouverneur D'Egypte. Paris 1936

Cherfils, Christian - Bonaparte et l'Islam D'Aprés les Documents Français et Arabes. Préface du Cherif Abd EL-Hakim. Paris 1914

Chevalier, E. - Histoire de la Marine Française Sous la Primière République. Paris 1886

Combe, E. - l'Egypte Ottomane ... Précis de l'Histoire d'Egypte III. Caire 1933

—Les prétendus trésors de Bonaparte enfouis dans la baie d'Aboukir. Bull. de la Soc. Archéol. d'Alexandrie t. X. Alexandrie 1939

Debien, G.-Une Plantation de Sanit-Domingue-La sucrerie Galbaud du Fort. (1690—1802). Caire 1941

D'Estre, H.-Bonaparte. Le Mirage Oriental. Egypte (1789—1799) Paris 1946

Delacroix, D. - Bonaparte en Egypte (1798—1799). Paris 1899

Douin, G.-La Flotte de Bonaparte sur les côtes d'Egypte. Les Prodromes d'Aboukir. Caire 1922

—La Campagne de Bruix en Méditerranée (mars - août 1799) Paris 1923

—Le retour de Bonaparte d'Egypte en France. Bull. de l'Inst. d'Egypte. XXIII. Session 1940—1

Ducors, H. - Note sur le poignard qui tua Kléber. Bull. de l'Inst. d'Egypte VII. Session 1924—5

Dukay, P. - Les Français en Egypte. Paris 1933

Elgood, P. G. - Bonaparte's Adventure In Egypt. London 1936

Faivre, J. (Père). - Canope, Menouthis, Aboukir. Alexandrie 1917

Fortescue, J.-History of the British Army. (vol IV parts 1 and 2.) London 1899

Geiss, A. - Histoire de l'imprimerie en Egypte. Les imprimeries françaises, de 1798 à 1801. Bull. de l'Inst. ég. 5° serie I. fac. Année 1907

Ghorbal, Shafik. - The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. London 1928

Graviére E. de la. - Guerres maritimes sous la Pépulique et l'Empire (vol I) Paris 1853

Grenfell, Sir F. W. - Malta in 1798. Its Capture by Napoleon. (Mlta Tactical, Archeological and Scientific Societies) 1902.

Guemard, G. - Trois témoins de la Campagne d'Egypte - Lascaris et Corancez en Syrie, Jaubert en Perse (et le rêve oriental de Bonaparte). Bull. de l'Inst. d' Eg. VII. Session 1924—5

—Essai d'Histoire de l'Institut d'Egypte et de la Commission des Sciences et des Arts. Essai de Bibliographie critique de l'Institut d'Egypte et de la Comm. des Sciences et des Arts. Bull. de l'Inst d'Eg. VI. Session 1923—4; VIII. Session 1925—6.

—Les Auxiliaires de l'armée de Bonaparte en Egypte (1798—1801). Bull. de l'Inst. d'Eg. IX. Session 1926—7.

—Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts de l'Institut d'Egypte. Caire 1936.

— Une oeuvre française. Les réformes en Egypte (d'Ali Bey el Kébir à Méhémet-Ali) 1769 — 1848. Caire 1936

Guérin, J. - Histoire maritime de France. 6 vols. Paris 1859—63

Hanotaux, G. - Histoire de la nation égyptienne. Ouvrage publié sous les auspices et le haut patronage de sa Majesté Fouad 1er, roi d'Egypte. t V. Paris. S. D.

Haye, A. de.— Desaix, Étude politque et militaire... Paris 1909.

Homsy, G.—Le général Jacob et l'expedition de Bonaparte en Egypte (1798 - 1801). Marseilles 1921.

Hoskins, H. L. — British Routes to India. London 1928.

Iconographie de Kléber. Revue d'Egypte II. Caire 1896.

James, W.-The Naval History of Great Britain. 2 vols. London 1886.

Jehan D'Ivry. (Mme Fahmy Bey). Bonaparte et l'Égypte. Paris 1914.

Jonquière, A. de la. — Histoire De l'Empire Ottoman. Paris 1881.

Lammens, H. - La Syrie. Précis Historique. 2 vols. Beyrouth 1921

Langlois, Ch. — Explication du Panorama De La Bataille Des Pyramides. Paris 1853.

Legrains, G. — Les Soldats lettrés de Bonaparte. Histoire de la Commission des Arts et des Sciences de l'Expédition française en Egypte. Caire 1913.

—La maison d'Ibrahim el-Sennari au Caire. Bull. de l'Inst. ég 5° Série VII. 1 er fasc. année 1913.

Lenôtre, G. — L'Institut d'Egypte. Bull. de l'Inst. d'Eg. XV. session 1932—3.

Limousin, L. - Bonaparte et l'armée noire. La Révue ég. 1 re année No. 7. Caire 1912.

Lokke, C. L. — France and the Colonail Question. A study of Contemporary French Opinion (1762—1801). New York 1932.

Macdonald, J. R. M. - The Thermidorian Reaction and the End of The Convention. Cambridge Mod. History. VIII. 372 — 97.

Madelin, L. - L'ascension de Bonaparte. Paris 1937.

Mahan, A. T. — The Influence of Sea Power upon the French Révolution. vol I. London 1893.

Malleson, G. B.—Final French Struggles in India.. With an Appendix Containing an Account of the Expedition from India to Egypt in 1801. London 1884.

Marmottan, P. — Le général Menou en Toscane. Carnet de la Sabretache. 2° serie. Premier Volume. Paris 1903.

(Meurthe). Boulay de la Meurthe-Bourienne et Ses Erreurs (2 vols). Paris 1830

—Le Directoire et l'Expédition d'Égypte. Études sur les tentatives du Directoire pour communiquer avec Bonaparte le secourir et le ramener. Paris 1885.

Munier, J. - La Presse en Égypte (1799—1900). Notes et Souvenirs. Caire 1930.

Nel, (Com.)- La préparation de l'Expédition d'Égypte à Toulon. Le départ de Bonaparte (5 mars—20 mai 1798). Toulon 1933.

Pallary, P. - Les sources d'informatiom concernant les savants et artistes de l'Expédition d'Egypte. Bull. de l'Inst d'Egypte XV. session 1932 - 3.

Paton, A. A. — A History of the Egyptian Revolution. 2 vols. London 1870

Prétot, P. L. - Reconnaisance de l'isthme et du canal de Suez, par le général Bonaparte, et établissement des Français sous sa conduite sur divers points de cette contrée en 1798 et 1799. Paris 1860

Ramadan, A. M. S. - Evolution de la Législation sur la Presse en Egypte. Alexandrie 1936.

Régny - Bey. - L'Ancien Institut d'Egypte, Son histoire, son organisation économique, ses travaux. Bull. de l'Inst. d' Eg. 1866—69 No. 10 séance 24 mai 1867.

Rigault, G. - Inventaire des états de ervices des officiers de l'Armée d'Egypte. Paris 1911

Roberts, S. H. - History of French Colonial Policy 1870 - 1925. 2 vols London 1929

Rose, J. H. - The Egyptian Expedition. Cambridge Mod. History VII. 594—619.

Saintoyant, J. - La Colonisation française Sous l'Ancien Régime. 2 vols. Paris 1929

Thibaudeau. - Histoire de la Campagne D'Egypte sous le Règne de Napoléon le Grand. 2 vols. Paris 1839

Sorel, A, - L'Europe et la Révolution Française. t VI. Paris 1885 - 95

Thiers, M. A - Histoire du Consulat et de L'Empire. Faisant suite à L' Histoire de la Révolution Française. t. II, III. Paris 1845

—Histoire de la Révolution française. t X. Paris 1824—7

Traire, P. - Dominique Larrey et les campagnes de la Révolution et de l'Empire, 1768—1842. Etude historique aux XVIII[e] et XIX[e] Siècles d'aprés des documents inédits ... Tours 1902

Wadström, C. B. - Précis Sur l'établissement des Colonies de Sierra Léone et Boulama. Paris 1798

Weill G. - Le Journal. Origines, Evolution et Rôle de la Presse Periodique. Paris 1934

Wilson, H. W. - The Struggle For the Mediterranean. Cambridge Mod. History VIII 620 - 632

٨ – المراجع العربية

ابراهيم جلال — من يوميات الجبرتى · القاهرة ١٩٥٢

ابراهيم عبده (الدكتور) — تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية . ١٧٩٨ — ١٨٠١ . القاهرة ١٩٤١ وطبعة ثانية ١٩٥٠

— تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ — ١٩٥١ · القاهرة ١٩٥١ ·

أحمد الميهى ومحمد على البيلاوى — فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية (خمسة أجزاء) . المطبعة العثمانية بمصر ١٣٠٥ — ١٣٠٨ هجرية ·

اسماعيل سرهنك — حقائق الأخبار عن دول البحار (٣ أجزاء) بولاق مصر ١٣١٢ هـ.

خليل شيبوب — عبد الرحمن الجبرتى . القاهرة ١٩٤٨ ·

رفاعة رافع الطهطاوى — تخليص الإبريز فى تلخيص باريز . القاهرة ١٣٢٣ هجرية .

عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم الجبرتى (الشيخ) — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . القاهرة ١٣٢٢ هجرية .

عبد الرحمن الرافعى — تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر (الجزءان الأول والثانى) القاهرة ١٩٢٩ .

على مبارك — الخطط التوفيقية (عشرون جزءاً فى خمسة مجلدات) بولاق ١٣٠٦ هجرية ·

فيليب دى طرازى (الكونت) — تاريخ الصحافة العربية (٤ أجزاء) — بيروت ١٩١٣

لجنة التاريخ القبطى — الجنرال يعقوب واستقلال مصر · مطبعة التوفيق بمصر ١٩٣٥ ·

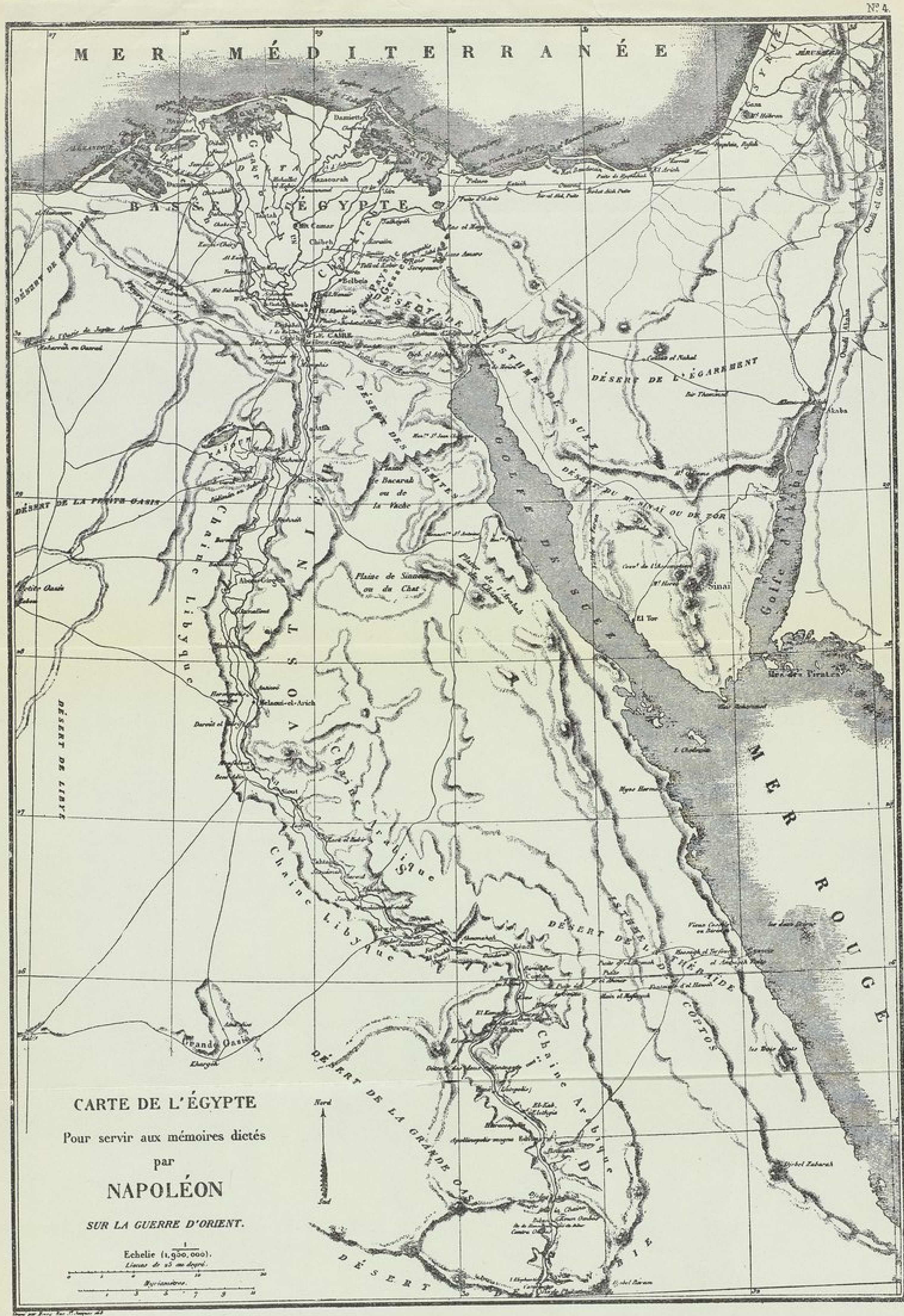
محمد شفيق غربال — الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ · القاهرة ١٩٣٢

— مصر عند مفترق الطرق. ١٧٩٨ — ١٨٠١ (المقالة الأولى) ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندى أحد أفندية الروزنامة فى عهد الحملة الفرنسية · (مجلة كلية الآداب المجلد الرابع الجزء الأول) القاهرة ١٩٣٦ .

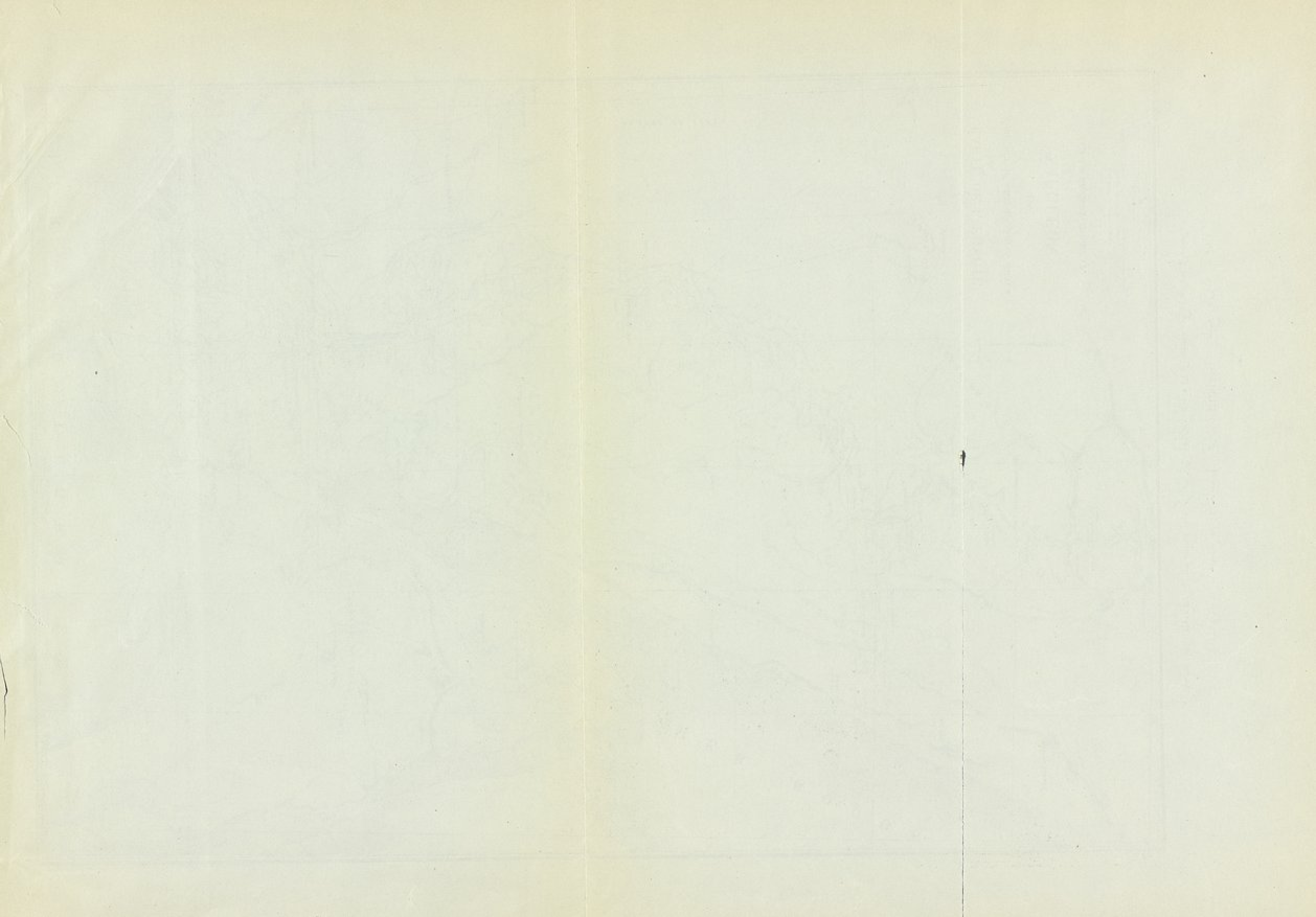
محمد فؤاد شكرى (الدكتور) — الحملة الفرنسية وظهور محمد على . القاهرة ١٩٤٢ ·

محمد مختار — التوقيعات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية · بولاق ١٣١١

نقولا الترك (معلم) — ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية . طبع فى مدينة باريز المحمية (١٨٣٩) ·



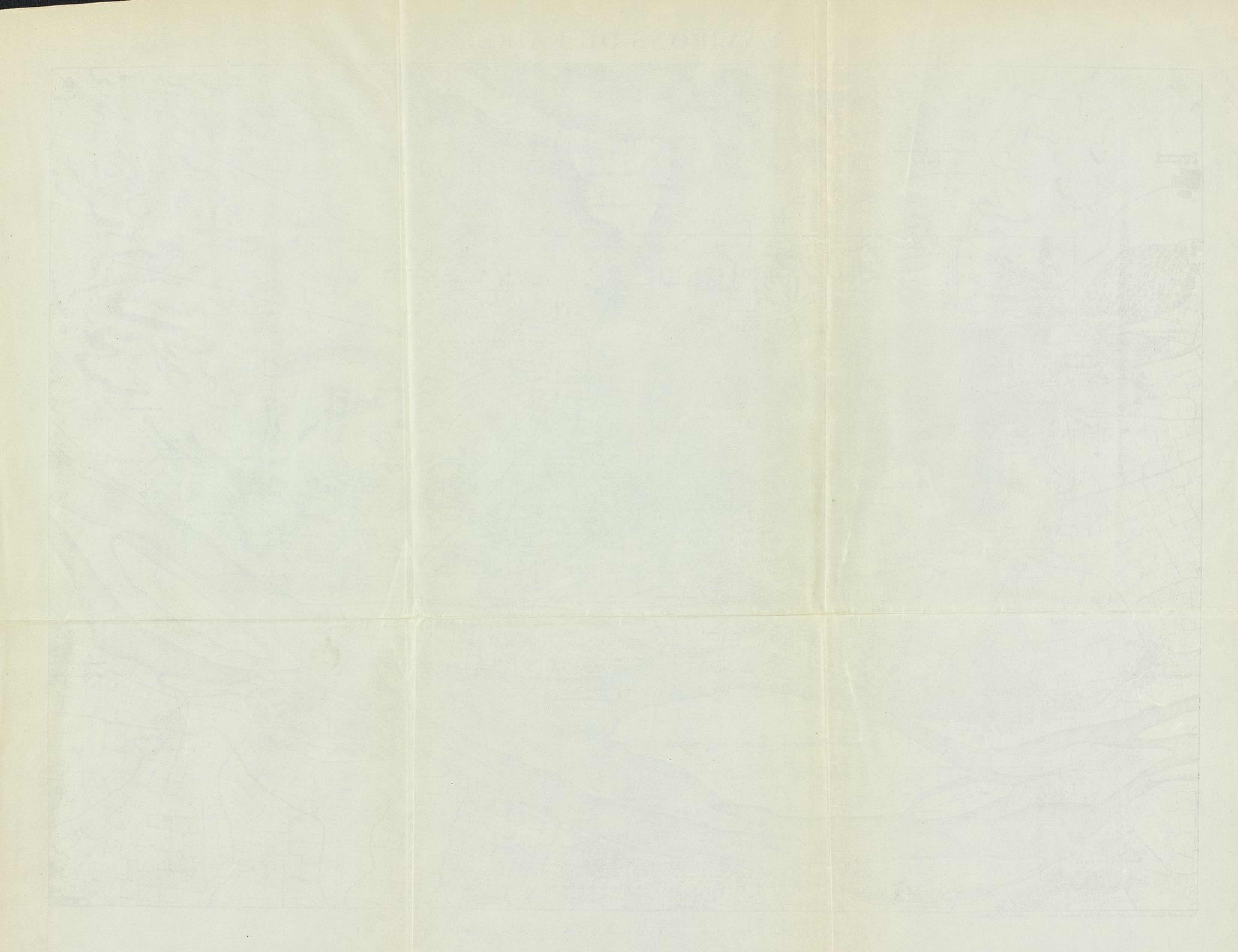
١ — خريطة مصر : لتوضيح المذكرات التى أملاها نابليون فى منفاه عن الحرب فى مصر
والشام — مأخوذة من كتاب (برتران) Bertand . طبع باريس ١٨٤٧

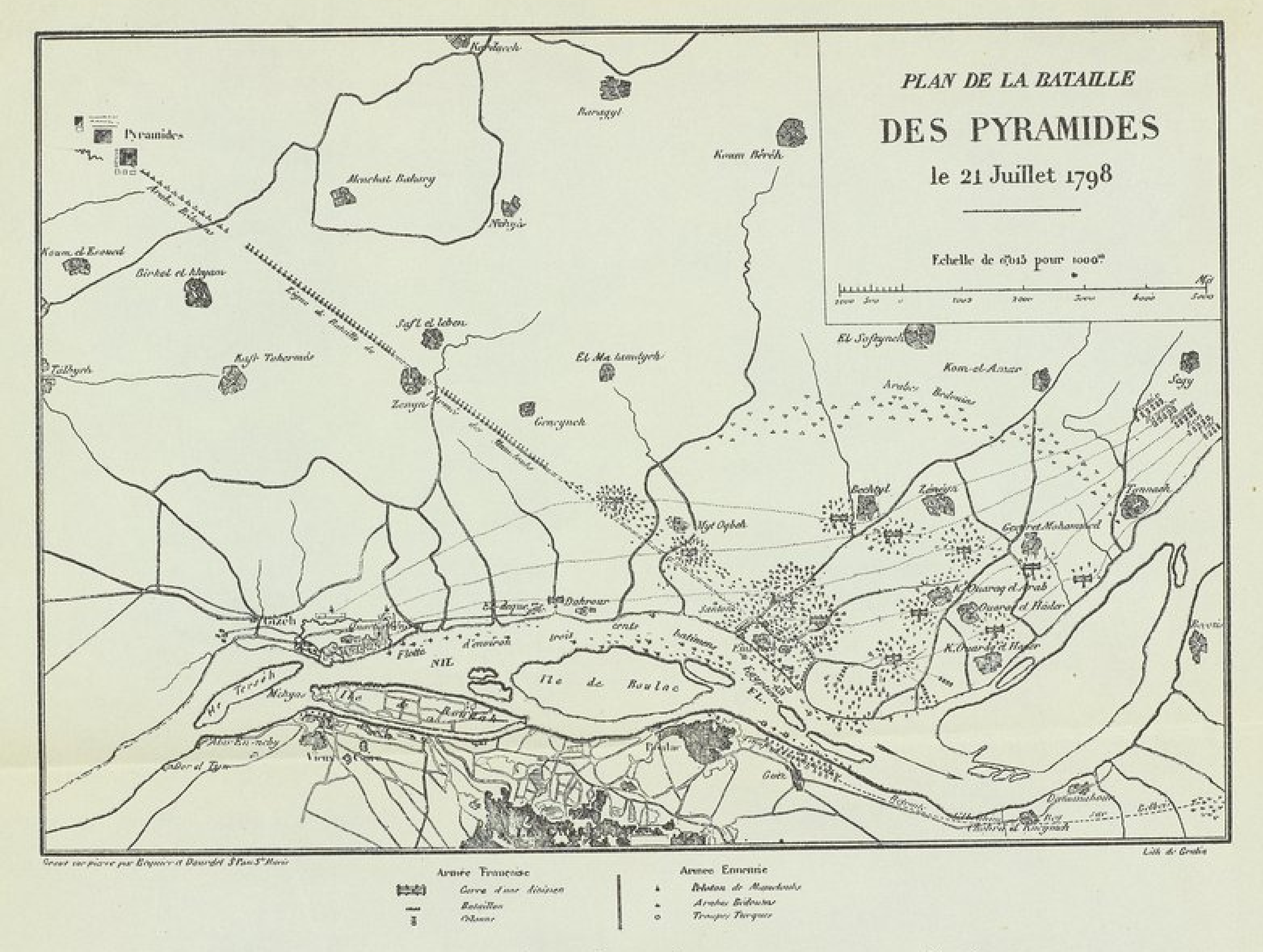


ENVIRONS DU KAIRE.

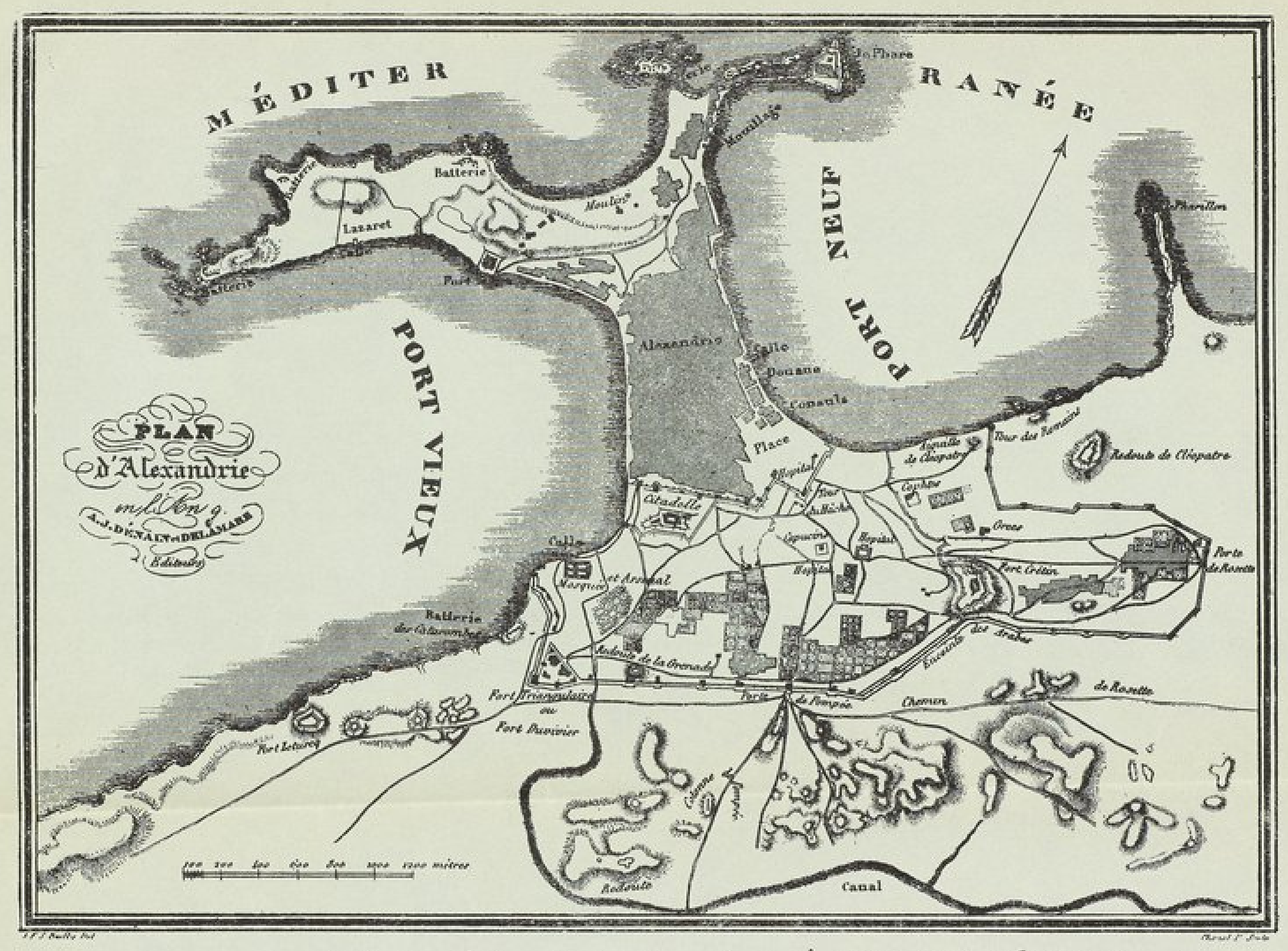


٢ — خريطة القاهرة وضواحيها : رسم علماء الحملة جاكوتان ، سيمونل ، لاتويل ، جومار ، برتر ، ليسين ؛ وبإشراف جاكوتان

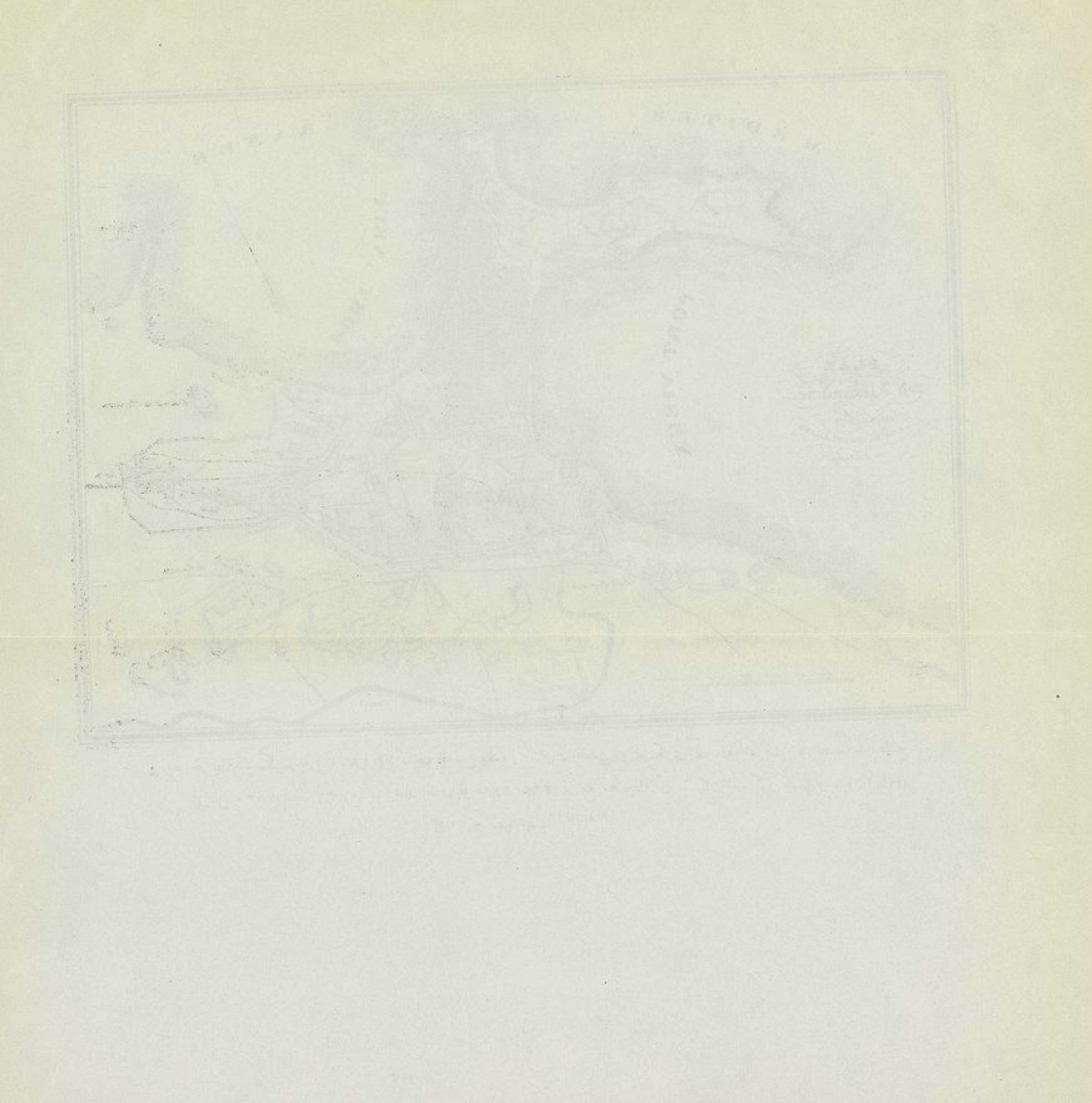


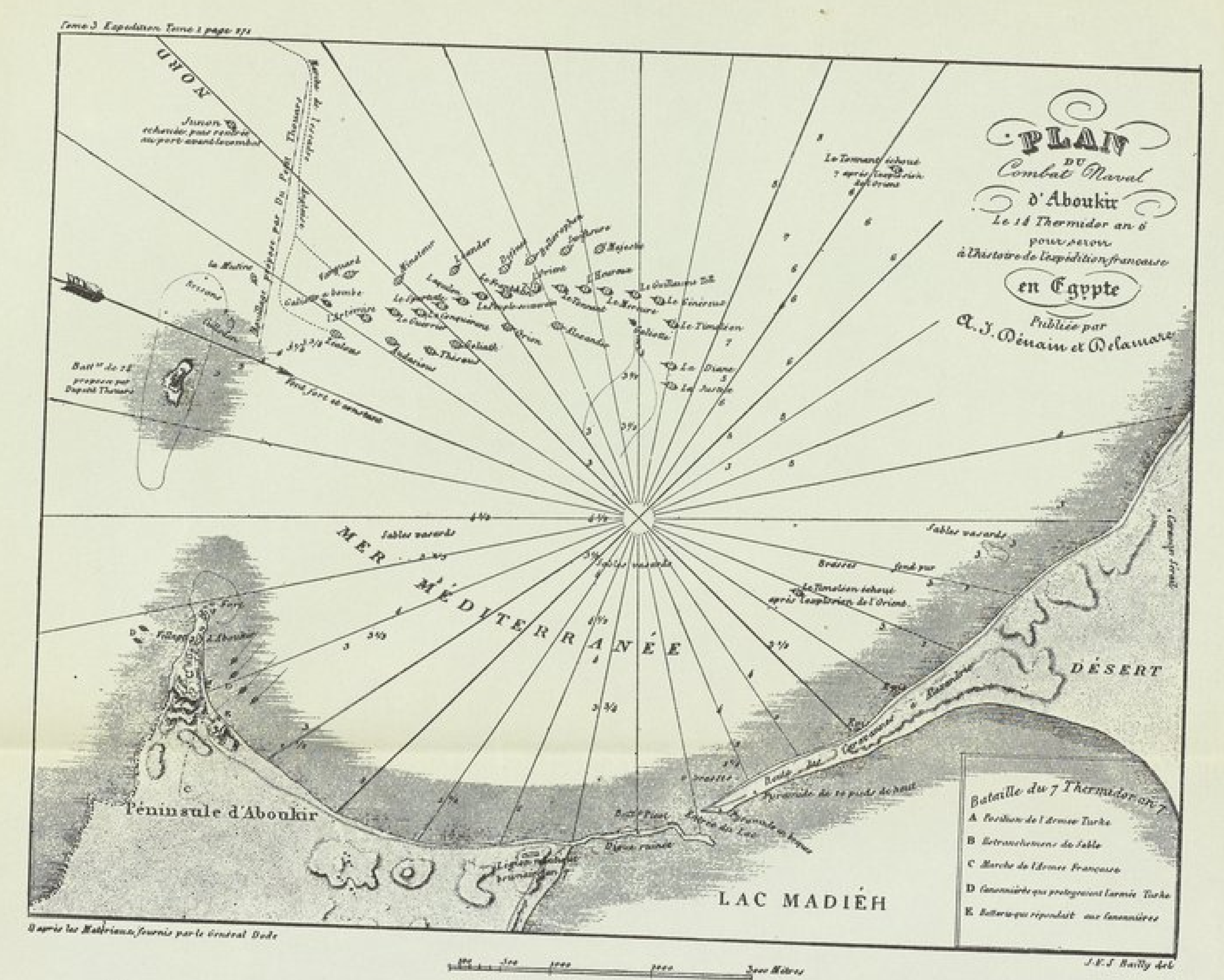


٣ — خريطة معركة الأهرام فى ٢١ يوليو ١٧٩٨ : مأخوذة من كتاب الكولونيل شارل لاجلوا عن هذه المعركة — طبع باريس ١٨٥٣ . الرقم (١) لبيان مواقع أقسام جيش الفرنسيين الخمسة الزاحفة لاختراق قلب جيش المماليك ، وقت هجوم هؤلاء على الفرنسيين . الرقم (٢) لبيان مواقع هذه الأقسام نفسها ، وقت إحاطة المماليك بقسمى الجنرالين ديزيه ورينييه . الرقم (٣) لبيان مواقعها وقت هجوم قسم الجنرال بون على قرية إمبابه . الرقم (٤) لبيان مواقع أقسام جيش الفرنسيين وقت انتهاء المعركة .



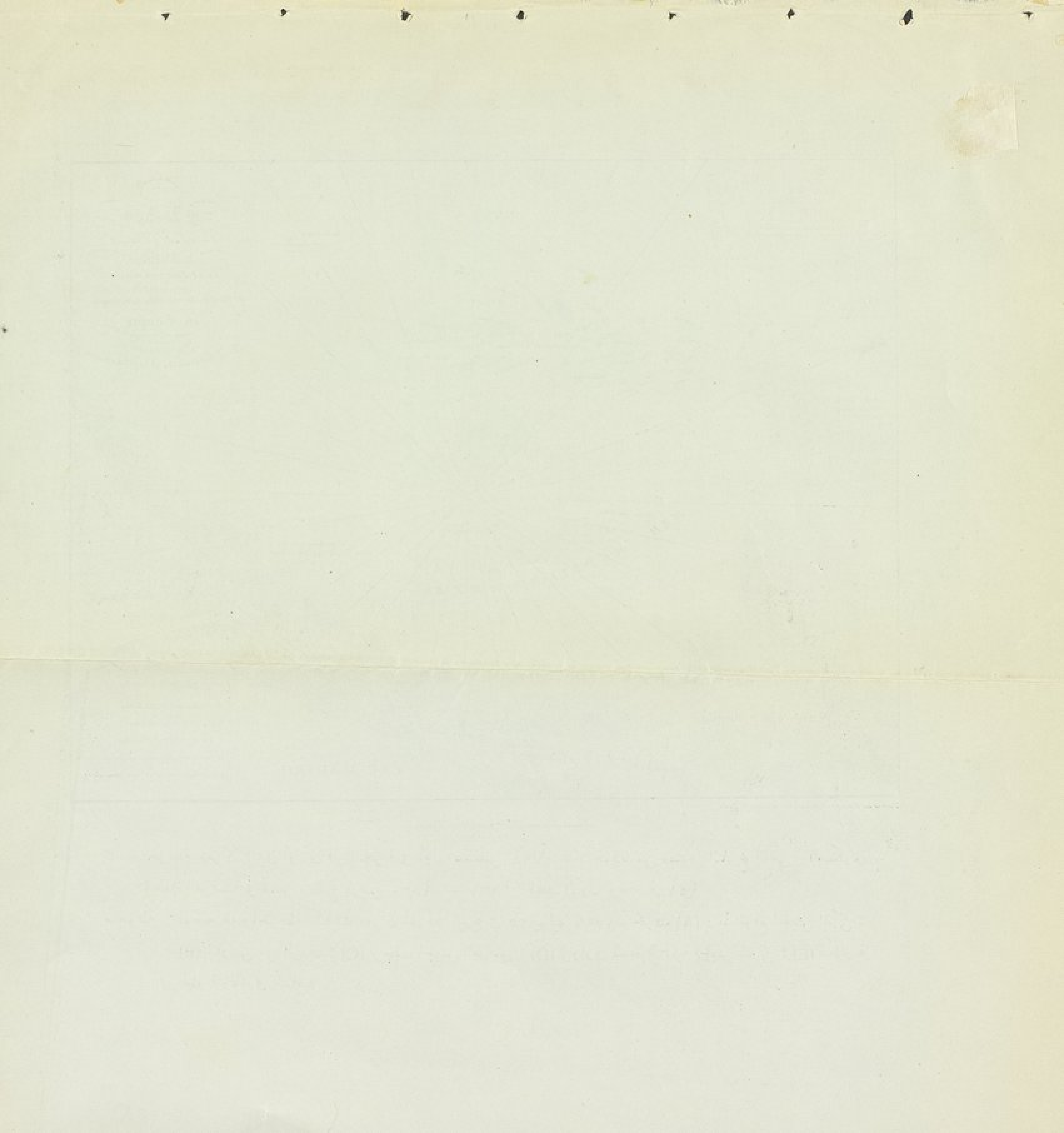
٤ — خريطة الإسكندرية (١٨٠١) : مأخوذة من مصور التاريخ العلمى والعسكرى للحملة الفرنسية فى مصر — طبع باريس ١٨٣٠ — ١٨٣١ ، المجلد الثانى لوحة رقم ٢٦٥ . مع ملاحظة أن المكان المذكور باسم برج (Hâche) صحته برج الكاشف (Kâchef)

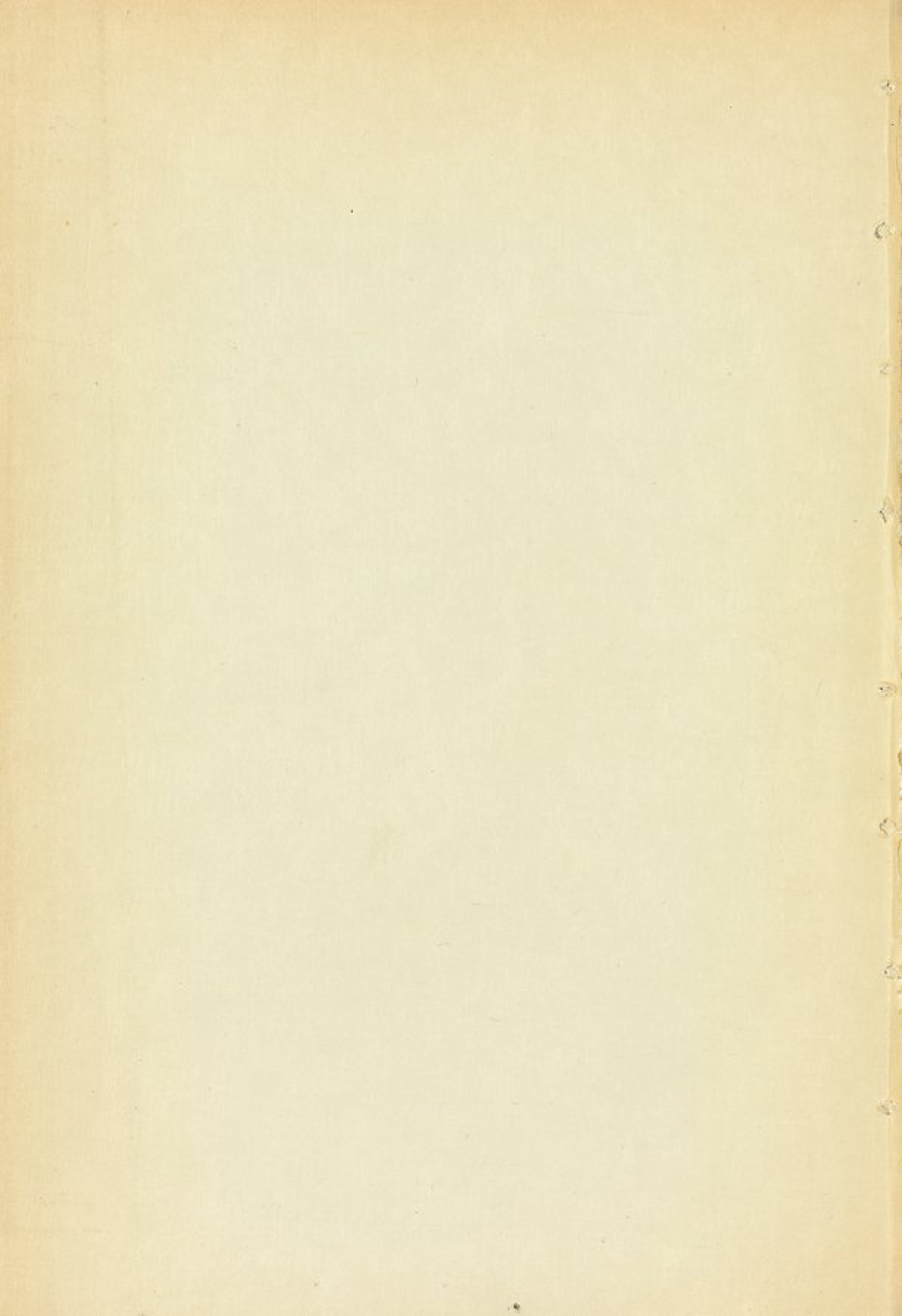


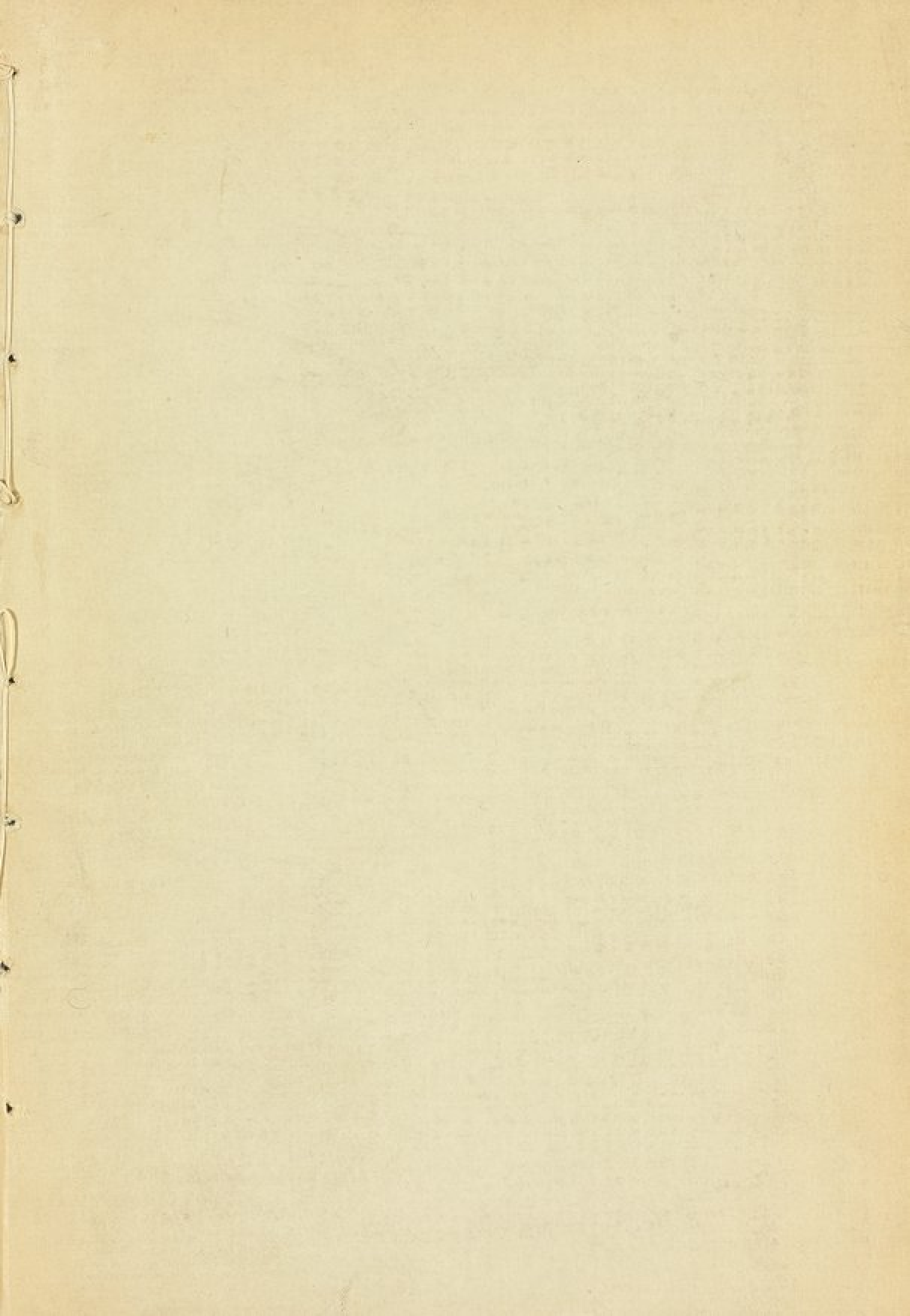


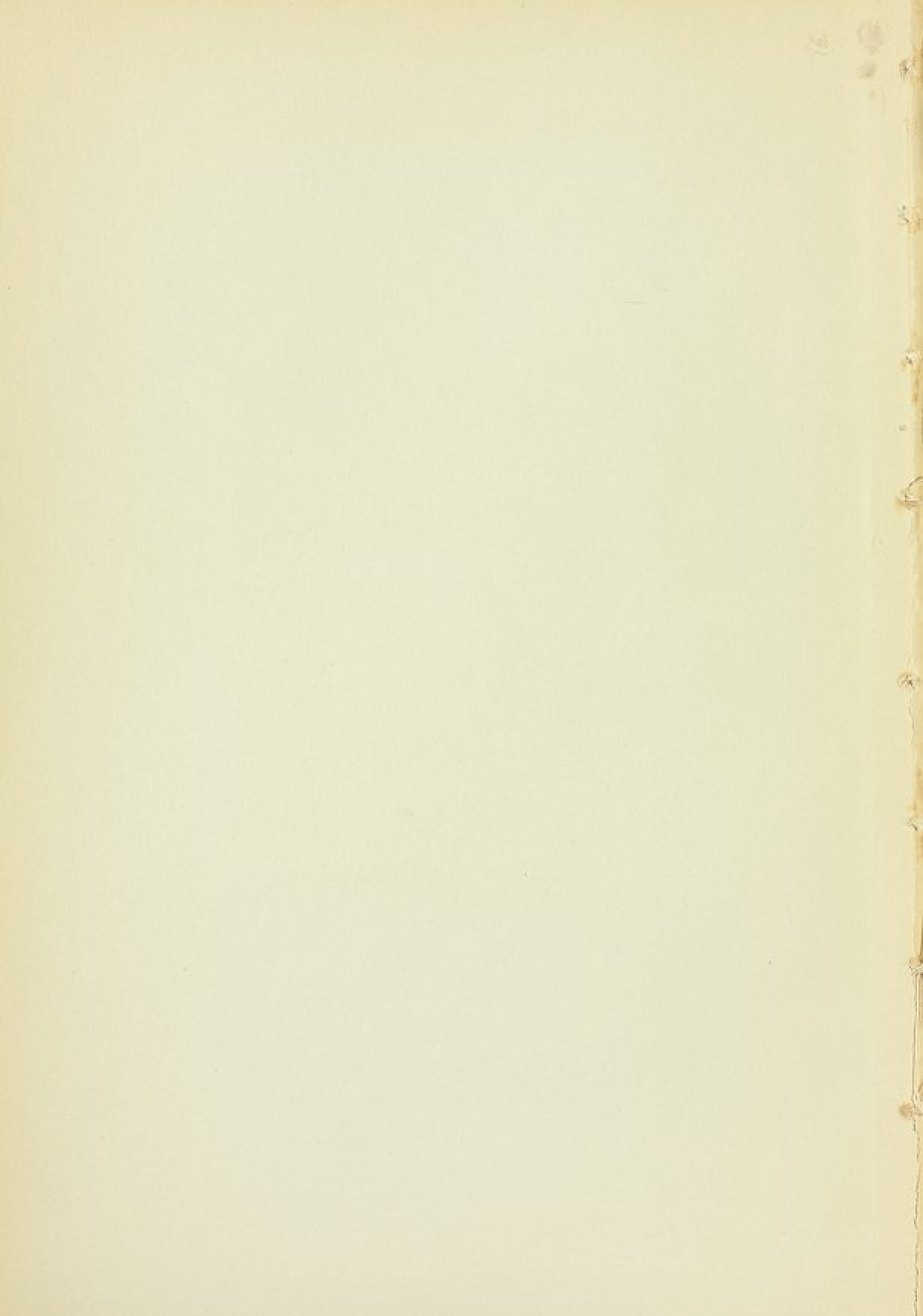
٥ – خريطة معركة النيل أو أبى قير البحرية فى أول أغسطس ١٧٩٨ : مأخوذة من مصور التاريخ العلمى والعسكرى للحملة الفرنسية فى مصر ، طبع باريس ١٨٣٠ – ١٨٣١ . المجلد الأول لوحة رقم ١٥١ .

ملحوظة : توضح هذه الخريطة كذلك معركة أبى قير البرية فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩ . لحرف (A) يرمز لموقع الجيش التركى ؛ (B) لمتاريس من الرمال ؛ (C) لزحف الجيش الفرنسى ؛ (D) لزوارق مدفعية لحماية الجيش التركى ؛ (E) لبطارية لمجاوبة زوارق المدفعية .

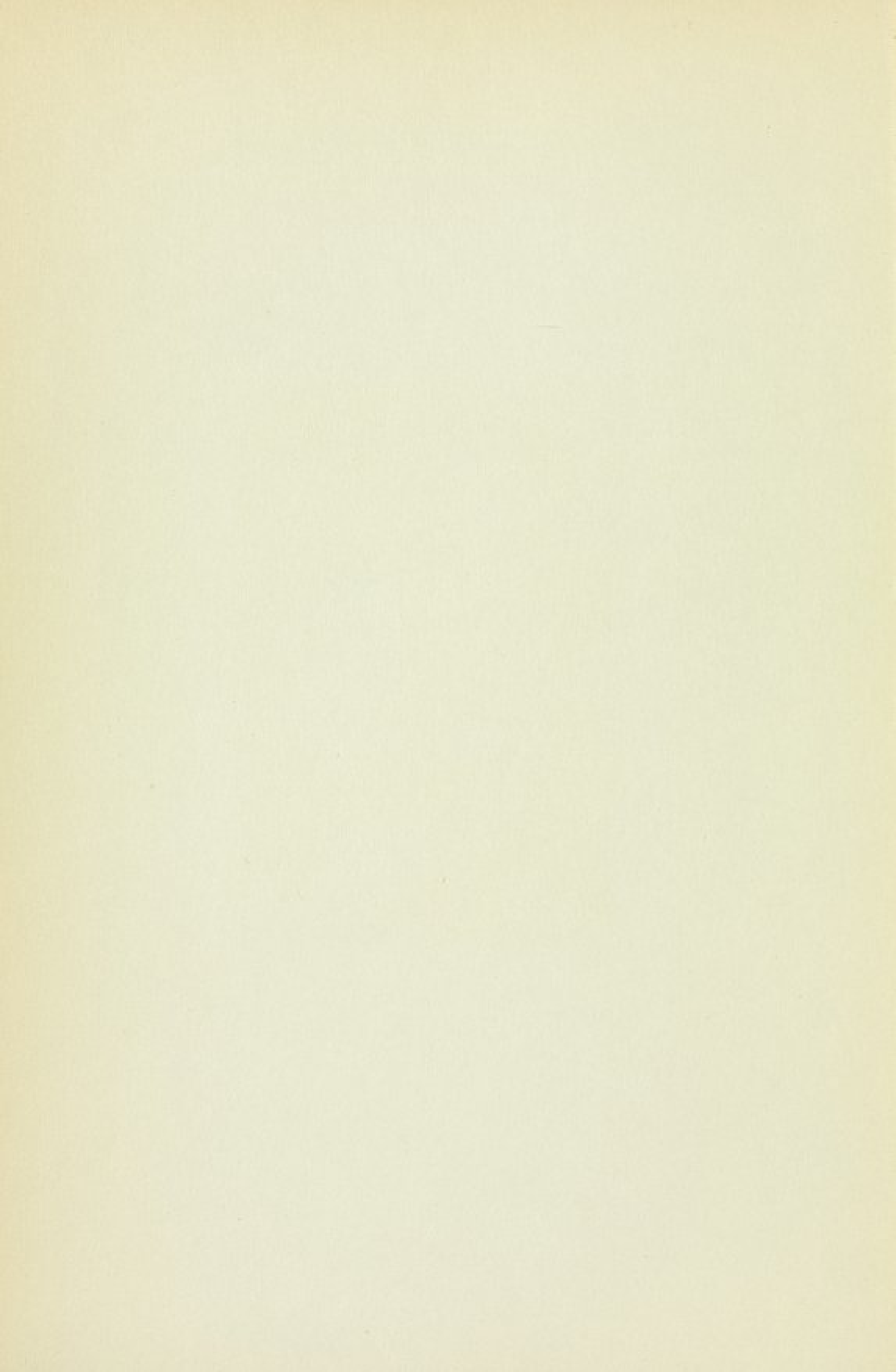


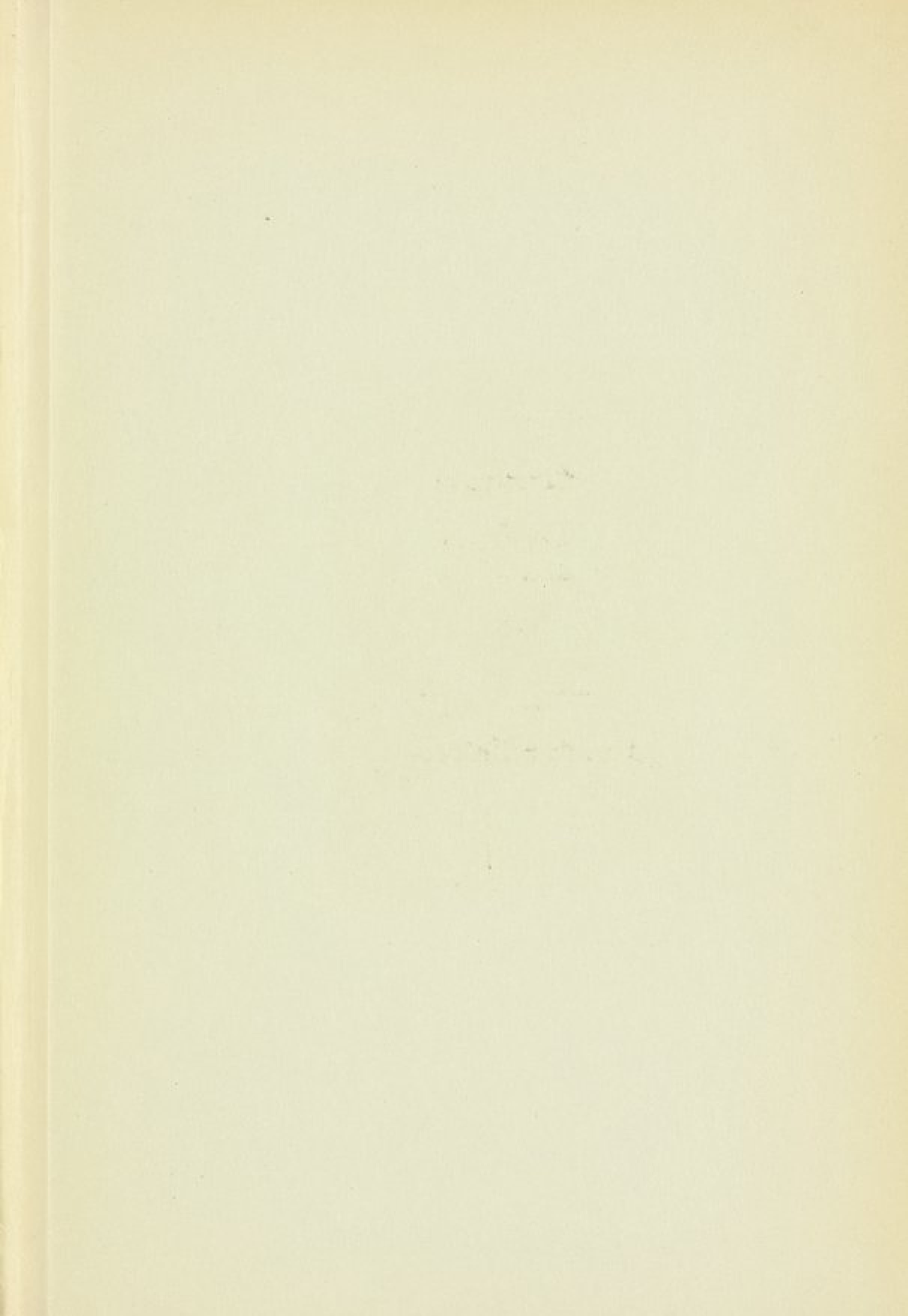














Princeton University Library
32101 072235219